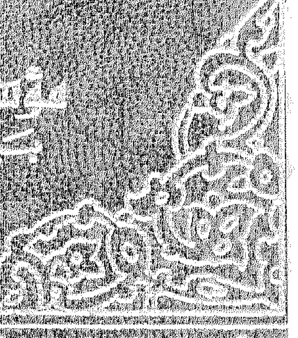
جواهر الأدب

في

أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف

السيد أحمد الهاشمي





جواهر الأدب

في

أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف
المرحوم السيد أحمد الهاشمي



طبعة جديدة محققة ومنقحة

اشرفت على تحقيقه وتصحيحه
لجنة من الجامعيين

الجزء الاول

منشورات
مؤسسة المعارف
بيروت

مقدمة

كان أبرز الأهداف المنشودة من « تأسيس الدار » أن تكرس جهودها لخدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا . فوقفت طاقتها على تحقيق كنوز التراث العربي القديم ونشر ذخائره ، كلما أمكنتها الفرص ، وساعفتها الظروف . بيد ان مهمة التحقيق بانت عسيرة أول الأمر ، لولا أن ذللتها عقول نيّرة ، وإرادات خيّرة ، وتضحيات كبيرة قام بها رجال أبوا إلا التواضع ، فلم يشاؤوا حتى التنويه بخدماتهم الجليلة ، أو الإشارة بجهودهم المشكورة .

وقد وقعنا في الطبعة الأولى من كتاب « جواهر الأدب » على أخطاء لغوية ننزّه مصنّف الكتاب الجليل عن الوقوع في مثلها ، وعلى أخرى مطبعية لا يجوز أن ترد في كتاب قيّم له مثل هذا المقام الرفيع بين أمهات المنتخبات ومراجع الأدب . وحزّ في نفسنا أن تظل الطبعة المتداولة من هذا السِّفْر يشينها عدم الضبط في العديد من المواضع ، وتحفل بالعواقب المترتبة على عَجَلة منضد الحروف في المطبعة ، فاستخرنا الله ، وقررنا الاضطلاع بدفع الكتاب الى لجنة من المحققين الذين حرصوا ، بقدر ما يحرص إنسان ، على الدقة في تحري النصّ ، والتدقيق في إخراجه مطبوعاً في حلة زاهية .

والحق ، اننا شعرنا بالحرج من عبء المهمة أول الأمر ، لكن اعتزازنا بالكتاب والنصوص الثمينة التي يحويها بين دفتيه ، واعتبارنا الأدب العربي مِلكاً قمين بالاعتراف منه كل ناطق بالضاد ، وما آليناه على انفسنا من خيرة الله في عدم التفريط بتراثنا الغالي – كل ذلك دفعنا الى مواجهة المشكلة عاملين ما استطعنا على أن نتحاشى الأخطاء التي وقع فيها السابقون ، ومعترفين مع ذلك بأن النقص مجبول عليه الانسان ، فالكمال لله وحده .

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

أحلى ما سجعتْ بهِ بلابلُ الأقلام ، وأغلى ما انتظمتْ فيه عقودُ البلاغةِ والانْسجام ، وأشهى ما ينعت بهِ (جَواهر الأدب) حمدُ مولانا الذي شرَّف لغة العرب ، وأرسل لنا نبيّاً عربيّاً منزهاً عن جميع الرِّيَبِ ، سيدنا محمداً ﷺ وعلى آله ومَنْ صَحب .

(أمَّا بَعْدُ) فهذا كتابٌ سمَّيتُهُ « جَوَاهرَ الأدب ، في أدبيَّات لُغة العرَب » أودَعتُه ما وقع عليه اختياري ، لا مِن نثري وأشعاري ، فليس لي في تأليفه مِن الافتخار ، أكثرُ من الاختيار ، واختيارُ المرء قِطْعةٌ من عقله ، تدلّ على تخلُّقهِ وفضله ، وفضيلةُ هذا التأليف هي في جمع ما افترق ، مما تَناسَبَ واتَّسَق ، واختيار عيون ، وترتيب فُنون ، مِن أحاديثَ نبوية ، ومكاتبات أدبيّة ، وحِكَمٍ باهِرةٍ ، وأبياتٍ نادرة ، وأمثال شاردة ، وأخبار واردةٍ ، ووَصايا نافعة ، ومَواعظَ جامعة ، ومُناظرات مُستظرفة ، ومَقامات مُستطرفة ، وأوصافٍ عَليَّةٍ ، وخُطَبٍ اجتماعية ، لينتفعَ به مقتنيهِ ، ويستغني عن غيره الرَّاغبُ فيه ؛ إذْ كان أحسَنَ من الزهر والرياض ، والحدائق والغياض ، والزبرجد والمرجان ، والدُّر والعقيان ، والأكاليلِ والتِّيجان ، والنزه والبُسْتان ، إن دُعي أسرع ، وإن تحَدَّثَ أمتع ، وإن سُئل أجاب ، وإن حكم أصاب ، جليس لصاحبه في الحضر ، وأنيس له في السفر ، نديم ظريف ، وسَمير حصيف ، بالغتُ في تهذيبه ، وبذلت مجهوداً في حسن ترتيبه ، وأجزلت التُّحفة ، وانتقيت الطرفة ، وبالله نستعين ، وَهُوَ حسبنا ونعم الوَكيل .

المؤلف

السيد أحمد الهاشمي

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الأدب

١ — كتب إليَّ صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوي ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علَّم بالقلم ،علَّم الإنسان ما لم يعلم ،والصلاة والسلام على أفصح العرب ،وعلى آله وصحبهِ الذين انتهجوا منهج الأدب «أما بعد» فقد اطلعت على الكتاب المسمَّى «بجواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب» لمؤلفه الألمعي ولدنا الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمي ، فألفَيتهُ مشتملاً على فن الإنشاء والأمثال وافياً بالمقصود واسع المجال ، صحيح العبارة واضح الإشارة ، نافعاً في بابه ، مفيداً لمطالعيه وطلابه . نفع الله بهِ وبمؤلفه ومحبيه ، بجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .

كتبه حسونه النواوي

٢ — وكتب إليَّ أستاذي الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله ،وعلى آله وصحبهِ ومن اتبعه فوالاه « وبعد » فقد اطَّلعت على مجموع كتاب (جواهر الأدب) المنتخب من حدائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا بأس بها ، وافياً بما تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أزهرت روضات حسن وأثمرت فأضحت وعُجْم الطيّر فيها تغرّد

فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ ما يحتذون حذوه ، وينسجون على منواله ، حتى لا تستعصي عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعَيدَ أن يصل من يحاول (صناعة الإنشاء) إلى ما يرضى منه بدون أن يرد الطرف في كثير من كلام الفصحاء ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشيء عظيم من أساليب الكتاب حتى يتشبّع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة عن مجموع صورهم ،

ولم يكن فيما بين أيديهم من الكتب ما يفي لهم بهذا الغرض ، حتى وفق حضرة ولدنا الأستاذ (الهاشمي) لسدّ هذه الثّلمة بما كابده من التعليم زمناً كبيراً — ولا بدع فخير الأطباء من عرف حقيقة الداء،فيصف له أنجع الدواء. ولقد عرف هذا الأستاذ العصامي حاجةالعصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أسلوب عصري يلائم أذواق بني العصر من معلّمين ومتعلمين ، فإذا حاول أهل العلم والتعليم أن يشكروا له صنيعه فقد حاولوا عظيما وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أن يقوم بشكره عمله ، فالعمل أعرف شيء بجميل عامله ، وفقنا الله وإياه ، لما يحبّه ويرضاه ، وأسأله أن ينفع به الطلاب ، ويجزل فيه الثواب . محمد عبده

٣ - وكتب شيخ الاسلام صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنشأ العالم على أبدع مثال، ونظم أحواله بمعارف أرباب العلوم حتى بلغ حدّ الكمال ، ونثر عجائب المعارف في أرجائه ، وغرائب العوارف في أنحائه،والصلاةوالسلام على ينبوع العلم و«جواهر الأدب»سيدنا ونبينا محمدأشرف مخلوق في العجم والعرب،وعلى آله وصحبه ذوي المناصب والرُّتب«أما بعد»فقد تناولت كتاب « جواهر الأدب في لغة العرب » كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضتُه كما يفض الرحيق المختوم ، واطّلعت عليه فوجدتُه حوى من المباني أدقها، ومن المعاني أرقها ، ومن النثر أعلاه ، ومن النظم أحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتززت لعنوانه؛إذ قد جمع فيه الأجناس ومما لا يستحيل الانعكاس ماأدهش قاطبة الناس،فلو شامه (البهائي) قبل تأليف(مخلاته و كشكوله) لاعترف لهذا المؤلف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعي ، الإمام ولدنا السيد أحمد الهاشمي — أكثر الله من أمثاله بجاه النبي وآله . كتبه سليم البشري

٤ — وكتب إليّ فضيلة أستاذي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول بوزارة المعارف العمومية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

أي بنيّ الجهبذ النحرير والفذّ العبقري (السيد أحمد الهاشمي) قد تصفّحت مجموعتك المختارة التي أسميتها (جواهر الادب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فإذا هي دائرة معارف كبرى لا يستغني عنها أديب، كلها صحاح وعلم صراح:

وما عسى أن يقال في وصف صحاح الجوهري

إي وربّي إنه لكتاب صرّح على المحض زبده، وأسفر عن الأدب، فلم تتلفّع بفضل مئزرها دعد، وانفردت سطوره عن فضل اختيار، وتعرى ليل عن بياض نهار، جلاه الفرناس، على صفحات القرطاس.

اختار في كتابه هذا من منتخبات الكتاب والشعراء ما يشفي الغلة، ويروي الصّدى، ولقد أتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أبوابها، وميز أبكارها من أترابها، وأهدى إلى هؤلاء الشادين كلاماً يلطف كالهواء رقة، ويسيل كالماء عذوبة، يمتزج بالنفوس لنفاسته، ويشرب بالقلوب لسلاسته:

أحاديث لو صيغت لألهت بحسنها عن الوشي أو شُمّت لأغنت عن المسك

«وبعد» فإن سنن مؤلفك العظيم القويم، ما مني بشين، فخشيت عليه العين. وما أطيب الخزامى في قول بعض القدامى:

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين

كيف لا، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيداً يفلّ الحز، ويطبق المفصل، له حلى من البلاغة يتقلّدها، فيكاد السحر يحسدها، يدل عليه بيانهُ، كما يدلّ على الجواد عنانه فمن عرفهُ فقد اكتفى — ومن قصر فلينشد:

قد عرفناك باختيارك إذ كا ن دليلاً على اللبيب اختياره

فما أجدر كتابه أن يختص بسرعة الجال في المجالس، وخفة المدار في المدارس بل إن (هذا الكتاب يهدى للتي هي أقوم) جزى الله مؤلفهُ خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة، وأكثر في الأمة من أمثاله، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال.

كتبه الفقير إليه جل شأنه في ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١٨ هـ حمزة فتح الله.

٥ — و كتب إليّ صديقي المرحوم حسن افندي توفيق العدل المدرس بكلية (كمبردج) .

عزيزي حضرة الاستاذ الفاضل السيد احمد الهاشمي

تشرفت بكتابك المسمى (جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فوجدت بين اسمه ومسماه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم . فما أنفس فرائده ، وأثمن فوائده ، وأفصح مقاله ، وأفسح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، وروية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ، فأكرم بهِ من كتاب (جواهر) تكونت من ألفاظ عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ،فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ،إذا تدبّره الأديب أغنته تلك الأفانين ،عن نغمات القوانين وإذا تأمله الأريب نزّه طرفهُ رياض البساتين ، قد سوّر على كل فنّ من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب ؛ والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب . حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً مؤلف هذا الكتاب :

كتابك هذا يا أستاذ « فضل ونعمة » .

« ذلك فضل الله يؤتيهِ من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب أُلف في اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة .

« ومن يُؤْتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

كتبه : سعد زغلول

إليكم معشر الكتاب

أمَّا بعد ــ حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم فإن الله عزَّ وجلَّ جعل الناسَ بعدَ الأنبياء والمرسلين صلواتُ الله وسلامه عليهم أجمعين، ومن بعد المُلوك المكرَّمين أصنافاً وإن كانوا في الحقيقة سواءً، وصرَّفهم في صُنوف الصناعات وضُروب المحاولات إلى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم. فجعلكم معشرَ الكُتَّاب في أشرف الجهات أهلَ الأدب والمروءة والعلم والرِّواية. بكم تَنتظِم للخلافة محاسِنها، وتستَقيمُ أمورُها، وبنصائحكم يُصلح الله للخلق سُلطانهم، ويَعمُرُ بُلدانَهم. لا يستغني الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلاَّ منكم. فموقعكمُ من الملوك موقعُ أسماعهم التي بها يَسمعون، وأبصارهم التي بها يُبصِرون، وألسِنتِهم التي بها يَنطِقون، وأيديهم التي بها يَبطِشون [١]، فأمتعكم [٢] الله بما خصَّكم من فضل صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضْفاه [٣] منَ النعمة عليكم، وليس أحدٌ من أهل الصِّناعات كلِّها أحوَجَ إلى اجتماع خِلال الخير المحمودَة وخِصال الفضل المذكورة المعدُودَة منكم.

أيُّها الكُتَّاب: إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صِفتكم، فإن الكاتبَ يحتاجُ من نفسه ويحتاج مِنهُ صاحبهُ الذي يثقُ به في مُهِمَّات أُموره أن يكون حليماً في مَوضع الحِلم فهيماً في موضع الحُكْم، مِقداماً في مَوْضع الإقدام، محجاماً في موضع الإحجام [٤]، مؤْثِراً [٥] للعفاف والعدل والإنصاف، كتوماً للأسرار، وفيّاً عند الشدائد، عالماً بما يأتي من النَّوازل، يضعُ الأمور

(١) يدافعون (٢) أبقاكم (٣) أفاضه
(٤) التأخر (٥) مختاراً له

مَواضِعها ، والطَّوارقَ أماكِنها قد نظر في كلِّ فنٍّ من فنون العلم فأحكمه فإنْ لم يحكِمه أخذَ منهُ بمقدارما يكتفي بهِ ،يعرِف بغريزة عقله وحُسن أدبه وفضل تجربَتِه ما يَردُ عليه قبلَ وُرُودِه ،وعاقبةَ مايصدُر عنه قبل صدوره ، فيُعدُّ لكلِ أمر عُدّتَــهُ [1] وعتاده ، ويهَيّىءُ لكلِّ وجه هيئته وعادته . فتنافسوا يا معشر الكتاب صُنوف الآداب،وتفقّهوا في الدّين وابْدءوا بعلم كتاب الله عزّ وجلّ والفرائض ثم العربية ، فإنها ثقاف [2] ألسنتكم ، ثم أجيدوا الخطَّ فإنه حليةُ كُتُبكم ، وارْوُوا الأشعارَ واعْرفوا غريبها ومَعانيها وأيامَ العَرب والعجَم وأحاديثها وسيرها ، فإنّ ذلك مُعين لكم ما تسمو إليــه هِمَمكم ، ولا تضَيّعوا النظر في الحساب فإنه قَوام [4] كُتّاب الخراج ، وارْغبوا بأنفسكم عن المطامع سَنيّها [5] ودَنيها ، وسَفساف [6] الأمور ومحاقرها فإنها مزلّة للرّقاب مَفسدةٌ للكتّاب، ونزّهوا صناعتكم عن الدّناءة وأَربأوا [7] بأنفسكم عن السّعاية والنّميمة وما فيه أهلُ الجهالات . وإياكم والكِبْرَ والصّلفَ والعَظَمة فإنهــا عَدَاوةٌ مُجتلَبةٌ من غير إحْنة [8] وتحابّوا في الله عزّ وجلّ في صناعتكم وتواصَوا عليها بالذي هو أليَق بأهل الفضل والعدل والنّبل [9] من سَلفكم ، وإن نبا [10] الزّمان برجل منكم فاعْطفوا عليه وَوَاسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوبَ [11] إليه أمره ، وَإن أقعدَ أحداً منكم الكِبَر عن مكسَبه ولقاءِ إخوانه فزُوروه وعظّموهُ وشاوِرُوه واستظهروا بفضل تجربَته وقديم مَعرفتــه ، وليكن الرّجلُ منكم على مَن اصطَنَعه واستظهرَ بهِ ليوم حاجته إليه أحفَظُ منهُ على ولده وأخيه ، فإن عرَضتْ في الشّغل محْمدةٌ فلا يصرفها إلا إلى صاحبه ،وإن عرَضت مذمةٌ فيحمِلها هو مِن دونه ، وليحذر السّقطة والزّلة والمللَ عنــد

---

(١) ما أعددته لحوادث الدهر (٢) العدة (٣) تعديلها (٤) نظام
(٥) رفيعها (٦) الرديء من كل شيء (٧) أعرضوا وفروا
(٨) إضمار حقد (٩) الرفعة والسمو (١٠) قصر ونفر (١١) يرجع

تغيّر الحال فإنّ الغيبَ إليكم معشرَ الكُتّاب أسرعُ منهُ إلى الفراء [١] وهو لكم أفسدُ منه لها ، فقد علمتم أنّ الرّجلَ منكم إذا صحبهُ الرجلُ يبذُلُ لهُ من نفسهِ ما يجب له عليه من حقّه فواجبٌ عليهِ أن يعتقد لهُ من وفائهِ وشُكرهِ، واحتماله وخيرهِ ونصيحته وكِتمان سِرّه وتدبير أمره مـا هو جزاءٌ لحقه ، ويُصدقُ ذلك فِعله له عندَ الحاجة اليه والاضطرار إلى مـا لديه ، فاستشعرُوا ذلـك وفّقكم الله من أنفسكم في حالتي الرّخاء والشّدة والحرمان والمواساة والإحسان والسرّاء والضرّاء ، فنِعْمت الشيمة هذه لِمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، وإذا وَلِيَ الرّجل منكم أو صُيِّرَ اليه من أمر خلق الله أمرٌ فليرقب الله عزّ وجلّ وليؤثر طاعته وليكنْ على الضعيف رَفيقـاً ، وللمظلومِ مُنصفاً فإنّ الخلق عيالُ الله ، وأحبُّهم اليه أرفقُهُم بعياله ، ثم ليكن بالعـدل حاكماً وللأشراف مُكرماً وللفيْءِ [٢] موَفّراً وللبلاد عامراً ، وللرعيّة متألفاً، وعن أذاهم مُتخلّفاً . وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلات خراجه واستقصاء حُقوقه دقيقاً ، وإذا صَحِبَ من أحدكم رجلاً فليختَبر خلائقَه ، فاذا عَرَفَ حسَنَها وقبيحَها أعانه على ما يوافقه الحَسَن، واحْتالَ على صرْفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة وأجمل وَسيلة ، وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمسَ معرفةَ أخلاقِها ، فإن كانت رَموحاً لم يهجْها إذا ركبها وإن كانت شَبوباً اتّقاها من بينِ يديها وإن خاف منها شُروداً توقّاها من ناحيةِ رأسها وإن كانت حروناً قمع هواها بِرفقٍ في طريقها [٣] فان استمرّت عطفَها يسيراً فيُساسُ [٤] له قيادُهـا ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملَهم وجرّبهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه وشريف صَنعته ولطيف حِيلته ومعاملتهِ لمن يحاول من الناس ويناظره ويفهَم عنهُ أو يخاف سطوته اولى بالرّفق بصاحبه ، ومداراته

---

(١) الجلد ، لأنه سريـع العطب (٢) الغنيمة والخراج

(٣) في مرة من المرات (٤) وفي نسخة يسلس اي ينقاد ويسهل

وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تفقهُ جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدرما يُصيّرها إليه صاحبها الرّاكب عليها ؛ ألا فأمعِنوا رَحمكم الله في النظرِ ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرّوية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صَحبتموه النّبْوة [1] والاستثقال والجَفوة ويصير منكم إلى الموافقة وتَصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله — ولا يجاوِزَنّ الرّجل منكم في هيئة مجلسه ومَلبَسِهِ ومَركبِهِ ومَطعَمِهِ ومَشْرَبه وخدمهِ وغيرِ ذلك من فنُون أمره قدْر حقه ، فإنكم مع ما فضّلكم به اللهُ من شرف صنْعتكم خدَمةٌ لا تُحمَلون في خدمتكم على التقصير وحَفظةٌ لا تحْتملُ منكم أفعال التّضييع والتّبذير — واستعينوا على افعالكم بالقصد في كلّ ما ذكرتهُ لكم وقصَصْته عليكم واحذروا متالفَ السّرف وسوءَ عاقبة الترف [2] فإنهما يُعقبان الفقر ويذلان الرّقابَ ويفضحان اهلَهما ولا سيّما الكتّاب وأرباب الآداب، وللأمور أشباهٌ وبعضُها دليلٌ على بعض فاستدلوا على مُؤتَنَف [3] أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضَحَها مَحَجّةً وأصدقَها حُجّةً وأحمدها عاقبة واعلموا ان للتدبير آفةً مُتلفةً وهو الوصف الشّاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورُؤيته ، فليقْصدْ الرّجلُ في مجلسه قصدَ الكافي من مَنطقه ، وليُوجزْ في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حُججه فإن ذلك مصلحةٌ لفعله ومدْفعةٌ للشّاغل من إكثاره .

وليضرعْ إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضرّ ببدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظنّ منكم ظانٌّ او قال قائلٌ إن الذي برَزَ من جميل صنعته وقوّة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنّه او مقالته إلى ان يكِله الله عزّ وجلّ إلى نفسه فيصيرُ منها إلى غير كاف وذلك على من تأمّلهُ غيرُ خافٍ .

---

(١) القبح (٢) التنعم (٣) مبدأ

ولا يقُلْ أحدٌ منكم إنه أبصرُ بالأمور ، وأحملُ لِعبءِ التدْبير من مرافقهِ في صناعتهِ ومُصاحبه في خدمته ، فإنّ أعقل الرجلين عند ذوي الألباب مَن رَمى بالعُجْبِ وراء ظهرهِ ، ورأى أنّ صاحبَه أعقلُ منه وأجمل في طريقته.

وعلى كلّ واحد من الفريقين أن يَعرف فضلَ نعم الله عليه جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولاتزكيةٍ لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره . وحمدُ الله واجبٌ على الجميع ، وذلك بالتواضُع لعَظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدُّث بنعمته .

وأنا أقول في كِتابي هذا ما سبق به المثلُ (مَن تلزَمه النّصيحة يلزمهُ العَمَل) وهو (جَواهر) هذا الكتاب وغُرّة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله عزّ وجلّ . فلذلك جعلتهُ آخره وتممتهُ به ؛ تولانا الله وإياكم يا معشر الكتَبة بما يتولى به مَن سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك اليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاتهُ .

عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ (١)

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين — قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد في مبادىء علم الأدب

الأدب عبارةٌ عن معرفة ما يُحترَز به من جميع أنواع الخطأ وهو قسمان: طبعيٌ وكسبيٌ — فالطبعي ما فُطرَ عليه الإنسانُ من الأخلاق الحسنة والصفات المحمودة كالكَرَم والحلم — والكسبيُ ما اكتسبهُ بالدّرس والحفظ والنَظر وهو المقصود لنا في هذا الكتاب فحينئذ يعرّف بأنهُ عِلمٌ صناعيٌ تُعرف به أساليبُ الكلام البليغ في كلّ حال من أحواله ، وهو المدعو (بعلم الأدب) .

وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيثُ فصاحتُه وبلاغتُه .

وغايته الإجادةُ في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ، وتهذيبُ العقل ، وتذكية الجنان .

وفائدتهُ أنهُ يعصم صاحبهُ من زلةِ الجهل ، وأنه يُرَوّض الأخلاق ويليّن الطبائع وأنه يعين على المَروءة ، وينهض بالهِمَم إلى طلب المعالي والأمور الشريفة .

(وأرْكانه أرْبعة) الأوّل : قوى العقل الغَريزيّة ، وهي خمسَةٌ : الذكاء [1] ، والخيال [2] ، والحافظة [3] ، والحِسّ [4] ، والذّوق [5] .

الثاني : معرفة الأصول وهي مجموع قوانين الكتابة ، وفيها تبيان طُرق حُسْن التأليف وضروب الإنشاء وفُنون الخطابة .

---

(١) الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر وفي كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) قوة باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر اسباب النجاح في فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعاني فتذكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الإنسان من صور المدركات كاللذة والألم وهو من شروط الكتابة إذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسماً محكما فيقتدر إذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب ، ألا ترى ان الكلام العذب إذا حل في القلب أحدث فيه حركة وهزة ا (٥) قوة غريزية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمثابرة على الدرس وبالممارسة لكلام البلغاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وبتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأصول إلى قسمين: عامّة وخاصّة (فالعامة) كالتآليف الأدبية من مَنظوم ومنثور في أغراض شتى (والخاصة) كالتآليف المُفردة بالرسائل أو بالأمثال .

الثالث – مُطالعة تصانيف البُلغاء بالتأني والتبصر فيها ، ليدّخر الكاتبُ كلّ لفظٍ مؤنق شريف وكلّ معنى بديع بحيثُ يتصرّف بهما عند الضرورة.

وشروطها ثلاثة (الأول) أن يَستقلّ المطالع بعض علماء اللغة وأئمة الأدب فيقتصر على درسهم حتى يَنسجَ على منوالهم. (الثاني) أن يُطيل النظر في هذه المطالعة ويُردّدَ مراراً ما استحسنه من تصانيفهم كي يروض الذهن في حَلبة [1] سباقهم فيَقفَ على غريب أسلوبهم وعجيب تراكيبهم (الثالث) أن ينتقيَ منها شيئاً مما استجاده [2] من اللفظ الحرّ والتراكيب الصحيحة والمعاني البليغة ذُخراً لذاكرته ومِهمازاً [3] لقريحته

الرابع – الارْتياضُ وهو التدَرُّب بوجوه الإنشاء بأن تتوسّع في شرح بعض المعاني فتبينَه بأوْجُه شتى وتُنمّقه بأشكال البديع وبأن تجتهد في وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ تارةً وصفَ مدينة أو مدحاً أو تهنئةً ، وأخرى تسردُ مثلاً أو تسبك روايةً إلى غير ذلك – وأن تحذُوَ حذو المتقدمين في أوضاعهم باستعمال ألفاظهم ومعانيهم وبأن تُحلّ النظم فتأتيَ به نثراً أنيقاً [4] تعقدَ النثر فتصوغه صوغاً رشيقاً [5]

مقدمة في علم الإنشاء

الإنشاء لغة : الشروع والإيجادُ والوضع، تقول: أنشأ الغلامُ يمشي إذا شَرَعَ في المشي ، وأنشأ الله العالم : أوجدهم ، وأنشأ فلانٌ الحديثَ : وَضَعه .

واصطلاحاً علم يُعرفُ به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها

(١) الميدان (٢) وجده جيداً (٣) حديدة تكون في مؤخر خف الرائد للمهر
(٤) معجباً (٥) حسناً

بلفظ لائق بالمقام وهوَ مستمدّ من جميع العُلوم. وذلك لأنّ الكاتب لا يستثني صِنفاً من الكتابة فيخوضُ في كل المباحث ويتعمّد الإنشاء في كل المعارف البشرية.

وينحصر المقصود منهُ في ثلاثة أبواب وخاتمة ومُلحق .

الباب الأول : في أصول الإنشاء

وهي أربعةٌ : مَوادّهُ وخواصّه وطبقاتهُ ومحاسنُهُ .

أما مَوادهُ فثلاثٌ : الأولى الألفاظُ الفصيحة[١] الصريحة[٢]، الثانية المعاني[٣]، الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، ومرجِعُها إلى الفصاحة وعلمي المعاني والبيان

(١) الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها .

(٢) الألفاظ التي تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل إلى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والأبدال .

(٣) بحيث يكون المعنى واضحاً أي سهل المأخذ خالياً من اللبس والإشكال كقول الأخطل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد   ذخراً يكون كصالح الاعمـــال

وأن يكون المعنى سديداً أي أن يكون القول مطابقاً للواقع كقول لبيد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل   وكل نعيم لا محالة زائـــل

وأن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كقول أبي العتاهية :

اذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً   ندمت على التفريط في زمن البذر

ولهذا قال أبو الفتح البستي :

تكلم وسدد ما استطعت فإنما   كلامك حي والسكوت جمـاد

فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله   فصمتك عن غير السداد سداه

والمراد بمقتضى الحال الامر الذي يقتضيه الداعي الى المتكلم على وجه مخصوص الناشيء عن مراعاة أحوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام — والمعنى اما أن يكون مبتكراً أي مخترعاً كقول ابن النبيه :

الناس للموت كخيل الطراد   فالسابق السابق منها الجواد

وكقول آخر في وصف الشتاء :

والنار فاكهة الشتاء فمن يرد   أكل الفواكه شاتياً فليصطل

. . . .

= أو دقيقاً فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين في فخر الدين الرازي وكانت قد دخلت إلى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارت بحجرته :

جاءت سليمان الزمان حمامة ... والموت يلمح في جناحي خاطف

من أنبأ الورقاء أن محلكم ... حرم ، وأنك ملجأ للخاطف

أو فطرياً وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا إعمال روية ودل على بعض السذاجة في قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بحراً فأنشد :

لا أركب البحر أخشى ... عليّ منه المعاطب

طين أنا ، وهو ماء ، ... والطين في الماء ذائب

وكقول الصياد :

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا ... هذا يصيد وهذا يأكل السمكه

أو ليناً وهو ما كان لطيف التعبير سلس الألفاظ دالاً على أشياء تطرب المسامع وتبهج القلب كقوله :

إن السماء إذا لم تبك مقلتها ... لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر

أو نافذاً وهو ما وصل إلى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه بمجامع القلب كقول عنترة :

وما دانيت شخص الموت إلا ... كما يدنو الشجاع من الجبان

أو جامعاً وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبي تمام في المعتصم :

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله

تعود بسط الكف حتى لو انه ... أراد انقباضاً لم تطعه أنامله

وكقول المتنبي :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها ... وشرف الناس إذ سوّاك إنسانا

أو متيناً وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبي العتاهية :

لدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلكم يصير إلى ذهاب

والموغل والإيغال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية القصوى من البلاغة ، كما قال قائل على لسان ربه : =

وأما خوَاصّه فهي محاسنهُ السبعة ، وهي ؛ أولاً : الوُضُوح[1] بأنْ يختارَ المفرَدَات البيّنة الدالة على المقصود أن يَعدلَ عن كثرة العَوَامل[2] في الجملة الواحدة ، وأن يتحاشى الالتباس في استعمال الضمائر ، وأن يَسبكَ الجملَ سبكاً جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأن يتحاشى كثرة الجُمل الاعتراضية .

وثانياً : الصَّرَاحة بأن يكونَ الإنشاءُ سالماً من ضعف التأليف وغرَابة التَّعبير بحيث يكون الكلام حُرّاً مهذّباً تناسبُ ألفاظُهُ المَعاني المقصودة كما قيل:

تَزِينُ مَعَانيه ألفاظَهُ وألفاظُه زائِنَاتُ المعاني

ويكون الكلامُ صريحاً بانتقاء الألفاظ الفصيحة والمُفردَات الحُرَّة الكريمة وكذا بإصابة المعاني وتنقيح العبَارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأليفه . وكذَا بمرَاعَاة الفصل والوَصل وهو العلم بموَاضع العطف والاستئناف والاهتداء إلى كيفية إيقاف حروف العطف في مَوَاقعها .

وثالثاً : الضبط وهو حذف فضُول الكلام وإسقاطُ مشتركات الألفاظ كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢ م :

= سألت عبدي وأنت في كنفي وكل ما قلت قد سمعناه
سلني بلا خشية ولا رهب ولا تخف ، إني أنا الله

واعلم أنه ليس لهذه المعاني مصدر خاص ، وإنما يحصل عليها الأديب من مطالعة كتب البلغاء وإعمال الفكرة الطويلة والتبصر في الموضوع الذي يقصد وصفه ليستخرج منه المعاني اللائقة به ، وإنما يلتجيء إلى هذه المعاني عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ، ومواقع الكلام .

(١) كقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قدمات والده بل اليتيم يتيم العلم والحسب

(٢) كقول بعضهم :

* أقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم *

أرَى المَوْت لا يَرْعى على ذي قرابةٍ وإن كانَ في الدنيا عزيزاً بمقْعَدِ
لَعَمرُك ما الأيام إلاَّ مُعارَة فما استطعْتَ من معرُوفها فتزَوَّد

ورابعاً : الطبَعيّة بأن يَخْلو الكلامُ من التكلُّف والتّصنّع كما قال في رِثاء ابنِهِ أبو العَتاهيةِ المتوفى سنة ٢١١ ه:

بكيتك يا بُنَيّ بدمع عَيْني فلم يُغْن البكاء عليك شيا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ وأنت اليوم أوعظ منك حيًّا

وذلك لأنّ مَن تطبَّع بغير طبعه نزَعَتْهُ العادة حتى تردّه إلى طبعه كما أن الماء إذا أسخَنته وتركته عاد إلى طبعه من البرودة وحينئذ فالطبع أملك .

وخامساً: السهولة بأن يَخلُصَ الكلام من التعسف في السبك وأن يختارَ ما لان منها كما قال في الأشواق بَهاءُ الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ ه:

شَوْقي إليك شديدٌ كما علمْتَ وأزيدْ
فكيف تنكرُ حبّاً بهِ ضميرُك يشهدْ

وأن تُهذّبَ الجُمل وأن يأتلفَ اللفظ مع مُرَاعاة النّظير كما قال الشاعر في الودَاعِ :

في كنف الله ظاعِنٌ ظَعَنَا أودَع قلبي ودَاعَه حزَنَا
لا أبصرتْ مُقلتي مَحاسنه إن كنتُ أبصرْتُ بعده حَسنَا

قال بعض البُلَغاء: أحذّركم من التقعير والتّعَمُّق في القول وعليكم بمحاسن الألفاظ والمعاني المُستخفّة المُستملحة فإن المعنى المليح إذا كُسِيَ لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً كان في قلب السّامع أحلى ولصدره أملأ — قال البُستي:

إذا انقادَ الكلامُ فقدْهُ عفواً إلى ما تشتهيه من المعاني
ولا تُكرِه بَيانَك إنْ تأبّى فلا إكراهَ في دين البيان

وسادساً : الاتساق بأنْ تتناسب المعاني كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٦ ه:

ومَا زلت حتى قادني الشوقُ نحوَه يُسايرني في كلّ ركب له ذكْرُ[1]
وأستكبرُ الأخبارَ قبلَ لِقائه فلما التقَينا صغّرَ الخبرَ الخُبرُ

وسابعاً: الجزالة وهي إبرازُ المعاني الشريفة في معارضَ من الألفاظ الأنيقة[2] اللّطيفة كقول الصّابىءِ المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :

لكَ في المحافلِ منطقٌ يشفي الجوَى[3] ويسوغُ في أذُن الأديب سُلافُهُ[4]
فكأنّ لفظكَ لؤلؤٌ متَنَخّلٌ[5] وكأنّما آذانُنا أصدافُه

وأما عُيوبه فسبعة . الهُجنة بأن يكون اللفظُ سخيفاً والمعنى مُستقبحاً كقوله ،

وإذا أدنيتَ منه بَصلاً غلَبَ المسْكُ على ريح البَصل

والوحشية كونُ الكلام تمجُّه الأسماعُ وتنفرُ منه الطباع كقوله :

ومَا أرْضى لِمُقلته بحُلم إذا انْتَبَهَتْ توَهّمَهُ ابتشاكا[6]

والرّكاكة أي ضعف التأليف وسخافة العبارة كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٦هـ:

إنْ كان مِثلكَ كان أوْ هُو كائنٌ فبرئْتُ حينئذ من الإسلام

والسَهوُ عبارة عن ضعف البَصر بموَاقع الكلام كقول المتنبّي يُشبّه ممدوحه بالله تعالى (وهو كفرٌ) :

تتقاصر الأفهام عن إدْراكه مِثلُ الّذي الأفلاكُ مِنهُ والدّنى[7]

والإسهاب أي الإطالة الزّائدة المُمِلة في شرح المادة والعُدول إلى الحشو كقوله:

وأعني فتًى لم تذرالشمس طالعةً يَوْماً من الدّهر إلا ضرّ أو نفعا

(١ خبر زلت يسايرني، والركب جماعة الراكبين، أي ما زلت أسمع ذكره في كل ركب صحبته حتى قادني الشوق إلى زيارته، والمتنبي يمدح علياً الأنطاكي ؛ ومعنى البيت الثاني : إني ما زلت أستعظم ما يذكر لي من أخباره حتى لقيته فصغرت عندي تلك الأخبار بالنسبة إليه لأني وجدته أعظم مما وصفوا. (٢) المعجبة. (٣) الحرقة . (٤) الخمرة. (٥) مصطفى ومختار . (٦) يقول: وإن حدثه حلم في نومه عن شكري له فلا أرضى به لعله يتوهمه كذباً . (٧) الدنيا .

والجفاف والإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حلزة المتوفى سنة ٢٣٢هـ:

والعيش خير في ظلال النوك[1] ممن عاش كدّا[2]

ووحدة السياق التزام أسلوب واحد من التعبير وطريقة واحدة من التركيب بحيث تكون للأذهان كلالاً[3] وللقلوب ملالاً[4].

وللكلام عيوب كثيرة منها اللحن ومخالفة القياس الصّرفي وضعف التأليف والتعقيد اللفظي والمعنوي والتكرار وتتابع الإضافات إلى غير ذلك من الأشياء التي تكون ثقيلة على اللسان مخالفة للذوق والعرف غريبة على السمع[5].

وأما طبقاته فثلاث (الأولى الطبقة السفلى) ومرجعها إلى الإنشاء السّاذج وهو ما عرى عن رقة المعاني وجزالة الألفاظ والتأنق في التعبير فهو بالكلام العادي أشبه لسهولة مأخذه وقرب مورده، ويستعمل في المحافل العمومية ليقرّب منال المعاني على جمهور السامعين وفي المقالات والتآليف العلمية لينصرف الذهن إلى أخذ المعنى وليس دونه حائل من جهة العبارة، وفي المكاتبات الأهليّة والرحلات والأسفار والأخبار وما شابه ذلك (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى الإنشاء العالي، وهو ما شحن بغرر الألفاظ، وتعلّق بأهداب المجاز ولطائف التخيلات وبدائع التشابيه فيفتن ببراعته العقول ويسحر الألباب ويصلح في الترسل بين بلغاء الكتّاب وفي المجالس الأدبيّة وديباجة بعض التصانيف إلى غير ذلك من المواضع التي من شأنها الزجر وتحريك العواطف والحماسة .

(١) بفتح النون وضمها الحمق. (٢) تعبا. (٣) سيئة. (٤) سآمة.

(٥) حكي عن الصفي الحلي أن بعض الفضلاء بلغه أنه اطلع على ديوانه وقال لا عيب فيه سوى أنه خال من الألفاظ الغريبة فأجابه الصفي :

إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس
لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
إن خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه الجليس
ولذيذ الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقةُ الوسطى) ومَرْجعها إلى الإنشاء الأنيق [١] وهو ما توسط بين الإنشاء العالي والساذج فيأخذ من الأول رَوْنَقَه ورَشاقَتَهُ ومن الثاني جلاءه وسلاسته - ويَصْلُحُ في مُراسلات ذوي المراتب وفي الروايات المُنمقة والأوصاف المُسْهبة ، وفي خُطب المحافل وما أشبه ذلك[٢] .

وأما محاسنه فهي أساليب وطرائق معلومة وُضعت لتزيين الكلام وتنميقه لغرض أن يتمكَّن البليغُ مِن ذِهن السامع بما يورده من أساليب الكلام المُستحسنة فيحرك أهواء النفس ويثير كامنَ حركاتها ، والغرض أن يكونَ قوله أشد اتصالاً بالعقل وأقربَ للادراك بتصرفه في فنون البلاغة .

كيفية الشروع في عمل مواضيع الإنشاء

إذا عنّ [٣] لك أو اقترحَ عليك إنشاء موضوع فأنت مَنوط [٤] إذاً بأمرين : التفكر أولاً ، والكتابة ثانياً . فإذا أنعَمْت الفكر مليّاً [٥] في أجزاء الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلّبتَها على جميع الأوجه الممكنة فيها تولد في خيالك لكل جزء عدةُ صُور [٦] تتفاوت في تأديته كتفاوت صُوَر المنظوم في الحسن والقبح ، فبعضها يستميل النفوسَ بتأثيره في الحواس ، وبعضُها

(١) المحب .

(٢) الذي اشتهر بالإنشاء الساذج السيوطي والماوردي والغزالي وأبو الفرج الأصبهاني وابن الأثير وأبو الفداء . والذي اشتهر بالإنشاء الأنيق الثعالبي وابن خلكان وابن خلدون والطبري والفخري وابن المعتز والبهاء زهير وابن المقفع والمسعودي . والذي اشتهر بالإنشاء العالي الحريري والهمذاني والمعري والأخطل وجرير وأبو تمام والبحتري والمتنبي وابن خاقان والعتبي والفارضي . واعلم أن طبقات الإنشاء كثيراً ما تختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها فربما جاء في القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث لا يميزها إلا المنتقد البصير .

(٣) عرض . (٤) ملزم (٥) ساعة طويلة . (٦) أما إذا تساوت في حسن تأدية الغرض أخذ إحداها فقط ولا يحسن جمعها .

يُوجب نفورَها، بيْن بين، وإذا تشخّصَت الصُّوَرُ في الخيال يتخيّر العقل منها ما له المكانة الرفيعة في حُسن تأدية الغرض المناسب للمقام، فإن كان المقامُ للتّحريض على القتال مثلاً انتخبَ الصورة المهيِّجة للاحساس [١]، المشجّعة للنفس على اقتحام الأخطار وإن كان المقامُ مقامَ فرحٍ وسُرُورٍ انتخب مايشرح الصُّدورَ.

وبعد تشخص الصُّوَر وتخير المُناسب منها تعتن أيها المنشيءُ بحُسن تأليف وترتيب ماتخيرته بأن تجمَع الصور المناسبةَ التي يرتبطُ بعضها ببعض بدون تكلفٍ بحيث يكون منسجماً يمضي وَحده مع النّفس دون علاج وتعب في فَهم الغرض منه وحينئذ يُمكنك إظهارُ هذه الصورة المعقولة في صورة محسوسةٍ بواسطةِ القلم.

أركان الكتابة

اعلم أنّ للكتابةِ أرْكاناً لا بُدّ من إيداعِها في كل كتاب بلاغيّ ذي شأن؛ أولها: أنْ يكون مَطلعُ الكتابِ عليه جدّة [٢] ورَشاقة، فإنّ الكاتب مَن أجاد المطلعَ والمقطع، أو يكون مبنيّاً على مقصدِ الكتاب. الثاني أن يكون خروجُ الكاتب من معنى إلى معنى برابطةٍ لتكونَ رقابُ المعاني آخذة بعضها

---

(١) الأحزان.

تنبيه: يراعى حال المخاطب ومنزلته فإن ما يحسن عند الذكي لا يحسن عند الغبي، ومايناسب ذا الجد لايناسب الهزلي، وما يصلح للرئيس لا يصلح للمرءوس فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت وعاير الكلمة بمعيارها إذا سنحت فكلما احلولى الكلام وعذب وراق وسهلت مخارجه كان أسهل ولوجاً في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف على الأفواه، ولاسيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مؤنق شريف ومعايراً بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد، فالمعنى الخفي أشبه بالروح الخفي واللفظ الظاهر أشبه بالجثمان الظاهر، وإلاتضاءل المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاءل الحسناء في الأطمار الرثة.

(٢) صار جديداً مبتكراً، وهو نقيض الخلق الذائب.

ببعض ولا تكون مقتضبة. الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير مخلولقة بكثرة الاستعمال ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيب فاحش بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير ما في أيدي الناس ، وهي مما في أيدي الناس ، وهناك مُعْترك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعتها. وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر، وليس كل خاطر بَرّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذو الفَضْلِ العَظِيمِ) ومع هذا فلا تظن — أيها الناظر في كتابي — أني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحته من المعنى ما يماثله ويساويه فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها. ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السُوقة أرباب الحرف والصنائع ، ومـا منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوّج بين لفظتين . فالعبارة عن المعاني هي التي بها تخلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنـه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة .

واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا بتعلُّم العلم .

فاذا اسكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمّي نفسك كاتباً .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردتَ أن تصنع كلاماً فأخطِر معانيه ببالكَ، وتنقَّ له كرائمَ اللفظ، واجعلْها على ذِكرٍ منك ليقرُبَ عليكَ تناوُلُها ولا يُتعبك تطلّبُها، واعمله ما دُمْتَ في شبابِ نشاطك، فإذا غشيك الفتورُ وتخوّنكَ الملالُ فأمسك، فإن الكثيرَ مع الملالِ قليلٌ، والنفيسَ مع الضجَرِ خسيسٌ، والخواطر كالينابيع يُستقى منها شيءٌ بعد شيءٍ، فتجد حاجتكَ من الرأي، وتنالُ أربكَ من المنفعة فإذا أكثرت عليها نضبَ ماؤُها وقلَّ عنكَ غَنَاؤُها. واعلمْ أنَّ ذلك أجدى عليك مما يُعْطيكَ يومكَ الأطولُ بالكدِّ والمطالبةِ والمجاهدةِ والتكلّف والمعاودة. وإيّاكَ والتوعّرَ، فإن التوعرَ يسلمكَ إلى التعقيدِ والتعقيدُ هو الذي يَستهلك معانيكَ ويشينُ ألفاظكَ.

ومَنْ أرادَ مَعنىً كريماً فليلتمسْ له لفظاً كريماً، فإنَّ مِنْ حقِّ المعنى الشريفِ اللفْظَ الشريفَ.

فإذا لم تجدِ اللفظةَ واقعةً موقعها صائرةً إلى مستقرِّها حالّةً في مركزِها متّصلة بسلكها، بل وجدتها قلقةً في مَوْضِعها نافرةً عَنْ مكانها فلا تُكرِهْها على اغتصاب الأماكنِ والنزولِ في غيرِ أوْطانها، فإنّكَ إنْ لم تتعاطَ قريضَ الشِّعْرِ المنظومِ ولمْ تتكلفِ اختيار الكلام المنثورِ، لم يَعِبْك بذلك أحَدٌ.

وإن تكلّفْتَهُ ولم تكنْ حاذقاً مطبوعاً ولا مُحكماً لشأنك بصيراً، عابكَ من أنتَ أقل عيباً منه، وزرى[1] عليكَ منْ هو دونك.

فإن لم تسمَح لك الطّبيعة بنظم الكلام في أوّلِ وَهْلةٍ، وتعصّى عليكَ بعد إجالةِ الفكرةِ، فلا تعجل، ودعْه سحابةَ يومِكَ ولا تضجر، وأمهلْهُ سَوَادَ ليْلتِك وعاوده عندَ نشاطكَ، فإنكَ لا تعدَمُ الإجابة والمؤاتاةَ، فإن تمنّعَ عليك بعد ذلك — مع تَرْويحِ الخاطرِ وطولِ الإمهال — فتحول

(١) زرى: عاب.

منْ هذه الصناعة إلى أشهى الصّناعات إليكَ وأخفها عليكَ : فإنكَ لم تشتهها إلا وَبينكما نسبٌ .

وَالشيءُ لا يحنُّ إلا إلى ما شاكلَهُ .

ويَنبغي أنْ تعرفَ أقدارَ المعاني ، فتُوازِنَ بينها وبينَ أوزانِ المستمعينَ وبين أقدارِ الحالات ، فتجعلَ لِكُلّ طبقةٍ كلاماً ، ولكلّ حالٍ مقاماً ، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعينَ على أقدارِ الحالاتِ .

(من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق إلى تعلم الكتابة

إنّ الطريق إلى تعلّمِ الكتابة على ثلاثِ شُعَبٍ :

الأولى : أنْ يَتصفّح الكاتبُ كتابةَ المتقدمينَ ، ويطّلعَ على أوْضاعهم في استعمالِ الألفاظ والمعاني ، ثمّ يحذوَ حذْوَهم : وهذه أدنى الطبقاتِ عندي .

والثانيةُ : أنْ يمزجَ كتابة المتقدمينَ بما يَستجيدهُ لنفسه من زيادة حسنة ، إمّا في تحسينِ ألفاظ ، أو في تحسين معانٍ ، وهذه هي الطبقه الوُسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

والثالثة : أن لا يتصفّحَ كتابةَ المتقدمينَ ، ولا يطّلعَ على شيء منها ، بل يصرف همّه إلى حفظ القرآنِ الكريمِ وعِدّةٍ من دواوينِ فُحولِ الشعراءِ ممّن غلبَ على شعرِه الإجادة في المعاني والألفاظِ . ثم يأخذَ في الاقتباس ، فيقوم ويقعُ ويخطىءُ ويصيبُ ويضلُّ ويهتدي حتى يستقيمَ على طريقة يفتتحُها لنفسه ، وأخْلِقْ بتلك الطريقِ أن تكونَ مبتدَعةً غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريقُ هي طريق الاجتهادِ وصاحبُها يُعَدُّ إماماً في فنّ الكتابةِ ، إلا أنها مُستوْعرةٌ جدّاً . ولا يَستطيعُها إلا مَنْ رَزَقهُ اللهُ لساناً هجاماً وخاطراً رقاماً . ولا أريدُ بهذه الطريق أن يكونَ الكاتبُ مُرتَبطاً في كتابتهِ بما يستخرجه منَ القرآنِ

الكريمِ والشِّعرِ ، بحيثُ إنّهُ لا يُنشِئُ كتاباً إلاّ مِنْ ذلك، بلْ أُريدُ أنّه إذا حَفِظَ القرآنَ وأكثر من حفظ الأشعارِ ثمّ نقّب عن ذلك تنقيبَ مُطّلعٍ على معانيهِ مفتّشٍ عنْ دفائنهِ وقلبهُ ظهْراً لبطن عرفَ حينئذ مِن أينَ تؤْكَل الكَتفُ فيما يُنشئه مِنْ ذاتِ نفسهِ ، واستعانَ بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذيبُ الكلامِ : عبارة عن تردّادِ النظرِ فيه بعد عملهِ — نظماً كان أوْ نثراً — وتغيير ما يجبُ تغييرهُ ، وحذف ما ينبغي حذفهُ وإصلاحِ ما يتعينُ إصلاحهُ ، وتحرير ما يدقُّ مِنْ معانيه ، واطّراح ما يتجافى عن مضاجعِ الرِّقةِ من غليظ ألفاظه ، لتشرقَ شموسُ التهذيبِ في سماءِ بلاغته ، وترشُفَ الأسماعُ على الطرب رَقيق سُلافته ، فإن الكلامَ إذا كانَ مَوْصُوفاً بالمهذّب ، منعوتاً بالمنقّح ، علتْ رُتبتُهُ وإن كانت معانيهِ غيرَ مبتكرة ، وكلُّ كلامٍ قيل فيه : لو كان موْضع هذه الكلمة غيرُها ، ولوْ تقدَّمَ هذا المتأخّرُ وتأخّر هذا المتقدّم أو لو تمّ هذا النقص بكذا ، أو لو حذفتْ هذه اللفظة ، أو لو اتضح هـذا المقْصد وسهُل هذا المطلبُ لكان الكلام أحسن والمعنى أبين — كان ذلك الكلام غير منتظمٍ في نوع التهذيبِ .

وكان زُهيْر بن أبي سُلمى معروفاً بالتّنقيحِ والتهْذيبِ ، وله قصائدُ تعرفُ بالحوْليّاتِ — قيل : إنه كان ينظِمُ القصيدة في أرْبعةِ أشهُرٍ ، ويُهذبُها ويُنقّحُها في أربعة أشهرٍ ، ويعرضها على عُلماء قبيلتهِ أربعة أشهرٍ ، ولهذا كان الخليفة عُمرُ بن الخطاب — مع جلالته في العلمِ ، وتقدمهِ في النقد — يقدّمه على سائرَ الفُحُولِ من طبقته .

وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله :

خُذْها ابنةَ الفكْرِ المهذّبِ في الدُّجى والليْل أسْودُ رقْعةِ الجلبـاب

فإنهُ خصّ تهذيبَ الفكر بالدُّجى لكون الليْلِ تهدأُ فيه الأصوات وتسكنُ الحركات ، فيكونُ الفكْرُ فيهِ مجتمعاً ومِرآة التهذيبِ فيهِ صقيلة ، لخلوّ الخاطرِ وصفاء القريحةِ ، لاسيما وسط الليْل .

قالَ أبو عُبادةَ البُحتري : كنتُ في حداثتي أروي الشّعْرَ ، وكنْت أرجع فيه إلى طبعٍ سَليم ، ولم أكنْ وقفت له على تسهيل مأخذٍ ووُجُوهِ اقتضاب حتى قصدت أبا تمّامٍ وانقطعْتُ إليهِ واتّكلتُ في تعريفه عليه ، فكان أوّلَ ما قال لي : يا أبا عُبادَةَ ، تخيّرِ الأوقاتَ وأنتَ قليلُ الهُمومِ ، صِفرٌ منَ الغُمومِ .

واعلم أن العادَةَ في الأوقاتِ إذا قصدَ الإنسانُ تأليفَ شيءٍ أو حِفْظَهُ أن يختار وقتَ السحرِ — وذلك أن النفسَ تكونُ قد أخذت حظّها منَ الرّاحةِ وقسطَها منَ النومِ وخفّ عليها ثِقَل الغذاء؛ واحذَرِ المجهول من المعاني وإيّاك أن تشينَ شِعْرَك بالألفاظ الوحشيةِ وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، وكُنْ كأنكَ خياطٌ تُقدّرُ الثيابَ على مقاديرِ الأجسام ، وإذا عارَضَكَ الضّجرُ فأرِحْ نفسكَ ولا تعملْ إلا وأنتَ فارغ القلبِ ولا تنظمْ إلا بشهوةٍ ، فإن الشهوةَ نعمَ المعين على حُسنِ النّظم ، وجملةُ الحال : أن تعتبرَ شعرَكَ بما سلف من أشعارِ الماضينَ فما استحْسَنَ العلماءُ فاقصدْه وما استقبحُوهُ فاجتنبْه .

(عن « خزانة الأدب — وزهر الآداب » باختصار)

محاسن الإنشاء ومعايبه

إنّ للنثر محاسنَ ومعايبَ ، يجبُ على المنشيء أنْ يفرّق بينهما مُحترزاً استعمالِ الألفاظِ الغريبة ، وما يخلُّ بفهم المرادِ ويوجبُ صعوبتَه — ولا بدّ من أنْ يجعلَ الألفاظ تابعةً للمعاني دون العكسِ ، لأنّ المعاني إذا تركت على سَجيّتها

طلبت لأنفسها ألفاظاً تليق بها فيحسن اللفظ والمعنى جميعاً ، وأما جعل الألفاظ متكلفة والمعاني تابعة لها ، فهو شأن من لهم شغف بإيراد شيء من المحسنات اللفظية فيصرفون العناية اليها ، ويجعلون الكلام كأنه غير مسوق لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أعظم ما يليق بمن يتعاطى الإنشاء أن يكتب ما يُراد لا ما يُريد ، كما قيل في الصاحب والصابىء : ان الصابىء يكتب ما يُراد ، والصاحب يكتب ما يُريد .

(عن « آداب المنشىء » ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعاني

فصاحة الألفاظ تكون بثلاثة أوجه :

الأول: مجانبة الغريب الوحشي حتى لا يمجّه سمع ، ولا ينفر منه طبع .

والثاني : تنكب اللفظ المبتذل ، والبعد عن الكلام المسترذل حتى لا يستسفطه خاصي ، ولا ينبو عنه فهم عامي ، كما قال الجاحظ في كتاب البيان : أما أنا فلم أرَ قوماً أمثلَ طريقة في البلاغة من الكتّاب : وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعّراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً .

والثالث : أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة .

أما المطابقة : فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها .

وأمّا المناسبة : فهي أن يكون المعنى يليق ببعض الألفاظ — إما لعرف مستعمل ، أو لاتّفاق مستحسن — حتى إذا ذُكرت تلك المعاني بغير تلك

الألفاظِ كانتْ نافرةً عنها، وإن كانتْ أفصحَ وأوضحَ لاعتياد ما سواها .
(عن « أدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أنّ هذا موضوع متعذّرٌ على الوالجِ ، ومسلكٌ متوعّرٌ على الناهجِ ، ولم تزل العلماءُ من قديمِ الوقت وحديثه يكثرون القولَ فيهِ والبحثَ عنهُ ، ولم أجِدْ من ذلك ما يعوّل عليه إلا القليلَ ، وغاية ما يقالُ في هذا البابِ : إنّ الفصاحةَ هي الظهورُ والبيان في أصلِ الوضعِ اللغويّ — يقال : أفصح الصبح اذا ظهرَ ، ثم إنهم يَقِفون عند ذلك ولا يكشِفونَ عن السّرّ فيهِ ، وبهذا القوْل لا تتبيّنُ حقيقة الفصاحةِ ، لأنه يُعترضُ عليهِ بوجوهٍ من الاعتراضاتِ :

أحدها : إذا لم يَكنْ اللفظَ ظاهراً بَيّناً لم يكنْ فصيحاً ثم إذا ظهرَ وتبيّن صارَ فصيحاً .

الوجه الثاني ، أنه اذا كانَ اللفْظُ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صارَ ذلك بالنّسَبِ والإضافات الى الأشخاص ؛ فإنّ اللفظَ قد يكون ظاهراً لزيْدٍ ولا يكون ظاهراً لِعَمْرٍ ، فهو اذاً فصيحٌ عند هذا ، وغير فصيحٍ عند ذاك ؛ وليس كذلك بل الفصيح هو فصيحٌ عند الجميع لا خلاف فيه بحالٍ من الأحوالِ ولأنه اذا تحقّق حدُّ الفصاحة وعُرف ما هي ، لم يبق في اللفظ الذي يختصُّ به خلافٌ .

الوجهُ الثالث : أنه اذا جيءَ بلفظٍ قبيح ينبو عنه السّمْعُ وهو مع ذلك ظاهر بَيّنٌ ينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأنّ الفصاحةَ وصف حسْنٍ للفظ لا وصفُ قبح .

ولما وقفتُ على أقوال النّاسِ في هذا الباب ملكتني الحيرة فيهـــا ،

ولم يثبُتْ عندي منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرةِ مُلابستي هذا الفنّ ومُعاركتي ايّاهُ ، انكشفَ لِيَ السِّرُّ فيه — وسأوضّحُهُ في كتابي هذا وأُحقّقُ القولَ فيه فأقولُ :

انّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البَيّن ، وأعني بالظاهر البَيّن : أن تكونَ ألفاظهُ مفهومةً لا يُحتاجُ في فهمها الى استخراجِ لُغَةٍ .

وانما كانَتْ بهذه الصفةِ لأنها تكونُ مألوفةَ الاستعمال بين أربابِ النظم والنثر دائرةً في كلامهم ، وانما كانتْ مألوفةَ الاستعمالِ دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظِ لمكان حُسْنِها ، وذلك أنّ أربابَ النظمَ والنثر غرْبَلوا اللغةَ باعتبارِ ألفاظها ، وسبَرُوا وقَسّموا ، فاختارُوا الحسنَ من الألفاظِ حتى استعملوهُ وعلموا القبيحَ منهافلم يستعملوه ،فحسنُ الاستعمال سببُ استعمالِها دُونَ غيرها ، واستعمالها دُونَ غيرها — سبَبُ ظُهورها وبيانها ؛ فالفَصيحُ اذاً مِنَ الألفاظ هو الحسنُ .

فإنْ قيلَ : مِنْ أيّ وجْه عَلمَ أرباب النّظم والنّثر الحسن مِنَ الألفاظِ حتى استعملوهُ ، وعلموا القبيحَ منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوهُ ؟ قُلتُ في الجواب : انّ هذا من الأمور المحسُوسة التي شاهدُوها من نفسِها ؛ لأنّ الألفاظ داخلةٌ في حيّز الأصوات ، فالذي يستلذّه السّمعُ منها ويميلُ اليه هو الحسَنُ والذي يكرهُهُ ويَنفِرُ عنهُ هو القبيحُ . ألا ترى أنّ السّمع يستلذّ صَوْت البُلْبلِ من الطيرِ وصَوْت الشحْرورِ ويميلُ اليهما ، ويكرهُ صوْتَ الغرابِ وينفِرُ عنهُ ؟ وكذلك يكرهُ نهيق الحِمار ، ولا يجدُ ذلك في صهيل الفَرس ؟ والألفاظ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنهُ لا خلاف في أنّ لفظَةَ المُزنة والدّيمة حسنةٌ يستلذّها السّمع ، وأنّ لفظَةَ البُعَاقِ قبيحة يكرهُها السمعُ ، وهذه اللفَظات من صفة المطر ، وهي تدلّ على

معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظتي المزْنةِ والدِّيمة وما جرى مجْراهُما مألوفتي الاستعمال — وترى لفظَ البعاقِ ،وما جرى مجراه متروكاًلا يُستعمل ، وان استُعمل فإنما يَستَعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو مَنْ ذَوْقُه غيرُ ذوقٍ سليم .

ولا جرَم أنه ذُمّ وقُدح فيه ولم يُلتفت اليه وكان عربيّاً محضاً من الجاهلية الأقدمين ؛ فإنّ حقيقة الشيء اذا عُلِمَتْ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعَرَّج على ما خرج عنها .

(عن « ابن الأثير » باختصار)

الانسجامُ

الانسجامُ لغة : جريان الماء ، وعند أهل البلاغة هو أن يأتي النـاظمُ أو الناثر بكلامٍ خالٍ من التّعقيد اللفظي والتّعقيد المعنوي بسيطاً مفهوماً دقيقَ الألفاظِ جليلَ المعنى ، لا تكلّفَ ولا تعَسّفَ فيه ، يتحدّرُ كتحدرِ المـاء المنسَجِمِ ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبةِ ألفاظهِ ، أن يسيل رِقةً .

ولا يكونُ ذلك إلا في منْ هو مطبوعٌ على سلامة الذّوْقِ ، وتوقـدَ الفكرة وبراعة الإنشاء وحُسْن الأساليبِ .

وإنّ فحولهذا الميدانِ ما أثقلوا كاهلسُهُولته بنَوْعٍ من أنواعِ البديعِ ، اللهُمّ إلا أن يأتي عفواً من غير قصد .

وعلى هذا أجمعَ علماءُ البديع في حدّ هذا النوع ، فإنهـم قرروا أن يكون بعيداً عن التصنع ، خالياً من الأنواعِ البديعيّة الا أن يأتي في ضمْنِ السُّهولةمنّ غير قصدٍ ،فإنْ كان الانسجامُ في النثر تكونُ أغلبُ فقراتهِ موزونةً مِن غير

قصدٍ ، وإنْ كان في النّظم فتكادُ الأبياتُ أن تسيلَ رِقةً وعذوبةً وربما دخلت في المُطرِب المرقص .

(عن « بديعة العميان وبديعة الحموي »)

حلُّ الشعر

حلُّ الأبيات الشّعريّة إلى ثلاثة أقسامٍ :

الأوّلُ منها وهو أدناها مَرتبةً أن يأخذَ الناثر بيتاً من الشعرِ فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيبٌ فاحشٌ . ومثالُه كمَنْ أخذ عِقداً قد أتقنَ نظمه وأحسنَ تأليفهُ فأوهاهُ وبَددَهُ ، وكانَ يقوم عذرُهُ في ذلك أنْ لوْ نقلَه عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسنَ منهُ ، وأيضاً فإنهُ إذا نُثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السَّرِقة ، فيقال هذا شعرُ فلان بعينهِ : لكون ألفاظه باقيةً لم يتغيرْ منها شيءٌ . وقد سلكَ هذا المسلكَ بعض العراقيين فجاء مُستهجناً ، كقوله في بعض أبيات الحماسة :

وألدَّ ذي حَنقٍ عليَّ كأنما تَغلي عداوة صدرِه في مِرْجَلِ
أزجيْتُه عنّي فأبصر قصدَهُ وكويتُه فوْق النواظر منْ عَلِ

فقال في نثر هذين البيتين : « فكم لقي ألدَّ ذا حَنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عَل ، وتغلي عداوةُ صدره في مرْجل ، فكواهُ فوق ناظريْه وأكبه لفمه ويديه » . فلم يزدْ هذا الناثِرُ على أن أزال روْنق الوزن وطلاوة النظمِ لا غيرُ .

ومن هذا القسمِ ضربٌ محمودٌ لا عيبَ فيه : وهو أن يكون البيتُ من الشعر قد تضمّن شيئاً لا يُمكن تغييرُ لفظه فحينئذٍ يُعذرُ ناثرهُ إذا أتى بذلك اللفظ وكذلكَ الأمثالَ السائرةَ فإنه لا بدَّ من ذكرِها على ما جاءت في الشعر .

وأما القسمُ الثاني — وهو وسَطٌ بينَ الأوّلِ والثالث في المرتبة — فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبّر عن البعض بألفاظٍ أخر — وهناك تظهر الصنعة في المماثَلةِ والمشابهةِ ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المُرتجلة. فإنهُ إذا أخذَ لفظاً لشاعرٍ مجيدٍ ، قد نقّحهُ وصحّحهُ فقرَنهُ بما لا يلائمهُ ، كان كمن جمعَ بين لؤلؤةٍ وحصاة ، ولا خفاءَ بما في ذلك من الانتصابِ للقدْحِ والاستهدافِ للطّعن . والطريقُ المسلوك إلى هذا القسم : أنْ تأخـذَ بعضَ بيت من الأبياتِ الشعريّة هو أحسنُ ما فيهِ ثمّ تماثلهُ .

وسأوردُ ههنا مِثالاً واحداً — ليكون قدوة للمتعلم — فأقولُ : قدْ وردَ هذا البيت من شعر أبي تمامٍ في وصف قصيدة لهُ :

حذّاء تملأ كلّ أُذْنٍ حكمةً وبلاغةً وتُدرُّ كلّ وَريـد

فقوله (تملأ كلّ أُذْنٍ حكمةً) من الكلام الحسَن ، وهو أحسَنُ ما في البيت فإذا أردْتَ أن تنثر هذا المعنى فلا بُدّ من استعمال لفظه بعينه ، لأنهُ في الغاية القصْوَى منَ الفصاحة والبلاغة . فعليكَ حينئذٍ أنْ تؤَاخيهُ بمثلِهِ .

وهذا عَسِرٌ جدّاً ، وهو عندي أصعبُ منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ،لأنه مسلكٌ ضيّقٌ لما فيه من التعرّض لمماثلةِ ما هوَ في غايةِ الحسن والجودةِ . وأمّا نثر الشعر بغير لفظهِ فذلك يتصرّفُ فيهِ ناثرُهُ على حسب ما يراهُ ، ولايكون مقيّداً فيهِ بمثال يضطرُّ إلى مُؤاخاتهِ . وقد نثرْتُ هذه الكلماتِ المشارَ إليها وأتيتُ بها في جملة كتابٍ فقلْتُ : وكلامي قدْ عُرفَ بينَ النـاسِ واشتهرَ ، وفاقَ مسيرَ الشّمسِ والقمر ، وإذا عُرف الكلام صارَتِ المعرفـة لهُ علامةً وأُمِنَ مِنْ سرقتهِ إذ لوْ سُرِقَ لدلّتْ عليه الوسامةُ — ومن خصائصِ صفاته أن يملأ كل أذنٍ حكمةً ، ويجعلَ فصاحـة كلّ لسانٍ عجمـةً . وإذا جرَتْ نفثاتهُ في الأفهامِ ، قالتْ : أهذهِ بنت فكرَةٍ أمْ بنت كرمةٍ ؟

فانظرْ كيفَ فعلتُ في هذا الموْضعِ، فإني [حين] أخذْتُ تلكَ الكلماتِ من البيت الشّعريّ التزمت بأن أؤاخيَها بما هُو مِثلُها أو أحسَن منها، فجئت بهذا الفصل كما تراهُ، وكذلك ينبغي أنْ يُفعلَ في ما هذا سبيله.

وأما القسم الثالثُ — وهو أعْلى من القسمين الأوّلينِ — فهو أن يأخذ المعنى فيصاغَ بألفاظٍ غير ألفاظِهِ. ومن ثمّ يتبينُ حذقُ الصائغِ في صياغته ويعلمُ مقدارُ تصرُّفِهِ في صناعته، فإنِ استطاع الزيادةَ على المعنى فتلك الدرَجة العالية، وإلاّ أحسَنَ التصرفَ وأتقن التأليفَ ليكونَ أوْلى بذلك المعنى منْ صاحبه الأول.

واعلم أنّ من أبْيات الشعر ما يتسعُ المجال لناثره فيُورِدهُ بضروب من العباراتِ، وذلك عندي شبيهٌ بالمسائلِ السّيالةِ في الحسابِ التي يُجاوِب عنها بعدّة من الأجوبة. ومن الأبيات ما يضيقُ فيهِ المجالُ حتى يكادَ الماهرُ في هذه الصناعة أن لايخرُجَ من ذلكَ اللفظ، وإنما يكونُ هذا لعدم النظير. فأمّا ما يتّسعُ المجالُ في نثرِه فكقول أبي الطيب المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أشواقه   حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد نثرتْ هذا المعنى، فمنْ ذلك قولي: لا تعذُل المحبّ في ما يهواه حتى تطْوي القلبَ على ما طواه. ومن ذلك وجهٌ آخر، وهو: إذا اختلفت العينان في النظر فالعذْلُ ضرب من الهذر، وأما ما يضيقُ فيهِ المجال فيعسُرُ على الناثر تبديلُ ألفاظه — كقول أبي تمامٍ:

تردّي ثياب الموتِ حمراً فما أتى   لها الليلُ إلاوهي من سندس خضر

قصد أبو تمام: المؤاخاة في ذكر لوني الثّياب من الأحمر والأخضر، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أرادهُ من لون ثياب القتلِ وثياب الجنّة، وهذا البيتُ لا يمكنُ تبديل ألفاظه — وهو وأمثالُهُ ممّا يجبُ على النّاثر أنْ يحسن

الصنعة في فكّ نظامه لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه، فإن كان عنده قوّة تصرفٍ، وبسْطة عبارةٍ، فإنه يأتي به حسناً رائقاً.

وقد قلت في نثره: لم تكسُه المنايا نَسْجَ شفارهـا حتى كسته الجنّة نسجَ شعارها فبُدّل أحمرُ ثوبه بأخضره، وكأسُ حمامه بكأس كوثره.

وإذا انتهى بنا الكلامُ إلى ههنا في التنبيه على نثر الشعر، وكيفيّة نثره، وذكر ما يسهلُ منه، وما يَعْسُرُ، فلنتْبع ذلك بقولٍ كُلّيٍّ في هذا الباب فنقول:

من أحبّ أن يكون كاتبـاً أو كان عنده طبعٌ مجيبٌ، فعليه بحفظ الدواوين ذوات العدد، ولا يقنعُ بالقليل من ذلك، ثم يأخذ في نثر الشعر من محفوظاته.

وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد فينثرُه بيتاً بيتاً على التوالي.

ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشّعر بألفاظه أو بأكثرها فإنـه لا يستطيع إلا ذلك.

وإذا مرنت نفسه، وتدرّب خاطره، ارتفع عن هذه الدرجة، وصـار يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده، ثم يرتفعُ عن ذلك فيكسوه ضروباً من العبارات المختلفة، وحينئذ يحصُل لخاطره بمباشرة المعاني لِقاحٌ فيستنتجُ منها معاني غير تلك المعاني.

وسبيله: أن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً، ولا يزال على ذلك مدّة طويلة حتى تصير له ملكةً؛ فإذا كتب كتاباً أو خطب خطبةً تدفّقت المعاني في أثناء كلامه وجاءت ألفاظه معسولةً، وكان عليها جدّة حتى تكاد ترقصُ رقصاً — وهذا شيء خبرتهُ بالتّجربة، ولا ينبئُكَ مثل خبير.

(عن «المثل السائر» باختصار)

التخلص والاقتضاب في مواضيع الإنشاء

التخلص : هو أن يأخذَ مؤلف الكلام في معنىً من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكونُ بعضُه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطعَ كلامهُ ، ويستأنف كلاماً آخرَ ، بل يكون جميع كلامه كأنما أُفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوّة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ،ويكون متّبعاً للوزْن والقافية ، تُؤاتيه الألفاظ على حسب إرادته .

وأما الناثر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء ، فلذلك يشقُّ التخلّصْ على الشاعر أكثر مما يشق على الناثر ، وممـا جاء من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

خَليليَّ إنـّي لا أرى غير شاعرٍ ... فَلِمْ منهم الدعوى ومني القصائدُ
فلا تعجبا ؛ إن السيوف كثيرة ، ... ولكنَّ سيْفَ الدولة اليوم واحدُ

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى أن الخروج إلى مدح الممدوح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحدٍ ؟

والاقتضاب : أن يقطع الشاعر كلامهُ الذي هو فيه ، ويستأنف كلاماً آخر غيرَه من مديح أو هجاءٍ أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول : كقول أبي نواس – المتوفى سنة ١٩٨ هـ – في قصيدته النّونية التي لم يكمّل حسنها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضابـاً ؛ فبينما هو يصف الخمرَ ويقول :

فاسقني كأسـاً على عذلٍ ... كرِهتْ مسموعَـه أذني
منْ كـُمَيتِ اللـّون صافية ... خير ما َسلستَ في بدني
ما استقرّت في فؤاد فتىً ... فـَدَرى ما لوعة الحزن

حتى قال :

تَضحكُ الدُّنيا إلى مَلكٍ ‌ ‌ ‌ قامَ بالآثار والسُّنَنِ
سَنَّ للنّاس النّدى فندَوْا ‌ ‌ ‌ فكأنَّ البُخلَ لم يكُنِ

وإذا لم يحسُن التخلصُ ، بأن كان قبيحاً ممسوخاً فالاقتضابُ أولى منه .

فينبغي لسالك هذه الطريقة أن ينظرَ إلى ما يَصوغهُ ، فإن أتاه التخلّصُ حَسناً كما ينبغي ، وإلا فليدعه ولا يستكرهْه ، حتى يكونَ مثلَ هذا .

واعلم أنّ التخلّص غيرُ ممكن في كل الأحوال ، وهو من مُستصعبات علم البيان فليتدبر الشاعر ذلك .

(عن « المثل السائر » بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الانشاء وختامها

الافتتاحُ أن تجعلَ مَطلع الكلام من الشّعر أو الرّسائل دالا على المعنى المقصود من ذلك الكلام : إن كان فتحاً ففتحاً ، وإن كان هناءً فهناءً ، أو كان عزاءً فعزاءً وهكذا ، وفائدته أن يُعرّفَ من مبدإ الكلام ما المراد منه ، فإذا نظمَ الشاعرُ قصيدة — فإن كانت مَديحاً صِرفاً لا يختصّ بحادثة من الحوادث ، فهو مخيرٌ بين أن يفتتحها بغزَل ، وبينَ أن يرتجلَ المديح ارتجالاً من أوّلها — كقول القائل :

إن حارتِ الألبابُ كيف تقولُ ‌ ‌ ‌ في ذا المقامِ فعُذرُها مَقبولُ
سامِحْ بفَضْلكَ مادِحيكَ فمالهم ‌ ‌ ‌ أبداً إلى ما تستحق سبيل
إن كانَ لا يُرضيكَ إلا مُحسنٌ ‌ ‌ ‌ فالمحسنونَ إذَن لديك قليل

وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادثِ كفتح مُقفلٍ ، أو هزيمةِ جيشٍ أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يُبدأ فيه بغزَل ، ومن أدب هذا النوع أن لا يذكر الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يُتطير منه ، أو يُستقبحُ لاسيما إذا كانَ في التهاني ،

فإنه يكون أشد قبحاً، وإنما يُستعمَل في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلامُ في المديح مفتتحاً بشيءٍ من ذلك، تَطيَّر منه سامعه ، وإنما خُصَّت الابتداءات بالاختيار لأنها أوّل ما يَطرُق السمع من الكلام ، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعدَه توفرت الدواعي على استعماله ، والختامُ : أن يكون الكلامُ مؤْذناً بتمامه ، بحيث يكونُ واقعاً على آخر المعنى ، فلا ينتظرُ السامع شيئاً بعدَه ؛ فعلى الشاعر والناثر أن يتأنَّقا فيه غاية التأنّق ، ويُجوِّدا فيه ما استطاعا لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع ، ويتردَّدُ صداهُ في الأذن ، ويعلَقُ بحواشي الذِّكر فهوَ كمَقطع الشراب ، يكون آخرَ ما يمرُّ بالفَم ، ويُعْرَضُ على الذَّوْق ، فيَشْعُرُ منه بما لا يشعُر من سِواه ، ولذلك ينبغي أن يكون الختام مُميَّزاً عن سائر الكلام قبلهُ بنكتةٍ لطيفةٍ أو أُسلوبٍ رشيقٍ أو معنىً بليغ ، ويُختار له من اللفظ الرَّقيقُ الحاشيةِ ، الخفيف المحمل على السمع والسهل الورودِ على الطَّبع ، ويتجافى بهِ عن الإسهاب والتعقيد والتّقَل ، وغير ذلك ، وحُكم الختام كما سبق أن يكون مُؤْذناً بتمام الكلام بحيث يكون واقعاً على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئاً بعده ، وإذا لم يكن المعنى دالًّا بنفسه على الختام حَسُنَ أن يُدَلَّ عليه بكلام آخرَ ، يُذكر عَقِبَ الفراغ من سياقه الأغراض السابقة ، وحكمه أن يكون منتزعاً ممـــا سبقه فيُقفّى به تقريراً لشيء من الأغراض أو إجمالاً لِمفصَّلها ، مُورداً على وجه من وجُوه البلاغة ، أو الكلام الجامع ، أو مخرَجَ المثل ، أو الحكمةِ ، أو ما شاكل ذلك ، مما تُعلقُه الخواطر وتُقيده الأذهان ، كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ :

وما أَخُصُّكَ في بُرْءٍ بتَهْنِئَةٍ إذا سَلِمْتَ فكلُّ الناس قدْ سَلِموا

وكقول الزَّمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ في ختام إحدى مقالاته : «إن الطيشَ في الكلام يُترجِم عن خِفّةِ الأحلام ، وما دخلَ الرِّفق شيئاً إلا زانه ، ومـا زان المتكلم إلا الرَّزانةُ » .

وأما في غير ذلك، فالأكثرُ فيه أن يُضَمَّنَ غرضاً آخر من الدعاء، أو عَرض النفسِ على خدمة المكتوب اليه، أو ترقُّع الجوابِ منه، أو غير ذلك ممّا تحتَمِلهُ مقامات الكلام، وتقتضيه دواعي الحال.

وأكثر ما يختمونها في النثر بعد الأغراض المذكورة بقولهم: «إن شاء الله» أوْ «بمنّ الله وفضله» وما أشبه ذلك.

وكثيراً ما يختِمُ الناثر بقوله: «والسلام» أو «بلا حوْل ولا قوّة إلا بالله» أو بقوله: «والله المستعان» أو بقوله: «والحمد للهِ أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً» أو بقوله: «والله أعلم» أو غير ذلك.

وربما خُتم بِمَثَلٍ، كخِتام الخوارزْميّ المتوفى سنة ٣٨٣ هـ رسالته بقوله: «ولقد سلكَ الأمير منَ الكَرمِ طريقاً يستوحش فيها لقِلّة سالكها، ويتيه في قفارها لدروس آثارها، وانهدام منازِلها، أعانه الله على صعوبة الطريق، وقِلّة الرفيق، وألهمَهُ صبراً يُهوّن عليه احتمالَ المغارمِ، ويقرّب عليه مسافة المكارم.

فبالصبر تنالُ العُلا، وعند الصّباح يُحْمَد السُّرَى».

ومن أمثلَته في الشعر قوْل ابن الوَرْدي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ:

سلامٌ عَليكم ما أحبّ وِصالكم ... وغايَةُ مجهودِ المُقِلّ سَلام

تقسيم الإنشاء إلى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين: فن الشعر المنظوم، وهو الكلام المُقفّى الموزون بأوزان مخصوصةٍ، وفن النثر، وهو الكلام غير الموزون، فأما الشعر فمنه المدح والهجاء، والرثاء، وأما النثر فمنه ما يؤتى به قِطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافيةٌ واحدة، ويسمى سَجْعاً، وهو ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يكون

الفصلان مُتَسَاوِيَين ، لا يزيد أحدهما على الآخر ؛ كقوله تعالى : « فَأَمَّا اليَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ، وأمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ » وهو أشرف السجْعِ منزلةً للاعتدال الذي فيه ، والقسمُ الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طولاً يَخرج بهعن الاعتدال خروجاً كثيراً ، فإنّه يَقبُح عند ذلك ، ويُسْتكره ، ويعدّ عيباً . فممّا جاءَ من ذلك قوله تعالى: « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بالسَّاعَةِ سَعِيراً . إذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لهَا تَغَيّظاً وَزَفِيراً . وَإذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً »[١] ، فالفصل الأول ثمان لفظات ، والثاني والثالث تسعٌ تسع . ويستثنى من هذا القسم: ما كان من السّجع على ثلاث فِقر ؛ فإن الفِقْرَتَينِ الأوليَينِ تحسبان في عدّةٍ واحدة ، ثم تأتي الثالثة ، فينبغي أن تكون طويلةً طولاً يزيد عليهما ، وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله تعالى : « فِي سِدْرٍ[٢] مَخْضُودٍ[٣] وَطَلْحٍ[٤] مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ[٥] » . والقسم الثالث أن يكون الفصلُ الآخر أقصرَ منَ الأوّلِ وهو عيبٌ فاحشٌ[٦] . وأما النثر المرسلُ ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير تقيّد بقافية ولا غيرها ، وهو الذي يُطْلَقُ فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّعُ أجزاءً ، بل يُرْسَلُ إرسالاً من غير تقيّد بقافية .

(من « المثل السائر » باختصار)

---

(١) ويلا . (٢) شجر النبق .

(٣) مقطوع شوكه . (٤) الموز .

(٥) متراكم بعضه فوق بعض .

(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة واختيار التأليف الفصيح وكون اللفظ تابعاً للمعنى لا عكسه — وكون كل واحدة من الفقرتين أو الفقر دالة على معنى لئلا يصبح الكلام طويلاً معيباً .

كيفية عمل الشعر

اعلم أنّ لعمل الشعر وإحكامِ صناعته شُرُوطاً :

أوّلها : الحفظُ [١] من جنسه — أي من جنس شعر العرَب — حتى تنشأ في النّفس مَلَكة يُنسج على منوالها ، ويُتخيَّرُ المحفوظُ من الحرّ النقي الكثير الأساليب، وهذا المحفوظ المختارُ أقلُّ مايكفي فيه شعرُ شاعرٍ من فحول الإسلام ، مثل : ابن أبي رَبيعَةَ ، وكثيِّر ، وذي الرُّمة ، وجرير ، وأبي نُواس ، وأبي تمام ، والبُحتري ، والشريف الرّضي ، وأبي فراس ، وأكثرهُ شعرُه كتاب الأغاني ، لأنه جمعَ شعرَ أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بُدّ لهُ من الخلوة واستجادّة المكان المنظوم فيه ، باشتماله على مثل المياه والأزهار ، وكذا استجادةُ المسموع ، لاستنارَة القريحة باستجماعها ، وتنشيطها بملاذّ السُّرور . ثم مع هذا كله ، فشرطُهُ أن يكون على جمام [٢] ، ونشاط ، فذلك أجمع له وأنشطُ للقريحة أنْ تأتي بمثل ذلك المنوال الذي يساعد في حفظه ، قالوا : وخيرُ الأوقات لذلك أوقات البُكَرِ [٣] عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاطِ الفكر ، وربما يكون من بَواعثه العشق

(١) ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء — ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط. واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ. ثم بعد الامتلاء من الحفظ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال، يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم الملكة وترسخ. وربما يقال: إن من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها . فإذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ في النسيج عليه بمثالها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

والانتشاء. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله، فليَتْرُكْه إلى وَقْتٍ آخر، ولا يُكْرِهْ نفسهُ عليه، وليكن بناءُ البيت على القافية من أوّلِ صوغه ونسجه، يَضَعُهَا ويبني الكلام عليها إلى آخره، لأنه إن غفل عن بناءِ البيتِ على القافية صَعُبَ وَضْعُهَا في محلّها، فربما تجيءُ نافرة قلقة. وإذا سَمَحَ الخاطر بالبيتِ ولم يناسب الذي عنده، فليتركْهُ إلى موضعه الألْيَقِ به، فإن كلَّ بيت مُسْتَقلٌّ بنفسه، ولم تبقَ إلا المناسبةُ، فليتخيَّر فيها كما يشاءُ، وليُراجِعْ شِعْره بعد الخلاص منه، بالتَّنْقيح[1] والنَّقْدِ، ولا يَضِنّ[2] بهِ على التركِ إذا لم يبلغ الإجادة، فإنَّ الإنسان مفتونٌ بشِعْرِهِ، إذ هو بناتُ فكره، واختراع قريحتـهِ، ولا يستعملُ فيه الكلام إلا الأفصح من التراكيب، والخـالص من الضَّرورات اللّسَانيَّةِ فَلْيَهْجُرْهَا فإنها تنزلُ بالكلام عن طبقةِ البلاغة، وقد حظّر أئمة اللّسان على المولَّدِ[3] ارتكابَ الضرورة، إذ هو في سَعَةٍ منها بالعدول عنها إلى الطريقة المُثلى من الملكة، ويجتنبُ أيضاً المعقّد من التراكيب جَهْـدَهُ، بحيث تكون ألفاظه على طِبْقِ معانيه تسابق ألفاظـُهُ إلى الفهم، ويجتنب أيضاً الحواشي من الألفاظ، والمقصّرَ، وكذلك السُّوقيّ المبتذل، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً، فيصيرُ مُبْتذلاً، ويقرب من عدم الإفادة، وفي هذا القدْرِ كفايةٌ لمُتَعَاطي صِنَاعة الإنشاء.

(عن « ابن خلدون » باختصار)

---

(١) بالتهذيب.

(٢) بفتح الضاد وكسرها لا يبخل.

(٣) هو من وجد بعد اختلاط العجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن بعده.

فنون الإنشاء

فُنون الإنشاء سبعةٌ وهي : المُكاتباتُ ، والمُناظراتُ ، والأمثالُ والأوصافُ ، والمقاماتُ ، والرّواياتُ ، والتاريخُ

الفن الأول

في المكاتبات والمراسلات

المكاتبة ، وتُعرفُ أيضاً بالمراسلة ، هي مخاطبةُ الغائبِ بلسان القلم. وفائدتها أوْسَع من أنْ تُحْصر من حيثُ أنها تُرْجمانُ الجنان ، ونائب الغائب في قضاء أوْطاره [١] ، ورباطُ الوداد مع تباعد البلاد . وطريقة المكاتبة هي طريقةُ المخاطبة البليغة مع مُراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنّسبة بينهما [٢] ، وخوا صها خمسٌ : السّذاجة ، والجلاءُ ، والإيجازُ ، والملاءَمَةُ ، والطّلاوةُ [٣] . فالسّذاجة : تجعلُ الكلامَ فطريًّا سليماً من شَوائبِ التكلّفِ ، مُنزّهاً عن زخرف [٤] القول ، بعيداً عن بهرَجة [٥] الكلام . والجلاء : هو العدولُ عن الكلام المُغلَق ، والتّشابيه المُستبعدة ، والتراكيبِ المتلبسةِ إلى الكلام المهذب الصريحِ . والإيجازُ : تنقيحُ الرسالةِ من حشو الكلام ، وتطويل الجمل ، فيبرزها وافيةَ الدلالة على المقصود ، مقتصرةً على المحسّناتِ القريبة

(١) الحاجات . (٢) قال ابراهيم بن محمد الشيباني : إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقتهم فخاطب كلا على قدر أبهته وجلالته وعلو مكانته وانتباهه وفطنته. ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك. فلا تكتب لمن أصيب في ماله أو في عياله كما تكتب لمن فرغ باله ووفر ماله. وقال آخر: ان بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة إلى المتكلم — واعلم أن لكل مقام مقالاً .

(٣) بتثليث الطاء. (٤) مزوره. (٥) العدول عن الجادة المقصودة .

المنال[١]. والملاءمة، تنزّلُ الألفاظَ والمعاني على قدرِ الكاتب والمكتوب إليه، فلا تُعطي خسيسَ الناسِ رفيعَ الكلام، ولا رفيع النّاس خسيس الكلام، على أنها تجعلُ الرّسالةَ وتعابيرَها مُستعذبةَ الأوضاعِ، حسنةَ الارتباط، يأخذُ بعضُها بأزمّة بعضٍ. والطلاوة: تكسُو الكلامَ رَوْنقاً وإشراقاً بجودةِ العبارة، وسلامة المعاني، وسلاسةِ الألفاظ[٢]، وتجعلُهُ بذلك أحسنَ موقعاً عند سامعه.

أبواب الرسائل

تنقسمُ الرسائلُ باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام: الأوّلُ الرّسائلُ الأهلية والثاني الرّسائلُ المتداولةُ، والثالث الرسائلُ العلميّة

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائلُ الأهليّةُ – وتُعرفُ برسائل الأشواق – هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء، وأسفرت[٣] عن مكنون[٤] الوداد، وسرائر الفؤاد، ولا حرَجَ على الكاتب إذا بسط فيها الكلامَ على أحواله، وأحفى السؤالَ في أحوال أصحابه. وتتفردُ هذه الرسائلُ بأن يُطلقَ الكاتبُ فيها العِنان للأقلام، ويتجافى عن الكلفة، ويعدلَ عن الانقباض. وقد قيل: «الأنسُ يُذهبُ المهابة، والانقباضُ يضيّعُ المودّة». هذا، ولا بدّ منْ مراعاة مُقتضَى الحال، والاعتصام بركْن الفطنه أخذاً بقول أبي الأسودِ الدُّؤلي:

لا تُرسلَنَّ رسالةً مَشهورَةً   لا تستَطيعُ إذا مَضَتْ إدراكها

---

(١) ولا يعد مناقضاً للإيجاز ما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع: إما تعزيزاً للمعنى وإما حذراً من الإبهام، أو دلالة على عواطف القلب، أو رغبة في تفكيه الخواطر، قال الأقدمون: «خير الكلام ما قل ودل، ولم يطل فيمل».

(٢) سهولتها.   (٣) كشف.   (٤) مستور.

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتَّعارفُ قبل اللّقاء، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغيرُ ذلك ولنذكرْ شذراتٍ من أقوال الكتّاب[١] .

الفصل الأول في الشوق

كتب أبو مَنصور الثّعالبي النّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوْقي إليكَ رهينُ قلبي ، وقرينُ صَدْري ، والزعيم[٢] بتعليق فكري ، وتفريقِ صبري ، وسميرُ ذكري ،ونديمُ فكري ،زادِي في سَفري ، وعتادي[٣] في حَضَري ، لا يستقلُّ به صدري ولا يقوى عليه صَبري ، يكادُ يكونُ لِزَاماً ويعدُّ غراماً لا يرْحل مقيمُه ، ولا يُصرف غريمُه ، استخفَّ نفسي واستفزَّها، وحرّك جوانحي وهزّها. شوْقي أخذ بسَمْع خاطري وبصَره ، وحال بين موْرد[٤] قلبه ومصدره[٥] شوقٌ قد استنفد جَلَدي[٦] وملكَ خَلدي[٧] ، شوق براني بَرْيَ الخلال[٨] ، ومحقني مَحْق الهلال، شَوْقٌ تركني حَرَضاً[٩] ، وأوْسعني مضضاً[١٠] أراني الصبر حسرَةً، والوجد ميمنة ويُسرة، شوق يزيدُ الأُيام[١١] توقداً وتأججاً، وتضرّماً وتوهجاً، نار الشّوق حشو ضلوعي، وماء الصّبابة ملء جُفوني، أنا من لواعج الشّوق بين غمائم ؛ لا تمطر إلا صواعقَ وسمائم[١٢] ، قد قدَحتْ كبدي من الحُرْقة بهذه الفرقة ، ما يفوت أيسرُه حدَّ الشكايَةِ ، ويجوز أضعفُه كُنْهَ الكتابة ، شوقُ الروض الماحل[١٣] إلى الغيث الهاطل .

---

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتاباً خاصاً أسميناه (إنشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع إليه إذا شئت ولهذا نختصر في هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ما تمس إليه الحاجه فقط (٢) الرئيس (٣) ما أعددته لحوادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجوع (٦) القوة (٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضاً (١٠) وجعا (١١) بضم الهمزة وكسرها الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجدب

وكتب في تشبيه الشوق :

ما الأعرابية حنّتْ إلى نجد ، وأنّتْ من وجد ، بأشدّ مني كلفاً [١] ، وأتم مِنّي شغفاً ، أنا في شدة الشوق إليك كالعطشان كُشِفَ له عنْ ماءٍ عَذْب ، ومُنِعَ منه بمانع صَعْب ، شوق لو فُرّق على القلوب الخالية لاشتغلتْ ، ولو قُسّم على الأكباد الباردة لاشتعلتْ ، أنا أشتاقُكَ مع كلّ صباحٍ طالع ، وضياء شارق ونجم طارِق [٢] .

وكتب في أثر الفراق :

وَجدٌ يتكرر على كرّ الجديدين [٣] ، ويستغرق ساعات الملوَين [٤] ، قد تحمّلت مع يسير الفُرْقةِ ، عظيم الحرْقة ، ومع قليل البُعْد ، كثير الوَجد ، قد انثنيتُ بجسم ناحِل ، وصِرْتُ من صَبري على مراحل ، فأرقتْني [٥] وفرقتَ جميعَ صبري واستصحبتَ فريقاً من قلبي ، فرقت بين عيني والرُّقاد [٦] وجنبي والمهاد [٧] ، ما أعوّلُ إلا على العَويل [٨] لو كان يُغني ، ولا أستنصِر غير الوجد لو كان يُجْدِي [٩] ، يَدي لا تُساعِدني ، وخطّي لا يُشْبه في الدّقةِ إلا بَدَني ، لولا حصانة [١٠] الأجل لخرجتْ روحي على عجل ؛ فارَقْتني فَتفرقَ عني شملُ أنس مُنتظم : وتمكن مني بَرَحُ شوق مُضطرِم ؛ فارقتني ففرّقتَ بين الرُّوح والبدن ، وتركتني والنزاع في قرن [١١] ، قد صِرْتُ حليف وحشة وإن كنتَ ثاوِياً [١٢] في وطن ، وقرين كرْبة وإن كنت بين جيرةٍ وسكن .

عَسى الدهْر يُدْنينا ويدني دَيَاركُمْ ويجمع ما بيني وبينكمُو الشملا

---

(١) كلفاً مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتي ليلاً (٣) الليل والنهار
(٤) الليل والنهار أيضاً (٥) أسهرتني (٦) النوم (٧) مكان النوم
(٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر
(١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقيماً .

فأشكو تباريحَ الغرام إليكمُو وحرّ جوى يُبْلي عِظامي وما يَبلى

وكتب البسطامي المتوفى سنة ٣٣٢ هـ.

قَلْبي بِنَارِ الهَوى مُعَذَّبْ شَوْقاً إلى حضرةِ المُهذَّبْ
شوقاً إلى ماجدٍ كريمٍ يخطُرُ لي ذكرُهُ فأطرَبْ

وبعدُ فالعبدُ ينهي من لوَاقحِ[1] شوقه، ولوَافحِ[2] توَقّهِ[3]، إلى شُهود ذاتكم الجميلة، ومُشاهدةِ صفاتكم الجليلة، لينشَقَ عَرْفكم[4] الفائح، وبخورَ عُرْفكم[5] الفاتح، مد الله سبحانه وتعالى ظِلكم، وأدرَ وَبلكم[6] وطلّكم[7].

أُحِبُّ الوَعْدَ منكَ وإن تمادى وأقنعُ بالخيَالِ إذا ألمّا
عسَى الأيام تَسْمَحُ لي بِوَصل وتأخذُ لي مِنَ الهجرَان سِلْمَا

والجنابُ منذ طوى عنّا أبوابَ مُلاقاته، وزوى منّا أطايبَ أوقاتهِ، قبض العبدُ عنانَ مقاله وخفض لسانَ حاله:

شكوت وما الشكْوى بمثلي عادةٌ ولكن تفيض العين عنــد امتلائها

فجلس الفِراقُ بعظيمِ حجابه، وأليم عذابه، على ذرْوَةِ[8] عَرْشه، وافترس بقوّة بطشه، وصار للسرّ جاراً، وأوقد للحرْب ناراً جهاراً:

طوعاً لقاضٍ أتى في حكمِهِ عجباً أفتى بِسَفْكِ دَمي في الحلّ والحرم

وهذه حالتُه، المفصح عنها مقالتُهُ:

إنَّ الأمورَ إذا التَوتْ وتعقّدت جاء القضاء من الكريمِ فحلّها

---

(١) الرياح (٢) الرياح الحارة (٣) الشوق الطيب
(٤) الريح الطيبة (٥) نبت يقال له الثمام طيب الرائحة
(٦) المطر الكثير (٧) الندى (٨) بضم الذال وكسرها أعلاه.

فلعلَّ يُسراً بَعد عُسْرٍ علتَّها ولعلَّ مَن عَقَدَ العقودَ يحلـّها

فلعلَّ غروس التـَّمني قد أثمَرَتْ ، وليالي الحظِّ قد أقمرتْ .

سألتُ أحبَّتي مـا كان ذَنبي أجـابوني وأحشائي تَـذُوبُ
إذا كان المُحِبُّ قليل حظٍّ فمـا حَسَناتُه إلاّ ذُنوبُ

فرَعى اللهُ أياماً لاحت [١] فيها أقـْمارُ [٢] غـُروزهـا وفاحت فيها أطراز طروزها ، من بهاء سمائها ، على منار ضيائها ، من ذات جلالها ، وصفات دلالها ، في جنـَّات عواطفها وحنـَّاتِ تعاطفها .

فإن كنتُ لا أطـْرُقُ [٣] رَحْبَ [٤] فِنائكم [٥] ، فقد أطرُقُ بابَ ثنائكم :

لئن غيبتني عن ذُرَاكَ حَوادثٌ فليس ثـَنائي عن فِناك بغائبِ

وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ ه :

كتبت — أعزّك الله — عن ضمير انـْدَمَج [٦] على سِرٍّ اعتقادك دُرُّه ، وتبلج [٧] في أفق ودّادك بَدْرُه ، وسالَ على صفحات ثنائك مسكهُ ، وصار في رَاحتيْ سَنائك [٨] ملكهُ . ولما ظفرت بفلان حمّلته من تحيتي زهراً جنيـاً ، يوافيك عَرْفهُ ذكيّاً ، ويُواليكَ أنسه نجيّاً [٩] ، ويَقضي من حقـّكَ فرضاً مأتيّاً [١٠] . على أن شخص جلالك لي ماثلٌ [١١] ، وبين ضلوعي نازلٌ ، لا يملـّه خاطر ولا يمسّه عرض دائر [١٢] ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

وكتب أبو الفضل بن العَميد المتوفى سنة ٣٦٠ ه .

قد قَرُبَ (أيدكَ الله) محَلـّكَ على تراخيه ، وتَصاقَبَ [١٣] مُسْتَقَرُّكَ على

(١) ظهرت (٢) مراده ما تخرجه الأغصان من النوار (٣) آتي ليلا
(٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفي واستتر (٧) أضاء
(٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتياً (١١) متمثل (١٢) هالك.
(١٣) حاذى وجاور .

تنائيه ، لأنَّ الشَّوقَ يُمثلك ، والذكرَ يُخيِّلك ، فنحنُ في الظَّاهر على افتراق ، وفي الباطن على تـلاق ، وفي النِّسبة مُتباينون ، وفي المعنى متواصلون ، ولئن تفارَقتِ الأشباحُ لقد تعانقتِ الأرواحُ .

وكتب بديع الزَّمان الهمذَاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

يَعِزُّ عليَّ – أطال الله بقاءَ مولاي – أن يَنُوبَ في خدمته قَلَمي عن قدَمي ، ويَسعدَ برؤيته رسولي دُون وصُولي ، ويَرِدَ مَشرعةَ الأنس بـه كتابي : قبل ركابي ولكِنْ ، ما الحيلة والعوائق جمة !!

* وعليَّ أن أسعى وليس عليَّ إدراكُ النجاح *

وقد حضرتُ دارَه ، وقبَّلتُ جِدارَه ، وما بي حُبُّ الحيطان ، ولكن شغفاً بالقُطَّان ، ولا عِشقُ الجدران ولكن شوقاً إلى السكان :

أمرُّ على الدِّيار ديار سلمى أقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدَارا
ومـا حُبُّ الديار شَغفن قلبي ولكن حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وحينَ عدت العَوَادي عنه ، أمليتُ ضمير الشّوق على لسانِ القلم ، معتذراً إلى مَولاي على الحقيقة عن تقصير وقع ، وفتُور في الخدمة عَرَضَ ، ولكني أقولُ :

إن يكن تركي لقصدك ذنبـاً فكفـى أن لا أراك عقـابَا

وكتب أبو محمد عبد الله البَطَلْيَوسيُّ المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يا سيدي الأعلى ، وعمادي الأسنى ، وحَسَنَةَ الدّهر الحسنى ، الذي جلّ قدرهُ وسار مسيرَ الشمس ذكره ، ومَن أطال الله بقاءه ، لفضل يُعلي مَنارَه ، وعِلْمٍ يُحيي آثاره – نحنُ (أعزَّك الله) نَتَدانى إخلاصاً ، وإن تناءينا أشخاصاً ، ويجمعنا الأدبُ ، وإن فرَّقنا النَّسَب ، فالأشكال أقاربُ ، والآداب مناسِب ، وليس يَضرّ تنائي الأشباح ، إذا تقارَبَتِ الأرواح :

نسيبيَ في رأيي وعلمي ومذْهبي وإنباعدَتْنا في الأصولِ المناسبُ

وكتب بديع الزّمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أراني أذكرُ « مولاي » إذا طلعت الشمس ، أو هبّت الرّيح ، أو نجَمَ النّجم أو لمع البرقُ ، أو عرَضَ الغيث ، أو ذُكِرَ اللّيثُ ، أو ضحكَ الرّوضُ ، وأنّى [1] للشمس مُحياه [2] وللريح ريّاه [3] ، وللنجم حُلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه [4] وسناه [5] وللغيث نِدَاه [6] ونَدَاه [7] ، وفي كل صالحةٍ ذكراه ، وفي كلّ حادثة أراه ، فمتى أنساه ؟ واشِدَّة شوقاه ، عَسى الله أن يجمعني وإيّاه .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

ما زلتُ أُدافعُ النفسَ عمّا تتقاضاني من شكوى أشواقها ، وفي الشّكوى شِفاءٌ ، واستنزال أثرٍ من لدنك تتعللُ به مسافةُ البين [8] ، إلى أن يمُنّ الله باللّقاء ، ومن دون إجابتها مشاده [9] قد شغلت الذرع [10] ، وشواغلُ قد أفرغ من دونها الوسعُ ، إلى أن غلبَ جيش الوجد على معاقل الصّبر ، وزاحمَ مناكب العَدْواء حتى ضرَب أطنابَه [11] بين الحجاب [12] والصّدر ، فاتخذتُ هذه الرّقعة أُزجيها [13] إليك ، وفيها من وقرِ [14] الشّوق ما ينوءُ [15] برسولها ، ومن رِقّة الصّبابة ما يكاد يطيرُ بها ، أو يخلفها فيصافحُ الأعتابَ قبل وصولها ، راجياً لها أن تُتلقّى بما عُهدَ في سيدي من الطلاقة والبِشْر ، وأن لا يَضن [16] عليها بما عوّدني من تمهيد العذْر ، ويَصِلَني من بعدها بأنبائه [17] الطيّبة ، عائدة عنه بما يكون للناظر قرّة ، وللخاطر مَسَرّة ، إن شاء الله تعالى بمنّه وكرمه .

---

(١) أي من أين (٢) وجهه (٣) رائحة طيبة (٤) الرفعة
(٥) بالقصر الضوء (٦) بضم النون وكسرها أشهر الصوت (٧) العطاء
(٨) البعد (٩) مشاغل (١٠) بسط اليد (١١) الحبل يشد به سرادق البيت
(١٢) لحمة رقيقة بين الجنبين (١٣) ارفعها (١٤) بكسر الواو الحمل الثقيل
(١٥) يثقل به (١٦) أي لا يبخل (١٧) أخباره .

وكتب أيضاً :

وافاني كتابُــك العزيز – فأهلاً بأكرم رسول : جاء ببيِّنات الإخلاص والوفاء ، مصدِّقاً لما بين يديه من ذِمَّة الوداد والإخاء ، يتلو عليَّ من حديث الشوق ، ما شهد بصحته سقمي ، وهتف مؤذِّنه في كل مِفصَل من جسمي ، ويذكِّرني من عهدك ، ما طالما أذكرنيه البرقُ إذا لمعَ ، والبدرُ إذا طلعَ ، والقُمرِي[١] إذا سجع ، وإنما عداني عنك : ما أنا فيه من مُجَاذبة الشواغل ، ومساورة[٢] البلابل[٣] :

وفي القلب ما في القلب من شَجَن الهوى تبدَّلت الحـالاتُ وهو مُقيمُ

وأنا – (على ما بي من غلِّ البنان[٤] ، وشُغل الجنـان[٥]) – ما زالت أنباؤك[٦] عندي ، لا يخطئُني بريدها ، ولا ينقطعُ عنِّي ورُودها ، أهنىءُ النَّفسَ منها بما تتمنَّى لك من سلامة لا يرِثّ[٧] لها شعارٌ ، وإقبال لا يعترضهُ بإذن الله إدبارٌ .

وقُصارى المأمول في كرمك : أن تُعاملَني بما سبق لك من جميل الصِّلة ، إلى أن يمنَّ الله بالاجتماع ، ويُغنني بالعيان عن السماع ، وما ذلك على اللهِ بعزيزٍ .

وكتب أبو العباس الغَسّاني المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سِرْ إلى مجلسٍ يكادُ يسيرُ شوقاً ، ويطيرُ بأجنحةٍ مِنْ جَواهُ حتى يحلَّ بين يديك ، فللهِ درُّه[٨] كالِه : إنْ طلعْتَ بدراً بأعلاه ، وجماله : إن ظهرتَ غُرَّةً بمُحَيّاه ؛ فهو أفُقٌ قد حوى نجوماً تتشوَّقُ إلى طُلوع بدُورِها ، وقطرٌ قد اشتمل على أنهارٍ تتشوَّقُ إلى بحرِها ، لنستمِدَّ منهـا – إن مننتَ بالحضور ، وإلا فيا خيبة السرور .

---

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنثاه قمرية ، وللذكر ساق أحمر .
(٢) ملابسة (٣) الأحزان (٤) الأصابع (٥) القلب
(٦) أخبارك (٧) لا يبلى (٨) كلمة تعجب

وكتب الصاحب إسماعيل بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :

مجلسُنا يا سيدي مُفتقرٌ إليكَ ، مَعوّلٌ في شوقه عليك ، ولقد تورّدت خدود بنفسجه ، وفتقت فأرة[1] نارنجه [2] ، وانطلقت ألسُنُ الأوتار ، وقامت خطباءُ الأطيار ، وهبتْ رياحُ الأقداح ، ونَفقتْ [3] سُوق الأنس والأفراح . وقد أبتْ راحتُه أن تصفوَ إلا أن تتناولَها يمناك ، وأقسم غناؤُه لا طيبَ حتى تَعيَه أذُناك ، ووجنات أترُجِّه قد احمرّت خجلاً لإبطائك ، وعيونُ نرْجسه قد حدّقتْ [4] تأميلاً للقائك ، ونحن لغيبتك كعقد ذهبتْ واسطتُه [5] ، وشباب قد أُخذتْ جِدّته [6] ، وإذا غابت شمسُ السماء عنّا ، فلا أن تدْنُو شمسُ الأرض منّا . فإن رأيتَ أنْ تحضر لتتصل الواسطة بالعقد ، ونحصُلَ بك في جنّة الخُلْد . فكن إلينا أسرعَ من السّهم في ممرّه ، والماء إلى مقرّه ، لئلا يخبث منْ يومي ما طابَ ، ويعود من نومي ما طار .

وكتب أبو بكر الخُوارزمي — المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

كتابي : وأنا بما يبلغني من صالح أخبار (السيد) مُغتبطٌ مسرورٌ ، وبما يعرفُه الزمانُ وأهله من اعتضادي[7] به مَصون موفور ، والله على الأولى محمودٌ ، وعلى الأخرى مشكور ؛ التطفل وإن كان محظوراً في غير مواطنه ؛ فإنه مباحٌ في أماكنه . وهو وإن كان في بعض الأحوال يجمع عاراً ووِزراً ، فإنه في بعضها يجمع فخراً وذخراً ، وربّ فعلٍ يصاب به وقتهُ فيكونُ سُنّةً ، وهو في غير وقته بدعةٌ ، وقد تطفّلت على « السيد » بهذه الأحرف ، أخطب بها مَوَدّته إليه ، وأعرض فيها مودّتي عليه وأسأله أنْ يرسم لي في لساني وقلبي رَسماً ، ويختم عليهما ختْماً ، فقد جعلتُها باسمه وقصرتُها على حكمه ، وسأضعها

---

(١) فجآت المسك (٢) ثمر ، معرب باربك (٣) راجت
(٤) تاقت (٥) الجوهرة التي في وسطه وهي أجوده
(٦) الطريقة (٧) استعانتي .

تحت خَتْمه ، وبرئت إليه منها ، وصرتُ وكيله فيها ، فهما على غيره حمى[١] لا يُقرب ، و بحيرة[٢] لا تحلب ، ولا تركب . ولما نظرتُ إلى آثار السيد على الأحرار ، ونُشِرَتْ طراز محاسنه من أيدي القاصدين والزُّوَّار ، ورأيتُ نفسي غُفلا[٣] من سِمَة[٤] مودته ، وعُطلاً[٥] من جمال عِشرته حَمَيْتُها من أن يحمي عليها ورِدٌ مورود ، ويحسر[٦] عنها ظلٌّ على الجميع ممدود ، وعجبتُ من :

سحابٌ خطاني جُوده[٧] وهو صيِّبٌ[٨] وبحرٌ عداني سيله وهو مفعَمُ[٩]
وبدرٌ أضاء الأرضَ شرقاً وغرباً وموضعُ رجلي منهُ أسودُ مُظلم

كتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

مولاي: أمَّا الشَّوقُ إلى رؤيتك فشديدٌ ، وسلْ فؤادك عن صديق حميم[١٠] وودّ صميم[١١] ، وخلة لا يزيدها تعاقُبُ الملوين[١٢] وتألق[١٣] النيرين[١٤] إلا وُثوقاً في العُرى ، وإحكاماً في البناء ، ونماءً في الغِراس وتشييداً في الدَّعائم[١٥] ولا يظنَنّ سيدي أن عدم ازدياري[١٦] ساحتهُ الشريفة واجتلائي طلعته المُنيفة لتقاعُس[١٧] أو تقصير ، فإنّ لي في ذلك معذرة اقتضت التأخيرَ ، والسيد (أطال الله بقاءه) أجدرُ[١٨] من قبل معذرة صديقه وأغضى عن رَيث[١٩] استدعته الضرورةُ .

(وبعدُ) فرجائي من مقامكم السّامي أن لا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم عن زيارتي فلكمْ مِنناً طوّقتمُونيها ، ولكم فيها فضلُ البُداءة ، وعليَّ دوامُ الشكران . والسلام .

---

(١) محظور (٢) الشاة التي إذا نتجت عشرة أبطن شقوا أذنها فكانت حراما لحمها ولبنها وركوبها (٣) من لا علامة عليه (٤) العلامة (٥) من لا حلى عليها (٦) يكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) المتلىء
(١٠) القريب الذي يهتم لأمره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) اللمعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان (١٦) زيارتي
(١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء .

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :

كتابي إليك : وقد طال بيَ الانتظار ، وشوقي يجلُّ عن الكيف والانحصار فشخصُكَ دائمَ المثول ١ أمام إنساني ٢ ، وعن سواك من الأخلاَّءِ ألهاني وأنساني. فللهُ أيامٌ قضيناها ، وليالٍ من الدهر اختلسناها ٣ ، كان السرور فيها ضارباً خيامَه ، والأنس ناشراً أعلامَه — طُوي بساطُها ، وكأنَّ الأمر ما كان غيرَ أنها زَرَعَتْ بفؤادي شجرةَ الأشجان ٤ ، لكن عودَها حليفُ أوْبتك ٥ وتجدُّدَها رَهينُ إشارتك . فمتى يقربُ المزارُ ، وتنجلي سُحبُ الأكدار؟فاضربْ لعَوْدكَ أجلاً،فالعودُ لاشك أحمدُ،واكتُبْبقُرْبكوصلاً فالوَصلُ أضمنُ للعهد، وعهدي من خُلقك الوَفاءُ ، وحُسنُ الوَلاءِ ، فلا تجعل صَفْقَةَ ٦ شوقي إليك خُسراً بل هَبني بعد العسر يسراً .

وكتب وفاء أفندي محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أما بعدَ سلامي عليك ، فهذا كتابي اليكَ ، يُنبئُك ٧ عنّي وعن شوقي وعن وُدّي ٨ ولا أزيدك علماً أني ما كتبته من دواةٍ ، ولا أجريتُ عليه قلماً ، ولكنها دُموعٌ وشوقٌ سالت على القرطاس ، وجرَتْ على حركات الخواطر والأنفاس وَهَبَتْ عليه حرارة كبدي بالأشواقِ ،وَوجدي بالفراق ، فبينما هي عقيقةٌ حمراءُ، إذْ صارتْ فحمةً سوداء! ألا وإنّ كتابي هو قلبي ولساني. أمَا تراهُ على رقّته، ولُطفِ عبارته ، وصدْق طويّته، بين يديك مُقبلاً عليكَ ؟ ينشرُهُ الشوقُ ويطويه ، لا يُخفي عليك أمراً ولا يَكتمُ عَنك سراً ، وتلك صفاتُ لساني وقلبي معك .فما الذي أبتغيته بعدُ؟ !وقد بعثت اليك بالأصغرَين! ٩ وما أنا إلاّ بهذين! نعم أرجو بقاك ، ممتعاً بنعماك ، لأكونَ على الدّوام محلّ

---

(١)القيام منتصبا(٢)إنسان عيني وهو ما يرى في السواد(٣) انتهزنا فرصتها
(٤) الأحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها لعقد البيع
(٧) يخبرك (٨) بتثليث فائه (٩) القلب واللسان .

نظرك والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابي لديك ، يصفُ شوقي إليك، ولا يَخفى عليك، فمذ فارقتني فرّقتْ بينَ أنسي ونفسي ، بلْ بين رُوحي وجسمي . ولا تعجَب إذا كنتُ أغدُو وأرُوح فالطيرُ يمشي منَ الألم وهو مذبوح، وإنّي أشكو إليكَ من ألم الوحشةِ غراماً لا يشعُر به إلا من ذاقَ أنسكَ وعرَفَ مِقدارَ نفسكَ وشاهَدَ جمال لُطفِكَ ، ورأى كمالَ أدبكَ وظَرْفكَ . ولقــد أوْدع الله في شخصك نوراً لعيني ، وفي حديثك سُروراً لفؤادي ، وفي صفاتك ترويحاً لرُوحي ، وفي كرم خُلُقِكَ تفريحاً لنفسي :

وإذا وَصف الناسُ أشواقهمُ فشوقي لوجهك لا يوصفُ

فعندي لكَ منَ المحبةِ والشَّوق ، والتّلهُّفِ والتوق ، ما لا يَصفه الواصفون ولا يُعبّر عن حقيقتهِ العارفون :

الشوق فوق الذي أشكو إليك وهلْ تَخفى عليــكَ صبَاباتي وأشواقي ؟!

فيا شوْقي لِى لُقْياك ! ووَاهفي على جَمال مُحَيّاك ! قيَّدْتَ أملي عن سواك وبهرْتَ ناظري بنظرَة سَناك وكسرْتَ جيش قراري ؛ وتركتني لا أُفرّق بين ليلي ونهاري :

فؤادي والهوَى سِلمٌ وحرب وسُلواني أقامَ على الحِيادَه
وشوقي كامِلٌ ما فِيه نقصٌ فلَسْتُ عليْهِ أطمعُ في الزيادَه

فليت شِعري ، ماذا أصنع في شوْقي أنا مدفوعٌ إليه من صادقِ حبي ، بعواملَ صادفَتْ منّي قلباً خاليًا ، فتمكّنت بالتّعارف ، ولم تدَع للسلوَان سبيلا ؟

عرَفت هواه قَبل أنْ أعرِفَ الهوى فصادَفَ قلبــاً خاليــاً فتمكّنا

إي وربي ، إن شوقي إليك شوقُ الظمآن إلى بَرْد الشّراب ، وحنيني لك حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ، فما الإبلُ وقد حنّت إلى أعطانها ، والغرباءُ وقد أنّت إلى أوطانها ، بأعظمَ منّي حنيناً ، ولا أكثر أنيناً

ولكنَّ التّفرُّق طـال حتى توقّدَ في الضُّلوع لهُ حريق

فكلّما تخطرُ ببالي ، في أي وقتٍ من الأوقـات ، يمثّلُ لي التذكرُ منك منك محاسنَ ولطائفَ ، تجذبني مَيلاً إليك ، وتُطربني شغفاً بـك واغتباطاً بإخائك ، فلا عجب أن كان شوْقي لرُؤيتك عظيماً ، لأنه كما قيل « من كَرَمِ الرّجل حنينُه إلى أوطانه ، وشوقهُ إلى إخوانه » :

يا خلاصَ الأسير يا صِحّةَ المُد نف يازَوْرَةً على غـيرِ وعـدِ
يا نَجاةَ الغَريقِ يا فرْحةَ الأو بَةِ يا قفْلةَ أتَتْ بعد بُعـد
إرْض عنّي فَدَتْكَ نفسيَ إني لك عبدٌ أذلُّ من كلِّ عبـد

ناشدتُك الله أن ترفُقَ بحالي ، وتعيدَ وصالي ؛ وارْعَ الودَّ القديم ، وأبدلْ شقاء محبّك بالنعيم ؛ وأغمد سيفَ ظلمات القطيعة المسلولَ ، وأوْف بالعَهْدِ إن العهد كان مسئولا .

الفصل الثاني في التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن في الظّاهرِ على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، نحـن نتناجى بالضمائر ونتخاطبُ بالسرائر ، إذا حَصلَ القُرْبُ بالإخلاص ، لم يضُر البُعد بالأشخاص ، أنا أُناجيكَ بخواطرِ قلبي ، وإن كان قد غاب شخصُك عنّي ، إن أخطأتكَ يدي بالمكاتبة ، ناجاك سرّي بالمواصلة ، رُبّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

بخلوص نفسه . إن تراخى اللقاءِ ، فإنّنا نتلاقى على البعاد ، ونتلافى [١] نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تشتاقُ الجنانُ ، وإن لم تتقدّم لها العينان ، أنا وإن كنت ممنْ لا يَسعدُ بلقائك ، فقد اشتمل عليّ الأنسُ ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التي سارت أخبارها ، ولاحت آثارُها ، لا زالت الأيّام تكشف لي من فضلك ، والأخبار تعرض عليّ من عقلك ، ما يشوّقني إليك ، وإن لم أرَك ، ويزيدني رغبةً في ودّك وقد سمعتُ خبرَك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أن شغفَ [٢] الجنانِ [٣] بالحسن والإحسان ، تكونُ داعيتُهُ المشاهدة وتسريح الأنظار ، في مُحَيّا الكمال ، ومُجتلى الجمال ، فترى العينُ من تلك الغرّة ، ما يملؤها قرّة ، فكذلك السماع يَستدعي هذا الشّغفَ ؛ فيتأثرُ الفؤادُ بما يُشَنّفُ [٤] الأذنَ ، مما تهديه إليه طرائف [٥] الأخبار ، حتى كأنّ حاسّتي السّمع والبصر في ذلك صِنْوان [٦] ، بل أخَوانِ في هيكل هذا الجثمانِ [٧] .

وقد يعلمُ السيدُ (أطال اللهُ بقاءه وأدام ارتقاءهُ) أنّ ذلكَ الأمرَ (أي الشّغَف بالسّماع) ليس بالحديث العهد ، ولا القريب الجدة [٨] ، بل هو أمرٌ عُرفَ قديماً أن يهديَ السماع إلى سُوَيداء القلب لاعجَ [٩] الحبّ سَعّره [١٠] من الأنباءِ [١١] عَرْف [١٢] شميم [١٣] فتهيمُ [١٤] بمجرد استنشاق ذلك الشّميم [١٥] حتى يقولَ الشاعرُ العرَبي :

* والأذنُ تعشقُ قبل العينِ أحياناً *

---

(١) نتدارك (٢) دخول الحب في غلاف القلب (٣) القلب

(٤) يزين (٥) المستملحة (٦) هما فرعا النخلة (٧) بالثاء والسين والجسم

(٨) الخطوة (٩) المتردد (١٠) أوقده (١١) الأخبار

(١٢) الريح الطيبة (١٣) مشموم (١٤) تذهب (١٥) المرتفع .

أَجَلْ [١] ! والقُدْرة في هذا المعنى ، والأس [٢] لذلك المَبْنى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إني لأشمُّ نفسَ [٣] الرّحمن منْ قِبَل اليَمن » لمـــا أمْلَتْه العناية الرّبّانيّة ، والملكُ الرّوحاني ، على قلبه الشّريف من نبأ [٤] القرني [٥] أويس [٦] ، ولم يكن رآه بعدُ .

ألا وإن محاسن السّيد الأجل ، لمّا سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كلّ لسان ، ما بين أخلاق أبهى من الرّوض النّضير [٧] ، وأعراق أشهى من عذَيب النمير [٨] قد احتلت من فؤادي ، لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شماء [٩] ، ودارةً [١٠] علياء ، وأوجاً [١١] بطوالعها السّعيدة يُسْعد ، ويلوح بها من ذكراه كلّ حين فرْقد [١٢] فلم أنْشَبْ [١٣] أن قدّمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللّقاءِ علّه أن يسمحَ بهِ الزّمانُ ، وتُسْفِر [١٤] عنه الليالي والأيام ليُتاح [١٥] لي ريُّ الفؤاد بما أرْويه من حديث زيد الخيل ، الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لي أحد فرأيته إلا وجدته دونَ ما وصف لي سِوَاك ، وإن فيك خَصْلتين يُحبُّها الله : الحلم ، والأناة » . مقتدياً بالإمام (محمود جار الله) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه (الشريفُ بن الشّجريّ) أوّل ما لقيه ، وكانا قد تحابّا بالسّماع :

كانت مُسَاءَلةُ الرُّكبان تخبرنا عن جابر بن رَبَاحٍ أطيبَ الخبَرِ
حتى اجْتَمعْنا فلَا والله ما سَمِعَت أذُني بأحسنَ مما قد رأى بَصَري

---

(١) حرف جواب مثل نعم (٢) الأصل (٣) كناية عن الوحي
(٤) الخبر (٥) نسبة إلى قرن وهي قبيلة (٦) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل في واقعة صفين مع علي كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتيكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرىء منه إلا موضع درهم وله والدة هو بها بار ولو أقسم على الله لأبره (٧) الحسن (٨) الماء الزاكي (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطي .

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ — ١٩١٩ م :

يعلم الله ما عندي من الشوق إلى لقاء السيد ، وإن لم يَرَه البصَر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يكتحِل بإثمِدِ [١] محاسنه النظر ، والشغفُ بسماع الحديث منه ، كما سمعته عنه ، فقد سَبقتْ ذكرى محاسنه إلى السمع ، ووصــل خبرُ لَطائفه إلى النفس (ومـــا المرءُ إلا ذِكرهُ ومآثرهُ) وحسَدَت العينُ عليه الأذُنَ وَودّتْ لو أنها السابقة إلى اجتلاءِ رقائقه ، وشهود حقائقه

* فللعَيْنِ عشقٌ مثلُ ما يعشَقُ السمعُ *

لا جَرَمَ أن ما تعارَفَ من الأرواح ائتلَفَ ، وما تناكَر منها، كما قيل ، اختلَف ، ونحن — وإن بَعُدتْ بيننا الشقةُ [٢] ، ولم يَسبق لنا باللّقاءِ عهدٌ — فلُحْمةُ [٣] الأدب تجمعُنا ، ووحدة الوِجهة تضمُّنا ، ولُحْمة الأدب أقوى مِن لُحْمة النسب ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوُجوه ؛ وقد رأيت أن أزْدَلف [٤] إليك بالمكاتبة ، وأتوسّل إلى شَرَف التعرف بالمراسلة ، حتى لمْ يبق في الصبْرِ على الافتراق مسكَةٌ [٥] ، ولبى الجسم دَعوَةَ الرّوح ، فاندفعَ إلى طلب الاجتماع ، أكونُ قد مَهّدْتُ له سبيلا ، ووطأت [٦] لهُ طريقاً ، فلا تبهرُني [٧] فرحةُ اللقيا ، ولا يغرُّني [٨] طرَب الظفر « فمِن فرَح النفس مـــا يقتلُ ، ومنْ نشوَةِ [٩] الرّاح [١٠] ما يُزْهِقُ الأرواحَ » .

فإن رأى السيدُ أن يُكاتبَ عبدَهُ ، ويعتقه من رقّ الفرقة ، عجل بجواب هذا الكتاب ، ليعلم العبد أن نميقَتَه صادفَتْ [١١] قبولا ، وأن وسيلَتَه

---

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرابته (٤) أتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيأت (٧) لا تغلبني (٨) لا يعلوني (٩) بفتح النون وكسرها السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت

اتخذتْ إلى سَيدِه سبيلا ، قرّب اللهُ زمنَ اللّقاء وقَصّرَ أمد النّوى ١ ، حتى أنْشِد في الختام :

تطابقَ الخُبْرُ في عليــاك والخَبَرُ وصدّقَ السمعَ في أوْصافِكَ البَصَرُ

وكتب أحمد أفندي سمير المتوفى سنة ١٣٢٩ ه :

يعلم سيّدي أنّ المودةَ لا تُباع ولا تشرى ، وإنمـــا هي نتيجة الاجتماع والتّعارُف ، وقَــد خُلِقَ الإنسان مضطرًّا إليهما ، لأن انتظام العُمران عليهما موقوفٌ ، ولهذا شهد العيان بأنّ المنفردَ بأعماله المستبدّ بآرائه ، عرضة للخطأ ، مَظنةٌ لعدم الثقة ، بخلاف مـــا إذا كان الاشتراك في الفكر قاعدةً للعمل فلا بدّ أن الصواب يتمحّضُ منه ، لضعف التفرُّد وقُوة الاجتماع ، إذ لا جَرَمَ أن المرءَ كما قيلَ : « قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه » .

وقد سمعتُ عن السّيد ، وقرأت من آثاره المأثورة ما حبّبهُ إليّ ، وشاقني للتعرُّف به ، لنَشْترِكَ في مَنفعَة تبادُل الأفكار ، فإني لا أكتفي بمجرد السماع ولا أقول : « أن الأذُنَ تَعشق قبل العين » فإنما هي جارحة صغيرة – ولكن كلي ميالٌ إليه ، محبٌ لاستجلاء مَرآهُ ، عالمٌ أني إذا دخلتُ إلى مَودَتِهِ من باب التلاقي ، لا أجد دهري

يقرب مِنّي كل شخصٍ كرهته ويبعد عني مَن إليْهِ أميــلُ

فإن لم يتيسر أن يَراني أو أراهُ . فليسعدني ببضعة أسطُرٍ تضمنُ لي رضاه عن هذه المعرفة الترسُّلية . لنتراءى بأعيُن الطروس ٢ ، قبل أعيُن الرؤُوس ، ونتجاذبَ أحاديثَ المراسلة ، إن عَزّت المقابَلة ، وقد وقفت عليه خالص وُدّي ، واختَرْتُهُ من بين رجال العصر ، سعياً لكسب المعالي بمعرفته . فكلٌ

---

(١) البعد (٢) الصحائف

امرىءٍ بما كَسَبَ رَهين [١] ، وأن لَيْسَ للانسانِ إلاّ ما سعَى

عن المرء لا تسألْ وَسلْ عن قَرينه فكل قرينٍ بالمُقارن يقتدي

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

لم أكن فيما أكتبه لك إلا سارياً في ليل التعارف على ضياء خِلالك [٢] ، التي أملاها عليّ لسانُ المدح ، الذي شرّق وغرّب ، وطبقَ الأرضَ صيته ، وإني وإن لم أكن أسْعِدْتُ من قبل باجتلاء طلعتك الزّاهرةِ ، واجتناء مُفاكهتِك الغضّةِ [٣] ، فقد دلّني على الليث زئيرهُ [٤] وعلى البحر خَريره [٥] ، وعلى العقل أثره ، وعلى السيف أثره. [٦] ولئن لم تجمعنا لُحمةُ [٧] النسب ، فقد جمعتنا حرْفَةُ الأدب ، أو لم يضمنا قبلُ مصيفٌ ومُرْتبعٌ ، فالطيور على أشكالها تقع ، وشبه الشيء مُنجذِبٌ إليه ، وأخو الفضائلِ هو المُعَوّل عليه .

وهذه الرُّقعة وإن وصَفَت لك بَعْضَ ما أنا مَطويٌّ عليه من التهافُتِ على رؤيتك ، والميل إلى صداقتك ، فقلّما تَنُوب عن المشافهة ، أو تقضي حاجات في النّفْس طالما تردّد صداها . وفي ظنّي أن (سيّدي) يوَدُّ ما أوَدُّهُ . وعما قليل يُسْفر صبحُ اللقاء ، ونتجاذَبُ أهداب المعرفةِ ، وأرى من (سيّدي) فَوْق ما توسمته وسمعته ، ويرى مني ما يرضيه والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ :

أيها (السيد) العزيز الجناب ، الغزير الآداب :

قد علمت — ولا أزيدك علماً ، زادك الله ولا نقصك — أن الإنسان كما اشتق اسمهُ من الأنس ، كذلك جُبل عليه مسماه ، وأن المجتمع الإنساني عقد يتحلى

---

(١) مرهون (٢) مصادقتك وإخائك (٣) اللينة (٤) صوته
(٥) صوته أيضاً (٦) جوهره (٧) القرابة .

به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته [١] التعارف ، فهذان الأمران هما قطب المدار في هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسُنُ الحال وينعم البال ، وتدرّ ضروع المنافع ، وتَتفجّرُ عيون الفوائد ، ومن ثم كان أوفر الناس حظاً من مغنم الإنسانية ، من يَألف ويُؤْلف ، ولا خير فيمن لا ... ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : « وَجَعلناكُمْ شُعوباً وَقَبَائلَ لِتَعَارفوا » .

ذلك – (أيها السيد) هو الذي بعثني أن أكتب إليك ، أستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل واستصبح في سبيل صحبتك بمصباح التوسُّل ، لا أبالي بما ينسب إلي ويُنتَقمُ علَيّ ، ممن عسى أن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مأدبة أدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك ألا أشبه بالتبرج [٢] لغير خاطب ؟

أيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى [٣] لا يذاد [٤] عنها واغِل [٥] : لأسرعت معي الى الوغول [٦] ، ولم تر في التودد إلى أهل الفضل من فضول . وأي عيب على النكرة في التحلي بحلية المعرفة ؟ ومصاحبه الأعلام ؟! أما سمعت قول القائل :

بصُحْبتك الكرام تعدُّ منهم وتأمن من مُلمّات الزمان !

وكيف أضع نفسي بحيث يقول الأول :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيتها [٧] واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي !

وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبغيها ، ويبتغي المناقب

---

(١) الجوهرة التي في وسط العقد وهي أجوده (٢) إظهار المرأة زينتها للرجال (٣) العامة للجماعة (٤) لا يطرد (٥) المتطفل
(٦) التطفل (٧) بكسر الباء الطلب وبضمها الحاجة .

وذَويها ، ويَقِفُ نفسهُ على مسألة يعلمها، وفضيلة يتحلى بها، وآخر يبذل وجهه المصون ، في ملء الحقائب [1] والبطون !

هذا : وقد رجوت أن أكون الرجل الأول بصحبتك « أيها السيد » فكم رُوِي لنا من أحاديث فضائلك الصحاح، وتلي علينا من آيات فضائلك الحسان، ما [2] أشخص إليك القلوب قبل قوالبها وأوفد عليك الأرواح قبل أشباحها ، وأعجلني أن أكتب إليك بهذا الرقيم ، التمس بالتعرف إلى جنابك الكريم ، ما التمس الكليم من صحبة ذي الوجه النضر [3] ، أبي العباس الخضر . وإني وإن كنت والحمد لله ممن آمنوا بالغيب ، وليس عندي في صدق هذه الآيات مرية [4] ولا ريب، بَيْدَ [5] أن للصحبة فضلاً لا ينكر ، وللمؤاخاة مزية لا يتمارى [6] فيها اثنان :

فإذا ورد على السيد كتابي هذا : وانشرح صدره — شرح الله صدره — إلى إجابة سؤلي ، وارتاحت نفسه إلى اصطناعي كتب إلى عبده بما يكون آية جلية على ارتياحه ، لتحقيق هذه الأمنية

حتى أقولَ لوجْه آمالي ابتهجْ   لأُوَلِّيَنَّكَ قِبلةً تَرْضاها

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر المتوفى سنة ١٩٣٠ م :

إنسانَ العيْن ، وعيْنَ الإنسان :

المودة — وصل الله بأجفان الأشواق أهدابها ، وفتح لنا أبوابها — أمر عزيزُ المرتقى ، على من يصطفي صديقه ، ويرعى حقوقه ، وإني اصطفيتك على الناس برسالتي هذه ، وعهدي بكرم سجاياك أن تصافحها براحة القبول ، وتتخذها فاتحة ود طارت به إليك رياح فضلك ، بعدما تمثلت آياته لك في القلوب معنى ظهرت في مرآة الأعين صورته .

---

(١) الزكائب   (٢) ما : فاعل روى   (٣) الحسن
(٤) شك   (٥) غير   (٦) لا يختلف

فإنْ أَبَيْتَ وِدادي غيرَ مكترثٍ فعنكَ ما دُمتُ حيّاً لا أرى بدلا

وحاشاكَ عن مثل ذلك الإباء، ونحن وإن لم تَحْظَ أشباحنا باللقاء، فأرواحنا من قبل جنود، وأعيننا شهود، فإن أنت منحتني ولاءً خالصاً، وإخاءً صادقاً، (وإلا فهبني أمرءاً هالكاً) ولا إخالُكَ ترضاه، وإن كنتُ المتطفلَ على مائدة مودَّتك، فلي نفسٌ أديب لا ترى العزَّ إلا في الترامي على ذرى الكمال، لا زلتَ على مَرْقي الجلال، والسلام.

وكتب الفاضل السيد محمد الببلاوي:

سيّدي: إنَّ مكارمَ الأخلاقِ ومعاليَ الهِمَم مما تسترقُّ القلوب، وتسرقُ العقول، وتمتلك الأرواح، وإن لمْ تتلاقَ الأشباحُ، فإني مُذْ سرَى إليَّ النسيم بأخلاقكم الغرّاء، وابتسم لي ثغرُ هذا العَصْر عن آثاركم الزّهرَاء، وتواترتِ الأخبار بحبكم للفضل وأهلِهِ، وارتياحِكمْ للعلم وذويه، وأنا مشغوفُ الفؤاد بالتعرُّف بسيادتكم، مشغولُ البال بالتوسُّل إلى رياض مودّتكم. ولِعلمي أن للصّداقة حقوقاً، وللمُصاحبة شرُوطاً، ربما صعُبت على من حولها، وعزّت على من أراد الوفاء بها، كنت أرى الوَحدة لي أوْلى، والانفرادَ بي أسلمَ، ولكن ما زالت تَنْمي [1] إليَّ أحاسنُ شمائلكم المشرَّفة، وتتواردُ على مسامعي محاسنُ سيركم المطهرة؛ فيَنمو الوجد ويزْداد الشوْق «والأذن تعشقُ قبل العين أحياناً»، وما كنت أجدُ سبيلاً للتعرُّف ولا سبباً للتوَدُّد، ولا تجسر نفسي على المرَاسَلة ابتداءً: إلى أن رأيتُ سيّدي قد اهتم للأدب فأعلى مَنارَه، ونظرَ للإنشاء فرفع مقدارَه: ونصر دوْلته وأحيا صَوْلته، وأعاد شبابهُ، وفتح لأدباء هذا العصر بابه فعلمت أنّ الدّهرَ قد سَاعَدني، والفرصةَ قد امكنتني مِن مُصافحةِ ما أمّلتُ ومُصافاةِ ما أردت، من اجتناء ثمار مودّة سيدي، والتعرُّف به

(١) تزيد.

والتمسّك بأهداب فضائله والتزوّد من آدابه ،فإن الأدب أحسنُ ما يُستَصبح بأنواره[١] ، وأشرف ما يُتسابقُ لاقتطاف أثماره[٢] ويُحمَدُ التطفّلُ على موائده ، ويُمدح التنافس في التقاط فوائده ، فجعلت طلب الانتظام في سلك أرباب الأقلام وسيلةً لوُرودِ عذْب وِداده ، ونمير[٣] التعرُّف به ، فإن رأى سيدي أن يَعُدّ نفسَ حُرٍّ في عِداد معارفه ، ويُقابل رسالتَهُ بما اشتهر من لطائفِه حتى تتمتع بالرؤية الأبصار ، كما تمتعت المسامعُ بطيب الأخبار ، كنتُ مُديمَ الشكر لأفضاله ، مُستمرَّ الثناء على كماله .

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أما بعد – فهذه رسالة أكتبُهَا إلى من لم تكُنْ لي به جامعة جسمية ، ولم تضمني وإياه حفلةُ تعارف شخصية ، وهي وإن كانت في عُرْف غيري تعدُّ هُجُوماً،أو تُحسَبُّ فُضولاً،إلا أني أعتقِد أنها أُوفِدَتْ على كريم يُكرم وفادتها ويتقبَّلُ ما تهديه إليه من زعيم تحية وجليل إجلال،ويجتلي من خِلالها إرادةَ ودٍّ،ورجاءَ ولاءٍ،وبُغْية فضل ورغبة في إخاء،فيُحلها منه محلَّ القبول ويدرَأ[٤] عنها وصمةَ[٥] الفُضول. إنّ لسيدي آثاراً شاهدناها ، فاستفدناها ، ومآثر سمعناها ، فرَوَيناها أو تناقلناها ، ولا مِرْيَة[٦] في أنَّ ما غابَ عنّا منها،أكثر مما وعينا ، وأوفى مما سمعنا ، ونحن – والله يعلم – طلأبُ كمالٍ ، ومنتجعو أفضالٍ[٧] ، وروّاد[٨] ما خصب من فيحاءِ العلوم . وقد توسّمْنا[٩] في السيد – أطال اللهُ بقاءه– طِلبتَنَا ، ووجدنا لديه ضالتنا ،فحثثنا إلى رِحابه مطيّة المكاتبة ، ولنا أملٌ كبيرٌ في نوال المأمول لعلّه يجنَح[١٠] إلى مُقابلة المثل بالمِثْلِ فيكتب

(١) أضوائه . (٢) أزهاره . (٣) الزاكي . (٤) يدفع .
(٥) العار . (٦) بضم الميم وكسرها الشك . (٨) طالبو معروف
(٨) طالبون له . (٩) تفرسنا . (١٠) بتثليث النون : يميل .

لأخيه بعضَ كُلُمَيْمَاتٍ ، يعرف منها أنه قَبِلَ الإخاء ، ومال إلى مقتضى طبعهِ من الوفاء ، ولا أظن ذلك إلا وقد كان أقرب ما يكون من الزمان ، فإنّ الأرواح ما تعارَف منها ائتلف ، كما برهنه الأصحاب في معاشراتهم خلفاً عن خلف .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سَمِعْنَا بأوصافٍ لكم كَمُلَتْ ‏ ‏ سَرَّنَا ما سَمِعْنَاه وأحيانا
من قبل رُؤْيتكم نِلْنَا محبَّتكم ‏ ‏ والأُذْنُ تعشَق قبل العين أحياناً

سيدي ومولاي :

لقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ، ما يدعوني لخطب ودك ؛ ويُرَغِّبني في إخائك ، ويحببني في التوسل إلى معرفة جنابك ، وإن لم تجمعنا جامعة شخصية ، ولم تضمَّنَا حفلة تعارف ذاتية ، إلا أن أحاديث فضائلك الصحاح ، أوْفدت عليك الأرواح قبل الأشباح ، والولاء والإخلاص ، قبل الأجسام والأشخاص ، ولا غَرابة في ذلك ، فإن من سنةِ اللهِ في خلقهِ : أن يُؤلِّف بينَ الأرواح وأمثالها ، وإنّ لله ملائكة ، يسوقونَ الأشكال إلى أشكالها ، وشِبْه الشيء مُنْجذبٌ إليهِ ، وأخو الفضائل هو المعوّل عليه .

إنّ القلوب لأجناد مُجَنَّدَةٌ ‏ ‏ للهِ في الأرض بالأهواءِ تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو مُؤتلفٌ ‏ ‏ وما تناكر منها فهو مُخْتَلفُ

فلذا اصطفيتك لنفسي ، واخترتك لموَدّتي وأُنسي ، نتَنَاجى بالضمائر ونتخاطب بالسَّرائر ، وإن بَعُدْنا في الظاهر فرُبَّ غائبٍ بنفسه ، حاضرٌ بخلوص نفسه .

فإن أبَيْتَ ودادي غيرَ مكترثٍ ‏ ‏ فعنكَ ما دُمْت حيّاً لا أرَى بَدَلا

وحاشاك عن مثل هذا الإباء ، والهجرِ والجفاءِ .

لكلِّ امرىءٍ شكلٌ من الناسِ   وكلُّ امرىءٍ يَهْوَى إلى من يشاكله

ناشدتك الله أن تقبلَ مِنّي الإخاءَ ، وتضمنَ لي الوفاء ، وأنا أرْضى بك من الدنيا نصيباً ، وأختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث في رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥ هـ يوم النيروز إلى بعض أهل السلطان :

أيها الشريف :

عِشْتَ أطولَ الأعمار بزيادة مِنَ العمر ، مَوْصُولةٍ بفرائضها مِنَ الشكر ، لا ينقضي حقُّ نِعْمَةٍ حتى يجدّدَ لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقَصِّراً عمّا بعده ، موفياً عمّا قبله .

إني تصفحت أحوال الأتباعِ الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ، والتمست التأسِّي بهم في الإهداء وإن قَصّرَتْ بي الحال عن الواجب — فوجدت أني إن أهديت نفسي فهي مِلْكٌ لك ، لا حظَّ فيها لغيرك ، ورميت بطَرْفي إلى كرائم مالي ، فوجدتُها منك ، فإن كُنْتُ أهديتُ منها شيئاً ، فإني لَمُهْدٍ مالك إليك ، ونزعتُ إلى مَوَدّتي ، فوجدتها خالصةً لك قديمةً غير مُسْتحدثَةٍ ، فرأيت إن جعلتُها هديّتي ، أني لم أجدّد لهذا اليوم الجديد برّاً ولا لطفاً ، ولم أُمَيّزْ منزلة من شكري بمنزلةٍ من نعمتك ، إلا كان الشكر مُقَصِّراً عن الحقّ ، والنعمة زائدة على ما تبلُغُه الطاقة ، فجعلتُ الاعترافَ بالتقصير عن حقّك ، هديةً إليك ، والإقرار بالتقصير عمّا يجبُ لك ، برّاً أتوسّلُ به إليك ، وقُلْتُ في ذلك :

إن أهدِ مالاً فهو واهِبُهُ   وهوَ الحقيقُ عليه بالشكرِ
أو أهْدِ شكري فهو مُرْتَهَنٌ   بجميلِ فعلكَ آخرَ الدهرِ

والشمس تستغني إذا طلعت أنْ تستضيءَ بِسُنَّةٍ[1] الدهر

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م :

الهديَّةُ في نظر الأصفياء جليلةٌ ، وإن كانت في نفسها قليلةً ، ومكانتها خطيرةٌ وإن كانت يسيرةً ، وسنَّةٌ حسَنَةٌ اجتمعت على فَضلها الألسنة

مضَتِ الدُّهورُ وأمرُها مُستحسَنٌ وتعاقبتْ بمديحهـا الأيام

اللّهم إلا إنْ لَبِست جلْباب[2] الرياء ، ووَلَجتْ[3] أبواب الارتشاء ، ولا مِراءَ[4] إنَّ الأوِدَّاءَ من ذلك براءٌ .

وما زالت الهديَّةُ شِعارَ الأصدقاءِ ، وعُنوان تدكار الوَلاءِ ، وكم جدَّدتْ بين الأصحاب عهودَ التَّحابِ

وتعهدت وُدّاً فعادَ شَتِيتهُ ولشَمْلِهِ بعد البَداد[5] نِظامُ

قد وصلتني يدُ العصا فحبَّذا الإهداء ، وأهلاً بتلكَ اليدِ البيضاء ، وليست هذه أوّلَ أياديك عليَّ ، ولا أكبرَ عارفةٍ جاءَت من ناديك إليَّ ، أمِنْت بها النّوبَ[6] واعتضدْت بها[7] على تفريق شمل الكُرَب .

فإذا طغا[8] بحرُ الهموم ضربتُهُ بعصايَ فـاجتازت[9] به الأقدام

تنفلق بها الأيام صخُورٌ ، فتنبجسُ[10] منها عيونُ السُّرُورِ ، وتَلقفُ ما يصنعَ الأعداء ، فتذهبُ بسحر البَغضاءِ ، وإذا اشتدَّ هَجيرُ[11] الوحشةِ ، نشرَتْ ظلال أنسها ، أوْ عصى فِرْعَوْنُ الدّهْرَ ، راعته[12] بِبأسها[13] .

---

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق
(٦) جمع نائبة : مصيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت
(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أزعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أوْصى الكليمُ[١] لنا بها حتى يرى آياتِــه الأقوامُ

وقد فكرتُ ماذا أُقابلُ به طُرفتك[٢]، وأتلقَّى به تحفَتك، إلى أن هداني الله، أنّ يد المنعم إنما تقابلُ بالأفواه ليُمزز القبولُ بالقُبَل، ويؤدى الرَّسم باللثْم. فأرسلت لك فم سيجارة، وجعلته لهذا المعنى إشارَةً، وقلت:

مولاي كم فاضت يمينُك بالندى[٣] حتى غدوتُ غريقَ بحرِ الأنعُمِ
والشكرُ أوْجبَ أن أقبِّل راحها فكنيت عن هذا بإهداء الفمِ

وقد علمت أن المنظرَ البهيج، يتمُّ بالتدبيج[٤]، فاخترتُ أن يكون مبدأهُ كالليل إذا عَسْعَسَ[٥]، ومُنتهاه كالصبح إذا تنفس[٦]، إيذاناً[٧] بزوال الشُرور بالسرور، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر:

يا أيها المولى الذي عمت أياديه الجميلهْ
إقبَلْ هدية مَن يرى في حقك الدنيا قليله

غرَّةَ وجه السعود وقرة عين الوجود — الأمير الجليل.

يا جليلَ الفضائل — إليك توجه الآمال، ويا جميلَ الشمائل بساحتك تحط الرِّحال، تلك هي الساحة الفيحاء[٨]، والشِّيمة[٩] الحسناء، والهمَّة العلياء، واليد البيضاء، والأعمال التي تُضرب بها الأمثال، كم من نعم أسديتها[١٠]، ومكارمَ أوليتها وعلومٍ أحييتها، فأنت المصدَرُ والموْردُ، والمقصدُ والموْعِدُ، إليك أقدِّمُ تلك الهديةَ المرضية، وأرْفعُ ذلك الكتابَ المستطابَ، مشفِّعاً في قبوله كرَمَ سجاياك، وعِظَمَ مزاياك وإن كنتُ أعلم أنَّ مقامك العليّ يجِلُّ عن أن يرفعَ إليه مثله، فقد عرَّفناك، مُتواضعاً في عُلاكَ، قريباً مع اعتِلاك.

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) إحسانك (٣) العطاء (٤) التزين
(٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) إعلاما (٨) الواسعة (٩) الخلق (١٠) أعطيتها.

دَنوْتَ تواضعاً وعلوْتَ مَجْداً فشأناك انخفـاضٌ وارتفاعُ
كذاك للشمس يَبْعُد أن تُسامى [1] ويدنو الضَّوْءُ مِنها والشُّعاع

وحاشاك أن أُهديَ للقمَر نوراً ، أو للشمس ضِياءً ، أو أبعثَ ببُنيَّة القطْر [2] إلى ذلك البحر ، ولكني أحببْتُ أن يحظى بلثْم بنانِك [3] ، وينال من كرمكَ وإحسانك ، وقد عَهِدْناك تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصّارم [4] وترتاح لإسداء الجميل ، كما يرتاح للكرم النزيلُ ، وللشفاء العليل ، وما هو إلا من نور فكرك مقتبس [5] فعساه يحظى بالقبول ، فأبلغ غاية المأمول والسلام .

وكتب الأستاذ عبدالله بك الأنصاري المتوفى سنة ١٩٣٢ م :

المولى — أدام الله وجوده ممتّعاً بهدايا الأيام ، وتحف الأعوام — طالما أوْفدَ [6] من الرِّفد [7] إليّ ، ووجّه من الخيرات ما أفعَم [8] يديّ ، حتى أصبحت — وله الفضل والمنّة — أجُرُّ ذيولَ النّعماء [9] على غبراء [10] البأساء [11] وأجتَلي [12] معارفَ السّراء بعَوارفه البيضاء ، التي لا يوازيها ثناءٌ وحمدٌ ، ولا يوازنهـا عطاءٌ ورِفد ، ولا يطاولها سماءٌ وبحر ، ولا يغالبها بؤسٌ وفقر ، وإن لي من آلاء [13] السيد — حفظه الله وأدام علاه — ما أينعَ وأزْهرَ ، وأوْرقَ وأثمرَ ، حدائقَ قامتْ لشكره عيدانُها ، وسجدت لفضله أغصانُها ، وترنمت طَرباً ، وتمايلت عجباً بنفحات هي عَرْفُه [14] ، وبركات هي عُرْفُه ، ولي أملٌ في جنابه — وأنا سليل [15] نعمتهِ — وعهدي بأخلاقه — وأنا ابن مودّته أن يمنّ بقبول ما أهديته ، وهو من مال نفسه ، وثمرة غَرْسه ، (باكورة تفـّاحٍ) يرفعهـا إجلالٌ وإعظام ، وتصحَبُها تحية وسلام .

---

(١) تفاخر (٢) المطر (٣) الأصابع (٤) السيف القاطع
(٥) مأخوذ (٦) أرسل (٧) العطاء والصلة (٨) ملأها
(٩) بالفتح النعمة (١٠) الأرض (١١) الداهية (١٢) أنظر اليها مجلوة
(١٣) نعم (١٤) بالفتح الريح الطيبة (١٥) ابن نعمته .

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

الهدية – غمرك الله بالمعروف – تبسطُ يد المودّة، وتدرُّ بها أخلاف[١] القرب وتغرس بين المتحابّين من الائتلاف، بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف، وما أنا فيما أهديه إليك إلا كمستبضع[٢] تمراً الى أرض خيبر[٣]، أو كالواهب الماءَ للبحر، والضوء للبدر، والمُلْكَ لسليمان[٤]، والمالَ لقارون[٥]، والحلم لأحنف[٦]، والذكاء لإياس[٧]، والتفسير لابن عباس[٨]، وما ذاك إلا كتابٌ كما تراه ضَرَبَ في الإحكام بسهمٍ، ووعى من الأحكام، ما خلت منه مفعمات[٩] الأسفار[١٠]، وموجزات الرسائل، فهو كما قيل: «كل الصيد في جوف الفرا»[١١]

تزينُ معانيه ألفاظَهُ وألفاظهُ زائنات المعاني

على أني وإن تطفلتُ عليك، وسقت لك هذا الكتاب مُزْدلفاً[١٢] إلى جنابك الرّحب، ومقامك الأسنى، فقد أصبتُ كبدَ الصّواب، ووضعته حيث يعرفه اهلوهُ، ويتقبله من باذِله عالموه، علماً بأنك عماد العلوم، وأساس الفضائل، لا تغادِرُ[١٣] شاردة إلا وعيتها، ولا نادرةً إلا رويتها، ولا .

---

(١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع بالحجاز (٤) ابن داود النبي عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى عليه السلام أعطاه الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو ابو بحر صخر بن قيس تابعي كبير يضرب به المثل في الحلم توفي سنة ٦٧ هـ (٧) هو ابو وائلة بن معاوية بن مرة المزني يضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢٢ هـ (٨) هو ابو العباس عبدالله بن عباس ابن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ صحابي جليل يلقب ترجمان القرآن توفي سنة ٩٨ هـ (٩) مملوآت (١٠) الكتب (١١) حمار الوحش، ومعناه – كل ما عداه دونه. قاله النبي عليه الصلاة والسلام تطميناً لرجل خرج يصطاد مع اصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشي (١٢) متقربا (١٣) لا تترك .

لو كان يُهدى على قدري وقدركُم   لكُنتُ أهْدي لك الدُّنيا وما فيها

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :

سيدي ومولاي – أطال الله بقاءك ، ورفع في الدّارين عُلاك – الَهديّة مفتاح بابِ المودة ، وعنوانُ تذكار المحبة ، يتسابق إليهما كرامُ السَّجايا [١] ، ويتسارع الى إحيـاء شعائرها عُشاق المزايا حرصاً على حفظ عهودِ الوِداد والتآلف ، وإذهاباً لوحشةِ التقاطع والتَّخالف :

هدايا الناس بعضهمُ لبعضٍ   تُولِّدُ في قلوبهمُ الوِصالا
وتزرع في القلوب هوًى ووِدّاً   وتكسوكَ المهابةَ والجلالا

ولقد وجدتك إماماً حكيماً ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدِّر الأعمال حق قدرها ، وتضع الأشياء في مواضعها ، سبَّاقاً إلى نشر العلوم والمعارفِ ، في المشارق والمغارب :

يبقى الثّناءُ وتنفَد الأموال   * لكلِّ دَهْرٍ دَولةٌ ورِجـال
ما نالَ محمدَةَ الرِّجالِ وشُكرَهم   إلا الصَّبور عليهـم المفضـال

فلذا أهديك كتابي (جواهر الأدب ، في أدبيات لغة العرب) جمع فأوْعى من الآداب والحِكم . ما خلت منه الأسفارُ [٢] ، فهو بلا شك ولا مِرَا ، كلُّ الصيدِ في جوف الفرَا :

تزين معانيهِ ألفاظُه   وألفاظُه زائنات المعاني

---

(١) الأخلاق .
(٢) الكتب الكبيرة .

* والأصح من « لكل دهرٍ .. » ولكلّ دهرٍ ..

على أني – وإن تطفّلت عليك ، ووضعت كتابي هذا بين يديك – فقد ولجت الأمورَ من الأبواب وأصبت كبدَ الصواب ، حيث يعرف الفضل من الناس ذووه ، ويتقبله بقبولٍ حسنٍ عالموه :

شكراً وحمداً إنْ قبلْتَ هديتي وجعلت لي فضــلاً على أقْراني

فتنازلك بقبوله يكون الإقبال عليه جليلا ، ويعجز لساني على أن اشكرك شكراً جزيلا ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم (سعد باشا زغلول) يُهديه كتابه « جواهر الأدب » في أدبيات وإنشاء لغة العرب » :

موْلاي ،أطالَ الله بقاءك في أهنإ عيشةٍ وأرْغَدِها،وأتم نعمة وأسعَدِها ، وأعمّ عافيةٍ وأزيدِهـا ، وأولاك من الآلاء بأمدّها مزيداً ، ومن السلامةِ بأسْبلِها سِتراً ، ومِنَ السرور بأوفَره حظّاً ، ومِنَ العزّ بأشدهِ ركناً ، والعمرِ بأبْعدِهِ مدّى ،تولاك الموْلى بحفظهِ وحياطته ، وحرَسكَ تحت جناح السلامةِ بكلائتهِ ورِعايتهِ .

إن الله تعالى قد خصك بالعزّ المنيع ، والشرف الرفيع ، والخُلقِ السنيّ ، والفخرِ البَهيّ ، والرّأي والحزمِ ، والبلاغةِ والفَهْـمِ ، والبراعةِ والكمالِ ، والبذلِ والنّوال ، والجود والإفضـال ، والحمد والثناء ، والكرم والوفـاء ، والمذهب الجميل ، والقدْرِ الجليل .

فأنت – أدام الله كَرامتك ، وأكرمَ حياطتك – معدن الفضائل وزَين المحافل غياث اللاجيء إليـك ، وسند المعوّل عليك ، لا يُجْحد فضلك ولا يُنسى ذِكرك ، عَرْفُك شائع، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفَضْلُك شامل ، ولُبُّك كامل، سِلمٌ لأوْليائك ، وحَرْبٌ لأعدائك ، سَحائبُ كفّيْك

تُمْطِر دِيَمَ الإنعام ، وشآبيبُ يَديك تفوق افعال الكرام ، زَادَكَ اللهُ ايُّها الرئيسُ عقلاً إلى عقلك ، وفخراً إلى فخرِك ، وفضلاً إلى فضلك ، وطَوْلاً إلى طَوْلك ، وسُؤْدَداً إلى سُؤددك ، إنه لطيف كريم .

لمَّا رأيْتُك – أدام الله عُلوَّكَ ، وأجزَل من كلِّ خيرٍ حظك وقسمك – تغني عن التوَسُّل إليك بكريم أخلاقك ، وشريف أعْراقك ، جعلتُ كرَمك ذريعتي إليك ، لِما دلني من فضلك عليك ، وكفى بهِ عن اللبيبِ شاهِداً ، وإلى الكريم قائداً ، فأطمَعني فيك ما رأيْتُ من جودِك وسماحتك ، وحُسن بِشْرِك وطلاقتك ، ولئن أمَّلتك عند الشدائد ، ودفعتُ بك صَوْلة النوائب ورَجوْتك لكشف الملمّات ، والحوادث الطَّارِقات ، واسْتغثتُ بِسَيبك وجدواك على غير شافع ، أطمعُ في شفاعته إليك ، أو مُتوسل في ما لديك ، فإني أقول كما قال الشاعر :

من غير ما سبب يُدْني كفى سبباً للحُرِّ أن يجتَدي حُرّاً بلا سببِ

ولما كانت الوسيلة إلى السادات ، وأهل الأخطار والمروءَات ، إنما هي وكيد حُرْمة أو قديم خدمة : وكنتُ صفراً من ذلك كُلّه ، غير داخل في جملة أهله توسلتُ بكتابي « جواهر الادب ، في أدبيَّات وإنشاء لغة العرب » ، إذ كان المتوَسّل بها على ثقة ممن عَرف قدرها ، لأن الآداب عند ذوي الكرم ، أعطفُ من صلة الرّحم ، وهو سببٌ بين الكرام موصول ينزعون إليه ، وحق يتعاطفون عليه ، وفيه قال الشاعر :

أدبٌ بَيْننا توَلّد منه نسب والأديبُ صِنْوُ الأديب

وقال الآخر :

حقٌ الأديب وإنْ لَمْ يُدْنهِ نسبٌ فَرْضٌ على كلِّ مَنْ أمْسى لهُ أدبُ

وقد ضمنتُ كتابي هذا من الآداب أظرفها ، ومِنَ الأشعار أفضلها وأجملها

وجعلتُه سبباً أمُتُّ به إليك ، وهدية أضَعُها بين يدَيك . فتنازلُ دولتكم بشرف القبول ، يكون غاية مطلوبي ، ونهايةَ المأمول .

الفصل الرابع في رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الثعالبي النَّيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَر غفرَ ، وإذا أوْثقَ أطلق ، وإذا أسرَ أعتق ، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوكَ عليْك ، فأذِقني حلاوة رضاك عني ، كما أذقتني مرارة انتقامِك مني ، الحرُّ كريم الظَّفر ، إذا نالَ أقال [١] ، واللئيمُ إذا نال استطال [٢] قد هابك من استتر ، ولم يُذنب من اعتذَر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلة [٣] ، كتكلف الدواءِ بلا علة ، مولاي يوجبُ الصفحَ عند الزلة [٤] كما يلتزم البذلَ عند الخلة [٥] مولاي يوليني صفيحة [٦] صفحه ، ويؤْتيني العفوَ من عفوه ، زَللت وقد يزلُّ العالمُ الذي لا أساويه ، وعثرتُ وقد يعثر الجوادُ الذي لا أجاريه ، لا تضيقن عني سعة خلقُك ، ولا تكدرن عليّ صفوَ ودك ، مالي ذنبٌ يضيقُ عنه عفوُك ، ولا جُرمٌ يتجافى تجاوُزك وصفحك . والسلام .

وكتب عبدالله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أبي مسلم :

من الأسيرِ في يديه ، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . (أما بعد) فقد آتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرَّعية ، وألهَمَك عدْل القضية فإنك مُستودع الودَائع ، وموْلى الصنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنائعك ، فالوَدائع عارية ، والصنائع مرعيّة ، وما النّعمِ عليك وعلينا فيك بمنزُورِ نداها ، ولا بمبلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك ، واتَّق الله ربك وأعط من

---

(١) ترك (٢) تملك وتمسك (٣) بالفتح السقطة (٤) بالفتح الغلطة
(٥) بفتح الخاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة – عريضة . أي عظيم صفحه .

نفسك من هو تحتك ، ما تحب أن يعطيك من فوقك – من العدل والرأفة ، والأمنُ مِن المخافة ، فقد أنعمَ الله عليك ، بأن فوّض أمرنا إليك . فاعرفْ لنا لينَ شكرِ المودّةِ ، واغتفار مسّ الشدة ، والرّضا بما رضيتَ والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سمكِ الحديد وثقله أذًى شديداً ، مع معالجة الأغلال ، وقلة رحمة العمال ، الذين تسهيلهم الغلظة ، وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ، زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فإليك – بعد الله – نرفعُ كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فمتى تملْ إلينا طرفاً ، وتولِنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً ووداً صحيحاً ، لا يضيّع مثلك مثله ، ولا ينفي مثلك أهله ، فارع حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فلجت بحجته [١] فإن الناس من حوضك رِواءٌ ، ونحن منه ظِماء ، يمشون في الأبراد ، ونحن نحجل في الأقياد ، بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة ؛ والله المستعان ، وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ :

رفقاً بمن ملك الوجدُ قياده ، وعطفاً على من أذاب الشوق فؤاده ، مَتيّمٌ [٢] أقلقه فرط صدودك ، ومغرمٌ أغراه بحبك قول حسودك ، وسقيم لا شفاء له دون مزارك ، ومقيم على عهدك ولو طالت مدة نفارك : إلامَ هذا التنائي [٣] والنفور ؟! وعلام يادا القد العادل تجور ؟! لقد تضاعف الأسف والأسى ، وتطاول التعلل بلعل ، وعسى

هبني تخطّيتُ إلى زَلّة ... ولم أكُن أذنبتُ فيما مضى
أليسَ لي من بعدها حرمةٌ ؟ ... تُوجب لي منك جميل الرّضا !

ولست ألوذ إلا بباب نعَمك ، ولا أعتمد في محو الإساءة إلا على حلمك وكرمك ، وما جلّ [٤] ذنب يضاف إلى صفحك ولا عظم جُرمٌ [٥] يسند إلى

(١) فلج بحجته – أثبتها (٢) مستعبد ذليل
(٣) التباعد (٤) ما عظم (٥) ذنب .

عفوك . ومثلك من يقيلُ العثراتِ ، ويتجاوز عن الهفوات :

وكُنت أظنُّ أنجبالرضوَى[١] تزولُ وأنَّ وُدَّكَ لا يزول
ولكنَّ القلوبَ لهـا انقلابٌ وَحـالاتُ ابن آدم تَستحيل

طالما آنَستني بقربك ، ودنوْتَ مِني مفارِقاً ظباءَ سِربْك ، وأنجزْتَ وُعودي وأطلعتَ نجومَ سعودي :

وكنتُ إذا ما جئتُ أدنيتَ مجلسي ووجهـك من مـاء البشاشةِ يقطُرُ
فمَن ليَ بالعـين التي كنتَ مرَّة اليَّ بهـا في سالف الدهر تنظر

قيدت أملي عن سواك ، وبَهرتَ ناظري بنظرة سَناك[٢] ، وكسرت جيش قراري ، وتركتني لا أفرّقُ بين ليلي ونهاري ، أحوم حولَ الدّيار ، وأعومُ في بحر الأفكار ، وأتمسك بمَعطَف عِطفك ، وأتعلق بأذيال مكارمك ولُطفك ، أما علمت أن الكريم اذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زَلّةٌ أسبلَ عليها رداء العفو وستر ؟ وأن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عندَ موْلاه استغفاره ؟

ومن كان ذا عذرٍ لديك وحجةٍ فعذْريَ إقراري بأنْ ليسَ لي عذر

لهفي على عيش بسُلاف[٣] حديثـك سَلف ! وأوقاتٍ حلت ، ثم خلت وأورثت التّلف ! وآهاً لأيام بطيب أنسك مضت ! وبروقِ ليالٍ لوْلا قربك ما أوْمضت[٤]

قد كنت أعرِف في الهوى مقدارَها رَحلَتْ وبالأسف المبرّح عوّضَتْ
كيف السبيـل إلى إعادة مثلها وهي التي بالبعد قلبي أمْرضَتْ

فجُدْ بالتداني ، واسمح بنيل الأماني ، وألِنْ قلبك القاسي ، وعد عن التنائي

(١) جبل بالمدينة (٢) ضوئك (٣) الخمر (٤) ما لمعت .

والتّناسي ، وارعَ الود القديم ، وأبدلْ شقاءَ مُحبِّك بالنّعيم ولا تعْدِلْ عن منهاج المَعدَلة ، وسلّم فقد أخذتَ حقها المسألة ، وأغمدْ سيفَ حيفٍ[1] صيّرته مسلولا وأوْفِ بالعَهْد إن العهد كانَ مَسْئولاً .

وكتب أبو عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى بالبصره سنة ٢٥٥ ﻫ :

ليسَ عندي – أعزّك الله – سببٌ ولا أقدرُ على شفيعٍ ، إلا ما طبعك الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتَاجِ حُسْن الظّن ، وإثبات الفضل بحال المأمُول ، وأرجو أن أكونَ منَ الشاكرين ، فتكون خير مُعتب[2] ، وأكونَ أفضل شاكر ، ولعلّ الله يجعلُ هذا الأمرَ سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبباً للانقطاع إليكم ، والكون تحت أجنحتكم[3] ، فيكونَ لا أعظم بركةً ولا أنمى بقيةً من ذنبٍ أصبحت فيه ، وبمثلكَ (جُعلتُ فِداك) عاد الذّنبُ وسيلةً والسّيئةُ حسنةً ، ومثلك من انقلبَ به الشر خيراً ، والغُرْم غنما[5] .

من عاقب فقد أخذ حظّه وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذّكر في الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرّع المرائر . وأرجو أن لا أضيع (وأهْلكَ) فيما بين كرمك وعقلك ، وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، وإن كان العفو العظيم مستطرفاً[6] من غيركم فهو تلاد[7] فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس الى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون[8] ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، ولا مثلكم الا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر بملأ من بني اسرائيل إلا أسمعوه شرّاً ، وأسمعهم خيراً ؛ فقال له (شمعون الصفا)[9] : ما رأيت كاليوم !

---

(١) الجور (٢) مسر بعد إساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم أداؤه
(٥) الغنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا
(٩) شمعون الصفا : هو أحد حواريي عيسى عليه السلام .

كلما أسمعوك شرا ، أسمعتهم خيراً ؟! فقال : « كلُّ امرىء يُنفق مما عنده » وليس عندكم إلا الخيرُ ، ولا في أوعيتكم إلا الرّحمة ، وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

نَبَتْ [١] بي غرّةُ الحداثة ، فردتني إليك التّجربة ، وأفادتني الضرورة ، ثقةً بإسراعك إليّ ، وإنْ أبطأت عنك ، وقبولك لعذري وإن قصّرت عن واجبك. وإن كانت ذنوبي سدّت عليّ مسالك الصفحِ عني ، فراجعْ فيّ مجدك وسؤْدَدك [٢] ، وإني لا أعرفُ موقفاً أذل من موقفي ، لولا أنّ المخاطبة فيه لك ، ولا خطةً أدنأ مِنْ خطتي ، لولا أنها في طلب رضاك — والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

لو بغير المـــاء حلقي شرق كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

كيف يقدر (يقي الله السيد) على الدوام ، من لا يهتدي إلى أوجه الداء ، وكيف يداري أعداءه ؟ من لا يعرف الأصدقاء من الأعداء ! وكيف يعالج علة القرحة العمياء؟ أم كيف يسري بلا دليل في الظلماء؟ أم كيف يخرج الهارب من الأرضِ والسماء ؟! الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسرَ أعتق ، ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلحت [٣] بعفوه عليه ، وألقيت رِبقة [٤] حياتي ومماتي بيديه ، فليذقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتَلُح [٥] على حالي غرةُ عفوه ؛ كما لاحت عليها مواسمُ [٦] غضبه وسطوته ؛ وليعلم أنّ الحر كريم الظفر ، إذا نال أقال ؛ وأن اللئيمَ لئيمُ الظفر اذا نال استطال ، وليغنم التجاورَ عن

(١) أبعدتني (٢) السيادة (٣) استعنت
(٤) العروة التي يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات

عثرات الأحرار ، وليَنْتهِز [١] فرصَ الاقتدار ، ولَيحْمد اللهَ الذي أقامه مقامَ من يُرتجى ويخشى ، وركّب نصابه في رُتبةٍ شابَ الزمانُ ومجدُها فتيٌّ ، وأخلقَ العالم وذِكرُها طريٌّ ، وليعتقد أنه قد هابَهُ من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذرْ ، وأن من رُدّ عليه عذْرُه ، فقد أُخرجَ إلى الشّجاعة بعد الجبن وأُخرجَ ذنبهُ إلى صَحن اليقين من سُترة الظنّ . وفقَ اللهُ السيد لما يحفظ عليه قلوبَ أوْليائه ، وعصَمه ممّا يزيد في عددَ جماجم أعدائه .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وجدْتُ استصغاركَ لعظيم ذنبي أعظَم بقدر تجاوُزك عني ، ولعمري ! ما جل ذنْبٌ يُقاسُ إلى فضلك ، ولا عظُمَ جرْمٌ يضاف إلى صفحك ، ويعوَّلُ فيهِ على كرَم عفوك ، وإن كان قد وسعه حلمك فأصبح جليلهُ عندك محتقراً ، وعظيمه لديك مستصغراً ، إنه عندي لفي أقبح سور الذنوب ، وأعلى رُتب العيوب . غير أنه لوْلا بوادر [٢] السُّفهاء ، لم تعرَفْ فضائلُ الحلماءِ ، ولوْلا ظهور نقص بعض الأتباع ، لم يَبن جمال الرُّؤساء ، ولولا إلمام الملمّين بالذنب ، لبطل تطوُّل المتطوّلين [٣] بالصّفح . وإني لأرجو أن يمنحكَ الله السلامة بطلبك لها ، ويُقيلك العثراتِ بإقالتك أهلها ، وما علمت أني وقفتُ منك على نِعمة أتدَبّرُها ، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل ، تتبعها عائدة عقل .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ :

بمَ يعتذرُ إليك من لا يَرى لنفسهِ عذْراً ؟! وكيف يَستترِ منْ عتْبك مَن لا يستطيعُ لذَنبه سَتراً ؟! بل كفاني من العَتب : تعنيف نَفسي على ما ألقيت عليها من تبعَةِ تقصيري ، وما حُلتُ بهِ منَ التفريط بينها وبين معاذيري ، والله

(١) ليغتنم (٢) جمع بادرة : وهي الحدة عند الغضب .

(٣) تطوّل المتطولين : فضلهم .

يعلم ما كان تقصيري شيئاً أردته وكان تفريطي أمراً قصدته ، ولكنّها الأيام ! إن صاحبتها لم تَصحَب ، وإن عاتبتها لم تُعتِب فلقد عبرتُ بي هذه البرهة كلّها ، وأنا بين شواغلَ لا يشغلها عني شاغل ، وبَلابِيلَ[1] قد اختلطَ حابِلها بالنابِل ، فتنازعتْها هذه النُّهزة[2] اليسيرةَ ، أجدّدُ فيها التذكرةَ ، إلى أنْ يمنَّ الله بصلة الحبل واجتماع الشمل ، وأستنزلُ أحرُفا من خطّك يكتحلُ بها النّاظر ، ويأنّسُ إليها الخاطر ، متوقّعاً بعد ذلك أن أبقى بين يدي مودّتك مذكوراً ، وألا يكون عجزي لديك شيئاً منظوراً ، وأن تجري بي على عادة حلمك ، إلى أن يجمعَ الله الشتيتين ويُغني العين[3] عن الأثر بالعين[4] إن شاء الله تعالى — والسلام.

وكتب أيضاً :

وافاني كتابك العزيز ، والنفسُ نازعة[5] إلى ما يزيلُ نِفارَها ، والقريحة[6] تائقة[7] إلى ما يشحذُ[8] غرارها[9] ، فكان روضةً باسمةً[10] الكمائم[11] فائحة النّسائم ، وقد ردّت على النفس انبساطها وأحييت البادرة فاستأنفت نشاطها فأنا منه ما بينَ وشي[12] يخجلُ طِراز العبقرية[13] وزُخرُفٍ[14] دونه نضرة[15] السابريّة[16] تناجيني منه رشاقة[17] ألفاظٍ تفضحُ قدود[18] الحسان ، وغضاضةُ[19] أنفاسٍ يغارُ منها وَرْدُ الجِنان ، ورقّة خطابٍ يشفُ[20]

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحبالة للصيد ، وقيل : سدى الثوب والنابل: صاحب النبال ، وقيل: لحمة الثوب ولفظ المثل « اختلط الحابل بالنابل» وهو مثل يضرب في ارتباك الأمر (٢) بضم النون الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات (٥) مشتاقة (٦) الملكة التي يقتدر بها على استنباط العلم بجدة الطبع (٧) مشتاقة (٨) يحد ، وأصله السكين (٩) بكسر الغين والمراد أن الملكة مشتاقة إلى ما يجعلها قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب (١٣) ثياب تبلغ الغاية في الحسن (١٤) كال الحسن (١٥) الحسن (١٦) ثياب رقيقة جيدة وأصلها للدروع السابرية نسبة إلى سابور كورة بفارس بينها وبين شيراز ستة عشر فرسخاً (١٧) لطافة (١٨) جمع قد وهو القامة الرشيقة (١٩) الحسن (٢٠) يحكى .

عن ودّ صفيّ ، ولطف خفيّ [1] ، وكرمٍ وفيّ ، وعتبٍ أعذبَ من الماء القراح [2] وأرقّ من نسماتِ الصبا في الصّباح ، حتى لقد حبّب إليّ تقصيري ، وشفعَ عند نفسي في قبول معاذيري ؛ على أن ما عندي من الوَلاءِ لا يعتريه — معاذ الله — وهن [3] ، ولا يُخلقه [4] تمادي زَمن ، أو ترامي وطن. ولكنّ صُرُوفَ الأحداث [5] قد قصّرت الجهد [6] وصرفت جواد العزيمة عن القصد ، والله يعلم أني لو نزلت على حكم نوازل الدّهر ، ولم أدافع طلائعها بما بقي من ساقة [7] الصبر ، لما كان في همّتي إلا كسر اليراع [8] وهجرُ المحابرِ والرّقاع [9] ، وحسبي من العذر ما أعرفه من حلمك المألوف ، وما ألفته من كَرَمِكَ المعروف .

والله أسأل أن يبقيك لي من الدّهر نصيباً ، ويمتعني بلقائك قريباً ، بمنه وكرمه .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

أما بعدُ : فنعمَ البديلُ من الزلة والاعتذار ، وبِئسَ العوَضُ منَ التوبة الإصرارُ ، فإنه لا عوَضَ من إخائك ولا خلفَ من حُسن رأيك ، وقد انتقمت مني في زلّتي بجفائك ، فأطلق أسيرَ تشوّقي إلى لقائك ، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك وغاية عفوك ، ضمنتُ لنفسي العفوَ مِنْ زَلتها عندَك ، وقد مسني من الألمَ ما لَمْ يشفِهِ غير مواصلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأمون :

كلُّ ذنبٍ — يا أمير المؤمنين — وإن عظّم صغير في جنب عفوك ، وكل إساءة

---

(١) ظاهر فهو من الأضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف (٤) لا يبليه (٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها أي الطاقة (٧) آخره (٨) الأقلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفرده رقعة وبضمها القطعة من الورق التي تكتب .

وإن جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذي عوّدكَ الله أطال مدّتك ، وتمم نعمتك وأدام بِك الخير ، ودَفعَ عنك الشر والضير .

وبعد : فهذه رُقعة الوَلْهى – التي ترجوك في الحياةِ لنوائب الدهر ، وفي الممات لجميل الذكر – فإنْ رَأيتَ أن تَرْحمَ ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي ، وأن تصل رَحمي ، وتحتسبَ فيما جعلك اللهُ له طالباً ، وفيه راعياً – فافعل وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتي :

وصلت رقعتك يا أماه – أحاطك الله وتولاك بالرعاية [١] – ووقفتُ عليها وساءَني – شهد الله ! [٢] جميع ما أوْضحت فيها ، لكن الأقدار نافذة [٣] والأحكام جارية ، والأمور متصرِّفة ، والمخلوقونَ في قبضتها ، لا يقدرون على دفاعها [٤] ، والدنيا كلها إلى شتات [٥] وكل حيٍّ إلى ممات ، والغدر والبغي حتف الإنسان [٦] والمكرُ راجع إلى صاحبه .

وقد أمرتُ برَد جميع ما أُخذ لك ، ولم تفقدي ممّن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين [٧] والسلام .

وكتب بعضهم :

إني وإن جنيتُ على نفسي ، وخرجت عن حد الأدب ، فيما يجب على العبد لسيِّده – فإني عبدُ نعمتك وصنيع إحسانك ، وذَنبي وإن عظم ، وضاقَ باب التوبة عن قبول المعذرة ، فالعفوُ عنه بعضُ حسناتك ، التي فُطِرْتَ عليها والإغضاءُ عني سرٌّ من أسرارك التي تميل إليها ، فاجعل العفوَ عني قُربةً إلى

---

(١) يعني حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول (٣) يعني ما قدره الله لا بد أن يكون (٤) يعني أن المخلوقات مستسلمة لأحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعني أن البغي فيه هلاك الباغي (٧) يعني أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة .

مولى الموالي ، واترك العبدَ عتيق مكارم الأخلاق ، وإلا فَضَعْ سيفَ نقمتك ، في نحر عبد نعمتِك ، وأنتَ حِلٌ منْ دم أراقه أهله ، أو آلَ أمرُه إلى وارث لا يسعهُ إلا النزولُ عن المطالبةِ به ، ألا وهو مقامُ جلالتكم السامي .

وحاشاك أن تُعدمَ الصادق في خدمتك بهفوة لم يقصدها ، وذنب أقلعَ عنهُ . وعلى كل فالعبدُ بين يديك ، وأمرُه منك وإليك ، فقد ألقى إليك مقاليد الأجل ، فافعل ما تشاءُ ، واتقِ الله عزَّ وجلْ .

استعطاف ام جعفر [1] بن يحيى الرشيد
لأجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر [2] وربته في حجرها وغذته برِسْلها [3] وكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو في كفالتها ألا يحْجبَها ولا استشفعتهُ لأحد إلا شفّعها وآلت أم جعفر أنْ لا دخلت عليه إلا مأذوناً لهـا ، ولا شَفَعت لأحد مقترف ذنباً ؛ فكم أسير فكتْ ، ومُبهم عنده فتحت ، ومُسْتغلق [4] منه فرّجت فلما قتلَ ابنها جعفراً وحبس يحيى زوجها وسائرَ أهل بيته طلبت الإذن عليه ، ومَتتْ [5] بوسائلهـا إليه ، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها ؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها ، واضعة لِثامَها مُحتفية في مشْيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ، وذكر الطبري أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عتابة وكذا صاحب نجباء الأبناء ، وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم (٢) كذا ذكر صاحب العقد وقال الطبري إنها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان الأعمى يرثي جعفراً ويستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله في الفضل بن يحيى   رضيعك ، والرضيع له ذمام

(٣) الرسل : اللبن (٤) المستغلق (٥) مت إليه : توسل بقربة أو نحوها

الملك بن الفضل الحاجب فقال: ظئر[١] أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماتة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد. ويحك يا عبد الملك. أوساعية؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك فرب كبد غذتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس وأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها ثم أجلسها معه فقالت: يا امير المؤمنين أيعدو علينا الزمان؟ ويجفونا خوفاً لك الأعوان؟ ويحردك[٢] علينا البهتان، وقد ربيتك في حجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ فقالت: ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه[٣]، فقال لها: يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء حم[٤] وغضب من الله نفذ، قالت: يا أمير المؤمنين «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[٥]. قال: صدقت، فهذا مما لم يمحه الله. فقالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد ملياً ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع[٦]

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» فأطرق ملياً ثم قال: يا أم الرشيد أقول:

---

(١) الظئر: المرضعة (٢) أحرده: أغضبه (٣) تشير إلى ما كان أراده الهادي وهو موسى بن المهدي من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها إلى ولده واحتيال يحيى بن خالد في رد الهادي عن عزمه باذلاً في ذلك جهده (٤) حم الأمر: قضى ونفذ (٥) أم الكتاب أصله أو اللوح المحفوظ.

(٦) التميمة: ما يعلق للأولاد من كتابة أو غيرها دفعاً للعين أو للمرض.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجــهٍ آخر تُقبِلُ

فقالت : يا أمير المؤمنين وأقول

ستَقطَعُ في الدنيا إذاما قطعتني يمينَك فانظر أي كف تبَدل [١]

قال هارون: رَضيتُ ، قالت : فهبه لي يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله ﷺ : « من ترَك شيئاً لله لم يُوجده [٢] الله لفقده » فأكب هارون مَلياً ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمرُ من قبلُ ومن بعد ». قالت : يا أمير المؤمنين« ويومئذ يفرح المُؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أليّتك [٣] : ما استشفعتك إلا شَفّعتني . قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعتِ لمقترفٍ ذنباً. فلما رأته صرح بمنعها، ولاذَ [٤] عن مَطلَبها أخرجت حقاً من زُمُرُّدَة [٥] خضراء فوضعته بين يديه . فقال الرشيد: ما هذا ؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب ، فأخرجت منه خَفْضَه وذوائبه وثناياه قد غمَسَتْ جميع ذلك في المسك . فقالت : يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جَسَدك، وطيّب جوارحك ليحيى عبدك . فأخذ هارون ذلك فلثّمه ثم استعبر [٦] وبكى بكاءً شديداً وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لحسن مــا [٧] حفظت الوديعة ، فقالت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات إلى اهلها » قالت : والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لي

(١) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية في باب العتاب .
(٢) أوجده : أحزنه . (٣) الألية : الحلف .
(٤) لاذ، يلوذ: راغ وانحرف . (٥) الزمرد : من الأحجار النفيسة .
(٦) استعبر: جرت عبرته وهي الدمعة قبل أن تفيض. (٧) ما مصدرية .

أن لا تحجبني ولا تمتهني [١] ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن تشتريه مُحَكَّمة [٢] فيه . قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غيرَ مُستقبلة لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عمن لم يُسْخِطك . قال: يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين أنت أعز عليّ ، وهم أحب إليّ . قال : فتحكمي في تَمْنِيَةٍ [٣] بغيرهم قالت : كلا . قد وهبتكه وجعلتك في حِلٍّ منه وقامت عنه وبَقِيَ مَبْهوتاً ما يُحِيرُ [٤] لفظة .

قال سهل بن هارون: وخَرَجَتْ فلم تَعد ، ولا والله ما رأيت لها عَبْرة، ولا سمعت لها أنّة

استعطاف إبراهيم بن المهدي [٥] للمأمون

أمر المأمون بإبراهيم بن المهدي فأدخل عليه فلما وقف بين يديه قال: هيه [٦] يا إبراهيم ! فقال : يا أمير المؤمنين وليّ الثأر مُحَكَّم في القصاص « والعفوُ أقربُ للتقوى »ومن تناوله الاغترار بما مُدّ له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كلّ ذي ذنب ، كما جعل كلّ ذي ذنب دونك فإن أخذتَ فبحقك ، وإن عفوتَ فبفضلك . ثم قال :

ذنبي إليك عظيمُ وأنتَ أعظمُ منه
فخذْ بحقك أو لا فاصفح بفضلك عنهُ
إن لم أكُنْ في فعالي من الكرام فكُنْهُ

(١) امتهنه : ابتذله وأهانه (٢) يقول أحب أن تطلبي ما تشائين إزاء هذا القسم (٣) التمنية والمنية: بمعنى واحد (٤) يقال : هو لا يحير جواباً أي لا يرد.

(٥) كان ابراهيم بن المهدي أخو الرشيد لأبيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الأمين وقبل عودة المأمون من خراسان إلى بغداد وأعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاختفى حتى ظفر به المأمون . وكان ابراهيم بارعاً في الأدب حسن الغناء جيد الشعر توفي سنة ٢٢٤هـ في خلافة أخيه المعتصم.

(٦) هيه مثل إيه للاستزادة أو للاستنطاق فهي اسم فعل .

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق[1] والعبّاس في قتلك فأشارا به ، فقال : فما قُلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلتُ لهما نَبْدؤه بإحسان ، ونستَأمره[2] فيه ، فإن غيَّر ، فالله يُغيّر ما بِهِ . قال : أمَّا أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرتْ عليه السِّياسة ، فقد فعلا وبلغا ما يلزمُهما وهو الرأي السَّديدُ ، ولكنَّك أبيت أن تستَجْلِب النصر إلا من حيث عوَّدكَ الله ، ثم استَعْبرَ باكياً . فقال له المأمون : ما يُبكيك ؟ قال: جَذلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام ، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جُرْمي استحلالَ دمي فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلّغاني عفوه ، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب ، وحَق الأبوة بعد الأب . فقال المأمون : يا إبراهيم لقد حبّبَ إلي العفوّ حتى خفتُ أن لا أوجر عليه . أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذّة لتقربوا إلينا بالجنيات . لا تَثْريبَ[3] عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن حَق نسبك ما يُبلّغ الصفحَ عن جُرمك لبلغك ما أملت حسنُ تنصُّلك ، ولُطْف توَصُّلِك . ثم أمر بردّ ضياعه وأمواله . فقال إبراهيم :

رددتَ مالي ولم تبخل عَليّ به … وقبل ردّك مالي قد حَقَنْتَ[4] دمي
وقام عِلْمك بي فاحتج عندك لي … مقامَ شاهد عدل غيرِ متّهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به … والمال حتى أسُلّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت … لو لم تَهَبْهَا لكنت اليوم لم تُلم

(١) أبو إسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن إبراهيم في تصويب رأيهما لأن ذلك أنجع في طلب الرضا وأبلغ في دفع المكروه من الازدراء عليهما في رأيهما . (٢) أصل الاستئمار : المشاورة . والمراد هنا التجربة
(٣) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب . (٤) حقن الدم : صانه

استعطاف إسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس: تَحْسِبَنِي أغفلت أمر ابن المهدي وتأييدك له وإيقادك لناره؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لأجْرام قريش إلى رسول الله ﷺ أعظم من جُرمي إليك، ولرحمي بك أمَسّ من أرحامهم، وقد قال لهم كما قال يوسف — على نبينا وعليه الصلاة والسلام — لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»، وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه الأمة في الطَّول، ومُمتَثِل[١] لخلال العفو والفضل.

قال: هيهات! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرْمك جُرم في أسلافك وفي دار خلافتك.

قال: يا أمير المؤمنين فوالله للمُسْلم أحق بإقالة العَثْرَة وغفران الذنب من الكافر وهذا كتاب الله بيني وبينكم إذ يقول: «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعِدّت للمتقين، الذين ينفقون في السرّاء والضرّاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» والناس يا أمير المؤمنين نسبة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف.

قال، صدقت، وَرَتْ[٢] بك زِنادي، ولا بَرِحْتُ أرى من أهلك أمثالك.

---

(١) امتثل طريقته: تبعها فلم يعدها.

(٢) ورت بك زنادي ووقدت بك زنادي مثلان يقالان لمن أنجدك أو أرشدك والمراد بهما الدعاء.

استعطاف الفضل[1] بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يا فضل ، أكان من حقي عليك وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تثلبني[2] وتسبّني وتحرّض على دمي ؟! أتحب أن أفعل بك ما فعلته بي ؟

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذري يحقدك إذا كان واضحاً جميلاً ،فكيف إذا أخفته العيوب ! وقبّحته الذنوب ! فلا يضيق عنّي من عفوك ما وسع غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر[3] فيك :

صَفُوحٌ عن الأجرام حتى كأنّه من العفو لم يَعْرِف من الناس مجرما
وليس يبالي أن يكون به الأذى إذا ما الأذى لم يَغْشَ بالكره مسلما

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السّدوسي[4] قد خرج بشاطىء الفرات ، واجتمع إليه كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبَعُدَ ذكره ، ثم ظُفِرَ به ، وحُمِل مُوثقاً إلى باب المعتصم ، فقال أحمد بن أبي دؤاد : ما رأيتُ رجلاً عاينَ الموت ، فما هَالهُ[5] ولا شَغَله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مَثُلَ

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة البرامكة ثم وزير الأمين في خلافته . ويقال : إنه هو الذي أوغر صدر الرشيد على البرامكة حسداً لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

توفي الفضل سنة ٢٠٨ هـ. (٢) ثلبه ، تنقصه وصرح بعيبه. قال الشاعر :

* لا يحسن التعريض إلا ثلبا *

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بني شيبان ثم من بني بكر . (٥) هاله : أفزعه .

بين يدي المعتصم ، فأُحْضِرَ السيف والنِّطع[١] ، وأوقف بينهما ، تأمله المعتصم —وكان جميلاً وسيما– فأحَبَّ أن يَعْلم أين لسانه وجَنانه من منْظره ،فقال: تكلم يا تميم . فقال : أمَّا إذا أذِنتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقول : الحمدلله الذي أحسن كل شيء خَلَقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جَعَل نَسْله من سُلالة من مَاءٍ مَهين ، جَبَر بك صدع[٢] الدين ، ولَمَّ بك شَعَث[٣] المسلمين ، وأوضح بك سبل الحق، وأَخْمَدَ بك شهاب الباطل . إن الذُّنُوب تُخْرِس الألسنةالفصيحة وتُعْيِي الأفئدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة ، وساءالظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليَّ أشبههما بك وأولاهما بكرمك ، ثم قال - على البديهة — :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً ... يُلاحظني من حيثما أتلَفَّتُ
وأكبرُ ظني أنك اليوم قاتلي ... وأي امرىء مما قضى الله يُفلِت ؟[٤]
وأيُّ امرىء يأتي بعذر وَحُجَّةٍ ... وسيف المنايا بين عينيه مُصْلَت[٥]
وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مُوَقَّت
ولكنَّ خلفي صِبْيَةً قد تركتُهُم ... وأكبادهم من حَسْرَة تَتَفَتَّت
كأني أراهم حين أُنعى إليهم ... وقد خَمَشُوا[٦] تلك الوجوه وصوَّتوا
فإن عِشْت عاشوا خافضين بغبطة ... أذود الرَّدى عنهم وإن مت مُوِّتوا[٧]
وكم قائلٍ لا يُبْعِدُ اللهُ رُوحَه ... وآخر جَذْلانٍ يُسَرُّ ويَشْمَت

فتبسَّمَ المعتصم وقال : كاد واللهِ يا تميم أن يسبق السيف العَذَل، قد وهبتك

---

(١) النطع: بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الارض
(٢) الصدع الشق في الحائط ونحوه (٣) الشعث: انتشار الأمر والأشياء المتطرفة
(٤) أفلت : تخلص ونجا . (٥) أصلت السيف : استله من غمده .
(٦) خمش وجهه: لطمه وهو من باب ضرب ونصر . (٧) موتوا: كثرفيهم الموت

للصبية ، وغفرت لك الصَّبوة . ثم أمر بفك قيوده وخلع[2] عليه .

وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر[3] له وتلوَّن عليه :

أعاذك الله من سوء الغَضَب ، وعصمك من سرَف[4] الهَوَى ، وصرفَ ما أعادك من القوّة إلى حب الإنصاف ، ورَجَّحَ في قلبك إيثار الأناة[5] فقد خفت - أيدك الله ! - أن أكون عندك من المنسوبين إلى نَزَق[6] السُّفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن[7] بن حسان بن ثابت :

وإن آمرءاً أمسَى وأصبح سَالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر[8] :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

فإن كنتُ اجترأت - أصلحك الله ! - فلمْ أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ولذلك قال عُيَيْنَة[9] بن حصن بن حُذَيفة لعثمان رحمه الله عمر كان خيراً لي منك ؛ أرهبني فأتقاني[10] وأعطاني فأغناني ، فإن كنت لا تهب عقابي - أيدك الله ! - لخدمة فهبه لأياديك عِنْدي ، فإن النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة[11] ، وإلا فأت ما أنت أهلُه من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتَعَمِّد

---

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه بعض ثيابه وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف : مجاوزة الحد (٥) الأناة : الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش (٧) هكذا يقول الجاحظ وغيره ينسب البيت لحسان نفسه ؛ راجع الأغاني (٨) من الناس من يروي هـذا البيت في جملة أبيات لكعب بن زهير ، ومنهم من يرويه لمحمد بن حازم الباهلي ؛ راجع الأغاني .
(٩) هو سيد بني ذبيان في صدر الإسلام وهي سلالة حذيفة بن بدر الفزاري الذي كان السبب في حرب داحس والغبراء (١٠) أتقاه : صيره تقياً . (١١) الأحدوثة : الحديث والسيرة ، جمعها أحاديث .

وتتجافى[١] عن عقاب المصر[٢] حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكره[٣]، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة. واعلم – أيدك الله! – أن شين غضبك عليّ كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك[٤] واعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام.

استعطاف رجل من اهل الشام المنصور

يا أمير المؤمنين، من انتقم فقد شفى غيظه وانتصف، ومن عفا تفضل، ومن أخذ حقه لم يجب شكره، ولم يذكر فضله، وكظم الغيظ حلم والتشفي طرف من الجزع، ولم يمدح أهل التقوى والنهى من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاغتفار وشدة التغافل. وبعد: فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب[٥] والعافي مستدع لشكرهم آمن من مكافأتهم، ولئن يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربهم موصولة بعفوه، وعقابك إياهم موصول بعقابه. قال الله عز وجل: «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين».

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة رَوْح بن زِنباع، فقال: يا أمير المؤمنين أنشُدُك الله تعالى

---

(١) تتجافى: تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول: هفوته هي تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشبيه في هاتين الفقرتين من قبيل قولهم في التفضيل: العسل أحلى من الخل. يقول: إن مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وإن مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال.
(٥) الأولياء: الأهل والأقارب.

ألا تضع مني خسيسة أنت رفعتها أو تنقض مني مريرة (١) أنت أبرمتها (٢) تشمت بي عدواً أنت كبته (٣)، وحاسداً بك وقمته (٤) وأسألك بالله إلا أربى حلمك على خطئي وصفحك على جهلي. فقال معاوية: إذا الله سنّى (٥) عقد شيء تيسرا، وعفا عنه.

وقد ألمّ المتنبي بقول روح إذ يقول:

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا
إذا شدّ زندي حسن رأيك في يدي ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا

ابن الرومي يستعطف القاسم (٦) بن عبيد الله

كتب ابن الرومي يستعطف القاسم بن عبيد الله:

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً، وتفضّل بالعفو إن كنت مسيئاً، فوالله إني لأطلب عفو ذنب لم أجنه، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه، لتزداد تطولاً (٧) وأزداد تذللا. وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول إفسادها، وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودّي لك، ومحلّي من رجائك بحيث أستحق منك. والسلام.

---

(١) المريرة: الحبل الشديد الفتل (٢) أبرم الحبل: أجاد فتله، والأمر: أحكمه
(٣) كبته: أذله وغاظه وصرعه لوجهه. (٤) وقمه: قهره
(٥) سنّى الشيء: فتحه وسهله، وهذا شطر بيت وهو:
وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا الله سنى عقد شيء تيسرا
(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة وأدب فقد كان وزيراً ابن وزير أما الكتابة فهو فيها معرق لأنه يرثها عن ثمانية آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً للدماء وهو الذي دس لابن الرومي السم في الطعام خوفاً من لسانه، توفي سنة ٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون. (٧) التطول: الإنعام.

وكتب إليه :

لو كان في الصّمت موضع يَسعُ حالي لخفّفتُ عن سَمْع الوزير ونظره ، ولم أشغَل وجهاً من فكره ، وما زالت الشكوى تُعربُ عن لسان البَلوى. ومن اختلّت حالتُه كان في الصّمت هَلكته[1] ، وقد كانَ الصبر يَنْصُرُني على ستر أمري حتى خذَلني .

استعطاف للخوارزمي

لو بغير الماء حَلْقِي شرق كنتُ كالغصّان ،بالماء اعتِصَاري[2]

كيف يَقدِر -أبقى الله السيد !- على الدّوَاء ، مَن لا يهتدي إلى أوجُه الدّاء؟ وكيفَ يُداري أعداءه مَن لا يعرفُ الأعداء من الأصدِقاء ؟ أم كيف يَسْري بلا دليل في الظلماء ؟ أم كيف يَخْرُجُ الهاربُ مِنْ بين الأرض والسماء؟الكريم - أيّدَ الله مولاي ! - إذا قَدر غفر ، وإذا أوثقَ أطلقَ ،وإذا أسرَ أعتق. ولقد هربْت من الشيخ إليه ، وتسلّحت بعفوه عليه ، وألقيْت ربقة[3] حيَاتي ومماتي بيديه ، فليُذِقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتلح[4] على حالي غرة[5] عفوه كما لاحت عليها مواسم[6] غضبه وسطوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر ،إذا نال أقال ، وأن اللئيم لئيم الظفر إذا نال استطال[7] ، وليغتنم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار ، وليحمد الذي أقامه مقام من يرتجى ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان وبجدها فتى ،

---

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلاً قليلاً ، والبيت لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول إن الإنسان إذا غص بالطعام عالجه بالماء فماذا يصنع إذا كانت غصته بالماء نفسه ! (٣) الربقة العروة التي يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح ظهر (٥) الغرة بياض في وجه الحيوان والمراد هنا الأثر (٦) المواسم : العلامات . (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وأخلقَ العَالَمُ وذكرُها طريّ ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه مما يزيد به في جماجم أعدائه .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد [١] بن حُمَيد يعتذر :

أنا من لا يحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغالطك عن جُرْمه ، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعي بِرَّكَ إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . نَبَتْ بي عنك غِرَّة الحداثة ، وردتني إليك الحُنكة [٢] ، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقبل الصَّنيعَة بقبول العذر ، وتجدّد النعمة باطّراح الحقد ، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يمحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، والمُتْعة بها وإن كثرت قليلة .

اعتذار لأبي علي البصير

كتب أبو علي البصير يعتذر :

أنا أحد مَنْ أسْكَنْتَه ظلك ، وأعلقْته حبلك [٣] ، وحبوته بلطيف بِرِّكَ وخاص عنايتك ، وانتصف بك [من] الزمان ، واستغنى بإخائك عن الإخوان ، فهو لا يرغب إلا إليك ، ولا يعتمد إلا عليك ، ولا يستنجح [٤] طلبه إلا بك ، وقد كان فَرَط مِنّي قول إن تأوَّلْتَه [٥] لي أراك وجه عذري وقام عندك

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الإمام الأعرابي ويؤخذ عليه أنه كثير الأخذ لكلام غيره .

(٢) الحنكة : خبرة التجارب . (٣) وصلته وقيدته بزمام مودتك .

(٤) استنجح حاجته وتنجحها تنجزها وطلب نجحها (٥) أول الكلام وتأوله : فسره .

بحجّتي فأغناني عن توكيد الأيمان على حُسْن نيَّتي ، وإن تأولته عليّ أحاق[١] بي لائمتك [٢] وحبسني على أسوإ حال عندك . وقد أتيتك معترفاً بالزّلة ، مُسْتكيناً[٣] للمَوْجِدَة [٤] عائذاً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أن] تقِرّ عَيْناً قرّت بنعمتك عندي ، ولا تسلبني ما ألبستني ، وأن تقتصر من عقوبتي على المكروه الذي نالني بسبب عتبك عليّ ، وتأمُرَ بتعريفي رأيك بما يُطامِن [٥] هلعي وتَسْكُن إليه نفسي ويَأمَنُ به رَوْعي [٦] « فعلت » إن شاء الله .

كتب البديع إلى القاسم الكَرخي يعتذر :

يعزّ عليّ — أطال الله بقاء الرئيس ! — أن ينوب في خدمتك قلمي ، عن قدمي ، ويسعد برؤيته رسوني ، دون وصولي — ويرد شِرْعة [٧] الأنس به كتابي قبل رِكابي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة :

وَعليَّ أنْ أسْعى وليس عليّ إدراك النَّجَاح

وقد حضرت داره ، وقبّلت جِداره ، وما بي حب الجدران ، ولكن شَغفاً بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان [٨] ، وحين عَدَت[٩] العوادي عنك أمليتُ ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى مولاي عن تقصير وقع ، وفتور في الخدمة عرَض ، ولكني أقول :

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى أن لا أراك عقابا

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من الكون فوزنه افتعال بزيادة الألف للإشباع كما قالوا في انظر (انظور) ويرى بعض الناس أنه من الكون وليس بوجيه لأن المعنى لا يعنيه . (٤) الموجدة : الغضب . (٥) يطامن : يخفض ويخفف (٦) الروع القلب وهو أيضاً الفزع والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨ ألم البديع هنا بقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

(٩) منعت الموانع .

الباب الثاني

الفصل الثاني[1] في رسائل حسن التقاضي والطلب

كتب عبدالله بن سليمان أبو العيناء المتوفى سنة ٢٨٢ هـ :

أنا – أعزك الله ! – وعيالي زرعٌ من زَرْعك ، إن أسقيتَه راع[2] وزكا ، وإن جفَوْتَه ذبُلَ وذوى[3] ، وقد مسَّني منك جفاءٌ بعد بر ، وإغفالٌ بعد تعاهد ، حتى تكلم عدُوٌ ، وشمت حاسدٌ ، ولعبت بي ظنونُ رجال كنتُ بهم لاعِباً ، ولهم مُخْرِساً

لا تهنِّي بَعْدَ أن أكْرَمتني وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَهْ

وكتب المرحوم عبد الخالق باشا ثروت :

إليـك (يا من قد استأسرَ النفوسَ بكرمـه ، واسترقَّ الأحرار بجميل صُنْعه ، وأوْلى النعم والخيرات ، وأسدي المعروف والمبرَّات) أرفعُ كتاباً ، تبعثه إلى ناديك العالي عواملُ الحاجة ، وتزْجيه[4] إلى ساحتك دواعي الشدة ، آملُ أن يكون تذكرةً بأمري (والذِّكْرى تنفعُ المؤمنين) وتذكرَةً بحالي (واللهُ لا يضيعُ أجْرَ المحسِنين) فقـد كان سيِّدي رفع الله قدره ، وأعلى مرتبته ، وعدَني (ومثلُه من يتمسك من الوفاءِ بالعروة[5] الوُثقى ، ويقطع حبل الإخلاف بسيف الوفاء ، ويُطرز خلعة الوعدِ بوَشْي العطاء) أن يُرْسِل إليّ مِنْ خَيْراته ويُوليَني من آلائه وحسناتِه ، ويضاعف لي من مِنَنِه ، ويزيدَني من عطائه ما أشُدُّ به أزْرِي[6] على الزَّمان ، وأطاوِلُ به نوائب الحدثان[7] ،

---

(١) والفصل الأول في الرسائل التجارية التي أغفلناها في كتابنا هذا لأن لها مؤلفات خاصة بها فارجع إليها إذا شئت . (٢) نما وزاد . (٣) ذبل .
(٤) تدفعه . (٥) من الحبل الوثيق المحكم . (٦) ظهري .
(٧) بفتح الحاء والدال أو بكسر الحاء وسكون الدال حوادث الدهر .

فقد بارزني الدّهر بسيوفه ، ورماني بسهامه ، وأناخ [١] عليّ بكلا كِلِه [٢] ، وقد طال الأمدُ [٣] على حاجتي عند سيّدي – أطال الله بقاءَه ! – حتى شاب غرَاب شبابها ، وصاحَ بجانب ليلها ، فخفتُ أن تكون هبَّتْ عليها ريحُ النّسْيان ، وعصفت [٤] بها عاصفة [٥] الحدثان [٦] ، فكتبتُ إلى سيدي ومولاي تلك الرقعة ، أستعجلُ بها بِرَّهُ ، وأستَدِرُّ بها ضَرْعَ عطائِه ، علماً بأن التعجيلَ يكَبِّر العطية ، وإن كانت صغيرة ، ويُكثرها ، وإن كانت يسيرَة ، فعسى أن يكونَ قد لاحَ نجم النجاح ، وهبّ نسيم الفلاح ، فيُرْسلُ إليّ سيدي سحاب كرمه ، ويمْطُرُني من غيباث فضْله فتَترِفُ [٧] غصون آمالي بعد ذُبُولها ، وتضحك وُجُوه مطالبي بعد عبُوسها ، وأمَلي في ذلك فسيحٌ ، فإن سيّدي من أكرم الناس نسباً وأشرفهم حسباً ، ومثلُه جديرٌ [٨] بحفظ العهد ، وإنجاز الوَعْد . فإن رأى سيدي أن يخفف ثقل الحاجة عنّي ، ويَرُدَّ ما سلبه الدّهْر مِنّي بقَطْرَةٍ من بحر عطائه ، ومِنَّةٍ [٩] من بعض آلائه [١٠] ، ويجبُرَ ما كسرَهُ الفقرُ من جَناحي ، ويَرُدَّ عني النوائب التي لا تفتأ [١١] تتوالاني ، عقدتُ لساني على مدحه ، ووقفت نفسي على شكره ، فَيُحْرِزَ من الله أجراً جزيلاً ، ومني شكراً جزيلاً ، إن شاء الله بمنّه وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رأفت :

السيد الكامل – أدام الله علاءَهُ ، وأطال بقاءَهُ ، وجعله مَوْئل [١٢] الكرم ، ومُسْدي النعم – قد غمرني بنَعْمائه ، وطوقني بآلائه ، حتى قصرتُ حَمْدي عليه ، وأمسكت لساني عن الشكر إلا إليه ، وكان من مِنَنِه عليّ وأياديه

---

(١) مال . (٢) مصائبه (٣) الغاية . (٤) اشتدت .
(٥) الريح . (٦) حوادث الدهر . (٧) تتلألأ . (٨) حقيق .
(٩) نعمة . (١٠) آلائه : أفضاله . (١١) تستمر . (١٢) ملجأ .

البيضاء لديّ أن وعدني يُقلّدني في أول العام وظيفةً عالية، ومرتبة سامية، فاخضلّ [١] رَوضُ الأمل بعد ذبوله، وبزغ [٢] كوكبهُ بعد أفوله [٣] واتسع نطاقهُ [٤] واستبشرَ القلبُ بنيل أمنيَّته، والحصول على طِلْبته. واشتدّ أزري [٥] على مقارعة كتائب [٦] الزمان، وقوي جناني على صد جيوش الحِدثان وما زالت بي الأيام حتى حان أوّلُ العام، وما تحقّقَ الوعدُ، أو أُوفي العهدُ. ومثلُ السيد مَن إذا وعد وَفى، أو تعهد أوْفى:

أوفى دين ذي المعرُوف يحملُ أنَّني تنوءُ بي البُؤسى ويُثقِلُني العُسرُ
وأنتَ الذي أعطى المكارم حقها ولم يحكِ جَدْواكَ السَّحابُ ولا البَحْرُ
فعجّل فخيرُ البرّ يُحمد عاجلاً وأوْف فوعد الحرّ دين به الحر

هذا، ولكنني رجعت وحكّمت العقل، فعذرتُ السيد، وحملت ذلك على أنه إنما لم يعجّل بإنجاز وعده، وإيفاءِ عهده، إلا لتقليد عبده وظيفةً أسمى ومرتبةً أعلى، علهُ يستدرك ما فات، ويُحسنُ إلى عبدهِ فيما هو آت.

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد:

عهدي بالسيد الجليل — أدامهُ الله مصدراً للمكارم تُشتَقُّ منهُ صفاتها، ومظهراً للفضائل تَتَجلى فيه آياتُها — سبّاقاً إلى غايات المجد درّاكاً لمطالب الحمد، أريحيّاً [٧] لا يَصبو [٨] إلا إلى إسداء المِنَن [٩]، جواداً لا يطمعُ طرفه في بث عوارفه إلى ثمن. ما أمّه [١٠] أسيرُ فاقة [١١] إلا وألْفى [١٢] لديه كهفاً منيعاً، وجاهاً رفيعاً، وما قصدهُ ذو حاجةٍ إلا وصدر [١٣] عن مورِد [١٤] فضله

(١) صار نديا. (٢) طلع. (٣) غيبته. (٤) ثوبه. (٥) ظهري.
(٦) الجيوش. (٧) يرتاح للعطاء. (٨) لا يميل. (٩) إحسان.
(١٠) قصد. (١١) فقر. (١٢) وجد. (١٣) رجع. (١٤) مكان الورود.

شادياً [١] بثنائه ، معلناً بولائه وإن لي إلى السيّد حاجة إن لم يُسعف بقضائها فيا حسرة نفسي وطولَ شقائها . وليست هذه بأوّل مرة استمحت [٢] فيها عالي مُرُوءته ، واستمطرْت صيّبَ [٣] همّته ، فإنه طالما طوّقني قلائد نعمه ، وأرسل عليّ مِدرارَ [٤] كرمه ، فليجر في هذه أيضاً عادته ويقابلني بما عوّدني من كرامته . ومعاذ الله أن أسأله ما ليس في وُسعه ، أو أن أستقضيَه شيئاً يحرصُ على مَنعه . ولكنني :

أُريدُ بسطةَ كفّ أستعين بها
على قضاءِ حقوق للعُلى قِبَلي

والذي يكفل لي البسطة : أن يقلدني سيدي وظيفة مناسبة لحالتي ، حتى تكون لي دِرعاً أتقي بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفُّ به عوادي الدهر ، ومالي والإقسام عليه في إنالتي هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته في خدمة العلم ، واقتناء أبكاره ، وطويل عناء تحملته في مزاولة [٥] الأدب واكتشاف أسراره ، ونفس ارتاضت [٦] بالفضل ، وآثرت [٧] غصة الفقر على منّة البذل ، وله من سنيات [٨] الفضائل [٩] وعليات الفواضل [١٠] وجليات المآثر ، وجليلات المفاخر ، ما لو أقسم به عليه في إنالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القَسم ، وإجابة دواعي الهمم ، وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى .

وكتب فقيد الأدب حسن افندي توفيق العدل المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢هـ:

كتابي إلى ربّ النعماء ، واليدِ البيضاء ، وقد أصبحتُ كما قال : الحريري :

---

(١) مترنماً (٢) سأله العطاء (٣) السحاب (٤) ما يدر بالمطر
(٥) معاناته (٦) تمرنت (٧) اخترت (٨) عاليات
(٩) جمع فضيلة ، وهي الدرجة . (١٠) جمع فاضلة ، وهي النعمة الجليلة .

« خاويَ [1] الوفاض [2] بادي [3] الإنفاض [4] ، لا أملك بُلْغة [5] ، ولا أجد في جرابي مضغة » [6] – قد التوى عليّ أمري ، وثقل من حاجتي ظهري ومدّ الاحتياجُ إليّ أطنابه [7] ، وسربلني [8] الافتقار إهابه [9] والدنيا مكدّرة بأحداثها [10] وقصورها منغصة بأحداثها [11] نعيمها يضفو [12] ولكن لا يصفو . وأنت – كما أعلم – مفرّج كُرْبتي ، ومُنقذي مِن شدتي ، بطُرفة [13] من طرف رِفدك [14] ولمحةٍ من لمحات برّك [15] فإن استدررت [16] حلوبة [17] مالك ، فقد لاذ غيري بجاهك . ما يممت [18] غيرَك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحرَ ، ويحتاجُ إلى النجم من يسري في ضوء البدر؟ فأستهز عطف [19] جودك وأستمطرُ سحاب كرَمك . كيف لا وأنت قبلة المعروف ! وملاذ الملهوف ! إليك تشد الرّحال ، وبك تُناط الآمال ، أولياؤك منك في ظل ممدود ، وهناء وسعود . أفأنت الشمس عمّت بالإشراق ؟! أو الغيث والى الاندفاق ؟! – لكن :

مَن قاسَ جدواك يوماً بالسحب أخطأ مدحك
فالسحبُ تعطي وتبكي وأنت تعطي وتضحك

نسَب الكرم بك عريق ، وروض المجد أنيق ، أصل راسخ ، وفرع شامخ ، تهتز للمكارم اهتزاز الحسام ، وتثبت أمام الشدائد بثغر بسام :

تراهُ إذا ما جئتهُ متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

حكمت الآمال في أموالك ، واستعبدت الأحرار بفعالك ، ينابيع الجود من أملك تتفجر ، وربيع السماح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

(١) خالي (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنثة القليلة (٦) انتهى كلام الحريري (٧) حبال الخيمة (٨) ألبسنيه قميصاً (٩) جلده (١٠) مصائبها (١٢) يكسر (١٣) بنعمة (١٤) عطائك (١٥) إحسانك (١٦) استحلبت (١٧) ما تحلت (١٨) ما قصدت (١٩)جانب.

مولاي ممتعاً بشرف سجاياك وشيمك ، مستمداً الشكر غِراس نعمـــك ، ولا زالت الأنام تنتفع بتلك الشيم وتجني ثمار ذلك الكرم ، ودمتَ للمكارم بدرَ تمٍّ لا يناله خسوف ، وشمس فضلٍ لا يلحقها كسوف ، اطال الله لـك البقـاء ، كتطول يديك بالعطاء ، آمين .

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان

وفَدَ رجلٌ من بني ضَبّة على عبد الملك بن مَرْوان فقال :

والله ما نَدْري إذا ما فاتنا طلَبٌ إليكَ منِ الذي نتطلَّبُ؟
فلقد ضَرَبْنا[1] في البلاد فلم نجدْ أحداً سِواكَ إلى المكارمِ يُنسَبُ
فاصْبِر لعاداتنا التي عوّدتنا أوْ لا ، فأرشدنا إلى مَنْ نذهبُ ؟

فقال عبد الملك : إليّ ! إليّ ! وأمر له بألف دينار ، ثم اتاه في العام المقبل فقال :

يَرُبُّ[2] الذي يأتي من الخير أنه إذا فعلَ المعروفَ زاد وتمّما
وليس كبانٍ حينَ تمّ بناؤُه تتبّعه بالنقْض حتى تهدّما

فأعطاه ألفي دِينار . ثم اتاه في العام الثالث فقال :

إذا استمطروا كانوا مَغَازيرَ[3] في الندى يجودُون بالمعرُوفِ عوداً على بَدْءِ

فأعطاه ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) ضرب في الأرض سافر (٢) رب : زاد وأصلح

(٣) أغزر المعروف جعله غزيراً . والمغازير لا يكون إلا جمعاً لمغزار أو مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما في اللسان والقاموس ، وفي المخصوص سحابة مغزار : غزيرة فيكون جمعاً لمغزار .

استمناح العتابي لأحد أصدقائه

كتب كُلْثوم [١] بن عمرو العَتّابي إلى صديق له :

أمّا بَعْدُ – أطال الله بقاءك ، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنّة – فإنك كنت عندنا رَوضةً من رياض الكَرَم ، تبتهج النّفوس بها ، وتستريح القلوب إليها ، وكُنّا نُعفيها من النُّجعة [٢] استتماماً لزَهْرتها ، وشَفقة على خُضْرتها ، وادّخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سَنَةٌ كانت عندي قطعةً من سِني يوسف ، واشتد علينا كَلَبُها [٣] ، وغابت قِطَّتُها وكذَبتنا غُيُومُها ، وأخْلفَتنا بُروقُها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانْتَجَعْتُك ، وأنا بانْتِجاعي إيّاك شديد الشَّفَقة عليك ، مع عِلمي بأنك موضع الرّائد [٤] ، وأنك تُغطّي عين الحاسد ، والله يعلم أني ما أعُدُّك إلا في حومة [٥] الأهل ، واعلم أن الكريم إذا استحيا من إعطاء القليل ولم يُمكنه الكثير لم يُعرف جودُه ولم تَظهر هِمّته. وأنا أقول في ذلك [٦]

إذا تَكَرّمْت عن بذل القليل ولم ... تَقْدِر على سَعةٍ لم يَظْهَر الجودُ
بُثّ النّوال ولا تَمْنَعك قِلّتُه ... فكلّ ما سَدّ فقراً فهو محمود

قيل : فشاطره جميع ماله .

(١) من سلالة عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعراً مترسلاً بليغاً مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره في الشكر :

فلو كان للشكر شخص يبين ... إذا ما تأمله الناظر
لمثلته لك حتى تراه ... لتعلم أني امرؤ شاكر

وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .

(٢) النجعة طلب الكلأ في موضعه (٣) الكلب القحط وبلاء الشتاء ومرض يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا الجماعة والطائفة (٦) كذا ذكر القالي في أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض. هذا والمعروف أن هذه الأبيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا للعتابي وتبعة هذا على القالي .

استمناح اعرابية لعبدالله بن ابي بكرة

دخلت أعرابية على عبدالله ¹ بن أبي بَكْرَة بالبصرة ، فوقفت بين السّماطين ² ، فقالت : أصلح الله الأمير وأمْتَع به – حَدَرَتْنا إليك سَنَةٌ اشتدّ بلاؤها ، وانكشف غِطاؤها ، أقودُ صِبية صغاراً ، وآخرين كباراً، في بلدة شاسعة، تَخفِضُنا خافضة، وتَرْفعُنا رافعة، لِمُلِمّاتٍ من الدّهر أذهَبْنَ لحمي وبَرَيْنَ عَظْمي وتَرَكْنَني وَالِهَةً ³ أدُورُ بالحضيض، وقد ضاق بيَ البلدُ العريض فسألتُ في أحياء العرب ، مَن الكاملةُ فضائلهُ ، المُعْطي سائله ، الكافي نائله ؟ فدُلِلْتُ عليك – أصلحك الله تعالى ! – وأنا امرأة من هَوازن ⁴ ، قد مات الوالد ، وغاب الرافِد وأنْتَ بعد الله غِياثي ومنتهى أَملي ، فاصنع بي إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تَرُدَّني إلى بَلدي ، أو تُحْسِنَ صَفَدي ⁵ ، أو تُقيمَ أوَدِي ⁶ .

فقال : بل أجْمَعُهُن لك ، ولم يزل يُجْري عليها كما يُجْري على عياله حتى ماتت !

استمناح حكيم فارسي للمهلب

قال الهيثم بن عَدِيّ : قدم حَكيمٌ من حُكماء أهل فارس على المُهلّب فقال : – أصلح الله الأمير ! – ماأشْخَصَتْني الحاجَةُ ، وما قنِعْتُ بالمُقام ، ولا أرضى مِنْكَ بالنّصْف إذ قمتُ هذا المقام . قال : ولِمَ ذلك ؟ قال : لأن الناسَ ثلاثة : غنيٌّ وفقير ومُستزيد ؛ فالغَني مَن أعطي ما يستحقّه ، والفقير من مُنع حَقّه ، والمستزيد الذي يطلب الفضل بعد الغِنى ، وإني نظرت

---

(١) هو ابن أخي زياد ابن أبيه (٢) السماط الصف (٣) الوالهة والوله الشديد الحزن (٤) هوازن قسم من قيس وعبدالله بن أبي بكرة نسبه في ثقيف وهم من هوازن فهي تريد أن تميله بعاطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الأود : الاعوجاج

في أمرك فرأيتُ أنك قد أدّيت إليّ حقي ، فتاقت نفسي إلى استزادتك ، فإن منعتني فقد أنصفتني وإنْ زدْتني زادت نعمتك عليّ . فأعجب المهلب كلامُه وقضى حوائجه .

تلطف رجل من اهل الشام في استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً ، فقال له أبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : يُبقيك الله يا أمير المؤمنين . قال : حاجتك ، فإنه ليس كلّ ساعة يمكنك هذا ولا تُؤمر به . فقال : والله ما أستقْصر عمرك ، ولا أخاف بُخلك ، ولا أغتنم مالكَ ، وإن سُؤالك لشرَفٌ ، وإن عطاءك لزَينٌ ، وما بامرىء بَذل وجهه إليك نقصٌ ولا شَينٌ . فأمر له المنصور بمنحة سنيّة .

وقد ألمّ الرجل في أكثر معانيه بقول أُمية بن أبي الصّلت يستمنح عبدالله ابن جُدْعان[1] القرشي :

عطاؤُك زَين لامرىءإنْ حبوتهُ   ببذل وما كلّ العطاء يَزينُ
وليْسَ بشين لامرىء بذل وجهه   إليك كما بعض السُّؤال يشِين

*

ومن ألف الاستمناح قول أمية يخاطب ابن جُدْعان أيضاً :

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حِبَاؤك إن شيمَتك الحباء
وعلمك بالأمور وأنت قَرم   لك الحسب المهذّب والسَّناء[2]
كريم لا يُغيّرُه صباح   عن الخُلُق الجميل ولا مَسَاءُ

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهط سيدنا أبي بكر الصديق وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحاً له منقطعاً إليه توفي أمية بين يدي الإسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف ، والسناء : الضوء .

تُبَاري الرِّيحَ مَكْرُمةً ومَجْداً إذا ما الكلبُ أجْحَرَه الشِّتاءُ ١
إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه مِن تَعَرُّضه الثناءُ ٢

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العتْبي : وفدَ عبدُ العزيز بن زرارة على معاوية، فلما أُذِن له وقف بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! لم أزل أُهزّ ذوائب[٣] الرحال إليك ، إذ لم أجد مُعَوّلاً إلا عليك ، أمْتَطي الليل بعد النهار ، وأسم[٤] المجَاهل بالآثار يَقُودُني إليك أمَل وتَسُوقني بَلْوَى ، والمجتهد يعْذَر ، وإذ قد بلّغتك فقطني[٥] .
فقال معاوية : أحْطُط عن راحلتك .

★

ولما وَلي الخليفةُ المُهتَدِي سُليمان[٦] بن وَهْب وزارته قامَ إليه رجلٌ من ذوي حُرْمته فقال: أعزّ الله الوزير ! — أنا خادمك المؤمّل لِدَوْلتِك، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على وُدّك ، المنشُور اللسان بمدحك، المُرتَهَن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفَنِيتُ كلّ صديق وَدّني ثمناً إلا مُؤمّل دوْلاتي وأيّامي
فإنّني ضامن أن لا أكافئَه إلا بتسويغه فضلي وإنعامي[٧]

وإني لكما قال القيسي[٨] : ما زلت أمتطي النهار إليك واستدل بفضلك

---

(١) أجحره : ألجأه (٢) يقول : انك لا تجشم المحتاج مئونة السؤال لأنك تستغني بثنائه عن استجدائه (٣) الذوائب : ذوانبه وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرحل. (٤) واسم الأرض كوعد تركـ فيها أثراً (٥) قطني اسم الفعل بمعنى يكفيني ومثلها قدني (٦) سليمان بن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيد القاسم . توفي سليمان سنة ٢٧٢ هـ (٧) سوغه : أناله . (٨) يريد بالقيسي سوغه عبد العزيز بن زراره المتقدم لأنه من بني عامر ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

عليك ، حتى إذا اجتن الليل فغض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاء يدني سائر أملي والنفس راغبة والاجتهاد عاذر وإذ قد بلغتك فقدني . فقال سليمان : لا عليك فإني عارف بوسيلتك محتاج إلى اصطناعك وكفايتك ، ولست أؤخر عن يومي هذا توليتك ما يحسن عليك أثره ، ويطيب لك خبره .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد فإنه يسهّل عليّ طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لي، وأمر من قبل الله وبه تمامها ، فأما اللذان فيك فاجتهادك في النجح ، ومبالغتك في الاعتذار ، وأما اللذان لي فإني أضيق عليك بعذري، ولا أصون عنك شكري، وأما الذي من قبل الله عز وجل فإيماني بأن كل مقدر كائن والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفي المنفلوطي :

أنا إن سألتك حاجتي – أعزك الله ! – وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً، ونادرة الوجود كرماً وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ، فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد[١] الحصر ولقد مثلت – أيدك الله ! – بين [أن] استشفع إليك بذوي الجاه عندك ، والزلفى[٢] لديك ، وبين[٣] أن أكِلُ ذلك إلى كرمك وفضلك وماطبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أحرى وبفضلك أجدر والسلام .

---

(١) الجرائد: جمع جريدة وهي السعفة وكان يكتب فيها، فالمراد الصحائف.
(٢) الزلفى : القربة والمنزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا ، وهو جائز مسموع وأنا أستحسنه إذا طال ما قبل المعطوف كما هنا .

استمناح الصابىء لبعض الرؤساء

وكتب أبو إسحاق[1] الصابىء إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة – أطال الله بقاء الأمير ! – بالتمهيد للحاجة قبل موردها وإسلاف[2] الظنون الداعية إلى نجاحها. وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمسئول، فهو لا يلتمس فضله إلا جزاء ، ولا يستدعي طَوْله إلا قضاء . والأمير بكرمه الغريب ومذهبه البديع، يُؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه ، ويوجب على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به . فالحمدلله الذي أفرده بالطرائق الشريفة ، ووحده بالخلال المنيفة ، وجعله عين زمانه البصيرة ، ولمعته[3] الباقية المنيرة .

★

وكتب محمد بن عَبّاد إلى جعفر بن محمد وزير المعتز وكان يتقرّب إليه :

ما زلت – أيدك الله تعالى ! – أذم الدهر بذمك إياه ، وانتظر لنفسي ولك عقباه ، واتمنى زوال من لا ذنب له ، الى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله ، وأترك الإعذار[4] في الطلب على الاختلال[5] الشديد ضناً بالمعروف عندي إلا عن أهله ، وحباً لرجائي إلا عن مستحقه .

★

ومن أرق الاستماحة[6] ما كتبه عبيد الله بن طاهر إلى سليمان بن وهب :

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا   وأسْعَفنا فيمن نُحب ونكْرِم

---

(١) الصابىء: هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه وهو معدود من رجالات الكتابة توفي سنة ٣٨٤هـ .

(٢) الإسلاف : التقديم .   (٣) اللمعة : البقعة والقطعة من الجسد تبرق .

(٤) أعذر: بالغ   (٥) الاختلال : الاحتياج (٦) الاستماحة : الاستمناح

فقلتُ له : نعمْاك فيها أتمها ودَعْ أمرَنا إن المهم المقدَّمُ

فأعجب سليمان بلطف طلبه في تهنئته وقضى حوائجه .

وقال أعرابي لرجل : ما اتهمت حسن ظني بك ، ممذ توجه رجائي نحوك ، ولا قعدت بجد قائل ١ باعتمادي عليك ، ولا استدعتني رغبة عنك إلى من سواك ولا أراني الاختيار غيرك عوضاً منك .

وكتب البديع الهمذاني في بابه إلى بعض أصحابه :

لك – أعزك الله ! – عادة فضل ، في كل فضل ، ولنا شبه مقت ، في كل وقت ، ولعمري أن ذا الحاجة مقيت٢ الطلعة ، ثقيل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء .

الفصل الثالث في رسائل الشكر

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الشكر ترجمان النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الاختصاص ، عندي من إنعامه ، وخاصّ بره وعامّه ، ما يستغرق منه الشكر ، ويستنفد قوة النشر ، شكر الأسير لمن أطلقه والمملوك لمن أعتقه ؛ شكر كأنفاس الأحبار ، أو أنفاس الرياض غِبّ الأمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :

من شكرك على درجة رفعته إليها ، أو ثروة أقدرته عليها فإن شكري لك على مهجة أحييتها ، وحشاشة أبقيتها ، ورمق أمسكت به ، وقمت بين التلف وبينه . فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه ؛ ومدى تقف عنده ، وغاية من الشكر لا يسمو إليها الطرف ؛ خلا هذه النعمة التي فاقت الوصف ، وأطالت الشكر وتجاوزت قدره . وأنت من وراء كل غاية : رددت عنا كيد العدو وأرغمت

(١) الجد : الحظ . والقاتل المخطىء . (٢) المقيت والمقرت : البغيض والمكروه

أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل ، وكنف[١] كريم ، فكيف يشكر يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ المجتهد ؟!

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

فأما الشكر الذي أعارني رداءه ، وقلدني طوقه وسناءه[٢] فهيهات أن ينتسب إلا إلى عادات فضله وإفضاله ! أو يسير إلا تحت رايات عرفه[٣] ونواله[٤] أو هو ثوب لا يحلى إلا بذكر طرازه ، واسم حقيقته ، ولسواه مجازه ، ولو أنه (حين ملك رقي[٥] بأياديه ، وأعجز وسعي عن حقوق مكارمه ومساعيه) خلّى لي مذهب الشكر وميدانه ولم يجاذبني زمامه وعنانه — لتعلقت في بلوغ بعض الواجب بعروة طمع ، ونهضت فيه ولو على وهن وظلع[٦] ولكنه يأبى إلا أن يستولي على أمد الفضائل ، ويتسنم[٧] ذرى[٨] الغوارب[٩] منها والكواهل[١٠] ، فلا يدع في المجد غاية إلا سبق إليها فارطاً[١١] وتخلف سواه عنها حسيراً[١٢] ساقطاً ، لتكون المعالي بأسرها مجموعة في ملكه ، منظومة في سلكه ، خالصة له من دعوى القسم وشركه[١٣] .

وكتب أستاذي الشيخ محمد عبده[١٤] يشكر للمرحوم حافظ إبراهيم تعريبه كتاب البؤساء :

لو كان لي أن أشكرك لظن بالغت في تحسينه ، أو أحمدك لرأي لك فيننا

---

(١) جانب (٢) رفعته (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ربق

(٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالي (٩) جمع غارب ما بين الظهر والعنق

(١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقاً (١٢) كليلاً (١٣) مشاركته

(١٤) هو الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية سابقاً ولد سنة ١٢٥٨ هـ وتوفي سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المكتوب شكراً لمترجم كتاب البؤساء وقد نظم قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالي أن يقال محمد ... أبل أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينا قد أردت صلاحه ... أحاذر أن تقضي عليه العمائم

أبدعتَ في تزيينه – لكان لقلمي مطمعٌ أن يدنو من الوفاء بما يُوجبهُ حقُّك ، ويجري في الشكر إلى الغاية كما يطلبهُ فضلُك. لكنك لم تَقِف بعُرفك[١] عندنا ، بل عمَّمت به من حولنا ، وبسطتَه على القريب والبعيد من أبناء لغتنا . زَففت إلى أهل اللغة العربية عذراء من بنات الحكمة الغربيَّة ، سحرت قومها وملكت فيهم يومها ، ولا تزال تُنبِّه منهم خامداً وتهزُّ فيهم جامداً ، بل لا تنفكُّ تُحيي من قلوبهم ما أماتته القسوَة ، وتقوِّمُ من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة[٢] حكمة أفاضها الله على رجلٍ منهم ، فهدى إلى التقاطها رجلاً منا . فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاّها للطالب ، بعدما أصلحَ من خَلقها وزان من معارفها . حتى ظهرت مُحبَّبة إلى القلوب ، رشيقة[٣] إلى مؤانسة البصائر ، تهشُّ[٤] للفهم وتبش[٥] للطف والذَّوق – وتسابق الفكرَ إلى موطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، إلا وهي من النفس في مكان الإلهام .

حاول قومٌ من قبلك أن يَبلغوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقفَ العجز بأغلبهم عند مبتدإ الطريق ، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصِدِه ، ولكنه لم يُعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويردَّ إليها ما سلبهُ المعتدونَ عليها من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها إلى أعلى مراتبه .

أما أنت ، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مَطمَع لطالب أن يبلغ حدَّه. ولو كنتُ ممن يقول بالتَّناسخ لذَهبتُ إلى أن روح «ابن المُقفع» كانت من طيِّبات الأرواح ، فظهرت لك اليوم في صورةٍ أبدع ، ومعنى أنفع . ولعلك قد سننت بطريقتك في التَّعريب سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم : القدوة (٣) لطيفة
(٤) بفتح التاء : تصل إليه بسهولة (٥) بفتح الباء : من البشاشة .

كتابك ويحملها الزمان إلى أبناء ما يُستقبَلُ منه . فتكون قد أحسنت إلى الأبناء كما أجملت في الصنْع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعدُ من العُجْمة سِوَى ما هو في أسماء (أسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعاني والأجناس) ومثلي من يعرف قدرَ الإحسان إذا عمّ ، ويُعلي مكان المعروف إذا شمل ، ويتمثل في رأيه الحكيم العربي أبي العلاء المعري :

ولو أني حُبيتُ الخلد فرْداً لما أحببتُ بالخلد انفرادا
فلا هَطَلَتْ عليَّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلادا

فما أعجز قلمي عن الشكر لك ! وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء !

وكتب أيضاً في الشكر مع توثيق المودة إلى أصحابه :

لك في قلوبنا من المودة ما يزكيه سناؤك ، وفي مناطقنا من الحمد ما يوجبه كمالُك ، وفي صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهاؤك !

وما بيننا من المودّة لا تحدُّه مدة ، ولا تخلُق له جِدة ، نعيذه من حاجة التجديد واستدعاء للمزيد ، فلا المواصلةُ تربيه ، ولا المجاهلةُ توهيه — نعم إنّ ما يحفظُ لك في الأنفس هو تجلي فضلك ، ومثالُ علائك ونبلك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح والباقي في تفاني الأشباح .

وبعدُ — فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوح بسرّ المحبّة ،وينشرُ طيَّ الصداقة ، فيه تبيان وُجدانك بما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأ عما نعلمُ ، وقضاء بما نحكم ، ولكن شكَرْنا لك فضلَ المراسلة ، وأريحيّة المجاملة ، والله يتولى إيفاءك ، مثوبةً تكافىءُ وفاءك .

وكتب أيضاً في الشكر لآخر :

لو كان في الثناء ، وملازمةِ الدُّعاء ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمةِ جهد

المستطيع ما يفي بشكرِ من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ولكن أنى يكون في ذلك وفاءٌ ؟ والمحبَّة سر نظام الأكوَان ! والإحسانُ قِوام عالم الإمكان ! والقائمُ على كنْهِ جميعه قيُّوم السموات والأرض ! والمفتتحون لأبواب العُرف على هذه النسبة الجليلة منهُ فليس لي إلا أن ألجأ إلى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أُسلي نفسي عن عجزي بما أتخيلْ أن أكرمكم سيروي :

سيكفي الكريم إخاءُ الكريم ويقنع بالوُد منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة إلى المكاتبة ، لأني شغلت بما شَغَلني عن نفسي . ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتني لهذا العذر تهنئتكم بالعيد . وإنما للمؤمن في كل يوم بربه عيد ، فنهنئكم برضاء الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم . وسلامي على نجلكم ومن ينتمي إليكم .

الفصل الرابع في رسائل النصح والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصحٍ جمَع النصيحة والمِقَه[١]
إياك واحذر أن تكو ن من الثقَاتِ على ثقه

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة في بعض الأوقات : هذه العينْ تريك السَّرَابَ[٢] شراباً ، وهذه الأذنُ تسمعك الخطأ صواباً . فلست بمعذور إن وثقت بمحذور ، وهذه حالةُ الواثق بعينه ، السَّامع بأذنه .

وأرى فلاناً يكثر غشيانك[٣] وهو الدنيء دُخْلتُه[٤]، الرَّديء جملته ، السيىء وصلتُه ، الخبيث كلمته ، وقدْ قاسمته في زِرِّك[٥] ، وجعلته موضع سرِّك ،

---

(١) المحبة . (٢) ما تراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض وهو مثل في المخادع الكاذب (٣) إتيانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فأرني موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضعَ تلافيه ١ : أفظاهرُه غرّك ؟ أم باطنُه سرّك ؟؟

يا مولاي : يُوردك ٢ ثم لا يُصدرُك ٣ ويُوقِعك ثم لا يعذرُك . فاجتنبه ولا تقربه ، وإن حضر بابك ، فاكنُس جنابك ٤ . وإن مَسّ ثوبك فاغسل ثيابك ، وإن لَصِقَ بجلدك ، فاسلُخ إهابك . ثم افتتح الصلاة بلعنِه ، وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعْنِه ٥ .

وكتب الإسكندر المقدوني إلى أستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأبناء ملوك فارس بعد أن قتل آباءهم وتغلب على بلادهم :

عليك أيها الحكيم منا السّلام . أما بعدُ فإن الأملاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبحَ الناس لنا بها دائنين — فإنا مضطرون إلى حكمتك ، غيرُ جاحدينَ لفضلك والاجتباء ٦ لرأيك ، لما بلونا من إجداء ٧ ذلك علينا ، وذُقنا مِن جَنى ٨ منفعته ، حتى صار ذلك بنُجُوعه ٩ فينا ، وترسخه في أذهاننا ، كالغذاء ١٠ لنا . فما ننفك نعوّل عليه ، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار ، وقد كان مما سَبَق إلينا النّصر ، وبلغنا من النكاية في العدُو ما يعجزُ القولُ عن وصفه ، والشكرُ على الإنعام به ، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض سورية والجزيرة ، إلى أرض بابل وفارس ، فلما نزلنا بأهلها ، لم يكن إلا ريثما ١١ تلقانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هدية ، وطلباً للحظوة عندنا ،

---

(١) تداركه (٢) يوصلك إلى مكان ورد الماء (٣) لا يرجعك
(٤) الفناء والناحية (٥) اقصده (٦) الاختيار (٧) إعطاء
(٨) ما يجنى ويؤخذ من الثمر (٩) بتأثيره (١٠) بكسر الغين ما يتغذى به . (١١) مقدار ما .

فأمرنا بصلب من جاء به وشُهْرَته، لسوء بلائه، وقلة ارعوائه ووفائه، ثم أمرنا بجمعِ من كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرارهم، وذوي الشرَفِ منهم، فرأينا رجالاً عظيمةً أجسامُهم وأحلامهم[١]، حاضرة ألبابهم وأذهانهم، رائقة[٢] مناظرهم ومناطِقُهُمْ، دليلاً على أن وراء ذلك ما لم يكن معه سبيلٌ إلى غلبتهم، لولا أنّ القضاء أدالنـا[٣] منهم، وأظهرنا عليهم، ولم نرَ بعيداً من الرّأي في أمرهم أن نستأصل[٤] شأفتهم[٥]، ونَجْتَثّ[٦] أصلهم، ونلحقَهُمْ بمن مضى من أسلافهم لتَسْكن القلوب بذلك إلى الأمن من جرائرهم[٧] وبوائقهم[٨]، فرَأينا أن لا نعجل ببادرة[٩] الرأي في قتلهم، دون الاستظهار بمشورتك فيهم. فارفع إلينا رأيك في ما استشرناك فيه بعد صحته عندك، وتقليبك إياه بِجَلّي نظرك.

والسلام على أهل السلام، فليكن علينا وعليك.

فكتب أرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإسكندر المقدوني:

إن لكلّ تُرْبة (ولا محالة) قسماً من كل فضيلة، وإنّ لفارس قِسْمها من النجدة والقوة، وإنّكَ إن تقتل أشرافهم، تخلُفِ الوُضعاء منهم على أعقابهم وتورث سفلتَهم[١٠]، منازل عِليتهم، وتغلب أدنياءهم، على مَراتب ذَوي أخطارهم، ولم تبتل الملوكُ قط ببلاءٍ هو أعظمُ عليهم من غَلَبة السفلة وذلّ الوجوه، واحْذر الحذر كله أن تمكّن تلك الطبقة من الغلبةِ، فإنهم إن نجم

(١) جمع حلم بكسر الحاء العقل وبضمها المنام ليلا (الرؤيا) (٢) زائدة
(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع (٥) عداوتهم (٦) نقتلع
(٧) كناية عن شرورهم (٨) الدواهي (٩) ما يظهر عند الغضب
(١٠) بفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس، وبعض العرب يخفف فينقل كسرة الفاء إلى السين.

منهم ناجمٌ على جُنْدك وأهل بلادك ، دهمهم ما لا رَوية فيه ، ولا منفعة معه — فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزمْ اسم الملك كلَّ من ولّيْته منهم ناحية ، واعقد التاج على رأسه ، وإن صغر ملكه ، فإنَّ المُتَسمّي بالملك لازمٌ لاسمه ، والمعقود لهُ التاجُ لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقعَ بين كل ملك منهم وصاحبه ، تدابُراً وتغالباً على الملك وتفاخُراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك ، وتعود بذلك حربهم لك حرْباً بينهم ، ثمَّ لا يزدادُون بذلك بصيرةً إلاّ أحدثوا هنالك استقامة لك فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأيت عنهم تعزّزُوا بك ، حتى يَثِبَ كلٌّ منهم على جاره باسمك ، وفي ذلك شاغلٌ لهم عنك ، وأمانٌ لأحداثهم بعدك ، (وإن كان لا أمان للدّهْرِ) وقد أدّيت للملك ما رأيْتُه حظّاً ، وعليّ حقاً ، والملك أبْعَدُ روية ، وأعلى عيناً في ما استعان بي عليه .

والسلام الذي لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للامام عليّ المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإسْرَاف مقتصداً ، واذكر في اليَوْمِ غداً ، وأمسك من المال بقدر ضرورتك ، وقَدِّم الفضل [١] ليَوْم حاجتك ، أتَرْجُو أن يُعْطيك الله أجر المتواضعين وأنت عندهُ من المتكبّرين ؟ أوَ تطمعُ وأنت مُتَمَرّغ في نعيم تمنعه الضّعيف والأرملة ، أن يوجب [٢] لك ثواب المتصدّقين ؟ وإنَّما المَرْءُ مجزيٌّ بما أسلف [٣] وقادمٌ على ما قدّم ، والسلام .

---

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .
(٢) أن ومدخولها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع .
(٣) قدمه في سالف أيامه .

وكتب أيضاً كرّم الله وجهه إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

أما بعدُ — فإن المرءَ قد يسرُّه دركُ ما لم يكن ليفوته ، ويسوءُه فوتُ ما لم يكن ليُدْركه . فليكنْ سرُورُك بما نلت من آخرتِك ، وليكنْ أسفُك على ما فات منها . وما نلتَ من دُنياك فلا تُكثِرْ فيه فرَحاً ، وما فاتكَ منها فلا تأسَفْ عليه جَزعاً ، وليكن همُّكَ فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبدالله النديم المتوفى ١٣١٤ هـ :

لا حولَ ولا قوّة إلا (بالله) اشتَبَه المراقبُ باللاه[1] !واستُبدلَ الحُلوُ بالمرّ ، وقُدِّمَ الرقيقُ على الحُر ! وبيعَ الدُّرُّ بالخزف ! والخزُّ بالخشف[2] ، وأظهر كل لئيمٍ كبرَه ! إن في ذلك لَعِبرَة ! سمعاً سمعاً سمعاً ، فالوُشاة إن سمعوا لا يعقلون ، ويُحبُّون أن يُحمدُوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترُون منهم القار[3] في صفة العنبر ؟ وقد بدَت[4] البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدُورُهم أكبر ! وكيف تسمعُ الأحبابُ لمن نهى منهم وزَجَر ؟ ولقدْ جاءَهُمْ من الأنبَاء[5] ما فيهِ مُزْدَجَر ! [6] عَجِبْتُ لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون ! فلما أحسوا بأسنَا إذا هم منها يركُضون ! فقابلوهُم بنبال الطرْد في الأعناق ، حتى إذا أثْخَنْتمُوهُم[7] فشدُّوا الوثاق[8] ، أيدْخلون بما لا ينفع ، في بيوتٍ أذِنَ الله أنْ ترفع ! سيعلمون مقام الهبوط والعرُوج[9] ، « يوم يسمعونَ الصيْحَة بالحق ؛ ذلك يومُ الخروج » ويقولون إذا لم يجدُوا ملاذاً يا ويلنا قد كنَّا في غفْلةٍ من هذا ! فإنهم عزموا على الإقامة مدّة ، ولو أرادُوا الخروج لأعدُّوا لهُ عدة[10] ، وأنت عزيز العليا ، ووحيد الدنيا قد

(١) باللاهي الذي يكون ملهياً - وغالباً الشيطان (٢) بفتح الخاء او بضمها الرديء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الأخبار (٦) النهي بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع (١٠) ما أعده الإنسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

بينتُ لك فعلهم ، فبما [١] رحمة من الله لِنْتَ لهم ، ولكنهم طمعوا في عميم طولك [٢] ، ولو كنت فظاً [٣] غليظ القلب [٤] لانفضوا [٥] من حولك. أتراهُم يعقلون كلامك أم يفهمون ، لَعَمْرُك [٦] إنهم لفي سكرتهم يعمهون [٧] لهم قلوبُ لا يدرُون بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، وإني قد شيدتُ [٨] لك بقلبي حصناً [٩] صعباً [١٠] ما اسطاعوا أن يظهروهُ [١١] وما استطاعوا له نقباً [١٢] نسيت بالعاذل [١٣] جميلَ الصوت [١٤] ، وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكُرَهُ [١٥] رُميتَ أيها العاذل بسيف الغدر في نحرك ! أجئتنا لتُخرجنا من أرضنا بسحرك ،فإن لم ترجعْ عن السحر وفعله، فلنأتينك بسحرٍ مثله ، كيف يسعى العاذلُ بين النديم وإلفه ، وقد خلت النذُر من بين يديه ومِنْ خلفه ! فيا سادتي دعوني من المعجب والمطرب ! ليسَ البرَّ أن تولّوا وجوهكُمْ قِبَلَ المشرقِ والمغربِ . واجعلوا سيفَ ثباتكم للعذّال مسلولا ، وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهدَ كانَ مسئولا . فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بَطِر ، سيَعْلَمونَ غداً من الكذابُ الأشِر [١٦] . وها قد صارَ أمر الحزبينِ عندك جلياً ، فأيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديّاً ! [١٧] أتظنُ عهد العاذل عند غضبك لا ينكث [١٨] مثلُهُ كمثلِ الكلبِ إن تحمل

---

(١) فبرحمة وما للتوكيد وللدلالة على أن لينه ما كان إلا برحمة من الله

(٢) إحسانك (٣) سيىء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا

(٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره قسمي

(٧) يتحيرون (٨) زينت (٩) موضعاً حصيناً (١٠) لا يقدر أحد أن يدخله والمراد المبالغة في تحصين المحبة (١١) لا يقدرون أن يعلوا ظهره لارتفاعه ونعومته (١٢) خرقاً لصلابته وسمكه (١٣) اللائم

(١٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى إلا في الجميل

(١٥) أنساني ذكره (١٦) المتكبر (١٧) مجلس القوم (١٨) لا ينقض.

عليه يلهث ؛ إنه لكُمْ عدوٌّ كبير ، ففرُّوا إلى الله إني لكم منهُ نذير ، فإنه جمع لقتالكَ الأولاد ، والأحفاد ١ وآخرين مُقَرَّنينَ ٢ في الأصفاد ٣ ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ،فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ،وظنّي إن وصل إليك كتابي ، أنهم يُطردون ويُرْدَعون ، وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيُعْجِبُكَ إذا مشى هذا اللادِ ، ثاني عطفه ٤ ليُضِلّ عن سبيلِ ٥ الله .

وإنك وإن فرِحت بعلم ما يجْهَلون ، قد نعلم أنه ليَحْزُنك الذي يقولون . فإن قلتَ إنّ اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القبيل، إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملين ٦ عليها والمؤلّفَةِ قُلوبُهُمْ ٧ ، وفي الرّقاب ٨ ، والغارمين ٩ ، وفي سبيل الله ١٠ وابن السبيل ١١ ؛ على أنهُ لا تحلُّ الصدقة لذميم١٢ همازٍ ١٣ مشاءٍ بنميمٍ ١٤،وطباعهم كما تعلمُ منكَرةٌ مُسْتَقْذَرَةٌ ؛ كأنهم حمرٌ ١٥ مستنفِرَة ١٦ فرّتْ من قَسْوَرَةٍ ١٧.

وقد قال وفائي : خاطب عزيزك هذه المرّة ، وإن لم يعملْ فيك فكراً ، وما يُدْريكَ لعلّه يَزّكّى ١٨ ، أوْ يَذّكّرَ فتنْفَعُهُ الذّكرى .

فقال لساني : إنّ الوُدّ هوَ الرّسول المأمون ، فأرْسلهُ معي رِدْءاً ١٩ يصدّقني إني أخاف أن يكذّبونِ . فقلت : سيرُوا مع المحبّة ذات

---

(١) أولاد الأبناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوي عنقه تكبرا (٥)عن دين الله (٦)السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبي ﷺ يستألفهم للاسلام (٨) المكاتبون من العبيد (٩) من تحملوا الدّين (١٠)الفقراء في الجهاد (١١)المسافر والمنقطع عن ماله (١٢)القبيح والمراد قبيح الفعال ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالنميمة والفساد (٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الأسد (٨) يتطهر من الذنوب (١٩) معينا .

الفُتُوَّة [١] ولا تكونوا كالتي نقَضت غزلها منْ بعد قوّة ، وقولوا لهُ عند الغايةِ قد جئناك بآية . ولا تهابوا الجيش وإنْ كبر ، سيهزمُ الجمعُ ويولون الدُّبر [٢] ولا تظنُّوا من ظاهر الأمر حلُول البلوى ، إذْ أنتمْ بالعُدْوَةِ [٣] الدُّنيا [٤] وهم بالعُدْوَةِ القصوَى [٥] ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدِين ، وليَجِدوا فيكم غلظة ، واعلمُوا أنّ الله مع المتقين .

وإذا اشتبكَ القتالُ فليذُبّ كلٌّ منكم عن مولاه [٦] ، وإن جنحوا [٧] للسَّلْم [٨] فاجنح لها وتوكَّلْ على الله ، فسيروا ودعوا الأولادَ والنِّجُنَّةَ [٩] ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنَّة ، ولا تسألوا عن الميرةِ [١٠] من أصله ، وإن خفتمْ عَيْلَةً [١١] فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أثارَكم [١٢] لقتال العذال العائبين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتَهم [١٣] ، فينقلبوا خائبين .

واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا في جنوبهم رَضُوا أن يكونوا مع الخوالفِ [١٤] وطبع [١٥] اللهُ على قلوبهم ؛ ولا تُدْبروا إذا رأيتموهمْ قدامكم [١٦]، إن تنصروا الله ينصركم ويثبِّتْ أقدامكم .

وإن أخذتم أسرَى فقاتلوا أنصارَها ، فإمّا منّاً [١٧] بعدُ وإمّا فِداءً حتى تضع الحربُ [١٨] أوزارها [١٩] فإن أطعتم رفعتم وأصلحَ الله بالكمْ ، وإن تتولَّوْا يستبدل قوماً غيرَكم ثم لا يكونوا أمثالكم .

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرها جانب الوادي (٤) القريبة (٥) البعيدة (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطي بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقراً (١٢) لشركم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن إعماء بصائرهم (١٦) سابقيكم (١٧) تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء (١٨) أهل الحرب (١٩) أثقالها من سلاح وغيره .

وسأتلو في خطبتكم عند قدومكم سالمين : فقُطع دابرُ [١] القومِ الذين ظلموا والحمد لله ربّ العالمين .

★

وكتب أستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ:

عرض لي ما منعني من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنتُ أسمعُ فيه بحادثة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكّنتُ من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكلهُ لجُسومِ أولئك المساكين : سكان (ميت غمر) . ويصهرُ [٢] من فؤادي ما يصهرُه منْ لحومهم ، حتى أرقت [٣] تلك الليلةَ ، ولم تغمّضْ عيناي إلا قليلاً . وكيف ينامُ منْ يبيتُ يتقلبُ في نعم الله ، وله هذا العددُ الجمُّ من إخوةٍ وأخوات يتقلبون في شدّة البأساء ؟! [٤] فأردت أن أبادرَ بما أستطيع من المعونة (وما أستطيعه قليلٌ لا يغني من الحاجة ولا يكشفُ البلاء) ثم رأيتُ أن أدعوَ جمعاً من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البرّ في أقرب وقت ، وكان ذلك يوم السبت فحضرَ منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكرَ اللهَ سعيَ من حضرَ ، وجزى خيراً من اعتذر ، وغفر لمن تأخر ، على أنهُ ليس الحادثُ بذي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضعُ [٥] مئين منهم الأطفالُ الذين فقدوا عائليهم [٦] والتجار والصناع الذين هلكتْ آلاتهم ورُؤُوس أموالهم ، ويعتذر عليهم أن يبتدئوا الحياة مرّة أخرى إلاّ بمعونةٍ من إخوانهم ، وإلاّ أصبحوا مُتلصّصين أو سائلين ، والذين

---

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقر

(٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث إلى التسع — وبالضم الفرج .

(٦) من ينفقون .

فقدُوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوُون إليه ، ولا مالَ لهم يقيمونَ ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخرّبة - لهذا رأيتُ ورأى كلٌّ من تفكرَ في الأمرِ ، أنْ يُجمعَ مبلغٌ وافرٌ يُتمكنُ به من تخفيف المصاب عن جميع أولئك المصابين .

وكتب أيضاً في الغرض المذكور :

قد بلغكم (ولا ريْبَ) من أخبار الجرائد ، ما عليه أهلُ (ميت غمر) بعدَ الحريق الذي أصابَ مدينتهم ، فهم بلا قوتٍ ولا ساترٍ ولا مأوًى ، فليتصوّر أحدكمْ أنّ الأمرَ نزلَ بساحتِه ، أفما كان يتمنى أن يكونَ جميعُ الناس في معونته ؟ فليطالب الآن كلٌّ منا نفسَهُ بما كان يطالبُ به النّاس ، لوْ نزلَ بهِ ما نزّلَ بهمْ ، ولينْفِقْ ممّا له ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ... فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم ، وأن تبذلوا ما في وُسْعكم لحَثّ من عندكم على مشاركتكم في هذا العَمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس في رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٧ ه :

لَئِنْ ساءَني أن نِلْتني بمساءَةٍ لقد سرّني أني خطرْتُ ببالِكِ [١]

الأميرُ أطالَ اللهُ بقاءَهُ ، في حالتَيْ برِّه وجفائه متفضل ، وفي يومَيْ إدنائه وإبعاده متطوّل ، وهَنيئاً لهُ من حمانا من يحلّه [٢] ، ومَن عرانا ما يحله [٣] ومن أعراضنا ما يستحلّه .

بلغني أنـهُ - أدامَ اللهُ عزّه ! - استزاد [٤] صنيعه [٥] ، فكنت ظننْتني

---

(١) هذا البيت لعبدالله بن عبيد الله أحد بني عامر المشهور بابن الدمينة من قصيدة والخطاب لمؤنث (٢) ينزل فيه (٣) يفكه (٤) زاد (٥) معروفه وإحسانه .

مجنياً [١] عليه مساء إليه ، فإذا أنا في قرارة الذنب ، ومثارة [٢] العتب ، وليت شعري [٣] أي محظور [٤] في العشرة حضرته ، أو مفروض من الخدمة رفضته [٥] ، أو واجب في الزيارة أهملته ، وهل كنت إلا ضيفاً أهداه منزع [٦] شاسع [٧] وأداه أمل واسع ، وحداه [٨] فضل وإن قل ، وهداه رأي وإن ضل ، ثم لم يلق إلا في آل ميكال رحله [٩] ولم يصل إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بعدت صحبة إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة إلا نقصت صيانة ، ولا تضاعفت منة إلا تراجعت منزلة ، ولم تزل الصفة بنا حتى صار وابل [١٠] الإعظام قطره ، وعاد قميص القيام صدره [١١] ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة [١٢] ، فصار ذلك التقريب ازوراراً [١٣] ، وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماء ، والعبارة إشارة ، وحين عاتبته آمل أعتابه [١٤] ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجاب بالسكوت فما ازددت له إلا ولاء ، وعليه ثناء ، ولا جرم [١٥] أني اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة الود ، طويل لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حملت فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه .

والأمير الرئيس — أطال الله بقاءه ! ينعم بالإصغاء لما يورده موفقاً إن شاء الله تعالى .

---

(١) المؤاخذة بجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتني أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمي بمعنى البعد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوائج السفر (١٠) المراد به الكثير من الأنعام وأصله المطر (١١) ثوب يلبس فيغطي الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافا (١٤) إزالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقاً

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرَجي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :

أنا – وإن لم ألقَ تطاوُل الإخوان إلا بالتَّطوُّل ، وتحامُلَ الأحرار إلا بالتَّحَمُّل – أُحاسبُ مَولاي – أيَّدَه الله ! – على أخلاقه ، ضنّاً [١] بما عقدتُ يدي عليه من الظن به ، والتقدير في مذهبه ، ولَوْلا ذلك ، لقلتُ في الأرض مجالٌ ، إن ضاقت ظلالُك [٢] ، وفي الناس واصلٌ ، إنْ رَثَّتْ [٣] حبالُك ، وآخذهُ بأفعاله .

فإنْ أعارني أُذُناً واعية ، ونفساً مراعية ، وقلباً مُتَشَمِّطاً ، ورجوعاً عن ذهابه ونزوعاً [٤] عن هذا الباب الذي يقرَعُه [٥] ، ونزولاً عن الصُّعود الذي يفْرعه [٦] . فرشتُ لمودَّته خُوان [٧] صدري ، وعقدتُ عليه جوامعَ خصري ، ومجامع عمري [٨] وإن ركب منَ التَّعالي غير مركبه [٩] وذهب من التغالي في غير مذهبه [١٠] ، أقطعته خُطَّةَ [١١] أخلاقه ، ووَلَّيْتُهُ جانب إعراضه

لا أذودُ [١٢] الطَّير عن شجر قد بلوت المُرَّ منْ ثمره

فإني وإن كنتُ في مقتبل السِّنّ والعُمر ، قد حلبتُ شطرَي الدَّهر [١٣] وركبتُ ظهرَي البرّ والبحر [١٤] ، ولقيتُ وَفدَي [١٥] الخيرِ والشرّ ، وصافحتُ يدي النفعِ والضرّ ، وضربتُ إبطي العُسرِ واليُسرِ ، وبلوتُ

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصاً (٢) أماكن الظل (٣) بليت وذابت (٤) انتهاء وتركا (٥) يدقه بيده ليفتح له (٦) يصعده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وإن تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء الطريقة ، مراده أنه يتركه وإن أخذ في غير طريق طباعه (١٢) لا أطرد (١٣) مراده مر به من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب الأمور في البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التي ترد على الأمير أو غيره ، ومراده أنه عرف الخير والشر .

طعمي الحُلو وَالمر ، وَرضعْت ضرعي العُرْف والنكر [١]، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً وتسمعني من أحوالها عجيباً ، ولقيتُ الأفراد ، وَطَرحت الآحاد [٢]، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي [٣] سمعه وبصره،وشغلتُ حيِّزَي [٤] فكره ونظره وأثقلتُ كتفه في الحزن ، وكفته في الوزن ، وودّ لو بادر القرن [٥] صحيفتي [٦] أو لقي صفحتي [٧] فمالي صغرت هذا الصغر في عينه ، وما الذي أزري [٨] بي عنده حتى احتجب وقد قصدته ، ولزم أرضه وقد حضرته .

وأنا أحاشيه [٩] أن يجهل قدر الفضل ، أو يجحد فضل العلم ، أو يمتطيَ [١٠] ظهر التيهِ [١١] على أهلِه ، وأسأله أن يختصّني من بينهم بفضْل إعظام، إن زلت بي مرة قدم في قصده . وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة [١٢] والرتبة المتحيفة [١٣] وهو في جنب جفائه يسير ،فإن أقلع [١٤] عن عادته وترع عن شيمته [١٥] في الجفاء ، فأطال الله بقاء الأستاذ الفاضل ، وأدام عزه وتأييده .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

والله يا قليب : لولا أن كبدي في هواك مقروحة [١٦] ، وروحي مجروحة لساجلتك [١٧] هذه القطيعة وماددتك حبل المصارمة [١٨] وأرجو أن الله تعالى يديل [١٩] لصبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنف القلى [٢٠] راغم .

---

(١) المعروف والمنكر ضده (٢) هذا والذي قبله كله بمعنى أنه جرب الأيام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبي (٤) ناحيتي (٥)المقارن الكف، عند ملاقاة الأبطال (٦) كتابي (٧) وجهي معناه تمنى لقائي (٨) حط من قدري وشأني (٩) أنزعه (١٠) يركب (٢١) الكبر والعجب (١٢) من الإجحاف وهو الذهاب بالشيء (١٣) من التحيف وهو الظلم والجور (٠٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة (١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الغلبة والنصر (٢٠) أنف صاحب البغض .

فقد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند اللقاء والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ إلى تلميذه :

كتابي ، وقد خرجت من البلاء خروج السَّيف من الجلاء [١] ، وبروز البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة ، وهي مُفارقٌ لا يشتاق اليه ، وودعتني وهي مودع لا يبكى عليه . والحمد لله تعالى على مِحنة يجلّيها[٢] ، ونعمة يُنيلها ويوليها ، كنت أتوقع أمس كتاب مولاي بالتسلية ، واليوم بالتهنية ، فلم يكاتبني في أيام البُرَحاء [٣] بأنها َغمّته ، ولا في أيام الرخاء بأنها سرّته ! وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي . فقلت : أما إخلاله بالأولى ، فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحبّ أن يوفّرَ عليّ مرتبة السّابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكونَ نعم الله سبحانه عليّ موفورة من كل جهة ومحفوفة بي من كل رتبة ، فإن كنتُ أحسنت الاعتذار عن سيدي ، فليعرف لي حق الإحسان ، وليكتب إليّ بالاستحسان ، وإن كنت أسأت . فليخبرني بعذره ، فإنه أعرف مني بسره وليرض مني بأني حاربت عنه قلبي ، واعتذرت عن ذنبه ، حتى كأنه ذنبي ، وقلت يا نفسُ اعذري أخاك ، وكفاك منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد ـــ والعود أحمد .

وكتب عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أما بعد : فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ، وذلك أنك ابتدأتني بلطفك عن غير خِبرة ، ثم أعقبته جفاء من غير ذنب فأطمعني أوّلك

---

(١) صقله بإزالة ما عليه حتى يرى له لمعان .

(٢) البلية .

(٣) شدة الأذى .

في إخائك ، وآيأسني آخرك من وفائك . فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ،فاجتمعنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف والسلام .

وكتب صديقي زعيم الوطنية المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :

سيدي — مالي أراك كمن نسيَ الخليط[١] وتجرد في الصحبة على المحيط والمخيط فإذا ما صادفتك[٢] صدَفْتَ[٣] أو أنصفتك ما نصفت[٤] أتظن أني قعيدة بيتك[٥] ، أو رهين كيْتك وذيتك[٦] فوحقّك إذا آنست [٧] من يدي مللا ، أو من قدمي كللاً [٨] ؛ لنجيزْتها [٩] البتات [١٠] وكلت بنقضها الذات . ولو أني آنست من الزاد فترة[١١] أو من الشراب عُسرة ، لطعمت الطوى [١٢] واستقيت الجوى[١٣] فكيف أداعِبُ [١٤] وتصاعب ؟ وأحالف وتخالفُ ؟ وأواصـــل وتفاصل ؟ وأجالب وتجانب ؟ لبئْست مطيتك التي اقتدعتَ[١٥] وشِرعتك [١٦] التي شرعت [١٧] فوالله لولا أن الحب حادثٌ لا يتقى بالتروس ،ومعنى لايدبُّ إلا في النفوس، وسهامٌ لا ترمى إلا من قسيّ الحواجب ونحو أوله المعيَّةُ وآخره الجوازم ،لما افترست الظباء الصيـــد [١٨] الأسود ولا ملكت الأحرار العبيـــد . ولولا أني كرَعْتُ [١٩] من صَابِـهِ [٢٠] والتحفت ببردة أوصابه [٢١] لتعوذت منك بسورة الفلق ونبذتك [٢٢] نبذ الرِّداء الخَلِقِ [٢٣] ولهان[٢٤] عليّ أن أدّعك أو أسمعك .

---

(١) الصاحب (٢) وجدتك (٣) أعرضت (٤) كلاهما بمعنى ساعدتك (٥) المرأة التي في البيت (٦) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أني لست رهين قولك أفعل كذا وكذا (٧) علمت (٨) إعياء وضعفا (٩) قضيتها (١٠) القطع المستأصل (١١) ضعفاً وقلة (١٢) الجوع (١٣) الحرقة (١٤) أمازح (١٥) دفعت (١٦) مكان الماء (١٧) دخلت (١٨) المترفعة (١٩) بكسر الراء وفتحها شربت بفمي (٢٠) مائه المر وأصله عصارة شجر مر (٢١) أمراضه (٢٢) رميتك (٢٣) القديم البالي . (٢٤) هان : صار من الهوان .

تمرُّون على الديار ولن تَعوجوا [١] كلامكم عــلـيَّ إذاً حــــرامُ

غير أن لي نفساً شبَّت على الحب فلم أفطمها وتقادعت[٢] على ناره فلم أعصمها . حتى بلغ السيل الزُّبى [٣] وتبددت النفس أيدي سَبَا إلا حُشاشةً غفل عنها الوجد ، وبقية رمق ألـْفيتها [٦] من بعد . وكلما رأيت منك الشطط[٧] واعتساف الخطط [٩] عمدت إلى أن اثني[١٠] من رسنها [١١] وأذود[١٢] عن عطنها [١٣] وشخصت إلى المكافحة والمكافأة ، وأن لا أكيلك إلا مثلا ، ولا أسقيك إلا وشلا [١٤] ولا أزيدك إلا فشلا .

ولست أجزيك الجزاء الذي على وفاء الصنع لا بخسه
وليس يبكي صاحباً من إذا أمين لا يبكي على نفســه

على أني بالرغم أصبح في نهار أحلك [١٥] من ليل ، وأمسي في ليــل أشق على النفس من وَيل .

وليلٍ كموج البحر أرخَى سُدُولَـه[١٦] عــليّ بأنوع الهموم ليَبْتَلي [١٧]

فإن تخلصت من لقائك ، فإلى الشقاء ، وإذا لجأت من عسفك ، فإلى العناء ، وإذا استجرت بفراقك ، فقد استجرت من الرمضاء [١٨]، وكأنك لم تدر أن دولة الحسن سريعة التقويض [١٩] وأنه لا بد من هبوط القمر إلى الحضيض ولسوف تبلى

---

(١) لن تقيموا (٢) تسابقت (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد (٤) ذهبت (٥) هو مثل يقال ، وتبددوا أيدي سبا معناه ذهبوا متفرقين ، وأصله في الذين ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله في القرآن قال «لقد كان لسبأ » إلى آخر الآيات (٦) وجدتهم (٧) تجاوز الحد (٨) الميل عن الطريق المألوف (٩) الأمور (١٠) أرد (١١) زمامها (١٢) أمنع (١٣) مكانها (١٤) الماء القليل في هذا الموضع والماء الكثير في غيره (١٥) أشد سواداً (١٦) أستاره (١٧) لتختبرني (١٨) الأرض الحارة (١٩) التفرق .

بعارض [1] بيد [2] أنهُ غير ممطر، وبساعة مقبلك فيها مدبر ، وستصبح عما قريب قد عفت [3] رسومك [4] ، ولم تجد في سوق الصحبة من يسومك . والعاقل من لا يختال بنفسه ، ولا يبني على غير أسه [5] فإنك ما نضت [6] لؤلؤه مَبْسَمِك ، ولا نَضَرَت [7] صورة معصمك [8] ، ولا شئت فخلقت كما تشاء ولا اتخذت عند الله عهداً وهذا الوفاء . ولكن مثلك من أفرغه الله في القالب الذي اختار ، وجعله مرتع النفوس ومسرح الأبصار ، وإني أيها العزيز قد تقدمت إليك :

ولي أمل قطعتُ بهِ الليالي أراني قد فنيت به وداما

فلا تحرمني من سائغ العفو وسابغه ، ولا تجعلني كباسط كفّيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه :

فأشد ما لقيت من ألم الجَوَى [9] قرب الحبيبِ وما إليه وُصُولُ
كالعيس [10] في البيداء يقتلها الظما [11] والمـــاء فوق ظهورها محمول

فاعمل في يومك لغدك، واستجز غيرك ببسط يدك،ولا تأخذني بجرم الجاني المتلبّس ، ولا تبتغ مني صحيفة المتلمّس [12] بَيْدَ أني أنشدك الذي بـلى العاشق بالمعشوق ، وكلفه في الحب بيض الأنوق [13] وسَهّد [14] طرفه بنواعس العيون ، وخَوّل [15] للحسن إذا أراد شيئـاً أن يقول له كنْ فيكون ، كما قرن الهوى بالنوى [16] ، والقلب بالجوى [17] وقضى على المحب ، وبشر العشق فلم يحتجب ، ما الذي أغرى بك إلى الاعتساف ، وعدم الإنصاف ؟

---

(١) السحاب الذي يعترض في الأفق (٢) غير أنه (٣) درست وذهبت (٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت (٨) موضع السوار من اليد (٩) الحزن (١٠) الإبل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية (١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد أخرى (١٣) الأنوق العقـاب ، ولفظ المثل : هو أعز من بيض الأنوق ، وهو مثل يضرب للمحال او لما لا سبيل إليه (١٤) أسهره (١٥) ملكه (١٦) البعد (١٧) الحرقة .

ألينُ الأعطاف ! أم فتورُ [١] الأجفان ؟ أم تكسُّر الكلام ؟ أم هيفُ القوام !؟ لقد شددت أزرك [٢] (والله) بضعاف ! واستسمنت تلك العجاف ، وهل حدا [٣] إلى قطيعتي بك ! أني خشن الملمس ؟ رثُّ الملبس ؟ ولم أُمنح [٤] كما مُنِحت نضرة ، ولم ألبس بُرقع البياض والحمرة ، فاعلم أنك إن نظرتني بعين الرضا [٥] ، ورحمت فؤاداً يتقلب منك على جمر الغضا [٦] فستجدُني صديقك الذي لا يبطره الوفاء ، ولا يثنيه الجفاء ، أملكُ لك من لسان ، وأطوع لأمرك من بنان :

أكتب ، فأين لعبد الحميد الكاتب قلمي ؟ وأشعُرُ ، فأين الشعراء إلا تحت عَلَمي ؟ وأبذُل ، فأين حاتمُ [٧] من كرمي ؟ وأحلُمُ ، فأين أحنَفُ [٨] من حِلمي ؟

وحسبك فخراً أن يجود بنفسه على رغَبٍ من ليس يأمل في الشكر
ومن يحتمل في الحبِّ مافوق كاهلي [٩] فحسبُك حلماً أن يقيم على الهجر

فإن أصَخْتَ [١٠] إلى الداعية [١١] ووعيت كلماتٍ لا تسمع فيها لاغية [١٢] ، فإليك الجزاء وعليّ الوفاء ، وإلا فالفرّار إلى الموت أمرٌ يسير ، والقبر للعشاق قليل من كثير .

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد يؤنبه ويعاتبه :

أما بعد فقد أدت ألسنة التصريح إلى أُذن العناية بك ، ما فجَع الأمل فيك وباعد الرّجاء منك ، إذ ملأت العيون بهجة ، والقلوب هيبة ، وترامت إليك آمالُ

---

(١) ذبولها (٢) ظهرك (٣) ساق إلى (٤) أعطى (٥) حسنا (٦) شجر خشبه فيه صلابة (٧) أبو عدي حاتم بن عبدالله بن سعد الطائي وبه يضرب المثل في الكرم من شعراء الجاهلية (٨) الأحنف بن قيس يضرب به المثل في الحلم (٩) ما بين الكتفين (١٠) استمعت (١١) مراده به الواشي العاذل (١٢) اللغو من الكلام .

الراغبين، وهمم المنافسين . فسخت بك فتيان قريش، وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجِرّة المُهَوَّعة [١] ، والكظ الحشء [٢] . اقتحمت البوائق [٣] وانقدت إلى المعاير ، واعتضتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر . فليتك —يزيد— إذا كنت لم تكن ، سررت يافعاً ناشئاً وأثقلت كهلاً ضائعاً [٤] ، فواحَزَنا عليك يزيد ! وياحر صدر المشكل بك . ما أشمت فتيان بني هاشم ! وأذل فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات . خمشت [٥] الدربة [٦] وجه التصبر بك ، وأبت الجناية إلا تحدراً على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أربح فائدة نالوها ، وفرصة انتهزوها ! انتبه يزيد للعِظة ، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمعك أسرع منها إلى عقلك ، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان مما حسن قبحه واحلولى عندك مرّه ، أمرٌ شَرَكك فيه السواد [٧] ونافسكه الأعباد ، فأضمت به من قدرك ، وأمكنت به من نفسك — فمن لهذا كله ؟

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت ، وأسير الحياة ، بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تَبعثون وتتخذون مصانع لعلكم تَخلدون [٨]) ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً .

اعلم يا يزيد أن أول ما سلبَكه السكر معرفة مواطن الشكر لله

---

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم . والمهوعة : من هوعه أي قيأه وهذا تمثيل ، أي أنهم يستقلون ذكرك (٢) الكظ : الامتلاء من الطعام ، والجشء : الكثير وهذا تمثيل أيضاً (٣) البوائق : جمع بائقة وهي الداهية (٤) الضائع والضليع : القوي (٥) خمش : لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح غريب الآية في خطبة قطري .

تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة العظمى ، والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتها ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على سرك ، ولا تعقد [١] على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفي [٢] الكرم ؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى ، وليبلغ أمير المؤمنين ما يرُد شارداً من نومه ، فقد أصبح نصب [٣] الاعتزال من كل مؤانس ودريئة [٤] الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن .

وكتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب :

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه : فالآثام له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقاً لم يصدّق ، وإن أراد خيراً لم يوفّق ، فهو الجاني على نفسه بفعاله ، والدال على فضيحته بمقاله ، فما صح من صدقه نسب إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها نة بعض ما يُحْكَى عليه
فإذا سمعت بكذبةٍ من غيره نُسِبت إليه

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكري : ١

كِتابي إلى السيد السند ؛ ولا أُجَشّمهُ [٥] الجواب عنه ! فذلك ما لا أنتظرُه منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ،

---

(١) يقول : تفقد بالشراب الإرادة والعزيمة (٢) تعفي : تذهب
(٣) النصب هنا : الغرض والهدف
(٤) الدريئة : التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها . (٥) لا أكلفه .

وله الرأيُ بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزكيها ، ويحكم عليها أو لها :

فقد تنفعُ الذكرى إذا كان هجرُهم   دلالاً فأمّا إن مَلالاً فلا نفعا

زُرْتُ (السيّد) ويعلم الله أنّ شوقي إلى لقائه كحرصي على بقائه ، وكلَفي بشهوده ، كشَغفي بوجوده ، فقد بَعُدَ (والله) عهدُ هذا التّلاق ، وطالَ أمَدُ الفِراق وتصرّم الزّمان ، وأنا من رُؤيته في حرمان. فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنّه خرَجَ لتشييع [1] زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ولم أزل أعُدُّ اللحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزَغَتِ الأنوار ، وارْتَجَّ صَحْنُ الدّار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزُّوّار ، وجاء السّيدُ في موكبه ، وجلالة مَحتده [2] ومنْصَبِه ، فقُمنا لاستقباله ، وهينمنا [3] بكماله . فمرّ يتعرّف وُجُوه القوم حتى حازاني وكبُرَ على عينه أن يراني ، فغَادَرَني [4] وَمَنْ على يساري ، وأخذ في السلام على جاري وجرّ السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا في هذه الحال أوهم جاري أني في داري ، وأُظهر للنّاس أن شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومرّ السّيد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرات ، ومن الغريب أنّهُ لم يستَدْرِك ما فات :

تمرُّون على الدّيارَ ولَنْ تعُوجُوا   كلامكُمُ عليّ إذَنْ حرامُ

وكنْتُ أظنُ أنّ مكانتي عند السيد لا تُنكر ، وأن عهدي لديه لا يخْفَرْ [5] فإذا أنا لستُ في العير [6] ، ولا في النّفير [7] ، وغيري عند السيد كثيرٌ ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير

ومَن مدت العلْيا إليه يمينها   فأكبرُ إنسان لديهِ صغير

---

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفي
(٤) تركني (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضاً .

ولا أدّعي أني أوازي السيد (صانه الله) في علوّ حسبه ، أو أدانيه في علمه وأدبه ، أو أقاربه في مَناصبه ورُتَبه ، أو أكاثره في فضته وذهبه ، وإنما أقول: ينبغي للسيد أن يُميّز بين من يزُوره لسماع الأغاني والأذكار ، وشهود الأواني على مائدة الإفطار ، وبين من يزوره للسّلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يُفرّق بين من يتردّدُ عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إجابةً لدعوة الإخلاص . وأن لا يشتبه عليه طُلاّب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص[1] الشوارد[2] . بنُقباء الموالد ، ورُواد الطُّرَف[3] ، بأرباب الحرف :

فما كلُّ من لاقيتَ صاحبَ حاجةٍ ولا كلُّ منْ قابلتَ سائلك العُرفا[4]

فإن حَسُنَ عند السيِّد أنْ يُغضي عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضيَ عَنْ جميع الناس وإلا فلماذا يطوف على الضُّيُوف ، ويحيّيهم بصُنوف من المعروف ويتخطّى[5] الرّقاب « لصرُوف »[6] ! ويخترق لأجله الصُّفوف ؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام ، فليس بأقدم هجرة في الإسلام وإن رأى أنه أقدر مني على إطرائه[7] ، فليس بمُمكن أن يَتّخِذَهُ من أوليائه !

ولا أرُومُ بحمد الله منزلةً غيري أحقُّ بها منّي إذا رَاما

وإنما أصونُ نفسي عن المهانة والضعة ، وأن أعرضها للضّيق وفي الدُّنيا سعة :

وأُكرمُ نفسي إنني إن أهنتُها وحقّكَ لم تكرم على أحد بَعدي

فلا يُصَعّر[8] السيد من خدّه ، فقد رَضيتُ بما ألزمني من بعده ، ولا يَغمُضُ[9] عني عينه ، فهذا فراق بيني وبينه ، وليتخذني صاحباً من بعيد ، ولا يكلّمني إلى يوم الوعيد .

---

(١) جمع قانص بفتح القاف: الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهي ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى في آخر يوليه سنة ١٩٢٧ م وهو أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه . (٨) لا يميل خده كبراً وخيلاء (٩) لا يغمض .

كِلانا غنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحنُ إذا متنا أشدُّ تغانيا

ومني على السيد السَّلام على الدَّوَام، ومُباركٌ إذا لبس جديداً، وكلُّ عام وهو بخير إذا استقبل عيداً، ومَرحى[١] إذا أصاب، وشيَّعته[٢] السلامة إذا غاب، وقُدُوماً مباركاً إذا آب[٣]، وبالرِّفاءِ والبنين[٤] إذا أعْرَس[٥]، وبالطالع المسعود إذا أنجب[٦]، ورَحِمهُ اللهُ إذا عطس، ونوم العافية إذا نعس، وصحَّ نومه إذا استيقظ وهنيئاً إذا شرب، وما شاء الله إذا رَكِبَ، ونَعِمَ صباحه إذا انفجَرَ الفجر، وسعد مَساؤه إذا أذّن العصر، وبخ بخٍ[٧] إذا نثر، ولا فُضَّ[٨] فُوهُ إذا شعرَ[٩] وأجـــاد وأفاد إذا خطبَ، وأطربَ وأغربَ إذا كتب، وإذا حج البيت فحجاً مبرُوراً، وإذا شيع جنازتي فسعياً مشكوراً والسلام

وكتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنّبه على إيذائــه علم الدين ابن النحاس :

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ – أصلحه الله ! – إعلامه ما صحّ عندي من الأحوال التي اخفاها، والله مبديها، في حق عَلم الدين

وبالله أقسمُ لئن لم تداوِ ما جرحت وتستدرك ما فعلت، وتمحُ ما أثبتَّ، وتستأنف ضدّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهت، وتعتذرْ بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت، ليكونن الحديث مني بغير الكتاب، ولأزيلنّ السبب الذي قدرت به على مضرّة الأصحاب، وماأشد معرفتي بأنّ الطباع لاتتغيرَ، وبأنك ستُحوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لايتأخر، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمائك لي وتنصلك إلي

---

(١) كلمة تقال عند الإصابة في الرمي مَدحاً للمصيب (٢) ودعته (٣) رجع . (٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه بالالتئام وجمع الشمل (٥) تزوج (٦) ولدله (٧) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو عند الفخر والمدح وكررها للمبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال الشعر .

* فالدّم في النّصْلِ شاهدٌ عجب *

وويل لمن كانت غنيمته من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالمذام، ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجبه من الناس ، لألقيت حبلك على غاربك وتركتك، وما اخترت لنفسك ، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني، فإذا انت لا تنفق إلا من كيسي . فأشفق على نفسك ، إن كنت تنظر في غد ، وعلى بيتك ، إن كنت تنظر في أمس ،وعلى مكانك مني ،إن كنت لاتنظر إلا في اليوم ،ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكراً لك ، فإنه وإن كان (والله) ما ذمك فقد ذممتك بهعنه وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً ،ولا كنت أوثره ،ولولا حافظ غليظ ما كتبته ، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربتُ عن غيره وستعرفك الأيام ما كنت تجهل .

والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف جليلتك عن مقلتك ، والسلام.

الفصل السادس في رسائل الشكوى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب ، وفجّع بأكثر مما متع ، وأوحش فوق ما آنس ، وعنف في نزع ما ألبس ، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرّعنا مرارة الفراق ، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء ، حتى غادرنا [١] رهن التلف ، والاشتياق .

(والحمدلله تعالى على كل حال) يَسوء ويَسُر ،ويحلو ويمرّ ،ولا أيأس من روْح [٢]

(١) تركنا (٢) من رحمة الله .

الله في إباحة صنع [1] يجعل ربعه [2] مناخي [3] ، ويقصر مدة البعاد والتراخي ، فألاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إليّ حظي بعد إعراض ، وأستأنف [4] بعزته عيشاً عذب الموارد [5] والمناهل [6] ، مأمون الآفات والغوائل [7] .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله وهو منهزم مع مروان [8] :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته [9] بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفاويق [10] استحليناها ، ثم جمحت [11] بنا نافرة ورمحتنا [12] مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة [13] ، والطير بارحة [14] ، وقد كتبتُ والأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ، فإن تتمّ البليّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفرٌ جارح مِن أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بـذل الإسار [15] ، والذلُّ شرُّ جار .

---

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنة إتيان الماء (٦) المواضع التي فيها والمراد أنه يجدد عيشاً هنيئاً لا حزن معه (٧) الدواهي (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن أبي العاص الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي قتل سنة ١٣٢هـ (٩) كناية عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها (١٠) ألبانها . والمراد نعيمها وخيراتها (١١) أسرعت غالبة إيانا (١٢) طعنتنا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيدة . (١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين إلى الشمال والعرب تتشاءم به وذلك أنه كان من عاداتهم إذا أرادوا أمراً عمدوا إلى الطير فأطاروها فإن طارت شمالاً يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وإن طارت يميناً تفاءلوا باليمين ومضوا في أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الأسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيراً .

نسأل الله الذي يُعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان ، والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الرّاحمين .

وكتب أُستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون بسبب الحوادث العرابية :

تقلدتني الليـــالي وهي مُدْبِرَةٌ
كأنني صَارِمٌ في كفٌ مُنْهَزِمِ

عزيزي (هذه حالتي) اشتد ظلام الفتن حتى تجسّم بل تحَجّر ، فأخذت صخوره من مركز [١] الأرض إلى المحيط [٢] الأعلى ، واعترضت مـا بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين [٣] فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها وامتدت على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين [٤] كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ، انتـــثرت نجوم الهدى وتدَهْوَرَت [٥] الشموس والأقمار ، وتغيّبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيراتها إلى عوالم غيرعالمنا هذا ، فولى معهُ آلهة الخير أجمعين وتمحضت السلطة لآلهة الشرّ فقلبوا الطباع ، وبدّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأيت نفسي اليوم في مَهْمَهٍ [٦] لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليـــلة

---

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطة بالكرة الأرضية (٣) الشمالي والجنوبي وهما طرفا محور الأرض والمحور هو القطر الوهمي الذي تدور عليه الأرض من المغرب إلى المشرق أثناء حركتها (٤) الإنس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية[1] غُطّيَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف[2] رُكاماً ركاماً[3] لا أرى إنساناً! ولا أسمع ناطقاً! ولا أتوهم مجيباً! أسمع ذئاباً تعوي! وسباعاً تزأر![4] وكلاباً تنبح![5] كلها يطلب فريسة واحدة، هي ذات الكاتب، والتَفَّ على رجلي تِنّينان[6] عظيمان، وقد خَوِيَتْ[7] بطون الكلّ، وتحكم فيها سلطان الجوع، ومن كانت هذه حاله، فهو لا ريب من الهالكين.

تقطّع الأمل، وانفصمت[8] عروة الرّجاء، وانحلت الثقة بالأولياء، وضل الاعتقاد بالأصفياء، وبطل القول بإجابة الدعاء، وانفطر[9] من صدمة الباطل كبِدُ السماء، وحقّت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء وجميع العالمين.

سقطت الهمم، وخربت الذمم، وغاض[10] ماء الوفاء، وطمست معالم الحق، وحرفت الشرائع، وبدّلت القوانين، ولم يبق إلا هوى يتحكم، وشهوات تقضى، وغيظ يحتدم[11] وخشونة تنفّذ (تلك سنة القدر) واللهُ لا يهدي كيد الخائنين.

ذهب ذوُو السلطة في بُحور الحوادث الماضية، يغوصون لطلب أصداف من الشُّبَهِ، ومقذوفات مِن التهم، وسواقط من اللمم[12] ليُمَوّهوها[13] بمياه السفسطة ويغشوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها في معرض السطوة ويغشوا بها أعين الناظرين، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكشفونه، أو لحق خَفِيّ

---

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرها تصوت (٦) تثنية تنين وهو الحية العظيمة. (٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشتد (١٢) المتقارب من الذنوب، واللمم أيضاً طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبيس.

فيظهرونه ، أو تخرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فاسد فيصلحونه ! كلاً ، بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوا غير مخطئين ، وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي الأخلاق ، وخبثاء الأعراق[١] ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافتراء البهتان ، واختلاق الإفك[٢] ، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي وحشة ، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء ، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر ، وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه ، لأن الله تعالى يعلم كما أنت تعلم أنني بريء من كل ما رموني به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً ، وكنت من الضاحكين .

نعم خنقني الغم ، وأحمى فؤادي الهم ، وفارقني النوم ليلة كاملة عندما رأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الأبناء والإخوان ، تنسب إليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، لقصد زجهم في المسجونين .

لكن اطمأن قلبي ، وسكن جأشي[٣] عندما رأيت تواريخ التقارير متقادمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تفتح باباً لا يذر[٤] الاحياء ولا الميتين .

قدم فلان وفلان تقريرين ، جعلا فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ولم يتركا شيئاً من التخريف إلا قالاه ، وذكرا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ؛ فإني أراهما من المجانين ؛ ولم أتعجب من

---

(١) الأخلاق (٢) الكذب (٣) اضطراب القلب عند الفزع (٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذّنب القبيح ، ويرتكبان هـذا الجُرم الشنيع ! ولكن أخذني العجبُ (كلُّ العجب غاية العجب بالغ مـا شئت في عجبي) إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان ، الذي أرسلت إليه السلام ، وأبلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه ، وأنا في هذا الحبس رهين .

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إليّ ، إنما فيما بلغني أنه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدوٌ مبين .

هذا اللئيم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، ويأخذه الأسف لحالي ، ويبذل وُسعه إن أمكنه في المدافعة عني ! فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلتُ له منزلة في قلوب الحاكمين ! كم سمعني أقاوم هجاء الجرائد ؟! وأوسع محرّريها لوْماً وتقريعاً ؟ وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليّ في بعض أفكاري هذه من اللائمين ! كان ينسبُ فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة . ثم لم أنقض له عهداً ولم أبخس له وُدّاً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفاً فما باله أصبح من الناكثين ؟!

آه ما أطيب هذا القلبَ الذي يُملي هذه الأحرُف ! ما أشدّ حفظه للولاء ، مـا أغيره على حقوق الأولياء ! ما أثبته على الوفاء ! ما أرقّهُ على الضعفاء ! ما أشد اهتمامه بشئون الأصدقاء ! ما أعظم أسفه لمصائب مَن بينهم وبينه أدنى مودة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أبعد هذا القلب من الإيذاء ولو للأعداء ! ما أشدّه محافظة على العهد ! ما أعظم حِذره مِنْ كل ما تُوبّخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ! وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟! هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سرّ قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم

ولطَّف خواطرهم بحُسن المُعاملة وشَرَحَ صدورهم بلطيف المجاملة ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللثم !

أفنشرحُ الصدور وهم يُحْرِجُون ؟ ونشفي القلوب وهم يُؤلمون ؟ ونفرحها وهم يحزنون ؟. تالله قد أضلوا وما كانوا مُهتدين . هذا القلب ذَابَ مُعظمهُ من الأسف على ما يُلمُّ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات، وما ينشأ عنها من فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بَقِيَ من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته فإن تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال أصبحوا من مودته خالين . واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعَرِّضُونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تَفْوِيقها إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم فينالون منها حظوظهُم — فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين .

آه — ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأحبة وإن جاروا في تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخزّ إذا اتصل بذي الودّ (وإن كان خشناً) فَصَعُبَ أن ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب في علاقة مع الأوداء كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيماويّ يدقق ، لا يجد للتحليل بينها سبيلاً . وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم[1] إلى الاستاذ الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

كتابي إلى سيدي : وأنا من وعده بين الجنـــة والسلسبيل[2] ، ومن

---

(١) يشكو إليه حاله وهو ضابط بالسودان .

(٢) عين في الجنة وهو الشراب السهل في الحلق .

تيهي [1] به فوق النَّثْرَة [2] والإكليل [3] وقد تعجلتُ السرورُ ، وتسلقتُ الحُبُور [4] وقطعتُ بيني وبين النوائب

وبشَّرْتُ أهلي بالذي قد سمعتُهُ فما محنتي [5] إلا ليالٍ قلائل
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئة فليسَ لنا من دهرنا ما نُنازِلُ [6]

وجمعت فيه بين ثقة الزُّبيديّ [7] بالصَّمْصامة [8] ، والحارث بالنعامة [9] ، فلم أقل فيه ما قال الهذلي [10] لصاحبه ، حين نسي وعدهُ [11] وحجب رِفدهُ [12] :
« يا دارَ عاتكة التي أتغزَّلُ » بل أناديه نداء الأخيذةِ [13] في عمورِيَّة [14] شجاع الدَّولة العباسية ، وأمُدُّ صوتي بذكر إحسانه ، مدَّ المؤذن صوتَهُ في أذانه وأعتمدُ عليه في البُعد والقُرْب ، اعتماد الملاّح على نجمة القطب [16] .

وقال أُصَيحابي هالني النوى [17] وهالهم أمري متى أنت قافل [18]
فقلتُ إذا شاء الإمامُ فأوْبتي [19] قريبٌ ورَبعي [20] بالسعادة آهل

(١) عجبي (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة (٤) الفرح ومعنى تسلق تسور أي أتى الفرح من غير بابه ويروى تسلفت بالفاء (٥) محنتي : بليتي (٦) نضارب لأن الشيخ كفانا صدمات الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدي كرب ينتهي نسبه إلى قحطان صحابي من شجعان الجاهلية والإسلام وزبيدي نسبة إلى زبيد بضم الزاي قوم من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد البكري شيخ من العرب (١٠) نديم الخليفة أبي جعفر المنصوري العباسي كان لا يكلم الخليفة إلا جوابا (١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلي هذه دار عاتكة التي قال فيها الشاعر — يا دار عاتكة الخ فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على غير عادة ثم نظر الملك في قصيدة الشاعر فوجد فيها « وأراك تفعل ما تقول » فتذكر الخليفة الوعد (١٢) عطاء (١٣) الأسيرة ويريد بها امرأة من بني هاشم أسرها الروم فنادت وامعتصماه تعني المعتصم من خلفاء بني العباس فوصل الخبر إلى المعتصم فقال : لبيك ! لبيك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب السفينة (١٦) كوكب في السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر إليه صاحب السفينة فيعرف الجهة التي هو قاصدها (١٧) العبد (١٨) راجع (١٩) رجعتي (٢٠) داري .

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر[١] هذه الغمرَةُ[٢] وينطويَ أجلُ تلك الفترة[٣] وينظر إليَّ سيّدي نظرةً ترفعني من ذات[٤] الصدع[٥] إلى ذات[٦] الرّجع[٧] وتردني إلى وكري[٨] الذي فيه دَرَجْت،[٩] ردَّ الشمس قطرة المزن[١٠] إلى أصلها، ورد الوفي الأمانة إلى أهلها

فإن شاءفالقُرْبُ الذيقد رجوته وإن شاءَ فالعز الذي أنا آمِل
وإلا فإني قافُ رُؤْبة[١١] لم أزل بقيد النوَىحتّى تغول الغَوائلُ

فقد حللْتُ السُّودان حلولَ الكليم[١٢] في التابوت[١٣]، والمغاضِب[١٤] في جَوْف الحُوت،بين الضّيق والشدّة،والوحْشةِ والوَحدة،لابل حلول الوزير[١٥] في تنور العذاب، والكافرفي موْقف الحساب، بين نارين: نار القيظ[١٦] ونار الغيظ

فناديتُ باسم الشيخ والقيظ جَمْرةٌ تذيب دماغ الضب والعقلُ ذاهل
فصِرْت كأني بين روْضٍ ومَنهَلٍ تهُبُّ الصبا فيه وتشدو البلابل

واليوم أكتب إليه وقد قعدت همة النجمين، وقصرت يدا الجديدين[١٧] عن إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد، فلقد نمى ضبٌّ[١٨] ضغنه[١٩] عليَّ، وبدرت[٢٠] بوادر[٢١] السوء منهُ إليَّ، فأصبحتُ كما سر العدو وساء الحميم[٢٢] وآلامي كأنها جلود أهل الجحيم، كلما نضجَ منها أديمٌ تجدد أديم[٢٣] وأمسيتُ ومُلك آمالي إلى الزوال، أسرع منْ أثر الشّهاب في السماء، ودولة صبري إلى الاضمحلال،

---

(١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الأرض (٥) الشق (٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله عش الطائر (٩) مشيت (١٠) المطر (١١) رجل من العرب كان أكثر روي أراجيزه على القاف الساكنة (١٢) سيدنا موسى عليه السلام (١٣) الذي وضعته أمه فيه وألقته في البحر (١٤) سيدنا يونس بن متى عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان الحمار أدخله تنور العذاب الذي اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه (١٦) شدة الحر (١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد الغيظ (١٩) حقده (٢٠) أسرعت (٢١) جمع بادرة الحدة عند الغضب (٢٢) القريب الذي يهتم لأمره (٢٣) الجلد.

أحثُّ[١] من حبابِ[٢] الماءَ ، فنظرتُ في وجوه تلك العباد ، وإني لفارسُ العين والفؤاد ، فلم تقف فِراستي على غير بابك .

وإني أهديكَ سلاماً لو امتزج بالسَّحاب ، واختلطَ منهُ باللعاب ، لأصبحت تتهادى[٣] بقطره الأكاسِرَة[٤] وأمستْ تدخر معه الرُّهبان في الأدْيِرَة ، ولأغنى ذات الحجاب ، عن الغالية[٥] والملاب[٦] .

ولا بِدْعَ إذا جاد السيد بالردّ ، فقد يُرى وجه المليك في المرآة ، وخيال القمر في الإضاءة ، وإن حال حائلٌ ، دون أمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك ، ولا ييأسُ من غدك ، فأنت خيرُ ما تكون حين لا تظنُّ نفسٌ بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع في رسائل العيادة

كتب ابن الرُّومي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :

أذِنَ الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسحَ بيد العافيــة عليك ، ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل علَّتك ماحيةً لذُنوبك مضاعفة لِثَوابك .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

وصل كتابك يا سيِّدي ، فسرني نظري إليه ثم غمني اطلاعي عليه ، لما تضمنَهُ مِن ذِكر علتك ، جعلَ الله أولها كفارةً ، وآخرها عافيةً ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شُكراً .

وبودي لو قرُب عليَّ متناولُ عيادتك ، فاحتملت عنك بالتعهد والمساعدة بعضَ أعباء[٧] علتك ، فلقد خصني من هذه العلة قسمٌ كقسمك ، ومرض قلبي فيك لمرض جسمك ، وأظن أني لو لقيتك عليلاً ، لانصرفت عنــك ، وأنا أعلّ منك فإني بحمد الله جلدٌ[٨] على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي — شفاك الله وعافاك .

---

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيع (٣) تجعله هدية
(٤) الملوك (٥) الطيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء (٨) شديد

الفصل الثامن في رسائل التهاني

كتب في التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

أهلاً وسهلاً بعقيلة[١] النساء، وأم الأبناء، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار

ولو كان النساءُ كمثل هذي   لفضلت النساءُ على الرجالِ
فما التأنيث لاسم الشمس عيبٌ   ولا التذكير فخرٌ للهلال

والله يُعرّفُكَ البركة في مطلعها، والسعادة بموقعها ، فالدنيا مؤنثة،والناس يخدمونها ، والذكور يعبدونها، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها كثرت الذرية ، والسماءُ مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحلّيت بالنجوم الثواقب[٢] والنفس مؤنثة، وهي قِوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا تحرك الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وُعِد المتقون وفيها تنعم المرْسلون فهنيئاً هنيئاً ما أوليت وَأوزعكَ[٣] الله شكر ما أعطيت، وأطال بقاءك ما عُرِف النسل وبقي الأبد .

وكتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردي يهنئه بمولود:

حقاً لقد أنجز الإقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وإن الشأن لفيما بعده. وحبذا الأصلُ وفرعهُ ، وبورك الغيثُ وصوبه[٤] وَأينع الروض ونوره[٥] ، وحبذا سماءٌ أطلعت فرقداً ، وغابةٌ[٦] أبرَزت أسداً ، وظهرٌ وَافق سنداً ، وذِكر يبقى أبداً ، ومجد يُسمى ولداً ، وشَرَفٌ لحمةٌ وسدى[٧] .

أنجب[٨] كلٌ من والديه به   إذا نجلاه فنعم ما نَجَلا

فألفياه[٩] شِهابَ ذكاء ، وبَدر علاء .

(١) كريمتهن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطره وهنا كناية عن الولد (٥) زهرة الشجر وهو كناية عن الولد أيضاً (٦) موضع الأسد الذي يألفه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لحمة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف وظاهراً وباطناً (٨) ولداه كريما (٩) وجداه .

وَوَجداهُ ابن جـــلا ١ أبيَضَ ٢ يُدّعى الجفَلى ٣
لمثـــله أولى فـــلا إذا النـَّدى ٤ احتفــــلا

وكتب في التهنئة بالقدوم أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
أهنـِّىءُ سيِّدي ، ونـَفسي تطيب بما يَسـَّرَ الله من قدومه سالماً ، وأشكر الله على ذلك شكراً دائماً . جعلَ الله قدومك مقرُوناً بالخيرَة التامــة العامة ، والكفاية الشاملة الكاملة .
غيبة المكارم مقرونة ٌ بغيبتك ، وأوبة النعم موصولة ٌ بأوْبتك ، فوصل الله قدومكَ من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة ،وهَنَاك بإيابك ، وبلـّغك غاية محابك ، ما زلتُ بالنية معك مسافراً ، وباتصال الذ ّكر والفكر ملاقياً إلى أن شمل سرُوري بأوْبتك وسكن نافرُ قلبي بعودتك .

وكتب أيضاً في التهنئة برمضان :
ساق الله إليك سعادةَ إهلاله ، وعرّفك بركة كماله ، لقـّاك فيه مــا ترْجوه ورقاك إلى ما تحبُّ فيما تتلوه ،جعلَ الله ما يطول منهذا الصوم مقروناً بأفضل القَبول ، مؤذناً بدرك البغية وَنجح المأمول . ولا أخلاك من برٍّ مرفوع ، ودعاء مسمُوع ، قابل الله بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك، أعاد الله إلى مولاي أمثاله ،وتقبلَ فيه أعماله،وأصح في الدين والدُّنيا أحوَّاله وبلغه منها آماله . أسعد الله مولاي بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزَل المثُوبة والأجر .

وكتب أبو الفرج الببغاء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنئة :
سيِّدي — أيَّدَه الله ! — أرفعُ قدراً، وأنبهُ ذِكراً ، وأعظمُ ُنبلا، وأشهر

---

(١) واضح الأمر (٢) نقي العرض شريفا (٣) دعاهم بجماعتهم وعامتهم
(٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أي ، لمثله نصوغ التهاني أولى فلا يحسن أن تصاغ لغيره :
بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

فضلاً – من أن نهنئه بولاية ، وإن جلَّ خطرها ، وعَظم قدرها ، لأن الواجبَ تهنئة الأعمالِ بفائض عدله ، والرعية بمحمود فعله ، والأقاليم بآثار رياسته ، والولايات بسماتِ سياسته ، فعرّفه اللهُ يُمْنَ ما تولاه ورَعاه في سائر ما استرعاهُ ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يعانيه ، والتسديد فيما يبرمه ويمضيه .

وكتب أستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ :

أي جهابذةَ (١) الكنانة (٢) نبّال الجُنانة (٣) مياه الإجّانة (٤) أبناء تلك اللغى ، صناديد هذه الوغى ، إليكم يُساقُ الحديث ، في القديم والحديثِ ، عن هذا النبأ العظيم ، والجد الصميم ، مالي أرَى في لغتنا الشريفة ، ويعلم أولو النهى أيـة من اللغات أحقّ بهذا النبز (٥) أن يُصرّف إليها عند الاطلاق ، هُبوباً غِبّ خمُول ، وترّةً (٦) بعد نحول ، ونوراً عقيب أفول ، ونـَوْراً إثر ذبول ، وصبـاً ورَاء قـَبول ، وعدلاً ولا حيف (٧) وقوة ولا ضعف ، وما يشاءُ المطري (٨) في هذا القبيل من العطف آمنت بالقدر المقدور ، والبعث والنشُور ، كذلك يحيي الله الموتى .

أليس رجلٌ واحدٌ أسفرت (٩) عنهُ عناية التوفيق ، فألقت إليه المقاليد (١٠) بلى (١١) ولكنهُ الواحد الذي يقول في مثله صاحب بني ميكال :

والناس ألفٌ منهمُ كواحد وَوَاحد كالألف إن أمر (١٢)

إي (١٣) وَربِّ تلك البَنِيَّة (١٤) ، باريء (١٥) نسم البرية ، إنه لرجلُ البلاد رجلَ الحزم والسَّداد : ألم نرَ جنانه (١٦) ، وحنانه ، وَبنانه (١٧) وبيانه ، عوامل لهذه اللغة : لغة الفرقان (١٨) ، لغة الأوطان ! لا – بل أمضَى من العوامل حتى

---

(١) الحذاق ذوو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل (٣) بضم الجيم الترس التي يتقى بها (٤) الإجانة بالكسر إناء تغلي فيه الثياب وما حول الغراس شبه الأحواض والجمع أجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء الجسم [illegible]ن (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح (١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب مثل نعم (١٤) بفتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥) خالق (١٦) قلبه (١٧) أنامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم .

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعهد من قِدم (نوافل) وما حُليّها أجياد [١] اللهجات عواطل . اللهم إلا بقية ثمد ، قد منيت [٢] صُحُفها الأود [٣] ، ففقدت الجلد والجلد [٤] وبعد أن راجَ سوقُ الرطانة [٥] ونضبَ [٦] ماءُ الإبانة ، وخبت [٧] أنوارُ البلاغة ، وذَوَت [٨] أنوارُ [٩] النباغة ، وكسد البيان ، وقوّض [١٠] منهُ البنيان ، وأصبحت العربية لُقىً [١١] ملقاةً ، وبضاعةً مزجاةً [١٢] فأيهذا اليراع [١٣] لا أقل من نفثات في صوغ كُليمات تقدر هذه النعمة قدرها ، وتمنحها [١٤] شكرها .

وَيْحَكَ ! [١٥] هُب [١٦] من سِنَتِكَ [١٧] ، في حلبة مقتك [١٨] ، وانض [١٩] حسامك [٢٠] ، واشحذ كهامك [٢١] ، واثل [٢٢] كنانتك [٢٣] ، واعمل بنانتك [٢٤] وصغ إن استطعت تهانيء غُرّاً ، بل عقوداً دُرّاً ، بل أنجُماً زهراً ، مشتاراً [٢٥] من خلايا ذلك الأري [٢٦] الشّهي [٢٧] النديِ الذكي ، ما جرَست [٢٨] نحله الشيحَ [٢٩] والخُزامى [٣٠] وأطايب الثمار ، وأزاهيَ الأزهار تهدين أولئك المصاقعُ [٣١] شكراناً لتلك النعم ، تجميعاً لشواردها وتقييداً لأوابدها [٣٢]

---

(١) الأعناق (٢) اختبرت (٣) الأود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب (٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ (١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع (٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخرج ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذي توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك (٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهي (٢٨) أكلت وأصله جرس الشيء جرساً لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت زهره أطيب الأزهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبهها رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوقُ ، وإشفاقاً عليها من الجماح [١] ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليكم بني هذه اللغة « كتابي هذا » تهنئة بتلك النهضة العربية في إبّان (كما تعلمون) وجهه مكفهر [٢] وبدنه مقشعرّ ، وثناء على العناية (التوفيقية) والعزمة (الرياضية) .

على أن لهذا المولى الوزير سوى ذلك ، أياديَ [٣] مبرورة ، ومساعي مشكورة أكسبت الوطن وأهليه نهضات ، وأقالته كثيراً من العثرات — لكنني آثرت [٤] تلكمُ النهضة العربية بتهنئتكم بها . أي بني جلدتي [٥] . وأخوان حرفتي لكونها فيما إخال ، لا ، بل فيما أتيقنُ ويتيقنُ أولو الحِجا [٦] أعظم النهضات وأيمنَ [٧] ما اجتازه [٨] الوطن من العقبات ، ولو كان في نطاق الإمكان زيادة البيان ، في هذا الشّان ، لأسهبْتُ [٩] وأوسعتُ ، وأطريت [١٠] وأطنبت ، ولو لم يكن في تلك النهضة إلا أن حياه الأمة حياةُ لغتها فحسب لكفاك ، وشفاك ، وأغناك ، وكان ذلك قصاراك [١١] وحماداك [١٢] .

وكتب المرحوم الأستاذ محمود بك أبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزي فلان المحترم :

نور على نور ، وشفاءٌ لما في الصدور شفاؤك أيها العزيز من ذلك الرمد . قد أنجز الإقبال ما وعد ، وابتهجت النفوس وتزينت الطروس واهتزت الأقلام وأعلنت بالسلام .

ولاح فجرُ التهاني بالبشائر إذ حيّت فأحيت رُبوع الفضل والأدب

وكيف لا ! وأنت واحد الكتّاب وإنسان عين الآداب ! رمدت فرمدتْ

---

(١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعماً من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بني عشيرتي (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لأكثرت الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهدك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها كليلاً ، وفؤادُها عليلاً واليوم زال العناء ، وحق الهناء وَوَافى الشفاء ، فكان برداً وسلاماً على القلوب وقميص يوسف في أجفان يعقوب :

فلكَ الهناءَ بصحة ميمونة أبداً على مرّ الدُّهور تدُومُ

وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعَرِّف سيّدي مكانته من القلوب ومنزلته من الفضل . وهذه حلل العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك فوافى السرور ، وعم الحُبور . والله يُبلغك بالصحة والأعمال ، منتهى الآمال والسلام .

وكتب الوزير المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ في تهنئة العيد :

هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، واضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ، ببهجة هذا العيد السعيد ، وأخذ الأحبة يتهادَوْن رسائل البشائر فيما بينهم ، وكل حزب فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل الاتحاد السارية في النفوس ؛ أما أنا فعيدي ، وبهجة نفسي ، وسرور فؤادي دوام إقبال الزمان عليك بوجه النصر وعَوْدُ أعياد السرور على جنابك الرفيع . فمثلك تشرق الدنيا بطلعته ، وتفرح الأعياد برؤيته :

وأرى الحياة لذيذة بحياته وأرى الوجود مشرقاً بوجودِهِ
لو أنني خُيرتُ من دهري المنى لاخترتُ طول بقائه وخلودِهِ

أعاد الله عليك أيها الأخ أمثاله وأمثال أمثاله في صفاء وهناء .

الفصل التاسع في رسائل التعازي والتأبين

كتب أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

خبر عز عليَّ مستمَعه ، وأثر في قلبي موقعه . خبر تستاء[١] له المسامع وترتج منه الأضالع ، خبر يهدُّ الرواسي[٢] ويقلق الحجر القاسي . كادت له القلوب تطير ، والعقول تطيش ، والنفوس تطيح[٣] . خبر يشيب الوليدَ ، ويذيب الحديد ، قد كاد .

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك

من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعي الفـادح[1] وتخرس ، وتقصر الأيدي عن التعزية بهذا الرُّزء الفادح[2] وتيبس .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس مصائبـه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينـا

أحسن ما في الدهر عمومه بالنوائب، وخصوصه بالرغائب، فهو يدعو الجَفَلى[3] إذا ساء ، ويخص بالنعمة إذا شاء . فليفكر الشامت : فإن كان أفلت[4] فله أن يشمت. ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه ، والموت وصنوفه، من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره، هل يجد لنفسه أثراً في نفسه؟ أو لتدبيره عوْناً على تصويره؟ أم لعمله تقديماً لأمله ؟ أم لحيله تأخيراً لأجله ؟ كلا . بل هو العبد لم يكن شيئـاً مذكوراً ، خُلق مقهوراً ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً ، وليتأمل المرء كيف كان قبلا؟! فإن كان العدم أصلا ، والوجود فضلا ، فليعلم الموت عدلا .

والموت (أطال الله بقاء مولاي) خطب قد عظم حتى هان ، وأمر قد خشن حتى لان ، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما في كِنانتها[5] وأزكى[6] مـا في خزانتها، ونحن معاشر التبع نتعلم الأدب من أقواله ، والجميل من أفعاله، فلا نحثه على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه في الجزيل وهو الأجر ، فليرَ فيهما رأيه .

وكتب أيضاً :

يا سيدي — المصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء على الأعزة رشد كأنه الغيّ، وقد مات الميت ، فليحيَ الحيّ .

---

(١) الذي يثقل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم
(٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذي توضع فيه السهام (٦) أطهر وأنفس لأنه لا يحرز إلا ما كان نفيسا .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أشباح تروح وتجيء، وآجال تمسي وتغتدي، وأنفاس تتقطع من دونها حزناً وأسفاً، وعبرات تتفطر وجداً ولهفاً، وما عمدت الأقدار إلى استنزاف مدمع، ولا أرادت الأيام إيلام موجع. إنما هي سُنة الخلق: كون يليه زوال وعقد يسبقه انحلال، وإن لكل شيء أجلا موقوتاً، وإن لكل أجل سبباً مقدوراً، وإن الإنسان لفي كل ذلك شاهدٌ، يسمعُ لاهياً ويبصر ساهياً، وليس في يده أن يسترد ماضياً، ولا أن يردَّ آتياً. ولقد وَددت أن أعزيك، لولا ما يغالبني على العزاء من كبد حرى، ومقلةٍ شكرى، وزفرة تترى. ثم وددت أن أستبكيك، لولا أني بكيت حتى لم أدع في البكاء من واد وأحييت لياليّ بالنوح حتى ألمّ بي ما بالنجم من سهاد، ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدي، ولم يزدني النوح على صفر يدي إلا من كبدي، وإن الأقدار سهام إذا انطلقت لم ترد، وإن المتطلع إلى الفائت لطويل شقة الكمد، وإن الخُطوب لهِيَ هِيَ وإنما تتفاوت عند الجلد:

وإن الحصى عند الجَزُوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله المسئول في إطالة بقائك قرة للعيون، وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه

تأبين الأحنف[1] بن قيس :

مات الأحنفُ بن قيس بالكوفة فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء[2] وقال قوم : مات سيد العرب . فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

---

(١) اسمه الضحاك وكان سيد تميم في عهده معروفاً بالعقل والدهاء والعلم والحلم إلى ثبات جنان وحسن بيان. وحياته مملوءة بجلائل الأعمال وكريم الفعال توفي سنة ٦٧ هـ . (٢) كانت عاداتهم في جنائز العظماء .

لله درك ¹ من مجن ²˓³ في جَنَن ومُدرج في كفن ، فنسأل الذي فجّعنا بموتك وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشد دليلك، وأن يوسع لك في قبرك ، ويغفر لك يوم حشرك ، فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنت في الحي مسوّداً ، وإلى الخليفة موفدا. ولقد كانوا لقولك مستمعين ، ولرأيك متبعين .

ثم أقبلت على الناس فقالت : ألا إن أولياء الله في بلاده ، شهود عباده، وإني لقائلة حقاً ، ومثنية صدقاً ، وهو أهل لحُسن الثناء ، وطيب البقاء، أما والذي كنت من أجله في عِدّة ومن الحياة إلى مُدّة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الآثار إلى نهاية ، الذي رفع عملك، لمّا قضى أجلك، لقد عشت حميداً مودوداً، ومت سعيداً مفقوداً ³ ، ثم انصرفت وهي تقول :

لله دَرّك يا أبا بحر ماذا تغيب منك في القبر
لله درك أيّ حشو ثرًى أصبحت من عُرْف ومن نكر
إن كان دهر فيك جَدّ لنا حدثانَهُ ووهت قوى الصبر ⁴
فلكمْ يد أسديتها ويد كانت ترُد جرائر الدهر

ثم انصرفت فسئل عنها فإذا هي امرأته وابنة عمه ⁵ فقال الناس : ما سمعنا كلام امرأة قط أصدق ولا أبلغ منه .

تأبين الإسكندر :

لما جُعل الإسكندر في تابوت من ذهب تقدم إليه أحد الحكماء فقال :

---

(١) الدر : اللبن والعمل، ولله درك: كلمة تعجب. (٢) أجنه: ستره والجنن: القبر ومن بدائع العربية أن مادة (ج ن ن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة والمجن والجنان والجنين. (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أي غير مكترث لفقدانه فقولها : مفقوداً تريد يحزن الناس فقدك . (٤) حدثان الدهر : نوائبه.
(٥) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقروية .

كان الملك يخبىء الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .

وتقدم إليه آخر والناس يبكون ويجزعون فقال : حركنا بسكونه .

وتقدم إليه آخر فقال: كان الملك يعظنا في حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس[1].

وتقدم إليه آخر فقال، قد طاف الأرضين وتملكها ثم جُعل منها في أربعة أذرع. ووقف عليه آخر فقال: انظر إلى حُلم النائم كيف انقضى، وإلى ظل الغمام وقد انجلى . ووقف عليه آخر فقال : مالك لا تُقِلُّ عضواً من أعضائك وقد كنت تستقلُّ مُلك العباد ؟

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها عن رحْب البلاد ؟

الفصل العاشر في رسائل الأجوبة

كتب المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ :

سيدي سلمك الله وحياك وأسعدني برُؤية مُحَيّاك ، وزاد عزّك وعُلياك وحرس دينك ودُنياك ، وجمعني على بساط المسرّة وإياك ، ولا حرمني دوام لقياك ، ولا برح الدهر مبتسِمَ الثغر بمحاسن معاليك ، مباهياً أعصار الأوائل بأيامك ولياليك ، محلياً أجياد المفاخر بزواهر لآليك — ورد عليّ كتابك الكريم مورد إعزاز وتكريم ، فبلّ بعض ما في الجوانح من الصدى ، وأنعشني ولا انتعاش الزهر بمباكرة الندى ، وجلا عليّ من البلاغة روْضاً غضّاً ، وأدار لدي صفواً من سُلاف المحبة محضاً ؛ وهزني هزة النشوان شوْقاً وطرَباً ، واستفزني بمعجز آياته الحسان عُجْباً وعَجباً وَنثر عليّ من محاسن لفظك الحُر وكلماتك الغر ، ما يُخجلُ الدراري ويفضح الدُّر .

---

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت في حياتك لي عظات   وأنت اليوم أوعظ منك حيا

كلامٌ كستْهُ بهجة الحُسْنِ رَوْنقاً هو السِّحر، لا بل جَلّ قدراً عن السِّحر

وكتب أيضاً وهو بالاستانة العليّة في يوم برد كثير الأمطار :

كتبتُ إليك والأمطارُ ساجمة[١] بطلِّها[٢] ووَبْلها[٣]، وعساكرُ البرْد والبرَد هاجمة بخيلها ورَجْلها[٤]، والسماء مُتَلفّعة بأذيال السَّحاب، وكأن الشمس خافت من الطَّلّ فتوارت بالحِجاب، والجوُّ مِسكيُّ الرِّداء، عنبري الأرجاء، كأنه وعليه ثوب الغيم مَزْرُورٌ، قد وَجَلَ[٥] من صولة البرد فلبس فرْوَة السَّمُّور، والغمام قد أناخ على الأفق بِكَلاكِلِه[٦]، وهزّ من البرْق بيض مناصله[٧]، ونَشرَ في الجو مَطرَائِقَ مطارفه[٨]، وجاد على الأرْض بتَليده[٩] وطارفه، وثقلَ على كاهل الهواء كالطَّير بلّ جناحُه بالماء، وقرُب حتى كادَ يُمسَكُ باليدين ويُعتصرُ بالرَّاحتين أو كأنه مرآة مُذهَّبَة تبدو وتخفى، أو جُذْوَة[١٠] مُلتهِبَة تُوقَدُ وتطفى، والرّعد يُهَدِّدُ بزواجير زماجره السَّحائب فيُبكيها، والطيرُ يتلو سُطور الندى في طروس الثرَى[١١] فيُمليها، ويُطربُ بأفنان[١٢] الألحان أفنان[١٣] البان فيُعليها ويَثنيها، ويَقرأ على رُؤوس الأغصان أوْرَاده الحسان فيقريها ويرْقيها، وقوسُ السماء يَرْمي بسهام وَبْله[١٤] جنوب الشقائق[١٥] فيُصْميها[١٦] ويُدْميها، والرِّيح تمسحُ أخلافَ[١٧] الغمائم فتَمْريها[١٨]، وتُرضعُ بدَرِّها بنات النبات في حُجُور أراضيها فتربيها وتَرْبيها، وتُرصّعُ بدُرها تيجان القضبان، وتارة تجعله عقوداً في تراقيها[١٩]، أوْ دُمُوعاً في أماقيها، وكأن الحَرّ خافَ من بنَادِقِ البرَدِ،

(١) سائلة (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجلهم (٥) خلف (٦) بجماعاته (٧) سيوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الأرض (١٢) جمع فنن الغصن (١٣) الاغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان نبت أحمر (١٦) ليرميها ومراده أنه يرميها بالمطر حتى تزهو فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر الضرع (١٨) مرى الناقة يمريها إذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها

ومدافع الرّعد، ففر إلى مصر ونوَاحيها، وأصبحَ نزيل مَنْ فيها لكرم أهليها، وكأن غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً، أو غلط النّاس في حساب الفُصُول فظنوا شتاها صيفاً.

وكتب المرحوم حفني بك ناصف إلى المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٤هـ:

وصل يا مولاي إلى هذا الطرَف، ما خصَّصت به العبدَ من الطرَف «قفص» من عنب كاللؤلؤ في الصدَف، تتألق عناقيده كأنها من صناعة «النَّجَف»، ولعَمر الحقّ إنها تحفة من أحلى التّحف لا يُعثر على مثلها إلا بطريق الصُّدَف فقابلناه لثماً بالأفواه ورَشفاً بالشفاه، واحتفَينا[1] بقدومه كل الاحتفاء، ولم نفرّط في حبّة عند اللقاء، بل حللْنا لهُ الحُبى[2]، وقلنا له أهلاً وسهلاً ومرحباً وأوسَعناه عضاً ولثماً، وتناولناهُ تجميشاً[3] وضمّاً، وحفظناه في صدورنا سره المكنون وطوَيناه في غضُون[4] البطون، فطربت مِنْ تعاطيه الأروَاح ولا غرْو فهو أصل الرّاح[5]، وانتشَيْنا[6] ولم نحمل وِزْراً، وثمِلْنَا[7] ولم نذُق طعماً مُرّاً، فهو كبيان مُهديه سِحر ولكنه حلال، ولعِبٌ إلا أنه كال، فإن أكسبت الشّمول شاربها قوّة في الجنان، ونفحَت[8] ذائقها طلاقة في اللسان، فقد سَرَت في أجسامنا من حرارته شجاعةٌ «ليثيّة» ودبت في كلامنا من مذاقته فصاحةٌ «علويّة»، وخَلَصت إلينا منه فوَائد لا يحيط بها العلم، ونجمت[9] عنه منافع ليس يصحبُها إثمٌ – فإن زعم الأولون أن في الخمر معنى ليس في العنب، فقد تغير الحال في هذه الهديّة وانقلب، وانكشف للمتأخرين حقيقة الأمر، أن في العنب معنى ليس في الخمر. وكان الأحرى بهذا العنب أن يناط[10] بالنّحور أو تُزَينَ به الصدور، فما هو إلا اللؤلؤُ، لكنهُ سلم من سِجْن البحار، وما هو إلا الدُّر، لكن ليس فيه صغار[11].

---

(١) بالغنا في إكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الحبال (٣) المغازلة والملاعبة (٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) سكرنا (٧) سكرنا أيضاً (٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم الصاد: الصغيرة.

ومن كنتَ بحراً له يا عَليّ لا يَلقط الدُّرّ إلا كبارا

وما ضرّه أن ضمّه القفص حصّةً من الحصص ، فإنّ كريم الطير يودَع في الاقفاص، والقلب ليس لهُ من حنايا الضلوع خلاص ، فلا بدع أن تستقلّ في حبّاته حبّات القلوب، ويُستملح في جنب حلاوته رُضاب[١] المحبوب ، وكأن الثريّا لما أخذَت شكلهُ فغَرَ[٢] الهلال فاهُ لعُنقودها يريد أكلهُ، فهو يطاردها في السماء ويأخذ عليها الطريق من الوراء ، وهي تجري من الامام مخافة الالتهام، هذا لمجرد تشابه في الشكل، فكيف بالثريا، لو أشبهتْه حلاوة وريّا[٢] فلله تلك العناقيد ما أشدّ تألقها ! وأصفى ماءها وأحسن رَوْنقها ! من كل عنقود ، تخاله عمود الصبح أحاطت به الدّرّاري ، أو غُصنَ البان تعلقت به القماري .

فسقَى الغيثُ أرضاً أنبتته ، ولا ثَلّ[٤] الدهر عُروشاً حملته، وأرضاً عرفتنا بأثمارها حلاوةَ الجنّة ، وأبرزت لنا لمحةً من محاسنها المستكنة ، وأنسانا عِنبُها ذِكرى دمشق[٥] وإزمير، وأنبأنا غارسُها أن مصر خيرُ مُستقر، ولا يُنبئك مثل خبير ، وعروساً كالعروس، تتيه[٦] في الحلى والملبُوس، تحسدها المجرّة[٧] في السماء وتوَدّ لو تكون لها هذه البهجة والرّواء[٨]، لا زال مـــولاي يُهدَى ويَهدِي وصنائعه تعيد في ثنائه وتُبدي .

وأجابه المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣ ﻫ :

وبعدُ ، فقد وصل كتاب القاضي الفاضل، وأرّج الارجاء بلطيف فواضله ، وشريف الفضائل، وما كنتُ أظُنّ أن يحصّل من زبيبة خماره ، حتى رأيت القاضي الفاضل سبكه في قوالبَ شتى وصاغه وأتى بما أدهش اللبّ من أساليب البلاغة فتارةً عِقداً على النُّحور ، وتارةً في ميادين الطلب تُطارده البُدور

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظراً حسناً (٤) لاهدم (٥) عاصمة الشام سميت باسم بانيها دمشاق بن دمشاق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد البصر وإنما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) بضم الراء حسن المنظر.

وآونة درّاً مكبراً ، ومرّة خمراً معنبراً ، وساعة ذوالي « نجفة » وساعة غصناً تعلق به الهزَار [١] وألِفه :

تكاثرت الظِّباء على خِراشٍ فما يَدري خراشٌ ما يصيد

عجباً لك أيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على ما لديك من مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرّغتَ لهذا الأمر !؟ ولإراحة النفس ، اعتصرتَ من العُنقود قدحاً من خمر ، وامتطيتَ [٢] طرَف اليراع منتهجاً مناهج الطِّرْس ، ودبّجتَ [٣] بياض صفحاته بمحاسن حلى النِّقس [٤] فلله أنت من بليغ بلغَ ما يريد ، وقلّدَ فرائد آدابه كلّ جيد ! وأفاد السِّحْر منثوراً في فواصله ، وأقام بعوامل أقلامه تثقيفَ عوامله ! وأوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأذعنّا مسلّمين والحقُّ أحق — هذا ، ولولا أن يقال فلان جفّا ، وما احتفل بكتاب أخيه ولا احتفى [٥] ، وإن كان شيي يُلزِمُني ذلك ، كما أن شباب (البيك) يسلك به أقوم المسالك ، لسترْت عيّني وما أشَرْت ، ورأيت طيّي خيراً لي مما نشرت ، وجعلت كتاب سيّدي في عنقي تميمةً [٦] وروّحتُ النّفس تيمناً [٧] بمس آياته الكريمة ، وقلت : كفاني ما أحاط بالعنق من قلائده ، حيث العبد لا يبلغ في الفخامة كال سيّده :

وهبْني قلتُ هذا الصبح ليلٌ أيعمى العالمون عن الضياءِ ؟

لا زالت بُرد الترسّل بيننا مُستمرة ، ومدد التّوصل على جناح التقرب مستقرة ، ولا برحَ الجناب في كلّ بداية ، يترقى كما يحب من غاية إلى غاية والسلام.

الفصل الحادي عشر في رسائل الوصايا والشفاعات

من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لعُمر بن الخطاب في غزوة الفرس :

إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خِذلانه بكثرةٍ ولا قِلّة ، وهو دين الله

---

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العندليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر النون الحبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق في عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا.

الذي أظهرَه وجُنْدُه الذي أعدَّه وأمدَّه ، حتى بلغ ما بلغ،وطلع حيثما طلع، ونحنُ على موعد من الله ، والله مُنجزٌ وَعْدَه، وناصرٌ جُنْدَه – ومكان القيِّم بالأمر مكان النـِّظام من الخرز يجمعه ويضُمه ، فإذا انقطع النـِّظام تفرَّق الخرز وذهب ، ثُمَّ لم يجتمع بحذافيره أبداً .

والعَرَبُ اليَوْمَ ،وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام،عزيزُون بالاجتماع، فكن قُطْباً ، واسْتَدِرِ الرَّحى بالعرب ، وأصلِهِمْ دونكَ نارَ الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقَضَتْ عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدعُ ورَاءَكَ مِنَ العَوْرات أهم إليك ممّا بين يديك .

إن الأعاجم إن يَنْظُرُوا إليك غداً يقولوا هـذا أصل العَرَب ، فإذا قَطَعْتُمُوه استَرَحْتُم ؛ فيكون ذلك أشدَّ لكَلَبِهِم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القَوْم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سُبْحانه هو أكْرَه لمَسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يَكْرَه . وأما ما ذكرت من عددهم فإنـّا لم نـَكُنْ نُقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنـّا نُقاتل بالنـَّصر والمَعُونة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام :

أما بَعْدُ ؛ فقد جعل الله لي عليكم حَقـّاً بولاية أمركم ، ولكم عليَّ من الحق مثل الذي لي عليكم ،فالحقُّ أوْسَعُ الأشياء في التواصُف،وأضْيَقُها في التناصُف لا يجري لأحَدٍ إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جَرى لهُ ، ولو كان لأحد أن يجرى له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانهُ دون خلقه ،لقدرته على عباده،ولعدلهِ في كل ما جَرَت عليه صُرُوف قضائه،ولكنـَّهُ جَعَلَ حَقـَّه على العباد أن يُطيعُوه ،وجَعَلَ جزاءهم عليه مُضاعَفَةَ الثـَّواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهلهُ، ثم جعلَ الله سُبْحَانه من حقوقه حُقُوقاً افترَضها لبعض الناس على بعض ؛ فجعلها تتكافأ في وجوهها ، ويوجب بعضُها بعضاً ، ولا

يُسْتَوْجب بعضها إلا ببعض ، وأعظمُ ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حقُّ الوالي على الرّعيّة ، وحقُّ الرّعيّة على الوالي ، فريضة فرضها سبحانه لكلّ على كلٍّ ، فجعلها جمعاً لألفتهم وعزّاً لدينهم ، فليست تصلح الرّعية إلا بصلاح الوُلاة ، ولا تصلح الوُلاة إلا باستقامة الرّعية ، فإذا أدّت الرعيّة إلى الوالي حقه ، وأدّى الوالي إليها حقها ، عزّ الحق بينهم وقامت مناهج الدين ، واعْتَدَلت معالم العَدْل وجَرَتْ على أذلالها السنَنُ ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع في بقاء الدولة ، ويئست مطامعُ الأعداء ، وإذا غلبت الرّعية وَاليها ، وأجحف الوالي برعيته ، اخْتَلَفَتْ هنالك الكلمة وظهرت معالم الجَوْر ، وكَثُرَ الإدغال في الدّين ، وُتركَتْ محاجُّ السنَن ، فعمل بالهوى وعطّلت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحشُ لعظيم حق عُطّل ولا لعظيم بَاطِلٍ فعل ؛ فهنالك تذلُّ الأبرار ، وتعزّ الأشرار ، وتعظمُ تبعاتُ الله عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك وحُسْن التعاون عليه ،فليس أحد وإن اشتدّ على رضاءِ الله حِرْصه ، وطال على العمل اجتهادُهُ ، ببالغٍ حقيقة ما اللهُ أهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة بمبلغ جهدهم ، والتعاوُن على إقامة الحق بينهم وليس امرؤٌ وإن عظمت في الحقّ منزلته ، وتقدّمت في الدين فضيلته ، بفَوْقَ أن يُعان على ما حملهُ الله من حقّه ، ولا امرؤٌ وإن صغرَتْه النفوس ، واقْتَحَمَتْه العُيُون بدُون أن يعين على ذلك ، أوْ يُعَانَ عليه .

فأجابه عليه الصلاة والسلام رَجُل من أصحابه بكلام طويل يُكْثِرُ فيه من الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنّ من حقّ من عظُم جلالُ الله في نفسه ، وجلّ مَوْضعه من قلبه ، أن يصغُرَ عنده لعظم ذلك كلّ ما سوَاه ، وإن أحقّ من كان كذلك لَمَنْ عظُمت نِعْمَةُ اللهُ عليه ولطفَ إحْسَانه إليه ، فإنه لم تَعْظم نِعْمَةُ الله على أحد إلا ازْدَادَ حقُّ الله عليه عِظَماً ، وإنّ مِنْ أسْخَف حالات الوُلاة عندصالح الناس ، أن يظنّ بهم

حبُّ الفخر ويُوضعَ أمرُهُم على الكِبْر ، وقد كرِهتُ أن يكون جالَ في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثّناء ، ولستُ بحمد الله كذلك ، ولو كنت أُحِبّ أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناوُل ما هو أحق به من العظمة والكبرياء ، وربّما استحلى الناسُ الثناء بعد البلاء ، فلا تثنُوا عليّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التّقيّة في حقوقٍ لم أفرُغْ من أدائها ، وفرائضَ لا بُدّ من إمضائها ، فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرَة ، ولا تتحفظوا مني بما يُتحفّظ به عندَ أهل البادِرَة ، ولا تخالطوني بالمصانَعة ، ولا تظنُّوا بي استثقالاً في حقٍّ قيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استثقَل الحقّ أن يقالَ له ، أو العدْلَ أن يُعرَض عليه ، كان العمل بهما أثقلَ عليه ، فلا تكفوا عن مقالةٍ بحقٍّ ، أو مشورَة بعدْل ، فإني لستُ في نفسي بفَوقَ أن أُخطىء ، ولا آمنُ ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربٍّ لا ربّ غيره ، يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنّا فيه إلى ما صلَحنا عليه ، فأبدلنا بعدَ الضّلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصّى بها جيشا بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتم بعدُوّ ، أو نزلَ بكم ، فليكُن معسكرُكُم في قبيل الأشراف ، وسفاح الجبال ، أو أثناء الأنهار . كيما يكون لكم رِدْءاً ، ودونكم مَرَدّاً ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رُقباء في صياصي الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمْن . واعلموا أن مُقدّمة القوم عيونهم وعيونَ المقدّمة طلائعهم – وإياكم والتفرقَ ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غَشيكمُ الليلُ فاجعلوا الرّماح كفّة ، ولا تذوقوا النّوْم إلا غِراراً أو مضمضة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :

إنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له، ولا تُرَوِّعَنَّ مسلماً، ولا تجتازَنَّ عليه كارها ، ولا تأخذنَّ منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدمْتَ على الحي فانزِل بمائهم من غير أن تخالطَ أبياتهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدِج بالتحية لهم . ثم تقول : عبادَ الله ، أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفته ، لآخذَ منكم حقَّ الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حقٍّ فتؤدوه إلى وليّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجعه . وإن أنعَمَ لكَ مُنعمٌ . فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعدَه، أو تعسفه أو ترهقه . فخذْ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل ، فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإنَّ أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخلْ عليها دخولَ متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرَنَّ بهيمة ، ولا تفزعنها ، ولا تسوأنَّ صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرضنَّ لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيِّره ، فإذا اختار فلا تتعرضنَّ لما اختاره ، فلا تزال بذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حقَّ الله منه ، فإن استقالكَ فأقِلْه ، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذي صنعت أولا حتى تأخذ حق الله في ماله ، ولا تأخذنَّ عوداً ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذاتَ عوار ، ولا تأمننَّ عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم ، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معنف ولا مجحف ولا مُلغب ولا متعب ، ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك نُصَيِّرْهُ حيثُ أمر الله ، فإذا أخذها أمينُك ، فأوعزْ إليه أنْ لا يحول بين ناقةٍ وبين فصيلها ، ولا يَمْصُر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدَنَّها رُكوباً . وليَعدِلْ بين صواحباتها في ذلك وبينها ، وليرَفِّه على اللاغب ، وليستأن بالنَّقِب والظالع وليوردها ما تمرُّ به من الغدُر ، ولا

يعدلْ بها عن نبت الأرْض إلى جوادّ الطرُق ولتُيَرّوّحْها في الساعات، وليُمهلها عند النِّطاف والأعشاب حتى تأتينا بإذن الله بُدّنا مُنقيات ، غير مُتعبات ولا مجهودات لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأجْرِك ، وأقرب لرُشْدك إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يذم الدُّنيا :

أيُّها الذَّامُّ للدنيا المغترُّ بغرورها ، المخدُوع بأباطيلها ، أتغترُّ بالدنيـــا ثم تَذُمها ؟! أنت المتَجَرِّم عليها أم هي المتجرِّمة عليك ؟! متى استَهْوَتك ؟! أم متى غرّتك !! أبمصارع آبائك من البلى ؟ أم بمضاجع أمّهاتك تحتَ الثرَى ؟! كم علّلْتَ بكفّيك ؟! وكم مَرّضْتَ بيديْك ؟! تبغي لهم الشفاء ، وتستوْصف لهم الأطباء ، لم ينفع أحَدَهُم إشفاقك ، ولم تسْعفه بطلبتِكَ ، ولم تدفع عنه بقوّتك وقد مثلت لك به الدنيا نفسَك وبمصرعه مصرَعك .

إن الدنيا دارُ صدق لمن صَدَقها ، ودارُ عافية لمن فهمَ عنها ، ودارُ غِنًى لمن تزوّدَ منها ، ودارُ موعظة لمن اتّعظ بها ، مسجدُ أحبّـــاء الله ، ومُصلى ملائكة الله ، ومَهْبط وحي الله ، ومَتجَر أولياء الله ، اكتسبوا فيهـا الرّحمة وربحوا فيها الجنة فمَنْ ذا يذُمُّها وقد آذَنت ببينها ، ونادت بفراقهـــا ، ونَعَتْ نفسها وأهلَها فمثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوّقتهم بسرورها إلى السُّرور ، رَاحت بعافية ، وابتكرتْ بفجيعة ، ترغيباً وترهيباً ، وتخويفـاً وتحذيراً، فذَمّها رجالٌ غَدَاة الندَامة ، وحمدَها آخرون يوم القيامة ذكّرَتهم الدنيا فتذكّرُوا ، وحدّثتهم فصدقوا ، ووَعَظَتْهم فاتّعظوا .

عهد الإمام علي المتوفى سنة ٤٠ هـ لمالك بن الحارث الأشتر النّخَعي ، حين ولاه مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها :

اعلم يامالكُ أني قدْ وَجّهْتك إلى بلاد قد جَرَتْ عليها دُولٌ قبلك من عدْلٍ وجور ، وأنّ النّاس ينظرُون من أمورك في مِثل ما كنتَ تنظر فيه من أمور

الوُلاة قبلك ، ويقوُلون فيك كما كنتَ تقول فيهم ، وإنما يستدلُّ على الصّالحين بما يجري اللهُ لهم على ألسنة عباده – فليكن أحبَّ الذخائر إليكَ ذخيرة العمل الصّالح ، فاملكْ هواكَ ، وشحّ بنفسك عمّا لا يحلّ لك ، فإنّ الشحّ بالنّفس الإنصاف منها فيما أحببْتَ أو كرهت – وأشعِر قلبك الرّحمة للرّعيّة ، والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونَنّ عليهم سَبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إمّا أخ لك في الدّين ، وإما نظيرٌ لك في الخلق . يفرُط منهم الزّلَل ، وتعرض لهم العلل ويُؤْتى على أيديهم في العَمْد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفْحِك ، مثلَ الذي تُحبُّ وترضى أن يُعطيك الله من عفْوه وصفْحه ، فإنّك فوْقَهم ، وَوَالي الأمر عليك فوقَكَ ، والله فوقَ من ولاّك ، وقد استكفاك أمرَهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبنّ نفسك لحرْب الله ، فإنهُ لا قِبَلَ لك بنقمته ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تَندَمَنّ على عفوٍ ، ولا تبجّحنّ بعقوبة ، ولا تُسْرِعَنّ إلى بادرة وَجدْتَ عنها مندوحة ، ولا تقولن إني مُؤمّرٌ آمرُ فأُطاع ، فإنّ ذلك إدغالٌ في القلب ، ومنهكة للدّين ، وتقربٌ من الغير ، وإذا أحدَث لك ما أنتَ فيه من سلطانك أبهةً أو مخيلةً ، فانظر إلى عِظَم ملك الله فوقك ، وقدْرَته منك على ما لا تقدرُ عليه من نفسك فإن ذلك يُطامن إليك من طِماحك ، ويكفُّ عنك منْ غَربك ، وَيفيء إليك بما عَزَب عنك من عقلك ، وإيّاك ومُساماةَ الله في عظَمته ، والتّشبُّه به في جبرُوته ، فإنّ الله يُذل كلّ جبّار ، ويهين كلّ مُختال ، أنصِف الله وأنصِف الناس من نفسك ومن خاصّة أهلك ، ومن لك فيه هوًى من رَعيّتك ، فإنّك إن لم تفعَل تَظلم ، ومن ظلمَ عباد الله كان اللهُ خَصمه دون عباده ، ومن خاصمهُ الله أدْحَض حُجّته ، وكان اللهُ حرباً عليه حتى يَنْزع ويتوب ، وليس شيءٌ أدعى إلى تغيير نعمة اللهِ ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإنّ الله سميعٌ دعوةَ المظلومين ، وهو للظالمين بالمرْصاد وليكُنْ أحبَّ الأمور إليك أوْسطُها في الحقّ ، وأعمُّها في العدْل ، وأجمعها لرضاء الرعية .

فإن سخطَ العامّة يجحفُ برضاء الخاصّة وإنّ سخط الخاصة يُغْتَفر مع رضاء العامّة ، وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونة في الرّخاء ، وأقل معونةً في البلاء ، وأكره للأنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلّ شكراً عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخفّ صبراً عندَ مُلمّات الدّهر ، من أهل الخاصة : وإنما عماد الدِّين ، وجماع المسلمين ، والعُدة للأعداء ، العامةُ من الأمة ، فليكُنْ صفوُك لهم وميلكَ معهم . وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهُم عندك ، أطلبهم لمعايب النّاس فإنّ في النّاس عيوباً ، الوالي أحق مَنْ سترَها ، فلا تكشفن عمّا غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهَرَ لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستُر العوْرةَ ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستْرَهُ من رعيتك — أطلِق عن النّاس عقدة كلّ حقد ، واقطَع عنك سَبب كلّ وتْر ، وتغابَ عن كلّ ما لا يصح لك — ولا تعجلَنّ إلى تصديق ساع ، فإن السّاعي غاشٌ وإن تشبّه بالنّاصحين — ولا تدخلنّ في مشُورتك بخيلاً يَعدل بك عن الفضل ويَعِدُكَ الفقر ، ولا جباناً يُضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يُزيّن لك الشرّ بالجوْر ، فإن البُخل والجُبن والحرص غرائز شتّى ، يجمعها سوءُ الظنّ بالله : إنّ شرّ وُزَرائك مَنْ كان قبلك للأشرار وزيراً ومَنْ شركهم في الآثام ، فلا يكوننّ لك بطانة ، فإنهم أعوان الأثمة ، وإخوان الظّلمة ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخَلف ممّنْ لهُ مثل آرائهم ونفاذهم ، وليسَ عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، ممن لا يُعاون ظالماً على ظُلمه أو آثماً على إثمه ، أولئك أخفّ عليك مؤونة وأحسن لك معونةً ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقل لغيرك إلفاً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكُنْ آثرَهم عندَكَ أقولُهمْ لك بمرّ الحقّ وأقلّهم مُساعدَةً فيما يكون منك مما كَرِه الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيثُ وقعَ ، والصقْ بأهلِ الورَع والصّدق ثم رُضهم على أنْ لا يُطْروك ، ولا يُبجّحوك بباطلٍ لم تفعله : فإن كثرةَ الإطراءِ

تُحدِث الزَّهْو ، وتُدْني من العزّة . ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سَواء ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءَةِ على الإساءَةِ وألزِم كلاًمنهما ما ألزَمَ نفسهُ — واعلم أنهُ ليس شيءٌ بأدعى إلى حُسن ظنٍّ والٍ برعيّته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وتركه استكراهه إياهم على ما ليس له قِبلَهُم ؛ فليكن منك في ذلك أمرٌ يجمعُ لك حسن الظن برعيتك ؛ فإن حسن الظن يقطعُ عنك نَصباً طويلاً . وإن أحق مَنْ حَسُنَ به ظنُّك لَمَنْ حَسُنَ بلاؤك عندهُ ، وإن أحق من ساء ظنُّك به ، لَمَن ساءَ بلاؤك عنده ، ولا تنقضْ سُنَّة صالحة عمِلَ بها صُدُور هذه الأمة ، واجتمعَتْ بِها الألفة ، وَصلَحتْ عليها الرعية ، ولا تُحْدِثنَّ سُنَّة تَضُرُّ بشيء ممّا مضى من تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوِزْرُ عليك بما نَقضت منها . وأكثِرْ مُدارَسَة العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صَلَح عليه أمرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلاّ ببعض ، ولا غنىً ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قُضاة العدل ، ومنها عُمال الإنصاف والرِّفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذّمة ومُسلمة الناس ، ومنها التُّجار وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السُّفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سَمّى الله سهمه ، ووضع على حدّه فَريضةً في كتابه ، أو سُنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً ، فالجنود بإذن الله حُصون الرعية ، وزينُ الولاة ، وعز الدين ، وسُبُل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قِوام للجنود إلا بما يُخرج الله تعالى لهم من الخراج ، الذي يَقْوَوْن به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم — ثم لا قِوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة ، والعمال ، والكتّاب ، لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوامَ لهم جميعاً إلا

بالتجار، وذوي الصناعات فيما يجتمعونَ عليه من مرافقِهم، ويقيمونه من أسواقهم، ويكفونهم من الترفق بأيديهم، ما لا يبلغ رفقُ غيرهم. ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدُهم ومعونتهم، وفى الله لكل سعةٌ، ولكلٍّ على الوالي حق بقدر ما يصلحه. وليس يخرُج الوالي من حقيقة ما ألزمَهُ الله من ذلك، إلا بالاهتمام والاستعانة بالله، وتوطين نفسه على لزومه الحق والصبر عليه، فيما خفّ عليه أو ثقُلَ، فَوَلِّ من جنودك أنصحهم في نفسك َللهِ وَلرسوله ولإمامك، وأطهرَهم جَيْباً وأفضلهم حلماً ممن يُبطيء عن الغضب، ويَستريح إلى العذر، ويرأف بالضّعفاء وينبو على الأقوياء، ممن لا يثيره العنف، ولا يَقعد به الضعف، ثم الصَق بذوي المروآت والأحساب، وأهل البُيوتات الصالحة، والسوابق الحسنة، ثم أهل النجدة والشجاعة، والسخاء والسماحة، فانهم جِماعٌ من الكرم، وشُعب من العُرْف، ثم تفقّد مِن أمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما، ولا يتفاقَمنّ في نفسك شيء قويتهم به، ولا تحقِرَن لطفاً تتعاهدُهم به وإن قلّ، فانه داعيةٌ إلى بذل النصيحة لك، وحُسن الظن بك. ولا تدَع تفقد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها، فإن لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به، وللجسيم مَوْقعاً لا يستغنون عنه — وليكن آثر رُؤوس جُندك عندك من واساهم في معونته، وأفضلَ عليهم مِن جِدَته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خُلوف أهلهم حتى يكون هَمهم هماً واحداً في جهاد العدو فإن عَطفك عليهم يعطّف قلوبهم عليك، وإن أفضَل قرّة عين الولاة استقامة العَدْل في البلاد، وظهور مَودة الرّعية، وإنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على وُلاة أمورهم، وقلّة استثقال دُولهم، وترْك استبطاء انقطاع مدتهم، فأفسح في آمالهم، وواصل في حُسن الثناء عليهم، وتعديل ما أبلى ذوُو البلاء منهم، فان كثرة الذّكر لحسن فعالهم تهز الشجاع وتحرّضُ الناكلَ إن شاء الله تعالى — ثم اعرف لكلٍّ امرىء منهم ما أبلى، ولا تُضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره، ولا تُقَصّرنّ به دون

غاية بلائه ولا يدعُونّك شرف امرىء إلى أن تعظّم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً ، وارْدُدْ إلى الله ورَسوله ما يُضلعك من الخطوب وَيشتبه عليكَ من الأمور ، فقد قال سبحانه لقوْم أحَبّ إرشادهم «يا أيها الذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرسولَ وأولي الأمر منكُمْ . فان تَنَازَعْتُمْ في شيءٍ فرُدوه إلى اللهِ والرّسول » فالرّد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ،والرّد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيقُ به الأمور ولا تمحّكه الخصوم ، ولا يتمادى في الزّلة ، ولا يحصر عن الفيء إلى الحق إذا عرفه ، ولا تُشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقْصاه ، أوقفَهم في الشبهات ، وآخَذَهم بالحُجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرَهم على تكشيف الأمور ، وأصرَمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يَزْدَهيه إطراء ،ولا يستَميله إغراء ، وأولئك قليل — ثم أكثر تَعاهُدَ قَضائه ،وأفسحْ في البذْل ما يزيح علّته وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطهِ من المنزلة لدَيك ما لايطمع فيه غيرُه من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتيال الرّجـال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يُعملُ فيه بالهوى وتطلب به الدنيا — ثمّ انظر في أمور عمّالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تُولّهم محاباةً وأثرة ، فإن ذلك جماعٌ من شعبِ الجوْر والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقِدَم في الإسلام ، فانهم أكرمُ أخلاقاً وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إشرافـاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نَظراً : ثم أسْبِـغْ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوّة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنىً لهم عن تناوُل ما تحت أيديهم ، وحجّة عليهم إن خالفوا أمرَك أو خانوا أمانَتك — ثم تَفَقّدْ أعمالهم وابعث العُيون من أهل الصّدق والوفـاء عليهم ، فإن تعَاهُدَك في السرّ لأمورهم حَدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأعوان فإنْ أحدٌ منهم بسط يدهُ إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفَيت بذلك شاهداً فبسطْتَ عليه العقوبة في

بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة – وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيالٌ على الخراج وأهله – وليكن نظرك في عمارة الأرض ، أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلا ، فإن شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو احالة أرض اغتمرها غرقٌ ، أو أجحف بها عطش ، خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيءٌ خففت بـه المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلدك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمامك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدث من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران يحتمل ما حملته : وإنما يأتي خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر ، ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترىء بها عليك في خلاف لك بحضرة ملإ ، ولا تقصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة

بتصنّعهم وحسن خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولّوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإنّ ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمن وُليت أمره . واجعل لرأس كلّ من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرُها ، ولا يتسلطُ عليه صغيرُها ، ومهما كان في كتّابك من عيب تغابيْتَ عنه أُلزِمْتَه ، ثم استوْصِ بالتجار وذوي الصناعات وأوصِ بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بمالِه ، والمترفق ببدنه فانّهم موادّ المنافع ، وأسباب المرافق وجلاّبها من المباعد والمطارح ، في برّك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترئون عليها فإنهم سِلْمٌ لا تُخافُ بائقته ، وصلحٌ لا تخشى غائلته . وتفقّدْ أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك بابُ مضرّة للعامة ، وعيبٌ على الوُلاة . فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منهُ ، وليكن البيع بيعاً سمْحاً ، بموازين عدْل ، وأسعار لا تُجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف حكرةً بعد نهيك إياه فنكّلْ به وعاقب في غير إسرافٍ — ثم اللهَ اللهَ في الطّبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأهل البُؤْسى والزّمنى ، فإن في هذه الطبقة قانعاً ومعتراً ، واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسْماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كلّ بلد ، فان للأقصى منهم مثلَ الذي للأدنى ، وكلٌّ قد استُرعيتَ حقّه ، فلا يَشْغَلَنّكَ عنهم بطرٌ ، فإنك لا تُعذَر بتضْييعك التافه لإحكامك الكثيرَ المهم ، فلا تُشْخِص همك عنهم ، ولا تصعّر خدّكَ لهم ، وتفقدْ أمورَ مَن لا يصلُ إليك منهم ممّن تقتحمه العيون ، وتحتقرهُ الرّجال ، ففرّغ لأولئك ثقتك من أهلِ الخشْيةِ والتواضع ، فليرفعْ إليك أمورَهم . ثم اعمل فيها بالإعذار

إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فان هؤلاء من بين الرعية أحوجُ إلى الإنصافِ من غيرهم ، وكلٌّ فاعذِرْ إلى الله في تأدية حقه إليه ، وتَعَهَّدْ أهل اليُتم وذوي الرِّقة في السنّ ممّن لا حيلة له ، ولا يَنصِبُ للمسألة نفسه ، وذلك على الوُلاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبّروا أنفسهم وَوَثِقوا بصدق موعود الله لهم — واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تُفرِّغُ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عامّاً فتتواضع فيه لله الذي خلقك . وتُقْعِد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرَطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير مُتتعتع ، فاني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير مَوْطنٍ : « لن تقدّس أُمةٌ لا يؤخذ للضّعيف فيها حقه من القويّ غير مُتتَعْتَع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعيّ وسنّح عنهم الضّيق والأنف ، يبسط اللهُ عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيتَ هنيئاً في إجمال وإعذار .

ثم أمورٌ من أمورك لا بُد لك من مباشرتها ، منها إجابةُ عمّالك بما يَعيا عنه كتّابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يومَ وُرودها عليك مما تَحرَجُ به صدور أعوانك ، وامْضِ لكلّ يومٍ عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزلَ تلك الأقسام ، وإن كانت كلّها لله إذا صلحَت النّية وسلمت منها الرعية ، وليكن في خاصة ما تُخْلِصُ لله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فأعط الله من بدنك ، في ليلك ونهارك ، ووفِّ ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غيرَ مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكونن مُنَفِّراً ولا مضيّعاً . فان في الناس مَنْ به العلة وله الحاجة : وقد سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجّهني إلى اليمن : كيف أُصلي بهم ؟ فقال :

« تَصلْ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيما » .

أما بعدُ — فلا تُطَوِّلن احتجابَك عن رعيتك ، فان احتجابَ الولاة عن الرعية شُعبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسنُ القبيحُ ، ويُشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالي بشرٌ لا يعرف ما توارى عنهُ الناس به من الأمور ، وليست على الحق سِماتٌ تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإنما أنت أحد رجلين : إما امرؤ سخَتْ نفسك بالبذل في الحقّ ، ففيم احتجابك من واجب حق تُعطيه ! أو فعل كريم تسديه ؟! أو مبتَلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا منك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ، مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكاة مَظْلمة ، أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصة وبطانةً ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة إنصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ، ولا يَطمعَن منك في اعتقاد عقدة تَضر بمن يليها من الناس في شِرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه ، فإن مغبة ذلك محمودة ، وإن ظنت الرعية بك حيفاً فأصحِر لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك ، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك ، وإعذاراً تبلغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ، ولله فيه رضا ، فإن في الصلح دَعة لجنودك وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فإن

العدو ربما قارَب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتّهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدْت بينك وبين عدوك عقْدة، أو ألبستَه منك ذِمة، فحطْ عهدك بالوفاء، وارْع ذِمتك بالأمانة، واجعل نفسك جُنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناسُ أشدُّ عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم، وتَشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استَوْبلوا من عواقب الغدر، فلا تغدرَنّ بذمّتك، ولا تَخيسَن بعهدك ولا تختلنّ عدوك، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العبادِ برحمته وحصناً يسكُنون إلى مَنعتِه، ويستفيضون إلى جواره فلا إدغالَ ولا مدالسة ولا خِداع فيه، ولا تعقدْ عقداً تجوز فيه العلل ولا تعوّلن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيقِ أمرٍ ترجو انفراجه وفضلَ عاقبته، خيرٌ من غدر تخاف تَبعته، وأن تحيط بك فيه من الله طلبةٌ، فلا تستقيمُ فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء، وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لِنقْمة، ولا أعظم لتبعة، ولا أحرى بزوال نِعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تَسافكوا من الدماء يومَ القيامة، فلا تُقوّيَنّ سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويُوهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العَمد، لأن فيه قوَد البدن، وإن ابتُليت بخطأ وأفرط عليك سوطك، أو سيفك، أو يدك، بعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلةً، فلا تَطمحنْ بك نخوة سلطانك، عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها، وحُب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان في نفسه، ليمْحقَ ما يكون من إحسان المحسنين

وإياك والمنّ على رَعيّتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تَعِدَهم فتُتبع موعدَك بخُلفك ، فإن المنّ يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقتَ عند الله والناس ، قال الله سبحانه وتعالى (كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أنْ تقولوا ما لا تَفْعَلون) .

وإيّاكَ والعَجَلة بالأمُور قبل أوانها ، أو التّسَقّط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكّرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كلّ أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه . وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوَةٌ ، والتّغابي عما يُعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطيةُ الأمور ، ويُنتصَف منك للمظلوم ، وامْلك حميّة أنفك ، وسورة حدك وسطْوة يدك ، وغربَ لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثُر هُمومك بذكر المعاد إلى ربك والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسي دليلَك لكيلا يكون لك علة عندَ تسرُّع نفسك إلى هواها ، وأنا أسأل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدْرَته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى في ٧ جمادى الثانية ١٣ هـ إلى بعض قواده :
إذا سِرْت فلا تُعَنّف أصحابك في السير ولا تغضبهم ، وشاور ذوي الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الجور ، فإنهُ ما أفلحَ قومٌ ظَلَمُوا ولا نُصِرُوا على عدوهم (وإذا لقيتُمُ الَّذينَ كَفَروا زَحْفاً [١] فلا تُوَلّوهُمُ الأدْبارَ [٢] وَمَنْ يُوَلّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحَرِّفاً [٣] لِقِتالٍ ، أوْ مُتَحَيِّزاً [٤] إلى فِئَةٍ ، فَقَدْ باءَ بِغَضَبٍ مِنَ الله) وإذا نصرتم عليهم ، فلا تقتلوا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تذبحوا بهيمة ، إلا ما يلزمكم للأكل ، ولا تغدروا إذا هادنتم [٥] ولا تَنقضوا إذا صالحتم ، وستَمُرُّون على أقوام في الصوامع ، ورهبان ترهّبوا لله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وارتضَوْه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهم — والسلام.

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٢ هـ إلى بعض قواده :

أما بعد : فإني أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذُنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدّتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة « وإلا ننصر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا » واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة يُحْيُون فيها أنفسهم ، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصُّلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به — وليكن منك عند دنوك من أرض

---

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون (٢) الانهزام (٣) منعطفاً
(٤) منضماً إلى جماعة يستنجد بهم (٥) صالحتم .

العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بَينك وبينهم ، ثم أذْكِ أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، والله وليّ أمرك ومن معك ، ووليّ النصر لكم على عدوكم .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أخته :

أنت وَلَدي ما دُمْت : والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتر أليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٩٦٧ هـ لابنه ، وقد أراد السفر :

أُودعك الرحمن في غُربتك ... مرتقباً رُحماه في أوبتك
فلا تُطِل حبلَ النَّوى إنني ... والله أشتاق إلى طلْعتك
واختصر التوديع أخذاً فما ... لي ناظرٌ يقوى على فُرقتك
واجعل وَصاتي نُصبَ عين ولا ... تبرح مدى الأيام من فكرتك
خلاصة العمر التي حنّكت ... في ساعة زُفت إلى فطنتك
فللتجاريب أُمورٌ إذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تنم عن وَعْيها ساعة ... فإنها عَوْنٌ إلى يقظتك
وكل ما كابدته في النّوى ... إياك أن يكسِرَ من همتك
فليس يُدْرى أصل ذي غربة ... وإنما تُعرفُ من شيمتك
وَآمْشِ الهُوَيْنا مظهراً عفة ... وَآبْغ رضا الأعين عن هيئتك
وانطق بحيث العيُّ مُستَقبَح ... واصمت بحيث الخير في سكتتك
ولجْ على رِزْقك من بابه ... واقصد له ما عِشْت في بكرتك
وَوفّ كلاً حقه ولْتَكن ... تكسِر عند الفخر من حدتك
وحيثما خَيَّمت فاقصد إلى ... صحبة من تَرْجُوه في نصرتك
وللرزايا وثبةٌ ما لها ... إلا الذي تذخر من عدّتك

ولا تقلْ أسلَمُ لي وحدتي فقد تقاسي الذلّ في وحدتك
ولتجعَل العقلَ محكّاً وخذ كلّاً بما يظهر في نقدتك
واعتبر الناس بألفاظهم واصحب أخاً يرغب في صحبتك
كم من صديق مظهرٍ نصحه وفكرُه وقفٌ على عثرتك
إياك أن تقربه إنّه عونٌ مع الدّهرِ على كربتك
وأنمُ نموّ النبت قد زاره غِبَّ النّدى واسمُ إلى قدرتك
ولا تضيّع زمناً ممكناً تذكاره يذكي لظى حسرتك
والشرُّ مهما اسطعت لا تأتِهِ فإنه حَوزٌ على مهجتك

يا بني ، الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله — قد قدّمت لك في هذا النظم ما إن أخطرته بخاطرك في كلّ أوان رجوت لك حسن العاقبة — إن شاء الله تعالى — وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأحقّ بالتقدم قولُ الأول :

يزينُ الغريبَ إذا ما اغترَب ثلاثٌ فمنهنّ حسن الأدب
وثانية حُسن أخلاقه وثالثةٌ اجتنابُ الريب

واصغ يا بنيّ إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر ، وسُلّمُ الكرم والصبر :

ولو أنّ أوطان الدّيار نَبَتْ بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

إذ حُسن الخُلق أكرمُ نزيل ، والأدبُ أرحبُ منزل ، ولتكن كما قال بعضهم في أديبٍ متغرّب ، وكان كلما طرأ على ملك فكأنّهُ معه وُلد ، وإليه قصد ، غير مُسْتريب بدهره ، ولا منكر شيئاً من أمره .

وإذا دعاك قلبُك إلى صحبة من أُخِذ بمجامع هواه ، فاجعل التكلف له سُلّماً ، وهُبَّ في روض أخلاقه هبوب النسيم ، وحلّ بطرفه حلول الوسَنَ ، وانزل بقلبه نزُولَ المسرّة ، حتى يتمكن لك ودادُه ، ويخلص فيك اعتقاده

وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا تُرخّص في جانبه لحسود لك منه، يريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسودٍ له يَغار لتجمّله بصحبتك، ومع هذا، فلا تغترّ بطول صحبته، ولا تتمهد بدوام رقدته، فقد يُنبِّهه الزمان، ويتغيّر منه القلب واللسان، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً، وكان كالمرآة يلقى كل وجه بمثاله؛ وفي الأمثال العامة: «من سبقك بيوم سبقك بعقل» فاحتذ بأمثلة من جرّب، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال، فإنها خلاصة عمرهم، وزُبدة تجاربهم، ولا تتكل على عقلك، فان النظر فيما تعبَ فيه الناس طول أعمارهم، وابْتاعوه غالياً بتجاربهم، يُرْبحك، ويقع عليك رخيصاً، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة، فاستفد منه، ولا تُضيّع قوله ولا فعله، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك، وحَثّاً لك واهتداء.

وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه، حتى تتدبره، فإن كان موافقاً لعملك، مصلحاً لحالك، فراع ذلك عندك، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكلّ أحد يُتبسّم، ولا كل شخص يُكلم، ولا الجود مما يعُم به، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعامل به كلّ أحد، ولله درّ القائل:

وما ليَ لا أوفي البرية قِسْطها على قَدْرِ ما يعطي وعقلي ميزانُ

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكفء، ولا الكفء بمعاملة الأعلى، ولا تُضَيّع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة، بغائبة آجلة، ولا تجفُ الناس بالجملة، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل، ولا ضجر، ولا جفاء، فمتى فارقت أحداً، فعلى حسنى في القول والفعل، فإنك لا تدري هل أنت راجعٌ إليه! فلذلك قال الأوّل:

* ولما مضى سَلمٌ بكيت على سلمٍ *

وإياك والبيت السائر:

وكنتَ إذا حللْتَ بدار قومٍ رحلْتَ بخزية وتركْتَ عارا

واحرص على ما جَمَعَ قَوْل القائل: «ثلاثة تُبْقي لك الوُدّ في صدر أخيك: أن تَبْدَأَهُ بالسَّلام، وتُوسّعَ له المجلس، وتَدْعوهُ بأحبّ الأسماء إليه»، واحذَر كلّ ما بَيَّنه لك القائل: «كل ما تغرسه تجنيه، إلاّ ابن آدم؛ فإذا غَرَسْتَهُ يقلعك». وقول الآخر: «إن ابن آدم ذئب مع الضّعف، أسدٌ مع القوّة» وإيّاك أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطيل اختباره، ويحكى أن ابن المُقفع خطب من الخليل صُحْبته؛ فجاوبهُ: «إن الصُّحبة رِقّ، ولا أضع رقّي في يديك حتى أعرف كيف ملكتك» واستمل من عين مَنْ تعاشره، وتَفَقّد في فلتات الألسن، وصفحات الأوْجه، ولا يحملك الحياءُ على السكوت عمّا يَضرُّك أن لا تُبَيِّنَه؛ فإنّ الكلام سلاح السِّلم، وبالأنين يُعْرَف ألمُ الجرح، واجعل لكل أمْرٍ أخذْت فيه غاية تجعلها نهاية لك:

وخذ من الدّهْرِ ما أتاكَ به   من قرّ عَيْناً بعيشة نَفَعه

إذ الأفكار تجلب الهموم، وتُضاعِفُ الغُموم، وملازمة القطوب، عنوان المصائب والخطوب، يستريب به الصاحب، ويشمت العدُوّ والمُجانب، ولا تضرّ بالوَساوس إلاّ نفسك، لأنّكَ تنصر بها الدّهر عليك – ولله درُّ القائل:

إذا ما كنت لِلأحزَان عوناً   عليك مع الزمان فمن تلوم؟!

مع أنه لا يردّ عليك الغائبَ الحزْن، ولا يَرْعوي بطول عتبك الزّمن.

ولقد شاهَدْت (بغِرناطة) شخصاً قد ألفتْه الهُموم، وعشقَتْهُ الغُموم، ومن صغَره إلى كبرَه ولا تراهُ أبداً خليّاً من فِكرة، حتى لُقّب «بصدر الهمّ».

ومن أعجب ما رأيتهُ منهُ أنهُ يَتَنَكَّدُ في الشّدة، ولا يتعلّل بأن يكون بعْدَها فرَج، ويتنكّد في الرّخاء خوفاً من أن لا يدوم، ويُنشد:

* توقّعْ زوالاً إذا قيلَ تَمْ *

وينشد: * وعِندَ التّناهي يَقصُرُ المتطاوِل *

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب، ومثل هذا عُمرُه محسور يمر ضياعاً

ومتى رفعَك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحْسِنه حسداً لك وقصداً لتصغير قدرك عندك ، وتزهيداً لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهد في علمك وتركن إلى العلم الذي مدحوه ؛ فتكون مثل الغُراب الذي أعجبه مشي الحَجَلة فرام أن يَتَعلمه ُ فصَعُبَ عليه ، ثم أراد أن يَرجع إلى مشيه فنَسِيه فبَقي مُخَبَّل المشي كما قيل :

إن الغرابَ وكان يمشي مِشْية فيما مضى من سالف الأجْيالِ
حَسَدَ القطا وأراد يمشي مشيها فأصابه ضَرْبٌ من العُقّالِ
فأضلَّ مِشْيَته وأخطأ مشيها فلذاك كنَوْه (أبا مِرْقال)

ولا يُفسد خاطرَك من جعل يذُم الزمان وأهلَه ، ويقول ، ما بَقي في الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصِّفة أكثر ما يكونون ممن صحبهم الحرمان ، واستحقت طلعتهم للهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعَجَزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس ، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، ولا تُزِلْ هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إذا ما نِلْتَ عزّاً فأخو العزِّ يلين
فإذا نابك دهرٌ فكما كنت تكون

والأمثال تُضْرَب لذي اللبِّ الحكيم ،وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم ، والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفتي عليك لا رب سواه .

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين :

يا أحمر — إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهجة نفسه ، وثمرة قلبه ؛ فصيّر يدك عليه مبسوطة ً ،وطاعته لك واجبة ً ،فكُنْ له بحيث وضعَك أمير المؤمنين.

أقرئه القرآن ، وعرّفه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السُّنن ، وبصّره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القوّاد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إيّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه ، وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشّدة والغلظة .

وصية بعض نساء العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :

قال أبانُ بن تغلب ، وكان عابداً من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهي توصي ولداً لها يريد سفراً ، وهي تقول له :

أي بُنيّ : إجلس أمنحك وصيتي وبالله توفيقُك ، فإن الوصية أجدى [١] عليك من كثير عقلك. قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسناً لوصيتها فإذا هي تقول : أي بُني إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبّين ، وإياك والتّعرض للعيوب فتتخذ غرضاً [٢] وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعتورت [٣] السهام غرضاً إلا كلمته [٤] حتى يهي [٥] ما اشتد من قوته .

وإياك والجُود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هززت فاهزز كريماً يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته بِشرَه ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها ، والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء ، فقد أجاد الحلة ريطتها وسر بالها .

---

(١) انفع (٢) هدفاً (٣) تداولت (٤) جرحته (٥) يضعف.

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :

خرج الزُّهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيت كاليوم، ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات ، فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، قال : ما هُنّ ؟ قال: لا تعد عِدة ولا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يَغُرَّنك المرتقى، وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتق العواقب ، وأن للأمور بغتات [١] ، فكن على حذر ، قال عيسى بن دأب : فحدثتُ بهذا الحديث (المهدي) وفي يده لقمة قد رَفَعَها إلى فيه فامسكها وقال : ويحك! أعد عليّ ، فقلت : يا أمير المؤمنين : أَسِغ [٢] لقمتك ، فقال: حديثك أعجب إليّ.

نصيحة أعرابي لسليمان بن عبد الملك :

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام فاحتمله ؛ فإن وراءه إن قبلته ما تحبه، قال : هاته يا أعرابي، فنحن نجود بسعة الاحتمال على من لا نأمن غَيْبَتَه ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً الناصح جيباً [٣] ، قال : فاني سأطلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا [٤] دنياك بدينهم ، ورضاك بسُخْط ربهم ، وخافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا [٥] الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند

---

(١) البغتات: جمع بغتة وهي الفجأة. (٢) أساغ اللقمة : ابتلعها. (٣) فلان ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أي أمين ، قال الشاعر : * وحصنت صدراً جيبه لك ناصح * . (٤) ابتاع : اشترى . (٥) ألا يألو ألواً : قصر . يقال إني لا آلوك نصحاً لا أقصره . وقال تعالى : « لا يألونكم خبالا » أي لا يقصرون في خبالكم وفسادكم .

الله غُبْناً من باع آخرته بدنيا غيره ، فقال سليمان : أمـا أنت يا أعرابي فقـد سَلـَلت لسانك وهو سيفك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك .

نصيحة فتاة لأبيها :

قالت أعرابية — تنصح أباها بمجانبة السَّرف — : حبس المال أنفع للعيال من بذل الوجه في السؤال ، فقد قل النوال ، وكثر النـّجال [١] ، وقد أتلفت الطارف والتـّلاد [٢] وبقيت تطلب ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أوشك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمذاني لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزيه وينصح له :

وصلت رقعتك (يا سيدي) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجد ، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغيّ ، قد مـات الميت فليحي الحي ؛ فاشدد على مالك بالخَمْس [٣] ؛ فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكي لك ، وقد موّلك [٤] مما ألف بين سراه [٥] وسيره ، وخلفك فقيراً إلى الله غنياً عن غيره ، وسيعجم [٦] الشيطان عودك ، فإن استلانك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب [٧] والأحباب ، والعيش بين القِداح والأقداح [٨] ولولا الاستعمال لما أريد المال ؛ فان أطعتهم فاليوم في الشراب وغداً في الخراب ، واليوم واطرباً للكاس ، وغداً واحَرَبـاً [٩] من الإفلاس ، يا مولاي : ذلك

---

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد. (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف. (٣) يريد بالخمس الأصابع وهي مؤنثة في الأكثر . (٤) موله : اتخذ له مالاً . (٥) السرى : سير الليل (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته. (٧) حباب الماء والشراب : فقاقيعه التي تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح : سهام الميسر ، واحدها قِدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أي سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

الخارج من العُود يسميه الجاهل نقراً ، والعاقل فقراً ، وذلك المسموع من النّاي[1] هو في الآذان زَمْر ، وفي الأبواب سَمْر ، وإن لم يجد الشيطان مَغْمزاً في عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يُمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش عِرْسك[2] ، وتمنع نفسك وتبوء في دُنياك بوِزْرك ، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك ، لا – ولكن قصداً بين الطريقين، وميلاً عن الفريقين لا منع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضَيْر عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه

ومن يُنفِق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليكن لله في مالك قسم ، وللمُروءة قسم ، فَصِلِ الرحم ما استطعتَ وقدّر[3] إذا قطعت ، فلأن تكون في جانب التقدير ، خير من أن تكون في جانب التبذير .

وصية الرياحي لقومه

قال الرّياحي في خطبته بالمِرْبد[4] :

يا بني رياح – لا تُحَقّروا صغيراً تأخذون عنه ،فإني أخذت من الليث بَسالته ومن الحمار صبره ، ومن الخِنزير حرصه ، ومن الغُراب بُكورَه ، ومن الثعلب رَوغانه[5] ، ومن السّنور ضَرَعه[6] ، ومن القرد حكايته ، ومن الكلب نُصرته ، ومن ابن آوى حذره ، ولقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

---

(١) الناي : آلة للزمر ، فارسي معرب ، وقد تهمز ياؤه ، وقد جمعوه على نايات . (٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير في تسوية أمر .

(٤) المربد : الجرين ، ثم صار علماً على موضع بالبصرة .

(٥) الروغان : الميل عن الشيء لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع :

وصية ذي الأصقع[١] لابنه

لمّا احْتَضَرَ ذو الأصبع العَدواني دعا ابنه (أسيداً) فقال له :

« يا بُني : إن أباك قد فني وهو حيّ ، وعاش حتى سئم العيش ، وإني موصيك بما إن حفظته بلغت في قومك ما بلغته : ألن جانبك لقومك يحبُّوك وتواضع لهم يرفعوك ، وابسُط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك ، وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ، ويَكبرُ على مودّتك صغارهم. واسمح بمالك ، واعزز جارك[٢] وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك وأسرع النهضة في الصريخ[٣] فإن لك أجلاً لا يَعدوك وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتمّ سُؤدَدُك

وصية عبدالله بن شداد[٤] لابنه

قال الكلبي : لما حضرَت عبدالله بن شداد الوفاة دعا ابناً له يقال له (محمد) فقال : يا بني ، إني أرى داعي الموت لا يُقلِع ، وأرى من مضى لا يرجع ، ومن بقي فإليه يَنزَع[٥] ، وإني موصيك بوصية فاحفظها .

عليك بتقوى الله العظيم ، وليكن أولى الأمور بك شكر الله ، وحسن النيّة في السر والعلانية ، فإن الشكور يزداد والتقوى خير زاد ، وكن كما قال الحطيئة :

ولست أرى السعادة جمع مال ولكنّ التقيّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بدّ أن يأتي قريبٌ ولكن الذي يمضي بعيدُ

(١) هو حرثان بن الحارث، خطيب حكيم، شاعر فارس، وهو أحد المعمرين في الجاهلية (٢) الجار : المجاور والذي أجرته من أن يظلم. (٣) الصريخ: صوت المستغيث وهو أيضاً المغيث واحداً أو أكثر. (٤) هو عبد الله بن شداد بن الهادي الليثي كان من رجالات العراق ومن ذوي المكانة عند الحجاج، ثم خرج عليه مع ابن الأشعث ، ويقال إنه قتل سنة ٨٣ هـ . (٥) نزع إليه كجلس . اشتاق .

أيْ بُنيّ : لا تزهَدَنّ في معروف ، فإن الدهر ذو صُروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه . واعلم أن الزّمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان وكن أي (بُنيّ) كما قال أبو الأسود الدؤلي :

وعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للعُرْف[1] طالبُ
وإن امرأ لا يُرتجى الخير عنده يكن هيّناً ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعنْ ذا حاجة جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التّوا[2] هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

أي بُنيّ : كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البِرّ ، وإن أحمد بخل الحر الضّن بمكتوم السّر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم[3] الأنصاري :

أجُود بمكنون التّلاد وإنني بسِرك عمّن سالني لضنين[4]
إذا جاوز الاثنين سر فإنه بنثّ وتكثير الحديث قمين[5]
وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني مكان بسَوْداءِ الفؤاد مكين[6]

أي بُنيّ : وإن غُلبت يوماً على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال ، والدنيّ عيال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، وأقلّ ما تكون في الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاد[7] نعمته، وكن كما قال ابن خذاق[8] العَبْدي :

---

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا مصدر التوى وقصره للضرورة. والتوى به الزمان . اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن . (٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونث الحديث : أفشاه . (٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسويداؤه وأسوده : حبته ، (٧) الإنفاد : الفقر . (٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أبي قد أوْرثه أبوه خِلالاً قد تُعد من المعالي [١]
فأكرم ما تكون عليّ نفسي إذا ما قلّ في الأزمات مالي
فتحسُنُ سيرتي وأصون عِرْضي ويَجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلتُ الغنى لم أغلُ فيه ولم أخصُص بجفوتيَ الموالي [٢]

أي بُنيّ : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد، فإنك إن أمضيتها حيالها [٣] رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل هو الفطن المتغافل [٤] ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتي شتْم ابن عمي وما أنا مُخْلِف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جُرم سمعت فقلت مُرّي فانفذيني [٥]
فعابوها عليّ ولم تَسؤني ولم يَعرق لها يوماً جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقاً وليس إذا تغيب يأتليني [٦]
سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حَسَبي وديني

أي بُنيّ : لا تؤاخ امرءاً حتى تعاشره ، وتتَفقد موارده ومصادره ، فاذا استطعت العشرة ، ورضيت الخبْرة [٧] ، فواجه على إقالة العثرة ، والمواساة في العُسرة وكن كما قال المُقنّع الكندي[٨] :

أبْلُ الرجالَ إذا أردت إخاءهم وتوسّمن فعالهم وتَفقّد

(١) نقلت حركة الهمزة من أورث إلى الواو وحذفت هي للوزن ، والخلال: جمع خلة وهي الخصلة . (٢) غلا في الأمر غلو : جاوز الحد . والموالي: الأقارب، يقول : إن كثر مالي لم أجف أقاربي. (٣) حيال ظرف في معنى إزاء أي تركتها تذهب في طريقها الخ . (٤) في معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغبي بسيد في قومه لكن سيد قومه المتغابي

(٥) نفذه: جازه. (٦) ائتلى كألا أي قصر: يقول إذا غاب عني فلن يقصر في نكايتي (٧) الخبرة ، وبغير هاء ، العلم بالشيء كالاختبار (٨) هو محمد بن عميرة والمقنع لقب شاعر رصين المباني حكيم المعاني من شعراء الدولة الأموية

فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى فبه اليدين قرين عين فاشدد [١]
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

أي بنيّ : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط [٢] ، فإنه قد كان يقال أحبب حبيبك هوناً ما [٣] عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وكن كما قال هدبة [٤] بن الخشرم العذري :

وكن معقلاً للحلم واصفح عن الخنا فإنك راء ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع [٥]
وأبغض إذا أبغضت بغضاً مقاربا فإنك لا تدري متى أنت راجع

الفصل الثاني عشر في رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن علي بن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤هـ إلى القاسم بن عبيد الله :

ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً ، فوالله لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد تذللاً ، وأنا أعيذ حالي عندك بكرمك من واش يكيدها . وأحرسها بوفائك ممن يحاول إفسادها .

وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث أستحق منك السلام .

---

(١) اللبابة مصدر لب أي صار ذا لب وهو العقل ؛ وكل ما قبل « فاشدد » من الشطر الثاني معمول له وتكررت الفاء للربط — وكذا في البيت التالي

(٢) شط وأشط : جاوز الحد . (٣) الهون : الرفق ، وما : إما زائدة ، وإما صفة لهونا مثلها في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » .

(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل :

ولست بمفراح إذا الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركي ولكن متى أحمل على الشر أركب

(٥) نزع عن الأمر نزوعاً : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون ، الأندلسي المتوفى بأشبيلية ٤٦٣ هـ :

يا مولاي [١] وسيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي [٢] بـه ، وامتدادي [٣] منه ، ومن أبقاه الله ماضيَ [٤] حد العَزم [٥] واريَ [٦] زند [٧] الأمل [٨] ، ثابتَ [٩] عهدِ [١٠] النـِّعْمة ، إن سلبتني [١١] أعزك [١٢] الله لباس [١٣] نعمائك ، وعطلتني [١٤] من حلى [١٥] إيناسك [١٦] وأظمأتني [١٧] إلى بُرود [١٨] إسعافك [١٩] ونفـَضْتَ [٢٠] بي كفَّ حياطتك [٢١] وغـَضَضْتَ [٢٢] عنـّي طرف [٢٣] حمايتك . بعْد أن نظر الأعمى إلى تأميلي [٢٤] لك ، وسمع الأصَمُّ ثنائي [٢٥] عليك وأحس الجماد باستِحْمادي [٢٦] إليك .

(١) المولى له معان كثيرة والأليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضاً قال أبو تمام :

مولاك يا مولاي صاحب لوعة في يومه وصبابة في أمسه
دنف يجود بنفسه حتى لقد أمسى ضعيفاً أن يجود بنفسه

(٢) عدتي ليوم حاجتي (٣) مزيد خيري (٤) قاطع (٥) قوة الإرادة أي لا يعزم على أمر إلا أمضاه (٦) الوري : خروج النار من الزند وقت الاقتداح . (٧) مقدحة (٨) الرجا (٩) متمكن ومتوثق (١٠) ميثاق أي أن نعمته ثابتة ومحفوظة عليه أبداً وأن محبته مقصورة عليه ، وأنه يطلب من الله أن يبقيه ، وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع وأنه لحسن افتتاح وبراعة استهلال (١١) انتزعت مني (١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء لسيده بالعزة والإشارة إلى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيها له على ذلك . (١٣) ما يواري الجسم أي جردتني من نعمتك المحيطة بي (١٤) العطل في الأصل خلو جيد المرأة من القلائد (١٥) ما يتحلى به (١٦) أنسك ، أي حرمتني من لذيذ أنسك (١٧) أعطشتني (١٨) بارد (١٩) إنجادك (٢٠) طرحت (٢١) أحاطتك أي طرحتني من كفء حوزك لي (٢٢) خفضت (٢٣) نظر ، أي خفضت طرف وقايتك عني فتركتني غرضاً لصائبات الحوادث (٢٤) التأميل أمر معنوي لا يشاهد وإنما ذلك مبالغة في شدة التلبس والاتصاف به (٢٥) مدحي ، — مبالغة في انتشار مدحه (٢٦) استحمادي مبالغة في تأثير حمده يشير إلى تعداد ماحل به من المصائب وأحدق به من كل جانب ألا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به إحاطة الثياب وحرمانه من الأنس بذلك الجناب وإعطاشه إلى سريع إغاثته وإخراجه

فلا غَرْوَ ١ قد يغصُّ ٢ بالماءِ شاربهُ ، ويقتلُ الدواءُ المستشفيَ بـه ، ويؤتى الحذِرُ ٣ من مأمنه ٤ ،وتكونُ مَنيةُ ٥ المُتمني في أمنيته ٦ ، والحين ٧ قد يسبقُ جهد ٨ الحريص

كلُّ المصَائبِ قد تمرُّ على الفتى   وتهون غيرَ شماتة ٩ الحسَّاد

وإني لأتجلدُ ١٠ وأُري للشامتين « أني لريبِ ١١ الدهر لا أتضعضع » ١٢

فأقول : هل أنا إلا يدٌ أدماها ١٣ سوارُها ١٤ ، وجبينٌ عضَّ به إكليله ١٥

= من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصوصاً بعد أن صير تأميله فيه جسماً مخترعاً ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب إليه الآذان فدخلها بدون استئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده في حمد حتى كان مؤثراً في كل الكائنات ولذا أدركه الجماد ، وفيه من المبالغة ما في قول المتنبي :

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي   وأسمعت كلماتي من به صمم

وإنما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجعه وتألمه ، وأسرع لتلبية ندائه وأمكن لجلب الصفاء وإزالة الجفاء .

(١) فلا عجب : الفاء واقعة في جواب أن من قوله إن آسليتني (٢) غصصت بالماء أغص غصاً إذا شرقت به وأغصصته أنا . (٣) المتيقظ (٤) من حيث لا يتوقع الضرر (٥) موت (٦) ما يتمناه (٧) الهلاك (٨) طاقة (٩) الفرح في مصائب الغير ، يقول : إن انتزعت مني ما أعطيت ، وأحللت بي من المصائب ما أحللت ، بعد غلوي في الثناء عليك ، والتجائي في كل الأمور إليك ، فليس ذلك بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال ، فالماء الذي به زوال الغصص قد يكون هو المغص وأن الأمنية قد تكون فيها المنية وأنه يشير في عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتي التي أسطو بها   ويدي،إذا اشتد الزمان،وساعدي

فرميت منك بغير ما أملته ،   والمرء يشرق بالزلال البارد

ولقول الآخر :

تجري الأمور على وفق القضاء،وفي   طي الحوادث محبوب ومكروه !

فربما سرني ما بت أحذره ،   وربما ساءني ما بت أرجوه !

والبيت الذي ذكره لابن عيينة . (١٠) أتكلف الصبر والقوة (١١) ريب الدهر : نوائبه (١٢) أتزلزل : هذا حل بيت لأبي ذؤيب الهذلي وهو :

وتجلدي للشامتين أريهم   أني لريب الدهر لا أتضعضع

(١٣) اسال دمها (١٤) نوع من الحلي يلبس في الساعد (١٥) تاجه .

ومشرَفيٌّ[١] ألصقهُ بالأرض صاقـِلُهُ[٢]، وسمهريٌّ[٣] عرضهُ على النار مُثقِفـه[٤] وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزْدجروا[٥] ومن يكُ حازماً فليقسُ أحيانـاً على من يرحم

هذا العتبُ[٦] محمودٌ عواقبه، وهذه النّبوةُ[٧] غمرةٌ[٨] ثم تنجلي[٩]، وهذه النكبة[١٠] سحابة صيفٍ عن قليلٍ تقشعُ[١١]، ولن يريبني[١٢] من سيدي إن أبطأ سيبه[١٣] أو تأخر، غير[١٤] ضنين غناؤه[١٥]، فأبطأ الدلاء فيضاً[١٦] أملؤها، وأثقل السحائب مشياً أحفلها[١٧]، وأنفع الحيا[١٨] ما صادف جدبـاً[١٩] وألذ الشراب ما أصاب غليلاً[٢٠]، ومع اليوم غدٌ ولكل أجلٍ كتابٌ.

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومـه (٥) يمتنعوا : يخاطب نفسه ويسليها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه، ويحببها ما تعاديه مع مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعله وعمـله معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسناء التي أجرى دمها السوار، والجبين الذي أثر فيه تاج الافتخار، والسيف الذي وضعه على التراب صاقله لصقله لا لهوانه، والرمح الذي وضعه على النار مثقفه لتقويمه لا لإحراقه، والعبد الذي قسا عليـه سيده رحمة به وإحساناً لا استخفافاً به وهوانـاً، والبيت لأبي تمـام . (٦) اللوم (٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تقلع، يقول : أرجو أن يكون هذا اللوم ختام الجفاء، مبدأ الألفة والصفاء وأن هـذه الجفوة شدة وتحول وسحابة لا تلبث ان تزول، يشير إلى قول المتنبي :

لعـل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وإلى المثلين العربيين «غمرات ثم تنجلي» و «سحابة صيف عن قليـل تقشع» والأول يضرب في حصول اليسر بعد العسر والثاني في سرعة التغير (١٢) يجعلني شاكاً (١٣) عطاؤه (١٤) غير ضنين : احتراس يريد به حمل سيده على العطف ودفع ما يتوهم من أن التأخير للايقاع به (١٥) نفعه (١٦) الفيض : صعود الماء على الضفة، والمراد هنا مجرد الصعود، أي أن أبطأ الدلاء صعوداً أكثرها امتلاء (١٧) أملؤها (١٨) المطر (١٩) الأرض التي لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة؛ لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما حل به عن قريب يزول، ورأى أن تأخير الرحمة به وعدم إنقاذه من ورطته ربما يوهم الريبة في محمدة العاقبة، دفع ذلك معتذراً عن سيده في هذا التأخير معللاً بقوله فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤهـا وأثقل السحاب مشياً أحفلها وغير ذلك مما يدل على أن في التأخير ما ينعم البال =

له الحمدُ على اهتباله [١] ، ولا عتب عليه في اغتفاله [٢]

فإن يكن الفعلُ الذي ساءواحداً فأفعــاله اللائي سَررْنَ ألوف

وأعود فأقول : ما هذا الذنبُ الذي لم يسعهُ عفوُك ، والجهلُ الذي لم يأت من ورائه حلمك ، والتطاوُل [٣] الذي لم يستغرقه تطولك [٤] والتحامل [٥] الذي لم يفِ به احتمالك [٦] ؟! ولا أخلو من ان أكون بريئاً فأين عدلـك ؟ أو مسيئـاً ، فأين فضلك .

إلا يكن ذنبٌ فعدلك واسعٌ أو كان لي ذنبٌ ففضلك أوسعُ

فهبني مسيئاً كالذي قلت طالبــاً قصاصاً [٧] فأين الأخذيا عز [٨] بالفضل

حنانيك [٩] ، قد بلغ السيل الزُّبى [١٠] ، ونالني ما حَسْبي به وكفى .

وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت [١١] واستكبرت !!

= ويقر الأعين ، ثم ختم عبارته بما هو أمثل في التسلية وأدعى للتصبر من حيث يقول : ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده بما اعتذر وأخذ يمدحه على إيقاعه به وتغافله عنه عله أن يرأف به ويعطف عليه والبيت للمتنبي (٣) الكبر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطـاق (٦) الاحتمال كالحمل إلا أنه في الأمور العظيمة ، قال النابغة الذبياني * فحملت براً واحتملت فجاراً * (٧) عقاباً ٨) اسم امرأة ، رجع بعد أن عود نفسه في مخاطبة الأمير الصبر والانتظار التفت منه الى ما في ضميره من بقايا العتاب فقال يستفهم مريداً بذلك إلزامه بالصفح عنه بتصغير ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول: ما هذه الحركة التي زلزلت طودك ، وما هذه الجيفـة التي عكرت بحرك ، ولم لا يشملني كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر ، شفيع للعاصي والمطيع ، وذكر البيتين تأييداً لما قاله في نثره ، والاول للبحتري والثاني مأخوذ من قول الحماسي:

هبيني ظلوماً نلته بمساءة قصاصاً فأين الأخذيا عز بالفضل

(٩) تثنية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهي حفرة تحفر لصيد الأسد في مكان مرتفع لا يعلوه الماء فإذا وصل إليه السيل كان مجحفاً : يريد بذلك مزيد استرحام سيده من حيث يقول له : حنانيك ، أي رحمة إثر رحمة أطلبها منك فإن الذل والهوان قد وصلا الغاية ، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية: وقوله بلغ السيل الزبى مثل عربي يضرب في بلوغ الشيء غايته (١١) امتنعت: ولقد أحسن =

وقال لي نوحٌ اركب معنا فقلت سآوي [١] إلى جبل يَعْصِمني [٢] من الماءِ ، وأَمَرْت ببناءِ صرح [٣] لعلي أطّلع إلى إله موسى ، وعكَفت [٤] على العجـــل ، واعتديت [٥] في السَّبت ، وتعاطيْت [٦] فعقرْت [٧] ، وشربت من النهــر الذي

= كل الإحسان وتلطف ما شاء في عطف قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق إشارة مبدعاً في وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وأنه لو قسم على ذري الذنوب من الأولين والآخرين لكان كافيــاً لتكفير تلك الذنوب جزاء وفاقاً ، ملمحاً إلى ذوي الذنوب المشهورة ووقائع الآثام المأثورة. فقال : وما أراني ... إلخ . يشير إلى ذنب إبليس وهو امتناعـه واستكباره عن السجود لآدم من حيث أمره الله بذلك «فأبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

(١) سألجأ ٢) يحفظني ، يشير إلى ذنب ابن نوح ،وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : «يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين» فخالف أباه وقال : سآوي... إلخ . (٣) قصر ، يشير إلى ذنب فرعون ، وهو إنكاره الإله وادعاؤه أنه هو الإله الحقيقي؛ وذلك حينما أتاه موسى عليه السلام بالإيمان بالله ، فقال فرعون « يأيها الملأ مــا علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » : الآية . (٤ ، واظبت ، يشير إلى ذنب بني اسرائيل وهو عبادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صائغ من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر وقال لبني إسرائيل إن الحلى الذي استعرتموه من المصريين وبقي معكم بعد غرقهم لا يحل لكم فادفنوه حتى يأتي موسى ويرى رأيه فيه ،ففعلوا ،فأخذه وصاغه عجلاً ووضع فيه القبضة التي أخذها من أثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه السلام ،فصار العجل يمشي ويخور ،فقال لبني إسرائيل هذا إلهكم وإله موسى نسيه وذهب لطلبه ؛ فافتتن به كثير منهم واتبعوه ٥ جاوزت ، يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت ،وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيه وكانت الحيتان تأتي فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تغطي الماء ولا تأتي في غيره فتحيلوا بعمل حيضان متصلة بالبحر فإذا جاءت عشية الجمعة فتحوا الاتصال فتدخل الحيتان في الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ،ولما أمهل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحاق بهم العذاب . (٦ تعاطى : قام على اطراف اصابع رجليه : ثم رفع يديه وضرب (٧ عقر البعير بالسيف فانعقر ، اي ضرب به قوائمه . يشير إلى ذنب قدار وهو قتــل ناقة صالح عليه السلام ،وذلك أن امرأة يقال لها عنيزة لها مال وبنات حسان ،وأخرى يقال لها صدوق بنت المحيا صاحب أوثانهم ،كان زوجها أسلم وأنفق ماله على صالح=

ابتلى الله [1] به جيش طالوت ، وقدت الفيل لأبرهة [2] ، وعاهدت [3] قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأوّلت [4] في بيعة العقبة [5] ، واستنفرت إلى العير [6]

= واتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقاً لنفسها على قتل الناقة ، ودعت عنيزة قداراً على ذلك ايضاً فذهبا وتبعهما أشقياء ثمود وكمن كل منهما في أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدار بسيفه فأبان عروقها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير إلى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده » فخالفوا وشربوا إلا قليلاً منهم . ٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير إلى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كناني ولوثها بالعذرة ، وأتى أقوام من تجار قريش واضرموا ناراً بجانبها فهبت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشي لذلك ؛ وقام أبرهة واخذ الفيلة وفي مقدمتها فيل النجاشي المسمى محموداً ليهدم الكعبة إرضاء له ، ولما وصل إليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه إلى اليمن فقام مهرولاً ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فأهلكتهم . ٣) أعطيتهم عهداً وميثاقاً ، يشير إلى ذنب قريش وهو اتحادهم على عدم نصرة الدين ، وذلك أنهم لما رأوا ان الدين أخذ في النمو وأن حمزة وعمر أسلما تعاهدوا على مهاجرة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماماً وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة عهداً لذلك. ٤) خالفت. (٥) طريق وعر في الجبل ، يشير إلى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، اي هب أني خالفت الإجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد .

٦) العير – بالكسر – الإبل التي تحمل الميرة ، وهو يشير إلى ذنب ضمضم الغفاري وهو استنهاض قريش لأبي سفيان ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب كان آتياً من الشام في عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، فشعر بذلك أبو سفيان ، فاستأجر ضمضماً المذكور ليخبر قريشاً ، فذهب وصرخ ببطن الوادي واقفاً =

ببدر ، وانخذلت ١ بثُلث الناس يوم أُحد ٢ ، وتخلفت ٣ عن صلاة العصر في بني قريظة ٤ ، وجئتُ بالإفـــك ٥ على عائشةَ الصِّديقية ، وأنِفت ٦

= على جمل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه قائلاً : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة . اموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لا أرى ان تدركوها ، الغوث الغوث ، فتجهزوا جميعاً وذهبوا إليه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى ، وفيها انتصر النبي عليه الصلاة والسلام انتصاراً باهراً .

(١) خذله : ترك عونه ونصرته (٢ أحد ، جبل بالمدينة . يشير إلى ذنب أبي ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هو ومن معه من المنافقين ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج الى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال اعدائه ، وكان من رأي ابي ان يمكث النبي في المدينة ، فأبى عليه الصلاة والسلام قبول رأيه موافقاً لمعظم الصحابة ؛ فرجع هو ومن معه من المنافقين ، وقال أطاعهم وعصاني (٣، تأخرت ٤) طائفة من اليهود . يشير إلى حادثة بني قريظة ؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعاً مطيعاً ؛ فليصل العصر في بني قريظة ، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس ، والبعض الآخر رأى أن المقصود الإسراع فصلى في الطريق ، ولما اختلف الفريقان في تعيين المصيب ، ترافعا الى الرسول فحكم بإصابتهما وإذا تكون عبارته كناية عن فداحة التخلف عن الذهاب (٥) الكذب ؛ يشير إلى ذنب مسطح وحسان ومن معهما في مجاهرتهم بالسوء لزوجه عليه الصلاة والسلام ، وذلك انه لما ذهب عليه الصلاة والسلام إلى غزوة بني المصطلق ؛ كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها ففي العودة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر في هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هؤلاء ما اشاعوا فبرأها الله تعالى بالآيات البينات ٦، استكبرت ، يشير إلى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جهز جيشاً ليذهب به الى الشام وقال له سر إلى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيؤمر هذا الغلام على المهاجرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج في مرضه عاصباً وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم في اسامة فقد طعنتم في ابيه من قبل وأنه لأهل لها فاستوصوا به خيراً .

عن إمارة أسامة ، وزعمتُ أن خلافة أبي بكر كانت فلتة [١] ورويتُ رمحي من كتيبة [٢] خالد ، ومزقت [٣] الأديم الذي باركتْ يدُ الله عليه وضحّيتُ بأشمط [٥] عنوان السُجود به ، وبذلتُ لقطام [٦] .

ثلاثة آلافٍ وعبدٌ وقينةٌ [٧] وضَرْبُ عليٍّ بالحسام المسمّم

(١) أي من غير إحكام ولا روية يشير إلى ذنب الشيعة وهو عتقادهم أن علياً هو الأحق بالخلافة ، ومن سواه غاصب ويقولون ما تقدم. وفي حديث عمر، «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها» فقيل: المراد بالفلتة الخلسة أي الإمامة يوم السقيفة مالت الأنفس إلى توليها وكثر فيها التشاجر فانتزعها واختلسها أبو بكر اختلاساً ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى

(٢) جيش ، يشير إلى ذنب أبو شجرة السلمي وهو فتكه بجيش خالد في حرب الردة ويشير إلى قوله في ذلك .

ورويت رمحي من كتيبة خالد وإني لأرجو بعدها أن أعمرا

(٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير إلى ذنب أبي لؤلؤة وهو قتل عمر عليه الرضوان وذلك أن أبا لؤلؤ طلب منه أن يخفف عنه جعل سيده فقال له: إنه ليس بكثير وإنك لصانع مجيد واريد أن تصنع لي رحى. فقال : سأصنع لك رحى يسمع دويها أهل المشرق والمغرب وكمن له حتى طعنه في صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير إلى ذلك ما قاله بعضهم في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يـد الله في ذاك الأديم الممزق

(٥) مختلط شعر الرأس: يشير إلى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشكون عماله فأرضاهم وأرسل محمد بن أبي بكر ليكون والياً على مصر فبينما هو ذاهب إذ رأى عبداً على هجين يستحثه فأحضره وفتشه فوجد معه كتاباً من الخليفة الى عامل مصر يقول: اذا أتاك محمد ومن معه فتحيل في قتلهم، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بأنه خط كاتبه وهذا ختمه وعبده وهجينه وأنه لم يرسله، فطلب منه أحد أمرين: الاعتزال أو اعطاءه كاتبه الحكم فأبى فحصلت الفتنة وحاصروه الى أن قتل ، ويشير الى ما قاله بعض نعاته :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليـل تسبيحاً وقرآنـاً

(٦) اسم امرأة ٧ جارية : يشير بذلك الى ذنب ابن ملجم وهو قتل علي كرم الله وجهه وذلك أن هذه المرأة أعجبته لنضارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما في البيت. فقال لها : لك ما طلبت. وقال البيت وبعده : =

وكتبت إلى عمر بن سعد : أن جَعْجِع [١] بالحسين ، وتمثلت عندما بلغني من وقعة الحرة [٢] :

ليت أشياخي ببدر شهدوا جَزَعَ الخزرج من وقع الأسل

ورجمت [٣] الكعبة ، وصلبت العائذ على الثنية [٥] ، لكان فيما جرى عليّ [٦] ما يحتمل أن يكون نكالا [٧] ، ويدعى ولو على المجاز عقاباً .

وحسبك من حادثات بأمرئ* ترى حاسديه له راحمينا

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

(١) ضيق : يشير إلى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين، وذلك أنه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب إلى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما أبطأ جهز له «شمراً» وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت باستشهاده رضي الله عنه ٢ أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن مسلم وأهل المدينة . يشير إلى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه أرسل عقبة بن مسلم إلى محاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبعري المذكور مظهراً لما في الضمير المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين . (٣) رميت بالحجارة (٤) الملتجىء (٥) طريق العقبة : يشير إلى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبد الله بن الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبدالله وأصحابه إلى الكعبة فنصب الحجاج المنجنيق عليها ورجمها وبعد ما انتصر عليه صلبه منكساً وآلى أن لا ينزله إلا إذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذا الفارس أن يترجل فاعتبر قولها شفاعة وأنزله . ومن قولها لابنها يوم مقتله : يا بني لا تقبلن منهم خطة تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربة بالسيف في عز، خير من ضربة بالسوط في مذلة . فقال لها : إنما أخاف المثلة . قالت : يا بني إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها (٦) حصل لي (٧) عذاباً يريد أني لو أتيت بهذه الذنوب كلها لكان ماحصل لي من التعذيب والإهانة والذل والاستكانة كافياً لتمحيص هذه الذنوب كيف لا وقد صرت إلى حالة يرثي لها العدو والحبيب والبعيد والقريب ، وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم في الاستعطاف والبيت الذي ذكره للعتبي .

* **والأصح : وحسبك من حادث بامرىء**

فكيف ولا ذنب إلا نميمةٌ [١] أهداها كاشحٌ [٢] ! ونبأ [٣] جاء به فاسق وهم الهمازون [٤] المشاؤون [٥] بنميم ، والواشون [٦] الذين لا يلبثون [٧] أن يصدَعُوا [٨] العصا ، والغُواةُ [٩] الذين لا يتركون أديما [١٠] صحيحاً ، والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنفُ بن قيس فقال : « ما ظنك بقومٍ الصِّدق محمودٌ إلا منهم ؟! »

حلفت فلم أترك لنفسك رِيبة [١١] وليس وراءَ الله للمرءِ مطلَب

والله ما غشَشْتُك بعدَ النصحة ولا انحرفت [١٢] عنك بعدَ الصاغية [١٣] إليك ، ولا نصَبْتُ [١٤] لك بعد التشيّع فيك ، ولا أزمعت [١٥] بأسامنك . مع ضمان تكفلت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حُسنُ الظن عليك ، ففيمَ عبِثَ [١٦] الجفاءُ بأذمّتي [١٧] ،

---

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمر العداوة «أهداها كاشح» كناية عن حسن سبك هذه النميمة وأنه معتنى بها كما يعتنى بالهدية للأمير (٣) خبر (٤) المغتابون (٥) النمامون (٦) الذين يزينون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : اقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون (١٠) الأديم : الجلد ، يريد سعي النمام وخبر الفاسق وتزيين الغواة والذين يشقون عصا الألفة ويمزقون اعراض الناس ويلمح في عبارته إلى قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا » الآية ، وإلى قول كثير عزة :

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا هي لم يصلب على البري عودها

(١١) شبه : يريد حلفت فلم أترك شبهة في نفسك من براءتي وليس بعد الله من يصدق القسم به حتى أقسم به وأذهب إليه والبيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته للنعمان . (١٢) ملت (١٣) الإصغاء (١٤) الناصبي في العرف من كان عدواً لعلي كرم الله وجهه وهو ضد الشيعي (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أني مقيم على النصح لك ثابت على الميل لك ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهبا ولم يستفزني اليأس منك وتلعب بي أيدي الأهواء فإن ثقتي بك وحسن ظني فيك قد ضمنا لي أن اطرد اليأس بالرجاء في عفوك ، وهذا الكلام من الاستقصاء البديعي بمكان فإنه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول لو) ولا (ليت استجلاباً للرحمة وطلباً للعفو ١٦) لعب وهزل . (١٧) حرماتي .

وعاث [١] العقوق [٢] في مواتي [٣] ، وتمكن الضياع [٤] من وسائلي [٥] ؟ ولم ضاقت مذاهبي [٦] ، وأكدت [٧] مطالبي ؟ وعلام رضيت من المركب [٨] بالتعليق [٩] ؟ بل من الغنيمة بالإياب [١٠] ؟ وأني غلبني الغلب [١١] ، وفجر [١٢] على العاجز الضعيف ، ولطمتني [١٣] غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس ؟ وتدركني ولما أمزق [١٤] ؟ ! أم كيف لا تضطرم [١٥] جوانح [١٦] الأكفاء [١٧] حسداً لي على الخصوص لك ؟ وتنقطع أنفس [١٨] النظراء [١٩] منافسة [٢٠] لي على الكرامة فيك ،

---

(١) أفسد . (٢) ضد البر . (٣) وسائلي . (٤) الهلاك . (٥) ما أتقرب به (٦) طرقي . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الاياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مراراً . (١٢) فجر : اجترأ. (١٣) ضربتني على وجهي براحتها (١٤) أقطع : يستفهم عن سبب إفساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل للرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحتى رضي من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالماً واجترأ عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلابا وظلمه من لم يكن له كفؤا وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال (أولها) إرض من المركب بالتعليق يضرب في القناعة بإدراك بعض الحاجة وثانيها) رضيت من الغنيمة بالإياب يضرب في القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرىء القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمتني) قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة — والثلاثة تضرب عند العجز والذلة — ويشير إلى قوله المثقب العبدي :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق

وفي هذا الاستفهام تخصيص له على إنجاده وسرعة إنقاذه .

(١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .
(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زانني اسم خدمتك ، وزهاني [١] وسْم [٢] نعتك ، وابليت [٣] البلاء الجميل في سماطك [٤] ، وقمت المقامَ المحمود على بساطك ؟!

ألست الموالي [٥] فيك غُرّ قصائد هي الأنجُمُ اقتادت مع الليل أنجما
ثناءٌ يظلُّ الروض منهُ منوَّراً ضُحى ويخال الوشي [٦] فيه منمنما [٧] ؟!

وهل لبس الصباحُ إلا بُرداً [٨] طرَّزته [٩] بفضائلك ، وتقلدت [١٠] الجوزاء [١١] إلا عقداً فصَّلتُهُ [١٢] بمآثرك ، واستملى [١٣] الربيعُ إلا ثناءً أمليته في محاسنك ، وبثّ [١٤] المسْكُ إلاّ حديثاً أذعته [١٥] في مَحَامدك ؟ ما يوم (حليمةَ بسرّ) وإن كنت لم أكسك سليباً [١٦] ! ولا حليتك عُطلاً ! ولا وسمتك غفلاً [١٧] بل وجدت آجُرّاً [١٨] وجصّاً [١٩] فبنيت . ومكان القول ذا سعَة فقلت :

---

(١) الزهو الكبر (٢) علامة (٣ جربت (٤) السمط . الصف من الناس (٥) المتابع (٦١) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧ ثوب موشى بألوان فيها البياض — لقد اتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ — وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار في قلوب الحساد والنظراء بتعهده له بالإنعام بالصلات حتى أنطق لسانه فيه بالمدائح التي طلعت من الليل أنجما والثناء الذي زهرت به الرياض ووشيت به حلل الفضل والبيتان من قصيدة للبحتري يعاتب بها الفتح بن خاقان (٨) رداء (٩) علمته (١٠) لبست ١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جعل خرزة بين كل لؤلؤتين (١٣) طلب الإملاء (١٤ نشر (١٥) أشعته : والمعنى أن فضائلك التي نشرتها في مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى أنه لا يضيء إلا بسببها : وأن عقد الجوزاء لم يحسن في مرأى العين إلا لكوني فصلته في محامدك وكذلك الربيع لم تتضوع الأزهار بنشرها فيه إلا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك ثم أثبت أن ماتقدم حقائق ثابتة بقوله مايوم حليمة بسر وهو مثل عربي يضرب في فشو الأمر وانتشاره (١٦) مسلوباً (١٧ عادم العلامة (١٨) الطين المحروق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه بإذاعة المحاسن ونشر المدائح وأنه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له : إني لم أمدحك إلا بما هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال وإنما أنا صغتها في القالب الذي يلفت الانظار ويجلي صدأ الأفكار .

حاشا [١] لك أن أعدّ من العامِلة الناصبة [٢] ، وأكون كالذُّبالة [٣] المنصوبة ، تضيء للنّاس وهي تحترِقُ . فلكَ المثلُ الأعلى [٤] ، وهـو بك وبي فيك أولى . ولعمرُك [٥] مـا جهلت أنّ (صريح الرأى [٦]) أن أتحوّل إذا بلغتني الشمس و(نَبا بي المنزل [٧]) واصفح [٨] عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال فلا أستوطىء العَجْز [٩]) ولا أطمئنّ [١٠] إلى الغُرُور [١١] ومنَ الأمثال المضروبة : خامري [١٢] أم عامر [١٣] .

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة العليا — بعد ان عمل جهد المستطيع في الثناء عليه أراد أن يستميله بلطف ليجعل لعمله فائدة ونتيجة فنزهه على أن يجعل مثله معه كمثل الكفار حيث عملوا وتعنوا في الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة في الأخرى ، ويشير إلى قوله تعالى : (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية) الآية والى قول العباس ابن الاحنف :

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق

وبالغ في التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح وأنت أولى من صفح عن زلة المسيء ، وأنا أولى من ادخرت مودته بالصفح عنه ، وما أحسن قوله وهو بك الخ ، كأنه يقول هو بك أولى وهو بي كذلك إذا كان فيك فكلا الحالين مخصوص بك وما ألطف ما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه في الإمام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زرته فلفضله أو زارني فلفضله فالفضل في الحالين له

(٥) حياتك ٦ شديدة ٧ نبا بي المنزل: لم يوافقني (٨)أعرض ٩ استوطىء العجز · اجده لينا سهلا(١٠)أميل(١١) ما يغتر به من متاع الدنيا ١٢) اشتري (١٣) كنية الضبع ، يقسم بحياة سيده أنه جهل أن سديد الرأي وجوب التحول عن مقام الإهانة متى شعر بلحاقها به كما أنه لم يجهل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة الخذلان ومقطع أعناق الرجال وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا يميل إلى الغرور ولكن خابت آماله وانعكست أحواله فكان الغرور نصيبه والأمل قائده فاغتر كما اغتر الضبع بقول القائل خامري أم عامر . يشير إلى قول أبي تمام :

وإني مع المعرفة أن الجلاء [1] سباءٌ [2] والنقلةَ [3] مثلةٌ [4] :

ومن يَغترِبْ عن قومه لم يَزلْ يرى مصارعَ مظلوم مجرا ومسحبا
وتدفَنَّ منه الصالحاتُ وإن يسيء يكن ما اساء النار في رأس كبكبا [6]

عارفٌ ان الأدب الوطنُ لا يُخشى فراقه ، والخليط [6] لا يتوقع زياله [7] والنّسيب [8] لا يخفى ، وَالجمال لا يُجفى [9] .

ثم مـا قران [10] السعد بالكواكب أبهى أثراً ، ولا أثنى خطراً [11] من اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً [12] معه ، فإن الحائز [13] لهما الضارب بسَهم فيهما ، — وقليلٌ مـا هم [14] — اينما توجَّه ، وردَ منهل [15] بر ، وحط في جناب [16] قبول ، وضوحك قبل إنزال رَحله ، واعطى حكم الصبي على اهـله

وإن صريح الرأي والحزم بامرىء إذا بلغته الشمس ان يتحولا

وإلى المثل العربي « العجز وطيء » يضرب لمن استلان فراش العجز وقعد عـن طلب المكاسب ؛ وقوله: خامري الخ مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ثم يميل إليها ويغتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) اسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبـل (٦) المخالط (٧) مفارقته (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد ان بين لسيده انه لا يجهل ان الصواب التحول اراد ان يبين له انه يعرف ايضاً ان الانتقال فيه التمثيل والنكال وان الغربة كربة والنوى توى وان حسنات الغريب مهجورة وسيئاته منشورة فقال إني مع معرفتي بأن خروجي من وطني أسر لي ودفـن لمحاسني وانتقالي منه إلى غيره مع عدم معرفة أهـل هذه الجهات بما انا متحل به من العلوم والآداب والكمالات تنكيل بمحاسني وتضييع لبهجة كالاتي فيجهـل قدري وتهضم حقوقي وتدفن مني الصالحات وتشاع على قلتها السيئات غير اني لا اعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقي بل وطني الذي أعول عليه إنما هـو ملازم لي اينما حللت و رتحلت اخشى فراقه وهو سميري الملازم لي فلا اتوقع غيابه وان النسيب اينما حل فهو معروف والجمال اينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا يخشى من الانتقال بأساً ولا من التحول ضيماً والبيتان للأعشى. والنقلة مثله – مثل مولد (١٠) مصاحبة (١١) قدراً (١٢) النسق من الكلام وغيره ما جاء على نظام واحد (١٣) الجامع (١٤) قليل ماهم : يريد بذلك التعريض لسيده بأنه لا نظير لا في اخلاقه وآدابه (١٥) عين (١٦) ناحية بعدان بين ان الأدب كبير النفع عظيم الفائدة =

وقيـل له اهلاً وسهلاً ومَرحَباً فهذا مَبيتٌ صالح ومقيـل

غير ان الوطنَ محبوبٌ ، والمنشأ مألوفٌ ، واللبيبُ يحنُّ إلى وطنه ، حنين النجيب [١] إلى عَطَنِه [٢] . والكريمُ لا يجفو أرضاً بها قوابله ، ولا ينسى بـلداً فيها مراضعهُ – قال الأول :

أُحبُّ بلاد الله مـا بين مَنْعَجٍ [٤] اليّ وسلمى ان يصوبَ سحابهـا
بلاد بها حل الشباب تمائمي [٥] واول أرض مسّ جلدي ترابُها

= حتى جعله وطنا في الغربة وفرجة عند الكربة بين انه يكون اكبر نفعاً واعظم جدوى إذاصاحبه غني النفس فان المتحلي بحلاهما القابض على زمامها اينما يمم فالسعد قرينه والناس اهله يقبلون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم لأول وهلة او مجرد نظرة ويعطونه حكم الصبي على اهله يفعل مـا يريد كالسيد بالعبيد ويقولون له لقيت اهلاونزلت مكانا سهلاًواسعاً رحباً فأنس ولا تستوحش وكن كما تحب وتختار فأنت رب الدار . وقوله مـا قران السعد الخ اخذه من قوله البستي :

واتم الأشياء نوراً وحسناً بكر شكر زفت إلى صهر بر
ماقران السعد بالحوت أبهى منظراً من قران بر وشكر

وقوله اعطى حكم الصبي الخ : عبارة كانت تقولها العرب في مدح من نزلوا عنده واكرمهم واصل البيت المذكور :

فقلت له اهلاً وسهلا ومرحبا فهـذا مبيت صالح وصديق

(١) النجيب من الإبل الفحل الكريم (٢)مبرك الإبل حول الماء(٣)جمع قابلة وهي من تتلقى المولود عند خروجه (٤)اسم مكان(٥) تميمة وهو ما يعلق للطفل حفظاً له؛بعد أن بين له أن سديد الرأي الانتقال وأنه لا يخاف عاقبة ذلك لأدبه وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث فقـال ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف .

ما من غريب وإن ابدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطنا

ولا غرو فهو أول ارض وجد بها واول تربة تضمخ بها جسده واول بقعة نما فيها فكره واول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع إخوان واحباب وخلان واتراب – فاذا تذكر هده الجهات تخيل لهرغد العيش وحسن الحال ورأى اغصان شبابه تميد على تلك الاوطان وتتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن إليها حنين الغريب =

هذا إلى مُغالاتي [1] بعقد جوارك ، ومُنافستي [2] بلحظة من قرْبك واعتقادي الطمع في غيرك طبع [3] والغنى ممن سواك عناءٌ ، والبدل منك أعور ، والعوض لغاءٌ [4] ، وكل الصيد في جوْف الفرا [5] .

وإذا نظرت إلى اميري زادني ضنـا به نظري إلى الأمراءِ

وفي كلّ شجر نار ، وأستمجدُ (المرخ والعفار) [6] ، فما هذه البراءَةُ ممن

= إلى وطنه وأنه ليس من كرم الأصل وشرف المحتد ان يهجر الانسان قوابـله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن في إبان الكبر حتى يجنين ثمرات اتمابهن ويسررن بحسن معاملته لهـن والبيتان لبعض الأعراب ١) مجاوزتي الحد (٢) رغبتي فيك على وجه المبـاراة (٣) دنس (٤) خسيس (٥) حمار الوحش ٦ نوعان من الشجر سريعا الوري . وأستمجد : استفضل وقيل أقتدح على الهوينا - بعد ان بين محبة الوطن وألفة المنشأ . وسبب ذلك الطبيعي : أراد ان يبين للأمير أن ذلك ليس هـو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم إليه ما هو أشد منه تأثيراً وأعظم خطراً ألا وهو شدة محبتي لجوارك وحظوتي بقربك ، وأنت اكرم من حفظ للجـوار حرمته ، وأوضح محجته . واعتقادي بأن الطمأنينة إلى غـيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضائي بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيف استبـدل لغث بالسمين والتعب بالراحة أم كيف أنظر إلى غيرك من الأمراء، وغيرك فيك:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

. نعم وإن اشتركوا معـك في اللقب إلا أنهم لم يشتركوا معك في كال الأدب وفي كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وفي ذلك من استمالة القلب مـا يدهش اللب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذري باللآل - فأولها «رب طمـع يجر الى طبع » وثانيها « كل الصيد في جوف الفرا» وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثالثها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصـله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي وكان شحيحـا أعور قال الناس هذا بدل أعور - ورابعها « رضي من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير - خامسها « وفي كل شجر نار وأستمجد المرخ والعفار» يضرب في تفضيل بعض المشتركين في صفة على بعض

يتولاك [١] ؟ والميلُ عمن لا يميلُ عنك ؟! ــ وهلاّ [٢] كان هواك [٣] فيمن هــواه فيك ؟ ورضاك فيمن رضاه لك ؟؟

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجدانُنا كلّ شيء بعدكم عدمُ

أعيذك ونفسي من أن أشيمَ [٤] خلّباً [٥] ، وأستمطرَ جهاماً [٦] ، وأكدِمَ [٧] في غير مَكدَم ، وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والرّخم [٨] فما أبسَسْتُ [٩] لك إلا لتَدُرّ ، ولا حركت لك الحُوار [١٠] إلا لتحنّ ، ولا نبهتك إلا لأنام ، ولا سَريتُ إليك إلا لأحمَدَ السُّرَى [١] لديك .

---

(١) مضارع تولاه صار وليه ١) كلمة تخصيص (٣ ميل النفس : بعد أن يبين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ما عداه وهو مع ذلك يعرض عنه ولا يميل إليه رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كما هو الأدب من حيث يقول كيف تتبرأ مني وأنا أواليك وتميل عني وتهجرني وأنا لا اميل إلا إليك وهلا هويت من يهواك ورضيت من يرضاك والبيت للمتنبي ٤) شام البرق : نظر إلى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذي لا يعقبه مطر . ٦) السحاب الذي لا ماء فيه . (٧ أعض (٧) طائر ضعيف (٩) الابساس : الرفق (١٠) ولد النــاقة (١١) السير ليلا ــ يطلب منه أن يجعل لأعماله نتيجة يجني ثمرتها وأن يكون سيده غارس دوحتها وأن لا يجعله كالمسيح المــاء من الصخر ، والمستجير عند كربته بعمرو والمستمطر الجهام والناظر الى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه مدراراً ، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عينا أضرها سهــاد الجفوة وأن يحمد إليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رصع عبارته بجواهر الأمثال وصاغها في قالب غريب المثل بشير فيها الى قول معد يكرب :

لا تهني بعد إكرامك لي فشديد عــادة منتزعه
لا يكن برقك برقاً خلباً إن خير البرق ما الغيث معه

وإلى المثل العربي « ، كدمت في غــير مكدم » يضرب لمن يطلب شيئاً من غير أهله وإلى قول المتنبي :

ولا تشكو إلى خلق فتشمتهم شكوى الجريح الى العقبان والرخم

والى الأمثال العربية : « الإبساس قبل الإيناس » وهو يضرب في الرفق «حرك=

وإنك إن سنيت [١] عقد امرىء تيسّر ، ومتى أعذرت [٢] في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النّعمة ، والشفاعة زكاة المروءة . وفضل الجاه [٣] يعود به صدقه .

وإذا امرُوءٌ أهدى إليك صنيعةً من جاهه فكأنها من ماله

لعلي ألقي العصا بذاك [٤] وتستقر بيَ النوى [٥] في ظلّك ، واستأنف [٦] التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أُوجِدُ للحاسد مجالَ [٧] لحظِه [٨] ولا أدعُ للقادح [٩] مساغَ [١٠] لفظِه .

= لها حوارها تحن » وهو يضرب في استنهاض الهمة ، و « لهـا عمراً ثم نم » يضرب فيمن يعتمد على غيره ، و « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو يضرب عند حمد العاقبة .

(١) سهلت (٢) بالغت في طلب العذر (٣) المنزلة - يقول لسيده : إني ما كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعدد نجوم السماء ولا رمال الدهناء ، وإنما هو أمر يكبر في عين سائله ويصغر عند باذله وهو في يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وإن سهلت عسيره سهل وإن التمست المعذرة انتفت الصعوبة ، وأنت تعلم - زادك الله علماً - أن النعمة شجرة ثمرها المعروف وأن المروءة مال زكاتها الشفاعة وشفاعة اللسان أفضل زكاة الإنسان وبذل الجاه رفد المستعين - وأيد ذلك بالبيت بعده وقوله إن سنيت مأخوذاً من قول بشار :

فبالله ثق إن عز ما تبتغي وقل إذا الله سنى عقد أمر تيسرا

(٤) كل ما استترت به (٥) ما ينويه المسافر من قرب أو بعد (٦) ابتدى (٧) جال : طاف (٨) نظره (٩) الطاعن (١٠) ساغ : الشراب سهل مدخله في الحلق - يقول أرجو من سيدي أن يعفو عن ذنبي وتقصيري ويلبي ندائي ، هذا كي أسكن في ظلك وكنفك ولا أذهب إلى غيرك وتكون غاية آمالي ومنتهى أسفاري وأتوب عما كنت مرتكبه ومتمسكاً به مما لا يرضيك وأتخلق بأخلاقك وأتمسك بطريقتك وأحذو حذوك واتبع مذهبك وبذلك لا يجد عدوي في مدار لحظه ولا الطاعن ما يسوغ من لفظه وقوله لعلي ألقى الخ حل بيت للمعز بن أوز وهو :

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينـا بالإياب المسافر

والله مُيسّرك من إطلابي ١ بهذه الطّلبة ٢ وإشكائي من هذه الشكوى ٣ بصنيعة تُصيب منها مكان المصنع ، وتستودعهـا أحفظ مُستودع حسبما أنت خليق ٤ له ، وأنا منك حري ٥ به ، وذلك بيده وهيّن عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأوروبية :

أيها الوزير الأفخم - إن لفظة تقسيم (تركيا) إفكٌ لا يفوه به عاقل ، ولا يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماء دهشة ، وترتج له الأرض وحشة ، بل تخر دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأن أوربا تستطيعه ، ولكنها لم تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، فـ « قل اللهمّ مالك الملك ، تُؤتي الملك مَن تشاءُ ، وتَنزع الملك مِمّن تشاءُ ، وتُعزّ مَن تشاء ، وتُذلّ مَن تشاءُ ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أكبر من أوربا فقط ، بل هي أكبر من منظومة هذا العالم الشمسي ، الذي تراه ، أو تسمع به ، إن كنت لا تراه ، فلا يليقُ أن يفوه به إلا فم القدرة الإلهية « القائم على كل نفس بما كسبت ، والله غالبٌ على أمره ، ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون » .

تقسيم تركيا : رُبما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحلة الأرجوانية الثمينة ، حيث تتمشى الدّماء على فيروزج الفضاء ، محاطة كواكب الوجود بكتائب جنود العدم المطلق : لا أرض لمن تقِلّ ، ولا سماء لمن تُظل ، ولا قائم موجود ، ولا دائم

(١) إسعافي (٢) ما أطلبه (٣) إزاء ما أشكوه (٤) جدير (٥) حقيق : يقول لسيده والحمد لله الذي سهل لك مطلبي وإسعافي وإزالة ما أشكوه من آلام السجن بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك وأنا أحق الناس به لمودتي لك وإخلاصي في ولائك وما ذلك عليك بعزيز :

إن الصنيعة لا تكون صنيعة حتى تصيب بها مكان المصنع

مقصود – هنالك تتحدث شياطين الخيال في أندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشئوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويلُ ثم الويل يوم ذلـــك التقسيم الموهوم، والثّبور ثم الثّبور إذا تنزلت السماءُ بقضاء ذلك الهول المقسوم : « إنّ في ذلكَ لبلاغاً لقومٍ يتفكّرون » .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه :

وصل مـــا وصلتَني بـــه [١] (جعلني الله فِداك) [٢] من كتابك ، بل نعمتك التامة ، ومنتك العامة [٣] فقرت عيني بورُوده [٤] ، وشفيت نفسي بوُفوده [٥] ، ونشرته فحكى نسيم الرياض غِبّ المطر[٦] ،وتنفسَ الأنوار في السّحر[٧] ،وتأملتُ مفتّتحه وما اشتمل عليه من لَطائف كلمك ، وبدائع حكمك [٨] ؛ فوجدتـــه قد تحمل من فنون البر عنك [٩] ، وضرُوب الفضل منك [١٠] ؛ جدّاً وهَزلا [١١] ما ملأ عينيّ ، وغمر قلبي [١٢] ، وغلب فكري ، وبهر لبّي ، فبقيت لا أدري أسُمُوط دُرّ خصصتني بها [١٤] ؟ أم عقود جوهر منحتنيها [١٥] ؟ ولا أدري : أجدّك أبلغ وألطف ؟ أم هزلك أرفع وأظرف ؟ وأنا أوكّل بتتبع ما انطوى عليه نفساً

(١) ورد إلي كتابك الذي ربطتني به معك (٢) فداك : أي وضعني الله مكانك في كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أي الذي ورد إلي هو خطابـك الذي أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل (٤) فاطمأن قلبي بوصوله إلي (٥) وطابت نفسي بمجيئه إلي (٦) ونشرته أي فتحته فحكى نسيم الرياض غب المطر أي يشبه الريح التي تهب من البساتين بعدما نزل المطر عليها (٧) وأشبه تفتح الأزهار في أواخر الليل (٨) أي وتدبرت في صدره رقي الكلمات اللطيفة التي أودعتها فيه والحكم البديعة التي نثرتها فيه (٩و١٠) أي شاهدت منه أنواعاً من الإكرام أثبتها فيه ، وأصنافاً من الأفضال دونتها فيه (١١) من الأمور الهامـة الجديدة والأمور المفرحة المازحة . (١٢) ملأ عيني : يعني صرفهـــا عن النظر إلى غير إحسانك – وغمر قلبي أي : لم يدع له منصرفاً إلى غير أفضالك (١٣) وغلب في فكري أي : استحوذ على عقلي ، وبهرني أي راع عقلي وسباه (١٤) أي عقود در قصرتها علي (١٥ ومنحتنيها أي أعطيتنيها .

لا ترى الحظ إلا ما اقتنيته منه [١] ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذته عنه ، وأمتّع بتأمله عيناً لا تقرّ إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأعطيه نظراً لا يمله ، وطرفاً لا يطرف دونه [٢] ، وأجعله مثالاً أرتسمه وأحتذيه [٣] ، وأمتع خلقي برونقه ، وأغذي نفسي ببهجته ، وأمزج قريحتي برقته ، وأشرح صدري بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً ، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أنه ما سمعت به من السّحر الحلال .

ومن كتاب للمرحوم السيد توفيق البكري في سفرته إلى الآستانة العلية :

كتابي إلى السيد الأجل ، وأنا أحمد الله إليه ، وأدعوه أن يديم النعمة والسلامة عليه ، وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبّة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأرباضها [٤] ، ومواطنها ، ركبت سفينة عَدَوْلِيّة [٥] إلى الثغور الفرنجيّة ؛ فجرت في خضم [٦] عجاج ، ملتطم الأمواج ، له دَويّ من جرجرة [٧] الآذي [٨] أخضر الجلد ، كأنه إفرند [٩] تصخب [١٠] فيه النينان [١١] ، وتجري في جوفه الدعاميص [١٢] والحيتان ، إذا مازجه الأصيل [١٣] بالعشي خلته كُسّرت [١٤] عليه الحُلى ، أو مُزج بالرحيق [١٥] القُطْرُبُلّي [١٦] ، وإن لاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمرت بمسامير صغار نُضار [١٧] ، وأخذت السفينة تشقّ عُبابه [١٨] ، وتَفلق حَبابه [١٩] بين ريح رُخاء [٢٠] ، أو زَعزَع [٢١] هوجاء [٢٢] ؛ فهي تارة في طريق مُعبد [٢٣] ،

(١) اكتسبته (٢) الطرف العين ، يطرف : يطبق جفناً على الآخر (٣) أرسمه في فكري وأقتدي به (٤) مساكنها (٥) نسبة إلى قرية عدولى بالبحرين أو نسبة إلى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دعموص دودة لها رأسان ترى في الماء اذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الخمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراء وتشديد اللام الخمر المنسوب إلى قطربل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالخمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو (٢٠) بضم الراء الريح اللينة (٢١) بفتح الزاءين الريح الشديد (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مذلل ومسهل .

ورميث [١] مُسَرَّد [٢] ، وطوراً فوق حزن [٣] وقرْدَد [٤] ، أو على صرحٍ [٥] مُمرَّد [٦] ، وكان معنا في الفُلك رهط من العرب والتُّرك، فكنا نتوارد معهم في جوائب [٧] الأخبار ، وطُرف [٨] الأحاديث والأسمار [٩] ، ما يُزري [١٠] بالمنهل العذْب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميل ميزان النهار ، وتغرق ذُكاء [١١] في البحار ، ويُمسي الكونُ من السواد ، في لَبُوس حديد [١٢] أو لباس حداد ، وتبرُق نجومُ السماء في أكناف الظلماء ، كأنها سِكاك [١٣] دلاص [١٤] ، أو فلقُ رصاص ، أو عيون جراد ، أو جمرٌ في خلال رماد ، أو دُرٌّ في بحر أو ثُقبٌ في قُبَّة الدَّيجُور [١٥] ، يلوحُ منها النور ، ويبدو الهلال كأنه خنجرٌ من ضياء ، يَشُقُّ طيالس الظلماء ، أو قلادة أو دِمْلُج [١٦] غادةٍ [١٧] ، أو سِنان [١٨] لواء الضرّاب ، والليل فيل وهو ناب ، فنأخذ مجلساً نَسَمه [١٩] الكافور ، وأرضهُ عنبر مذرُور [٢٠] رُقِمَت فيه زرابيُّ مبثوثات [٢١] ، ومنابذ [٢٢] ، وحُسْبانات [٢٣] ، وأنماطٌ [٢٤] مفروشة ، وبُسط منقوشة :

بُسط أجادَ الرسمَ صانعُها ... وزها عليه النقْشُ والشكْلُ
فيكاد يُقطَفُ من أزهارها ... ويكاد يسقط فوقها النحلُ

وحولهُ شموع تزهو ، وأضواءٌ تبهر [٢٥] ، وقد دارت عليه سُقاةٌ [٢٦] ،

---

(١) الأرض السهلة (٢) منتظم لا صعوبة فيه (٣) الأرض الصعبة (٤) الأرض المرتفعة الغليظة (٥) القصر (٦) مرد البناء : ملسه حتى صار ناعماً (٧) الأخبار الطارئة (٨) المحاسن (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل (١٠) يعيبه ويحقر (١١) بضم الذال ممنوعة من الصرف اسم للشمس (١٢) بفتح اللام الدرع (١٣) جمع سك المسمار (١٤) بكسر الدال الذي يبرق ويلمع (١٥) الظلام (١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمها مع ضم اللام : حلى للنساء يلبسنه في أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الاعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩) نسيمه (٢٠) منشور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التي يتكأ أو ينام عليها (٢٣) جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها أيضاً (٢٤) جمع نمط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان (٢٥) تزهر وتبهر كلاهما بمعنى تضيء وبابهما منع (٢٦) جمع ساق .

كجُمَّاع ¹ الثريا ² ، بأقداح الحُمَيّا ³ ، وأكوابِ ⁴ الفانيذ ⁵ المروّق ، وقواريرِ ⁶ الجُلاب ⁷ المُصَفَّق ⁸ ، ثم تجيء قَيْنَة ⁹ في يدها ناي ، كأنه صور إسرافيل ، يحيي الرفات ¹⁰ ، ويَنشُر ¹¹ الأموات ، حتى إذا بدأ الضياء ، كابتسام الشفة اللمياء ، دخلنا المضجع لنهجع ، وهلُمَّ جرّاً ¹² ، في أيامنا الأخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ :

سيدتي ومولاتي — أعرض أنني بينما أنا ألهج بذكر ألطافكم السنية ، وأتنسم شذا أنفاسكم العبقرية ، وأترقب لقاء أثر من لدنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل بإثمدِ مداده الناظر .

وصلتني مكاتبتكم ، فجلَت عن العين اقذاءها ، ووردت الى النفس صفاءها ، فتناولتها بالقلب لا بالبنان ، وتصفحت ما في طيها من سحر البيان ؛ فقلت :

هذا الكتاب الذي هامَ الفؤاد به   يا ليتني قلمٌ في كف كاتبه

ولعمري إنه كتاب حوى بدائع المنثور والمنظوم ، وتحلّى من درر الفصاحة فأخجلت لديه دراري النجوم ، وقد تطفلت على مقامكم العالي بهذا الجواب ناطقاً بتقصيري ، وضمنته من مدح سجاياكم الغرّاء ، وما يشفع لدى مكارمكم في قبول معاذيري ، لا زلتم للفضل معدناً ، وللأدب كنزاً وفخراً .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣ هـ :

أستهلُّ براعة سلامٍ حمَل الشوق رسالته ، وتقلّد الشفق ما نشقت ناشقةُ عَرفِ الوداد كفالته ، ولو رضيت المجال ، في صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاء

---

(١) بالضم ما جمع وانضم بعضه إلى بعض ومراده الغلمان (٢) سبعة كواكب منضمة بعضها إلى بعض (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير الرأس لا عروة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسي معرب بانيذ. (٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسي معرب (٨) المروق الصافي (٩) المغنية (١٠) الحطام البالي ، والمراد الأموات (١١) يحييها (١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته .

مِدادُ حروفه، وأقام بأداء التحية العاطرة قبل فضّ ختام مظروفه، ولعَمري قد تَوَّجَتْه أزهار الثناء، بلآلىء غرّاء، وكللته زواهر الوفاء، من خالص الوداد إلى حضرة من لاتزال تَستَروِح الأسماع بنسيم أنبائها صباحاً مساء، وتتشوّق الأرواح إلى استطلاع بدرِ إنسانها الكامل أطرافاً وآناءً، ومما زادني شوقاً إلى شوق، حتى لقد شبّ فيه طفل الشفق عن الطوق، اجتلائي حديقة «الوَرْد» القدسية ونافجة الأدب المسكيّة؛ فيالها من حديقة رَمتها أحداق الأذهان، فاقتبست نَوراً ونُوراً وانتشقَتْها مسامُّ الآذان، فتملت طرباً وسروراً، ومنذ سرّحتُ في أرجاء تلك اليانعة إنسان العيون، وشرحت بأفكار البصيرة أسرار ذلك الدُّرّ المصون، لم أزل بين طَربٍ أتوَشّح بوِشاحه، وأتعجّبُ من حسن اختتامه وافتتاحه، وجعلت أغازل من نرجس تلك الروضة عيوناً ملكتْ مِنّي الحوَاس وهَصَرت من غصون ألفاتِها كل ممشوق أهيف مَيّاس، وأتأدب في حضرة وردها خوفاً من شوكة سلطانها، وأن حياتي بجميل الالتفات ضاحكةٌ عن نفيس جُمانة، وإذا بالياسمين الغضّ قد ألقى نفسه على الثرى ونادى بلسان الأفصاح: هل لهذه النضرة نظيرة يا تُرى؟ فأشار المنثور بكفّه الخضيب أن لا نظيرَ لتلك الغادة، ونطق الزنبق بلسان البيان: لا تكتموا الشهادة، فعندذلك صفّق الطير بأكف الأجنحة وبَشّرَ، وجَرَى الماءُ لإذاعة نبإ السرور فعثرَ بذَيْلِ النسيم وتكسّرَ، وتمايَلتْ أغصانها المُورقة لسماع هذا الحديث، وأخذتْ نسماتُها العاطرة في السير الحثيث إذاعةً لتلك البشائر في العشائر، ونشراً لهذه الفضائل التي سارت مسير المَثل السائر، فقلت بلسان الصادق الأمين، بعد تحقّق هذا النبإ اليقين، هكذا هكذا تكون الحديقة وإلا، وكذلك كذلك لتُكْتَب الفضائل وتملى:

وَحدّثتَني يا سعد عنهم فزدتني غراماً فزدْني من حديثك يا سعد

فتحمّل عني أيها الصديق تحيةً إلى ربّة هاتيك الحديقة، واشرح لديها حديث شغَفي بفضلها الباهر على الحقيقة، واعتذر عن كتابي هذا فقد جاء يمشي

على استحياء ، وكلما حركه الشوقُ يُبطئُه الحياء . وكيف وقد حل في منبع الفضائل والمقام لم يَدَعْ مقالاً لقائل، فكأني إنما أهدي التمر إلى هَجر،وأمنَحُ البحرَ الخِضَمَّ بالمطر ؛ أدام الله معالي تلك الحضرَه ، وزادَها في كل بهجة ونَضرَة ، ما لاح جبينُ هلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبدالله النَّديم سنة ١٣١٤ هـ :

أُستاذي وقُدْوَتي،ومَلاذي وعُمدتي— رَبَّيْتَ ، فأحسَنْتَ ، وَغذَّيْتَ ، فأسمَنْتَ ، مؤدِّباً ليناً، وَلِنت فسوّدت ، وجُدْتَ فعوّدتَ ، مُهذِّباً غيثاً، وعلمتُ فأفهمت ، وأشرت فألهمت غَرض سَهمك ، وقدْ نِلْتَ ما أمّلتَ ، فيمَنْ عليه عوّلت بحُسْنِ فَهْمك :

غلامُك الشهير بالنّديم مَنْ صارَ في البيان كالنّسيم

وكيفَ لا يكونُ لساني قوسَ البديع ، وكلامي السّهم السّريع،وأنت باريه وراميه ! أم كيف لا يكون مقامي الحِصْنَ المنيع،وقَدْري العزيز الرّفيعَ ، وأنت مُعليه وبانيه ! فوجْهُ جمالِ العلم أنتَ غُرّته ، وإنسانُ عينِ العلمِ أنتَ قُرّته ، وحاليه وجاليه . وجَبينُ العقل أنت طُرّته ، وكتاب الفَضْل أنته صُورته ، وطاليه وتاليه :

على بابك العالي من الفضل رايةٌ على رأس أرباب المعارفِ تخفق
فعلمك جنّاتٌ وحلمك جُنّةٌ وكُلُّك خيراتٌ وغَيْثُكَ مغدق
أرَى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه مِنَ الفَضل عُرْياناً وغصْنُكَ مُورق
إذا رُمْتَ إنشاءً فعن صِدْقِ فكرة تهادى بأبكارٍ وغيرك يسرق

وكتب أيضاً في التّوَدُّد :

بينما أنا راكبٌ لجة بحر الفِكر، مُجدٌّ في طلب فريدةٍ بِكر ، تارةً أغوص ومرّةً أسبحُ وآونةً أقفُ وطوْراً أصفَح، لايقرُّ لي قرار، ولايمكنني الفرار، ولا يقْصرعن طَرْحِ شِباكي ذراعٌ،ولا نطوَى لسفينتي شِرَاع،كلما أدركني الملل

هاجت عَليّ رياحُ الأمل ، حتى دخلتُ في بحر عَجّاج ، مُتلاطم الأمواج ، فاقتحمت هذا المركبَ الصعب ، وتهتُ بين الجزائر والشعب ، فتعلّقت أفكاري بالسّواري والحبال ، وبِتُّ بليلة نجومُها كواحل ، لا يُرى فيها بَرٌّ ولا سواحل ، وقلتُ : اشتدادُ الأمر يستدعي ضده ، ولا يأتي الفَرَجُ إلابعد الشدّة ؛ وعينيك ما سلّ سيفها على مَفرقِ مساها ، حتى سمعت بِاسمِ اللهِ مَجْريها ومُرْساها ، فكان من تمام حظّي وسعُودي ، أن تركت لُجّة اليَمّ واستوَتْ على الجودي ، وانصرَف خوفي وارتباكي ، وبادرتْ بطرْحِ شباكي ، فإذا قدْ مُلئت بأصداف الجوْهر ، وعلقت بها شَجرَة العنبر ، فتفتّح الصّدف عن دُرٍّ يستخدمُ الأقمار ، وفاح العنبر بما أذهب شذيّ الأزهار

وصرت ما بينهـا كِسرى الزّمانِ له شمسٌ تُنادِمُـه في مجلس عطـر
وَنِلتُ أقصى أمان كنت آمُلها الأُنس في خَلَدي والنّور في نظري

ولما جلوْت الطّرْف ، بما فيها من الظّرْف ، ووقعت عندي الموْقع الحسن ، أردت أن أسومها بثَمَن ، فإذا هي دُرّة يتيمة ، لا يَقدِر لها أحدٌ عَلى قيمة ، فاستهديتها من ربّها ، لشغفي بحبّها ، وجعلتُ القلبَ لها كنزاً ، والفؤادَ لها حِرْزاً ، ألا وهي (محبّة العزيز الحافظ) أبدع مرئيّ وأبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحي المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ يعزي محمود باشا البارودي :

أنت يا فوق أن تُعزّى عن الأحبا ب فوق الذي يُعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذي له قلتَ قبلا
وقتلت الزّمان علماً فما يغر ب قوْلاً ولا يُجَدّد فعلا

نعم إنك يا « محمود » الخصال و « سامي » الفعال ، لأنتَ الشهم المُجَرّب لصُرُوف الحدَثان ، والعالم الخبير بأحوال الزمان ، قد أعدَدْتَ لنوازل المقدُور نُزُلاً من الصّبر المأجور ، وصرفت ضيف الشّجون والهُموم ، إلى قُرى الفضائل

والعلوم ، وأخذت بِسُنَّة السَّلف الصالح ، في مقابلة الخطوب الفوادح ، وأنت لا شك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالسٌ يوماً في الدَّرس بين تلاميذه ، إذ جاءه من أخبره بأنّ ابنه الوحيد مات ، وهو رَطب الشباب غضُّ العُمر ، فلم يتولّه الفزَع ، ولم يظهر عليه الاضطرابُ ، ولم يَبدُ على وجهه الكدَر ، وما زاد على أن استرجع ، واستمرّ في قراءة درسه كما كان فلما انتهى منه بادره أحد الحاضرين من أصحابه ممّنْ حيّرَتهم الدّهشة في أمره ، يسأله : كيف لم يسلبْه الحزنُ ثوب الثّبات بُرهةً عند مُفاجأته بالخبر ؟ فقال له : « لو فاجأتني النّازلةُ على غِرّة مني لجزعْتُ وحزنتُ ولكني ما زلتُ أقَدّرُ لابني مُنذُ يوم ولادته ، حُلول أجله في كل يوم من أيام حياته ، ولمثلِ هذا اليوم كنت أعدّه من زمانٍ طويلٍ ، وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرتُهُ خُلسة اختَلَسْتها من الدّهر ، حتى مضى على هذه العارية عشرون عاماً ، فشُكري للهِ اليوْم على أن أبقاها في يدي طول هذه المدّة ، يوم مقام الحزْن عندَ غيري لدى استردادها » ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا ماتَ ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقَبَضْتُم ولدَ عبدي ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أقبضم ثمرَة قلبه ؟ فيقولون : نَعم . فيقولُ الله تعالى : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدَك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد » وأنت يا محمود — صلوات الله عليك ورحمتُه لقوله تعالى : « ولنبلونّكم بشيء من الخوْف والجوع ونقصٍ من الأموالِ والأنفس والثّمرات ، وبشّرِ الصّابرين الذين إذا أصابتهم مُصيبةٌ قالوا إنّا للهِ وإنّا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة ، وأولئك هُمُ المُهْتَدُون » أوّل مَنْ يَمتثل لحكم القضاء ، ويسترجع عندَ نزُول البلاء ، ويعملُ بأدب الدين في التّجلّد والتّصبر ، ويأخذُ بسيرة الحكماء في التدبّر والتّبصّر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حُرّةً ففيه لها مُغْن وفيها له مُسْل

وكتب سهل [١] بن هرون المتوفى سنة ٦٤٩ في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمّكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس : معشر بني تميم ؛ لا تُسرعوا الى الفتنة ، فإن أسرع الناس الى القتال ، أقلّهم حياء من الفِرار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمّة ، فتأمل عيابًا . فإنه يَعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب العيب أن تَعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مُرْشداً ، وأن تُغرِيَ بمُشفق ، وما أردْنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقديم فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، وما أخطأنا سبيل حُسن النيّة فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أنّا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشُهرْنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب » فما كان أحقّنا منكم في حُرمتنا بكم ، أن ترعَوْا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العُذْر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو كان ذكر العيوب يراد به فخر ، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً .

عبتموني بقولي لخادمي : أجيدي العَجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيدُ في ريْعه [٢] وقد قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه : « املكوا [٣] العجين ، فإنه أحد الريْعين » .

وعبتُموني حين خَتمتُ على ما فيه شيء ثمين من فاكهة رَطبة نقيّة ، ومن

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي الرشيد والمأمون وقد وضع كتاباً حاكى به كتاب « كليلة ودمنة » وسماه « ثعلة وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة « مدير دار الكتب » في عهد المأمون .

(٢) الريع النماء والزيادة (٣) إملاك العجين : إنعام عجينه .

رُطبة غريبة، على عبدٍ نَهِم، وصَبي جَشِع، وأَمَة لكْعاء[1]، وزوجةٍ مُضيعة.

وعبتموني بالختم، وقد خَتَم بعض الأئمة على مِزود سَويق[2] وعلى كِيس فارغ. وقال: «طينة خير من طَيّة»[3] فأمسكتم عمن ختم على لا شيء، وعبتُم من ختم على شيء.

وعبتموني أن قلت للغلام: «إذا زدتَ في المرق فزدْ في الإنضاج، ليجتمع مع التأدّم باللحم طيب المرق».

وعبتموني بخَصْف[4] النعل، وبتصدير[5] القميص، وحين زعمت أن المَخْصُوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد، وإن الترقيع من الحزم، والتفريط من التضييع، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ويُرقّع ثوبه، ويقول: «لو أهدي إليّ ذِراع لقبلت، ولو دعيت إلى كُراع لأجبت». وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يَلبَس الخَلِق، وبعث زياد رجلا يرتاد له مُحَدِّثاً واشترط عليه أن يكون عاقلا، فأتاه به موافقاً، فقال له: أكُنت به ذا معرفة؟ قال: لا. ولكنّي رأيته في يوم قائظ، يَلبَس خلقاً، ويَلبَس الناس جديداً. فِتَفَرستُ فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الخَلِق في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله لكل شيء قَدْراً، وسما به موضعاً، كما جعل لكل زمان رجالا، ولكل مقام مقالا. وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواء، وأغص بالماء. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قِلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة؛ ولبس سالم بن عبدالله جلد أضْحية. وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أهدي إليك دجاجة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بَيوضًا.

(١) اللكعاء: الحمقاء (٢) المزود: وعاء الزاد والسويق: شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير (٣) طينة من طان الشيء أي ختمه بالطين و«طية» من الطوى وهو الجوع (٤) خصف النعل: خرزها (٥) تصدير القماص: أن يجعل لصدره بطانة.

وعِبتُموني حين قلت : من لم يَعرف مواضع السَّرَف في الموجود الرخيص لم يَعرف مواضعَ الاقتصاد في الممتنع الغالي . ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشدّ من الكفاية ، فلما صِرْت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوْفير عليها من وَضيعة [1] الماء ، وجَدْت في الأعضاء فضلاً عن الماء ، فعلمت أنْ لوْ كنت سَلكت الاقتصادَ في أوائــــله لخَرَج آخره على كِفاية أوّله ، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك وشنّعتم عليّ ، وقد قال الحسن : وذكر السرف : « أمَا إنه ليكونُ في الماء ، والكلأ » فلم يرْض بذكر الماء حتى أردفَه الكلأ .

وعبتموني أن قلت : لا يَغترّنّ أحــدكم بطول عمره ، وتَقوْيس ظهــره ، ورقّة عظمه ، ووهْن قوّته . وأن يرى نحوه أكثر ذرّيّته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويــــله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السَّرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعَمّراً وهو لا يدري ، وممدوداً له في السن وهو لا يشعرُ . ولعــله أن يُرْزق الولدَ على اليأس ، ويَحْدُث عليه من آفات الدهر ما لا يخطُر على بال ولا يُدْركه عقــل ، فيستردّه ممن لا يرده ، ويَظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أصْعبَ ما كان عليه الطَّرب ، وأقبَح ما كان به أن يُطلب ، فعِبتُموني بذلك . وقد قال الأول :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وعبتموني بأن قلت : بأن السَّرَف والتبذير إلى مال المواريث ، وأموال الملوك ، وإلى ما لا يُعمَرّض فيه بذهاب الدين . واهتِضام العِرْض ، ونَصَب البَدن واهتضام القلب أسرع ، وأن الحفظ للمــال المكتسب ، والغنى المجتَلب أقرب ، ومن لم يَحْسِب نفقته لم يحْسِب دخله ، ومن لم يحْسِب الدخل ، فقد أضاع

---

(١) الوضيعة هنا : النقص .

الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره ، فقد أوذِن بالفقر ، وطاب نفساً بالذلّ .

وعبتموني بأن قلت : إنّ كَسْب الحلال ، يضمَن الإنفاق في الحلال ،وإن الخبيثَ يَنزِع الخبيث ، وإن الطيّب ، يدعو إلى الطيّب ، وإن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهُدى ، فعبتم عليّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جَنْبه تضييع ، وقد قال الحسن: إن أردتم أن تَعرفوا من أين أصابَ الرجل مـــاله ، فانظروا فيماذا يُنْفِقه ، فإن الخبيثَ إنما يُنفق في السرف ، وقلت لكم بالشّفقة عليكم ، وحُسْن النظر منّي لكم ، وأنتم في دار الآفات ، والجَوائح غير مأمونات فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يَرْجِع إلا إلى نفسه ، فاحذروا النّقم باختلاف الأمكنة فإن البليـــة لا تجري في الجميع ، إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأَمة والشّاء والبعير :فرّقوا بين المنايا . وقد قال ابن سيرين لبعض البَحْريين : كيف تَصنَعون بأموالكم ؟ قالوا :نفرّقها في السفن : فإن عَطِب بَعض سلِم بَعض ،ولولا أن السلامة أكثر ما حمَلْنا أموالنا في البحر ، قال ابن سيرين «تحْسَبها خرْقاء وهي صَناع [١] » .

وعبتموني بأن قلت لكمْ عند إشْفاقي عليكم : إن للغنى لسُكرا ، والمـال لنزْوة [٢] ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره ، فقد أضاعه ، ومن لم يرْتبِط المالَ بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك ، وقد قال زيد بن جَبَلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ أمِنَ الفقر ، وسُكر الغنى أكثر من سُكر الخمْر ، وقد قال الشاعر في يحيى بن خالد ابن برْمَك :

وَهوبٌ تِلاد المال فيما يَنوبه ... مَنوعٌ إذا ما منعه كان أحزما

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يفاد العـــلم ،

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ .
(٢) النزوة : الثورة — أو الوثبة .

وبه تقوّم النفس ، قبل أن تعرف فضل العلم . فهو أصل ، والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع . فقلتم : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال ، وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت : حالها هي القاضية بينهما : وكيف يستوي شيء حاجةُ العامة إليه ، وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض ؟؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال أبو بكر رضي الله عنه : إني لأبغض أهل بيت ينفقون نفقة الايام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده : إذا بسط الله لك الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتموني حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت ، وإن استغني عنها كانت عُدّة . وقد قال الحُصين ابن المنذر : وددت أنّ لي مثل أُحُد ذهبا لا أنتفع منه بشيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه ، لأن المال مخدوم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى : فلو لم يكن فيه إلا أنه عزّ في قلبك وذلّ في قلب عدوّك ، لكان الحظّ فيه جسيما والنفع فيه عظيما .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء ، لأصحاب اللهو ولستم عليّ تردّون ولا رأيي تفنّدون . فقدّموا النظر قبل العزم. وأدركوا مالكم قبل أن تُدركوا ما لكم . والسلام عليكم .

الكلام على الرسالات العلمية

الرّسالات العلمية ، هي : مقالاتٌ في المطالب العلمية أو المسائل الأدبية ، وإنّما سمّيت بالرسالات، لأن أصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك

فيها صاحبها مناهج الاسترسال ، والمخاطبات البَليغة . وقد أفردنا لها كتابنا « أسلوب الحكيم – في منهج الإنشاء القويم » فارجع إليه إن شئت .

الفن الثاني في المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأول) : أن يُجمَع بين خَصمين متضادّين ، أو مُتباينين في صفاتهما ، بحيث تظهر خواصُّها كالرّبيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . (والثاني) : أن يأتي كلٌّ من الخصمين في نصرته لنفسه ، وتفنيد مزاعم قِرْنه ، بأدلّة من شأنها أن تَرفع قَدْره ، وتحُطّ من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسّامع عنه إليه . (والثالث) : أن تُصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً . وتُرتّب على سِياق مُحكم ليزيد بذلك نشاط السّامع ، وتنمى فيه الرّغبة في حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكُتّاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب

رَوى ابن القُطامي عن الكَلْبي قال : قَدِم النعمان بن المنذر على كِسرى : وعنده وُفود الرّوم ، والهند ، والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم – فافتخَر النعمان بالعرب وفضّلهم على جميع الأمم ، لا يَستَثني فارسَ ولا غيرها ، فقال كِسرى وأخذَته عِزّة المُلك : يا نعمان ، لقد فكّرتُ في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يَقدِم عليّ من وُفود الأمم – فوجدت للرّوم حظّاً في اجتماع أُلفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ووَثيق بُنيانها . وإنّ لها ديناً يُبَيِّن حلالها وحرامها ، ويردّ سفيهها ويقيم جاهها – ورأيت الهند نحواً من ذلك في حِكمتها وطِبّها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها ، وكذلك الصّين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفُروسيّتها ، وهمّتها في الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها مُلكاً

يجمعها – والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم، وتدبر أمرهم؛ ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم، ولا قوة؛ ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها، وصغر همتها، محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطيور الحائرة يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذاتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها، وسوء طعمها، وخوف دائها، وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة، تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها وشد مملكتها، ومنعها من عدوها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً، وقرى وحصوناً، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعني اليمن) .

ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من المذلة، والقلة، والفاقة، والبؤس، حتى تفتخروا، وتريدوا ان تنزلوا فوق مراتب الناس .

قال النعمان : أصلح الله الملك . حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجتها، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه، ولا تكذيب له، فإن أمنني من غضبه نطقت به . قال كسرى: قل فأنت آمن، قال النعمان : أما أمتك أيها الملك : فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها، وبحبوحة عزها، وما اكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها . قال كسرى : بماذا؟ قال النعمان : بعزها ومنعتها، وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها .

فأما عزها ومنعتها، فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد

وَوطَّدوا المُلكَ ، وقادوا الجُنْد ، لم يطمع فيهم طامع ، ولم يَنلْهم نائل ، حصونُهم ظهور خيلهم ومِهادُهم الأرض، وسقوفُهم السماء، وجُنّتهم السُّيوف، وعُدّتهم الصّبر — إذ غيرُها من الأمم ، إنما عِزُّها الحجارة والطين، وجزائر البُحور .

وأما حُسن وُجوهها وألوانها ، فقد يُعْرَف فَضْلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنْحَرِفة ، والصِّين المُنْحَفة ، والتُّرْك المشوَّهة ، والرُّوم المُقَشّرة .

وأما أنسابُها وأحسابُها : فليست أُمّة من الأمم إلا وقد جَهِلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها ، حتى أن أحدَهم لَيُسْأَلُ عمَّن وراء أبيه دنيا فلا يَنْسُبه، ولا يعرفه . وليس أحد من العَرَب إلا يُسَمِّي آباءه أباً فأباً ، حاطوا بذلك أحسابهم ، وحَفِظوا به أنسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا يَنْتَسب إلى غير نسبه ولا يُدعى إلى غير أبيه .

وأما سخاؤها : فإن أدْناهم رَجلاً الذي تكون عنده البَكْرَة والنّاب ، عليها بَلاغه في حموله ، وشِبَعه وريه ، فيَطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ، ويجتزي بالشَّرْبة فيعقرها له ، ويَرْضى أن يَخرج عن دنياه كلّها فيما يكسبه حُسْن الأحدوثة ، وطيِّب الذِّكر .

وأما حِكمة ألسنتهم : فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم، ورَوْنق كلامهم وحسنه ووَزْنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضَرْبهم للأمثال وإبلاغهم في الصِّفات ما ليس لشيءٍ من ألسنة الأجناس — ثم خيلهم أفضل الخَيْل ، ونساؤهم أعفُّ النِّساء ولباسُهم أفضل اللِّباس، ومَعادِنُهم الذّهب والفضة، وحجارة جبالهم الجَزْع ومطاياهم التي لا يُبلغ على مِثْلها سَفرٌ ولا يُقطع بمثلها بلدٌ قَفْرٌ .

وأما دينها وشَريعتها : فإنهم مُتَمسكون به حتى يبلغ أحدُهم من نسكه بدينه أن لهم أشْهُراً حرماً وبلداً محرَّماً، وبَيْتاً محجوباً، ينسكون فيه مناسكَهم، ويذْبحون فيه ذبائحهم ، فيَلقى الرجل قاتلَ أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره وإدْراك رَغمه منه، فيحجزه كرَمه ويمنعهُ دينه عن تَنَاوله بأذى .

وأمّا وفاؤها : فإنّ أحدَهم يلحظ اللحظةَ ، ويومىء الإيماءةَ، فهي وَلْثٌ (أي عهدٌ) وعُقدةٌ لا يَحلها إلا خُروج نفسه ، وإنّ أحدَهم يَرفعُ عوداً من الأرض فيكون رَهناً بدينْه ، فلا يَغلق رهنُه ، ولا تخفر ذِمّته . وإنّ أحدَهم ليَبْلُغه أنّ رجلا استجارَ به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيُصاب فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابَته ، أو تَفنى قبيلته لما أخفر من جواره. وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفُسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأمّا قولك أيها الملك يَئِدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة منَ العار ، وغَيْرة من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له ، فعَمدوا إلى أجلّها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثرُ البهائم شحوماً ، وأطيَبُها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وأنه لاشيء من اللُّحمان يُعالج مايعالجبه لحمُها إلا استبان فَضلها عليه .

وأما تحارُبهُمْ وأكل بعْضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرَجل يسوسهم ويَجْمَعُهُمْ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنِست من نفسها ضعفاً ، وتخوّفت نُهوض عدُوّها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلُ بَيت واحدٍ يعرَف فضلُهم على سائر غيرهم ، فيُلقونَ إليهم أمورَهم ، ويَنقادون لهم بأزِمَّتهم .

وأما العرب فإنّ ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوَطْث (أي الضرْب الشّديد بالرِّجل على الأرض) بالعَسف .

وأما اليمن التي وَصفها الملك ، فإنما أتى جَدّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متّسق ، وأمر مجتمع ، فأتاه مسلوباً طريداً مستَصرِخاً ، ولولا

ما وُتر به مَنْ يليه من العرَب لمال إلى مجال ، ولَوَجَدَ مَنْ يُجيد الطِّعان ، ويَغضَب للأحرار ، من غَلَبة العَبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهلٌ لموضعك من الرِّياسة في أهل إقليمك ، ثم كساه من كسوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة.

فلمّا قدِم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقُّص العرب وتهجين أمرهم ، بعث إلى أكثم بن صَيفي ، وحاجب بن زُرارة التميميين ، وإلى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود البَكريَّيْن ، وإلى خالد بن جعفر ، وعلْقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عَمرو بن الشَّريد السُّلمي ، وعمرو بن معدِيكربَ الزُّبيدي ، والحارث بن ظالم المُرّيّ — فلما قدِموا عليه في الخوَرْنَق قال لهم : قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقُرْب جِوار العَرب منها ، قد سمعتُ من كسرى مقالات ، تخوّفت أن يكون لها غورٌ ، أو يكون إنما أظهرَها لأمر أرادأنْ يتخذ به العَرب خَوَلاً كبعض طماطمَتِه في تأديتهم الخراج إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذينَ حولَهُ — فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى ، وما ردّ به عليه فقالوا : أيُّها الملك وفقك اللهُ ، ما أحسن ما ردَدْتَ ، وأبلغ ما حجَجْتَه ، فمُرنا بأمرك ، وادْعُنا إلى ما شئت .

قال : إنما أنا رجلٌ منكم ، وإنما مَلكتُ وعَزَزْتُ بمكانكم وما يتخوّف من ناحيتكم ، وليس شيء أحبّ إليّ مما سدّد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام به عِزّكم — والرّأي أن تسيروا بجماعتكم أيُّها الرّهطُ ، وتنطلقوا إلى كسرى فإذا دخلتم : نطق كلُّ رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرَب على غير ما ظنّ ، أو حدّثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يُغضبُه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان ، مُترَف مُعجَبٌ بنفسه ، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذّليل ، وليكن أمرٌ بين ذلك ، تظهر به دَماثةُ حُلومكم ، وفَضل منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن

أول من يَبْدأ منكم بالكلام (أكثم بن صيفي) ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها فانما دعاني إلى التّقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدُّم قبل صاحبه ، فلا يكونَنّ ذلك منكم فيَجد في آدابكم مَطْعناً ، فانه ملك مُترف ، وقادر مُسلّط . ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائف حُلَل الملوك وأعطى كل رجل منهم حُلّة ، وعمّمه عمامة ، وختّمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مَهْرية ، وفرَس نجيبة ؛ وكتب معهم كتاباً :

أما بعد : فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبته بما قد فهم مما أحْبَبْت أن يكون منه على علمٍ ، ولا يَتَلجلج في نفسه أن أمّة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها ، وحمت ما يليها بفضل قوّتها ، تبلُغُها من الأمور التي يَتَعزّز بها ذوُو الحزم والقوة والتّدبير والمكيدة ـ وقد أوفدتُ أيها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم، وعقولهم وآدابهم ، فلْيسمع الملك وليُغمض لا عن جفاء إن ظهر من منطقِهم ، وليكرمني باكرامهم ، وتعجيل سراحهم .

وقد نَسَبْتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم .

فخرج القوم في أهْبَتهم ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقرَأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرازِبتَه ، ووُجوه أهل مملكته فحضَرُوا وجلسُوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام التَّرْجمان ليُؤدّي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخيرُ الأزمنة أخْصبُها ، وأفضل الخطباء أصدقها .

الصدق مَنجاة ، والكذبُ مَهوَاة ، والشّر لجاجة ، والحزم مَركب صعب

والعَجْز مركب وطيء — آفَة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حُسن الظنّ ورطة، وسوء الظن عصمة، وإصلاح فساد الرّعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء.

شرُّ البلاد بلاد لا أمير بها، وشرُّ الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الاعوان من لم يُراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حَسُنت سريرته، يكفيك من الزاد ما بلّغك المحل، حَسْبُكَ من شر سماعُه، الصّمت حكمٌ وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدد نفّرَ، ومن تراخى تألّف. فتعجب كسرى من أكثم؛ ثم قال: ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك! لولا وضعُك كلامك في غير موضعه، قال أكثم: الصّدق يُنبيء عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رُبّ قول أنفَذُ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي وقال: ورى زَنْدُكَ، وعَلَت يَدُك، وهِيب سلطانك — إن العرب أمة قد غَلُظت أكبادُها، واستَحْصدت مِرّتُها ومُنِعت دِرّتها، وهي لك وامقةٌ ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتها، سامعة ما سامحتها، وهي العلقم مرارة، وهي الصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزُّلال سَلاسة.

نحنُ وفودُها إليك، وألسنتها لديك، ذِمّتُنَا محفوظة، وأحسابُنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مُطيعة، إن نؤبْ لك حامدين خيراً، فلك بذلك عموم مَحْمَدتنا وإن نذمّ لم نُخَصّ بالذم دونها؛ قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها؛ قال حاجب: بل زَئير الأسد بصولتها، قال كسرى: كفى ذلك؛ ثم قام الحارث البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظّها، وعلوّ سنائها، من طال رِشَاؤُهُ كثر متحه [١]، ومن ذهب ماله قل منحهُ، تناقُل الأقاويل يُعَرّف اللب، وهذا مقام سيُوجِف [٢] بما تنطِق به الركب، وتعرف به كنهَ حالنا العجم والعرب، ونحن جيرانك الأدنَوْن، وأعوانك المُعينون، خيولنا

(١) المتح: الاستقاء (٢) أوجفته: أي أجريته

جمة، وجيوشُنا فخمة، إن استنجدتنافغير رُبُض، وإن استطرقتَنافغير ُجهض، وإن طلبتنا فغير ُغمض، لا ننثني لذُعر، ولا نتنكر لدهر ؛ رِماحنا طوال ؛ وأعمارنا قصار، قال كسرى : أنفُسٌ عزيزة وأمّة ضعيفة، قال الحارث : أيها الملك وأنّى يكون لضعيف عزة أو لصغير مِرّة[1]؟ قال كسرى : لو قصر عمرُك لم تستول على لسانك نفسك، قال الحارث : أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة ُمغرِّراً بنفسه على الموت؛ فهي منيّة استقبلها، وجنان استدبرها ؛ والعرب تعلم أني أبعث الحرب ُقدُماً، وأحبسها ؛ وهي تصرّف بها[2] حتى إذا جاشت نارُها، وسعرت لظاها وكشفت عن ساقِها، جعَلت مقادها رُمحي، وبَرْقها سيفي، ورعْدَها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضخاضها، حتى أنغمس في غمرات ُلججها وأكون ُفلكا لفُرساني إلى ُبحْبُوحة كبشها، فأستمطرُها دماً، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر َقشْعم . ثم قال كسرى لمن حضره من العرب : أكذلك هو؟ قالوا : فعاله أنطق من لسانه، قال كسرى : ما رأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوْفد .

ثم قام عمرو بن الشريد السُّلمي فقال : أيها الملك، نعم بالُك، ودام في السرُور حالك، إن عاقبة الكلام ُمتَدبرة، وأشكال الأمور ُمعتبرة، وفي كثير ثِقلة وفي قليل ُبلغة، وفي الملوك سورة العزّ، وهذا منطق له ما بعده : َشرُف فيه من َشرُف، وخَمل فيه من خَمُل، لم نأت لضيْمك، ولم نفد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك، إن في أموالنا ُمنتقداً، وعلى عزنا ُمعتمداً، إن أوْرينا ناراً أثقبْنا، وإن أوِدَ دهر بنا اعتدلنا، إلا أنّا مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رامَك كافحون حتى ُيحْمَدَ الصدر، وُيستطاب الخبر. قال كسرى : ما يقوم قصدُ منطقك بإفراطك ولا مدْحك بِذَمِّك. قال عمرو : كفى بقليل قصْدي هاديا، وبأيسر إفراطي ُمخبراً

---

(١) مرة : قوة (٢) بها : أي بالعرب

ولم يُلَمْ من غرَّبت نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ. قال كسرى: ما كلُّ ما يعرف المرء يَنطق به، إجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعاداً، وأرشده إرشاداً، إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غُصَّة، وعيُّ المنطق أشد من عي السكوت، وعِثار القول أنكأ عن عِثار الوعث، وما فُرْصة المنطق عندنا إلا بما نَهوى، وغُصة المنطق بما لا نهوى غير مُستساغة، وتَركي ما أعلم من نفسي ويُعلم من سمعي أنني له مطيق، أحب إليَّ من تكلفي ما أَتخوَّف ويُتخوَّف مني. وقد أوفدنا إليك مَلِكنا النُّعمان: وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والإحسان، أنفسنا بالطاعة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال كسرى: نطقتَ بعقْل، وسَموْت بفضل، وعلوت بنُبل.

ثم قام علقمة بن عُلاثة العامري فقال: نهجَت لك سُبل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد، إن للأقاويل مناهج، وللآراء موالِج، وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضلُ الطلب أنجحه ــ إنَّا وإن كانت المحبة أحضرتنا، والوِفادة قرَّبتنا، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزُب عنك، بل لو قِستَ كلَّ رجل منهم وعلمتَ منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائهِ دُنيا أنداداً وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسؤدَد موصوف، وبالرأي الفاضل، والأدب النافذ معروف، يحمِي حماه، ويروي نداماه، ويذود أعداه، لا تخمدُ ناره، ولا يَحتَرزُ منه جاره؛ أيها الملك، من يَبلُ العرب يعرفه فضلهم، فاصطنع العرب فإنها الجبال الرَّواسي عزا، والبحور الزواخر طمياً والنجوم الزواهر شرفا، والحصى عدداً فإن تعرف لهم فضلهم يُعزّوك، وإن تستصرخهم لا يَخذلوك؛ قال كسرى، وخشي أن يأتيَ منه كلام يحمله على السخط عليه: حسبُك أبلغت وأحسنت.

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطابَ الله بك المراشد، وجنّبك

المصائب ، ووقـّاك مكروه الشدائد، ما أحقّنا إذ أتَيناك بإسماعك ما لا يُحنق صدرك ولا يزرع لنا حقداً في قلبك ، لم نَتقدم أيها الملك لمُساماة ، ولم ننتسب لمُعاداة ولكن لتعلم أنت ورعيّتك، ومن حضرك من وُفود الأمم ، أنا في المنطق غير محجمين ، وفي الناس غير مقصرين ، إن جُورينا فغير مسبوقين، وإن سومينا فغير مغلوبين ؛ قال كسرى : غير أنكم إذا عاهَدتم غيرُ وافين ، وهو يعرض به في تركه الوفاء بَضمانه السوّاد ؛ قال قيس : أيها الملك ، مـا كنت في ذلك إلا كواف غُدرَ به ، أو كخافر أخْفِرَ بذمّته ؛ قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان، ولا لذليل خفارة. قال قيس : أيها الملك ، ما أنا فيما أخْفِر من ذمّتي أحقُّ بإلزامي العارَ منك فيما قُتِل من رعيّتك ، وانتُهك من حُرمتك، قال كسرى : ذلك لأن من ائتَمن الخونة واستنجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء ـ كيف رأيت حاجبَ بن زُرارة لم يحكم قُواه فيبرم، ويعهد فيوفي، ويعدُ فيُنجزُ ؟؟ قال : وما أحقه بذلك ومـا رأيتهُ إلا لي ، قال كسرى : القوم بزل [١] فأفضلُها أشدُّها .

ثم قام عامر بن الطُّفيل العامري فقال: كثر فُنون المنطق، وليس القول أعمى من حِنْدِس الظلماء، وإنما الفخر في الفِعال والعجز في النجدة ، والسّؤدد مطاوَعةُ القدرة، وما أعلمَك بقدْرنا، وأبصرك بفضلنا، والحرى، إن أدالت الايام وثابت الأحلام، أن تُحدِث لنا أموراً لها أعلام، قال كسرى : وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومُضر على أمر يُذكر ؛ قال كسرى : وما الأمر الذي يُذكر ؟ قال عامر : مالي علم بأكثر مما خبّرني به مخبِّر ؛ قـال كسرى : متى تكاهنْتَ يا ابن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكنّي بالرُّمح طاعن ؛ قال كسرى : فإن أتاك آت من جهة عينك العَوْراء، ما أنت صانع؟ قال: ما هَيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي وما أذهب عيني عَيْثٌ ، ولكن مُطاعة العبث.

---

(١) جمع بازل : وهو البعير سن تسع سنوات .

ثم قام عمرو بن مَعديكرب الزبيدي فقال : إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتيـــاد ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكـْرَة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجْتبِذ طاعتنا بلفظك واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألِن لنا كنفَك يَسلس لك قيادنا ، فـــإنا أناس لم يُوَقّس صفاتنا قِراعُ مناقير من أراد لنا قضماً ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضما

ثم قام الحارث بن ظــالم المُرّي فقال : إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملَق ، ومن خطَل الرأي خفة الملك المُسلّط ، فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ، ولا للاعتماد عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعُهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمرُ بيننا وبينَك معتدل ، ما لم يأت من قِبلك مَيل أو زلل ؛ قال كسرى : من أنت؟ قال : الحارث بن ظالم ، قال : إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر ؛ قال الحارث : إن في الحق مغضبة ، والسّر في التغافل ، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القُدْرَة ، فلتُشْبه أفعالك مَجْلِسَك ؛ قال كسرى : هذا فتى القوم ، ثم قال : قد فهمْتُ ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنّن فيه متكلموكم ، ولولا أني أعلم أن الأدب لم يُثقّف أودكم ، ولم يُحكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم ، فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة : فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجزْ لكم كثيراً مما تكلمتم به ، وإني لأكره أن أجبه وُفودي ، أو أحنق صدورهم . والذي أحبّ من إصلاح مُدبركم ، وتألّف شواذّكم ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم وقد قبلت ما كان في منطقكم من صواب وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى مَليككم فأحسنوا مُؤازرته والتزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن في ذلك صلاح العامة

* * *

رُوي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفِل بالعرب، ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم، ومفاخراتهم ومنافراتهم، ولم يَدّخر وسعاً إلابذَله للحصول على ذلك (ومما اتفق له) أن النعمان بن المنذر، كان بمجلسه يوماً. فقال له: هل في العرب من قبيلة تَشرف على قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، واتصل ذلك بمزية رابعة، فبيته أشرف بيت: وإليه تنسب القبيلة، وبه تعلو على غيرها. قال: أحضر مَن هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يُصبهم إلا في آل حذيفة بن بدر، وآل ذي الجدّين؛ وآل الأشعث بن قيس بن كِندة؛ فأحضرهم في جملة من عشايرهم؛ فعقَد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكّام والعدول والأعيان. ثم قال، ليتكلم كل منكم بمآثر قومه وليصدق.

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرفَ الأقدم والفخرَ الأعظم. فقيل له: لِمَ ذاك ياأخافزارة؟ قال: ألسنا الدعائم[1] التي لا ترام؟! والعز الذي لا يضام؟! فقيل له: صدقتَ ثم قام شاعرهم فقال:

فزارةُ بيت العز والعز فيهمُ ... فزارةُ بدرٍ حسْبُ بدر نضالها[2]
لها العزة القعساء[3] والحسب الذي ... بناه لبدرٍ في القديم رجالُها
فهيهات قد أعيا القرون التي مضت ... مآثر بدرٍ مجدُها وفعالها
وهل أحدٌ إن مد يوماً بكفّه ... إلى الشمس في مجرى النجوم ينالها؟!
فإن يصلُحوا يصلُح لذاك جميعنا ... وإن يَفسدوا يَفسُدْ على الناس حالها

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمْعها الأكبرَ وأنّا غياثُ اللزْبات[4] وبُناة المكرمات. فقيل له لِمَ يا أخا كِندَة؟ قال: لأنا ورثنا مُلكَ كِندة فاستظللنا بأفيائه وتقلدنا منكبَه الأعظم؛ وتوسّطنا بُحبوحه[5] الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

---

(١) الأركان (٢) محاماتها ودفاعها (٣) الرفيعة
(٤) بتسكين الزاي: الشدائد (٥) وسطه

إذا قِست أبيات الرجال ببيتنا   وَجدْت له فضلا على من يفاخرُ
فمن قال : كلاّ أو أتانا بخُطّة   يُنافرُنا يوماً فنحن نخاطرُ
تعالوْا قِفوا كي يعلم الناس أيُّنا   له الفضل فيما أورثَتْه الأكابر

ثم قام بسطام بن قيس، فقال: قد علمتْ العرب أنّا بُناة بيتها الذي لا يزول ومغرَسُ عزها الذي لا يحول، فقيل له : ولِمَ يا أخا شيبان ؟ قال : لأنا أدركهم للثار وأضربهُم للملك الجبار ، وأقولهم للحق ، وألدُّهم للخصم .

ثم قام شاعرهم فقال .

لعمريَ بسطامٌ أحقُّ بفضلها   وأول بيت العز عز القبائلِ
فسائل أبَيْتَ اللعن عن عز قومها   إذا جَدّ يوم الفخر كل مناضل[1]
فيخبرك الأقوام عنها فإنها   وقائع جَدٍّ لا ملاعبُ هازل
ألسنا أعز الناس قوماً وأسرةً   وأضربَهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عزّ كلها رَبَعِيّةٌ[2]   تذلُّ لهم فيها رقابُ المحافل
إذا ذُكرتْ لم يُنكر الناس فضلها   وعاذ بها ، من شرها ، كل قاتل
وإنا ملوك الناس في كل بلدةٍ   إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاجب بن زُرارة التميمي ، فقال: قد علمت العرب أنّا فرعُ دعاتها، وقادة زُحوفها ، فقيل له : لِمَ ذلك يا أخا بني تميم ؟ قال : لأنّا أكثر الناس عديداً ، وأنجبُهم طُرّاً وليداً ، وأعطاهم للجزيل ، وأحمَلهم للثقيل .

ثم قام شاعرهم فقال :

لقد علمتْ أبناء خِندفَ أنّا   لنا العز قِدماً في الخطوب الأوائل
وأنّا كرامٌ أهلُ مجدٍ وثروة   وعزٍّ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهمُ من سيّدٍ وابن سيّد   أغَرَّ نجيب ذي فعال ونائل

(١) الجادل .   (٢) نسبة إلى قبيلة ربيعة .

فسائلُ أبيتَ اللعن ¹ عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائلَ

ثم قام قيس بن عاصم السّعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرُمات وأثبتهم في النائبات، فقيل له: لِمَ ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال: لأنا أدركهم للثار، وأمنعهم للجار، لا نتكل إذا حَملنا، ولا نُرام إذا حللنا، ثم قام شاعرهم فقال:

لقد علمت قيسٌ وخندفُ أننا وجُلُّ تميم والجموعُ التي ترى
بأنا ليوثُ البأس في كل مأزِق إذا جُزَّ بالبيض الجماجم والطُّلى
وأنا إذا داعٍ دعانا لنجـدة أجبنا سِراعاً في العلائم من دعا
فهيهات قد أعيا الجميع فِعالُهم وقامو بيوم الفخر مَسْعاة من سعى

فقال كسرى حينئذ: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، ثم أعظَم صِلاتهم أجمعين، وردّهم إلى أقوامهم مُعظمين.

مناظرات المهدي ومشاورته لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفَت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من المكانة على أن نكثوا بَيْعتهم ونقضوا موثقهم وطردوا العمال، والتوَوْا بما عليهم من الخراج، وحَمَل المهدي ما يُحب من مصلحتهم ويكره من عنَتهم، على أن أقال عَثرتهم واغتفرَ زَلّتهم واحتمل دالّتهم تطوُّلاً بالفضل واتساعاً بالعفو وأخذاً بالحُجة ورِفقاً بالسياسة، ولذلك لم يزل مذ حَمّله الله أعباء الخلافة وقلده أمور الرعية رفيقاً بمدارِ سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطاً للمعْدَلة في رعيته تسكن إلى كنَفه وتأنس بعفوه، وتَثِق بحلمه، فإذا وقعت الأقضية اللازمة والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنـة، أثرةً للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزْم، فدعـا أهلَ خراسان الاعترارُ بحلمـه والثقة

---

(١) أبيت اللعن: بغضته ومنعته اي انك لا تفعل مـا يوجب لعنك بل تفعل ما تحمد وتمدح به.

بعفوه : أن كسّروا الخراج وطردوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتنصّلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلائه ، وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه ، فأعلمهم الحال واستفهمهم للرّعية ، ثم امر الموالى بالابتداء ؛ وقال للعباس بن محمد : « أي عمّ » تعقب قولنا وكن حكماً بيننا وأرسلَ ولديه : (موسى وهارون) فأحضرهما الأمر وشاركهما الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مُراجعتهم وإثبات مقالتهم في كتاب .

فقال سلاّم صاحب المظالم :

أيها المهدي ، إن في كل امر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استفرغت رأيهم ، واستغرقت اشغالهم ، واستنفدت اعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرفوا بها وعُرِفت بهم ، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية ، وطلبت معونتنا عليها اقوام من ابناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجارب ، وابطال الوقائع ، الذين رشحتهم سجالها ، وفيأتهم ظلالها ، وعضتهم شدائدها وفرمتهم نواجذها ؛ فلو عجمت ما قبلهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد امرك ، وتجارب توافق نظرك واحاديث تقوّي قلبك ؛ فأما نحن معاشر عمالك واصحاب دواوينك فحسنٌ بنا ، وكثيرٌ منا ان نقوم بثقل ما حمّلتنا من عملك واستودعتنا من امانتك وشغلتنا من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك .

فأجابه المهدي : إن في كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفي كل حال تدبيراً يُبطل الآخرُ الأولَ ، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم ايها المهدي انت متّبع الرأي ، وثيق العُقْدة ، قوي المنة ، بليغ الفطنة معصوم النّية ، محضور الروية ، مؤيد البديهة ، موفّق العزيمة ، مُعان بالظفر ، مهديّ إلى الخير ، إن هممتَ ففي عزمك مواقع الظن ، وان اجتمعتَ صدع فعلك مُلتبسَ الشك ، فاعزم يهدِ اللهُ الى الصواب قلبك ، وقلْ يُنطق الله بالحق لسانك ، فإن جنودك جمة وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدي : إن المشاورة والمناظرة بابَا رحمة ومِفتاحا بركة ، لا يَهلك عليهما رأيٌ ولا يتفيل معها حزم فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضُركم ، فإني من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدي إن تصاريف وُجوه الرأي كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريض القوْل يسيرة ، ولكن خُراسان أرضٌ بعيدة المسافة ، متراخية الشُقّة متفاوتة السبيل ، فإذا ارتأيْتَ من مُحكم التدبير ومُبرَم التقدير ولُباب الصواب رأياً ، قد أحكمه نظرُك ، وقلّبه تدبيرك ؛ فليس وراءه مذهب طاعن ، ولا دونه مَغلقٌ لخصومة عائب ، ثم خَبّت البُرد به ، وانطوت الرُّسل عليه كان بالحرى أن لا يصل إليهم مُحكمه ، إلا وقد حدَثَ منهم ماينقُضه ، فما أيسَرَ أن ترجع إليك الرُّسل ، وتردَ عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أمورهم فتُحْدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلَق ، وتحللت العُقد ، واسترخى الحقاب ، وامتد الزمان ثم لِعلمك موقع الآخرة كمصدر الأولى ولكن الرأي أيها المهدي ، وفقك الله أن تصرِف إجالة النظر وتقليب الفِكَر فيما جمعتَنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيَل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورَع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثرَةٍ عليك ، ولا ظنيناً على دُخْلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محذورة ، فيقدح في ملكك ويُربّض الأمور لغيرك ، ثم تُسنِد إليه أمورَهم وتُفوّض إليه حربَهم وتأمُره في عهدك ، ووصيّتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم : وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واشتداد الأحوال التي ينقَضُ [١] أمر الغائب عنها ويثبتُ رأي الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فواثبَ أمرَهم من قريب وسقط عنه ما

---

(١) ينقض : ينهدم .

يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل وأُحِد النظر إن شاء الله .

قال الفضل بن عباس :

أيها المهدي ، إن وليّ الأمور وسائس الحُروب رُبما نحّى جنوده وفرّق أمواله في غير ما ضيقِ أمرٍ حزَبه ،ولا ضغطة حالٍ اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقداً لها ، لا يثق بقوّة ولا يصول بعُدّة ، ولا يفزع إلى ثقة؛ فالرأي لك أيها المهدي وفّقك الله أن تعْفي خزائنك من الإنفاق للأمول وجُنودك من مُكابدة الأسفار ومُقارعة الأخطار وتغرير القتال،ولا تُسْرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسُدُ عليك أدبُهم وتُجرّىءُ من رعيّتك غيرهم ولكن اغزُهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعْهم باللين وخاتلهم بالرّفق وأبرق لهم بالقول وأرْعد نحوهم بالفعل وابعث البُعوث وجنّدَ الجنود وكتّبْ الكتائب واعقد الألوية وانصب الرّايات وأظهر أنك موجّهٌ إليهم الجيوش مع أحنق قُوّادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم ادسس الرسل ، وابثُثْ الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسُد فيهم واغرس أشجار التنافس بينهم ، حتى تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصّدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الحذَرُ والهيبة ، فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمُناصبة بالكتب ، والمُكايدة بالرسل ، والمُقارعة بالكلام اللطيف المُدخل في القلوب ، القويّ الموقع من النفوس ،المعقود بالحجج الموصول بالحِيَل المبنيّ على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة – أنفذ من القتال بظُبات السُّيوف وأسنّة الرّماح ، كما أن الواليَ الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل ، ويفرّق كلمة عدُوه بالمُكايدة أحكم عملاً وألطفُ منظراً وأحسن سياسة ، من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغرير ، والخطار .

وليعلم المهدي ، أنه إن وجّه لقتالهم رجلاً لم يسرْ إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة ، وتُقدِم على أسفار ضيِّقة وأموال مُتفرقة وقوّاد غششة إن ائتمنتَهُمْ استنفدوا ماله ، وإن استنصحهم كانوا عليه لا له . قال المهدي : هذا رأيٌ قد أسفر نورُهُ ، وأبرق ضوءُهُ ، وتمثل صوابهُ للعيُون ومجُد حقه في القلوب ولكن فوْق كل ذي عِلم عليم . ثم نظر إلى ابنه علي فقال : ما تقول ؟

قال عليٌّ : أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدح في تغيير مُلكك ويُريض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأن أصغر والحالُ أدلّ ، لأنّ الله مع حقه الذي لا يخذله وعند موعده الذي لا يُخلِفه ، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبُوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفّست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، أو يحدُث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرّب وأطفأت ثائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال وطرحت تغرير القتال ، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجيّة حلمك وأسجاع خليقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً ، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتهم في ميدان الخطاب . فما أربُ المهدي أن يَعْمِدَ إلى طائفة من رعيته مُقرِّين بمملكته مُذعنين بطاعته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرّئونها من عبوديته فيُملّكهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المنازعة ومضمار المخاطرة . أيريد المهدي وفقه الله الأموال؟ فلعَمري لا ينالها ، ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يَطلب منهم ، وأضعاف ما يدّعي قِبَلهم ، ولو نالها فحُملت إليه أو وُضعت بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها واطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنسب وبه يُعرف من الجود

الذي طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه، فإن قال المهدي هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عمالنا، وتحامل ولاتنا فأما الجنود الذين نقضوا مواثيق العهود وأنطقوا لسان الإرجاف، وفتحوا باب المعصية وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أتيَ بهم مغلولين في الحديد، مُقرّنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوهُ ولإقالةِ عثرتهم صفحه واستبقاهم لما فيه من حزبه، أو لمن بإزائهم من عدوّه لما كان بدعاً من رأيه ولا مستنكراً من نظره.

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدّها وقماً وأصدقها صولةً وأنه لا يتعاظمه عفو، ولا يتكاءدهُ صفح، وإن عظمَ الذنب وجل الخطب، فالرأي للمهدي وفقه الله تعالى أن يحلّ عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أولى حالاتهم وضيعة عيالاتهم برّاً بهم، وتوسعاً لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزّتهم يصول، وبحجّتهم يقول، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرّضوا له من معاصيه، وانطووا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غيّرَ من رأيه فيهم أو نُقِلَ من حاله لهم، أو تغيّرَ من نعمته بهم كمثل رجلين أخوين مُتناصرين مُتوازرين أصاب أحدهما خبَلٌ عارض ولهوٌ حادث فنهض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزدد أخوه إلا رقةً له ولطفاً به واحتيالا لمداواة مرضه ومراجعة حاله عطفاً عليه وبَرّاً به ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد كوى سمتَ اللبّان وفض القلوب في أهل خراسان ولكل نبأ مستقر، ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ (يعني موسى ابنه).

فقال موسى:

أيها المهدي، لا تسكُن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم، الحال من القوم يُنادي بضمرة شرّ وخفيّة

حقد ، قد جعلوا المعاذير عليها ستراً واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير ، والأمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويُفنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وتتلاحق مادّتهم ، وتستفحل حربهم وتستمرّ الأمور بهم ؛ والمهدي من قولهم في حال غِرّة ولباس أمَنة ، قد فتر لها وأنس بها ، وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصبة بالقتال ، والإضمار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرَهِبُوا عواقب أخبار الوُلاة ، وغِبّ سكون الأمور فليَشْدُدْ المهدي - وفقه الله - أزره لهم ، ويُكتّب كتائبه نحوهم وليضع الأمر على أشد ما يحضرُهُ فيهم ، وليُوقن أنه لا يُعطيهم خُطةً يريدُ بها صلاحهم إلا كانت دُرْبة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعيةً إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوُفود ، الذين إن أقرّهم وتلك العادة وأجراهم على ذلك الأرب ، ولم يبرح في فتق حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدُّرْبة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمؤُونة الشديدة ، والرأي للمهدي وفّقه الله أن لا يُقيل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرّ بهم القتل ويحدق بهم البلاء ويُطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدي ذلك كان مقطعةً لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمةً لكل بادرة شرٍّ منهم ، واحتمال المهدي في مئونة غزوتهم هذه تضع عنه غزواتٍ كثيرة ، ونفقات عظيمة . فقال المهدي : قد قال القوم ، فاحكمْ يا أبا الفضل !.

فقال العباس بن محمد :

ايها المهدي : أما (الموالي) فأخذوا بفروع الرأي وسلكوا جنبات الصواب وتعدّوا أموراً قصّرَ بنظرهم عنها أنه لم تأت تجاربُهُمْ عليها - وأما (الفضل) فأشار بالأموال أن لا تنفق ، والجنود أن لا تفرّق ، وبأن لا يُعطى القوم ما طلبوا

ولا يُبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانة بحربهم وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارُها ، وأما (علي) فأشار باللين ، وإفراط الرِّفق وإذا جرّد الوالي لمن غَمِط أمره وسفه حقه اللين بحتاً ، والخير محضاً ، لم يخلطها بشدّة تعطف القلوب عن لينه ، ولا بشَرٍّ يحبسهم إلى خيره ، فقد ملّكهم الخلع لعذرهم ، ووسَّع لهم الفرجة لثني أعناقهم ، فإن أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرهم ولا شدة ، فنَزْوةٌ في رُؤوسهم ،يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم، ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم ، وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّرَاح ، فذلك ما عليه الظنّ بهم ، والرأي فيهم ، وما قد يُشبه أن يكون من مثلهم لأن الله تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والملك الكبير ما لا يخطرُ على قلب بشر ولا تُدْرِكُه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها ورغبهم فيها ، فلولا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما أجابوا ولا قبلوا .

وأما (موسى) فأشار بأن يُعْصَبوا بشدة لا لين فيها ، وأن يُرْمَوْا بشرٍ لا خير معه ؛ وإذا أضمر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً: والشَرّ مجرداً ليس معهما طمع ولا لين يثنيهم اشتدت الأمور بهم ، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من الذلةِ ، والامتعاض من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف ، والاستبسال في القتال والاستسلام للموت ، وإما أن ينقادوا بالكُرْه ويذعِنوا بالقهر على بغضةٍ لازمةٍ ، وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان .

وقال في قول الفضل : أيها المهدي أكفى دليل وأوضح بُرهان ، وأبين خبر بأن قد أجمع رأيه وحزَم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه

البعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.

قال المهدي : ذلك رأيٌ.

قال هارون : ما خلطت الشدة أيها المهدي باللين ، فصارت الشدة أمرّ فطام لما تكره ، وعاد اللين أهدى قائدٍ إلى ما تحب، ولكن أرى غير ذلك .

قال المهدي : لقد قلت قولاً بديعاً ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً ، والمرء مؤتمن بما قال وظنين بما ادعى ، حتى يأتي ببينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدي : إن الحرب خدعة ، والأعاجم قوم مكرة ، وربما اعتدلت الحال بهم ، واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون وربما افترقت الحالان ، وخالف القلب اللسان ، فانطوى القلب على محجوبة تبطن ، واستسر بمدخولة لا تعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره العالم بمقدم يده وموضع ميسمه ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأي للمهدي وفقه الله أن يفر باطن أمرهم فر المسنة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بمتابعة الكتب ومظاهرة الرسل ، وموالاة العيون ، حتى تهتك حجب عيونهم وتكشف أغطية أمورهم ، فإن انفرجت الحال وأفضت الأمور إلى تغيير حال ، أو داعية ضلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه وامتدت الأعناق نحوه بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه عصبهم بشدة لا لين فيها ، ورماهم بعقوبة لا عفو معها ، وإن انفرجت العيون واهتصرت الستور ورفعت الحجب والحال فيها مريعة والأمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها ، وظلامات يدعونها وحقوق يسألونها بماتة سابقتهم ودالة مناصحتهم ، فالرأي للمهدي وفقه الله أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعب من أمرهم ما صدعوا ، ويرتق من فتقهم ما قطعوا ، ويولي عليهم من أحبوا ويداوي

بذلك مَرَض قلوبهم. وفساد أمورهم ، فإنما المهدي من أمته وسَواد أهل مملكته بمنزلة الطبيب الرفيق والوالد الشفيق والراعي المُجَرّب الذي يحتال لمرابض غنمه ، وضوالّ رَعيته حتى يُبرِىء المريضة من داء علتها ويردّ الصحيحة إلى أنس جماعتها ؛ ثم إن خراسان بخاصة الذين لهم دالة محمولة ، وماتّة مقبولة ، ووسيلة معروفة ، وحقوق واجبة ؛ لأنهم أيدي دولته وسُيوف دعْوته وأنصار حقّه وأعوان عدله ، فليسَ من شأن المهدي الاضطِغان عليهم ولا المؤاخذة لهم ، ولا التوَعُّرُ بهمْ ولا المكافأة بإساءتهم ، لأن مبادرة حسْم الأمور ضعيفةً قبل أن تقْوى ، ومحاوَلة قطع الأصول ضئيلةً قبل أن تغلظ أحزَمُ في الرّأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها حتى يَلتئم قليلها بكثيرها وتجْتمَع أطرافها إلى جُمْهورها .

قال المهدي : ما زال هارون يَقع وقْعَ الحيا حتى خرَج خروج القِدح من الماء وانْسَلّ انسلال السيف فيما ادّعى ، فدَعوا ما سبق موسى فيه فأنه هو الرّأي وثنّى بعده هارون؛ ولكن من لأعِنّة الخيل وسياسة الحرب وقادة الناس إن أمعن بهم اللجاج وأفرطت بهم الدّالة ؟!

قال صالح بن علي : لسنا نَبْلغ أيُّها المهدي بدوام البحث وطول الفِكر أدنى فراسة رأيك وَبعض لحظات نظرك ، وليس يَنْفضُ عنك من بُيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل ورأي كامل وتدبير قوي تُقلده حَرْبك وتستودعهُ جُنْدَك ، ممن يحتمل الأمانة العظيمة ويضْطلع بالأعباء الثقيلة، وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة ، مَخْبور التّجارِب ، محمود العواقب ، معصومُ العزْم . فليس يقع اختيارُك ولا يقفُ نَظرك على أحد َتوليه أمرك وتسْند إليه ثغرك إلا أراكَ الله ما تُحب وَجمَع لك منه ما تريد .

قال المهدي : إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه وحُسن معَونَته عليه ، ولكني أحب المُوافقة على الرأي والاعتبار للمشاورة في الأمر المُهم .

قال محمد بن الليث : أهــل خراسان قوم ذوو عزّة ومَنعة وشياطين خدَعة ، زُروع الحميَّة فيهم نابتــة ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعَجلة عنهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم سيوفهم عذلهم لأنهم بين سِفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلْجمون إلا بشدة ، ولا يفطمون إلا بالمرّ ، وإن وَلى المهدي عليهم وضيعاً لم تنقد له العظماء ، وإن ولّى أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإن أخر المهدى أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمه ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ، ناصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تلزمهم ولا حَميَّة تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جدّ ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشر كبير ، وليس المهدي — وفقه الله — فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما: احدهما لسان ناطق موصول بسمعك ويدٌ ممثلة لعينك وصخرة لا تزعزع وبهمة لا تثنى ، وبازل لا يفزعه صوت الجلجــل ، نقي العِرض نزيه النفس جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمته فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً ، فليس يقبل عملا ، ولا يتعدّى أملا وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك ، رجل قد غذّي بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك فإن قلّدته أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم ، كان قفلا فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً . وإذا حكم المنصَفة وسلك المَعْدَلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم مــا عليهم ، غرسَ في الذي لك بين صدورهم وأسكن لك السوَيداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متماثلة في حواشي عوامّهم . متمكّنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم رَيْبٌ إلا نفوْه ولا يلزمهم

حقٌ إلا أدّوه ، وهذا أحدُهما . والآخر عنودٌ من غيضتك ، أو نبعةٌ من أرُومتك ، فتيُّ السِّن كهلُ الحِلم راجح العقل محمود الصرامة مأمون الخلاف يُجرِّد فيهم سيفَه ويَبسُط عليهم خيرَه بقدر ما يستحقون وعلى حسب ما يستوجبون وهو « فلان » أيها المهدي ـ فسلطه أعزَّك اللهُ عليهم ، ووجّهْهُ بالجيوش إليهم ولا تمنعكَ ضراعة سِنّه وحداثة مولده فإن الحِلمَ والثقة مع الحداثة خيرٌ من الشكّ والجهل مع الكهولة ، وإنما أحداثُكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه ، واختصّكم به من مكارم الاخلاق ومحامد الفعال ومحاسن الأمور وصواب التدبير وصرامة الأنفس كفِراخ عِتاق الطير [1] المُحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب ، والعارفة لوُجوه النفع بلا تأديب ، فالحلم ، والعلم ، والعزم ، والحزم ، والتؤدة ، والرِّفق ، ثابت في صُدوركم مزروع في قلوبكم ، مُستحكم لكم متكامل عندكم ، بطبائعَ لازمة ، وغرائز ثابتة .

قال معاوية بن عبدالله .

أفتاءُ [2] أهل بيتك أيُّها المهدي في الحلم على ما ذُكر ، وأهل خُراسان في حال عزَّ على ما وُصِف ، ولكن إن ولّى المهدي عليهم رَجُلاً ليس بقديم الذكر في الجنود ولا بنَبيه الصوت في الحروب ولا بطويل التجربة للأمور ، ولا بمعروف السياسة للجيوش والهيبة في الأعداء ، دخل ذلك أمران عظيمان ، وخطران مهولان أحدهما ، أن الأعداء يَغتَمِزون نهامنه ويَحتقرون نهافيه ويَجترئون بها عليه في النهوض به والمقارعة له والخلاف عليه قبل الاختبار لأمره ، والتكشّف لحاله والعلم بطباعه . والأمر الآخر : أن الجنود التي يقود ، والجيوش التي يسوس ، إذا لم يختبروا منه البأس والنجدة ولم يعرفوه بالصيت والهيبة انكسرت شجاعتهم وماتت نجدتهم واستأخرت طاعتهم ، إلى حين اختبارهم ووقوع معرفتهم ، وربما وقع البوار قبل

(١) عتاق الطير : الجوارح منها .

(٢) أفتاء : أصحاب القوة من الشبان ، جمع فتي ، كيتيم وأيتام .

الاختبار ، بباب المهدي — وفقه الله — رجل مهيب نبيه حنيك صيّت له نسب زاك وصوت عالٍ قد قاد الجيوش وساد الحروب وتألف أهل خراسان ، واجتمعوا عليه بالمِقة ١ ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه الله شرهم

قال المهدي: جانبت قصد الرميّة وأبيتَ إلا عصبيّة ، إذ رأيُ الحدث من أهل بيتنا كرأي عشرة حلماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم وليَّ العهد ؟

قالوا : لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدّين وأهله، بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عزّ وجل حجب عن خلقه وستر دون عباده علم ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجري عليه المقادير من حوادث الأمور ، وريب المنون المخترمة لخوالي القرون ، ومواضي الملوك فكرهنا شسوعه عن محلة الملك ودار السلطان ، ومقرّ الإمامة والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقر الجنود ومعدن الجود ، ومجمع الأموال التي جعلها الله قطباً لدار الملك ، ومصيدة لقلوب الناس ، ومثابة لإخوان الطمع وثوّار الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضّلال ، وأبناء الموت ؛ وقلنا : إن وجّه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد يحدث بجنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهديّ أن يعقبهم بغيره إلا أن ينهد إليهم بنفسه ، وهذا خطر عظيم وهول شديد ، إن تنفست الأيام بمقامه واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عوض لا يستغنى عنه ، أو يحدث أمر لا بد منه صار ما بعده مما هو أعظم هولاً ، وأجل خطراً له تبعاً ، وبه متّصلاً .

قال المهدي : الخطب أيسر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه ، نحن أهل البيت نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابقٍ من

---

(١) المقة : المحبة .

العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ونبأت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيره عندنا ، فيه ندبّر وعلى الله نتوكل إنه لا بُدّ لوليّ عهدي وولي عهد عقبي بعدي ، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتّجه نحوها بالجنود ؛ أمّا الأوّل فإنه يقدّم إليهم رسله ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشطاً إليهم حنقاً عليهم ، يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفتن ودواعي البدع ، وفرسان الضلال إلا توطّأه بحرّ القتل وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذلّ ولا أحداً من الذين عملوا في قصّ جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونصرة ولاة الحقّ إلا أجرى عليهم ديم فضله وجداول نهله ، فإذا خرج مزمعاً به مجمعاً عليه لم يسر إلا قليلاحتى تأتيه أن قد عملت حيله ، وكدحت كتبه ونفذت مكايده ، فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائرة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطفاً عليهم إلى عدوّ قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حجّاجهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال ، وأمّا الآخر ، فإنه يوجّه إليهم ، ثم تعقد له الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون ، فإذا سمحت الفرق بقراباتها له وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصد الأول ناحية نجمت بطاعتها وألقت بأزمتها ، فألبسها جناح نعمته وأنزلها ظلّ كرامته وخصّها بعظيم حبائه ، ثمّ عمّ الجماعة بالمعدلة وتعطّف عليهم بالرحمة فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها منفعته فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضيعها وزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتين : ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطىء عن إجابته وتثاقل عن حقه ، فتكون آخر من يبعث وأبطأ من يوجه ، فيصطلي عليها موجدة ويبتغي لها علة ، لا يلبث أن يجد بحقّ يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلحمهم الجيوش وتأكلهم السيوف ويستحرّ بهم القتل ويحيط بهم الأسر ويفنيهم التتبّع حتى يخرّب البلاد ويُيتّم الأولاد . وناحية لا يبسط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً

ولا يجعل لهم ذمّة لأنهم أولُ من فتَح باب الفرْقة وتدرَّع جلبابَ الفتنة وربَض في شَق العصا ، ولكنه يقتُل أعلامهم ويَأسِر قوّادهم ويطلب هرّابهم في لجَج البحار وقُلل الجبال وحميل الأوْدية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الدّيار خراباً والنساء أيامى — وهذا أمرٌ لا نعرف له في كتبُنا وقتاً لا نصحّح منه غيرَ ما قلنا تفسيراً — وأما (موسى وليّ عهدي) فهذا أوانُ توجّهه إلى خراسان وحلوله بجُرْجان وما قضى الله له من الشُّخوص إليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مَغبة وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا فيتصاغر عظيم فضله ويتذاءب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدي — إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل مِلتك عَلماً قد تثنّتْ نحوه أعناقها ، ومدت سَمْتَه أبصارُها ، وقد كان لقُرْب داره منك ومحلّ جواره لك عُطل الحال غُفل الأمر واسعَ العُذر ، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة أن تتفقد مخارج رأيه . وتَستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله في برّه ومرحمته ومعْدلته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ما سبقَ إليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم فلا يفتأ المهدي وفّقه الله ناظراً له فيما يُقوّي عمدَ مملكته ، ويسدّد أركان ولايته ، ويستجمع رضاء أمته بأمر هو أزْين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضل مَغبة لأمره ، وأجلّ موقعاً في قلوب رعيته ، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملّته ، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له ، وأبْلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحمة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ للخير وأهله — وأن يختار المهدي وفّقه الله من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهلِ كلّ

مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرّعية بهم إذا وُصفوا، ثم تسهّل لهم عمارة سُبل الإحسان، وفتح باب المعروف؛ كما قد كان فتح له وسُهِّل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت؛ ثم بعث في طلب ابنه موسى، فقال له:

أي بُني – إنك قد أصبحت لِسَمْت وجوه العامة نُصْباً، ولمثنى أعطاف الرّعيّة غاية، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية، وأمرُك ظاهر، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إيثارُك رضاه، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إيثارُك رضا من سواه – ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدّد حبل الإسلام بدعواهم ويشيّد أركان الدين بنُصرتهم ويتخذ لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعْواناً، يَسُدون الخلل ويُقيمون المَيل، ويدفعون عن الأرض الفساد، وإن أهل خراسان أصبحوا أيْدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونستصرف نزول العظائم بمناصحتهم، وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم، فهُم عماد الأرض إذا أرجفت أُفقها وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها، فقد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات أخمدت نيران الفتن، وقسمت دواعي البدَع، وأذلّت رِقاب الجبّارين، ولم ينفكوا كذلك ما جرَوا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظلّ دعْوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذاتهم ورَفع بها ضِعَتهم، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ومُلوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذُّل وقِناع الخوف، وإطباق البلاء ومُحالفة الأسى وجهد البأس والضرّ فظاهِرْ عليهم لِباسَ كرامتك، وأنزِلْهُمْ في حدائق نعمتك ثم اعْرف لهم حق طاعتهم، ووسيلة دالّتهم وماتّة سابقتهم، وحُرمة مُناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمُسيئهم.

أي بُنيّ ، ثم عليك العامّة فاستدْع رضاها بالعَدْل عليها ، واستجلِبْ مودتها بالإنصاف لها ، وتحسَّن بذلك لرَبك ، وتَوثّقْ به في عين رعيتك ، واجعل عُمّال العذْر وولاة الحُجج مُقدمة بين يديْ عملك ونَصفَةً منك لرَعيَّتك ، وذلك أن تأمر قاضيَ كل بلد ، وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً تُولّيه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبَينهم فإن أحسنَ حُمِدْتَ ، وإن أساءَ عُذِرْتَ ، هؤلاءِ عُمّال العُذْر وولاة الحُجَج ، فلا يسقُطنّ عليك ما في ذلك ، اذا انتشر في الآفاق وسبق الى الأسماع من انعقاد ألسنة المُرْجفين وكَبْت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكنّ في ظل كَرامتك نازلاً ، وبِعُرى حبلِكَ متعلقاً رَجُلان : أحدُهما كريمة من كَرائم رجالات العرب وأعلام بُيوتات الشَّرَف ، له أدب فاضل وحِلْم راجح ودين صحيح . والآخر له دين غيرُ مَغْموز ، وموضع غير مدخول ، بصيرٌ بتَقليب الكلام ، وتصريف الرأي ، وأنحاء العرب ، ووَضْع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخُطوب ، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من مَحاسِنك وتحسين أمرك وتحلية ذِكرك فتَستَشيرُهُ في حَرْبك وتُدخلهُ في أمرك ، فرَجُلٌ أصبته كذلك فهو يأوي الى محلّتي ويَرْعى في خُضرة جِناني ، ولا تَدَعْ أن تختار لك من فقهاء البُلدان وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسُمّارك ، وأهل مُشاورتِكَ فيما تورِد ، وأصحاب مُناظرتك فيما تُصْدِر ، فَسِرْ على بركة الله ، أصْحَبَكَ الله من عَوْنه وتوفيقه دليلاً يهدي الى الصواب قلبَك ، وهادياً يُنْطِق بالخير لِسانَكَ .

وفود بكّارة الهلالية على معاوية

استأذنت بَكّارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان فأذِن لها ، وهوَ يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسَنّت وعشيَ بصرُها وضعُفَت قوتها ، ترعَشُ بين خادمين لها ؛ فسلّمت وجلست ، فرَدَّ عليها مُعاوية السلام ، وقال :

كيف أنتِ يا خالةُ ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غيّرَكِ الدهر ، قالت : كذلك هو ذو غِيَرٍ ، من عاش كبِرَ ، ومن مات قُبِرَ ، فقال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يا زيدُ دونك فاحتفر من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كُنتُ أذخرُه ليوم كريهة فاليوم أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هِنْدٍ للخلافة مالكاً هيهات ذاك وان أراد بعيدُ
مَنّتك نفسك في الخلاءِ ضلالةً أغْراك عمرو للشقا وسعيدُ

وقال سعيد بن العاص : هي والله القائلة :

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمَيَّة خاطبا
فالله أخّرَ مُدّتي فتطاولت حتى رأيت مِنَ الزّمان عجائبا
في كلّ يوم لا يزال خطيبُهم بيْنَ الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا ، فقالت : يا معاوية ، كلامك أعشى بصري ، وقَصّرَ حُجّتي ، أنا والله قائلة ما قالوا ، وما خفي عليك مِنّي أكثر ، فضحك معاوية وقال : ليس يمْنَعُنا ذلك من بِرّك ، اذكُري حاجتك ، قالت : أما الآن فلا .

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

لمّا كان السيفُ والقلمُ عُدّتيْ العمل والقَوْل ، وعُمْدتي الدُّوَل ، فإن عَدِمَتهما دولةٌ فلا حَوْل ، ورُكْنَيْ إسناد المُلك المُعرَبين عن المخفوض والمرفوع ، ومقَدّمَتي نتيجة الجدل الصادر عنهما المحمولُ والموضوع فكثُرت أيهما أعظم فخراً وأعلى قدْراً فجلستُ لهما مجلِس الحكمِ والفتوى ، ومثلتُهما في الفكر حاضِرَين للدعوى ، وسوّيتُ بين الخصمين في الإكرام ، واستنطقتُ لسان حالِهما للكلام ، فقال القلمُ : بسم الله مُجْريها ومُرساها ، والنهار اذا جلاّها

والليْل إذا يَغشاها ، أما بعد حَمْد الله بارىء القلم، ومشرّفه بالقَسَم ، وجاعله أول ما خلق ، وجمّل الوَرَق بغُصْنه ، كما جمّل الغصن بالورقِ ، والصلاة على القائلِ جفّتِ الأقلامُ ، فإن القلم قصبُ السّباق ، والكاتبُ بسبعة أقلامٍ مِنْ طبقات الكُتّاب في السبع الطباق ، جَرى بالقضاء والقدر، ونابَ عن اللّسان فيما نهى وأمَرَ ، طالما أربى على البيض والسُّمْر في ضِرابها وطعانها ، وقاتل في البعد ، والصوارِم في القُرْب ملء أجْفانها ، وماذا يُشبه القلم في طاعة ناسه ؟ ومشيهِ لهم على أمّ راسه ؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأنزَلْنـا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع ، أما بعد حمدِ الله الذي أنزَل آيةَ السيف ، فعَظَّمَ بها حرْمة الجرْح وآمن خيفةَ الحيف ، والصلاة على الذي نفّذ بالسيف سُطور الطروس ، وخدَمَتْه الأقلام ماشية على الرُّءُوس ، وعلى آله وصحبه الذين أرْهفَتْ سيوفُهم ، وبُنيت بها على كَسْر الأعداء حروفهم ، فإن السيف عظيم الدّوْلة ، شديدُ الصَّوْلة ، محا أسطار البلاغةِ ، وأساغ ممنوعَ الإساغة ، من اعتمد على غيره في قَهْرِ الأعداءِ تَعِب ، وكيف لا وفي حدّه الحدُّ بين الجدّ واللعِب ؟! فإن كان القلمُ شاهداً ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مُجادلته بأمرٍ مُسْتقبل قطعَه السَّيف بفعل ماض ، به ظهرَ الدينُ ، وهو العُدّة لقمع المعتدين ، حَمَلَتْه دون القلم يَدُ نَبيِّنا ، فَتَشَرُفَ بذلك في الأمم شرَفاًبيِّناً، الجنة تحت ظِلالهِ ، ولا سيّما حينَ يُسَل فترى وَدْق الدّم يَخْرُج من خِلالهِ ، زُيّنَتْ بزينة الكواكب سماء غمْده ، وَصدّقَ القائلُ « السَّيف أصدّقُ إنباءً من ضدّه » لا يعبثُ به الحاملُ ، ولا يتناوله كالقلم بأطرافِ الأنامِل ، ما هوَ كالقلم المُشَبّه بقَوْم عرُّوا عن لبوسهم ، ثم نُكسوا كما قيل على رُءُوسهم ، فكأن السيفَ خُلق من ماء دافق ، أو كوكب راشق مُقدراً في السّرْدِ ، فهو الجوْهرُ الفرْدُ ، لا يُشترى كالقلم بثَمَنٍ بَخْسٍ ، ولا يَبلى كما يَبلى القلم بسواد وطَمْسٍ ، كم لقائمه المُنتظر ، من أثرٍ في عين أو عين في أثرٍ ، فهو في جراب القوْم قوامُ الحرب ، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخِلَ الضرْب ، قال القلمُ :

أو من يُنشأ في الحلية وهو في الخصام غيرُ مُبين ، يُفاخرُ وهو القائمُ عن الشمال ، وأنا الجالس على اليمين ؟! أنا المخصوص بالرأي وأنت المخصوص بالصّدى ، أنا آلةُ الحياة وأنت آلةُ الرّدى ، ما لِنتَ إلا بعد دخول السّعير ، وما حُددت إلا عن ذنبٍ كبير ، أنت تنفعُ في العمر ساعة ، وأنا أفني العُمْرَ في الطاعةِ ، أنت للرّهب ، وأنا للرّغب ؛ وإذا كان بَصَرُكَ حديداً فبَصري ماءُ ذهب : أين تقليدُكَ من اجتهادي ، وأين نجاسةُ دَمك من تطهيرِ مدادي ؟.

قال السيفُ : أمِثلك يُعيّرُ مثلي بالدّماء ؟! فطالما أمَرْتُ بعض فِراخي – وهي السّكين – فأصبحت من النّفاثات في عُقَدِك يا مسكينُ ، فأخلَت من الحياة جُثمانك ، وشقّت أنفك وقطعت لسانك . ويكَ ! إن كنت للديوان فحاسِبٌ مهمومٌ ، أو للانشاءِ فخادمٌ لمخدوم ، او للتبليغ فساحرٌ مذمومٌ ، أو للفقيه فناقص في المعلوم ، أو للشاعر فسائلٌ محروم ، أو للشاهد فخائفٌ مسمومٌ ، أو للمعلم فللحيّ القيّوم . أما أنا فلي الوجه الأزهرُ والحلية والجوهر ، والهيبةُ إذ أُشهرَ ، والصعود على المنبر ، ثم إني مملوك كالك ، فإنك كناسك ، أسلك الطريق ، وأقطعُ العلائق .

قال القلمُ : اما انا فابن ماءِ السماء ، وأليف الغدير وحليف الهواء ، اما انت فابن النار والدخان وباترُ الأعمار وخوّان الإخوان تفصلُ ما لا يفصَلُ وتقطع ما امر الله به ان يُوصل ، لا جرم ان صَعَّر السّيف خده وصقَلَ قفاه ، وسُقي ماءَ حميا ، فقَطع مِعاهُ ، يا غُراب البيْن ، ويا عُدّة الحين ، ويا مُعتلَ العين ، ويا ذا الوَجهين ، كم افنيت واعدمت ؟ وارملتَ وأيْتَمْتَ ؟

قال السيف : يا ابن الطين ، ألست ضامراً وانت بطين ، كم جريت بعكس ، وتصرفتَ في مكس ، وزوّرْت وحرّفتَ ، ونكّرْتَ وعرّفتَ ، وسطّرتَ هجواً وشتماً ، وخلدْت عاراً وذماً ، ابشِر بفرط رَوْعتك ، وشدّة خيفتك ، إذا قِسْتَ بَياض صحيفتي بسواد صحيفتك ، فألِنْ خطابَكَ فأنتَ قصير المدة ، واحسن

جوابك فعندي حدة، وأقلل من غلظتك، وجبهك، واشتغل عن دم في وجهي بقبيح في وجهك، وإلا فأدنى ضربةٍ مني بروم أرومتك، فتستأصلكَ وتجتث جرثومتَك، فسقياً لمن غاب لك عن غابِك، ورعياً لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيفَ قد احتد، ألانَ له من خطابه ما اشتد، وقال : أما الأدبُ فيؤخذ عني، وأما اللطف فيكتسب مني، فإن لِنْتَ لِنتُ، وإن أحسنت أحسنت، نحن أهل السمع والطاعة، ولهذا نجمع في الدواةِ الواحدةِ منا جماعة، وأما أنتم فأهل الحِدة والخلافِ، ولهذا لا يجمعون بين سيفين في غلاف . قال السيف: أمكراً ودعوى عفةٍ؟ لأمر ما جدع قصير أنفه ! لو كنت كما زعمت ذا أرب، لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب، أنا ذو الصيت والصوت، وغِراريّ لسان مشرَفي يرتجل غرائب الموت، أنا مِن مارجٍ من نارٍ، والقلم من صلصالٍ كالفخار، وإذا زعم القلم أنه مثلي، أمرت من يدق رأسه بنعلي . قال القلم : صه فصاحب السيف بلا سعادة، كأعزلَ . قال السيفُ : مه فقلم البليغ بغير حظ مغزل، قال القلم : أنا أزكى وأطهر، قال السيف : أنا أبهى وأبهر ؛ فتلا ذو القلم لقلمه : إنّا أعْطيناكَ الكوْثَرَ، وتلا صاحب السيف لسيفه : فصَلّ لرَبّكَ وانحَر . فتلا ذو القلم لقلمه : إن شانِئك هوَ الأبتر، قال : أما وكتابي المسطور، وبيتي المعمور، والتوراة والإنجيل، والقرآن ذي التبجيل، إن لم تكف عني غرْبك، وتبعد مني قرْبك، لأكتبنكَ منَ الصُم البُكم، ولأسطرَنّ عليك بقلمي سجلاً بهذا الحكم، قال السيف : أما ومَتْني المتين، وفتحي المُبين، ولسانيّ الرّطبين، ووجهي الصلبين، إنْ لم تَغب عن بياضي بسوادك، لأمسخنّ وجهك بمدادك :ولقد كسبت من الأسد في الغابة، توقيح العين والصّلابة، مع أني ما ألوتُكَ نصحاً، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً؟قال القلم: سلّم إليّ مع من سلم إن كنت أعلى فأنا أعلم، وإن كنت أحلى فأنا أحلم، وإن كنت أقوى فأنا أقوم، أو كنت ألوى فأنا ألوم، أو كنت

أطرى فأنا أطربُ ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعتى فأنا أعتبُ ،أو كنت أقضى فأنا أقضب . قال السيْف: كيف لا أفضُلك ، والمقرُّ الفلانيُّ شادٌ أزري . قال القلم : كيف لا أفضلك وهو (عزَّ نصرهُ) وليّ أمرني ؟!

قال الحكمُ بين السيْف والقلم : فلما رأيتُ الحجّتين ناهضتين ، والبيّنتين بينتين مُتعارضتين ، وعلمتُ أنَّ لكلٍّ واحدٍ منها نسْبةً صحيحة ، إلى هذا المقرّ الكريم ، ورواية مُسْندةً عن حديثه القديم ، لَطّفتُ الوسيلة،ودقّقت الحيلة حتى رددْتُ القلم إلى كنّه ، وأغمدْتُ السيف فنام ملء جفنه ، وأخّرْت بينهما التّرجيح وَسكّتّ عما هو عندي الصّحيح ، إلى أن يَحكم المقرُّ بينهما بعلمه ، ويُسكّن سورة غضبهما الوافر ولجاجهما المديد ببسط حلمه .

مناظرة الآمدي بين صاحب أبي تمام ـــ وصاحب البحتري

صاحب أبي تمّام : كيف يجوز لقائل أن يقول : إن البُحتريّ أشعرُ من أبي تمّام ، ومن أبي تمام أخذ ، وعلى حذْوه احتذى ، ومن معانيه استقى ! حتى قيل الطائى الأكبر ، والطائي الأصغر !

صاحب البحتري : أما الصحبة له فما صحبه ولا تتَلمذَ له ، ولا رَوى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا رأى قط أنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعهما وتعارفهما عند (أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري) وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها * أفاقَ صَبٌّ من هَوى فأفيقا * وأبو تمّام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ، ما ظننت أحداً يقدِم على أن يسرق شعري ، وينشده بحضرتي حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحتري ، ورأى أبوم تمام الإنكار في وجه أبي سعيد . فحينئذ قال له أبو تمام : أيها الأمير والله ما الشعر إلا له ؛ وإنـــه

أحسن فيه الإحسان كلّه ، وأقبل يقرظه ويَصف معانيه ويَذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعَفَ له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يَعْرِفَ أنّ أبا تمّام جديرٌ به أن يستغنيَ عن أن يصحبه أو يتتلمذ له أو لغيره من الشعراء ، على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمّام ، لقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البُحتري من شعره وليس ذلك بمقتضٍ أن يكون أبو تمام أستاذ البحتري ، ولا بمانع أن يكون البحتري أشعر من أبي تمام . فهذا « كُثَيِّر » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا ان أحداً قال إن « جميلاً » أشعرُ منهُ بل هو عند أهل العِلم بالشعر والرّواية أشعر من جميل .

صاحب أبي تمام: إن البُحتري نفسه يَعترف ان ابا تمام أشعرُ منه ،فقد سُئل عنه وعن ابي تمام فقال : إن جيّده خيرٌ من جيدي ، وجيدُ ابي تمام كثيرٌ .

صاحب البحتري : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتري لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديدالاستواء،والمُستوي منالشعر أولى بالتّقدُمة من المختلف الشعر،وقد اجتمعنانحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحطّ انحطاطاً قبيحاً ، وأن البحتري يعلو بتوسّط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يُسِفُّ أفضلُ ممن يسقط ويسف .

صاحب أبي تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أوّلاً ، وإماماً متبوعاً ، وشُهِرَ له حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام ، وسَلَكَ الناس نهجه ، واقْتَفَوْا أثره ، وهي فضيلة عري عن مثلها البحتري .

صاحب البحتري : ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأوّل فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتذا حذوه ، وأفرط في ذلك وأسرف ، حتى زال عن النهج المعروف ، والسنن المألوف .

بل إن مسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسمُ البديع متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثر في شعره منها ، ولكنه حرص على أن يضعها في مواضعها ، ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى قيل إنه أول من أفسد الشعر ، فجاء ابو تمام على أثره واستحسن مذهبه ، وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً ، ففسد شعره وذهبت طلاوته ونشف ماؤه ، فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه إليه ، وكلُّ مـا في المسألة أنه استكثر منهُ وأفرط فكان إفراطه من أعظم ذنوبه ، وأكبر عيوبه .

أما البحتري فإنه مافارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاءفي شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتمحل سبباً في إجماع الناس على استحسان شعره واستجادته وتداوله ، ونفاقُ شعر الشاعر دليلٌ على علو مكانته ، واضطلاعه بما يلائم الأذواق ، ويلامس القلوب ، من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام : إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقة معانيه وقصور فهمه عنه ، أما النقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت هذه الطبقة فضيلته لم يضره طعنُ من طعن بعدها عليه .

صاحب البحتري : لا يستطيع أحدٌ أن ينكر منزلة ابن الأعرابي ، وأحمد بن يحيى الشيباني ، ودعبل الخزاعي من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب ، وقد علمتم مذهبهم في أبي تمام وازدرائهم بشعره ، حتى قال دعبل : إن ثلث شعره محال[1]

(١) المحال : الفاسد .

وثُلثه مسروق وثُلثه صالح، وقال: ما جعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخُطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر. وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام: إنْ كان هذا شعراً فكلام العرب باطلٌ. وهذ محمد بن يزيد المُبَرِّد: ما علمناه دَوَّنَ له كبير شيء.

صاحب أبي تمام: إن دُعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهورٌ فلا يُقبل قول شاعر في شاعر. وأما ابن الأعرابي فكان شديد التعصُّب عليه لغرابة مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يَفهمه ولا يَعلمه، فكان إذا سُئل عن شيء منها يأنَفُ أن يَقول لا أدْري فيعدِل إلى الطعن عليه.

ولا مانع أن يكون جميع من تَذْكرونه على هذا القياس.

صاحب البُحتري: لا عَيْبَ على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المُخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة، والعيبُ في ذلك يَلحق ابا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يجْهلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

صاحب أبي تمام: إنّ العلم في شعر أبي تمام، أظهرُ منه في شعر البُحتري، والشاعر العالم، أفضل من الشاعر غير العالم

صاحب البُحتري: كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمعي شاعراً عالماً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حيّان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقةَ من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء، والتجْويد في الشعر ليست علته العلم، والشائع المشهور انّ شعر العلماء دُون شعر الشعراء، وقد كان ابو تمام يعمل على ان يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب. اما البُحتري فلم يقصد هذا ولا اعتَمَده، ولا كان يعدّه فضيلة ولا يراه علماً، بل كان يَرى انه شاعر، لا بُدّ له ان يقرّب شعرَه من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب إلا أن يتّفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه، على أن هذا العلم

الذي تؤثرون به أبا تمام لم ينفعه ، فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيق العذر فيه ، ولا يجد المتأول له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبي تمام : لسنا ننكر أن يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره ، وعدل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه ، وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزلل في الأحيان وبل من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يسامح في سهوه ، ويتجاوز له عن أخطائه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرواة عن المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أشهر من أن يحتاج إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك وهؤلاء مجهول الحق ولا مجحود الفضل ، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم عن تقصيرهم .

صاحب البحتري : أما أخذ السهو والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عدة أبيات ، يكون فيها مفسداً أو محيلاً أو عادلاً عن السنن أو مستعيراً استعارة قبيحة ، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد ، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام : تنكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البحتري نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البحتري : لم لا يفعل البحتري ذلك ؟؟ وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين ، وأخوين متصافيين ، يجمعهما الطلب والمسب والمكتسب ، فليس بمنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يعطى في تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء ، أن جيّد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، وإذا كان جيّده بهذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطّراحه كأنّه لم يَقُله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره ، والبحتري واحد منهم .

صاحب البحتري : إنمـــا صار جيّد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدرته ، ووقوعه في تضاعيف الرّديء ، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيّد البحتري كجيّد أبي تمام ، إلا أنه يقع في جيّد مثله أو متوسط ، فلا يفاجىء النفس منه ما يفاجئها من جيّد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندي المبارك الجزائري

لـمّا أسفر النهار عن بياض الغُرة ،قابله الليل بسواد الطرة ثم صار الهزل جداً واشتدّ النزاع بينهما جدّاً ، فاستنجد كلٌّ منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغ حُمرة وردَته بصُفرة البَهار ، وخطر يَجُرُّ ذُيول تيهه وعجبه ، مَرصعاً تيجان مفاخره بدُرَرِ شهبه ، ثم قال : « والليْل إذا يَغشى » « إنّ في ذلك لَعِبرة لمَن يَخْشى » ففتح باب المناقشة في هــذا الفصل ، وعقد أسباب المنافسة بقوله الفصل «فإن الحرب أوّلها كلام» ثم تنجَلي عن قتيل ، أو أسير بكلام

ولما بلغ الليل غايته بَزَغ الفَجْرُ ورفع رايته ، وقال إذ جـال في مُعترك المنايا « أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا » فتقدم في ذلك الميدان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنَّهار إذا تَجَــلّى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شموس طلعته في الأرض والسماء ، فأعرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ،وما انحدر من مِنبره ، حتى أيد دعوى

خبره بشاهد مخبره ، فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلني خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقني مَثْوى لراحة العباد ، ومأوى لخاصة النسّاك والعباد ، ولله درُّ من قال فأجاد:

أيها الليلُ طُلْ بغير جُناحٍ ليس للعين راحةٌ في الصباحِ
كيف لا أبغض الصَّباح وفيه بانَ عني نور الوُجوه الصِّباحِ

أتردَّدُ على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتودَّدُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب ، تدور في ساحتهم بدورُ الحسن والبهاء ، وتدارُ من راحتهم كؤوس الأنس والهناء ، فتُحَيِّيهم نغمات السمر ، وتُحْيِيهم نسمات السحر ، فأحيانُ وَصْلي بالتهاني مُقمرة ، وأفنان فضلي بالأماني مُثمرة ، وحسبي كرامةً ، أني للناس خير لباس أقيهم بلطف الإيناس من كل باس ، ومَنْ واصل الإدلاج وهجر طيب الكرى قيل له (عند الصَّباح يَحمد القومُ السُّرى) :

وما الليلُ إلا للمُجِدِّ مَطيَّةٌ وميدانُ سبق فاستبق تبلغ المُنى

ففتن بمعاني بيانه البديع ، وتفنّن في أفانين التّصريع والترْصيع ثم أتم خطبته بالتماس المغفرة والعفو ، واستعاذ بالله من دَواهي الغفلة ودَواعي اللهو ، فوثب إليه (النهار) وصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ،وقد أضحى التيه لعطفه ثانياً ، فأثنى على من جلّى ظلمة الحجاب ، وتجلّى له باسمه النور وتوجه بسورة من الكتاب وزانه بأبْهى سراج وَهّاج ، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هَلاّ قصرت من إعجابك الذّيل ؟! ولئن دارت رحى الحرب واستعرت نار الطعن والضّرْب ، فلأُبيّنَنّ مخدراتك ،وهي عن الوُجوه حاسِرة وأنت تتلو يومئذ « تِلكَ إذاً كَرّةٌ خاسِرة » فما دعاك إلى حلبة المفاضلة ؟ وما دهاك حتى عرّضت بنفسك للمُناضلة ؟ وهل دَأبك إلا الخداع والمكر ؟! وترقب الفرصة وأنت داخل الوَكر ؟! أما حَضّ القرآن على التّعَوُّذ بِرَبِّ الفَلَق وندب « مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غاسِقٍ إذا

وقب » فـبرني يُستعـاذ من شَرِّك ، ويُستعانُ على صنوف صروف غدرك ، وهَبْ أنك تجمع المحبّ بالحبيب ، إذا جار عليه الهوى وحار الطبيب ، فكم يُقاسي منك في هاجرة الهجر ويَئِنّ أنين الثكلى حتى مطلع الفجر ؟!

يبيتُ كما باتَ السليمُ مُسَهَّدا   وفي قلبه نارٌ يَشُبُّ لها وَقْدُ

فيُساهر النجوم ، ويُساور الوُجوم ، وقد هاجت لواعج غرامه ، وتحركت سواكن وجده وهُيامِه ؛ فأنشد وزفيره يتصعد :

أُقضّي نهاري بالحديثِ وبالمنى   وَيَجْمَعُني والهمّ بالليل جامعُ
نهاري نهار الناس حتى إذا بدا   ليَ الليلُ هزّتني إليك المضاجعُ

على أن العاشق الوَلِه ، يشكو منك في جميع أحواله ، فكم قطع آناءك بمواصلة أنينه متململاً من فرط شوقه وحنينه ، فلما أنْ حُظِيَ بالوصال تمثّل بقول من قال :

الليلُ إن واصلَتْ كالليل إن هجرت   أشكو من الطول ما أشكو من القِصَر

ولئن افتخرت ببدرك الباهر الباهي ، فإنما تُباري ببعض أنواري وتُباهي ، وهل للبدر عند إشراق الشمس من نور ؟ أو لطلعة حسنه من خدور البُطون ظهور ! ومن ادّعى أنك تساويني في الفضل والقدر ! أو زعم أن الشمس تقتَبِس من مشكاة البدر ! ومتى استمدت الأصول من الفُروع « وما أغنى الشموس عن الشموعِ » فبي تنجَلي محاسن المظاهر الكونية ، وتتحلّى بجواهر الأعراض اللوْنية وأنّى يخفى حسني وجمالي على مشاهد؟ أو يفتقرُ فضلي وكمالي إلى شاهد! وعرْضي عار عن العار ، وجميع الحسن من ضيائي مُستعار ؟!

وليس يصحُّ في الأذهان شيء   إذا احتـاج النهار إلى دليل

أما كفاك بَيِّنة ، وزادك ذكرى وتبصرة ، قوله تعالى : « فَمَحوْنا آيةَ الليل وَجَعَلنا آيةَ النهارِ مُبْصِرة » و « هلْ يَستَوي الأعمى والبَصيرُ أم هل تَستوي

الظُّلُماتَ والنُّور ، وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور او إن كنت مغنى الأنس والأفراح ، تفعل بعقول الناس فعل الرّاح ، فهل حسبت أن السكون خير من الحركة ، وقد أجمع العالم على أن « الحركة بركة » فإن لي بكل خطوة حَظْوة ، وليس لجوادي كَبْوةٌ ، ولا لِصارمي نبوة وإن صرّحْتَ للذينَ يَبيتونَ لرَبّهم سجداً وقياماً ، معرّضاً بكل غافل لاه ، في كل مجالٍ رجالٌ لا تُلهيهِمْ تِجارةٌ ولا بَيْعٌ عن ذكر الله ، وأين من احتجب بظلماتٍ بعضها فوق بعض ، ممن أضحى ينظر بعين الاعتبار في ملكوت السموات والأرض ! وقد أتحفني الله بالصلاة الوُسطى فأوْترُ بها صلواتي ، وشرع فيها الإسرار لأسرار اختصت بها أهل جلواتي ، وكفاني شرفاً « شَهْرُ رَمضانَ الذي أُنزِل فيهِ القُرْآن » فمآثري مأثورة في القديم والحديث ، ومفاخري مَنثورَةٌ في الكتاب والحديث ومحاسِني واضحةٌ لأولى الأبصار ، وهل تخفى الشمس في رائعة النهار ! فاكفُف عن الجدال وأمْسِكْ ، ولا تجعل يومك مثل أمسك ، وسالِمْ من ليس لك عليه قُدْرة ، فقد قيل « ما هَلَكَ امْرؤ عَرَفَ قَدْرَه » أقول قولي هذا وأستغفر الله من آفة العُجْب والكبرياء ، ولمّا انهارَ رُكن النهار ، ابهارّ (الليل) وتَبَرْقع بالاكفِهْرار ، فسدّ ما بين الخافقين بسواده ، وطفِقَ يَرْمي بِسِهام جَدَله في جلاده وقدّم بين نجواه سورة القدر ، آية على ما حازه من كمال الرفعة والقدر ، وثنّى بقوله تعالى : « سُبْحانَ الذي أسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً » فأشار إلى الحبيب حين تَجَلّتْ له قرة عينه ليلاً ، ثم قال : سُحْقاً لك أيها النهار ، فقد أسّسْت بُنيانك على شَفا جرف هارٍ ، تُناضِلني ومني كان انسلاخُك وظهورك ، وتفاضلني وبي أرّخَتْ أعوامُك وشهورُك — ألم يأن لك أن تخشع للذكر [1] ! فتعترف برُتبة التقديم في الذكر [2] ، وكيف تُعيرني بلون السّواد ! وهل يقْبُح السواد إلا في الفؤاد ؟! أو كيف تَعيبُني

---

(١) الذكر : القرآن .

(٢) الذكر هنا : الشرف

بالخداع (والحربُ خُدْعة) وليس الشيء في موطنه بغريب ولا بِدْعة؟! أما تشهد العوالم من هَيْبَتي حيارى ؟ « وترى الناس سكارى وما هم بسُكارى »فكم أرّقتُ [1] ملوكاً أكاسرةً ؟ وأرَقت [2] دماء أسودٍ كاسرة ، وكم أوْرَيتُ نار الوغى تحت العجاج ؟ وقد ازورّت اللحاظ واغبرّت الفجاج ، فأنا البطل الذي لا يُصْطلى بناره ، ولا يأخذ منه الموتور بثـــاره ، وافتخارُكَ عليَّ بالصلاة الوسطى ، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً ، وهبْ أنـك انفردت بتلـك الصلاة الجليلة ، فأين أنت مما أُوتيتُه من الصلات الجزيلة ، أما كان افتراض الصلاة في ليلة العروج ؟! فما بالُكَ تدعي الارتقاء إلى هذه البُروج ؟!

وما أعجبَتْني قطُّ دعوى عريضة ولو قام في تصديقها ألف شاهد

وأمّا افتخارك عليّ بفضل شهر رمضان ، وما نزل فيه من السبع المثـــاني والقرآن ، فهل صحّ لك صيامه إلا بي بَدْءاً وختاماً ؟! وقـد تميّزْتُ عليك بفضيلة إحيائه تهَجُّداً وقياماً ، على أني محل النيّة « ونية المرء خير من عمـله » لأنها بمثابة الروح له ، وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله ، هذا : وإني أتكفّـــل للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر حتى يتبيّن له الخيط الأبيض من الأسود من الفجر ، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه في مزاياه عن المشاركة ؟ والله تعالى يقول فيه : « إنّا أنزَلناهُ في لَيْلةٍ مُبارَكةٍ » وهل في مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين ؟! أم على جناح جُنْحك أسْري بنور طلعة الكونين ؟! ثم عُرجَ بـه عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسيْنِ وهل في تجليـات أسحارك يقول الرب : هل من سائل ؟ فيُناجيه العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل .

ومما اختصصت به من الفضائل والمفاخر ، أنه في دولتي وُلد سيد الأوائل والأواخر ، وناهيك بليالي شهر الله رجب ، وكيف لا وفي طالعها السعيد حملت آمنة بسيّد العَجم والعرب .

---

(١) أرقت : أسهرت . (٢) أرقت : أسلمت .

فطلع (النهار) طلوع الأسد من غابه ، وكسر جيوش الدجى حين كشّر عن نابه ، وشمّر للحرب العَوان غيرَ ناكلٍ ولا وانٍ ، ناشراً في الأفق رايته البيضاء وأسنّته لامعة بين الخضراء والغبراء ، وقال : والذي كساني حُلل الملاحة ، وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة ، لأمحوَنّ سطور الدجى من طُروس الوجود ، ولأثبتن حسن أحوالي في مقامات أهل الشهود ، فإني معروف بالوفاء وصدق الخبر، موصوف بالصفاء الذي لا يشوب صفوه كدَر ، كيف يُباهيني (الليل) بمكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وأنا أتحدث بنعم الله وهو موسوم بكفُران النِّعم ؟ ألست مظهرَ الهداية والدلالة ، وهو مظهر الغَواية والضلالة؟! فكم أرشدت مَن أضله ، وأعززت من أهانه وأذله ، وكم أظهرت منه عيباً كان غيباً ، فابيضت عيناه حُزْناً « واشتعل الرأس شَيباً » :

ومن جَهِلَتْ نفسه قدرَه رأى غيره منه ما لا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الآبق أنه لسَيّده في حلبة الشرف سابق ، وقد قال الواحد القهار : « ولا الليلُ سابقُ النهارِ » إن هو وأيم الله إلا كافر ، وبشموس أنوار الشهادة غير ظافر ، لو كان من السُّعداء لفاز بدار النعيم ، ولولا شقاؤه لما شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يؤمّله من الجزاء ويرجوه «يوم تَبْيَضُّ وجوه وتسودُّ وجوه» ، أما دري أن صحيفته سوداء مظلمة ، وصحيفتي تفصح عن نفسٍ مؤمنة بالله مسلمة ! وأنى يرقى كتابه إلى عليّين ، وهو من ظلمات الحجاب في سِجّين !.

ثم أقبل عليه ، وأنشد مشيراً إليه :

يا مُشبهاً في فِعله لونَه لم تَعْدُ ما أوجبت القِسْمة
خُلْقُك من خَلْقك مستخرجٌ والظلم مُشتق من الظلمة

وقال : كيف تدعي فوق حالك ، وأي فضل لمن منظره أسود حالِك !.

أما علمت أن الظاهر للباطن عنوان ، كما ان اللسان عن الجنان ترجمان قال أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : «ابتغوا الخير عند حِسان الوجوه» وقال الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه   في وجهه شاهدٌ من الخبر

فأنا مِفتاح خزائن الأرزاق ، وبي يُستفتح بابُ الكريم الرزاق ، وكفاني دليلا على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميل يُحب الجمال » لقد سمعتُ أقاويلك التي قدمتها بين يديك ، وزعمتَ أنها حُجّة عليك[1] ، ولا جرم أن « لسان الجاهل مفتاح حَتْفه » ، وكم من باغ قُتل بصارم بغيه وحَيفه ـ أما انسلاخي منك فمن أملَح الملح لي والغُرَر ، وهل تحق لأصناف الأصداف أن تُنافس نفائس الدُّرر؟ أليست « تلدُ الأمة ربتها حُرَّة نجيبة » وقد قالوا : « إن الليالي حَبالى يلِدْن كل عجيبة » وأما تقدُّمك عليَّ فمن العادة تقدم الخدم بين يدي السادة :

أو ما تُرى أن النبيَّ محمداً   فاقَ البريَّة وهو آخر مُرْسَل

على أنه « أولُ ما خلق الله النورَ » كما ورد عن جابر في الخبر المأثور .

وأما تحلّي صفوتك بتجلّي الحق تعالى في السَّحَر ، فليس إلا لمن أحيا أحيانك بالمجاهدة والسهر ، وأما زَهْوُك بقصة ظهور سيد ولد آدم الذي هو نتيجة مقدّمات الكون وزُبدة العالَم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ، وأنّى لك هذا ، وصَبْح طلعته تمحو سوادك الحالك ، وأما خبرُ الإسراء فعني رَوته الأمة[2] ثم بلّغه الشاهد للغائب بعد أمة[3] ؛ فما لاحت أسراره إلا بمطالعي ، ولا زاحت أستاره إلا بطوالعي ، وما أشرْتَ إليه من بقية معانيك التي أضاءت بها في الخافقين نجومُ معاليك ، فأين أنت من يوم عرَفة ، الذي عرفه بأبهى الخصائص مَن عرفه ، وأين أنت من يوم عاشوراء ، الذي يَعظم فيه الشكر والصبر على السراء والضراء ! وناهيك بسمُو شأن العيدَين ، فما أجلّهما من موسمين سعيدين ، وكيف تُفاخرني بساعة تبدو منك مرة في كل عام ، ولي كل

---

(١) هكذا بالأصل والأصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .

(٢) الأمة : أهل الدين .   (٣) الأمة : الحين من الدهر ، أي مدة ، أو وقت .

أسبوع أمدٌ تمتد فيه موائد الجُود والإنعام فأخبارُ أخباري سارت بها الركبان، وماسَت بنسيم رِقتها معاطف البيان، وقدري فوق ما تصفه الألسُن، وعندي « ما تشتهيه الأنفُس وتلذ الأعيُن » فدَع عنك قول الزور والميْنِ « فقد بيَّن الصبح لذي عينين ».

ولمَّا افاض (النهار) في حديث يفضح الأزهار، أبدَع في كِنايته وتلويحه، وأعرَب في تعريضه وتصريحه ـ ابتدَر إليه الليل (وأجلب عليه بالرَّجل والخيل) وامتطى جواده الأدهم، واعتم بعمامة سوداء وتلثَّم، فأنسى بفتكاته عنترة بني عبس، حين أمسى بتوعّد عمارة بالقتل والرمس، ثم نشر في الأفق ذوائبه السود، وعَبس وبَسر فأسرَ بسطوته الأسود، وقال: « فلا أُقسمُ بالشفقِ، والليلِ وما وَسَق، والقمرِ إذا اتسَق » لأسبينَّ رُوميَّ النهار، ولأجعلنه عبرة لذوي الاعتبار فلقد تزَيّا المملوكُ بزيّ الملوك، وادّعى مقام الوُصول إلى صاحب السيْر والسلوك، أمّا كفاه اردرائي وتحقيري ؟! حتى حكم بتضليلي وتفكيري ! كم أسبَلت على عَوْراته ذيلَ ستري، وهو لا يُبالي بهتك أستاري ؟! وكم أوْدعتُ مكنون سرّه في خزانة سرّي، وهو يبوح بمصون أسراري ! أفٍّ له من فاضح أما يكفيه ما فيه من المفاضح ؟!

أنَمّ بما استوْدعتَهُ من زجاجةٍ ... يُرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن

كيف احتج لتقدمه بحديث جابر، مع أن ما رواه لِكسْري أعظمُ جابر، فإنه برهنَ على تقدُّمي عليه لو أدرك سر ما أومأ إليه، وعلامَ جعل السوادَ على النقص علامة، وهو مُشتقٌ من السؤدّد لدى كل علاّمة ؟ أما درى أني حُزتُ من الكمال الحظ الاوْفر، حتى تحلى ببديع وصفي العنبرُ والمسكُ الأذفر !

إن كنتُ عبداً فنفسي حُرة كرماً ... أو أسودَ الخلق إني أبيض الخُلق

وهل يُزري بالخال سواده البارع، أو يُغري بالبرص بياضه الناصع، وفي بياض المشيب عبرة وأي عبرة، فكم أجري من الآماق أعظم عَبرة.

له منظرٌ في العين أبيضُ ناصع ولكنه في القلب أسود أسفَع

ومَن عاب نعْت الشباب، وفضّل وصفَ الشيب، فقد غاب عن شهود العَيب وعالِم الغيب «فما كلُّ بيضاء شَحْمة ولا كلُّ حمراء لحمة» ولمّا أنهى مقالته، ومَل مقامه شمّر للرّحلة أذياله، وقوّض خيامه؛ فتهلل وجه الصباح، وهلل بذكر فالق الإصباح وازدهاه السرور والابتهاج، كأنه ربُّ السرير والتاج:

فكأن الصبح لمّا لاح من تحت الثّريّا
مَلِكٌ أقبَل في التا ج يُفدّى ويحيّا

وبَرز إلى المبارزة من بابها، إذ كان في فُرسانها وأربابها، فسلب (الليل) لباسه، وأذاقه شدته وبأسه، وقال له: ايها المعجبُ بنفسه، المغرب في نقشه صيحفة زُوره بنِقسه[1] «ما كل سوْداء تمرة، ولا كل صَهْباء خمرة» ألم تعلم أيُّنا أبهى مُحيّا، وشتّان ما بين الثرَى والثريّا، أين سوادك من بياضي؟! وما زهر نجمك إن تتلألأ زهر رياضي! وكم أطلعت بُدوراً في مواكب السيارة، فأضحت تزهو بجماله على الكواكب السيارة، وهل لك مثل الغزالة؟ التي انفردت في الملاحة لا محالة! فأنا الذي ضاء صباح الصباحة من مُحياه، وضاع عبير العنبر من نشر أنفاسه وطيب ريّاه؛ ولولاي ما عُرِف الحُسن والجمال، ولا سعى على وجه الأرض بدر الكمال. فتوَجّم (الليل) لبراعة تلك العبارة، وبلاغ ما لاح له من الرّمز والإشارة، ثم وثبَ للمقال كأنما أُنشط من عِقال، وقال: «رُبّ ملوم لا ذنب له» ومظلوم خيب الدهر أمله، فإلى متى يسوءُني النهار؟ وحتى مَ يسومني عذاب النار، طالما أعرتُه أذناً صمّاء، وعيناً عمياء، وهو لا يَنثني عن المقابلة، ولا يرْعوي عن المحاربة والمقاتلة، أما تعلم أيها المُغتر ببياضك أن السواد حلية أهل الزهد والصلاح، وهل يسترقُّ الأسْودَ إلا سُودُ أحداق الملاح! بيَد أن الحر لا يُبالي بالجمال الظاهر وإنما يباهي بالفضل

(١) النقش: ما يكتب به من مادة؛ يريد سواده.

الجميل ، والقلب الطاهر ، فإن تفاوُت المراتب ، بحسب تفاوت المناقب .

وما الحسن في وجه الفتى شرفٌ له   إذا لم يكن في فعـله والخلائق

وكم أعددتُ للأنس مقاعد ، وفي الأمثال : « ربَّ ساع لقاعد » فإن ظِـلي ظليل ونسيمي عليلٌ بليل، تهدأ بي الأنفاس وتسكُن الأعضاء والحواس. فقام (النهار) يعثر بذيله ، وقد كفكفَ واكِف سيله، فما لبث أن تنفّس الصباح ، وأظهر من سناه ما أخفى ضوءَ المصباح ، ورفرف بجناحه الابيض على الدُّجى ، فاقتنصه من وكره بعدما سكن وسَجا :

فكأن الصباح في الأفـْق بازٌ   والدُّجى بين مِخْلبَيه غـُرابُ

وقال: تبّاً لك أيها (الليل) فلقد أوتيتَ من المَيْن أوفر نَيل، اي حديث لك صحيح وضعتَه ، وأي حق لك صريح أضعْتَه ؟!

عليك بالصدق ولو أنـه   أحرقَكَ الصدق بنار الوعيد
وابْغِ رضا الله فأغبَى الورَى   من أسخطَ المولى وأرضى العبيد

نعم لك في السمر خبرٌ مرفوع ، بيد أنه مكروه في السُّنة موضوع ، قـد اشتهرتَ لكن بأقبح الاوصاف ، وعدلْتَ لكن عن سبيل العدل والإنصاف، تكتم عن المرءِ ما يُرْديه « وتخفي في نفسك ما اللهُ مُبديه » وفي المثل : « الليل أخفى للويل » فما أصعبَ مراسك قبل افترار سُهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا غافل ؟! وأنـّى يفتر بك عاقلٌ ، ونجمك آفل ؟! وكيفَ تفتخر عليّ ، وأنت تفتقر إليّ ؟!

ولمّا سلـَب النهار بأساليب بيانه العقول، سكت الليل مَلياً ثم أنشأ يقول :

فعين الرِّضا عن كل عيب كليلةٌ   كما أن عينَ السُّخط تُبدي المساويا

كيف أتصدّى للكذب ، وأتردّى باللهو واللعب !! وأنا المنعوت باللـُّطف والظرف والموسوم بالصمت وغضّ الطرف، كيف أورث الغـُرور، وأوثر الغفلة على الحضور ، وأنا الداعي لذكر الله وحده ، والساعي في ردّ الكثرة الوهمية إلى عين

الوَحْدة وأنا الموصوف بالسَّتْر الجميل ، والمعروفُ بشكر المعروف والجميل ، وهل أحْجبُ البصر عن شُهود عالـَم الكثافة ، إلا لأكشفَ لعين البصيرة عن عالـَم اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وُجوده ، فيَمدّه الربّ تعالى بسر بقائه من خزائن جودِه . ثم قال (النهار لليــــل) وقد هجم عليه هُجوم السيل : أيها المدعي مقام الدَّعْوة إلى الله ، وهو في حال الغفلة عن مَوْلاه لاه ، كيف تَسنَّمْتَ ذُرْوة هذا المنبر ؟ كأنك تكتُبُ بالمِسْك وتختمُ بالعنبر ! لقد أطلت فيما « لا طائل تحته » ولا مَعنى ، فكم ذا «أسمَعُ جعْجَعة» ولا أرى طحْناً » فلو كنت ممن انتخب غُرر الشِّيم وانتَقى ، لاتـّعظت بقوله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هُوَ أعلَـم بمن اتَّقى »فتنبَّه من غفلتك أيها « الليل » قبل أن تدعو بالثُّبور والويل ، وإلا فرَّقتْ طلائع سوادك أي تفريق ، ومزّقت سوابغَ ظلامك أي تمزيق « فما كلُّ مَرَّة تَسلَم الجرّة » . فاسودّ وجه الليل ، وانقلبَ « بحَشَف وسوء كيل » وندم على مُناضلة النهار ، ندامة الفرَزْدَق حين فارَق النّوّار [1] ولما سُقِط في يَدِه ،ورُزِىء في عَدَده وعُـدَده ، تردى بالسواد ، ولبِس ثياب الحِداد ، ثم لاح هلاله للعين ، كمِنْجَل صيغ من لجُين

انظُر إلى حُسْنِ هلالٍ بدا يَجلو سَنا طلْعته الحِنْدِسا
كمِنْجَل قد صيغ من فِضَّةٍ يَحْصُدُ من زَهْر الدجى نرجسا

(١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها في مجلس عبد الملك بن مروان—وذلك أن الفرزدق قال في المجلس وفيه جرير — النوار طالق ثلاثاً إن لم أقل بيتـــاً لا يستطيع جرير أن ينقضه أبداً فقال عبد الملك : ما هو ؟ فقال :

فـــإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله

فقال جرير أم حرزة طالق منه ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال عبد الملك هات . فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس، وطلق عليك .

وقال : مَنْ يُنصفني من هذا الجائر؟ويُنصِتُ لي فأبثُه شكوى الواله الحائر

فحتّام أعاني حدّ الظُّبا ، وقد بلغَ السّيلُ الزُّبى

وكنت كالمُتَمني أن يرى فَلَقاً من الصّباحِ فلما أنْ رآه عمي

فانتبهَ طرفُ (النهار) وازدهر سراجهُ أيّ ازدهار ، وشَرع يتلو سورة النور بكمال الابتهاج ، والشّمسُ ترقمُ آية جماله بالذهب الوهاج

وقابل الصُّبحُ جُنْحَ الليلِ فارتَسَمَتْ سُطورُه البيضُ في ألواحه السُّود

ثمّ قال أيها « الليل » البهيم «تالله إنّكَ لفي ضَلالِكَ القديم» كيف تدّعي أنّك مظلوم ، وتشتكي من جوْري وأنت الظّلوم ، وهبْ أني قاتلْتُكَ ظلماً فأنت البادي ، وهل قابلتك إلا بما واجهتني به في المبادي ، وها أنا برْهَنتُ على فضلي بشهود عُدول ، ليس للمنصف عن تزكية شهادتهم عُدول ، فاستقلْ من دعوى المجد والفخر ، «فقد حصْحص الحقُّ » ووضح الفجر ، وإن أبيت سلوك محجّتي ولم تتضح لك أدلة حُجّتي ، فهلم إلى « حضرة الأمير » ولا ينبئك مثل خبير . فأنكر الليلُ زعمه التفرد بالفضل وادعاءه ،وأجاب في عرض أمرهما على (الأمير) دعاءه ، وقال : على الخبيرِ سقطت وعند ابن بجدتها حططت .

وكتب أيضاً في مناظرة بين الأرض والسماء

جالت السماء في ذلك المضمار وصالت ، ونوّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك الذي جعل في السماءِ بُروجاً ، ومنح أشرف الخلقِ إليّ عُروجاً ، وقدّمني في الذكر في محكم الذكر ، وشرّفني بحسن القسم ، وأتحفني بأوْفر القسم ، وقدّسني من النقائص والعُيوب ، وأطلعني على الغوامض والغُيوب ، وقد ورد أنّ الرّب ينزل إليّ كل ليلة ، فيولي من تعرض لنفحاته بره ونيله . فيا لها من تحفةٍ جليلة ومنحة جزيلة يحقُّ لي أن أجرّ بها ذُيول العزة والافتخار ، وكيف لا والوجود بأسره باسطٌ إليّ أيدي الذلة والافتقار ، فلي العز الباذخ ، والمجد الأثيل الشامخ ، لتفرّدي بالرفعة والسمو وعُلوّ المنزلة دون غُلوّ . فقالت لها «الأرض» . ويلكِ لقد

أكثرث نزراً وارتكبت بما فهت به وزراً، أما إنه لا يُعجَبُ بنفسه عاقل، ولا يأمنُ مكر ربه إلا غافل، ومن ادّعى ما ليس له بقوله أو فعله، فهلاكه أقربُ إليه من شراك نعله، وقد قيل: «من سعادة جدّك، وقوفك عند حدّك» ومن فعلَ ما شاءَ لقي ما ساء، أو ما كفاك أن خطرت في ميادين التيه والإعجاب! حتى عرضت لشتمي «إنّ هذا لشيءٌ عُجاب»! وهل اختصك الله بالذكر؟ أو أقسم بك دوني في الذكر؟ أو آثرك بالتقديم، في جميع كلامه القديم، حتى تردّيت بالكبرياء وتعدّيت طورَ الحياء!

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تستحِ فاصنع ما تشاءُ
فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكيف تزدرين أهلي بالذنوب والمعاصي؟ وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي؟ فقابلتها «السماء» بوجه قد قطبتْه، ومِجَنّ قد قلبته، وقالت لها في الحال: أيتها القانعةُ بالمحال، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مُبارزة مثلي، وتنكرين عليّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدي وفضلي، وهل خلتِ أن التحدثَ بالنعم مما يلام عليه؟ مع انه أمرٌ مندوبٌ إليه؟ ومن أمثال ذوي الفطنة والعقل «ليس من العدل سرعة العذل» وكيف جحدْت ظهور شمس كمالي؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لي! ولكنّ لك عندي عُذراً جليّاً، وإن كنت «لقد جئت شيئاً فريّاً»

قد تنكر العينُ ضوءَالشمس مِنْ رَمَدٍ ويُنْكِرُ الفَم طعم الماء من سَقم

ولو رأيت ما فيك من المساوي عياناً، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عناناً. فأنّى تفوزين بأشرف الأقدار، وأنت موضع الفضلات والأقذار؟ وما هذا التطاولُ والإقدام، ووجهك موطىء النعال والأقدام، إن هذا إلا فعل مكابر، دعوى عريضة وعجز ظاهر، وهل يحق للكثيف أن يتغالى على اللطيف، أم ينبغي للوضيع أن يتعالى على الرفيع! فقالت لها «الأرض»: أيتها المُغترة

بطوالع أقمارها والمُعْتَزّةُ بلوامع أنوارها « ما كلّ بيضاءَ شَحْمَة ، ولا كل حمراءَ لحمة » فبمَ تزعُمين أنك أتقى مني وأنقى ، وما عند الله خيرٌ وأبقى ، وأنت واقفةٌ لي على أقدام الخدْمة جارية في قضاء مآربي بحسب الحِكمة ، قد كفّلك الحق بحمل مَؤُونتي ، وكلّفك بمساعدتي ومعونتي ، ووكلك بإيقاد سراجي ومصباحي ، ووكلك إلى القيام بشؤوني في ليلي وصباحي ، وليس عُلوُّكِ شاهداً لك بالرتبة العَلِيّة ، فضلاً عن أن يوجبَ لك مقام الأفضلية — فما كل مُرْتفع مَجد ، ولا كلُّ مُتعاظم ذو شَرف ومجد

وإن علاني مَن دوني فلا عَجبٌ   لي أسوة بانحطاطِ الشمس عنْ زُحل

فمن أعظم ما فقتُ به حسناً وجمالا ، وكدْتُ بإخْمصي أطأ الثريا فضلاً وكمالا تكوينُ الله مني وجود سيّد الوُجود ، فأفرغَ عليّ به خلع المكارم فهو بدر الكمال وشمسُ الجمال :

وأجملُ منك لم تر قط عينٌ   وأكملُ منك لم تلد النّساءُ
خُلقت مبرءاً من كل عيْب   كأنك قد خلقت كما تشاء

فأكرم به من نبي أسَرّني به وأرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماءً ولا أرضاً وجعلني له مسجداً وطهوراً ، وأقرّ به عيْني بطوناً وظهوراً.

فأبرَقت « السماءُ » وأرعدَتْ ، وأرغتْ وأزبدَتْ ، وقالت : إن لم تتخطّى خطّة المكابرة وتتخلي عن هذه المثابرة ، لأغرقنّك في بحر طوفاني ، أو أحرقنّكِ بصواعق نيراني ، وهل امتطيت السماكين ، أو انتعلت الفرْقدَين ، حتى تفتخري عليّ ، وتشيري بالذم إليّ ، وتلك شهادة لي بالكمال ، ولقد صدق من قال :

وإذا أتَتْكَ مَذمتي من ناقص   فهي الشهادة لي بأني كامل

أم حسبت أن لك في ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه اللّجّة وكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارنَ أنفه بكفّه

لكل داءٍ دَواء يُستَطَبّ به   إلاّ الحماقةَ أعْيَت مَن يداويها

أمّا دعواكِ أني واقفةٌ على أقدام الخِدْمة ، فهي مما يوجِبُ عليكِ شكر الفَضْل والنّعمة ، فلو تفكرتِ أنّ خادم القوم هو السيد والمولى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أو تَدَبّرتِ أنّ « اليد العُليا خيرٌ من اليد السفلى » لاسْتقلت من هذا الفضول ، فإنّ قيامي بشؤونك أوضحَ أمارة — وأما قولك: مني سيد الوُجود ، ومن اصطفاهم لحضرته الملكُ الوَدودُ ، فإن كنت تفتخرين بأشباحهم الظاهرة ، فأنا أفتخرُ بأرْواحهم الطاهرة ، أمّا علمتِ أنها فيملكوتي تغدُو وتروح ، وبوارِدَيْ [1] بَسْطي وقبضي تَشْدو وتَنوح ، فأنا أوْلى بهم ، وأحرى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأرض من السماء مقالة تقطرُ من خلالها الدّماءُ ، أطرقت لمحة بارقٍ خاطف ، أو نُغبةَ [2] طائر خائف ، ثم قنّعتْ رَأسها ، وصعّدت أنفاسها وقالت : لقد أكثرتِ يا هذه اللغط ، وما آثرتِ الصواب على الغَلط ، فعلامَ تهزئين بي وتستخفّينَ بحسبي ونسبي؟ وإلامَ تنقُضين عُرى أدلتي ، ولا تُعامِلينني باللتي ؟ وحتّام تقابلينني بأنواع التأنيب ، ولِمَ لا تقفي على حقيقتي بالبَحْث والتنقيب ؟ أحسبتِ أن الجسم ما خُلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلا جَدثاً ؟ وفي ميدانه تتسابق الفُهوم ، وتُدرك عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترقى الأرواح في مراقي الفلاح .. وكيف لا يكون مقدساً من كلّ غي ومينْ؟ وهو لا يَفتُرُ عن تسبيح بارئهِ طرفة عيْن ! وإلى متى أنتِ عليّ مُتحاملة ؟ وعن آية العدْل والإحسان مُتماحلة ؟ وأنا لكِ أسمعُ من خادم ، وأطوَع من خاتم ، على أن لي من الفضائل ما ثبت بأصح البراهين والدلائل ، أما فيّ بقعةٌ من أشرف البقاع على الإطلاق ، لضمّها أعضاء مَن تمّمَ اللهُ به مكارم الأخلاق ! وفيّ روضةٌ من رياض الجنّة ، كما أفصحتْ عن ذلك ألسنةُ السُّنة ، ومني الكعبة والمشعرُ الحرام ، والحجر وزمزَم والركنُ والمقام ، وعَلَيّ بيُوتُ الله تُشدُّ

---

(١) وارد : طريق . (٢) النغبة : الجرعة .

إليها الرّحال ، ويسبّحُ فيها بالغُدُوّ والآصال رجال ، وأخرَجَ مني طيّبات الرزق فأكرمَ بها عبادهُ ، وأتمّ نِعمتَهُ عليهم فجعل الشكر عليهـــا عِبادة ؛ وناهيكِ بما اشتملت عليه من الرّياض والغياض ، ذات الأنهار والحيــاض . التي تَشفي بنسيمها العليل ، وتنْفي بِبرد زُلالها حرّ الغَليل

لِمَ لا أهيمُ على الرّياضِ وطيبها ... وأظلُّ منها تحت ظِلٍ ضافِ
والزهرُ يَضحك لي بثغر باسم ... والنّهرُ يلقـــاني بقلبٍ صافِ

فأسفرتْ عن بدر طلعتِهـــا « السماء » وهي تزهُو في بُرود السّنا والسناء ، وقالت تناجي نفسها عند ما رقّ السّمر ، حتّامَ أريها السهى وُتريني القَمر ؟ ثم عطفتْ عليها تقول ، وهي تسطو وتصول : أيتها المتعديةُ لمُفاضَلتي ، والمتصدّية لمناضلتي مَتى قِيس التراب بالعسجد ؟ أو شُبّه الحصى بالزبرجد ؟ ! إن افتخرتِ بشرف هاتيك البقاع التي زَها بها منك اليَفاع والقـــاع ، فأين أنت من عرش الرّحمن ؟ الذي تعكفُ عليه أرواحُ أهل الإيمان ؟ وأين أنت من البيت المعمور ! والكرسي المكلّل بالنّور ؟ ! وكيف تفتخرين علي برَوْضة من رياض الجنة ، وهي عـليّ بأسرِهـــا فضلاً من الله ومِنّة ! أم كيف تزْعمين أنه كُتِب لك بأوفر الحظوظ ، وعندي القلم الأعلى واللوح المحفوظ ؟ وأما ازدهاؤك بالحِياض والأنهار ، والرياض المبتهجة بوُرود [1] الورد والأزهار فليتَ شِعري هل حويت تلك المعاني إلا بنفحات غُيوثي وأمطاري ؟ ! أم أشرقت منك هاتيك المعاني إلا بلمحات شموسي وأقماري ؟ ! فكيف تُباهينني بمـــا منحتُكِ إياه ، وعطّرتُ أرْجاءك بأريج نَشره وريّاه ؟ ! ويا عجباً منك كلما لاحَ عليّ شعار الحزن ، خطرتِ في أبْهى حُلة من حُلل الملاحـة والحُسن ، وإن افترّت ثُغور بدور أنسي ، وقرّت ببديـع جمالي عينُ شمسي ، زَفرت زفْرة القيظ ، وكدت أن تَتَميزي من الغيظ ، ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء ؟ ! وهل صفت أوقاتُك إلا بوجودي ، او طابت اوْقاتك إلا بوابـــل كرمي وجُودي ؟ ! ولوْ قطعتُ

(١) وردث الشجرة وروداً إذا اخرجت وردها .

عنك لطائف الإمداد لخلعت ملابس الأنس ولبست ثياب الحداد ! او حجبتُ عنك الشموس والأقمار لما ميّزت بين الليل والنهار ! فهلا كُنْتِ بفضلي معترفة حيث إنكِ من بحر فَيْضي مغترفة ؟! فنَزَعت « الأرض » عن مُقاتلتها ، وعلمت انها لا قِبَل لها بمقابلتها ، وحين عجزت عن العوم في بحرها، واستسلمت تمائمها لسحرها، بسطت لها بساط العتاب، متمثّلةً بقول ذي اللطفِ والآداب :

إذا ذهبَ العِتابُ فليسَ وُدٌّ   ويَبقى الوُدُّ ما بَقيَ العِتابُ

ثمّ قالت : اعلمي ايتها الموسومة بسلامة الصّدر ، الموْصوفة بسموّ المنزلة وعُلوّ القدر ، ان الله ما قارنَ اسمي باسمك ، ولا قابل صورة جسمي بجسمك، إلا لمناسبة عظيمة ، وأُلفةٍ بيننا قديمة ، فلا تُشمِتي بنا الأعداء ، وتُسيئي الأحبّاءَ والأوِدّاء ، فإنّ ذلك من اعظم الرّزايا ، وأشدّ المِحَن والبَلايا

كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى   فتهونُ ، غيرَ شماتة الأعداءِ

ألا وَإنّ العبدَ محلُّ النّقص والخلل ، وهل يسوغ لأحدٍ ان يُبرّيء نفسه من الزّلل ؟! وَمَن ذا الذي يسلم من القَدح ، ولو كانَ اقومَ من القِدْح [1]

وَمَن ذا الذي تُرضي مزاياهُ كلها   كفى المرءَ نبلا ان تُعدّ معايبُهْ

هذا ، وإنّ لي مفاخرَ لا تُنكر ، ومآثرَ تجلُّ عن ان تحصر ، كما انك في الفضل اشهرُ من نارٍ على عَلَم ، وأَجلُّ من ان يحصي ثناءً عليك لسانُ القلم ، فإلى متى ونحنُ في جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأسِنة ألسِنة حِداد ، وهل ينبغي ان يجُرّ بعضُنا على بعض ذَيلَ الكِبرِ والصَّلَف ، عفا اللهُ عمّا سلَف ، وهذه لعمري ، حقيقة امري ، فانظري إليّ بعينِ الرّضا واصفحي بحقّك عمّا مَضى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التي تجنَح إلى طلب السّلم والإقالة، قالت لها: مآربُ لا حفاوة، ومشربٌ قد وَجَدتُ لهُ حلاوة، وما ندَبت إليه من المودة

---

(١) القدح : بكسر القاف السهم قبل ان يراش ويركب نصله .

والألفة ، فلأمرٍ ما جدّع قصيرٌ أنفه ، ولو لم تلتقي إليّ القيساد ، لعاينتِ مني ما دونه خرْط القتاد ، ولكن لا حرج عليك ولا ضير ، فإنك اخترت الصلح والصلحُ خير ، وكيف جعلتِ العتاب شرطاً بين الأحباب أو ما سمعت بعض أولي الألباب :

إذا كنتَ في كلّ الأمور معاتباً صديقك لم تلقَ الذي لا تعاتبهْ
وإن أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئتَ وأيّ النّاس تصفو مشاربه

وها أنا رادّة إليك عوائد إحساني ، وموائدَ جودي وامتناني ، فقرّي عيناً وطيبي نفساً ، وتيهي ابتهاجاً وأنساً ، وأبشري ببلوغ الوطر ، وزوال البؤس والخطر ، فسجدت الأرض شكراً ، وهامت نشوةً وسكراً ، وتهلّل وجهها سروراً ، وامتلأت طرباً وحبوراً .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٤٠١ هـ

قال الرّبيع : أنا شابُّ الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان [١] عين الإنسان أنا حياة النفوس ، وزينة عروس الغروس ، ونزهة الأبصار ، ومنطق الأطيار ، عرف [٢] أوقاتي ناسم ، وأيامي أعيادٌ ومواسم ، فيها يظهر النّبات ، وتنشر [٣] الأموات ، وتردُّ الودائع ، وتتحرّك الطبائع ، ويمرح [٤] جنيب [٥] الجنوب [٦] ، وينزح [٧] وجيب [٨] القلوب ، وتفيض عيون الأنهار ، ويعتدل الليل والنهار ، كم لي عِقدٌ منظوم ، وطراز وشيٍ مرقوم ، وحلّة فاخرةٌ ، وحيلةٌ ظاهرة ، ونجم سعد يدني راعيه من الأمل ، وشمس حسْنٍ تنشدنا [٩] : «يا بُعد ما بين بُرج الجدْي [١٠] والحمَل [١١] »عساكري منصورة ، وأسلحتي مشهورة فمنْ سيف غصْنٍ

(١) ما يرى في سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) مجنوب ، والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا (٦) ريح تخالف الشمال ومنه إذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد ويذهب (٨) خفقانها (٩) تقول لنا من إنشاد الشعر (١٠) برج في السماء وهو أحد البروج الاثني عشر التي تمر بها (١١) برج في السماء أيضاً .

بجوهر ، ودرع بنفسج مُشهّر ، ومِغفر شقيق[2] أحمر ، وتُرس بهار يَبهر ، وسهم آس يرشقُ فينشق ، ورُمح سوسن[3] سنانه أزرق ، تحرُسها آيات ، وتكتنفُها ألوية ورايات ، بي تحمرُّ من الورد خدوده ، وتهتزّ من البان قدوده ، ويخضرُّ عذار الريحان ، ويَنتبه من النرجس طرفه الوسنان[4] وتخرُج الخبايا من الزوايا ويفترّ ثغرُ الأقحُوان[5] قائلاً أنا ابنُ جلا وطلاّع الثنايا)

إنّ هذا الربيعَ شيءٌ عجيبٌ يُضحِكُ الأرض مِنْ بُكاء السَّماء
ذَهَبٌ حيثُما ذَهَبْنا ودُرٌّ حيث دُرْنا وفِضّةٌ في الفَضاء

(وقال الصيف : أنا الخِلّ المُوافق ، والصديق الصادق ، والطبيب الحاذق أجتهد في مَصلحة الأحباب ، وأرفع عنهم كُلفة حَمْل الثياب ، وأُخَفّف أثقالهم ، وأُوَفر أموالهم ، وأكفيهم المؤونة ، وأجزلُ لهم المعونة ، وأغْنيهم عنْ شراء الفِرا ، وأُحققُ عندهم (أن كل الصيد في جَوْف الفَرا) نُصِرتُ بالصّبا ، وأُوتيتُ الحكمة في زمن الصّبا ، بي تتّضحُ الجادّة[6] وتنضج منالفواكه المادة ، ويزهُو البُسَرُ والرطب وينصلحُ مِزاج العِنب ، ويقوى قلبُ اللوز ، ويلين عطف التين والموز ، وينعقِدُ حبُّ الرمان ، فيقمع الصفراء ، ويسكنُ الخفقان ، وتخضبُ وجنات التُفّاح ويذهب عَرف[7] السفرجل مع هُبوب الرياح ، وتسودُّ عيون الزيتون وتخرُج تيجان النّارنج والليمون ، مواعدي مَنقودة ، وموائدي مَمدودة ، الخير موجود في مُقامي ، والرزق مقسومٌ في أيامي .

الفقير يَنصاع[8] بملء مُده وصاعه ، والغني يرتَع في ريع مُلكه وإقطاعه ، والوحش تأتي زُرافاتٍ[9] ووحداناً ، والطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً[10] .

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٢) شقائق النعمان وهو نبت أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نبات طيب الرائحة (٤) النعسان الغفلان (٥) البابونج نبت طيب الرائحة حواليه ورق أبيض ووسطه أصفر
(٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) ينتقل راجعاً مسرعاً
(٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظِلٌ ظليل على الورى   وَمَنٌ حلا طعماً وحلَّل أخلاطا
يعالج أنواع الفواكه مُبدياً   لصحتها حفظاً يُعجز بقراطا ١

(وقال الخريف) : أنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغموم ، وهازم أحزاب السَّموم ٢ ، وحادي نجائب السحائب ، وحاسر نقاب المناقب ، أنا أصدُّ الصدى ٣ وأجود بالندى ، وأُظهر كل معنى جليّ ، وأسمو بالوسميّ ٤ والوليّ ، في أيامي تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويترقرق ٥ دمع العيون ، ويتلون ورق الغصون ، طوْراً يحاكي البقم ، وتارة يُشبه الأرقم ، وحيناً يبدو في حلته الذهبية فيجذِبُ إلى خلته القلوب الأبية ، وفيَّ يُكفى الناس همّ الهوامّ ، ويتساوى في لذة الماء الخاص والعام ! وتقدمُ الأطيارُ مُطربةً بنشيشها رافلةً في الملابس المجددة عن ريشها ، وتُعصرُ بنت العنقود وتوثقُ في سجن الدنّ بالقيود ، على أنها لم تجترح إثماً ، ولم تعاقب إلا عُدواناً وظلماً ، بي تطيبُ الأوقات ، وتحصُلُ اللذّات ، وترق النسمات ، وتُرمى حصى الجمرات ، وتسكن حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب ، كم لي من شجرةٍ أكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدي لازم ، وورقها على الدوام غيرُ زائل ، وقدُودُ أغصانها تُخجِل كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينا   يتهادى في حُلَّةٍ كالعروسِ
غيره كان للعيون ربيعاً   وهو ما بيننا ربيعُ النفوسِ

(وقال الشتاء) أنا شيخُ الجماعة ، ورب البضاعة ، والمقابلُ بالسمعِ والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدِلُ عليهم الحجاب ، وأتحفهم بالطعام والشراب ، ومَنْ ليس له بي طاقةٌ أغلق من دونه الباب ، أميلُ للمطيع ، القادر المستطيع

(١) بقراط الحكيم اليوناني وهو لفظ يوناني معناه ناسك الصبح (٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذي يأتي في الخريف ، والولي الذى يأتي بعده (٥) ترقرق الدمع في العين تحرك .

المتضد بالبرود والفرا ، المتمسكِ من الدينار بأوثق العُرى ، ومن يَعشُ عن ذِكري ، ولم يمتثل أمري ،أرجفته بصوت الرَّعد ،وأنجزتُ له من سيف البرق صادق الوعد ، وسِرتُ إليه بعساكر السحاب ، ولم أقنع من الغنيمة بالإياب ، مَعروفي مَعروف ، ونَيل نَيلي موصوف ، وثمار إحساني دانيةُ القطوف ، كم لي من (وابل) طويل المدى (وجَود) وافرِ الجدا (وقطر) حــلا مذاقه (وغيث) قيد العُفاة إطلاقه (وديمة) تُطرب السمع بصوتها (وحَياً) يحيي الأرض بعد موتها ، أيامي وجيزة وأوقــاتي عزيزة ، ومجالسي معمورة بذوي السيادة ، مغمورَة بالخير والمـير والسعادة ، نُقلهـا يأتي من أنواعه بالعَجَب ، ومناقلها تسمحُ بذهب اللهب ، وراحُها تُنعش الأرواح ، وسقاتها بجفونهـم السقيمة تفتن العقول الصِّحاح ، إن رُدتَها وَجدتَ مالاً ممدوداً ، وإن زُرتَها شاهدت لها بَنين شهوداً .

مناظرة بين البر والبحر لبعض الأدباء

قال (البرّ) يا صاحب الدّر ، ومَعدن الدُّر ، أطرقتَ رياضي ومَزَّقتَ قصوري وأحواضي ، وأغرَقتَ جنّتي ، ودخلت جنتي ، وتلاطمت أمواجك على جِنتي ، وأكلتَ جزائري وجروفي ، وأهلكتَ مَرعى فَصيلي وخروفي ، وأهزلتَ ثوري وحملي وفرسي وجمـلي ، وأجريتَ سفنك على أرضٍ لم تَجْرِ عليها ، ولم تمل طرف غرابها إليها ، وغرست أوتادها على أوتاد الأرض ، وعرّست في مواطن النفل والفرض ، وجعلت مَجرى مَراكِبك في مَجرى مراكبي ، ومَشى حوتك على بطنه في سعد أخبية مضاربي ، وغاصَ ملاحـك في ديار فَرَحي ، وهاجرت من القرى إلى أم القرى وحملت فَلاّحي أثقـاله على القِرى ، وقـد تلقيتك من الجنادل بصدري ، وحملتُك إلى بَرزَخـك على ظهري ، وقبَّلت أمواجك بثغري ، وخلفت مقياسي فرحاً بقدومك إلى مصري وقد جُرتَ وعدلت وفعلتَ ما فعلت ، فلعلك تفيض ، ولا يكون ذهابك عن ذهاب بغيض ،

أو تفارق هذه الفِجاج ، وتختلط بالبحر العَجاج ، وإن لم تفعل شكَوناك إلى مَن أنزلك من السماء ، وأنعَم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغِث — عِباداً فمولاهم يَغيث ويَرحم
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عظيمةٌ — فعفوُ الذي أجراك يا بحرُ أعظم
نمدّ إليه أيدياً لم نَمُدَّها — إلى غيره والله بالحالِ أعلمُ

قال (البحر) : يا بَرُّ ، ياذا البِرّ ، ومَنبِتَ البُرّ ، هكذا تخاطب ضيفَك وهو يخصب شتاءك وصَيفك ، وقد ساقني الله إلى أرضك الجرُز ، ومعدن الدُّر والخرز لأ بهجَ زرعها وخيلها ، وأخرج أبّها ونخيلها ، وأكرمَ ساكِنك ، وأنزلَ البركة في أماكنك ، وأثبت لك في قلب أهلك أحكام المحبَّة ، وأنبت بك لهم في كلّ سُنبلة مائة حبَّة ، وأُحييك حياة طيبة ، يبتهج بها عمرُك الجديد ، وتتلو « كذلك يُحيي اللهُ الموتى » ألسنةُ العبيد ، وأطهِّرك من الأوساخ ، وأحمِل إليك الإبليز فأطيبك به من عَرَق السباخ ، وأنا هدية الله إلى مِصرك ، وملكُ عصرك ، القائم بنصرك ، ولولا برَكاتي عليك ، ومسيري في كل مَسرًى إليكَ ، لكنتَ وادياً غير ذي زَرْع ، وصادياً غير ذي ضَرْع :

سَرَيتُ أنا ماءُ الحياة فلا أذى — إذا ما حفِظتُ الصحب فالمال هيِّنُ
فكن خَضِراً يا برّ واعلم بأنني — إلى طينِك الظمآن بالريّ أحسنُ
وأسعى إليه من بلادٍ بعيدةٍ — وأحسنُ أجري بالتي هي أحسنُ
إذا طاف طوفاني بمقياسك الذي — يُسِرُّ بإتيان الوفاء ويُعلِنُ
فقم وتلقّاه ببسطتِكَ التي — لرَوضتِها فضلٌ على الرَّوض بَيِّنُ

ولعمري : لقد تلطفَ (البرُّ) في عِتابه وأحسن ، ودَفع (البحرُ) في جوابه بالتي هي أحسن ، وقد اصطلحا وهما بحَمْد الله أخوان متضافران على عمارة بلاده ، ونشر الثَّروة ونموّ الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخصب مرعاهما ويحرسهما ويَرعاهما

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواء) : الحمد لله الذي رفع فلك الهواء ، على عُنصر التراب والماء . «أما بعد» فأنا الهواء الذي أوَلف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأحباب ، وأهُبُّ تارةً بالرَّحمة وأخرى بالعذاب ، وأنا الذي سُيِّرَ بي الفلكُ في البحر كما تسير العِيسُ في البِطاح ، وطار بي في الجوّ كل ذي جَناح ، وأنا الذي يضطربُ مني الماءُ اضطراب الأنابيب في القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نضرةٌ وزَهْواً ، وإذا تكدَّرْتُ انكدرت النجوم وتكدر الجوّ ،لا أتلوَّن مثل الماء المتلوّن بلوْن الإناء ، لولايَ ما عاش كل ذي نفس ، ولولايَ ما طاب الجوُّ من بخار الأرض الخارج منها بعدَ ما احتبس ، ولولايَ ما تكلم آدميٌّ ولا صوّت حيوان ، ولا غرَّد طائر على غُصن بان ، ولولايَ ما سُمع كتاب ولا حديث ، ولا عُرف طَيِّب المسموع والمشموم من الخبيث فكيف يُفاخرني الماء الذي إذا طال مُكثه ، ظهر خبثه ، وعلت فوقه الجِيَفُ وانحطّت عنده اللآلىءُ في الصدف .

فقال (الماء) : الحمد لله الذي خلق كلّ حيّ « أما بعد » فأنا أول مخلوق ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبَّه بالسيف إذا سُلّ من الغلاف ، وقد خلق الله فيَّ جميع الجواهر حتى اللآلىء والأصداف ، أحْيي الأرضَ بعد مماتها ، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها ، وأكسو عرائس الرّياض أنواع الحلل ، وأنثر عليها لآلىء الوَبْل والطلل ، حتى يُضرَب بها في الحُسن المثل ، كما قيل :

إن السَّماءَ إذا لم تبْكِ مقلتُها   لم تَضْحك الأرضُ عن شيءٍ من الزَّهر

فكيف يُنْكِرُ فضلي مَن دَبّ أو درَج ؟ وأنا البحرُ الذي قيل عنه في الأمثال « حدّث عن البحر ولا حرَج » وأما أنت أيها الهواء : فطالما أهْلكت أمماً بسُمومِك وزمهريرِك ، ولا تقوّم جَنْتُك بسعيرك .

وأما قولك: لولايَ ما عاش إنسان، ولا بقيَ على الأرض حيوان، فجوابهُ: لو شاءَ اللهُ تعالى لعاش العالم بلا هواء ، كما عاش عالم الماء في الماء ، وأنشدُك الله أما رأيْتَ ما حباني اللهُ به من عظيم المِنّة ، حيث جعلني نهراً من أنهار الجنة ، أنا أرفع الأحداث ، وأطهّرُ الأخباث ، وأجلو النظر ، وأزيلُ الوَضر ، أمـا رأيت النـــاسَ إذا غِبْتُ عنهم يتَضرّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء ويسألونه تعالى إرسالي من قِبَل السماء ؟ واعلم أنني ما نلتُ هذا المقامَ الذي ارتفعتُ به على أبناء جنسي ، إلا بانحطاطي الذي عيّرْتني به وتواضعي وَهضم نفْسي .

وقد كثر بينهما النزاع والجدال ، حتى حكم بينهما أميرٌ وقال :

إن كلاً منكما مُحِق فيما يَدّعيه ، فما أشبهكما في السماء بالفرْقدين ، وفي الأرض بالعينين ، إلا أن مِرآة الحقّ أرَتْني فضيلةً تفْضُلُ بها أيها الماءُ أخاك الهواء ، وحققت لي بأنكما لستما في الفضل سَواء ، وهي (أن الله تعالى خلقَ آدمَ منَ الماء) فاعترفْ لأخيك بالفضل والذكاء .

مناظرة بين الجمل والحصان للمقدسي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل) : أنا أحمِلُ الأحمَالَ الثقال ، وأقطع بهـــا المراحل الطوال ، وأكابد الكَلال ، وأصبرُ على مُرّ النـّكال ، ولا يعتريني من ذلك مَلال ، وأصول صَوْلة الإدلال ، بل أنقادُ للطفل الصغير ، ولو شئتُ استصعبت على الأمـــير الكبير ، فأنا الذّلول ، وللأثقال حَمُول ، لستُ بالخائن ولا الغلول ، ولا الصائل عند الوُصول أقطعُ في الوُحول ، ما يَعْجِزُ عنـه الفحول ، وأصابرُ الظماء في الهواجر ولا أحول ، فإذا قضيتُ حـقّ صاحبي ، وبلغْت مآربي ألقيتُ حَبْلي على غاربي ، وذهبت في البوادي أكتسبُ من الحلال زادي ، فإن سمعتُ صوت حاديّ سلمتُ إليه قيادي ، وواصلتُ فيه سُهادي ، وطلقتُ طيّبَ رُقادي ، ومددتُ إليه عُنقي لبلوغ مرادي ؛ فأنا إن ضَللتُ فالدليلُ هادي ، وإن زللتُ أخذَ بيدي مَن إليه انقيادي ، وإن ظمِئتُ فذِكرُ الحبيب زادي ،

وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وَتَحْمِلُ أثقالَكُمْ » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أحْمِلُ صاحبي على كاهلي فأجتهدُ بـه في السير ، وأنطلقُ به كالطير ، أهجم هجومَ الليل ، وأقتحمُ اقتحام السيل ، فإن كان طالباً أدركَ بي طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسبابَ الرّدى عنه محتجبة ، فلا يُدرَكُ مني إلا الغبار ، ولا يُسْمع عَني إلا الأخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المجرَّب ، فأنا السابق المقرّب ، وإن كان هو المقتصد اللاحق ، فأنا المقرّب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الواله ،وسبقت سبق نباله ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أحماله ، وإن أوثقَ سائسي قيدي وأمِن قائدي كيدي ، أوثقت بِشكالي ، لكيلا أحُول على أشكالي ، وألجمْتُ بلجامي كيلا اغفل عن قيامي ، وأنعلَتِ الحديدَ اقدامي كيلا أكِلّ عن إقدامي ، فأنا الموعُود بالنجاة ،المدُود لِنَيل الجاه ،المشدود للسلامة ، المقصود للكرامة ، قد أجزل المنعم عليّ إنعامه ،وأمضى بالعناية الأزليَّة أحكامه « فإن الخير معقودٌ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقتُ من الريح ، وألهمت التسبيح ، ومـا برِح ظهري عِزّاً ، وبطني كنزاً ، وصَهْوَتي حِرزاً ، فكم ركَضْتُ في ميدان السباق وما أبديت عَجزاً ، وكم حزت رءوس أهـل النفاق حزّا ، وكم أخليت منهم الآفاق (هل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكزا) .

الفن الثالث في الأمثال

المثل عبارةٌ عن تأليف لا حقيقة له في الظاهر ، وقد ضُمّنَ باطنه الحِكم الشّافية وهي ثلاثة أقسام : مفترضةٌ ممكنةٌ ، ومخترعةٌ مستحيلة ، ومختلطة :

(١) الأمثال المفترضة الممكنة : هيَ ما نُسِب فيها النطق والعمل إلى عاقل[١] .

---

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لها مغزى ، والثاني كونهـا غير واقعة وإن كانت في حيز الإمكان .

(٢) والمخترعة المستحيلة: ما جاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .

وشروط المثل أربعة : (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليفضي المقصودُ منه إلى ذهن السامع . (الثاني) أن لا يكون مُسهباً مُملا . (الثالث) أن يُبهج السامع بطلاوته ويفكه فكرَته بهزل كلامه وابتكارُ معانيه ، ويضبط عقله في فهم الرواية المختلفة وفضّ مُشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .

وفوائد المثل جمَّة ، منها نزهة البال وترويح الخاطر ، ومنها استقصاءُ الحكم؛ وهي قديمة العهد جداً ، ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثراً تكون نظماً — ونذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهرٌ مُصَرَّحٌ به ، وكامنٌ لا ذِكر للمثل فيه ، أما أمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى في شأن المنافقين « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي اسْتَوْقَدَ ناراً فلمَّا أضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بنورِهِمْ وتَرَكَهُمْ في ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرون صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرقٌ يَجْعَلونَ أَصابِعَهُم في آذانِهِم مِن الصَّواعِقِ حَذَرَ المَوتِ واللهُ مُحيطٌ بالكافرينَ * يَكادُ البَرقُ يَخْطَفُ أبْصارَهُم كُلَّما أضاءَ لَهُم مَشَوْا فيهِ وإذا أظلَمَ عَلَيهِم قامُوا ، ولَو شَاء لَذَهَبَ بِسَمْعِهِم وأبصارِهِمْ » .

وقوله سبحانه تعالى في شأن الذي يُنفق أمواله ابتغاء مرضَاة الله ، والذي ينفقها رياءً : « يَا أيُّها الَّذينَ آمَنوا لا تُبْطِلوا صدَقاتِكُم بِالمَنِّ والأذَى ، كالذي يُنفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ ولا يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

(١) مطر .

صَفْوانٍ ١ عليه ترابٌ فأصابه وَابلٌ ٢ فتركه صَلداً ٣ لا يقدرُون عَلى شيْءٍ مِمّا كَسَبُوا واللهُ لا يَهْدي القَوْم الكافرين ، ومَثلُ الذين يُنْفقون أموالهُم ابْتغاءَ مَرْضاةِ الله وتَثبيتاً منْ أنفُسهم كمثَل جنّةٍ بربْوةٍ ٤ أصَابها وابلٌ فآتت أكلَها ضِعْفين فإنْ لم يُصبْها وابلٌ فطلٌّ ٥ والله بما تعملون بصير ، أيَودُّ أحدُكمْ أنْ تكون له جنّةٌ منْ نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنْهار، له فيها منْ كلّ الثّمرات وأصابه الكِبرُ وله ذُرِّيّةٌ ضُعفاءُ فأصابها إعْصارٌ ٦ فيه نارٌ فاحترقت كذلك يُبيِّنُ الله لكم الآيات لعلّكم تتفكّرُون »

وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل : « أنزل من السّماء ماء فسالت أوديةٌ بقدَرها فاحتمل السيْل ٧ زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حِلْيةٍ أو متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأمّا الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً ٨ وأما ما ينفع الناس فيمكُثُ في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » .

وقوله تعالى في تمثيل الحكمة وضدها : « ألم ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمةً طيّبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلَّ حينٍ بإذن ربّها ، ويضْرِب الله الأمْثال للناس لعلهم يتذكّرون ، ومثل كلمة خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثة اجْتُثّتْ ٩ من فوق الأرض ما لها من قرار » .

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يا أيها الناس ضُرِبَ مثلٌ فاستمعوا له ، إنّ الذين تَدْعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه. ضَعُفَ الطالب والمطلوب» وقوله تعالى: «مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإنّ أوْهَن البيوت لبيتُ العنكبوت لو كانوا يعلَمون » .

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلباً نقياً من التراب (٤) مكان مرتفع
(٥) مطر خفيف (٦) ريح شديد (٧) ما يعلو على وجه الماء من قذر ونحوه
(٨) باطلاً مرمياً به (٩) قطعت من أصلها

وقوله تعالى في أنّ عمل الكافر يذهب هباءً تذروه الرّياح :

« مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدّت به الرّيح في يومٍ عاصف لا يقدرون ممّا كسبوا على شيء » .

وقوله تعالى : « وّالذين كفروا أعمالهم كسَراب[١] بقيعةٍ[٢] يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءَه لم يجدْه شيئاً وَوجد الله عنده فوفّاه حسابه والله سريعُ الحساب . أو كظُلُمات في بحر لُجّي[٣] يغشاهُ موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ، ظلُمات بعضها فوق بعض إذا أخرَج يدَهُ لم يَكَدْ يراها ، ومَنْ لم يجْعلِ اللهُ له نوراً فما له منْ نور » .

وقوله تعالى في أنّ الدنيا ظلٌ حائل وخيال باطل :

« واضْربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً[٤] تذْروه الرّياح » .

وقوله تعالى ، « اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعِبٌ ولهْوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأمْوال والأوْلاد كمثل غيث أعجب الكُفّار نباته ثمّ يهيج فتراه مُصفرّاً ثم يكون حُطاماً » .

وأما أمثاله الكامنة ،فهي الآداب البارعة والحكم الباهرةفمنذلك قوله تعالى :

في الصّدق

١ يا أيها الذين آمَنوا أتّقوا الله وكونوا مع الصّادقين

٢ هذا يوم ينفعُ الصّادقينصدقُهُم

٣ إنّه كان صادق الوعد

في الصبر والثبات

١ وَبَشّر الصّابرين

(١) شعاع يرى مثل الماء حين اشتداد الحر نصف النهار

(٢) جمع قاع وهو الأرض المستوية (٣) عميق (٤) يابساً متفرقة أجزاؤه .

٢ فاصبر صبراً جميلا
٣ واصبر على ما أصابك إن ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور
٤ فصبر جميلٌ
٥ واصبر على ما يقولون واهجُرهم هجراً جميلا

في العلم والاسترشاد

١ إنما يخشى اللهَ مِنْ عبادهِ العُلماءُ
٢ وما يعقِلها إلا العالِمون
٣ قلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
٤ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون

في الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نِعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً
٢ ولا تنازَعوا فتَفشلوا وتذهَب ريحُكم
٣ ولا تكونوا كالتي نقَضَت غزْلها من بَعْدِ قُوةٍ أنكاثا

في العفو

١ فاصفح الصفحَ الجميل
٢ والكاظمين الغيظَ والعافين عن الناس
٣ فمن عفا وأصلح فأجرُهُ على الله
٤ عفا الله عمّا سَلف

في الوفاء

١ وأوْفوا بالعهد إنّ العهدَ كان مسئولاً
٢ إنّ الله يأمرُكم أن تُؤَدّوا الأمانات إلى أهْلِها

في الاقتصاد

١ ولا تجعل يدك مغلولةً إلى عنقِكَ ولا تبْسُطها كلّ البَسْط فتقعُد مَلوماً مَحْسوراً
٢ إن المبذّرين كانوا إخوان الشياطين
٣ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

في الأمر بالمعروف

١ خُذِ العفوَ وأمُرْ بالعُرف وأعْرِض عن الجاهلين
٢ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعْروف وينهَوْن عن الُمنكرِ وأولئكَ هُمُ المفلِحون
٣ وتعاوَنوا عَلى البِرّ والتّقوى ولا تعاوَنوا على الإثم والعُدوان
٤ إن الله يأمُرُ بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذي القرْبى ويَنهى عنِ الفَحْشاءِ والُمنكرِ والبغي

برُّ الوالدين والقريب والجار والصاحب

١ وقَضَى ربك ألاّ تعبُدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إمّا يَبْلُغَنّ عِندكَ الكِبرَ أحدُهما أو كلاهما فلاتقل لهما أفٍّ ولا تنهرهماوقل لهما قولاً كريماً . واخفض لهُما جناحَ الذُّل من الرَّحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربَّياني صغيراً

٢ وأُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض

٣ وبالوالديْنِ إحْساناً وبــذي القرْبى واليتامى والمساكين والجارِ ذي القُرْبى والجارِ الجُنُبِ والصاحب بالجَنبِ وابن السبيل وما ملكت أيمانُكم إنّ الله لا يحبُّ من كان مُختالاً فخوراً

في النصيحة

١ إني لك من الناصحين

٢ وأنا لكم ناصحٌ أمين

٣ ونصَحْتُ لكم ولكن لا تُحِبون الناصحين .

في الشكر

١ لئن شكرتم لأزيدنكم

٢ وقليلٌ من عبادي الشكور

٣ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه

٤ وسيَجْزي الله الشاكرين

في الاغضاء والتغافل واللين

١ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعْرض عنهم وعِظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً .

٢ لا تثْريبَ عليكم اليومَ يغفـرُ الله لكم .

٣ ادفع بالتي هي أحسن

٤ فاصبرْ على ما يقولون واهجُرْهم هجراً جميلاً .

٥ ولو كنتَ فظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا مِنْ حَوْلك

٦ فأسرّها يوسفُ في نفسهِ ولم يُبْدِها لهم

٧ وإذا خاطبَهُمُ الجاهلون قالوا سلاماً

في المدح

١ ما هذا بَشراً إن هذا إلا مَلكٌ كريم .

٢ إذا رأيتَهم حَسِبتهُم لؤلؤاً منثوراً .

٣ إنك اليومَ لدينا مكينٌ أمين .

٤ إنّ هذا لهُوَ الفضلُ المبين
٥ وإنك لعَلى خُلُقٍ عظيم
٦ ختامُه مسك
٧ ذُرِّيَّةً بعضُها من بعض
٨ وبَرّاً بوالديه ولم يكن جبّاراً عَصيّاً .
٩ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلا
١٠ أولئك هم خير البرية
١١ رضي الله عنهم ورَضُوا عنه
١٢ وكلٌّ من الأخيار
١٣ سِيماهم في وجوههم
١٤ وكانوا أحقَّ بها وأهلها
١٥ أولئك الذين هَدى الله فبهُداهم اقْتَدِهْ .
١٦ إنّ خيرَ من استأجرتَ القويُّ الأمين .

في التبرئة والتنزيه

١ حاشا لله ما علمنا عَليْهِ مِن سوء
٢ أولئك مُبرّءُون مما يقولون
٣ فبرأه اللهُ مما قالوا

في حسن الخلق

١ ما شاء الله
٢ وصوركم فأحْسن صُوَرَكم
٣ يَزيد في الخلق ما يشاء
٤ فتبارك الله أحسنُ الخالقين
٥ صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيْء

في الكذب والزور

١ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزُوراً .
٢ إن هذا إلا اختلاق
٣ كبُرَت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كَذِباً
٤ فويلٌ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .
٥ فَبَدّلَ الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم .
٦ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وضَل عنهم ما كانوا يفترون

في الخيانة ونقض العهد

١ أوَ كلما عاهدوا عهداً نبَذَهُ فريق منهم .
٢ وما وجدنا لأكثرهم من عهد
٣ إنهم لا إيمان لهم .

٤ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه .
٥ إنَّ الله لا يحبُّ من كان خوّاناً أثيماً
٦ وأنّ الله لا يهدي كيدَ الخائنينَ

في السخرية والغيبة والنميمة والجهر

١ يا أيها الذين آمنوا لا يسخَر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ عسى أن يكُنّ خيراً منهنّ ولا تلمزوا أنفُسَكم ولا تنابزوا بالألقابِ .
٢ ولا تجسّسوا ولا يغتَبْ بعضكم بعضاً .
٣ لا يُحِبُّ الله الجهر بالسُّوءِ مِنَ القول إلاّ مَنْ ظُلِم .
٤ ويلٌ لكل هُمزَةٍ لُمَزَةٍ
٥ وإذا مرُّوا بهم يتغامزون .

في القتل والانتحار

١ ولا تقتلوا أولادَكم خشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزقهم وإيّاكم إن قتلَهم كان خِطئاً كبيراً .
٢ ولا تقتلوا النفسَ التي حرّمَ اللهُ إلا بالحقّ ومَنْ قُتلَ مظلوماً فقد جعلنا لِولِيّه سُلطاناً فلا يُسْرِفْ في القتل إنّه كان منصوراً .
٣ ولا تلقوا بأيديكم إلى التّهلُكة .
٤ ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان بكم رحيماً .

في الزنا

١ ولا تقرَبوا الزّنا إنه كان فاحشةً وساءَ سبيلا .
٢ ولا تُكْرهوا فتَياتِكم على البِغاء إنْ أردْن تحصُّناً لِتَبْتَغوا عرَضَ الحياةِ الدنيا .

في الخمر والميسر

١ يسألونك عن الخمر والمَيْسِر قل فيهما إثمٌ كبير ومنافعُ للناس وإثمُهما أكبرُ من نفعِهِما .
٢ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسرُ والأنصابُ والأزْلام رجْسٌ من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تُفْلِحون إنما يريد الشّيْطان أنْ يُوقِعَ بينكم العداوة والبغضاءِ في الخمر والميسر ويَصُدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم مُنتهون؟!

في البخل وحب المال

١ ومَنْ يَبخلْ فإنما يبخلُ على نَفسه والله الغَنيُّ وأنتم الفقراء

٢ والذين يَكنِزون الذهب والفِضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرْهم بعذاب أليم .

٣ الذي جمعَ مالاً وعدَّدَه يحْسَبُ أن ماله أخْلَدَهُ .

٤ وتأكلون التُّراثَ أكلاً لَمّاً وتُحبون المال حُبّاً جَماً .

في الرِّبا

١ وأَحلَّ الله البيعَ وحرَّمَ الرِّبا .

٢ يمحَقُ اللهُ الرِّبا ويُربي الصَّدقات .

في العُجْب والكبر

١ واستَكبرَ هو وجنودُه في الأرض بغير الحق .

٢ ثم ذهب إلى أهله يَتمطّى .

٣ ثانيَ عِطفِه ليُضلَّ عن سبيل الله .

٤ أليس في جهنَّم مَثوًى للمُتكبرين .

٥ إنْ في صدورهم إلا كبرٌ ما هم ببالغيه .

٦ ولا تُصعِّرْ خَدَّك للناس ولا تمش في الأرض مَرَحاً .

في الاستبداد والأثرة

١ فإذا جاءتهمُ الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئةٌ يطَّيَّروا بموسى ومَن مَعَهُ .

٢ وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مُذعِنين .

٣ ما أُريكم إلا ما أرى .

في التفرق والاختلاف

١ تَحْسَبُهم جميعاً وقلوبُهم شتّى .

٢ كلُّ حِزب بما لديهم فَرِحون .

٣ فاختلف الأحزابُ من بينهم .

٤ إنكم لفي قول مختلف .

في الجبن والفرار

١ إن يُريدون إلا فِراراً

٢ يَحْسَبون كل صَيْحةٍ عليهم هم العَدُوُّ .

٣ أشِحّةً عليكم فإذا جاء الخوفُ رَأيتَهم ينظرون إليك تَدورُ أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموتِ فإذا ذهب الخوف سَلَقوكم بألسِنةٍ حِدادٍ .

فيمن يأمر بما لا يفعل ويعلم ولا يعمل

١ أتأمرون الناسَ بالبرِّ وتنسَوْن أنفسَكم .
٢ لِمَ تقولون ما لا تفعلون ؟
٣ كمثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً .

في الغفلة

١ لعمرُكَ إنهم لفي سكرتِهم يعمهون .
٢ قُتِلَ الخرّاصُون الذين هُمْ في غمْرةٍ ساهُون .
٣ وإذا ذُكِّروا لا يذْكرون .
٤ فويلٌ للمُصلّينَ الذينَ هُم عن صلاتهم ساهون .
٥ إذْ قُضيَ الأمرُ وهم في غفلةٍ .
٦ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هُمْ غافِلون .

في إنكار الجميل

١ فلمّا كشفْنا عنهُ ضُرّهُ مَرَّ كأنْ لم يدْعُنا إلى ضُرٍّ مَسّهُ .
٢ ولو رحمناهُم وكشفنا ما بهم من ضُرٍّ للَجُّوا في طغيانهم يعمَهون .
٣ ولو بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لعباده لبغَوْا في الأرض .
٤ إنَّ الإنسانَ ليَطغى أنْ رآه استَغنى .
٥ قُتِلَ الإنسانُ ما أكفَرَه !؟

في الذم والاهانة والتهكم والتحقير

١ أنتم شرٌّ مكاناً !!
٢ فليَنظرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِق؟؟
٣ خذُوه فغُلُّوهُ .
٤ ما نفقَهُ كثيراً ممّا تقول .
٥ كلما دَخَلَتْ أُمّةٌ لعَنَتْ أُخْتَها .
٦ لا يُسمِنُ ولا يُغني من جوعٍ .
٧ إنا تَطيّرنا بكم .
٨ سَواءٌ محياهُم ومماتهم .
٩ لَمقْتُ اللهِ أكبرُ مِن مقتكم أنفُسَكُمْ .
١٠ يُعرَفُ المجرمون بسيماهُم .
١١ ذُقْ إنكَ أنت العزيز الكريم .
١٢ ذوقوا فِتنتَكم هذا الذي كُنتم به تَستعجلون .
١٣ ومَنْ يُهِنِ اللهُ فماله مِن مُكرم
١٤ وما أُوتيتم من العلم إلا قليلاً .
١٥ ذلك مَبلَغُهُم مِنَ العلم .
١٦ فَمَثلُهُ كمثلِ الكلب إن تَحْمِلْ عليه يَلهَثْ أو تتركه يَلهَثْ .

١٧ كَمَثَلِ الحمارِ يحمِلُ أسفاراً .
١٨ أولئك هم شرُّ البَرِيَّة .
١٩ همّازٍ مَشّاءٍ بنميمٍ منّاعٍ للخير مُعتَدٍ أثيم . عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم .
٢٠ إنك لَغَوِيٌّ مُبين .
٢١ إن شانِئَكَ هو الأبتَر .
٢٢ أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة .
٢٣ أينما يُوجِّهْهُ لا يأتِ بخير .
٢٤ أولئك حزبُ الشيطان .
٢٥ اتخَذوا أيمانَهُم جُنَّة .
٢٦ فما لِهؤلاءِ القوم لا يكادون يفقهون حديثاً

في الضالين والمضلين

١ إنهم ألفَوا آباءَهم ضالين ، فهم على آثارهم يُهرَعون
٢ الشيطان سَوَّلَ لهم وأملى لهم .
٣ وإنّ كثيراً ليُضِلّون بأهوائهم بغيرِ علم .
٤ ولقد ضَلَّ قبلهم أكثرُ الأوّلين
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم في الغيِّ ثم لا يُقصِرون .

٦ ربَّنا إننا أطعْنا سادَتَنا وكُبَراءَنا فأضلونا السبيلا .

فيمن عميت بصيرتهم وأضلهم هواهم

١ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يُبصِرون بها ولهم آذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ أولئك همُ الغافلون .
٢ فإنها لا تَعمى الأبصار ولكن تَعمى القلوب التي في الصدور .
٣ أفرأيتَ مَنِ اتخذَ إلهه هواه وأضله الله على عِلم ؟!

في قُرناء السوء ، والغاوين والنهي عن اتباعهم :

١ ولا تُطعْ مَنْ أغفلنا قلبه عن ذِكرِنا واتبع هواه وكان أمرُه فُرُطاً .
١ يدْعو لمَنْ ضَرُّه أقرب من نفعه لبئسَ المولى ولبئسَ العَشير .
٣ ولا تَرْكَنوا إلى الذين ظلموا فتمسَّكم النار .
٤ ولا تتّبعانِّ سبيل الذين لا يعلمون
٥ وإخوانهم يَمُدُّونهم في الغيِّ ثم لا يُقصِرون

٦ يا ليتَ بيني وبينــك بُعدَ المشرقَين فبئس القَرين .
٧ يا وَيلتا ليتني لم أتخذ فلانـاً خليلا .

في التنبيه على الخطأ والضلال

١ مالــكم كيف تحكمون ؟
٢ فأين تذهبون؟
٣ أتَستبدِلون الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ ؟
٤ تلك إذن قسمةٌ ضِيزَى .
٥ تالله إنكَ لفي ضلالك القديم .
٦ ذلك هو الضلالُ البعيد .
٧ ويحسَبون أنهم يُحسِنون صنعاً .

في المنافقين والمرائين

١ قد بَدَت البغضاءُ من أفواههم وما تُخفي صدورُهم أكبرُ .
٢ وإذا خَلَوْا عَضوا عليـكم الأنامِل مِنَ الغَيظ .
٣ يقولون بألسِنتِهم ما ليس في قلوبهم .
٤ يُرضونــكم بأفواههمْ وتأبى قلوبُهم .
٥ وليحلِفُنّ إن أردنا إلا الحُسنى والله يشهدُ إنهم لكاذبونَ .
٦ إن تمسَسْكُم حسنةٌ تسوءْهم وإنْ تُصبكم سيئةٌ يفرَحوا بها ، وإنْ تَصبروا وتتقـوا لا يضرُّكم كيدهم شيئاً .
٧ مُذَبْذَبين بين ذلـك لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .
٨ يَبغونكم الفتنة وفيكم سَمّاعون لهم .
٩ لقد ابتَغوا الفتنة مِنْ قبـلُ وقلبوا لك الأمور حتى جـاء الحق وظهرَ أمرُ الله وهم كارهون .
١٠ ويحلِفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهُمْ قومٌ يفرَقون .

في تمثيل أعمال المرائين والمنافقين

١ فمثلُه كمَثَلِ صَفوانٍ عليه ترابٌ فأصابه وابلٌ فتركه صَلداً .
٢ أعمالهم كرمادٍ اشتدَّت بـه الريح في يوْم عاصف .
٣ أعمالُهم كسرابٍ بقيعةٍ يَحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْهُ شيئاً .

في الانذار والوعيد

١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم .
٢ فسوف يأتيهم أنباءُ ما كانوا به يستهزئون .
٣ لكلِّ نبإٍ مُستقَرٌّ وسوف تعلمون .
٤ وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نَعُدْ ولن تُغنيَ عنكم فئتُكم شيئاً ولو كثُرَتْ .
٥ فانتظروا إني معكم من المنتظرين .
٦ واتقوا فتنةً لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصةً .
٧ إلا تفعلوه تكنْ فتنة في الأرض وفساد كبير .
٨ ذلك وعدٌ غير مكذوب .
٩ وما هيَ من الظالمين ببعيد .
١٠ هذا بلاغٌ للناس ولِيُنذروا به .
١١ عما قليلٍ ليُصْبِحُنّ نادمين .
١٢ وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلبٍ ينقلِبون .
١٣ فسيعلمون من هو شرٌّ مكاناً وأضعفُ جُنداً .
١٤ اعمَلوا على مكانتِكم إني عاملٌ سوف تعلمون .
١٥ إنه لقولٌ فصلٌ وماهو بالهزل .
١٦ ذَرهم يأكلوا ويتمتعوا ويُلهِهِمُ الأملُ فسوف يعلمون .
١٧ سيعلمون غداً مَنِ الكذّابُ الأشِرُ .
١٨ سيُهزَم الجمع ويُولّون الدُبر .
١٩ لتُنَبّؤُنّ بما عملتم .
٢٠ ولقد جاءهم من الأنباءِ ما فيه مُزْدَجر .
٢١ اعملوا ما شئتم .
٢٢ فستعلمون مَنْ هو في ضلالٍ مبين .
٢٣ إنّ ما توعدون لواقع .
٢٤ فستذكرون ما أقول لكم .
٢٥ فليضحكوا قليلاً وليَبكوا كثيراً .
٢٦ فإن للذين ظلموا ذَنوباً مثل ذَنوب أصحابهم فلايستعجلون .
٢٧ اعملوا على مكانتِكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون .
٢٨ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون .
٢٩ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال .
٣٠ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون .
٣١ ولنخرجنّهم منها أذلةً وهم صاغرون .

٣٢ وقد أفلح اليوم من استَعلى .
٣٣ ولا تعجبكَ أموالهم ولاأولادهم إنما يُريدالله أن يعذبهم بها في الدنيا
٣٤ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غِطاءَك .
٣٥ ولتعلمنّ نبأه بعد حين .
٣٦ سَنسِمُه على الخرطوم .
٣٧ أولَم يعلم أن الله قد أهلك مِن قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً .
٣٨ كلا لا وَزَرَ .
٣٩ إنا من المجرمين مُنتقمون .
٤٠ سنَستدرجهم من حيث لا يعلمون
٤١ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

في الحياة الزوجية

١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنُوا إليها وجعل بينكم مَودّةً ورحمةً .
٢ وأنْ تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم
٣ وإنْ خفتم شِقاقَ بينهما فابعثوا حَكماً من أهله وحكماً من أهلها إنْ يريدا إصلاحاً يُوفّق الله بينهما .
٤ ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهن درَجة .
٥ وإنِ امرأةٌ خافت من بعلها نُشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يُصلحا بينهما صلحاً والصلح خير .
٦ وعاشروهنّ بالمعروف .
٧ وائتَمِروا بينكم بمعروف .

في آداب النساء

١ وقلْ للمؤمنات يَغضُضْن من أبصارهنّ ويحفظنْ فروجهن ولا يُبدين زينتَهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جيوبهن .
٢ وَقرنَ في بيوتكنّ ولا تبرّجْن تبرُّج الجاهلية الأولى .
٣ محصَنات غير مسافحات ولا متّخذات أخدان وقلن قولاً معروفاً .
٤ إنِ اتقيتُنّ فلاتخضعْن بالقوْل فيطمعَ الذي في قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً .

في الصلح والسلم

١ فاتقوا اللهَ وأصلحوا ذات بينكم

٢ إنما المؤمنون إخوةٌ فأصلحوا بين أخويكم .
٣ والصلحُ خيرٌ .
٤ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .
٥ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافةً ولا تتبعوا خطوات الشيطان .

الناس بخير ما تباينوا

١ ولو شاءَ ربكَ لجعلَ الناسَ أمةً واحدةً ولا يزالون مختلفين. إلا مَن رحمَ ربك ولذلك خلقهم .
٢ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخرياً .

في الحثّ على الصدقة والنهي عما يبطلها

١ مَثلُ الذين يُنفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل في كلّ سُنبُلة مائة حبة .
٢ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبُّون
٣ يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى .
٤ قولٌ معروف ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يَتبعُها أذىً .
٥ وما تنفقوا من خير يوَفَّ إليكم .
٦ وأمّا السائل فلا تنهر .

في التحية والاستئذان

١ وإذا حُيّيتم بتحيةٍ فحيُّوا بأحسنَ منها أو رُدُّوها .
٢ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت
٣ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .
٤ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يُؤذن لكم .
٥ فإن استأذنوك لبعض شأنهم فأذنْ لمن شئت منهم .

في آداب المشي

١ واقصِد في مَشيك واغضُضْ من صوتك .
٢ ولا تمش في الأرض مَرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً .
٣ وعبادُ الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً .

في التلطف والدعوة والطلب

١ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
٢ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد

٣ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً .
٤ فقل هل لك إلى أن تزكى .
٥ إني لكم رسول أمين .
٦ فاتبعني أهدك صراطاً سوياً .

في الشورى

١ وشاورهم في الأمر .
٢ وأمرهم شورى بينهم .
٣ أفتوني في أمري.

في الشفاعة

١ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها .

في الخطإ والاضطرار

١ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم .
٢ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه .

في المسئولية عن العمل

١ ولا تزر وازرة وزر أخرى .
٢ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.
٣ كل امرىء بما كسب رهين .
٤ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه
٥ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

في الجهاد

١ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم .
٢ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة.
٣ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً
٤ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

في الأيمان

١ واحفظوا أيمانكم .
٢ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم .
٣ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها.

في الكلام والاستماع

١ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها .
٢ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

٣ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب
٤ وقولوا للناس حسناً .
٥ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً .
٦ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه .
٧ وإذا مروا باللغو مروا كراماً.

في الجدل والمناظرة

١ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم .
٢ أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن .

في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات

١ لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً .
٢ ولكلٍّ وجهة هو موليها .
٣ قل كلٌّ يعمل على شاكلته .
٤ والله فضل بعضكم على بعض في الرزق .
٥ وما منا إلا له مقام معلوم .
٦ وفوق كل ذي علمٍ عليم .
٧ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك .

وبضدها تتميز الأشياء

١ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث .
٢ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرفٍ هار فانهار به في نار جهنم .
٣ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً .
٤ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج .
٥ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراطٍ مستقيم .
٦ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

في الحث على العمل والسعي والتنافس والمهاجرة

١ ولكلٍّ درجات مما عملوا .

٢ وفي ذلك فليتنافس المتنافسونَ
٣ ألم تكن أرضُ اللهِ واسعةً فتهاجروا فيها ؟؟
٤ فامشوا في مَناكبها وكلوا مِنْ رزقهِ .

في الجزاء على العمل

١ ظهرَ الفسادُ في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقَهُمْ بعض الذي عملوا لعلهُم يرجعون .
٢ إنّ هذا كان لكُم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً .
٣ فمن يعمَلْ مثقال ذرة خيراً يرَه ومن يعمل مثقالَ ذرةٍ شراً يرَه
٤ وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يُجزاه الجزاءَ الأوفى .

الجزاء من جنس العمل

١ وإن جَنَحوا للسّلْم فاجنَح لها
٢ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
٣ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به .
٤ وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها .
٥ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتَدى عليكم .

٦ هل جزاءُ الإحسان إلا الإحسان
٧ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .
٨ فاذكروني أذكركم .
٩ وإن عُدتم عُدْنا
١٠ إن الله لا يغيّرُ ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم .
١١ وأوْفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم .
١٢ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مُصلحون .
١٣ جزاءً وفاقاً

شبيه الشيء منجذبٌ اليه

١ الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ ، والطيّباتُ للطيّبينَ والطيّبونَ للطيّباتِ .

في الافساد والبغي والنهي عنهما

١ ولا تُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها .
٢ ولا تبغ الفساد في الأرض .
٣ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض .
٤ ولا تعاوَنوا على الإثم والعدوان

في المفسدين المكابرين

١ وإذا قيلَ لهم لا تفسدوا في الأرض

قالوا إنما نحن مُصلِحون ألا إنهم هُم المفسدون ولكن لا يَشعرون .
٢ الذين ضلَّ سعيُهُم في الحياة الدنيا وهم يَحسَبون أنهم يُحسنون صنعاً
٣ ويَحسَبون أنهم على شيءٍ ألا إنهم هُم الكاذِبون .

في غرور الظلمة واستدراجهم

١ يُوحي بعضُهم الى بَعض زُخرُفَ القول غرُوراً .
٢ يَعِدهُم ويُمنّيهم وما يعدُهم الشيطان إلا غُروراً .
٣ بل إنْ يَعِد الظالمونَ بعضُهم بعضاً الا غُروراً .
٤ ولا تحْسَبَنَّ الله غافلاً عما يعمَلُ الظالمون .
٥ وَأُملي لهم إن كَيدي مَتين .
٦ فذَرْهم في غَمْرتِهِم حتى حين .
٧ فلا تعْجَل عليهم انما نعُدُّ لهم عَداً
٨ سَنستدرِجُهم من حيثُ لا يعلمون .
٩ ذَرهم يأكلوا ويَتمتَّعُوا ويُلهِهمُ الأمل فسوف يعلمون .

في سوء عاقبة الظالمين والشماتة بما يصيبهم

١ فغُلِبوا هُنالكَ وانقلبوا صاغِرين
٢ انقَلبَ على عقبَيهِ خَسِرَ الدنيا والآخرةَ ذلكَ هو الخُسران المبينُ .
٣ فانظرْ كيف كان عاقبة الظالمين.
٤ فجعَلناهم أحاديثَ ومزّقناهم كلَّ مُمزَّق .
٥ فأتى اللهُ بُنيانهم مِن القواعِدِ .
٦ فخَرَّ عليهم السَّقفُ مِنْ فوْقهم وأتاهم العذابُ من حيث لا يَشعُرون .
٧ فأصابهُم سيئات ما عملوا وحاق بهمْ ما كانوا به يستهزئون .
٨ فأصبحَ يُقلِّب كفّيهِ على ما أنفق فيها .

الاعراض عن الدعوة

١ وإذا تتْلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أُذنيهِ وقراً .
٢ كأنهم حُمُرٌ مُستنفرةٌ فرّت من قسورة .
٣ ثمّ نظر ، ثمّ عبس وبسرَ ، ثمّ أدبر واستكبر .

في التدخل في ما لا يعني والنهي عنه

١ ولا تقفُ ما ليس لكَ به علم
٢ لا تَسألوا عن أشياءَ إن تُبدَ لكم تَسؤكم .
٣ عليكم أنفسكم لا يضرُّكم من ضلّ
٤ فلا تَسألنِ ما ليس لك به عِلم
٥ ليس لك من الأمر شيء

في الكرم والاكرام والضيافة

١ ادخلوها بسلام آمنين .
٢ كلوا واشربوا هنيئاً .
٣ فكلوهُ هنيئاً مريئاً .
٤ فكُلي واشربي وقرّي عيناً .
٥ وفاكهةٍ ممّا يتخيّرُون ولحم طيرٍ مما يشتهون .
٦ ويُؤثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ .

في التعزية وتهوين الخطب

١ ويخلُقُ ما لا تعلمون .
٢ كل نفس ذائقة الموت
٣ كلُّ مَن عليها فان .
٤ كلُّ شيءٍ هالكٌ إلا وَجهَهُ
٥ فإنّ مع العُسْر يُسْراً إنّ معَ العسر يُسراً .

٦ ولا تيأسوا من رَوْح الله .
٧ فلا تَذهب نفسُك عليهم حسراتٍ .
٨ ولا تحزَن عليهم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يمكُرُون .
٩ ولا يَحزُنكَ قولُهم .
١٠ سيَجعلُ اللهُ بعد عُسرٍ يُسراً .

في الكيل والميزان

١ أوفُوا الكيلَ ولا تكُونوا من المُخسرين وَزِنوا بالقسطاس المستقيم ولا تَبخَسوا الناسَ أشياءَهم ولا تَعثَوا في الأرض مفسِدين .
٢ ويلٌ للمُطفّفين الذين إذا اكتالوا على الناس يَستوفونَ وإذا كالوهم أو وَزنوهم يُخسِرون .

في النهي عن الرشوة

١ ولا تأكلوا أموالكم بينَكم بالباطل وتدلُوا بها إلى الحُكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون .
٢ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارةً عن تراضٍ منكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن .
٢ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً .
٣ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً .
٤ فأمّا اليتيم فلا تقهر .

في صك الدَّين وانظار المعسر

١ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمّى فاكتبوه .
٢ وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرةٍ .

في الأحكام والحكام

١ وإذا حكمتم بين النّاس أن تحكموا بالعدل .
٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى .
٣ ولا يجرمنكم شنآنُ قومٍ على ألاّ تعدلوا ، أعدلوا هو أقربُ للتقوى .
٤ ولا تلبسوا الحقّ بالباطل وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون .

في اتهام الابرياء

١ ومن يكسب خطيئةً أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً .
٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكونُ لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتانٌ عظيم .
٣ إذ تلقّونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم .
٤ لكلِّ امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم .

في المكابرة في الحق والمعاندة

١ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق .
٢ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً .

٣ ما ضربوه لك إلا جدلا.
٤ يريدون أن يطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم .
٥ يجادلونك في الحقّ بعد ماتبيّنَ
٦ وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون .
٧ أنظر كيف نصرّفُ الآيات ثم هم يَصدِفون .

في الحقّ والباطل

١ لِيُحِقّ الحقّ ويُبطلَ الباطلَ ولو كره المجرمُون .
٢ الآن حَصْحَصَ الحقُّ .
٣ فأما الزّبَدُ فيذهَبُ جُفَاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرض .
٤ قضِيَ بالحق وخَسرَ هُنالك المُبْطلون .
٥ الحقُّ أحقُّ أن يُتّبع .
٦ فماذا بعد الحقّ إلا الضلال .
٧ لقد جئناكم بالحق ولكنّ أكثركم للحق كارهون .
٨ فوقع الحقُّ وبطل ما كانوا يعملون .

٩ ولا يأتونك بمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً .

في أداء الشهادة

١ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط شهداءَ للهولو علىأنفسكم أو الوالدَينِ والأقربين .
٢ ولا تكتُموا الشهادة ومن يكتُمْها فإنهُ آثمٌ قلبُهُ .
٣ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهِدُوا عليهم .
٤ ولا يأب الشُّهداءُ إذا ما دُعوا.
٥ وأشهدُوا إذاتبايعتم ولا يُضارّ كاتبٌ ولا شهيد .
٦ وأنا على ذلكم من الشاهدين.
٧ وما شهدنا إلا بما علمْنا .

في الخبر اليقين

١ ما زاغ البصرُ وما طغى .
٢ فلنقصّنّ عليهم بعلمٍ وما كُنا غائبين .
٣ نحنُ نقصُّ عليك نبأهم بالحقّ
٤ أحطتُ بما لم تحط به .
٥ ولا يُنبّئكَ مثل خبير .

في الاستنكار والتعجب

١ إني لعملكم من القالين
٢ لقد جئتم شيئاً إدّاً .
٣ لقد جئت شيئاً إمراً .
٤ لقد جئت شيئاً نكراً .
٥ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين
٦ إنّ هذا لشيء عجيب

في المحاماة والدفاع عن الأثمة

١ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمّن يكون عليهم وكيلاً .
٢ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم
٣ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان .
٤ فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

في التحدي وعدم المبالاة

١ فاقض ما أنت قاض .
٢ فإن كان لكم كيد فكيدون .
٣ فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون
٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .
٥ قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .

في النجوى والمؤامرة

١ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسرّوا النجوى .
٢ لا خير في كثير من نجواهم .
٣ أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم .

في الظن والشك

١ إن يتّبعون إلا الظنّ وإنّ الظنّ لا يغني من الحق شيئاً .
٢ وإنهم لفي شك منه مريب .
٣ وإنّا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب .
٤ إن يتّبعون إلا الظنّ وما تهوى الأنفس .
٥ وما يتّبع أكثرهم إلا ظناً إنّ بعض الظنّ إثم .

في التبرؤ والتنصّل

١ فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم اني أرى ما لا ترون .

٢ أنتم بريئون مما أعملُ وأنا بريءٌ مما تعملون .

٣ فلا تلوموني ولوموا أنفسَكم .

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة

١ وقِفوهم إنهم مسئولون .

٢ هذا يَومُ الفصل جمعناكم والأوّلين .

٣ مكانَكم أنتم وشرَكاؤكم .

٤ خُذوهُ فغلّوهُ .

٥ مالكم لا تنطِقونَ .

٦ مالكم لا تناصرون .

٧ لا تختَصِموا لديّ .

في حيرة المجرمين وإشفاقهم عند ظهور الحق

١ فعَمِيَتْ عليهم الأنباءُ يومئذٍ فهمْ لا يَتساءَلون .

٢ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا يَنطقون .

٣ ووُضِع الكتاب فترى المجرمين مُشفِقين مما فيه .

في الافحام والالزام

١ إقرأ كتابكَ كفى بِنفسِكَ اليوم عليكَ حسيباً .

٢ هذا كتابُنا ينطقُ عليكم بالحق إنّا كنا نستَنْسِخُ ما كنتم تعملون .

٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً.

في اليأس والتيئيس

١ قُضيَ الأمرُ الذي فيه تستفتيان

٢ فنادوْا ولاتَ حينَ مناصٍ .

٣ اصْبِروا أو لا تصبِرُوا .

٤ ولا تخاطبْني في الذين ظلموا .

٥ لا تعْتَذروا اليوْم .

في إمضاء الأمر

١ فإذا عزمْتَ فتوكل على الله .

٢ وكان أمراً مَقضياً .

٣ إفعَل ما تؤمرُ .

٤ فافعلوا ما تؤْمرون .

في حال المجرمين وهم يعذبون

١ كلما أرادوا أن يخرُجوا منها أُعيدوا فيها .

٢ لهم فيها زَفيرٌ وشهيقٌ .

٣ يَتجرَّعهُ ولا يكادُ يُسيغه .

٤ إنّ الذين كفروا بآياتنا سوف نُصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذابَ .

في الشيب والكبر والضعف

١ ربِّ إني وهنَ العظمُ مني واشتعلَ الرّأسُ شيباً .

٢ وقد بلغتُ من الكبرِ عتيّاً .

٣ ومنْ نُعمّرهُ ننكسه في الخلقِ

٤ ومنكمْ مَنْ يُردّ إلى أرذل العمُر لكيلا يعلم بعدَ علمٍ شيئاً

جزع الناس ومظاهرهم عند البلاء

١ مُهطِعينَ مُقنِعي رؤوسِهم لا يرتدُّ إليهم طرفهم وأفئدتُهم هواء .

٢ وترى الناسَ سُكارى وما هُم بسُكارى

٣ هل تُحِسُّ منهم مِنْ أحدٍ أو تسمعُ لهُم رِكزاً

٤ ووُجوهٌ يومئذٍ عليها غَبَرةٌ ترْهَقها قترةٌ أُولئكَ همُ الكفَرة الفَجَرةُ .

٥ فانطلقوا وهُمْ يتخافتون .

في صفات الانسان الفطرية

١ إن الإنسانَ لظلومٌ كفّار .

٢ وكان الإنسانُ أكثرَ شيءٍ جدلا

٣ خُلِقَ الإنسان مِن عَجَلٍ .

٤ فِطرةَ اللهِ التي فطرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلق الله .

٥ وخُلِقَ الإنسانُ ضعيفاً .

٦ إنّ الإنسانَ ليطغى أن رآه استغنى

٧ إنّ الإنسان خُلِقَ هلوعاً إذا مسّه الشرُّ جزوعاً، وإذا مسّه الخيرُ منوعاً

٨ قُتِلَ الإنسان ما أكفرَه !

في الخوف

١ فأصبح في المدينة خائفاً يترقبُ

٢ فخرَجَ منها خائفاً يترقّبُ .

٣ لو اطلعت عليهم لولّيتَ منهم فِراراً ولمُلِئتَ منهم رُعباً .

٤ ذلك الذي يُخوّفُ الله به عبادَه

٥ فأوجَس منهم خِيفة .

٦ إننا نخافُ أن يَفرُط علينا أو أن يطغى

٧ إني أخاف أنْ يكذّبون .

٨ إذ دخلوا على داودَ ففزعَ منهم .

٩ إنّا منكم وَجِلون .

في التضجر والتحسر وإظهار الضعف

١ لقَدْ لقينا من سَفرنا هذا نَصَبًا .

٢ يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً .

٣ يا ليتني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نَسْياً مَنسيّاً .

٤ هذا منْ عملِ الشيطان إنه عدوٌّ مُضِلٌّ مُبين .

٥ هذا يومٌ عَسِر .

٦ يا ليتها كانت القاضية .

٧ ويضيقُ صدري ولا ينطلقُ لساني

في النفس الأمارة بالسوء

١ ما أصابكَ مِن حَسنةٍ فمنَ اللهِ وما أصابكَ مِن سيئةٍ فمن نفسِك

٢ وما أبرِّيءُ نفسي إنّ النفس لأمّارةٌ بالسُّوءِ إلا ما رَحِم ربي .

في الخجل والاستحياء

١ فجاءته إحداهن تمشي على استحياء

٢ يَتوارى مِنَ القوْمِ مِن سوء ما بُشِّرَ به .

في النسيان

١ وما أنسانيه إلا الشيطانُ أن أذكرَه .

٢ فنسِيَ ولم نجِدْ لهُ عَزماً .

٣ ونَسُوا حظّاً ممّا ذُكّروا به .

٤ ولا تَنْسَوا الفضلَ بينكم .

٥ واذكر ربكَ إذا نَسيتَ .

٦ سنُقرِئُكَ فلا تنسى .

٧ لا تؤاخِذْني بما نَسيتُ .

في الرؤيا والأحلام

١ نبّئنا بتأويلهِ إنّا نراكَ مِنَ المحسنين .

٢ أفتوني في رُؤيايَ إن كنتم للرُّؤيا تعبُرون .

٣ أضْغاثُ أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .

٤ أنا أنبئكم بتأويله .

٥ هذا تأويل رُؤيايَ مِن قبلُ قد جعلها ربّي حقاً

الفرح بزوال المكروه

١ وكفى اللهُ المؤمنين القِتالَ .

٢ الحمد لله الذي أذهبَ عنّا الحزَن .

٣ الحمدُ للهِ الذي نجّانا مِن القوْم الظالمين .

٤ فقُطعَ دابرُ القومِ الذين ظلموا والحمد للهِ ربِّ العالمين .

٥ فوَقعَ الحقُّ وبطلَ ما كانوا يعمَلون .
٦ فانقلبُوا بنِعْمةٍ مِن اللهِ وفضلٍ لم يمْسَسْهم سوء .
٧ فوقـاه الله سيئّات ما مَكروا.

في النعيم والسرور والقصور وما حوت

١ تعرفُ في وجوهِهم نَضرة النعيم
٢ إذا رأيتَهُم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً
٣ وُجوهٌ يومئـذٍ مُسفِرةٌ ضاحِكةٌ مُستَبشِرة .
٤ فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ وأكواب مَوضوعة ونمارقُ مَصفوفة وزَرابيُّ مَبثوثة .
٥ مُتـّكئينَ على فُرشٍ بطائنُها مِن استَبرَق .
٦ ويُطاف عليهم بآنيةٍ من فضةٍ وأكواب كانت قواريراً .
٧ مُتكئين فيها على الأرائكِ

في الجبال والبحار والسفن والأمواج

١ ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحمرٌ مختلِفٌ ألوانها وغرابيبُ سودٌ
٢ وقال اركبوا فيهـا باسم اللهِ مَجْريها ومُرساها .
٣ وهيَ تجري بهم في مَوجٍ كالجبال
٤ أو كظُلماتٍ في بحرٍ لجّيٍّ يَغشاه مَوْجٌ من فوقهِ مَوْجٌ من فوْقهِ سَحابٌ ظلماتٌ بعضها فوْقَ بعض إذا أخرج يَدَه لم يَكدْ يَراها .
٥ فغَشيَهم من اليمّ ما غَشِيهم .
٦ وحال بينهما الموجُ فكان مِنَ المغرَقين .
٧ وله الجـوارِ المنشَئَاتُ في البحر كالأعلام .

في المطر والبرق والرعد والريح

١ يَكاد سَنا بَرقهِ يذهب بالأبصار .
٢ هذا عارضٌ مُمطرُنا .
٣ ريحٌ فيها عذاب أليم .
٤ وهو الذي يُرسِل الرّياحَ بُشرىً بينَ يَديْ رحمتِه .

في البساتين والروح والريحان

١ ودانيةً عليهم ظِلالُها وذُللت قُطوفها تَذْليلا .
٢ فيها فاكِهةٌ والنخل ذاتُ الأكمام

والحبُّ ذو العَصْف والرَّيحان.
٣ في سدْرٍ مَخضودوطلحٍ منضودٍ وظلٍّ ممدود، وماءٍ مَسكوب وفاكهةٍ كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

في التفكر والنظر والاستدلال على الخالق

١ وما من دابّة في الأرض ولا طائر يَطيرُ بجناحيه إلاأُمَم أمثالكم.
٢ وترى الجبالَ تحْسَبُها جامدةً وهي تمُرُّ مَرَّ السّحابِ صُنْعَ اللهِ الذي أتقَنَ كلَّ شيء .
٣ وهو الذي يَبْدأُ الخلقَ ثم يُعيده وهو أهْوَنُ عليه .
٤ مــا خَلْقكم ولا بَعْثُكم إلا كنفس واحدة .
٥ لَخلقُ السموات والأرضِ أكبر من خلق الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون .
٦ وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين.
٧ وفي أنفسكم أفلا تُبصرون.
٨ فلينظر الإنسانُ إلى طعامه .
٩ فلينظر الإنسانُ ممَّ خُلقَ .
١٠ والله أنبتَكم من الأرض نباتاً ثم يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً.
١١ وجعلنا الليـــلَ والنهارَ آيتين فمحَوْنا آية الليل وجعلنا آية النهار مُبصِرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتَعلموا عددَ السّنينَ والحساب.
١٢ وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليهـــا الماء اهتزّت وربَتْ وأنبتَتْ من كلّ زوجٍ بهيج .

في العظة والعبرة

١ إنّ في ذلك لذكرى لمنْ كان له قلبٌ أو ألقى السّمــع وهو شهيدٌ .
٢ فاعتبروا يا أولى الأبصار.
٣ ذلك ذكرى للذاكرينَ .
٤ لنجعلها لكم تذْكرةً وتَعيهــا أُذنٌ واعية .
٥ إن في ذلك لعِبْرَةً لمن يَخشى .
٦ إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار.
٧ وما يذكّر إلا أُولوا الألباب.
٨ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولى الألباب .

في نعم الله وفضله

١ ذلك تخفيفٌ من ربّكم ورحمة .
٢ يُريدُ الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ
٣ وما من دابّة في الأرض إلا على الله رزقها .
٤ وإن تَعُدّوا نعمةَ الله لا تحصوها
٥ وإنّ ربكَ لذو مَغفرةٍ للناس على ظلمهم .

ما استأثر الله بعلمه

١ إنّ الله عنده علم الساعة ويُنزّل الغيثَ ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفسٌ ماذا تكسب غداً وما تدري نفسٌ بأيّ أرضٍ تموت إنّ الله عليم خبير.
٢ ويسألونك عن الروح قل الرُّوح مِن أمر ربي .

في العمل لوجه الله لا لجزاء الناس

١ إنما نُطعمُكم لوَجه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شُكوراً .
٢ وما أسألكم عليه من أجر إن أجريَ إلا على ربِّ العالمين .

وصف الدنيا وتحقير متاعها

١ قلْ مَتاعُ الدنيا قليل .
٢ إنما الحياة الدنيا لعِبٌ ولَهْو .
٣ وما الحياة الدنيا إلا متاعُ الغرور.

في التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا

١ الشيطانُ يَعِدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء .
٢ إنّ النفسَ لأمّارةٌ بالسّوء .
٣ فلا تغُرّنكم الحياة الدنيا ولا يَغرّنكم بالله الغَرور .

في التسليم بقضائه تعالى وقدَره

١ قُلْ لن يُصيبَنا إلا ما كتب اللهُ لنا هوَ موْلانا .
٢ ولو شاءَ ربكَ ما فعَلوه
٣ ليقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً .
٤ إنّ اللهَ بالغُ أمْرِهِ .
٥ ألا لهُ الخلقُ والأمرُ.
٦ اللهُ يبْسُط الرّزقَ لمن يشاءُ ويَقدِر .
٧ وربكَ يخلقُ ما يشاءُ ويختار.
٨ للهِ الأمرُ مِن قبلُ ومن بعدُ .

٩ ألا إلى الله تصيرُ الأمور .
١٠ لا يُسألُ عمّا يفعلُ .

في الترغيب في التقوى والاحسان

١ مَن جاء بالحسنةِ فلهُ عشرُ أمثالِها .
٢ إن الحسنات يُذهِبنَ السيئات .
٣ إنّ أكرَمكم عِندَ الله أتقاكم .
٤ ورحمةُ ربك خيرٌ مما يجمَعون .
٥ لِلذينَ أحسَنوا الحسنى وزيادةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وعلى الله قصدُ السبيل .
٢ وما ذلك على الله بعزيز
٣ حَسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل .
٤ إنما أشكو بَثي وحُزني إلى الله
٥ ليسَ لها من دونِ اللهِ كاشفة .
٦ واللهُ المستعانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت .
٢ لكل أجلٍ كِتابٌ .

في التوبة والانابة

١ إنما التوبةُ على اللهِ للذين يعملون السُّوءَ بجهالةٍ ثم يتوبون من قريبٍ .
٢ وليستِ التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدَهم الموتُ قال إني تُبتُ الآن .
٣ ومَن يَعملْ سوءا أو يَظلمْ نفسهُ ثم يَستغفر اللهَ يجِد اللهَ غفوراً رحيماً

في الدعاء والتضرع الى الله تعالى

١ ربَنا لا تؤاخِذنا إن نسينا أوْ أخطأنا .
٢ ربِّ هبْ لي مِن لدنكَ ذرّيةً طيِّبةً إنكَ سَميعَ الدُّعاء .
٣ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا معَ الأبرارِ .
٤ ربِّ أدْخلني مُدخَلَ صدقٍ وأخرجني مُخرجَ صدقٍ واجْعل لي من لدُنك سلطاناً نصيراً .
٥ ربنا آتنا من لدُنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً .
٦ ربِّ اشرح لي صدري ويسِّر لي أمري .

في فضل القرآن الكريم

١ ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مُدّكر .
٢ إن هذا القرآن يَهْدي للتي هي أقوَمُ .
٣ فاقرَءُوا ماتيسر مِنَ القرآن.
٤ وإذا قرىءَ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون .

في الانباء والاستنباء

١ عمّ يتساءلون عن النبأ العظيم، الذي هم فيه مُختَلِفونَ .
٢ فأقبَل بعضُهُم على بعض يتساءَلون .
٣ عرّف بعضه وأعرض عن بعض .
٤ مَنْ أنبأكَ هذا .
٥ هل أتاك حديث الجنود .

في الكتب والكتابة والرسالة

١ إذهَب بكتابي هذا فألقِه إليهم .
٢ ولقد وصّلنا لهمُ القول .
٣ فيها كتبٌ قيّمةٌ .
٤ هاؤمُ اقرأوا كتابيَه .

في الاقتراب والدنو

١ اقترَبتِ الساعةُ وانشقّ القمرُ .
٢ أليْسَ الصُّبْحُ بقريب ؟؟
٣ أزفتِ الآزفة .
٤ فكان قاب قوسَيْنِ أو أدنى .
٥ قل عَسى أن يكون قريباً .

في الضعف والعجز

١ فما استَطاعوا مِن قيام وما كانوا مُنتصرينَ .
٢ فما استطاعوا أن يظهرُوه وما استطاعوا له نَقباً .
٣ وما ينبغي لهم وما يستطيعون .
٤ إنك لن تستطيع معي صبراً .
٥ وإنّ أوْهَنَ البيوت لبَيْتُ العنكبوت .
٦ ضَعُفَ الطالب والمطلوب .
٧ فما له مِنْ قوّة ولا ناصِر .
٧ وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً .

في البلاء وما يصاب به الناس

١ فجعلناها حصيداً كأنْ لم تغْن بالأمس .
٢ إن هذا لهُوَ البلاءُ المبين .
٣ فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم
٤ ما تَذَرُ مِنْ شيءٍ أتت عليه الا جعلته كالرّميم .

٥ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية .
٦ وأخرجتِ الأرضُ أثقالها .
٧ فجعلهُم كعصفٍ مأكول .

في الاغترار بالمظاهر

١ وإذا رأيتهُم تُعجبك أجسامُهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهُم خُشُبٌ مُسنّدة .
٢ يحسبُهُ الظمآنُ ماءاً حتى إذا جاءهُ لم يجدْهُ شيئاً .
٣ يحسَبهم الجاهلُ أغنياء مِنَ التعفف .
٤ تحسَبهم جميعاً وقلوبُهم شتى .
٥ وتحسَبهم أيقاظاً وهم رُقودٌ .

في البشرى والتهنئة

١ يا بُشرى هذا غلام .
٢ بُشراكُمُ اليومَ .
٣ بشّرناكَ بالحقّ فلا تكن مِنَ القانطين .
٤ وبَشّروهُ بغلام عليم .

ما يقال عند الظفر بالحاجة

١ هذا مِن فضل ربّي .
٢ إنّ هذا لهوَ الفوزُ العظيم .
٣ فضلاً مِن الله ونعمة .
٤ ذلك ما كنا نَبغِ .

في الامتنان بالنعم

١ ألم نشرَح لكَ صدركَ .
٢ ألم يجدْكَ يتيماً فآوى، ووجدَكَ ضالاً فهدَى ووَجدَكَ عائلاً فأغنى .
٣ اذْكروا نِعمتي التي أنعمتُ عليكم .
٤ كلوا وارْعَوْا أنعامكم .
٥ ولولا أن ثبّتناك لقد كِدتَ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً .

في التحدث بالنعمة

١ وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جبّاراً شقيّاً .
٢ ولولا نعمة ربي لكُنتُ من المحضَرين .
٣ وأمّا بنعمةِ ربّك فحدّث .

التأمين والطمأنينة

١ خُذْها ولا تخَفْ .
٢ لا تَخَفْ نجوْتَ منَ القوم الظالمين .

٣ أقبِلْ ولا تخفْ انكَ من الآمنين.
٤ ولكن ليَطمَئِنَّ قلبي .
٥ لا تخَفْ إنك أنت الأعلى .
٦ وما أريد ان أشُقَّ عليك ستجدُني إن شاء اللهُ من الصالحين .
٧ ولا تخافي ولا تحزني إنّا رادوهُ إليكِ .
٨ لَنْ يصِلوا اليك .
٩ ولا تَهِنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعْلَوْنَ والله معكم .

أمثال مختارة للعرب

إن مِن البيان لَسحراً [١] ، إن البلاء مُوَكل بالمنْطق [٢] ، إن الموصَّينَ بَنُو سَهوان [٣] ، إن الشقيَّ وافد البرَاجم [٤] ، إن البُغاث بأرضنا يَستَنسِر [٥] ، إن الجبانَ حتفُه مِن فوقه [٦] ، إن المعافيَ غيرُ مخدوع [٧] ، إن في الشر خياراً ، إن الحديدَ بالحديد يُفلحُ ، إن الشفيق بسوء ظَن مُولَع [٨] ، إن وراء الأكَمةِ ما وراءها ، إن العصا من العُصيَّة [٩] ، إن العَوان لا تُعَلَّمُ الخمرة [١٠] ، إن الغنيَّ طويلُ الذيل مياس [١١] ، ان الليلَ طويلٌ ، وأنت مُقمر [١٢] ، ان العصا قُرعَت لذي الحِلم [١٣] ، ان الحبيب الى الإخوان ذو المال ، ان الهزيل اذا شبعَ ماتَ [١٤] ، ان غداً لناظرهِ قريب ، ان أخاكَ مَن آساكَ [١٥] ، انك لا تجني من الشوك العنبَ ، أتتك بحائن رجلاه ، انما أكلتُ يوم أُكِل الثور الأبيض ، ان يبغ عليكَ

---

(١) يضرب في استحسان المنطق (٢) يضرب لمن أسيء اليه. (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً. (٥) يضرب للضعيف يصير قوياً. (٦) يضرب في ان الحذر لا ينجي من القدر. (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع. (٨) يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً. (٩) يضرب في مشاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان: المرأة النصف ، والخمرة : لبس الخمار. يضرب في استغناء المجرب عن الإرشاد (١١) اي لا يستطيع ذو الغنى ان يكتمه. (١٢) يضرب للأمر بالتصبر في طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن إذا نبه انتبه (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (٥) يضرب في الحث على مراعاة الإخوان .

قومك لا يبغ عليكَ القمر[١]، إن كنت ريحاً فقد لاقيْتَ إعصاراً[٢]، إن ترد الماء بماء أكيس[٣]، إحدى حُظيّات لقمان[٤]، أكل عليه الدهر وشَرب[٥]، إنه ليعلم من أينَ تؤكل الكتِف[٦] آكل لحمي ولا أدعهُ لآكل[٧]، إيّاك وما يُعتذر منه، إذا زَل العالِمُ زَل بزِلته عالَم، أنتَ تئِقٌ وأنا مئِقٌ فمتى نتفِق[٨]، إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة، إذا حان القضاءُ ضاقَ الفَضاء[٩]، أم الجبان لاتفرح ولا تحزن إذا جاءت السنة جاء معهـــا أعوانُها[١٠] إن حالت القوْسُ فسهْمي صائبٌ[١١] ألا من يشتري سهراً بنوم[١٢]، إذا ما القارظ العنزي آبا[١٣] إن كنتَ كذوباً فكن ذكوراً[١٤]. إنما يُحمَل الكلُّ على أهل الفضل[١٥]، إذا تخاصم اللصان ظهر المسروق[١٦]، إذا تفرقت الغنم قادتها العنز الجرباء، إذا عابَ البزّاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته[١٧]، إذا أردت أن تطاع فسلْ مايُستطاع، إن يكن الشغلُ مجهدةً فإن الفراغ مفسدة، إذا قدم الإخاء سمج الثناء، بلغ السيلُ الزُّبى[١٨] بعضُ الشر أهون من بعض[١٩] بلغ السكين العظم[٢٠] باقعة من البواقع[٢١]

(١) يضرب للأمر المشهور (٢) يضرب للداهي الشديد يبلى بمن هو أدهى منه وأشد (٣) يضرب للأخذ في الأمور بالاحتياط (٤) يضرب في الشر يصدر عمن عرف به، وحظيات لقمان: سهامه (وفي القاموس خطأ). (٥) يضرب لمن طال عمره. (٦) يضرب في المجرب المحنك. (٧) يضرب في الرجل ينصر قرينه وإن كان عدوه. (٨) التئق: السريع إلى الشر، والمئق: السريع الى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقاً. (٩) يضرب لمن يخاطب شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً.
(١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والأمراض، يضرب في تجمع الشدائد.
(١١) حالت القوس: زالت عن استقامتها. يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته
(١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية. (١٣) يضرب في امتداد البعد والغيبة
(١٤) يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه. (١٥) الكل: الثقل.
(١٦) يضرب في القوم يختلفون فيسود فيهم الأشرار (١٧) البزاز: بائع الثياب.
(١٨) الزبى: جمع زبية وهي أعلى الجبل، يضرب لمن جاوز الحد (١٩) يضرب في الشرين يختار أهونها (٢٠) يضرب لمن جاوز الحد. (٢١) الباقعة: الداهية يقال في الرجل يكون داهياً منكراً.

إبْدأهُم بالصُّراخ يَفِرُّوا[١] ، أبدى الصَّريخ عن الرَّغوة[٢] ، بَمض الجدَب أمرأ للهزيل[٣] ، بنانُ كفٍّ ليس فيها ساعد[٤] ، بعد البلاء يكون الثَّناء ، أبلغ من قُسّ ، أبخل من مادر ، أبصرُ من زرقاء اليمامة ، أبصرُ من غراب ، أبقى من الدهر ، أبقى من وحْيٍ في حجر[٥] ، أبينُ من فلق الصُّبح ، أبْكر من غُراب ، تركُ الذَّنب أيْسر من طلب التَّوبة ، تجوع الحُرَّة ولا تأكلُ بثدْييْها[٦] ، تسألني برامتين سَلجمًا[٧] ، تجَشَّأ لقمانُ من غيرِ شبع[٨] ، تضربُ في حديد بارد ، تَلدغ العقربُ وتصيء[٩] ، تركتهم في حَيْص بَيْص[١٠] ، تطلبُ أثراً بعد عيْن[١١] ، تسمع بالمعيْدي خيرٌ من أن تراه[١٢] ، اتخذ الليلُ جملا[١٣] ، ترى الفتيـان كالنخل وما يدْريك ما الدخْل[١٤] ، التثبتُ نصفُ العفو ، تقطَّعُ أعناق الرجال المطامع ، أتبعْ السيئةَ الحسنةَ تمحها ، اتق شر من أحسنتَ اليه[١٥] ، تضرَّع إلى الطبيب قبل أن تمرض[١٦] ، تجري الرِّياحُ بما لا تشتهي السفنُ ، التقديرُ أحدُ الكاسبين ، التدبير نصف المعيشة ، جزاء سنمار ، اسمعُ جعجعةً ولا أرى طحنا ، جوِّع كلبك يتبعك[١٧] جاوز الحزامُ الطبيين[١٨] ، جانيك منْ يجني عليك[١٩] ، جليسُ السوء كالقيْنِ[٢٠] إن لم يُحرق ثوبك

(١) يضرب في الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره (٣) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الغنى بل يطغى فيه (٤) يضرب فيمن له همه ولا قدرة له على بلوغ ما في نفسه (٥) الوحي : الكتابة (٦) أي لاتكون مرضعاً ، يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب (٧) السلجم اللفت ، يضرب لمن يطلب شيئاً في غير موضعه (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت العقرب صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لا مخلص له منه (١١) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه (١٢) يضرب فيمن منظره دون مخبره (١٣) أي أدى واجبه من العمل ليلاً (١٤) يضرب لذي المنظر لا خير فيه (١٥) يضرب في مقابلة الإحسان بالإساءة (١٦) يضرب فيمن يعد ولا يفي (١٧) يضرب فيما ينبغي أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب في تفاقم الأمر (١٩) أي لا تزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

دَخْنه ، جاءوا على بَكرة أبيهم[١] ، أجودُ من حاتم ، ومن كعب بن مَامة ، أجبنُ من صافر ، ومن نعامة[٢] ، أجهلُ من فرَاشة ، أجمعُ من نملة ، حالَ الجريضُ دون القريض[٣] ، حنّ قِدْح ليس منها[٤] ، حسبك مِن شرٍ سماعه ، حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق[٥] ، حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم ، الحديث ذو شجون[٦] ، حافظ على الصديق ولو في الحريق ، أحَشَفاً وسوء كيلة[٧] ، الحكمة ضالة المؤمن ، الحبارى خالة الكرَوان ، الحاجة تفتُقُ الحيلة[٨] أحمقُ من هَبَنَّقة ومن جُحا ، أحلم من الأحنف ، أحكم من لقمان ، أحذرُ من غراب ، ومن ذِئب ، ومن ظليم[٩] ، أحفظُ من الشّعبي ، خذْ من جذع ما أعطاك[١٠] ، خالِفْ تذْكر ، خَرْقاءَ وجدت صوفاً[١١] ، خير المال عينٌ خرّارة في أرض خوّارة[١٢] ، أخطبُ من سحبان ، ومن قس ، أخوَنُ من ذِئب ، دون ذا وينفُق الحمار[١٣] ، أدهى من قيس بن زُهير ، ومن عمرو بن العاص ذهبوا أيدي سبأ[١٤] ، الذئب خاليـاً أَسدٌ ، ذكرتني الطعن وكنت ناسياً[١٥] ، رَمتني بدائها وانسلت[١٦] ، رماه الله بثالثـة الأثافي[١٧] ، رُب قول أشد من

---

(١) أي جاءوا جميعاً (٢) الصافر من الطيور بغاثها وضعافها (٣) الجريض: الغصة والقريض : الشعر . يضرب في الأمر يتيسر حين لا ينفع (٤) يضرب في الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب في اقالة السيئة وما يخشى منها (٦) الشجون . الفنون . يضرب في الحديث يتذكر به غيره (٧) يضرب في الجمع بين خصلتين مكروهتين (٨) يضرب في مناسبة أحد الشيئين للآخر (٩) الظليم : ذكر النعام (١٠) جذع : اسم رجل . يضرب في اغتنام ما يجود به البخيل (١١) الخرقاء: التي لا تحسن العمل ، يضرب لمن يفسد عمله بسوء تصرفه (١٢) الخوارة : الأرض التي فيها لين وسهولة (١٣) يضرب في المبالغة في المدح بغير احتياج إليه (١٤) أي تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ (١٥) يضرب في تذكر الشيء بغيره (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه (١٧) الأثافي : جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر ، وهما اثنتان وثالثتهما الجبل ، والمراد بها الداهية العظيمة .

صَوْل [1] ، رُبَّ أخٍ لكَ لم تلِدْه أُمك، رجع بخُفَّي حنين [2]، رُبَّ رمية من غير رام، الراوية أحدُ الشاتمين [3] رُبَّ كلمة سلبت نِعمةً ، رُبَّ مَلوم لا ذَنب له، رُبَّ زارع لنفسه حاصدٌ سواه أروى من ضَبٍّ [4]، ارق من النسيم ومن رقراق السَّراب ومن غِرقىء البيض [5]، الزيتُ في العجين لا يضيع [6]، زَكاة النعم المعروف، أزكنُ من إياس ، أزهى من طاوس [7] ، سبَق السَّيف العَذْل [8] ، أساء سَمْعاً فأساء إجابةً ، سكتَ ألفاً ونطق خُلفاً [9]، سرق السَّارق فانتحر [10]، السليمُ لا ينام ولا يُنيم [11] سحابةُ صيفٍ عن قليل تقشَّع ، شرّ الرأيِ الدَّبَريُّ [12] شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض [13] ، شنشنةٌ أعرِفُها من أخزَم [14] ، شرٌّ من الموت مَا يُتمنى معه الموت، أشأم من البَسوس، ومِن أحمر عاد، ومن غراب البين [15] أشكر من كلب، صَدقني سنّ بَكره [16] ، صادف دَرْء السَّيل دَرْءاً يَصدعه . صدرك

---

(١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب في الخيبة (٣) هذا كقولنا شتمك من بلغك (٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج إلى شرب الماء بفتح فاه للهواء فيكون في ذلك ريه (٥) الغرقىء القشرة الرقيقة الملتزمة ببياض البيضة (٦) يضرب في الإحسان إلى الأقارب (٧) الزهو : العجب (٨) يضرب في الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه الخلف الرديء من القول ١٠ يضرب لمن تنــتزع من يده ما ليس له فيجزع عليه (١١) السليم : الملدوغ، يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره ١٢) الدبري ما يسنح بعد فوات الفرصة (١٣ الشخب : ما خرج من الضرع ممتداً من اللبن ، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطىء أخرى .

(١٤) الشنشنة : الطبيعة والعادة يضرب في مشابهة الفرع لأصله في الشر .

(١٥) البسوس . هي المرأة التي هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ، وأحمر عاد هو أحمر ثمود ، وهو الذي عقر الناقة فحل العذاب بثمود من جزاء عمله .

(١٦) يضرب في الإنسان يقول الحق على غير قصد منه .

(١٧) هذا كمن قال : لا يفل الحديد إلا الحديد .

أوسَع لِسرّك . أصدقُ من قطاة[١]، أصمبُ من ردّ الشُّخْب في الضّرع ،ضرب أخماساً لأسداس[٢] ، أضيَقُ من ظِلّ الرمْح، أضعف من بعوضة، أضبطُ من نملة، أطرقْ كراً ، إنّ النعامة في القرى[٣] أطولُ صُحْبة من الفرقدَين ، أطمعُ من أشعب ، طبيبٌ يُداوي الناس وهو مريضٌ ، طفيليّ ومُقترِح ، ظِئْر رَءُوم خيرٌ من أمّ سَئُوم[٤] ، عِند الصباح يَحْمَدُ القوم السرَى[٥] ، عند جُهينة َالخبرُ اليقين[٦]، عرض عليه خَصلتي الضَّبُع[٧] عِش رَجباً ترَ عجباً، أعط القوس باريَها، أعرض ثوب الملبس ، العَوَدُ أحمد ، عِند الامتحان يُكرم المرءُ أو يُهان،أعز من كليب وائل ، أعيى من باقـل ، أعدى من الظليم ، ومن الشَّنْفَرى ، ومن السليك ، أعق من ذِئبة، أعقدُ من ذنب الضَّبّ، وأعجزُ ممّنْ قتل الدخانُ[٨] غدّة كغدّة البعير وموت في بيت سلوليّة[٩] ، غثّك خيرٌ من سَمين غيرك ، في الصيف ضيّعت اللبن[١٠] في بيته يُؤتى الحكَم، في كل شَجَر نار ، واستمجدَ المرْخ والعَقار[١١]، أفرسُ من بسطام ، أفتكُ من عمرو بن كلثوم، قطعت جهيزة قول كل خطيب[١٢]،وقد أنصف القارة من راماها[١٣] ، قبل الرّماء تملأالكنائن[١٤] ،

(١) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره (٣) الكرا : الكروان ، يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه (٤) الظئر: الحاضنة والرءوم: العطوف (٥) يضرب في تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب في الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : على الخبير سقطت (٧) تزعم العرب أن الضبع صادت ثعلباً وخيرته بين ان تأكله وأن تمزقه ، يضرب فيمن يسوم غيره ما لا خيار فيه من البلاء (٨) يضرب فيمن إذا سألته عن أمر ابهم الجواب (٩) سلول قبيلة ذليلة ، يضرب في اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه (١١) المرح والعقار. شجرتان قويتا النار يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحماقة يأتي بها ١٣ القارة : قبيلة من أبرع الناس في المراماة .
(١٤) يضرب في الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه .

أقتلوني ومالكاً [١] ، القولُ ما قالت حذامِ ، كان كُراعاً فصار ذراعاً [٢] ، كلامٌ كالعسل ، وفعلٌ كالأسل [٣] ، كل فتاةٍ بأبيها مُعجبةٌ [٤] ، كطالب القرْن جُدِعت أذنه [٥] كمُجير أمّ عامر [٦] كيف أعاودك وهذا أثر فأسك [٧] ، كأنّ على رءوسهم الطير ، كالمستجير من الرَّمْضاءِ بالنار ، لو ذات سوار لطمتني [٨] ، لو خُيِّرْتُ لاخترت ، لو ترك القطا ليلاً لنام [٩] ، لعلَّ له عُذراً وأنت تلومُ ، لأمرٍ ما جدَع قصير أنفه ، لكل مقامٍ مقالٌ ، لا مخبأ لعِطر بعد عروس [١٠] ، لا تعدَمُ الحسناءُ ذاماً [١١] ، لا تهْرِفْ بما لا تعرِفُ [١٢] ، لا ناقتي فيها ولا جملي ، لا في العير ولا في النَّفير [١٣] لا يفُلُّ الحديد إلا الحديد ، لا تأمن الأحمق وبيده سكين [١٤] ، لا تجزَعَنَّ من سُنّةٍ أنت سرْتها ، ما وراءك يا عِصام ، ما يوم حليمة بسِر [١٥] ، ما أشبه الليلة بالبارحة . مَرْعىً ولا كالسعدان [١٦] ، ما كل بيْضاءَ شَحْمةٌ ، منك أنفكَ وإنْ كان أجْدع [١٧] ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأمنه يؤتى

---

(١) يضرب فيمن يريد بصاحبه المكروه وإن ناله هو منه ضرر (٢) يضرب في الذليل يصبح عزيزاً (٣) الأسل الرماح (٤) يضرب في عجب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل في النعام ، ويضرب في طلب الأمر يفضي بصاحبه إلى التلف (٦) أم عامر الضبع وقد أكلت من أجارهـا . يضرب في الذي يجزى على إحسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لا يفي بالعهد (٨) يضرب في الوضيع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل على مكروه من غير إرادته (١٠) يضرب فيمن لا يدخر عنه نفيس (١١) يضرب في الشيء الحسن لا يخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل في مدح الشيء قبل تمام معرفته (١٣) يضرب في الوضيع ليس فيه شيء من خلال الشرف (١٤) يضرب في عسف الجاهل إذا قدر

(١٥) حليمة بنت مالك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يجهل

(١٦) السعدان : نبت من أنفع الأعشاب للإبل ، يضرب في الشيء يفضل على اشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره

الحذر ، مواعيدُ عرقوبٍ ، مُكرَهٌ أخوك لا بطل [١] ، أمنعُ من عُقاب الجو نَفسُ عِصامٍ سَوَّدت عِصاماً [٢] نعيمُ كلب في بُؤس أهله [٣] أندَمُ من الكُسَعيِّ وافقَ شنٌّ طبقة [٤] ، أوردَها سعد وسعْد مشتمل [٥] ، أوفى من السَّموْءل ومن الحارث بن عباد ، هُما كفرَسَيْ رهان ، يَداك أوْكتا وفُوكَ نفخ [٦] : اليومَ خمر وغداً أمْر [٧]

الفن الرابع في الأوصاف

الوصفُ [٨] عبارة عن بيان الأمرِ باستيعاب أحواله وضُروب نعوته المُمثل له وأصولهُ ثلاثة :

الأوّل : أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عما سواه .

الثاني : أن يكون ذا طلاوة ورونَق .

الثالث : أنْ لا يخرجَ فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفى بما كان مناسباً للحال — وأنواعه كثيرة ، ولكنّها ترجع إلى قسمين : وهما وَصف الأشياءِ ووصف الأشخاص — أمّا الأشياءُ الحريةُ بالوصفِ فهي كالأمكنة والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأمّا وصفُ الأشخاص فيكون بوصف الصورة أو الطبع أو بوصفهما معاً ، ولنذكر لك فقراً جارية على ألسنة البلغاء في صفات شتى — ثم نتبعها بمقالات في الوصف نثراً ونظماً .

---

(١) يضرب فيمن يحمل على ما لبس من شأنه (٢) يضرب في سؤدد الرجل نفسه (٣) يضرب في التابع — كالخادم يشغل سادته بصيده فيغنم ما قدر عليه من أموالهم (٤) يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب للمقصر في الأمر (٦) يضرب لمن يجني على نفسه (٧) يضرب في تقلب الأيام (٨) أحسن طريقة للاجادة في الوصف أن ترسم أولاً في بدء وصفك نظراً عاماً جامعاً لمجملي الأمر الذي تحاول وصفه ثم تأخذ بإيراد مختلف الأجزاء قسماً فقسماً وذلك إما على تتابع ورود هذا الأجزاء ، او إيثار ما كان يراه الكاتب اشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بَلدَة ٌ كأنها صورة جَنّة الخُلد ، منقوشة ٌ في عرض الأرض ، بلدة ٌ كأنّ محاسنَ الدُّنيا مجموعة ٌ ومحصورة في نواحيها ، بلدة ٌ ترابها عَنبر ، وحصباؤها عقيق ، وهواؤها نسيم ، وماؤها رَحيق ، بلدة ٌ معشوقة السكنى ، رحْبة المَثْوى [1] ، كوكبها يَقظان ، وجوّها عُريان ، يومها غداة ٌ ، وليلها سَحَر ، بلدة ٌ واسعة الرّقعة ، طيّبة البقْعة ، واسطة البلاد وسُرّتها ، ووجْهها وغُرّتها .

وصف القلاع

قلعة ٌ حلّقت [2] بالجوّ تناجي السّماء بأسرارها ، قلعة ٌ تتوشح بالغُيوم ، وتجتلي النجوم ، قلعة ٌ مُتَناهية في الحصانة ، ممتنعة ٌ عن الطلب والطالب ، منصوبة على أضيق المسالك وأوعر المناصب ، لم تزدها الأيام إلا نبُوّ [3] أعطاف ، واستِصْعابَ جوانب وأطراف ، قد ملّ الملوك حصارَها ، ففارقوها عن طماح [4] منها وشماس [5] وسئمت الجيوش ظلّها ، فغادرَتها [6] بعد قنوط وإياس ، فهي حمى لا يُراع [7] ومَعقِل لا يُستَطاع ، كأن الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث والليالي ، وعاهدتها على التسليم من القَوارع [8] .

وصف الدُّور

دارُ قرارٍ توسعُ العينَ قرّة ، والنّفسَ مسرة ، كأن بانيها استسلف الجنة ، فعجّلت له دار ٌ تَغار منها الدور ، وتتقاصرُ عنها القُصور ، دار ٌ اقترن اليُمن [9] بيمناها واليسر بيسراها ، الجسوم منها في حَضَر ، والعيون على سفر ، دار ٌ دار السعد نجمها وفار بالحسن سهمها ، يخدمها الدهر ، ويأويها البدر ، ويكنفها النّصر ، هي مرتع النواظر ومتنفس الخواطر أخذت ادوات الجنان ، وضحكت من العبقَري [10] الحسان .

---

(١) الإقامة (٢) ارتفعت (٣) بعداً (٤) كبر وفخر (٥) إباء وامتناع (٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحداً (٨) الحوادث والنوائب (٩) البركة (١٠) البسط المعجب شكلها .

وصف الديار الخالية

دارٌ لبِسَت البِلى وتعطّلت من الحُلى ، صارت من أهلها خالية ، بعد ما كانت بهم حالية ، وقد أنفد البَيْنُ سكانها ، وأقعدَ حيطانَها ، دارٌ شاهدُ اليأس منها ينطق ، وحبلُ الرّجاء فيها يقصر ، كأنّ عمرانها يُطوى ، وخرابها يُنشر ، أركانها قيامٌ وقعود ، وحيطانها رُكّع وسجود :

بَكَتْ دارهم من بَعْدهم فتهللت دموعي فأيُّ الجازِعين ألوم
أمُسْتعبراً يَبكي على اللهو والبِلى أم آخر يَبكي شَجوه فيهم ؟

وصف أيام الربيع

يَوْمٌ جلابيب غيُومه رواق[١] وأوْديةُ نَسيمه رقاق ، يومٌ سماؤه فاختية ، وأرضه طاوُوسيّة ، يومٌ مُمَسّك السماء ، مُعصفَرُ الهواء ، مُعَنْبرُ الروضَ ، مصنْدَل الماء ، يومٌ تبسّم عنه الربيع ، وتبرّج عنه الرّوض المريع ، يومٌ كأنّ سماءه مُجِدٌ تتباكى وأرضه عروسٌ تتجلى ، يومٌ دَجنُه [٢] عاكف ، وقَطرُه واكف [٣]

وصف الرياض

رَوْضةٌ رقت حواشيها وتأنقَ واشيها[٤] ، روضة كالعُقود المنظمة على البرود المنمنمة ، روضة قد راضتها أكفّ المطر ، ودبجتها أيدي النّدى ، رياضٌ كالعرائس في حَليها وزخارفها ، والقيانِ[٥] في وشيها ومطارفها[٦] ، باسطة زَرابيّها وأنماطها ، ناشرة برودها ورياطها ، زاهية بحمرائها وصَفرائها ، تائهةٌ بغيدانها وغدرانها ، كأنما احتفلت لوفد ، أو هي من حبيب على وعْد ، روضة قد تضوعت[٧] بالأرج [٨] الطيّب أرجاؤها ، وتبرجَت [٩] في ظُلل الغَمام صحراؤها ، وتنافحت

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض (٢) الغيم (٣) سائل (٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية (٦) جمع مطرف رداء من خز مربع فيه أعلام والزرابيّ البسط ، والأنماط الأثواب التي تطرح على الهوادج ، والرياط الأثواب الرقاق (٧) تحركت (٨) النفح : الريح الطيب (٩) تزينت .

بنوافح المسك أنوارُها، وتعارَضت بغرائب النطق أطيارُها . بُستانٌ أنهارُه محفوفة بالأزهار، وأشجاره مُوقرةٌ بالثمار، اشجارٌ كأن الحورَ اعارتها قدودها وكستْها بُرودها، وحلتها عُقودها، شقائقُ كتيجان العقيقِ على رءُوس الزنوج كأنها أصداغُ المِسْكِ على الوجنات الموردة، كأن الشقيق جام[1] من عقيقٍ أحمر، مُلِئت قرارته بمسكٍ اذفر، الأرض زُمُردة، والأشجار وَشيٌ، والماءُ سيوفٌ، والطيور قيان[2] قد غردت خطباءُ الأطيار على منابر الأنوار والأزهار .

وصف طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قُص جَناحها، وضلَّ صَباحها . ليالٍ ليست لها اسحارٌ، وظلمات لا تتخللها أنوار . ليلٌ ثابت الأطناب[3]، بَطيءُ الغوارب طامح الأمواج وافي الذوائب . بات بليلة ساورته[4] فيها الهموم، وسامرته النجوم، واكتحل السهاد، وافترش القتاد، واكتحَل بماء السهر، وتململ على فراش الفكر، قد أقض مِهادُه[5] وقلِقَ وساده، هموم تفرق بين الجنب والمهاد، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأفول النجوم

قد اكتهَل[6] الظلام، قد نصّفنا عمر الليل واستغرقنا شبابه، قد شاب رأس الليل، كادينمُّ النسيم بالسحر، قد انكشف غِطاء الليل وستر الدجى، هرِم الليل وشمِطت ذَوائبه، قُوضت[7] خيام الليل، وخلع الأفق ثوبَ الدجى، تبسم الفجرُ ضاحكاً من شَرْقه، ونصب أعلامه على منازل أُفقه، اقتنص بازي الضوء غراب الظلام، وفضَّ كافور النور مِن الغَسَق مِسك الختام، طرز قميص الليل بغرَّة الصبح، باحَ الصبح بسره، خَلع الليل ثيابه وحدَر[8] الصبح نقابه، بث الصبح طلائعه، تبرقع الليل بغرة الصبح، أطار منادي الصبح غراب الليل،

(١) إناء (٢) مغنيات (٣) جبال الخيمة (٤) شغلته وقاومته
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلاً تشبيهاً بالرجل الكهل وهو من جاوز الأربعين سنة (٧) هدمت (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل بجامات الكافور ، وانهزمَ جَيشُ الظلام عن عَسكرِ النور ، مالت الجوزاء [١] للغروب ، وولّت مواكبُ الكواكب ، وتناثرَت عقودُ النُّجوم ، ووهى نطاق الجوزاء ، وانطفأ قِنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بَدَا حاجبُ الشَّمس ، لقت الغَزالة [٢] لُعابَها وضَربَت الضُّحى [٣] أطنابَها ، انتشَرَ جناحُ الضوء ، في أفقِ الجوّ ، استوى شبابُ النار على رَونق الضُّحى ، بلغت الشمسُ كبِدَ السّماء ، قام قائمُ الهاجرة ورَمت الشمس بجمرات الظهر . اصفرَّت غِلالة [٤] الشمس ، وصارت كأنها لدينارُ يلمع في قرار الماء ، نفضت تِبراً على الأصيل ، وشدّت رَحلها للرَّحيل ، جَنَحت الشمس إلى مغاربها دَلكت [٥] دلوح [٦] واغبرّ لوحُ اللوح [٧] تصوّبت الشمس للمَغيب ، تَضيّفت للغُروب ، فآذن جنبُها بالوُجوب [٨] شابَ النهار وأقبلَ شَبابُ الليل ، استتر وجه الشمس بالنِّقاب ، وتوارت بالحِجاب ، وكأنّ هذا الأمرِ منْ مَطلعِ الفَلق إلى مجمع الغَسق .

وصف الرعد والبرق

قام خطيبُ الرَّعد ، نبَض [٩] عِرقُ البرق ، سحابة ارتجزت [١٠] رُعودُها ، وَذَهبتْ بِبروقها بُرودُها ، نطق لسانُ الرّعد ، وخَفَقَ قلبُ البرق ، فالرعد ذو صخب [١١] والبرق ذو لَهب ، ابتَسم البَرقُ عن قَهقهةِ الرّعد ، زَأرت أسود الرعد ولمعت سُيوفُ البرق ، رعدت الغَمائم وبَرقت ، وانحلت عُرى السماء فطبقت ، هدرت رواعِدُها ، وقربت أباعدها ، وصدقت مواعدها .

---

(١) برج في السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث والضحا تذكر على أنها اسم . (٤) الثوب الرقيق (٥) غربت (٦) السحابة (٧) واللوح اللمح واللمعان ؛ من لاح يلوح لوحاً (٨) وجبت الشمس وجيباً ووجوباً غابت. (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقول رجز الراجز وارتجز أيضاً (١١) كثير اللغط والجلبة .

وصف مقدّمات المطر

لبِست السماءُ سِرْبالها، وسَحَبت السَّحائبُ أذيالها، قد احتَجَبَت السماء في سُرداق الغَيم، لبس الجو مُطرَفه[1] الأدكن[2]، باحَت الرِّيحُ بأسرار النّدى، ضُربت خيمة الغَمام، ابتلّ جناح الهواء واغرَوْرقت مُقلة السماء، هبّت شمائل الجنائب، لتأليف شمل السحائب، تألفت أشتات الغيوم، السّتور وأسبلت على النجوم.

وصف الثلج والبرد وأيام الشتاء

مَد الشتاءُ رواقه، وألقى اوراقه[3] وحلّ نطاقه، أناخ بِـبَوازِله، وأرْسى بكلاكله، وكلّح بوجهه، وكشّر عن أنيابه، قد عادت الجبال شِيباً، ولبست من الثلوج ملاءً قشيباً[4] شابتْ مفارق البُروج بتراكم الثلوج، ألمّ الشيب بها، وابيضت لمَمُها[5]، بردٌ يقضقض[6] الأعضاء، وينقضُ الأحشاء، برد يُجمِّدُ الريق في الأشداق والدمع في الآماق، يومٌ كأن الأرض شابتْ لهَوْله، يوم فضي الجلباب مسكي النقاب، عبوس قمطرير[7]، كشر عن ناب الزمهرير وفرش الأرض بالقوارير[8]، يومٌ أرضه كالقوارير اللامعة، وهواؤه كالزنابير اللاسعة.

وصف المطر والسحاب والماء والغدران

ماءٌ إذا مسته أيدي النسيم[9]، حكى سلاسل الفضة، غديرٌ ترقرقت[10] فيه دموع السحائب، وتواترَت عليه أنفاس الرِّياح الغرائب، انحلّ عِقد السماء وانهلّ دمع الأنواء[11] انحل سلك القَطر، عن دُر البحر، سحابةٌ تحدو من الغيوم جمالاً، وتَمدّ من الأمطار جِبَالاً، سحابة ترْسل الأمطار أمواجاً.

---

(١) رداء من خز مربع ذو أعلام (٢) المائل إلى السواد (٣) جمع روق. وهو والرواق بمعنى (٤) جديداً (٥) جمع لمة للشعر الذي يجاوز شحمة الآذان (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع قارورة وهي الإناء من الزجاج (٩) شابة (١٠) تحركت (١١) جمع نوء: المطر.

والامواجَ أفواجاً . سحابة ٌ يَضحك من بكائها الرّوضُ ، وتخضرُّ من سوادها الأرض ، سحابة ٌ لا تجف جفونها ، ولا يخف أنينها ، ديمة ٌ [١] روّت أديم [٢] الثرى [٣] ، ونبهت عيون النَّوْر من الكرى [٤] ، سحابة ركِبت أعناق الرياح وسحّت كأفواه الجراح . مطر ٌ كأفواه القرب .

وصف القيظ وشدة الحر

حر ٌ يشبه قلب الصب ، ويُذيب دماغ الضبّ [٥] قوي سلطانُ الحرّ ، وبسط بساط الجمر ، أوْقدت الشمس نارها ، وأذْكت [٦] أُوَارها [٧] ، حر ٌ يلفح حرّ الوجه ، هاجرة ٌ كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار الفراق ، هاجرة تحكي نار الهَجر ، وتُذيب قلب الصخر ، حر ٌ تهرب له الحِرباء [٨] من الشمس ، قد صَهَرَتِ [٩] الهاجرة الأبدان ، وركبت الجنادب [١٠] العيدان ، حر يُنضج الجلود ، ويذيب الجلمود ، أيام كأيام الفرقة امتداداً ، وحر كحرّ الوجه اشتداداً ، هاجرة [١١] كالسعير الهاجم ، يجز أذيال السمائم [١٢] .

وصف الشيب

ذوى [١٣] غصن شبابه ، بدتْ في رأسه طلائع المشيب ، أقمر ليل شبابه ، ظهرتْ غرةالقمر ، وأوْمَضَ [١٤] البرق في ليل الشَّعْر رُمي فاحم الفوْد [١٥] بضدّه واشتعل المبيضُ في مسودّه ، لمع ضوءُ فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غبار وقائع الدهر ، بَينا هو راقد ٌ في ليل الشباب ، أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، جاوَز من الشباب مراحل ، وورَد من الشيب مناهل ،

---

(١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب ٤ النوم ٥ حيوان بري لا يعيش إلا في الجهات الشديدة الحر ٦ أوقدت ٧ نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألواناً بحر الشمس (٩) أذابت (١٠) الجراد (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح الحارة (١٣) ذبل (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

فلّ[١] الدهرُ شبا شبابه، ومحاسن رُوائه، طار غراب شبابه، انتهى شبابُه، وشاب أترابُه، استبدل بالأدهم[٢] الأبلق[٣] وبالغراب العَقْعَق[٤]، استعاض[٥] من الغراب بقادمة النَّسر، أسفرَ صبحُ المشيب، علتْهُ أُهبةُ الكبرِ، نفض جُبة الصبا، وتولى داعيةَ الحِجا[٦]، الشيب زُبدةٌ مخضتْها الأيام، وفضة محَّصتْها التجارب سرى في طريق الرُّشد بمصباح الشيب، الشيبُ خِطام المنيّة، الشيب نذيرُ الآخرة.

وصف آلات الكتابة

الدواة – المداد – الأقلام

الدواةُ من أنفع الأدواتِ، وهي للكتابة عَتاد[٧]، وللخاطِر زناد، غديرٌ لا يَرِدُ غيرَ الأفهام، ولا يمتح[٨] بغير أرْشية[٩] الأقلام، غديرٌ تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ سُحب البلاغة من قراره.

مِدادٌ كسواد العين، وسويداءِ القلب، وجناح الغراب، ولُعاب الليل، وألوان دُهم الخيل، مدادٌ ناسب خافية الغراب، واستعارَ لونه من شَرْخ[١٠] الشباب.

أقلامٌ جَمَّة المحاسن، بعيدةٌ من المطاعن، أنابيبُ نَسبت رماح الخط في أجناسها، وشاكلتْ الذهب ألوانها، وضاهت الحديدَ في لمعانها، أقلامٌ كأنها الأميال استواءً، والآجال مضاءً، بطيئه الخفى قوية القُوى قلم لا ينبُو[١١] إذا نبتَ الصِّفاح، ولا يُخنْجِم[١٢] إذا أحجمت الرِّماح، قلم يسكتُ واقفاً، وينطق ساكتاً.

وصف الخطباء

جَلَوْا بكلامهم الأبصار العليلة، وشَحَذوا بمواعظهم الأذهان الكليلة،

(١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة (٥) جعله عوضاً (٦) العقل (٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر (٨) لا ينزع (٩) حبال الدلاء (١٠) ريعانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

ونبهوا القلوبَ من رَقْدتها ، ونقلوها عن سوءِ عادتها ، فشفَوْا من داء القسوة ، وغباوة الغفلة وداوَوْا من العيّ الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيبٌ لا تناله حبسة ، ولا ترتهنه لكنةٌ ، ولا تتمشى في خطابه رُتةٌ[1] ، ولا تتحيفُ[2] بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيبٌ جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس أفكاره صباح ، خطيبٌ تزّينت بدُرَرِ ألفاظه عقود المُلح ، لا عيب فيه إلا أن لفظه عطل الياقوت والدُّرّ ، خطيبٌ مصقع ينثر لسانُه اللؤلؤ المكنون ، هو الخطيب المصقع الذي أشخصَ بآيات خطبهِ الزاجرةِ عيون القوم وأبكاها ، هو الخطيب المصقع الذي تتلاعب بالعُقول معانيه ، ويُصاغُ الدُّرُّ من لفظِ فيه ، هو الخطيب الذي تهتزّ له المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السِّحر متسابقةً ، آخذاً بعضها برقاب بعض .

وصف العُلماء

بَدْر العلوم اللائح ، وقطرُها الغادي والرائح ، وثبيرها[3] الذي لا يُزحم ؛ ومنيرها الذي ينجلي به ليلها الأسحم[4] ، أما فنون الأدب فهو ابن بجدتها[5] وأخو جُملتها وأبو عذرتها ، ومالك أزمّتها ، تستخرج الجواهر من بُحوره ، وتُحلى لمعات الطروس بقلائد سُطوره ، وتآليفه عقائل أصبحَ الدهر من خطّابها ، له بدائع مائسات[6] الأعطاف ، بحر البيان الزّاخر ، شيخ المعارف وإمامها ومن في يديه زمامُها ، لديه تنشد ضوالّ الأعراب ، وتُوجَد شوارد اللغة والإعراب ، مالك أعِنّة العلوم وناهجٌ طريقها ، والعارف بترْصيعها وتنْميقها ، النّاظم لعقودها ، الرّاقم لبُرودها ، المجيد لإرهافها[7] العالِم بجلائها وزَفافها مَلكَ رِقّ الكتابة والإنشاء ، وتصرّف في فنون الإبداع كيف شاءَ ، عالمٌ يتفجّر العلم من جوانبه ، وتنطق الحِكمة من نواحيه ، صاحب المصنفات التي دلت على

---

(١) العجمة (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب (٤) الأسود
(٥) العالم بها المتقن لها (٦) متبخترات مائلات (٧) لدقتها ولطفها .

وفرة اطلاعه ، وغزارة مادته ، وحُسْنِ بيانه ، لم يَترك مَعْنى مغلقاً إلا فتح صياصيَه [١] ، ولا مشكلاً إلا أوضحَ مَبانيه .

وصف البُلغاء

فلانٌ يَحوكُ الكلامَ على حسب الأماني، ويخيطُ الألفاظ على قدود المعاني، يَجْتني من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها ، يعبث [٢] بالكلام ويقوده بألين زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، والمعاني تَتَغايَرُ في الانثيال [٣] على أناملِه بليغٌ نسق [٤] من جواهر كلامه أكاليل دُرٍّ ، ما لمنظومِها سِلكٌ بليغٌ تفُكُّ سهام أفكاره الزرَد ، ناظم سِلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أوْجز أعجز ، وإذا شاءَ أطال ، وأطلق من البلاغة العقال ، إذا أذكى سراج الفِكْر ، أضاءَ ظلامَ الأمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقذفُ حصى القريض وجماره ، ومطلعُ شموسه وأقماره ، نثرُه سِحر البيان ونَظمه قطع الجُمان ، طلعت شمس الأدب من أُفق أشعاره ، وتفجرت ينابيعها من خلال آثاره ، شاعرٌ توقدتْ جمراتُ افكاره ، شاعرٌ عرائس افكاره صِباح ، إن نثر فالنّجوم في افلاكها ، او نظمَ فالجواهر في اسلاكها ، اخذت بمجامع القلوب كلمهُ ، إذا كتب انتسب إليه السِّحْر أصحّ انتساب . ونسَق [٥] المعجزات نسق حساب ، وارىَ البدائع بيض الوجوه كريمة الأحساب ، إن نثر رأيت بحراً يزخر ، وإذا نظم ازْرى بنَظم العُقود بالجوهر ، واتى بأحسن من رقم البُرود ، إذا كتب مَلأ المهارق [٦] بياناً ، وارىَ السحر عِياناً ، هو الكاتب

---

(١) جمع صيصة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم
(٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب ابيض ينقى الصمغ منه ويغسل ثم يكتب فيه .

الذي تحسُدُ أرقام الطراز سطورَ قلمه ، ويود التبْرُ لو كان مداد كلمه ، هو الكاتب الذي تنقاد إلى يَراعه[١] دقائق المعاني صاغرةً بزمام ، نثرٌ كنثر الورد ، ونظمٌ كنظم العقد ، نثرٌ كالسِّحْر او أدق ، ونظمٌ كالماء او أرَق ، نثرٌ كما تفتّح الزهر ، ونظمٌ كما تنفّس السَّحَر ، رسالة تضحكُ عن غرر وزهر ، وقصيدةٌ تنطوي على حبر ودُر ، كلام كما هبّ نسيم السَّحر ، على صفحات الزّهر . كتابٌ مطلعه مطلع اهلّة الأعياد ، وموقعه موقع نيل المراد ، كتابٌ حسبته يطير من يديَّ لخفته ، ويلطف عن حسّي لقلته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رقّ منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على اغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تَزُفُّ إلى الأسماع عرائس القرائح ، صحائفُ ألبسها الحِبرُ أثواباً من الحِبَر [٢] ، وديجها [٣] صوبُ [٤] الفكر ، لا صوْب المطر .

وصف الأمراء والأشراف

فلانٌ من شَرَف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم[٥] ، أصلٌ راسخ ، وفرع شامخ [٦] ، ومجد باذخ[٧] ، قد ركّب الله دَوْحته[٨] في قرارة المجد وغرس نبعته[٩] في منبت الفضل ، المجد لسان اوصافه ، والشرف نسب أسلافه . دَوْحةٌ رسب [١٠] عرقها وبَسَق [١١] فرعها وطاب عودها واعتدل عمودها وفيأت ظلالها ، وتهدّلت [١٢] ثمارها وتفرّعت اغصانها ، وبَرد مَقيلُها [١٣] . أمير جيشه الهمَم . دَوْحةُ مجده وريفةُ [١٤] الظلّ وريقة [١٥] ، أمير لا عيبَ في نداه [١٦] إلا انه يستعبد كلّ حُرّ . هو غُرّة الجمال ، وصورة الكمال . عقد

(١) اقلامه (٢) الحبرات التي تلبسها النساء المصريات إذا خرجن (٣)نقشها (٤) المطر (٥) الخالص ٦ المرتفع ٧) العالي (٨)الشجرة العظيمة ٩ الشجر ايضاً (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلت (١٣) مكانها (١٤) ممتدة متسعة (١٥) مورقة (١٦) عطائه وهذا نوع من انواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب في معروفهم غير انه يبين عجز الشاكرين عن الشكر
وفي الحقيقة ليس بعيب بل نهاية في المدح .

المناصب به نَضيد، أميرٌ عَبِقت من شمائله نَسمات النَّد، وقطرَت من سلسبيل أوصافه مياهُ المجد، جامعٌ ما تفرق من شمل الفضائل، ناظم ما انتثر من عِقد المآثر، أنارت به نجوم المعالي وشموسها، له شرف باذخ تُعقد بالنُّجوم ذوائبه، ألقت إليه الرِّياسة مقاليدها[١]، ومَلَّكته طريفها وتليدها[٢]، أميرٌ تَفَرَّعَ من دَوْحة سناء[٣]، وتحدَّر من سُلالة أكابر، ورُقاة أسرَّة ومنابر، مُرْتضع ثَدْيِ المجد، ومفترش حِجر الفضل، له صدر تضيق به الدَّهْناء[٤]، وتفزع إليه الدَّهماءُ[٥]، له في كلّ مكرُمة غُرَّة الإصباح، وفي كل فضيلة قادمة الجناح، له صورة تَستنطق الأفواه بالتسْبيح، ويترَقرق فيها ماءُ الكرم، وتقرأ فيها صحيفة البِشْر، ينابيع الجود تتفجّر من أنامله، وربيع السماك يَضحك من فواضله، له أخلاقٌ خلقن من الفضل وشيَمٌ تُشام[٦] منها بوارق المجد، أرِجَ[٧] الزمان بفضله، وعقِم النساء عن الإتيان بمثله، مالُه للعفاة[٨] مباح، وفَعالُه[٩] في ظلمة الدهر مصباح، مناقب تشدَخ[١٠] في جبينها غُرَّة الصباح، وتتهادى أنباءَها[١١] وُفود الرياح، سألت عن أخباره فكأني حرَّكت المسك فتيقاً، وصبَّحت الروض أنيقاً[١١] هو رائش[١٣] نَبْلهم، ونبْعة[١٤] فضلهم، وواسطة[١٥] عقدهم، له هِمَّة علا جناحها إلى عنان النجم، وامتد صباحها من شرق إلى غرب، همتُه أبعد من مناط[١٦] الفرقد، وأعلى من منكِب الجَوْزاء[١٧]، موضعه من أهل الفضل موْضع الواسطة من العقد، وليلة التمّ من الشهر، بل ليلة القدر إلى مطلع الفجر، هطلت عليّ سحائب عنايته، ورفرفت حولي أجنحة رعايته، وقد

(١) مفاتيحها (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعة (٤) الفلاة الواسعة (٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة (٨) الطالبون للعطاء (٩) بفتح الفاء: كرمه (١٠) تفلق (١١) أخبارها (١٢) معجبا (١٣) السهم ذو الريش (١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط العقد وهي أحسنه (١٦) محل علاقته (١٧) برج في السماء.

استظهرت على جَوْر الأيام بعدله، واستترْتُ من دهري بظله، قد غمرتْني نِعَمُه حتى استنفدتْ شُكْر لساني ويدي، وتتابعتْ نِعمه تتابعُ القَطر على القَفر، وترادفت مِنَنُهُ ترادُف اليسر إلى ذوي الفقر، لهُ أياد قد عمَّت الآفاق، وطوّقت الأعناق أيادٍ قد حبستْ عليه الشكر، واستعبدَت له الحرّ. مِننٌ توالت توالي القَطْر، واتسعت سعة البرّ والبحر، وأثقلت كاهِل الحُرّ.

وصف القلم

القَلمُ أحدُ اللسانين، وهو المخاطِب للغُيوب، بسرائر القلوب، على لغاتٍ مختلفةٍ من معانٍ معقولة، بحروف معلومة، متباينات الصور مختلفات الجهات، لِقاحُها التفكر ونِتاجها التَّدْبير، تخرسُ منفردات، وتنطِق مُزدوجات بلا أصوات مسموعة، ولا ألسُن محدودة، ولا حركات ظاهرة. خلا قلم حَرّف باريه قَطتّه، ليتعلَّق المداد به، وأرْهفَ جانبيه ليرُدَّ ما انتشر عنه إليه، وشقّ رأسه ليحتبِس المداد عليه، فهُنالك استمدّ القلمُ بشقّه، ونشَر في القرطاس بخطّه حروفاً أحكَمها التفكر وأولى الأسماع بها الكلامُ الذي سَداه العقل، وألحمه اللسان ونهسَتْه اللهوات، وقطّعته الأسنان، ولفظتْه الشِّفاه، ووَعتْه الأسماعُ عن أنحاء شتّى من صفات وأسماء. قال البُحتري:

طِعانٌ بأطْراف القوافي كأنه طِعانٌ بأطْراف القَنا المتكسّر

وقال ابن المقفّع: «القلم بريد القلب: يُخبرُ بالخبر، ويَنظر بلا نظر».

وقال أبو دُلَف: «القلم صَائغُ الكلام يفرغ ما يجمعُه العلم».

وقال الجاحظ: «الدواة منْهَل، والقلم ماتح، والكِتاب عَطَن».

وقال سهل بن هارون: «القلم أنف الضَّمير، إذا رعف أعْلَنَ وأبان آثاره».

وقال عمرو بن مَسعدة: «الأقلام مطايا الفِطَن».

وقال المأمون: «لله درّ القلم كيف يَحوك وَشْي المملكة»

وقال جالينوس : « القلم طبيب المنطق » .

وقال أحمد بن عبدالله : « القلم راقدٌ في الأفئدة مُستيقظ في الأفواه » .

وقيل : « عُقول الرجال تحت أقلامها » .

وقال آخر : « القلم أصمّ يَسمع النّجْوى . وأخرسُ يفصح بالدّعوى . وجاهل يعْلَم الفَحْوى » .

وقال أحمد بن يوسف : « عبرات الأقلام في خدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صُحون خدودها » .

وقال أيضاً : « القلمُ لسان البَصر يُناجيه بما استتر عن الأسماع ؛ إذا نَسَج حُلله ، وأودعها حكمه » .

وقال العتابي : « الأقلام مطايا الأذهان » .

وقال عبد الحميد : « القلمُ شجرةٌ ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحر لُؤلُؤه الحكمة » .

وقيل : « بِريّ القلم تروى القلوب الظّمِئة » .

وقال ابن أبي دؤاد : « القلم سفير العقل، ورسوله الأنبلُ ،ولسانه الأطول، وترجمانه الأفضل » .

وقال أيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .

وقال آخر : « بنَوْءِ القلم تصوّب الحكمة » .

قال ابن مَيثَم : « من جلالة شأن القلم أنه لم يكتب لله تعالى كتاب قط إلا به » .

وقالوا : « القلم قَسيمُ الحكمة » .

وقال يحيى بن خالد البرمكي : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها السُرعه وقدمُها التّسْوية ، وجوارحها معرفة الفصول » .

ووصف أحمد بن إسماعيل خطّاً حسناً فقال : « لو كان نباتاً لكان زَهْراً ؛ ولو كان مَعدناً لكان تِبراً ، أو مَذاقاً لكان حُلواً ، أو شراباً لكان صفواً » .

وقال إقليدس : « الخطُّ هندسة روحانيّة ، وإن ظهرت بآلةٍ جسمانية » أخذه النظّام فقال : « الخط أصلٌ في الرّوح وإن ظهر بالجسد » .

وقال بعض الملوك اليونانية : « أمرُ الدّين والدُّنيا تحت شيئين: قلم وسيف، والسّيفُ تحت القلم » .

وقال أفلاطون : « الخطُّ عِقالُ العقل » .

وقال أرسطاليس: « القلمُ العلّة الفاعلة والمداد العلّة الهيولانيّة، والخط العلةُ الصُّورية ، والبلاغة العلة السّامية » .

سُئل بعض الكُتّاب عن الخط : متى يستحق أن يوصَفَ بالجودة؟ فقال : « إذا اعتدلت أقسامُه ، وطالت ألفُه ولامُه ، واستقامت سطوره ، وضاهى صُعوده حُدوره، وتفتّحت عُيونه، ولم تُشبه راءَه نُونه ، وأشرق قرطاسه، وأظلمت أنفاسُه ، ولم تختلف أجناسُه ، وأسرَع إلى العيون تصوُّره ، وإلى العقول ثمرُه ، وقُدّرت فُصولُه ، واندمجت وُصولُه ، وتناسَبَ رقيقُه وجليله ، وخرج عن نمطِ الورّاقين ، وبَعُد عن تصنّع المحبّرين ، وقام لكاتبه مقام النّسبة والحِلية » .

وقالوا ، « القلم أحدُ اللّسانين ، والعمُّ أحد الأبوين ، والتّثبُّت أحد العفوين ، والمطلُ أحد المنعَين ، وقلّة العيال أحد اليَسارين ، والقناعة أحد الرّزقين ، والوعيد أحد الضّربين ، والإصلاح أحد الكسبَين ، والرّواية أحد الهاجيين ، والهجر أحد الفِراقين ، واليأسُ أحد النُّجحين ، والمزاح أحد السّبابين » .

وقال آخر : « مَساقُ الدُّنيا بسين وقافٍ فيقال سق » يريد السيف والقلم.

وقال آخر : « القلم لسانُ اليد » .

حدثني يحيى البحتري قال ، حدثنا أبي عن ابن الترجمان — وكان الواثقُ أنفذهُ إلى ملك الرُّوم بهدايا — قال: وافقت لهم عيداً، فرأيتُهم قد علّقوا على باب بيعتهم كتباً بالعربية منشورة ، فسألتُ عنها: فقيل: هذه كُتب المأمون

بخط أحمد بن أبي خالد الأحول ، استحسنوا صوره وتقديره فجعلوه هكذا .
فحدّثتُ أنا بهذا الحديث أبا عُبيد الله محمد بن داود بن الجرّاح فقال : هذا حق ، قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المُعتمد فقال : ما رأيتُ للعرب شيئاً أحسنَ من هذا الشكلُ ، ولستُ أحسِدُهم على شيء حَسدي إياهم عليه ، والطّاغية لا يقرأ العربي ، وإنما راقَه اعتداله وهندستُه وحُسْنُ موقعه ومراتبه .

وقال هشام بن الملك الأعرابي : انظر ، كم على هذا الميل من عدد الأميال ، وكان الأعرابي لا يحسنُ أن يقرأ فمضى ونظر ثم عاد فقال: رأيتُ كرأس المحجن مُتّصلاً بحلقة صغيرة ، تتبعه ثلاثة كأطباء الكلبة ، تفضي إلى هنة كأنها رأس قَطاة بلا منقار . ففهم بوصفه أنها خمسة .

حدثني يعقوبُ بن بيان الكاتب قال: قال بعضُ الكُتّاب « القلمُ الرّديءُ كالولد العاقّ » .

وقالوا : « رَداءَةُ الخط إحدى الزّمانتين، كما أن حسنَه إحدى البَلاغتين»
حدثني طلحة بن عبدالله قال :

اعتذر رجل إلى محمد بن عبدالله بن طاهر من شيء بلغه عنه ، فرأى خطه قبيحاً ، فوقع في رقعته : «أردنا قَبولَ عُذرك ، فاقتَطعنا عنه ما قابلنا من قبح خطّك ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك ، او ما علمت أنّ حسن الخطّ يُناضل عن صاحبه بوضوح الحُجّة ، ويُمكّن له دَرك البغية » ؟

وكان ابو هَفّان عبد الله بن أحمد المُهزمي من أقبح النّاس خطاً ، وكان يَبتديء الخطّ من رأس الوَرَقة ويعوّج سطوره حتى يبقى آخر سطر في الورقة كلمةً واحدةً فرثاه يحيى بن عليّ فقال في مَرثيّته :

مع خطّ كأنّه أرجُل البط أو الخطّ في ذوي الفتيان

قالوا : « رَداءة الخط زَمانة الأديب » .

نظر عبدالله بن طاهر إلى خطّ بعض كُتّابه فلم يرضه ، فقال : « نحّوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط، ولا يُؤمن أن يُعدي غيره » .

أنشدني العزي الحسن بن علي في قبح الخط :

جزعت من قُبح خطي وفيه وضعي وحطّي
رجعتُ من بعد حذقي إلى تعلم حُطّي

حدثنا أبو العباس الرّبعي قال حدثنا الطلحي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرّشيد أعرابي فأنشده أرجوزة- وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسنَ الناس خطاً ، وأسرعهم يداً - فقال الرشيد للأعرابي : صف هذا ، فقال له : ما رأيتُ أطيش من قلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بُؤسي ونعمي كلاهما سحابته في الحالتين درور
يناجيك عمّا في ضميرك لحظُه ويفتح باب النّجح وهو عسير

فقال الرّشيد : « قد وَجب لك يا أعرابي عليه حقّ ، وهو يقضيك إياه ، وحق علينا فيه نحن نقوم به ، ادفعوا إليه دِيَةُ الحر » فقال له : « على عبدك دية العبد » .

جاء يوماً عبد الله بن المُعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المُعتزّ قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمنَ حوله :

لكَفّي ثأرٌ عند رجْلي لأنها أثارتْ قتيلاً ما لأعظمه جبرُ

فعجب الناس من سرعة بديهته .

وأهدى رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :

قد وجّهت إليك أعزّك الله بمفاتح العلوم ، بادِ جمالُها ، تام كالها ، فهي كما قال الشاعر :

ليس فيها ما يقالُ له كملت لو أن ذا كَمُلا

كلّ جزءٍ من محاسنها   كائنٌ من حسنه مَثلا

وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا نَمنَمتْ بَنانك خطّاً   مُعرباً عن إصابة وسَداد

عجب َالناس من بياض مَعانٍ   يُجتنى من سواد ذاك المدادِ

حدثنا أحمد بن يزيد المُهلّبي قال حدثني أبو هفّان ، قال سألت ورّاقاً عن حاله فقال :

« عَيشي أضيقُ من محبرَةٍ ، وجِسْمي أدقُّ من مِسطرةٍ ، وجاهي أرقُّ من الزجاج ، ووَجهي عند النّاس أشدّ سواداً من الحبر ، وحظي أحقرُ من شقّ القلم ، وبَدَني أضعف من قصبة ، وطعامي أمرّ من العَفْص ، وسوءُ الحال ألزمُ لي من الصبغ » فقلت له : عَبّرتَ عن بلاء ببلاء [1] .

وسُئِل ورّاقٌ عن حاله فقال :

وإذا كنت بالليل لا أكتُب   وطـول النهـــار أنا ألعبُ

فطَوْراً يُبطلني مَــأكلٌ   وطـوراً يبطلـــني مشربُ

فإن دام هذا على ما أرى   فبيتي أولُ مـــا يخـــربُ

وصف الكتاب

الكتابُ نعْمَ الأنيسُ في ساعة الوَحدة ، ونعْم المعرَفةُ في دار الغُرْبة ، ونعم القرين والدّخيل ، ونعم الزّائر والنزيل ، ووِعاءٌ مُلِىءَ علماً وظرفاً ، وإناء مُلِىءَ مزْحاً وجدّاً ، وحبّذا بستان يحمل في خرج ، وروض يقلب في حِجْر ، هل سمعت بشجرة تؤتي أكلها كل حين بألوان مختلفة وطعوم متباينة ؟ هل سمعت بشجرة لا تذوى وزهر لا يَثْوى [2] وثمر لا يفنى ، ومن لك بجليس

(١) ومثله قول قائلهم :

تبــاً لرزق نازل   من شق هذي القصبه

تبـاً له ، تبـاً له   ما أتعبه ، ما أتعبه

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء وخلافه، والجنس وضِدّه، يَنطقُ عن الموتى ويُترجم عن الأحياء، إن غَضبتْ لم يَغضب وإن عَربدتْ لم يَصخب[1]، أكتَمُ من الأرض وأنَمُّ من الرّيح وأهوى من الهوى، وأخدعُ من المُنى، وأمتع من الضحى، وأنطق من سحبان وائل، وأعيى من باقِل[2] هل سمعت بمعلم تَحَلّى بخلال كثيرة وجمع أوصافاً عديدة عربيٌّ فارسيٌّ يونانيٌّ هنديٌّ سنديٌّ روميٌّ، إن وَعَظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمعَ وإن ضَرَبَ أوجع، يُفيدُك ولا يستفيدُ منك، ويزيدك ولا يستزيد منك. إن جدَّ فعبرة، وإن مزَح فنُزهة. قبرُ الأسرار ومخزَن الوَدائع، قيد العلوم وينبوعُ الحكم، ومعدن المكارم ومؤنسٌ لا ينام — يفيدك علم الأولين، ويُخبرك عن كثير من أخبار المتأخرين — هل سمعت في الأولين أو بلغك أن أحداً من السالفين جمعَ هذه الأوصاف مع قلة مؤنته؟ وخفة محمله، لا يرزؤك[3] شيئاً من دُنياك، نعم المدّخر لِعُدّة[4]، والمشتغل والحرفة، جليس لا يطريك[5] ورفيق لا يَملكَ، يطيعك في الليل طاعته في النهار، ويطيعك في السّفر طاعته في الحضَر، إن أطلت النّظر إليه أطال إمتاعك[6] وشحذَ[7] طباعك، وبسط لسانك وجوّد بيانك، وفخّم ألفاظك، إن ألفته خلد على الأيام ذكرك، وإن دَرَسْتَه رفع في الخلق قدْرك، وإن نَعَتّه نوه عندهم باسْمك، يُقْعد العبيد في مقاعد السّادات، ويُجْلس السوقة في مجالس الملوك، فأكرم به من صاحب، وأعزز به من موافق.

---

(١) لم يصوت (٢ رجل من إياد يضرب به المثل في العي، ومن عيه أنه اشترى ظبياً فحمله على عاتقه، فسئل عن ثمنه، فحل عنه يديه وفتح أصابعه وأشار بها، وأخرج لسانه، يريد أنه بأحد عشر درهماً، ولم يلهم أن يخبر عن سعره بلسانه، فصار عيه مثلاً. (٣) لا ينقصك (٤) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من سلاح وغيره (٥) لا يمدحك (٦) انتفاعك (٧) أحدّها وأقواها.

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطي

المتوفى سنة ٩١١ هـ

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظُلُماتٌ متكاثفة وبُروق خاطفة ورياح عاصفة ، فقويَتْ أهويتُها ، واشتدَّ هبوبهـا فتدافعت لها أعِنَّةٌ مُطلقات ، وارتفعتْ لها صواعقُ مُصعِقات ، فرجَفتْ لها الجُدران واصطفقَت ، وتلاقتْ على بُعدهـا واعتنقت ، وثارَ بين السَّماء والأرض عجاج فقيل لعلّ هذه على هذه أطبقت ، وتحسب أنَّ جهنم قد سالَ منها وادٍ وعدا منها عادٍ ، وزاد عصف الرّياح إلى أن انطفأت مصابيح النُّجوم ، ومُزِّق أديمُ السَّماء ومُحيَ ما فوقه من الرّقوم ، لا عاصِمَ من الخطف للأبصار ، ولا مَلجأ من الخطب إلا معاقـل الاستغفار ، وفرَّ الناس نساءً ورجالاً ، ونفروا من دورهم خفافاً وثِقالاً ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ، فاعتَصموا بالمساجد الجامعـة ، وأذْعنوا للنّازلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، يَنظرون مِن طرفٍ خفيٍّ ، ويتوقعون أيَّ خطبٍ جلي ، قد انقطعت من الحياة عُلَقُهم وعميَتْ عن النَّجاة طرُقهم ، ووقعت الفِكرةُ فيما هم عليه قادِمون ، وقاموا إلى صلاتهم ووَدُّوا أن لو كانوا من الذين هم عليهـا دائمون ، إلى أنْ أذِن الله في الرُّكود وأسعَف الهاجدينَ بالهجود .

وأصبحَ كلٌّ يسلمُ على رَفيقه ، ويُهنِّئه بسلامة طريقه ، ويرى أنـه قـد بُعِثَ بعدَ النفخة ، وأفاقَ بعدَ الصَّيحة والصَّرْخة ، وأنَّ الله قـد ردَّ له الكرَّة وأدبَهُ بعد أن كاد يأخُذُه على غِرة ؛ ووردَتْ الأخبار بأن كسِرَت المراكبُ في البحار ، والأشجار في القفـار ، وأتلِف خلقٌ كثير من السّفـار ، ومنهم من فرَّ فلم ينفعه الفرار .

وصف العلم لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ ﻫ

العِلم شيءٌ بَعيد المرام ، لا يُصادُ بالسِّهام ، ولا يُقسمُ بالأزلام[١] ، ولا يُرى في المنام ، ولا يُضبَط باللجام ، ولا يُكتبُ للئام ، ولا يُورثُ عن الآباء والأعمام.

وزَرْعٌ لا يزكو[٢] إلا مَتى صادف من الحزم ثرًى طيِّباً ، ومن التوفيق مطراً صَيِّباً ، ومن الطبعِ جوّاً صافياً ، ومن الجهد رَوْحاً[٣] دائماً ، ومن الصبر سُقياً نافِعاً .

وغَرَضٌ لا يُصاب إلا بافتراش المَدَر[٤] ، واستِناد الحجَر ، ورَدّ الضجَر ، ورُكوب الخَطر ، وإدمان السَّهر ، واصطِحابِ السَّفَر ، وكثرة النَّظر ، وإعمال الفِكر .

وصف رجل لخصمه

كان أحمدُ بنُ يوسُفَ[٥] مُنْصرِفاً عن غسّان بن عُباد ، وجرتْ بينهما هَنات[٦] بحضرة المأمون ، ثم قال المأمون يوماً لخاصة أصحابه : « أخبروني عن غسان بن

(١) الأزلام : جمع زلم — بفتح الزاي أو ضمها مع فتح اللام — وهي سهام لا نصل لها ولا ريش. كان العرب إذا ارادوا القمار احضروا جزوراً فنحروها وقسموا لحمها إلى ثمانية وعشرين قسما ، ثم اتوا بعشرة ازلام ، فرسموا على واحد منها خطاً ، وعلى الثاني خطين ، وعلى الثالث ثلاثة ، وهكذا إلى السابع ، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى ، وتبقى ثلاثة غفلاً لا يرسم عليها شيء ، ثم يضعون الجميع في خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلماً باسم واحد من المقامرين ، فإن كان مرسوماً له عليه شيء اخذ من اقسام اللحم بقدره ، وإن كان غفلاً غرم ثمن الجزور. والمقصود من هذه العبارة ان العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة ، كما ينال اللحم المقسوم . (٢) يزكو : ينمو ويطيب . (٣) الروح — بفتح فسكون — نسيم الريح. (٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وافترش المدر : نام عليه .

(٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون ، وكان بارعاً في الرسائل ، ويكنى ، أبا جعفر.

(٦) الهنات : جمع هنة ، وقد تجمع على هنوات ، والمراد : أمور .

عباد ، فإني أريده لأمر جسيم ، وكان قد عزم على تقليده السند . فتكلم كل بما عنده في مدحه ، فقال أحمدُ بن يوسف : هو يا أمير المؤمنين رجلٌ محاسنه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرق [1] إلى أمرٍ إلا تقدّم فيه ، ومهما تُخوّف عليه فإنه لن يأتي أمراً يُعتذرُ منه ، لأنه قسّم أيامه بين أفعال الفضل ، فجعل لكلّ خلق نوبة [2] إذا نظرتَ في أمره لم تدر أيّ حالاته أعجب : أما هداه إليه عقله ؟ أم ما اكتسبه بأدبه ؟ فقال له المأمون : لقد مدحته على سوء رأيك فيه . قال : لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى ثمناً لما أسديتَ أنّني نصحتُك في الصّديق وفي عدائي
وإني حين تندُبني لأمر يكون هواك أغلبُ من هوائي [3]

وصف أبي دُلف لعبدالله بن طاهر

دخل أبو دُلف [4] على المأمون بعد الرّضا عنه ، فسأله عن عبدالله بن طاهر [5] فقال : خلفته يا امير المؤمنين أمينَ غيب ، نصيحَ جيب [6] ، أسداً عاتياً قائماً على براثنه ، يسعد به وليّك ، ويشقى به عدوّك ، رحبَ الفناء لأهل طاعتك ،

(١) تطرق إلى الأمر : ابتغى إليه طريقاً (٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرة ، جمعها نوب كغرف (٣) يريد هواي ، ومده للضرورة (٤) أبو دلف ـ كعمر ـ هو القاسم بن عيسى البكري من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان جواداً شجاعاً ، وفيه يقول الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف بين ناديه ومحتضره
فإذا ولى ابو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٦ هـ. (٥) هو عبدالله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولي مصر مدة سنتين تقريباً . قال صاحب كتاب ادب الخواص : إن البطيخ العبد لاوي الموجود بالديار المصرية منسوب إليه ، اهـ .

(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أي القلب والصدر .

ذا بأس شديد لمن زاغ عن قصد محجّتك ، وقد فقّهه الحزم ، وأيقظه العزم ، فقام في نحر الأمور على ساق التشمير ، يبرمها بأيده [١] وكيده ، ويفتلها بجدّه وجدّه ، وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أكرّ على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها ام سواها

فقال قائل : ما أفصحه على جبليّته ! فقال المأمون : إن بالجبل [٢] قوماً أمجاداً [٣] كراماً أنجاداً [٤] ، وإنهم ليُوَفّون السيف حظه يوم النزال ، والكلام حقه يوم المقال .

وصف أعرابي لرجل

وصف أعرابي رجلا فقال :

إن سألَ ألحف ، وإن سُئل سوّف ، وإذا وعد أخلف ، وإذا صَنَع أتلف ، وإذا همّ بالفعل الجميل توقف ، ينظر بنظر الحسود ، ويُعرِض إعراض الحقود ، بينما هو خِلٌّ ودود ، إذ هو خَلّ وَدُود ، فناؤه [٥] شاسع ، وضيفه جائع ، وشرّه شائع ، وسرّه ذائع ، ولونه فاقع [٦] ، وجفنه دامع ،

(١) الأيد:القوة (٢ الجبل: بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان وبلاد الديلم (٣) الأمجاد ــ جمع ماجد او مجيد ، كأشهاد في شاهد وشهيد ــ والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمح ٤) الأنجاد ــ جمع نجد بكسر الجيم أو ضمها ــ وهو الشديد البأس ، ومن كلام علي : اما بنو هاشم فأنجاد أمجاد .

(٥) فناء البيت: الساحة امامه ، وجمعه افنية والشاسع : البعيد ، والجملة كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم ان يبني خباءه بعيداً عن الحي حتى لا يقصد ، قالت الفارعة :

ولا يحل إذا ما حل منتشياً يخشى الرزية بين الماء والبادي

(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما اكد به الأبيض .

وديارِه بَلاقِع ، رديء المَنْظر ، سَيئ المَخْبَر ، يَبْخَل إذا أيسر ، ويَهلَع [١] إذا أعسر ، ويكذِب إذا أخبر ، إن عاهد غَدرَ ، وإن خاصم فجَر ، وإنْ خُوطِبَ نَفَر .

وصف الإمام العادل

كتب عمرُ بنُ عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لمّا وَلِي الخِلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب إليه الحَسَنُ :

اعلم يا أمير المؤمنين أنّ الله جعلَ الإمام العادلِ قوام كلّ مائل ، وقصد كلّ جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقُوّة كل ضعيف ، ونصفة كلّ مظلوم ، ومفزعَ كلّ ملهوف . والإمام العادلُ يا أمير المؤمنين كالرّاعي الشّفيق على إبله ، الرّفيق الذي يرْتادُ لها أطيب المراعي ، ويزودُها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السّباع ، ويكنفُها من أذى الحر والقرّ ، والإمام العادل يا امير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويُعلمهم كباراً ، يكتسبُ لهم في حياتِه ويدّخِرُ لهم بعد مماته ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشّفيقة ، البرّة الرّفيقة بولدها ، حملتهُ كرهاً ، ووَضعتهُ كَرْهاً ، وربّته طِفلاً ، تسهرُ بسهره ، وتسكُن بِسكونه ، تُرضِعهُ تارةً ، وتَفْطمه أُخرى ، وتفرَح بعافيتهِ ، وتغْتَمُّ بشكايتَه ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، وصيُّ اليتامى ، وخازنُ المساكين ، يُربّي صغيرَهم ويُمَون كبيرَهم ، والإمام العادل يا أميرَ المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح ، تصلُح الجوانح بصلاحه ، وتفسدُ بفساده ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائمُ بين الله وبين عباده ، يَسمع كلام الله

(١) الهلع : أشدّ الجزع .

ويُسْمِعَهُمْ ، وينظرُ إلى الله ويُريهم ، وينقادُ إلى الله ويَقودُهم — فلا تكن يا أميرَ المؤمنين فيما ملّكك الله كعبد ائتَمَنَهُ سيّده ، واستحفظه مالَه وعياله، فبَدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقرَ أهلَه وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحُدودَ لِيَزْجُرَ بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟! وأنّ الله أنزل القِصاص حياةً لعبادِه ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموْت وما بعده ، وقلّة أشياعك عِنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعدهُ من الفزَع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أنّ لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوَاؤك ، ويفارِقُكَ أحبّاؤك ، يُسْلمونكَ في قعره فريداً وحيداً، فتزوّد له ما يصحبُك ، يَوْمَ يفرُّ المرء من أخيه ، وأمِّه وأبيهِ وصاحبتهِ وبنيه — واذكر يا أمير المؤمنين ، إذا بُعثرَ ما في القبورِ ، وحُصِّل ما في الصدُور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكِتابُ لا يُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها—فالآنَ يا امير المؤمنين وانت في مهل قبل حُلول الأجل ، وانقطاعِ الأمل — لا تحكم يا امير المؤمنين في عبادِ الله بحُكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظّالمين ، ولا تُسلط المستكبرين على المستَضْعَفين ، فإنهم لا يرْقبون في مُؤمن إلاّ ولا ذِمّة ، فتبوءَ بأوْزارك وأوْزارِ مع أوْزارِك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالِكَ ، ولا يغُرّنّك الذين يتنعّمون بما فيه بُؤْسُك ، ويأكلون الطّيبات في دُنياهم بإذهابِ طَيِّباتِكَ في آخرتك ، ولا تنظر إلى قُدْرَتك اليوم ، ولكن انظر إلى قُدْرَتك غداً ، وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرْسلين ، وقد عَنَتِ الوُجوه للحي القيُّوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغهُ أولوا النُّهى من قبلي فلم آلُكَ

شفقةً ونُصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريهة ، لما يرجو له في ذلك مِنَ العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص مصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر تُرْبةٌ غبْراء ، وشجرةٌ خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر [١] ، يخُطُّ وسطها نهر ميمون الغَدَوات ، مُبارك الروحات ، يجري بالزيادة والنّقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان تظهرُ به عُيون الأرض ويَنابيعها ، حتى إذا أصلح عجاجه ، وتعظّمت أمواجه ، لم يكن وُصول أهل القُرى إلى بعض إلا في خِفافِ القوارب [٢] وصِغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته نكص [٣] على عَقِبيه كأوّل ما بدأ في شدّته ، وَطما [٤] في حِدّته ، فعند ذلك يخرجُ القوم ليحرُثوا بُطون أوْديتِه وروابيه فيبذرون الحَبّ ، ويَرْجون الثِّمار من الرب ، حتى إذا أشرَق وأشرف ، سقاهُ من فوقه النَّدى ، وغذاه من تحته الثرى ، فعند ذلك يدُرُّ حلابهُ ، ويغني ذبابه – فبينما هي يا أمير المؤمنين درة بيضاء ، إذا هي عَنبرةٌ سوداء ، فإذا هي زبرجدَةٌ خضراء ، فتبارك الله الفعال لما يشاء .

وصف حرب لأبي منصور النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ ﻫ

عندما دارت رَحا الحرب، صمَتَتِ الألسنة، ونَطقت الأسنة ، وخطبت السُّيوف على منابر الرِّقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصِّعاب ، وتلاصقت القنا والقَنابل [٥] ، وتعانقت الصّوارم [٦] والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر وأدْركت السيوفُ المناحر ، وضاقَ المجال ، وتحكّمت الآجال ، فلا ترى

(١) أي عشر ليال ، لأن عادة العرب السير في الليل. (٢) السفن الصغيرة.
(٣) رجع (٦) ارتفع (٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين فصاعداً من الخيل (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل .

إلاّ رُءُوساً تنْدَرُ! وَدِماءً تهدَرُ، وأعضاءً تتطاير وتتناثر، وأجساماً تتزايل وتتمايل حتى ثملت الرّماحُ من الدّماء، فتعثرّت في النحور، وتكسّرت في الصدُور، فرجعوا الأعداء من جوانبهم، وتمكّنوا من فض مواكبهم.

وصف المطر شعراً لأبي الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ
مع مقدمة لعمر بن علي المطوعي في وصف ذلك المطر نثراً

حكى عمرُ بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيدُ أبو الفضل عبد الرحمن ابنُ احمد أدام الله عزّه أيام مُقامه بجُوَين [٢] ان يطالع قرية من قرى ضياعه [٣] تُدعى «بجاب» على سبيل التنزه والتفرّج، فكنت في جُملة من استصحبه إليها من أصحابه، واتفق ان وصلنا والسماء مُصحية [٤]، والجو صاف، لم يُطرز ثوْبه بعلم الغمام [٥] والأفق فيرُوزجٌ لم يعبق به كافور السحاب [٦] فوقع الاختيار على ظل شجرة باسقة الفُروع [٧]، مُتسعة الأوراق والغصون، قد سترَت ما حواليها من الأرض طولاً وعرْضاً، فنزلنا تحتها مُستظلين بسماوة أفنانها [٨] مُستترين من وَهَج الشمس بستارة أغصانها [٩]، وأخذنا نتجاذَب أذيال المذاكرة [١٠]، ونتسالب اهداب المناشدة والمحاوَرة [١١]، فما شعُرنا بالسماء إلا وقد أرْعَدَتْ

---

(١) تسقط (٢) كورة بخراسان، وبلدة بسرخس من بلاد فارس (٣) يطالع قرية، يطالع صلنها، والضياع: جمع ضيعة، وهي العقار والأرض المغلة. (٤) لا غيم فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) اي لونه مثل الفيروزج وهو الزرقة، ولم يعبق به: لم يلصق به، والكافور: طيب يستخرج من شجر كبير، ولون هذا الطيب يصير ابيض بمد عملية تعمل فيه. والمعنى: انه لا يرى شيء من السحاب في الأفق (٧) طويلتها (٨) الأفنان الغصون، وسماوتها: يعني اوراقها العريضة المتلاحمة تلاحماً يجعلها تشبه السقوف (٩) وهج الشمس: شدة حرها وتوقدها (١٠) عبارة عن تذاكرهم (١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار وتحاور بعضهم مع بعض تحاوراً ادبياً.

وأبرَقتْ[١] وأظلمت بعدما أشرَقتْ، ثم جادت بمطر كأفواهِ القِرَب، فأجادت[٢] وحكت أنامل الأجواد، بل أوْفت عليها وزادت[٣]، حتى كاد غيثها يَعود عيثاً[٤] وهَم وبلها أن يستحيل ويلا[٥] فصبرنا على أذاها وقلنا سحابةُ صيف عن قليل تقشع[٦] فإذا نحنُ قد أمطرتنا بَردَ الثغور، لكنها من ثغور العَذاب[٧] لا منَ الثغور العِذاب[٨]، فأيقنا بالبلاء، وسلمنا لأسبابِ القضاء[٩]، فما مرت ساعةٌ من النهار، حتى سمعنا خريرِ الأنهار[١٠] ورأينا السيل قد بَلغ الزبى[١١] والماء قد غمرَ القيعان والربا[١٢] فبادرنا إلى حصن القرية، لائذينَ من السيل بأفنيتها[١٣]، وعائذِينُ

---

(١) يقال : رعدت وبرقت .أي جاء بالرعد والبرق، وأرعدت وأبرقت يعني تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق (٢) جادت : تكرمت ، وأجادت : أحسنت. (٣) حكت : شابهت، وأنامل الأجواد: المقصود أيدي الكرام، ومحاكاتها الأيدي الكريم يعني مشابهتها لأيديهم في السخاء ، وأوفت وزادت بمعنى واحد .
(٤) الغيث : المطر ، والعيث: الإفساد . (٥) الوبل المطر العظيم القطرات ، والويل : الشر . (٦) أي لا تمكث إلا قليلاً وتذهب . (٧) البرد - بفتحات - قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب في شكل الثلج أو الجليد . تشبه به اسنان الغواني وثناياها عند افترار الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور العذاب : فتحاته . (٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير. (١٠) يعني جرى الماء بشدة ، فصار يسمع له صوت كصوت مياه الأنهار . (١١) السيل : الماء العظيم الذي يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة . والزبى - جمع زبية - وهي الأرض المرتفعة ارتفاعاً عظيماً بحيث لا يعلوها الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد . (١٢) الربا -جمع ربوة - الأرض المرتفعة ارتفاعاً، والقيعان - جمع قاع - وهو الأرض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام .
(١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع، الذي لا يوصل إلى جوفه، ولائذين: محتمين متحصنين، والأفنية -جمع فناء - وهو المتسع أمام الدار.

منَ القَطر بأبنيَتها [١] وأثوابُنا قد َصنْدلَ كافورَها ماء الوبل [٢] ، وغلف طرازُها طينُ الوَحْل [٣] ، ونحنُ نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان ، وإنْ فقدْنــا بياضَ الأكام والأرْدان [٤] ، ونشكره على سلامة الانفس والارواح ، شكر التاجر على بَقاء رأس المال ، إذا فُجِعَ بالأرْباح [٥] فبتنا تلك الليلة تحتَ سماء تَكِفُ ولا تكُفُ [٦] ، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوّام [٧] ، وأربع سجام [٨] فلما سُلّ سيفُ الصبح من غِمد الظلام [٩] ، وصُرِف بوالي الصحو عاملُ الغمام [١٠] ، رأينا صواب الرأي أنْ نوسعَ الإقامةَ بها رَفضاً [١١] ونتخذَ الارْتحال عنا فرضاً ، فما زلنا نَطوي الصحاري أرْضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقرّ ركضاً [١٢] ، فلما نفضنا غبار ذلك المسير [١٣] ، الذي جعلنا في ربقة الأسير [١٤] ، وأفضَيْنا إلى ساحة التيسير [١٥] بعد ما أُصِبْنا بالأمر العسير ، وتذاكرنا

(١) عائذين : ملتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المباني .
(٢) صندل : استعمله متعدياً بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضارباً إلى السواد ، والكافور والوبل تقدم معناهما . (٣) غلف الشيء : جعل له غلافاً أي حجاباً وستراً ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل (٣) الأردان . أصول الأكام . (٥) أي أوجع بعدم الأرباح وفقد المكاسب . (٦) تكف : تقطر ، ولا تكف : لا ينقطع مطرها . (٧) هوام – جمع هام – من همى يهمى بمعنى سال . (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيراً . (٩) أي الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد . (١٠) الوالي : العامل او الحاكم ، والمعنى أزال الصحو الغمام . (١١) اي ان نرفض الإقامة بها رفضاً باتاً . (١٢) وافينا : اتينا والمستقر : السكن ، وركضاً : يعني عدواً ، وجرياً على الأقدام . (١٣) يعني لما أزلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربقة : عروة تجعل في حبل مع عرى غيرها ، ويربط في هذا الحبل (ويسمي الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضينا : وصلنا . والساحة : رحبة واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

ما لقينا من التعب والمشقة ، في قطع ذلك الطريق وطيّ تلك الشقة [١] أخذ الأمير السيد أطال الله بقاءه القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً :

دَهَمَتْنا السماءُ غَداةَ السَّحاب ... بغيثٍ على أُفقِهِ مُسْبِلِ [٢]
فجاءَ بِرَعْدٍ لهُ رَنَّةٌ [٣] ... كرنةِ ثكلى ولم تثكل [٤]
وثنى بوبْلٍ عدا طَوْرَهُ [٥] ... فعادَ وَبالاً على المُمحلِ [٦]
وأشرفَ أصحابنا منْ أذاهُ ... على خَطَرٍ هائل مُعضِلِ [٧]
فمنْ لائذٍ بفناء الجِدار [٨] ... وآوٍ إلى نَفَقٍ مُهمَلِ [٩]
ومن مُستَجيرٍ يُنادي الغريقَ ... هنـاكَ ومن صارخٍ معوِلِ [١٠]
وجادَتْ علينا سماء السقوف ... بدمع من الوَجدِ لمْ يُهمَل [١١]

---

(١) وطيّ تلك الشُّقة أي قطع تلك المسافة (٢) الغداة : أول النهار، يعني دهمتنا السماء بمطر في أول النهار الذي كان فيه غيم . والغيث : المطر ، والمسبل : الهاطل، يعني دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذي كان السحاب مخيماً عليه .
(٣) له رنة : أي دوي وصوت هائل (٤) الثكلى : التي فقدت ولدها ، ولم تثكل : يعني لم يفقدها الله ولدها ، والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها ، مع أن الله لم يهلكه ، فهي تصوت على غيابه ، ولم ينقطع أملها من وجوده
(٥) الوبل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .
(٦) فصار ثقيلاً وخيماً على المكان الممحل الجدب المنقطع عنه المطر .
(٧) أشرف على كذا : قرب منه . والمعضل : الذي لا دواء له .
(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضي المجاورة للجدران ومن لاجىء إلى سرب في الأرض لم يتعهده أحد (١٠) ينادي الغريق : أي يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء . (١١)همل الدمع : سال، والمعنى : أنها جادت بدمع لم يكن السبب في إسباله لا الغرام ولا الوجد .

كأنَّ حراماً لها أن ترَى يَبيساً من الأرض لم يَبلل [١]
وأقبلَ سيلٌ له رَوْعةٌ [٢] فأدبَرَ كلٌّ عن المُقبل [٣]
يُقلعُ ما شاء من دَوْحة [٤] وما يَلقَ منْ صخرة يَحمل [٥]
فمِنْ عامرٍ رَدَّهُ غامِراً [٦] ومنْ مُعلم عاد كالمجْهل [٧]
كفانا بَليتَهُ رَبّنا فقد وجب الشكر للمفضل [٨]
فقل للسماء ارْعُدي وابرُقي [٩] فإنا رَجعنا إلى المنزل

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

لما صدأت مِرآةُ الجَنان [١٠] قصدتُ لجلائها بعض الجنان [١١] فدخلتُ إليها، وما كدْتُ أن أقدِمَ عليها، فإذا هي جنةٌ عاليةٌ [١٢] قطوفها دانيةٌ [١٣] وطلحها مَنضودٌ [١٤]، وظِلها مَمْدودٌ [١٥]، وأعلام أشجارها مرفوعةٌ وفاكهتها كثيرةٌ

(١) كأن حراماً لها، اي كأن السماء محرم عليها ان ترى ارضاً يابسة لم تبل بالماء. (٢) الروعة: الفزعة (٣) كل واحد يولي ويهرب ممن يقابله.
(٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظيم. (٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام (٦) رده غامراً صيره خراباً. (٧) من معلوم صار كالمجهول.
(٨) كفانا الله شره، فوجب الشكر له لأفضاله علينا. (٩) إيت بالرعد والبرق. (١٠) الجنان: القلب، وصدئت مرآته علامة على الوسخ، والمعنى: لما كل القلب، ومل العمل. (١١) لجلائها. أي إزالة الوسخ الذي علاها، والجنان – جمع جنة – وهي الحديقة ذات النخل والشجر. (١٢) أي مرتفعة (١٣) عناقيدها متدلية قريبة من الجاني. (١٤) الطلح: الاشجار العظام، ومنضود يعني متراكم بعضه فوق بعض. (١٥) أي متسع. (١٦) أي أغصانها مرتفعة.

لا مقطوعةٌ ولا ممنوعةٌ [١] ، تجوسُ المياهُ خلال ديارها [٢] وتُشرِق بآفاقها أنوارُ نوّارها [٣] ، نزهة النواظر [٤] ، وشركُ الخواطر [٥] بها أشجارٌ لا تحصى [٦] ، وثمار لا تُعَدُّ ولا تُستَقصى [٧] .

وصف البيان لأمير المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان تَرْجُمان القلوب وصيقل العقول [٨] ، ومُجْلي الشبهة [٩] ، وموجب الحُجة ، والحاكم عند اختصام الظنون ، والمفرّق بين الشك واليقين ، وخير البيان ما كان مصرّحاً عن المعنى ، ليسرع إلى الفهم تَلقيه ، أو موجزاً ليَخِف على اللفظ تعاطيه .

ووصف أيضاً المكارم

لن تَكسبَ أعزك اللهّ المحامد ، وتستوجب الشرف ، إلا بالحمل على النفس والحال ، والنهوض بحمل الأثقال ، وبذل الجاه والمال ، ولو كانت المكارم تُنالُ بغير مؤونة لاشترك فيها السفل [١] والأحرار ، وتَساهَمَها الوضعاء [١١] من ذوي الأخطار ، ولكن الله تعالى خصّ الكرماء الذين جعلهم أهلها ، فخفف عليهم حملها وسوّغهم فضلها وحظرها [١٢] على السفلة لصغر أقدارهم عنها ، وبُعد طباعهم منها ، ونفورها عنهم ، واقشعرارها منهم .

ووصف أيضاً القرآن الكريم

فضلُ القرآن على سائر الكلام معروفٌ غير مجهول ، وظاهرٌ غير خفي يشهد

(١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه . (٢) اي تتردد بين بيوتها .
(٣) النوّار : الزهر . (٤) تتنزه فيها العيون . ٥) تصطاد الخواطر وتسبي العقول . (٦) لا يمكن الإتيان على عددها . (٧) لا يتأتى إدراك آخرها .
(٨) جلاؤها . (٩) كاشفها . (١) السفل : جمع سفلة ، وهم طغام الناس وغوغاؤهم . (١١) جمع وضيع : هو الساقط . (١٢) منعها .

بذلك عجزُ المتعاطين، ووَهْن [١] المتكلفين، وهو المبلِّغُ الذي لا يملّ، والجديدُ الذي لا يخْلَق [٢] والحق الصادع، والنور الساطع، والماحي لظلم الضلال، ولسان الصدق النافي للكذب، ومفتاح الخير، ودليلُ الجنة، إن أوجَز كان كافياً وإن أكثرَ كان مُذكراً، وإنْ أمرَ فناصحاً، وإن حكم فعادلاً، وإن أخبر فصادقاً، سِراجٌ تستضيء به القلوب، وبحر العلوم، ودِيوان الحكم، وجوهر الكَلِم.

وصف البلاغة لفحول البلغاء

(١) قال الجوهري: أحسنُ الكلام نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة، ونظمته الفطنة ووُصل جوهر معانيه في سُمُوط [٣] ألفاظه، فاحتملته نُحُورُ الرواة.

(٢) وقال العطّار: أطيبُ الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه، ففاح نَسيم نشقه [٤] وسطعت رائحة عبقه، فتعلقت به الرواة، وتعطرت به السراة.

(٣) وقال الصائغ: خير الكلام ما أحْمَيْتَه بكيرِ الفكر، وسبكتَهُ بمشاعل النظر وخلّصته من خبَث الإطناب، فبرَزَ بُروزَ الإبريز، في معنىً وَجيز [٥].

(٤) وقال السيرفي: خير الكلام ما نقدته عين البَصيرة، وجلته يَد الرَّوية ووزَنته بمعيار الفصاحة، فلا نظرٌ يزّيفه [٦]؛ ولا سَماع يُبهرجه [٧].

---

(١) ضعف. (٢) لا يبلى. (٣) السمط: الخيط الذي ينظم فيه.
(٤) النشق: الاستنشاق، العبق: لصوق الطيب بالشيء، وتغلف الرجل بالطيب: [illegible]ن به، والسراة: الأشراف. (٥) الكير: زق ينفخ فيه الحداد، والمشاعل: جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أي إلهابها. (٦) زيف الدراهم: اي انها زائفة اي مغشوشة. (٧) وبهرجها: أبطلها.

(٥) وقال الحدّاد : أحسنُ الكلام ما نصبتَ عليه منفَخَةَ القريحة، وأشعلتَ عليه نار البصيرة ، ثم أخْرجته من فحم الأفخـام ورَقَّقْتَهُ بفطيسِ الأفهام [١] .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أحكمتَ نجر معناه بقَدُّوم التقدير، ونَشرته بمنشار التدبير ، فصار باباً لبيت البيان ، وعارضةً [٢] لِسقف اللسان .

(٧) وقال الحائك : احسنُ الكلام ما اتصلت لُحمة ألفاظه ، بسَدَى معانيه مفوقاً منيراً ، موَشى محبراً [٣] .

(٨) وقال الجمّال : البليغ من أخذ بخطام [٤] كلامه ، فأناخه في مبرَك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقالاً ، والإجادة له مجالاً ، فلم [٥] ينِدّ عن الآذان ولم يشذ عن الذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صَوْحان : صِفْ لي عُمر بن الخطاب فقال : كان عالماً برعيتهِ ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبرِ قَبولاً للعذر ، سهلَ الحجاب ، مصون الباب ، متحرياً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغريب .

---

(١) الفطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة ، الخشبة العليا التي يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه. (٣) المفوف: الرقيق من الثياب أو الذي فيه خطوط بيض . والمنير : المنسوج على نيرين أي المضاف النسج . والموشى : المنقوش، والمحبر : المحسن . (٤) الخطام: كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به . وجمعه : خطم (٥) ند : هرب .

وصف علي بن أبي طالب

قال مُعاوية لِضرار الصدّائي : يا ضرار صف لي علياً قال : اعفني يا أميرَ المؤمنين . قال لتصفنه ، قال : أما إذْ لا بُد من وصفه فكان والله — بَعيدَ المدى [1] شديد القوَى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلمُ من جوانبه وتَنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يَستوحشُ من الدنيا وزَهرتها ، ويَستأنسُ بالليل ووحشته ، وكان - والله — غزيرَ العبرة ، طويلَ الفكرة ، يُقلب كفه ، ويُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدِنا يُجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا ، وقُربه منا ، لا نكادُ نُكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهلَ الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمعُ القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سُفيان

قال عُتبة بن أبي سفيان : إن للعرب كلاماً هو أرق من الهواء ، وأعذبُ من الماء ، مرّق من أفواههم مرُوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إنْ فسرت بغيرها عُطلت [2] ، وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها لكنة إذا سُمعتْ ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت [3] .

---

(١) المدى : الغاية .

(٢) التعطيل : ترك الشيء ضياعاً .

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع .

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مُلِئَ علماً وظَرْفٌ حشي ظُرْفاً ، وبستان يحملُ في رُدْن [١] ورَوضةٌ تقلّب في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجمُ كلام الأحياء ، ولا أعلمُ جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهرَ كفاية ، وأقل جناية ، ولا أقل إملالاً وإبراماً ، ولا أقل خلافاً وإجراماً ، ولا أقل غيبة ، ولا أبعدَ من عَضْيَهة [٢] ، ولا أكثر أعجوبة وتصرفاً ، ولا أقل صلفاً [٣] وتكلفاً ولا أبعدَ من مراء، ولا أترك لشغب، ولا ازهدَ في جدال ، ولا أكفَّ عن قتال — من كتاب، ولا أعلمُ قريناً أحسنَ مواتاة [٤] ، ولا أعجل مكافأة ، ولا أحضرَ معونة، ولا أقل مؤونة ، ولا شجرة أطول عمراً ولا أجمع امراً ، ولا اطيبَ ثمرةً ، ولا أقرب مُجتنى ، ولا أسرع إدراكاً في كل أوان ، ولا أوجد في غير إبان — من كتاب ، ولا أعلمُ نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وُجوده يجمعُ من التدابير الحسنة ، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأخبار اللطيفة ، ومن الحكم الرقيقة ، ومن المذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة والأخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والأمثال السائرة والأمم البائدة [٥] ما يجمعُ الكتاب .

وقيل لبعض العلماء : ما بلغَ من سرورك بكتبك ؟

فقال : هي إنْ خَلوت لذتي ، وإن اهتممتُ سلوتي ، وإنْ قلت : إنّ زَهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنها الألحاظ ، فإن بستان

---

(١) الردن : الكم ، وجمعه أردان (٢) العضيهة : البهتان والنميمة
(٣) الصلف : تمدح المرء بما ليس عنده (٤) المواتاة : حسن المطاوعة والموافقة وأصله بالهمزة وفي الحديث : خير النساء المواتية لزوجها. (٥) القديمة الهالكة.

« الكتب » يَجلو العقل ، ويَشحذُ الذِّهنَ ، ويُحيي القلب ، ويُقوِّي القريحة ، ويُعين الطبيعة ، ويبعثُ نتائجَ العقول ، ويستثير دفائن القلوب ، ويُمتِعُ في الخلوة ، ويؤنس في الوحشة ، ويضحكُ بنوادره ، ويَسُرُّ بغرائبه ، ويُفيد ولا يستفيد ، ويُعطي ولا يأخُذ ، وتَصِل لذّته إلى القلب من غير سآمة تُدرِكك ، ولا مَشَقّة تعرض لك .

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ : مَعاد [1] معنوي ، يُعيد الأعصار وقد سَلفت ، ويَنشُر أهلها ، وقد ذهبت آثارُهم وعفت [2] ، وبه يستفيدُ عُقول التجارِب مَن كان غِرّاً ، ويلقى مَن قبله من الأمم وهلُمّ جرّاً . فهم لديه أحياء ، وقد تضمّنتهم بُطونُ القبور ، وعنه غُيَّبٌ وقد جعلتهم الأخبار في عِداد الحضور ، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب ونُسيت الأحساب ، ولم يعلم الإنسان أنّ أصله من تراب ، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وعَميَ [3] على الأواخر حال قدمائها ، ولم يحَطْ علماً بما تداولته الأرض من حوادث سمائها ، ولمكان العناية به لم يخل منه كتاب مِنْ كُتبِ الله المنزلة ، فمنها ما أتى بأخباره المجْمَلة ، ومنها ما أتى بأخباره المـُفَصَّلة ، وقد ورد في التوراة مُفرداً في سِفر من أسفارها ، وتضمّن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومُدَد أعمارها .

وقد كانت العرب على جهلها بالقَلم وخَطّه ، والكِتاب وضَبطه ، تصرِفُ إلى التواريخ جُلّ دواعيها ، وتجعل لهُ أوّل حظٍّ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتَعتاضُ برقم صُدورها ، عن رقم سُطورها ، كل

---

(١) معاد : يقصد أنه كاليوم الآخر . (٢) عفا الشيء : هلك .
(٣) عمي عليه الأمر : التبس وكذلك عمي عنه .

ذلك عِناية منها بأخبار أوائلها ، وأيام فضائلها ، وهل الإنسان إلا ما أبقته ذِكْرُه وبناه ؟ وهل البقاءُ لِصُورة لحمه ودَمه لولا بقاء معناه !؟

وصف الرّجل الكامل

كتب الحسن [١] بن سهل إلى محمد [٢] بن سَمَاعَة القاضي يَصِفُ له الرّجلَ الكاملَ :

أما بعدُ : فإني احتجتُ لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذي عِفّة ونَزاهة ، طُعمة [٣] قد هذّبته الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظَنين [٤] في رأيه ولا بمطعُون في حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلّدَ مهمّاً من الأمور أجزأ [٥] فيه ، له سِن مع أدَب ولِسان ، وتُقعدُه الرزانة ، ويسكنه الحِلمُ قد فرّ [٦] عن ذكاء [٧] وفطنة ، وعَضّ على قارِحة [٨] من الكمال ، تكفيه اللّحظة وترْشدهُ السكتة ، قد أبصر خدمة المُلوك وأحكمها وقام في أمورِهم فحمد فيها له أناةُ الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ! وفهم الفقهاء وجَواب الحكماء. لا يبيعُ نَصيبَ يومه بحِرمان غده ، يكاد يسترق [٩] قلوب الرجال بحلاوة لِسانه ، وحُسْنِ بيانه ، دلائلُ الفضل عليه لائحة ، وأماراتُ العلم شاهده .

---

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفي سنة ٢٣٦ هـ. (٢) من أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة توفي سنة ٢٢٣ ، وقد بلغ مائة سنة وهو صحيح الحوادث . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم . (٥) أجزأ : أغنى . (٦) فر الدابة : كشف عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها . (٧) الذكاء تمام السن واكتماله أو حدة الذهن . (٨) الفرس القارح الذي استكمل القوة باكتمال العمر ونظيره في الإبل البازل ، والسن التي تنبت له عند قروحه تسمى قارحاً وقارحة والجملة كلها كناية عن استيفاء صفات الكمال . (٩) يستعبد .

مُضطلعاً [١] بما استنهض، مستقلاً [٢] بما حُمّل، وقد آثرُتك بطلبه وحبَوتك بارتيادِه [٣]، ثقةً بفضل اختيارك، ومعرفةً بحسنِ تأتّيك [٤].

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقي بك مخاطباً ابنيه يوم أنْ عبرَ قناة السويس ميمماً الأندلس حينما نفَتْه الأحكام العرْفية إبّانَ الحرب العالميّة [الأولى]

يا بَنيّ القناة لقومكما فيها حياة، ذِكرى إسماعيل وريّاه [٥]. وعُليا مفاخر دنياه، دولة الشرق المرجاة، وسلطانه الواسعُ الجاه، طريقُ التجارة، والوسيلة والمنارة، ومَشرَع [٦] الحضارة

تعبُرانها اليومَ على مُزجاة [٧] كأنها فلكُ النّجاة، خرجت بنا بينَ طوفان الحوادث، وطغيان الكوارث، تفارق برّاً مغتَصبه مُضَريُّ [٨] الغضْبة. قد أخذَ الأُهبةَ، واستجمعَ كالأسد للوثْبة، وتلاقي بحراً جُنّتْ جواريه، ونزت [٩] بالشرّ نوازيه، وتمثّلتْ بكل سبيل عواديه. مملوءاً ببغتات الماء، مُترعاً بفجاءات السماء من نون [١٠] ينشبُ الدوارع، أو طير [١١] يقذفُ البيض مصارعَ، فقلت: سيري، عوّذْتكَ بوديعة [١٢] التابوت، وبصاحب [١٣]

---

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه إذا كان قديراً عليه (٢) استقل بالحمل نهض. ٣ والارتياد: مطلب ٤ تأتى للأمر: ترفق و تاه من وجهه.
(٥) الريا — الرائحة الطيبة. (٦) المشرع: المورد. (٧) زجاه وأزجاه: ساقه وسيره (٨) مضر فخذ من أفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا مأخوذ من قول بشار:

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

(٩) النزو: الوثب، والنازية: حدة الرجل الوثاب إلى الشر وجمعها نواز.
(١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (١١) يريد بالطير الطائرات وبالبيض ما يلقى منها من مهلكات القذائف. (١٢) هو موسى كليم الله. (١٣) هو نبي الله يونس

الحوت ، وبالحيّ الذي لا يمـــوتُ ، واسْري يا ابنة اليمّ ، زمامُك الروح [١] ، ورُبّانك [٢] نوح ، فكم عليك من منكوب ومجروح .

إن للنفي لرَوعة ، وإن للنأي للوعة ، وقد جرتْ أحكامُ القضاء ، بأن نعبرَ هذا الماء ، حين الشرُّ مُضطرم ، واليأس محتدم ، والعدوّ مُنْتقم ، والخصم محتكم . وحين الشامت جذلان مبْتسِم ، يَهزأ بالدمع ، وإن لم ينسجم [٣] ، نفانا حُكامٌ عُجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلّفناهُم يفرحُون بذهب النجم ، ويمرَحون في أرسانٍ يُسَمُّونها الحُكم ، ضربونا بسيفٍ لم يطبعوه ، ولم يملكوا أن يرفعوه ، أو يضعوه ، سامحهم في حقوق الأفراد ، وسامحوه في حقوق البلاد ، وما ذَنْبُ السيف إذا لم يستَحي الجلاّد ؟!

ماذا تهمِسانِ ؟ كأني أسمعكما تقولان : أيّ شيء بدا له ، على هذه الضاحية [٤] وماذا شَجا خياله من هذه الناحية ؟ أي حسن او طيب للملح يتصبب في كثيب ماء عكر في رمل كدر ؟؟.

قناة حَمِئة [٥] ، كأنها قناة صَدِئة ، بل كأنها وعِبْرَيْها [٦] رمال بعضها متماسك وبعضها منهال ، وكأن راكب البحر مُصحِر [٧] وكأن صاحب البَرّ مُبحِر . رويدَكما : ليس الكتاب بزينة جـــلده ، وليس السيف بحِلْية غِمده . تلك التنائف [٨] ، من تاريخكم صحائف ، وهذه القفار ، كتبٌ منه وأسفار ، وهـذا المجاز هو حقيقة السيادة ، ووثيقة الشّقاء أو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه اختصّ بالغلبة ، ووقفَ للأعقـاب عقبـة ، ولو سكتتْ لنطقت العِبر ، وأينَ العيان وأينَ الخبر ؟

---

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ربابين . (٣) انسجم الدمع — سال . (٤) الضاحية البادية وكل أرض بارزة للشمس . (٥) الحمئة : التي فيها الحمأة اي الطين الأسود المنتن ، والقناة الأولى الترعة والقناة الثانية الرمح . (٦) عبر النهر شاطئه . (٧) أصحر سار في الصحراء . (٨) التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .

انظرا : تريا العيرين عبرة الأيام ، حصون وخيام، جنود قعود وقيام، جيش غيرنا فرسانه وقواده ، ونحن بعُرانه [١] وعلينا أزواده [٢] ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلبٌ في غير داره انفرد وراء الدار بالنباح .

القناة وما أدراكما ما القناة، حظّ البلاد الأغبر من التقاء الابيض والاحمر، بَيْدَ أنها أحلام الأول، وأماني الممالك والدول، الفراعنة حاولوها، والبطالسة زاولوها [٣]، والقياصرة تناولوها، والعرب لأمر ما تجاهلوها [٤]، إلى أن جرى القدَر لغايته ، وأتى «إسماعيل» بآيته ، فانفتح البرزخ بعنايته ، والتقى البحران تحت رايته في جمع من التيجان لم يشهده إكليله [٥] ، قد كان يُتوّج فيه لو شهدتـه جيوشه وأساطيله، وما إسماعيل إلا قيصرٌ لو أنه وفق، والإسكندر لو لم يُخفق. ترك لكم عزّ الغد وكنز الابد، والمنجم الاحد، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد.

ماذا على الرّمال ، من لمحات جلال وجمال؟ ارجعا القهقرى بالخيال إلى العصر الخال واعرضا في حداثتها الأجيال ، تريا على هذا المكان وُجوهاً تتمثل وركاباً تتنقل ، وتريا النبُوّة تتهلل ، والآيات تتنزل، وتريا الملك يترجّل، حتى كأنكما بالزمان الاول . فها هنا وضعَ للنبوّة المهد ، وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ، ومحطم الاصنام ، وبنّاء البيت الحرام ، خليل ذي الجلال والإكرام [٦] .

هاجر إلى مصر أكرم من هاجر، ثم انقلب منها بأم العرب هاجر [٧]، ومن هذه الثنيّات طلع يوسف في القيد ، وهو للسياره صيد ، يسير من كَبِدٍ إلى كَبِدٍ ، قلبٌ جرحته الإخوة، وجنبٌ قرّحته النسوة ، فيالك «يوسف» من

(١) البعران جمع بعير كأبعر (٢) الازواد جمع زاد وهو الطعام (٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروى أن هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة وانه استشار يحيى بن خالد البرمكي في ذلك فقال له: يا امير المؤمنين «إن خرق السويس خرق في الإسلام » فعدل عن رأيه . (٥) الإكليل: التاج (٦) هو خليل الله إبراهيم . (٧) هي جارية مصرية اهداها فرعون إلى السيدة زوج سيدنا إبراهيم فوهبتها له فاستولدها إسماعيل جد العرب المستعربة .

أُسوة [١] ، عِزٌّ بعد هَون ، وذلة بعد المنزِل الدَّون ، وشئون أقدار وشجُون ، وسُهول حياة وحزُون ، وسجوفُ القُصور بعد السجون إلى سجود الشمس لك والقمر والكواكب الأُخر

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال زَويلُهُ [٢] ، وطلبه قتيله ، وزيّن له الفرار خليله [٣] ، فحوته هذه الرِّمال ، فإذا الامن سبيله ، واليُمْن دليله ، والسلامة زاملته [٤] والسّلم زميله ، ولو أطلعه الله على غيبه ، لمسّ النبوَّة بين يديه وجيبه إلى أن رُفِع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : كُنْ من الاحرار الاحبار ، وارجع فسلِّط الحقّ على فرعون الجبار ، فكان عليه السلام أوّل من اقتحم على الفرد جبروته وهتك على المستبد طاغوتــــه [٥] ، وخطم [٦] المتأله [٧] وحطم عظَموته ، ماءُ الحق على لُطفه ، ظفِر بنار الباطل على عُنفه ، ظهر العدل على الحيف وكسرت العَصا السيف .

وعلى هذه الارض مَشت السماء [٨] الطاهرة ، والنيّرة الزّاهرة ، والآية المتظاهرة أم الكلمة [٩] وطريدة الظلمة ، سرحوا في عِرضها فأخرجوها من ارضها فضربت في طول الارض وعرضها ، يوسف حاديها ، وجبريل هاديها ، والقدس ناديها ، والطهارة أرجاء واديها ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وجناح الرحمة والإصباح من الظلمة ، حتى هبطت به اكرم الادِيم [١٠] فنشأ بين الحكيم والعليم وترعرع حيث ترعرع بالامس الكليم

(١) الاسوة : القدوة ، وما يتأسى به الحزين اي يتعزى . (٢) زال زويله : فزع وحذر . (٣) يشير إلى ما كان من أمر موسى حين وجد قبطياً وإسرائيلياً يقتتلان فاستنصره الإسرائيلي على القبطي فوكزه وكرة كانت القاضية فلما اصبح وجد الإسرائيلي نفسه قاتل قبطياً آخر فاستغاثه فقال موسى إنك لغوي مبين. ثم هم بنصرته على القبطي فظن أنه يريده بالأذى فصاح الإسرائيلي يا موسى أتريد ان تقتلني كما قتلت نفساً بالامس فذاع امره ولم يلبث ان جاءه رجل وقال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين فخرج منها إلى بلاد مدين . (٤) الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل رأس ضلال . (٦) خطمه : قهره او ضرب انفه . (٧) اراد بالمتأله المتكبر غير ان معناها اللغوي المتنسك المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم . (٩) الكلمة سيدنا عيسى . (٢٠) الاديم : وجه الارض .

فيالك من دار لعبتْ على عَرَصاتها الاقـدار ، ناوَيت [1] موسى القريب ، وآويت عيسى الغريب ، نَبوت [2] بالنبي ، وحَبَوْت الامنَ عيسى وهو صبي ، عُذرك لا تنضى [3] إليه المطي ، فإنما اغضبت القبطي لابنك القبطي .

ثم انظرا تريا إبلا صِعاباً ، وخيلاً عراباً [4] ، وتريا الرُعاة [5] انقضوا على الوادي ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبدوا بالملك فيها آونة .

وتريا الوحوش الضارية والجوارح الكاسرة ، يقودها شرّ الاكاسرة [6] ، مَلأت هذه الفجاج [7] ، وكأنها حرجات [8] الساج ، او حركات الامواج ، ثم تدفقت تكتسح الدّيار ، باغية السّيف طاغيةَ النار ، تدك الهياكل والمعاقل ، وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإسكندر الكريم ، قد لَمع كالصارم من هذا الضريم [9] ، يحمل الحملات النّجائب ، ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصّحابة ، مرّوا من هذه الارجاءِ مرّ السحابة ، يفتحون للحقّ ويفتكون بالرّق ، حتى أخلوا القُصور من القياصرة ، واراحوا مصر الصابرة من صلف الجبابرة .

وتريا صلاح الدين يَخفى كالبدر ويبدو ، ويروح كالغيث ويَغدو ، بعوثٌ بلا عدد ، ومددٌ إثر مدد ، وذخائر وعدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه ، وارتكب الغرر جيشه . وتريا إبراهيم بن عليّ مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل بعث

---

(١) ناوأه ونواه : عاداه . (٢) نبا به المكان : لم يوافقه . (٣) أنضى المطية : هزلها . (٤) العراب من الخيل والإبل العربية . (٥) هم العمالقة الذين ملكوا مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز . (٧) الفجاج : الطرق الواسعة . (٨) الحرجة : الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً له ورق عريض جداً . (٩) الضريم : الرمل .

الحشرين ، وحشد الحافرين ، وقرّب المسافة للمسافرين ، غيَّر وجه السفر ، فقيل : بلغ غاية الظفر ، وقيل وقع الحافرُ فيما حَفر .

ثُمَّ انظر اليوم تريا القناة في يد القوم إنْ أمِنوا ارَكزوها، وإن خافوا هزوها.

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حَسَنُ القميص ، جيّد الفُصوص ، وثيق القصب ، نَقيُّ العصب ، يُبصر بأذُنيه ، ويَتبوّع بيديه ، ويُداخل برجليه ، كأنه موج في لُجّةٍ أو سيل في حدُور يناهب المشي قبل أن يبعث ، ويلحق الأرانبَ في الصّعوداء ، ويجاوز جواري الظّباء في الاستواء ، ويسبق في الحدور جري الماء ، إن عُطِفَ جار ، وإن أُرسِلَ طار ، وإن كُلّفَ السير أمعنَ وسار ، وإن حبس صَفَنَ ، وإن استوقف قطن ، وإن رعى أنن ، فهو كما قال تأبّط شرّاً :

ويسبق وفدَ الريح من حيث تُنتحَى بمنخَرَقٍ من شــدّة المتدارِك

وصف العصا

لقي الحجّاج أعرابياً فقال . مِنْ أين قبلت؟ قال من البادية. قال: ما بيدك؟ قال عصاً أركزها لصلاتي ، وأُعدُّها لعُداتي ، وأسوق بها دابّتي وأقوى بها على سفري ، وأعتمد عليها في مشيي ، ليتّسع بها خطوي ، وأعبر بها النهر فتؤمنني وأُلقي عليها كساء فيسترني من الحرّ ، ويقيني من القرّ ، وتدني ما بعد مني ، وهي تحمل سُفرتي وعلاقة إداوتي [١] ومِشجَبُ ثيابي ، أعتمد بها عند الضراب وأقرع بها الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب ، تَنوب عن الرُّمْح في الطعان ، وعن الحرْبة عند مُنازلة الأقران ورثتها عن أبي ، وأُورثها بعدي ابني ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أُخرى ، كثيرة لا تحصى

---

(١) إداوة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أعجب أمرها ، وما أدقّ سرّها ، قد جمعت الأضداد واسترقّت النجباء و لأوغاد ، فهي كبيرة الحجم ، مُفوّفة الجسم ،لكنها خفيفة الوزن، سريعة الوثب، وهي ناعمة اللمْس، مليحة الرقص، لكنهاتأبى الوخْز ولا تطيق اللكز ، وهي تفِرُ من المداعة والملاعبة ، ولكنها لا تملّ من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهي محبوبة مألوفة ، تنقل على الأيدي والأحضان، لكنها تطرد بالأرجل والعصيّ ، فهي عزيزة ذليلة، حقيرة جليلة ، تُشبه القنابل في صورها ، والدُفوف في أصواتها ، والطير في امتطاء الهواء،واختراق الفضاء.

وصف جيوش لابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ

وصار فلان في جيوش،عليهم أردية السيوف و قمصة الحديد،وكأن رماحهم قرون الوعول [١] ، وكأنّ أدراعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بحوافرها وتمد بالنقع سُرادِقها،قد نُشرت فيوجوهها غرر[٢] كأنها صحائف الرق[٣] وأمسكها تحجيل [٤] كأنها أسورة اللجيْن وقرطت عذراً [٥] كأنها الشنوف تتلقّف الأعداء أوائلها،ولم تنهض أواخرها،قد صب عليهم وقار الصبر وهبّت معهم ريحالنصر.

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الحسد – أبقاك الله – داء ينْهك الجسد،علاجه عسيرٌ وصاحبه ضَجِر،وهو باب غامض [٦] وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فمداويه في عناء،ولذلك قال النبي ﷺ « دَبّ [٧] إليكم دَاءُ الأمم من قبلكم : الحسد والبَغْضاءُ » .

الحسد عقيد [٨] الكفر ، وحليف الباطل[٩] وضدّ الحق ، منه تتولد العداوةُ،

---

(١) جمع وعل وهو تيس الجبل . (تيس الشاة الجبلية) وقرونه طويلة .
(٢) جمع غرة وهي بياض في جبهةالفرس. (٣)الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه
(٤)التحجيل بياض قوائم الفرس (٥)اي ألبست عذراً وهو ما على خد الفرس. من اللجام . (٦) اي مسلك خفي يعسر الخروج منه . (٧ سرى فيكم .
(٨) أي معاهده ومحالفه . (٩) ملازمه .

وهو سبب كلّ قطيعة[١] ومُفرق كلّ جماعة ، وقاطع كل رحم مِنَ الأقرباء[٢] ، ومُحدثٌ للتفرق بين القُرناء[٣] ، ومُلقّح الشّرّ بين الحلفاء[٤]

ووصف أيضاً افضل الكلام - وقال :

أفضل الكلام ما كان قليله يُغني عن كثيره ، ومعناهُ ظاهراً في لفظه ، وكأن الله قد ألبَسَه من ثياب الجلالة ، وغشّاه[٥] من نور الحكمة ، على حسب نيّة صاحبه وتقوى قائله ـ فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه[٦] مُنزّهاً عن الاختلال ، مَصوناً عن الكلف صنع في القلوب صنيع الغَيث[٧] في التربة الكريمة ، ومتى فُصّلت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها معه عُقول الجهلة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُريد ، سألت أبا حاتم عن « أبي نواس » فقال : إن جدّ أحسن وإن هزل ظرف ، وإن وصف بالغ ، يُلقي الكلام على عواهنه لا يُبالي مِنْ أينَ أخَذَه ؛ قلت : « فبَشار بن بُرْد » ؟ قال : نظار عوّاص مطيلٌ مجيد يصفُ ما لم يره كأنه رآه على أن في شعره خللاً كثيراً ؛ قلت : « فمروانُ بن أبي حفصة » ؟ قال : شاعر راضٍ عن نفسه يستحسن كلّ ما جاء منه معجبٌ به ، لا يرى أنّ من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة .

قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : خليج صافٍ يَنزع من بحر كدر ، كالزند يوري تارةً ويصلدِ أخرى ؛ قلت : « فأبو العتاهية » ؟ قال : غثاء جَمّ ، واقتدار سهلٌ وشعر كخرز الزّجاج ، وربما أشبه الياقوت والزّبرجد ؛ قلت :

(١) انفصال . (٢) كل قرابة واتصال. (٣) المناظر. (٤) مولد الشر بين المتحالفين . (٥) كساه . (٦) أي من إجبار الفكر . (٧) المطر .

«فعباس بن الأحنف» قال : يُلقي دلوهُ في الدلاء فيغترفُ الصفو أحياناً والحمأة أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت : «فسلم الخاسر » قال : مُقِلّ مداح ، شعره ديباج وعهن ، يُمَوِّه الرديء حتى يشبه الجيد ، قلت «فأبو الشيص» قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرة التي نَفَصت ففيها المستعذب والمستبشع قلت « فعلي بن جبَلة » قال : بحّاث عن الكلام الفَخْم ، والمعنى الرائع ، لا ينالُ مرتبة القُدماء ، ويجل عن منزلة النظراء قلت « فأبو تمام » قال : سيل كثير الغثاء ، غزير الغَبار ، جم النطف ، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال ، قلت : « فعبد الصمد بن المعذل »؟ قال : خرّاج ولاّج ، يعتسف تارة ويهتدي أخرى ، قلت « فعلي بن الجهْم » قال كلام رصين ومسلكٌ وعر ، عقله أغلبُ على شعره من طبعه ، قلت « فبكر بن النطاح » قال : تشبّه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القريتين

وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٧٥٩ هـ أبا تمام والبُحتري والمتنبي

قال : لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقفُ على ساحله ، وكيف يُحصى قول لم تُحص أسماء قائليه ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكاثر فوائده ، وتَتشعب مقاصدُه ، ولم أكن ممّن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتّباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداعُ المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف فمتى وجدتُ ذلك فكل مكان خيّمتْ فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام ، والبحتري والمتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعُزّاهُ ومَناتُه) الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُستحسناته ، وقد حوَت أشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء أما أبو تمام : فإنه ربُّ معانٍ وصيقَل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مُدافع عن مقام الإغراب ، الذي برز فيه على الأضراب

ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقير ، فمن حفظ شعر الرّجل وكشف عن غامضه ، وراض فكرَه برائضه أطاعته أعِنَّة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت «حَذامِ»؛ فخذ مني في ذلك قولَ حكيم وتعلّم (ففوقَ كلَّ ذي عِلم عَليم) .

وأمّا البُحتريّ : فإنه أحسنَ في سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفي الرّقة والجزالة على الإطلاق ، فبينا يكون في شظَف نجدٍ ، إذ يتشبّث بريف العِراق ، وسُئِل المتنبي عنه وعن أبي تمّام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمّام حكيمان ، والشاعر البُحتري ، ولعمري إنه أنصفَ في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البُحتُري أتى في شعرِه بالمعنى المقدود من الصّخرة الصّماء ، في اللفظ المصُوغ من سُلافة الماء ، فأدرك بذلك بُعْدَ المرام ، مع قُربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا انه أتى في معانيه بالنوادر الغالية ، ورقي في ديباجة لفظه إلى الدّرجة العالية . وأما المتنبّي فإنه أراد أن يسلك مسلك ابي تمّام ، فقصُرَت عنه خطاه ، ولم يعطه الشّعر من قياده ما أعطاهُ ولكنّه حُظيَ في شعره بالحكم والأمثال . واختص بالإبداع في وصف مواقفِ القِتال. وأنا أقول قولاً لستُ فيه مُتأثماً، ولا منه مُتلَثّماً ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نِصالها ، وأشجعَ من أبطالها . وقامت أقواله للسّامع مقام أفعالها ، حتى يظنّ أن الفريقين قد تقابلا ؛ والسّلاحين قد تواصلا ، فطريقه في ذلك تَضِلّ بسالِكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شكّ أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصفُ لسانه ، ما أدّاه إليه عِيانه ، ومع هذا فإني رأيت النّاس عادلين عن سُنَن التوسّط فإمّا مفرّط في وصفه وإمّا مُفْرِط . على أنه إذا كان انفرد بطريق صار أبا عذره ، ولقد صدق في قوله من ابيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريماً بعد رُؤيته   إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا
ولا تبالِ بشعر بعد شاعِره   قد أُفْسِدَ القول حتى أُحمِدَ الصّمم

وصف المفضّل الضبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياء العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين وكنتُ مشغوفاً بسماع أخبار العرَب وجمعها ؛ فأخذت أجولُ بين خيامهم ، وأتحسس من أحوالهم وإذا أنا بامرأة واقفة في فِناء خبائها آخِذة بيد غلام فلما رأيتُ مثله في حسنه وجماله وهي تعاتبهُ بلسان رطب ، وكلام عَذْب ، يَسترقهُ السمع ويترشفهُ القلب ؛ فكان أكثر ما أسمعهُ منها بني ـ وأي بني ، وهو يَتبسم في وجهها وقد غلب عليه الَحياء والَخجل كأنه من ربات الحِجال فلا يُحيرُ جواباً ؛ ولا يبدي خطاباً ؛ فاستحسنتُ ما رأيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ، فدنوتُ فسلمت فرد عَليّ السلام ،ووقفتُ أنظر إلى المرأة والغلام ، فقالت لي : يا حضري ،ماحاجتك ؟ قلت : الاستكثارُ مما أسمعُ ، والاستمتاع بما أرى ، فابتسمت وقالت يا هذا إن شئت سُقْتُ إليك ما هو أحسنُ مما رَأيتَ ،فقلت هات حفظك الله ، قالت ولد هذا الغلام فكان ثالث أبويه قُربْيَّ بيننا كأنه شملٌ ، وكنتُ أقيه بَرد الشتاء وحر الهجير ، حتى إذا ما تمت لهُ خمس سنين ، أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فرَواه ، ورغب في مُفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما اشتد عظمه وكمُل خلقه ، حملتهُ على عِتاقِ الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومَشى الخيلاء بين بيوتات الحي ، وأصغى إلى اصوات ذَوي الحاجات ، فأخذ في قِرى الضيف وإطعام الطعام ، وأنا عليه وجلة أحرسه من العيون ان تصيبه ، ومن الألسن ان تعيبه ، إلى أن نزلنا في بعض الأيام منهلاً من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتيان الحي في طلب ثأر لهم وشاء الله تعالى ان أصابت الغلام وعكة شغلتهُ عن الخروج ، حتى إذا امعن القوم ولم يبق في الحي غيره ، ونحن آمنون وادعون ، فوربك ما هو إلا أن أدبرَ الليل وأقبل الصبح حتى طلعت علينا طلائع العدو وتغرر الجياد ثوّاراً لا زواراً ، فما كان إلا هنيهة حتى أحرزوا

الأموال ، وهو يسألني ما الخبر ؟ وأنا أستره عنه إشفاقاً عليه وضناً به ، حتى إذا علت الأصوات وبُرِّزَت المخدرات ، رَمى دِثاره وثار كما يثور الضرغام إذا أُغضِبَ ، فأمر بإسراج فرسه ، ولبس دِرعَ حربه ، وأخذ رمحه بيده، وركب حتى لحق حُماة القوم وأنا انظر إليه فطعن أدناهم منه فرَمى به ، ولحق أبعدَهم فقتله ، فانصرفت إليه وُجوه الفرسان ، فرأوا غلاماً صغيراً ، لا مدَد وراءه ، فحملوا عليه ، فأسرع يَؤُمُّ البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرَتهم ومزقهم كل ممزّق ومَرَق كما يمرق السهم من الرمية ، وناداهم خَلوا عن المال فوالله لا رَجعتُ إلا به ، أو لأهلكن دونه ، فتداعت إليه الأقران ، وتمايلت نحوهُ الفرسان ، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة ، ومالوا عليه بالأعنة ، فوثب عليهم وهو يزأرُ كالأسد، وجعل لا يحملُ على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا هزمها، حتى لم يبقَ من القوم إلا مَن نجا به فرسه ، ففاز بالأموال وأقبلَ بها ، فكبر القومُ عند رؤيته ، وفرحوا فرحاً عظيماً بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أصبح صباحاً وأحسنَ رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد في وُجوه فتيات الحي هذه الأبيات :

تأملنَ فعلي هل رأيتن مثله ... إذا حشرجَت نفس الكمي عن الكربِ
وضاقت عليه الأرضُ حتى كأنه ... من الخوف مسلوب العزيمةِ والقلبِ
ألم أعطِ كلا حقه ونصيبته ... من السمهري اللدنِ والصارم العضْبِ
أنا ابن أبي هند بن قيس بن خالد ... سليل المعالي والمكارم والسيْبِ
أبى لي أن أعطي الظلامة مُرْهفٌ ... وطرفٌ قويٌّ الظهر والجوف والجنْبِ
وعزم صحيحٌ لو ضربت بحده ... شماريخَ رضوى لانحططن إلى التربِ
وعرْضٌ نقيٌ أتـقي أن أعيبه ... وبيت شريف في ذُرا ثعلب الغلبِ
فإن لم أُقاتل دونكن وأحتمي ... لكن وأحميكن بالطعن والضرب

وأبذُل نفساً دونكنّ عزيزة عليّ لأطراف القناء وظُبيَ القضبِ
فلم تصدق اللاتي مَشين إلى أبي يهنئـــه بالفارس البَطل النّدبِ

وصف نهج البلاغة للامام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ

أوفى لي حكم القدَر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة) صدفةً بلا تعمد، أصبته على تغير حال ، وتبلبل بال، وتزاحم أشغال ، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلة ، فتصفحت بعضَ صفحاته ، وتأملت جمَلاً من عباراته من مواضعَ مختلفات ، ومواضيع متفرقات ، وكان يخيل لي في كل مقام أن حروباً شبّت ، وغارات شنت ، وأن للبلاغة دولة ، وللفصاحة صولة ، وأن للأوهام عرامة [١]، وللريب دعارة [٢] ، وأن جحافلَ الخطابة، وكتائب الذرابة، في عقودِ النظام، وصفوف الانتظام ، تنافح بالصفيح الأبلج [٣] والقويم الأملج [٤] ، وتمتلج [٥] المهج بروائع الحجج، وتفل دعارة الوساوس وتصيب مقاتل الخوانس [٦]، فما أنا إلا والحق منتصر ، والباطل منكسر، ومَرْج الشك في خمود ، وهرْج الريب في ركود، وأن مدبر تلك الدولة ، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغيُّر المشاهد، وتحول المعاهد ، فتارة كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواح عالية ، في حلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية تُوحي إليها رشادها ، وتقوم منها منآدها ، وتنفر بها عن مداحض المزالّ إلى جواد الفضل والكمال، وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه باسرة، وأنياب كاشرة ، وأرواح في أشباح النمور ، ومخالب النسور ، وقد تحفزت للوثاب، ثم انقضّت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها،

---

(١) العرامة : الشراسة . (٢) الدعارة: سوء الخلق. (٣) الصفيح: السيف، والأبلج : اللامع البياض . (٤) الرمل الأملج : الأسمر (٥) تمتلج : تمتص .
(٦) الخوانس : خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء.

واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد ان عقلاً نورانياً لا يشبه خلقاً جسدانياً فصل عن الموكب الإلهي ، واتصل بالرّوح الإنساني ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الاجلى ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآنات كأني أسمع خطيبَ الحكمة ، يُنادي بأعلياء الكلمة ، وأولياء أمر الامة ، يُعَرّفهم مواقعَ الصواب ، ويُبصّرهم بمواضع الارتياب ، ويُحذّرهم مَزالق الاضطراب ، ويُرشدُهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن المصير .

وصف حفلة للمرحوم المُويلحي المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالي لسانٌ ينطق بالفخار ، وجنانٌ يجري بنظم الأشعار ، لأنشدت ليلةُ الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها في ديوان العصور والدهور ، ما لم تبلغه ليلة قبلها في تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفصحُ لنا يوماً عن انشراحه وابتهاجه ، لانبأنا بأنه أدّخرها غُرّة لجبينه ، ودُرّة لتاجه .

لا زالت أيام الجناب العالى ولياليه مُشرقةً بالسعد والهناء ، مُتألقة تألق البدور في أُفق السماء .

ووصف أيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام : زَايلنا الاهرام وخلّيناها ، تندُبُ من شادَها وتَنعي مَنْ بناها ، وملنا إلى دار التُّحَف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفظتهُ لنا من صنوف الطرَف وعيون الاخبار ، وما أخرَجته الايام من عالمَ الخفاء إلى عالم الظهور ، بعد أن كان سرّاً مكتوماً في خواطر العصور والدهور ، وماصانته بطون القبور من الفناء والدثور ، وحمته احشاء الرُّموس من العفاء والدّروس ، وما أخبَته

أرحام المعابد والهياكل من بقايا الماضين وخبايا الاوائل ، وما انكشفت عنه سُجوف الاحقاب وديعةَ الاسلاف للأعقاب ، من مكنون الدفائن ومكنوز الخزائن ، وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البدْع الانيق ، وغرائب الصنع العَتيق ، بَليَت في اصطحابها بطونُ الايام والليالي ، وانحنَت في احتضانها ظهورُ العُصور الخوالي ، وانقلبت البحار وهاداً ، واصبَحت الوهاد اطواداً ، وغدَت الأغوارُ أنجاداً ، وأضحى العمارُ خراباً والخرابُ عماراً ، والغِمارُ سراباً ، والسَّراب غماراً ، وتمدَّنَت بواد ، وتبَدَّت مدائن [1] ، وبادت مواطن وقامت مَواطن [2] ، ومضت دوَل ، وذهبت أُوَلٌ إثْرَ أُوَل ، وبدَت أحوالٌ وحالت ، وظهرت أعمالٌ وزالت ، وهي كما ترَكها أهلُها ، مَصونٌ وضْعُها ، محفوظٌ شكلها ، خبَرٌ صادق ، ولسانٌ ناطق تخبر بالعبَر ، وتحدّث عمّن غبَر :

مضتْ غبراتُ العيشِ وهي غَوابر على الدهر مكتوبٌ عليها حَبائسُ

وصف الفونغراف «الحاكي» للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠هـ

مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتَطِف الألفاظ اقتطافاً ، ويختطِف الصوت اختطافاً ، مطبَعة الأصوات ، ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية ، نَقْلَ كلام عمر رضي الله عنه إلى سارية [3] أشدُّ من الصَّدى في إعادة الصوت على أصلِه ، كأنه الحروف على يد الطَّابع ، والوتَر عن يد الضارب ، والقصبُ على فَم القاصِب ، يحفظ الكلام ولا يُبيدُه ، ومتى استَعدته منه يُعيده ، من غير أن يُبقي لفظاً في صدره ، أو يكتُم شيئاً من أمره ، كأنما حفِظ الوَديعة في نفسه طبيعة ، فلو تقدَّم له الوجودُ في مرتبة الزمن لما احتجنا في الأخبار إلى عَنْعنة [4] ، ولا في الدعاوي إلى بَيِّنَة ، بل كان يُسْمِعنا كلام السيد

(١) البادية: الصحراء . (٢) مواطن الأولى - جمع موطن - أي مكان الإنسان ومقره؛ ومواطن الثانية : مشاهد الحرب . (٣) ابن زنيم الذي ناداه عمر رضي الله عنه على المنبر . (٤) مراده الأخبار عن النبي ﷺ التي تروى عن فلان عن فلان .

المسيح في المهد، وصوت عاذر(١) من اللحد، وكانت استَودَعَته الفلاسفة حِكمتهم، وأنشدوه كلمتهم، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرومان؛ وربما سمعنا خُطب سَحبان، وشِعرَ سيّدنا حسّان بذلك اللسان، وأصبح وجود الإنسان غيرَ محدود بزمن من الزمان. لله دَرّه من تلميذ يَستوعب ما عند المعلم، ويَستخلصُه في لحظة مُعيداً لقوله، ناقلاً لصوته ولفظه:

لقد وجدتُ مكانَ القول ذا سَعَةٍ ... فإن وجدتَ لساناً قائلاً فَقُلِ

نديم ليس فيه هفوةُ النديم، وسمير لا يُنسَب إليك تقصير، تُسكِتُه وتستعيده تذُمّه وتستجيده وتنقصه وتَستزيده، وهو في كلّ هذه الأحوال راضٍ بما يقال، لا يَكل من تحديث، ولا يَمَلُّ من حديث، نمّامٌ ينمُّ لك كما ينمّ عليك، وينقلُ لغيرك كما ينقل إليك، فهو المصوّرُ لكلّ فن، المتكلمُ بكلّ لغة، المتحدّث عن كلّ إنسان، المؤرّخ لكل زمان، الشاعر الناثر، المغني العازف لا تعْجِزه العبارة، ولا يُجهده الأداء، ولا يضُرُّه اختلافُ شكل، ولا تباينُ أصل، بل تعهدت شِدّة حفظه للبشرية من اللغات، إلى حفظ أصوات العجماوات إلى اصطكاك الجمادات.

ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها

وردَ الكتابُ المطرّزُ بحلى الكَرَم، المُحَلى بجميل النِّعم، واستلمتُ الهدية فسلِمَتْ يدٌ أهدتها، وحُفِظتْ السجايا التي محاسن الأعمال هدتها، ودامت رحابٌ لمثل هذه الحسنات فيها مجال، وللمُحسنات بهاء وجمال، وللآمال محطّ رحال، وللمقاصد كعبةٌ إقبال، وطابت نفسٌ تعالى الله أن تماثلها نفسُ عصام فإنها نسخت آية الكَرّ والإقدام، بآية الجُود والإكرام، وفعلت في القلوب بالعطاءِ والنّوال، ما قَصُرت عنه الرّماحُ الطّوال؛ وتأملتُها فأرَتني ما لا

---

(١) هو الذي أحياه عيسى عليه السلام.

عينٌ رأتْ ، وأظهرتْ من محاسن المناظر ما أعمرت وقرَّبت كلَّ منظور بعيد ، وتلت « فكشفنا عنك غطاءَك فبصرُك اليوم حديد » ، وصفا وقتي بصفائها ، فلم أشتّه شيئاً إلا جمعتْ بينه وبيني ، وصحَّ علينا قولُ القائل : « رأيت بعينها ورأت بعيني » ثم سرَّحت نظري في الأطلال والرُّسوم ، حتى نظرتُ نظرة في النجوم فلم تخف عني شجراً ولا مدراً ، ولا نجماً ولا قمراً :

يزيد وجهُها حُسْناً إذا ما زِدْته نظرا

ببهاء يخيَّل لي أنها صيغَتْ من ضياء ، فلا عَيْب فيها غير أني نظرتُ بها في سماء فضلك الباهر ، وأُفق شَرَفك الظاهر ، فلم ينكَشف لي بها لجُودك آخر ، لا زال كَرَمُك بعيداً حدُّه على كلِّ ناظر وباصر ، وفضلُ مناهلك غاية تقصدها الأوائل والأواخرُ .

وصف سان استفانو بالأسكندرية المؤلف الكتاب

كتابي والقلمُ في البنان ، يُسطِّرُ ما يمليه الجنان ، على محاسن ذلك المكان المشهور بـ سان استفانو . هناك ترى البحر كالمرآة تمثلتْ فيها السماء ، فكأنما الماءُ سماء ، والسماء ماء ، وتخال الشاطئ مَرْتعاً للظبيات الآنسات ، أو سوق جمال تُباع فيه القلوبُ على الغانيات .

هُناك الشبيبة واللعب ، والزَّهْوُ والطرَب ، وقد اعتلّ الصبا ، وصحَّ الصِّبا ، حُورٌ وولدان يمرحون بنشاط الشباب ، ويتهادَون بنشوَة الدَّلال والإعجاب ، فمن « غادات » روائح وعاديات ، قدودُهن الرِّماح الطاعنات ، ولحاظهنَّ القاتلات المخشيات .

ومن « ولدان » يلعبون بالكرة والصوْلجان ، فالكرة قلبُ الحبيب المتيّم ، والصوْلجان الذي يدفعُها شوق العاشق المغرم ، هُناك نغمات الأوتار تدعو إلى اغتنام الأوطار ، تهدي الارتياح إلى الأرواح ، وتبدل الأفراح من الأتراح

هُناك الكؤوسُ على قُطب الخلاعة تدُور ، فهي برشفاتها الثغور ، وبنورها البدُور تَشرُق من الحنان وتَغرُبُ في أفواه الندمان ، فيعلو الوجوه الشّفق ، فتبارك المبدعُ فيما خلق .

هناك فريقٌ من أهل الهوى ، حُلفاء الأسى والجوى ، يختلسون النظرات وتحتها سهام صائبات ، تقصدُ قلوبهم ولا راحمَ لهم ، ينادون مَن يُحبون فلا يجابون ، ويتذللون لعزّ الجمال على أنهم لا يُحابون ، يتمنّون الرّضا بعد الهجْر ، وحلوَ اللقاء بعد الصبر ، وفريقٌ آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأماني ، تعلوُ وُجوههم نضرةُ النعيم بما نالوه من إشارة او تسليم ، يتبادلون التحيّات بالحواجب ، ويُشدقون على القلوب يضعون الأيدي فوق الترائب ، حتى إذا الليلُ سجا ، وسترَهم رِداء من الدُجى ، يَتلاقون إلى جانب اليمّ ، ويَتهامسون والفمُ قريب من الفم ، ترَاهم على الأرائكَ جَنباً بجنب ، وعُنقاً على كتف ، مبتعدين عن العيون هنا وهنا ، وقد بلغوا الآرابَ والمُنى ، يجتنون الثمرَ من السّمر ، ويَلثمون الرّاحَ بالراح ، ولا يَزالون في مسرّة وهَناء وأنس وصفاء ، حتى يُنادي مناي المواثد بحيّ على شهيّ الطعام ، وهلمُّوا إلى رائق المدام ، فيجلسون مثنى وثلاث ورُبَاع محفوفين بيانع الأزهار ، مستضيئين بأرْهى الأنوار ، والغلمان عن يمنهم وشمالهم قائمون بحوائجهم ، وهم في لباسهم كأقمار ، وفي خيفتهم كلمح الأبصار ، فيأكلونَ ويشربون ، ويضحكون ويَلعبون بين نغمة بالحديث الرّخيم ، ونشوة بالمدام القديم ، حتى إذا أخذَتْ كل حاسة حظّها ، وتلجلجتْ الألسنة فلا تَفهم لفظَها ، هنالك تراهم كسرْب الظباء رائح وغاد ، هذه مائلة وهذا مُتهادٍ ، إلى أن يتمشّى النوْم في الجفون ، فتذبل العيون فينصرفون إلى المنام ، ويحلمون بلذيذ الأحلام ، بعدَ أن يتعاهدوا على الأوبة ويحسنوا الختام بالتوبة .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضيء بذاته ، وهي اعظم الكواكب المرئية لنا مَنظراً ،

وأسطعُها ضَوءاً ، وأغزرها حرارةً ، وأجزُلها نفعاً للأرض التي نسكنها ، ولكثير من أخواتها ، سيارات الشمس وبناتها .

والشمس كرةٌ متأججةٌ ناراً ، حرارتها أشد من حرارة ايّ ساعورٍ [1] أرضيّ ويَبلغ ثقلها ثلثمائة وزنٍ من ثقلِ الأرض ، وهي أكبر منه جرماً بلثمائة الف والف الف مرّةٍ .

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرةً واحدةً في نحو خمسة وعشرين يوماً. وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل وهي مع كلّ هذا العظَم الهائل لا تعَد في النجوم الكبرى ، بل إن أكثر ما نشاهد من النجوم الثابتة شموسٌ أكبر من الشمس بألوف الألوف ، والشمس بسياراتها تابعٌ من توابع أحَدها .

وسَطح الشمس مَهبّ عواصف وزوابعَ نيرانيةٍ شديدةٍ ، تثير في جَوّها أشوظة [2] هائلةً تندلع [3] ألسنتها المتأججة عن محيط كرتها أميالاً ، وقد وصف بعض العلماء لهباً ارتفع من سطحها الأوّل وَهلةٍ نحو اربعين الف ميل في الفَضاءِ ، ثم ازدادَ بريقاً [4] ثم ارتفعَ بعدَ نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة الف ميل ، ثم جعل يَضئُل ويضعف ، فلم تمض ساعتان حتى اضمحلّ اضمحلالاً ، غير أن ما وصَفَه هذا العالم ليس إلا من قبيل النّوادر ، ولكن ارتفاعَ اللهب نحو مائة الف ميل ليس بغير العادي وكثيراً ما تبلغ سرعة اللهب مائة ميل في الثانية ، وأكثر مادة الشمس من عنصر المُحْذي (الإيدروجين) المتقد .

وبرصد الشمس مراراً بالمرقب المغشى بالسواد شوهدَ في صفحة قرصها نكتٌ سودٌ ، وكلف يشوّه محياها ، كأنما هي كرةٌ سوداء الباطن غلفَت

(١) الساعور : النار نفسها او موقدها . (٢) الشواظ : اللهب.
(٣) اندلع اللسان خرج من الفم . (٤) تلألؤاً .

بِسطحٍ ساطع من الصَّعادات يَتخلَّله نقَبٌ يظهَرُ تحتها السوادُ ، ولا تَزال حقيقة هذه البقَع موضوعَ البحث والتعليل عند الفلكيين ، ومن تنقــلِ هذه النكت عرفت دَوْرتها على محورها .

وللشمس سيارات أو أبناء انفصلت منها منذُ أزمانٍ سحيقة ، عُلمَ منها إلى الآن نحوُ ثمانية ، هي على ترتيب الأقرب منها فالأقرب ،عطارد ، فالزّهْرة ، فالارض ، فالمرّيخ ، فالمشتري ، فزُحلَ ، فأُرانوس ، فنبتُون ولم تعلم كل شؤون هذه السيارات حق العلم ، وإنما ألمّ العلماءُ بمعرفةِ موادها وكثافتها وأبعادها .

ولكن أمرَ الحياة فيها لم يزَل مبْهماً مستغلقاً-اللهُمّ إلا في الارض وقمرها .

أما مِقدارُ النعم التي سخّرها اللهُ لنا بوُجود الشمس فمما لا يُحصيه العد ، فهي مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذي يعيشُ معنا ، ومصــدرُ نورنا ونارنا وحرّنا وبردِنا ، وهي التي تحيلُ مياه البحار بُخاراً ، وتُقلها في الجو غيوماً ، وتنزِلها على الارض أمطاراً ، حيثُ تجري جداولَ وأنهاراً ،فتروي زَرْعنا ، وتنمي غِراسنا وتثيرَ الرياح ، وتطلعُ الانواء ، وتزْجي[1] السفُنَ والبواخرَ في عباب الماء وتَدفعُ القطراتِ الحديدية ، وتديرُ الآلات البخارية ،وتنيرُ المصابيحَ الدخانية والزيتية إذ ليس الفحمُ الحجري والزيت الارضي إلا حرارة نارهـا المدخرة منذُ قديم الدهور ، لينتفعَ بها أحياء هذه العصور ،وما النهار المبصِرُ ، والليلُ المظلم إلا آيتان من آيات اللهِ المسخرة لما يتَسخير هذا المخلوق العجيب ، فمي النهار نسعى في مناكب الارض لابتغاء رزْقنا ، وتَدبير معاشنا ، وتنظيم شؤون حياتنا ونسبح بحمد ربنا ونعتبرُ بآثار من سبقنا ، وفي الليل نسكن لإراحة أبداننا ، واستجمام[2] قوانا ، واستيفاء حظنا من النوْم الذي به نستديمُ صحتنا ، ونستعيضُ ما فقدناه بأعمالنا ، وننظر في ملكوت السموات وما خلقَ الله من شيء في حركات الكواكب وانتقالها ، وبَديع صُورهـا وألوانهـا ،

(١) تسير . (٢) استجماع .

فتعنو وجوهنا ، ويتضاءَلُ كبرياؤنا ، أمام قدْرة خالقنا العظيم ، فسبحانه من إله حكيم .

وما الألوان التي نراها في نور الأزهار ، وريش الاطيار ، ونفائس المصنوعات إلا أثر وقوع أضوائها على هذه المرئيّات وانعكاسها [1] على أبصارنا ؛ فإنّ نور الشمس الأبيض مؤلّفٌ من سبعة ألوانٍ أصلية [2] تنشأ منهم كلُّ الالوان الفرعية وهي : الاحمر ، والبرْتقاليّ ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر ، والنيلجيّ ، والبنفسجيُّ . فمن الاجسام ما لا يمتص شيئاً من هذه الألوان ؛ بل يعكسها كلّها على العين ، فيبدو أبيض ناصعاً كزهرة الياسمين ، ومنها ما يمتصُّ بعضها ويعكس باقيها ، فيتلوّن بلوْن ما يعكس منها ، فإذا أبصرتَ ورقةَ الشجر خضراءَ عرفت أنها اختزنت من ضوْء الشمس ستة ألوان ، وردت إلى عينيك سابعها وهو الأخضر لأن فيما ادخرَتْه نفعاً لها ، وليسَ بها إلى ما لفَظته افتقارٌ ، ومنها ما يرد لونين أو أكثر ، فيبدو لونه مزيجاً بين هذه الالوان السبعة ، وهذه الالوانُ من عجائب صنع الله في الارض لتمييز بعضها من بعض ، فقد يتماثلُ الشيئان شكلاً ، وحجماً وصلابةً ، ولِيناً ، وشماً ، ثم لا يتباينان إلا من حيثُ اللونُ فيكون اللون آيةَ تباينهما ، وأكثر ما يكون ذلك في الازهار .

وتنوعُ الالوان هو السرُّ في جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع الصناعة وإن أعظم المصوّرينَ وأمهرَ النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم بمحاكاة ألوان الطبيعة المؤتلفة وأشكالها المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عرَفوا كيف يمزجون من الأصباغ ما يستخدمون به ألوان النور خيرَ استخدام ، ويَنتفعونَ به أحسنَ انتفاع ، وقد سخر علماء الطب تباينَ

---

(١) نعكس مضارع عكس كما في الاساس .

(٢) أمكن إرجاع هذه الالون في الصناعة إلى ثلاثة .

الألوان في كشف النِّقابِ عن حقائق الجراثيم ، فإنَّ منها ما لا يتَّضح للعين في الجُهر إلا إذا أُلقي عليه صبغٌ خاصٌ يؤثِّرُ فيه فيُصبغُ به

ولأمواج الشَّمْس الضَّوْئيّة سرعةٌ معلومة تسيرُ بها ، فإذا انخفضت هذه السُّرْعة عما هي عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوء والحرارة ، وليس يُنْكَر ما للضوءِ والحرارة معاً من الأثرِ الحسن في تنقية المساكن مما يَقْطُنها من الجراثيم القتّالة ، والعفن المضني ، ولذلك قيل إنَّ الدّار التي تدخلُها أشعة الشَّمْسِ لا يدخُلها الطبيبُ .

وصف القمر

القمرُ أجملُ الكواكب صورةً ، وأبينُها منظراً ، وأسهلها رصداً ، وأكبرُها في رأى العين بعد الشمس جِرْماً ، وهو سيّارٌ كرويٌّ أصغر من الأرض بنحو تسع وأربعين مرّة ، انفصل منها زَمَن التكوين وصار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدّاً نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أنّ طواف الأرض بقمرها حولها يتمّ في سنةٍ شمسيّةٍ ، وطواف القمر حول الأرض يتمّ في شهر قمريّ : أي مُدّة تسع وعشرين يوماً ونصف يوم تقريباً ، ومع أنه خاضعٌ لنظام الأرض لا يقلّ بُعْدُه عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتيْ ألف ميل .

والذي يسترعي أنظارنا كما استرعى أنظار مَنْ قبلنا اختلافُ أشكاله وتعدُّد مطالعه ، ممّا جعله مَبْعث تخيُّل القُدَماء ، ومثار تفكر الحكماء ، ومَقْصداً لعبادة الجُهلاءِ ، فتراه يلوحُ ليلة أوّل الشهر إثر غروب الشمس ضئيلاً مُقوّساً ، لا يلبثُ أن يغْرُب ويغيب في شفَق الشمس ، ثم يَهِلّ في الليلة الثالثة أبْيَنَ صُورة وأبقى زمناً لازدياد تأخّره في الغروب عن الشمس ، ولا يزال نورُه في تزايد ، ومَطالعُه في تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق في الليلة الرابعة عشرة عند غروب الشمس بدراً كاملاً ، بهيّ الطلعةِ باهرَ الأنوار ؛ فتبارك اللهُ أحسنُ

الخالقين .

ولكنَّ الكمالَ لله وحدَه ، فإن منتهى الزيادة مبتدأ النقص ، ففي الليلة الخامسة عشرة يتأخر طلوعه من المشرق ، وينقص من حافة نوره التي كانت موضع هلاله الأول زيق لا يُشعر به إلا في الليالي التالية ، ولا تزال مطالعه في تقهقر ونوره في تناقص حتى قرب آخر الشهر فيشرق قبيل الفجر هلالاً ضئيلاً يكاد يكون مقلوب الهلال الأول ، وفي الليلة الأخيرة يكون عند الصباح في الأفق الشرقي مظلماً لا يرى منه شيء ، وهو ليلة المحاق أو السرار ويظل بعض النهار كذلك ثم يتولد هلاله الجديد ، ولكنه لا يظهر إلا بعد أن يغيب قرص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفي كما قدمنا .

وعلة ذلك : أن نور القمر كنور الأرض مستفاد من الشمس ، وهو لا يقابل الأرض إلا بوجه واحد لا يتغير ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركته مع الأرض حول الشمس لا يقابل الشمس مقابلة تامة إلا في وضع واحد ومرة واحدة هي الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه نورها ، ويصير بدراً ، أما بقية الليالي التي قبلها والتي بعدها فينحرف قليلاً او كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلة المحاق ، فينطوي خبره ويكون الوجه الآخر الذي لا يرى لنا بدراً كاملاً ، ثم يتولد هلاله خلقاً جديداً

وكذلك شأن الأرض في استمداد نورها أو ما نسميه نهاراً ، ولو كان في القمر سكان ، لكانت الكرة الأرضية في رأي أعينهم أكبر كوكب في السماء ، ولشاهدوها أكبر من الجرم الذي نشاهد القمر عليه أضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أروع جمالاً وأبدع من قمرهم في نظرنا تشكلاً ، فبدورانها على نفسها يرونها كلها جزءاً فجزءاً ، وتظهر قاراتها ومحيطاتها واضحة عليها في وقت الصحو ، ومظللاً بعضها بالغمام في وقت الدجن ، وتبدو أهلتها وبدورها ضخمة باهرة ، ولكن لا يراها إلا سكان النصف المقابل لنا ، أو الذين يريدون التفرج برؤيتها من أهل النصف الثاني .

ولقُرب القمر مناوخلوّ جوّه من الهواء سهُل رصده علينا،فنرى في صفحته عند الشّروق ليلة التّمام كثيراً من المحْو[1] يجعلُ صورتَه أشبه بوجهِ إنسان ذي أنف وفمٍ وحاجبين وعينين إحداهما مُغْمَضةٌ ،ولا يزالُ كذلك حتى يتعدّى خطّ زوال مكان الناظر. فإذا مال إلى المغرب انحرفتْ هذه الصورة حتى يصير عاليها سافلها. وليس هذا المحْو إلا ظلامَ بطون الأودية والسهول البعيدة الغَوْر وظلال الجبال والهضاب الشاهقة الطول شهوقاً يكاد يمنع استدارته ، أمّا قِمَمُ الجبال وسطوحُها المقابلة للشمس فتُرى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائقَ مضيئة وقِمَمُها نقطاً لامعة وفوهات جبال ناره الشّديدة السّعة، البعيدة الغَور التي تعَد بعشرات الألوف ، كأنها حلقاتٌ وسطها نقط سود .

وقد ظنّ القدماء في علّة المحْو ظنوناً ، بعضها صادفَ الحقيقة ، وبعضها جانَبَها حتى ظهر غاليليو ، واخترع سنة ١٦٠٦ مَرْقَباً يُقرّب الأشباحَ ثلاثين مسافة فأثبت وجود الجبال والأودية فيه ، وزاد عليه غيره في تحسين المراقب المكبّرة حتى صبح القمر يُرَى كأنه على بُعد أربعينَ ميلاً منّا ، على أن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأشباحَ الصغيرة التي من نوع الحيوان لنتحقّق أن للقمر سكاناً كما للأرض أو لا ؛ ولكن قد أصبح من المرجّح إن لم يكن من المحقق أنه خالٍ منَ الماء ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات،إذ لو كان به شيءٌ منها لتغير شكله من حال إلى حال ، ويُشكُّ أن له هواءً،وإن كان له هواءٌ فلعله لا يزيد على قممَ جباله ولا شك أنَ الماء والهواء هما ينبوعا الحياة، وتجردُه منهما ، وخمود جبال ناره ، ويُبْس جرمه يجعل برده شديداً جداً في الليل ، وحرّه عظيماً جداً في النهار على فرْط طولهما البالغ فيه خمسة عشر يوماً ، مما يجعل الحياة فيه متعسّرة بل مستحيلة ، اللهم إلا أن تكون حياة غير حياتنا .

(١) المحو : السواد في القمر

ويرجّحون أنّ القمرَ كان في أزمان سَحيقةٍ على طبيعةٍ تَقرُبُ من طبيعة أمّهِ الأرض ، فكان آهلاً بالحيوانِ والنباتِ ، إلا أن صِغَرَ جسمه جعله يسبق الأرض في اليُبْس والبرودة فتَقَبّض وبرَد وانتهت دُنياه ، وأصبح كإسفنجةٍ مُشعثة ذاتِ شعبٍ ونخاريب [1] تكوينُها مِنْ جِنسِ تكوين الأرض .

ولقد خلق الله القمر مُسخراً لأهل الأرض خاصةً ، فهو بعكسِ نور الشمس عليهم هدايةٌ لهم في ظلمات البرّ والبحر ، ولقد قضى الإنسان عُصوراً ودُهوراً وليس له مصباحٌ في جُنح الظلام غيرَه ، ولا يزالُ كذلك لأهل البَدْو وقبائلِ الهمج . وهو باختِلاف أشكاله تَقويم فِطريٌّ لهم ، فبإهلاله يُعرَفُ أولُ الشهر وبالترْبيع الأول يعرفُ رُبعُهُ ، وببدْره [2] يعرفُ نِصفُه ، وبالتربيع الأخير يعرفُ ثلاثةُ أرباعه ، وبمحاقِه تعرفُ نهايته .

وإذا مَرّن الإنسانُ على النظر في تقدير ضَوْئِه ، وأوقات مطالعه ، عرَف الشهر يوماً يوماً ، والليلَ ساعةً ساعةً ، قال تعالى : « يَسألونكَ عَنِ الأهلّةِ قُلْ هي مواقيت للناس والحجّ » .

وباتحاد جذبه مع جذْب الشمس للأرض ينشأ المدُّ والجزْرُ ، وفائدتهما في تَسهيل الملاحةِ لا تنكر ، فكم موانىء ومرافىء لولاهما لَسُدّت برواسبِ الأنهار والسيول

ولِضوء القمر في إنضاج الثمار والبقول أثر أيما أثر حتى إن بعضها لا ينمو ويزهُو لونه إلا في لياليه البيض .

الفن الخامس في المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

(١) جمع : نخروب وهي الثقوب التي تكون في مثل بيوت الزنانير والنحل .

(٢) مصدر بدر البدر يبدر بدراً . وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها .

أدبيّة ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرُّواة ، ووقائع شتى تُعزى إلى أحد الأدباء؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُرَر وغُرَر البيان، وشوارد اللغة ونوادر الكلام، منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة، والرّقائق الأدبية ، كالرّسائل المبتكرة ، والخُطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية[1] ولنذكرْ منتخبات مِنْ مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريري [2] المتوفى سنة ٦١٥ هـ المقامة التاسعة الإسكندرانية :

أخبر الحارث بن همّام قال : طحا بي[3] مَرَحُ[4] الشباب، وهوى الاكتساب[5] إلى أن جُبتُ[6] ما بين فرغانة [7] وغانة [8] أخوضُ الغمارَ[9] لأجني الثمار، وأقتحمَ الأخطار [10] لكي أدركَ الأوطار[11]. وكنتُ لقفتُ من أفواه العلماء وثقفت[12] من وصايا الحكماء ، أنه يلزمُ الأديبَ الأريبَ [13] إذا دخلَ البلد الغريب ، أن يستميل قاضيه [14] ويَستخلص مَراضيه [15] ليشهد ظهره عند الخصام ويأمن في الغُرْبة جوْر الحكام. فاتخذتُ هذا الأدبَ[16] إماماً[17] وجعلته لمصالحي زِماماً، فما دخلتُ مدينة ، ولا ولجت [18] عرينة [19] إلا وامتزجتُ بحاكمها امتزاج الماء

---

(١) اعلم ان المقامات تعرف بالمكان الذي تجري فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب او الموصل، وربما نسبت إلى المروي عنه. ويستحب في راوي المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الاسفار حسن الراوية متفرغاً لفنون الادب جاداً في طلب غرره كاداً ذهنه في تحصيل درره كالحارث ابن همام في المقامات الحريرية وعيسى بن هشام في المقامات البديعية، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني وبعده الحريري واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وإن لم يبلغوا شأوهما . (٢) تقدم أنه توفي سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بي (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥ أي محبة اكتساب المال (٦ قطعت (٧) بلد بأقصى بلاد المشرق (٨) بلد بأقصى المغرب ٩ بالكسر جمع غمرة الكثير من الماء والمراد هنا الامور الصعبة (١٠) أي ادخل في القحمة بالضم وهي الشدة والاخطار الامور العظيمة (١١) الحجاب (١٢ أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويترضاه ويطلب ميله إليه (١٥) يطلب خالص رضاه (١٦) أي هذا الامر الظريف المستحسن (١٧) قدوة أي أعمل بمقتضاه (١٨) دخلت ١٩) مأوى الاسد .

ويُرجّحون أنّ القمرَ كان في أزمان سَحيقةٍ على طبيعةٍ تَقرُبُ من طبيعة أمّه الأرض ، فكان آهلاً بالحيوانِ والنباتِ ، إلا أن صِغَرَ جسمه جعله يسبق الأرض في اليُبْس والبرودة فتَقَبّض وبرَد وانتهت دُنياه ، وأصبح كإسفنجةٍ مُشعثة ذاتِ شعبٍ ونخاريب [١] تكوينُها منْ جنس تكوين الأرض .

ولقد خلق الله القَمرَ مُسخراً لأهل الأرض خاصةً ، فهو بعكس نور الشمس عليهم هِدايةٌ لهم في ظلمات البرّ والبحر ، ولقد قضى الإنسان عُصوراً ودُهوراً وليس له مصباحٌ في جُنح الظلام غيرَه ، ولا يزالُ كذلك لأهل البَدْو وقبائلِ الهمج . وهو باختلاف أشكاله تَقويم فِطريٌّ لهم ، فبإهلاله يُعرَفُ أولُ الشهر وبالترْبيع الأول يعرفُ رُبعُهُ ، وببدْره [٢] يعرفُ نِصْفه ، وبالتربيع الأخير يعرفُ ثلاثةُ أرباعه ، وبمحاقِه تعرفُ نهايتِه .

وإذا مَرّن الإنسانُ على النظر في تقديرِ ضَوْئِه ، وأوقات مطالعه ، عرَف الشهر يوماً يوماً ، والليلَ ساعةً ساعةً ، قال تعالى : « يَسألونكَ عَنِ الأهلّةِ قُلْ هي مواقيت للناس والحجّ » .

وباتحاد جذبه مع جذب الشمس للأرض ينشأ المدُّ والجزْرُ ، وفائدتهما في تَسهيل الملاحةِ لا تنكر ، فكم موانىء ومرافىء لولاهما لَسُدّت برواسبِ الأنهار والسيول

ولِضوء القمر في إنضاج الثمار والبقول أثر أيما أثر حتى إن بعضها لا ينمو ويزهو لونه إلا في لياليه البيض .

الفن الخامس في المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

---

(١) جمع : نخروب وهي الثقوب التي تكون في مثل بيوت الزنانير والنحل.

(٢) مصدر بدر البدر يبدر بدراً . وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها .

أدبيّة ومدارُها على رواية لطيفة مختلفة تُسندُ إلى بعض الرُّواة ، ووقائع شتى تُعْزى إلى أحد الأدباء؛ والمقصود منها غالباً جمعُ دُرَر وغُرَر البيان، وشوارد اللغة ونوادر الكلام، منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة، والرّقائق الأدبية ، كالرّسائل المبتكرة ، والخُطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية والأضاحيك الملهية [1] ولنذكرْ منتخبات مِنْ مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريري [2] المتوفى سنة ٦١٥ هـ المقامة التاسعة الإسكندرانية :

أخبر الحارث بن همّام قال : طحا بي [3] مَرَحُ [4] الشباب، وهوى الاكتساب [5] إلى أن جُبتُ [6] ما بين فرغانة [7] وغانة [8] أخوضُ الغمارَ [9] لأجني الثمار، واقتحمَ الأخطار [10] لكي أُدركَ الأوطار [11]. وكنتُ لقفتُ من أفواه العلماء وثقفت [12] من وصايا الحكماء ، أنه يلزمُ الأديبَ الأريبَ [13] إذا دخلَ البلد الغريب ، أن يستميل قاضيه [14] ويستخلص مَراضيه [15] ليشهد ظهره عند الخصام ويأمن في الغُربة جوْر الحكام. فاتخذتُ هذا الأدبَ [16] إماماً [17] وجعلته لمصالحي زِماماً، فما دخلتُ مدينة ، ولا ولجت [18] عرينة [19] إلا وامتزجتُ بحاكمها امتزاج الماء

(١) اعلم ان المقامات تعرف بالمكان الذي تجري فيه فيقال المقامة الحلبية أو الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب او الموصل، وربما نسبت إلى المروي عنه. ويستحب في راوي المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الاسفار حسن الراوية متفرغاً لفنون الادب جاداً في طلب غرره كاداً ذهنه في تحصيل درره كالحارث ابن همام في المقامات الحريرية وعيسى بن هشام في المقامات البديعية، ومخترع هذا الفن هو بديع الزمان الهمذاني وبعده الحريري واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا المقامات على منوالهما وإن لم يبلغوا شأوهما . (٢) تقدم أنه توفي سنة ٦١٥ هـ (٣) ذهب بي (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥ أي محبة اكتساب المال (٦ قطعت. (٧) بلد بأقصى بلاد المشرق (٨) بلد بأقصى المغرب ٩ بالكسر جمع غمرة الكثير من الماء والمراد هنا الامور الصعبة (١٠) أي ادخل في القحمة بالضم وهي الشدة والاخطار الامور العظيمة (١١) الحجاب (١٢ أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه ويترضاه ويطلب ميله إليه (١٥) يطلب خالص رضاه (١٦) أي هذا الامر الظريف المستحسن (١٧) قدوة أي أعمل بمقتضاه (١٨) دخلت ١٩) مأوى الاسد .

بالراح، وتقوّيت بعنايته تقوّي الاجساد بالارواح، فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية، في عشيّة عريّة ١ وقد أحضر مال الصدقات ، ليفُضّه ٢ على ذوي الفاقات ٣ إذ دخل شيخٌ عِفْرية ٤ تعتِلُه ٥ امرأة مُصْبية ٦، فقالت. أيّدَ ٧ الله القاضي، وأدام به التراضي ٨، إني امرأةٌ من أكرم جُرثومة ٩، وأطهر أرومة ١٠، وأشرف خؤولة وعمومة ، مِيْسَمي ١١ الصَّون ١٢، وشيمتي ١٣ الهون ١٤، وخُلقي نِعم العون ١٥، وبيني وبين جارَتي بَوْن ١٦ وكان أبي إذا خطبني بُناةُ ١٧ المجد وأرباب الجدّ ، سكّتهم ١٨ وبكّتهم ١٩ وعاف وصْلتهم ٢٠ وصِلتهم ٢١ واحتجَّ بأنه عاهد الله تعالى بحِلفه أن لا يُصاهر ٢٢ غير ذي حرفة ٢٣ فقيّض القدَرُ ٢٤ لنَصَبي ووصبي ٢٥ أن حضَر هذا الخُدَعة ٢٦ ناديَ أبي ٢٧ فأقسم بين رهطه ٢٨ أنه وِفْقُ شرطه ، وادّعى أنه طالما نظم دُرّة، فباعها ببدرة ٢٩ فاغترّ بي بزخرفة مِحاله، وزوّجنيه قبل اختبار حاله ، فلمّا استخرجني من كِناسي ٣٠ ورحلني عن أُناسي، ونقلني إلى كَسْره ٣١ وحصّلني تحت أسره، وجدتُه قُعدة جُثَمة ٣٢ وألفيته ضُجَعة نُومة ٣٣

(١) اي شديدة البرد او ذات ريح باردة (٢) يفرقه (٣) اي الفقراء المحتاجين (٤) اي خبيث شديد الدهاء (٥) تجره بعنف وجفاء (٦) اي ذات صبيان (٧) قواه ونصره (٨) أراد التراضي بين الخصوم بحيث يرضى بحكمه الغالب والمغلوب (٩) اي اصل (١٠) الأرومة بالفتح اصل الشجرة ثم استعير لأصل الحسب (١١) علامتي وأصل الميسم الآلة التي يكوى بها ويعلم (١٢) الحفظ والعفاف (١٣) خلقي وعادتي (١٤) الرفق (١٥) اي الرفيق الظهير (١٦) اي فرق وتفاوت في الفضل (١٧) بالضم جمع بان (١٨) اي قال لهم كلاماً لا يجدون له جواباً (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) اي كره قربها (٢١) عطاهم (٢٢) اي يزوج ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعني قدر الله تعالى (٢٥) لتعبي ومرضي (٢٦) الكثير الخداع (٢٧) مجلس أبي (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البدرة عشرة آلاف درهم (٣٠) اي منزلي واصله بيت الظبي او بقر الوحش (٣١) بفتح الكاف وكسرها اي جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجثوم اي يلازم الموضع الذي يقعد فيه (٣٣) الضجعة والنومة اصله العاجز الذي لا يتصرف والمعنى أنه عاطل عن العمل كسول

وكنتُ برياش وزيّ وأثاث [١] وريّ [٢] فما برح يَبيعه في سوق الهضم [٣] ، ويُتلف ثمنه في الخضم والقضم [٤] إلى ان مزّق مالي بأسره [٥] ، وأنفق مالي في عسره، فلمّا أنساني طعم الراحة ، وغادر بيتي أنقى من الراحة [٦] قلت له : يا هذا إنه لا مخبأ بعد بوس [٧] ، ولا عطرَ بعد عروس [٨] فانهضْ للاكتساب بصناعتك ، واجْتَنِ [٩] ثمرة براعتك [١٠] فزعم أن صناعته قد رُميتْ بالكساد [١١] لما ظهر في الارض من الفساد ، ولي منه سُلالة [١٢] كأنه خلالة [١٣] وكلانا ما ينال منه شبعة [١٤] ولا ترقأ [١٥] له من الطوى [١٦] دَمعة ، وقد قدْته [١٧] إليك وأحضرته لديك، لتَعْجُمَ [١٨] عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله - فأقبل القاضي عليه ، وقال له : قد وَعيت [١٩] قصص عِرْسك ، فبرهِن الآن عن نفسك، وإلا كشفتُ عن لبسك [٢٠] ، وأمرتُ بحبسك فأطرق اطراق الافعُوان [٢١] ثم شمّر للحرب العَوان [٢٢] وقال :

اسمع حديثي فإنــــه عجبُ ... يُضحكُ من شرحه ويُنتحبُ [٢٣]
أنا امرؤٌ ليس في خصائصه [٢٤] ... عَيبٌ ولا في فخـاره ريبُ
سُروج داري التي ولدْتُ بهـا ، ... والاصل غسّانُ [٢٥] حين أنتسبُ

(١) رياش : مال ولباس فاخر ، زي : هيئة حسنة ، أثاث : متاع البيت . (٢) حسن حال و كثرة نعمة وهو بكسر الراء وفي الاصل اسم من روى (٣) المراد يبيعه بأقل من القيمة (٤) الاكل بأطراف الاسنان وقيل الخضم أكل بأطراف الاسنان والقضم بمقدمها وقيل الخضم اكل الرطب والقضم اكل اليابس تريد انه يصرف ثمنه في أنواع الاكل واللذات (٥) اي فرق الذي لي بأجمعه (٦) بطن الكف لنقائه من الشعر (٧) اي فقر (٨) مثل قالته امرأة من بني عازة مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها ان تتعطر فقالته (٩) اي الجنى، جمع الثمرة (١٠) اي فضلك على اقرانك (١١) هو خمود السوق وقلة البيع ضد النفاق بالفتح (١٢) يعني ولداً (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) اي لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) اتيت به (١٨) لتقضي وتختبر (١٩) فهمت وحفظت ما قصته زوجك (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر الافاعي او العظيم منها (٢٢) الحرب التي قبلها وهي تكون حرب أشد من الاولى (٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) اسم ماء نزل عليه قوم من الازد فنسبوا إليه ، منهم بنو جفنة ورهط الملوك وقيل غسان قبيلة .

وشغلِيَ الدرسُ والتبحرُ في العلم طلابي وحبذا الطلبُ
ورأسُ مالي سحرُ الكلام[١] الذي منه يصاغ القريضُ[٢] والخطبُ
أغوصُ في لُجّة البيان فأختار اللآلىء منها[٣] وأنتخبُ
وأجتني[٤] اليانع[٥] الجنيَّ[٦] من القول وغيريَ للعود يحتطبُ
وآخذ اللفظ فضةً فإذا ما صغته[٧] قيل إنه ذهبُ
وكنت من قبل أمتري نشبًا[٨] بالأدب المقتنى وأحتلبُ
ويمتطي[٩] أخمصي[١٠] لحرمته مراتبًا ليس فوقها رُتبُ
وطالما زُفّت الصِّلات إلى ربعي[١١] فلم أرضَ كلَّ من يَهِبُ[١٢]
فاليوم من يَعلقُ الرجاءُ به أكسدُ شيء في سوقه الادبُ[١٣]
لا عرضُ أبنائه يُصان ولا يُرْقب[١٤] فيهم إلٌّ[١٥] ولا نسبُ
كأنهم في عِراصهم[١٦] جيَفٌ يبعد من نتْنها ويجتنبُ
فحار لُبّي[١٧] لما منيت به[١٨] من الليالي وصرْفها[١٩] عجبُ
وضاق ذرعي[٢٠] لضيق ذات يدي وساورتني[٢١] الهموم والكربُ
وقادني دهري المليمُ[٢٢] إلى سلوك ما يستشينه[٢٣] الحسب[٢٤]

(١) هو ما لطف مأخذه ورق (٢) الشعر (٣) أي أتعمق في بليغ المعاني وانتقي منه الملح (٤) أقتطف (٥) الزاهي (٦) الطري من الثمر الذي جني حديثاً (٧) سبكته (٨) أي اكتسب مالاً (٩) أي يركب (١٠) ما ارتفع من باطن القدم عن الأرض (١١) أي حملت الجوائز والهدايا إلى منزلي (١٢) أي لم أرض ان أكون تحت منة كل أحد بل لم أقبل إلا من العظماء (١٣) اي أن ما يتعلق به الأمل ويرجى منه النوال لا يستعمل الادب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة عنده (١٤) يحفظ (١٥) بكسر الهمزة وتشديد اللام – العهد والقرابة والجوار (١٦) جمع عرصة وهي فناء الدار أي كأنهم في مواضعهم (١٧) تحير عقلي (١٨) بليت به (١٩) تقلبها (٢٠) انقبض قلبي (٢١) انتابتني وغلبتني (٢٢) الذي يأتي بما يلام عليه (٢٣) يستبشعه (٢٤) ما يعد من مفاخر الآباء او الدين وقيل الكرم

فبعتُ حتى لم يبقَ لي لَبَدٌ[١] ولا بتاتٌ[٢] إليه أنقلبُ
وادّنتُ[٣] حتى أثقلتُ سالفتي[٤] بحمل دَينٍ من دونه العطبُ
ثم طويت الحشا على سَغَبٍ[٥] خمساً[٦] فلما أمضّني[٧] السَّغَبُ
لم أرَ إلا جهازها عرضاً[٨] أجولُ في بيعه وأضطرب
فجُلْتُ فيه والنفس كارهةٌ والعين عَبرى[٩] والقلب مكتئبُ[١٠]
وما تجاوزت[١١] إذ عَبَثتُ[١٢] به حدّ التراضي[١٣] فيحدث الغضبُ
فإن يكن غاظها توهّمُها أن بناني بالنظم تكتسبُ
أو أنني إذْ عزمت خطبتَها زَخرفتُ قولي لينجح الأرب[١٤]
فو الذي سارت الرفاقُ[١٥] إلى كعبته تَستحِثها[١٦] النُّجُبُ[١٧]
ما المكر بالمُحصَنات[١٨] من خُلقي ولا شعاري[١٩] التمويه[٢٠] والكذبُ
ولا يدي مُذْ نشأتُ نيط بها[٢١] إلا مواضي اليَراع[٢٢] والكتب
بل فكرتي تنظم القلائدَ[٢٣] لا كفي وشعري المنظوم لا السُّخُب[٢٤]

(١ يقال ما له سبد ولا لبد أي لا شعر ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشي ، وأراد الحريري أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تداينت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقني (٨ حطام الدنيا ، وهو المال قل او كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لا يليق فعله (١٣) أي حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجيبة ، وهي الكريمة من الإبل (١٨) جمع محصنة ، النساء العفائف (١٩) تخلقي (٢٠) تزين الكلام وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما او الفضة بالذهب (٢١ علق بها (٢٢) جمع يراعة وهي القصبة الجوفاء والمراد بها الأقلام (٢٣) جمع قلادة أصله ماتقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شيء يجعل في أعناق الاطفال .

فهذه الحِرْفة المشارُ إلى ما كنتُ أحوي بها وأجتلِبُ
فأذَنْ لشرحي كما أذنْتَ لها ولا تُراقب ١ واحكم بما يجبُ

قال : فلما أحكمَ ما شاده ٢ ، وأكمل إنشاده ، عطَفَ القاضي إلى الفتاة ، بعد أن شغف ٣ بالأبيات ، وقال : أما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، ووُلاة الأحكام انقِراضُ ٤ جيل الكِرام ٥ وميلُ الايام إلى اللئام ، وإني لإخال ٦ بعلكِ ٧ صدوقاً في الكلام بَريئاً من الملام — وها هو قد اعترف لك بالقرض ، وصرح عن المحض ٨ ، وبَيّنَ مِصْداقَ النظم ، وتبيّن أنه معروقُ العظم ٩ ، وإعْنات المعذر ملأمة ١٠ ، وحبس المعسر ١١ مأملة ١٢ ، وكتمانُ الفقر زَهادة ، وانتظار الفرج بالصّبر عبادة فارْجعي إلى خدرك ١٣، واعذُرى أبا عُذْرك ١٤، ونهْنهي من غرْبك ١٥ ، وسلمي بقضاء ربك — ثم إنه فرض لهما في الصّدَقات حِصّةَ ، وناولهما من دارهما قبضة ١٦ ، وقال لهما : تعلـّلا ١٧ بهذه العلالة ١٨ ، وتندّيا بهذه البلالة ١٩ ، وصبراً على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح

---

(١) أي لا تنظر إلى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أي أتقن ما قاله وأنشأه من شاد البناء إذا طلاه بالشيد وهو الجص (٣) ويروى بالعين المهملة من شعف الحب فؤاده اي علاه وشمله — وبالغين المعجمة أي فتن وبلغ حبها شغافه ، وهو غلاف القلب (٤) انقطاع وفناء (٥) اي جماعة الكرم ، والجيل اهل زمان واحد (٦) بكسر الهمزة اي لا اظني (٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية عن الهزال يقال عظم معروق إذا اخذ ما عليه من اللحم (١٠) الإعنات : الحمل على المشقة الشديدة والمعذر البالغ في العذر او هو الذي يأتي بما يعذر به ويطلق على المحقق العذر ، وعلى الذي بان عذره والملأمة اللؤم (١١) العاجز عن قضاء الدين (١٢) إيلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة اول زوج لها (١٥) اي كفي وازجري نفسك عن الحدة (١٦) هي مايتناوله الإنسان بأطراف اصابعه (١٧) تشاغلا وتلاهيا (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن (١٩) قدر ما يبل به الشيء واسم للبقية أيضاً .

أو أمْرٍ من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإسار [١] ، وهِزّة الموسر بعد الإعسار .

قال الراوي : وكنت عرفت أنه أبو زيد ، ساعة بزَغَتْ شمسُه ، ونزعت [٢] عرسُه وكدتُ أُفصح عن افتنانه [٣] ، وأثمار أفنانه [٤] ثم أشفقت [٥] من عثُور [٦] القاضي على بُهتانه [٧] ، وتزويق [٨] لسانه ، فلا يرى عند عرفانه [٩] أن يُرشحه [١٠] لإحسانه ، فأحْجَمْتُ [١١] عن القول إحجامَ المرتاب [١٢] ، وطويت ذكره كطيّ السّجل للكتاب [١٣] ، إلا أني قلت بعد ما فَصَل [١٤] ووصل إلى ما وصل ؛ لو أن لنا مَنْ يَنْطلق في أثره لأتانا بفَصّ خبره [١٥] ، وما يُنشر من حَبَرِه [١٦] فأتبعه [١٧] القاضي أحد أُمَنائه ، وأمره بالتّجَسُّس [١٨] عن أنبائه [١٩] ، فما لَبِثَ أن رجع مُتدهْدهاً [٢٠] ، وقهقَر مُقَهقِهاً [٢١] ، فقــالَ له القاضي :

---

(١) القيد الذي يشد به الأسير (٢) خبثت والنزع الذر بالقبيح والإفساد بين الناس ومعناه خاصمته عرسه (٣) يقال افتن لرجل في حديثه إذا جاء بالأفانين وهى الاساليب والمراد هنا تصرفه في الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذ من الزاووق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠) الترشيح ، والتربية ، والتأهيل من ترشيح الظبية ولدها ، لأنها إذا بلغ ولدهــا السعي سعت به حتى عرقا فتقوى ؛ ويأتي بمعنى التقوية ايضاً (١١) تأخرت (١٢) الشاك (١٣) السجل : الصحيفة فيها الكتابة ـ أي كما تطوي الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الحبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة ، هي : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالحبر في الحسن (١٧) اي أرسل وراءه من يتبعه (١٨) اي بالبحث سراً بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الإسراع من دهدهت الحجر إذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة ياء فيقال تدهدي تدهدياً (٢١) القهقرى المشي إلى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

مهيَم [١] يا أبا مريم [٢] ؟ فقال له: لقد عاينْت عجباً، وسمعت ما أنشأ لي طرَباً، فقال له: ماذا رأيت؟ وما الذي وعيْتَ؟ قال: لم يزل الشيخ مُذ خرج يُصفّق بيَدَيه، ويخالف بين رجليه [٣]، ويُغرّد بملء شدقيه؛ ويقول:

كَدْتُ أصْلى [٤] بِبليّه من وَقاح [٥] شَمّريّه [٦]
وأزورَ السِّجْنَ لولا حاكمُ الإسكندريه

فضَحِكَ القاضي حتى هوتْ [٧]، دُنيّته [٨]، وذوت [٩] سكينتهُ [١٠]، فلما فاء [١١] إلى الوقار، وعَقّبَ الاستغفار بالاستغفار، قال: اللهم بحُرْمة عبادك المقرّبين حرّم حبسي على المتأدبين، ثم قال لذلك الأمين: عَليّ [١٢] به، فانطلق مُجِدّاً في مطلبه، ثم عاد بعد لأيه [١٣] مخبراً بنأيه [١٤]، فقال له القاضي: أما إنه لو حضر لكُفيَ الحذر [١٥]، ثم لأوْليتهُ ما هو به أولى، ولأريته أنّ الآخرة خيرٌ له من الأولى؛ قال الحارث بن همام: فلما رأيت صَغْوَ [١٦] القاضي إليه، وفوت ثمرة التنبيه عليه غَشِيَتني [١٧] ندامة الفرزدق [١٨] حين أبان

---

(١) اي ما الخبر، وهي كلمة لأهل اليمن، معناها، ما خبرك وما شأنك (٢) يقال لعون القاضي أبو مريم (٣) اي يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح قليلة الحياء بينة القحة والوقاحة وحافر وقاح صلب (٦) الشمري الماضي في الأمور الجاد فيما يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والباء جميعاً قلنسوة يلبسها القضاة كأنها منسوبة إلى لدن (٩) ذبلت وفترت. (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) اي ائت به وأحضره (١٣) اللأي كالسعي الإبطاء والاحتباس (١٤) اي ببعده (١٥) ما يحتار منه ويخاف (١٦) ميله (١٧) أتتني وحضرتني (١٨) هو همام بن غالب التميمي الشاعر

النَّوار ١ والكُسَعي ٢ لمّا استبان النهار .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

حدثنا عيسى بن هشام، قال كان بِشر بن عَوانة العَبْدي صُعلوكاً، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها، وقال: ما رأيت كاليوم، فقالت:

أعْجَبَ بِشراً حَوَرٌ في عَيني وساعدٌ أبيضُ كاللُّجيْنِ
ودونه مَسرَحُ طرف العيْنِ خَمصانةٌ تَرْفُل في حِجليْنِ
أحسنُ منْ يمشي على رجليْنِ لو ضمَّ بِشرٌ بينها وبَيني
أدام هجري وأطال بَيني ولو يقيس زَيْنَها بِزَيني
لأسْفَرَ الصُّبح لذي عينينِ

قال بشر: ويحَكِ من عَنيتِ؟ فقالت: بنت عمك فاطمة، فقال: أهيَ مِنَ الحسن بحيث وصفْت؟ فقالت: وأزْيدَ وأكثر، فأنشأ يقول:

---

(١) النوار على وزن سحاب اسم زوجة الفرزدق، وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ومن شعره في ذلك قوله:

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أني ملكت يدي وأمري لكن علي للقدر الخيار

(٢) الكسعي هو عامر بن الحارث نسبة إلى كسع – بضم الكاف وفتح السين – حي من بني ثعلبة كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلاً فنفذت في الرمية ووقع السهم في حجر فقدح منه الشرر فظن أن السهم اخطأ الرمية، فرمى ثانياً وثالثاً إلى آخر الأسهم وكانت خمساً، وهو يظن خطأها فعمد إلى قوسه فكسرها، ثم بات فلما أصبح تبين ان اسهمه كلها أصابت فندم ندماً شديداً فضربت العرب المثل به في الندامة .

وَيحكِ يا ذات الثنايا البيض ما خِلْتِني منك بمُستعيض
فالآنَ إذْ لوّحت بالتعريض خلَوْت جوّاً فاصفري وبيضي
لا ضمّ جفناي على تغميض ما لم أشلْ عرْضي من الحضيض
فقالت كم خاطبٍ في أمرها ألحّا وهي إليك ابنة عمّ لحّا

ثم أرسل الى عمّه يخطُب ابنته ، ومنعه العمّ أمنيّته ، فآلى ألاّ يرعى على أحد منهم إن لم يُزوّجه ابنته ، ثم كَثُرَت مضرّاته فيهمْ واتصلت معرّاته إليهم ، فاجتمع رجال الحي إلى عمّه ، وقالوا : كُفّ عنّا مجنونك ، فقال : لا تُلبسوني عاراً وأمهلوني حتى أهلكه ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم أرسل إليه عمّه : إني آليتُ أن لا أزوّجَ ابنتي هذه إلا ممّن يَسوق إليها ألف ناقة مَهراً ، ولا أرضاها إلا من نُوق خُزاعة .

وكان غرضُ العم أن يَسلكَ بِشر الطّريق بينه وبين خُزاعة فيفترسهُ الأسد؛لأن العرب قد كانت تحامتْ عن ذلك الطّريق،وكان فيه أسدٌ يُسمّى « داذاً » وحيّةٌ تُدعى « شُجاعاً » يقول فيهما قائلهم :

أفتكُ من «داذٍ»ومن «شُجاعٍ» إن يَكُ داذٌ سيّدَ السّباعِ
فإنها سيّدةُ الأفاعي

ثم إنّ بِشراً سلك ذلك الطريق ، فما نصفه حتى لقيَ الأسد ، وقمص مُهْرُه فنزل وعَقَرَهُ ، ثم اخترط سيفه إلى الأسد واعترضه وقطّعه ، ثم كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أفاطمُ لو شهدْت ببطن خَبتٍ وقد لاقى الهِزْبرُ أخاك بِشرا
إذاً لرأيتِ ليثاً أمّ ليثاً هزَبراً أغلباً لاقى هِزبرا
تبهنَسَ حينَ أحجمَ عنه مُهري مُحاذرةً ، فقلتُ : عُقرتَ مُهرا

أنِلْ قَدَمَيّ ظَهرَ الارض إني ... رأيتُ الارض أثبَتَ مِنكَ ظَهرا
وقلتُ له وقد أبدى نِصالاً ... مُحَدّدة ووجهاً مكفهِرّا
يُكفكِفُ غيلةً إحدى يديه ... ويَبسُطُ للوُثوب عَليَّ أُخرى
يُدِلُّ بِمخلب وبحدّ ناب ... وباللحظات تحسبهنّ جمرا
وفي يُمناي ماضي الحد أبقى ... بمضرَبه قِراع الموت أثرا
ألم يَبلغْك ما فعلتْ ظُباه ... بكاظمةٍ غداة لَقيتُ عَمرا
وقلبي مثلُ قلبك ليس يخشى ... مُصاوَلةً، فكيف يخاف ذُعرا
وأنتَ تروم للأشبال قوتاً ... وأطلُب لابنة الأعمام مَهرا
ففيمَ تَسوم مِثلي أن يُولي ... ويجعل في يديك النّفس قسرا
نصحتك فالتمِسْ يا ليثُ غيري ... طعاماً إنَّ لحمي كان مُرّا
فلما ظنّ أنّ الغشّ نصحي ... وخالفني كأني قلت هُجرا
مَشى ومشيت من أسدَين راما ... مَراماً كان إذ طَلَبَاهُ وَعرا
هَززتُ له الحُسام فخلتُ أني ... سللت به لدى الظلماء فجرا
وجُدْت له بجائشةٍ أرتْه ... بأنْ كذبَته ما مَنتّه غدْرا
وأطلقت المُهنّد من يميني ... فقدّ له من الأضلاع عشرا
فخرّ مجندلاً بدمٍ كأني ... هدمتُ به بناءً مُشمَخِرّا
وقلت له: يَعزُّ عليّ أني ... قتلت مُناسِبي جَلَداً وفخرا
ولكنْ رُمتَ شيئاً لم يَرُمه ... سواك فلم أطقْ يا ليثُ صبرا
تُحاوِل أن تعلّمني فِرارا ... لعَمرُ أبيك قد حاولتَ نُكرا
فلا تجزَعْ فقد لاقيت حُرّاً ... يحاذرُ أن يُعاب فمُتّ حُرّا

فلما بلغت الأبيات عمه ندم، على ما منعه تزويجها، وخشي أن تغتاله الحية، فقام في أثره وبلغه، وقد ملكته سَوْرة الحية.

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية وحكّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إلى المجد بعيدٌ همُّه   لمّا رآه بالعراءِ عمّه
قد ثكِلتْهُ نفسُهُ وأُمُّه   جاشتْ به جائشةٌ تهمه
قام إلى ابنٍ للفَلا يؤمُّه   فغاب فيه يده وكُمُّه
ونفسه نفسي وسمّي سمُّه

فلما قتل الحيّة قال عمه : إني عرّضْتك طمعاً في أمرٍ قد ثنى الله عناني عنه ، فارجعْ لأُزوّجك ابنتي

فلما رجع جعل بشْرٌ يملأ فمه فخراً حتى طلع أمرد كَشَقّ القمر على فرسه مدججاً في سلاحه . فقال بشْرٌ : إني أسمع حسّ صيدٍ وخرج فإذا بغلام على قيدٍ ، فقال : ثكلتْك أُمك يا بشرٌ إن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيْك فخراً ، أنت في أمان إنْ سلّمت عمك ، فقال بشرٌ : مَنْ أنت ؟ لا أُم لك ؟ قال : اليوم الأسود والموت الأحمر . فقال بشرٌ : ثكلتك من سلحتك . فقال : يا بشر ومن سلحتك ، وكرّ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه ، فلم يتمكن بشر منه ، وأمكن الغلام عشرين طعنة في كُلْية بشر ، كلما مسّه شبا السِّنان حماه عن بدنه إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بشر كيف ترى ؟ أليس لو اردت لأطعمتُك أنياب الرُّمح ؟ ثم ألقى رمحه ، واستلّ سيفه فضرب بشراً عشرين ضرْبة بعرض السيف ، ولم يتمكن بشرٌ من واحدة ، ثم قال : يا بشر سلِّم عمك و ذهبْ في أمانٍ ، قال : نعم ، ولكن على شريطة أن تقول لي من أنت ؟ فقال : أنا ابن المرأة التي دلّتك على ابنة عمك ؛ فقال بشر :

تلْك العصا من هذه العُصية   وهل تلد الحيّةُ إلا الحيّة

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حَصاناً ، ثم زوّج ابنةَ عمه لابنه

الفن السادس في الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قول او فعل حدثا ، أو أمكن حدوثهما .

وخواصها أربعة : الإيضاح ، والإيجاز ، والإمكان ، والتلطّف .

فالإيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئة للخبر ، يُقرّب مأخذ الرواية ، وبمُراعاة الترتيب الطّبيعي في إيراد ظروف الخبر ما لم يكن للرّاوي غرضٌ لتجاوُز هذا النظام؛ وبالعُدول عن كثرة الاستطرادات في إنشاء الحديث لأن ذلك يصرفُ العقلَ عن سياق الرواية ويذهبُ برَونقها .

والإيجاز : حذفُ فصول حَشْو الكلام مع انتقاءِ أخصّ الظروف وأنسبها للغاية ، ولا بأس بالإطناب إذا ما دعا إليه مُقتضى الحال .

والإمكان : ترشيح الرواية للقبول في ذهن السامع .

والتلطّف : في الرواية أن يَبلغ الكاتبُ كُنهَ القلوب ، ويأخذَ بمجامع اللبّ بأن ينتقل فيها من حال إلى حال لأن النفس قد جبلتْ على محبة التحوُّل وطُبعت على إيثار التنقل .

والرواية ثلاثة أجزاء : صدرُها ، وعِقدتها ، وختامُها . فالصدر ، التوطئة للواقع بحيث يقف السامع على أسماء الأشخاص وطباعهم ، وعلى مكان الواقع وسوابق العمل .

والعِقدةُ : هي الجزء الذي على محْوره تدور الرواية؛ وهو المجال الأوسع الذي تتقابلُ فيه الأشخاص وتشتبك الأحوال وتضطرم في النفس لواعجُ الشّوق للوقوف على عاقبة الأمر ، فتنتقل من الرجاءِ إلى الخوف ومن الفرح إلى الحزن .

والختام : الجزء الأخير من الرواية الذي به تفكّ الإرْبة وتحُل رباق الحديث ، فتنال النفوس بذلك مَرامَها وتفوزُ بوَطرها؛ وسمَتُه أن يكون فجائياً مُرتبطاً مع ما قبله ارتباطاً محكماً وافياً بالمراد بحيث ترضى به النفوس ، وترتاح إليه القلوب .

وشواهد الرواية كثيرة لا نُطيل بذكرها ؛ أفرَدها الأدباءُ بالتآليف العديدة ، ولنذكر هاهنا بعض مُلح لا يستغني عنها المقام .

ليلى الأخيلية مع الحجاج

روى بعضهم أنه بينما كان الحجّاج في مجلس ومعه عنبسة بن سعيد، إذ دخل الحاجب فقال: امرأةٌ بالباب، فقال له الحجاج: أدخِلها، فدخلت فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنَه قد أصاب الأرض، فجاءت حتى قعدتْ بين يديه فنظرتُ فإذا امرأة قد أسنّت، حسنة الخَلق، ومعها جاريتان لها، وإذا هي ليلى الأخيليّة، فسألها الحجاج عن نسبها، فانتسبت له، فقال لها: يا ليلى ما أتى بك؟ فقالت: إخلافُ النجوم وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدّة الجهد، وكنت لنا بعد الله الرِّفد. فقال لها صفي لنا الفجاج، فقالت: الفجاج مُغبرة، والأرض مقشعرّة، والمبرَكُ معتل، وذا العيال مختلّ، والهالك للقلّ والناس مسنتون، رحمةَ الله يرجون، وأصابتنا سنون مجحفة مُبلطة، لم تدع لنا هُبَعاً ولا رُبَعاً، ولا عافطة ولا نافطة، أذهبت الأموال، ومزّقت الرجال وأهلكت العيال، ثم قالت: إني قلت في الأمير قولاً، قال هات؛ فأنشأت تقول:

أحجّاجُ لا يفللْ سلاحُكَ إنما الـ ... ـمنايا بكف الله حيث يُراها
أحجّاج لا تعط العُصاة مناهم ... ولا الله يُعطي للعُصاة مُناها
إذا هبط الحجّاج أرضاً مريضة ... تتبّع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الدّاء العُضال الذي بها ... غلامٌ إذا هزّ القناةَ سقاها
سقاها فروّاها بشرْب سجالِه ... دماء رجالٍ حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رِز كتيبةٍ ... أعدّ لها قبل النزول قِراها
أعدّ لها مَصقولةً فارسيةً ... بأيدي رجال يحْلبون صراها
فما ولد الأبكار والعونِ مثله ... ببحرٍ ولا أرضٍ يَجف ثراها

قال: فلما قالت هذا البيت، قال الحجاج: قاتلها الله، ما أصاب صِفَتي شاعرٌ منذ دخلت العراق غيرها، ثم التفت إلى عَنبسة بن سعيد، فقال: والله إني لأعد للأمر عسى أن لا يكون أبداً، ثم التفت إليها فقال: حسبُكِ. قالت: إني قد

قلت أكثر من هذا . قال : حسبُك ، ويحَكَ حسبُك . ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، قال فأمرَ بإحضار الحجّام فالتفتت إليه فقالت : ثَكِلَتْكَ أمك ، أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرَك أن تقطع لساني بالصلة ، فبعث إليه يستثبتهُ ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمّ بقطع لسانه ، وقال : أردُدها ، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وأمانةِ الله) يَقطع مِقولي ؛ ثم أنشأت تقول

حجاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ   إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج انتَ شهابُ الحرب إن لقحت   وأنت للناس نورٌ في الدجى يَقدُ

ثم أقبل الحجاج على جُلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إنا لم نرَ قطّ أفصحَ لساناً ، ولا أحسن مُحاورة ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أرصنَ شعراً منها. فقال: هذه ليلى الأخيلية التي مات توبة الخفاجي من حُبها. ثم التفتَ إليها فقال : انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم ايها الأمير ، هو الذي يقول:

وهل َليلى تبكيني إذا ميتٌ قبلها   وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو اصاب الموتُ ليلى بكيتُها   وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ
وأُغبَطُ من ليلى بما لا أناله   بلى كل ما قرّت به العينُ طائحُ
ولو أن ليلى الأخيلية سلّمت   عليّ ودوني جَنْدَلٌ وصفائح
لسلّمتُ تسليم البشاشة أورَقا   إليها صدًى من جانب القبر صائح

ثم قال : سلي يا ليلى تُعطيْ قالت : أعطِ فمثلُك أعطى فأحسن. قال لكِ عشرون ، قالت : زِدْ ، فمثلك زاد فأجمل ، قال لك اربعون. قالت زِدْ فمثلُك زاد فأكمل . قال لك ثمانون ، قالت زد ، فمثلك زاد فتمم . قال مائة واعلمي انها غنم ، قالت: معاذ الله ايها الأمير ، انتَ أجوَدُ جوداً ، وأمجد مجداً ، وأروى زنداً من ان تجعلها غنما ، قال . فما هي ويحك يا ليلى ؟ قالت مائةٌ من الإبل

برُعاتها. فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت يدفع إليّ النابغة الجعدي. قال: قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائذاً بعبد الملك ، فاتبعتْهُ إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مُسلم بخراسان فاتبعتْهُ على البريد بكتاب الحجاج إلى قتيبة بقومَس ويقال بحلوان .

بنات الشاعر المقتول

كان لشاعر عدوٌ: فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدُوّه، فعلم الشاعر أن عدُوّه قاتله لا محالة؛فقال له: يا هذا انا أعلم ان المنيّة قدحضرت ولكن سألتك الله إذا انت قتلتني ان امضِ الى داري ، وقِفْ بالباب وقل : « ألا ايها البنتان إن أباكما » فقال : سمعاً وطاعة ،ثم إنه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال : « ألا ايها البنتان إن اباكما » وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل « ألا ايها البنتان إن أباكما » أجابتاه بفمٍ واحد «قتيلٌ خُذَا بالثأر ممن أتاكما» ثم تعلقتا بالرجل، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرَرَه فأقرّ بقتله فقتله .

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبدالله بن المبارك : خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فبينما انا في بعض الطريق إذ انا بسوادٍ ، فتميزت ذاك فإذا هي عجوزٌ عليها دِرْعٌ من صُفوف وخِمارٌ من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » فقلت لها يرحمك الله ما تصنعينَ في هذا المكان ؟ قالت : « ومن يُضلل اللهُ فلا هادي لهُ» فعلمتُ أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تُريدين ؟ قالت . « سُبحـان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى» فعلمت أنها قد قضت حجّتها وهي تريد بيت المقدس، فقلت لها أنتِ منذ كم في هذا الموضع ؟ قالت: « ثلاث ليال سوياً» فقلت ما أرى معك طعاماً تأكلين ، قالت: «هو يُطعمُني ويسقين»

فقلت: فبأيّ شيء تتوضئين؟ قالت: «فإن لم تجدوا ماءً فتيمّموا صعيداً طيّباً». فقلت لها إن معي طعاماً: فهل لك في الأكل؟ قالت: «ثم أتمّوا الصّيام إلى الليل» فقلت ليس هذا شهر رمضان، قالت: «ومَن تَطوّعَ خيراً فإن الله شاكرٌ عليم»، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السّفر. قالت: «وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون» فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلّمك؟ قالت: «ما يلفظُ من قول إلا لديهِ رقيبٌ عتيد» فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: «ولا تَقْفُ ما ليس لك به علمٌ إن السّمع والبصر والفؤاد كل أولئكَ كان عنه مسئولا» فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حلٍّ. قالت: «لا تثريبَ عليكم اليوم يغفر الله لكم» فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ فقالت: «وما تفعلوا من خير يَعلمْه الله» قال فأنختُ ناقتي قالت: «قل للمؤمنين يَغضّوا من أبصارهم» فغضضت بصري عنها، وقلت لها اركبي. فلما أرادت أن تركب نفرَت الناقة، فمزقت ثيابها فقالت: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: «ففهّمناها سليمان» فعقلتُ الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت، «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كُنّا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون» قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح. فقالت: «واقصدْ في مَشيك واغضض من صوتك». فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنّم بالشّعر: فقالت: «فاقرءوا ما تيسر من القرآن» فقلت لها: لقد أُتيت خيراً كثيراً قالت: «وما يذكّر إلا أولوا الألباب» فلما مشيتُ بها قليلا قلت: ألكِ زوجٌ؟ قالت: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم تَسوءْكم». فسكتُّ ولم أُكلّمْها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: «المال والبنونَ زينة الحياة الدُّنيا» فعلمتُ أن لها أولاداً. فقلتُ: وما شأنهم في الحجّ؟ قالت: وعلامات وبالنّجم يهتدون» فعلمت أنهم أدلاءُ الركب. فقصدت بها القباب والعمارات فقلت: هذه القباب فمن لكِ فيها؟ قالت «واتخَذَ الله إبراهيم خليلا»،«وكلّم الله موسى تكليما»،«يا يَحيى خُذ الكتاب بقوّة»، فناديت: يا إبراهيم، يا موسى

يا يحيى . فإذا انا بشُبّان كأنـَّهم الأقمار قد قبلوا ، فلمّا استقرّ بهم الجلوس ، قالت : «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظُر ايها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه» ، فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدّموه بين يديّ ، وقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيام الخالية » فقلت : الآن طعامكم عليّ حرام حتى تخبروني بأمرها . فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم تتكلم إلاّ بالقرآن ، مخافة أن تزِلّ فيسخط عليها الرحمن ، فسُبحان القادر على ما يشاء فقلت : « ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مروان بن الحكم — وعبدالله بن الزُّبير

روى عُقيل بن خالد عن ابن شهاب أنّ مروان بن الحكَم وعبدالله بن الزُّبير اجتمعا ذات يوم في حُجرة عائشة (والحِجابُ بينهما وبينها) يُحدّثانِها ويسألانِها ، فجرى الحديث بين مرْوان وابن الزبير ساعة ؛ وعائشة تسمعُ .

فقال مروان :

فمن يَشا الرحمن يَخفِضْ بقدرِه وليس لِمن لم يرفع الله رافعُ

فقال ابن الزّبير :

ففوّض إلى الله الأمورَ إذا اعترت وبالله ، لا بالأقربين ، أُدافـعُ

فقال مرْوان :

ودَاوِ ضمير القلب بالبرّ والتـُّقى فلا يستوي قلبان قاسٍ وخاشعُ

فقال ابن الزّبير :

ولا يستَوي عبدان هذا مُكذّب عُتلٌ لأرحـام العَشيرة قاطعُ

فقال مرْوان :

وعبدٌ يُجافي جَنبهُ عن فِراشه يَبيتُ يناجي ربه وهو راكعُ

فقال ابن الزُّبير :

وللخير أهلٌ يُعرفون بهَدْيهم إذا اجتمعت عند الخطوب المجامعُ

فقال مروان :

وللشرّ أهلٌ يُعرفون بشكلهم تُشيرُ إليهم بالفجور الأصابعُ

فسكت ابن الزُّبير ولم يُجب ، فقالت عائشة . يا عبد الله مالك لم تُجبْ صاحبك ؟ فوالله مـــا سمعتُ تجاولاً في نحو ما تجاولتُما فيه أعجب إليّ من تجاوُلكما ، فقال ابن الزُّبير : إني خِفتُ عوار القول فكففتُ .

عُبيدُ بن الأبرص – وامرؤ القيس

قيل إنّ عُبيدَ بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له : كيف معرفتك بالأوابد ؟ قال : ما أحببت . فقال :

ما حبّةٌ ميْتَةٌ قامتْ بميتتها دَرداء ما أنبتَت ناباً وأضراسا

فقال امرؤُ القيس :

تلـك الشعيرة تُسقى في سنابلهـــا
قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عُبيد :

ما السُّودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهـنّ النـاسُ تمساسا

فقال امرؤُ القيس :

تلك السّحاب إذا الرّحمنُ أنشأها رَوَّى بهنّ مُحول الأرض أيباسا

فقال عُبيد :

ما مرتجاتٌ على هول مَراكبُها يقْطعنّ بعد المدى سيراً وأمراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك النُّجومُ إذا حانت مطالعها شبّهتها في سواد الليل أقباسا

فقال عبيد :

ما القاطعاتُ لأرضٍ لا أنيسَ بها تأتي سِراعاً وما يرجِعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياحُ إذا هبّت عواصِفُها كفى بأ ياها للتُرب كنّاسا

فقال عبيد :

ما الفاجعاتُ جهاراً في علانيةٍ أشدّ من فيلقٍ ملحومةٍ باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقينَ من أحدٍ يأخذن حمْقى وما يبقين أكياسا

فقال عبيد :

ما السّابقاتُ سِراعَ الطيّر في مهَلٍ لا يشتكين ولو طال المدى بَاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجيادعليها القوم مُذ نُتِجت كانوا لهنّ غداة الرّوع أحلاسا

فقال عبيد

ما القاطعات لأرض الجوّ في طَلق قبل الصباح وما يسوين قرطاسا

فقال أمرؤ القيس

تلك الأمانيُّ يتركن الفتى ملكاً دون السماء ولم ترْفع له راسا

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ النّاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مِقياسا

أبو تراب — والشريف العباسي

اجتمعَ يوماً ابو تراب هبةُ الله بن السريجي، والشريف العباسي وكانا شاعرين

فقال أبو تراب :

أسلوت حبّ بدورَ أمْ تَتجلّد وسهرت ليلك أم جفونكَ ترقدُ

فأجاب الشريف بديهاً :

لا بلْ هُمُ ألِفوا القطيعة مثلَ ما ألِفوا نزولهم بهـا فتَبعَّدوا

فقال أبو تراب :

فإلامَ تصبرُ والفؤاد متيّـمٌ ولظى اشتياقِكَ في الحشى يتوقّد

فأجاب الشريف :

ما دامَ لي جلد فلستُ بجازعٍ إذْ كان صبري في العواقب يُحمدُ

فقال أبو تراب

أحسنتَ : كِتمان الهوى مُستحسنٌ لو كان ماءُ العين مما يجمدُ

فأجاب الشريف :

إنْ كان جفني فاضحي بدُموعه أظهرت للجُلساء أني أرمَـدُ

فقال أبو تراب :

فهبِ الدموعَ إذا جرت موّهتها فيقـال لِمْ أنفاسُـه تتصعـدُ

فأجاب الشريف :

أمشي وأُسرعُ كي يظنوا أنهـا من ذلك المشي السّريع تولد

فقال ابو تراب :

هذا يجوز ومثله مُستعمـلٌ لكنّ وجهـك بالمحبة يَشهدُ

فأجاب الشريف

إن كان وجهي شاهداً بهوًى فما يُدرى إلى مَن بالمحبّةِ أقصِدُ

فقال ابو تراب

إخضعْ وذلّ لمن تحبّ فليسَ في حُكمِ الهوى أنفٌ يشالُ ويعقد

فأجاب الشريف :

ذا لا يكونُ مع الحبيب وإنما مع ساقط متحيِّل يتعمَّدُ

المأمونُ والمرأة المتظلمةُ

جلس المأمونُ يوماً للمظالم فكان آخر من تقدَّم إليه ، وقد همَّ بالقيام امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثيابٌ رثّة ، فوقفتْ بين يديه فقالت .(السَّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فنظر المأمونُ إلى يحيى [1] بن أكثَمَ فقال لها يحيى : وعليكِ السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتكِ ، فقالت :

يا خيرَ مُنتَصفٍ يُهدى له الرَّشد ويا إماماً به قد أشرقَ البلدُ
نشكو إليكَ عميدَ القوم أرملةٌ عدا عليها فلم يترك لها سَبَد [2]
وابتزَّ مني ضياعي مَنعَتِها ظلماً وفرَّق مني الأهل والولدُ

فأطرق المأمون حيناً ثم رفعَ رأسهُ إليها وهو يقول :

في دونِ ما قلتِ زال الصبرُ والجلَدُ عني وأقرح مني القلب والكبدُ
هذا أوانُ صلاةِ العصرِ فانصرفي وأحضِري الخصْم في اليوم الذي أعِدُ
والمجلس السبت إن يُقضَ الجلوس لنا نُنصِفكِ منه وإلا المجلس الأحدُ [3]

فلما كان يوم الأحد جلسَ فكان أول مَن تقدم إليه تلك المرأة فقالت :

(السَّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فقال : وعليكِ السلام . أين الخصم ؟ فقالت : الواقفُ على رأسك يا امير المؤمنين ، وأومأتْ إلى العباس ابنه فقال : يا احمد بن أبي خالد خُذ بيده فأجلِسه معها مجلسَ الخصوم ، فجعل كلامُها يعلو كلام العبَّاس . فقال لها احمد بن أبي خالد : يا أمةَ اللهِ إنكِ بين يَدي امير المؤمنين وإنكِ تكلِّمينَ الأمير فاخفضي من صوتكِ . فقال المأمون :

(١) يحيى بن أكثم قاضي قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة أكثم ابن صيفي توفي سنة ٢٤٢ (٢) أصل السبد : القليل من الشعر . ويقال ما له سبد ولا لبد اي لا قليل ولا كثير (٣) قوله : وإلا المجلس . أسقط منه فاء الجواب للضرورة .

دعْها يا أحمدُ ، فإن الحقَّ أنطقَها وأخرسهُ. ثم قضى لها بردّ ضيعتها إليها، وأمرَ بالكِتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفّر لها ضَيعتها، ويُحسن معونتها وأمر لها بنفقة.

عمر بن الخطاب – والهُرمُزان

لمّا أُتيَ بالهُرْمُزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا امير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحبُ رئيسهم. فقال له عمر: أعْرِضُ عليك الإسلام نصحاً لك في عاجِلك وآجلك. قال: يا امير المؤمنين إنما أعتقِدُ ما أنا عليه. ولا أرغَبُ في الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما همّ بقتله قال يا امير المؤمنين شَرْبةٌ من ماء أفضل من قتلي على ظمأ. فأمر له بِشَرْبَة من ماء. فلمّا أخذها قال أأنا آمِنٌ حتى أشربها؟ قال : نعم فرميَ بها وقال : الوفاءُ يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال صَدَقتَ لك التّوَقف عنْك والنظر في أمرك . ارْفعوا عنه السّيف. فلما رُفع عنه قال: الآن يا امير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبدُه ورسوله وما جاء به حقٌ من عنده . فقال عمر : أسلمتَ خير إسلام فما أخّرك؟ قال : كرِهْت أن تظُن أني اسلمت جزعاً من السّيف. فقال عمر: إن لأهل فارسَ عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من المُلك . ثم امر به أن يُبرّ ويُكرَم ، وكان بعدُ يشاورُه في توجيه الجيوش لأهل فارس .

إبراهيم بن المهدي – وابن بختيشوع

قال العُتْبي : تنازع إبراهيمُ بن المهدي وابنُ بَختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن ابي دُؤاد في مجلس الحُكم في عقار بناحية السواد، فأرْبى [1] عليه إبراهيم وأغْلظ له [2] فأغضب ذلك ابنَ ابي دُؤاد فقال :

يا إبراهيم إذا نازَعْت في مجلس الحُكم امرءاً فلا أعْلمن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أشرت بيد ، وليكن قصدُك أمَماً [3] وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلا ، ووَفّ مجالس الخليفة حُقوقها من التعظيم والتوقير والاستكانة والتوجه

(١) أربى عليه : زاد . (٢) احفظه : اغضبه ، والحفيظة : الحمية والغضب
(٣) الأمم : البين من الأمر والوسط

إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في مَحتدِك[١]، وعظيم خَطرك ولا تعجلنّ فرُبّ عجلة تهبُ رَيثاً[٢]، والله يَعصِمُك من خطل القول والعمل، ويُتمّ نعمته عليك كما أتمها على أبويكَ من قبل إن ربك حكيمٌ عليم.

فقال إبراهيم: أصلحَكَ الله، أمرت بسداد، وحَضَضت على رشاد، ولستُ عائداً لما يَثلم[٣] مُروءتي عندك، ويُسقِطُني من عينيك، ويُخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فها أنذا معتذرٌ إليك من هذه البادرةِ اعتذار مُقِرّ بذنبه مُعترف بجُرْمه، ولا يزال الغضبُ يَستفِزُّني[٤] ببوادره، فيرُدُّني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلتُ حقي في هذا العقار لابن بَخْتَيْشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرْش[٥] الجناية عليه، ولم يَتلف مالٌ أفاد مَوْعظة، وحَسْبُنا الله ونِعم الوكيل.

الأحنف بن قيس ـ وقيس بن عاصم

قيل لِلأحنَف بن قيس: مِمّن تعلّمت الحِلم؟ قال: من قيس بن عاصم المِنقَري، رَأيتُه قاعداً بفِناء داره مُحْتَبياً[٦] بحمائل سَيفه يُحَدّث قومه حتى أُتِيَ برجل مكتوف، ورجل مقتول، فقيل له هذا ابنُ أخيك قتَلَ ابنك، فوالله ما حَلّ حُبْوته ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له: يا ابن اخي أسأت إلى رَحِمك، ورميتَ نفسكَ بسهمِك، وقتلتَ ابن عمّك، ثم قال لابن له آخر: قُمْ يا بُنيّ فحُلّ كِتاف ابن عمك ووارِ أخاك، وسُقْ إلى أمّه مائة ناقة دِيَة ابنها، فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امْرُؤٌ لا يَطبي حَسبي ... دَنَسٌ يهَجّنُه ولا أفَنُ[٧]

---

(١) المحتد، الأصل (٢) الريث: الإبطاء والمقدار (٣) ثلم الإناء: كسره من حرفه (٤) استخفه وأزعجه (٥) الأرش: الدية وما يعطى تعويضاً (٦) احتبى: جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها، والاسم من ذلك الحبوة (٧) طباه: دعاه واستهواه. والأفن ضعف الرأي وفعله كفرح.

من مِنْهَرٍ في بيت مَكْرُمة والغُصْنُ يَنبُتُ حوله الغُصنُ
خطباءُ حين يقول قائلُهم بيضُ الوجوه مصاقعٌ لُسنُ ١
لا يَفطِنون لعيب جارهم وهُم لحِفظ جِواره فطنُ ٢

معن بن زائدة - وجاره بين يدي المهدي

قال سعيد بن مسلم: نَذَر المهدي دم رجل من اهل الكوفة ، كان يَسعى في فساد سُلطانه ، وجعل لمن دلّ عليه او جاء به مائة الف درهم . فأقام الرجل حيناً مُتوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السّلام ٣ ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً مُترقباً. فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصُرَ به رجل من اهل الكوفه فعرفهُ فأهوى إلى مجامع ٤ ثوبه وقال : هذا بُغية امير المؤمنين فأمكن الرجلُ من قياده ، ونظر إلى الموت امامه. فبينما هو على تلك الحال، إذ سمع وقْع حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال: يا ابا الوليد أجِرْني اجارك الله فوقف وقال للرجل الذي تعلّق به ، وما شأنك ؟ قال : بغية امير المؤمنين الذي نذر دمَه ، واعطى لمن دلّ عليه مائة ألف درهم. فقال : يا غلام انزل عن دابتك واحمِل اخانا . فصاح الرجلُ يا معشرَ الناس يحالُ بيني وبين من طلبهُ امير المؤمنين ! قال معن : اذهب فأخبرهُ أنه عندي . فانطلق إلى باب امير المؤمنين فأخبرَ الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبرَه فأمر بحبس الرجل ، ووجّه إلى معنَ مَنْ يحضُر به ، فأتته رُسل امير المؤمنين وقد لبس ثيابهُ وقُرّبت إليه دابته فدعا اهل بيته ومواليه وقال : لا يُخلَصُنّ إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف ٥ ، ثم ركب ودخل حتى سلّم على المهدي ، فلم يَرُد عليه وقال : يا معنَ أتجيرُ علي ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : ونَعَمْ ايضاً ؟

---

١) رجل لسن وألسن فصيح ، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحمر (٢) فطن: جمع فطن . كجون: جمع جون ، وهذا جمع نادر ٣) مدينة السلام: هي بغداد ، او قسم منها (٤) مجامع الثوب: ما احاط بالجيب ويقال لها تلابيب (٥) طرفت العين: تحركت .

واشتدّ غضبُه ، فقال مَعن : يا امير المؤمنين قتلتُ في طاعَتِكم باليَمَنِ في يوم واحدة خمسةَ عشر ألفاً ، ولي ايام كثيرة قد تقدّم فيها بَلائي وحسن غَنائي ، فما رأيتموني أهلاً ان تَهبوا لي رجلاً واحداً استجارَ بي ؟ فأطرق المهديّ طويلاً ثم رفع رأسَه وقد سُرّيَ [1] عنه فقال قد أجَرْنا من أجَرْتَ ، قال معن : فإن رأى اميرُ المؤمنين ان يَصِله فيكون قد أحياه وأغناه ، فعَلَ ، قال : قد امرنا له بخمسة آلاف ، قال : يا امير المؤمنين إنّ صِلات الخلفاء على قدر جِنايات الرعيّة ، وإنّ ذنبَ الرجل عظيم ، فأجْزِل الصّلة ، قال : قد أمرنا له بمائة الف ، قال : فتَعَجّلها يا امير المؤمنين بأفضل الدُّعاء ، ثم انصَرَف ولحَقَه المال ، فدعا الرجلَ وقال له : خُذْ صلتك والحق بأهلِك وإيّاك ومُخالفة خلفاء الله تعالى .

معن بن زائدة والأسود

رَوى مَروان بن ابي حَفصة عن مَعنِ بن زائدة انه قال : لما جَدّ المنْصور في طلبي ، وجعل لمن يحملني إليه مالاً ، اضطُرِرْتُ لِشِدة الطّلب ان تعرّضت للشّمس حتى لوّحَتْ [2] وجهي ، وخَفّفتُ عارِضَيّ [3] ، ولبِستُ جُبّة صوف ، وركِبت جَملاً ، وخرجت مُتوجهاً إلى البادية لأقيم بهـا ، فلمّا خرجت من باب حَرْب ، وهو أحد ابواب بغداد ، تبِعني أسود متقلدٌ سيفاً ، حتى إذا غِبت عن الحرس قبض على خِطام الجملَ فأناخه وقبض على يدي ، فقلت له : ما بِك ؟ فقال : أنت [4] طِلبة امير المؤمنين ، فقلت : ومن انا حتى أُطلب ؟ فقال : انت مَعْن بن زائدة ، فقلت له : يا هذا ، اتّقِ الله عزّ وجل ، وأين انـا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فإني والله لأعرَف بك منك ، فلما رأيت منه الجدّ قلت له : هـذا عِقد جوهر ، قد حَمَلته معي بأضعاف ما جعَله المنصور لمن يجيئه بي فخُذْه ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور .
(٢) لوحه العطش والسفر : غيره ولوحت وجهه الشمس : غير لونه (٣) العارضان جانبا الوجه ، وما يكون عليهما من اللحية (٤) الطلبة : الحاجة وما يطلب .

لِسفكَ دمي ، قال : هاته فأخرجتُه إليه ، فنظر إليه ساعة وقال صَدَقتَ في قيمته ، ولست قابله منك حتى أسألكَ عن شيء فإن صدقتني أطلقتك ، فقلت : قل ، قال : إنّ الناسَ قد وصفوك بالجود ، فأخبرني هل وهبت مالك كله قطُّ ؟ قلت : لا ، قال : فنصفَه ؟ فقلت : لا ، قال : فثُلثَه ؟ قلت : لا ، حتى بلغ العشر ، فاستحييت وقلت : أظن أني قد فعلت هذا ، قال : ما ذاك بعظيم ؛ أنا والله راجل ١ ورزقي من أبي جعفر المنصور كل شهر عشرون درهماً وهذا الجوهر قيمته ألوفُ دنانيرَ ، وقد وهبته لك ووهبتُكَ لنفسك ولجودك المأثور بين الناس ، ولتَعلم أنّ في هذه الدنيا من هو أجودُ منك فلا تعجبك نفسُكَ ولتحقر بعد هذا كل جودٍ فعلتَه ، ولا تتوقف عن مَكرمة ، فقلت : يا هذا قد والله فضحتَني ولسَفكُ دمي عليّ أهونُ مما فعلتَ ، فخذ ما دفعتُه لك فإني غنيٌّ عنه ، فضحك وقال : أردتَ أن تكذّبني في مقالي هذا ، والله لا أخذته ولا آخذُ لمعروفٍ ثمناً أبدا ، ومضى لسبيله . فوالله لقد طلبته بعد أن أمِنتُ ، وبذلتُ لمن يجيء به ما يشاء ، فما عرفت له خبراً ، وكأنّ الأرض ابتلعته .

معاوية والأعرابية

خرج معاوية مُتنزّهاً ، فمرّ بحِواءٍ ٢ ضَخْمٍ ، فقصد قصْد بيت منه ، فإذا بفِنائه امرأة بَرْزة ٣ ، فقال لها : هل من غَداء ؟ قالت : نَعَمْ حاضر ، قال : وما غَداؤك ؟ قالت خُبْزٌ خَمير ، وماء نَمير ، وحيْسٌ ٤ فطير ، ولبن هَجير ٥ ، فثَنى وَرِكه ونزَلَ ، فلما تغدّى قال هل لك من حاجة ؟ فذكرت حاجة أهل الحِواء ، قال : هات حاجتك في خاصّة نفسك ، قالت : يا أمير المؤمنين إني أكره أن تنزلَ وادياً ٦ فيرِفّ أوّلُه ويَقفّ آخرُه ٧ .

(١) الراجل : غير الراكب ٢) الحواء ككتاب : جماعة البيوت المتدانية
(٣) البرزة من النساء : الكهلة الجليلة تبرز للقوم وتحدثهم مع العفة .
٤) الحيس : تمر يخلط بسمن ولبن ممخوض (٥) الهجير : الخاثر من اللبن .
(٦) رف النبات : اهتز (٧) قف النبات . يبس .

الأحنف بين يدي معاوية

وَفدَ الأحنفُ بن قَيس على مُعاوية مع أهل العِراق، فخرج الآذِنُ فقال : إن أمير المؤمنين يَعزِم عليكم أن لا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عَزْمة أمير المؤمنين لأخْبرْته أن دافّة دفت [١] ، ونازلة نزلت، ونابتة نبتت ، كلّهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه ، فقال معاوية: حَسْبُكَ يا أبا بَحْر فقد كفَيْت الشاهد والغائب .

الأحنف بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قَيس التّميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة، وأهل الكوفة ،فتكلّموا عنده في أنفسهم وما يَنوب كلّ واحدٍ منهم ،وتكلم الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين، إن مفاتيحَ الخيرِ بيد الله ،وقد أتتك وفودُ أهل العراق وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازلَ الأمم الخالية ،والملوك الجبابرة ،ومنازلَ كسرى وقيصر وبَني الأصفر [٢] ، فهم من المياه العذبةِ والجنان المختلفة في مثل حُوَلاء السّلى [٣] وحدَقة [٤] البعير، تأتيهم ثمارُهم غضّة [٥] لم تَخضَر ، وإنا أنزلنا أرضاً طرَفٌ في فَلاة، وطرَفٌ في مِلح أُجاج جانب منها مَنابت القصب وجانبٌ سَبْخة نَشّاشة [٦] لا يجِفُّ ثراها ولا يَنبُت مرعاها، يخرج الرجل الضعيف مِنا يستعذبُ الماء من فَرْسخَين ،وتخرج المرأة بمثل ذلك تُرنّق [٧] لولدها تَرْنيق العَنز ، تخافُ عليه العدوّ والسّبُع فإلا تَرْفع خَسيستنا ، وتنْعَش [٨]

---

(١) يقال : دفت دافة اي أتت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عندالعرب: هم الروم (٣) السلى غلاف رقيق يكون فيه المولود، والحولاء جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة ٣، قال في اللسان : وفي حديث الأحنف نزلوا في مثل حدقة البعير أي نزلوا في خصب وشبهه بحدقة البعير لأنها ريا من الماء (٥) غضة : طرية (٦) ارض سبخة نشاشة لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها (٧) رنق الماء صفا (٨) نعشه: رفعه كأنعشه، والركيسة الضعيفة .

رَكيستنا وتجبُرُ فاقتنا، وتزِدْ في عيالنا عيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتُصغِّر درهمنا، وتكبّر قفيزَنا[١]، وتأمر لنا بحفر نهر نستعذب به الماء، وإلا هلكنا، فقال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! ثم كتب إلى أبي موسى الأشعريّ أن يحتفر لهم نهراً.

أُسيِّد بن عَنقاء ـ وعميلة الفزاري

كان أُسيد بن عَنقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه، وأشدّهم عارضة ولساناً، وطال عمره، ونكبه دهره، واختلّت حاله، فخرج عَشية يَتبقّل[٢] لأهله، فمرّ به عُميلة الفزاري، فسلّم عليه وقال: يا عمّ ما أصارك إلى ما أرى؟ قال: بُخْل مثلك بماله، وصَوْن وجهي عن أموال الناس، فقال: لئن بقيتُ إلى غدٍ لأُغيِّرنّ ما أرى من حالك، فرجع ابن عَنقاء إلى أهله، فأخبرها بما قال له عُميلة، فقالت له: لقد غرّك كلام غلام، جنح ظلام[٣] فكأنما ألقمتْ فاه حجراً، فبات متململاً بين رجاء ويأس، فلما كان السحر سمع رُغاءَ الإبل وثغاء الشاة وصهيل الخيل ولجبَ الأموال[٤]، فقال: ما هذا؟ فقالوا: هذا عُميلة، ساق إليك ماله، فخرج ابن عنقاء له، فقسم عُميلةُ ماله شَطرين، وساهمه[٥] عليه، فأنشأ ابن عنقاء يقول:

رآني على ما بي عُمَيلة فاشتكى ... إلى ماله حالي أسرّ كما جَهرْ
دعاني فآساني ولو ضَن لم يُلَم ... على حين لا بدْوٌ يُرجّى ولا حَضَر
فقلتُ له خيراً وأثنيْتَ فعله ... وأوفاك ما أُبليت من ذمّ او شكرْ
ولمّا رأى المجدَ استُعيرَت ثيابه ... تردّى رداءً سابغ الذيل واتزَر[٦]
غلام رَماه الله بالخير مُقبلاً ... له سيمياءُ لا تَشُقُّ على البصر[٧]
إذا قيلت العَوْراء أغضى كأنه ... ذليلٌ بلا ذُل ولو شاءَ لانتصر[٨]

(١) القفيز: مكيال (٢) تبقل: خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل او الظلام الطائفة منه (٤) اللجب: الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه: قارعه أي ضرب القرعة (٦) تزر من الإزار — قلبت الهمزة تاء الافتعال — (٧) السيما والسيماء، والسيميا والسيمياء: العلامة يقول يفرح به من يراه للطف. محياه (٨) العوراء، الكلمة القبيحة، وقرب من هذا البيت قوله:

يصم عن الفحشاء حتى كأنه ... إذا ذكرت في مجلس القوم غائب

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكي

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي [١] : كانت أمُّ جعفر بن يحيى تزورُ أمي. وكانت لبيبة من النساء ، حازمةً فصيحةً بَرْزة ، يعجبُني أنْ أجدَها عند أمي فأستكثرُ من حديثها ، فقلت لها يوماً: يا أُم جعفر : إن بعض النـاس يفضّل جعفراً على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأخبريني ، فقالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل، فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا ، فقالت : ها أناذَه أُحدثك واقض أنتَ . وذلك الذي أردتُ منها ، فقالت : كانا يوماً يلعبان في داري، فدخل أبوهما فدعا بالغداء وأحضرهما، فطعما معه، ثم آنسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أتلعبان بالشطْرنج ؟ فقال جعفر وكان أجرأهما : نعم ! قال : فهل لاعبتَ أخاك بها ؟ قال جعفر : لا. قال : فالعبا بها بين يديّ لأرى لِمن الغَلَب؟ فقال جعفر: نعم ! وكان الفضل أبصَرَ منه بها ، فجيء بالشّطرنج فصُفّت بينهما ، وأقبلَ عليها جعفر ، وأعرضَ عنها الفضل . فقال له أبوه : مالكَ لا تلاعبُ أخاك ؟ فقال : لا أُحبُّ ذلك . فقال جعفر : إنه يرى أنـه أعلمُ بها منّي ، فيأنَف من ملاعبتي ، وأنا أُلاعبه مُخاطرة . فقال الفضل : لا أفعلُ . فقال أبوه لاعبْهُ وأنا معَك . فقال جعفر : رَضيتُ، وأبى الفضلُ، واستعفى أباه ، فأعفاه ، ثم قالت لي قد حدّثتك فاقضِ ، فقلت: قد قضيتُ بالفضل للفضل على أخيه ،فقالت:لو عَلمْتُ أنكلا تحْسِن القضاء لَما حَكّمتك، أفلا ترى ان جعفراً قد سقَط اربع سقطات تنزه الفضلُ عنهنّ ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج،وكان أبوه صاحب جدّ.
وسقط في التزام مُلاعبة أخيه وإظهار الشهوةِ لغلَبه والتعرُّض لغَضَبه .
وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرْص على مال أخيه .
و لرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه لاعِبه وأنا معَك،فقال أخو لا،.

١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة .

وقال هو نعم ؟ فناصب صفتاً فيه ابوه وأخوه؟ فقلت : أحسنتِ ،والله وإنكِ لأفضى من الشعبي ، ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خَفي مِثلُ هذا على جعفر ؟ وقد فطِن له اخوه ،فقالت :لولا العَزْمة لما خبرتُك إن أباهما لما خرج، قلت للفضل «خالية به» :ما منعَك من إدخال السرور على ابيك بملاعبةِ أخيك؟ فقال : أمران ، احدهما : لو أني لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثاني قولُ أبي لاعِبْه وأنا معك؛فما يسرُّني ان يكون ابي معي على اخي ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل ابوك عن اللعب بالشطرَنج فيصمُت اخوك وتعترف ، وابوك صاحب جدّ ؟ فقال: إني سمعت ابي يقول نِعْم لَهْوُ البال المكدود[١]،وقد علِم ما نلقاه من كدّ التعلم والتأدب ولم آمَنْ أن يكون بلغه أنّا نلعبُ بها ، ولا ان يُبادر فيُنكر، فبادرتُ بالإقرار إشفاقاً على نفسي وعليه ،إن كان توبيخٌ فدَيته من المواجهة به. فقلت له يا بنيّ ، فلم تقول ألاعبه مُخاطرة ! كأنك تقامر اخاك وتستكثرُ ماله ،فقال: كلا. ولكنه يستحسنُ الدواةَ التي وهبها لي امير المؤمنين فعرَضْتها عليه فأبى قبولها ، وطمعتُ ان يُلاعِبني فأخاطرهُ عليها ،وهو يَغلبني فتطيب نفسه بأخذها ، فقلت لها : يا أُماه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفراً دخل على أمير المؤمنين ، فرأى بين يديه دواةً من العقيق الأحمر ، مُحلاّة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له فقلت: إيهِ . فقالت : ثم قلت لجعفر : هبكَ اعتذرْتَ بما سمِعت . فما عذرُك من الرضا بمناصبة ابيك حين قال لاعِبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا ؟ فقال : عرفتُ أنه غالبي ، ولو فتَرَ لعِبه لتغالبت له ، مع مالنّه من الشرف والسرور بتحيُّز أبيه إليه . قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بَخٍ بَخٍ[٢] هذه والله السيادة ثم قلت لها : يا أُماه — أكان منهما مَن بلغ الحُلم ؟ فقالت : يا بني ، أين يُذهَب

---

(١) كده : أجهده وأتعبه .

(٢) يقال : بخ بخ — وبخ بخ : إعجاباً بالشيء وإظهاراً للسرور به

بك ! أُخبرُك عن صبيين يلعبان، فتقول : « أكان منهما من بلغ الحُلم »؟! لقد كنا ننهى الصبيّ إذا بلغ العشْر ، وحضر من يُستَحى منه ، أن يَبتسم .

براعة الرشيد في الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يُضاحك المأمون فقال : اللهم زِدْهُ من الخيرات ، وابسُط له من البركات ، حتى يكونَ في كل يومٍ من أيامه مرْبياً على أمسِه ، مقصّراً عن غده .

فقال له الرشيد يا سهل، مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه، ومن الحديث أفصحَه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .

فقال سهل : يا امير المومنين ما ظننتُ ان احداً تمدّمني إلى هذا المعنى. قال بل أعشى همدان حيث يقول :

رأيتُك أمسِ خير بني لُؤَيٍّ وأنت اليومَ خيرٌ منك أمسِ
وأنتَ غداً تزيد الخيرَ ضِعفاً كذاك تزيدُ سادةُ عبد شمسِ

الواثق وابن أبي دُؤاد

قال ابو العيناء : دخل ابنُ أبي دُؤاد على الواثق فقال له : ما زال اليومَ قومٌ في ثلبك ونقصِك . فقال : يا أمير المؤمنين ، لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولى كِبره منهم له عذابٌ عظيم، والله وليُّ جزائه ، وعقابُ أمير المؤمنين من ورائه، وما ذَلّ يا أمير المؤمنين مَن كنتَ ناصرَه، ولا ضاع من كنت حافِظه ، فماذا قلت لهم يا امير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبدالله :

وسعى إليّ بعَيبِ «عزّة» معشرٌ جعل الإلهُ خدُودهُن نِعالَها

المنصور والربيع بن يونس [1]

قال سعيد بن مُسلم بن قتيْبة دعا المنصور بالربيع فقال : سَلني مــا تريد ؟ فقد سكتَّ حتى نطقت [2] وخففْتَ حتى ثقلت ، وأقللتَ حتى أكثرْتَ . فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما أرْهَبُ بخلك ، ولا أستقصِرُ عمرَك ، ولا أستصغرُ فضلك ، ولا أغتنمُ مالكَ ، وإن يوميَّ بفَضْلك عليَّ أحسن من أمسي ، وغدُك في تأميلي أحسنُ من يومي ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما سَبقني في ذلك احد .

قال : صدقت . عِلمي بهذا منك أحَلَّك هذا المحل ، فسَلني ما شئت !

قال : أسألك أن تقرّب عبدَك « الفضل » وتُؤْثِرَه وتحبه

قال : يا ربيع ، إن الحبّ ليس بمال يوهب ، ولا رُتبة تُبذل ، وإنما تؤكده الأسباب .

قال : فاجعل لي طريقاً إليه بالتفضل عليه .

قال : صدقت وقد وصلتُه بألف الف درهم ، ولما أصِلْ بهذا احداً غير عمومتي لتعلّم ما له عندي ، فيكون منه ما يستدعي به محبتي . وكيف سألت له المحبة يا ربيع ؟.

قال : لأنها مِفتاح كل خيرٍ ، ومغلاقُ كل شرّ ، تستتر بهــا عندك عُيوبــه وتصير حسنات ذنوبه . قال : صدقت ، وأتيتَ بما أردت .

الأعرابي السائل

وقفَ أعرابي يسألُ ، فعبِثَ به فتى ، وقال : مِمَّنْ انت ؟

فقال الأعرابي : من بني عامر بن صعْصعة قال من أيهم ؟.

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور ، توفي سنة ١٧٠ هـ .

(٢) يقول : إنك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام السكوت مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده .

قال : إن كنت أردتَ عاطفة القرابة فليكفك هذا المقدارُ من المعرفة،ليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا اقول : فإن لم أكن من هاماتهم [1] فلست من أعجازهم .

فقال الفتى : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص في حَسَبك .

فامْتعض[2] الأعرابي لذلك ، فجعل الفتى يعتذرُ ، ويخلِط الهزْلَ والدُّعابة[3] باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتني بمزحك ، وقطعتني عن مسألتي بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكوتُ يستره من أمرك ، ويحَكَ ، إن الجاهل إن مزَح أسخط وإن اعتذر أفرط ، وإن حدَّث أسقط[4] ،وإن قدَّرَ تسلط، وإنْ عزمَ على أمر توَرّط [5] ، وإن جلس مجلس الوقار تبَسّط [6] ، أعوذ منك ومن حالٍ اضطرّتني إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عزَم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يوجِّه إليه بوفد أهل العراق فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ،فتكلّمتْ الخطباء في يزيد والأحنفُ ابن قيس ساكتٌ ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بحر فإن العيون إليك أشرعُ [7] منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحمِدَ الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين،إنك أعلَمُنا بيزيد في ليلِه ونهاره ، وإعلانه وإسراره،فإن

---

(١) الهامات : الرءوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة اللعب والمزاح
(٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط في الأمر : وقع وارتبك (٦) تبسط : اكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشرع : ارفع واكثر نظراً .

كنتَ تعلمُه لله رضاً ، فلا تُشاورْ فيه احداً ، ولا تُقِم له الخطباءَ والشعراء ، وإن كنتَ تعلم بُعدَه من الله ، فلا تُزوِّدْه من الدنيا وترْحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم يفِرُّ المرء من اخيه ، وأمّه وأبيه ، وصاحِبَتِه وبنيه . فكأنه أفرغ على معاوية ذَنوب [1] ماءٍ بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بحر ، فإنّ خيرةَ الله تجري ، وقضاءه يمضي ، وأحكامه تَنفُذُ ، ولا مُعقِّب لحُكمه ، ولا رادّ لقضائه ، وإن « يزيد » فتى بَلوْناه ولم نجدْ في قريش فتىً هو أجدر بأن يُجتمع عليه منه .

فقال : يا امير المؤمنين . أنت تحْكي عن شاهد ، ونحن نتكلم عن غائب وإذا أراد الله شيئاً كان .

الحجاج ورسول المهلّب

يُروى أن المهلبَ [3] لما فرَغ من امْرِ عبد ربّه الحرُوري [4] ، دعا بِشر بن [5] مالك . فأنفذَه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال . ما اسمُك ؟ قال : بِشر بن مالك ، فقال الحجاج : بشارةٌ ومُلك ، كيف خلّفتَ المُهلب ؟ قال خلّفته وقد أمِنَ ما خاف ، وأدْرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البُداءة لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجُند ؟ قال : وسِعَتهم الحق وأغناهم النفل [6] ، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاتل

---

(١) الذنوب : الدلو الملأى ، جمعه أذنبة وذنائب (٢) اي لا راد لقضائه

(٣) هو المهلب بن ابي صفرة الأزدي . كان شجاعاً مهيباً وقائداً من اكبر قواد الجيوش في الدولة الأموية ، وهو الذي شتت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفي ٨٣ (٤) الحروري نسبة إلى حروراء على غير القياس وهي بلدة بقرب الكوفة ، والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا في زهر الآداب ، وفي تاريخ ابن خلكان ان اسم الرسول مالك بن بشير (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال .

بهم قتال الصعلوك، فلهم منه برّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رُعاة البيات حتى يأمنوا، وحُماة السرح[1] حتى يردوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال وأنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحلقة المفرغة[2] لا يُدرى أين طرفاها، قال: ويحكَ! أكُنتَ أعددتَ لهذا المقام هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال الحجاج لجلسائه هذا - والله - الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

حديث معاوية وليلى[3] الأخيلية

قال بعضُ الرُّواه. بينا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطه ائتني به وإياك أن تروعه. فأتاه فقال: أجب امير المؤمنين، فقال إياه أردتُ، فلما دنا الراكبُ حدَّرَ لثامه، فإذا ليلى الأخيليّة. فأنشأت تقول:

مُعاويَ لم أكد آتيك تهوي برَحْلي نحو ساحتِك الرِّكابُ
تجوبُ الأرض نحوَك ما تأنى إذا ما الأكْم قنّعها السَّراب[4]
وكنت ارتجى وبك استعاذت لِتنعشها إذا بَخِلَ السَّحابُ

فقال: ما حاجتُكِ؟ قالت: ليس مِثلي يطلبُ إلى مثلك حاجة، فتخير أنت اعلى عيناً، فأعطاها خمسين من الإبل، ثم قال: أخبريني عن مُضر، قالت فاخِرْ بمضر، وحارِبْ بقيس، وكاثِر بتميم، وناظِرْ بأسد[5].

فقال: ويحكِ يا ليلى؟ أكما يقول ناس كان توبة؟ قالت: يا أمير المؤمنين

(١) السرح: الماشية في المرعى (٢) الحلقة المفرغة: المصبوبة قطعة واحدة، وهذه الجملة مثل: لا امرأة عربية (٣) ليلى الأخيلية: أشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكم: واحده أكمة - وسكنت الكاف للوزن - تقول: إن ركابها تجول في الأرض قاصدة معاوية، ولا تتأبى عند اشتداد الحر اذ تتغطى الآكام بالسراب (٥) مضر: اصل لقيس وتميم وأسد. تقول. ان مضر ذات مجد عظيم وقيس أهل البسالة والإقدام وتميم ذوو الكثرة والعدد واسد اهل الحجة واللدد.

ليس كلُّ الناس يقولُ حقاً،الناس شَجَرة بغي يحْسُدون النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبْط البنان ، حَديد اللسان ، شجى الأقران، كريم المخبر ، عفيف المئزَر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أبعُدْ عن الحق فيه :

بعيدَ المدى لا يبلُغُ القَرْم غوْرَه ، ألدُّ مَلدٌّ يغلِب الحق باطله [١]

فقال معاوية : ويحكِ يا ليلى ! يزعم الناس أنه كان عاهِراً فاجراً . فقالت من ساعتها مرتجلة :

مَعاذ النُّهى قد كان والله توبةٌ جواداً على العلاّت جمّاً نوافِلُه [٢]
أغرّ خفَاجيّاً يرى البخل سُبّةً تحالف كفاه النّدى وأنامِلُهْ
عفيفاً بعيد الهم صُلباً قنَاتُه جميلاً مُحيّاه قليلاً غوائلُهْ [٣]
وكان إذا ما الضيفُ أرغى بعيرُه لديه أتاهُ نيلُه وفواضِلُهْ
وقد علِم الجدْبُ الذي كان سارياً على الضيفِ والجيرانِ أنك قاتلُهْ
وأنك رَحْب الباع يا توبَ بالقرى إذا ما لئيم القَوْم ضاقتْ منازلُهْ
يبيتُ قريرَ العين من كان جاره ويُضحي بخير ضيفه ومُنازله

فقال لها معاوية وَيحَكِ يا ليلى! لقد جُزْتِ بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين،والله لو رأيْتَه وخبرته لعلمْتَ أني مُقصّرة في نعته،لا أبلغ كُنْهَ ماهو له أهلٌ ، فقال لها معاوية : في أي سِن كان توبة ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :

أتته المنايا حين تمّ تمَامه وأقصَرَ عنه كل قِرن يُناضلُهْ
وصار كلَيْثِ الغاب يحمي عَرينه فترضى به أشبالُه وحلائلُهْ

---

(١) القرم السيد ، والألد : الشديد الخصومة ، والملد مبالغة في الألد تقول: لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق .

(٢) على العلات : اي على كل حال . والنوافل العطايا .

(٣) الغوائل : الدواهي : وفلان قليل الغوائل . اي ليس فيه ما يعيبه المشير .

عطوفٌ حليمٌ حين يُطلب حلمه وسُمٌّ زُعافٌ لا تصاب مقاتله

فأمر لها بجائزة، وقال: أيّ! ما قلتِ فيه أشعر.

قالت: يا امير المؤمنين، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثرَ ولقد أجدتُ حيث أقول:

جزَى اللهُ خيراً والجزاءُ بكفه فتىً من عقيل ساد غيرَ مكلف
فتىً كانت الدُّنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفكّ جَمّ التصرُّف
ينال عليّات الأمور بهَوْنةٍ إذاهي أعيَت كلَّ خِرقٍ مُسوِّف[1]

الحارث[2] بن عوف المري ومصاهرته أوس[3] بن حارثة الطائي

يرْوى أن الحارثَ بن عوف المُرْي قال يوماً لخارجة بن سنان المرّي. أتراني أخطب إلى أحد فيردّني؟ قال: نعم، قال: ومن ذاك؟ قال: أوْسُ بن حارثة بن لأْم الطائي. فقال الحارث لغلامه ارْحلْ بنا. ففعل. فركبا حتى أتيا أوساً فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، قال وبك. قال: ما جاء بك! قال: جئتك خاطباً، قال: لسْتَ[4] هناك، فانصرف ولم يُكلمه. ودخل أوسٌ على امرأتهِ مُغضَباً — وكانت من بني عبْسٍ[5] — فقالت: مَنْ

(١) الهونة: التؤدة والخرق، الفتى الحسن الكريم السجايا والمسوف: من يصنع ما شاء لا يرده أحد.

(٢) هو أحد عظماء ذبيان ومرة: بطن من ذبيان. والحارث أحد السيدين اللذان سعيا في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي دامت نحو اربعين سنة وقد احتملا في مالها خاصة غرامة تلك الحرب.

(٣) هو سيد طيء في زمانه، وفيه يقول الشاعر:

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي فيمن قضاها
فما وطىء الحصا مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) اي لست كفؤاً (٥) عبس وذبيان أبناء عم.

الرجل الذي وقف عليك فلم يُطِل ولم تكلمه ؟ قال ذاك سيد العرب الحارث ابن عوف المرّي ، قالت فما لك لا تستنزله ؟ قال : إنه استحمق ١، قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً ، قالت : أوتريد ان تزوّج بناتك ؟ قال : نعم ، قالت فإذا لم تزوّج سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كان ذلك ، قالت : فتدارك ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فترده ؟ قال : وكيف وقد فرطَ مني ما فرط إليه ؟ قالت ، تقول له : إنك لقيتني مُقتضباً ٢ بأمر لم يتقدم مني فيه قول ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فانصرف ولك عندي كل ما أحببت ! فإنه سيفعلُ ، فركب في أثرهما ، قال خارجة بن سنان : فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مني التفاتة ، فرأيته فأقبلت على الحارث وما يكلمني غمّاً ، فقلت له : هذا أوسُ بن حارثة في أثرنا قال وما نصنعُ به ؟ امضِ ، فلما رآنا لا نقف عليه ، صاحَ ، يا حارثُ أربع ٣ على ساعة ، فوقفنا له ، فكلمنا بذلك الكلام ، فرجعَ مسروراً .

فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ، ادعي لي فلانة -لأكبر بناته فأتته ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب ، قد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت ان أزوجك منه ، فما تقولين؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولِمَ ؟ قالت : لأني امرأة في وجهي ردّة ٤ وفي خلقي بعض العُهدة ٥ ، ولست بابنة عمه فيرعى رحمي ، وليس بجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمنُ ان يرى مني ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله عليك ادعي لي فلانة ، لابنته الوسطى ، فدعتها ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خرقاء ٦ وليست بيدي صناعة ، ولا آمنُ ان يرى

(١) استحمق ، فعل فعل الحمقى (٢) الاقتضاب ، المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف او مال اليه (٤) يقال في وجهه ردة ، أي قبح مع شيء من الجمال (٥) العهدة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التي لا تحسن صنعة .

مني ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلمُ ، وليس بابن عمي فيرعى حقي ولا جارك في بلدك فيستحييك ، قال : قومي بارك الله عليك ، ادعي لي « بُهَيسة » – يعني الصغرى – فأتى بها ، فقال لها كما قال لهما ، فقالت : أنت وذاك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيكِ فأبتاه ، فقالت – ولم يذكر لها مقالتيهما : لكني والله الجميلة وجهاً ، الصناع [1] يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسيبة أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجة ، ثم خرج الينا فقال : قد زوجتك يا حارث « بُهيسة » بنت أوس قال : قبلت ، ثم أمر أمَّها ان تهيّئها ، وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فضُرب [2] له ، وأنزله إياه ، فلما هُيِّئت بعث بها اليه ، فلم يلبث عندها لاهُنيهة [3] ثم خرج إلي ، فقلت : بنيت بأهلك ؟ قال : لا والله ، فإني لما دَنوْتُ منها قالت : مَهْ أعِنْدَ ابي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون ، قال خارجة : ثم ارتحلنا بها فسِرْنا ما شاء الله ثم انتحى بها ناحيةً ، ولم يلبث ان عاد إلي ، فقلت : أبَنَيت بأهلك ؟ قال : لا والله فقد قالت أكما يُفعل بالأمة الجليبة [4] ؟ والسبية الأخيذة [5] ؟ لا والله حتى ينحر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يُعمل لمثلي ، قلت : والله إني لأرى همة وعقلاً ، وارجو ان تكون المرأة مُنجِبة إن شاء الله ، فرحلنا حتى قدمنا وأحضَرَ الإبل والغنم ، ثم خلا بها ولم يَلبث أن خرج فقلت : أبنيت بأهلك ؟ قال : لا – فقد قلت لها احضرنا من المال ما قد تريدين ، فقالت : والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا اراه فيك . قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغُ للنساء والعرب يقتلُ بعضها بعضاً ؟ – وذلك في أيام حرب عَبس وذبيان – قلت : فماذا تريدين ؟ قالت : اخرج الى هؤلاء القوم

(١) امرأة صناع ، حاذقة في الصناعة
(٢) ضرب : أقيم ، وبني له بيته
(٣) الهنيهة : الزمن اليسير
(٤) الجليبة ، المجلوبة
(٥) الأخيذة ، المأخوذة .

فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك ، قال خارجة ، فقلت : والله إني لأرى همة وعقلا ، قال : ما اخْرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصُّلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجمل الذكر [1]

ولو كان النساء – كمثل هذي – لفُضِّلَت النساء على الرجالِ

سَوْدة بنت عمارة ومعاوية

قال عامر الشعبي : وفدتْ سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمَدانية على معاوية ابن أبي سُفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها : كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين ، قال لها أنت القائلة لأخيك :

شمِّر لفعل أبيك يا بن عمارة يوم الطِّعانَ وملتقى الأقرانِ
وانصر علياً والحسينَ ورهطَه واقصد لهند [2] وابنها بهوان
إن الإمام أخا النبيّ محمد عَلمُ الهدى ومنارةُ الإيمانِ
فقُدِ الجيوشَ وسِر أمام لوائه قُدُماً بأبيض صارم وسنانِ

قالت يا امير المؤمنين مات الرأس وبُتر الذنب ، فدَع عنك تذكارَ ما قد نُسي ، قال : هيهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي ، قالت : صدقت ، والله يا امير المؤمنين ، ما كان اخي خفي المقام ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به كأنه علَمٌ في رأسه نارُ

وبالله أسألك يا امير المؤمنين إعفائي مما استعفيته ، قال : فعلت ، فقولي حاجتك ، قالت :

---

(١) وقد خلد زهير هذا الذكر الجميل في معلقته اذ يقول من ابيات كثيرة :

يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

(٢) هند : هي أم معاوية .

يا أمير المؤمنين ، إنك للناس سيد ، ولأمورهم مُقَلَّد ، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدمُ علينا من ينهض بعزِّك ، ويَبسُط بسلطانك ، فيحصدنا حصاد السُّنبُل ، ويدوسنا دياس البقر ، ويسومنا الخسيسة [1] ويسألنا الجليلة ، هذا ابن أرطاة ، قَدِم بلادي ، وقتل رجالي ، وأخذ مالي ، ولولا الطاعة ، لكان فينا عِزّاً ومنعةً ، فإما عزلته فشكرناك ، وإمّا لا فعرفناك ، فقال معاوية : أإياي تُهَدِدين بقومك ؟ والله لقد هَمَمت أن أرُدّك اليه على قَتَب أشرس [2] فيُنفذ حكمه فيك ، فسكتت ، ثم قالت :

صَلى الإله على روح تَضَمَّنَه قبرٌ فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحق لا يبغي به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذلك؟ قالت : عليّ بن أبي طالب ، قال : ما أرى عليك منه أثراً ، قالت : بلى ، أتيته يوماً في رجل ولاّه صدقاتنا ، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين ، فوجدته قائماً يُصلي فانفتل [3] عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطّف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه الى السماء وقال : اللهم اني لم آمرهم بظلم خَلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعةً من جِراب ، فكتب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم « قد جاءكم بيّنة من ربكم فأوفوا الكيلَ والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثَوا في الأرض مُفسدين ، بَقيّة الله خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ » إذا أتاك كتابي هذا فاحتفِظْ بما في يَدَيك حتى يأتي من يَقبِضهُ منك والسلام فعز له يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها ، فقالت : أَلِيَ خاصة أم لقومي عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذنْ

(١) سامه الأمر : كلفه إياه . تقول : يجشمنا دنايا الأمور .
(٢) القتب : الرحل الصغير ، والأشرس : الخشن الغليظ .
(٣) انفتل ، انصرف .

الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قومي ، قال : هيهات ، لمظكم [١] ابن أبي طالب الجرأة ، وغرّكم قوله :

فلوْ كنت بواباً على باب جنّةٍ لقلت لهَمْدان ادخلوا بسلام

وقوله :

ناديتُ هَمْدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سنى فتحةُ الباب
كالهنْدُواني لم تفلل مضاربه وجهٌ جميل وقلب غير وَجّاب

اكتبوا لها بحاجتها .

أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أبي حُذافة . حبس مروان وهو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها ، فأتته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت جُشَمَة المدحجية فكلمته في الغلام ، فأغلظ مروان لها ، فخرجت الى معاوية فدخلت عليه فانتسبت فعرفها فقال مرحباً بابنة جشمة ،ما أقدمك أرضنا ،وقد عهدتك تشتميننا وتحضّين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبَني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ، وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يَسفَهون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وان أولى الناس باتباع ما سنّ آباؤه لأنت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك :

عَزَبَ الرُّقاد فمقلتي لا ترقُد والليل يُصدر بالهموم ويُوردُ
يا آل مذْحج لا مُقام فشمِّروا إن العدوّ لآل أحمد يقصدُ
هذا عليّ كالهلال تحُفّه وسط السماء من الكواكب أسعُدُ
خيرُ الخلائفِ وابن عم محمد إن يهدكُم بالنور منه تهتَدوا
ما زال مذ شهد الحروب مُظفّراً والنصر دون لوائه ما يفقدُ

(١) لمظه الشيء : منحه اياه .

قالت . كان ذلك يا أمير المؤمنين – وأرجو أن تكون لنا خلفاً. فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة .

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعرَف هادياً مَهْدِيا
فاذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوقَ الغُصون حمامةٌ قَمْرِيّا
قد كنت بعدُ محمد خَلَفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيا
واليومَ لا خلفٌ يُؤَمل بعدهُ هيهات نأمـلُ بعدهُ إنسيّا

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظنننا فحظّك الأوفر ،والله ما ورّثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحِض مقالتهم ، وأبعد منزلتهمٌ فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً ومن المؤمنين حبّاً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله ما مثلك مدح بباطل ولا اعتُذِر إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا

شكراً لربي الذي أعانني على طبع الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله : « الفن السابع في التاريخ »



تأليف

المرحوم السيد أحمد الهاشمي

الجزء الثاني

منشورات
مؤسسة المعارف
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الفن السابع في تاريخ أدب اللغة العربية

وفيه مقدمات عشر

المقدمة الأولى في التاريخ

التاريخ : هو معرفة أخبار الماضين وأحوالهم من حيث معيشتهم ، وسياستهم ، واعتقادهم ، وأدبهم ، ولغتهم .

والأدب : (كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل) وهذه الرياضة كما تكون بالفعل ، وحسن النظر ، والمحاكاة ، تكون أيضاً بمزاولة الأقوال الحكمية التي تضمنتها لغة أي أمة .

واللغة : ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهي من الأوضاع البشرية.

وأدب لغة أي أمة : هو ما أودع شعرها ونثرها من نتائج عقول أبنائها وصور أخيلتهم وطباعهم . مما شأنه أن يهذب النفس ، ويثقف العقل ، ويقوم اللسان .

وتاريخ أدب اللغة : هو العلم الباحث عن أحوال اللغة ، نثرها ونظمها في عصورها المختلفة من حيث رفعتها وضعتها ، وعما كان لنابغيها من التأثير البين فيها .

واللغة العربية إحدى اللغات السامية ، وهي لغة أمة العرب القديمة العهد الشائعة الذكر ، التي كانت تسكن الجزيرة المنسوبة إليها في الطرف الغربي من آسيا .

وهذه الأمة : منها القدماء ، وهم الذين يسكنون تلك الجزيرة ، وينطقون باللغة العربية سليقة وطبعاً ، وهم ثلاث طبقات :

أولاها : العرب البائدة ، وهؤلاء لم يصل إلينا شيء صحيح عن أخبارهم إلا ما قصه الله علينا في القرآن الكريم ، وإلا ما جاء في الحديث النبوي ، ومن أشهر قبائلهم : طسم ، وجديس ، وعاد ، وثمود ، وعمليق ، وعبد ضخم .

وثانيتُها - العرب العارِبة : وهم بنو قحطان الذين اختاروا اليمن منازلَ لهم ومن أمهات قبائلهم : كهلان وحِمْيَر .

وثالثتها - العرَب المستَعرِبة : وهم بنو إسماعيل الطارئون على القحطانيين والممتزجون بهم لغة ونسباً ، والمعروفون بعدُ بالعدنانيين ، ومن أمهات قبائلهم ربيعة ، ومُضَر ، وإيادٌ ، ونزار .

ومنهـــا المحدَثون : وهم سلائل هؤلاء الأقوام الممتزجون بسلائل غيرِهم والمنتشرون بعد الإسلام في بِقاع الأرض من المحيط الأخضر (الأطلنطي) إلى ما وراء بحر فارس ودِجلةَ ؛ ومن أعالي النهرين إلى ما وراء جاوه وسُومَطْرة .

المقدمة الثانية في توضيح بعض ما في المقدمة الأولى

اعلم أنه يوجَدُ في الجنوب الغربي من آسيا إقليم واسع الأرجاء، تبلغ مساحته رُبعَ أوربا تقريباً ، تَساهل الأقدمون فسمَّوْه « جزيرة العرب » مع أن الماء لم يحط به من جميع جهاتِه .

يتألف غربي هذا الإقليم من جزأين شهيرين : الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً ، أما الحجاز فقطر فقير ، قلّت مياهه ، وأجدَبت أرضُه ، واشتدت حرارته ، يعتمد أهله على الأودية القليلة ، والآبار الشحيحة ، لم يستطيعوا أن ينتفعوا كثيراً بالماء الذي يَنزلُ منَ السماء ، لأنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم منَ اختزانـــه واستخدامه عند الحاجةِ إليه ، وأشهر مُدنه مكة والمدينة والطائف .

وأما اليمن فقد اشتهرَ قديماً بالغنى والخِصب والحضارة ، كثرت أمطاره وسيوله وعَرَفَ أهله بما أوتوا من فن أن ينتفعوا بها ، فأنشأوا السدود يسيطرون بها على الماء جَمعاً وتصريفاً ؛ وأشهرُ مدنه صنعاءُ ، ونجران ، وعدن .

وهذان القطران ، أعني - الحجاز واليمن - أبعدُ البلادِ أثراً في حياةِ العرب وفي تاريخهم السياسي ، والاقتصادي ، والأدبي .

وإذا وقع نظرك على (مصور) جزيرة العرب فأبْيَنُ ما ترى فيها وأبعده مدًى صحْراؤها في داخلها. وهي متنوعة في طبيعتها، فسهلة لينة حيناً، وصلبة انتثرت فيها الحصباء حيناً، ومفروشة بحجارة سوداء تسمى الحرار حيناً. وهذه الصحراء في جملتها قفر، تسطع الشمس عليها في الحر فتلفح ارضهـــا وأهلها، ويعتمد ساكنوها على ما تُنبته البِقاع عقِب المطر فترعاه إبلهم وشياههم؛ وهم يأكلون من لحومها، ويشرَبون من ألبانها، ويَلبسون من أصوافها وأوبارها.

المقدمة الثالثة في نسب سكان جزيرة العرب

اعتاد النسّابون أن يقسّموا الشعوب إلى أجناس، ويُسمُّوا كل جنس باسم خاص يجمعها؛ فاعتادوا أن يُسَمُّوا الجنس الذي منه العرب (الجنسَ الساميَّ) نسبة إلى (سام بن نوح) عليه السلام، وعدُّوا من هذا الجنس البابليين والأشوريين والعبرانيين والفينيقيين والآرميين والحبشيين. ولكن هذا كله لا يزال موضع خلاف بين علماء الأنساب؛ كما اختلفوا في ان أصل (الجنس السّامي) نشأ في آسيا (في جزيرة العرب او أرمينية أو على شاطىء الفرات او نشأ في إفريقية ثم نزح منها إلى آسيا.

ومن قديمٍ وهؤلاء العربُ ينقسمون إلى عرب الشمال (الحجازيين) وعرب الجنــوب (اليمانيين) ويذكر النسّابون أن عرب الشمال يرجعون في نسَبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الســلام، ويُسمون النزاريين نسبة إلى نزار من نَسْل إسماعيل وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويسمون اليمانيين أو القحطانين، وبين هذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلى أن عرب الحجاز تغْلب عليهم عيشة البداوةِ، وعرب اليمن يعيشون عيشة حَضارة.

ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسبُ، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولا يتعدونها، بل نعني أن كلاً من الحجازيين واليمانيين عُنصر

يختلف في نَسبه ودمه عن العنصر الآخر، ولكن كانت بين العنصرين صلاتٌ، ورَحل قوم من كل فريق إلى موطن الآخر لأسباب يطول ذكرها، فكان في الحجاز عرب من اليمن وكان في اليمن عرب من الحجاز.

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلى قبائل.

فاليمانيون: يتفرّعون إلى فرعين كبيرين: شعب كهلان وشعب حِمْير

فشعب كهلان: أشهر قبائله طيِّىء، وهَمْدان، ولخم، وكِندة.

وشعب حِمْير: أشهر قبائله قُضاعة، وتنوخ، وكلب.

والحجاريون: كذلك ينقسمون إلى قسمين كبيرين: ربيعة، ومُضر

فشعب ربيعة، أشهر قبائله: بَكر وتَغلِب.

وشعب مُضَرَ، أشهر قبائله: قيس، وتميم، وهُذيل، وكنانة، وقرَيش، وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى بطون وأفخاذ يطول عدّها، وكان بين هذه القبائل حتى ما كان منها من أصل واحد — من الحروب، والمنازعات، والتهاجي ما ملئت به كتب التاريخ والأدب.

المقدمة الرابعة في اللغة العربية

وإذ قد ذكرنا قبلُ أنّ العرب والعبرانيين ومن إليهم يُعدُّون (ساميين) فلغاتهم التي يتكلمون بها تُسمى (لغات سامية). فاللغة العربية إحدى اللغات السامية وقد عُرفت على النحو الذي نعلمه، حول آخر القرن الخامس للميلاد.

ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات إلى أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلى اللغة الأصلية التي تفرّعت منها اللغات السامية، نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين اليها، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم.

وكما انقسم العرب إلى حجازيين ويمانيين انقسمت لغتهم إلى مُضريّة، وحِمْيريّة وكانت هناك فُروق بين اللغتين عظيمةٌ في الألفاظِ اللغوية، وفي الصِّيغ، وفي

التراكيب ، وفي اللهجات ؛ ولكن حدث قبيل الإسلام أن أخذت لغة الحجاز وبعبارة أدق (لغة قريش)، تسود وما زالت كذلك حتى ظفرت باللغة الحميرية، وحتى صارت (لغة قريش) هي لغة جزيرة العرب جميعها . وقد دعا إلى هذه الظاهرة أسباب سياسية ، ودينية ، واقتصادية — ستأتي الإشارة اليها بعد .

المقدمة الخامسة في تاريخ الأمة العربية

ليس تاريخ الأمّة العربية قبل الإسلام معروفاً محققاً، لأن أكثر الأمّة كانوا أهل بَدْو لم تمكنهم بداوتهم من أن يدوّنوا تاريخَهُمْ، أو ينقشوا حوادِثهم حتى أنّ الذين تحضروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم ، وإنما يَعْتَمِدُ الذين يؤرّخون للعرب قبل الإسلام على هذا القليل من الآثار، وعلى ما كتبه أهل عصرهم من الأمم الأخرى كاليونان والرومان والمصريين ، والعبريين، والحبشيين، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أدبية . ولنقصر الآن كلامنا على حالة العرب قُبيل الإسلام ، فإن اللغة العربية التي نعنى بآدابها وتاريخها إنما عُرفت في هذا العصر .

هذا العصر سمّاه القرآن الكريم (الجاهلية) ونَسَبْنا إليه فقلنا : العصر الجاهلي ، والأدب الجاهلي ؛ وقد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد العلم لما كان يغلبُ فيه من السفه والفخر والأنساب والإمعان في سفك الدّماء والعصبية الحادّة ونحو ذلك مما كرهَهُ الإسلام ونفر منه ، وقد نُقل إلينا كثير مما يدُل على حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأمثال وقصص . ولكنها كلها لم تُدَوّن في الكتب إلا في القرن الثاني والثالث للهجرة ، فكان بعضها مثاراً لنقد الناقدين وأخذ العلماء والأدباء من قديم يمحّصونها ويصحّحون بعضاً ويكذبون بعضاً ، ولكن بجانب ذلك وَرَد كثير من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروي لنا الشيء الكثير عن هذه الحياة الجاهلية ، ويكشفُ

لنا من غموضها

يدلنا ما صحّ من تاريخهم على أنه قد أُنشىء على تُخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان : إمارةُ الحيرة في العراق بجوار الفرس ، وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الرومان ، وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون في نظامهم نظام الدول المجاورة لهم . فإمارة الحيرة تتبع في كثير من شئونها نظام الفرْس وإمارة الغساسنة تتبع في كثير من شئونها نظام الرومان .

وكان سُكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن في الجنوب يعيشون عيشة حضارة يزرعون ويصنعون ، وكثير من سادتهم مُترَفون ، وقد رُوي لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسنة في الشام ، وعن حضارة الحيريين ، وما كان لهم من خَوَرْنَق وسدير .

أما داخل الجزيرة والحجاز ، إذا أنت استثنيتَ بعض سكان المدن المشهورة — كمكة ويَثرب والطائف — فكانوا أهل بدْو يحتقرون الزراعة والصناعة والتجارة ويعتمدون في معيشتهم على الإبل ، ويُوغلون بها في الصحراء ، ويتطلبون منابت العُشب ، ومراعي الشجر ، ومواد الماء ، ويأكلون مما تخرجه الأنعام .

المقدمة السادسة في حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة يعيشون عيشة قبائل ، فالقبيلة هي الوحدة التي يُبنى عليها نظام حياتهم ، وأفرادُ القبيلة ينتسبون إلى أبٍ واحد ، وقلّ أن ينتسب إليها من لم يُساهمها في نسَبها إلا عن طريق الحلف أو الولاء [1] .

تسود أفراد القبيلة فكرةُ العصبية ، فكلُّ فرد يتعصب لقبيلته ويُعنى بحفظ

---

(١) كان الأسير من قبيلة أخرى اذا لم يستطع فداء نفسه يسمونه بسمة القبيلة التي أسرته ، ويسمى حليفاً لها . وكانوا يجيزون استرقاق الأسرى ، فإذا عتق الأسير ظلت هناك صلة بين المعتِق والمعتَق ، وهذه الصلة تسمى الولاء .

نسبه ويفتخر به ، ويحنو على من يُشاركه ، ويسير على منهج قبيلته ، سواء أصابت أم أخطأت ، ومن هذه الظاهرة قول القائل :

وما أنا إلا من غزيّةَ إن غوَت   غوَيتُ وإنْ ترشد غزية أرشُدِ

والقبيلة تحميه من العدوان ، وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه ، ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ، وهو مرجعُ الأفراد في إقامة العدل بينهم على حسب عرْفهم وتقليدهم .

وعلاقة القبيلة بغيرها من القبائل علاقة عداء غالباً — تُغيرُ عليها ، وتغنم من مالها ورجالها ، والأخرى تتربص بها الدوائر لتنتقم منها :

يُغار علينـا واترين فيُشتفى   بنا إن أصبنا أو نُغير على وترِ [1]
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننـا   فما ينقضي إلا ونحن على شطر

ولم تكن للعرب في الجاهلية عدا من ذكرنا قبلُ حكومة تسيطر عليهم جميعاً وتشرف على شئونهم ، لأن شرط قيام الحكومة انتساب الأفراد الى المواطن ، لا الى القبائل ، وانحلال العصبيات وقيام الجامعة الوطنية أو الدينية مقام العصبية القَبَليّة ، وهي أمور لم تتوافر للعرب في جاهليتها .

كانت القبيلة تنقسم عندهم الى أسر ، ونظام الأسرة كان في هـذا الطور هو المعروف عند علماء الاجتماع : بطوْر السلطة الأبوية ، اذ كان الأب فيهـا واسع السلطان نافذَ الكلمة على كل افراد الأسرة ، يتصرّف في مالهم وفي شئونهم ويقطع في الأمور دونهم ، وهو المرْجع الأعلى لهم جميعاً ، وكان بعض هذه الأسر تمتاز بصفات ، وأعمـال تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم ، وبيت أميّة في قريش ، وبيت زُرارة في تميم وهكذا .

---

(١) الواتر القاتل ، والموتور الذي قتل له قتيل فلم يأخذ بدمـه ، وواترين حال من الضمير في علينا .

المقدمة السابعة في أخلاقهم

ترى أن اكثر العرب أهلُ بدْو . ولأهل البدو صفات خاصة يتمدحون بها ويُكثرون في شعرهم من ذِكرِها والتغني بها. ولعلّ من خير ما يمثل هذه الصفات ما جاء في قول « تأبّط شرّاً » أحد الشعراء الجاهليين [1] إذ يمدح ابن عم له بأنه قليل الشكوى من الهمّ ينزل به ، بعيد الهمّة واسع الامل يسير وحيداً لايهاب ، ويركب المهالك ولا يخشى مواجهتها ، (عَدّاء) يسبق الريح السريعة ، إن نام فإنما تنام عينه ، ولا ينام قلبه ، وإن صحا كانت عينُه دَيْدَبان قلبه . وله سيفٌ صارمٌ ، ان أصاب به قِرنا استقبلته المنايا مُتهللةً ، لا يخشى الوحدة بل يأنس بها ، ويعرف مسالك الصحراء فلا يضلُّ في سيره ، كما لا تضلّ الشمس ، وهذه الصفات ، كما ترى ، هي (المثل الاعلى) للبدويّ لا للحضري .

قد تمدّحوا بالمروءة وأكثروا من ذكرها ، وهو لفظ يجمع قانون الشرف ، عمادُه الشجاعة والكرم والوفاء ، وأكثر ما تتجلى فيه الشجاعة عندهم النزال والقتال والدفاع عن الاهل والقبيلة ونجدة المستصرخ. وأكثر ما يتجلى فيه الكرم ايقاد النيران ونحر الجزور ، واضافة اللاجيء .

---

(١) قليل التشكي للمهم يصيبه ... كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بموماة ويمسي بغيرها ... جحيشاً ويعروري ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث تنتحي ... بمنخرق من شدة المتدارك
اذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل ... له كالىء من قلب شيحان فاتك
ويجعل عينيه ربيئة قلبه ... الى سلة من حد أخلق صائك
اذا هزه في عظم قرن تهللت ... نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الأنس ويهتدي ... بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك

الموماة المفازة التي لا ماء فيها ، وجحيشاً : وحيداً ، ويعروري ظهور المهالك: يركبها ، مأخوذ من قولهم اعروريت الفرس اذا ركبته عارياً ليس عليه شيء ، ووفد الريح اولها والمعنى انه يسبق الريح لخفته ، والمنخرق السريع والمتدارك المتلاحق؛ حاص خاط والشيحان الحازم ، والفاتك الذي اذا هم بشيء فعله ؛ ربيئة القلب ديدبانه - ويريد بالسلة السيف الذي يستل ، ام النجوم : الشمس .

فأما الشجاعة فيمثلها في نظرهم قول عمرو بن معديكرب :

لمّا رأيتُ نساءَنا يفحصنَ بالمعزاء شدّا [١]
وبدت « لميس » كأنها بدرُ السماء اذا تبدّى
وبدت محاسنها التي تخفى وكان الامرُ جدا
نازلتُ كبشَهُمُ ولم أرَ مِنْ نزالِ الكبش بُدا [٢]
هم يُنذِرون دمي وأنذرُ ان لقيتُ بأن أشدّا
كم من أخٍ لي صالحٍ بوّأتُهُ بيديّ لحدا
ما إن جزعتُ ولا هلعتَ ولا يردُّ بكاي زندا
ألبستُهُ أثوابَه وخلقتُ يوم خلقتُ جلدا
أغني غناء الذاهبين أعُد للأعداء عدّا
ذهب الذين أحبُّهم وبقيتُ مثل السيفِ فردا

وأما الكرم ، فمن خير ما يمثله في نظرهم قول عتبة بن بُجير :

فقالوا غريبٌ طارقٌ طوّحت به متون الفيافي والخطوبُ الطوائح [٣]
فقمتُ ولم اجثم مكاني ولم تقم مع النفس علاّت البخيل الفواضح
وناديتُ شبلا فاستجاب وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح [٤]
فقام أبو ضيفٍ كريم كأنه وقد حد من فرط الفكاهة مازحُ [٥]
الى جذمِ مالٍ قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح [٦]

---

١) المعزاء : الارض الصلبة ذات الحجارة ، ومعنى يفحصن بالمعزاء شداً : أي أنهم يؤثرون في الارض الصلبة لشدة عدوهن (٢) كبش القبيلة : رئيسها (٣) الخطوب الطوائح : اي المصائب المهلكة ، وطوحت به : حملته على ركوب المهالك (٤) شبل اسم ابنه : وقرى عشر اي ضيافة عشر ليال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحته (٥) أبو ضيف يريد نفسه (٦) الى جذم : متعلق بقام في البيت قبله . ويريد بجذم المال أصل المال ، وهو النوق جمع ناقة .

جعلناه دون الذمّ حتى كأنه إذا عُدّ مالُ المكثرين المنائح[1]
لنا حمد أرباب المئين ولا يُرى إلى بيتنا مالٌ مع الليل رائح[2]

قد أحبوا كثيراً، وشربوا الخمر، ولعبوا الميسر، وشُغفوا بالصيد، وطربوا للغناء وتاقوا إلى السمر، وكان هذا كله مادة لشعرهم وأدبهم .

المقدمة الثامنة في دينهم

كان للعرب في الجاهلية دينٌ، ولكنه دين ضعيف، لا يُخلصون له ولا يصل إلى أعماق نفوسهم، وحسبنا دليلاً على ذلك أننا ننظر فيما بين أيدينا من شعرهم فنرى فيه الصيد كثيراً، والخمر والنساء والميسر كثيراً، والفخر والهجاء ووصف القتال كثيراً، ولكن قل أن نرى فيه شرحاً لعاطفة دينية، وقل أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده، وقل أن نرى فيه وصفاً لما كانوا يعبدون .

انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع جزيرة العرب، فقد كان فيها مستعمرات يهودية أشهرها « يثرب » وهي « سميت بعدُ » بالمدينة »، كذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد، ولكنها كانت في نزاع مستمرّ مع النصرانية .

وانتشرت النصرانية في مناذرة الحيرة، وفي غساسنة الشام، وسائر قبائله وزاحمت اليهودية في اليمن، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن «مدينة نجران».

وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشّرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار، واشتهر من شعرائهم وخطبائهم (عديّ بن زَيْد وقس بن ساعدة) ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قيستا بالدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية، فقد عبد العرب الأصنام، وعظموا الأوثان ونصبوها

(١) المنائح: جمع منيحة وهو الناقة او الشاة تدفع الى الجار لينتفع بلبنها ما دام فيها لبن (٢) يقول ان مالنا قليل فإبلنا باركة بفناء الدار انتظاراً للضيف وهي ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة ومع ذلك لنا من الحمد والثناء مثل ما للمكثرين أصحاب المئين .

في الكعبة ، وقرّبوا لها القرابين ، وكان من أشهر هذه الأصنام (اللات والعزّى ومناة) وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب ، وإن كان ثم أصنام اخرى خاصة ببعض القبائل .

المقدمة التاسعة في ثقافتهم

كانت المدن على التخوم واليمن متحضرةً بعض تحضر ، فالآثار التي عُثر عليها في اليمن والحيرة . وما نقل عن أهلها يدل دلالة صادقة على أنهم كانوا على حظ من الفنّ والعلم غير قليل : فأهل الحيرة تسرّب إليهم شيء من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم والغساسنة في الشام تسرب إليهم شيء من حضارة الرومان واليونان وآدابهم . واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بالفرس ، وتتصل بالحبشة وتتصل بالرومان ، ولها معهم جميعاً صلات تجارية – أما ما عدا هؤلاء من سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً .

وعلى الجملة كان للعرب معرفة بالأنساب ، وبشيء من أخبار الأمم ، وبشيء من الطب . ولكن ما كان عندهم من ذلك لم يعدُ أن يكون معلومات عملية أولية وتجارب ينقصها الاستقراء . ونظرات عامة يعوزها التعمق والاستقصاء

أما من الناحية الأدبية فكان لهم شعرٌ وقصص وأمثال وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التي أنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سترى .

المقدمة العاشرة في عصور اللغة العربية وآدابها

لما كان تاريخ لغة أي أمة وأدبها يرتبط كل الارتباط بالحوادث السياسية والدينية والاجتماعية التي تقع بين ظهراني هذه الأمة . ناسب لذلك تقسيم تاريخ أدب اللغة العربية إلى خمسة أعصر

الأول : عصر الجاهلية ، وينتهي بظهور الإسلام . ومدته نحو خمسين ومائة سنة .

الثـــاني : عصر صدر الإسلام ويشمل دولة بني أميّة ؛ ويبتدىء بظهور الإسلام ، وينتهي بقيام دولة بني العباس سنة (١٣٢) هـ .

الثالث عصر بني العباس ؛ ويبتدىء بقيام دولتهم وينتهي بسقوط بغداد في أيدي التتّتار سنة (٦٥٦) هـ

الرابع عصر الدول التركية ؛ويبتدىء بسقوط بغداد وينتهي بمبدإ النهضة الأخيرة سنة (١٢٢٠) هـ

الخامس عصر النهضة الأخيرة ؛ ويبتدىء من حكم الأسرة المحمّدية العلوية بمصر .

العصر الأول : عصر الجاهلية
حالة اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

لغة العرب من أغنى اللغات كَلماً ، وأعْرَقها قدماً ، وأوْسَعها لكل ما يقع تحت الحسّ ، أو يَجول في الخاطر : من تحقيق علوم ، وسنّ قوانين ، وتصوير خيال ، وتعيين مرافق – وهي على هندمةِ أوضاعها ، وتناسُق أجزائها لغة قوم أميينَ ، ولا عجب إن بلغت تلك المنزلة : من بسطة الثروة ، وسعة المدى ، إذ كان لها من عوامل النموّ ، ودواعي البقاء والرقيّ ، ما قلما يَتهيأ لغيرها وما رواه لنا منها أئمة اللغة وجاء به القرآن الكريم والحديث النّبوي هو نتيجة امتزاج لغات الشعوب التي سكنت جزيرة العرب ، ولا شكّ في أن من أسباب امتزاج هذه اللغات ما يأتي :

(١) هجرة القَحطانيين إلى جزيرة العرب ومخالطتهم فيها العرب البائدة باليمن ثم تمزُّقهم في بقاع الجزيرة كل ممزّق بظلمهم أنفسهم وتخرُّب بلادهم بسيل العرم[1] .

---

(١) العرم : جمع عرمة كفرجة وهي سد يعترض به الوادي او هو جمع بلا واحد او هو الأحباس والسدود تبنى في الوادي لحبس المياه خلفها وهي المسماة الآن بالخزانات . وحادثة سيل العرم أنه كان لسبإ في اليمن عرم تحبس المياه خلفها فتوزع بنظام فهدمت العرم بسيل عظيم أغرق البلاد ودمر القرى أمامه فكان هو مع كثير من الفتن والحروب الأهلية سبباً في تفرق قبائل سبأ في أنحاء جزيرة العرب حتى ضرب بهم المثل في التفرق فقيل (تفرقوا أيدي سبأ) .

(٢) هجرة اسماعيل عليه السلام إلى جزيرة العرب واختلاطه وبنيه بالقحطانيّين بالمصاهرة والمجاورة والمحاربة والمتاجرة ، وأظهرُ مواطن هذا الامتزاج مشاعر الحج والأسواق التي كانت تقيمها العرب في أنحاء بلادها ، ومن هذه الأسواق : عكاظُ ، ومَجنة ، وذو المجاز .

وأهمها سوق عكاظ ؛ وكانت تُقام من أول ذي القعدة إلى اليوم العشرين منه ، وأقيمت تلك السوق بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة . وبقيت إلى ما بعد الإسلام حتى سنة تسع وعشرين ومائة . وكان يجتمع بهذه السوق أكثر أشراف العرب للمتاجرة ومُفاداة الأسرى ، والتحكيم في الخصومات ، وللمفاخرة والمنافرة بالشعر والخُطب ، في الحسب والنسب والكرَم والفصاحة والجمال والشجاعة ، وما شاكل ذلك . وكان من أشهر المحكمين في الشعر « النّابغة الذّبياني » ، ومن أشهر خُطبائها « قس بن ساعدة الإيادي » . وقد لهج الشعراء بذكرها في شعرهم وحضَرها منهم الرجال والنساء . ولقريش عظيم الأثر فيما نجمَ عن اجتماع العرب بتهذيب لغتهم .

كلام العرب

الغرضُ من كلام العرب كغيره الإبانة عما في النفس من الأفكار . ليكون مدعاةً إلى المعاونة والمعاضدة ، وذريعة إلى تسهّل أعمال الحياة .

ولما كانت هذه الأفكارُ لا تزال متجدّدةً غير متناهية ، كانت صور الكلام المبين عنها لا تزال كذلك متجدّدة خاضعة لقوى الاختراع والابتداع وأنواع الإنشاء والتأليف على حسب ما يَقتضيه المقام ؛ فقد تَصِل صورة الكلام إلى الغاية القصوى في البلاغة . وقد تنحطُّ صورة العبارة إلى الدرك الأسفل من الإبانة بحيث لو انحطت عن ذلك لكانت عند الأدباء بأصوات العجماوات أشبه ، وبينَ الحالين مراتب وجلُّ بحث علم الأدب وتاريخه في التفاوت بين هذه المراتب ورجالها .

وكلام العرب بمراتبه العليا والدنيا وما بينهما تعتوره كغيره أحوال تتغيّر بتغيُّر حياة أهله العقلية والمعاشيَّة والدينيَّة، وتلك الأحوال تتمثل «في أغراض اللغة، ومعانيها، وعباراتها»

أغراض اللغة في الجاهلية

(١) كانت اللغة تستعمل في أغراض المعيشة البدوية، ووصف مرافقها من حلّ وترحال، وانتجاع كلإ، واستدرار غيث، ونَتج حيوان.

(٢) وفي إثارة المنازعات والمشاحنات، وما يتبعها من الحض على إدراك الثأر، والتفاخر بالانتصار، والتَّباهي بكَرَم الأصل والنِّجار.

(٣) شرح حال المشاهدات والكيفيَّات، والإخبار عن الوقائع والقصص وغير ذلك.

معاني اللغة في الجاهلية

تجمل معاني اللغة فيما يأتي :

(١) في قصْر معاني المفرَادت على ما تَقتضيه البداوة والفطرة الغضة الخالية من تَكلف أهل الحضر وتأنقهم.

(٢) وفي انحصار أحكامِهم في (الخبر) ومطالبهم في (الإنشاء) إمــا في التعقل المستَنبط من الحسّ، والمشاهدة، أو الطبيع، او التجربــة، او الوِجدان من غير مبالَغة ولا إغراء، وإما في التخيُّــل المنتزعة صوره من المحسوسات بحيث لا تخرج عن الإمكان العقليّ والعاديّ.

عبارة اللغة في الجاهلية

تُلخص أحوال العبارة في الجاهلية فيما يأتي :

(١) استعمال الألفاظ في معانيها الوضعية، أو معان مناسبة للمعنى الأصلي بطريق المجاز الذي قد يصبح بعد قليل وضعاً جديداً.

(٢) كثرة استعمال المترادف، وقلة الأعجمي المعبر عنه بالمعرب، وخلو الكلام العربي من اللحن ، وغلبة الإيجاز عليه ، كما تراه واضحاً في شعرهم
(٣) إرسال الأساليب الكلامية على حسب ما تقتضيه البلاغة بدون تكلف .

تقسيم كلام العرب

ينقسم كلام العرب إلى قسمين : نثراً ، ونظماً .
فالنظم هو الموزون المقفى ، والنثرُ ما ليس مُرتبطاً بوزن ولا قافية .

النثر ـ المحادثة ـ الخطابة ـ الكتابة

الأصل في الكلام أن يكون منثوراً : لإبانته عن مقاصد النفس بوجه أوضح وكلفة أقل : وهو إما حديث يدور بين الناس وبعض في إصلاح شؤون المعيشة ، واجتلاب ضروب المصالح والمنافع ، وذلك ما يسمى (المحادثة) أو (لغة التخاطب) وإما خطاب من فصيح نابه الشأن ، يُلقيه على جماعة في أمر ذي بال، وهذا ما يسمّى (الخطابة)، وإما كلام نفسي مدلول عليه بحروف ونقوش لإرادة عدم التلفظ به او لحفظه الخالف ، أو لبعد الشقة بين المتخاطبين وذلك ما يسمّى (الكتابة): إذن فأقسام النثر ثلاثة : محادثة ، وخطابة ، وكتابة .
وكلها إما أن تكون كلاماً خالياً من التزام التقفية في أواخر عباراته ، وذلك ما يسمى « النثر المرسل » وإما أن تكون قطعاً ملتزماً في آخر كل فقرتين منها أو أكثر قافية واحدة وهذا ما يسمى «السجع» وهو نوع الحلية اللفظية إذا جاء عفواً ولم يُتعَمد التزامه ، ولحسن وقعه في الأسماع، وحوكه وتأثيره في الطباع، وكان أكثر ما يستعمل في الخطابة ، والأمثال والحكم، والمفاخرات والمنافرات .

المحادثة ، أو : لغة التخاطب

لغة التخاطب عند عرب الجاهلية بعد أن توحّدت لغاتها هي اللغة المعربة المستعملة في شعرها وخطبها وكتابتها، ولا فرق بينها في البلاغة إلا بقدر ما تستدعيه حال الخطابة والشعر والكتابة من نبالة الموضوع ، والتأنق في العبارة .

وأكثر ما وصل إلينا ما كان شريف المعنى ، فصيحَ اللفظ .

الخطابة

لمّا كان جُلُّ العرب في جاهليتها قبائل مُتَبَدِّية لا يربطها قانون عام ولا تضبُطها حكومة مُنَظَّمة .

ومن شأن المعيشة البدوية شنُّ الغارات لأوهى الأسباب ، والمدافعة بالنفس عن الرُّوح والعِرْض والمال ، والمباهاة بقوَّة العَصَبية وكرَم النِّجار وشرف الخصال ، وللقول في ذلك أثر لا يَقِلُّ عن الصَّول ، كانت الخطابة لهم ضرورية ، وفيهم فطريَّة . وإنما لم تصل إلينا أخبار خطبائهم الأوائل ، وشيءٌ من خُطَبهم كما كان ذلك في الشعر ، لحفلهم قديماً بالشعر دون الخطابة ، ولصعوبة حفظ النَّثر .

وما عُني الرُّواة بنقل أخبار الخُطباء وخُطبهم إلا عند ما حلت الخطابة بعدُ منزلة أسمى من الشعر ، لابتذاله بتعاطي السفهاء والعامّة له وتلوّثهم بالتكسب به ، والتعرض للحُرَم ، فنَبُه بذلك شأن الخطابة ، واشْتَهَرَ بها الأشراف .

وكان لكلّ قبيلة خطيب ، كما كان لكلّ قبيلة شاعر .

وأكثر ما كانت الخطابة في التحريض على القتال والتحكيم في الخصومات وإصلاح ذات البين ، وفي المفاخرات والمنافرات ، والوصايا ، وغير ذلك .

وكان من عادة الخطيب في غير خُطب الإملاك والتزويج أن يَخطب قائماً ، أو على نشز ومُرتفع من الأرض ، أو على ظَهْر راحلته ، لإبعاد مَدى الصوت وللتأثير بشخصه ، وإظهار مَلامح وَجْهه ، وحركات جوارحه ، ولا غِنىً له عن لَوْث وعَصْب العِمامة ، والاعتماد على مخصرة أو عَصا أو قناة أو قَوْس ، وربما أشار بإحداها ، أو بيَده .

وخُطباء العرب كثيرون (من أقدمهم كعب بن لُؤَيّ) وكان ذا نفوذ عظيم في قومه ، حتى أكبروا موته ، وذو الإصبع العَدْواني وهو حرثان بن محرّث

(ومن أشهرهم) قيسُ بن خارجة بن سنان خطيب حرب داحس[١] والغَبراء، وخوَيلد بن عمرو الغطفاني، خطيب يوم الفِجار[٢]، وقس[٣] بن ساعدة الإيادي، خطيب عكاظ، وأكثَم بن صيفي زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى: وهم أكثم بن صيفي، وحاجب[٤] بن زرارة التميميّان، والحارث بن عُباد[٥]، وقيس بن مسعود[٦] البكريّان، وخالد بن جعفر[٧]، وعلقمة بن علاثة[٨]، وعامر بن الطفيل[٩] العامريون، وعمرو بن الشّريد السُّلمي[١٠]، وعمرو

(١) داحس والغبراء فرسان لقيس بن زهير سيد عبس، راهنه حذيفة بن بدر الفزاري على أن يسابقه بفرسيه، الخطار والحنفاء، فوضعت فزارة كميناً في طريق السباق، فلطم وجه الغبراء وكانت سابقة، فهاجت الحرب بين عبس وفزارة، ثم بين عبس وذبيان لنصرتها فزارة وفي القصة روايات أخرى (٢) يوم الفِجار حرب كانت بين قريش وهوازن حضرها النبي ﷺ (٣) ستأتي ترجمة قس وأكثم (٤) سيد من سادات تميم، وهو الذي وفد على كسرى حين منع تميماً من ريف العراق حتى أصابهم القحط فأعجب به ومدحه مطلبه وتعهد له حاجب بحسن الجوار. ورهن عنده قوسه على ذلك فقبلها منه وبقيت عند كسرى حتى أخذها ابن حاجب ثم بيعت بعد بأربعة آلاف درهم (٥) كغراب كان خطيباً مؤثراً، وشاعراً بليغاً، وله عمل جليل في الحرب التي نشبت بين بكر وتغلب لمقتل كليب بعد أن اعتزلها، وله فيها قصيدة مشهورة منها:

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال

٦) هو قيس بن مسعود بن خالد بن ذي الجدين كان كريماً عالي الهمة من أفضل العرب، حسباً ونسباً وكانت تقر له كلها بذلك هي وكسرى أيضاً. وكان له حظيرة فيها مائة من الإبل لأضيافه إذا نحرت ناقة قيدت أخرى مكانها (٧) سيد من سادات بني عامر. خلص قومه من العبودية لغطفان بعد أن قتل سيدها زهير بن خزيمة. (٨) خطيب بليغ اشتهر في قومه بالعفة والمحافظة على الجوار والعقل الراجح والحسب الواضح (٩) هو ابن عم لبيد الصحابي شاعر متين، وفارس من أشهر فرسان العرب نجدة وأبعدهم اسماً، ولقد بلغ من شهرته أن قيصر كان إذا قدم قادم من العرب قال ما بينك وبين عامر فان كانت بينه وبينه رحم ووشيجة قربه وأكرمه (١٠) هو أبو السيدة تماضر الخنساء يميل إلى الفخر والصراحة في القول — ولقد بلغ من تغاليه في ذلك أنه كان يأخذ ابنيه معاوية وصخراً في المواسم العامة.

ابن معديكرب[١] الزُّبيدي ، والحارث بن ظالم [٢] المرّي .

قُسّ بن ساعدة الايادي

هو خطيب العرب قاطبة ، والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمنُ بالبعث ، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأوثان ، ويرشدهم إلى عبادة الخالق ويقال إنه أوّل مَن خطبَ على شرف ، وأول من قالْ في خطبه « أما بعدُ » ، وأول من اتكأ على سيف ، أو عصاً في خطابته ، وكان الناس يتحاكمون إليه ، وهو القائل : « البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر » وسمعه النبي ﷺ قبل البعثة يخطب في عُكاظ ، فأثنى عليه ، وعَمَّر قُسٌّ طويلاً ومات قبيل البعثة — ومن خطبه خطبته التي خطبها في سوق عكاظ وهي — أيها الناس : اسمعوا وعُوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليلٌ داج ، ونهارٌ ساج ، وسماءٌ ذات أبراج ، ونجوم تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مُدحاة ، وأنهار مُجراة ، إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ، ما بال الناس يذهبون ولا يرْجعون ، أرَضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ يُقسِم قسٌّ بالله قسماً لا إثمَ فيه ، إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكراً

ويروى أن قسّاً أنشأ بعد ذلك يقول :

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً للناس ليس لها مصادر
ورأيت قوميَ نحوها تمضي الأكابر والأصاغر

---

(١) خطيب شاعر وفارس قاهر وصحابي جليل شهد حربي اليرموك والقادسية وأبلى فيهما البلاء الحسن على كبر سنه وضعف جسمه (٢) كان شجاعاً فاتكاً وخطيباً شاعراً يميل إلى معاقرة الخمر وهو الذي قتل خالد بن جعفر غيلة لقتله أباه و كثيراً من قومه .

لا يرجع الماضي إلينا ولا منَ الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محا لة حيث صار القوم صائر

أكثم بن صيفي

هو أعرف الخطباء بالأنساب ، وأكثرهم ضربَ أمثال ، وإصابة رأي وقوة حجة ، وقلَّ من جاراه من خطباء عصره ، وهو زعيم الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كسرى ، ولقد بلغ من إعجابه به أنْ قال له : لو لم يكن للعرب غيرُك لكفى . وقد عمر طويلاً حتى أدرك مبعث النبي ﷺ وجمع قومه وحثهم على الإيمان به ، وفي إسلامه رواياتٌ . وكان في خُطبه قليل المجاز ، حسن الإيجاز ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني ، مُولعاً بالأمثال (راجع خطبه في فن المناظرات الآتية)

الكتابة

يراد بالكتابة عند الأدباء : صناعة إنشاء الكتب والرسائل ، وإذا كانت الكتابة بهذا المعنى تؤدَّى بالنقوش المسماة بالخط ، فأوَّل حلقة من سلسلة الخط العربي هي الخط المصري القديم ، ومنه اشتقَّ الخطُ الفينيقي ، ومن هذا اشتق الآرامي ، والمُسند ، بأنواعه ، والصفويّ ، والثموديّ ، واللحيانيّ ، شمالي جزيرة العرب . والحميريّ جنوبيها .

ورواة العرب يقولون : إنهم أخذوا خطهم الحجاري عن أهل الحيرة والأنبار .

أما الكتابة : بمعنى إنشاء الكتب والرسائل ، فهي لازمة لكل أمة متحضرة ذات حكومة منظمة ، ودواوين متعددة ، وقد كان بعض ذلك موفوراً في ممالك التبابعة جنوباً ، ومأثوراً عن ممالك المناذرة والغساسنة شمالاً ، ولذلك استعمل الخط المسند الحميري عند الأوَّلين من عهد مديد ، والأنباري الحيري عند الآخرين ، وإنما لم يصل إلينا شيء من رسائل تلك الأمم ، ولا من كتب فنونها ودينها غير قليل عثروا عليه لتقادُم عهد أهلها ، وعدم استكمال البحث بعد في بلادها .

ولم يعرّفنا التاريخ أيضاً بأحد من كتّاب هذه الصناعة إلا (بعديّ بن زيد العباديّ) الذي كان كاتباً ومترجماً عند كسرى .

أما البدوُ من سكان أواسط الجزيرة وهم جمهور مُضر ، وبعض القحطانيين فكانوا أمّيين – ومن المعقول أنهم لم يعرفوا الكتابة الإنشائية إلا بعد أن عرّفوا الخط (آخرَ عصور الجاهلية) ؛ وما نقل عنهم فيه أنهم كانوا يكتبون في بدء رسائلهم : باسمك اللهمّ ، ومن فلان إلى فلان ، وأمّا بعد .

ولم تقم لهم دولة بالمعنى السابق إلا بقيام الإسلام ، فهو الذي أفشى فيهم الخط والكتابة .

ولما كانت علوم كل أمة لها الأثر العظيم في تكوين فكر الأديب ، وخيال الشاعر ، وكانت كتابتها قسماً قائماً بنفسه يسمى كتابة التدوين ، ناسب شرح ذلك .

علوم العرب وفنونها

العلوم والصناعات لازمة لحضارة الأمم ، ومن العرب أهلُ حضارة دلت عليها دُولهم العظيمة وقِدَمُ تاريخهم ، وآثارهم الخالدةُ ، وهم التّبابعة في اليمن ، والمناذرةُ والغساسنة في الشمال – وإذن تكون هندسة إرواء الأرض وعمارة المدن ، والحساب ، والطب ، والبيطرةُ ، والزراعة ، ونحوُها معروفة في الجنوب والشمال ، مدوّنة في الكتب ، وإن لم يحفظ لنا الدهرُ صوراً منها – أما البدْوُ منهم : وإن كانوا أميين يمقتون الصناعاتِ ، فلا غِنى لهم عن تجربة تُرْشدُهم إلى ما ينفعهم ، ليعرفوا متى تجود السماء ، وبمَ يتميز الأقرباء من البداء ؟؟ فأكسبهم ذلك علم النجوم ، والطبّ الضروري ، والأنسابَ والأخبار ، ووصف الأرض ، والفراسة والعيافة ، والقيافة ، والكهانة ، والعرافة ، والزجر ، وقرض الشّعر.

أما علم النجوم وهو معرفة أحوال الكواكب – فقد كانوا أبرع

في هذا العلم منهم في كل علم سواه ، تعرفه عامتهم قبل خاصتهم للاهتداء به في ظلمات البر والبحر ، ومعرفة أزمنة الخصب والمحل ، وبعض معارفهم فيه مُستمد من الكلدان لاختلاطهم بهم ولاتفاق اللغتين في كثير من أسماء الكواكب والبروج .

ومن أشهرهم فيه (بنو حارثة بن كلب ، وبنو مرة بن همام الشَّيباني) .

الطب الإنساني والحيواني (البيطرة) ، وقد عاناه من العرب كثيرون.

ومن مشهوريهم (الحارث بن كَلَدة الثقفي ، وابن حذيم التيْمي) .

الأنساب : علم تتعرف به قرابات التي بين بعض القبائل وبعض ، فتُلحق فروعها بأصولها ، وإنما دعاهم إلى العناية به حاجتُهم إلى التناصر بالعصبية ، لكثرة حروبهم ، وتفرق قبائلهم وأنفتهم من أن يكون للغريب عنهم سلطان عليهم وحبُهم الافتخار بأسلافهم .

وممن اشتهر بمعرفة أنساب العرب (دغفل بن حنظلة الشيباني ، وزيدُ بن الكيس النمري ، وابن لسان الحُمّرة) ولهذا كانوا يحفظون أنسابَهم .

الأخبار والتاريخ والقصص: هي معرفة أحوال السابقين، وكانوا يعرفون منها ما كان عليه أسلافهم ، وبعض مُجاوريهم من الأحوال المأثورة ، ووقائع أيامهم المشهورة ، كقصة الفيل ، وحرب البسوس ، وحرب الفِجار .

وصف الأرض: هو معرفة كل بُقعة وما يجاورها ، وكيف يهتدي إليها .

ومن قرأ شعر العرب في نسيبهم، واطلع على وصفهم ، وكيف كانوا يحددون الحقير منها بحدود قلما تحد به مملكة عظيمة ، عرف شدة حذقهم بمعرفة بلادهم.

الفراسة : هي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، وقد نبغ فيها من العرب من لا يُحصى عددهم ، ولهم في ذلك نوادر شتّى .

القيافة : ضربٌ من الفراسة وهي الاهتداء بآثار الأقدام على أربابها ، أو الاستدلال بهيئة الإنسان وأعضائه على نسبه . فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل

والمرأة ، والشيخ ، والشاب ، والأعمى ، والبصير ، والأحمق ، والكيس .

وإذا نظروا عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه وعرفوا الأجنبي من بينهم – وممن اشتهر بالقيافة (بنو مدلج ، وبنو لهب) .

الكهانة والعرافة : وهما القضاء بالغيب ، وربما خُصَّت الكهانة بالأمور المستقبلة والعِرافة بالماضية ، وطريقهم في ذلك الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية ، لما بينهما من المشابهة الخفية ، وللعرب في الكهان اعتقاد عريض لزعمهم أنهم يعلمون الغيب ، فيرفعون إليهم أمورهم للاستشارة ويستفسرونهم عن الرؤى ، ويستطبُّونهم في أمراضهم ومن اشتهر من الكهان (شِق أنمار ، وسَطيح الذئبي) ومن الكواهن (طريفةُ الخير ، وسَلمى الهمدانية) ومن العرافين عرّاف نجد الأبلقُ الأسدي ، وعراف اليمامة رَباح بن عَجلة)

الزّجر : وهو الاستدلال بأصواتِ الحيوان ، وحركاتهِ ، وسائر أحواله على الحوادث بقوة الخيال ، والاسترسال فيه .

ومن أشهر الزجارين : بنو لهب ، وأبو ذؤيب الهذليّ ، ومُرّة الأسدي .

ومن العرب من لم يَعبأ بالزجر وما شاكله كلبيد بن ربيعة القائل :

لَعَمْرُك ما تدري الطوارقُ بالحصى ولا زاجراتُ الطير ما الله صانعُ

وكضابىء بن الحارث القائل :

وما علاجاتُ الطير تُدني من الفتى نجاحاً ولا عن رَيثِهنَّ يَخيب
ورُبَّ أمور لا تَضيرك ضَيرةً وللقلب من مخشاتهن وجيبُ
ولا خير فيمن لا يوطِّنُ نفسه على نائبات الدهر حين تَنوبُ

النظم – والشعر – والشعراء

النظم : عرّفه العَروضيون بأنه الكلام الموزون المقفى قصداً – ويُرادفه الشّعر

عندهم -أما المحققون من الأدباء فيخصون الشعر بأنه الكلا الفصيح الموزو
المعبّر غالباً عن صوَر الخيال البديع . ولمّا كان الخيال أغلب مادته أ
العرب (تجوّزاً) لفظ الشّعر على كل كلام تضمّن خيالاً ، ولو لم يك
مُقفّى ، ولجريْه وفق النظام الممثّل في صورة الوزن والتقفية كان
النفس من قبيل إثارة الوجدان والشعور ، بَسْطاً وقَبضاً وترغيباً وت
من قَبيل إقناع الفكر بالحجة الدامغة ، والبرهان العقليّ ، ولذلك يُ
في إثارة العواطف وتصوير أحوال النفس ، لا في الحقائق النظرية ، ولا
النفس ترتاع بصور المحسوس الباهر ، وما انتُزع منه من الخيال الجليّ لخة
عليها ، وإراحته لها من المعاناة والكد ؛ إذا انضم إلى ذلك نَغَمُ الوزن
الشديد الشبه بتأثير الإيقاع والتلحين الذي يَطرَب له الحيوانُ ، فضلاً عن

والعرب بفطرتهم مطبوعون على الشّعر لبداوتهم ، وملاءمة بيئة
الخيال فالبدويّ لحريته ، واستقلاله بأمر نفسه ، يغلبُ على أحكامه ال
ويسلك إليه من طريق الشعور ؛ ومعيشهُ البدوي فوق أرض نقيّة التر
سماء صافية الأديم ، ساطع الكواكب ، ضاحية الشمس تَجلت لحسّ
الوجود وعوالمَ الشهود ، فكان لخياله من ذلك مادة لا يغور ماؤها ، و
مَعينها فهام بها في كل وادٍ ، وأفاض منها إلى كل مراد ، وكان له م
وفصاحة لسانه أقوى ساعد ، وأكبر مُعاضد ، ويشعرُ الإنسان بط
الشعر متأخر في الوجود عن النثر ، وإن كانت هناك واسطة بين النثر
فليست إلا السجع ، لما فيه من مقابلة الفِقَر ، والتزام القافية ، والميل
- فكان من ذلك المقطعات ، والأراجيز الصغيرة ، يحدون بها الإبل ، و
بها المكارم . ثمّ لما نَمَتْ ملكة الشعر فيهم ، واتسعت أغراضُه أمامهم
الأوزان ، وأطالوا القوافي ، وقصّدوا القصيد .

وقد خفي علينا - كأكثر الأمم - مبدأُ قول الشعر ، وأول من قا

أما ما نُسب من الشعر، إلى آدم، وإبليس، والملائكة، والجن، والعرب البائدة، فهو حديثُ خرافة.

والشعر الذي صحّت روايته منذ أواسط القرن الثاني قبل الهجرة ينتهي أقدم مطوّلاته (إلى مُهلهل بن ربيعة) وأقدمُ مقطعاته إلى (نفر) لعلهم لم يبعدوا عنه طويلاً مثل : العنبر بن عمرو بن تميم، ودريد بن زيد بن نهشد، والمستوغر بن سعد بن قيس عيلان، وزهير بن جناب الكلبي، والأفوه الأودي، وأبو دُواد الإيادي، وقد رووا أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبياتُ يقولها الرجل في حاجته، وأن أول من قصد القصائد، وذكر الوقائع (المهلهل ابن ربيعة التغلبي) في قتل أخيه كُليب، فهو أول من رويتْ له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً، وتبعه الشعراء. مثل (امرىء القيس) وعلقمة، وعبيد، ممن أخرجوا لنا الشعر العربيّ في صورته الحاضرة.

هذا مجمل ما يتعلق بحقيقة الشعر، ونشأته في الجاهلية.

أما ما يتعلق بمادّته وجوهره فإنه يرجع إلى أغراضه، وفنونه، ومعانيه، وأخيلته، وألفاظه، وأساليبه، وأوزانه، وقوافيه.

(١) أغراضه وفنونه

نظم العرب الشعر في كل ما أدركته حواسهم، وخطر على قلوبهم من فنونه وأغراضه الكثيرة **كالنسيب** ويسمّى (التشبيب والتغزل). وطريقته عند الجاهلية تكون بذكر النساء ومحاسنهنّ، وشَرْح أحوالهن، وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر، حتى لو انضم إليه غرض آخر قدم النسيب عليه وافتتح به القصيد، لما فيه من كل اجتماع إنساني، والبدْو أكثر الناس حبّاً لفراغهم.

و **الفخر** : هو تمدح المرء بخصال نفسه وقومه، والتحدث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عُنصرهم، ووفرة قبيلهم، ورفعة حسبهم، وشُهرة شجاعتهم.

والمدح: وهو الثناء على ذي شأن بما يستحسن من الأخلاق النفسية كرجاحة العقل ، والعفة ، والعدل ، والشجاعة ، أن هذه الصفات عريقة فيه وفي قومه وبتعداد محاسنه الخلقية ــ وشاع المدح عندما ابتذل الشعر ، واتخذه الشعراء مهنة ومن أوائل مدّاحيهم : زهير ــ والنابغة ــ والأعشى .

والرثاء : وهو تَعداد مناقب الميت ، وإظهار التفجع والتلهُّف عليه ، واستعظام المصيبة فيه

والهجاء : وهو تعداد مثالب المرء وقبيله ، ونفي المكارم والمحاسن عنه .

والاعتذار وهو درْء الشاعر التهمة عنه ، والترَفق في الاحتجاج على براءته منها ، واستمالة قلب المعتذر إليه واستعطافه عليه : و (النابغة) في الجاهلية فارس هذه الحلبة .

والوصف: هو شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع لإحضاره في ذهن السامع ، كأنه يراه أو يشعر به ، ومن أشهرهم في ذلك (امرؤ القيس وأبو دواد الإيادي) .

والحكمة والمثل : فالحكمة قول رائعٌ يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به ، والمثل مرآة تريك أحوال الأمم وقد مَضت ، وتَقف بك على أخلاقها وقد انقضت ، فالأمثال ميزان يوزن به رقيّ الأمم وانحطاطها وسعادتها وشقاؤها وأدبها ولغتها . وأكثر ما تكون أمثال العرب وحكمها موجزة متضمنة حكماً مقبولاً ، أو تجربة صحيحة ، تمليها عليها طباعها بلا تكلف ــ وأكثر الشعراء أمثالاً : (زهير والنابغة) .

(٢) معانيه وأخيلته

قصد الشاعر من شعره الإبانة عما يخالج نفسه من المعاني في أي غرض من الأغراض السابقة ونحوها ، ومن هذه المعاني ما هو عادي في البدويّ والحضَري

والعربيّ والعجميّ كالأخبار الصادقة، وأوصاف المشاهدات، وشرح الوجْدانات كما يُمليها الخاطر بلا مُبالغة ولا إغراق؛ ومنها ما هو غريبٌ نادر، انتزعه الخيال من المرئيات البديعة والأشكال المنتظمة، وذلك يسمّى المخترع، تتفاضل الشعراء بالإجادة فيه والإكثار منه.

وإذا قِسنا الشعر الجاهلي بهذا المعيار وجدنا معانيه وأخيلته تمتاز بالأمور الآتية:

(١) جلاء المعاني وظهورها ومُطابقتها للحقيقة. (٢) قلة المبالغة والغُلو فيها بما يُخرجها عن حد العقل ومألوف الطبع (٣) قلة المعاني الغريبة المنزع، الدقيقة المأخذ المتجلّية في صور الخيال البديع، والتشبيه الظريف، والاستعانة الجميلة والكناية الدقيقة وحُسن التعليل وغير ذلك (٤) قلة تأنقهم في ترتيب المعاني والأفكار على النظام الذي يقتضيه الذوق، فيُدخلون معنى في معنى، وينتقلون من غرض إلى آخر اقتضاباً بدون تخيل ولا تلطف.

(٣) ألفاظه وأساليبه

ولما كانت العربُ أمةً بدوية تنظِم الشعر بطبعها، من غير مُعاناة صناعة ولا دِراسة عِلم ــ غلب على شِعرها صراحة القول وقلةُ المواربة فيه، والبعد عن التكلف وصحة النظم، والوفاء بحق المعنى ــ أضف إلى ذلك الأمور الآتية:

(١) جودة استعمال الألفاظ في معانيها الموضوعة لها، لإحاطة عِلمهم بلغتهم ومعرفتهم بوجوه دَلالتها. (٢) غلبة استعمال الألفاظ الجزلة، واستعمال الألفاظ الغريبة التي هُجرت عند المحدثين. (٣) القصد في استعمال ألفاظ المجاز، ومقْت استعمال الأعجمي إلا ما وقع نادراً. (٤) عدم تعمد المحسّنات البديعية اللفظية، ومتانة الأسلوب، بحُسن إيراد المعنى إلى النفس من أقرب الطرق إليها وأطرَفِها لديها وبإيثار المجاز، أو قلة الإسهاب إلا إذا دعت الحال.

(٤) أوزانه وقوافيه

العرب لم تعرف موازين الشعر بتعلم قوانين صناعية، وتعرُّف أصولٍ وضعية، وإنما كانت تنْظم بطبعها على حسب ما يُهيِّئه لها إنشادُها ، وقد هدّتهم هذه الفطرة إلى أوزان أرجعها الخليلُ إلى خمسة عشر وزناً سماها بحوراً وزاد عليها الأخفش بحراً ، وقد أكثروا النظم من بعضها دونَ بعض .

راجع مؤلفنا « ميزان الذهب في بُحور شعر العرب » .

وشعر العرب رَجزُه وقصيدُهُ يُبنى على قافية واحدة كيفما طال القول .

(٥) شعراء الجاهلية

شُعراء الجاهليّة : أكثر من أن يحاط بهم ، ومن جُهل منهم أكثر ممن عُرف، وإنما اشتهر بعضهم دون بعض لنبوغه ، أو كثرَة المروي من شعره ، أو قُرب عهده من الاسلام زمن الرواية ـ وكان للشعراء عند العرب منزلة رفيعة ، وحُكمٌ نافذ ، وسلطان غالب، إذ كانوا ألسنتهُمُ الناطقة بمكارمهم ومفاخرهم وأسلحتهم التي يذودون بها عن حياض شرَفهم ، وكانت القبيلة من العرب إذا نَبَغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، وأتت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس، ويَتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذَبٌّ عن حياضهم ، وتخليدٌ لمفاخرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لا يُهنّئون إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تنتج .

وكانت طريقة نظمُ الشعراء ارتجالية، فتأتيهم ألفاظهُ عفواً، ومعانيه رهواً، كما وقعَ للحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم، أما من اتخذه منهم صناعة يستدر بها ويلتمس به الجوائز، وينشده في المحافل والمواقف العظام ، فإنه يتعهده بالتهذيب والتنقيح، لجعله رقيق الحاشية، حسَن الديباجة، يصح أن يقال فيه إنه المثل الأعلى للشعر الجاهلي كما ترى ذلك واضحاً في حوليّات زهير ، واعتذاريات النابغة

وقد غبر الناس دهراً طويلاً لا يقولون الشعر إلا في الأغراض الشريفة ، لا يمدَحون عظيماً طمعاً في نَواله ، ولا يهجون شريفاً تشفياً منه وانتقاماً ، حتى نشأت فيهم فئة امتهنت الشعر وتكسبت به ، ومدَحَت الملوكَ والأمراء ، كالنابغة الذبياني وحسان مع النعمان بن المنذر ، وملوك غَسَّان ، وزُهير بن أبي سُلمى مع هرِم ابن سِنان وأُمَية بن أبي الصَّلت مع عبدالله بن جدعان أحد أجْوادِ قريش ، والأعشى مع الملوك والسُّوقة ، حتى قصد به الأعاجم ، وجعله متجراً يتجر به ، فتحامى الشعرَ الأشراف ، وآثروا عليه الخطابة .

(٦) طبقات الشعراء

طَبقاتُ الشعراء باعتبار عُصورهم أربع : (١) الجاهليِّين . (٢) طبقة المخضْرَمين ، وهم الذين اشتهروا بقول الشعر في الجاهلية والاسلام . (٣) طبقة الإسلاميِّين ، وهم الذين نشأوا في الإسلام ، ولم تفسُدْ سَليقتهم العربية ، وهم شعراء بَني أمية . (٤) طبقة المولدين أو المحدثين ، وهم الذين نشأوا زمن فسادِ العربية وامتزاج العرب بالعجم ، وذلك من عصر الدولة العباسية إلى يومنا هذا .

والشعراء الجاهليون يُقسَّمون باعتبار شهرتهم في الشعر للاجادة ، أو للكثرة إلى طبقات كثيرة ، نذكر منها ثلاثاً : (١) الطبقة الأولى ، امرؤ القيس بن حجر وعمرو بن كلثوم ، وزُهَير بن أبي سُلمى ، والنابغة الذبياني (٢) الطبقة الثانية الأعشى ولبيد بن ربيعة العامري ، وطرَفة بن العبد . (٣) الطبقة الثالثة عَنترة ابن شداد ، وعُروةَ بن الوَرد ، ودُرَيد بن الصِّمَّة ، والمرقش الاكبر ، والحارث ابن حِلِّزة اليَشْكُري ــ ومن الادباء مَن يُقدم ويزيد

(١) امْرُؤ القيس

هو الملكُ أبو الحارث حُنْدُجُ بن حُجْرٍ الكِنديُّ شاعرُ اليمانيةِ .

وآباؤه من أشراف كِندة وملوكها ، وكانت بنو أسد المضرية خاضعة لملوك كِندة ــ وآخر ملك عليهم هو حُجر أبو امرىءِ القيس ــ وأمه أخت مُهلهِل و كُلَيب .

نشأ امرؤ القيس بأرض نجد بين رعية أبيه من بني أسد وسلك مسلك المترفين من أولاد الملوك يلهو ويلعب ويعاقر الخمر ويغازل الحسان فمقته أبوه ولما لم ينجع فيه القول طرده عنه وأقصاه ، حتى جاء نبأ ثوران بني أسد على أبيه وقتلهم له لانه كان يعسف في حكمه لهم ، فقال : (ضيّعني صغيراً ، وحملني دمه كبيراً ، لا صحوَ اليومَ ولا سُكْرَ غداً ، اليومَ خمرٌ ، وغداً أمرٌ) وأخذ يجمع العدّة ، ويستنجد القبائل في إدراك ثأره ، فنازل بني أسد وقتل فيهم كثيراً ، ثم اشتدّت به علة قرروح فمات منها ودُفن بأنقرَه ؛ وكان ذلك قبل الهجرة بقريب من قرن .

شعره : يُعتبرُ امرُؤ القيس رأس فحول شعراء الجاهلية ، والمقدّم في الطبقة الاولى ، فهو أوّلُ من أجاد القوْل في استيقاف الصحْب ، وبُكاء الديار وتشْبيه النساء بالظباء والمها والبَيْض ، وفي وصف الخيل بقيد الاوابد ، وترقيق النسيب وتقريب مآخذ الكلام ، وتجويد الاستعارة ، وتنويع التشبيه ، وذلك لسعة خياله بكثرة رحلاته .

وقد يُفحِشُ في تشبيه بالنساء ، وتحدثه عنهنَّ ، ويُشتَم من شعره ، رائحة النبل وتلمح فيه شارات السيادة والملك ، من ذلك قوله :

فظل العذارى يَرْتمين بلحمها وشحمٍ كهدّاب الدمقْس المفتل

وقوله : وظل طهاةُ اللحم من بين منضج صفيف شواء أو قديدٍ مُعجل

وقوله ولو أنْ ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلٌ من المال

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ وقد يُدرك المجدَ المؤثَّلَ أمثالي

وشعره : وإن اشتمل بشملة البداوة في جفاء العبارة ، وخشونة الالفاظ وتجهم المعاني ، تراه أحياناً يخطر في حُلل من حُسْن الديباجة ، وبديع المعنى ودقة النسيب ، ومُقارَبة الوَصْف ، وسهولة المأخذ ، مما كان لخلقه أجملَ مثاله في مُحاكاته ولم يَقل الشعر كاسباً .

ومن شعره ، يذكر رحلته إلى قيصر مع عَمْرو بن قميئة الضبعي :

سَما لكَ شوقٌ بعدما كانَ أقصرا وحلتْ سُليمى بَطنَ ظَبيٍ فعَرْعَرا
فدعْها وسلِّ الهَمّ عنها بجَسْرة ذَمولٍ إذا صامَ النَّهار وهجَّرا
عليها فتى لم تحمِلِ الارضُ مثله أبرّ بميثـــاق وأوْفى وأصبرا
إذا قلتُ هذاصاحبٌ قد رضيتهُ وقرّتْ بهِالعَيْنانِ بُدّلتُ آخَرا
كذلكَ جَدي لا أصاحبُ صاحباً مِنَ النّاس إلا خانني وتغيّرا

ومن أبياته السائرة قوله :

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانه فليس على شيءٍ سِواهُ بخزّانِ

وقوله: وقد طوّفتُ في الآفاق حتى رَضيتُ من الغَنيمـــة بالإيابِ

معلقة امرىء القيس

قفَا نَبكِ مِنْ ذِكرى حَبيبٍ ومَنزِلِ بِسِقْطِ اللوَى بين الدخولِ فحَوْملِ [١]
فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعْفُ رَسمُها لِما نَسَجَتْها مِنْ جَنوبٍ وشَمألِ [٢]
ترى بَعَرَ الآرامِ في عَرَصاتهـــا وقيعانها وكأنه حَبُّ فلفـــلِ [٣]
كأني غَداة البَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلوا لَدى سَمُرات الحي ناقِفُ حَنْظلِ
وُقوفاً بها صَحبي عليَّ مطيهـــم يَقولون : لا تهْلِكْ أسى وتَجمَّـــلِ [٤]

(١) اللوي ما التوى من الرمل ، أو استرق منه ، والجمع ألواء وألوية ، وسقط اللوى منتهاه ، وهو مثلث السين . والدخول وحومل وتوضح والمقراة : كلها أسماء أماكن يقع بينها سقط اللوى ، وفيه منزل الحبيب . (٢) لم يعف رسمها ، لم يمح أثرها والمراد من (جنوب وشمأل) ريح الجنوب وريح الشمال

(٣) الآرام جمع رئم وهو الظبي خالص البياض. والعرصات : جمع عرصة وهي البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء ، والقيعان : فناء الدار (٤) أي وقوف صحبي على مطيهم بسمرات الحي ، ونصحوا لي بالتحمل والاحتمال .

وإنْ شِفائي عَبْرَةٌ مُهراقــةٌ فَهلْ عِندَ رسم دارس مِنْ مُعَوّلِ ١
كدَأبكَ منْ أمّ الحوَيرثِ قبْلها وَجارتِها أمّ الرّباب بمأسَلِ ٢
إذا قامتا تَضوَّعَ المِسْكُ منهما نَسيم الصَّبا جاءت بِرَيّا القرَنفل ٣
ففاضَتْ دُموعُ العَين مني صَبابة على النّحْر حتى بل دمعي مِحْملي ٤
ألا رُب يوم لي مِنَ البيض صالح ولا سيما يومٌ بِـدارَةِ جُلجُل ٥
ويومَ عَقرتُ للعــذارى مَطيَّتي فيا عَجَبا مِنْ كورهــا المتَحَمّــل ٦
فظل العذارى يَرْتمِينَ بلحْمهــا وَشحمٍ كهُدّاب الدّمَقس المفتل ٧
تُدَارُ علينــا بالسديف صِحَافهــا ويؤتى إلينــا بالعبيطِ المُشَمّل ٨
ويومَ دخلتُ الخِدْرَ خِدْرَ عُنَيزةٍ فقالت لكَ الوَيلاتُ إنكَ مُرْجِلي ٩
تقولُ وَقدْ مـال الغَبيطُ بنا معاً عَقرتَ بعيري يا أمرأ القيس فانزل ١٠
فقلت لهـا سيري وَأرْخي زمامَه ولا تُبعديني منْ جناكِ المعلل ١١
دَعي البَكرَ لا ترثي له منْ ردافنــا وهاتي أذيقينا جَناةَ القرَنفلِ ١٢
بثغرٍ كمِثــل الاقحُوان مُنوّرٍ نَقيّ الثنايا أشنبٍ غيرَ أثعَلِ ١٣

(١) عبرة مهراقة دمعة مسكوبة ، والمعول المستعان به (٢) الدأب الشأن. (٣) تضوع المسك : انتشرت رائحته . والربا الرائحة ، والمراد أنه إذا قامت هاتان المرأتان يضوع منهما المسك . كما يأتي النسيم بشذا القرنفل . (٤) المحمل على وزن منبر حمالة السيف (٥) ابتداء الشاعر بذكر حوادث شبابه وملاعب صباه ، وخص بالذكر أيامه بدارة جلجل ، وهي مكان بنجد ، وسيحدثنا عن لهوه أطيب الحديث (٦) مطية الشاعر هنا ناقته (٧) هداب الدمقس أطراف الحرير والمفتل : المفتول (٨) السديف : قطع السنام والصحاف جمع صحفة القصعة والعبيط لحم الذبيحة تنحر من غير علة ، والمشمل الشهي (٩) الخدر هنا هودج وعنيزة اسم محبوبته ، إنك مرجلي أي فاضحي بين رجالي (١٠) الغبيط الرحل ، عقرت بعيري دميت ظهره لثقلك (١١) الجنى : الشهد المعلل الشهي (١٢) البكر : البعير ، الرداف : هو أن يركب اثنان على دابة واحدة ـ أذيقينا جنا القرنفل أي مكنينا من ثغرك العطر (١٣) الاقحوان زهر أبيض جميل شبه به الثغر العذب أشنب فيه برد ورقة وصفاء .

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع ... فألهيتها عن ذي تمائم محول ١

إذا ما بكى من خلفها انصرفت له ... بشق وتحتي شقها لم يحول ٢

ويوماً على ظهر الكثيب تعذرت ... علي وآلت حلفة لم تحلل ٣

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل ... وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي ٤

أغرك مني أن حبك قاتلي ... وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وأنك قسمت الفؤاد فنصفه ... قتيل ونصف بالحديد مكبل ٥

فإن تك قد ساءتك مني خليقة ... فسلي ثيابي من ثيابك تنسل ٦

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي ... بسهميك في أعشار قلب مقتل ٧

وبيضة خدر لا يرام خباؤها ... تمتعت من لهو بها غير معجل ٨

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً ... علي حراصاً لو يسرون مقتلي ٩

إذا ما الثريا في السماء تعرضت ... تعرض أثناء الوشاح المفصل ١٠

فجئت وقد أنضت لنوم ثيابها ... لدى الستر إلا لبسة المتفضل ١١

فقالت يمين الله ما لك حيلة ... وما إن أرى عنك الغواية تنجلي ١٢

(١) محول مضى عليه حول. يريد أن يقول إني رجل أفتن النساء، حتى لا تنجو مني الحبلى ولا المرضع، مع أنها في شغل بالحمل والرضاع (٢) في هذا البيت صورة فاتنة من صور الجماع (٣) تعذرت: تمنعت. أي مضت في عنادها وتجنيها – آلت حلفة: أقسمت يمينا؛ لم تحلل: لم تقيد اليمين بحلها هو ولم يستثن فيها (٤) ازمع الأمر، وازمع عليه. إذا ثبت عزمه على إمضائه. الصرم بفتح الصاد وضمها الهجر والقطيعة والإجمال: الرفق (٥) مكبل: مقيد (٦) الخليقة: السجية والطبيعة والثياب هنا القلب وتنسل تسقط والمعنى: إذا ساءتك خصلة من خصالي فسلي قلبي من قلبك ٧ السهام: العيون. قلب مقتل: أهلكه العشق (٨) بيضة الخدر كناية عن المرأة المخدرة المحجبة. غير معجل غير مضطر إلى العجلة ٩ الأحراس: الحراس وحراص جمع حريص وأسر الأمر أضمره (١٠) الوشاح: أديم عريض يرصع بالجوهرة تشده المرأة بين عاتقها وكشحها. والوشاح المفصل: هو المرصع بالذهب أو الزبرجد (١١) أنضى الثياب: خلعها. والمتفضل هو الذي يلبس ثوباً واحداً حين يأوي إلى فراشه (١٣) مالك حيلة: أي لا بصر لك بعواقب الأمور.

خرجتُ بها أمشي تجرُّ وراءنا على أثرَيْنا ذيلَ مِرطٍ مُرَحَّلِ[١]
فلما أجَزنا ساحةَ الحيِّ وانتحت بنا بطنَ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عقنقلِ[٢]
هَصَرْتُ بفَوْدَيْ رأسِها فتمايلتْ عليَّ هضيمَ الكشحِ ريَّا المخلخلِ[٣]
مُهَفْهَفةٌ بَيضاءُ غيرُ مُفاضةٍ ترائبُها مصقولةٌ كالسَّجَنْجَلِ[٤]
كبِكرِ المُقاناةِ البَياضِ بصُفرةٍ غذاها نميرُ الماءِ غيرُ المحلَّلِ[٥]
تَصُدُّ وتُبْدي عن أسيلٍ وتتقي بناظرةٍ من وَحشِ وَجْرةَ مُطفِلِ[٦]
وجيدٍ كجيدِ الرئمِ ليس بفاحشٍ إذا هي نَصَّتْه ولا بمُعطَّلِ[٧]
وفرْعٍ يزينُ المتنَ أسوَدَ فاحمٍ أثيثٍ كقِنوِ النخلةِ المتَعَثْكِلِ[٨]
غدائرُهُ مُسْتَشزِراتٌ إلى العُلى تضلُّ المدارى في مُثنًى ومُرْسَلِ[٩]
وكشحٍ لطيفٍ كالجديلِ مُخَصَّرٍ وساقٍ كأنبوبِ السَّقيِّ المذَلَّلِ[١٠]

(١) المرط كساء من صوف أو خز مرجل، فيه صور رجال وبالحاء فيه صور رحال ٢) جزت المكان: قطعته وخلفته، انتحت: قصدت، الخبت: الفضاء الواسع والعقنقل: الوادي العظيم (٣ هصرت فوديها: أملتهما إلي، والفودان: جانبا الرأس هضيم الكشح: دقيقة الخصر، ريا المخلخل: بضة الساق (٤) مهفهفة ضامرة البطن. غير مفاضة. غير مسترخية اللحم؛ الترائب موضع القلادة من الصدر والسجنجل المرآة المجلوة ٥ المقاناة الخلط والشاعر يشبه خليلته ببيضة النعام لأول عهدها بمزج الصفرة بالبياض) المحلل: الذي كدرته الإبل، يصف حبيبته بانها لا تشرب الماء المحلل كسائر الأعرابيات، وإنما هي سيدة مترفة تشرب الماء النمير (٦) تصد: تصدق، تبدي: تعيد الصد، أي تصد. الأسيل. الرقيق، صفة لموصوف محذوف هو الخد، وجرة: مكان لتربية الوحوش بين مكة والبصرة ومطفل ذات طفل والمعنى تصد عن خد أسيل وتتقي المحب بعين مملوءة بالعطف، كما تنظر إلى طفلها الظبية الرءوم (٧) الرئم: الظبي، نصته: رفعته، معطل وعاطل: لا حلية فيه ٨) الفرع الشعر ٩) مستشزرات: مرتفعات والغدائر خصل الشعر، المداري: الأمشاط ١٠) الجديل: الوشاح والمذلل اللين، ومنه شجرة مذللة معطفة الأغصان، ينالها كل أحد.

ويُضْحي فتيتُ المسكِ فوقَ فراشها نؤوم الضحى لم تَنتطق عن تفضل [١]
وتعطو برَخْصٍ غير شثن كأنه أساريع ظبي أو مساويك إسحل [٢]
تضيءُ الظلام بالعشاء كأنها مَنارَةُ مُمْسى راهب مُتبتّل [٣]
إلى مثلها يَرْنو الحليم صبابة إذا ما اسبكَرّت بين درعٍ ومجول [٤]
تسلتْ عماياتُ الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل [٥]
ألا رُبَّ خصم فيك لوى رددته نصيح على تعذاله غير مؤتل [٦]
وليل كموج البحر أرخى سُدُولهُ عليّ بأنواع الهموم ليبتلي [٧]
فقلت له لما تمطى بجوزه وأردف أعجازاً وناء بكلكل [٨]
ألا أيها الليلُ الطويل ألا انجل بصبح وما الإصباح منك بأمثل [٩]
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل [١٠]
كأن الثريّا عُلقت في مَصامِها بأمراس كتّان إلى صُمّ جندل [١١]

(١) انتطقت المرأة : لبست المنطق أو النطاق، والتفضل لبس الثوب الواحد. وعن هنا بمعنى بعد، أي لم تلبس المنطق بعد المفضل يريد أنها لم تكتس بعد عري، ونوم الضحى من عادات المترفات. ٢) العطو التناول، ورخص: لين ناعم، وهو وصف للبنان، وشثن: خشن وأساريع جمع أسروع والإسحل شجر يستاك به. (٣) يقول : تضيء محبوبتي الظلام كأنها منارة الراهب في المساء ، ٤) اسبكرت: اعتدلت واستقامت، ودرع المرأة قميصها (٥ تسلت: تكشفت وانزاحت، عمايات جمع عماية ، وهي الغواية والضلال .ومنسل : سال، ولم يسل عن هواها فؤادي. (٦ ألوى : عسر . والتعذل والعذل. اللوم. غير مؤتل غير مقصر (٧ السدول الستور ، يبتلي : يختبر . وهو يصف الليل بتعمد إيذائه ٨. تمطى الليل طال والجوز الوسط ، وفي رواية ، بصلبه : ناء نهض، والكلكل : الصدر (٩) أمثل أفضل، يذكر أن همومه موصولة ، فليس الصبح خيراً من الليل ١٠) مغار : محكم شديد ، ويذبل اسم جبل ؛ يصف نجوم الليل بالثبات (١١) في مصامها : في موضعها ، أمراس جمع مرس وهو الحبل، والجندل الأصم: الحجر الصلب.

وقربةِ أقوامٍ جعلتُ عصامها على كاهلٍ مني ذلول مرحّلِ ١
وواد كجوفِ العيرِ قفرٍ قطعتهُ به الذئبُ يعوي كالخليع المعيّلِ ٢
فقلتُ له لما عوى : إن شأننا قليلُ الغنى إن كنت لما تمول ٣
كلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَـه ومن يحترث حرثي وحرثك يهزُلِ ٤
وقد أغتدي والطيرُ في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابدِ هيكلِ ٥
مِكرٍ مِفرٍ مُقبلٍ مدبرٍ معـاً كجلمود صخرٍ حطه السيلُ من علِ ٦
كميتٍ يزلّ اللبدُ عن حال متنه كما زلت الصفواءُ بالمتنزّلِ ٧
على العقبِ جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه غليُ مرجلِ ٨
مِسَحٍّ إذا ما السابحات على الونى أثرْنَ غباراً بالكديدِ المركلِ ٩
يزِلُّ الغلامُ الخف عن صهواتهِ ويلوي بأثوابِ العنيفِ المثقلِ ١٠
دريرٍ كخذروفِ الوليدِ أمرّه تتابعُ كفيهِ بخيطٍ موصّلِ ١١

(١) العصام : حبل تربط به القربة ، ومرحل كثير الحمل والترحيل (٢) يقال للموضع الذي لاخير فيه ، والعيل : المسيب الذي ألقى حبله على غاربه (٣) تمول : صار ذا مال (٤) أفاته . ضيعه ومن يحترث حرثي وحرثك . من هو مثلنا ، ويهزل : يضعف (٥) وكنات . العش ، وفرس أجرد ومنجرد : قصير الشعر رقيقه ، الأوابد الوحش النافرة ، وقيد الأوابد مبالغة في سرعة العدو ، والهيكل : الضخم من كل شيء (٦) مكر مفر سريع الكر والفر ، من عل : من فوق . يصف عدو الفرس في كره وفره وإقباله وإدباره بجلاميد الصخر تحطها السيول (٧) كميت خالط حمرته سواد ويزل يسقط ، عن حال متنه عن وسط ظهره الصفواء الملساء المتنزل المطر ينزل من السماء (٨) وجياش إذا حركته بعقبك جاش كما يجيش البحر بالأمواج اهتزامه صهيله ، المرجل : القدر ، يشبه صهيل جواده حين يجيش حمية بالقدر حين تفور (٩) مسح : عداء . السابحات والسوابح : الخيول . الونى الضعف والتعب ، الكديد الأرض تكدها بحوافرها الدواب . المركل : المكدود (١٠) الخف الجلد أو الخفيف العنيف من لا رفق له بركوب الخيل ، المثقل : الثقيل ، يريد أنه لا يذل لغير سيده وهو وصف بديع (١١) درير : كثير الجري ، الوليد : الصبي ، والخذروف شيء يدرره في يديه بخيط فيسمع له دوي نحلة او بلبل ، أمره فتله .

لهُ أيْطلا ظَبيٍ وساقا نعامــةٍ وإرخاءُ سِرْحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ ١
ضليعٌ إذا اسْتَدْبَرْتَه سَدَّ فرْجَهُ بضافٍ فُوَيقَ الأرض ليس بأعْزَلِ ٢
كأنَّ سَنا المتنَيْنِ منه إذا انتحى مَداكُ عَروسٍ أو صلايةُ حَنظلِ ٣
كأنَّ دمـــاءَ الهـادياتِ بنَحْرِه عُصارةُ حِناءٍ بشَيبٍ مُرَجّلِ ٤
فعَنَّ لنا سِرْبٌ كأن نِعاجَـــهُ عذارى دَوارٍ في مُلاءٍ مُذيــلِ ٥
فأدبرنَ كالجزْعِ المفَصَّلِ بَيْنَـهُ بجيدٍ مُعمٍّ في العشيرة مُخوَلِ ٦
فألحقنـــا بالهاديات ودُونَـــهُ جواحِرُها في صَرّةٍ لم تزَيــلِ ٧
فعادى عداءً بين ثَوْرٍ ونَعْجَــةٍ دِراكاً ولم ينضَحْ بماء فيُغسَلِ ٨
فظَلّ طهاةُ اللحْم ما بين مُنْضِجٍ صفيفَ شِواءٍ أو قَديدٍ مُعجّلِ ٩

(١) الأيطل الكشح ، السرحان الذئب ، والتقريب : رفع اليدين معاً (٢) ضليع قوي الجنبين ، استدبرته : نظرت إليه من خلف (٣) المداك والمدوك الصلاية يذكر أن الجواد إذا انتحى ناحية وهو غير مسرج رأيت ظهره براقاً لامعاً كما تلمع صلاية الحنظل و مداك العروس ، وإنما خص صلاية الحنظل لما يترك بها من الدهن اللامع : وخص مداك العروس لقرب عهـده بالطيب . وإن امرء القيس لشاعر فنان ! (٤) الهاديات : المتقدمات ويريد بها هنا الفرائس ، مرجل : مسرح ، يذكر أن دماء الفرائس بنحره كعصارة الحناء بالشيب المرجل ، وكلاهما يلمع من الخضاب (٥) عن : عرض ، السرب : القطيع ، النعاج : البقر ، دوار : اسم صنم ، مذيل : طويل الأطراف (٦) الجزع : الخرز ، لأن لونه يجزع إلى بياض وسواد ، والمفصل بينه : أي الذي فصل بين حباته بالذهب أو الزبرجد ، الجيد : العنق ، المعمم والمخول : كرام العم والخال : يشبه النعاج بالجزع المفصل في جيد من كرم عمه وخاله (٧) الهاديات : السابقات المتقدمات . الجواحر : المتخلفات ، في صرة : في صياح شديد ، لم تزيل : تتفرق (٨) عادى عداء : جمع بين ثور ونعجة ، دراكاً : تباعاً ، لم ينضح بماء : لم يعرق (٦) الطهاة جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف ، صف على النار ليشوى وفي الشمس ليقدد .

ورُحْنا يكَادُ الطــَّرْفُ يَقصُرُ دونه متى ما تَرَقَّ العينُ فيهِ تَسَفَّلِ ١
فباتَ عليه سَرْجُهُ ولجامُـــهُ وبات بعَيْني قائماً غيرَ مُرْسلِ ٢
أصاحِ ؟ ترى برْقاً أريكَ وَميضَهُ كلمـعِ اليدين في حَبِيٍّ مُكلل ٣
يُضيءُ سناهُ أو مَصابيحُ راهِب أهانَ السّليط بالذُّبالِ المفتّـــلِ ٤
قَعَدْتُ وأصحابي لهُ بين ضارجٍ وبين العُذَيْبِ ، بُعدَ ما مُتأمّلِ ٥
على قَطنٍ بالشَّيْمِ أيمنُ صوْبِــهِ وأيْسَرُهُ على السّتار فيذبـــلِ ٦
فأضْحى يسحُّ الماءَ حول كُتَيْفة يكبُّ على الأذقان دَوْحَ الكنَهْبلِ ٧
ومرَّ على القنانِ مِنْ نفيانــهِ فأنزَلَ منهُ العُصْمَ من كلّ مَنزلِ ٨
وتَيماءُ لم يترُكْ بها جِذعَ نخْــلة ولا أطُماً إلا مشيداً بجَنْـدَلِ ٩
كأنّ ثبــيراً في عَرانينِ وَبْـــلهِ كَبيرُ أناسٍ في بجاد مُزمّلِ ١٠

(١) يكاد الطرف يقصر دونه أي أن العين لا تقدر على حصر محاسنه ، ترق: تنظر إلى أعلا ، تسفل: تنظر إلى أسفل ٢ يريد أنه بات مقيداً مسرجاً ملجماً ، ليستطيع الفارس امتطاءه متى شاء (٣) ومض البرق ومضاً ووميضاً ومضاناً ، لمع لمعاً خفياً ، الحبي : الحباب المتراكم (٤) السليط ، الزيت الجيد ، الذبال ، جمع ذبالة ، وهي فتيلة المصباح وفي رواية : آمال ٥ ضارج اسم ماء ببلاد طيء ، والعذيب اسم ماء قريب منه ، ومتأمل أي مأمول (٦) قطن اسم جبل ، الشيم النظر إلى البرق ، الصواب : أي المطر ، والستار ويذبل جبلان (٧) يسح الماء يسكبه ، وكتيفة اسم أرض دوح : جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة والكنهبل نوع من الشجر الضخم (٨) القنان: اسم جبل لبني أسد ، نفيان المطر : رشاشه ، العصم : الوعول ومفردها أعصم سميت بذلك لاعتصامها بالجبال (٩) تيماء اسم أرض ، الأطم : القصر يريد أن المطر لم يترك بتيماء إلا جذوع النخل وما شيد بالصخر من الآطام والديار (١٠) ثبيراً : اسم جبل ، عرانين وبله : في طغيان وبله ، البجاد : كساء مخطط يلبسه كبار الأعراب ، مزمل : ملفف .

كأن ذُرا رأسِ المجيمرِ غدوةً من السيل والغثاء فلكة مغزَل ١
وألقى بصحراء الغَبيط بعاعَه نزول اليماني ذي العياب المحمَّل ٢
كأن مُكاكيَّ الجواءِ غديةً صبحن سُلافاً من رَحيق مفلفل ٣
كأن سباعاً فيه غرقى عشيةً بأرجائه القصوَى أنابيشُ عنصل ٤

(٢) النابغة الذبياني

هو النابغة الذبياني أبو أمامة زياد بن معاوية : أحدُ فحول الطبقة الأولى من شعراء الجاهلية ، وزعيمُهم بعكاظ ، وأحسنهم ديباجة لفظ ، وجلاء معنى ، ولطف اعتذار – ولقب بالنابغة لنبوغه في الشعر فجاءة وهو كبير ، بعد أن امتنع عليه وهو صغير – وهو من أشراف ذبيان ، إلا أن تكسبه بالشعر غض قليلاً من شرفه ، على أنه لم يتكسب بشعره إلا في مدح ملوك العرب ، وكان من أمره في ذلك أنه اتصل بملوك الحيرة ومدحهم ، وطالت صحبته للنعمان بن المنذر ، فأدناه منه إلى أن وشى به عند النعمان أحد بطانته ، فغضب عليه وهمَّ بقتله ، فأسر إليه بذلك عصامُ حاجب النعمان ، فهرب النابغة إلى ملوك غسان في الشام ، المنافسين للمناذرة في ملك العرب في الحيرة ، فمدح عمرو بن الحارث الأصغر وأخاه النعمان ، غير أن قديم صحبته للنعمان جعله يحن إلى معاودة العيش في ظلاله ، فتنصل واعتذر اليه بقصائد عطفت عليه قلبه ، وعمّر النابغة طويلاً ، ومات قبيل البعثة .

---

(١) المجمر . اسم جبل ، وذرا رأسه ، أعاليه . الغثاء : ما يخالط زبد السيل من ورق الشجر والحشيش (٢) الغبيط أراض لبني يربوع ، بعاعه ثقله – العياب جمع عيبة ، وهي ما يضع الرجل فيه متاعه (٣) المكاكي : ضرب من الطير يصيح في الغدوات – صبحن : شربن شراب الصباح – السلاف والسلافة . صفوة الخمر – الرحيق : الخمر ، مفلفل وضع عليه فلفل يريد أنه لذاع (٤) الأنابيش : جمع أنبوش وهو أصل البقل ، والعنصل البصل البري .

شعره : يمتاز برشاقة اللفظ ووضوح المعنى ، وحسن النظم . وقلة التكلف حتى عُدّ عند المدققين من الشعراء كجرير أنه أشعر شُعراء الجاهلية ، وأغراه تكسُّبه بالشعر أن يفتنّ في ضروب المدْح ، حتى مدَح الشيء وضده .

ومن جيد قوله في الاعتذار :

أتاني أبيت اللعن)[١] أنك لُمْتَني — وتلك التي أهتمُّ[٢] منها وأنصبُ[٣]
فبتُّ كأن العائدات[٤] فرشن لي — هراسا[٥] به يُعلى فراشي ويقشَب[٦]
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبـــة — وليس وراءَ الله للمــــرء مطلب
لئن كنت قد بُلغتَ عني جناية[٧] — لمبْلغك الواشي أغشُّ وأكذَب
ولكنني كنت امرأ لي جانبٌ[٨] — من الأرض فيه مستراد[٩] ومذهب
ملوكٌ[١٠] وإخوان إذا ما أتيتهمْ — أُحَكَّمُ في أموالهم وأُقَرَّب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم — فلم ترهم في شكرهم لك أذنَبوا[١١]
فــلا تتركنّي بالوعيد كأنني — إلى الناس مطليٌّ به القار[١٢] أجربُ
ألم تر أن الله أعطاك سَورة[١٣] — ترى كل ملك دونها يتذبذَب[١٤]
ولست بمستبق أخاً لا تلمُّــــهُ — على شعث ، أي الرجال المهذبُ[١٥]

---

(١) جملة دعائية يخاطبون بها الملوك تحية ،ومعناها أبيت أن تفعل شيئاً تلعن به ، وكانت هذه تحية ملوك لخم وجذام (٢) أصير لأجلها ذا هم (٣) أتعب (٤) الزائرات في المرض (٥) شوكاً كأنه حسك (٦) يخلط (٧) ذنباً وفي رواية: خيانة (٨) الجانب الناحية وأراد به الشام (٩) موضع يتردد فيه لطلب الرزق (١٠) بدل من مستراد ومذهب أو مبتدأ بتقدير فيه ملوك (١١) قال الأصمعي: كما فعلت أنت بقوم قربتهم وأكرمتهم فتركوا الملوك ولزموك فلم تر ذلك ذنباً عليهم (١٢) القطران (١٣) منزلة رفيعة وشرفاً (١٤) يضرب أراد بهذا البيت والذي قبله تسلية النعمان على ما حصل من مدحه لآل جفنة (١٥) تلمه تصلحه . والشعث الفساد ، والمهذب المتقى من العيوب ، يعتذر بذلك عن زلته .

فإن أك مظلوماً [١] فعبدٌ ظلمته   وإن تك ذا عُتْبى [٢] فمثلك يُعتِب [٣]

ومن أبلغ المعلقات والمطولات أيضاً :

مُعلقة النابغة الذبياني

عوجُوا فحيوا لِنُعمٍ دمنة الدار ،   ماذا تحيون من نؤي وأحجار ؟ [٤]
أقوى وأقفر مِن نُعْـم وغيّرَه   هوجُ الرياح بهابي الترب موّار [٥]
وقفت فيها سراة اليومَ أسائلها   عن آل نُعم أموناً عبرَ أسفار [٦]
فاستعجمت دارُ نعم ما تُكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار [٧]
فما وجدت بها شيئاً ألوذ بـه   إلا الثمامَ وإلا مَوْقدَ النار [٨]
وقد أراني ونعماً لاهيينِ معـاً   والدهر والعيش لم يَهْمُمْ بإمرار [٩]
أيام تخبرُني نعم وأخبرهـا   ما أكتم الناس مَن حاجي وأسراري
لولا حبائل من نعم علقتُ بهـا   لأقصر القلب عنها أي إقصار [١٠]
فإن أفاق لقد طالت عمايتـه   والمرء يخلق طوراً بعد أطوار [١١]
نُبئت نعماً على الهجران عاتبة   سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري
رأيت نعماً وأصحابي على عَجَل   والعيس للبين قد شدّت بأكوار
فريع قلبي وكانت نظرةٌ عرضت   حيناً وتوفيقَ أقدار لأقدار [١٢]
بيضاء كالشمس وافتْ يومَ أسعدها   لم تُؤذِ أهلاً ولم تفحِش على جار

(١) جعل غضبه ظلماً لأنه عن غير موجب (٢) رضا (٣) يرضى (٤) عوجوا: قفوا. الدمنة : ما اجتمع من آثار الديار، النؤي ما يكون حول الخباء لمنع المطر (٥) أقوى : خلا ، أقفر : صار قفراً ، هوج جمع أهوج ، الريح تعصف بشدة هابي الترب : سافيه ، موار يجيء ويذهب (٦) سراة اليوم: وسطه. والأمون، الناقة القوية المأمونة (٧) استعجمت : عيت الجواب ٨ ألوذ به : أفزع إليه، الثمام : نوع من النبت الدقيق الضعيف (٩) أمر العيش إمراراً صار مراً

(١٠) الحبائل: جمع حبالة وهي الشرك، أقصر: كف وانصرف (١١) العماية الضلالة والطور الحال ويخلق يتغير (١٢) ريع من الروع وهو الفزع ، والحين : الهلاك.

تلوثُ بعد افتضال البرد مئزرها لوثاً على مثل دِعْص الرملة الهاري ١
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها في جيد واضحةِ الخدّين معطار ٢
تسقي الضجيعَ إذا استسقى بذي أشر عذب المذاقة بعد النوم مخمار ٣
كأن مشمولة صرفاً بريقتها من بعدِ رقدتها أو شهد مُشتار ٤
أقولُ والنجمُ قد مالت أواخرُهُ إلى المغيب : تثبّتْ نظرةً حارِ ٥
ألمحةٌ من سنا برقٍ رأى بصري أم وجهُ نعم بدا لي أم سنا نار
بل وجهُ نعم بدا والليل مُعتكرٌ فلاح من بين أثوابٍ وأستار
إنّ الحمول التي راحتْ مُهَجّرة يتبعْنَ كلّ سفيه الرأي مغيار ٦
نواعمٌ مِثل بيضاتٍ بمحنية يحفزنَ منه ظليماً في نقاً هار ٧
إذا تغنى الحمامُ الوُرقُ هيّجني وإنْ تغرّبت عنها أم عمّار ٨
ومهمه نازحٍ تعوي الذئابُ به نائي المياه عن الوُرّاد مقفار ٩
جاوزْتهُ بعلنداةٍ مناقَلةٍ وعر الطريق على الإحزان مضمار ١٠
تجتابُ أرضاً إلى أرض بذي زجل ماض على الهول هاد غير محيار ١١

(١) تلوث تلف وافتضال البرد هو التوشح به : والدعص : الكثيب الصغير والهاري : المنهار (٢ الجيد العنق . معطار : كثير العطر ووضوح الخد إشراقه (٣ الأشر حسن الثغر وتحريز أطرافه مخمر عطر تقول وجدت خمرة الطيب أي رائحته (٤) المشمولة الخمر والصرف الخالصة ، والريقة : الريق . والمشتار : الذي ينزع العسل من بيوت النحل (٥ حار مرخم حارث (٦) الحمول : الهوادج ويريد بها النساء راحت مهجرة سارت وقت الهجير ، مغيار : غيور (٧ المحنية والمحنو : منعطف الوادي ٨ الورق : جمع ورقاء ، وهي الحمامة تألف الشجر الوريق . وأم عمار واقعة موقع البدل من الضمير في (عنها) ٩) المهمه ، الوادي الموحش ، نازح : بعيد . الوراد ، جمع وارد مقفار : لا أنيس به (١٠) علنداة : شديدة وهو وصف للناقة ، مناقلة : سريعة نقل القوائم في جري بين العدو والخبب . الإحزان : المشي في الحزن ، وهو ما صلب من الأرض . مضمار : كثير الضمور (١١) تجتاب : تقطع وتجوب ، الزجل : الصوت ، محيار : شديد الحيرة .

إذا الرُّكاب ونت عنها ركائبها تشذّرت ببعيد الفتر خطـار ١
كأنما الرَّحلُ عنها فوق ذي جدَدٍ ذب الرّياد إلى الأشباح نظـار ٢
مطرَّد أفردت عنه حلائله من وحش وجرة أو من وحش ذي قار ٣
مجرَّس وَحَدٌ جأب أطاع له نبات غيث من الوسمي مبكار ٤
سراته ما خلا لبانه لهقٌ وفي القوائم مثل الوشم بالقار ٥
باتت له ليلةٌ شهباءُ تسفعه بحاصب ذات إشعان وإمطار ٦
وباتَ ضيفاً لأرطاةٍ وألجأهُ مع الظلام إليها وابل سار ٧
حتى إذا ما انجلت ظلماء ليلته وأسفر الصبحُ عنه أيَ إسفار
أهوى له قانصٌ يسعى بأكلبه عاري الأشاجع منْ قناص أنمار ٨
محالفُ الصيدِ هبّاشٌ له لَحَم ما إن عليه ثيابٌ غير أطمار ٩

(١) ونت : من الونى ، وهو الضعف . تشذرت : نشطت . الفتر : الضعف . خطار كثير الخطران برجليه على الناقة يحثها على المضي (٢) ذو الجدد : هو ثور الوحش تعلو ظهره خطوط بيض وحمر . والذب : الدفع ، والرياد والارتياد التجول ، ٣) مطرد : مشرد ، ووجرة وذو قار موضعان ، والوحش إذا أفردت عنه حلائله جن وأكثر من العدو في أرجاء الفضاء ٤) مجرس : خائف وذلك أن يسمع جرس الانسان أي صوته – وحد : وحيد . جأب صلب شديد تطاع له الكلأ وأطاع : إذا اتسع وأمكن رعيه حيث شاء – الوسمي : أول المطر . ومثله المبكار (٥ سراته ظهره ، لبانه : صدره ، لهق : أبيض ، القار : شيء أسود تطلى به السفن (٦ ليلة شهباء ويوم أشهب : تهب فيهما ريح باردة – تسفعه . تلفعه وترميه . والحاصب الريح تقذف بالحصباء وهي الحصى ٧) الأرطاة : شجرة مرة والوابل المطر الغزير ، والساري يسح بالليل . ٨) أهوى له : انقض عليه ، أكلبه : كلابه الأشاجع : أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف . وعريها محمود في الرجال ، أنمار اسم لقبيلة مشهورة بالصيد (٩ هباش : كثير الهبش وهو الكسب يتكسب لهم ومعه هباشات ، أي مكاسب أطمار جمع طمر : وهو الثوب الخلق .

يسعى بغضب براها فهي طاوية ٌ طول ارتحال بها منه وتَسْيار ١
حتى إذا الثورُ بعد النفر أمكنه أشلى وأرسل غطفاً كلها ضار ٢
فكرَّ محمية من أن يفر كما كرَّ المحامي حفاظاً خشية العار ٣
فشكَّ بالروق منه صدرُ أولها شك المشاعب أعشاراً بأعشار ٤
ثم انثنى بعدُ للثاني فأقصده بذات ثغر بعيد القعر نعَّار ٥
وأثبت الثالث الباقي بنافذة من باسل عالم بالطعن كرّار ٦
وظل في سبعة منها لحقن به يكرُّ بالروق فيها كر إسوار ٧
حتى إذ ما قضى منها لبانتهُ وعاد فيها بإقبال وإدبار ٨
انقض كالكوكب الدري منصلتاً يهوي ويخلط تقريباً بإحضار ٩
فذاك شبهُ قلوصي إذ أضرَّ بها طول السُّرى والسّرى من بعد أسفار ١٠
لقد نهيت بني ذبيان عن أقر وعن تربّعهم في كل أصفار ١١
فقلت يا قوم إن الليث منقبضٌ على براثنه لوثبة الضاري ١٢
لا أعرفن رَبرَباً حوراً مدامعُها كأنهنّ نعاجٌ حولَ دَوّار ١٣

(١) الغضب: جمع أغضب، وهو اللين الناعم. طاوية جائعة (٢) النفر: العدو. أشلي. تقول أشلى: وتقول أشليت الكلب للصيد (٣) محمية. حفاظ والمحامي الذائد والمدافع (٤) الروق القرن، المشاعب: الذي يشعب القدح ويصدعه (٥) أقصده. رماه بذات ثغر: أي بطعنة ذات ثغر والثغر هنا الشق، بعيد القعر بعيد الغور. نعار له نعير (٦) نافذة أي ماضية. باسل: من البسالة وهي الشجاعة (٧) الإسوار الرامي الحاذق! (٨) لبانته: حاجته (٩) منصلتاً: الانصلات هو المضي في سرعة (١٠) القلوص: الناقة والسرى: السير بالليل (١١) أقر: واد خصيب حماه النعمان. وبنو ذبيان قوم النابغة (١٢) منقبض على براثنه متحفز للوثوب وثبة الأسد الضاري (١٣) الربرب القطيع من البقر شبه به النساء حور جمع حوراء، من الحور وهو شدة بياض العين مع شدة سواد سوادها والمدامع: العيون. والنعاج يريد بها هنا أيضاً النساء ودوار: صنم كن يطفن حوله.

ينظرنَ شزراً إليّ مَن جاء عن عُرُض بأوجه منكرات الرق أحرار ١
خلفَ العضاريط لا يوقين فاحشة مستمسكات بأقتاب وأكوار ٢
يذرفن دمعاً على الأشفار منحدراً يأملن رحلة حصن وابن سيّار ٣
إما عُصيت فإني غير منفلت مني اللصابُ فجنبا حرّة النار ٤
إذ أصنع البيت في سوداء مظلمة تقيدُ العير لا يسري بها الساري ٥
تدافع الناس عنّا حين نركبها منَ المظالم ندعى أم صبار
ساق الرفيدات من جَوْش ومن خَرَد وماش من رهط ربعيّ وحجّار ٦
قرمي قضاعة حلاّ حولَ حجرته مدّا عليه بسلاف وأنفار ٧
حتى استقل بجمع لا كفاء له يففي الوحوش عن الصحراء جرار ٨
لا يخفضُ الرزّ عن أرض ألم بها ولا يضل على مصباحه الساري ٩
وعيرتني بنو ذبيان خشيته وهل عليّ بأن أخشاك من عار

---

(١) النظر الشزر هو النظر في إعراض بمؤخر العين كنظر المباغض، العرض: الجانب منكرات الرق أحرار صفة للنساء يرميهن السبي بالعبودية (٢) العضاريط: الخدم، لا يوقين فحشة يريد أن السبي عرضهن للمكر أي الفحشاء الأقتاب: جمع قتب: وهو عود الرحل والأكواع الرحال (٣) الأشفار منابت الهدب (٤) اللصاب: جمع لصب وهو الشعب الضيق من الجبل والحرة: أرض ذات حجارة سود نخرت كأنها حرقت بالنار (٥) سوداء مظلمة وصف لحرة النار. تقيد العير تمنعه من المشي (٦) الرفيدات، بنو رفيدة من كلب بن وبرة جوش: جبل ببلاد بني القين، ربعي وحجار رجلان من قضاعة (٧) قرمي قضاعة. صفة لربعي وحجار والمراد الرجل القوي المتين. حلا: نزلا، مدا عليه: أمداه السلاف: من يتقدمون العسكر والأنفار: من يتكون الجيش من أفرادهم.

(٨) استقل: نهض: لا كفاء له، لا نظير له، والجرار الجيش الكثير كأنه يجر بعضه بعضاً.

(٩) الرز: الصوت. ألم نزل يعني أنه لا يهاب أرضاً ينزل بها حتى يخفض صوته

(٣) زهير بن أبي سلمى المزني المضري

هو زُهير بن أبي سلمى : واسمه ربيعة بن رياح المزني ثالث فحول الطبقة الأولى من الجاهلية ، وأعفهم قولاً ، وأوجزهم لفظاً ، وأغزرهم حكمة ، وأكثرهم تهذيباً لشعره .

نشأ في غطفان وإن كان من مزينة ، من بيت جل أهله شعراء ، رجالاً ونساء ، واختص زهير بمدح هرم بن سنان الذبياني المري ، وأول ما أعجبه من فعله وحببّ إليه مدحه حسن سعيه هو والحارث بن عوف في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء بتحملهما ديات القتلى التي بلغت ثلاث آلاف بعير ، وقال في ذلك قصيدته ، وهي إحدى المعلقات السبع .

ثم تابع مدحه كما تابع هرم عطاءه حتى حلف ألا يمدحه زهير إلا أعطاه ، ولا يسأله إلا أعطاه ، ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً ، فاستحيا زهير منهُ ، فكان إذا رآه في ملأ قال : أنعِموا صباحاً غير هرم ، وخيركم استثنيت ، وكان زهير سيداً كثير المال حليماً معروفاً بالورع ، متديناً مؤمناً بالبعث والحساب ، كما يبدو من قوله :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخرْ ليوم حساب أو يعجل فينقم

وعُمِّرَ زهير ، ومات قبل البعثة بسنة .

وكان زهير صاحب روية وتعمل وتهذيب لما يقول ، ولاسيما مطوّلاته ، حتى قيل : إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهذبها في أربعة أشهر ، ويعرضها على خواصه في أربعة أشهر ، فلا يظهرها إلا بعد حول ، ولذلك يسمون بعض مطولاته الحوليات ، ومما سبق فيه غيره قوله يمدح هرماً

قد جعل المبتغون الخير في هرم والسائلون إلى أبوابه طرُقا
من يلق يوماً على علاته هرماً يلقَ السماحة َمنه والندى خُلُقا
لو نال حيٌّ من الدنيا بمكرمة أفقَ السماء لنالتْ كفه الأفقا

وشعره يمتاز أولاً بحسن الإيجـاز وحذف فضول الكـلام وحشوه ، بحيث يودعُ اللفظ اليسير المعنى الكثير .

وثانياً بإجادة المدح وتجنب الكذب فيه .

وثالثاً بتجنب التعقيد اللفظي والمعنوي، والبعد من وحشي الكلام وغريبه .

ورابعاً بقلة الهذر والسخف في كلامه ، ولذلك كان شعره عفيفاً يقلُّ فيه الهجاء ولقد هجا قوماً فأوجع ، ثم ندم على ما صنع .

ومن أشهر المعلقات والمطولات أيضاً :

مُعلقة زُهير بن أبي سلمى

أمِنْ أمّ أوْفى دمنةٌ لم تكلم — بحومانـة الدرّاج فالمتثـلم [١]
ديارٌ لهـا بالرّقمتـين كأنهـا — مراجيعُ وشم في نواشر معصمِ [٢]
بها العينُ والآرامُ يمشينَ خلفـه — وأطلاؤُها ينهضنَ من كل مجثم [٣]
وقفتُ بها منْ بعد عشرينَ حجة — فلأياً عرفتُ الدارَ بعدَ توهمِ [٤]
أثافيَّ سفعاً في معرّس مرجل — ونؤْياً كجذم الحوْض لم يتثلمِ [٥]
فلما عرفتُ الدارَ قلت لربعها — ألا انعِم صباحاً أيها الربعُ واسلمِ
تبصر خليلي هلْ ترى من ظعائن — تحملنَ بالعلياء من فوق جرثمِ [٦]

---

(١) أم أوفى امرأة زهير . ودمنة الدار : الأثر . لم تكلم : لم تظهر أي ، أمن دمن . أم أوفى دمنة لم تتكلم . وحومانة الدراج موضع . وكذلك المتثلم .

(٢) الرقمتان : اسم مكان ، مراجع الوشم : خطوطه ، ونواشر المعصم : عروقه

(٣) العين : البقر ، والآرام : الظباء وأطلاؤها : أولادها . والمجثم المكان الذي يقمن فيه يمشين خلفه : فوجاً بعد فوج وسرباً بعد سرب .

(٤) حجة · سنة (٥) الأثافي : الحجارة توضع عليها القدر . سفع : سود . ومعرس المرجل : الموضع الذي يكون فيه . والنؤي · مـا يحفر حول الخيام لمنع السيل . جذم الحوض أصله . لم يتثلم لم يتكسر (٦) الظعائن . الجمال عليها الهوادج : العليا وجريم : موضعان والتحمل الارتحال .

جعلنَ القنانَ عن يمين وحزْنَهُ ... وكم بالقنان من محـلّ ومحرم ١
علوْنَ بأنماط عتـاق وكلـة ... وِرَاد حواشيها مُشاكِهة الدمِ ٢
ظهرْنَ منَ السوبان ثمّ جزَعنهُ ... على كل قيني قشيب ومُفأم ٣
وَوركنَ في الـوبان يعلو مَتنهُ ... عليهنّ دَلّ الناعـم المتنعمِ ٤
بكرْنَ بكوراًواستحَرْنَ بسحرة ... فهن وَوادي الرس كاليد للفمِ ٥
وفيهن ملهى للصديق ومَنظـر ... أنيـق لعـين الناظـر المتوسمِ
كأن فتات العهن في كل مـنزل ... نزلنَ به حب الفنا لم يحطم ٦
فلما وَردنَ الماء زرقاً جمامهُ ... وضعن عصيى الحاضر المتخيمِ ٧
تذكرني الأحلامُ ليلى ومن تطفْ ... عليه خيالاتُ الأحبة يحـلمِ ٨
سعى ساعيان غيظ بن مرة بعدما ... تبزل مـا بين العشيرة بالدمِ ٩
فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حولهُ ... رجالٌ بنوه من قريش وجرهم ١٠
يميناً لـنعم السيدان وجدتمـا ... على كل حال من سحيل ومبرم ١١

(١) القنان : اسم جبل . الحزن ما غلظ من الأرض (٢) الأنماط : ثياب تفرش بها الهوادج . وعتاق : جيدة الحوك . والكلة : الستارة الناموسية ، وراد موردة ، مشاكهة مشابهة (٣) السوبان : اسم واد جزعنه قطعنه قشيب : جديد . مفأم : واسع (٤) وركن في السوبان . عرجن عليه ، متنه ظهره (٥) استحرن : سرين سحراً ، كاليد للفم : يريد أنهن في قربهن من وادي الرس كاليد للفم ؛ لأنها لا تخطئه في قربها منه (٦) العهن : الصوف ، الفنا : شجر له حب أحمر وفيه نقط سود (٧) جمام الماء : ما اجتمع منه والجمام الزرق المياه الصافية ووضع العصيى كناية من ترك السير . الحاضر : النازل على الماء ، المتخيم ؛ المقيم . (٨) في كتاب مدامع العشاق بحث مفصل عما قاله الشعراء في طيف الخيال . (٩) الساعيان في هذا الصلح هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان وإليهما يوجه زهير الثناء (١٠) البيت هو الكعبة وجرهم اسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش وأبادهم الله لبغيهم (١١) السحيل : الخيط المفرد المبرم المفتول ، والسحيل هنا والمبرم كناية عن الرخاء والشدة .

تَدارَكتُما عَبْساً وذُبْيان بعد ما ... تفانَوا ودقّوا بينهم عطرَ منشَم ١
وقد قُلتما : إن نُدرِكِ السّلم واسعاً ... بمالٍ ومعروفٍ منَ الأمرِ نَسلم ٢
فأصبحتما منها على خيرِ مَوطِنٍ ... بعيدَين فيها من عُقوق ومأثَم ٣
عظيمَين في عَليا مَعَدٍّ هُديتُما ... ومَنْ يستبحْ كنزاً منَ المجدِ يَعظُم
وأصبَحَ يُحْدَى فيهمُ منْ تِلادِكم ... مغانمُ شتّى من إفالٍ مُزَنّم ٤
تُعَفّى الكلوم بالمئين فأصبحت ... يُنجّمها مَنْ ليسَ فيها بمجْرِمِ ٥
يُنجّمُها قومٌ لقومٍ غَرامةً ... ولمْ يهريقوا بينهم مِلْءَ محْجَم ٦
ألا أبلغ الأحلافَ عَني رِسالة ... وذُبيان هل أقسَمْتُمُ كل مَقسم ٧
فلا تكتُمنّ اللهَ ما في صُدورِكم ... ليخفى ، ومهما يُكتَم اللهُ يَعلم
يُؤخّرْ فيُوضع في كتاب فيُدّخَر ... ليوم حساب أو يُعَجّل فيُنْقَم
وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمو ... وما هوَ عَنها بالحديثِ المرَجّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذَميمة ... وتضرى إذا ضَرّيْتُموها فتَضْرَم ٨
فتعرُككُمْ عَرْكَ الرَّحى بثفالها ... وتلقح كِشافاً ثمّ تُنْتَج فتُتْئم ٩

---

(١) منشم : امرأة تبيع عطراً . فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم
(٢) واسعاً خالصاً من شوائب الأحقاد .
(٣) العقوق : قطيعة الرحم ، والمأثم الإثم . وهو العدوان .
(٤) يحدى : يساق . إفال : جمع أفيل وهو الفصيل . مزنم : معلم .
(٥) تعفى : تمحى ، الكلوم الجروح ، ينجمها . يؤديها أقساطاً .
(٦) المحجم : وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد .
(٧) أي : هل حلفتم لا تعملون شيئاً ينقض ما تحالفتم عليه .
(٨) يقال ضريته فضرى : أي هجته فهاج . تضرم : تشتعل
(٩) الثفال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن .

جعلنَ القنانَ عن يمين وحزْنهُ وكم بالقنان من مُحِلٍّ ومحرم ١
علوْنَ بأنماط عتاق وكلّة وِرادٍ حواشيها مُشاكِهة الدمِ ٢
ظهرْنَ منَ السوبان ثمّ جزَعنهُ على كل قيني قشيب ومُفأم ٣
وَوركنَ في السوبان يعلو مَتنهُ عليهنّ دلّ الناعِم المتنعمِ ٤
بكرْنَ بكوراً واستَحَرْنَ بسحرة فهن وَوادي الرس كاليد للفمِ ٥
وفيهن ملهى للصديق ومَنظر أنيق لعين الناظر المتوسمِ
كأن فتات العهن في كل منزل نزلنَ به حب الفنا لم يحطم ٦
فلما وَردنَ الماء زرقاً جمامهُ وضعن عصي الحاضر المتخيمِ ٧
تذكرني الأحلامُ ليلى ومن تطفْ عليه خيالاتُ الأحبة يحلمِ ٨
سعى ساعيان غيظ بن مرةَ بعدما تبزل ما بين العشيرة بالدمِ ٩
فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حولهُ رجالٌ بنوه من قريش وجرهم ١٠
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم ١١

(١) القنان : اسم جبل . الحزن ما غلظ من الأرض (٢) الأنماط : ثياب تفرش بها الهوادج . وعتاق : جيدة الحوك . والكلة : الستارة الناموسية ؛ وراد موردة ؛ مشاكهة مشابهة (٣) السوبان : اسم واد جزعنه قطعنه قشيب : جديد مفأم : واسع (٤) وركن في السوبان . عرجن عليه ، متنه ظهره (٥) استحرن : سرين سحراً ، كاليد للفم : يريد أنهن في قربهن من وادي الرس كاليد للفم ؛ لأنها لا تخطئه في قربها منه (٦) العهن : الصوف ، الفنا : شجر له حب أحمر وفيه نقط سود (٧) جمام الماء : ما اجتمع منه والجمام الزرق المياه الصافية ووضع العصي كناية من ترك السير . الحاضر : النازل على الماء ، المتخيم ؛ المقيم . (٨) في كتاب مدامع العشاق بحث مفصل عما قاله الشعراء في طيف الخيال . (٩) الساعيان في هذا الصلح هما الحارث بن عوف وهرم بن سنان وإليهما يوجه زهير الثناء (١٠) البيت هو الكعبة وجرهم اسم لقوم كانوا ولاة البيت قبل قريش وأبادهم الله لبغيهم (١١) السحيل : الخيط المفرد المبرم المفتول ، والسحيل هنا والمبرم كناية عن الرخاء والشدة .

تَداركتُما عَبْساً وذُبْيان بعد ما ... تفانَوا ودقّوا بينهم عِطرَ مَنْشَمِ ١
وقد قُلتما : إن نُدْرِك السِّلم واسِعاً ... بمالٍ ومعروفٍ مِنَ الأمرِ نَسْلمِ ٢
فأصبحتما منها على خيرِ مَوطنٍ ... بعيدَين فيها من عُقوق ومَأثَمِ ٣
عظيمَين في عَليا مَعَدٍّ هُديتُما ... ومَنْ يستبح كنزاً منَ المجدِ يَعْظُمِ
وأصْبَحَ يُحْدَى فيهمُ منْ تِلادِكم ... مغانمُ شتّى من إفالٍ مُزَنَّمِ ٤
تُعَفّى الكلوم بالمئين فأصبحت ... يُنجّمها مَنْ ليسَ فيها بمجْرِمِ ٥
يُنجّمُها قومٌ لقومٍ غَرامةً ... ولمْ يهريقوا بينهم مِلْءَ مِحْجَمِ ٦
ألا أبلغ الأحلاف عَني رِسالةً ... وذُبيان هل أقسَمْتُمُ كل مَقسمِ ٧
فلا تكتُمُنّ اللهَ ما في صُدورِكم ... ليخفى ، ومهما يُكتم اللهُ يَعلمِ
يُؤخّرْ فيُوضع في كتاب فيُدّخَرْ ... ليوم حساب أو يُعَجّل فيُنْقَمِ
وما الحرب إلا ما علمتم وذُقتمو ... وما هوَ عَنها بالحديثِ المرَجّمِ
متى تبعثوها تبعثوها ذَميمةً ... وتضرى إذا ضَرّيْتُموها فتَضْرَمِ ٨
فتعرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحى بثفالها ... وتلقح كِشافاً ثمّ تُنْتج فتُتْئمِ ٩

(١) منشم : امرأة تبيع عطراً . فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم
(٢) واسعاً خالصاً من شوائب الأحقاد .
(٣) العقوق : قطيعة الرحم ، والمأثم الإثم . وهو العدوان .
(٤) يحدى : يساق . إفال : جمع أفيل وهو الفصيل . مزنم : معلم .
(٥) تعفى : تمحى ، الكلوم الجروح ، ينجمها . يؤديها أقساطاً .
(٦) المحجم : وعاء يتلقى فيه الحجام الدم عند الفصد .
(٧) أي : هل حلفتم لا تعملون شيئاً ينقض ما تحالفتم عليه .
(٨) يقال ضريته فضرى : أي هجته فهاج . تضرم : تشتعل
(٩) الثفال : جلد يبسط تحت الرحى عند الطحن .

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم [١]
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم [٢]
لحي حلال يعصم الناس أمرهم إذا طرقت إحدى الليالي بمعظم [٣]
كرام فلا ذو الضغن يدرك نبله ولا الجارم الجاني عليهم بمسلم [٤]
رعوا ما رعوا من ظمئهم ثم أوردوا غماراً تفرى بالسلاح وبالدم [٥]
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلاء مستوبل متوخم [٦]
لعمري لنعم الحي جر عليهم بما لا يؤاتيهم حصين بن ضمضم
وكان طوى كشحاً على مستكنة فلا هو أنداها ولم يتجمجم [٧]
وقال سأقضي حاجتي ثم أتقي عدوي بألف من ورائي ملجم [٧]
فشد ولم ينظر بيوتاً كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم [٩]
لدى أسد شاكي السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم [١]
جريء متى يظلم يعاقب بظلمه سريعاً وإلا يبد بالظلم يظلم

(١) غلمان أشأم : غلمان شؤم . وأحمر عاد : هو عاقر الناقة .
(٢) القفيز اسم مكيال .
(٣) حي حلال: حالون في مكان واحد متجاورون يعصم الناس أمرهم يسلم الناس برأيهم . والمعظم : الحادث الرهيب .
٤) النبل : الثأر ، الجارم : المجرم .
(٥ الظمأ الهدنة بين الحربين والغمار: جمع غمر، وهو الماء الكثير ،تضرى: انفجر .
٦ الكلأ: العشب ، أصدروا: رجعوا، مستوبل متوخم: مستثقل مردوم .
(٧) الكشح: الجنب، مستكنة : مضمرة .
(٨) ألف ملجم : يريد ألف فارس ألجموا خيولهم .
٩ لم ينظر : لم ينتظر ، والبيوت الكثيرة ، قومه وأنصاره ، يريد أنه لم يستعن بأحد ، وأم قشعم : هي المنية .
(١٠ شاكي السلاح : شاهر السلاح . مقذف به كثيراً إلى الحروب ، لبد الشعر : اللبد على منكبي الأسد .

لعمرُكَ ماجرَّتْ عليهمْ رِماحُهُم دمَ ابن نهيكٍ أو قتيلِ المُثَلَّمِ
ولا شاركوا في القوم في دمِ نوفلٍ ولا وَهَبٍ منهم ولا ابن المُخَزَّمِ
فكلاً أراهم أصْبَحوا يَعْقِلونَهُ عُلالة ألف بعدَ ألف مُصتَّمِ
ومَنْ يَعص أطرافَ الزِّجاج فإنه يُطيعُ العواليَ ركِّبت كلَّ لهذمِ[1]
ومَنْ يوفِ لا يُذمَمْ ومن يفضِ قلبه إلى مُطمئنِ البرِّ لا يَتَجَمْجَمِ
ومنْ هاب أسباب المنايا يَنلْنه ولو رام أسبابَ السَّماءِ بسلَّمِ
ومنْ يَكُ ذا فضل فيبخل بفَضْله على قومِه يُستَغْنَ عنه ويُذمَمِ
ومنْ لا يَزل يسترحل الناس نفسه ولا يُعْفِها يوماً من الذل يندم
ومنْ يغترب يَحْسَبْ عَدُوّاً صديقه ومَنْ لا يُكَرِّم نفسهُ لا يكرَّمِ
ومنْ لا يذُدْ عن حوضه بسلاحه يُهدَّم ومَنْ لا يظلم الناس يُظلَم[2]
ومنْ لم يصانِعْ في أمور كثيرة يُضَرَّس بأنياب ويُوطأ بمنسم[3]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتّقِ الشتم يشتم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكائن ترى من صامت لك مُعجب زيادته أو نقْصُه في التكلم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ فلم يبق إلا صورةُ اللحم والدم
وإن سفاهَ الشيخ لا حلم بعده وإنَّ الفتى بعدَ السَّفاهة يحلُمُ
سئمتُ تكاليفَ الحياةِ ومن يعش ثمانينَ حولاً لا أبا لكَ يَسأم

---

(١) الزجاج أسفل الرمح، والعوالي : جمع عالية . وهي أعلاد اللهذم : السنان الطويل والمعنى : من عصى زجاج الرمح وهي لا تقتل،أطاع عواليه وهي قتالة . أي من لم يطع باللين أطاع بالشدة .

(٢) الذود : هو الدفع، ومن لا يظلم يظلم: يريد به أنه من طمع الناس أن يبطشوا بالضعيف وأن يظلموا من لا يقدر على الظلم يعني من لم يدفع الظلم بمثله يظلم .

(٣) المصانعة : المداراة، يضرس يمضغ بالأضراس . والمنسم الحافر

وأعلمُ ما في اليومِ والأمسِ قبلَه ولكنني عن علم ما في غدٍ عَم
رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواءَ مَن تُصِب تُمِته ومن تُخطىء يُعَمَّرْ فيهرم
سألْنا فأعطيتم وعُدْنا فعُدْتم ومَن يُكثر التسآل يوماً سيُحرَم

(٤) عنترة العبسي

هو عنترة بن عمرو بن شدّاد العَبسي أحد فرسان العرب وأغربتها وأجوادِها وشُعرائها المشهورين بالفخر والحماسة .

وكانت أُمُّه أَمَةً حبشية تسمّى زَبيبة ، وأبوه من سادات بني عَبْس وكان من عادات العرب ألا تُلحق ابن الأمَة بنَسَبها ، بل تجعله في عِداد العبيد ، ولذلك كان عنترة عند أبيه منبوذاً بين عبدانه ، يَرْعى له إبله وخيله فربَأ بنفسه عن خصال العبيد ، ومارس الفروسية ومهرَ فيها ، فشبّ فارساً شجاعاً هماماً ، وكان يكره استعباد أبيه له وعدم إلحاقه به ، حتى أغار بعضُ العرب على عَبْس ، واستاقوا إبلَهم ، ولحقتهم بنو عَبْس ، وفيهم عنترةُ لاستنقاذ الإبل ، فقال له أبوه : كرّ يا عنترة ، فقال : العبدُ لا يحسن الكَرّ ، إنما يحسنُ الحِلابَ والصر ، فقال ، كرّ وأنت حُرٌّ ، فقاتل قتالاً شديداً ، حتى هَزم القوم واستنقذ الإبل ، فاستلحقه أبوه ، ومن ذلك الوقت ظهر اسمهُ بين فرسان العرب وساداتها .

وطال عُمر عنترة حتى ضَعُف جسمه ، وعجز عن شنّ الغارات ، ومات قُبيل البعثة .

شعره — لم يشتهر عنترة أول أمره بشعر غير البيتين والثلاثة ، وإنما غلبت عليه الفُروسية مكتفياً بها حتى عيّرَه يوماً بعضُ قومه بسواده وأنه لا يقول الشعر فاحتج لسواده بخُلقه وشجاعته ، واحتجّ لفصاحته بنظم مُعلقته المشهورة التي كانت تسمى المُذَهّبة أيضاً ، وقد ضمّنها خصاله ومكارم قومه ، وحُسْن دفاعه عنهم ووفرة جُوده معرّجاً فيها على أوصاف أمور شتى ، وهي من أجمل المعلّقات .

معلقة عنترة العبسي

هل غادرَ الشعراءُ من مترَدم ؟ أم هل عرفت الدار بعد توهُّم ؟[١]
يا دار عبـلةَ بالجـواءِ تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي[٢]
دارٌ لآنسةٍ غضيض طرفُهـا طوْعِ العنانـِ لذيذة المتبسمِ
فوقفتُ فيها ناقتي وكأنهـا فدنٌ — لأقضي حاجة المُتلوّم[٣]
وتحلُّ عبلةَ بالجِواء وأهلُنـا بالحزنِ فالصمّان فالمتثلمِ[٤]
حُيِّيتَ مِن طلل تقادم عهدُهُ أقوى وأقفر بعد أم الهيـثم[٥]
حلت بأرض الزائرين فأصبحت عَسِراً عليّ طلابكِ ابنة مخرم[٦]
عُلقتها عرَضاً وأقتـلُ قومهـا زعمـاً لعمر أبيك ليس بمزعم[٧]
ولقد نزلت ، فلا تظني غَيْره ، مِني بمـنزلةِ المحبِّ المكرم[٨]
كيفَ المزارُ وقد تربـع هلها بعنُيزَتين وهلُنا بالغَيْلَمِ[٩]
إنْ كنتِ أزمعتِ الفِـراق فإنما زُمّت ركابُكم بليل مظـلم[١٠]
ما راعني إلا حَمولة أهلهـا وسطالديارِ تسُفّ حَبَّ الخمخمِ[١١]

(١ غادر : ترك ، متردم . أي شيء يصلح لم يكونوا أصلحوه ٢ الجواء: بلد ، تكلمي : أفصحي وأخبري وعمي وأنعمي أي نعم الله صباحك وأدامك سالمة ,٣) الفدن القصر ، والمتلوم المترقب المنتظر ، وعنى بالمتلوم نفسه ,٤ تحل : تترك والصوان والصمان بمعنى واحد وهو مكان معروف عند العرب (٥) حييت لك مني التحية ، من طلل : المكان تقادم عهده ، أقوى : خلا من السكان ، أقفر : خرب ، الهيثم : الصقر (٦ الزائرين : بالهمزة الأعداء والزاير بالياء من الزيارة للأحباب والاصدقاء ٧ علقتها : أحببتها ، عرضاً : من غير قصد ، زعماً : طمعاً (٨) نزلت : حلت من نفسي منزلة المحب المكرم (٩ تربع القوم : نزلوا في الربيع ، والعنيزتان والغيلم : موضعان . يقول كيف أزورها وقد بعدت عني بعد قربها (١٠) أزمع : نوى وصمم ، زمت الركاب : شدت .

(١١) راعني أفزعني والحمولة : الإبل ، تسف حب الخمخم : تأكل بقلة لها حب أسود إذا أكله الغنم قلت ألبانها وتغيرت .

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم ١
إذ تستبيك بذي غُروب واضح عذبٍ مقبّله لذيذ المطعم ٢
وكأن فارة تاجرٍ بقسيمة سَبقت عوارضها إليك من الفم ٣
أو رَوْضة أُنُفاً تَضَمّن نبتُها غيثٌ قليل الدمْن ليس بمعلم ٤
جادتْ عليه كلُّ بكرٍ حُرّة فتركْنَ كلّ قرارة كالدرهم ٥
سحّاً وتسْكاباً فكلُّ عَشية يجري عليها الماءُ لم يتصرّم ٦
وخلا الذباب بها فليس ببارح غرِداً كفعل الشارب المترنم ٧
هزجاً يحك ذراعهُ بذراعه قدح المكب على الزناد الأجذم ٨
تمسي وتصبحُ فوق ظهر حَشية وأبيتُ فوق سَراة أدهم مُلجم ٩
وحشيتي سَرْجٌ على عبل الشوى نهد مراكِلُه نبيل المحزم ١٠
هل تُبلغني دارها شدَنيةٌ لعِنت بمحروم الشراب مُصرّم ١١

---

(١) الحلوبة : الناقة في ضرعها لبن، الأسحم : شديد السواد (٢) تستبيك: تذهب بعقلك ، غروب : حد ، وغروب الأسنان حدها (٣) فارة : الفارة هنا وعاء (٤) الروضة : الحديقة ، والأنف :التام في كل شيء ، والدمن: المطر الخفيف ، والمعلم ذو العلامة (٥) البكر : السحابة في أول الربيع وفي عادتها أن لا تمطر (٦) لم يتصرم : لم ينفد ولم ينقطع وخص مطر العشي لأنه أكثر مايكون صيفاً (٧) خلا : انفرد ، ببارح : أي بتارك ، غرداً : مترعاً والتغريد : الترنم (٨) الهزج سريع الصوت ، يحك ذراعه أي يمر إحداهما على الأخرى قدح المكب : الذي أكب على الزناد يقدحه على التوالي: الأجذم الزناد القصير ، وكلها نعوت لغناء الذباب وترنيمه فوق الغدير (٩) الحشية :الفراش المحشو، يعني أن حبيبته تمسي وتصبح مستريحة ناعمة ، وأما هو فيبيت فوق ظهر جواده حارساً لها ومدافعاً عن القبيلة (١٠) حشيتي : فراشي ، سرج : السرج ما يوضع على الجواد . عبل : غليظ ، الشوى : القوائم يريد جواده .
(١١) تبلغني : توصلني ، دارها : منزلها ومقامها .

خَطارةٌ غِبَّ السُّرى زَيّافة تطسُ الآكام بذات خُفٍ مِيثَم ١
وكأنما أقِصُ الآكام عشيــة بقريب بين المنسمين مُصَـلم ٢
تأوي لهُ قلصُ النعام كما أوت حزَقٌ يَمانيةٌ لأعجمَ طِمْطم ٣
يَتبَعْنَ قلة رأسِه وكأنـهُ حَرَجٌ على نعش لهن مُخيـم ٤
صعل يَعودُ بذي العشيرة بيضهُ كالعَبد ذي الفَرْ والطويل الأصْلم ٥
شربت بماء الدُّحْرُضين فأصبحت زَوْراءَ تنفرُ عن حياض الديلم ٦
وكأنما تنأى بجانبِ دَفّها الوَحشي من هَزجِ العَشيّ مؤوّم ٧
هِرٌ جَنيبٌ كلمـا عَطفتْ لهُ غضبى ألقاها باليدين وبالفم ٨

(١) خطارة : تحرك ذنبها وترفعه وتضرب به حاذيها : غب السرى : أي بعد السرى زيافة تسرع في مشيها (٢) أقص : أكثر، والآكام المرتفع من الأرض، النسمان : الظفران المقدمان في الخف ، مصلم : مقطوع الأذنين .

(٣) تأوي: ترجع وتسكن، قلص: جمع قلوص وهي الناقة الشابة، حزق: جماعات

(٤) يتبعن : يحطن به ، قلة الرأس : أعلاه ، والحرج سرير يحمل عليه المريض أو الميت .

(٥) صعل : صغير الرأس دقيق العنق، يعود: يأتي إلى بيضه، ذو العشيرة : اسم مكان شبه ذكر النعام بالعبد الأسود عليه فروة طويلة .

(٦) الدحرضان: اسم مورد من موارد الماء زوراء : عوجاء مائلة من النشاط . والديلم الأعداء . والمعنى أنها تجافت عن الحياض لخوفها منها .

(٧) ينأى : يبعد ، والدف ؛ الجنب ، والوحشي : الجانب الأيمن من البهائم . وسمي الجانب الأيمن وحشياً لأنه لا يركب منه الراكب ولا يحلب منه الحالب. هزج العشي ؛ صوت الهر لذي يخدشها لأن السنانير أكثر ما تصيح في العشيات والمؤوم ؛ عظيم الرأس . (٨) هر جنيب : مجنوب كلما مالت له غاضبة اتقاها وردها باليدين وبالفم . والمعنى أنها كثيرة النشاط في ساعة العشي وهي ساعـة الفتور عند سواها من الإبل فكأنها من نشاطها يخدشها هر تحت إبطها

أبقى لها طولُ السفار مُقَرْمداً   سنداً ومثلَ دعائم المتخيِّمِ ١
بَرَكتْ على ماء الرداع كأنما   بركت على قصب أجش مُهَضَّم ٢
وكأن رباً أوْ كُحَيلاً معقداً   حشَ الوقود به جوانبَ قمقم ٣
ينباع أمنْ ذفرى غضوب جسرة   زَيَّافة مثل الفنيق المكدَمِ ٤
إن تغدقي دوني القناع فإنني   طبٌّ بأخذ الفارس المستلئم ٥
أثني علي بما علمت فإنني   سهل مُخالقتي إذا لم أظلم
وإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظلمي باسلٌ   مُرٌّ مذاقتُهُ كطعم العلقمِ
ولقد شربتُ من المدامة بعدما   رَكَدَ الهواجرُ بالمشوفْ المعلم
بزُجاجةٍ صفراء ذات أسرّة   قرنت بأزْهَرَ في الشمال مُقَدَّم ٦
فإذا شربت فإنني مُستهلكٌ   مالي، وعرْضي وافرٌ لم يكلم ٧
وإذا صَحوتُ فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلي وتكرمي ٨
وحَليل غانية تركت مجندلاً   تمكو فريصته كشدق الأعلم ٩

(١) أبقى : ترك . طول السفار : طول السفر وامتداده ، والمقرمد : المبني بالآجر ، أراد به سنامها وقد أراد أنه تكمش وتماسك وصلب كما يتماسك الآجر وهو الحجارة الخشنة الملمس (٢) الرداع مورد لبني سعد ، الأجش : الذي في صوته خشونة ، المهضم ، المخرم ، وقيل الكسر ٣ الرب ما بقي من عصارة الثمار . الكحيل القطران – معقداً أوقد تحته حتى انعقد .

(٤) ينباع : ينفعل ، والذافران : العظمان الناتئان خلف الأذنين ، زيافة : متبخترة في سيرها ، والفنيق الفحل من الإبل ، والمكدم : المعضض ، والكدم . العض ، وفي رواية المقرم

(٥) تغدقي : ترخي القناع على وجهك ، طب أي خبير حاذق والمستلئم : الذي لبس اللامة وهي الدرع ٦) الأسرة : الخطوط والطرائق التي وسطها – قرنت شدت بكأس أخرى ، أزهر : إبريق من فضة ، والمقدم المصطفى .

(٧) شربت : سكرت ، مستهلك : مستنفد .

(٨) صحا : أفاق من سكره (٩) الحليل : الزوج .

سبقت يَداي له بعاجل ضَرْبة ورشاش نافذة كلون العندم
هلا سألت الخيلَ يا ابنةَ مالك إنْ كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
إذ لا أزالُ على رحالة سابح نَهْدٍ تعاوره الكماة مُكلم [١]
طوراً يُعَرَّض للطِّعان وتارة يأوي إلى حصد القسي عرمرم [٢]
يخبرك مَنْ شهد الوقائع أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم
فأرى مغانم لو أشاءُ حويتها فيصدُّني عنها الحيا وتكرُّمي
ومُدجَّج كَرِهَ الكماة نزالهُ لا مُمعن هرباً ولا مستسلم [٣]
جادَتْ يداي له بعاجل طعْنة بمثقف صدق الكعوب مُقَوَّم
برَحيبة الفرغين يهدي جَرْسُها بالليل مُعتس الذئاب الضرَّم [٤]
فشككتُ بالرمح الأصم ثيابهُ ليس الكريمُ على القنا بمحرَّم [٥]
فتركته جَزَرَ السباع يَنُشْنَهُ ما بينَ قُلَّةِ رأسه والمِعْصمِ
ومِشكّ سابغة هتكتُ فروجها بالسيف عن حامي الحقيقة معلم [٦]
رَبِذ يداه بالقداح إذا شتا هتّاك غاياتِ التجار ملوم [٧]

---

(١) تعاوره : يطعنه ذا مرة وذاك أخرى . الكماة الشجعان، مكلم: مجروح
(٢) الحصد : الكثير المحكم . والقسي : جمع قوس ، والعرمرم : الشديد ، وقيل الكثير (٣) المدجج بالسلاح . كره الكماة نزاله : خافوا منه .
(٤) الرحيبة : الواسعة . جرسها : الصوت — والمعتس : المبتغي والطالب ، والضرم : الجياع (٥) فشككت : شققت ، ثيابه : درعه وقيل قلبه .
(٦) المشك : الدرع ، السابغة : السابلة أضافها لنفسها وهو جائز، هتكت: فضحت وكشفت ، فروجها : جمع فرجة الخرق النافذة ، الحقيقة الراية والمعلم ، الذي قد أعلم نفسه بعلامة في الحرب .
(٧) الربذ السريع الضرب بالقداح الحاذق في لعبها. إذا شتا : لأن القحط أكثر ما يأتي العرب في الشتاء .

لمّا رآني قد نزلتُ أريدُهُ أبدى نواجذَه لغَيْرِ تبَسُّمِ ١
فطعَنْتُهُ بالرّمحِ ثمّ علوْتُهُ بمهند صافي الحديدة مِخْذَمِ ٢
عهدي به مدّ النهار كأنما خُضِبَ البنانُ ورأسُهُ بالعِظلمِ ٣
بطل كأن ثيابهُ في سَرْحةٍ يُحْذى نِعالَ السِّبتِ ليس بتوْأمِ ٤
ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مِني وبيضُ الهند تقطرُ من دَمي
فودَدْتُ تقبيلَ السيوفِ لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسِّم
يا شاةَ ما قنَصٌ لمن حلّت له حرُمتْ عليّ وليتها لم تحرم ٥
فبَعثتُ جاريتي فقلت لها اذهبي فتجسّسي أخبارها ليَ واعلمي
قالت ، رأيتُ من الأعادي غرة والشاة ممكنةٌ لمن هو مُرْتَمِ
وكأنما التفتت بجيدِ جدايةٍ رشاءٍ منَ الغزلانِ حُرٍّ أرثم ٦
نُبئتُ عمراً غيرَ شاكرِ نعمتي والكُفْرُ مخبثةٌ لنفس المنْعم
ولقد حفظتُ وصاةَ عمي بالضُّحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم
في حومة الحرب التي لا تشتكي غمراتها الأبطالُ ، غيرَ تغمغم
إذ يتقون بي الأسنة لم أخِمْ عنها ولكني تضايق مقدمي ٧

(١) أبدى نواجذه الخ . كلح في وجهي فبدت أضراسه (٢) المخذم من الخذم وهو القطع (٣) خضب : طلى – والعظلم شجر أحمر (٤) بطل لأنه يبطل العظائم بسيفه . وقيل وهو الذي تبطل عنده دماء الأقران فلا يأخذ الناس منه أو ممن فعل في حماه ثأراً – والسرحة : شجرة لا ثمرة لها وإنما تستظل بها . وتعرف عند العرب بطول ساقها (٥) الشاة هنا المرأة ، وهو يعني جارته لأن من كانت له جارة فهي في حماه ، وكانت محرمة كالأم والأخت .

(٦) الجيد العنق ، والجداية بكسر الجيم وفتحها الظبية أتى عليها خمسة أشهر أو ستة . والرشأ : الغزال الصغير .

(٧) يتقون بي يجعلونني وقاية بينهم وبينها بأن يقدموني للموت . لم أخم : لم أجد تضايق : ضاق .

لما سمعتُ نداء مرةَ قد علا وابنيْ ربيعة في الغبار الأقتم ١
ومحلِّمٌ يسعونَ تحتَ لوائهم والموتُ تحت لواء آل محلِّم ٢
أيقنتُ أن سيكون عند لقائهم ضرب يطيرُ عن الفراخ الجثم
لما رأيت القوم أقبلَ جمعُهم يتذامرون كَرَرْتُ غير مُذَمَّم
يدعون: عنترَ ، والرِّماحُ كأنها أشْطانُ بئر في لبان الأدهمِ ٣
ما زلتُ أرميهم بغُرَّة وجهه ولَبانِه حتى تسربَل بالدم
فازْوَرَّ من وقع القنا بلبانه وشكا إلي بعبرة وتحمحم ٤
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مُكَلِّمي
والخيلُ تقتحمُ الغبار عوابساً من بين شيظمة وأجرد شيظم ٥
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها قِيلُ الفوارس «وَيْكَ» عنترَ أقدم ٦
ذُلُلٌ ركابي حيث شئتُ مُشايعي قلبي ، وأحفزُهُ بأمرٍ مُبرم ٧
ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن للحرب دائرة على ابني ضمضم ٨
الشاتِمي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم ألقهما دمي

---

(١) النداء :الصياح،الأقتم الأسود الحالك ٢) هو ابن عوف الشيباني الذي يضرب به المثل في الوفاء والعزة يقال (لا حر بوادي عوف) . ٣،) الأشطان جمع شطن وهو حبل البئر ، شبه الرمح به لطوله ، واللبان بالفتح ، الصدر . (٤) ازور : مال ، وشكا لو كان يستطيع الشكوى ، والعبرة بفتح العين، البكاء والإشفاق (٥) تقتحم : تخوض،والعوابس الكوالح، والشظم والأجرد: القصير الشعر (٦) ويك كلمة يقولها المتندم إذا ندم على ما فرط منه، ولكثرة استعمالها ألحقت بها الكاف ، وقيل وي) بمعنى أعجب أي عجباً لك يا عنترة (٧)ذلل، جمع ذلول ، والذلول من الإبل وغيرها سهلة القياد، وركابي ما أركبه ، وأحفزه، أدفعه والمبرم المحكم (٨ والدائرة: ما ينزل بالناس من بلوى ، وابنا ضمضم : هما هرم وحصين ابنا ضمضم ، المريان ، قتلهما ورد بن حابس العبسي ، وكان عنترة قتل أباهما ضمضما فكانا يتواعدانه .

إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزَر السباع وكل نسر قشعم [١]

(٥) عمرو بن كلثوم التغلبي

هو أبو الأسود عمرو بن كلثوم بن مالك بن عتاب التغلبي ؛ وأمه ليلى بنت مهلهل أخي كليب . نشأ عمرو في قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية ،وساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ،وقاد الجيوش مظفراً ، وأكثر ما كانت فتن تغلب مع أختها بكر بن وائل بسبب حرب البسوس ، وكان آخر صلح لهم فيها على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة من آل المنذر. ولم تمض مدة حتى حدث بين وجوه القبيلتين مشاحنة في مجلس عمرو بن هند ، قام أثناءها شاعر بكر (الحارث بن حلزة اليشكري) وأنشد قصيدته المشهورة ، وما فرغ منها حتى ظهر لعمرو بن كلثوم أن هوى الملك مع بكر ،فانصرف ابن كلثوم وفي نفسه ما فيها ،ثم خطر في نفس ابن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها وهو عمرو بن كلثوم فدعاه وأمه ليلى بنت مُهلهل وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها في قضاء أمر ، فصاحت ليلى: واذلاه ،فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه ، ثم رحل تواً إلى بلاده بالجزيرة ، وأنشد معلقته الآتية ، وعاش مائة وخمسين سنة ــ ومات قبل الإسلام بنحو نصف قرن .

شعره — لم يشتهر عمرو إلا بمعلقته الواحدة التي قامت له مقام الشعر الوفير لحسن لفظها ، وانسجام عبارتها وغلو فخرها ، ولعل شهرته بالخطابة تقل عن شهرته بالشعر الجيد ، ومن سامي الفخر البليغ :

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي

ألا هُبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا [٢]

(١) يقول مهما ينذراني ومهما يشتماني فلن يبلغا مني مناهما فلقد قدمت أباهما طعمة للسباع والنسور . والقشعم : الكبير من النسور (٢) هبي ، استيقظي ، الصحن القدح العريض – فاصبحينا ، أي اسقينا الصبوح ، وهو شرب الخمور في الغداة . والأندرينا ، جمع الأندر ، وهي قرية بالشام جمعها بما حواليها .

مشعشعة كأن الحص فيها ... إذا ما الماء خالطها سخينا ١
تجور بذي اللبانةِ عن هواهُ ... إذا ما ذاقها حتى يَلينا ٢
ترى اللحزَ الشحيح إذا أُمِرّت ... عليه لمالهِ فيها مهينا ٣
صددتِ الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا ٤
وما شرُّ الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا ٥
وكأسٍ قد شربت ببعلبك ... وأخرى في دمشق وقاصرينا
إذا صمدتْ حمياها أريباً ... من الفِتيان خلت به جنُونا ٦
فما برحت مجالَ الشَّرْب حتى ... تغالوا وقالوا قد روينا ٧
وإنا سوف تدركنا المنايا ... مقدرة لنا ومقدّرينا
وإن غداً وإن اليوم رهن ... وبعد غد بما لا تعلمينا
قفي قبل التفرقِ يا ظعينا ... نخبرْك اليقين وتخبرينا
بيوم كريهة ضرباً وطعناً ... أقر به مواليك العيونا ٨
قفي نسألك هل أحدثتِ صرْماً ... لوشك البَين أم خنت الأمينا ٩
أفي ليل يعاتبني أبوها ... وإخوتها وهم لي ظالمونا ؟!
تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعيْ عيطل أدْماء بكْرٍ ... تربعت الأجارع والمتونا ١٠

(١) مشعشعة: ممزوجة، سميت بذلك لأنه يظهر لها شعاع كالشمس. والحص: الورس، سخينا: أي جدنا وتكرمنا من السخاء ٢) تجور: بمعنى تعدل وتميل. واللبانة: الحاجة ٣) اللحز: الضيق، الشحيح البخيل (٤) صددت: أي صرفت ٥. أي لست أنا شر الثلاثة فتعدل عني الكأس (٦) حمياها: سورتها. أريبا: عاقلاً ٧) الشرب: جمع شارب. المجال: موضع المجاولة.

(٨) الكريهة: موضع الحرب – أقر: أي مكن – مواليك هنا بنو عمك.

(٩) الصرم: القطيعة والوشك: السرعة والبين هنا الفراق والأمين: الوفي بالعهد.

(١٠) العيطل الناقة طويلة العنق – والادماء من الإبل والظباء البيضاء – بكر لم تلد تربعت: رعت الربيع، الأجارع: جمع أجرع، وهو الرمل

وثَدْياً مثل حقّ العاج رخصاً حصاناً من أكف اللامسينا ١
ونحراً مثل ضوء البدر وافى بإتمام أناساً مُدلجينا ٢
ومتنيْ لدنة طالت ونالت روادفها تنوءُ بما يلينا ٣
ومأكمة يضيقُ الباب عنها وكشحاً قد جننتُ به جنونا ٤
وسالفتيْ رخام أو بلنط يرن خَشاش حليهما رنينا ٥
تذكرت الصبا واشتقتُ لما رأيتُ حمولها أصلاً حدينا ٦
وأعرضتْ اليمامة واشمخرّت كأسياف بأيدي مصلتينا ٧
فما وجدت كوجْدي أم ثقب أضلته فرجّعَتِ الحنينا
ولا شمطاء لم يترك شقاها لها من تسعة إلا جنينا ٨
أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرْنا نخبركَ اليقينا ٩
بأنا نورد الرّايات بيضاً ونصدرُهن حمراً قد روينا
فإن الضغْنَ بعد الضغْن يفشو عليك ويخرجُ الداءَ الدفينا ١٠
وأيام لنا غرّ طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
وسيدِ مَعشر قد توجوهُ بتاج الملك يحمي المحجرينا
تركنا الخيل عاكفة عليه مُقلدة أعنتها صفونا ١١
وقد هرّت كلاب الحيّ منا وشذبنا قتادةَ من يلينا ١٢

(١) العاج : عظم الفيل . والرخص اللين . والحصان : العفيفة، واللامس: المباشر (٢) النحر : أعلى الصدر (٣) لدنة أي لينة ، تنوء : بمعنى تثقل
(٤) المأكمة : رأس الورق (٥) السالفتان : صفحتا العنق ، والرخام والبلنط : حجارة بيض . الخشاش : صوت الحلى (٦) أصلاً أصيلى: وهو العشي
(٧) أعرضت : قابلت . اشمخرت : ارتفعت . مصلت : مجرد .
(٨) شقاها : يعني شؤمها . (٩) يعني عمرو بن هند .
(١٠) الضغن : الحقد ويفشو : يكثر . الداء الدفين : الكامن .
(١١) صفونا : جمع صافن ، وهي من الخيل .
(١٢) هرت : نبحت ، وشذبنا ، أي قطعنا ، القتادة ، واحدة القتاد وهو الشوك .

وأنزَلنا البيوت بِذي طلوحٍ إلى الشامات ننفي المُوعِدينا ١
نعمُّ أُناسنا ونعِفُّ عنهمْ ونحْمِل عنهمُ ما حمَّلونا
ورِثنا المجدَ قد علمتْ معدٌّ نطاعِنُ دونهُ حتى يَبينا ٢
ونحنُ إذا عمادُ الحربِ خرّتْ على الأخفاض نمنعُ منْ يَلينا ٣
نطاعِنُ ما تراخى النّاسُ عنّا ونضرِبُ بالسُّيوفِ إذا غشينا ٤
بِسُمرٍ من قنا الخطيِّ لُدْنٍ ذوابلَ أو بِبيضٍ يعتلينا ٥
نَشُقُّ بها رُؤوس القوْمِ شقّاً ونُخليها الرّقابِ فتختلينا ٦
تخالُ جماجم الأبطال منهم وسُوقاً بالأماعِزِ يرْتَمينا ٧
نجُذُّ رُؤوسهم في غير وتْر ولا يدرون ماذا يتقونا ٨
كأن ثيابنا مِنّا ومِنهُمْ خُضِبْنَ بأرْجُوانٍ أو طُلينا ٩
كأنّ سيوفنا فينا وفيهمْ مخاريقٌ بأيدي لاعبينا ١٠
إذا ما عيَّ بالإسناف حيٌّ من الهوْل المشبه أن يكونا ١١
نصبنا مثل رهوة ذات حد محافظة وكنا السابقينا ١٢
بفتيان يرون القتل مجداً وشيب في الحروبِ مُجرّبينا
يدهدون الرؤوسَ كما تدَهدى حزاورةٌ بأبطحها الكرينا

(١) يقول وأنزلنا بيوتنا بمكان يعرف بذي طلوح إلى الشامات نبغي من هذه الأماكن أعداءنا الذين كانوا يوعدوننا (٢) يبين يظهر (٣) الأخفاض : عمد الأخبية (٤) تراخى : تباعد (٥) السمر : الرماح . والخطي: منسوب إلى الخط قرية على ساحل البحر . لدن : لينة . (٦) نخليها ، أي نقطع بها، فتختلينا: أي تقطن والضمير راجع إلى السيوف أيضاً . (٧) تخال . تظن وسوق : جمع وسق، وهو المكيال . بالأماعز : جمع أمعز وهو المكان الغليظ . (٨) نجذ نقطع. الوتر الدخل وفي رواية [وبر] (٩) الأرجوان صبغ أحمر (١٠) المخاريق : ثياب صغار يلعب بها الصبيان (١١) الاسناف التقدم (١٢) الرهوة : رأس الجبل ، وذات حد أي كثيرة السلاح .

حُديّا الناس كلهمُ جميعاً مُقارعة بَنيهِمْ عن بَنينا[١]
فأما يَوْمَ خشيتنا ، عليهمْ فتُصْبحُ خيلنا عصباً ثُبينا[٢]
وأما يَوْمَ لا نخشى عليهمْ فنُمْعِنُ غارة مُتلببينا[٣]
برأس من بَني حُشم بن بكر ندُقُّ به السهولة والحزونا[٤]
بأي مشيئة عمرو بن هند ؟ نكون لقَيلكم فيها قطينا[٥]
بأي مشيئة عمرو بن هند ؟ ترى أنـّا نكون الأرذلينا
بأي مشيئة عمرو بن هند ؟ تطيع بنا الوُشاة وتزدرينا[٦]
تهددنا وتوعدنا ! رويـداً متى كنـّا لأمك مقتوينا ؟![٧]
وإن قناتنا يا عمرو أعيتْ على الأعداء قبلك أن تلينا[٨]
إذا عض الثقافُ بها اشمأزت وولتـهُ عشوزَنـة زبونا[٩]
عشوزَنة إذا غمزت أرنت تشج قفا المثقفِ والجبينا[١٠]
فهلْ حدثت عن جشم بن بكر؟ بنقص في الخطوب الأولينا[١١]
ورثنا مجدَ علقمة بن سيف أ ح لنا حصونَ المجد دينا[١٢]
ورثتُ مهلهلا والخيرَ منه زُهيراً نعم زخرُ الزاخرينا[١٣]

(١) الحديا التحدي في القتال ، وهو طلب المبارزة . مقارعة من القراع في القتال وهو اصطدام الفارسين (٢) ثبين جمع ثبة ، وهي الجماعة (٣) تمعن : تسرع . المتلبب : المتحزم (٤) الرأس السيد ، وهو هنا الجماعة (٥) القيل : السيد . والقطين الخدم (٦) الازدراء : الاحتقار (٧) المقتوي : الذي يخدم بقوة . (٨ و٩) القناة هنا: العزة، والثقاف: خشبة تقوم بها الرماح، واشمأزت ارتفعت . والعشوزنة : الشديدة الصلبة الزبونة : الدفوع (١٠) غمزت : أي لينت ، أرنت أي صوتت ـ تشج : أي تجرح ، المثقف : المصلح للرماح والمفهوم (١١) حشم بن بكر : جده ، الخطوب : الأمور العظيمة (١٢) دينا : أي طاعة لها ، وهو علقمة بن سيف بن شرحبيل بن مالك بن سعد بن جشم بن بكر بن حبيب بن غنم بن جشم بن تغلب بن وائل (١٣) مهلهل : يعني عديا أخا كليب ، وسمي مهلهل لأنه أول من رقق الشعر .

وعَتَّاباً وكلثوماً جميعـاً | بهم نلنا تراث الأكرمينا ١
وذا البرة الذي حُدِّثتَ عنهُ | به نُحمى ونَحمي المحجرينا ٢
ومنا قبله الساعي كليبٌ | فأيُّ المجد إلا قد ولينا ؟ ٣
متى نعقد قرينتَنا بحبـل | تجذّ الحبلَ أو تقص القرينا ٤
ونوجدُ نحن أمنعهم ذماراً | وأوفاهم إذا عقدوا يمينا ٥
ونحنُ غداةَ أُوقدَ في خزازى | رفدنا فوق رَفد الرافدينا ٦
ونحن الحابسون لذي أراطى | تسَفّ الجلةُ الخورُ الدرينا ٧
فكنا الأيمنين إذ التقينـا | وكان الأيسرين بنو أبينا ٨
فصالوا صولة فيمن يليهـم | وصُلْنا صولة فيمن يلينا ٩
فآبوا بالنهـاب وبالسبايا | وأبنا بالملوك مُصَفَّدينـا
إليكم يا بَني بَكر إليـكم | ألمَّا تعلموا منا اليقينـا
ألمَّا تعلموا منـا ومنكم | كتائب يطّعنّ ويرتمينـا
نقودُ الخيل دامية كلاهـا | إلى الأعداء لاحقـةً بُطونا
علينا البيضُ واليلبُ اليماني | وأسيافٌ يُقمن وينحنينا ١٠
علينـا كلُّ سابغة دِلاص | ترى تحت النجادِ لها غضونا ١١

(١) كلثوم : أبوه ، وعتاب : جده (٢) ذا البرة : كعب بن زهير بن تيم ، وسمي بهذا لشعرات كانت تحت أنفه مدورة كالبرة في أنف البعير (٣) قبله الساعي : ضربه مثلاً كالكعبة في كثرة من يختلف اليه (٤) القرينة : أصلها أن يقرن جمل صعب إلى جمل ذلول . وتقص: تكسر ، وهذا مثل ضربه (٥) الذمار مايحق على الإنسان أن يحميه (٦) خزازي . موضع واقعة كانت بين ربيعة واليمن وكانت قضاعة إذ ذاك وربيعة أحلافاً (٧) أراط : موضع واقعة كانت لهم ، وتسف : توكل (٨) بنو أبينا : يعني مضر بن نزار ، وربيعة بن نزار (٩) الصولة : الحملة (١٠) اليلب : جلود تنسج على هيئة الدروع وتلبس (١١) السابغة : الدرع الطويلة ، دلاص : براقة ، والنجاد : النطاق ، والغضون : التثني .

إذا وُضعت عن الأبطال يوماً رأيت لها جلودَ القوم جُونا[١]
كأن متونهنَّ متون غُدْرٍ تصفقها الرِّياح إذا جرينا[٢]
وتحملنا غداةَ الرَّوْعِ جردٌ عرفنَ لنا نقائذَ وافتُلينا[٣]
وردنَ دوارعاً وخرجْنَ شعثاً كأمثال الرّصائع قد بَلينا
ورثناهنَّ عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بَنينا
وقد علم القبائل غير فخْرٍ إذا قببٌ بأبْطحها بُنينا
بأنا العاصِمُون إذا أطِعْنا وأنَّا الغارمونَ إذا عصينا
وأنَّا المنعمونَ إذا قدرْنا وأنّا المهلكونَ إذا أتينا
وأنّا الحاكمونَ بما أرَدْنا وأنّا النازلونَ بحيث شينا
وأنّا التّاركونَ لما سخِطنا وأنّا الآخذونَ لما هَوينا
وأنّا الطالبون إذا نقمْنا وأنّا الضاربون إذا ابْتلينا
وأنّا النازلونَ بكلّ ثغر يخافُ النازلونَ به المنونا[٤]
ونشربُ إن وردْنا الماء صفواً ويشرَب غيرنا كدراً وطينا
ألا سائلْ بَني الطماح عنا ودعمياً فكيفَ وجَدْتمونا ؟[٥]
نزلتُمْ منزلَ الأضيافِ منا فأعْجلنا القرى أن تشتُموا[٦]
قريْناكم فعجّلنا قراكم قبيل الصبح مرداةً طحونا[٧]
متى نَنْقُلْ إلى قوم رَحاحا يكونوا في اللقاء لها طحينا[٨]

---

(١) جونا : سوداً (٢) المتون : الأعالي، شبه أعالي الدروع في بياضها ولمعانها بالغدر وهي الحياض إذا حركتها الريح (٣) الروع : الحرب ، والجرد : قصير الشعر (٤) الثغر : المكان المخوف (٥) بنو الطماح ودعمي : حيان من بني أسد بن ربيعة بن نزار (٦) نزلتم حيث نزل الأضياف: أي جئتم للقتال فعاجلناكم بالحرب ولم ننتظر أن تشتموا (٧) قريناكم : جعلنا قراكم الحرب لما نزلتم بنا ولقيناكم فطحناكم طحن الرحى، والمرداة : الحجر وكل ما يكسر به الشيء فهو مرداة .
(٨) أصل الرحى ما استدار من الشيء والرحى هنا الحرب ، تشبيهاً بالرحى .

يكون ثقالها شرقيّ نجدٍ ... ولهوتها قضاعة أجمعينا ١
على آثارنا بيضٌ حسانٌ ... نحاذرُ أن تفارق أو تهونا ٢
ظعائنُ من بني جُشَم بن بكر ... خَلطنَ بميسم حسبًا ودينا ٣
أخذن على فوارسهنّ عهداً ... إذا لاقوا فوارس مُعلمينا ٤
ليستلبن أبداناً وبيضاً ... وأسرى في الحديد مُقرنينا ٥
إذا ما رُحْنَ يمشين الهوينا ... كما اضطربتْ متونُ الشاربينا
يقتن جيادنا ويَقُلْنَ لستم ... بُعولتنا إذا لم تمنعونا ٦
إذا لَمْ نحمهن فلا بَقينا ... لشيءٍ بعدهُن ولا حيينا ٧
وما منع الظعائن مثلُ ضَرْب ... ترى منه السَّواعد كالقلينا ٨
إذا ما الملكُ سام الناسَ خَسْفاً ... أبينا أن يُقِر الخسف فينا ٩
ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوقَ جهلِ الجاهلينا
ونعدو حيثُ لا يُعدى علينا ... ونضربُ بالمواسي من يلينا
ألا لا يحسب الأعداءُ أنّا ... تَضعضعنا وأنّا قد فنينا
ترانا بارزين وكلّ حيّ ... قد اتخذوا مخافتنا قرينا
كأنّا والسُّيوفُ مُسللاتٌ ... ولدْنا الناس طرا أجمعينا
ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... كذاكَ البحرُ نملؤُهُ سفينا
إذا بَلغَ الرَّضيعُ لنا فطاماً ... تخر لَهُ الجبابرُ ساجدينا

(١) الثقال : جلدة توضع تحت الرحى للطحين. ولهوتها: أي مقدار ما يطرح في فم الرحى من الحب (٢) أي نساءنا اللواتي خلفنا نقاتل عنهن ونحذر أن نفارقهن أو يصرن إلى غيرنا (٣) الميسم : الحسن أي لهن مع جمالهن حسب ودين . (٤) المعلم : الذي يعلم نفسه في الحرب بعلامة (٥) الأبدان جمع بدن وهي الدروع (٦) يقتن من القوت ، وهو الطعام جيادنا : جمع جواد ٧ نحميهن : ندافع عنهن . ما بقينا ما حيينا ٨) القلون جمع قلة ، وهي الخشبة التي يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلاء (٩ يقول إننا أعزاء لا تصل الملوك إلى ظلمنا .

لنا الدنيا ومنْ أضْحى عليهـــا ونبطِشُ حينَ نَبْطِشُ قادِرينا
تنـادي المصْبان وآلُ بكر ونَادَوْا يا لكِنْدَةَ أجمعينـــا
فإنْ نَغلب فَغلاّبونَ قدماً وإن نُغلَب فغيرُ مُغلبينـــا

(٦) طُرفة بن العبد البكري

هو عمرو بن العبد البكريّ : أقصر فحول شعراء الجاهلية عمراً ، ومال إلى الشعر والوقوع به في أعراض الناس ، حتى هَجا عمرو بن هند ملك العرب على الحيرة مع أنه كان يتطلب معروفه وجوده ، فبلغ عمرو بن هند هجاء طرفة له فاضطغنها عليه ، حتى إذا ما جاءه هو وخالهُ المتلمس يتعرضان لفضله أظهر لهما البشاشة وأمر لكل منهـــما بجائزة ، وكتب لهما كتابين ، وأحالهما على عامله بالبحرين ليستوفياها منه ، وبينما هما في الطريق ارتابَ المتلمّس في صحيفته ، فعرج على غلام يقرؤها له ، ومضى طرفة ، فإذا في الصحيفة الأمر بقتله ، فألقى الصحيفة ، وأراد أن يلحق طرفة فلم يدركه وفر إلى ملوك غسان ، وذهب طرفة إلى عامل البحرين وقتل هناك ، وعمره ست وعشرون سنة .

شعره – يجيد طرفة الوصف للناقة في شعر مقتصراً فيه على بيان الحقيقة مع قصد في الغلوّ ، ومعاظلة في بعض التراكيب ، واسترسال في وحشي اللفظ وخفي المعنى وكذلك كان هجاؤه الملوك على شدة وقعه ، ومن أبلغ المقطعات والمعلقات أيضاً .

معلقة طرفة بن العبد البكري

لخولة أطلالٌ ببرقـــةِ ثَهمد تلوح كباقي الوشمِ في ظاهر اليد[١]
وقوفاً بها صحْبِي عليّ مَطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلدِ[٢]
كأن حُدوج المالكيةِ غـدْوة خلايا سفين بالنواصفِ من ددِ[٣]

---

(١) خولة : امرأة من بني كلب. وثهمد : أكمة في بلاد خثعم. تلوح : تظهر.
(٢) وقوفاً: واقفين ، أسى : حزناً . تجلد : تحمل (٣) المالكية نسبة إلى مالك=

عدولية أو من سفين ابن يا من يجور بها الملاح طوراً ويهتدي ١
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد ٢
وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد ٣
خذول تراعي ربرباً بخميلة تناول أطراف البرير وترتدي ٤
وتبسم عن ألمى كأن منوراً تخلل حر الرمل دعص له ند ٥
سقته إياة الشمس إلا لثاته أسف ولم تكدم عليه بإثمد ٦
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها عليه نقي اللون لم يتخدد ٧
وإني لأمضي الهم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتغتدي ٨
أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب وكأنه ظهر برجد ٩

=ابن صبيعة ابن عم عمرو، والحدوج الهوادج والقباب، والخلايا جمع خلية، السفينة الكبيرة. والنواصف : مجاري الماء إلى البحر . (١) عدولية : قديمة ، وهي الكبيرة من السفن وهي تنسب إلى موضع يقال له ابن يامن، ملاح أو تاجر من أهل البحرين . (٢) حباب الماء طرائفه وما ارتفع منه والحيزوم الصدر. والمفايل الذي يجمع تراباً ويخبىء فيه شيئاً مثل الحلقة ويقسم التراب نصفين ويطلبه في أحدهما فإن أصاب ظفر وإن أخطأ قهر (٣) أحوى في لونه سواد والمراد شجر الأراك والشادن ولد الظبية إذا قوي (٤) الخذول : المتخلفة من الظباء ، والربرب: القطيع من الظباء . والخميلة الشجر الملتف . البرير المدرك من ثمر الأراك .
(٥) تبسم : يفتر ثغرها واللمي سواد في الشفة ، والمنور: الأقحوان، تخلل: دخل فيه، حر الرمل : النقي منه (٦) الإياة . ضوء الشمس . اللثة مغرز الأسنان ، يقول : أسنانها بيض ولثاتها زرق ، أسف أي ذر عليه بإثمد هو الكحل .
(٧) ألقت وفي رواية حلت: رداءها . أي بهاءها ، لم يتخدد : أي يضطرب حتى تصير فيه شقوق (٨) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، مرقال وصف للناقة بشدة السير (٩) الأمون التي أمنت من أن تكون ضعيفة، والإران التابوت الذي يحمل فيه الموتى، نسأتها : أي زجرتها ، واللاحب الطريق ، والبرجد : كساء من أكسية العرب .

جُمالية وَجْناء تَردي كأنها سفَنَّجَةٌ تَبري لأزعَر أربدِ
تباري عِتاقا ناجياتٍ وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوقَ مورٍ معبدِ ١
تربَّعت القُفَّين في الشوْل ترتعي حدائق مولىّ الأسرَّة أغيد ٢
تريعُ إلى صوت المهيب وتتقي بذي خُصل روعات أكلف مُلبد ٣
كأن جناحي مضرحيٍّ تكنفا حفافيه شكّا في العسيف بمسْرَد ٤
فطوراً به خلف الزّميل وتارةً على حشف كالشنّ ذاوٍ مُجَدد ٥
لها فخذان أكمل النحضُ فيهما كأنهما بابا مُنيف مُمرَّد ٦
وطيٌّ محال كالحنيّ خلوفه وأجْرنةٌ لُزّت بدأي مُنضد ٧
كأن كناسي ضالة يكنفانها وأطر قِسيٍّ تحت صُلب مُؤيد ٨

(١) تباري: تشابه، والعتاق: الإبل الكرام، والناجيات: المسرعات في السير، والوظيف: ساق البعير، والمور: الطريق (٢) تربعت: رعت أيام الربيع، والقفان: موضعان موصوفان بالمرعى لجودتها، والشول: بفتح الشين من الإبل التي جف لبنها وأتى عليها من نتاجها سبعة أشهر (٣) تريع: تصغي والروعة: الفزع، والأكلف: الذي في وجهه لون يخالف لونه وهو صفة من صفات الفحل، (٤) المضرحي: النسر، تكنفا: أحاطا، حفافيه: جوانبه (٥) الطور: المرة الأولى، والتارة: المرة الثانية، والزميل. الرديف، والحشف، الضرع الذي لا لبن فيه وهو المنقبض، والشن: القربة الخلقة، والذاوي: هو اليابس، والمجدد الضرع الذي لا لبن فيه، ولا لبن.

(٦) النحض: اللحم والمنيف: المشرف، والممرد: المملس.

(٧) المحال: فقار الظهر، والحني القسي. خلوفه: مؤخر أضلاعه، وأجرنة: باطن عنق البعير، لزت: قرب بعضها إلى بعض فانضمت واشتدت، بدأي: أعالي الاضلاع، منضد، أي بعضه فوق بعض.

(٨) الكناس: بيت الظباء والضأن، شبه تباعد ما بين مرفقها وزورها بكناس الظبي حول الشجر: وأطر قسي أي عطفها وانحناؤها، والصلب: الظهر والمؤيد: الموثق، والأيد القوة.

لها مرفقان أفتلان كأنها ... تمُرُّ بسلمَيْ دالج مُتشدّد ١
كقنطرة الرومي أقسم ربها ... لتُكتنفنْ حتى تشادَ بقرمد ٢
صهابيَّة العُثنون مُوجدَة القرا ... بعيدةُ وخد الرّجل موارةُ اليد ٣
جنوحٌ دقاقٌ عندل ثم أفرعتُ ... لها كتفاها في مَعالىً مُصعد ٤
أُمرّتْ يداها فتل شزْر وأجنحت ... لها عضداها في سقيف مُسنّد ٥
كأن علوبَ النّسع في دأياتها ... مواردُ من خلقاء في ظهر قردد ٦
تلاقى وأحياناً تبين كأنها ... بنائق غرٌّ في قميص مُقدد ٧
وأتلعُ نهاضٌ إذا صعدتْ به ... كسكان بُوصيٍّ بدجلة مُصعد
وجمجمة مثلَ العلاة كأنما ... وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد ٩

(١) المرفق : مفصل العضد، أفتلان : مفتولان، تمر : وفي رواية أمرّ : فتلا، السلم: الدلو له عروة الدالج الذي يمشي بالدلو من البئر إلى الحوض، متشدد متكلف للشدة ، ومعنى ذلك أن الذي يسقي الإبل يجعل الحوض بعيداً عن البئر ، فإذا أخرج الدلو من البئر (٢) القنطرة : الجسر، الرومي : أحد البنائين من الروم ، تكتنفن أي يحاط حواليها بالبناء ، وتشاد : ترفع (٣) صهابية : بياض شيب .

(٤) جنوح : مائلة في سيرها من النشاط ، دفاق متدفقة في السير ، عندل : عظيمة الرأس وأفرعت : رفعت ، في معالي : مرتفع .

(٥) أمرت : فتلت فتلاً محكماً ، والشزر : الفتل إلى اليسار ، وأجنحت : أميلت ، والسقيف : هنا صدرها ، ومسند وفي رواية منضد بعضه على بعض .

(٦) العلوب: الآثار، والنسع : حزام الرجل والدأيات مآخير الأضلاع ، موارد : طرق الماء ، والخلقاء : الصخرة الملساء ، والقردد : الأرض الصلبة

(٧) تلاقي: يتصل بعضها ببعض وتتلاقى الطرق من أعلاها وتفترق من أسفلها

(٨) الأتلع : الطويل يعني عنقها ، نهاض: كثير الارتفاع، صعدت: ارتفعت، السكان الدقل ، وهو مؤخر السفينة ، والبوصي ، ضرب من السفن ، بدجلة، نهر مصعد ، قاصد إلى العراق .

(٩) الجمجمة : غطاء الرأس، وهو يعني رأس الناقة ، والعلاة. السندان يضرب عليه الحداد ، وعي الملتقى يعني جمع ملتقى الرأس شبهه بحرف المبرد لصلابته.

وخدٌّ كقرطاس الشآمي ومِشفر كسِبتِ اليماني قدُّه لم يجرد ١
وعينان كالماويتين استكنتا بكهفي حجاجي صخرةٍ قلتِ مورد ٢
طحوران عوارَ القذى فتراهما كمكحولتي مذعورةٍ أم فرقد ٣
وصادقتا سمع التوجُّس للسُّرى لهمس خفي أو لصوتٍ مندد ٤
مؤللتان تعرف العتق فيهما كسامعتي شاة بحومل مفرد ٥
وأروعُ نباضٌ أحذُّ ململمٌ كمرداة صخرٍ في صفيح مصمد ٦
وإن شئت سامي واسط الكور رأسُها وعامت بضبعيها نجاء الخفيدد ٧
وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القد محصد ٨
وأعلم مخروط من الأنف مارنٌ عتيقٌ متى ترجم به الأرضَ تزدد ٩

---

(١) المشفر من البعير: كالشفة من الإنسان، والسبت: جلود البقر إذا دبغت بالبرظ (٢) الموبتا، ن المرآتان المصقولتان. استكنتا: دخلتا (٣) طحوران: دفوعان، العور الخبث الذي يقع في العين وكذلك القذى، كمكحولتي: أي عيني. مذعورة خائفة طردها القناص وأفزع، والفرقد: ولدها. (٤) وصادقتا سمع يعني أذنيها، والتوجس: التسمع، والهمس الصوت الخفي: والمندد المرتفع.
(٥) مؤللتان: محددتان كالحربة والعتق: الكرم، والشاة: بقرة الوحش وتسمى نعجة، وحومل: موضع معروف، ومفرد وحيد. (٦) أروع: فزع ونباض فؤادها. أحذ: قليل الشعر، ململم: أي مجتمع، كمرداة كصخرة تردي بها الحجارة لصلابتها: الصفيح الحجارة العريضة، صمد: مصلب (٧) سامي: ساوى، واسط: وسط، الكور: الرحل، عامت مدت يدها كهيئة السابح في الماء. الضبعين: العصدان، نجاء سرعة، الخفيدد الظليم، وهو ذكر النعام (٨) الإرقال: ضرب من السير، والملوي من القد: السوط، المحصد: المحكم الفتل (٩) الأعلم: المشقوق المشفر الأعلى. المارن: ما لان من الأنف وهو مقدمه، عقيق: كريم متى ترجم به الأرض: أي تضربها به يريد أنها إذا حطت رأسها إلى الأرض أسرعت في السير وذلك لنشاطها وحدتها.

على مثلها أمضي إذا قال صاحبي ، ألا ليتني أفديك منها وأفتدي
وجاشت إليه النفس خوفاً وخاله مصاباً ولو أمسى على غير مرصد
إذا القوم قالوا من فتى؟ خلت أنني عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد
أحلت عليها بالقطيع فأجذمت وقد خب آل الأمعز المتوقد ١
فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربها أذيال سحل ممدد ٢
ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد ٣
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني وإن تقتنصني في الحوانيت تصطد ٤
متى تأتني أصبحك كأساً روية وإن كنت عنها غانياً فاغن وازدد ٥
وإن يلتق الحي الجميع تلاقني إلى ذروة البيت الرفيع المصمد ٦
ندامای بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد ٧
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامى بضة المتجرد ٨
وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي ٩
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد ١٠
رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدد ١١

(١) أحلت وثبت ، القطيع : السوط ، أجذمت : أسرعت ، وخب : ارتفع ، والآل : ما يكون في أول النهار مثل السراب ، الأمعز الأرض الغليظة التي فيها حصى ، والمتوقد : المشتعل ٢ ذالت : تبخترت الناقة ، والوليدة الفتية ترى ربها أي مولاها . أذيال : أطراف الثوب متى يصل إلى الأرض ، والسحل : الثوب القطن والممدد : المبسوط (٣) التلعة من أسماء الأضداد تكون للمرتفع والمنخفض (٤) حلقة القوم : مجالس أشرافهم ، والحوانيت : بيوت الخمارين .
(٥) تأتني : تجئني (٦) ذروة : الذروة أعلى الشيء (٧) الندامى أصحابي على الخمر ، والقينة : الجارية ، والبرد : الثوب الأبيض . والمجسد : المصبوغ بالزعفران .
(٨) رحيب : واسع . قطاب الجيب أي مجتمع الجيب . يصف صدرها بالرحب والسعة (٩) الطريف الحديث المكتسب (١٠) المعبد المذلل المطلي بالقطران .
(١١) بني غبراء : اللصوص ، والطرف بيت من جلد : يعني أنه لا ينكره .

ألا أيهاذا اللائمي أحضرَ الوغى — وأن أشهدَ اللذات هل أنت مُخلدي ١
فإن كنتَ لا تسطيعُ دفعَ منيتي — فدعني أبادرْها بما ملكت يدي
فلولا ثلاثٌ هنّ من عيشة الفتى — وجدّكَ لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهنّ سَبقي العاذلات بشربة — كُميت متى ما تُعل بالماء تزبد ٢
وكرّي إذا نادى المضافُ مُجنّباً — كسيد الغضا نبهته المتورّد ٣
وتقصير يوم الدجن والدجن مُعجبٌ — ببهكنة تحت الخباء المعمّد ٤
كأن البرينَ والدماليج علقتْ — على عشرٍ أو خروع لم يخضّد ٥
فذرني أروّي هامتي في حياتها — مخافة شربٍ في الحياة مصرّد ٦
كريمٌ يروّي نفسه في حياته — ستعلمُ إن متنا غداً أينا الصدي ٧
أرى قبرَ نحامٍ بخيل بماله — كقبر غويّ في البطالة مُفسد ٨
ترى جثوتين من تراب عليهما — صفائحُ صمٌ من صفيح مُنضّد ٩
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي — عقيلة مال الفاحش المتشدد ١٠
أرى العيش كنزاً ناقصاً كلّ ليلة — وما تنقصُ الأيامُ والدهرُ ينفد
لعمركَ إن الموتَ ما أخطأ الفتى — لكالطوَل المرخى وثنياهُ باليد ١١

---

(١) اللائمي . اللاحي ، وفي رواية الزاجري (٢) كميت : خمر تضرب إلى السواد ، تعل : أي يصب الماء عليها (٣) كري : عطفي ، والمضاف الذي أضافته الهموم ٤ الدجن : المطر الخفيف ، معجب : أي يعجب من رآه ، والبهكنة : المرأة التامة الخلق ٥ ، البرين : الخلاخل في أنف الناقة ، على عشر : العشر شجر أملس مستو ضعيف العود شبه به عظامها وساعديها لملاسته واستوائه (٦ الشرب بكسر الشين وضمها اسم المشروب والمصرد : المقلل (٧) يروي نفسه من الخمر في حياته والصدي : العطشان (٨ النحام : كثير السعال عندما يسأل والغوي : الذي يتبع هواه ولذاته . والبطالة : اتباع الهوى والجهل (٩) الجثوة : التراب المجموع . صفائح صم صلبة . المنضد ، المجموع بعضه على بعض (١٠) يعتام : يختار ، الخيار : الكرام والأماجد ، ويصطفي : ينتخب ، وعقيلة كل شيء خيرته والفاحش : القبيح السيء الخلق والمتشدد : كثير البخل (١١) الطول : الحبل ، وثنياه أي طرفاه ، ومعناه أن الإنسان وإن يطل عمره إلا أنه كالفرس لصاحبها إذا أرادها جذب الحبل إليه .

فمالي أراني وابنَ عمّي مالكاً ... متى أدنُ منهُ يَنأَ عني ويَبْعُدِ ١
يَلومُ وما أدْري علامَ يَلومُني؟! ... كما لامني في الحيِّ قُرْطُ بنُ مَعبدِ ٢
وأيأسني منْ كلِّ خيرٍ طلبْتُهُ ... كأنّا وضعْناهُ إلى رمْسِ ملحدِ ٣
على غيرِ ذنبٍ قُلتهُ غيرَ أنني ... نَشَدتُ فلم أغفل حَمولةَ معبدِ ٤
وقرّبتُ بالقُربى وجَدّكَ أنني ... متى يَكُ أمرٌ للنكيثةِ أشهدِ ٥
وإن أُدْعَ للجُلّى أكنْ منْ حُماتِها ... وإن يأتِكَ الأعداءُ بالجَهدِ أجْهَدِ ٦
وإن يقذِفوا بالقذْعِ عرْضكَ أسقِهِم ... بكأسِ حِياضِ الموتِ قبلَ التهدُّدِ ٧
بلا حدَثٍ أحدَثتهُ وكمُحدِثٍ ... هجائي وقذفي بالشكاةِ ومُطرَدي ٨
فلو كان مولايَ امْرءاً هو غيرُهُ ... لفرَّجَ كربي أو لأنظرَني غدي ٩
ولكنّ مولايَ امرؤٌ هو خانقي ... على الشكرِ والتسآلِ أو أنا مُفتدي ١٠
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند ١١
فذَرني وخلقي إنني لكَ شاكرٌ ... ولوْ حلَّ بيتي نائياً عندَ ضرْغدِ ١٢
فلو شاءَ ربي كنتُ قيسَ بنَ خالد ... ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد ١٣

(١) ابن عمي على خلافي، أتقرب إليه فيبعد عني (٢) ويبالغ ابن عمي في الجفاء فيلومني على ما لا أستحق اللوم عليه كما يفعل قرط بن معبد (٣) أيأسني جعلني يائساً والرمس القبر والملحد: المقبور. (٤) وكل ما ألقاه منه لا سبب له إلا أني نشدت: طلبت (٥) النكيثة: بلوغ الجهد، وقيل الانتقاض (٦) الجلى: الأمر العظيم، والحماة الذائدون (٧) القذع: الشتم القبيح (٨) أي هو متعمد علي بلا حدث أحدثته، هجاني وطردني، والمطرد: الطريد (٩) يقول لو أن مولاه رجلاً آخر لفرج كربه وأنظره ولم يتعجله بما تعجله به ابن عمه من القدح والذم. (١٠) خانقي: مكره هي على شكره على ما لم يفعله، وإلا فأنا هدف سهامه (١١) أما أنا فقد ضقت بهذا التجني لأن الظلم من الأقربين لا يحتمل (١٢) ضرغد: جبل بعيد (١٣) قيس بن خالد من بني شيبان، وعمرو بن مرثد ابن عم طرفة قيل لما بلغ هذا عمرو بن عم طرفة وجه إلى طرفة فقال له أما الولد فالله يعطيكهم وأما المال فلك فيه ما لنا، ثم دعا ولده وكانوا سبعة فأمر كل واحد فدفع لطرفة عشراً من إبله، ثم أمر ثلاثة من بني بنيه فدفع كل واحد منهم إلى طرفة عشراً من الإبل.

فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارني بنونَ كرامٌ سادةٌ لمسوَّدِ
أنا الرجلُ الضربُ الذي تعرفونهُ خشاشٌ كرأسِ الحيّةِ المتوقّدِ
فآليتُ لا ينفكُّ كشحي بطانةً لعضبٍ رقيقِ الشفرتينِ مهنّدِ
حسامٍ إذا ما قمتُ منتصراً بهِ كفى العودَ منه البدءُ ليس بمعضدِ
أخي ثقةٍ لا ينثني عن ضريبةٍ إذا قيلَ مهلاً؛ قال حاجزهُ قدي
وبَرْكٍ هجودٍ قد أثارتْ مخافتي بوادِيَها أمشي بعضبٍ مجرّدِ ١
فمرّت كهاةٌ ذاتُ خيفٍ جلالةٌ عقيلةُ شيخٍ كالوبيلِ يلندَدِ ٢
يقولُ وقد ترَّ الوظيفُ وساقُها ألستَ ترى أن قد أتيتَ بمؤيدِ ٣
وقالَ ذروهُ إنما نفعها لهُ وإلا تردّوا قاصيَ البركِ يزدَدِ ٤
فظلَّ الإماءُ يمتللنَ حوارَها ويُسعى علينا بالسديفِ المسرهدِ ٥
فإن متُّ فانعيني بما أنا أهلهُ وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ ٦
ولا تجعليني كامرئٍ ليس همّهُ كهمّي ولا يغني غنائي ومشهدي ٧
بطيءٍ عن الجُلّى سريعٍ إلى الخنا ذليلٍ بإجماعِ الرجالِ ملهّدِ ٨
فلو كنتُ وغلاً في الرجال لضرّني عداوةُ ذي الأصحابِ والمتوحّدِ
ولكنْ نفى عني الأعادي جراءتي عليهم، وإقدامي وصدقي ومحتدي ٩

---

(١) البرك: الإبل الكثيرة الباركة، والهجود النيام (٢) الكهاة: الناقة السمينة، والخيف الضرع، الجلالة الكبيرة، والوبيل العصا (٣) تر: بمعنى انقطع والوظيف مستدق الساق من الإبل والخيل (٤) ذروه. اتركوا عناده (٥) الحوار الصغير من الإبل، والسديف السنام: والمسرهد المقطع صغاراً (٦) انعيني: اذكري من الأفعال ما أنا أهل له وهو يخاطب ابنة أخيه وشق الجيب معروف، ويراد به التنويه بشدة المصاب (٧) واحذري أن تجعليني هيناً كرجل لا يغني مثل غنائي، ولا يقوم في الحرب مقامي ولا يشهد مشهدي في المجالس والخصومات (٨) البطيء: الكسول المتقاعد، والجلى الأمر الخطير العظيم والخنا الفساد (٩) يقول إن الجرأة والإقدام والصدق وكرم الأصل منعت عنه أعداءه من الإساءة اليه

لعَمْرُكَ ما أمري على بغُمَّة | نهاري ولا ليلي عليَّ بِسَرْمَدِ ١
ويوم حَبَسْتُ النفس عند عراكها | حِفاظاً على عوراتِه والتَّهَدُّدِ ٢
على موطن يخشى الفتى عنده الردى | متى تعتَرِكْ فيه الفرائصُ تُرْعَدِ
وأصفَرَ مضبوحٍ نَظَرْتُ حوارَهُ | على النار واستَوْدَعتُه كفَّ مُجْمِدِ ٣
أرى الموت أعدادَ النفوس ولا أرى | بعيداً غداً ما أقربَ اليومَ من غَدِ
ستُبْدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهلاً | ويأتيكَ بالأخبار مَن لم تُزَوِّدِ ٤
ويأتيك بالأنباء مَنْ لم تَبِعْ لهُ | بتاتاً ولم تَضرِبْ له وَقتَ مَوعِدِ ٥
لعمرُكَ ما الأيامُ إلا مُعارةٌ | فما اسْطعتَ من معروفها فتزَوَّدِ ٦
عن المرءِ لا تَسأل وأبصِر قرينَهُ | فإنَّ القَرينَ بالمقارنِ مُقْتَدِ ٧
لعمرُكَ ما أدْري وإني لَواجِلٌ | أفي اليوم إقدامُ المنيَّةِ أمْ غَدِ ؟ ٨
فإنْ تكُ خلفي لا يفُتْها سوادِيا | وإن تَكُ قُدّامي أجِدها بمَرصَدِ ٩
إذا أنتَ لم تَنْفعْ بوُدكَ أهلَهُ | ولم تنكِ بالبوسى عدُوَّك فابْعدِ ١٠

(١) الغمة : الأمر الذي لا يهتدى له، والمعنى أني لا أتحير في أمري نهاراً ولا ليلاً فيطول علي الليل ، والسرمد الطويل (٢) العراك : الازدحام اي صبرت النفس عند ازدحام القوم في الحرب والخصومات على روعات اليوم وهن قرعاته (٣) الأصفر هنا الأسود : المجمد الذي يأخذ بكلتا يديه ولا يخرج من يدية شيء ، وقيل الذي يضرب بالسهام او الأمين في القمار (٤) ستبدي : ستظهر ، ما كنت جاهلاً ، يعني ما لم تسمع من قبل ؛ ويفيدك بها من لم تسأله عنها (٥) تبع له بتاتاً تشتري له زاداً (٦) لعمرك : وحياتك ليست الأيام إلا معارة عارية تسترد وتسترجع فاحرص على عمل الخير وصنع المعروف وتزود من ذلك كثيراً .

(٧) الرواية المحفوظة لهذا البيت .

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه | فكل قرين بالمقارن يقتدي

(٨) وانا وانت وغيرنا لا يدري ولا يعرف متى يحين حينه (٩) فان تك خلفي : فهي جادة ورائي ، ولن أغرب عن عينها ، وإن تك قدامي فهي رقيبة مترصدة (١٠) إذا لم تنفع ببرك الأقربين والأصدقاء ولم تلحق العطب بالأعداء ببطشك فاتخذ مكاناً قصياً .

(٧) معلقة أعشى قيس

هو أبو بَصير مَيمون الأعشى بن قيس بن جَندَل القَيْسي - نشَأ في بَدْء أمْره راويةً لخاله (المُسَيَّب بن عَلس) وقد عَميَ الأعشى وطال عُمرُه، حتى انبلجَ فجرُ الإسلام وعظُم أمرُ النبي ﷺ بين العرب، فأعدَّ له قصيدة يمدحه بها وقَصَدَه بالحجاز، فلقيه كفارُ قريش وصَدوه على وجهه على أن يأخُذ منهم مائة ناقة حمراء، ويرجع إلى بلده لِتَخوُّفهم أثر شعره ففعَلَ، ولما قَرُب من اليمامة سقط عن ناقته فدُقَّت عنقه ومات، ودفن ببلدته (مَنفوحة) باليمامة .

شِعْرُه : يُعَدُّ (الأعشى) رابعاً للثلاثة الفُحول : امرىء القيس، والنابغة، وزُهَير ؛ وإن كان يمتازُ عنهم بغزارة شعره، وكثرة ما رُوي له من الطِّوال الجياد وتفنّنه في كلّ فن من أغراض الشِّعر ؛ واشتَهرَ من بينهم بالمُبالغة في وصف الخمر حتى قيل . أشعرُ الناس امرؤ القيس إذا رَكبَ، وزُهَيرٌ إذا رغِب، والنّابغة إذا رَهب، والأعشى إذا طرِب .

ولشعره طَلاوة ورَوعة، ليست لكثرة من شعر غيره من القُدماء، ولقُوّة طبعه وجَلَبة شعره سُمّي (صَنّاجة العرب) حتى ليُخيَّل إليك إذا أنشدتَ شعره أنّ آخَرَ يُنشِد مَعَك

ولجلالة شعره كان يرفعُ الوضيع الخامل، ويخفضُ الشّريف النّابه، ومن الذين رفَعهم شِعرُ الأعشى (المُحَلَّق الكلابي) وقد كان أبا ثماني بنات عَوانس رَغِبتْ عن خِطبتهن الرجالُ لفقرهن، فاستضافه على فقْره، فمدحه الأعشى ونوّه بذكره في (سُوق عُكاظ فلم يمض عامٌ حتى لم تبق جارية منهن إلا وهي زَوجٌ لسيد كريم . وكان الأعشى يَتطرّف في شعره ويتكسّبُ به، وعدّه بعضهم من أصحاب المعلّقات، وذكر قصيدته اللاّمية التي يمدحُ بها الأسود الكِندي، ومطلعها .

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما تَرُدُّ سُؤالي

ومن جيّد شعره قصيدتُه التي أعدها لينشدها بين يدي رسول الله ﷺ يمدحه فيها ، فلم يفز بذلك ؛ وأولها :

ألم تغتمض عيناك ليلةَ أرمدا وبت كما باتَ السليمُ مُسهدا
وما ذاكَ من عِشق النساء وإنما تناسيتَ قبل اليوم خلة مهددا
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن إذا أصلحتْ كفايَ عاد فأفسدا
شباب وشيبٌ وافتقارٌ وثروة فلله هذا الدهر كيف تردّدا

وقصيدتُه التي أنشدها في مدح المحلق أولها :

أرقتُ وما هذا السُّهاد المؤَرقُ وما بيَ من سُقم وما بي تعشق

ومنها :

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرة الى ضوء نارٍ في اليفاعِ تحرقُ
تشبّ لمقرورينِ يصطليانها وباتَ على النارِ الندى والمحلقُ
رضيعَيْ لبان ثديَ أُم تقاسما بأسحَمَ داجٍ عوضُ ولا نتفرقُ
ترى الجُود يجري ظاهراً فوق وجهه كما زانَ متنَ الهندواني رونقُ
يداه يدا صدقٍ فكفٌ مبيدةٌ وأخرى إذا ما ضنّ بالمال تنفقُ

وقيل : إن معلقتهُ هي التي أولها .

ودّع هريرة إن الرّكب مرتحلُ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجلُ [1]
غرّاء فرعاءُ مصقولٌ عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل [2]
كأن مشيتها من بيتِ جارتها مرُّ السحابة لاريثٌ ولا عجل [3]

---

(١) هريرة اسم قينة كانت لرجل من آل عمرو بن مرثد أهداها إلى قريب له فولدت خليداً الآتي ذكره في شعره . (٢) الغراء البيضاء الواسعة الجبين، والفرعاء : الفرع أي الشعر ، والعوارض هنا الرباعيات والأنياب من الأسنان ، يريد أنها نقية الأسنان ، الوجي : الذي يشتكي حافره ولم يشف بعد ، فيكون مشيه متثاقلا فكيف إذا كان وحلا ؟ اي يمشي في الوحل ، يعني أن هذه الجارية لسمنها وتدللها تمشي متمهلة متمايلة (٣) الريث البطء .

تسمعُ للحلي وسواساً إذا انصرفت	كما استعان بريحٍ عشرقٌ زجلُ ١
ليست كمن يكره الجيران طلعتها	ولا تراها لسر الجار تختتلُ ٢
يكادُ يصدعُها – لولا تَشدّدُها –	إذا تقومُ إلى جاراتِها الكسلُ ٣
إذا تقوم يَضوع المسك أصورةً	والزّنبقُ الوردُ من أردانها شملُ ٤
ما روضةٌ من رياض الحزْن مُعشبة	خضراء جادَ عليها مُسبلٌ هَطِلُ ٥
يضاحكُ الشمس منها كوكبٌ شرق	مؤَزر بعميم النّبتِ مُكتهلُ ٦
يوماً بأطيب منها نشرَ رائحةٍ	ولا بأحسن منها إذ دنا الأصلُ ٧
صدت « هريرة » عنا ما تكلمنا	جهلاً بأمّ خليدٍ حبلَ من تصلُ؟ ٨
أئن رأت رجلاً أعشى أضرّ به	ريبُ المنون ودهر مُفندٌ خبلُ ٩

(١) الوسواس: صوت الحلي والعشرق: شجرة مقدار ذراع لها أكام فيها حب صغار إذا جفت فمرت بها الريح تحرك الحب فسمع له خشخشة على الحصى.
(٢) تختتل: اي تتسمعه استراقاً ٣ يصفها بالسمن والترف، وكانوا يمدحون المثريات بالكسل وقلة العمل في البيت لأنهن مخدومات متنعمات (٤) يضوع المسك: اى تذهب رائحته هنا وهناك، وأصورة: جمع صوار بالضم وهو نافجة المسك او حقه، والزنبق عند العرب: زيت الياسمين، وأكمله ما كان يميل إلى حمرة ولذلك وصفه بالورد (٥) الحزن: الأرض الغليظة، والحزن المراد هنا: موضع ببلاد بني يربوع من اليمامة فيه رياض وقلعان (٦) كوكب كل شيء: معظمه، ويريد به هنا جماعة الزهر. أي يضاحك الشمس منها ويدور معها حيث دارت زهرها، او يتفتح ويشرق عند شروقها: وهذا الزهر مؤزر اي يكتنفه نبات تام النمو ملتف عليه كالتفاف الإزار (٧) الأصل: جمع اصيل وهو من العصر إلى الظلام وخص هذا الوقت لان الجو يبرد فيه فيهب النسيم حاملاً رائحة الازهار يعني ان رائحة الروضة الموصوفة بهذه الصفات الحسنة ليست بأفضل من رائحة هريرة ٨ أم خليد كنية هريرة وقوله «حبل من تصل!» استفهام تعجبي، يعني اذا هجرتنا ولم تكلمنا فمن تكلم إذن. (٩) الاعشى الذي لا يبصر بالليل، والمفند الآتي بالفند وهو السفه في الرأي، ومثله الخبال.

قالت هريرة لما جئتُ زائرَها : وَيلي عليك وويلي منك يارجلُ[١]
إما ترَينا حُفاةً لا نعال لنـا إنا كذلك ما نحفى وننتعل[٢]
وقد أقودُ الصِّبا يوماً ، فيتبعني وقد يُصاحبُني ذوالشرَّةِ الغزلُ[٣]
وقد غدوت إلى الحانوت يَتبعُني شاوٍ مِشلٌ شلولٌ شُلشلٌ شولُ[٤]
في فِتيةٍ كسيوف الهند قد علموا أنْ هالِكٌ كلُّ مَن يحفى وينتعلُ[٥]
نازعتهُم قضُبَ الريحانِ متكئاً وقهوةً مُزّةً راوُوقها خَضِلُ[٦]
لا يستفيقون منها ، وهي راهنةٌ إلا بهاتِ ، وإن عَلُّوا ، وإن نهلوا[٧]

(١) ويلي عليك وويلي منك : أي أتفجع عليك لأنك تسعى بزيارتك لي في هلاك نفسك وأتفجع منك لأن زيارتك لي تجر إلى هلاكي (٢) ثم أخذ يعاتبها ويدفع عن نفسه بأن الصفات التي صدت عنه من أجلها طارئة عليه بفعل الموت والزمان ، وأنه كان شاباً غنياً طروباً غزلاً يشرب الخمر مع فتيان مثله ويستمع للقيان وينعم بهن فقال : « إما ترينا حفاة لا نعال لنا . . . الخ » أي إن ترينا نتبذل مرة فنمشي حفاة فليس هذا دأبنا دائماً فاننا أيضاً منتعلون فطوراً نفتقر وطوراً نغتني (٣) أقود الصبا الخ :أي أتصابى ،وآتي بأفعال الفتيان ويصحبني منهم الغزل ذوي الشرة وهي : نشاط الشباب . (٤) الحانوت : بيت الخمار ، والشاوي : الذي يشوي اللحم ، والمشل : السواق الخفيف والشلول والشلشل : الغلام الحار الرأس الخفيف الروح النشيط في عمله والشول :من يشول بالشيء الذي يشتريه المشتري ، فيحمله له ويرفعه .(٥) أي كالسيوف في المضاء والصرامة وأنْ مخففة من الثقيلة ، وإسمها ضمير الشأن المحذوف وجملة « هالك كل من . . الخ » خبرها فهالك خبر مقدم وكل مبتدأ مؤخر . (٦) الريحان : كل زهر طيب الرائحة ، ونازعتهم قضب الريحان : أتناولها مرة ويتناولونها أخرى ، والقهوة :الخمرة ، الراووق : الوعاء الذي تروق فيه الخمر وخضل :دائم الندى لا يخف لكثرة شربهم . (٧) راهنة دائمة أمامهم أي لا ينتهون إلا إذا أبطأ عليهم الساقي فصاحوا به «هات »ولو شربوا عللا بعدنهل أي مرة بعد أخرى.

يسعى بهاذو زُجاجات له نطَفٌ مقلصٌ أسفل السربال مُعتمل ١
ومستجيب تخال الصنجَ يُسمعه إذا تُرَجّعُ فيه القينةُ الفضُلُ ٢

(٨) الحارث بن حِلِّزةَ اليَشكري

هو الحارث بن حلزة اليشكريّ البكريّ، يتصل نسبه إلى يشكر رَهْطمن بكر بن وائل ولم يؤثر عنه غير قطع يسيرة ، ومعلقته الآتية التي كان من أمرها أن عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة أصلح بين بكر وتغلب بعد حرب البسوس ، وأخذ من كلا الفريقين رهائن من أبنائهم ، ليكفّ بعضهم عن بعض وليقيد منها المُعتدى عليه من المعتدي ، فحدث أن سَرّح الملك ركباً من تغلب في بعض حاجته ، فزعمت تغلب أن الركب نزلوا على ماء لبكر فأجلوهم عنه ،وحملوهم على المفازة فماتوا عطشاً ،وتزعم بكر أنهم سقوهم وأرشدوهم الطريق فتاهوا وهلكوا ، وذهب الفريقان يتدافعان عند عمرو بن هند ، وكانت ضلعه مع تغلب ،فهاج ذلك الحارث بن حلزة ، وكان في المجلس مستوراً عن الملك بستارة لما فيه من البرص ، فارتجل قصيدته هذه ارتجالاً يفتخر فيها بقومه وفعالهم وحسن بلائهم عند الملك وعظم أيامهم معه ،فما أتم قصيدته حتى انقلب الملك إلى جانب البكريين ،وقرّبَ الحارث من مجلسه ، وعمر الحارث طويلاً حتى قيل إنه أنشد هذه القصيدة وعمره خمس وثلاثون ومائة سنة ومات قبل الهجرة بنحو خمسين سنة

---

(١) النطف : القرطة من اللؤلؤ ، ومقلص : مشمر ، والسربال : القميص ، والمعتمل النشيط (المعنى)يسعى بالخمر ساق يحمل زجاجتها مقرط الأذن بلؤلؤ مشمر ذيله معتمل نشيط . (٢) ومستجيب : أي ورب عود طرب مستجيب لصوت الصنج كأنه يسمعه النغم فيجيبه بمحاكاته . أي أن العود والصنج متفقان في النغم لا يشذ أحدهما عن الآخر . والصنج : دوائر رقاق من صفر يصفق بأحدهما على الأخرى وهي التي نسميها في زماننا «الكاسات » وهو أيضاً نوع من الآلات الوترية ، وترجع : تردد النغم ، القينة : الأمة وقيل إذا كانت مغنية والمرأة الفضل . التي تلبس ثوباً واحداً كأنها متبذلة .

وشعره : تغلبُ عليه الجزالة مع الإيجاز ، واطراد التعبير من طريق الحقيقة والتشبيه في الغالب ، وكذلك ما فيه من الطابع البدوي الذي يكاد يمتاز به شعر الجاهليين ، ومعلقته هي :

آذنتنا ببينهــا أسماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ منه الثَّواءُ ١
بَعدَ عهدٍ لنا ببُرْقةِ شمَّا ءَ فأدنى ديارِها الخلصاءُ ٢
لا أرى من عَهدتُ فيها فأبكي اليَوْمَ دَلْهًا وما يحيرُ البكاءُ
غير أني قد أستعين على الهم إذا خفَّ بالثويِّ النَّجاءُ ٣
بزفوف كأنهــا هِقْلَةٌ أمُّ رئــال دَوِّيَّة سُقفاءُ ٤
آنَسَتْ نَبأةً وأفزعها القنــاصُ عصراً وقددنا الإمساء ٥

ثم قال :

وأتانا من الحوادث والأنبــاء خطبٌ نَعنَى به ونُساء ٦
أن إخواننا الأراقم يغـلو نَ علينا في قيلهم إحفاء
يخلطون البريءَ منا بذي الذنبِ ولا يَنفعُ الخليَّ الخَلاء ٧
زَعموا أن كلَّ مَنْ ضرَبَ العَيْرَ موال لنا ، وأنا الوُلاء ٨

---

(١) آذنتنا أعلمتنا ، وببينها : بفراقها لنا ، وثاو : مقيم . أي كثيراً ما تكره إقامة المقيم بين قوم لثقل كلفته أو لشره ، وأسماء ليست من هؤلاء ففراقها شاق علينا . (٢) برقة شماء : مكان ، الخلصاء كذلك ، الثوي : المقيم . (٣) النجاء : الإسراع (٤) الزفيف إسراع النعامة في سيرها والمراد المبالغة في وصف الناقة بالسرعة ، والهقلة الناعمة والرئال أولادها والواحد رال والدو المفازة والدوية المنسوبة إليها والسقفاء الطويلة مع انحناء (٥) آنست : أحست ، والنبأة : الصوت الخفي ، القناص الصيادون (٦) نعنى به : نتعب به نحن دون غيرنا ، ونساء به : يصيبنا منه سوء ، والأراقم : أحياء من تغلب معادية لبني بكر قبيلة الشاعر ويغلون علينا يتجاوزون الحد في التقول علينا ، والقيل : القول والإحفاء : شدة الإلحاح والاستقصاء . (٧) الخلي هنا الخالي من الذنب . والخلاء : الخلو من الذنب كذلك ، لا تنفع عندهم البريء براءته من الذنب فهم يأخذونه بذنب المجرم . (٨) أي فهم يلزموننا ذنوب الناس ولو لم تكن ذنوبهم مما يؤخذ عليها فعندهم أن كل من ضرب حماراً مثلاً مذنب .

أجمعوا أمرَهم عِشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مُنادٍ ، ومن مجيب ، ومن تَصْهالِ خيلٍ خِلالَ ذاك رُغاء ١
أيها الناطقُ المرَقّش عنا عند عمرو ، وهل لذاكَ بقاء ؟ ٢
لا تخلنا على غِراتك ، إنا قبلُ ما قد وشى بنا الأعداء ٣
فبَقينا على الشناءَةِ تَنْميـنا حُصونٌ ، وعزة قعساء ٤
قبلَ ما اليوم ِ بَيضّتْ بعيون الناس فيها تعيطٌ وإباء ٥
وكأن المنون تردي بنا أرْ عنَ جوناً ينجابُ عنه العماء ٦
مُكفَهراً على الحوادث لا ترْ نوهُ للدهر مؤيدٌ صمّاء ٧
أيما خطة أردتم فأدُّو ها إلينا تمشي بها الأمْلاء ٨

(١) أي يتلمسون أي ذنب ، ويتشاورون في الليل في أمر حربنا ، والتعبئة له فلا يصبح الصباح حتى تكون لهم جلبة وضوضاء من مناد الخ قيل إن هذين البيتين أوجز ما قيل في وصف التأهب للارتحال وأصدقه وأوضحه تصويراً للحقيقة (٢) المرقش : المزين القول بالباطل ، وهل لذلك الخ أي لتزيينك الباطل دوام ٣ لا تخلنا : أي لا تحسبنا ، والغرة : اسم مصدر من الإغراء ، وما زائد والمفعول الثاني محذوف . (٤) الشناءة : البغض . وتنمينا ترفعنا ، والقعساء : الثابتة . أي فبقينا على بغضك لنا في عزة ثابتة وحصون منيعة من أن يصيبنا منكم مكروه (٥) قبل ما اليوم أي قبل اليوم وما زائدة ، وبيضت بعيون الناس : بيضتها أي أعمتها والباء زائدة ، والتعيط الترفع والإباء (٦) تردي ترمي وترجم : والباء في « بنا » للتجريد نظير قولهم لئن لقيت فلاناً لتلقين به الأسد ، أي لتلقين الأسد ، أي هو كالأسد ، والأرعن هنا الجبل الذي له حدود وأطراف تخرج عن معظمه ، والجون : الأسود ، وينجاب منه : ينشق عنه ، والعماء السحاب الأبيض ٧) وصف هذا الجبل بأنه مكفهر ، والمكفهر من الجبال الصلب المنيع ولا ترنوه لا تنقصه وتنال منه ، والمؤيد الداهية وصماء . لا تسمع اعتذارات . أي أن هذا الجبل منيع على حوادث الدهر لا تنال منه الدواهي الصماء . (٨) الخطة : الأمر يقع بين القوم ، أو الإقدام على الأمر ، والأملاء جمع ملأ ، وهم الأشراف والرؤساء .

إن نَبشتم ما بين مِلحةَ فالصّا قب فيه الأمواتُ والأحياء ١
أو نَقشتم ، فالنقشُ يجشَمه النا سُ ، وفيه الصلاح والإبراءُ ٢
أو سكتمْ عنّا ، فكنا كمن أغـمضَ عيناً في جَفنها الأقذاء ٣
أو منعتمُ ما تسألون فمن حُدّ ثْتُموهُ له عَلينا العَلاء ؟ ٤
هـل علمتم أيام يُنتهبُ النـا سُ غِواراً لكـل حي عُواء ٥
اذْ ركبنا الجمالَ من سعف البحـرَين سَيراً حتى نهاها الحِساء ٦
ثمّ ملنا على تميم فأحرَمْنـا وفينا بنـات مُرّ إمـاء ٧
لا يُقيم العزيز بالبلد السهـلِ ، ولا ينفعُ الذّليلَ النجّاء ٨
ليس يُنجي مُوئلاً من حِذار رأسُ طودٍ وحرةٌ رجْلاء ٩

---

(١) ملحة الصاقب : موضعان ، أي إن كانت الخطة التي ترضونها أن تثيروا القتال الذي وقع بيننا في هذين المكانين ففيه أموات وأحياء أي فكانت عاقبته قتلى وأسرى منكم لم تدركوا منا ثأرهم ، وحذفت الفاء الواقعة في جواب الشرط « وهو فيه الأموات الخ » للضرورة . أو أن جواب الشرط محذوف تقديره فلنا الفخار بذلك أو أن جواب الشرط الآتي له ولهذا . (٢) أو نقشتم أي دققتم في الاستقصاء ويجسمه : يتكلفه على مشقة (٣) وإن سكتم عنا فاننا نسكت ، ونغضي أعيننا على القذى لأن الحق في جانبنا .(٤) وإن منعتهم ما تسألون فيه من الصلح والتراضي فمن الذي أخبرتم أن له العلو علينا ، حتى تطمعوا فينا ؟ وحدث هنا تعدت إلى ثلاث مفاعيل . (٥) غواراً : أي مغاورة بعض على بعض ، والعواء الصياح . ٦ يريد بالسعف : النخل ، والحساء جمع حسى ، وهو الرمل يكون الماء تحته قريباً أي هل علمتم إذا ركبنا الجمال من نخل البحرين حتى إنتهينا إلى الحساء (٧) فأحرمنا أي دخلنا في الأشهر الحرم فامتنعنا عن قتالهم وفينا بناتهم سبايا ، ومر أبو تميم .(٨و٩) النجاة : الإسراع والفرار . والموائل الذي يطلب موئلاً أي ملجأ ؛ والطود: الجبل؛ والحرة الأرض ذات الحجارة السوداء والرجلاء : الغليظة .

(٩) لبيد بن ربيعة العامري

هو أبو عقيل لبيدُ بن ربيعة العامري أحد أشراف الشعراء المجيدين ، وهو من بني عامر بن صَعْصَعَة إحدى بُطون هوازن من مُضَر ، وأمه عبسية ، نشأ لَبيد جواداً شجاعاً فاتكاً؛ أمّا الجود فورثه عن أبيه الملقبُ بربيعة المُعْتَرّين وأما الشجاعة والفتكُ فهما خَصلتا قبيلته . إذ كان عمه مُلاعِبُ الأسنة أحد فُرْسان مُضَرَ في الجاهلية ، وكان بين قبيلته وبين بني عبس أخواله عداوة شديدة ، فاجتمع وفداهما عند النعمان بن المنذر ، وعلى العبسيين الربيع بن زياد ، وعلى العامريين مُلاعِبُ الأسنة ، وكان الربيع مُقرّباً عند النعمان يُؤاكله ويُنادمه ، فأوغرَ صدره على العامريين ، فلما دخل وفدهم على النعمان أعرض عنه فشقّ ذلك عليهم ، ولبيد يؤمئذ صغير ، يسرحُ إبلهم ويرعاها ، فسألهم عن خطبهم فاحتقروه لصغره : فألحَ حتى أشركوه معهم ، فوعدهم أنه سينتقم لهم منه غداً عند النعمان أسوأ انتقام ، بهجاء لا يجالسه بعده ولا يؤاكله فكان ذلك ، ومَقَت النعمان الربيع ولم يقبل له عذراً ، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم ، فكان هذا أوّلَ ما اشتهر به لبيد ، ثم قال بعد ذلك المقطعات والمطَوّلات ، وشهد النابغة له وهو غلام بأنه أشعر هوازن ، ولما ظهر الإسلام وأقبلت وفودُ العرب على النبي ﷺ جاء لَبيد في وفد بني عامر وأسلمَ ، وعاد إلى بلاده ، وحَسُن إسلامه ، وتنسّك وحفظ القرآن كله ، وقال :

الحمد للهِ إذْ لَمْ يأتِني أجَلي حتى اكتَسَيتُ مِن الإسلام سربالا

وهجر الشعر حتى لم يرو له في الإسلام غير بيت واحد ، هو :

ما عاتَبَ الحرّ الكريم كنفسه والمرءُ يُصلحهُ الجليس الصالحُ

وبعد أن فتحت الأمصار ذهب إلى الكوفة زمن عمر بن الخطاب واختارها

دار إقامة . وما زال بالكوفة حتى مات في أوائل خلافة معاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، وقد قيل إنه عاش ثلاثين ومائة سنة

شعره : نبغ فيه وهو غلام ، وجرى فيه على سنن الأشراف والفرسان .

فمن قوله يرثي أخاه أربد ·

بَلينا وما تَبلى النجومُ الطوالعُ ... وتَبقى الدّيارُ بعدنا والمصانعُ
وقد كنتُ في أكناف جارِ مضنةٍ ... ففارقني جارٌ بأربدَ نافعُ
فلا جَزَعٌ إن فرّق الدّهر بيننا ... فكلُّ امرىءٍ يوماً به الدهر فاجعُ
وما النّاسُ إلا كالدّيار وأهلُها ... بها يوم حلوها وراحوا بلاقعُ
وما المال والأهلونَ إلا ودائعٌ ... ولا بدّ يوماً أن تُرَدَّ الودائعُ
لعمركَ ما تَدْري الضّوارب بالحصى ... ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ
وما الناسُ إلا عاملان : فعامل ... يُتَبِّر ما يبني وآخرُ رافعُ
فمنهم سعيدٌ آخذٌ بنصيبه ... ومنهم شقيٌّ بالمعيشة قانعُ

ومن جيد الشعر وأبلغه أيضاً :

معلقة لبيد بن ربيعة العامري

عَفت الدّيارُ محلها فمُقامُها ... بِمنىً تأبدَ غولُها فرجامُها [1]
فمدافعُ الرّيّان عُرّي رسمُها ... خَلَقاً كما ضمِنَ الوُحيَّ سِلامُها [2]
دِمَنٌ تَجَرّمَ بَعدَ عَهد أنيسها ... حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُها وحَرامُها [3]

(١) عفت : درست ، والمحل والمقام : موضع الحلول والإقامة . تأبد : توحش . الغول والرجام : جبلان . (٢) الريان : واد بحمى ضرية ، ومدافع : مجاري المياه به حيث يندفع السيل وعري : رسمها خلقاً : أي ظهر بالياً ، والسلام : الحجارة يذكر أن مدافع الريان لم تبق منها آثار تشبه آثار الكتابة على الأحجار . (٣) الدمن ما اجتمع من آثار الديار ، تجرم : مضى .

رُزِقت مَرابيعَ النجوم وصابها ودْقُ الرّواعد جودها فَرِهامها [١]
من كل سارية وغادٍ مدجن وعشية متجاوب إرْزامُها [٢]
فعلا فروعُ الأيهُقان وأطفلت بالجهلتين ظباؤهـا ونعامها [٣]
والعينُ ساكنة على أطلائهـا عوداً تأجّل بالفضاء بِهامُهـا [٤]
وجلا السيول عن الطلوع كأنها زُبرٌ تجدُّ مُتونها أقلامُهـا [٥]
أو رجْعُ واشمةٍ أسفّ نؤورها كففاً تعرض فوقهن وشامُها [٦]
فوقفت أسألها ، وكيف سؤالُنا صُمّاً خوالد ما يبين كلامُها [٧]
عريت وكان بها الجميع فأبكروا منهـا وغودر نؤيهـا وثمامُهـا [٨]
شاقتك ظعنُ الحيّ حينَ تحمّلوا فتكنّسوا قُطناً تصرُّ خيامُها [٩]
من كل محفوف يُظِلُّ عصيـه زوجٌ عليه كلة وقرامُهـا [١٠]

(١) المرابيع : أوائل الأمطار في الربيع . والنجوم : الأنواء، وصابها : مطرها والودق: المطر . وجوده غزيره . ورهامه لينه وصغيره (٢) السارية : السحابة وغاد: يسير بالغداة . مدجن : مظلم ، لأن المقيم إذا انتشر ملأ الجو بالدجنة وهي الظلمة والأرزام : صوت الرعد . (٣) الأيهقان : النبت أطفلت : أصبحت ذات أطفال، الجهلتين الجهتين (٤) العين: البقرة وأطلاؤها أولادها ، والعوذ : حديثة النتاج لأن ولدها يعوذ بها ، تأجل : تجمع وصار أجلاً، والأجل القطيع (٥) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها الأقلام (٦) الواشمة : من تحلي الأيدي بالوشم (٧) الصم العواقي وهي الأثافي ، ما يبين : لا يظهر ٨ عريت : خلت . أبكروا : ساروا في البكرة ، وغودر : ترك ، والنؤي : حفرة حول الخباء تمنع السيل، والثمام: نبت ضعيف (٩) الظعن : الجمال عليها الهوادج، او هي النساء في الهوادج، تكنست الظباء: سكنت الكناس ، والقطن الهوادج ، تصر خيامها ، يسمع لها صرير : يريد أن ظعن الحي تركوا وطنهم وأسكنهم الرحيل رحالاً يصفق بها الريح (١٠) محفوف : صفة للهودج يحف بالديباج ويزدان به جانباه، يظل: يغطي أو يظلل والعصي هنا أعواد الهودج ، والزوج بساط يفرس على الهودج، والكلة ستر رقيق، والقرام: ثوب ملون منقوش .



زجلاً كأنّ نعاج توضحَ فوقها ... وظباءَ وجرةَ عُطّفاً أرامُها ١
حُفِزتْ وزايلها السّرابُ كأنها ... أجزاعُ بيشةَ أثلُها ورضامُها ٢
بل ما تذكّرُ من «نَوار» وقد نأتْ ... وتقطّعتْ أسبابُها ورمامُها ٣
مُرّيّةٌ حلّتْ بفَيدِ وجاورتْ ... اهل الحجاز فأينَ منكَ مرامُها ٤
بمشارقِ الجبلَيْنِ أو بمُحَجَّر ... فتضمّنتها فَرْدةٌ فرُخامُها ٥
فصوائقٌ إنْ أيمنتْ فمظنّةٌ ... منها وحافُ القهْرِ أو طِلخامُها ٦
فاقطعْ لُبانةَ مَنْ تعرّضَ وَصلُهُ ... ولشرُّ واصلِ خُلّةٍ صرّامُها ٧
واحبُ المجاملَ بالجزيلِ وصرمُهُ ... باقٍ إذا ظلَعتْ وزاغَ قِوامُها ٨
بطليحِ أسفارٍ تركْنَ بقيّةً ... منها وأحنقَ صلبُها وسنامُها ٩
فإذا تغالى لحمُها وتحسّرتْ ... وتقطّعتْ بعد الكلال خِدامُها ١٠

---

(١) زجل : الجماعة ، توضح ووجرة ، موضعان ، النعاج : البقر ، عطفت الظبية تعطف جيدها إذا ربضت ، يذكر أن النساء فوق الهوادج كأنهن النعاج أو الأرآم والأعلام (٢) حفزت: حثت على المسير وزايلها . فارقها ، بيشة : واد والأجزاع منعطف الوادي ، الأثل : نوع من الشجر ، والرضام: صخور عظام . (٣) نوار : اسم حبيبته ، الرمام . القطعة من الحبل البالي ، يريد أن الوصل تقطعت به الأسباب . (٤) مرية تنسب إلى مرة بن عوف ، فيد : موضع في طريق مكة مرامها : منالها . (٥) الجبلان أجا وسلمى ، محجر: جبل في بلاد طيء ، فردة اسم أرض ، والرخاء : موضع كثير الأشجار . (٦) الصوائق : جبل قرب مكة وتروى فصمائد وأيمنت: سارت نحو اليمين. وحاف: الصخراة السوداء ، القهر: اسم موضع والطلخاء الفيلة . (٧) اللبانة : الحاجة ، تعرض : تغير . (٨) واحب . أعط المجامل المكافيء، وصرمه باق : أي وقطيعته باقية – إذا ظلعت : إذا مالت مودته عنك وزاغ قوامها أي ملاكها . (٩) الطليح : الناقة المعيية وأحنق بمعنى ضمر . (١٠) تغالى . إرتفع من الهزال وتحسرت : تقطعت والكلال الأعياء .

فلها هِباب في الزمامِ كأنها صهباء راحَ معَ الجنوب جَهامُها ١
أو ملمعٌ وسقت لأحقبَ لاحهُ طردُ الفحولِ وضربُها وكدامُها ٢
يعلو بها حَدَبَ الأكامِ مُسَحَّجٌ قد رابهُ عِصيانُها ووِحامُها ٣
بأحزّةِ الثلبوتِ يربأ فوقها قفرُ المراقب خوفها آرامُها ٤
حتى إذا سلخا « جمادى » ستة جزءاً فطال صيامه وصيامها ٥
رجعا بأمرهما إلى ذي مِرّةٍ حصدٍ ونجحُ صريمةٍ إبرامها ٦
ورمى دوابرها السفا وتهيجت ريحُ المصايف سومها وسهامها ٧
فتنازعا سبطاً تطير ظلاله كدخان مشعلة يشبُّ ضرامها ٨
مشمولة غلثت بنابتِ عرفجٍ كدخان نار ساطعٍ أسنامها ٩
فمضى وقدمها وكانت عادة منه إذا هي عرّدت إقدامها
فتوسطا عرض السريّ وصدعا مسجورةً متجاوراً قلامها ١٠

(١) الهباب : النشاط . والصهباء : السحابة التي لم يكن فيها ماء ، والجهام الذي لا ماء فيه ، والجنوب : هي الريح اليمانية (٢) الملمع الأتان التي قد بان حملها واسودت حلماتها (٣) يعلو : يرتفع الحدب . ما ارتفع من الأرض ، المسحج : المعضعض رابه أي شككه . والعصيان : الامتناع ، والوحام : الكراهية للشيء . (٤) الأحزة : ما غلظ من الأرض الثلبوت : موضع في نجد ، يربأ : يرفع ، قفر المراقب : عالي موضع الارتقاب ، والآرام : الأعلام (٥) أراد ستة أشهر أولها المحرم وآخرها جمادى ، جزءاً : أي إستغنينا بالرطب من الكلأ عن الماء ، والصيام عن الماء وسلخا : أي مضى عليهما ٦ رجعا . الأتان والحمار . بأمرهما . برأيهما ، ذي مرة قوة ، يعني الحمار ، حصد : محكم وصريمة : عزيمة ، والإبرام : الإحكام . (٧) الدوابر : مآخير الحوافر : والسفا : شوك البهمى هنا ، المصايف : المرعى أيام الصيف ، سومها . مرها . السهام وهج الصيف وشدة حره (٨) تنازعا : تجاذبا (٩) أسنم الدخان : إذا ارتفع وكثر ، غلثت : خلطت ، العرفج : كثرة الدخان ساطع مرتفع (١٠) توسطا دخلا وسطه عرض السرى ، ناحية النهر ، وصدعاء قافر ، مسجورة : أي عينا مملوءة .

محفوفــة وسط اليراع يظلهــا منها مُصَرَّعُ غابــة وقيامها ١
أفتِلكَ ؟ أم وحشيةٌ مسبوعة خذلت وهاديةُ الصوار قوامها ٢
خنساء ضيّعت الفرير فلم يرمْ عُرْض الشقائق طوفها وبغامها ٣
لمعفّر قهْدٍ تنازع شِلوَهُ .. غبس كواسب ما يُمَنُّ طعامها ٤
صادفن منها غِرّةً فأصبنهــا إن المنايا لا تطيش سهامُها ٥
باتت وأسْبَلَ واكفٌ من ديمة يروي الخمائلَ دائماً تَسجامُها ٦
تجتافُ صــلاً قالصاً متنبــذاً بعُجُوب أنقاء يميــلَ هيامها ٧
يعلو طريقة متنهــــا متواتراً في ليلةٍ كفرَ النجوم ظلامها ٨
وتضيء في وجه الظلام منيرةً كجمانة البحريّ سلَّ نظامها ٩
حتى اذا انحسرَ الظلامُ وأسفرتْ بكرت تزلُّ عن الثرى أزْلامها ١٠

(١) محفوفة : محوطة من جميع جوانبها ، يعني العين ، مصرع : بعضه فوق بعض والغابة ، الأجمة وهي الشجر الملتف (٢) أفتلك : الأتان ، أم وحشية : بقرة الوحش مسبوعة : أكل السبع ولدها ، خذلت : تأخرت عن البقر والخذول : المتخلفة ، وهادية متقدمة (٣) خنساء : قصيرة الأنف ، الفرير : ولد البقرة ، يرم : يبرح ، عرض أي ناحية ، الشقائق : جمع شقيقة وهي ما بين الرملتين وطوفها أي دورانها وترددها وبغامها : صوتها (٤) المعفر ولد البقرة ، والفهد : الأبيض تنازع : تجاذب ، شلوه واحد الأشياء وهي الأعضاء ، وغبس الذئاب الغبر وكواسب تكسب ما تأكل ، ما يمن طعامها ليس أحد يمن به عليها . (٥ صادفن : وجدن ، غرة : غفلة ، فأصبنها ، أوقعنها ، لا تطيش . لا تخطيء (٦) أسبل ، هطل ، الواكف : المطر يقيم أياماً لا ينقطع ، الخمائل الشجر الملتف والتسجام ، كثرة المطر . (٧ تجتاف : تدخل جوفه ، أصلاً قالصاً ، يعني أصل شجرة ، بعقوب . أصل الذنب ، يعني أطراف الرمال ، منتحياً . (٨) الطريقة ، الخطة ، متواتراً . متتابعاً ، كفر غطى ، والغمام . السحاب . (٩) تضيء . تنير والجمانة . الحبة من اللؤلؤ ، سل نظامها . وهو الخيط الذي يسلك فيه اللؤلؤ . (١٠) انحسر الظلام . انكشف ، أسفرت : دخلت في الإسفار وهو الصبح ، بكرت : غدت بكرة ، تزل ، تسرع ، الثرى التراب ، أزلامها ، قوائمها

عَلِهت تبلد في نهاء صعائد سبعاً تؤماً كاملاً أيامُها ١
حتى إذا يئست وأسحق حالقٌ لم يبله إرضاعها وفطامها ٢
وتسمّعت رزّ الأنيس فراعها عن ظهر غيب والأنيس سقامها
فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولي المخافة خلفها وأمامها ٣
حتى إذا يئس الرماة وأرسلوا غضباً دواجن قافلاً أعصامُها ٤
فلحقن واعتكرت لها مدريةٌ كالسمهرية حدها وتمامها ٥
لتذودهنّ وأيقنت إن لم تذد أن قد أحمّ مع الحتوف حمامها ٦
فتقصدت منها كساب فضرّجت بدمٍ وغودر في المكرّ سخامها ٧
فبتلك – إذ رقص اللوامع بالضحى واجتاب أردية السراب إكامها ٨
أقضي اللبانة لا أفرّط ريبة او أن يلوم بحاجة لوّامها ٩
او لم تكن تدري « نوارُ » بأنني وصّالُ عقد حبائل جذامها؟ ١٠
ترّاك أمكنة إذا لم أرضها او يرتبط بعض النفوس حمامُها ١١
بل أنتِ لا تدرينَ كم من ليلة طلق لذيذٍ لهوها وندامُها

(١) علهت : تحيرت ، تبلد : تتردد ، وتتحير ، في نهاء . غاية ، الصعائد . المكان تؤماً : أي متتابعة لياليها (٢) سحق . ارتفع ، والحالق . المرتفع وهو ضرعها ، والحالق ، الجبل المرتفع (٣) الفرجان : ما بين القوائم ، مولى المخافا صاحبها (٤) الغضب : جمع أغضب وهي الكلاب . (٥) اعتكرت . استمعت ورجعت مدربة : محدودة ، السمهرية ، الرماح المنسوبة إلى سمهر وهو رجل كان يقوم الرماح باليمن (٦) تذودهن : أي تطردهن ، وأن قد أحم قدر ، الحتوف . جمع حتف وهو الموت والحمام : الموت (٧) فتقصدت : قصدت يعني قتلت ، كساب . إسم كلبة فضرجت : خلطت وغودر . ترك ، في المكر ، موضع القتال ، سخامها اسم كلب . (٨) فبتلك البكرة رقص . ارتفع اللوامع بالضحى . الآل ، وإجتاب . لبس ، أردية . جمع رداء . (٩) اللبانة . الحاجة ، لا أفرط لا أترك ، والريبة الشك والمخافة ، أو أن لا يلوم (١٠) وصال . أي أصل ولا أقطع . (١١) تراك أمكنة يقول إذ رأى ما يكره تركها ، أو يرتبط . يتلف ، وبعض بمعنى كل .

قد بتّ سامِرَها وغايةَ تاجرٍ ... وافيت إذ رُفعت وعز مُدامُها [١]

أُغْلي السِّباء بكل أدكَنَ عاتقٍ ... أو جونةٍ قُدِحَت وفُضّ خِتامُها [٢]

بصبوحِ صافيةٍ وجَذْبِ كرينةٍ ... بمُوَتّرٍ تأتالُهُ إبهامُها

باكرْتُ حاجتَها الدجاجَ بِسُحرةٍ ... لأُعِلَّ منها حين هَبّ نيامُها

وغداةَ ريحٍ قد وزعْتُ وقرّةٍ ... إذ أصبحت بيد الشَّمال زمامُها

ولقد حَمَيتُ الخيلَ تحملُ شِكّتي ... فرُطٌ وِشاحي إذ غدَوتُ لجامُها [٣]

فعلوْتُ مُرتقياً على مَرْهوبةٍ ... حَرِجٍ إلى أعلامهن قَتامُها [٤]

حتى إذا ألْقت يداً في كافرٍ ... وأجَنّ عَوْرات الثغور ظلامُها [٥]

أسهلتُ وانتصبت كجِذْعِ مُنيفةٍ ... جَرداءَ يحصَرُ دونها جُرّامُها [٦]

رفّعتها طرد النعام وفوقه ... حتى إذا سخُنَتْ وخَفّ عظامُها [٧]

قلقت رِحالتها وأسبلَ نحرُها ... وابتلّ من زَبَدِ الحميم حزامُها [٨]

ترقى وتطعنُ في العنان وتنتحي ... وِردَ الحمامةِ إذ أجدّ حمامُها [٩]

وكثيرة غُرَباؤُها مجهولة ... ترجَى نوافلها ويُخشى ذامُها [١٠]

---

(١) بت سمراً : أي فيها وغاية تاجر يريد راية تاجر يبيع الخمر ، ويضع الراية ليعرف موضعه بها فرفعها لذلك ، عز غلا مدامها : خمرها وسميت مدامه لمداومتها في الدل (٢) السباء : شراء الخمر ، وجونة : سوداء ، والأدكن : الزق ، قدحت غرفت. (٣ فرط : من صفة الفرس السابق ، وشكتي : سلاحي (٤) فعلوت طلعت مرتقياً ، الحرج ، الضيق ، والأعلام ، الصوت ، القتام ، الغبار . (٥) ألقت يداً ، يعني الشمس ، والكافر ، البحر ، وأجن ستر ، العورات : جمع عورة ، موضع المخافة ، والثغر ، موضع المخافة أيضاً. ٦ أسهل ، نزل السهل وانتصبت يريد الفرس ، ومنيعة ، يريد نخلة طويلة الجرام : الصرام (٧) ركضها في المسير كما تطرد النعام وفوقه : فوق الطرد وسخنت جمعت ، وخف عظامها ، وأسرعت . فاذا عرقت جاد جريها ٨ الرحالة : سرج ، والحميم العرق وأسبل نحرها : جرى (٩ إلى الماء وهو الورد ، وترقى تعتمد ، وتنتهي تقصد ، كأنها حمام أجهد نفسه ، ورد الحمامة ، كاسرعها (١٠ يريد كم من خطة وحالة عظيمة مشهورة حضرتها وكنت المقدم فيها ، ترجى نوافلها : فضلها ، ويخشى عليها .

غلب تشذّرَ بالذحول كأنها جن البديّ رواسياً اقدامها ١
أنكرت باطلها وبؤت بحقها يوماً ولم يفخر عليّ كرامُها ٢
وجزور أيسارٍ دعوت لحتفها بمغالق مُتشابه أعلامُها ٣
أدعو بهن لعاقرٍ أوْ مُطفلٍ بذلتْ لجيران الجميع لحامها
فالضيفُ والجارُ الغريبُ كأنما هَبطاً تَبالةَ مُخصباً أهضامها ٤
تأوي الى الأطنابِ كل رزية مِثل البليةِ قالص أهدامها ٥
ويكلّلونَ اذا الرياحُ تناوَحتْ خلجاً تمُد شوارعاً أيتامُها ٦
إنا إذا التقتِ المجامعُ لم يزَل منا لزازُ عظيمة جشامُها ٧
ومقسمٌ يُعطي العَشيرة حقها ومغذْمر لِحُقوقها هَضامها ٨
فضلا ، وذو كرم يعينُ على الندَى سمْح كسوب رغائب غَنامها
من معشر سَنتْ لهم آباؤهم ولكل قوم سُنةٌ وإمامها
إن يَفزعوا تلقى المغافر عندهمْ والسِّن يلمع كالكواكب لامها
لا يَطبعون ولا يبورُ فعالهم اذ لا يميل معَ الهوى أحلامُها
فبَنوا لنا بيتاً رَفيعاً سمكه فسما اليه كهْلها وغلامها ٩

(١) تشذر : تهيأ للقتال الذحول : الأحقاد ، البدي مكان معروف بالجن ، رواسياً يعني أنها ثابتة . (٢) بؤت أقررت . (٣) الأيسار : لذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح ، والمغالق السابع من سهام الميسر . (٤) يقول عنده من الخصب مثل ماعند هل تبالة من الرطب (٥) الرزية المرة متى أهزلها أهلها والبلية : ناقة الرجل تعقل عند قبره وتفقأ عيناها ويطرح حفتها ويلذون وجهها فلا تزال عند قبره حتى تموت ويحضر له قدر ما بقيت قوائما ، الأطناب : حبال الفساطيط ، والأهدام : الخلقان ،وقالص: قصير مرتفع (٦) التكليل أن يوضع اللحم بعضه على بعض ، الخلج . الجفان ، شوارع : جمع شارعة وهي من صفات الأيدي ، رأى أيديهم ممدودة للأكل . (٧) المحافل: المجامع . لزاز: قرن ، لكل عظيمة جشامها أي متجشم لها، متكفل بها. (٨) المقسم: يريد عامر بن الطفيل والمغذمر : الذين يأخذ من هذا ويعطي هذا ويدع هذا ، والهضم : النقصان . (٩) بنو: يعني آباءه وأجداده ، السمك : المرتفع من الشيء .

فاقنع بما قسم المليكُ فإنما | قسمَ الخلائق بيننا علامُها
وإذا الأمانةُ قسمتْ في معشر | أوفى بأعظم حظِّنا قسَّامها
فهمُ السُّعاة إذا العشيرة أفظعتْ | وهُمُ فوارسُها وهُمْ حكّامها [1]
وهم ربيع للمجاور فيهمُ | والمرملاتِ إذا تطاول عامُها
وهمُ العشيرةُ إن يُبطأ حاسدٌ | أو أن يميلَ مع العدوِّ لئامها

ومنه قوله في النّعمان يرثيه :

ألا تسألانِ المرء ماذا يحاول | أنحبٌ فيقضى أم ضلالٌ وباطلُ [2]
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم | بلى كلّ ذي لب إلى الله واسلُ [3]
ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ | وكل نعيم لا محالة زائلُ
وكل أناس سوف تدخُل بينهم | دويهيةٌ تصفر منها الأناملُ
وكل امرىء يوماً سيعلم غيبه | إذا كشفت عند الإله الحاصلُ

ويعتبر لبيد ممن رثى نفسه قبل موته بقوله لابنتيه وهو محتضر :

تمنى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما | وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مُضرْ
فإن حان يوماً أن يموت أبوكما | فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعرْ
وقولا هو المرءُ الذي لا حليفه | أضاعَ ولا خان الصديق ولا غدَرْ
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما | ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

(١٠) علقمة بن عبدة التميمي

هو علقمة الفحل بن عبدة بن ناشرة التميمي ، شاعر جاهلي مجيد من أقران امرىء القيس ، مات قبل الإسلام بزمن طويل ، وإنما قيلَ له «الفحل» من أجل أن يتميز في الأخبار من شاعر آخر في قبيلته أيضاً يسمى علقمة الخصي بن سهل

(١) السعاة: جمع ساع وهو المصلح، وأفظعت : ابتليت بالأمر الفظيع. وهو المهم (٢) السؤال بمعنى الاستفهام ، والمحاولة : استعمال الحيلة ، والنحب النذر (٣) الواسل الطالب والراغب إلى الله ، اي ارى الناس لا يعرفون ما هم فيه .

ويكنى أبا الوَضاح أدرك الإسلام وأسلم،وقيل سمي « الفحل » لأنه خلف امرأ القيس على زوجته بعد أن طلقها،لأنهافضلت علقمة عليه حين حكمّتهافي شعرهما.

(١١) معلقة علقمة الفحل بن عبدة التميمي

طَحابك قلب في الحسان طرُوب ... بُعيد الشباب عصْرَ حان مشيبُ ١

يُكلفني ليلى ، وقد شط وليهــا ... وعادت عواد بيننا وخطوب ٢

منعمةٌ ، ما يستطاعُ كلامهــا ... على بابها من أن تزار رقيب ٣

إذاغاب عنها البعلُ لم تفشِ سرّه ... وترضي إيابَ البعل حين يؤوب ٤

فــلا تعــدلي بيني وبين مغمّر ... سقتكِ روايا المزن حين تصوب ٥

سقاكِ يمان ذو حبي وعارض ... تروح به جُنْحَ العشيّ جنوب ٦

(١) طحا به قلبه ذهب بــه كل مذهب ، والطروب من الطرب ، وهو خفة السرور والشوق إلى الشيء ، وبعيد ، تصغير : بعد . وحان المشيب: قرب أوانه ، اي أضلك قلبك الطروب في حبك الحسان بعدمــــا ذهب الشباب وقرب المشيب ، والخطاب لنفسه ، ثم التفت وتكلم عن نفسه فقال: يكلفني الخ (٢. شط وليها : بعد عنك قربها ودنوها؛ومواصلتها عادت: شغلت، وصرفت مقلوب عداه عن الأمر صرفه ، والعوادي . جمع عادية ، وهي الأمر الشاغل عن الشيء ، والخطوب : جمع خطب وهو الأمر العظيم من حوادث الدهر

(٣) منعمة : من النعيم فهي محجبة يعني بحراسة أهلها لها (٤ لم تفش سره: كناية أنها لم تخنه، ولذلك هي ترضي إيابه فلا تعجبهاغيره،وإذا قريء وترضى ـ بالضم ـ كان المعنى وتجعل إيابه رضياً حميداً بألا يشك في صونها. (٥) فلا تعدلي فلا تسوي والمغمر من الرجال. المحمق من الرجال الذى يستجهله الناس ، سقتك الخ يدعو لها بأن تسقيها المزن الروية أي تروي حين تمطر ، يريد أنه رجل عاقل نبيل ينبغي لها أن تحرص عليه ثم عاد إلى الدعاء لها فقال، سقاك الخ. ٦) أي سقاك سحاب يمان يأتي من ناحية جنوبي نجد، أصله يمني خففوا ياء النسب، وزادوا الألف عوضاً عنها ، فعومل المنسوب معــاملة المنقوض ، الحبي السحاب المتراكم =

وما أنت ؟ أم ما ذكرها ربعيّةً يخط لها من ثرمداءَ قليب ١
فإنْ تسألوني بالنساءِ فإنني بصير بأدواءِ النساء طبيب ٢
إذا شاب رأس المرءِ أوْ قل مالُه فليس له من وُدّهِنّ نصيب
يردْن ثراءَ المال حيثُ علمنه وشرخُ الشباب عندهن عجيب ٣
فدعها ! وسلِّ الهم عنك بجسرة كهمك فيها بالرداف خبيب ٤
إلى الحارث الوهاب أعملت ناقتي بكلْكلِها والقصر بين وجيب ٥

وقال أيضاً علقمة الفحل بن عبدة التميمي :

والحمد لا يُشترى إلا لهُ ثمنٌ مما يضنُّ به الأقوام معلومُ ٦
والجود نافية للمال مهلكة والبخل مبق لأهليه ومذمومُ ٧

= بعضه على بعض فيكون سيره بطيئاً كأنه يحبو، ويكون لذلك مطره غزيراً، والعارض السحاب المعرض في الأفق ، والجنوب: الريح الجنوبية

(١) وما أنت : ما استفهامية للتعجب وأم للأضراب بمعنى بل ، أي ما شأنك ؟ بل ما الداعي لذكرك ليلى ، وهي ربعية من ربيعة وأنت تميمي ، وقد رحلت إلى بلادها حيث خط لها في ثرمداء قليب ، والقليب : البئر وثرمداء موضع ، ثم أخذ يصف أخلاق النساء وطباعهن ، فقال فإن تسألوني الخ : (٢) الأدواء جمع داء ، أي بطباعهن المعيبة التي بمنزلة الأمراض فيهن (٣) الثراء: الكثرة أي يحببن من يعلمن عنده مالا ، وشرخ الشباب أوله ، وعجيب : معجب (٤) الجسرة الناقة القوية الماضية ، وكهمك أي مثل همتك في المضاء والقوة ، والرداف جمع رديف والرديف والردف كل شيء يكون خلف الراكب ، ولو حقائب . والخبيب : السير السريع . ٥ والحارث الوهاب : يريد به الحارث ابن جبلة بن أبي شمر الغساني ، وكان أسر أخاه شاسا فرحل إليه يطلب خلاصه وفكه وأعمل الناقة : وجهها وأجهدها ، والكلكل . الصدر وما بين الترقوتين ، وهو المناسب هنا . والقصريان ضلعان يليان الترقوتين. والوجيب خفقان القلب أي أنه لشدة إجهادها في السير اشتد نبض قلبها . وبان ذلك في كلكلها وقصرييها لقرب القلب منها . (٦) يقول إن الحمد لا يشترى إلا بأثمان تضن بها النفوس ، والحمد: الثناء والمدح. (٧) نافية أي مبيد ومهلك. والبخل الخ : أي أن البخل يوفر المال وأهله مأمونون وأدخل الهاء في نافية للمبالغة مثل علامة ونسابة .

والمالُ صوف قرار يلعبون به على نقادته واف ومجلوم ١
ومُطعمُ الغنم يوم الغنم مُطعمه أنى توجه ، والمحروم محروم ٢
والجهلُ ذو عرض لا يُستراد له والحلم آونةً في الناس معدوم ٣
ومن تعرّض للغرْبانِ يزجرها على سلامته لا بد - مشئومُ ٤
وكلُّ حصن وإن طالت سلامته على دعائمه – لا بدّ – مهدوم ٥

أمية بن أبي الصلت

هو أمية بن عبد الله بن أبي الصلت بن أبي ربيعة بن عوف الثقفي شاعر خطير من أشراف ثقيف، وأحد المتمسين للدين في الجاهلية، وأمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف .

منشؤه – نشأ بالطائف، وكان أبوه شاعراً مشهوراً، وروى الكثير من أخبار اليهود والنصارى وما بقي في رءوس شيوخ الجاهلية من ملة إبراهيم وإسماعيل وحدث عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن وشرائع الأنبياء والرسل، وخاض في التوحيد وأمر الآخرة ، وتعبد ولبس المسوح ، وحرم الخمر على نفسه وشك في الأوثان ، ورأى في الكتب ما يبشر ببعثة نبي من العرب ، فطمع أن يكونه؛ فلما بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كُسِفَ بالُه ، وحمله الحسدُ

(١) القرار : النقد . وهي غنم صغار الأجرام قصار الواحدة نقدة ، يلعبون به : أي يتداولونه ويعبثون به ، واف: كثير ، ومجلوم: مجزوم بالجلم أي المقص يريد أن منهم من يعطي القليل ومنهم من يعطي الكثير كما أن الصوف على النقد قليل وكثير . والنقادة : جمع لاسم الجمع (٢) المعنى : أن الذي جعل الغنم له طعمة فسيطعمه في يوم الغنم أينما توجه . ومن حرمه فلن يناله فقضاء الله كائن لامحالة . (٣) ذو عرض لك : لا يستراد له أي لا يراد ولا يطلب فأنت لا تحبه ولا تريده ، آونة أحياناً ، ومفرده : أوان (٤) المعنى أن من يزجر الطير وإن سلم فلا بد أن يصيبه شؤم : والغربان يتشاءم بها فمن تعرض لها يزجرها ويطردها خوفاً من أن يصيبه الشؤم فلا بد أن يقع ما يخاف ويحذر. (٥) يقول : كل حصن دامت سلامة أهليه فيه فلا بد أن يهلكوا ويخرب الحصن ، ودعائمه : أركانه التي يقوم بها .

والكمد أن ينابذه ، ويكفر بدينه على علمه بصحته ، ويحرض عليه قريشاً ، ويرثي قتلاهم في وقعة بدر ، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن رواية شعره في ذلك ، وروي أنه هو الذي نزلت فيه آية «واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخَ منهـا فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين» وكان عليه الصلاة والسلام إذا سمع شعره في التوحيد والايمان والثناء على الله يقول : آمن لسانه ، وكفر قلبه .

ومن آخر شعر ما قاله عند موته :

كلُّ عيش وإن تطاول دهـراً منتهى أمـره إلى أن يزولا
ليتني كنتُ قبلَ ما بـدا لي في رؤوس الجبال أرعى الوُعولا
فاجعل الموت نصب عينيك واحذر غولة الدهر إن ذا الدهر غولا

واختص بأكثر مدائحه في الجاهلية (عبد الله بن جدعان أحد سراة قريش وأجوادها) حتى كان منه بمنزلة زهير مع هرم ، وأقام بقية حياته بالطائف إلى أن مات بها كافراً سنة تسع للهجرة .

شعره : يعدُّ أمية من أكبر شعراء القُرى على قلة الشعر فيهم ، غير أن الذي أزرى بشعره في نظر بعضهم كثرة استعماله للدخيـل من العبرية والسريانية في شعره وكان أمية يسمي السماء : صاقورة ، وحاقورة ؛ ويزعم أن للقمر غلافاً يدخل فيه إذا خسف ويسميه السّاهور) ويسمي الله في شعره السلطيط ، والتغرور ، ونحو ذلك

ويمتاز شعره ببعض السهولة في لفظه ، وبذكره بعض العجائب من القصص الخيالية ، والأساطير الخرافية ، وخلق العالم وفنائه ، وأحوال الآخرة وصفات الخالق والخشوع له ؛ ويذكر من ذلك ما لم يذكره احد من الشعراء قبله ، ويتخلل ذلك شيءٌ من الحكم والأمثال ، ومن شعره :

الحمدُ لله ممسانا ومصبحنـا بالخير صَبَّحَنا ربي ومَسّانا
ربٌّ الحنيفة لم تنفد خزائنه مملوءةٌ طبق الآفاق سلطانا
ألا نبيٌّ لنـا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا

وقد علمنا لو ان العلم ينفعنا أن سوف تلحق أخرانا بأولانا

الرواية والرواة

قد علمنا مما تقدم أن عامة المروي من كلام العرب شعرها ونثرها وأخبارها معزو إلى أهل البدو الأميين ، ولذلك لم يصل إلينا كتاب يجمع بين دفتيه الكثير منها ، وما روي لنا من كلام فصحاء العرب ليس إلا النزر اليسير بوجوه مختلفة ، وبالطبع لا يحفظ هذه الوديعة إلا أهل الحفاظ عليها ، والاعتداد بها وهم الشعراء والمتأدبون ، فقد كان امرؤ القيس راوية أبي دواد الايادي ، وزهير راوية أوس ابن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس .

واشتهر من قريش أربعة بأنهم رواة الناس للأشعار وعلماؤهم بالأنساب ، وهم مخرمة بن نوفل ، وأبو الجهم بن حذيفة ، وحويطب بن عبد العُزّى ، وعقيل ابن أبي طالب .

العصر الثاني ، عصر صدر الاسلام ، ويشمل بني أمية[1]

حالة اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

كانت العرب أمماً بدوية ، ليس لها من وسائل العمران وأسباب الرخاء ما يحملها على تبحر في علم ، أو تبصر في دين ، أو تفنن في تجارة ، أو زراعة ، او صناعة او سياسة – وعلى وفق ذلك كانت اللغة العربية لا تعدو أغراض المعيشة البدوية –

(١) خلفاء بني أمية هم :

١ – معاوية بن أبي سفيان (٤١ / ٦٠) ٢ – يزيد بن معاوية (٦٠ / ٦٤)
٣ – معاوية بن يزيد (٦٤ / ٦٤) ٤ – مروان بن الحكم (٦٤ / ٦٥)
٥ – عبد الملك بن مروان (٦٥ / ٨٦) ٦ – الوليد بن عبد الملك (٨٦ / ٩٦)
٧ – سليمان بن عبد الملك (٩٦ / ٩٩) ٨ – عمر بن عبد العزيز (٩٩ / ١٠١)
٩ – يزيد بن عبد الملك (١٠١ / ١٠٥) ١٠ – هشام بن عبد الملك (١٠٥ / ١٢٥)
١١ – الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ / ١٢٦)
١٢ – يزيد بن الوليد الأول (١٢٦ / ١٢٦) ١٣ – مروان الجعدي (١٢٧ / ١٣٢)

إلا أن روحاً من الله تنسم بين أرجائها فأيقظتها من رقدتهـا ونبهتها لضرورة التعاون على الخير في مَعايشها ولُغَتِها وجماعتها ، فظهر ذلك بيناً في الأسواق التجارية اللغوية الاجتماعية ، وفي الإذعان فيها إلى حكومة الاشراف من قريش وتميم وغيرهما ، مما هيأهم لأن يجتمعوا تحت لواء واحد، ويتفاهموا بلسان واحد، فكان ذلك إيذاناً من الله بإظهار الاسلام فيهم ، وما أَلِفَتْ نفوسهم هذا النمط الجديد إلا وقد جاء النبي الكريم لاماً لِشَعثهم ، موحداً لكلمتهم مُهذباً لطباعِهم ، مُبيناً طريق الحق ، وجادة الصَّواب ، بشريعة عظيمة فكان من نتيجة ذلك أن أُسِّسَتْ لهم جامعة قومية مِليّة ومُلكٌ كبير وبالتفاف العرب حول صاحب هذه الدعوة وأنصاره ، وتَفَهّمهم شريعته وكلامه ثم خضوعهم بعدُ لزعامة قومه وخلفائه وو'لاتهم وفُتوحهم تحت ألويتهم ممالكَ الأكاسرة والقياصرة وغيرها ومخالطتهم أهلها بالجوار والمُصاهرة حدث في حياتهم الفكريّةِ واللسانية ما يمكن إجما'له في الأمور الآتية .

الأول : شيوع اللغة القُرَشيَّة ، ثم توحُّدُ لغات العرب وتمثلها جميعُها في لغة قريش واندماج سائر اللهجات العربية فيها ، وبعض أسباب هذا يرجع إلى ما قبل الاسلام بتأثير الأسواق والحج وحكومة قريش – وأكثرها يرجع إلى نزول القرآن بلغتهم وظهور ذلك الدّاعي العظيم منهم ، وانتشار دينهِ وسُلطانه على أيديهم .

وبحكم الضرورة تكون 'لغتُهم هي الرسمية بين القبائل .

الثاني : انتشار اللغة العربية في ممالك الفُرْسِ والروم وغيرهما بالفُتوح والمغازي وهجرة قبائل البدو إليها ، واستيطانهم لها ، واختلاطهم بأهلها.

الثالث : اتساع أغراض اللغة بسلوكها مَنْهجاً دينيّاً ، واتباعها خُطة نظاميّة تَقتضيها حالُ الملك وسُكنى الحضر .

الرابع : ارْتِقاء المعاني والتصورات وتَغَيُّرات الألفاظ والأساليب .

الخامس : ظُهور اللحن في الكلام بين المستعربين : من الموالي ، وأبناء العرب من الفَتَيات ، وبعض العرب المكثرين من مُعاشَرة الأعاجم .

ولما كان معظم هـذه التغيرات يرجع إلى القرآن الكريم والحديث النبَوي ناسب وصفها بقليل من كثير مما ينبغي أن يقال فيهما

القرآن الكريم وأثره في اللغة العربية (١)

القرآن كتابٌ أُحكِمت آياتُه، ثم فُصِّلَت من لدُن حكيم خبيرٍ، فيه آيات بينات، ودلائل واضحات، وأخبار صادقة، ومواعظ رائقة، وشرائع راقية، وآداب عالية بعبارات تأخذ بالألباب وأساليب ليس لأحد من البشر بالغاً ما بلغ

(١) اعلم أولاً أن إعجاز القرآن من جهة أغراضه ومقاصده ـ فتجده في كل غرض وموضوع غاية في الإبانة والجلا. ونهاية في الإصابة واطراد الأحكام: فمن تشريع خالد، وتهذيب بارع، وتعليم جامع وأدب بالغ. وإرشاد شامل، وقصص ومواعظ ومثل سائر، وحكمة بالغة، ووعد وعيد وإخبار بمغيب، إلى غير ذلك من الأغراض والمقاصد. وقد كان فحول البلاغة لا يبرز أحدهم إلا في فن واحد من أنواع القول فمن يبرع في الخطابة لا ينبغ في الشعر ومن يحسن الرجز لا يجيد القصيد ومن يستعظم منه الفخر لا يستعذب منه النسيب؛ ولأمر ما ضربوا المثل لامرىء القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والأعشى إذا طرب والنابغة إذا رهب. ثانياً: من جهة ألفاظه وأساليبه ـ فلا تجد منه إلا عذوبة في اللفظ، ودماثة في الأساليب وتجاذباً في التراكيب، ليس فيها وحشي متنافر، ولا سوقي مبتذل ولا تعبير عويص، ولا فواصل متعملة. على شيوع ذلك في كلام المفلقين وأهل الحيطة المترون؛ حتى إنك لترى الجملة المقتبسة منه في كلام أفصح الفصحاء منهم تفرعه جمالا وتشمله نوراً وتكسوه روعة وجلالة، إلى إجمال في خطاب الخاصة وتفصيل في تفهيم العامة وتكنية للعربي وتصريح للأعجمي وغير هذا مما يقصر عن إحصائه الإلمام ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام. ثالثاً: من جهة معانيه ـ فإنك تجدها من غير معين العرب الذي منه يستقون ـ لاطراد صدقها وقرب تناولها واطمئنان النفوس إليها وابتكارها البديع على غير مثال معهود، من حجج باهرة وبرهانات قاطعة وأحكام مسلمة وتشبيهات رائعة على تماذج وتواصل وبراءة من التقاطع والتدابر وهو في جملته نزهة النفوس وشفاء الصدور وهو الكتاب الخالد الذي لا تبديل لكلماته ولا ناسخ لأحكامه ولا ناقض: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)

من الفصاحة والبلاغة أن يأتي بمثلها، أو يفكر في محاكاتها ، فهو آية الله الدائمة ، وحجته الخالدة : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) أنزله الله على رسوله ليبلغه قومه وهم فحول البلاغة وأمراء الكلام ، وأباة الضيم ، وأرباب الأنفة والحمية ، ‌فبهرهم ببيانه، وأذهلهم افتنانه فاهتدى به من صح نظره ، واستحصف عقله ولطف ذوقه، وصد عنه أهل العناد والمكابرة واللجج - فتحداهم أن يأتوا بمثله فنكصوا، ثم بعشر سور مثله ، فعجزوا ، ثم بسورة من مثله فانقطعوا ، فحق عليهم إعجازه — قال تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وللقرآن فضل على اللغة فقد أثر فيها ما لم يؤثر أي كتاب، سماوياً كان أو غير سماوي ، في اللغة التي كان بها، إذ ضمن لها حياة طيبة وعمراً طويلا، وصانها من كل ما يشوه خلقها ويذوي غضارتها - فأصبحت وهي اللغة الحية الخالدة من بين اللغات القديمة التي انطمست آثارها وصارت في عداد اللغات التاريخية الأثرية وأنه قد أحدث علوماً جمة وفنوناً شتى لولاه لم تخطر على قلب، ولم يخطها قلم — منها . اللغة ، والنحو ومصرف، والاشتقاق، والمعاني، والبديع، والبيان، والأدب ، والرسم ، والقراءات ، والتفسير ، والأصول ، والتوحيد ، والفقه .

جمع القرآن وكتابته

قد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ منجماً على حسب الوقائع ومقتضيات الأحوال في بضع وعشرين سنة ، وكان عليه الصلاة والسلام يأمر كتاب وحيه بكتابة ما ينزل — وتوفي رسول الله ﷺ والقرآن كله مكتوب، وفي صدور الصحابة محفوظ، وفي مدة الإمام عثمان كثرت الفتوحات وانتشر القراء في الأمصار ، فأمر عثمان ، زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام— فنسخوا تلك الصحف في

مُصحفٍ واحدٍ مُرتب السور — واقتصر فيه من جميع اللغات على لغة قريش لنزوله بلغتهم .

صاحب الشريعة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

هو سيدنا محمد بنُ عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من أبناء إسماعيل بن إبراهيم الخليل أبي العرب المستَعربة ،وُلد في (مكة) ونشأ بها يتيماً ، وربّتْهُ أُمُّه آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وأرضعته حليمة بنت أبي ذؤيب من عرب البوادي ، وماتت أُمه وعمره ست سنين ، فعاله جده عبد المطلب ثم مات جده بعد سنتين ، فكفلهُ عمُّه أبو طالب .

وعندما بلغ أشُدَّه تولى رعي الغنم بالبادية مع إخوته في الرَّضاع ، وكذلك كانت الأنبياء عليهم السلام ، فما من نبيٍّ إلا رعاها ، وهذه من حكم الله سبحانه وتعالى؛ فإن الإنسان إذا استرعى الغنم وهي أضعفُ البهائم سكن قلبه الرّفق والرحمة ، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذّب نفسه ، وخلصها من شوائب الخلق الغريزية كالحدة والحسد ، ثم اشتغل عليه السلام بالتجارة ، وكان شريكه فيها السائب ، وخرج إلى الشام يتجر لخديجة بنت خُوَيلد من سراة بني أسد ، وشرفت بعد ذلك خديجة بزواجه منها ، فكان يعملُ في مالها تاجراً .

صفاته : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطَ القامة ليس بالطويل البائن ولا القصير المُتردد مُعتدل السِّمَن ، ضخم الرّأس ، عظيم الهامة ، صَلْتَ الجبين ، سهلَ الخدين ، واسعَ العينين أسودَهما ، أزج الحاجبين سابغهما ، أهدب الأشفار صبيحَ الوجه مدوره مستويَ الأنف مُفلج الأسنان ، رَجِلَ الشعر حَسَنهُ ، عريض الصدر ، رَحْبَ الراحتين ، سائلَ الأطراف ، أزْهر اللون ، فلا بالآدَم ولا بالشديد البياض .

وكان عليه السلام أفصحَ قومه لساناً ، وأرجَحَهم عقلاً ، وأصحهم فهماً ،

وأعظمهم أمانة ، وخيرَهُم جِواراً ، وأصدقَهُمْ حديثاً ، وأكثرهم اتِّصافاً بمكارم الأخلاق .

ولمّا بلغ الأربعين من عمره أرسله الله للعالمين بشيراً ونذيراً إذ نزَل عليه الوَحْيُ وهو قائم على جَبَل (حِراء) قريباً من (مكة) فأخذ رسول الله ﷺ يدعو لعبادة الله وحْدَه أقواماً لا دينَ لهم إلا أن يَسْجدوا للأصنام فآمنتْ به زوجته خديجة وابنُ عمه عليّ بن أبي طالب وصدّيقه أبو بكر ومولاه زَيْدُ بن حارِثة الكلبيّ ، وحاضِنته أمُّ أيمن

وجمع رسولُ الله عشيرتهُ ، وهم بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وبنو نَوْفل ، وبنو عبدِ شمس أولاد عبد مناف وقال لهم : « إنّ الرّائد لا يَكْذِبُ أهْلَهُ والله لو كَذَبت الناس جميعاً ما كَذَبتكم ، ولو غَرَرْتُ الناسَ جميعاً ما غَرَرْتكم واللهِ الذي لا إله إلا هو إني لَرَسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة » فقالوا له قَوْلاً ليّناً إلا عمّه أبا لهب .

فلمّا جهَرَ رسول الله بالدّعوة إلى الإسلام بتوحيد الله ونبْذِ الأوثان سَخِرَت منه (قرَيش واستهزءُوا به في مجالسهم وأضمروا له الحقدَ والعَداوة وآذوهُ كثيراً ، وكان أشدّهم في ذلك أبو جهل عَمْرو بن هِشام بن المغيرة المخزومي القرشي .

ثم أسلم حَمزة عمُّ رسول الله وعُمَر بن الخطاب ، فقويَ بهما وأسلم بمكة نفَرٌ من ولدِ الأوسِ ، والخزْرَج) وهما قبيلتان من أهل (المدينة) وعادوا إليها ، فانتشر فيها الإسلام بهم ، ووفد على رسول الله جمع من أهلها يدعونه وأصحابه إلى الهجرة إليهم فهاجر ، وبهجرته إلى المدينة ابتدأ التاريخ الهجري .

ولم يقاتل رسولُ الله أحداً على الدخول في الدين بل كان أمْرُهُ مقصوراً على التبشير والإنذار ، فلما ازدادَ طُغيانُ أهل مكة ، وأخرجوا المسلمين من ديارهم ، وائتمروا مع غيرهم من مُشركي العرب على قتل رسول الله ﷺ أذن الله سبحانه وتعالى بقتال المشركين كافة فكانت أول حرب بين رسول الله وبينهم في

(غزوة بدر) وتلتها غزوات عدة كان النصر في أكثرها لرسول الله وجماعته .

وبعث رسول الله رُسُلَه يدعون إلى الإسلام وهم دِحْيَةُ الكلبيّ إلى هِرَقل، ملك الروم ، وعبدالله بن حُذافة إلى (كسرى) ملك الفرس، وشجاع الأسديُّ إلى (الحارث الغسّاني) ملك البلقاء بالشام ، والحاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى (المقوقس) أمير مصر، وسليط بن عمرو العامري إلى هَوْذَةَ صاحب اليمامة ، وبعث عمرو بن أميّة إلى النجاشي (أصْحَمة) ملك الحبشة فأسلم ، وعمرو بن العاص إلى (جَيفر) و عبدا، مَلِكَيْ عمان فأسلما، والعلاء بن عبدالله الحضرَمي إلى (المنذر) ملك البحرين فأسلم، وخالد بن الوَليد إلى (بَني عبد المدان)، وعلي ابن أبي طالب إلى (بَني مَذْحِج) في أرض (اليمن) فأسلموا ، وأسلمت (همدان) وتابعها سائر أهل (اليمن) وملوك (حِمْيَر) ثم أقبلت بعد ذلك وفود العرب جميعاً على رسول الله ﷺ يبايعونه على الإسلام .

وحجّ رسول الله فخطب في الناس خُطبة الوداع وهي أكثر خطبه استيعاباً لأمور الدين والدنيا ، وفي يوم الاثنين الثالث عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة توفي رسول الله بالمدينة وفيها دُفن — وله من العمر ٦٣ سنه قمرية ، وثلاثة أيام .

الحديثُ النبويُّ

كان رسولُ الله ﷺ أفصحَ الناس وأبينهم وأحكمهم ، وكانت حياته كلها هِداية ونوراً ، وأفعاله وأقواله جميعُها مدَداً ، يستمد منه الخلقُ سدادهم ، وإرشادَهم في معاشهم ومعادِهم — ولهذا حرص المسلمون على حفظ ذلك الأثر العظيم حرْصاً لم توَفق إلى مثله أمة في حفظ آثار رَسولها — فجمعوا من كلامه، ووصف أفعاله وأحواله الأسفار الضخام، ووَعَوْا منها في صُدورهم ما لا يدخل تحت حصر — وكلامه ﷺ منزّه عن اللغو والباطل، وإنما كان في توضيح قرآن،

أو تقرير حكم ، أو إرشاد إلى خير ، أو تنفير من شرّ ، أو في حكمة ينتفع الناس بها في دينهم ودنياهم ، بعبارة هي في الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم ، ولذلك كان تأثيرُها في اللغة والأدب بالمنزلة التالية لكلام الله تعالى .

النثر ـ لغة التخاطب ـ الخطابة ـ الكتابة

كانت ُلغةُ التخاطب في مبدإ الإسلام بين العرب الخُلَّص والموالي النابتين فيهم هي العربية الفصيحة المعْربة ـ وكانت لغة الموالي الطارئين عليهم تقرُب من الفصيحة أو تبتعدُ عنها على حَسَب طول ُلبْثِهم فيهم ، أو قِصر ُمقامهم عندهم ، ولما فتح المسلمون الأمصار ، وكثر عندهم سَبيُ الأعاجم وأَسرى الحروب ، ودخل في الإسلام منهم ألوفُ الألوفِ ، وأصبحوا هم إخواناً وشركاء في الدين وتم بينهم التزاوج والتناسل ، نشأ للعرب ُذرِّية اختلطت عليهم مَلَكة العربية ، وكذلك كان الشأن في المتعربين من الأعاجم . أما العربُ أنفسهم بعد الفتوح فكانت لغتهم في جزيرتهم مثلَ ما كانت عليه في جاهليتهم ، أما سكان الأمصار منهم وأولادهم من الحرائر ، فالعامة منهم المخالطون للأعاجم لم تخل ُلغتُهم من لحن أو هُجنة ، والخاصة منهم تشددوا في المحافظة في سلائقهم ، وتحاموا التزوُّج بالأعجميات ، وبالغوا في تربية أبنائهم ، فكانوا ُيرسلونهم إلى البادية ليرتاضوا على الفصاحة ، أو ُيحضِرُون لهم المؤدِّبين والمعلمين ـ كذلك كان يفعل خلفاء بني أمية وأمراؤهم اقتداء بكبيرهم (معاوية بن أبي سفيان) في تربية ابنه (يزيد) ومن لَحَن منهم عدَّ ذلك عليه عاراً لا يمحى وسُبَّة لا تزول ، ومن هؤلاء اللحّانين ُعبيد الله بن زياد ، والوليد بن عبد الملك ، وخالد القسْري ـ مع أن بعضهم كان من أبلغ الناس وأبينهم

ومن هنا ُيعلم السر في تسرع القوم إلى وضع النحو وتدوينه والشكل والإعجام

الخطابة في هذا العصر والخطباء

لمّا كان مبدأُ كل انقلاب عظيم في أي أمــة : إما دعوة دينية وإما دعو سياسية ، كانت تلك الدعوة تستدعي ألسنة قوّالة من هلها لتأييدها ونشرها وألسنة من أعدائها وخصومها لإدحاضها والصد عنها: وذلك لا يكون إلا بمخاطبة الجماعات ـ كان ظهور الإسلام من أهم الحوادث التي أنشطت الألسن من عقلها وأثارت الخطابة من مكمنها فوق ما كانت عليه في جاهليّتها؛ فكان العملُ الأكبر لصاحب الدعوة العظمى سيدنا (محمد) صلى الله عليه وسلم بادئ أمره غير تبليغ القرآن وارداً من طريق الخطابة ،ولأمر ما جعلها الشارع شعار كل الأمور ذوات البــال ، ولذلك كان دعــاةُ النبي عليه الصلاة والسلام ورسله إلى الملوك وأمراء جيوشه وسراياه ثم خلفاؤه من بعده وعمّالهم كلهم خطباء مصاقع ولسناً مقاولَ؛ وأن الشرع صرفهم عن اللهو بالشّعر الذي ينهض بأعباء الخطابة ولا سيما الدّينية لشرحها الحقائق وقرْعها الأسماع بالحجج العقلية والوجدانية ،وترغيبها في الثواب وترهيبها من العقــاب ، بعبارات تفهمها الخــاصة والعامة . وكان لهم من القرآن وأدلته وحججه والاقتباس منه مدَدٌ أيما مدد ـ ولما حدثت الفتنة بين المسلمين بعد مقتل عثمان ، وافترقوا إلى عراقيين بزعامة الإمام عليّ ـ وشاميين بزعامــة معاوية ، ولكل منهم دعوة يؤيدها ورغيبةٌ يناضل عنها في تلك الحرب الشعواء التي لم ينكب الإسلام بمثلها ، ظهر من كلتا الطائفتين خطباء لا يحصى عددهم، ولا يُشقّ غبارهم وعلى رأس العراقيين شيخ الخطباء الإمام (علي بن أبي طالب) وعلى رأس الشاميين (معاوية بن أبي سفيان)؛ولم يعْدَم كل طائفة منها خطباء يؤيدون دعوتها بما أُوتوا من البلاغة في الخطابة والفصاحة والبيان .

والخطابة وصلت في هذا العصر إلى أرقى ما وصلت إليه من اللسان العربي ، حتى ممن يُعدُّ عليهم اللحن؛ ولم تسْعد العربية بكثرة خطباء ووفرة خطب مثل

ما سَعِدت به في هذا الصدر الأول، إذ كان القومُ ورؤساهم عرباً خُلصاً يسمعون القول فيتّبعون أحسنه .

ولم يخرج الخطباء عن مألوفهم من اعتجار العمامة، والاشتمال بالرّداء، واختصار المِخْصرة ، والخطبة من قيام .

وليس في عصور أدب اللغة عصرٌ أحفلُ بالخطباءِ من هذا العصر إذ كانت الخطابة فيه سَلِسةَ القيادِ على خُلفائه وزُعمائه ، لِفِطرتهم العَرَبية ، ومحلهم من الفصاحة والبيان ، وانطباعهم على أساليب القرآن واتساع مدارِكهم .

خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة

وقف على باب الكعبة ، ثم قال :

لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له ، صدق اللهُ وعدَهُ ، ونصرَ عبدَهُ وهَزَمَ الأحزاب وحده ، ألا كلّ مأثَرةٍ أو دمٍ أو مالٍ يُدّعى فهو تحتَ قَدَمَيَّ هاتين ، إلا سِدانةَ البيتِ وسِقايةَ الحاج ، ألا وقتيلُ الخطإ العمْدِ بالسوْطِ والعصا فيه الدّية مُغلظة فيها أربعون خَلِفة ، وفي بطونها أولادُها . يا معْشرَ قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نَخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناسُ من آدمَ وآدمُ خُلِقَ مِنْ تُراب ، ثم تلا هذه الآية : « يا أيُّها النّاس إنّا خَلَقْنا كُم مِن ذَكَرٍ وأُنثى وجَعلناكم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفوا إنّ أكْرَمَكُمْ عندَ اللهِ أتْقاكم إنّ اللهَ عليمٌ خبيرٌ » .

ومن خطبته في حجة الوداع

الحمد للهِ نحمدُه ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهدي اللهُ فلا مضل له ومَن يُضلل فلا هاديَ له ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأُحِثكم على طاعتِه ، وأستفتحُ بالذي هو خيرٌ (أما بعدُ) أيُّها الناس اسمعوا مني أُبيّنْ لكم ، فإني لا أدري لا لعلي ألقاكم بعد

عامي هذا، في موقفي هذا . أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرامٌ علي
تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا هل بلّغ
اشهد ! فمن كانت عنده أمانةٌ فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها وإن ربا
موضوعٌ ، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمّي العباس بن عبد المطلب وإن
الجاهلية موضوعة ، وأن أول دمٍ أبدأ به دمُ عامر بن ربيعة بن الحارث
المطلب ، وإن مآثرَ الجاهلية موضوعةٌ غير السدانةِ والسقاية ، والعمد
وشبهُ العمد ما قُتلَ بالعصا والحجر ، وفيه مائةُ بعير ، فمن زاد فهو
الجاهلية أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يُعبدَ في أرضكم هذه
قد رضي أن يُطاع فيما سِوى ذلك مِمّا تحقِرون من أعمالكم .

أيهـــا الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً ، ولكم عليهن حق ، لكم
يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يُدْخِلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم
بفاحشة ، فإن اللهَ قـــد أذِن لكم أن تعضُلوهُنّ وتهجروهُنّ في ا
وتضربوهن ضرباً غيرَ مُبرح : فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهـن و
بالمعروف ، فاتقوا الله في النساء ، واستوصوا بهنّ خيراً ، ألا هل بَلغ
اشهد ! أيها الناس إنما المؤمنون إخوة ،فلا يحل لامرىء مالُ أخيه إلا ع
نفس منه؟ألا هل بلّغتُ . . . اللهم اشهد ! فلا ترجعن بعدي كفاراً يضر
رقاب بعض ، فإني قد تركتُ فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده : ك
وسنتي . . .ألا هل بلغتُ؟اللهم اشهد!أيها الناس إن ربكم واحد،وإن أباكم
كلكم لآدم ، وآدمُ من تراب ، وإن أكرمكم عند الله أتقـاكم ، وليس ل
عجمي فضلٌ إلا بالتقوى . . . ألا هل بلغت؟اللهم اشهد!قالوا: نعم! قال
الشاهدُ الغائب ، والسلام عليكم ورحمة الله .

ومن أحاديثه عليه الصلاة والسلام :

إنّ مَثلَ ما بَعثني الله من الهُدى والعِلْمْ كمثلِ غيثٍ أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيّبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثير ، وكان منها أجادبُ أمسكت الماء ، فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقَوْا وزرَعُوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنبت كَلَأً ، فذلك مثل مَنْ فقِه في دين الله تعالى ونَفَعه ما بعثني الله تعالى به فعَلِم وعلّم ، ومَثَلُ من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرْسِلتُ به .

إنما مَثَلي ومثَلُكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراشُ وهذه الدّوابُ التي تقع في النار تقع فيها ، فجعل يَنزِعُهُنّ ويَغلِبْنَهُ فيَقْتَحِمْنَ فيها ، فأنا آخِذٌ بحُجَزكم عن النار ، وأنتم تَقْتَحِمون فيها .

أدِّ الأمانة إلى مَن ائتمنك ، ولا تخنْ مَن خانَكَ .

إنّ الناسَ إذا رأوْا الظالِمَ فلمْ يأخُذوا على يَدِه أوشَكَ أن يَعُمَّهمْ الله تعالى بعقاب

مَثَلُ المؤمنين فى تَوادِّهمْ وتراحُمِهم وتعاطفهم مثلُ الجسد إذا اشتكى منه عضوٌ تَداعَى له سائر الأعضاء بالسّهَر والحُمّى .

أبو بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه

هو أبو بكر عبدالله عتيق بن أبي قُحافة عُثمان صاحبُ رسول الله ﷺ ، وأوّل الخُلفاء الرّاشدين ، ويَجْتمع نَسبُه مع نَسَب رسول الله ﷺ في مُرّة ابن كعب

وُلد بعد مَوْلد رسول الله بسنتين وبضْعة أشهر ، ونشأ من أكرم قريش خُلُقاً وأرْجَحهم حلماً وأشدّهم عِفّة ، وكان أعلمَهم بالأنساب وأيام العرب ومفاخرهم .

صحبَ رسول الله قبل النبوّة ، وكان أوّل من آمن به من الرّجال وصدّقه في كلّ ما جاء به : ولذلك سُمّي « الصّديق » ، وهاجَر معه إلى المدينة ، وشهد

معه أكثر الغزوات ، وما زال ينفق ماله وقوّته في معاضدته ، حتى انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى .

واختلفتْ العرب وارتدت عن الإسلام ، فجرد عليهم الجيوشَ حتى قمعهم ، وما ماتَ إلا وجيوشه تَهزِم جيوش الفُرْس والرُّوم ، وتستولي على مدائنهم وحصونهم ، وكانت وفاته عام ثلاثة عشر من الهجرة ، ومدة خلافته سنتان وثلاثة أشهر وعشر ليال .

وكان فصيحاً بليغاً خطيباً مُفَوّهاً قوي الحجة شديد التأثير ؛ يشهد بذلك خطبته يوم السقيفة ، وذلك أنه لمّا مات رسولُ الله ﷺ اختلفت الصحابة فيمن يُبايعونه خليفةً له عليهم ، فأبت الأنصارُ إلا أن يكون الخليفة منهم ، وأبى المهاجرون من قريش إلا أن يكون منهم ،واشتدّ النزاع حتى كادت تقعُ الفتنة ، فخطبهم خُطبة لم يلبث الجميعُ بعدها أن بايعوه (خليفة) ، وهي :

حَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناسُ نحن المهاجرون ، وأول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسَطُهم داراً ، وأحسنهم وُجوهاً ، وأكثر الناس ولادةً في العرب،وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ . أسلمْنا قبلكم،وقُدّمنا في القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى : (والسّابقونَ من المهاجرين والأنصار والذين اتّبعوهم بإحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار : إخوانُنا في الدين وشركاؤنا في الفيء ، وأنصارُنا على العَدَوّ ، آويتم وواسيتم ، فجزاكم الله خيراً ، فنحن الأمراءُ وأنتم الوزراءُ ، لا تدينُ العربُ إلا لهذا الحيّ من قريش ، فلا تَنفَسوا على إخوانكم المهاجرين ما منَحَهم الله من فضله .

وخطب أيضاً حين بايعَ الناس البَيْعة العامّة :

حَمِد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس إني قد وُلّيتُ عليكم ، ولستُ بخيركم،فإن رأيتموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتموني على باطل فسَدّدوني ،

أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم فإذا عصيتُه فلا طاعة لي عليكم — ألا إنّ أقواكم عندي الضعيفُ حتى آخُذَ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخُذَ الحقّ منه.

أقول قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم.

وخَطَبَ أيضاً الناسَ، فقال بعدَ أن حَمِد الله وأثنى عليه وصلى على نبيِّه ﷺ:

أوصيكم بتقوى الله، والاعتصام بأمر الله الذي شَرَع لكم، وهداكم به، فإنْ جوامعَ هَدْي الإسلام بعد كلمة الإخلاص السَّمْعُ والطاعة لِمنْ ولاَّه الله أمركم فإنهُ من يُطع الله وأُولي الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فقد أفلحَ وأدّى الذي عليه من الحق وإيّاكم واتِّباعَ الهوى، فقد أفلحَ من حُفظ من الهوى والطَّمَع والغَضَب. وإياكم والفخرَ! وما فخرُ من خُلق من تُراب ثمّ إلى التراب يعودُ، ثم يأكله الدودُ، ثم هو اليومَ حيٌّ وغداً ميتٌ؟ فاعلموا يوْماً بيوم، وساعة بساعة، وتَوَاقَوْا دُعاءَ المظلوم، وعُدوا أنفُسَكم في الموتى واصْبروا فإنّ العمل كله بالصّبر واحذَروا، والحذرُ ينفَعُ، واعمَلوا، والعَمَلُ يُقبَلُ، واحذروا ما حذرَكم اللهَ من عذابه، وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته وافهَموا وتَفَهَّموا، واتقوا وتوَقّوا، فإن الله قد بَيَّنَ لكم ما أهلكَ به من كان قَبلَكم، وما نجّى به منْ نجّى قبلكم قد بَيّنَ لكم في كتابه حلاله وحرامَه، وما يحب من الأعمال، وما يكره فإني لا آلوكم ونفسي. والله المستعانُ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله واعلموا أنكم ما أخلَصتم لله من أعمالكم، فربكم أطعتم وحظَّكم حفظتم واغتبطتمْ، وما تطوعتم به لدينكم فاجعلوه نوافل بين أيديكم تستوفوا سَلفكم وتُعطَوا جرايتكم حينَ فقركم وحاجتكم إليها ثم تفكروا عباد الله في إخوانكم وصحابتكم الذين مَضَوْا قد وردوا على ما قدموا فأقاموا عليه وحلوا في الشقاء أو السعادة فيما بعد الموت؛ ان الله ليسَ له شريك، وليس بينَه وبين أحد من خلقه

نَسَب يعطيه به خيراً ولا يَصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره ، فإنه لا خيرَ في خيرٍ بَعْدَه النار ، ولا شرّ في شرٍّ بعده الجنة .

من حكم سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

(١) صَنائعُ المعروف تَقي مَصارعَ السُّوء (٢) ليست مع العَزاء مصيبة ، ولا معَ الجزَع فائدة. (٣) ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه كُنّ عليه: البغيُ، والنكث، والمكْر . (٤) كثيرَ القول يُنسي بعضه بعضاً ، وإنما لك ما وُعي عنك. (٥) أصلحْ نفسكَ يَصلُح لك الناس .

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

هو أميرُ المؤمنين أبو حَفص عُمر بن الخطاب القُرشي – ثاني خليفة لرسول الله ﷺ ، وأوّل من تَسمّى من الخلفـــاء بأمير المؤمنين) وأولُ مَنْ أرّخ بالتاريخ الهجري ، ومصّر الأمصار ، ودَوّنَ الدواوين .

وُلدَ رضي الله عنه بعد مَولد النبيّ ﷺ بثلاثَ عَشرةَ سنةً ، حضَرَ مع رسول الله الغَزَوات كلها ثم لما قبض أعان أبو بكر على تولية الخلافة ، ولمّــا أحَسّ أبو بكر بالموت عهد بها إليه ، فقام بأعبائها خير قيام ، وأتم جميع مــا شرع فيه أبو بكر : من فتح ممالك كِسْرى وقَيصر .

وقتله غيلة الغلامُ الشقيُّ أبو لُؤلؤة، عبد المغيرة بن شُعبة، المجوسي ، لأنه لم ينْصِفه على زَعمه في تخفيض ما يدفعه لسيّده من أُجْرة عمله. وكان قتلهُ سنة ٢٣هـ.

ومُدّة خلافته عشر سنين وستة أشهر وثمانية أيام . وكان رضي الله عنه من أبينِ الناس مَنْطِقاً، وأبلغهم عبارة، وأكثرهم صَواباً وحِكمة، وأرواهم للشعر وأنقدهم له .

ومن خُطبه خُطبته إذ ولي الخلافة

صَعد المنبر، فحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس. إني داع فأمّنوا:

اللهم إني غليظٌ فليّني لأهل طاعتك بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم ، اللهم إني شحيحٌ فسخّني في نوائب المعروف قصداً من غير سرف ولا تبذير ، ولا رياء ولا سمعة ، واجعلني ابتغي بذلك وجهك والدار الآخرة اللهم ارزقني خفض الجناح ، ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذكرك على كلّ حال ، وذكر الموت في كلّ حين ، اللهمّ إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها ، والقوّة عليها بالنيّة الحسنة التي لا تكون إلا بعزّتك وتوفيقك. اللهم ثبتني باليقين ، والبرّ والتقوى، وذكر المقام بين يديك ، والحياء منك وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني ، والمحاسبة لنفسي ، وإصلاح الساعات ، والحذر من الشبهات. اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك ، والفهم له والمعرفة بمعانيه ، والنظر في عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيتُ ، إنك على كل شيء قدير .

ومن خطبه في ذمّ الدنيا

إنما الدنيا أمل مخترم، وأجل منتقض، وبلاغٌ إلى دار غيرها ، وسير إلى الموت ليس فيه تعريج ، فرحم الله امرءاً فكر في أمره، ونصح لنفسه ، وراقب ربه، واستقال ذنبه ، بئس الجارُ الغنيّ يأخذك بما لا يعطيك من نفسه ، فإن أبيت لم يعذرك ، وإياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ، ومؤدّية إلى السقم ، وعليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعدُ من السّرف ، وأصحّ للبدن ، وأقوى على العبادة ، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

ومن حكم سيدنا عمر بن الخطاب

(١) من كتم سرّه كان الخيارُ في يده. (٢) أشقى الولاة من شقيت به رعيّته
(٣) لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً .
(٤) من لا يعرف الشرّ كان أجدر أن يقع فيه .

(٥) أعقل الناس أعذرهم للناس . (٦) لا تؤخر عمل يومك إلى غدك .
(٧) أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. (٨) من يئس من شيء استغنى عنه .

ومن خطبته في القضاء الى أبي موسى الأشعري

« أما بعد » فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنّة متبعة ، فافهم إذا أدلي إليك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس [١] بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف في حيفك [٢] ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادّعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرّم حلالا ، لا يمنعنك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل ، الفهم ، الفهم فيما تلجلج [٣] في صدرك ، مما ليس في كتاب ولا سنّة [٤] ثم اعرف الأشياء والأمثال ، فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله ، وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادّعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي إليه ، فإذا أحضر بيّنته أخذت له بحقه ، وإلا استحققت عليه القضيّة ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرّباً عليه شهادة زور أو ظنيناً في ولاء أو نسب [٥] ، وإن الله تولى منكم السّرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان [٦] ، وإياك والقلق والضجر [٧] والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق في مواطن الحق يعظم الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحّت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن

---

(١) آس بين الناس : سو بينهم (٢) الحيف : الميل أي ميلك معه لشرفه .
(٣) تلجلج : تردد حتى كان موقع حيرة (٤) الكتاب : القرآن الكريم ، والسنة ما أثر عن النبي من قول أو فعل أو تقرير (٥) ظنين : متهم أي ينتسب إلى غير أبيه أو يدعى إلى غير مواليه ، فليس أهلاً للشهادة (٦) درأ : دفع ، يريد منه الحدود (٧) القلق والضجر ضيق الصدر وقلة الصبر .

تخلق [١] للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله [٢] فما ظنُّك بثواب غيرَ الله عزّ وجلّ في عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام [٣] .

عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان القرشي الأموي ، ثالث الخلفاء الراشدين وموجد نُسَخ القرآن المبين ، وُلد في السنة السادسة من مولد النبي ﷺ وآمن في السابقين الأولين وبذل ماله الكثير في تأييد الإسلام ومعونة المجاهدين وشهد مغازي رسول الله كلها إلا بدراً – وقد كان عمر قبل وفاته عهدَ بالخلافة إلى ستة هو منهم – تنتخبُ الأمة أحدهم خليفة ، فانتخبوا بالشورى عثمان، فأكمل مغازي عمر ، ثم ثارَ عليه بعض الأعراب بحجة أنه يؤثر أقرباءه بولاية الأقاليم ، فحاصروه في داره بالمدينة وقتلوه وهو يتلو القرآن الكريم سنة ٣٥ هـ فكان قتله سبب التفرق بين المسلمين ، ومُدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا اثني عشر يوماً

وكان رحمه الله من بُلغاء الخطباء ، وأوجزهم لفظاً ، وأجزلهم معنى ، وأسهلهم عبارة ، ومن خطبه بعد أن بويع : وهي بعد الحمد والثناء :

أما بعدُ – فإني قد حمِّلت وقد قبلت ، ألا وإني متبع ولست بمبتدع ، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عز وجل وسنَّة نبيه ﷺ ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سُنة أهل الخير فيما لم تسنُّوا عن ملأ ، والكَف إلا فيما استوجبتم – ألا وإن الدنيا خضرة قد شُهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ، ولا تثِقوا بها ، فإنها ليست بثقة – واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها .

(١) أي ظهر للناس في خلقه خلاف نيته .

(٢) شانه ضد زانه والمراد قبحه وأظهر نفاقه .

(٣) يريد ماذا يكون ثواب الناس بجانب رزق الله في الدنيا ورحمته في الآخرة .

ومن خطبه أيضاً وهي آخر خطبةٍ خطبها :

أما بعد ـ فإن الله عز وجل إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة ، ولم يعطكموها لتركنوا إليها ـ الدنيا تَفنى والآخرة تبقى ، فلا تُبطرنكم الفانية ولا تشغلنكم عن الباقية ، فآثروا ما يبقى على ما يَفنى ، فإن الدنيا مُنقطعة ، وإن المصير إلى الله ، اتقوا الله عز وجل فإن تقواه جُنَّة من بأسه ، ووسيلة عنده واحذروا منْ الله الغيرَ ، والزموا جماعتكم ، ولا تصيروا أحزاباً : (واذكُروا نِعْمةَ اللهِ عليكم إذ كُنتمْ أعداءاً فألفَ بين قلوبكم فأصبَحتم بنعمته إخواناً .

من حكم سيدنا عثمان

(١) ما يزَعُ الله بالسلطان أكثرُ مِمّا يزع بالقرآن . (٢) أنتم إلى إمام فعّال أحوجْ منكم إلى إمام قوال. (٣) يكفيك من الحاسد أنه يغتمُّ وقتَ سُرورِك .

الامام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه

هو أميرُ المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، وابنُ عم رسول الله، وزوْج ابنته ، ورابع الخلفاء الراشدين ـ وِلدَ رحمه الله بعد مولد النبي ﷺ باثنين وثلاثين سنة ، وهو أوّل من آمن به الصبيان ، وكان شجاعاً لا يشق له غبار ، شهد الغزوات كلها مع النبي إلا غزوة تَبوك ، وأبلى في نصرة رسول الله ما لم يُبْله أحدَ ، ولما قتل عثمان بايعه الناس بالحجاز . وامتَنع عن بيعته معاوية ، وأهلُ الشام شيعة أُمَيّة ، غضباً منهم لمقتل عثمان ، وقلة عناية (الإمام علي) بالبحث عن معرفة القَتَلة على حسب اعتقادهم ، فحدث من جراء ذلك الفتنة العُظمى بين المسلمين وافتراقُهم الى طائفتين فتحاربوا مدة من غير أن يستتب الأمر لعلي أو معاوية حتى قتل أحدُ الخَوارج الإمام علياً غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ ﻫ .

وكانت مُدة خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر .

وكان رحمه الله أفصحَ الناس بعد رسول الله وأكثرهم علماً وزهداً، وشِدّة في الحق، وهو إمام الخطباء من العرب على الإطلاق بعد رسول الله ﷺ وخُطبه

كثيرة ، منها خطبته ـ كرم الله وجهه ـ بعد التحكيم ، وهي :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخَطب الفادِح ، والحدَث الجلَل ـ وأشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له ، ليس معه إله غيرُه وأن محمداً عبدُه ورسولهُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم « أما بعدُ » فإن مَعصية الناصح الشفيق ، العالم المجرّب تُورث الحيرة وتعقب الندامة ، وقد كنتُ أمرتكم في هذه الحكومة [1] أمري ونخلتُ لكم مخزون رأيي ، (لو كان يُطاعُ لقصير أمْرٌ) [2] فأبيتم عليّ إباءَ المخالفين الجُفاة المنابذين العُصاة ، حتى ارتابَ الناصحُ بنصحه ، وضن الزّندُ بقدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازن

أمرتهم أمري بمُنْعرجِ اللّوى فلم يستبينوا النصح إلا ضُحى الغَد

ومن خطبة له حين خاطبه العبّاس وأبو سفيان في أن يُبايعا له بالخلافة : أيها الناس شقوا أمواجَ الفتن بسفن النجاة ، وعرّجوا عن طريق المنافرة وضعوا عن تيجان المفاخرة . أفلحَ منْ نهض بجناح ، أو استسلم فأراح ، هذا ماءٌ آجِنٌ ، ولقمةٌ يغَصُّ بها آكلها ، ومُجتني الثمرةِ لغير وقت إيناعها كالزارع بغير أرضه فإنْ أقل يقولوا حرص على الملك ، وإن أسكت يقولوا جزع من الموت هيهات بعد اللتيّا والتي ، والله لابنُ أبي طالب آنسُ بالموت من الطفل بثدْي أمه ، بل اندمجتُ على مكنون علم ، لو بُحتُ به لاضطربتم اضطراب الأرشيَةِ في الطويّ البعيدة .

من حكم سيدنا علي كرم الله وجهه

(١) روي الشيخ خيرٌ من مشهدِ الغلام . ٢ الناس أعداء ما جهلوا . (٣ الناس

---

(١) اي حكومة الحكمين عمرو بن العاص ، وأبي موسى الأشعري .

(٢) هو مولى جذيمة الأبرش وكان حاذقاً ، وكان قد أشار على سيده جذيمة أن لا يأمن الزباء ملكة الجزيرة فخالفه وقصدها إجابة لدعوتها في قبولها زواجه فقتلته فقال قصير (لو كان يطاع لقصير أمر) فذهبت مثلاً .

من خوف الذل في الذل (٤) الصبر مطية لا تكبو وسيف لا ينبو (٥) إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدوة عليه (٦) قيمة كل امرىء ما يحسن (٧) المرء مخبوء تحت لسانه (٨) استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره (٩) خير أموالك ما كفاك وخير إخوانك من واساك (١٠) الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم (١١) ما هلك امرؤ عرف قدره (١٢) من عذب لسانه كثر إخوانه (١٣) بشر مال البخيل بحادث او وارث (١٤) بالبر يستعبد الحر (١٥) إعادة الاعتذار تذكير للذنب (١٦) إذا تم العقل نقص الكلام (١٧) من أكثر فكره في العواقب لم يشجع (١٨) الشرف بالعقل والأدب لا بالأصل والنسب (١٩) أكثر مصارع العقول تحت بروق الأطماع (٢٠) قلب الأحمق وراء لسانه ، ولسان العاقل وراء قلبه (٢١) يعيش البخيلُ في الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء (٢٢) الولايات مضامير الرجال (٢٣) الناس أبناء الدنيا ، ولا يُلامُ الرجل على حُبِّ أمه (٢٤) من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه (٢٥) الحرمان خير من الامتنان .

سحبان وائل

هو سحبان بن زفر بن إياد الوائلي ، الخطيب المصقع المضروب به المثل في البلاغة والبيان ، نشأ في الجاهلية بين قبيلة وائل ، ولما ظهر الإسلام أسلم وتقلبت به الأحوال حتى التحق بمعاوية فكان يُعِدُّه للملِمّات ، ويتوكأ عليه عند المفاخرة .

قدِمَ على معاوية وفدٌ فطلب سحبان ليتكلم ، فقال . أحضروا لي عصاً ، قالوا ، وما تصنع بها وأنت بحضرة امير المؤمنين ؟ قال ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ، فضحك معاوية وأمر له باحضارها ، ثم خطب من صلاة الظهر إلى أن حانت صلاة العصر ، ما تنحنَح ولا سَعلَ ولا توقف ولا تَلكَّأ ولا

ولا ابتدأ في معنى وخرج منه ، وقد بقي منه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون ، فقال معاوية ، أنت أخطبُ العرب ، قال سحبان : والعجم والجن والإنس. وكان سحبان إذا خطب يسيلُ عرقاً، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ ومما يؤثر من خطبه قوله :

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس : فخذوا من دار ممركم لدار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها بدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم .

إن الرجل إذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقال الملائكة : ما قدَّم ؟ قَدِّموا بعضاً يكن لكم ، ولا تخلفوا كُلّاً يكن عليكم .

زياد بن أبيه

هو أحد دُهاة العرب وساستها وخطبائها وقادتها .

منشؤه : كان للحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب أمة تسمى سُمَيّة، قد قرنها بعبد له رومي يُدعى عبيداً فولدت له سُمَيّة زياداً هذا (في السنة الأولى من الهجرة) فنشأ غلاماً فصيحاً شجاعاً ، فما افتتحت العرب الممالك والأمصار حتى عُرف منه ذلك ، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قِبَل عُمر ، فأظهر من المهارة ما جمع القلوب على حبه .

ولما ولي أمير المؤمنين (علي) الخلافة اضطربت عليه فارس فسار إليها زياد بجمع كثير ، وتمكن بخداعه من إيقاع الشقاق بين رؤساء المشاغبين ، وما زال يضرب بعضهم ببعض حتى سكنت ثائرتهم ، وبقي يتولى لعليّ الأعمال حتى قتل (علي) فخافه معاوية، فأرسل له المغيرة بن شعبة يستقدمه، فقدِم عليه فادعاه أخاله واستلحقه بنسب أبيه أبي سفيان ، وصار يسمى زياد بن أبي سفيان ، بدل زياد بن عبيد ، أو ابن سميّة ، او ابن أبيه .

وولاه معاوية العراقين ، وهو أول مَنْ جمع له بينهما ، فسار في الناس سيرة لمّ بها الشعَثَ ، وأقام المُعْوَجّ ، وكبح الفتنة ، واشتَطّ في العقوبة ، وأخذ بالظِّنّة ، وعاقب على الشبهة ،حتى شمل خوفه جميع الناس فأمِن بعضهم بعضاً ، وكان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد ، حتى يأتي صاحبُه فيأخذه ، بل كان لا يُغلِقُ أحدٌ بابه ، وكان زياد يقول : (لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخِذَهُ) وكان مكتوباً في مجلسه عنوان سياسته وهي (الشدة في غير عُنف واللين في غير ضعف ، المُحْسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته) .

وتوفي بالكوفة في رمضان سنة ٥٣ هـ .

ومن خطبه البليغة البتراء [١] حين قدم إلى البصرة والياً لمعاوية وهي :

أما بعد : فإن الجهالة الجَهلاء ، والضلالة العمياء ، والغَيّ الموفي بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام التي ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ،والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السّرمدي الذي لا يزول . أتكونون كمن طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعَه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبَقوا إليه : مِنْ تركِكم الضعيف يُقهر ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تنصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق ،ألم يكن منكم نهاةٌ يمنعون الغواة عن دَلج الليل وغارة النهار ! قربتم القرابة ، وباعدتم الدين ، تعتذرون بغير العُذر ، وتُغضون على النكر ، كل امرىء منكم يَرُدُّ عن سفيهه ، صنع من لا يخاف عِقاباً ولا يرجو معاداً ،فلم يزل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرَم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كنوساً في مكانس الرِّيَب .

(١) البتراء التي لم يحمد الله فيها .

حرام عليّ الطعام والشراب حتى أصعَ هذه المواخير بالأرض هَدْمـــاً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بمـــا صلح أوّله « لينٌ في غير ضعف ، وشِدّةٌ في غير عُنف » وإني لأقسم بالله ـ لآخُذَنّ الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعِن ، والمطيعَ بالعاصي ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : « إنج سَعْدٌ فقد هلك سُعَيْدٌ » ، أو تستقيم لي قناتكم ، إن كِذْبـةَ الأمير بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم عليّ بكذبة ، فقد حلت لكم معصيتي ، وقـد كان بيني وبين قوم إحَنٌ فجعلت ذلك دُبرَ أذني وتحت قدمي ، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلّ من بُغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتِك له سِتراً ، حتى يُبْدي لي صفحته ، فإذا فعل ذلـــك لم أناظره فاستأنِفوا أُموركم ، وأعينوا على أنفسكم فربّ مُبتَئِس بقدومنا سَيُسر ، ومسرور بقدومنا سَيَبتئِس .

أيها الناس : إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خَوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا فاستَوْجبوا عَدْلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا .

الحجّاج الثقفي

هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ، أحد جبابرة العرب وساستها ، وموَطد ملك بني أمية ، وأحد البلغاء والخطباء المصاقع ، ولد سنة ٤١ هـ وشب في خلافة معاوية .

وخدَم الحجاج بولاية عبد الملك بن مروان ، وابنه الوليد ـ حتى كان ملكه ما بين الشام والصين ـ ومات سنة ٩٥ هـ في مدينة واسط بالعراق .

كان الحجاج آية في البلاغة وفصاحة اللسان وقوة الحجة وشجاعاً داهية عنيفاً ، قال الأصمعي : أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك بن مروان ، والحجاج بن يوسف ، وابن القرية ، وكان الحجاج أفصحهم ، ومن مآثره اهتمامه بوضع النقط والشكل للمصحف وغيره ، ونسخه عدة مصاحف من مصاحف عثمان وإرسالها إلى بقية الأمصار ، ومن خطبه المشهورة خطبته لمّا قدم أميراً على العراق

فانه دخل المسجد – مُعْتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، متقلداً سيفاً، متنكباً قوساً – يؤم المنبر، فقام الناس نحوه حتى صَعد المنبر فمكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبَّح الله بني أُمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق.

فلما رأى عيون الناس إليه حَسَّر اللثام عن فيه، ونهض فقال:

أنا ابن جَلا وطلاّعُ الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة، إني لأرى رُءُوساً قد أينَعَتْ وحان قطافها، وإني لصاحبُها، وكأني أنظر إلى الدماء ترَقرَقُ بين العمائم واللحى، ثم قال:

هذا أوانُ الشدِّ فاشتَدِّي زيَم   قد لفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ
ليسَ براعي إبِلٍ ولا غَنَم   ولا بجزَّار على ظهرِ وضَمْ

ثم قال:

قد لفَّها الليل بعصلبي   أروَع خرَّاج من الدَّويّ
مُهاجر ليس بأعرابي

وقال:

قد شمَّرت عن ساقِها فشدُّوا   وجَدَّت الحربُ بكم فجدُّوا
والقَوْسُ فيها وَترٌ عُرُدُّ   مثلُ ذراع البكر أو أشَدُّ
لا بُدَّ مما ليس منه بُدُّ

إني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشنان، ولا يغمزُ جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وإن أمير المؤمنين (أطال الله بقاءه) نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عُوداً، وأصلبها مكسراً فرماكم بي لأنكم طالما أرضعتم في الفتنة، واضجعتم في مراقد الضلال، لأحزمنَّكم حَزْمَ السلمة [١]، ولأضربنَّكم ضَرْب غرائب [٢] الإبل، فإنكم لكأهل قرية

(١) نوع من الشجر وذلك لأن الأشجار تعصب أغصانها ثم تختبط بالعصي لسقوط الورق وهشيم العيدان.

(٢) وهي تضرب عند الهرب وعند الخلاط وعند الحوض أشد الضرب.

كانت آمِنة مُطمئنة يأتيها رزقها رَغداً من كلّ مكان فكفرَت بأنعُم الله ، فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ، وإني والله ما أقول إلا وفيتُ ولا أهم إلا أمْضيت ، ولا أخلق [1] إلا فريت [2]

وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجّهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب [3] بن أبي صُفرة ، وإني أقسم بالله لا أجدُ رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

طارق بن زياد

هو أحد قوّاد جيوش الوليد بن عبد الملك، وكان خطيباً مِصقعاً ، وبطلاً مقداماً بعيد الهمة، يعشقُ المجد، وتصبو نفسه إلى الفتوحات ، خرج من المغرب سنة ٩٢ هـ باثني عشر الف جندي من مواطنيه، يَقلهم أسطول قوي، قد جُهّز لذلك وعبرَ البحر إلى أسبانيا لفتحها، فلما علم (رُودريك) ملكها بقدوم المسلمين إلى بلاده قابلهم بجيش عظيم ، هالت طارقاً كثرةُ عدده وكمال عُدده.، فبادر طارقٌ وأحرق أسطوله ليقطع أملَ أصحابه في الرُّجوع، وقال لهم: «أيها الناس الخ » فاندفعوا على الأسبان اندفاع اليائس، وهزموهم شر هزيمة، ثم والى طارقٌ فتوحاته في أسبانيا حتى قبَض على (رُودريك) آخر ملوك الفيزيغوط بها، وقتله سنة ٩٤ هـ، وبعد ذلك بسنة استقدمه الوليد إلى دمشق إلى أن مات سنة ١٠١هـ، وها هي خطبته البليغة ،

أيها الناس ، أين المفَرّ ، البحر من ورائكم، والعدُو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيعُ من الأيتام ، في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه ، وأسلحته و قواته مَوفورة، وأنتم لا وزرَ لكم إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، وإن

(١) أقدر (٢) قطعت (٣) هو أبو سعيد المهلب بن أبي صفرة الأزدي البصري قائد قواد الأمويين ومبيد الخوارج ومبتدع الركب الجديد .

امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ذهَبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رُعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خِذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذّركم أمراً أنا عنه بنجْوة ولا حمَلتكم على خطةٍ أرخصُ متاع فيها النفوس أربأ فيها بنفسي ، واعلموا أنكم إن صَبرتم على الأشق قليلاً استمتعتم بالأرْفهِ الألذ طويلاً ، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي ، فما حظّكم فيه أوفر من حظي ، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرة من الخيرات العميقة ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عُزباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واسماحكم بمُجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون مَغْنَمها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم ، والله تعالى وليّ إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين ؛ واعلموا أني أول مجيب إلى ما دعوتكم اليه ، وإني عند مُلتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم «لذَريق» فقاتله إن شاء الله تعالى فاحملوا معي ، فإن هلكتُ بعدَه فقد كفيتم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكتُ قبل وصولي ، فاخلفوني في عزيمتي هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا الهمّ من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يُخذلون .

الكتابة : خطية ، وإنشائية

الكتابة الخطية : كان الخط في مبدإ ظهور الإسلام هو الخط الأنباري الحيري المسمى بعد انتقاله إلى الحجاز بالحجازي ، وهو أصل النسخ ، وكان يكتب به النزر اليسير من العرب عامة وبضعة عشر من قريش خاصة ، فلما انتصر النبي ﷺ على قريش في يوم بدر ، وأسر منهم جماعة كان فيهم بعض الكتاب ، فقبل الفداء من أميّيهم ، وفادى الكاتب منهم بتعليم عشرة من صبيان المدينة ،

فانتشرت الكتابة بين المسلمين ، وحض ﷺ على تعلمها ؛ ومن أشهر كُتّاب الصحابة : زيد بن ثابت ، وعبدالله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام) ولما فتح المسلمون الممالك ، ونزلت جَمْهرة الكُتّاب منهم الكوفة عنوا بتجويد الخط العربي وهندسة أشكاله حتى صار خط أهل الكوفة ممتازاً بشكله عن الخط الحجازي ، واستحق أن يسمى باسم خاص وهو (الكوفي) وبه كانت تكتب المصاحف ، وحلي القصور والمساجد وسك النقود

وكان الصحابة وتابعوهم من بني أمية يكتبون بلا إعجام ولا شكل إلا قليلا اعتماداً منهم على معرفة المكتوب إليهم باللغة ،واكتفائهم برمز القليل في قراءة اللفظ ، فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ، وظهر اللحن والتحريف في الألسنة ، أشفق المسلمون على تحريف كَلِم الكتاب الكريم فوضع أبو الأسود الدؤلي علامات في المصاحف «بصَبغ مخالف» فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحروف ، والكسرة نقطة أسفله ،والضمة نقطة من الجهة اليسرى ، وجَعل التنوين نقطتين ؛ وكان ذلك في خلافة معاوية رضي الله عنه .

ووضع نصر بن عاصم ويحيى بن يَعْمر بأمر الحجاج نقط الإعجام بنفس المداد الذي يُكتب به الكلام ، حتى لا يختلط بنقط أستاذهما أبي الأسود ،وكان ذلك في خلافة عبد الملك بن مروان ، ثم شاع في الناس بعد .

الكتابة الإنشائية قسمان : كتابة رسائلَ ودواوين ،وكتابة تدوين وتصنيف.

كتابة الرسائل والدواوين

كان زعماء العرب ونصحاؤهم كلهم كتاباً ، ينشئون بملكتهم ،ولو لم يخطوا بيمينهم ، فكان النبي وأصحابه وخلفاؤه يُملون كتبهم على كُتّابهم بعبارتهم ، وبعضهم يكتبها بيده ، ولما اتسعت مَوارد الخلافة أصبحت في حاجة إلى إنشاء الدواوين لضبط ذلك ،فكان « عمر » أول من دَوّنَ الدواوين ، وكان كُتّاب

الرسائل للخلفاء وعمالهم إما عَرَباً او مَواليَ يجيدون العربية ؛ أما كُتّاب الخراج ونحوه فكانوا في كل إقليم من أهله يكتبون بلغتهم ، ولما نَبَغ من العرب من يُحسن عملهم حُوِّلت هذه الدواوين إلى العربية زمنَ عبد الملك بن مروان والوليد ابنه ، وجرى خلفاء بني أمية في كتابة الرسائل على ما كان عليه الأمر زمن الخلفاء الراشدين

ثم لما اتسعت رقعة المملكة ، وقَرّت أمور الدولة ، وازدادت الأعمال وشُغِل الخلفاء على ان يَلوا الكتابة بأنفسهم او بخاصة عشيرتهم عَهِدوا بها إلى كبار كتابهم حتى انتشرت وصارت صناعةً مُحكمة ، وكان كثيرٌ منهم يعرف اللغة الرومية او الفارسية او اليونانية او السريانية ، وهي لغات أمم ذات حضارة وعلوم ونظام ورسوم

ومن هؤلاء : سالم مولى هشام بن عبد الملك ، أحد الواضعين لنظام الرسائل وأستاذ (عبد الحميد الكاتب) الذي آلت إليه زعامة الكتابة آخر الدولة الأموية

مميزات الكتابة الانشائية

وتمتاز الكتابة في هذا العصر بالميزات الآتية :

(١) الاقتصارُ في أعراضها على القدر الضروري لدولة عربية ، والاقتصار في معناها على الإلمام بالحقائق ، وتوضيحها بلا مبالغة ولا تهويل ، واستعمال الألفاظ الفَحلة والعبارة الجزلة والأساليب البليغة ، إذ كان الكاتب والمكتوب إليه عرباً فصحاء .

(٢) مُراعاة الإيجاز غالباً إلا حيثُ يستدعي الحالُ الإسهاب ، وبقي الأمر على ذلك ، حتى جاء عبد الحميد الكاتب آخرَ الدولة الأموية ، فأسهب في الرسائل وأطال التحميدات في أولها ، وسلكَ طريقهُ من أتى بَعدَهُ .

الكُتّاب

كتّاب هذا العصر كثيرون ، فقد كان الخلفاء والأمراء والقواد كلهم

كتَّاباً بُلغاء ولما صارت الكتابة صناعة ، تَداولها كثير من الأعاجم وغيرهم ، واشتهر من بين هؤلاء :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

هو عبد الحميد بن يحيى بن سعيد العامريّ نسباً ، الشاميّ داراً ، شيخ الكتّاب الأوائل وأول من أطال الرسائل ، ونشأ بالأنبار بليغاً حَصيفاً .

وكان عبد الحميد في أول أمره معلم صِبيان حتى فطنَ له مرْوان بن محمد أيام توليه أرْمينية ، فكتب له مدّة ولايته ، حتى إذا بلغه مبايعة أهل الشام له بالخلافة فسجد مروان لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لِمَ لا تسجد ؟ فقال : ولِمَ أسجد ؟ أعَلى أن كنت معنا فطرتَ عنّا ؟ قال : إذاً تطير معي ، قال : الآن طابَ لي السُّجود ، وسجد ، فاتخذه مروان كاتب دولته .

ولما دَهمت مروان جيوش خراسان أنصارُ الدعوة العباسية ، وتوالت عليه الهزائم ، كان عبد الحميد يلازمهُ في كل هذه الشدة ، فقال له مروان ، قد احتجت أن تصير مع عدوّي وتُظهر الغدرَ بي ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك يحوجُهم إلى حسن الظن بك ، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلا لَمْ تَعجز عن حفظ حرَمي بعد وفاتي ، فقال له : إن الذي أشرْتَ به عليّ أنفع الأمرين لكَ ، وأقبحهُما بي ، وما عندي إلا الصبر ، حتى يفتح الله عليك ، أو أقتلُ معك وأنشد

أسِرُّ وفاءً ثمَّ أظهرُ غدرةً فمنْ لي بعذْرٍ يوسع الناس ظاهرُه ؟

وبقي حتى قتلَ مروان سنة ١٣٢ هـ ، وأخِذَ عبد الحميد إلى السَّفاح فقتله سنة ١٣٢ هـ .

منزلته في الكتابة : اتفقت كلمة البلغاء وأهل الأدب على أن عبد الحميد هو الأستاذ الأول لأهل صناعة كتابة الرسائل ، وذلك أنه أول من مهَّد سبلها

وميّزَ فصولها ، وأطالها في بعض الشئون ، وقصّرها في بعضها الآخر ، وأطالَ التّحميدات في صدرها ، وجعل لها صوراً خاصةً ببدْئها وختْمها على حسب الأغراض التي تُكتب فيها ؛ وكان لبلاغة عبد الحميد عمل يعجزُ عنه السّحرُ في خلب الأفئدة وجذبِ النفوس ، فيقال إنه لمّا ظهر أبو مسلم الخراساني بدعوة بني العبّاسِ كتبَ إليه عن مروان كتاباً يستجلبه به وضمنه ما لو قرىء لأدّى إلى وقوع الخلاف والفشل وقال لمروان : كتاباً مَتى قرأه بطلَ تدبيره ؛ فإن يكُ ذلك وإلا فالهلاك ، وكان الكتابُ لكبر حجمه يُحمل على جمل ، فلما وصل الكتاب إلى داهية خراسان أبي مُسلم أمر بإحراقه قبل أن يقرأه ، وكتب على جذاذة منه إلى مروان :

محا السّيف أسطارَ البلاغةِ وانتحى عليـك ليوثُ الغاب من كلّ جانب

التدوين والتصنيف

انقضى زمن الخلفاء الراشدين ، ولم يدَون فيه كتاب إلا ما كان من أمر كتابة المصّحف ، وكان مرْجع الناس في أمر دينهم ودُنياهم كتاب الله تعالى وسُنة رسوله فإذا اشتَبه عليهم أمر من أمور الدين رَجعوا إلى الخُلفاء ، وفقهاء الصحابة .

ثم لمّا انتشر الإسلام في زَمن بني أُميّة ، واختلطت العرب بالعجم ، فَفسدت فيهم ملكة اللسان العربي ، وفشا اللحن ، وأشفَقوا على القرآن من التحريف ، وعلى اللغة من الفساد دَونوا النّحو ؛ وكان أول من كتب فيه « أبو الأسْود الدُّؤلي » وقد تَلقى مبادئه عن « الإمام عليّ » وأخذ عنه فتيانُ البصرة ، وخصوصاً الموالي إذ كانوا أحوج الناس إلى النّحو ، واشتغلَ به أهل الكوفة بعد أن فشا بالبصرة ، ولم ينقض هذا العصرُ حتى اشتغَل به طَبقتان من البصريين وطَبقة من الكوفيين. ثم لما حدَثت الفتن وتعدّدت المذاهبُ والنّحَل وكثرت الفَتاوى والرجوعُ فيها إلى الرؤساء ، ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يَعتمد الناس على رُؤسائهم ، ويَتركوا سنة رسول الله ، فأذن أمير المؤمنين « عمر بنُ

عبد العزيز » لأبي بكر محمد بن عمرو بن حزْم في تَدوين الحديث ، وانقَضى هذا العصر ، ولم يُدون فيه من علوم اللغة والدين غير النَّحو وبعض الحديث وبعض التفسير ، أما العلوم الأخرى فيروى أن خالد بن يَزيد بن معاوية حببَ إليه مطالعة كتب الأوائل من اليونان فترْجمت له ، ونَبغ فيها ووضع كتباً في الطّب والكيمياء ، وأن معاوية استقدم عبيد بن شرْية من صنعاء فكتب له كتاب « الملوك وأخبار الماضين » وأن وهْب بن منبّه الزّهْري ، وموسى بن عُقبة ، كتبا في ذلك أيضاً كتباً ، وأن زياد بن أبيه وضع لابنه كتاباً في مثالب قبائل العرب ، وأن ماسرْجَوَيْه متطبّب البصرة تولى في الدولة المروانيّة ترجمة كتاب أهرُون بن أعين ، من السريانية إلى العربية ، وأن يونس الكاتب بن سليمان ألّف كتاباً في الأغاني ونِسْبتها إلى من غنّى بها ، ولم يبلغ التصنيف شأواً يُذكر .

الشعر والشعراء في هذا العصر

جاء النبي الكريم ، والشعرُ ديوانُ العرب ، فأتاهم بالأمر العظيم ، والحادث الخطير ، حاملاً بإحْدى يدَيه القرآن يَدعو النـاس إلى توحيد الله ، والتمسك بالفَضيلة وشاهراً بالأخرى سيف الحق لحماية هذه الدعوة ، وما كان أشدّ ذهولهم لخَطبها وانزعاجهم من وقعها ، فهبوا يتحسّسون الأول ، ويتمرّسون أساليبه ومعانيه ويَتفرسون ألفاظه ومغازيه ،ما بين معانِد يتلمس مطعنـاً فيه ، ومؤمن يستبينه ويستهديه ، وتأهّبوا للثاني ، بين ضال يناوئه ، ومهتد يعاضده فصار ذلك صارفاً لهـم عن التشاغل بالشعر ، محولاً مجرى أفكار المؤمنين منهم عن أكثر فنونه المنحرفة عن سنن الشرف والحق كالمدح بالباطل والهجاء والمغازلة ، وبغض إليهم تلك الفنون المرذولة بازدراء القرآن على الشعر بقوله : (والشعراء يتبعهم الغاوُون ، ألم تر أنهم في كل وادٍ يَهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا) ولهذا لم يكف شعراء المسلمين عن قوله فيما يطابقُ روح القرآن ؛ كالموعظة

والإرشاد ، ومدح الرسول ﷺ وأصحابه ... الخ .

ولبث الحالُ على ذلك مدّة حياة النبي الكريم ، حتى إذا ما ثاروا لإسكان فتن أهل الردة ، وفتح الممالك والأمصار ، أضافوا إلى ما ألفوه عن أغراض الشعر الإكثار من التباهي بالنصر ، ووصف المعارك ، وأحوال الحصار وآلات القتال .

ولما آل الأمر إلى بني أميّة ، وشغّب عليهم كثير من فرَق المسلمين أصبح الشعر لساناً يُعبر عن مقاصدِ كلّ حزب ، حتى أصبح حرفة عتيدة ، وصناعة جديدة ومورد ثرْوة ، وأصبحت دراسته ونقده وروايته دأب العلماء والأدباء، حتى الخلفاء وأولياء عهودهم . ونصفُ ما كان عليه الشعر في هذا العصر من حيث أغراضه ومعانيه وتصوراته وعباراته بما يأتي :

أغراض الشعر وفنونه

(١) نشر عقائد الدين وحكمه ووصاياه والحث على اتباعه، وخاصة زمن النبي ﷺ وخلفائه الراشدين

(٢ التحريضُ على القتال ووصفه – والترغيب في نيل الشهادة رَفعاً لكلمة الله ؛ وذلك في أزمان غزوات النبي وحصار المدن وفتحها .

(٣) الهجاء – وكان أولاً في سبيل الدّفاع عن الإسلام بهجْو مشركي العرب بما لا يخرج عن حد المروءة وبما رَضيه النبي من حسان بن ثابت شاعره في هجاء قريش وعشيرة النبي من بني عبد مناف ، وكان يتحرج عنه المسلمون ولو بالتعريض زمن النبي وخلفائه ، ولذلك عاقب عمر أمير المؤمنين (الحُطيئة) وهدده بقطع لسانه لنيله من بعض المسلمين ، ثمّ صار يَتساهل في خَطبه حتى كان الهجاء غاية براعة الشاعر ، وإن لم يصل في الإقذاع والفحش إلى الحدّ الذي وصل إليه في العصر التالي ، ومن ذلك التهاجي المشهورُ بين جرير والفرزدق والأخطل .

(٤) المدحُ — وقلّما كان مبدأ الإسلام في غير النبي من حيث الاهتداءُ بهديه ، ونشر الحق على يديه ، وكان خُلفاؤه يأنفون مَدحهم بما تزهى به نفوسهم تواضُعاً .

ثم استرسل الشعراءُ فيه وقبلَ ذلك منهم الخلفاء إلى أن كان المدحُ من أهمّ الدعائم لتوطيد أركان الدولة وتفخيم مقام الخلفاء والوُلاة والإشادة بعظمتهم .

معانيه وأخيلته وأساليبه وأوزانه

لم يخرج شعراء هذا العصر في جُملة تصورهم وتخيُّلهم عما ألفوه زمن الجاهلية وإن فاقوهم كثيراً في ترتيب الفِكَر ، وتقريب المعنى إلى الأذهان والوِجدان بما هذّب نفوسهم ، ورقق طباعهم من دراسة كتاب الله وحديث رسول الله ؛ وكذلك لم يَخرُجوا جملة في هيئة تأليف اللفظ ونَسْجه ومتانة أسلوبه عن نظائرها في الجاهلية وإنما آثروا جَزالة اللفظ ومؤالفتهُ لسابقه ولاحقه دون غَرابته كما آثروا جودة الأسلوب ومتانته ، ورَوعة تأثيره ولا سيما أهل النسيب ، ولم يطرأ على أوزان الشعر العربي حدثٌ غيرُ ما عُرف عنه في الجاهلية .

وإنما شاع في هذا العصر نظم الأراجيز ، والتطويل فيها واستعمالها في جميع أعراض القصيد ، حتى في افتتاحها بالنّسيب ، والتّخلص منه إلى المدح والذّم ونحو ذلك .

الشعراء

شعراء هذا العصر ممن خلصت عربيتهم ، واستقامت ألسنتهم ، ولم يمتد إليهم اللحن ، ولقد زادتهم مُدارسة القرآن الكريم فصاحة وبلاغة ، وإحكاماً وإتقاناً حتى فضلهم بعض الرواة على سابقيهم من الجاهليين — ومن أشهر شعراء هذا العصر كعب بن زهير ، والخنساء ، والحطيئة ، وحسان بن ثابت ، والنابغة

الجعدي وعمرو بن معديكرب من المخضرمين(١) وعمر بن أبي ربيعة، والأخطل، والفرزدق، وجرير، والكميت، وجميل، وكثيّر عزّة، ونُصَيْب، والرّاعي، وذو الرمّة من الإسلاميين.

كعبُ بن زهير

هو كعبُ بن زُهير بن أبي سلمى أحد فحول المخصرمين، ومادح النبي الأمين، ولما ظهر الإسلام ذهب أخوه بُجَيْر إلى رسول الله ﷺ، فغضب كعب لإسلامه، وهجا رسول الله ﷺ وأصحابه، فتوعده النبي ﷺ وأهدرَ دمه، فحذره أخوه العاقبة، إلا أن يجيء إلى النبي ﷺ مسلماً تائباً، فهام كعب على القبائل أن تجيره فلم يُجِرْه أحدٌ، فلما ضاقت الأرض في وجهه جاء أبا بكر رضي الله عنه بالمدينة، وتوسل به إلى الرسول ﷺ، فأقبلَ به عليه وآمن، وأنشده قصيدته المشهورة الآتية.

فخلع عليه النبي بُرْدته، فبقيت في أهل بيته حتى باعوها لمعاوية بعشرين ألف درهم، ثم بيعت للمنصور العباسي بأربعين ألفاً ومات سنة ٢٤ هـ.

شعره: كان كعب من الشعراء المجيدين المشهورين بالسبق وعُلوّ الكعب في الشعر، وكان خلف الأحمر احد علماء الشعر يقول: لولا قصائد لزُهير ما فضلته على ابنه كعب، وكفاه فضلاً أن الحُطيئة مع ذائع شهرته، رجاه أن يُنوّه به في شعره، فقال:

فمنْ للقوافي شانَها مَن يحوكها ... إذا ما مضى كعب وفوّز جَروَلُ

ومن شعره قوله:

لو كنت أعجبُ من شيء لأعجبني ... سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدَرُ
يَسعى الفتى لأمور ليس يُدركها ... والنفسُ واحدة والهمُّ مُنتشرُ
فالمرءُ ما عاش ممدودٌ له أمَلٌ ... لا ينتهي العمُر حتى ينتهي الأثرُ

(١) المخضرم من الشعراء من عاش في الجاهلية والإسلام.

ومن قوله أيضاً .

إن كنتَ لا ترهَبُ ذمي لما تعرف مِن صفحي عن الجاهل
فاخش سكوتي إذا أنا مُنصِتٌ فيكَ لمسموع خَنا القائل
فالسامعُ الذم شريكٌ له ومُطعمُ المأكول كالآكل
مقالةُ السُوء إلى أهلها أسرعُ من مُنحدرٍ سائل
ومَن دعا الناس إلى ذمّهِ ذمُّوهُ بالحق وبالباطل

ومن قوله أيضاً قصيدة « بانت سُعاد » المشهورة – وهي :

بانتْ سعادُ فقلبي اليومَ متبولُ مُتيمٌ في إثرَها لم يُفدَ مكبولُ [١]
وما سُعادُ غداةَ البَيْنِ إذ برزت إلا أغنٌّ غضيضُ الطرْف مكحولُ [٢]
تجلو عوارضَ ذي ظَلمٍ إذا ابتسمت كأنه مَنْهلٌ بالراحِ معلول [٣]
شُجَّت بذي شَبَمٍ من ماء مَحنيةٍ صافٍ بأبطح أضحى وهو مشمول [٤]
تنفي الرّياحُ القذى عنه وأفرطه من صوب غاديةٍ بيضٌ يعاليل [٥]
ويلُ أمها خُلة لو أنها صدقتْ بوعدها ولو أنَّ النصحَ مقبول [٦]
لكنها خُلة قد سيطَ من دمها فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ [٧]

---

(١) بانت : فارقت والمتبول الذي أسقمه الحب . ومكبول : مقيد
(٢) الأغن : الذي في صوته غنة ، وهي صوت محبوب ؛ غضيض الطرف : أي في طرفها كسر وفتور ٣) تجلو : تكشف والمراد بالعوارض هنا الاسنان ، ذي ظلم : أي ثغر ذي ظلم والظلم ماء الأسنان وبريقها . معلول : أي مسقى بالخمر مرة بعد أخرى ٤) شجت أي مزجت بالماء لتذهب سورتها ؛ وبذي شبم أي بماء ذي شبم والشبم البرد والمحنية : منعطف الوادي لأن ماءها يكون أصفى وأرق ؛ والأبطح : مسيل فيه دقائق الحصى ؛ والمشمول : الذي ضربته ريح الشمال حتى برد (٥) القذى : مايسقط في الماء ؛ وأفرطه : أي ملأه . (٦) ويل امها في رواية ابن هشام أكرم بها والخلة هنا الصديقة . (٧) سيط من ساط الماء ونحوه يسوطه : خلطه بغيره ؛ والفجع : الإصابة بالمكروه ، والولع : الكذب .

فما تقومُ على حال تكون بها — كما تلوَّنُ في أثوابها الغول ١
ولا تُمسِكُ بالعهدِ الذي زعمت — إلا كما يُمسِكُ الماء الغرابيل
كانت مواعيدُ عرقوب لها مثلاً — وما مواعيده إلا الأباطيل ٢
أرجو وآمُل أن تدنو مودتها — وما إخالُ لدينا منكِ تنويل
فلا يَغرنكَ ما منّت وما وعدت — إن الأمانيَّ والأحلامَ تضليل
أمست سُعادُ بأرض لا يُبلِّغها — إلا العِتاقُ النجيّاتُ المراسيل ٣
نبئتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدَني — والعفوُ عند رسول الله مأمول ٤
مهلاً هداك الذي أعطاكَ نافلة القـرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ ٥
لا تأخُذَنّي بأقوال الوُشاة ، ولم — أذنب ، ولو كثرت فيَّ الأقاويل
لقد أقومُ مقاماً لو يَقومُ بـه — يرى ويسمعُ ما قد أسمعُ الفيل ٦
الظل يُرعَدُ من وجدٍ بوادره — إن لم يكن من رسول الله تنويل ٧
ما زلتُ أقطعُ البَيداء مدّرِعاً — جُنحَ الظلام وثوبُ الليل مسبول ٨
حتى وضَعت يميني ما أُنازعها — في كف ذي نَقِمات قوله القيل ٩
فلهوَ أخوفُ عندي إذ أكلمه — وقيل ، إنك منسوبٌ ومسئول ١٠

(١ الغول : من خرافات العرب يزعمون أنها تتراءى لهم في الفلوات تتلون لهم وتضلهم عن الطريق ٢) عرقوب يضرب به المثل في خلف الوعد ؛ قيل إنه وعد أخاً له ثمر نخلة ، وقال ، ائتني إذا أطلع النخل فلما أطلع قال : إذا أبلح فلما أبلح قال: إذا أزهى؛ فلما أزهى قال : إذا أرطب ؛ فلما أرطب قال : إذا صار تمراً فلما صار تمراً جده من الليل ولم يعطه شيئاً ٣، العتاق. الإبل أو الخيل الكريمة ، والنجيات السريعات والمراسيل : جمع مرسال وهو السريع (٤) أوعد : هدد (٥ نافلةَ .عطية ، التفصيل: التبيين (٦) أي لقد شهدت برؤية الرسول مشهداً عظيم الهيبة لو شهده الفيل أوسمع الفيل ما يدور به من الحديث. لظل يرعد (٧) لظل يرعد :جواب لو في البيت السابق؛ والبوادر جمع بادرة ، وهى ههنا بين المنكب والعنق (٨) إدراع الظلام أي لبسه كأنه درع (٩) ما أنازعها : أي لا أجاذبها ، والقيل : أي القول الحب ١٠ أخوف : أي أعظم مسبب للخوف ومنسوب : أي مسؤول عن نسبك .

مِنْ ضَيْغَمٍ بِضَرَاءِ الأرضِ مُخْدَرُهُ … في بطنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيلُ ١
يَغدو فيُلحِمُ ضِرْغامَينِ عيشُهما … لحمٌ من الناسِ معفورٌ خراديلُ ٢
إذا يُساوِرُ قِرناً لا يَحِلُّ له … أن يترك القِرنَ إلا وهو مغلولُ ٣
منه تظلُّ حَميرُ الجوِّ نافرةً … ولا تمشّى بواديه الأراجيلُ ٤
ولا يزالُ بواديه أخو ثقةٍ … مُضرَّجُ البَزِّ والدَّرسينِ مأكولُ ٥
إن الرسولَ لنورٌ يُستضاءُ به … مهنّدٌ من سيوفِ الله مسلولُ
في عُصبةٍ من قريشٍ قال قائلهم … ببطنِ مكة لما أسلموا : زولوا ٦
زالوا ؛ فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ … عند اللقاءِ ميلٌ معازيلُ ٧
يمشونَ مشيَ الجمالِ الزُّهرِ يعصمهُمْ … ضربٌ إذا عرَّدَ السودُ التنابيلُ ٨
شمُّ العرانينِ أبطالٌ لبوسهُمُ … من نسجِ داودَ في الهيجا سرابيلُ ٩
بيضٌ سوابغُ قد شُكَّتْ لها حلقٌ … كأنها حلقُ القَفعاءِ مجدولُ ١٠

(١) من ضيغم : متعلق بأخوف في البيت السابق ؛ وضراء الأرض أي الأرض المستوية التي تأويها السباع وبها نبذ من الشجر ؛ والمخدر : مكان إقامة الأسد ؛ وبطن عثر مأسدة ؛ أي مخدرة غيل من بطن عثر دونه غيل والغيل : الاجمة – يصفه بالمنعة والتوحش (٢) يلحم : أي يطعم اللحم ؛ معفور: أي ملقى في التراب والخراديل ؛ القطع (٣) يساور يواثب ، والقرن : المماثل ، ولا يحل : ولا يسوغ ، والمغلول : المقيد (٤) الجو : البر الواسع ، والأراجيل جمع رجيل ؛ وهو الراجل غير الراكب (٥) البز الثياب ؛ والدرس : الثوب الخلق ، أي أن بوادي هذا الأسد تجد شجاعاً كان يثق بنفسه فافترسه وأصبحت ثيابه خلقة ممزقة (٦) زولوا أي انتقلوا من مكة إلى المدينة

(٧) النكس : الضعيف والكشف : جمع أكشف وهو من لا ترس له، والميل : جمع أميل وهو من لا سيف له أو من لا يحسن الركوب والمعازيل: جمع معزول وهو من لا سلاح له (٨) الزهر .البيض ،وعرد فر وأعرض والتنابيل: القصار . (٩) شم العرانين: شم الأنوف ؛ أي أعزة ، واللبوس ، السرابيل. الدروع أي لباسهم دروع من نسج داود (١٠)بيض صفة للسرابيل ،والسوابغ: الطوال ، والقفعاء : نبات ينبسط على الأرض يشبه حلق الدروع .

ليسوا مفاريحَ إن نالت رماحُهُـمُ قوماً ، وليسوا مجازيعـاً إذا نيلوا [١]
لا يقطعُ الطعـنُ إلا في نحورِهِمُ وليس لهم عن حياضِ الموت تهليل [٢]

(٢) عمرو بنُ معديكرب الزُّبيدي

هو أبو ثور عمرو بن معديكرب الزبيدي المذحجي ، فارس اليمانينَ ، وأحد الشعراء المعمَّرين ، والخطباء الموفـَدين .

منشؤه وصِفاته : نشأ عمرو بين قومه مُحمقاً أكولاً ، لا يؤمَّـلُ منه خير ، ولا تُلحظ فيه سيادة ، على ضخامة في جثة ، وجهارة في صوتٍ ، حتى بلغ زبيداً أن خثعمَ ستشُنّ الغارة عليهم ، فتأهّبوا ، ودخل عمرو على أُخته ، فقـال : أشبعيني إن غداً الكتيبة ، فأخبرت أباه ، فقال : سَلِي هذا المائق ما يُشبعه ، فأكل عنزاً بثلاثة آصع ذُرة ، وأتتهم خثعمَ فتبلد حتى رأى لواءَ أبيه مال وانهزمت زُبيد ، فثار وكرَّ على خثعم ، وتراجع إليه قومه فهزموا الأعداء ؛ فأصبح يُسمى فارس زُبيد بعد أن كان يُسَمى مائق زُبيد ، واشتهرَ بالشجاعة حتى هابتـه أبطال العرب وضُرِب به المثل في الشجاعة ، وفي ذلك يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، في سماحةِ حاتم في حـلم أحنَفَ ، في ذكاء إياسِ

وفي شجاعته يقول عن نفسه : وسِرْت بظعينة وحدي على مياه مَعدّ كلها ما خِفت أن أُغلبَ عليها — ما لم يَلقَني حُرَّاها أو عَبداها ؛ فأما الحُرّان : فعامر بن الطفيْل ، وعُيينة بن الحارث بن شِهاب ، وأما العَبْدان : فأسْود بني عَبس — يعني عَنترة — والسُّليك بن السُّلكة ، وكلهم قد لقيت .

ولما فشا الإسلام في قبائل العرب ، وفد مع بعض قومه على رسول الله فأسلم ثم رَجع إلى قومه ، ولما مصّرت الكوفة أقـام بهـا حتى كانت وقعة نَهاوَنـد فحضرها تحت لواء النعمان بن مُقرّن ، ومات بها سنة إحدى وعشرين .

---

(١) المفاريح : جمع مفراح ، الشديد الفرح والمجازيع ، جمع مجزاع الشديد الحزن . (٢) التهليل : الجبن والفرار .

ويُعَدّ عمرو من الشعراء المخضرمين ، ويأتي شعره في الطبقة الثانية من الجودة ويَغلب عليه وصف الوقائع والتحدث عن نفسه بالشجاعة ، وهو أحد الخطباء الذين أوفدهم النعمان على كِسرى .

ومن شعره قوله في صدق عن نفسه في الحرب :

ولما رأيتُ الخيلَ زُوراً كأنها جداول زَرع أُرْسِلت فاسبطرّتِ
فجاشت إليّ النفسُ أوّل مرة فرُدت على مكروهها فاستقرّتِ
علام تقولُ الرُّمح يُثقلُ عاتقي إذا أنا أطعنْ إذا الخيلُ كَرّتِ

ومن قوله أيضاً :

أمِن رَيحانة الدّاعي السميعُ يؤَرّقُني وأصحابي هُجوعُ
أشاب الرّأس أيامٌ طوالٌ وهمٌ ما تَضَمّنه الضلوعُ
وسوق كتيبةٍ دَلَفت لأخرى كأن نهارَها رأسٌ صليعُ
إذا لم تَستَطع شيئاً فدَعه وجاوزهُ إلى ما تَستَطيعُ
وصِله بالزّماع فكلّ أمر سَما لك أو سموت له ولوعُ

(٣) الخنساء

هي السيدة تماضِرُ الخنساء بنت عمرو بن الشّريد السلمية ، أرقى شواعر العرب وأحزن مَنْ بَكى وندب .

كان أبوها عمرو ،وأخواها مُعاوية وَصخْر ،وكانت هي من أجمل نساء زمانها فخطبها دُرَيد بن الصمة فارس جُشم ، فرَغبت عنه ، وآثرت التزَوّج في قومها ، فتزوجت منهم ، وكانت تقول المقطعات من الشعر ، فلما قُتل شقيقُها معاوية ، ثم أخوها لأبيها صخر ،جَزَعت عليهما جزَعاً شديداً ، وبَكَتهما بكاءً مُرّاً ، وكان أشد وجدها على صخر ،لأنه شاطرها هي وزَوْجها أمواله مراراً ،ولما جاء الإسلام

وفدت مع قومها على النبي ﷺ وأسلَمَتْ، وكان يُعجبه شِعرُها، ويستنشِدُها ويقول (هيهِ يا خناس) ويُومىءُ بيده .

وما فتئت تبكي صخراً قبل الإسلام وبعده حتى عميت ، وبقيت إلى أن شَهِدَت حرب القادِسية مع أولادها الأربعة، فأوصتهم وصيتها المشهورة وحضتهم على الصبر عند الزحف ، فقتلوا جميعاً ، فقالت: الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، ولم تحزن عليهم حزنها على أخويها، وتوفيت بالبادية سنة ٤٦ هـ في خلافة معاوية .

شعرها : أغلب علماء الشّعر على أنه لم تكن امرأةٌ قبلَ الخنساء ولا بعدها أشعرَ منها ، ومن فضّل ليلى الأخيلية عليها لم يُنكر أنها أرثى النساء ، وكان بَشّار يقول : لم تقل امراة شعراً إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ، فقال : تلك التي غلبت الفحول . ولم يكن شأنها عند شُعراء الجاهلية أقل منه عند شعراء الإسلام ، فذلك النابغة الذبياني يقول لها ، وقد أنشدتَه بسوق عكاظ قصيدتها التي مطلعها :

قذًى بعينيك أم بالعين عوّارُ   أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدارُ

لولا ن أبا بَصير (يعني الأعشى) أنشدني قبلكِ لقلت : إنكِ أشعرُ مَن بالسوق وسُئل جَرير : مَن أشعر الناس ؟ قال : أنا ، لولا الخنساء ، قيل : فيم فَضَلَتك ؟ قال : بقولها :

إن الزمان (وما يَفنى له عَجَبٌ)   أبقى لنا ذَنَباً واستؤصل الرّأس
إن الجديدين في طول اختلافهما   لا يفسدان ولكن يَفسد الناس

ومن جيد شعرها ترثي أخاها صخراً :

أعَينيَّ جُودا ولا تجمُدا   ألا تَبكيانِ لصخر الندى
ألا تَبكيانِ الجريء الجميل   ألا تبكيان الفتى السيّدا
رفيعُ العماد طويل النّجا   د سادَ عشيرَتَهُ أمردا

إذا القومُ مَدوا بأيديهم إلى المجد مَدّ إليه يَدا
فنال الذي فوق أيديهمُ من المجد ثم انتمى مُصْعدا
يحمِّله القوم ما عالَهُمْ وإن كان أصغرَهم مَولدا
وإن ذُكِرَ المجدُ أَلْفَيْتَه تأزَّرَ بالمجد ثم ارتَدى

ومن قولها ترثيه أيضاً

ألا يا صَخْرُ إن أبكيتَ عيني فقد أضْحَكْتني زمناً طويلا
دَفَعتُ بكَ الخطوبَ وأنتَ حيٌّ فمن ذا يَدفعُ الخطبَ الجليلا
إذا قَبُح البكاءُ على قتيلٍ رأيتُ بكاءَكَ الحسنَ الجميلا

ومن بديع قولها .

يُذَكرني طلوعُ الشمس صَخْراً وأذكرُه لكلِّ غروب شمسٍ
فلولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلتُ نَفْسي
ولكن لا أزالُ أرى عَجولاً ونائحة تنوحُ ليوم نحْسِ
هما كلتاهما تبكي أخاها عشيةَ رزئِه أو غِبَّ أمس
وما يَبكين مثل أخي ولكنْ أُسلِّي النفسَ عنهُ بالتأسِّي
فقد ودعت يوم فراقِ صَخْر أبي حسانَ لذاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهفَ أُمِّي أيُصْبحُ في الضَّريح وفيه يُمسي

(٤) الحُطيئة

هو أبو مُلَيكةَ جَرولُ الحطيئة العبسيّ ، منشؤه معلول النسب ، وكان جَشِعاً سؤولا مُلحفاً دنيء النفس ، كثير الشر قليل الخير ، بخيلاً قبيح المنظر ، رَثّ الهيئة فاسد الدين . وعاش الحطيئة مدة في الجاهلية ، وجاء الإسلام فأسلم ، ولم يكن له صحبة برسول الله ﷺ ، ثم عاش متنقلاً في القبائل يمدح هذه تارة ، ويَذُمُّ تلك أخرى ، ويَنتَسِبُ إلى عبس طوراً ، وطوراً إلى ذُهل ، ويهجو

اليوم من يمدحه بالأمس ، وكل قبيلة تخطب وُدّه ، وتتقي شر لسانه ، حتى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حَبَسَه ، فما زال يستشفع إليه بالناس وقول الشعر حتى أطلقه وهدّده بقطع لسانه إن هجا أحداً ، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم ، ولكنه نكثَ ، وأوغَلَ في الهجاء بعد موت عمر ، وبقي كذلك حتى مات أوئل خلافة معاوية سنة ٥٩ هـ .

شعره : لولا ما وُصِمَ به الحطيئة من خِسّةِ النفس ، ودناءة الخلق ، وجهالة النسب لكان بإجادته في كل ضربٍ من ضُروب الشعر زعيم شعراء المخضرَمينَ على الإطلاق ، إلا أنه لم يقف ببراعته وفصاحته موقفاً لله والشرف ، وقلما يوجد في كلام الحطيئة مظنة ضعفٍ ، أو مغمزٌ لغامز من ركاكةِ لفظ ، أو غضاضة معنى أو اضطراب قافية .

ومن مَدحه الذي لا يَلحق له فيه غُبار ، قوله :

يَسوسون أحلاماً بعيداً أناتُها وإن غضبوا جاء الحفيظة والجد
أقلوا عليهم (لا أباً لأبيكم) من اللوم أو سُدّوا المكان الذي سَدّوا
أولئك قومٌ إن بنَوْا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوْفَوا وإن عَقدوا اشدّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوا بها وإن أنعَموا لا كدّروها ولا كدّوا
مَطاعينُ في الهيجا مكاشيفُ للدجى بَنى لهم آباؤهم وبَنى الجدُّ
ويَعْذِلُني أبناءُ سعدٍ عليهم وما قلتُ إلا بالذي عَلِمَت سعدُ

ومن أبياته التي استعطف بها أميرَ المؤمنين عمر وهو في سجنه قوله :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بذي مَرَخ زُغبُ الحواصلِ لاماءٌ ولا شجرُ
ألقيتَ كاسبَهم في قعرِ مُظلمة فاصفح ، عليكَ سلام اللهِ يا عمر !
أنتَ الأمين الذي مِن بعدِ صاحبه ألقى إليكَ مقاليدَ النُّهى البشرُ
لم يُؤثِروكَ بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بكَ الخِيَرُ

(٥) حسان بن ثابت

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري : شاعر رسول الله ﷺ وأشعر شعراء المخضرمين ، وهو من بني النجار أهل المدينة ، نشأ في الجاهلية ونبه شأنه فيها ، ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة ، وأسلم الأنصار، أسلم معهم ودافع عنه بلسانه ، كما دافع عنه الأنصار بسيوفهم .

وعاش حسان بعد النبي محبباً إلى خلفائه مرضياً عنه ، وعمر قريباً من ١٢٠ سنة ، وبقي أكثر حياته ممتعاً بحواسه وعقله ، حتى وهن جسمه في أواخر عمره ، وكف بصره ، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ .

شعره كان حسان شاعر أهل المدر في الجاهلية ، وشاعر اليمانية في الإسلام ولم يكن في أصحاب النبي ولا في أعدائه عند دعوته إلى الله أشعر منه ، ولذلك رمى مشركي قريش من لسانه بالداهية التي لم يكن لهم قبل بها ، فأوجعهم وأخرسهم من غير فحش ولا هجر ، ولما أذن له النبي ﷺ في هجائهم قال له كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ قال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين . وكان النبي ﷺ ينصب له منبراً بالمسجد ، ويسمع هجاءه في أعدائه ، ويقول : « أجب عني ، اللهم أيده بروح القدس » . وكان في شعر حسان زمن الجاهلية شدة وغرابة لفظ ، فلما أسلم وسمع القرآن ووعاه ، وكثر ارتجاله الشعر ، لان شعره وسهل أسلوبه .

ومن شعره في الجاهلية :

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها ونسود النائبات ونعتلي
ويسود سيدنا جحاجح سادة ويصيب قائلنا سواء المفصل
ونحاول الأمر المهم خطابة فيهم ونفصل كل أمر معضل
وتزور أبواب الملوك ركابنا ومتى نحكم في البرية نعدل

ومن شعره في الإسلام يفاخر وفد تميم بقوم النبي ﷺ :

إنّ الذوائبَ من فِهْرٍ وإخوتهم قد بينوا سُنناً للناس تُتبَعُ
يرضى بها كلُّ من كانت سريرتُه تقوى الإلهِ وبالأمر الذي شرعوا
قومٌ إذا حاربوا ضرُّوا عدوَّهم أو حاولوا النفعَ في أشياعِهم نفعوا
سجيةٌ تلك فيهم غيرُ محْدَثة إنّ الخلائق (فاعلم) شرها البِدَعُ
لا يَرفع الناسُ ما أوْهت أكفهمُ عند الدفاع ولا يُوهون ما رفعوا
إن كان في الناس سبّاقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبعُ
وعفةٌ ذُكِرَتْ في الوحي عفتهم لا يَطمعون ولا يزري بهم طمعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوّهم وإن أصيبوا فلا خورٌ ولا جزَعُ

(٦) النابغة الجعدي

هو أبو ليلى حسّان بن عبدالله الجعدي العامريّ أحد القدماء المُعمّرين والشعراء المخضرمين ، ووُصّاف الخيل المشهورين .

قال الشعر في الجاهلية ، ثم استعصى عليه دهراً ، ثم نبغ في الشعر عند ظهور الإسلام وبعده ، ولذلك سمّي (النابغة) وهو ممن فكر في الجاهلية ، وأنكرَ الخمرَ وما تفعلُ بالعقل ، وهجر الأزلام والأوثان ، وذكرَ دينَ إبراهيم ، وصام واستغفر ، ووفد على رسول الله ﷺ ، وأسلم .

وعاش طويلاً في الإسلام ، فأقام زمناً مهاجراً ، حتى أيام عثمان رضي الله عنه ، فأحس بضَعْفٍ في نفسه ، فاستأذن عثمان في الرجوع إلى البادية ، فأذن له ، ثم لما كانت خلافة (عليّ) شهد معه وقائع صِفين ، وظاهره بيده ولسانه ، ونال من معاوية وبني أمية – ومات بأصبهان سنة ٥٨ هـ – بعد أن عمر مائة وثمانين سنة .

شعره : كان النابغة الجعدي شاعراً مطبوعاً في الجاهلية والإسلام ، وهو أول من سبق إلى الكناية في الشعر عن اسم من يعني إلى غيرها ، وتبعه الناس بعد ، قال :

أكني بغير اسمها ، وقد علم الله خفيّات كلّ مكتتم

وكان مِمّن يَصفون الخيل، فلا يُلحق له في ذلك غبار، حتى ضُرب به المثل. قال الأصمعي : ثلاثة يصفون الخيل لا يُقاربهم أحد ، طفَيل الغنوي، وأبو دواد الإيادي والنابغة الجعْدي ، وله في الفخر والهجاء والمديح والرثاء شعر كثير .

ومن أشرَفه قصيدته التي مدح بها الرسول الكريم ﷺ — وهي :

خليليّ عُوجا ساعة وتهجَّرا ونوحا على ما أحدث الدهرُ أوذَرا
ولا تجزعا إنّ الحياة ذميمــةٌ فخفا لرَوعات الحوادث أوقرَا
وإن جاء أمر لا تطيقان دفعه فلا تجزعا مما قضى اللهُ واصبرا
ألم تريا أن الملامة نفعهــا قليلٌ إذا ما الشيءُ ولّى وأدْبرا
تهيــج البكاء والنّدامــة ثم لا تغيِّرُ شيئاً غير ما كان قدّرا
أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ويَتلو كتابــاً كالمجــرة نيِّرا
أقيمُ على التقوى وأرضى بفعلها وكنتُ من النار المخوفةِ أحذرا

ومنها في الفخر :

وإنّا لقومٌ ما تعوّد خيْلنــا إذا ما التقينا أن تحيــد وتنفرا
ونُنْكر يوم الروع ألوانَ خيلنا من الطعن حتى نحسب الَجون أشقرا
بلغنا السماء مجــدُنا وجُدودُنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرَا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حَليمٌ إذا أورد الأمرَ أصدرا

ولما سمع رسول الله (بلغنا السماء—البيت) قال له فأين المظهر يا أبا ليلى؟ قال. الجنة يا رسول الله ، قال له : إن شاء الله ، ولما أتم قصيدته ، قال الرسول: أَجدْت ، لا يفضض الله فاك ، فأتت عليه مائة سنة أو نحوها وما انفَضّت من فيه سِنٌ.

(٧) عمر بن أبي ربيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشي المخزومي، أشعر قريش وأرق أصحاب الغزل ، وأوصف الشعراء لأحوال النساء .

وُلد بالمدينة ليلة مات أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضوان الله عليه ، وكانت أمه نصرانية ، وكان أبوه تاجراً مُوسراً ، وعامـلاً لرسول الله ﷺ وللخلفاء الثلاثة من بعده ، فشب في نعيم وترف ، وقال الشعر صغيراً ، وسَلك فيه طريق الغزَل ، ووصف أحوال النساء ، وتزاوُرَهُن ومداعبة بعضهن لبعض وتعرّض للمحصنات المتعفّفات من نساء قوْمه ومن غيرهن ، فوقعن منه في بلاء عظيم ، وصِرن يخفن الخروج إلى الحجّ ، لأنه كان يتلقّاهُن بمكة ، ويترقب خُروجهن للطواف والسعي ، ويَصِفهُنّ وَهُنّ محْرِمات ، وحلمُتْ عليه رجالاتُ قريش لمكانة نسَبِه منهم ، ولترقب توبته وإقلاعه ، فلما تمادى في أمره ، وشبّب ببنات السادات والخلفاء غضب عليه عمر بن عبد العزيز ونفاه إلى جزيرة أمام مدينة مصوع ، ثم رأى أن يُكفِّر عن سيئاته بالتوبة والجهاد ، فغزا في البحر ، فاحترقت السفينة التي كان فيها ، واحترق هو أيضاً سنة ٩٣ هـ.

شعره : رقيق بلفظ رشيق ، ومعنى أنيق ، حتى قال فيه جرير هذا والله الذي أرادته الشعراء فأخطأته ، وقد سلك في الغزل طريقاً لم يَسْلكوه ، ومن قوله المشهور :

ليتَ هِنْداً أنجزتنا ما تعِدْ ... وشفَتْ أنفسنا مما نجِدْ
واستبدّتْ مرّة واحدة ... إنما العاجزُ منْ لا يستَبِدّْ
زعموها سألتْ جاراتها ... وتعرّتْ ذات يوم تَبْتَرِدْ [1]
أكما يَنعَتُني تُبصِرْنَنِي ؟ ... رِكن الله ! أم لا يقتصِدْ ! [2]
فتضاحكن ، وقد قلن لها : ... حسنٌ في كلّ عيْنٍ من تودّْ [3]
حسداً حُمّلنه من شأنها ... وقديماً كان في الناس الحسد

---

(١) تبترد : تصب الماء البارد على رأسها .
(٢) وينعتني يصفني ، عمركن الله : أذكر الله ، يقتصد : يعتدل فلا يبالغ
(٣) أي أن من تحبه تعتقد أنه حسن لدى جميع الناس .

غادة تفترُّ عن أشنبها ... حين تجلوه أقاحٍ أو برد ١
ولها عينان في طرفيهما ... حورٌ منها، وفي الجيد غَيَد ٢
قلت: من أنتِ؟ فقالت: أنا من ... شَفَّهُ الوجدُ، وأبلاهُ الكمد ٣
نحن أهل الخيفِ من أهل مِنىً ... ما لمقتول قتلناهُ قود ٤
قلتُ: أهلاً! أنتُمُ بُغيتنا ... فتسمَّين، فقالت: أنا هِنْد! ٥
إنما ضُلِّل قلبي فاحتوى ... صعْدةً في سابريٍّ تطّرد ٦
إنما أهْلُك جيران لنا ... إنما نحنُ وهم شيءٌ أحد ٧
حدثونا أنها لي نفثتْ ... عُقَداً، يا حبذا تلك العُقد! ٨
كلما قلت: متى ميعادُنا؟ ... ضحكت هند، وقالت: بعد غد!

(٨) الأخطل

هو أبومالك غِياثٌ الأخطل بن غوث التغلبي النصراني، شاعر الأمويين وأمدح ثلاثة شعرائهم المقدمين، والمتفرد بالتعمُّق بوصف الخمر دون الإسلامين، قال الشعر وهو صبي، وما لبث أن زاحم شاعر تغلب وقتئذ كعب بن جُعيل) وهاجاه وظهر عليه، ولما طلب يزيد بن معاوية قبل أن يلي الخلافة من كعب هجاء الأنصار،

(١) الغادة: المرأة اللينة؛ تفتر: تظهر، الأشنب: الفم في أسنانه ماء ورقة وعذوبة. تجلوه تكشفه، الأقاح: جمع أقحوان وهو البابونج البري من نبات الربيع له نور أبيض. البرد: ماء الغمام يسقط جامداً (٢) الحور: شدة سواد سواد العين مع شدة بياض بياضها. الجيد. العنق، غيد: نعومة (٣) شفه الوجد: أهزله الحب، الكمد: الحزن الشديد (٤) الخيف: ناحية من منى عند مكة، القود: القصاص. (٥) بغيتنا: مطلبنا (٦) ضلل: صار ضالا لا يهتدي؛ احتوى: اشتمل، الصعدة: القناة تنبت مستقيمة لا تحتاج إلى مثقف، شبه محبوبته في اعتدال قدها بها؛ السابري: الثوب الرقيق الجيد تطرد. تمشي مستقيمة. (٧) شيء أحد: أي شيء واحد. (٨) نفثت عقداً: سحرتني، والنفث النفخ، والعقد تكون من خيوط ينفث بها قصد السحر.

لتعرُّض عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري لأخته في شعره ، أبى عليه ذلك كعب ، وقال : لا أهجو قوماً نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآووه ولكنني أدُلك على الأخطل ، فبعث إليه وأمره بهجائهم ، فهجاهم بقصيدة منها :

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤُم تحت عمائم الأنصار
فدعوا المكارم لستم من أهلها وخُذُوا مساحيكم بني النجار

وبلغ الشعر كبار الأنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية ، فوعدهم بقطع لسانه ، فاستجارَ بيزيد ، فما زال بأبيه حتى عفا عنه ، ولما ولي يزيد الخلافة قرَّبه إليه ، وتابعه في ذلك خُلَفَاءُ بني أمية ، وبخاصةٍ عبد الملكُ ، إذ كان يستعين به على أعدائه ، فقربه إليه وأدناه ، وسمح له بالدخول عليه بلا إذن ، وأجزل له العطايا ، وسمّاه شاعر الخليفة .

ولما حدثت المهاجاةُ بين جرير والفرزدق ، وحُكم فيهما أيُّهما أشعرُ ؟ ؟ عرض بتفضيل الفرزدق ، فهَجاه جرير ، فرد عليه الأخطل ، وكانت الشيخوخة قد بلغت منه ، فلم يلحق جريراً ، وكان الأخطل يُقيم أزماناً بدمشق ، وأحياناً ببلاده من أرض الجزيرة ، ومات في أول خلافة الوليد سنة ١٢٥ هـ ، وقد نيّف على السبعين .

شعره : كان الأخطل أحد الشعراء الثلاثة السابقين سواهم من فحول الإسلاميين وكان مطبوعاً على الشعر ، بعيداً عن التكلف والتعمُّق فيه ، وامتاز بإجادة المديح والإبداع في معانيه ، قال يمدح بني أمية ، ويخُصُّ بشر بن مروان :

إن يحلموا عنك فالأحلامُ شيمتُهم والموتُ ساعَةَ يحمَى منهمُ الغضبُ
كأنهم عند ذاكم ليس بينهم وبين من حاربوا قربى ولا نسبُ
كانوا مواليَ حقٍّ يطلبون به فأدركوه وما ملّوا ولا لغبوا
وإن يكُ للحقِّ أسبابٌ يمد بها ففي أكفهم الأرْسانُ والسبب
هُمْ سعوا بابن عفان الإمام وهم بعد الشمّاس مَروها ثمت احتلبُوا

ومنها .

إذا أتيتَ أبا مروان تسأله وجدتَه حاضراه الجُودُ والحسبُ
ترَى إليه رِفاق الناس سائلةً من كل أوْبٍ على أبوابه عُصَبُ
يحتضرون سِجالاً من فواضِله والخيرُ محتضر الأبواب منتهب
والمطعِمُ الكومَ لا ينفكّ يعقرها إذا تلاقى رواق البيت واللهبُ
كأن جيرانها في كل منزلة قتلى مجرَّدة الأوصال تُستلبُ

ومن أفضل شعره قوله :

والناسُ همهمُ الحياةُ ولا أرى طول الحياة يزيد غير خَبالِ
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذُخراً يكون كصالح الأعمالِ

(٩) الفرزدق

هو أبو فِراس همام بن غالب التميمي الدارميّ ، أفخرُ ثلاثة الشعراء الأمويين وأجزل المقدمين في الفخر والمدح والهجاء .

وُلد سنة ١٩هـ ونشأ بين البصرة والبادية - وأتى به أبوه يوماً إلى امير المؤمنين عليّ بن ابي طالب كرم الله وجهه ، فسأله عنه ، فقال هذا ابني يُوشك ان يكون شاعراً مجيداً ، فقال له أقرئه القرآن ، فأقرأه وحفظه ، ثم رَحل إلى خلفاء بني أُمية بالشام ومدحهم ونال جوائزهم ، وأخصّ من كان يمدحه منهم « عبد الملك بن مروان » ثم أولاده من بعده ، وكان الفرزدق فوق إقذاعِه في الهجو ، وفحشه في السباب وقذف المحصنات ، يُرْمى بالفجور ، وقلة التمسك بشعائر الدين ، ثم تاب في أواخر شيخوخته على يد الحسن البصري ، وكان فيه تشيُّع يستره أيام اختلافه إلى بني أمية ، ثم كاشف به آخر حياته حتى أمام الخليفة « هشام » عندما رأى الناس تُفسح طريق الطواف بالكعبة ، مهابةً وإجلالاً « لعليّ بن الحسين » فسأل عنه كالمتجاهل لأمر ، فشق ذلك على الفرزدق ،

وأنشد قصيدته الميمية الآتية يُعَرِّف « بعلي » ويُنكر على « هشام » تجاهُله ، فحبَسَه هشام ثم أطلقه ، وعاش الفرزدق قريباً من مائة سنة ، ومات بالبصرة سنة ١١٤ هـ .

شعره : يمتاز شعر الفرزدق بفخامة عبارته ، وجزالة لفظه ، وكثرة غريبه ومداخلة بعض ألفاظه في بعض ، ولذلك يعجب به أهل اللغة والنحو ، وكان يقال (لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة). ويعتبر الفرزدق من أفخر شعراء العرب ، وقد قضت العوامل السياسية والاجتماعية ان يشتبك مع جرير في التهاجي والتسابّ حتى أفحشا وشغلا الناس بنقائضهما .

ومن جيد شعره قوله يمدح سيدنا زين العابدين (وهو علي بن الحسين) :

هذا الذي تَعرِفُ البطحاءُ وطأته والبيتُ يعرفهُ والحِلُّ والحرم
هذا ابن خيرِ عباد الله كلهم هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلم
وليس قولك : من هذا؟ بضائره ألعُرْبُ تعرف من أنكرتَ والعجمُ
إذا رأتهُ قريش قال قائلها إلى مكارم هذا ينتهي الكرمُ
ينمى إلى ذروة العز التي قصرت عن نيلها عرب الإسلام والعجمُ
يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتسمُ
بكفه خيزران ريحها عبق من كفّ أروع في عرنينهِ شمم
يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
ينشق ثوبُ الدجى من نور غرته كالشمس تنجاب عن إشراقها الظلم
من معشر حبهم دين وبغضهم كفر وقربهم منجى ومعتصمُ
إن عُدَّ أهل التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير اهل الأرض قيل هم

(١٠) جرير

هو أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفي التميمي اليربوعي ، احد فحول

الشعراء الإسلاميين ، وبلغاء المداحين الهجائين ،وأنسبُ ثلاثتهم المفْلِقين ، وهو من بني يَرْبُوع أحد أحياء تميم ، ولد باليمامة سنة ٤٢ هـ ونشأ في البادية ، وفيها قــال الشعر ونبغ ، وكان يختلفُ إلى البصرة في طلب المِيرةِ ومدح الكبراء ، فرأى الفرزدق وما أكسبه الشعر من المنزلة عندالأمراء والولاة وهوتميميٌّ مثْلُه ، ودّ لو يَسبقهُ إلى ما ناله ، وأغراه قومه به للتنويه بشــأنهم ، فوقعت بينهما المُهاجاة عشر سنين لعوامل سياسية واجتماعية ، وكان أكثر إقامةِ جرير أثناءها في البادية وكان الفرزدق مقيما بالبصرة يَملأ عليه الدنيا هجاءً وسبّاً ، فما زال به بَنو يربوع حتى أقدَموه إلى البصرة ، واتصلَ بالحجــاج ومدحه فأكرمه ورفع منزلته عنده ، فعَظُم أمره ، وشرّق شعره وغرّب حتى بلغ الخليفة عبد الملك فحسد الحجاج عليه ، فأوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى الخليفة « يزيد بن معاوية » بدمشق ليصل بذلك لى مدحه ، ومن وقتئذٍ عُــدّ من مدّاح خلفــاء بني أمية ، ومات باليمامة سنة ١١٤ هـ .

وكان في جرير على هجائه للناس عِفةٌ ودين ، وحسن خلق ، ورقة طبع

شعره : اتفق عُلماء الأدب ، وأئمة نقد الشعر ، على أنه لم يوجد في الشعراء الذين نشأوا في ملك الإسلام أبلغ من جرير والفرزدق والأخطل ، وإنما اختلفوا في أيهم أشعر ، ولكل هوًى وميْل في تقديمه صاحبه ، فمن كان هواه في رقة النسيب وجودة الغزل والتشبيب ، وجمال اللفظ ولين الأسلوب ، والتصرف في أغ اض شتى فضل « جريراً »؛ومن مال إلى إجادة الفخر ،وفخامة اللفظ، ودقة المسلك وصلابة الشعر ، وقوة أسره ، فضل « الفرزدق »؛ ومن نظر بعد بلاغة اللفظ ، وحسن الصوغ إلى إجادة المدح والإمعان في الهجاء واستهواه وصف الخمر واجتماع الندمــان عليها حكم « للأخطل ». وإن لجرير في كل باب من الشعر أبياتاً سائرة ، هي الغاية التي يُضرب بها المثل ، فيقال إن أغزل شعر قالته العربُ هو قوله :

إن العيون التي في طَرْفها حَورٌ قتلننا ثم لم يُحيين قتلانا
يصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهُنّ أضعفُ خلق الله إنسانا

وإن أمدح بيت قوله :

ألستمْ خيرَ من ركِب المطايا وأندى العالمين بُطون راح

وإن أفخر بيت قوله :

إذا غضبت عليك بنو تميم رأيت الناس كلهم غِضابا

وإن أهجى بيت مع التصوُّن عن الفُحْش قوله :

فغُضّ الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كِلابا

وإن أصدق بيت قوله :

إني لأرجو منكَ خيراً عاجلاً والنفس مولعةٌ بحبّ العاجل

وإنّ أشدّ بيت تهكماً قوله :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مرْبعاً أبشِرْ بطول سلامةٍ يا مرْبع

ومن جيّد شعره قوله من قصيدة يرثي بها امرأته ، وهي التي نُدبت بها نَوار امرأة الفرزدق :

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزُرتُ قبرَكِ والحبيب يُزارُ
ولقد نظرْت وما تمتّع نظرةٌ في اللّحد حيثُ تمكن الإحفارُ
ولتهْتِ قلبي إذ علتْني كبْرة وذوُو التمائم من بَنيك صغارُ
لا يلبثُ القُرناءَ أن يتفرّقوا ليلٌ يكرُّ عليهم ونهارُ
صلى الملائكة الذين تُخيّروا والطيّبون عليكِ والأبرارُ
فلقد أراكِ كُسيتِ أحسن منظر ومع الجمال سكينةٌ ووقارُ

(١١) الكمَيتُ

هو الشاعر الخطيب الراوية ابو المستهل الكميتُ بن زَيْدٍ الأسدي الكوفي ،

أشعرُ شعراء الشيعة الهاشمية ، ومثير عصبية العدنانية على القحطانية وُلد سنة ٦٠هـ – ونشأ بالكوفة بين قومه بني أسد – إحدى قبائل العرب الفُصحاء من مُضر ، فلُقنَ العربية ، وعرف الأدب والرّواية ، وعلم أنساب العرب وأيامها ومثالبها بمُدارسة العلم والأخذ عن الأعراب ، وكان له جدّتان أدركتا الجاهلية تقصّان عليه اخبارها وأشعار أهلها . فخرج أعلم اهل زمانه في ذلك ، وأقرّ له (حمادٌ) الراوية بالسبق عليه .

وقال الكميتُ الشعر وهو صغير ، وكان لا يُذيعه ولايتكسَّب به ، ويكتفي بحرفته (تعليم صبيان الكوفة بالمسجد) ولما حصفَ شعرهُ وقويَ أثرهُ ، ولا سيا قصائدة التي أعلن فيها تشيُّعه (لبني هاشم وآل علـيّ) أنشد الفرزدق مُستنصحاً له في أمر إذاعته إذا أعجبه فأمره بإذاعته ، فقال قصائده البليغة المطولة المسماة (بالهاشميات) التي يقول فيها من قصيدة في مدح بني هاشم :

طربتُ وماشوقاًإلىالبيضِ أطربُ ... ولا لعباً مني وذو الشيبِ يلعبُ
ولم يُلهني دارٌ ولا رَسمُ منزلٍ ... ولم يتطرّبني بنانٌ مُخضَّبُ
ولا السانحاتُ البارحات عشيّة ... أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضبُ
ولكن إلى أهل الفضائل والنُّهى ... وخيرِ بَني حوّاء والخيرُ يُطلبُ
بني هاشمٍ رهطِ النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مِراراً وأغضبُ
خفضتُ لهم مني الجناح مودّةً ... على كنفٍ عطفاه أهلٌ ومرحبُ
وما ليَ إلا آل أحمدَ شيعةٌ ... وما لِيَ إلا مذهبَ الحقِّ مذهبُ
بأيّ كتاب أم بأيةِ سُنـــة ... يُرى حبُّهم عاراً عليّ ويُحسبُ

شعره – لشعره منالتأثير السياسي والمذهبي أثر سيىء شتّتَ شمل الوحدة العربية . وتوفي سنة ١٢٦ هـ .

الرواية والرواة

ظهر الإسلام وعمدةُ العرب في ضبط علومهم وآدابهم على الحفظ والرواية فجاءهم من كتاب الله وسنة رسوله بالأمر الخطير والعِلم الكثير فكانت عنايتُهم بحفظها في الصدور أكثر من كتابتها في السطور .

ولما اتسع علم المسلمين بما أُضيف إليهما من تفسير الصحابة والتابعين ، ومن أقوالهم في الدين – تعددت طوائف الرواة للقرآن والحديث وفنون الأدب

ولما كان الإنسان عُرضة للنِّسْيان ، وأحوال الناس تختلف في الصدق والكذب تشددت الصحابة والتابعون وتابعوهم في تصحيح الرواية ، وشدة التوثق من صدق الرواة تحرُّجاً منهم أن يدْخلَ في الدين ما ليس منه .

ولما خاف سيدنا (عمر بن عبد العزيز) أن تموت السّنة الصحيحة بموت رُواتها وبما وضعه الزنادقة والشّيعة والخوارج ودسوه فيها ، أمر العُلماء بتدوين الحديث وبَقي الأمر في الشعر والأدب كما كان في الجاهلية : لكلّ شاعر راوٍ ، أو عدة رُواة ، ومن أشهر هؤلاء – هُدبة بن خشرَم راوية الحُطيئة ، وجميل راوية هُدبة وكثيّر راوية جميل ، وأبو شفقل وعُبيد أخو ربيعة بن حنظلة راوية الفرزدق ومربع راوية جرير والفرزدق معاً ، ومحمد بن سهل راوية الكميت ، وصالح بن سُليمان راوية ذي الرّمة ، وذو الرُّمة راوية الراعي .

وبَقيَ الأمر كذلك حتى أواخر هذا العصر – فاشتغل العلماء بالرّواية ، وصار الراوي منهم يروي لمئات من الشعراء والشواعر ، وإن لم يكن هو شاعراً .

وأكثر هؤلاء العلماء من الرواة أدرك العصر (عصر بني العباس) فيذكر فيه .

ومع تشدد الناس في تصحيح الراويةِ سُنةً وأدباً حدث في الشعر والخطب كثير من التصحيف والتحريف والنقص والزّيادة – ونحو ذلك .

العصر الثالث : عصر الدولة العباسية [١] من ١٣٢ ٦٥٦ هـ
أحوال اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

كان بنو أميّة شديدي التعصب للعرب والعربية ، فكان كلُّ شيء في دولتهم عربيَّ الصِّبغة وكانت جمهرة العرب مُنتشرةً في كل مكان امتدَّ إليه سلطانُها ، فلما قامت الدولة العباسية بدعوتها ، لم تجد لها من العرب أنصاراً وأعواناً ، مثل ما وجدت من الفرس و سم الأعاجم ، فاكتَسَحتْ بهم دولة بني أمية ، وأسَّست دولةً قوية ، كان أكثر النُّفوذ فيها للموالي . فاستخدمهم الخلفاء والأمراء في كل شيء من سقاية الماء إلى قيادة الجيوش والوزارة ، وابتدأ شأنُ العرب السياسيُّ يتضاءلُ من ذلك الحين شيئاً فشيئاً ، واختلطوا بالأعاجم ، وكان من المجموع شعبٌ ممتزجٌ لغة وعادةً وخلقاً ، فأثّرَ في اللغة لفظاً ومعنى وشعراً ونثراً ، كتابة وتأليفاً ، ولم يظهر ذلك بالطبع في جميع الممالك بنسبة واحدة بل كان في أواسط آسيا أظهر منه في مصر والشام ، أما حال ممالك العرب والأندُلس صدر هذا العصر فلم يبعُد كثيراً عما كان عليه في العصر الماضي ، ثم سرتْ إليها عدوى تقليدها المشَارِقة في أكثر الأمور .

---

(١) خلفاء بني العباس إلى سنة ٣٣٣ .

أبو العباس عبدالله السفاح (١٣٦/١٣٢)
أبو جعفر المنصور (١٥٨/١٣٦)
محمد المهدي (١٦٩/١٥٨)
موسى الهادي (١٧٠/ ٦٩)
هارون الرشيد (١٩٣/١٧٠)
محمد الأمين (١٩٨/١٩٣)
عبد الله المأمون (٢١٨/١٩٨)
أبو إسحق محمد المعتصم (٢٢٧/٢١٨)
أبو جعفر هارون الواثق (٢٣٢/٢٢٧)
جعفر المتوكل على الله (٢٤٧/٢٣٢)
محمد المنتصر (٢٤٨/٢٤٧)
أبو العباس أحمد المستعين (٢٥٢/٢٤٨)
أبو عبدالله المعتز (٢٥٥/٢٥٢)
محمد المهدي بالله (٢٥٦/٢٥٥) .
أحمد المعتمد على الله (٢٧٩/٢٥٦)
أحمد المعتضد بالله (٢٨٩/٢٧٩)
علي المكتفي بالله (٢٩٥/٢٨٩)
جعفر المقتدر بالله (٣٢٠/٢٩٥)
أبو منصور محمد القاهر (٣٢٢/٣٢٠)
أبو العباس أحمد الراضي (٣٢٩/٣٢٢)
إبراهيم المتقي بالله (٣٣٣/٣١٩)

ويمكن إرجاع جميع هذه التغيرات إلى ثلاثة أمور؛ الأول: ما يتعلق بالأغراض التي تؤديها اللغة. الثاني ما يتعلق بالمعاني والأفكار الثالث: ما يتعلق بالألفاظ والأساليب.

أغراضُ اللغة

لمّا قامت الدولة العباسية وتشبّه الخلفاء بملوك الفُرْس في أكثر أمور السياسة والمعيشة، وحاكتهم العامة في ذلك بتقليد أمثالهم من طبقات الأعاجم، تناولت اللغة في المشرق أغراضاً لم تعهد فيها من قبلُ، بنقل علوم تلك الأمم وآدابها وعاداتها وطرق معيشتها.

ثم تناولت هذه الأغراضَ في الغرب بعدئذٍ بفرق يسير، فكان من تلك الأغراض ما يأتي:

(١) تدوين العلوم الشرعية واللسانية والعقلية، ولم يُدَوَّن في صدر الإسلام من ذلك إلا نذرٌ يسير وكذلك الترجمة من اللغات الأجنبية إلى العربية.

(٢) تأديةُ مقاصد الصناعات المختلفة: وخاصة بعد دخول العرب في غمار الصُّنّاع وبعد تعرُّب الأعاجم.

(٣) تأديةُ المقاصد التي استدعاها الانغماسُ في الترف بلذائذ الحضارة التي جرت فيها الأمم عصرَ الدولة العباسية إلى أمد بعيد، أو اقتضاها نظام الملك، والدفاع عنه كالإمعان في وصف الأشياء النفيسة ممّا لم يُعرف للعرب في صدر الإسلام أو عُرِف وكان قليلاً ممقوتاً صاحبُهُ - كوصف البحر والأساطيل الحربية والمعارك البحرية - وامتاز بأكثر ذلك المغربُ والأندلسُ كما امتازت الأندلس بالإجادة في وصف مناظر الطبيعة، ومحاسن الوجود لملاءمة بيئتها لذلك، وكادت تلحق بها في الوصف صقلية وإفريقية إبان ازدهائها.

(٤) تأديةُ مقاصد أنواع الخلاعة والسّخرية، مما قلّ نظيره في صدر الإسلام.

(٥) المحاضرة والمناظرة والبحث والجدل وتدريس العلوم.

المعاني والأفكار

إنّ ما حدث في مشارق الممالك الإسلامية ومغاربها ، أثنـاء العصر العباسي من الانقلابات السياسية والاجتماعية ، كان له نتيجة ظاهرة في الحركة الفكرية للمتكلمين بالعربية ؛ ظهر ذلك في عباراتهم وأشعارهم بصور مختلفة ، فمنها :

(١) ازديادُ شُيوع المعاني الدقيقة ، والتصورات الجميلة ، والأخيلة البديعة .

(٢) التعويلُ على القياس والتعليل في الأحكام الفكرية ، بالإكثار من الحجج والبراهين العقلية ، وانتحاء مذاهب الفلاسفة في الشعر والكتابة والتدريس ، ولا سيما بعد عصر الترجمة ، وأكثر ما كان ذلك بالمشرق ، وقلما عُنيَ به أهل المغرب .

(٣) التهويلُ والغلو في التفخيم المقتبس في المشرق من اللغة الفارسية والساري بعضُه بالعدوى إلى أهل المغرب والأندلس .

الألفاظ والأساليب

غلب على عبارة اللغة العربية في هذه المدة أمران عظيمان : السُّهولة ، والمحسنات البديعية ، ويشمل ذلك ما يأتي

(١) انتقاءُ الألفاظ الرشيقة السهلة ، وقلة الحاجة إلى الارتجال .

(٢) ازديادُ الميل إلى استعمال ألفاظ القرآن ، والاقتباس منه والاستشهاد به .

(٣) الإكثار من ألفاظ المجاز ، والتشبيه ، والتمثيل ، والكناية ، والمحسنات اللفظية .

(٤) التوسُّع في إدخال ألقاب التعظيم على أسماء الخلفاء والأمراء والعظماء .

(٥) تفاقمُ الخَطْب في استعمال الكلمات الأعجمية في كثير من الأشياء .

(٦) وضع اصطلاحات العلوم والفنون والصناعات وإدارة الحكومة وغيرها .

(٧) التأنق في صَوْغ العبارات وتوثيق الربط بينها والميل إلى استعمال السَّجْع .

(٨) التطرف إلى غاية حَدّي الإطناب والإيجاز ، ولكل منهما مَقام

(٩) حدوث لغة تأليفية لتعليم العلوم تُقاسُ بمعيار المنطق لا بمعيار البلاغة .

وإذاً كانت اللغة إما نثراً ، وإما شعراً .

والنثر : مُحادثة ، وخطابة ، وكتابة ، فاحفظ ما يتلى عليك .

النثر – المحادثة – أو « لغة التخاطب »

إن لغة التخاطب بين الخاصة من العرب في أواخر العصر الماضي كانت العربية الفصيحةَ الخاليةَ من اللحن ، إلا من آحاد عُيّروا به ، وإن لغةَ العامة والسوقة من العرب المختلطين بالعجم هي العربية المشوبة بشيء من اللحن ، ولغة المتعرّبين من العجم تَقِل عن هذه الفصاحة ، وتزيد عليها في اللحن بمراتب مختلفة .

فلما تمَّ امتزاجُ العرب بالعجم « عصرَ الدولة العباسية » تكونت بين العامة في البلاد التي تكثر فيها جَمْهرَةُ العرب لغاتُ تخاطب علمية ، إلا بين أهــل جزيرة العرب فلم يزل تخاطبُهم باللسان الفصيح إلى أواسط القرن الرابع ، وبَقيت لغاتُ التخاطب في البلاد التي تقل فيها جاليتُهم هي اللغات الوطنية الأعجمية ممزوجة ببعض الألفاظ العربية التي أدخلها عليها الإسلام .

وخاف الخلفاء والخاصة من هَوْل تغلب العامية على أبنائهم ، وأشفقوا أن تستطيلَ على الفصيحة ، فيستغلقَ على المسلمين فهم الكتاب والسنة ، وهمـا كل الدين ، فحرضوا العلماء على تدوين اللغة والإكثار من العناية بضبط النحو وفنون البلاغة ، ولكن ذلك كله لم يوقف تيار العاميةِ الزاخر ، واستمر في طغيانه إلى أن غلبَ في النصف الأخير من عصر هذه الدولة على جميع لغات التخاطب ، حتى لغة الخلفاء وعلماء العربية أنفسهم ، وأصبح لكل بلادٍ عربية لغة تخاطب عامية خاصة بها ، ولكن لم تصبح العامية لغةَ عـلمٍ وأدبٍ ، كما وأن ذلك لم يكن طويل الأمد .

الخطابة والخطباء

لما كان قيام الدولة العباسية في المشرق ، والإدريسية في المغرب الأقصى ،

والأموية الثانيــة في الأندلس ، من الأمور التي ينشأ عنهــا كثيرٌ من الانقلابات السياسية والمذهبية والاجتماعية ، وكان ذلك يستدعي تأليف العصابات ، ودعوة الناس إلى التشيُّع لزعمـــاء لأحزاب ، كانت دواعي الخطابة متوافرة لتوافر أسبابها ؛ فكان بين قُوّاد هذه الدول ودُعاتها وخلفائها ورؤساء وُفودها خطباء مصاقعُ . ثم لما فترت هذه الدواعي باستقرار الدول ، واشتدَّ اختلاطُ العرب بالأعاجم ، وتولى كثير من الموالي قيادة الجيوش وعِمالةَ الولايات والمواسم ، ضَعُفَ شأن الخطابة لضعفِ قدرتهم عليها . فلم يَمْضِ قَرْنٌ ونصفٌ من قيام تلك الدول حتى بطل شأن الخطابة إلا قليلاً في المغرب أيام الحفل وقدومُ الوُفود ، وبَقيت الخطابة قاصرة على خطبِ الجمعة والعيدين والمواسم وخطب الزواج ونحو ذلك وقلَّ فيها الارتجالُ ، أو عُدِم جُمْلَةً ، وحــل محــل الخطابة في الأمور السياسية نشر المنشورات ، وفي الأمور الدِّينيــة مجالسُ الوعظ والتدريس في المساجد والمدارس ، واشتهر في صدر الدولة العباسية جملة خطباء ، أشهرهم : داوُد بن عليّ ، وشبيبُ بن شيبة .

داود بن علي

هو داوُد بن علي بن عبدالله بن عباس ، خطيبُ بني العباس ، وأحدُ مؤسسي دولتهم . نشأ هو وإخوته – وكانوا اثنين وعشرين رجلاً – في قرية الحُمَيمة من أعمال عَمَّان – وكان الوليدُ بن عبــد الملك أجلىَ « علي بن عبد الله بن عباس » وأهل بيته إليها – سنة ٩٥ هـ غضباً عليه .

وكان داوُد أحدَ النابغين من إخوته وكان بَليغهم ولسانَهم وأخطبهــم في وقته ، وعاجلتــه منيَّته قبل أن يستطير سلطانه في الدولة . ولاّهُ أبو العباس عقب بيعته بالكوفة ولاية الكوفة وسوادَها ، ثم ولاّه إمارة الحج في هـــذه السنة ، وولاّه معها ولاية الحجاز واليمن واليمامة ، فقتل من ظفر بهم من بني أمية في مكة والمدينة سنة ١٣٢ هـ – وهو أول موسم مَلَكه بنو العباس – وخطبهم الخُطْبة الآتية وهي :

« شكراً شكراً ، إنا والله ما خرجنا لِنَحْفِر فيكم نهراً ، ولا لِنبني فيكم قصراً . أظَنَّ عدوُّ الله أن لَنْ نَقْدِرَ عليه ؟ أن رُوخي له من خطامه ، حتى عثرَ في فضل زمامه ، فالآن حيثُ أخذ القوسَ باريها وعادت القَوْسُ إلى النزعة ، ورجع المُلْكُ في نصابه في أهل بيت النبُوَّة والرحمة ، والله لقد كنا نتوجعُ لكم ونحن في فُرُشِنا ، أمِنَ الأسود والأحمرُ ، لكم ذمة الله ، لكم ذمة رسول الله ﷺ ، لكم ذمة العباس ، لا وربِّ هذه البنية ـ وأومأ بيده إلى الكعبة ـ لا نهيّج منكم أحداً » ، ثم ذهب إلى المدينة ، ومات بها سنة ١٣٣ هـ .

شبيب بن شيبة

هو شبيبُ بن شيبة بن عبد الله المِنقري التميمي ، خطيب البصرة ، ونشأ بها ، وامتاز بنَبالة نفس وسخاء كف ، وحُسْن تواضع ونزاهة لسان،كما امتاز بخطبه القصيرة البليغة ، القريبة من حد الإعجاز . قال الجاحظ : يقال إنهم لم يَرَوْا خطيباً كشبيب بن شيبة ، فإن ابتدأ بحلاوة ورشاقة ، وسهولة وعذوبة ، فلم يَزَل يزدادُ منها حتى صارَ في كلِّ موقف يَبلغ بقليل الكلام ما لا يَبلغه الخطباء المصاقعُ بكثيره ، وقد يُطوِّل حتى يقول فيه الراجز :

إذا غَدَتْ سَعْدٌ على شبيبها   على فتاها وعلى خطيبها
مِنْ مطلَعِ الشمس إلى مغيبها   عجبْتَ مِن كثرتها وطيبها

وعرف شبيبٌ أبا جعفر المنصور قبل خِلافته ، ثم اتصل به بعدها ، فجعله في حاشية وليِّ عهده « المهدي » وبقي كذلك حتى وُليَ المهدي الخِلافة ، فصار من خيرة سُمّاره وجُلسائه ، إلى أن مات في حدود سنة ١٧٠ هـ

ومن خطبه القِصار،ما عزّى به المهدي يوم ماتت ابنته « البانوقة » وجزع

عليها جزعاً شديداً – أعطاك اللهُ يا أمير المؤمنين على ما رُزئت أجراً،وأعقبك صبراً ولا أجهد اللهُ بلاءك بنقمة ، ولا نزع منك نعمةً ، ثوابُ الله خيرٌ منها ، رحمة الله خيرٌ لها منك ، وأحق ما صُبرَ عليه ما لا سبيل إلى رده .

الكتابة – خطية وإنشائية

الكتابة الخطية : تنوع في هذا العصر الخط الكوفي إلى أنواع أربَتْ على خمسين نوعاً : – ومن أشهرها – المحرّر ، والمشجّر ، والمربع ، والمدوّر ، والمتداخل وبقي مستعملا في المباني والسكة إلى حدود الألف . ثم نسي جملة وقد جددت منه أنواع في عصرنا ؛ أما تاريخ خطنا المستعمل الآن فحدث في آخر الدولة الأموية أن استنبط (قطبةُ) المحر ر من الخط الكوفي والحجازي خطاً هو أساس الخط الذي يكتب به الآن ، واخترع القلم الجليل الذي يكتب به على المباني ونحوها وقلم الطومار (الورقة الكبيرة) وهو أصغر أنواع الجليل وحسّن عمله غيره من كتاب صدر الدولة العباسية حتى ظهرَ إبراهيم الشّجري ، وأخوه يوسف من كتاب أواخر القرن الثاني فولّدَ إبراهيم من الجليل قلم الثلثين وولد يوسف من الجليل القلم الرياسي ، وهو قلم التوقيع ، وعن إبراهيم أخذ الأحولُ المحرر من (صنائع البرامكة) واخترع قلم النصف

هذه هي أشهر الخطوط وقد تولدَ منها نحو ٢٠ خطاً يختص كلٌ منها بغرض خاص ، واتفقوا على أن طول الألف يعتبر معياراً لارتفاع بقية الحروف . وأن يكون طول الألف مربعاً مقدار قطة القلم

وعن الأحول – أخذ مهندس الخط الأعظم ،الوزير (ابو علي محمد بن مقلة) وأخوه أبو عبدالله الحسن المتوفى سنة ٣٣٨ هـ – وهما اللذان تمّ على أيديهما هندسة خط النسخ والجليل وفروعه على الأشكال التي نعرفها الآن – وأمّا العمل الذي بدأ به (قطبة)فهندسا الحروف ، وقدّرا مقاييسها وأبعادها وضبطاها

ضبطاً محكماً ، واخترعا له القواعد — وعن الوزير ابن مُقلة أخذ أبو عبدالله بن أسد القارىء المتوفى سنة ٤١٠ هـ وعنه أخذ أبو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البوّاب — المتوفى سنة ٤١٣ هـ — وهو الذي أكمل قواعد الخط واخترع عدّة أقلام — وإليه انتهت الغاية . وكل من جاء بعده فهو تابع لطريقته كأمين الدين ياقوت الملكي المتوفى سنة ٦١٨ هـ — كاتب السلطان ملكشاه السلجوقي — أما الأندلسيون والمغاربة فلم يعبأوا بهذا الاصطلاح وبقوا يكتبون على طريقة الخط الحجازي إلى الآن بنوع من التعديل — واخترع الجليل الشكل المستعمل الآن بأن كتب الضمة واواً تكتبُ فوق الحروف ؛ والفتحة ألفاً ، والكسرة ياء والشدّة رأس شين ، والسكون رأس خاء وهمزة القطع رأس عين ، ثم اختزل شكلها وزيد عليها حتى آلت إلى الشكل المعروف الآن ، وهاك ترجمة الخطاط المتفنن المشهور :

أبن مُقلة

هو الوزيرُ أبو عليٍّ محمد بن علي بن الحسن بن مُقلة إمام الخطاطين . وأحد كبار الكتّاب البارعين ، أخذ الخط عن الأحول المحرّر صنيعة البرامكه ، وتم على يديه ويدي أخيه الحسن نقلُ الخط من الكوفي إلى الشكل المعروف في زماننا وكان ابن مقلة يتولى في أوّل أمره بعض أعمال فارس ، يجبي خَراجَها ، وتنقلتْ به الأحوال إلى أن استوزره الإمام المقتدر بالله سنة ٢١٦ هـ — ثم كاد له أعداؤه عنده فقبض عليه سنة ٢١٨ هـ ، ونفاه الى فارس — ثم وزر للرّاضي فوشى به أعداؤه عنده فقبض عليه وعزل — ثم أطمعه نحسهُ أن يكيد لابن رائق أمير الأمراء ببغداد عند هذا الخليفة ، فقبض عليه ابنُ رائق وقطع يده اليمنى ثم عاد فقطع لسانهُ أيضاً حتى مات سنة ٢٢٨ هـ — ومن قوله في تلك الحوادث :

إذا ما مات بعضكَ فابكِ بعضاً   فإنّ البعض من بعض قريبُ

وقوله :

مـا سئِمْتُ الحيــاةَ لكن توثقت بأيمانهم فبـانتْ يميني
بِعتُ ديني لهم بدُنياي حتى حرموني دُنيـاهمو بعد ديني
ولقدحُطْتُ ما استطعتُ بجهدي حفظ أرواحهم فـما حفظوني
ليس بعـدَ اليمـين لذّةُ عيش يا حيـاتي بانت يميني فبيني

الكتابة الانشائية في الرسائل الديوانية والاخوانية

كانت كتابة الرسائل في أوائل حُـكم بني العبّاس جارية على نظام كتابتها في أواخر عهد بني أميّة ، سالكة الطريق التي سلكهـا (عبد الحميد . وابن المقفع ، والقاسم بن صبيح ، وعِمارةُ بن حمـزة ، ونظراؤهم) من العناية بجعل عبارتها جزلة بليغة متناسقة الوضع والأسلوب ، لا يقصد بهـا إلا إفهامُ المعنى الجيد بوضوح وبلاغة وقوة حُجة ،غير منظور فيها إلى زُخرُف اللفظ ومحسناته – وبقيت كذلك بل زادت حُسناً وجمالاً ومُراعاة لمقتضى الحال إلى أوائل القرن الرابع ثم أخذت الصناعات اللفظية تغلبُ عليها تدريجياً بتضاؤل ملكة البلاغة في الكتاب وتقاصر هممهم عن استيفاء أداتها لتغلب الأعاجم من الديلم والبُوَيهيين والترك السلجوقيِّين على سُلطان الخلفاء في الشرق ، وتغلب البربر على شماليّ أفريقية والأندلُس في الغرب ، فلم يعدْ في الملوك والأمراء من يعنيهم أمر العربية وبلاغتها . وما زالت كذلك حتى سقطت الدولة العباسية على أيدي الأعاجم من التتار فكان ذلك عصر ابتداء اضمحلال الكتابة ، واضمحلال اللغة في الجملة .

الكتّاب

كان أكثر كتاب المشرق في هـذا العصر ، من سلالة فارسية أو سوادية ، بلغوا بحذقهم سياسة الملك ونبوغهم في البلاغة أن ارتقوْا عند خلفـاء العباسيين إلى مرتبة الوزارة – وأول من ارتقى منهم إليها هو أبو سلمة الخلالُ وأشهر من

بلغ نفوذُه وسلطانهُ مبلغاً زاحم فيه الخليفة ، يحيى بن خالد بن برمك، وابناه جعفرٌ والفضلُ ثم محمدُ بن الزيات في زمن المعتصم ، والواثق) وكان كتاب الأندلس والمغرب أكثرهم من سلالة عربية ، ومن أشهر كتّاب هـذا العصر في الشرق ، ابن المقفع، ويحيى بن خالد بن برمك، وابناه جعفر والفضل، وإسماعيل ابن صبيح ، وعمرو بن مسعدة ، وأحمد بن يوسف ، وابن الزيات ، والحسن بن وهب ، وعلي بن الفرات ، وابن مُقلة، وابن العميد، والصاحب بن عبّاد، وأبو بكر الخوارزمي ، والبديع ، والصابي ، والعماد الكاتب ، والقاضى الفاضل) .

ومن أشهر كتّابه في الأندلس (ابنُ شهيد، وأبو المطرف بن عميرة، وابن زيدون ، ولسان الدين بن الخطيب) .

ابن المقفّع

هو محمد بن عبدالله بن المقفع ـ أحد فحول البلاغة ، و ثني اثنين مهدا للناس طريق الترسل ورفعا لهم معالم صناعة الإنشاء ـ وأولهما (عبدُ الحميد) .

منشؤه ـ نشأ ابن المقفع بين أحياء العرب . فكان أبوه (داذَوَيْه) المقفع الفارسي يعمـل في جباية الخراج لوُلاة العراق من قبل بني أمية ، وهو على دين المجوسية ثم أسلم في آخر عمره ، ووُلد له ابنه هـذا سنة ١٠٦ هـ ـ وسمّاه (رَوْزَبَةَ) فنشأ بالبصرة وهي يومئذ حلبة العرب ومُنتدى البلغاء والخطباء، والشعراء فكان لكل ذلك ـ فوق ذكائه المفرط وتأديب أبيه له ـ أعظمُ أثر في تربيته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية ، وعلمائها أودبائهـا والمترجمين إليها ، وقد أسلم بمحضر من الناس وتسمّى (عبد الله) وتكنى بأبي محمد .

أخلاقه وبلاغته ـ وكان نادرة في الذكاء ، غاية في جميع علوم اللغة، والحكمة وتاريخ الفرس مُأدباً متعففاً قليل الاختلاط إلا بمن على شاكلته ، كثير الوفاء لأصحابه .

وكان أمة في البلاغة ورصانة القول وشرف المعاني إلى بيان غرض وسهولة

لفظ ، ورشاقة أسلوب ، ولا توصفُ بلاغته بأحسن ممّا وصف هو البلاغــة ، حيث يقول (البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهلُ ظنَّ أنه يحسنُ مثلها) .

ومن رسائله أنه عزى بعضهم فقال :

(أما بعدُ) فإن أمر الآخرة والدُّنيا بيد الله ، هو يدبّرهما ويقضي فيهما ما يشاء لا رادّ لقضائه ، ولا مُعقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمع أحدٌ من خلقه في خُــلد الدنيا ، ووقّت لكل شيء ميقات أجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه إلا وهو مُستيقنٌ بالموت ، لا يرْجو أن يخلصه من ذلك أحــد ، نسأل الله تعالى خير المنقلب ؛ وبلغني وفاة فلان ، فكانت وفاتــه من المصائب العظام التي يحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه مُنقلبنا ومعادُنا وعليه ثوابنا .

فعليكَ بتقوى الله والصبر وحُسن الظن بالله ، فإنه جعل لأهل الصبر صلوات منهُ ورحمة ، وجعلهم من المهتدينَ .

وقد ترجم كتباً عديدة من أشهرها كتاب (كليلة ودمْنة) وقيل إن هــذا الكتاب من وضع ابن المقفـــع ــ وهو قول مقبول لا بأس به ــ وله كتاب (الأدب الكبير) و (الأدب الصغير) و (الدُّرة اليتيمة) وقتله والي البصرة سفيان بن مُعاوية سنة ١٤٢ هـ لاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام بترجمة كتب الزندقة .

إبراهيم الصُّولي

هو أبو إسحق ابراهيم بن العباس بن محمد بن صول ، كاتب العراق ، وأشعر أصحاب المقطعات ، نشأ ببغداد ، فتلقى العلم والأدب عن أئمة زمانه ، واشتغل بالشعر في حداثته ، فبرع فيه ، وتكسّب به ، ورحل إلى العُمال والأمراء يمدحُهم ويستميح جَدواهم ، ثم قصد الفضل بن سهل وزير المأمون أيام مُقامه معه

بخراسان ، ومدحه فوهب له عشرة آلاف درهم ، وجعله الفضل كاتباً لأحد قواده وبقي يتنقل في أعمال النواحي والدواوين حتى كان زمن الواثق عاملاً على الأهواز ، فتحامل عليه وزيره ابن الزيات ، فعزله وسجنه بها ، فكتب إليه يستعطفه ، فلم يزدد بذلك إلا جفاء وغلظة ، ثم أطلع الواثق على ذلك فأطلقه وتولى ديوان الضياع والنفقات في خلافة المتوكل ، ومات سنة ٢٤٢ هـ ومن رسائله تعزية عن لسان المنتصر بالله إلى طاهر بن عبدالله مولى أمير المؤمنين .

« أما بعد » تولى الله توفيقك وحياطتك ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك ؛ إن أفضل النعم نعمة تلقيت بحق الله فيها من الشكر ، وأوفر حادثة ثواباً حادثة أدي حق الله فيها من الرضا والتسليم والصبر ، ومثلك من قدم ما يجب لله عليه في نعمة فشكرها ، وفي مصيبة فأطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن إسحاق مولى أمير المؤمنين ـ عفا الله عنه ! ـ قضاءه السابق والموقع ، وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين ـ أدام الله عزه ! ـ وتقديم ما يقدم مثله أهل الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاض وقدمه موفق ، فليكن الله عز وجل وما أطعته به وقدمت حقه أولى بك من الأمور كلها ، فإنك إن تتقرب إليه في المكروه بطاعته ، يحسن ولايتك في توفيقك لشكر نعمه عندك .

ابن العميد

هو الأستاذ الرئيس الوزير أبوالفضل محمد بن الحسين العميد ، كاتب المشرق وعماد ملك آل بويه وصدر وزرائهم ، نشأ شغوفاً بمعرفة العلوم العقلية واللسانية فبرع في علوم الحكمة والنجوم ، ونبغ في الأدب والكتابة وابتدع طريقة الشعر المنثور ، حتى قيل فيه (بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد) ثم رحل عن أبيه إلى آل بويه ، وتقلد شريف الأعمال في دولتهم ـ إلى أن تولى وزارة

ركن الدولة سنة ٣٢٨ هـ فساسَ دولتَه ووطد أركانها، وتَشَبَّه بالبرامكة ففتح بابه للعلماء والفلاسفة والشعراء والأدباء، وكان يشاركهم في كل ما يعلمون إلا الفقه، وما زال في وزارته محَطَّ الرِّحال، وكعبة الآمال حتى توفاه الله تعالى سنة ٣٦٠ هـ.

ومن رسائله إلى أبي عبدالله الطبري: كتابي إليك، وأنا بحال لو لم يُنغِّصْها الشَّوْق إليك، ولم يُرَنق صفوها النزوع نَحْوَك، لعَدَدْتها من الأحوال الجميلة، وعَدَدْتُ حظي منها في النِّعم الجليلة، فقد جَمَعَتْ فيها بين سلامة عامة، ونِعْمة تامّة، وحَظيتُ منها في جِسْمي بصلاح، وفي سَعْيي بنجاح، لكن ما بَقي أن يَصفو لي عَيش مع بُعْدي عنك، ويَخلوَ ذَرْعي مع خُلوِّي منك، ويَسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك، وكيف أطمع في ذلك وأنتَ جُزْءٌ من نفسي، وناظِمٌ لشَمْل أُنسي، وقد حُرِمْتُ رُؤْيَتَك، وعَدِمتُ مشاهَدَتك، وهل تسكنُ نفس مُتشَعِّبة ذات انقسام، ويَنفَعُ أُنسُ بيتٍ بلا نظام، وقد قرأت كتابك، جَعَلني الله فِداءَك، فامتلأتُ سُروراً بملاحظة خَطِّك، وتأمُّل تَصرُّفك في لفظك

وما أقرِّظهما فكل خصالك مقرظ عندي، وما أمْدَحُهُما، فكل أمْرِكَ مَمْدوحٌ في ضميري وعَقْدي.

بقية خلفاء العباسيين

عبد الله المستكفي بالله	(٣٣٣/٣٣٤)	المنصور الراشد بالله	(٥٢٩/٥٣٠)
القاسم المطيع لله	(٣٣٤/٣٦٣)	محمد المقتفي لأمر الله	(٥٣٠/٥٥٥)
أبو بكر الطائع لله	(٣٦٣/٣٨١)	يوسف المستنجد بالله	(٥٥٥/٥٦٦)
أحمد القادر بالله	(٣٨١/٤٢٢)	حسن المستضيء بأمر الله	(٥٦٦/٥٧٥)
عبد الله القائم بأمر الله	(٤٢٢/٤٦٧)	أحمد الناصر لدين الله	(٥٧٥/٦٢٢)
عبدالله المقتدي بأمر الله	(٤٦٧/٤٨٧)	محمد الظاهر بامر الله	(٦٢٢/٦٢٤)
أحمد المستظهر بالله	(٤٨٧/٥١٢)	منصو المستنصر بالله	(٦٢٣/٦٤٠)
فضل المسترشد بالله	(٥١٢/٥٢٩)	عبدالله المستعصم بالله	(٦٤٠/٦٥٦)

وأرجو أن تكون حقيقةُ أمرك مُوافِقةً لتقديري فيك ؛ فإن كان كذلك وإلاّ فقد غطى هَواك وما أُلقي على بَصَري .

الصاحب بن عباد

هو كافي الكُفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحبُ بن عَبَّاد ، وزيرُ آل بُويه وكاتبُهم ، وُلِدَ سنة ٣١٦ هـ بطالقان قَزْوين ، وتعلَّمَ العلم والادب من أبيه ، ثم اتَّصَل بابن العَميد ، فلزمَ صُحْبَتَه ، وأخذ عند الأدب ، وتولى له كتابة خاصَّته ، ثم تنقَّلت به الأحوال في خدمة ملوك بني بُويَه ، فكان وزيراً لمؤيد الدولة ، ثم لأخيه فخر الدولة ، وله في ملكها اليَدُ المطلقة ، والأمرُ النافذ حتى مات سنة ٣٨٥ هـ .

ويُعَدّ ابن عَبَّاد في الكتابة ثاني ابن العميد في حَلبته ، وأبلغَ من سلك طريقته غير أنه أولع بالسجع والجناس ، ولا يعرف بعدهما من بلغ بشرف العلم والأدب مبلغهما ، ولا حلّ من شرف الملك والسلطان بمهنة الكتابة منزلتهما ،ومن رسائله ما كتب به إلى بعض السادة ، وقد أهدى إلى ابن عَبّاد مُصْحفاً .

ألبرُّ، أدام الله السيد، أنواعٌ ، تطولُ به أبواعٌ ، وتقصُر عنه أبواع ،فإن يكن فيها ما هو أكرم مَنصباً ، وأشرف منسباً ، فتحفةُ السيد ، إذ أهدى ما لا تشاكله النِّعَمُ ، ولا تُعادِله القِيَمُ : كتابَ الله وبيانه ، وكلامه وفُرقانه ، ووَحْيَهُ وتنزيله وهُداه وسبيله ، ومعجزةَ رسول الله ﷺ ودليلهُ ، طبع دون معارضة على الشِّفاه وختَمَ على الخواطر والأفواه ، فقصر عنه الثقلان ، وبقي ما بقي الملوان ، لائحٌ سراجه ، واضحٌ منهاجُه ، منيرٌ دليله ، عميقٌ تأويله ، يقصم كلّ شيطان مَريد ، ويذل كلّ جبار عنيد ، وفضائلُ القرآن لا تُحصى في مُطَوَّلات الأسفار؛ فأصِفُ الخط الذي بهر الطرف،وفاق الوصف، وجمع صحة الأقسام ، وزاد في نَخْوةِ الأقلامِ ، بل أصفه بترك الوصف فأخباره

آثاره، وعينه فُراره ، وحقاً أقول إني لا أحسَبُ أحداً ما خلا الملوك جمع من المصاحف ما جمعت وابتدع في استكتابها ما ابتدعت ، وإن هذا المصحف لزائد عن جميعهم زيادة الفرع على الغرّة ، بل زيادة الحجّ على العُمرة

أبو بكر الخوارزمي

هو أبو بكر محمد بن العبّاس الخوارزْميّ، الكاتب الشاعر اللّغوي الأديب الرحالة، ولد بخُوَارزْم سنة ٣٢٣ هـ ونشأ بها، وكان ضليعاً من كلّ فن من فنون العربية ، وخاصّة الكتابة والشعر ، جاب الأقطار ، ودخل الأمصار من الشام إلى أقصى خراسان، في استفادة العلم والأدب وإفادتهما ، وكان كثير الحفظ للشعر غزير مادة اللغة .

وتقلب الخوارزمي في خدمة كثير من الملوك والأمراء والوزراء حتى ألقى عصا التّسيار بمدينة نيسابور، وطاب عيشه بها إلى أن مُنيَ في آخر أيامه بمساجلة بديع الزمان الهَمَذاني ومُناظرته ومُناضلته، وأعانه عليه قوم من أعيان البلدة ووجوهها ، فانخذل الخوارزمي انخذالاً شديداً ، وكسف بالهُ ، ولم يَحلْ عليه الحول حتى مات سنة ٣٨٣ هـ .

وكان الخوارزمي ممن يَجري على طريقة ابن العميد في الكتابة مُتوخّياً جزالة الألفاظ ، محتفلاً بصحة المعاني مع مَيْل فيه إلى الغريب ، وتقدم له كثير من الرسائل .

بديع الزّمان الهمذانيّ

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب المترسّل ، والشاعر المبدع.

منشؤه ، نشأ بهمَذان ، ودرسَ العربية والأدب ، ونبغ فيهما ، وضرب في الأرض يتكسّب بأدبه ، ثم أقام بنيسابور مدّة أملى بها أربعمائة مقامة ، بلفظ رشيق وسجع رقيق ، وعلى منوالها نسجَ الحريري ، ثم شجر بينه وبين

الخُوارزْميّ ما كان سبباً في هبوب ريحه، وبعد صيته، إذ لم يكن في الحُسْبان أن أحداً يجترىء على الخوارزمي .

وبموت الخوارزمي خلا له الجوُّ عند الملوك والأمراء، فجوَّل في حواضرهم، ثم استوطن هَراة ، وصاهر أحد أعيانها العلماء ، فحسنت حاله ، ونعم باله ، ولكن المنيَّة عاجلته وهو في سن الأربعين سنة ٣٩٣ هـ، وتقدم له كثير من الرسائل والمقامات المشهورة .

ابن زيدون

هو الكاتبُ الشاعرُ ذو الوِزارتين أبو الوليد أحمد بن عبدالله المشهور بابن زَيدون المخزومي الأندُلسي ، ولد سنة ٣٥٤ هـ ، ونشأ في مدينة قرْطبة ، وتأدَّب على كبار أئمتها ، وقال الشعر وأجاده ، ولمَّا نَبُه شأنه بين شعراء قرطبة ، اتَّصَل بأبي الوليد بن جَهْور أحد ملوك الطوائف فحَظي عنده ومدحه حتى أصبحَ لسان دولته الناطقَ ، وحامها المسلول ، فأفسد أعداؤه ما بينه وبين ابن جَهْور ، فاعتقله ومكث في محبسِه مدَّةً استشفع فيها إليه بقصائدَ أبدَعها ، ورسائل استنفدَ فيها جَهْده ، فما ألانتَ له قلباً ، فأعمل الحيلةَ في فراره من سجنه ، وخلَص إلى المعتضد بن عَبّاد ملك إشبيليةَ إذ كان أشدَّ ملوك الطَّوائف رغبةً فيه ، وأكثرهم تمسُّكاً بالأدباء ، فألقى إليه مقاليدَ وزارته ، وأصبح صاحبَ أمره ونهيه، ولمّا مات المعتضدُ وخلَفه ابنه المعتمدُ كان له كما كان أبوهُ ، وأغدق عليه برَّه ونعمته .

ومكث ابن زيدون على هذه الحال حتى مات بإشبيلية سنة ٤٦٣ هـ .

القاضي الفاضل

هو أبو علي عبد الرحيم البيْساني اللخْمي، ولد بمدينة عَسْقلان سنة ٥٢٩ هـ، وتعلم على أبيه وغيره ، قدِم مصرَ وهو شابٌّ ، وتولى رئاسة ديوان الإنشاء في أواخر الدولة الفاطميّة .

وتعلمّ في ديوان ابن حـديد قاضي الاسكندرية ، وظهر فضله فيما كان يرسله إلى القاهرة من الرسائل فاستُقدِم أيامَ الظافر إليهـا وكان من كتّاب ديوانه ، ولازم خدمة أكابر القضـاة والكتّاب في الديوان وأخذ عنهم ، وحـاكاهم بل فاقهم فصـاحة وبلاغة لسعة إطلاعه ، وغزارة مادته وسرعة بديهته ، وصفـاء خاطره .

ولما سقطت الدولة الفاطمية تولى وزارة صلاح الدين بن أيوب ، وكان يتردّد بين مصر والشام في الحروب الصليبية ، ودبّر أحسنَ تدبير – وبقي في الوزارة حتى مات صلاح الدين ووَزرَ لابنه العزيز على مصر ، ثم وزر من بعده لأخيه ، ومات سنة ٥٩٦ هـ. ومن رسائله القصيرة رسالة كتبها على يد خطيب عيذابَ إلى صلاح الدين يتشفع له في توليته خطابة الكرَك وهي :

أدام اللهُ السلطانَ الملكَ الناصرَ وثبّته ، ونقبل عمله بقبول صالحٍ وأثبته ، وأرغم أنفَ عدُوّه بسيفه وكبّته

خدمة المملوك هذه واردةٌ على يدِ خطيب عيذَاب ، ولما نبا به المنزلُ عنها وقلّ عليه المرفقُ منها وسمع هذه الفتوحاتالتي طبّق الأرض ذكرُها. ووجب على أهلها شكرُها - هاجر من هجير عَيذاب وملحهـا . سارياً في ليلةِ أملٍ كلهانهارٌ فلايسأل عن صبحها،وقد رغبفيخطابة الكرَكوهوخطيبٌ وتوسّل بالمملوك في هذا الملتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام، وعن عيذاب إلى الكرَك وهذا عجيب ، والفقر سائق عنيف، والمذكورُ عائل ضعيف ، ولُطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف والسلام .

التدوين والتصنيف

كانت الحاجة إلى التدوين قد اشتدت في مبدأ الدولة العباسية لاتساع ممالك الإسلام ، فهبّ العلماء إلى تهذيب ما كتب في الصحفِ المتفرّقة، وما حفظوه في

الصدور، ورتبوه وبوّبوه وصنفوه كتباً، وكان من أقوى الأسباب لإقبال العلماء على التصنيف حثّ الخليفة أبي جعفر المنصور) عليه ، وحمْله الأئمة والفقهاء على جمع الحديث والفقه ، ولم يقتصر على معاضدة العلوم الإسلامية ، بل أوعز إلى العلماء والمترجمين أن ينقلوا إلى العربية من الفارسية واليونانية فنون الطب والسياسة والحكمة والفلك والتنجيم والآداب ، وتابعه في ذلك أولاده وأحفاده ، حتى زخرت بحور العلم ، واختُرعت الفنونُ ، وتفرعت المسائل ودوّنت الكتبُ في كلّ فن .

كتابة التصنيف والتدوين

وكانت كتابة التصنيف والتدوين في القرن الأول وبعض الثاني من النهضة عبارة عن سلسلةٍ من الرّوايات المسندةِ إلى رُواتها، وبعضها يُروى بلفظ أصحابها غالباً كما في الشّعر والخطب والرسائل، وبعضُها بلفظ الراوي كما في أخبار الفتوح والتاريخ والقصص، ثم ظهرت بعد ذلك في العلوم الشرعية واللسانية طبقاتُ الاستنباط والتعليل ، والتفريع والشرح والاختصار ، وجمع الفروع تحت كليات عامة ، فلم يكن للمؤلفين بدٌّ من حذفِ أسانيد الروايات، وتركِ المحافظة على نقلها بلفظها إلا في الحديث ونحوه .

أما كتب العلوم المترجمة فكانت عبارتها هي تفسير ألفاظها الأعجمية بالعربية ، ولم تكن ترجمتُها جيدةً في (عصر المنصور) ثم صحّحت ترجمتُها في زمن الرشيد والمأمون ، ثم لما أتقنَ كثيرٌ من فلاسفة المسلمين هذه العلوم كتبوا فيها بعباراتهم ، وكانت أول أمرها بليغةً مفهومة ، ثم عمّوْها على بعض الفقهاء المكفرين لهم ، و المغرين الأمراء بقتلهم حتى أصبحت عبارة كتب الفلسفة والتوحيد أصعبَ ما يُقرأ باللسان العربي .

العلوم اللسانية ونشأتها

العلوم اللسانية هي الأدب، والتاريخ ، والعروض، والنحو، واللغة ، والبلاغة

علم الأدب — كانت كتبه في أول هذا العصر رسائل يبحث كلٌّ منها في ضرب خاص من ضروبه ، كرسائل ابن المقفّع ، ورسائل سهل بن هرون : في الأخلاق ، وكتاب النوادر ، وكتاب الأراجيز ، وكتاب الشعر للأصمعي ، وكتاب الشعر والشعراء لأبي عُبيدة ، وإذا تابعنا مَن يقول إن ابن المقفع هو الذي ابتدع كتاب (كليلة ودِمْنة) ونحَله الهند والفرْس ، كان هـذا الكتابُ أول كتاب ظهر في (الأدب العربيّ) الخاص بموضوع واحد ، وأولُ كتاب ظهر فيه جامع لفنون كثيرة : منه كتابُ (البيان والتبيين) وكتاب (الحيوان) للجاحظ ، واقتفى أثرَه أحمدُ بن طيْفور في كتابه العظيم (المنظومِ والمنثورِ) في أربعة عشر جزءاً . ثم أبو العباس محمد المبرّد في الكامل ، والروضة) ، ثم أبو حنيفة الدينَوري وأبو بكر محمد الصولي ، وابن قتَيبة صاحب (أدب الكاتب) ، وابن عبد ربه صاحب (العقد الفريد) ، وأبو عليّ القالي صاحب (الأمالي) ، وأبو الفرَج الأصبهاني صاحب (الأغاني) ، وغيرهم ، ومن أشهر المؤلفين في الأدب : الجاحظ ، وأحمد بن عبد ربه ، والحريري ، وها هي ترجماتهم .

الجاحظ

هو إمامالأدب أبو عثمان عمرو الجاحظبن بحر بن محبوب الكِناني البَصْري وُلدَ حواليْ سنة ١٦٠ هـ بمدينة البصرة ونشأ بها فتناول كلَّ فن : ومارس كلعلم عُرِف في زمانه مما وُضعَ في الإسلام ، أو نُقِل عن الأمم الأوائل ، فأصبح له مشاركة في علمِ كل ما يقع عليه الحِسُّ أو يخطرُ بالبال ، فهو راويةٌ متكلمٌ فيلسوفٌ ، كاتبٌ مُصنّفٌ ، مترسلٌ شاعر ، مؤرخٌ عالم بالحيوان والنبات والموات ، وصّافٌ لأحوال الناس ووجوهِ معايشهم واضطرابهم وأخلاقهم وحيَلهم — إلا أنه غلب عليه أمرانِ : الكلام على طريقة المعتزلة ؛ والأدب الممزوجُ بالفلسفة والفكاهة ! وكان غاية في الذكاء ، ودِقة الحس ، وحُسن

الفِراسة، وكان سَمْحاً جواداً كثير المواساةِ لإخوانه، وكان على دَمامة خَلقِه وتناقض خُلقِه خفيف الرُّوح فكِهَ المجلس غاية في الظرف وطيبِ الفكاهة وحلاوة الكلام – وهو على الجملة أحدُ أفذاذِ العالم وإحدى حُجَجِ اللسان العربي – وأقام الجاحظُ أكثر عُمره بالبَصرة يعيش معيشة الأدباء والعلماء، محبوباً لوُلاتها وأعيانها، مَحْبُوّاً منهم بالعطايا والمِنح، بما يُصنّفه لهم من الكتب المتفقة مع أهوائهم المختلفة – وكان كثير الانتجاعِ للخلفاء (ببغداد – وسُرَّ مَنْ رأى) حتى فُلِجَ بالبصرة وبقي مفلوجاً مدة إلى أن انتقَل إلى بغداد فمات بها ودفن بمقبرة الخيزران (أم الرشيد) سنة ٢٥٥ هـ، وله أكثر من مائتي كتاب.

أحمد بن عبد ربه

هو أديبُ الأندلس وشاعرها أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القُرطبي وُلد سنة ٢٤٦ هـ ونشأ بمدينة قرطبة، ودرس علوم العربيةِ فنبغ في جميعها وحفِظ منها ما لم يحفظه أحد من علماء زمانه، وقرأ رسائلَ المحدَّثين من المشارقة، وما ترجم من كتاب الأوائل في أكثر العلوم، وأودَعَ زُبْدة ذلك في كتابه (العِقْد الفريد). وكان يشتغل في حداثته بالشعر، ويجري في مضمار اللهو والطرب، ونظم في ذلك من القصائد والمُقطعاتِ الرقيقة الجميلة ما جعل المتنبي على صَلفِه وكِبرِه حين سَمع شِعرَه يسميه (مليح الاندلس) ثم أقلع في كِبَرِه عن صَبْوته، وأخلص لله في توْبته. فاعتدَّ أشعارهُ التي قالها في الغَزَل واللهو عملاً باطلاً. وعَمِل على أعاريضها وقوافيها قصائد في الزُّهد يُعارضها بها، وسمّاها (المُمَحِّصات) ونال من خلفاء بني أُمية بالأندلس قبولاً، وحلّ عندهم في المكان الأسمى – وبَقي بقرطبة رئيساً مُسَوَّداً – حتى فلجَ، وعاش بعد ذلك عدّة سنين – ثم مات بها سنة ٣٢٨ هـ.

الحريريّ

هو أبو محمد القاسم بن محمد بن عثمان الحريري البصري، المولود سنة ٤٤٦ هـ

الكاتب الشاعر اللغوي النحوي صاحب البدائع المأثورة في مقاماته المشهورة التي نسجها على مِنْوال مقامات بديع الزمان الهمذاني وأنشأ خمسين مقامة ،أتى فيها على كثير من مواد اللغة وفنون الادب وأمثال العرب وحكَمها ،بعبارة مُسجّعة مُزينة بأنواع البديع ، ولاسيما الجناس ، ترغيباً للطلاب في حفظ اللغة وأدبها ، وتفكيها لهم بمطالعتها ، ونحل وقائعها أبا زيدٍ السروجي) وهو أعرابيٌّ فصيحٌ من سَروج ، كان قد قدم البصرة وأعجبه بها علماؤها ، وسمّى راويهـــا عنه (الحارث بن هَمّام) ـ يريد نفسَه ـ وأهداها إلى الوزير جمال الدين بن صَدقة وزير المسترشد العباسي ، وله غير المقامات شعرٌ كثير ورسائل بديعة وكتب في النحو واللغة ؛ منها كتابه (دُرّة الغوّاص في أوهام الخواص) و (ملحـــة الإعراب في النحو) وتوفي بالبصرة سنة ٥٢٢ هـ .

فن التاريخ

أول ما وُضع في التأريخ باللغة العربية الكتاب الذي وضعه عُبيْدُ بن شرية لمعاوية ، وفي صدر الدولة العباسية وضع كثير من العلماء كتباً في التأريخ بأقسامه التي من أشهرها :

(١) فن السِّيَرِ والمغازي ؛ وأشهر من ألف فيه من الاوائل: محمدبن إسحاق.
(٢) فن الفتوح ؛وأشهر من ألف فيه منهم الواقدي ، والمدائني ،وأبو مِخنف
(٣) فن طبقات الرجال ؛وأشهر علمائه ابن سعد كاتب الواقدي ،والبخاري
(٤) فن النَّسَب ؛ وأشهر قدماء علمائه : الكلبي ، وابنه
(٥) فن أخبار العرب وأيامها ؛ وأشهر علمائه : أبو عُبيدة ، والأصمعي .
(٦) قصص الأنبياء ؛ وكتب فيه كثيرون .
(٧) تاريخ الملوك ؛ ومن أقدم مَنْ كتب فيه : ابن قتيبة الهيثم بن عَديّ ، وابن واضح اليعقوبي ، ثم شيخ المؤرخين وعمدتهم محمد بن جرير الطبري الجامع كتابه هذه الفنون السابقة مُ تبعاً على حسب السنين الهجرية .

وحاكاه بعده ابنُ الاثير في تاريخه (الكامل) .

العروض والقافية

أولُ من اخترع علم العَروض «الخليل بن أحمد» من غير سابقة تعلُّم على أستاذ أو تدرُّج في وضع، بل ابتدعه، وحَصَرَ فيه أوزانَ العرب في خمسة عشر بحراً، وزاد عليه تلميذُ تلميذِه الأخْفَشُ بحراً آخر، ثم لم يزد عليهما أحداً يُعْتَد به.

أما القافية، فقد كان العلماء قبل الخليل يتكلمون فيها، ولكن الخليل هو أول مَنْ فَصَّل الكلام فيها، وجعلها علماً مدوَّناً.

النحو

جاءت الدولة العباسية والنحو علمٌ يُدْرَسُ في المعاهد، ولكن البصريين سبقوا الكوفيين في الاشتغال به، كما سبقهم الكوفيون في الاشتغال بالشعر وعلم الصَّرْف.

ومن أكبر الأئمة الذين اشتغلوا بالنحو وهذبوه من البصريين أبو عمرو بن العَلاء وتلميذه الخليل، وتلميذ الخليل «سيبويه» الواضع لأول كتاب جامع في النحو، ثم بعده «الأخفش» شارح كتابه.

ومن الكوفيين: مُعاذ الهَرّاء، والرُّؤاسي، وتلميذهما الكسائيُّ، وتلميذه الفَرّاءُ.

علم اللغة

ويسمّى «متنَ اللغة» ونعني به معرفة معاني ألفاظها المفردة، وأوّل ما وضعَ الائمة فيه رسائل وكتباً صغيرة في موضوعات خاصة، فلما ظهر الخليل أحصى ألفاظ اللغة بطريقة حسابية في كتاب ورتبه على حروف المعجم مُقَدّماً حروف الحلق، ومُبتدئاً منها بالعين، ولذلك سَمّى مُعجَمه «كتاب العين» ثم ألف أبو بكر بنُ دُرَيد مُعْجمه العظيم الذي سَمّاه (الجَمْهَرة) مرتباً على حروف المعجم بترتيبها المعروف الآن. وأدرك عصر الازْهَريُّ فألف كتاب (التهذيب) على ترتيب

الخليل، ثم وضع الجوهري كتابه المسمى (بالصحاح) على ترتيب الجمهرة وابن سيده الأندلسي كتابه المحكم) على ترتيب الخيل، وابن فارس كتابه (المجمل) والصاحب بن عباد كتابه (المحيط وهذه هي أصول كتب اللغة وما بعدها من (العباب، والتكملة، ومجمع البحرين) للصغاني، و(النهاية) لابن الأثير، و(لسان العرب لابن مكرم) و(المصباح) للفيومي، و(القاموس للفيروزابادي. فهو جمع لها أو اختصار منها.

علوم البلاغة - المعاني والبيان والبديع

أول كتاب دوّن في علم البيان كتاب (مجاز القرآن) لأبي عبيدة تلميذ الخليل ثم تبعه العلماء. ولا يعلم أول من ألف في المعاني بالضبط، وإنما أثر فيها كلام عن البلغاء وأشهرهم الجاحظ في (إعجاز القرآن) وغيره وأول من دون كتباً في علم البديع ابنُ المعتز وقدامة بن جعفر، وقبل ذلك كان البديع يستعمل في الشعر عملا، وبقيت هذه العلومُ تتكاملُ، ويزيد فيها العلماء حتى جاء فحلُ البلاغة عبد القاهر الجرجاني فألف في المعاني كتابه (دلائل الإعجاز) وفي البيان كتابه (أسرار البلاغة)، وجاء بعده السكاكي فألف كتابه العظيم (مفتاح العلوم).

الخليل بن أحمد

هو أبو عبد الرحمن الخليلُ بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري، مخترع العروض ومبتكر المعجمات، وواضع الشكل العربي المستعمل حتى الآن.

ولد سنة مائة هجرية بالبصرة، ونشأ بها، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أئمة زمانه، وأكثر الخروج إلى البوادي، وسمع الأعراب الفصحاء، فنبغ في العربية نبوغاً لم يكن لأحد ممن تقدمه أو تأخر عنه، وكان غاية في تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو وتعليله، ولقنَ ذلك تلميذه سيبويه

ومما يشهدُ له بجدة الفكر وبعد النظر، اختراعه العروض علماً كاملا، لم يحتج إلى تهذيب بعدهُ، وابتكاره طريقة تدوينُ المعجمات بتأليف كتاب

«الهين» وتدوينه كتاباً دقيقاً في الموسيقى على غير معرفة بلغة أجنبية واشتغال بلهو، وزاد في الشطرنج قطعة سماها «جبلا» لعب بها الناس زمناً، وبقي الخليل مقيماً بالبصرة طول حياته، زاهداً متعففاً مكبّاً على العلم والتعليم ـ حتى مات في أوائل خلافة الرشيد سنة ١٧٠ هـ بصدمة في دعامة مسجد ارتج منها دماغه.

سيبويه

هو أبو بشر عمرُ بن عثمان بن قنبر ـ إمام البصريين، وحجة النحويين.

ولد بالبيضاء من سلالة فارسية ونشأ بالبصرة، وكان يطلب أول أمره الحديث والفقه. فعيبت عليه لحنة لحنها في مجلس شيخه، فخجل وطلب النحو ولازم الخليل، وأخذ عن غيره أيضاً، وكان الخليل يؤثره على أصحابه، فدوّن جميع ما أخذه عنه ونقله عن غيره في كتابه الذي لم يجمع قبله مثله ـ ولولا هذا الكتاب الذي رواه عنه، وشرحه تلميذه الأخفش، ما كان لسيبويه خبرٌ يشهر لوفاته كهلا، ولقلة من أخذ عنه هذا الكتاب، ولأنه لا يعرف له كتاب غيره، وبحسبك هو، ومات ببلدته البيضاء بفارس سنة ١٨٠ هـ ـ وسنه نيف وأربعون سنة.

الكسائي

هو أبو الحسن علي بن حمزة ـ أحدُ القراء السبعة، وإمام الكوفيين في النحو واللغة ـ نشأ بالكوفة، وتعلم على الكبر بعد لحنة لحنها أمام جمع من طلبة العلم، فلازم أئمة الكوفة حتى أنفد ما عندهم، ثم خرج إلى الخليل بالبصرة وجلس في حلقته، وأعجبه علمه، فقال له: من أين علمك هذا؟ فقال من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فخرج إليها، وأنفد خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب، سوى ما حفظ عنهم، ولما رجع من البادية وجه إليه المهدي فخرج إلى بغداد فحظي عنده، وضمه إلى حاشية ابنه الرشيد، ثم جعله الرشيد مؤدب ولده الأمين، وكان يجلسه هو والقاضي محمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام

الأعظم أبي حنيفة على كرسيين مميزين بحضرته ، وما زالا على هذه الكرامة حتى خرج الرشيد إلى الري وهما في صحبته فماتا في يوم واحد فبكاهما ، وقال: دفنت الفقه والعربية بالري — وذلك سنة ١٨٩ هـ . وقد انتهت إليه إمامة القراءة والعربية بالكوفة وبغداد — وكان يروي الشعر ، وليس فيه جيد نظر

العلوم الشرعية

التفسير — لم يُدَوَّنْ في كتب جامعة تجمع سورَ القرآنْ الكريم كلها إلا في عصر الدولة العباسية . وكان التفسيرُ عبارةً عن نقــل روايات عن النبي ﷺ وأصحابه تُبين المرادَ من آياته ، وأولُ طبقــة من المفسرين أدركتِ الدولة العباسية أو أنشئت في صدرها طبقة سفيان بن عُيَيْنَةَ ، ووكيع بن الجراح وشُعبة بن الحجاج ، وإسحاق بن راهَويه ، ومُقاتل بن سُليمان ، والفراء .

كتب الحديث

أولُ كتاب جُمع في الحديث الكتابُ الذي أمر الخليفة الأموي « عمر بن عبد العزيز » بتدوينه ولم يُعرف له خبرٌ بعد ، ثم أخذ العلماءُ يدونون فيه بحض الخليفة أبي جعفر وأولاده ،فدون الامام مالكٌ « موطَّأه » .ولما اشتدتْ رغبة الناس في طلب الحديث وضع كثيرٌ من الزّنادقة واليهود المتظاهرين بالإسلام كثيراً من الأحاديث ، فتجرّد لها الأئمة الأعلامُ ، وبينوا صحيحها من فاسدها ، كإسحاق ابن راهَوَيه وتلميذه محمد بن إسماعيل البخاري الذي دوّن كتابَه في الأحاديث الصحاح فقط ، وتبعه تلميذه مُسْلم بن الحجاج ، والامامُ أحمد بن حنبــل ، وأصحاب الكتب الستةِ الصّحاح ؛ وهم : الترمذيُّ ، وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، والبخاري ، ومُسلم .

هذه هي أصول الكتب الصحيحة في الحديث .

الامام البخاري

هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ، إمام المحدّثين . وصاحب «الجامع الصحيح» أجلّ كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله العزيز. وُلد ببخارى من سُلالة فارسية سنة ١٩٤ هـ . ونشأ بها يتيماً فحفظ القرآن وألم بالعربية وهو صبيّ وحُبّب إليه سماعُ الحديث ، فكان أولُ سماعه من علماء بخارى وهو لم يناهز البلوغ، حتى حفظ عشرات الألوف من الأحاديث ودخل من أجلها أكثر ممالك المشرق، وأخذ عنه علماؤها وأئمتُها ، ومنهم أحمد بن حنبل؛ وتفقه مبدئياً على مذهب الشافعي . واستخرج كتابه « الجامعَ الصحيح » من ستمائة ألف حديث ، في ست عشرةَ سنة، جمعَ فيه تسعة آلاف حديث مُكرّر بعضها بتكرُّر وجوهها ؛ وقال: إني جعلتُه حُجّةً بيني وبين الله . فأجمع علماء السنة على أنه لم يكن فيها أصح منه ، ومات سنة ٢٥٦ هـ .

علم الفقه

لما كان المرويّ عن رسول الله ﷺ وظاهرُ نصّ القرآن لا يَستَوْعِبان كلَّ أحكام الوقائع المختلفة المتجددة بتجدُّد الزمان والمكان ، كان الاجتهادُ ضرورياً في الدين ؛ وجاءت الدولة العباسية وأهلُ الحجاز يرجحون جانب الأخذ بالحديث لكثرة رُواته بينهم ، وإمامُهم في مذهبهم « مالك بن أنس » وأهلُ العراق يُرَجحون الأخذ بالقياس ، وإمامهم في مذهبهم « أبو حنيفة » لكثرة ما وضعه متزَندِقة العراق في الحديث . ثم لما دخل أهل الحجاز العراق ، وتساوى الفريقان في معرفة الحديث عَمِلوا بهما ونشأ من ذلك عدّة مذاهب أشهرها (مذهب أبي حنيفة ، ومذهبُ مالك ، ومذهب الشافعي ، ومذهب أحمد بن حنبل) وهذه المذاهبُ الأربعة هي التي ارتضاها مُعظم الأمة في أمر دينها ودنياها ثم كان لكل مذهب أئمةٌ مجتهدون فيه .

الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان

هو الإمام الأعظمُ أبو حنيفة النعمانُ بن ثابت فقيهُ العراق. وُلد سنة ٨٠هـ من سُلالة فارسية، ونشأ بالكوفة، وعاصر بعض الصحابة، وأخذ كلَّ علمه عمّن شافهَ الصحابة ونَقَلَ عنهم واستنبط فقهه من القرآن الكريم وما صَحَّ عنده من الحديث مع استعمال الرأي والقياس، وكان من أعبدِ الناس وأكثرهم تهجداً وقراءة للقرآن الكريم، وأكثرهم ورَعاً وتوخّياً للكسب من وجه حِلّ، رضي أن يعيش تاجر خزّ، ورغب عن وظائفِ الملوك والخلفاء، وعُرِض عليه القضاء من قِبل أمراء بني أُمية، ثم المنصور فأبى، فسجنه وآذاه، حتى قيل إنه مات في سجنه، وكان يَعتَذِرُ بأنه لا يأمَنُ نفسه أن تَزِلّ، وقرأ عليه علماء الكوفةِ وبغداد، تخرّج عليه منها الأئمة من أصحابه كمحمد بن الحسن، وأبي يوسف، وزُفَر. ومات ببغداد سنة ١٥٠ هـ.

الإمام مالك

هو أبو عبد الله مالك بن أنس، إمام دارِ الهجرة، وسيدُ فقهاء الحجاز، وهو عربيٌّ من سُلالة أقيال حِميَرَ. وُلد سنة ٩٥ هـ بالمدينة المنورة ونشأ بها، وأدرك خيار التابعين من الفقهاء والعبّاد، ورحل إليهم وأخذ عنهم، وما زال يَدأبُ في التحصيل وجمع السنة حتى صار حُجّةً من حُججِ الله في أرضه، وضُرب به المثلُ، فقيل: «لا يفتى ومالكٌ بالمدينة» وعرفَ الخلفاء قَدْرَهُ فأجلوه، حتى أنّ الرشيد رحل هو وأولاده إليه بالحجاز ليسمَعَ «مَوطّأه» فسمعه وأغدَقَ عليه.

وكان مالكٌ أوّلَ أمره فقيراً، فلما كثرت مِنَحُ الخلفاء له حَسُنَ حاله، فأظهر نعمة الله عليه، ووصل أهلَ العلم وأشركهم في ماله، ومنهم «الشافعي» وأما أخلاقه من حيثُ الكَرَم والطلاقة والوَقَار والنُّبْل والتواضع والحب

لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تجل عن الوصف حتى أنه كان لا يركبُ دابة في المدينة إجلالا لأرض ضمّت جسَد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وتوفي سنة ١٧٩ هـ بالمدينة – ودُفن بالبَقيع

الامام الشافعي

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، عالم قريش وفخرها ، وإمامُ الشريعة وحبرُها ، وهو من ولد المطلب بن عبد مناف ولد بمدينة غزة سنة ١٥٠ هـ، وحُمِلَ إلى مكة وهو ابن سنتين ، ونشأ بها فقيراً تربيه أمه ، ويُواسيه ذوو قرابته من قريش، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين وأولعَ بالنحو والشعر واللغة ، ورحل إلى البادية في تطلبها ولم يُناهز سن البلوغ حتى حفظ منها شيئاً كثيراً ، ثم تفقه وحفظ (موطأ مالك) وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة ، ثم رحل في هذه السّن إلى مالك . وقرأ عليه الموّطأ من حفظه ، فقال مالك : إن كان أحدٌ يُفلح فهذا الغلامُ ، وأصافه وخدَمه بنفسه ، ثم رَجع إلى مكة ، وعلم بها العربية والفقه ، وصَحّح عليه الأصمعي شعرَ الهذليين ، ثم دخل بغداد سنة ١٩٥ هـ، فاجتمعَ عليه علماؤها وأخذوا عنه ، وفي سنة ١٩٩هـ، أو سنة ٢٠٠ هـ خرج إلى مصر وسكن الفسطاط فكانت دارَ هجرته ، وبها أملى مذهبه بجامع عمرو ، وتُوفيّ بها سنة ٢٠٤ هـ.

الامام أحمد بن حنبل

هو الإمام الصابرُ المحتسبُ أبو عبد الله أحمدُ بن حنبل الشيباني . وُلد ببغداد من سُلالة عربية سنة ١٦٤ هـ ، فتعلم وطلب الحديث وسمع من أئمة وقته ، حتى حفِظَ مئات الألوف من الأحاديث ، واختار منها نيّفاً وأربعين ألف حديث ضمنها كتابه (المسندَ) واستنبط مذهبه من السُّنة مشوباً بشيء من القياس والرّأي ، وظهرت في مدته فتنة (خلق القرآن) فامتُحِن بها في

مجلس المعتصم ليجيبهم إلى القول بخَلق القرآن ، فلم يفعل ، فضُرب حتى أغميَ عليه ، وبقي مُدة مريضاً، ثم عُوفيَ واشتغل بالعلم والتعليم ببغداد — حتى مات سنة ٢٤١ هـ .

علم الكلام

كان السَّلفُ الصالح من الصحابة والتابعين يستدلون على عقائدهم بظاهر الكتاب والسُّنة ، وما وقع فيهما من المتشابه ، أو أوهم التشبيه المنافيَ لتنزيه المعبود توقَّفوا فيه خوف أن يَحيد بهم فهمُهمْ في التأويل عن القصد غير أن ذلك لم يُقنع من دَخل في الإسلام فكثر جدَلهم ، واضطر العلماء أن يُعارضوهم ، وساعدهم الخلفاء ، وأولهم المهدي الذي حرضهم على تدوين علم الكلام «التوحيد» فافترق المرضيُّ عن مذهبهم من عُلماء الكلام فرقتين ، فرقة اعتقدتْ ما يقرب من مذهب السلف وُسمّوا (الجماعة) أو أصحاب الحديث ؛ وفرقة اعتزلتها وخالفتها في بعض المسائل وُسموا (المعتزلة) أو أصحاب العدل ، وجرى رجالُ الحكومة العباسية على هذا المذهب ونَصروه ، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري فألفَ مذهبه الكلامي الذي سمّي بعدُ بمذهب الأشاعرة ، وغلب على كل مذهب سواه إلا بعض مذاهب قليلة كمذاهب الشيعة « وبقي كثير منها إلى الآن » ، ومذاهب الخوارج وبَقي منهم إلى عصرنا بقية في الجبل الأخضر من بَرْقة ، وفي جزيرة جربة على ساحل تونس وببلاد البحرين .

أبو الحسن الأشعري

هو أبو الحسن علي بن إسماعيل شيخ طريقة أهل السُّنة والجماعة وإمام المتكلّمين وُلدَ بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ ونشأ بها ، وأخذ علم الكلام عن أبي عليّ الجُبائيّ شيخ المعتزلة ، وتبعهُ في الاعتزال ، واحتجّ له حتى صار لسان المعتزلة أكثر من ثلاثين عاماً ، ثم هَداه البحث أخيراً فرأى أن كلاً الفريقين من هؤلاء

ومن المعتزلة غالٍ في نظره ، فتوسط ، وتغيّب عن الناس مدة ألف فيها كتبه في نصرة أهل السنة ، والرد على أكثر عقائد المعتزلة ، وكان شافعيّ المذهب .

توفي سنة ٣٢٤ ــ وممن نصر مذهبه الفخر الرازي ، وقاربه في مذهبه القاضي أبو منصور الماتريدي .

الامام الغزالي

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي ، حجّة الإسلام ، ولد سنة ٤٥٠ هـ ونشأ بطوس وتعلم بها مبادىء العلوم ، ثم رحل إلى نيسابور ، ولازم إمام الحرمين الجويني ، وهو يؤمئذ عالم الشافعية في الشرق ، فما زال يتلقى عنه العلم حتى صار من أكابر متكلمي الأشاعرة وفقهاء الشافعية ، ولما مات الجويني ذهب إلى بغداد ولقي الوزير نظام الملك صاحب المدرسة النظامية الشهيرة وناظر بحضرته العلماء فظهر عليهم ، وأقر له فحول العراق بالفضل ، فتولى التدريس بالمدرسة النظامية أربع سنوات ــ ثم حجّ وذهب إلى الشام يدرس ويسيح لزيارة بعض مشاهد أنبيائها ، ثم دخل مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد إلى وطنه طوس ، واشتغل بتأليف الكتب الجليلة وفي مقدمتها كتاب «إحياء علوم الدين» ثم ألزم التدريس بنيسابور ، ثم عاد إلى وطنه حيث مضى بقية عمره بين التدريس ووعظ الصوفية وعمل البر ، ثم مات بالطابران قصبة طوس سنة ٥٠٥ هـ .

* * *

نشأة العلوم الكونية المنقولة
وترجمتها وأشهر المترجمين والمشتغلين بها

وكانت تسمى علوم الفلسفة والحكمة وتشمل أربعة علوم : المنطق ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والإلهيات ، وتشمل الطبيعيات علم الطبيعة ، والكيمياء ، وفن المواليد الثلاثة ، والطب والصيدلة والفلاحة .

وتشمل الرياضيات : علم الحساب وعلم الجبر وعلم الهندسة وعلم الآلات (الميكانيكا) وعلم الفلك الشامل للهيئة والتنجيم ، ومن مُتعلقاته علم الجغرافيا الرّياضة ، ويلحق بهذه العلوم علم السياسة وتدبير المنزل والمال وعلم الأخلاق وفنون الموسيقى .

وتشمل الإلهيّات علم ما وراء الطبيعة من الرُّوحانيات والمدركات العقلية كالبحث عن صفات الخالق والقُوى النفسية والجنّ والملائكة ، ونحو ذلك .

وهذه العلوم فطرية في الإنسان من حيث إنه مُتفكر مُتمدين لا تختصّ بها أمة دون أخرى ، فكان الاشتغالُ بها ضرورياً لكل أمة أصبحت ذاتَ حضارة ، ولذا ترجم المسلمون بعضها في عصر بَني أمية ، واستقدم « المنصور العباسي » كثيراً من الأطباء والمترجمين ، فترجموا له كتب اليونان والفرس والهنود في الطب والفلك والسياسة .

ولما مات المنصور فتَر أمر الترجمة إلى زمن الرشيد والبرامكة فحثوا العلماء على ترجمة الكتب اليونانية ، وصححوا بعض ما تُرجمَ زمنَ المنصور .

ثم جاء عصرُ « المأمون » فزخرتْ بحور الترجمة ، وبعث إلى بلاد الروم جماعة من المترجمين كابن البطريق وسَلم صاحب بَيت الحكمة والحجاج بن مطر وحُنين ابن إسحاق ، فاختاروا كتباً حملوها إلى بَغداد وتُرجمتْ ، وتعلمها الناس وصححوا أغلاطها ، واستدركوا عليها. ولم يمضِ قرن من تأسيس الدولة العباسية حتى بَرع المسلمون في هذه العلوم كلها ، وظهر بينهم من الحكماء والفلاسفة مَنْ كاد يلحقُ فلاسفة اليونان ، ومن هؤلاء فَيلسوفُ الإسلام والعرب « أبو يوسف يعقوب بن إسحق ابن الصبّاح الكندي » وتلميذه أحمد بن الطيب السّرخسي ، وبنو موسى بن شاكر محمد وأحمد والحسن أشهر رياضيي هذا العصر ، وأول المخترعين من المسلمين في الحيل والهندسة ، ومحمد بن موسى الخوّارزمي مخترع علم الجبر والمقابلة ومُذيع الحساب الهندي بين العرب ، ثم ذهب طورُ الترجمة والتصحيح وتلاه طورُ التأليف والتكميل والاختراع فأتي فيه بالعجب العُجاب

أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي الحكيم الكبير مخترع آلة الطرب المسماة بالقانون؛ والتي استنبط الأفرنج بمحاكاتها آلة المعزف (البيانو) المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ، وأبو بكر بن محمد زكريا الرازي الطبيب الكيميائي الشهير المتوفى سنة ٤١٦هـ ، والشيخ الرئيس حكيم المشرق أبو علي الحسين بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، وأبو الريحان أحمد بن محمد البيروني الفلكي الرياضي المقوم المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

وكان لدولة الفواطم في مصر اشتغال بهذه العلوم ، فاشتهر في دولتهم في الفلك والرياضيات ابن يونس ، وفي الطب ابن رضوان وغيرهما .

ولم يعنَ أهل الأندلس بهذه العلوم عناية أهل المشرق ، وأشهرُ مَن نبغ منهم فيها أبو الوليد القاضي أحمد بن رُشد ، وأبو القاسم الزهراوي ، ومن كتب هؤلاء الأئمة وأمثالهم اقتبسَ أهلُ أوربا) كثيراً من أصول مدنيتهم الحاضرة.

الشعر والشعراء

قد كان للشعر عند الخلفاء والوزراء والقواد سوقٌ نافعة ، حتى عند رؤساء الأعاجم من الديلم والترك ، ودام كذلك إلى انتهاء الدولة العباسية ، وبهذه العناية العظيمة بل وكثرة قائليه تفنن الناسُ وأدخلوا عليه فنوناً لم تعهد فيه واستعملوه في كل غرض حتى التعبُّدِ به ، وتشكلَ أسلوبهُ ، وتنوعت معانيه بما يُطابق أغراض استعماله .

ولم يقتصر الشعر على الموالي في صدر الدولة العباسية كالكتابة بل اشتركوا فيه هم وغيرهم من أعراب البادية أحياناً ، ومن سلائل العرب بالأمصار أخرى ، غيرَ أن بضعةً من فحول صدر الدولة كانوا موالي مثل بشار ، وأبي نواس ، ومسلم وأبي العتاهية ، وابن الرومي .

ومن أشهر شعراء الأمصار من العرب أبو تمام ، والبحتري ، وابن المعتز ، والمتنبي

وأبو فراس وأبو العلاء المعرّي ، وابن هانيء الأندُلسي ، والشريف الرضي .

(١) بشارُ بنُ بُرد

هو أبو مُعاذ بشار المرَعّثُ بن بُرْد ، أشعرُ مخضرمي الدولتين ، ورأس الشعراء المحدثين وممهدطريق الاختراع والبديع للمتفننين،وأحد البلغاءالمكفوفين وأصله من فُرس طخارستان من سبي المهلَّب بن أبي صُفرة ، فنشأ بشارٌ فيهم ، واختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة ، حتى خرج نابغةَ زمانه في الفصاحة والشعر ، وكان أكمهَ مجدورَ الوجه ، قبيح المنظر ، مفرطَ الطول ، ضخم الجثة ، مُتوقد الذكاء لا يَسلم من لسانه خليفةٌ ولا سُوقة ، ولا يَألف ولا يُؤْلف .

شعره : قد أجمع رُواة الشعر ونقدتهُ على أن بشاراً هو رأس المحدثين وأسبقهم إلى معاطاةِ البديع ، وطرْق أبواب المجون والخلاعة والغزل والهجاء ، وأنه أولُ مَن جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتقَ عن المعاني الدقيقة والأخيلة اللطيفة ، حتى عُدّ شعره بَرْزخاً بين الشعر القديم والحديث ، ومجازاً يَعبُر عليه الشعر من مرابع البدَاوة إلى مقاصير الحضارة ومات مقتولاً سنة ١٦٧ هـ ، ومن شعره في المشورة والحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن … برأي نَصيحٍ أو نصيحةِ حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة … فإنّ الخوافي قوةٌ للقوادم
وما خير كفٍّ أمسك الغلُّ أختها … وما خيرُ سَيف لم يؤيد بقائم
وخلّ الهوَينَى للضعيف ولاتكن … نَؤوماً فإن الحُرّ ليس بنائم

وقوله :

ظِلُّ اليسار على العباس ممدودُ … وقلبُه أبداً بالبخل معقود
إن الكريم ليُخْفي عنكَ عُسرته … حتى تراه غنيّاً وهو مجهودُ
وللبخيل على أمواله علَلٌ … زُرقُ العيون عليها أوْجُهٌ سودُ
إذاتكرهْتَ أن تُعطي القليل ولم … تَقدِر على سَعةٍ لم يظهر الجود

بُث النوالَ ولا تمنعْكَ قلتــه فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

وقال :

إذا كنت في كل الأمور مُعاتباً صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
فعِش واحداً أو صِلْ أخاك فإنه مُقارِفُ ذنب مرّةً ومُجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو مشاربُه

وقال :

خليليَّ إن المالَ ليسَ بنافع إذا لم يَنلْ منه أخٌ وصديقُ
وكنتُ إذا ضاقتْ عليَّ مَحَلّةٌ تيمّمتُ أخرى ما عليَّ مضيقُ
وما خابَ بينَ الله والناس عاملٌ له في التقى أو في المحامدِ سُوقُ
وما ضاقَ فضلُ اللهِ عن متعفّفٍ ولكن أخلاقَ الرجال تضيقُ

(٢) أبو نواس

هو أبو علي الحسن بن هانىء ، الشاعر المتفنن ، والجادُّ الماجن ، صاحب الصيت الطائر ، والشعر السائر ، ورأس المحدثين بعد بشّار ؛ وهو فارسيُّ الأصل ، ولد بقرية من كورة خوزستان سنة ١٤٥ هـ ، ونشأ يتيماً ، فقدمت به أمه البصرة بعد سنتين من مولده ، فتعلم العربية ورغبَ في الأدب ، فلم تَعبأ أمه بحاله وأسلمته إلى عطار بالبصرة فمكث عنده لا يفتر عن مُعاناة الشعر ، إلى أن صادفه عند العطار (والبةَ بن الحباب) الشاعر الماجنُ الكوفيُّ ، في إحدى قدماته إلى البصرة ، فأعجب كل منهما بالآخر ، فأخرجه والبةُ معه إلى الكوفة فبقي معه ومع نُدمائه من خلعائها ، وتخرج عليهم في الشعر وفاقهم جميعاً ، وقدِم بغداد فبلغ خبره (الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه بقصائد طنّانة ، ثم انقطعَ إلى مدح محمد الأمين الخليفة العباسي ، وثبت عنده بعض ما يوجب تعزيره فسجنه ولم يلبث بعد خروجه من السجن أن مات ببغداد عام ١٩٨ هـ وكان أبو نواس جميلَ الصورة ، فكه المحضر ، كثير الدعابة ، حاضرَ البديهة ، متيناً في اللغة والشعر والأدب .

شعره: أجمع أكثر علماء الشعر ونقدته وفحولُ الشعراء على أن (أبا نواس) أشعر المحدثين بعد بشار وأكثرهم تفنناً وأبدعهم خيالاً، مع دقة اللفظ، وبديع معنى وأنه شاعر مَطبوعٌ برّز في كل فن من فنون الشعر، وامتاز بقصائده الخمريات، ومقطعاته المجونيات، وأراجيزه الطرديات (أقواله في تبكيره إلى الصيد ومُطاردته) وكان شعره لِقاح الفساد، والقدوة السيئة لنقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى المذكر وإبداعه في وصف الخمر، فكان نموذج سوء لمن تأخر، ومن ذلك قوله:

دَعْ عنكَ لوميْ فإنّ اللوْمَ إغراءُ ... وداوني بالتي كانت هي الدّاءُ
صفراءُ لا تنزلُ الأحزانُ ساحتها ... لو مسّها حَجَرٌ مَسّتهُ سَرّاء
رَقّتْ عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافةً، وجفا عن شكلها الماءُ
فلو مزَجْتَ بها نوراً لمازَجها ... حتى تـولد أنوارٌ وأضْوَاءُ

ومن قوله لما حضرته الوفاة:

يا ربِّ إن عظمت ذنوبي كثرةً ... فلقد علمتُ بأن عفوَك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ ... فبمَنْ يَلوذُ ويستجيرُ المجرمُ؟
أدعوك ربِّ كما أمرتَ تضرُّعاً ... فإذا رددْتَ يدي فمن ذا يرحمُ؟
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرّجا ... وجميـل عفوك ثم إني مسلم

(٣) مسلم بن الوليد

هو صريع الغَواني أبو الوليد مُسلم بن الوليد الأنصاري، أحد الشعراء المفلقين، قال الشعر في صباه، ولم يتجاوز به الأمراء والرؤساء، مكتفياً بما يناله من قليل العطاء، ثم انقطع إلى يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد، ثم اتصلَ بالخليفة (هرون الرشيد) ومدحه ومدح البرامكة وحسن رأيهم فيه، ولما أصبح الحلّ والعقد بيد ذي الرياستين (الفضل بن سهل) وزير المأمون في أول خلافته قرّبه وأدناه وولاه أعمالاً بجرجان، ثم الضياع بأصبهان، واكتسب

منها مئات الألوف وأنفقها في لذاته وشهواته ، ولما مات الفضلُ لزم منزله ونسكَ ، ولم يمدح أحداً حتى مات بجرجان سنة ٢٠٨ هـ .

شعره : أول من تكلف البديع في شعره ، واستكثر منه في قوله ، ومزَجَ كلام البدويين بكلام الحضَريين ، فضمنَهُ المعاني اللطيفة ، وكساه الألفاظ الظريفة ، فله جزالة البدويين ، ورقة الحضريين .

ومن جيد قوله يمدح داود بن يزيد المهلبي :

نفسي فداؤك يا داودُ إذ علقَتْ أيدي الردى بنَواصي الضمَّرِ القودِ
تجودُ بالنفس إن ضنَّ الجواد بها والجودُ بالنفس أقصى غايةَ الجُودِ

وقوله :

دلت على عيبها الدنيا وصدَّقها ما استرجعَ الدهرُ مما كان أعطاني
ما كنت أدخِرُ الشكوَى لحادثة حتى ابتلى الدهر أسراري فأشكاني

(٤) أبو العتاهية

هو أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم بن سُويدٍ ، أطبعُ أهل زمانه شعراً ، وأكثرهم قولاً ، وأسهلهم لفظاً ، وأسرعهم بديهة وارتجالاً ؛ وأولُ من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهيد في الدنيا ، والنهي عن الاغترار بها ، وأكثر من الحكمة .

ولِدَ بعين التمر قرب الأنبار سنة ١٣٠ هـ ، ونشأ بالكوفة في عمل أهله وكانوا باعة جِرار ، إلا أنه رَبأ بنفسه عن عملهم ، وقال الشعر في صباه وامتزج بلحمه ودمه ، فذاع صيته وسلك طريق خُلعاء الكوفة ، ثم قدِمَ بغداد ومدح المهديّ ، ثم عرَضتْ له حالٌ امتنع فيها عن قول الشعر ، حتى حبسه الرشيد لعدم تلبيته ما اقترحه عليه من القول فيه ، ثم أطلقه بعد أن أجاب طِلبتَهُ ، وعاد إلى قول الشعر على عادته ، وترَكَ الغَزَل والهجاء وبقي على ذلك مدّة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون ، حتى مات سنة ٢١١ هـ ببغداد .

شعره : يمتاز بالسهولة المتناهية بالنسبة لأهل عصره، ومن قوله يمدح المهدي

أتته الخلافة مُنقادةً إليه تُجَرِّر أذيالهــا
فلم تك تصلُح إلا له ولم يك يصلحُ إلا لها
ولو رامها أحدٌ غيرُه لزُلزِلَتِ الأرض زلزالها
ولو لم تطعهُ بناتُ القلو بِ لما قَبِلَ الله أعمالها
وإن الخليفة من بغض لا إليه ليُبْغِضُ من قالها

وكتب على البديهة في ظهر كتاب :

ألا إننا كلنـا بائدُ وأيُّ بني آدمَ خالدُ
وبَدْؤهم كان من ربهم وكلٌّ إلى ربِّـه عائدُ
فيا عجباً كيف يُعْصى الإلهُ أم كيف يجحدُه الجاحدُ
ولله في كل تحريكـةٍ وفي كل تسكينة شاهدُ
وفي كلِّ شيء له آيةٌ تـدلُّ على أنه واحدُ

(٥) أبو تمام

هو أبو تمـام حبيب بن أوْس الطائي ، أسبق ثلاثـة الشعراء الذين سارت بذكرهم الرُّكبان ، وخلد شعرهم الزمان ، ثانيهم البُحتري ، وثالثهم المتنبي .

ولد من سلالة عربية سنة ١٩٠ ه بقرية جاسم من أعمال دمشق، ونُقِلَ صغيراً إلى مصر ، فنشأ بها فقيراً ، وكان يسقي الماء بالجرّة في جامع عمرو، وتعلم العربية وحفظ ما لا يحصى من شعر العرب ونبغ في قوله ، ثم خرج إلى مقر الخلافـة فمدح المعتصم وحَظِيَ عنده، ومدح وزيره محمد بن الزّيات، والحسن بن وهب، الذي ولاّه بريد الموصل فأقام بها إلى أن مات سنة ٢٣١ ه .

شعره : يعدُّ أبو تمام رأس الطبقة الثالثـة من المحدثين ، انتهت إليه معاني المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد مُلئت بترجمة علوم الأوائل وحكمها

من اليونان والفرس والهند، فحصُف عقله ولَطُفَ خياله بالاطلاع عليها، وهو الذي مهد طريق الحكم والأمثال للمتنبي وأبي العلاء وغيرهما، ولذلك كان يقال: إنَّ أبا تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر هو البحتري

وأجاد أبو تمام في كل فن من فنون الشعر، أما مراثيه فلم يَعلَق بها أحدٌ جاش صدرُه بشعر، وأشهرها القصيدة التي رثى بها محمد بن حُميد الطائي، ومنها:

كذا فليجِلّ الخطبُ وليَفدَح الأمرُ فليسَ لعينٍ لم يَفِضْ ماؤها عذرُ
تُوُفيَتِ الآمالُ بعدَ محمدٍ وأصبح في شُغل عن السفرِ السفْرُ
وما كان إلا مالَ مَنْ قلَّ مالُه وذخراً لمن أمسى وليس له ذخرُ
وما كان يدري مُجتَدي جُودَ كفه إذا ما استهلت أنه خُلق العُسرُ
ألا في سبيل الله مَنْ عُطّلتْ له فِجاج سبيل الله وانثغرَ الثغرُ
فتى كلما فاضَتْ عيونُ قبيلة دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكرُ
فتى دهرُه شطران فيما ينوبُه ففي بأسِه شطرٌ وفي جوده شطرُ
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة تقوم مقام النصرِ إن فاتَهُ النصرُ
وما ماتَ حتى ماتَ مَضْربُ سيفِه من الضرب واعتلت عليه القَنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه إليه الحِفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوَعْرُ
ونفسٌ تَعافُ العارَ حتى كأنما هو الكفرُ يومَ الرَّوْع أو دونَه الكفرُ
فأثبت في مُستنقَع الموْتِ رِجْلَهُ وقال لها من تحت أخمَصِك الحشرُ
غَدا غدْوةً والحمدُ نسجُ ردائه فلم ينصرف إلا وأكفانُهُ الأجرُ
تَرَدَّى ثيابَ الموت حمراً فما دجا لها الليلُ إلا وهي من سُندُسٍ خضرُ

(٦) البُحتري

هو أبو عُبادة الوليدُ بن عبيد الطائي ـ أشعرُ الشعراء بعد أبي نُواس

وُلد سنة ٢٠٦ هـ بناحية مَنْبِج في قبائل طيىء وغيرها من البدو الضّاربين في شواطىء الفرات – ونشأ بينهم فغلبت عليه فصاحةُ العرب ، ولازم وهو فتىً أبا تمّام وعليه تخرج ثمّ خرَج إلى العراق وأقام في خدمة (المتوكل والفتحَ ابن خاقان) محترَماً عندهما إلى أن قتلا في مجلس كان هو حاضره ، فرجعَ إلى مَنْبِجِ بين أعراب طيىء ، وبَقي يختلف أحياناً إلى رؤساء بغداد ، وسُرّ من رأى ، حتى مات سنة ٢٨٤ هـ .

وكان على فَضله وفَصاحته من أبخل خلق الله وأقذرهم ثوباً ، وأكثرهم فخراً بشعره – حتى كان يقول إذا أعجبـــه شعرهُ (أحسنْتُ والله !) ويقول للمستمعين مالكم لا تقولون أحسنتَ . والكثير على أنه لم يأتِ بعد أبي نواس من هو أشعر منه .

شعره – كله بديع المعنى ، حسن الدّيباجة ، صقيل اللفظ سَلِس الأسلوب كأنهُ سيلٌ يَنحدِر إلى الأسماع مُجَوّداً في كل غرض سِوى الهجاء – ولذلك اعتبره كثير من أهل الأدب هو الشاعر الحقيقي واعتبروا امثـال أبي تمّام والمتنبي والمعرّي حُكماء ، ولسهولة شعره ورقته كان أكثر الأصوات التي يتغنى بها في زمنه من شعره المطبوع في ديوان حافل . ومن قوله يمدح الخليفة المتوكل ويَصف موكب خروجه لصلاة عيد الفطر :

بالبر صُمْتَ وأنت أفضلُ صائمٍ ... وبسنةِ الله الرضيـــة تُفطرُ
فانعم بيوم الفطر عيداً إنــــه ... يومٌ أغرُّ من الزمــان مُشَهَّرُ
أظهرْت عِزّ المُلك فيه بجَحْفَل ... لجِبٍ يُحاط الدينُ فيه ويُنْصر
خلنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غَدَت ... عُدداً يسير بهـا العديدُ الأكثر
فالخيلُ تَصْهَلُ والفوارس تَدّعي ... والبيضُ تلمع والأسِنّةُ تزْهَرُ
والأرضُ خاشعةٌ تميدُ بثقلِهـا ... والجوُّ معتكر الجوانبِ أغبرُ

والشمس طالعةٌ توقّدُ في الضحَى طوْراً ويُطفئها العجاجُ الأكدَرُ
حتى طلعتَ بضوءِ وجهكَ فانجلتْ تلكَ الدُّجى وانجاب ذاكَ العِثْيَرُ
فافتنَّ فيكَ الناظرون فإصْبعٌ يوماً إليكَ بها وعينٌ تنظـــر
يجدون رُؤيتَكَ التي فازوا بها من أنعُـم الله التي لا تُكفرُ
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهللوا لما طلعتَ من الصفوف وكبّروا
حتى انتهيْتَ إلى المصلى لابساً نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ
ومشيْتَ مِشية خاشعٍ متواضعٍ لله لا يُزْهى ولا يتكـــبرُ
فلو ان مشتاقاً تَكلَّفَ فوق ما في وُسعه لسعَى إليكَ المنبرُ
أبديت من فصلِ الخطاب بحكمةٍ تُنبي عن الحـــق المبين وتخبرُ
ووقفتَ في بُرْد النبيِّ مُذكراً بالله تُنْـــذِرُ تارةً وتبشّرُ

(٧) ابن الرومي

هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج الرومي موْلى بني العباس ، الشاعر المكثر المطبوع ، صاحب النّظم العجيب ، والتوليد الغريب ، والمعاني المخترعة والأهاجي المقذِعة

وُلد ببغداد سنة ٢٢١ ﻫ ونشأ بها ، وأقام كل حياته بها وكان كثير التطيُّرِ جداً وكان القاسم بن عُبيد الله وزيرُ المعتز يخاف هجوه وفلتاتِ لسانه ، فسلط عليه من دس له السم في الدّسم إلى أن مات سنة ٢٨٣ ﻫ ببغداد .

شعره – قال الشعر في كل غرض ، ولا سيما الوصف والهجاء ، ونَبغَ في الشعر نبوغاً لم يقصر به كثيراً عن درجة البُحتري ، وربما فاقه في اختراع المعـــاني النادرة أو توليدها من معاني من سبقه بشكل جديد ، ووضعها في أحسن قالب . ومن جيِّد قوله :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنواله وأطال فيه فقد أطال هجاءهُ
لو لم يُقدِّر فيه بُعْدَ المستَقى عند الوُرود لما أطال رِشاءهُ

(٨) ابن المعتز

هو أبو العباس عبدالله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسي أشعر بني هاشم وأبرع الناس في الأوصاف والتشبيهات .

وُلد سنة ٢٤٩ هـ في بيت الخلافة وتربى تربية الخلفاء وأخذ عن المبرد وثعلب ومهرَ في كل علم يعرفه أئمة عصره ، وفلاسفة دهره ، حتى هابه وزراء الدولة وشيوخ كتّابها ، وعملوا على أن لا يقلدوه الخلافة ، خشيَة أن يكفَّ أيديهم عن الاستبداد بالملك ، وولوا المقتدِر صبيّاً ، ثم حدثَتْ فتنٌ عظيمة ، فتسرع محمد بن داود بن الجراح وجمع العلماء وخلعوا المقتدر ، وبايعوا ابن المعتز بالخلافة ، فلمّا رأى غِلمانُ المقتدر أن الأمر سيخرج من أيديهم تآمروا على قتله ، وخُنق من ليلته سنة ٢٩٦ هـ وشعره – سهل العبارة مع رشاقة وقِلة تكلف وتصنع – يعرفُ فيه نضرةُ النعيم .

(٩) أبو الطيب المتنبي

هو أبو الطيبِ أحمدُ بن الحسين الجُعفي الكندي الكوفي المتنبي الشاعر الحكيم ، صاحب الأمثال السائرة ، وخاتم الثلاثة الشعراء ، وآخر من بلغ شعرهُ غايةَ الارتقاء ، ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ هـ في محلةِ كِنْدة ، ونشأ بها ، وأولع بتعلم الشعر من صباه وخرج إلى بادية بني كلب فأقام بينهم مدّة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة فعظمَ شأنه بينهم ، حتى وشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قِبل الأخشيديّة بأن أبا الطيب ادّعى النبوة في بني كلب ، وتبعه منهم خلق كثير ، ويخشى على ملك الشام منه ، فخرج لؤلؤ إلى بني كلب وحاربهم ، وقبض على المتنبي وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه .

فخرج من السجن وقد لصق به اسم المتنبي مع كراهته له ، ثم تكسَّب بالشعر مدّة انتهت بلحاقه بسيف الدولة ابن حمدان ، فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر .

ثم قصد كافوراً الأخشيدي أمير مصر ومدحه ، ووعده كافورٌ أن يقلده إمارة أو ولاية – ولكنه لما رأى تغاليه في شعره وفخره بنفسه عدل عن أن يوليه ، وعاتبه بعضهم في ذلك فقال : يا قومُ من ادّعى النبوة بعد محمد ﷺ أما يدعي المملكة بعد كافور ؟ فحسبُكم – فعاتبه أبو الطيب واستأذن في الخروج من مصر فأبى ، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠ هـ – وخرج منها يريد الكوفة – ومنها قصد عضُدَ الدولة ابن بُويه بفارس ماراً ببغداد فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزَل صلته وعاد إلى بغداد ، وخرج إلى الكوفة فخرج عليه أعراب بني ضبة وفيهم فاتك بن أسد وكان المتنبي قد هجاه هجاء مقذعاً ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتِل المتنبي وابنه وغلامه سنة ٣٥٤ هـ .

شعره – لا خلاف عند أهل الأدب في أنه لم يبلغ بعد المتنبي في الشعر من بلغ شأوهُ أو داناه ، والمعري على بعد غَوْره ، وفرط ذكائه ، وتوقدخاطره ، وشِدّة تعمقه في المعاني والتصورات الفلسفية يعترف بأبي الطيب ويقدّمه على نفسه وغيره ، ويؤخذ هذا من قوله :

إذا رأيتَ نُيوبَ الليثِ بارزةً فلا تَظنَّنَّ أن الليثَ يَبتَسمُ
أعيذُها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسبَ الشحم فيمَن شحمهُ ورَم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدَبي وأسمعتْ كلماتي من به صَمَمُ
وما انتِفاعُ أخي الدّنيا بناظرِه إذا استوت عندَهُ الأنوارُ والظلم
يا من يعزُّ علينا أن نُفارقهم وجْداننا كلُّ شيء بعدكم عدمُ
إن كان سَرَّكم ما قال حاسِدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكم ألمُ

وبيننا لو رَعَيْتم ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النُّهى ذِمَمُ
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزُكم ... ويَكره الله ما تأتونَ والكرَمُ
إذا ترَحَّلت عن قوم وقد قَدَروا ... ألا تُفارقهم فالرّاحلونَ هُمُ

وقوله :

ذو العَقْل يَشْقى في النعيم بعَقْله ... وأخُوا الجهالة في الشقاوة ينعمُ
لا يخدعنك مِنْ عَدُوٍّ دمعُه ... وارحم شَبابَك من عَدُوٍّ تَرحَمُ
لا يسلم الشرف الرّفيع من الأذى ... حتى يُراق على جوانبه الدّمُ
والظلمُ مِنْ شيم النفوس فإن تجد ... ذا عِفّةٍ فلعِلّةٍ لا يَظْلمُ
ومِنَ البليّةِ عذل من لا يرعوي ... عن غيّه وخطابُ من لا يَفهَمُ
ومِنَ العَداوةِ ما ينالُكَ نفعُهُ ... ومِنَ الصَّداقة ما يَضُرُّ ويؤْلِمُ

وقوله :

ما كنت أحسبُ قبل دَفنِكَ في الثرى ... أن الكواكبَ في التّراب تَمورُ
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضْوى على أيدي الرّجال يسيرُ
خرَجوا به والكلُّ باكٍ حَوْلَه ... صعقاتُ موسى يَوْمَ دُكَّ الطورُ
حتى أتوا جدثاً كأنّ ضريحه ... في كُلّ قَلْبٍ مُوجَدٍ محفورُ
كفل الثناءُ له بِرَدّ حياتِه ... لما انطوى فكأنّهُ منشورُ

(١٠) ابن هانىء الأندلسي

هو القاسم محمدُ بن هانىء الأزْديُّ الأندلسي ، شاعرُ الغرب ومتنبّيه . وُلدَ بأشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ولما نبه شأنه اتصل بعامل إشبيلية زمن المستنصر الأموي ، ومدحه بغرر القصائد ، فأحله منزلة سنية ، وأغدق عليه العطايا ، فأكبّ على اللّهو والطرب والاستهتار ، واتّهم بالزّندقة والكُفر لاشتغاله بالفلسفة .

ولما شاع ذلك عنه نقم عليه أهل إشبيلية ، وأشركوا عاملها في التهمة ،

وكادوا يهمون به ، فأشار عليه بالهجرة من إشبيلية ، فاجتاز البحر إلى عدْوَة المغرب ، ومدح ولاته من قِبل المعز الفاطمي ، ثم نُمي خبرُه إلى المعز فوجَّه في طلبه ، فوفد عليه بإفريقية ، ومدحه فاصطفاه واتخذ شاعرَ دولته .

ولما فتح جوهر مصر ، وبَنى القاهرة ، ورحل إليها المُعِزُّ ليتخذها دار مُلكه شَيَّعَه ابن هانىء ، ورجع لأخذ عياله والالتحاق به فتجهَّز وتبعه ، ولما وصل إلى بَرْقة مات بها سنة ٣٦٢ ، وعمره ٣٦ سنة .

شعره : لَمْ يَنْبُغ في شُعراء جزيرة الأندلس ولا بَرِّ المغرب جميعه من يفوق « ابن هانىء » في صناعة الشعر أو يُساويه ، فقد كان عندهم في الشهرة والإجادة وشرف الشعر بمنزلة المتنبي عند المشارقة ، ومن قوله في وصف الخيل :

وصَواهِلٍ لا الهَضْبُ يَوْمَ مُغارها هَضْبٌ ولا البِيدُ الحُزُونُ حزونُ
عُرِفَتْ بساعة سَبْقِها لا أنها عَلِقَتْ بها يَوْمَ الرهان عُيونُ
وَأَجَلُّ عِلم البَرْق فيها أنها مَرَّت بجانحتيه وهيَ ظنونُ

ومن قوله الموهم الكُفْر في مطلع قصيدة يمدحُ بها المعزّ :

ما شِئتَ لا ما شاءَتِ الأقْدارُ فاحْكُم فأنتَ الواحِدُ القَهَّار

(١١) أبو العلاء المعري

هو أبو العَلاء أحمدُ بن عبدالله بن سُليمان المعري التنُّوخي ، الشاعر الفيلسوف وُلد بمَعَرَّةِ النعمان سنة ٣٦٣ ، وجُدِرَ في الثالثة من عمره فكُفَّ بصره وتعلمُ على أبيه وغيره من أئمة زمانه ، وكان يحفظ كل ما يسمعه من مرة واحدة ، وقال الشعر وعمره إحدى عشرة سنة ، ودخل بَغْداد ، وأقبلَ عليه السيد المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦ ﻫ إقبالاً عظيماً ثم جفاه ، ولما رجع إلى المعرة أقام ولم يبرح منزله ، ونَسَكَ وسمى نفسه رَهين المحبِسَين : (مَحْبِس العمى ، ومَحْبِس المنزل) وبقي فيه مُكِباً على التدريس والتأليف ، ونَظْم الشعر مُقْتنعاً بعشرات من الدنانير في العام يستغلها من عقار لهُ مُجْتَنِباً أكلَ الحيوان وما

يخرجُ منه مدة ٤٥ سنة مُكتفياً بالنبات والفاكهة والدّبس ، مُتعللا بأنه فقير ، وأنه يرحم الحيوان . وعاش عَزَباً . وعمّر إلى أن مات سنة ٤٤٩ من الهجرة بالمعرّة وأوصى أن يُكتب على قبره :

هذا جَناهُ أبي عليّ وما جَنَيْتُ على أحـــد

شعره : وله كثيرٌ من الشعر يُناقضُ بعضه بعضاً في حقيقة العالم والشرائع والمعبود ، وللناس في اعتقاده أقوالٌ كثيرة ، والظاهر أنه كان شاكّاً متحيّراً ، وهو أحكم الشعراء بعد المتنبي ويُفضل عليـه في الغريب والأخيلة الدقيقة والطبيعيات والاجتماعيات والأخلاق ، والقوانين ونظام الحكومات ، والفلسفة والشرائع والأديان ، ولذلك يفضله الإفرنج عليه ، وهو في هذه الأمور معدوم النظير ، ومن مراثيه الجيدة قوله :

غيرُ مُجْدٍ في مِلّتي واعتقادي نَوْحُ باكٍ ولا ترنّم شـــادِ
وشَبيهٌ صوتُ النَّعيّ إذا قيـسَ بصوت البشـير في كل نادِ
أبَكَتْ تِلكمُ الحمامة أم غَنّتْ على فرْع غُصنـها الميـادِ
صاحِ هذي قبورُنا تملأ الرّحْـبَ فأين القُبور من عهد عـادِ
خفّف الوَطءَ ما أظنّ أديمَ الأرضِ إلا مِنْ هذه الأجْسادِ
وقبيحٌ بنا وإنْ قَدُمَ العَهْـدُ هَوانُ الآباءِ والأجْـدادِ
سِرْ إن اسطعْتَ في الهواء رويداً لا اختيالاً على رُفاتِ العبادِ
ربّ لحدٍ قد صار لحداً مراراً ضاحكٍ من تزاحُم الأضـدادِ
ودفـين على بقـايا دفـين في طويل الأزمانِ والآبادِ
فاسأل الفرْقَدَين عمّن أحَسّا من قبيـل وآنَسا من بلادِ
كم أقاما على زَوال نَهـار وأنارا لمدلِـج في سَـوادِ
تَعَبٌ كلها الحياةُ فما أعْـجَبُ إلا من راغِـبٍ في ازديادِ
إنّ حُزْناً في ساعةِ الموت أضعا فُ سُرورٍ في ساعةِ الميلادِ
خُلِق الناسُ للبقاءِ فضَلّتْ أمةٌ يَحْسَبونهـم للنفـادِ

إنما يُنْقلون من دار أعمـــا لٍ إلى دار شِقْوةٍ أو رشادِ
ضجعةُ الموت رَقْدة ٌ يستريحُ الـجسمُ فيها والعيشُ مِثلَ السُّهادِ

ومنها :

بانَ أمْرُ الإلهِ واختلف النـا س فداعٍ إلى ضلالٍ وهـَـادِ
والذي حـارت البرية ُ فيـــه حَيوان مُسْتَحْدَث ٌ مِنْ جمادِ
فاللبيبُ اللبيبُ مَنْ ليس يَغْتَرُ بكَـــوْنٍ مَصيره للفَسادِ

وله :

ضحكنا وكان الضحك منّا سَفاهَة ً وحق لسُكان البسيطة أن يبكوا
تحَطِّمُنا الأيام حتى كأننـا زجاجٌ ولكن لا يُعاد لنا سَبْك

(١٢) ابن خفاجة الأندلسي

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عبـــد الله بن خفاجة (شاعر شرقي الأندلس) وأشهرُ وُصّاف الطبيعة . وُلد بجزيرة شُقْر من أعمال بلنسية شرقي الأندلس سنة ٤٥٠ هـ ، فتعلم ونظَم الشعر ، وكتب الرسائل الإخوانية البليغة ، ومـا زالت شمسُ أدبه في صعود حتى صار واحدَ زمانـه في الأندلس ، وغلبَ على شعْرهِ وصفُ الحوادث الجوية ، ومناظر الطبيعة بأخيلة جميلة وتشبيهاتٍ بديعة. وله غـَزلٌ رقيقٌ ، ومدحٌ بارعٌ ، ورثاء بليغٌ .

شعره : يمتاز بالجزالة وكثرة المعاني وازدحامِها في اللفظ ، حتى يحتـاج في فهمها إلى التأمل على خلاف مذهب الأندلسيين . وتوفي سنة ٥٣٣ هـ .

ومن قوله يصف زهرة :

ومائِسَةٍ تَزْهى وقد خلع الحيا عليها حلىً حُمراً وأدية ً خُضرا
يذوبُ لها رِيق الغمائم فِضّة ً ويَجْمُدُ في أعطافها ذهباً نضرا

وقوله :

يا أهـلَ أندلُس لِلهِ دَرّكم ماءٌ وظـلٌ وأنهـارٌ وأشجارُ

ما جَنّةُ الخُلدِ إلا في دياركم ولوتخيّرتُ، هذي كنتُ أختارُ
لا تختَشوابعد ذا أن تدخلواسقَراً فليس تُدْخَلُ بعد الجنة النارُ

وقال في ذم علماء السوء من المسلمين والنصارى :

دَرَسُوا العلوم ليَمْلِكوابجدالهم فيهـا صُدورَ مراتب ومجالِسِ
وتزَهَّدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالِ مَساجِدٍوكَنائِسِ

(١٣) الطغرائي [1]

هو مؤيد الدين الأستاذ العميد فخر الكتّاب أبو إسماعيل الحسين بن محمد الطغرائي ، صاحب (لاميّة العَجَم) وهو أصبهانيّ الأصل ، برعَ في الكتابة والشعر حتى كان أوحدَ زمانهِ ،ولم ينبُغ بعده في الشرق مَنْ يُضاهيه،وترقّت به الحالُ في خدمة سلاطين آل سَلجوق إلى أن صار وزيراً للسلطان مسعود بن محمد السلجوقي صاحب الموصل ، ولما قهره أخوه السلطان محمودٌ كانَ أول مَنْ اعتقل الوزير أبو إسماعيل الطغرائي ، فدسّ بعض حَسدته من رُؤساء الكتّاب إلى السلطان محمود أنه مُلحِد ، فقتله ظلماً سنة ٥١٣ .

ومن شعره لاميّة العَجَم المعتبرة من عُيون الشعر ، وقد كان قالها ببغداد سنة ٥٠٥ هـ .

(١٤) البهاء زُهير

هو الوزير الشاعر الكاتبُ أبو الفضل بهاء الدين زُهَير بن محمد بن علي المهلبي الأزْدي المصري ، صاحب السهل الممتنع ، والغزل الرّقيق والعِتاب الرّفيق .

وُلد بوادي نخلة قرب مكة سنة ٥٨١هـ . ونشأ بمصر ببلدة قوص ، ثم اتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخرج معه في خدمته إلى بلاد الشام والجزيرة ، فلما نُكب الملك الصالح بخيانة عسكره وانضوائهم إلى ابن عمه

(١) الطغرائي من يكتب الطغراء (وهي الطرة) وكانت تكتب في الدولة السلجوقية فوق البسملة بخط معلق فيها نعوت السلطان وألقابه .

الملك الناصر ، صاحب الكرك وقبضَ على الصالح واعتقله ، حَفظ البَهاء عهدَ صاحبه ، ولم يخدم غيره ، وأقام بنابلس حتى استردّ الصالح مُلك الديار المصرية فقدمَ إليها في خِدمته واتخذه وزيراً – حتى مات بوباء في شوال سنة ٦٥٦ هـ .

شعره - كانت سُهولة طباع زُهير تفوق سهولة شعره الذي هو أسهل نظماً ولفظاً.

الرّواية والرُّواة

جاءت الدولةُ العباسية وقد اتسع نطاق الرواية ، واختَص كلُّ فريق من الناس برواية شيء فلما دُوّنت الكتبُ في عصر الدولة العباسية أفرغ الرواة ما حفِظوه فيها ، وأخذَ أمر الرّواية يضمحِل شيئاً فشيئاً في أكثر العلوم ، ولا سيما الأدب ثم اقتصِرَ في الرواية على تصحيح النطق والأداء – ولكل علم رُواةٌ مشهورون .

وأما رُواةُ الأدب والشعر خاصة فأشهرُهم «حماد» الراوية الكوفيُّ و(خلفٌ الأحمرُ البصْري) وأبو عمرو الشيباني الكوفيُّ ، والسكريُّ البغدادي .

ومن رُواة الأدب بجميع فنونه لغة وشعراً وأخباراً–أبو عمر بن العَلاء وأبو عَبيدة مَعمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيْد الأنصاري ، وأبو عبيد القاسم بن سَلام ، ومحمد بن سلام الجُمحي ، وغيرهم ؛ وهاك ترجمة اشهرهم في الرواية.

الأصمَعي

هو شَيخ رُواة الأدب ، الإمام الثبْتُ الحجة الثقة التقيُّ ، أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن عليّ بن أصمع الباهِلي البصري .

ولد سنة ١٢٣ هـ – ونشأ بالبصرة ، فأخذ العربيةَ والحديث والقراءة عن أئمة البصرة ، وأخذ عن فصحاء الأعراب ، وأكثر الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب وساكنهم ، وتعلم من (خلف الأحمر) نقدَ الشعر ومعانيه ؛ وكان أحفظ أهل زمانه حتى قال مرةً: إني أحفظ اثني عشر ألف أرجوزةٍ ، فقال له رجلٌ : منها البيتُ والبيتان ، فقال: ومنها المائة والمائتان . وعمّر حتى أدركَ زمن « المأمون » وأراد وزيره أن يقدِمه إليه فاعتذر بكبر السن ، ومات سنة ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات كثيرة .

العصر الرابع عصر المماليك التركية : ٦٥٦ — ١٢٢٠ هـ

حالة اللغة العربية وآدابها في ذلك العصر

لما اكتسح التتار ممالك الدولة العباسية افترقوا إلى ممالك متعددة بآسيا وشرقي أوربا ، ولم يلبثوا أكثر من نصف قرن حتى أسلموا ، وشرعوا يخدمون الإسلام بتقريب العلماء إليهم ، وترغيبهم في التأليف ، فأفاد ذلك في إدامة الحركة العلمية في الجملة ، وإن لم يفد اللغة العربية فائدة تذكر لمكان العُجْمة منهم ،أما علوم العربية وآدابُها فلم يكن لها مَباءةٌ ترجع إليه إلا البلاد العربية كالشام ومصر، غيرَ أن اللغة التركية العثمانية أصبحت هي اللغة الرسمية للأعمال الديوانية والسياسية في جميع الممالك العثمانية ، فزاحمت اللغة العربية ودخل في اللغة أثناء دولتي المماليك والعثمانيينَ كثير من الالفاظ التركية والفارسية .

النثر — لغة التخاطب

كادت تحلُّ محلَّ اللغة العامية العربية (في أعالي الجزيرة وشرقي العراق) اللغه الفارسية والتركية والكرْدية ممزوجة بشيء من الالفاظ العربية .

أما في بقية الجزيرة والعراق ومصر والشام فقد بقيت العامية العربية لسان الجميع لغلبة العناصر العربية فيها ، ثم أخذت العناية بها في الانحطاط .

الخطابة

لم تتغير الخطابة عما كانت عليه أواخر الدولة العباسية من حيث قصورها على خطب الجُمَع والاعياد ، وتلاوة بعض المرسومات والمنشورات ، وبقيت لغة الخطابة العربية وحدها ، أو مع الترجمة إلى الاعجمية .

الكتابة ، الكتابة الخطية

دَرَجَ الخط في هذا العصر في الطريق التي مهدها ابن مُقلة، وابن البواب

وياقوت المَلَكي ، وياقوت المستعصمي ، واستعملت فيه أكثر أنواعه، وما زال الخط يجري في مضماره ، حتى قَبَضَ على عِنانه مُكتّبُو الترك العثمانيين ، فأبدعوا في تحسينه بما جعل جميع العالم يعترف لهم بالسبق ، ومن أشهرهم الشيخ حمد الله الاماسي إمام الخطاطين العثمانيين ، وجـلال الدين ، ودرويش علي ، والحافظ عثمان المتوفى سنة ١١١٠ هـ .

الكتابة الانشائية — كتابة الرسائل

اتبعت في كتابة الرسائل أثناء العصر طريقة القاضي الفاضل التي أساسها المعاني الخيالية ، والتزام السَّجْع والمحسنات البديعية ، وعضد هذه الطريقة من كتاب هذا العصر — شهاب الدين محمودٌ الحلبي المتوفى سنة ٧٥٥هـ — ومحيي الدين ابن عبد الظافر وابن فضل الله العمري وأولاده ، وبقيتْ هذه الطريقة مَرْعية في مصر والشام حتى نهاية دولة المماليك ، وصَدْر حكومة العثمانيين ، ولما غلبت التركية العثمانية على كتابة الدواوين وأصبحت رسمية في الحواضر والأمصار أخذ شأن الكتابة العربية في الاضمحلال

الكُتّاب

(١) القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر

هو الكاتب الشاعر عبدالله بن عبدالله الظاهر الجُذامي المصري ، ولد سنة ٦٢٠ هـ ، ورَبّاه والده ، وبرع في كتابة الرسائل ، سالكاً طريقة القاضي الفاضل ، وخدم في ديوان الإنشاء مدة الملك الظاهر بيبرس وولديه ، وبعض أيام المنصور قَلاوون ، ويعتبر محيي الدين وابنه محمد فتح الله من واضعي اصطلاح الإنشاء ونظام ديوانه الذي ظلّ مرْعياً في مصر والشام حتى نسخه النظام التركي العثماني ، وتوفي سنة ٦٩٢ ، وله من رسالة كتبها على لسان الملك المنصور قلاوون يرد على صاحب اليمن في تعزيته على موت ابنه ، ويظهر التجلد على فقده :

ولنا (والشكر لله) صبرٌ جميلٌ ، ولا نأسفُ معه على فـائت ، ولا نأسى على مفقود ، وإذ علم الله (سبحانه وتعالى) حسنَ الاستبانة إلى قضائه ، والاستكانة إلى عطائه ، عوّض كلّ يوم ما يقول المبشرُ به : هذا مولى مولود ، وليست الإبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب ، لا يُبالي بالصدَمات كثرت أو قلت ، ولا بالتباريح حقرَت أو جلت ، ولا بالأزمات إن هي توالت أو تولّت ، ولا بالجفون إن ألقت ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت ، ويخاف من الدهر من لا حلَبَ أشطرَه ، ويأسفُ على الفائت من لابات بنبأ الخطوب الخطرة ؛ على أن الفادح بموت الملك الصالح (رضي الله عنه) وإن كان مُنكياً ، والنـافحَ بشجوٍ وإن كان مُبكياً ، والنائحَ بذلك الأسف وإن كان لنار الأسفِ مذكياً ، فإن وراء ذلك من تثبيت الله عز وجل ما يَنسفه نسفاً ، ومن إلهامه الصبرَ ما يجدّدُ لتمزيق القلوب أحق ما به ترفـأ ، وبكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ عندنا حسن اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحاً .

(٢) شهاب الدين بن فضل الله العمري

هو الشـاعر الكاتب المصنّف أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل الله العمَري ، سليل عمر بن الخطاب ، وصاحب كتاب « مسالك الأبصار » ولد بمدينة دمشق سنة ٧٠٠ ؛ وتفقهَ وتأدّب على أبيه وغيره وتوفي سنة ٧٤٩ هـ ومن إنشائه في وصف (قِطّ زَبّاد من رسالة طويلة : « (وقط الزباد) الذي لا تحكيه الأسود في صورها ، ولا تَسمح غزلان المسك بما يخزُنه من عرفه الطيب في سرَرها ؛ كم تنقل في بيوت طـابتْ موْطناً ، ومشى من دار أصحابه فقالوا : (ربّنا عجل لنا قطنا) » .

(٣) لسَان الدين بن الخطيب

هو أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد الغرناطي الأندلسي المعروف بلسان

الدين بن الخطيب وزير بني الأحمر ملوك غرناطة ، وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف وُلدَ سنه ٧١٣ هـ بمدينة غرناطة ، وتأدب وتفقه واجتمع له من الحكمة والأدب مَلِكة يبذ بها أدباء الأندلس كتابة وشعراً وتصنيفاً وسياسة ومات مقتولاً سنة ٧٧٦ هـ .

ومن قِصَار رسائله رسالة في الشوق ، كتبها إلى ابن خلدون ، وهي بعد الدّيباجة . « أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرجْ ، وأما الصبر فصلْ به أيةَ درَجٍ ، بعد أن تجاوزَ اللوى والمنعرجَ ، لكن الشّدةَ تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من روْح الله الأرج ،وأنّى بالصبر على إبر الدّبر؟ ومُطاوَلة اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ، وهل للعين أن تسْلو سلو المقصر، عن إنسانها المبصر ؟ أو تذهل ذهول الزاهد عن سرها الرائي والمشاهد . وفي الجسد مُضغة يصلحُ إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزَحت؟ وإذا كان الفراق هو الحمامَ الأول ، فعلام المعول ؟ أعيتْ مراوضةُ الفراق على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق أن تفضي إلى السياق :

تركتموني بعدَ تشييعكم أوسِعُ أمرَ الصبر عصياناَ
أقرّعُ سنّي ندَماً تارة وأستميح الدمع أحياناَ

التــــدوين

ألف علماء هذا العصر تآليف جمة أخلفت على العربية بعض ما أباده التتار والصليبيون من الكتب النفيسة . ويرجع أكثر الفصل في ذلك إلى علماء مصر والشام وجالية الأندلس. أما أعاجمُ المشرق وإن ألفوا في العلوم الإسلامية والفلسفية فإن تأثير بيئتهم الأعجمية جعل كتبهم صعبة التناول ، ضعيفة الأثر .

الأدب

قد كان لأدباء القاهرة من الكتاب السبقُ في وضع الكتب الجامعة التي

تبحث في عدة علوم أدبية أو ملحقة بها ، ومن هؤلاء : شهاب الدين النوَيري صاحب نهاية الأرب ، وابن فضل الله العُمَري صاحب مسالك الأبصار ، وشهاب الدين القَلقشَنْدي صاحب صبح الأعشى . وممن ألف في الأدب بمناح مختلفة : جمال الدين الوطواط صاحب الغرَر والعرَر ، وشهاب الدين الحلبي صاحب منازل الأحباب ، وحسن التوَسل إلى صناعة الترَسل ، وشهاب الدين الأبشيهي صاحب المستطرف ، والنوَاجي صاحب حَلْبَة الكميت .

بقية العلوم الاسلامية

لما أباد التتار بقية العلماء والنحاة في الشرق ، كاد أفق المشرق والشام ومصر يصفر من النحاة وأهل اللغة ، لولا أن تدَاركهما الله بدخول التتار في الإسلام ومعاضدتهم هم والدول التي خلَفتهم للعلم والعلماء ، وبجلاء بعض كبار النحاة واللغويين من الأندلس والغرب قبَيْلَ حادث تتار وبعده كابن مالك والشاطبي وأبي حيان وابن مَنظور الإفريقي ، فجددوا النحو واللغة بمصر والشام ، وتخرج عليهم تلاميذ أفاضل كانوا كواكبَ العصور المتأخرة فدَوّنوا العلم وحفظوه لمن أتى بعدهم ممن نشأوا في العصور المظلمة .

كتابة التدوين والتصنيف

أما كتابة التدوين فكانت في المتون ونحوها موجزة جداً ، وكانت في الشروح والمطولات مبسوطة . ومن أشهر المؤلفين في هذا العصر : ابن خلكان ، وابن خلدُون والسيوطي ، وابن مكرم ، والفيرُوزَابادي ، وعزالدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ وابن حجر العسقَلاني المتوفى سنة ٨٥٢ هـ . وابن هشام النحوي المتوفى سنة ٧٦١ هـ — ولسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦هـ — وسعد الدين التفتازاني المتوفى سنة ٧٩١هـ والسيد الجرجاني المتوفى ٨١٦هـ — والشهاب الخفاجي .

(١) ابن خلكان

هوقاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر خلكان الإربلي ، ولد سنة ٦٠٠ هـ بمدينة إربل : وأقام بها إلى سنة ٦٢١ هـ ، ثم رحل إلى حلب ومكث بها سنتين ، ثم عاد إلى دمشق ، وأقام بها مدة، ثم أقام بمصر، وتولى القضاء بها وفيها ألف أكثر تاريخه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) ثم تقلبت به الأحوال بين مصر والشام ـ إلى أن مات سنة ٦٨١ هـ . ثم تمم عليه محمد بن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ كتابه (فوات الوفيات) .

(٢) ابن خلدون

هو عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون ، ولد بتونس سنة ٧٣٢ هـ ، وتلقى العلم والأدب من أبيه ومن أكابر العلماء ، وقرأ الكتب العقلية والفلسفية على بعض حكماء المغرب ، واحترف بصناعة الكتابة وهو شاب لم يطر شاربه ، ثم وصل بعد ذلك إلى ملوك بني الأحمر ؛ فحظي عندهم .

وألف تاريخه في خلال أربعة أعوام ، ومقدمته التي لم ينسج أحد على منوالها ثم عزم على الحج ، فدخل مصر سنة ٧٨٤ هـ ، زمن سلطانها برقوق ، ثم استقدم أهله وولده من المغرب، فغرقت بهم السفينة،فأقام بمصر حزيناً،وجلس للتدريس بالجامع الأزهر ، وتولى قضاء المالكية سنة ٧٨٦ هـ إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ

(٣)جلال الدين السيوطي

هو عبد الرحمن جلال الدين بن الإمام كمال الدين الخضيري السيوطي ، ولد سنة ٨٤٩ ، ونشأ يتيماً وحفظ القرآن وعمره دون الثمان ، وأخذ العلم عن مشايخ وقته ، وابتدأ في التصنيف وسنه ١٧ سنة ، ثم لازم الأشياخ وطلب العلم في بقاع الأرض ، ونبغ في كثير من العلوم ، وتولى التدريس والإفتاء ، ولم يكن أشهر منه في زمنه،وقد ترك للناس أكثر من ثلثمائة مصنف وتوفي سنة ٩١١ هـ بالقاهرة.

الشعر

لما كان أكثر الملوك والأمراء في هذا العصر أعاجم بالفطرة كان ميلهم إلى الشعر العربي غير طبيعي ، ولذلك انقرضَ الشعرُ العربي من أواسط آسيا ، وبقيتْ صبابةٌ منه بالعراق والجزيرة ، وبقيَ على شيء من الرونق في الشام ومصر والأندلس والمغرب ، غير أنه قل التكسبُ به فيها ، فمال أكثرُ الشعراء إلى انتحال الكتابة في الدَّواوين صناعة ، واستعملوا الشعر في تملق الملوك والرُّؤساء وفي إظهار التفصح والتسلية ، فهجر قوله في الأغراض الهامة ،وعُدِل به إلى أغراض أخرى .

الشعراء

ظهر في هذا العصر شعراء كثيرون ، من أشهرهم ، شرف الدين الأنصاري المتوفى سنة ٦٦٢ هـ ، وجمال الدين بن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨هـ ،وشهاب الدين التلعفري المتوفى سنة ٦٧٥ هـ ، والشاب الظريف المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ، والإمام البوصيري المتوفى سنة ٦٩٥ هـ ، وابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ، وأبو بكر بن حجة الله المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، وصفيّ الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ ، وفخر الدين بن مكانس المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ، وابن معتوق الموسوي المتوفى سنة ١١١١ هـ .

١ – البوصيري

هو شرفُ الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري ، صاحب البردة والهمزية ، ولد بدلاص ، ونشأ ببوصير . ثم انتقل إلى القاهرة ، وتعلم علوم العربية والأدب ، فقال الشعر البليغ في جده وهزله ، ومن شعره الجيد قوله في بردته :

أمِنْ تذكرِ جيرانٍ بذي سلمِ مزَجْتَ دمعاً جرى في مقلة بدمِ

أم هبت الريحُ من تلقاء كاظمة ... وأومضَ البرقُ في الظلماء من إضم
فما لعينيكَ إنْ قلت اكففا همتا ... وما لقلبك إنْ قلت استفق يهم
أيحْسَبُ الصبُ أنّ الحبّ منكتمٌ ... ما بين منسجم منـه ومُضطرم

ومنها :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على ... حب الرّضاع وإنْ تفطمه ينفطم
فاصرف هَواها وحاذرْ أن توليه ... إن الهوى ما تولى يُصْمِ أو يَصِمِ
ورَاعِها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتـلة ... من حيث لم يَدْرِ أن السم في الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخـم
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأت ... من المحارم والزم حميـة الندم

ومن قصيدته الهمزية في مدح النبي عليه الصلاة والسلام التي أولها :

كيف ترقى رُقيّك الأنبيـاءُ ... ياسماء مـا طاولتهـا سماءُ
لم يُساوُوك في عُلاكَ وقد حا ... ل سناً منـك دونهم وسناءُ

وتُوفي البوصيري سنة ٦٩٥ هـ بالاسكندرية ، وقبره بها مشهورٌ يزار .

٢ - صفي الدين الحِلّي

هو عبد العزيز بن علي الشهير بابن سرايا الطّائي الحلّي شاعر الجزيرة .

ولد سنة ٦٧٧ هـ ونشأ بمدينة الحلة من مدن الفرات ، فتأدب ونظم الشعر وتوفي سنة ٧٥٠ هـ ؛ ويعتبر صفي الدين من أئمة البديع المبتدعين في أنواعه المغالين في استعماله من شعرهم بـلا كثير تكلف ، وهو أول من نظم القصائد النبوية الجامعة لأنواع البديع المسماة بالبديعيات ، مثال بردة البوصيري ومن قوله في الأدب :

إسمع مخاطبة الجليس ولا تكن ... عجـلا بنطقك قبلما تتفهم
لم تعط مع أذنيك نطقاً واحداً ... إلا لتسمع ضعف مـا تتكلم

وله :

بقدر لغاتِ المرءِ يكثرُ نَفعُه ... فتلكَ له عِندَ الشدائد أعوانُ
تَهافَتْ على حِفظ اللغات مجاهداً ... فكلّ لِسانٍ في الحقيقة إنسانُ

٣ – ابن نُباتة المصري

هو جمالُ الدين محمد بن محمد المعروف بابن نُباتة ، أشعر شعراء المصريين زمن المماليك. ولد سنة ٦٨٦ هـ. ونشأ بالقاهرة ومات سنة ٧٦٧ هـ ، ومن شعره قوله :

يامشتكي الهمّ دعْه وانتظرْ فَرَجاً ... ودارِ وَقْتكَ من حينٍ إلى حينِ
ولا تُعانِدْ إذا أصبحتَ في كَدَرٍ ... فإنما أنت من ماءٍ ومن طينِ

٤ – ابن معتوق الموسويّ

هو شهـــاب الدين بن معتوق الموسوي ، شاعر العراق في عصره ، وسابقُ حلبته في رقة شعره . وُلد سنة ١٠٢٥ هـ ، ونشأ بالبصرة .

وابن معتوق من كبار شعراء الشيعة مَدح عليّاً والشهيدين بما يخرج عن حدّ الشرع والعقل . ومات سنة ١١١١ هـ

ويمتاز شعره بالرّقة وكثرة المجازات ، حتى لتكادُ الحقيقةُ تُهمل فيه جُملةً .

العصر الخامس : عصر النهضة الأخيرة

محمد علي – سنة ١٢٢٠ هـ

قَدِم « محمد علي » إلى مصر ضابطاً في الحملة التي وَجّهَتها تركيـا لإخراج الفرنسيين من مصر ، وكان راجح العقل ، استطاع أن يجمع حولهُ أعيان المصريين وكبار عُلمائهم بلطف مُعاملتهم وحُسْن معاشرتهم ، فأحبُّوه وآثروه ، وأعانوه على الحكومة التركية حتى قلدته ولايةَ مصر وهي لذلك كارهةٌ .

وكان أول همٍّ لمحمد علي في ولاية الحكم أن يتخلص من المماليك ، وأوقـع بجمهرتهم في القلعة سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١ م) .

بعد ذلك وَجّهَ همّته إلى أن يُنشىء جَيشاً له كلُّ ما للجيوش الحديثة ، فأنشأ

في قصر ابن العيني مدرسة حربية إعدادية سنة ١٨٢٥ م وجمع فيها التلاميذ من طوائف مختلفة إلا المصريين ، غيرَ أن هذه التَّجربة أخفقَتْ فاضطُرَّ إلى أن يجعل أكثر التلاميذ بعدُ من المصريين، وكانت لغة التعليم الأساسية هي التركية، وكانت تُدرَّسُ إلى جانبها العربيةُ وغيرها ، وكان قد سبق فأرسل طائفة من المماليك إلى بعض البلاد الأوربية لدراسة الفنون الجُنْدية .

ثم أنشأ مدرسة أركان الحرب في جهة أبي زعبل من ضواحي القاهرة ، ودعا لها بأساتذة من الفرنسيين .

مدرسة الطب

علمت أن همّة محمد علي اتجهت بادىء الأمر إلى إنشاء جيش منظم مجهز بجميع الوسائل الحديثة،ولم يكن في مصر إلى ذلك الوقت أطباء اللهم إلا َنفراً قليلاً من الإفرنج لتطبيب مرضى الجاليات الأجنبية ، وكانت إذا َنشِبت المعارك الحربية يُدْعى بالحلاقين ليأسوا الكلوم ويضمدوا الجروح، لهذا عمد محمد علي إلى إنشاء مدرسة طبية بجهة أبي زعبل في سنة ١٣٤٢ هـ (١٨٢٦ م) يقوم بإزائها مستشفى كبير ، ودعا لها بأساتذة من الإفرنج ، وكان التعليم في هذه المدرسة شاقاً مجهداً ، فإن أساتيذها لم يكونوا يعرفون العربية ، وطلابها لا علم لهم باللغات الأفرنجية ،فدعت هذه الضرورة إلى أن يقوم بين الأساتذة وتلاميذهم مترجمون .

إيقاظ محمد علي الشرق بحُسن بلائه في السياسة والحرب

استمكن سُلطان محمد علي بما أعدّ من جيش قويّ في البرّ ، وأسطول عظيم في البحر ، وعلم عالٍ يأخذ به أبناء البلاد ، ومعامل ومصانع أغنته عن كثير ممّا يَرِد من الغرب ، ومشروعات للري ضاعف بها استثمار الأرض ، وغير ذلك من وسائل الإصلاح،ولقد استعانت به تركيا في إخماد الفِتَنِ في أطراف بلادها، كما استعانت به في حروبها مع الدول الأخرى ، كما تمكن بجيشه من فتح السودان

كما اقتطع شطراً من أملاك تركيا بعد أن شجر الخُلف بينه وبينها ، وكاد يظفر بحاضرة مُلكها لولا أن تألبت عليه الدول الأوربية وحُلْن بينه وبين غايته.

أما الأسطول الضخم الذي بناه محمد علي ، فقد أحرقته تلك الدول غيلة في واقعة « نافارين » ولقد أتى بالعلماء والأساتذة وأهل الفنون من أوربا ، وبعث البعوث إلى بلادها ، وأقام المدارس في مصر على نهج مدارسها ، وتقدم بترجمة ما يُحتاج إليه في وسائل الحياة المختلفة ، وبهذا وغيره انتظمت العلاقات بين الشرق والغرب .

إسماعيل وإتمامه بناء جدّه

قُبض محمد علي باشا في سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩ م) بعد أن حكم مصر أكثر من أربعين سنة بعثها فيها من الموت بعثاً ، وأنهضها نهضة قوية تَلَفَّتَ لها وجْهُ التاريخ ، وما كاد الملك يصيرُ إلى حفيده عباس الأول حتى خَبَتْ تلك النهضة فأغلقت المدارس ، وعُطلت المصانع وفترت تلك الحركة العظيمة التي تناولت جميع مرافق الحياة في البلاد ، وكذلك كان شأنُ خلفه سعيد بن محمد علي طول أيام حُكمه ، حتى إذا انتهت ولايةُ مصر في سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٣ م) إلى إسماعيل ابن إبراهيم بن محمد علي تأثرَ في سبيل الإصلاح بخطى جدّه العظيم وراحَ يُتِم ما بُنيَ لجدِ مصر ، ونهضَ بوجوه الإصلاح التي تقوم عليها الثروة والقوّة والعلم والعظمة في كل البلاد .

مظاهر النهضة الحديثة في العلم والأدب

لم يكن للبُعوث العلمية التي أوفدها محمد علي في مُبْتدأ الأمر إلى أوروبا شأن جليل . وأولها كان في سنة (١٨١٣ م) على أنه ما برح يُوالي إرسال البُعوث حتى كانت سنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) إذ أوفد إلى أوربا بعثة عظيمة يزيدُ عددُ

طلابها على الأربعين ، أحرزوا قبل سفرهم قدراً صالحاً من التعليم والتثقيف . وظل بعد هذا يوفد البعوث العلمية إلى مختلف البلاد الأوربية للتبحر في العلوم والفنون ، ولم يَقْنَع بهذا بل أقام في باريس نفسها «مدرسة» جمعت نحو الأربعين طالباً ، فيهم بعض الأمراء من أولاده وأحفاده .

الترجمة والتأليف

كان أوّل عهد مصر بالترجمة في هذا العصر ، ما قام به أولئك المترجمون الذين جاء بهم محمد علي ليؤدّوا بالعربية إلى طلبة مدرسة الطب ما كان يُلقيه عليهم أساتذتهم من الدروس باللغة الأجنبية . فلما أخرج بعض هؤلاء الأساتذة بلغاتهم كتباً ورسائل في فنون الطب ، وأُريد ترجمتُها إلى العربية جاء محمد علي بطائفة ممن تفقهوا في العربية لمعاونة أولئك المترجمين على تحرير العبارة وضبط المصطلحات العلمية ، بقدر ما اتسع له علمهم بالعربية ، وما عثروا عليه من مصطلحاتهم ، وكان هذا عملاً شاقاً مضنياً .

وكانت جَمْهرة المترجمين أوّل الأمر من الأطباء ، لأن الطب أوّلُ العلوم الحديثة التي عُنيَ بدراستها في مصر بعد العلوم الحربية ، ثم توالت الترجمة في العلوم والفنون الأخرى على يد من تخرّجوا فيها من الطلاب .

أما التأليف في العلوم الحديثة فكان في مبتدأ الأمر ضئيلاً ، وكان أكثره من وضع الأجانب الذين جاء بهم محمد علي ليبتغي بهم وسائل الإصلاح المنشود .

على أن المصريين قد جعلوا يُقْبِلون على مُعالجته ، وخاصة من عهد إسماعيل حتى بلغ اليوم غاية محمودة ، ما زالت البلاد تتطلع منها إلى المزيد [١] .

---

(١) ومن أبرع من برعوا (في أثناء هذه النهضة) في التأليف والترجمة في فنون الطب والصيدلة مرتبين على حسب تاريخ وفياتهم : إبراهيم بك النبراوي ١٢٧٩ هـ (١٨٩٢م) وأحمد بك حسن الرشيدي ١٢٧٢ هـ (١٨٦٥م)، ومحمد علي باشا البقلي ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) وأحمد بك ندى ١٢٩٤ هـ ، ١٨٧٧ م) وسالم باشا سالم =

حالة اللغة العربية وآدابها في هذا العصر

كانت حالة البلاد العربية في أوائل القرن الثالث عشر غايةَ ما وصلت إليه من الفساد والاضمحلال، فلما استولى محمد علي باشا على مصر رأى ـ كما علمت سابقاً ـ أن يربّي من يكون خيرَ واسطة لنقل المعارف الأوربية إليها ، فبعث إلى أوربا بثلاثة بعوث علمية في أزمنة مختلفة ، كوّنت بعد ذلك ثلاث طبقات من العلماء والأطباء والمهندسين والضباط ، فنقلوا إلى اللغة العربية عشرات الكتب الجليلة

= ١٣١١ هـ (١٨٩٣م) ، ومحمد الدري باشا ١٣١٨ هـ (١٩٠٠م) ، وحسن محمود باشا ١٣٢١ هـ (١٩٠٣م) . وممن برعوا كذلك في العلوم الرياضية ترجمة وتأليفاً : محمد بك بيومي ١٢٦٨هـ ١٨٥١م) ،وبهجت باشا ١٢٨٤هـ (١٨٦٧م) ، ومحمود باشا الفلكي ١٣٠٣ هـ(١٨٨٥م) ، وشفيق بك منصور ١٣٠٨هـ (١٨٩٠) ، ومختارباشا المصري١٣١٥هـ (١٨٩٢م) ،وإسماعيل باشا الفلكي ١٣١٩هـ (١٩٠١) .

ومن خير من ألفوا أو ترجموا في العلوم المختلفة في صدر هذه النهضة : الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ١٢٤٠هـ (١٨٢٥م) ، والشيخ شهاب الدين المصري ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧م) ، ورفاعة بك رافع الطهطاوي ١٢٩٠ هـ (١٨٧٣م) ، ومحمد قدري باشا ١٣٠٣هـ (١٨٨٥م) ،وأحمد فارس الشدياق ١٣٠٥هـ (١٨٧٨م) ، والشيخ عبد الهادي نجا الأبياري ١٣٠٦هـ(١٨٨٨م) ،والشيخ حسين المرصفي١٣٠٧هـ ٨٨٩ م ، والشيخ محمد بيرم ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) ، وعلي مبارك باشا ١٣١١ هـ ١٨٩٣) ، والشيخ محمد العباسي المهدي ١٣١٥ هـ (١٨٩٧ م) ، وعثمان بك جلال ١٣١٦ هـ (١٨٩٨م) ، وأمين فكري باشا ١٣١٧ هـ (١٨٩٩م) ، والشيخ إبراهيم اليازجي ١٣٢٣هـ(١٩٠٦م) ،وقاسم بك أمين ١٣٢٦هـ(١٩٠٨م) ،وعمر بك لطفي(١٩١٤م) وعلي أبو الفتوح المتوفى سنة ١٩١٣م ،ومحمد بك النجاري ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) ، وأحمد فتحي زغلول باشا ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م) وجرجي زيدان (١٩١٤ م) واسماعيل سرهنك باشا (١٩٢٤ م) ، والشيخ محمد بك الخضري ١٩٢٦ م)

ولا شك في أن هذه النهضة الحديثة مدينة في مستهلها الشيخ المترجمين على الإطلاق رافع بك كما أنها مدينة لأكبر السابقين من المؤلفين المصلح العظيم علي مبارك باشا.

في العلوم المختلفة ، فأحدث ذلك في اللغة العربية انقلابا عظيما واكتسبت من سَعة الأغراض والمعاني والألفاظ العلمية والأساليب الأجنبية وطرق البرهَنة والاستنباط وترتيبْ الفكر ثروة طائلة ، ورأى العلماء والأدباء أنه صارت لهم دولة منظمة متحضرة تتقبل منهم بقبول حَسَن كل ما يحسبونه من نتيجة كدهم ، وثمرة أفكارهم ، فالتفوا حولها ؛ وصار أيضاً للدولة كتّاب وشعراء ومنشئون ، ومن الأسف أن هذه النهضة لم يستمر سيرها في مصر كما استمر في الشام بل ركدت ريحها في زمن عباس باشا الأول ، وزمن سعيد باشا ، ثم تَنَسَّمت في عصر أسماعيل وما لبثت أن صارت رُخاءً طيبة دأعاد سيرة جده في نشر العلم ، وظهرت ثمرة أعماله في حياته ، وكادت مصر توشك أن تكون قطعة من أوربا .

النثر — المحادثة — أو لُغة التخاطب

كانت العاميّة في أوائل هذه العصور غاية في الانحطاط ، ثم لما انتشر التعليم بين طبقات المصريين ، دخل في عباراتهم كثير من الفصيح ، وانتقل ذلك لمعاشريهم من الأميين ، وبعض النساء ؛ ومما ساعَدَ على ذلك جَعْلُ التقاضي باللغة الفصيحة وكثرة الصحف والمجلات والرّوايات .

الخطـــابة

كان المصريون والسوريون في أوائل هذا العصر لا يستمعون الخطابة في غير الأغراض الدينية ، ثم اتسعت دائرة الأفكار في عصر إسماعيل باشا ، وصادف ذلك مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر ، والتَفّ لفيفٌ حوله من أدباء المصريين والسوريين ، فأدخلهم في عداد جمعيته ، وألّفَ منهم أندية كانوا يتناوبون الخطابة فيها في الأمور الدينية والسياسية والاجتماعية ، وانتشرت الخطابة بين شبان مصر ، وفَشَت بعد عصر أسماعيل في زمن توفيق باشا وعباس حلمي باشا ، ومن أشهر خطبائهم السيد عبد الله النديم المتوفى عام ١٣١٤هـ (١٨٩٦م) والشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٣٢٣هـ (١٩٠٥م) ومصطفى باشا كامل المتوفى عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨م) وسعد باشا زغلول المتوفى عام ١٣٤٧ هـ (١٩٢٧م) والشيخ

عبد العزيز جاويش بك المتوفى عام ١٩٢٧ م وغيرهم ، حتى بلغت الخطـابة في عصرنا هذا مبلغاً عظيما

الكتابة الخطيّة

وقف الخط في سبيل تقدمه على الحد الذي رسمته له الطبقة الناشئة في القرن العاشر ، والحادي عشر ، والثاني عشر من خطـّاطي الترك ، وكل من نشأ بعدهم فإنما هو متّبع طريقتهم . وأشهرهم : عبـد الله زهدي ، وهو الذي خط بالقلم الجليل جدران المسجد النبوي ، وجدران سبيل والدة عباس باشا الأول بالصليبية بالقاهرة ، ومحمد مُؤنس أفندي ، وتخرّج عليه وعلى تلميذه محمد جعفر بك جميع خطـّاطي قطرنا المصري .

الكتابة الانشائية

مضى العصر المتقدّم وليس لكتّاب الدواوين في أواخره شأن يُذكر ، لجعل التركية هي اللغة الرسمية ، وأقبل العصر الحاضر والحال لم تتغير في الماليك العثمانية إلا قليلا ، وشرعت تتغير في مصر ، ثم لما أُنشئت المدارس النظامية ، نشأت طبقة من كُتّاب الدواوين رقّوا كتابتها ، وقد هُجِر السّجع الذي أكثر منه الأقدمون إلا أن (عبد الله باشـا فكري) أشهرَ المصلحين للكتـابة الديوانية الفصيحة ألـمّ به في كثير من مُكاتباته الرسمية ، وقد سبق كثير من رسائله في فن المكاتبات ، وأما كتابة التأليف والصحف فأخذت تَنحُو منحُى كتابة ابن خلدون في مقدّمته ، ولما وَلـيَتِ الحكومة الشيخ محمد عبده تحرير «الوقائع الرسمية» والإشراف على تحرير الجرائد ترقّتْ كتابتُها كثيراً ، ودَرجت في سبيل التقدم إلى الآن

كتابة التدوين

كان أكثر الكتب التي أُلفت أو تُرْجمت في مصر علمية ، لشدة احتياجها لها ، أما سوريا فكانت حالة الأدب فيها في النصف الأول من العصر الحاضر خيراً منها في مصر ولكن مصر نهضت في النصف الثاني ، واسترجعت حيـاتهـا الأدبية ،

وأدخلت دراسة أدب اللغة في مدارسها، وألف فيه عدة كتب . وانحط شأن سوريا في العربية فلم يَنبغ في اللغة من السوريين في السنوات الأخيرة مَن يضارع سابقيهم. ومن أشهر علماء الأزهريين في هذا العصر: الشيخ عبد الرحمن الجَبَرْتي المتوفى في ١٢٤٠هـ (٨٢٥ م) والشيخ حسن العطار المتوفى في ١٢٥٠هـ (١٨٣٤م) ومن غير الأزهريين من أهل النهضة الحديثة: رفاعة بك شيخ المترجمين والمؤلفين، وعلي مبارك باشا المتوفى في ١٣١١ هـ (١٨٩٣م) وجمال الدين الأفغاني المتوفى في ١٣١٤ هـ (١٨٩٧م) وجورجي بك زيدان المتوفى في ١٣٣٢ هـ (١٩١٤م) وأحمد فارس الشدياق اللبناني المتوفى ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧م) والدكتور يعقوب صَرُّوف صاحب مجلة المقتطف المتوفى في ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧م) وَوَلِي الدين بك يكن المتوفى في ١٣٣٩هـ والشيخ محمد عبد المطلب المتوفى في ١٣٥٠ هـ (١٩٣١م) والشيخ محمد بك الخضري المتوفى في (١٩٢٧م) والشيخ أحمد مفتاح المتوفى فى ١٣٢٩هـ . وفتحي باشا زغلول المتوفى في (١٩١٤م) والشيخ نجيب الحداد المتوفى في (١٨٩٩م) وعبد الله باشا فكري، والشيخ حسين المرصفي المتوفى في ١٣٠٧هـ (١٨٨٩م) والشيخ ناصيف اليازجي المتوفى في ١٢٨٧ هـ، وإبراهيم بك المويلحي المتوفى في ١٣٢٣ هـ، ومحمد بك المويلحي المتوفى في (١٩٣٠ م) وقاسم بك أمين المتوفى في ١٣٢٦ هـ والسيد لطفي المنفلوطي المتوفى في (١٩٢٤م) والشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى في ١٣٢٣ هـ (١٩٠٦م) وحفني بك ناصف المتوفى في ١٣٣٧ هـ والشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد المتوفى في ١٣٣١ هـ (١٩١٣م) وأديب إسحاق المتوفى في ١٣٠٣ هـ (١٨٩٢م) ومصطفى بك نجيب المتوفى في ١٣٣٠هـ وإسماعيل باشا صبري، وبطرس البستاني المتوفى في ١٣٠١ هـ (١٨٨٣م) وسليم باشا تَقْلا المتوفى في ١٣١٠ هـ (١٨٩٢) .

وهاك ترجمة بعض زعماء النهضة الحديثة:

(١) رفاعة بك الطهطاوي المتوفي سنة ١٢٩٠ هـ

هو الكاتب الشاعر السيد رفاعة بك الحسيني الطهطاوي ، شيخ المترجمين ، وإمام النهضة الحديثة ، ولد بطهطا من أسرة شريفة ، وتأدّب وتعلم في الجامع الأزهر ثم انتخب إماماً لبعض فرَق الجيش؛ ولم يلبث أن اختاره المرحوم محمد علي باشا إماماً ومعلماً لأول بعث علمي أُرسلَ إلى فرنسا سنة ١٢٤١ هـ فسَرّاً فتنته علوم أوربا وعظمتها فأكبّ بنفسه على تعلم اللغة الفرنسية ، فلما عاد إلى مصر سنة ١٢٤٧ هـ اختاره محمد علي باشا رئيساً للترجمة بمدرسة أبي زعبل . واشترك هو وأستاذه الشيخ حسن العطار في إنشاء جريدة « الوقائع المصرية » وتحريرها ثم نُقلَ إلى مدرسة المدفعية (الطبجية) ثم صار مديراً لمدرسة الألسن والترجمة ، ثم انتخب عضواً بلجنة المدارس ، وتولى إدارة مجلة (روضة المدارس المصرية) وعكف على الترجمة والتأليف حتى تُوفّيَ عام ١٢٩٠ هـ تاركا لمصر كتباً ورجالاً هم أركان النهضة الحديثة ، وآخر ما ألفه كتاب « نهاية الإيجاز ، في سيرة ساكن الحجاز » .

(٢) عبدالله فكري باشا المتوفى عام ١٣٠٧ هـ ١٨٨٩ م

عبد الله فكري بن محمد بليغ الضابط ابن الشيخ عبد الله العالم الأزهري ، وهو من أركان النهضة الأدبية في الديار المصرية ولد عام ١٢٥٠ هـ ، وأكبّ على تعلم علومه بالأزهر ، مُشتغلا أيضاً باللغة التركية ، واستخدم من أجلها مترجماً للعربية والتركية في عدة مناصب ، آلت إلى نقله إلى حاشية سعيد ثم إسماعيل باشا ، فعُهد إليه بتأديب بنيه الكرام وغيرهم من أمراء بيت الملك. ثم تقلبَ في جملة مناصب آخرها نظارة المعارف عام ١٢٩٩ هـ وبقي بها حتى زمن الثورة العرابية ، فسقط مع الوزارة ، واتهمَ في الثورة فقبض عليه ، ثم اتّضحت براءته فأطلق ورُدّ إليه معاشه؛ بعد أن استعطف الخديوي توفيق باشا بقصيدة طويلة وتوفي عام ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩م) .

وكان فكري باشا كاتباً بليغاً ، سلك في كتابته طريقة كتّاب القرن الرابع

كالبديع الهمذاني ، والخوارزمي من التزام السجع القصير ، القليل التكلف ولذلك يقول فيه المرحوم الشيخ حسين المرصفي مدرس دار العلوم «لو تقدم به الزمان ، لكان فيه بديعان ، ولم ينفرد بهذا اللقب علامة همذان» .

(٣) علي مبارك باشا المتوفى عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م

هو أبو المعارف المصرية ، العالم المؤرخ المؤلف المترجم ، المربي العظيم علي بن مبارك بن سليمان بن إبراهيم مؤسس دار العلوم ، ودار الكتب العربية .

وُلد عام ١٢٣٩ هـ ، وكان والده يُرسله إلى معلم قاس يتعلم عليه القرآن الكريم فحفظه ، وهرب من العلم لقسوته وضربه ، وأخذ يتعلم الكتابة على بعض الكُتّاب حتى عثر في بعض خرجاته بتلاميذ ذاهبين إلى مدرسة أبي زعبل فصحبهم ودخل المدرسة ثم اختير في جملة من تلاميذها إلى مدرسة قصر العيني ، وعمره ١٢ عام ، ودرس الرياضة فبرع فيها ، فاختير طالباً بمدرسة الهندسة ، فأكمل في خمسة أعوام درس فن الهندسة ، وأرسل إلى أوربا عام ١٢٦٠ هـ ليتمم علومه بها ، فمكث نحو أربعة أعوام درس فيها فن الهندسة والحرب ، ثم عاد إلى مصر ضابطاً بالجيش ، ثم قدم لعباس باشا الأول مشروعاً بنظام المدارس المصرية فأعجبه وعهد إليه رياسة ديوانها ، فقام به خير قيام ، وألف بعض الكتب الدراسية ، فكان أول من نظم المدارس المصرية ، وتزاحمت عليه المناصب فكان مديراً للسكك الحديدية وناظراً للمعارف وللأشغال وللأوقاف والقناطر الخيرية ، فقام بذلك جميعاً في آن واحد خير قيام ؛ ومن أعماله العظيمة إنشاء دار الكتب وإنشاء مدرسة دار العلوم ليُوَفّق بين طلبة العلم القديم وطلبة العلم الحديث ، ومات عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٢ م .

(٤) الشيخ محمد عبده المتوفى عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م

هو المصلح الكبير المجتهد الكاتب الخطيب الإمام الشيخ محمد عبده ، أحد أركان النهضة العربية ومؤسسي الحركة الفكرية ، وُلد عام ١٢٦٦ هـ بإحدى

قرى مُديرية الغربية ، ونشأ بين أُسرته بمحلة نصر من مديرية البحيرة وترك بلا تعليم حتى ناهزت سنُّه العاشرة ،ثم رَغِب في التعلم فحفظ القرآن الكريم وطلب العلم بالجامع الأحمدي ، ثم انتقل إلى الأزهر ونبغ في علومه - ولما قدم مصر السيد جمال الدين الأفغاني سنة ١٢٨٦ هـ ، وأعاد إلى مصر دراسة الفلسفة وعلوم الحكمة لزِمَهُ الشيخ محمد عبده ، وكان أنبغ تلاميذه ، وأحرصهم على ملازمته ، والاستفادة منه ، ونال درجة العالمية سنة ١٢٩٤ هـ ، واختير سنة ١٢٩٥ هـ مُدرساً للأدب والتاريخ العربي بدار العلوم ، ومدرسة الألسن ، ثم اختير لإصلاح لُغة (الوقائع المصرية) ثم صار رئيس تحريرها - وفي هذه المدة جعله رياض باشا مراقباً على كتابة الجرائد وتحريرها - وحدثت عقب ذلك الثورةُ العُرابيةُ ، ونُفيَ من مصر إلى سورية ، وتولى التدريس بمدارسها ، ثم انتقل إلى أوربا فالتقى بالسيد جمال الدين بباريس ، فأنشآ معاً جريدة (العُرْوة الوُثقى) ثم عفا عنه الخديوي وعاد إلى مصر قاضياً بالمحاكم الأهلية ، ثم مُفتياً للديار المصرية ، وتولى التدريس بالأزهر وإليه يرجع الفضل في إصلاحه ، وما زال كذلك حتى توفي سنة ١٣٢٣ هـ .

(٥) الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ ١٩١٨ م

هو الشيخ الوقور ، اللغوي ، الحجة ، التقي ، الشيخ حمزة فتح الله .

وُلِدَ رحمه الله بثغر الإسكندرية سنة ١٣٦٦ هـ ، ١٨٤٩ م ونشأ بها وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم في سلك طلبة العلم بجامع الشيخ إبراهيم باشا - ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف ، وأمعن في قراءة الأدب واللغة ، وقرضَ الشعر وحَرَّر الرسائل ، وحفظ الغريب ، ثم عاد إلى الإسكندرية ، واختير في منتصف العقد الثالث من عمره محرراً في إحدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالي ثماني سنوات اكتسب فيها الدّربة على كتابة الصحف السياسية ، ثم عاد إلى مصر فوجد نار الثورة العرابية مستعرة ، فانضمّ إلى حزب الخديوي توفيق ، وكتب

وخطب في تأييده، وبعد أن انتهت الثورة العرابية استخدم في وزارة المعارف ومكث بها زهاء ثلاثين سنة ، متنقلا بين التفتيش والتدريس حتى مات سنة ١٩١٨ م

علمه وأعماله كان الشيخ كثير القراءة في كتب اللغة ، والأدب ، والحديث شديد الحفظ والذكر ، قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا رَوى فيها شعراً ، أو مثلا أو قصة وكان فكه المحاضرة ، صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة وهو أعلم من شاهدناه باللغة والأدب والصرف

عهد إليه بالتدريس في دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرّد والقالي والمُرْتضى ، وأظهر ما كان ذلك في (مواهبه الفتحية) .

أسند إليه تفتيش اللغة العربية في مدارس الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحاً لتخليصها من أدران العامية ، وأوضار الدّخيل ، وفساد التراكيب وعجمة الأساليب ، فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك في كتابة التلاميذ ويتحفهم بمرادفه تارة ، ويرشدهم إلى المظانّ أخرى ، فيتنبه بذلك الغافل .

أخلاقه : كان الشيخ حليماً رحيماً ، تقيّاً ورعاً ، لا تأخذه في الله لومة لائم .

كان يحب العرب والعربية ، ويرى أن الله خصهما بكل مزية .

مؤلفاته : مما عُرف من مؤلفاته ، كتاب المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية وباكورة السلام في حقوق النساء في الإسلام ، ورسالة في التوحيد ، وكتيب في المفردات الأعجمية التي في القرآن الكريم ، وغير ذلك .

شعره وكتابته : كان بدوي الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه ، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء فمنه قوله :

كم جامحٍ بالثريّا راضه سفر فوق الثرى بين أكوار وأقتابِ

إن الشّواء ثواءٌ والقصور قبــو ... ر العــاجزين ولا إبراءَ للخابي
ومن يَبغى نَيل مجدٍ وهو في دَعةٍ ... فقد بغَى من صَفاةٍ دَر أحلاب
والمرءُ في مَوطن كالدُّر في صدَفٍ ... والتِّبرِ في معدنٍ والنبعِ في غاب
والسيفُ مثلُ العصا إن كان مُغتمداً ... وزَامرُ الحيِّ لا يحظى باطراب
وأزهدُ الناس في علم وصاحبه ... أدنى الأحبة من أهلٍ وأصحاب

(٦) باحثة البادية السيدة ملك حفني ناصف المتوفاة سنة ٣٣٧ ﻫ

هي المفكرة ، الكاتبة ، الشاعرة ، السيدة ملك حفني ناصف .

ميلادها ونشأتها : ولدت بالقاهرة سنة ١٨٨٦ م ؛ ولما ميزت أرسلها والدها إلى إحدى المدارس الأولية ، ثم إلى المدرسةِ السنية فحصلت منها على شهــادة الدراسة الإبتدائية سنة ١٩٠٠ م (وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات لنيل هذه الشهادة) ثم أتمت دراستها في قسمها العالي ، واختيرت مُدرّسة في مدارس البنات بالقاهرة ، وفي سنة ١٩٠٧ تركت التعليم العلمي واشتغلت بالتعليم العملي في بيت زوجها .

أخلاقها وأعمالها : كانت مُدة دراستها خير نموذَج لقريناتها ، من أخلاق سامية وسَريرة صافية ، ونفس أبيّة ، ومثابرة على العمل .

وكانت بعد زواجها تباشر أكثر أعمال بيتها بنفسها ، لا لسبب ، سوى أن تكون قدوة لغيرها من السيدات اللاتي يَتركن بُيوتهنّ إلى من لا يحسِن القيام عليها والتدبير فيها ، فيوقعن أزواجهن في الفقر المدقع ، والبلاء الشديد ، وكانت إذا فرغت من شئون منزلها ، عكفت على قراءة الكتب النافعةِ ، وتعرّف أحوال السيدات ، وزيارة مدارس البنات ، وفحص مناهج التعليم .

كل أولئك لتكوّن لها رأياً صحيحاً ، وفكراً ناضجاً في تربية البنات وإصلاح حال الامهات ، وظلت تستسهل في ذلك الصعب ، وتستحلي المرّ .

وكان من رأيها في تربية المرأة أن تباشر من أعمال الرجال ما لا ينافي الشرع الشريف ، وألا تكون زينتها مشغلة لها ولا عبئاً ثقيلاً ينوءُ به بعلها ، ولها في ذلك خُطب في محافل نسويّة ، كان لها تأثير في عدول الكثيرات منهن عن جمودهن وأفكارهن القديمة ، وكان بيتُها مقصداً لزيارة كثير من السيدات الغربيات والشرقيات يستنِرْنَ به في الوقوف على مَبلغ رُقي المرأة المسلمة ، وما ينتظرن من شئونها المستقبلة ، ولم يكن شيء من ذلك كله لينسيها ما يجب لزوجها ، والبرّ بذوي قرباها ومن يقع تحت نظرها ممن أجهدهم الفقر ، وأشد ما كان برّها لوالدها .

آثارها العلمية :

(١) كتابها الذي أسمتهُ (النسائيّات) وهو مجموع ما خطبته وكتبته في (الجريدة خاصاً بالمرأة. (٢) حقوق النساء ، وهو كتاب لم يطبع بعدُ: أنجزت منه ثلاث مقالات، الاولى في الموازنة بين المرأة المسلمة الشرقية والمرأة المتدينة الغربية في الحقوق المالية ، والثانية في حقوق المرأة المسلمة من جهة إدارة الاعمال العامة ، والثالثة في المرأة المسلمة من جهة الانتخاب (٣) رسالة ضافية قدمتها للمؤتمر المنعقد في مايو عام ١٩١١ بمصر الجديدة ضمنتها آراءها السديدة في وسائل ترقية المرأة المصرية .

ثم عاجلتها الحمى الاسبانية عام ١٣٣٨ ه فاحتضرت وهي في ريعان شبابها ويانع عمرها ، فتركت بفقدها في العالم النسوي المصري فراغاً لم يُشغل بعد .

كتابتها : إن الناظر في كتاباتها المختلفة يرى عبارةً سهلة، صحيحة الالفاظ عربية الاسلوب ، خالية من تصنع السجع ، وترى ذلك واضحاً في كتابها « النسائيات » .

شعرها : قالت الشعر وهي في الحادية عشرة من عمرها وكان بدء أمرها فيه أن تقوله معارضة لما تحفظه في المدرسة ، وه جداً ، وتارة هزلاً ؛ وشعرها

حسن الديباجة ، جميل الأسلوب يعد في الدرجة الوسطى من شعر هذا العصر .

وهاك نموذجاً من نثرها وشعرها – رسالة كتبتها من رمل الإسكندرية لصديقة لها – وهي :

« عزيزتي السيدة بلسم ،

أُحيّيك ، ولولا برودة البحر لالْتَهَبْتُ إليكِ شوقاً ، ولولا تصبّري لطِرْتُ إليك حباً ، وإني لم ينسني صفاء السماء صفاء ودك ، ولا رقة النسيم رقة حديثك إنما شجاني وذكرني ، ولم أكن ناسية .

حبيبتي : ليتك معي ترين الطبيعة بجمالها ، ترين البحر يزخر كالرعد والأمواج تتلاطم زرافات ووحداناً ، صفاء في البحر ، وصفاء في السماء ، كأنهما قلبانا ، وتسمعين تغريد الطيور ، وحفيف الأشجار ، إنها لعمرك مناظر تلهي المرء ، ولكن هيهات لمثلي أن تلهو ، وهي تعلم ما يُكِنُّهُ الدهر ، وما يخبئه الليل والنهار ، تقبلي مني أحرّ قبلاتي ، وأوفر أشواقي » . ومن شعرها تخاطب المصرأة المصرية :

سيري كسير الشمس لا تأنَسي ولا تتعجّلي
لا تَكْنِسي أرْضَ الشوا رع بالإزار المسْبَلِ
أمّا السفور فحُكمُهُ في الشرْع ليس بمُعْضِلِ
ذهب الأئمة فيه بين مُحرِّم ومُحلِّلِ
ويجوز بالإجماع منهم عند قصد تأمّل
ليس النقاب هو الحجا ب فقصّري أو طوّلي
فإذا جهلت الفرق بينهما فدونك فاسألي
من بعد أقوال الأئمة لا مجال لمقولي
لا أبتغي غير الفضيلة للنساء فأجملي

الشعر

كانت حالة الشعر في النصف الأول من هذا العصر لا تزيد شيئاً مذكوراً على

ما كانت عليه في العصر الماضي ، إذ كانت حكومة (محمد علي باشا) في أوّل أمرها تركية الصّبغة ، وكان هو أميّاً لا يحلُّ عنده الأدب محلّ العلم الذي عليه مدارُ تأسيس المملكة ، ولكن الشعر أخذ بعد ذلك في الترقي .

وسارت مصر في طريقه ، وانتشرت بينها العربية حتى زمن (إسماعيل باشا) وكان هو متأدباً ، وعصره غاصاً بالأدباء، فتقدم الشعر في عصره خطوات تمثّلت في شعر السيد علي أبي النصر ، والشيخ علي الليثي ، ثم طفر طفرة إلى عظيم الشعراء (البارودي) .

ولم يزل للعلم والعلماء مع ذلك المقام الأوّل في مصر، حتى كان العصر الحاضر، ونالت مصر بعض حاجاتها من العلم وكتبه ، فهبّ أهله يتفكهون بالأدب وكتابته والتأليف فيه ويستمعون الشعر ، ويحضرون المجامع العظيمة لإنشاده ، فأقبل الشعراء على نظمه في كل أغراضه القديمة والحديثة ، ونحوا به نحو الشعر الإفرنجي من وصف المناظر الطبيعية ، وأحوال الوِجْدان، والعواطف النفسية ، وكثير من الشعراء بعد البارودي ، لم يحاكِ القدماء في نَدْب الديار ، ووصف الظعائن ، وحث المطايا مستغنياً عن ذلك بوصف القِطار، والكهرباء، والمسرّة، والبرق ، ويقول الآن الشعر على هذه الطريقة مئات من الشعراء في مصر والشام والعراق ، إلا أن المصريين سبقوا السوريين بمراحل في هذا العصر .

وممّا يمتاز به شعرُ هذا الوقت، خلوُّه من تكلف البديع والجناس، والرجوع به إلى حالته القديمة الطبيعية حتى صار شعر فحوله يشبه شعر أهل القرن الرابع والخامس .

نماذج من النظم

قال المرحوم السيد علي أبو النصرُ المتوفى سنة ١٢٩٨ هـ – ١٨٨٠ م :

بصادر آمالي ووارد خاطري كَلِفْتُ فيا نفسي الأبيّة خاطري

ولا تجزعي إن هال خطب فربما　　تدين الأماني لامرىء غير قادر
وكوني على حمل الأذى مستعدة　　فكم عادل أرخى العنان لجائر
ولا تشتكي الأيام إلا لمنصف　　فلا خير في الشكوى إلى غير ناصر
ومن لم يكن ذا همّةٍ هاشمية　　أخافته في الهيجا بروق البواتر

وقال محمود صفوت الساعاتي المتوفى سنة ١٢٩٨ﻫ يمدح شريف مكة ويعاتبه:

ترنو النجوم بلحظها البرّاقِ　　والجوّ في الإرعاد والإبراق
فإذا تبسّمت البروق لِغبطة　　بكت السماءُ بدمعها المهراق
عاملتموني بالجفاء رُويدكم　　الورد ذو أرَج بلا إحراق
مالي أراكم تنكرون مكانتي　　الشمس لا تخفى مع الإشراق
قلدتم غيري الجميل وقلتم　　حسبُ المغرّدِ زينةُ الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتم　　طرق الرّجاء عليَّ بالإطراق
إن لم يكن مثلي يُسيء ومثلكم　　يُغضي فأين مكارم الأخلاق

وفي الحكم للمرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣ ﻫ - ١٨٩٦ م :

كل حال لضدّه يتحوّلْ　　فالزم الصبر إذ عليه المعوّلْ
يا فؤادي استرح فما الأمر إلا　　ما به حكم القضاء تنزّلْ
قدرٌ غالب وسرٌّ الخفايا　　فوق عقل الأريب مهما تكمّل
رب ساعٍ لحتفه وهو ممن　　ظنّ بالسعي للعلا يتوصّل

وقال المرحوم الشيخ شهاب الدين المتوفى في سنة ١٢٧٥ ﻫ يرثي إبراهيم باشا:

صَبراً على ما قد مضى　　إذ لا مخلّصَ من قضا
كيف التّصبُّر والمنا　　يا ذات عضب مُنْتضى
أرْدَت بإبراهيم منذ　　بلغ المقامَ المُرْتَضى
وإليه آلَ الأمر في　　حكم (الإيالة) وانقضى

فمضى وقلت مؤرّخاً (الله يرحم من مضى)
٦٦ ٢٥٨ ٩٠ ٨٥٠ = ١٢٦٤ هـ

حفني ناصف بك المتوفى ١٣٣٧ هـ – ١٩١٩ م

هو القاضي الفاضل الشاعر الكاتب ، محمد حفني ابن الشيخ إسماعيل ابن الشيخ خليل ابن ناصف ، ولد ببركة الحج من أعمال القليوبية سنة ١٢٧٢ هـ يتيماً فقيراً ، فكفلته جدته أم أبيه .

ولما ترعرع تعلم القرآن على معلم كان يُفرط في ضربه ، ففرّ ماشياً على قدميه إلى الأزهر وجوّد فيه القرآن ، وحفِظَ فيه المتون ، ودرس فقه الشافعي ، وعلوم اللسان العربي واشتغل بالأدب والشّعر فبرع فيهما حتى أصبح من شعراء الأزهر المعدودين ، وكان أول الناجحين من الطلبة المقبولين في دار العلوم ، وبقي أولهم حتى خرج من المدرسة ثم اختير مدرّساً وضابطاً لمدرسة الخرس والعميان ، ثم نقل إلى النيابة كاتب سر للمرحوم شفيق بك منصور يكن ، ثم نقل مدرساً بمدرسة الحقوق ، وفي أثناء ذلك كلفته نظارة المعارف مع آخرين تأليف سلسلة كتب سهلة ، لتعليم النحوْ والصرف والبلاغة فألف خمسة كتب لم يزل العمل في التعليم جارياً عليها ثم نقل إلى القضاء الأهلي ، فمكث يترقى في درجاته مدة عشرين سنة ، كان في خلالها مثال العدل والنزاهة ، ونقل من وكالة محكمة طنطا الأهلية مفتشاً أول للغة العربية بوزارة المعارف .

وتوفي صبيحة يوم الثلاثاء ٢٦ فبراير سنة ١٩١٩ م ، ودفن يوم الأربعاء بمقبرة الإمام ، وكان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثاً ، وأرقّهم فكاهة ، وأملحهم نادره وأحضرهم جواباً ، مع دعابة فيه .

شعره : لم ينكر الأدباء عليه أنه أبو الطبقة التي نشأت بعد طبقة البارودي ، وعبد الله باشا فكري ، وكل من نبغ بعدُ ممن انتهت إليهم الرياسة في الشعر فعليه تعلم ، وله قلّد ، حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان .

وأكثر شعره من نوع السهل الممتنع ، الكثير الملح المطربة والنكت الأدبية المعجبة ، حتى في المراثي ، لتمثيلها في صورة جديدة بديعة ، فمن ذلك قوله :

أتقضي معي إن حان حيني تجاربي ... وما نلتها إلا بطول عنائي
وأبذل جهدي في اكتساب معارف ... ويفنى الذي حصلته بفنائي
ويحزنني ألا أرى لي حيلة ... لإعطائها من يستحق عطائي
إذا ورّث الجهال أبناءهم غنى ... وجاهاً فما أشقى بني الحكماء

ومن شعره أيضاً يخاطب أحد الرؤساء :

أحييت آمالي وكنت أمتها ... من طول ما لقيت من إخواني
أدلي بإخلاصي لهم وأذود عن ... أعراضهم بجوارحي ولساني
محضتهم ودي فلما أيسروا ... كانت بداية أمرهم نسياني

مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٣٢٦ هـ - ١٩٠٨ م

هو مصطفى بن علي أفندي محمد المهندس ، المولود بالقاهرة في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ م ولما بلغ السادسة من عمره أدخله والده المكاتب الأولية ، ثم انتقل إلى مدرسة والدة عباس باشا الأول ، وفي أثناء وجوده في هذه المدرسة توفي والده فانتقل إلى مدرسة القربية ، فأتم فيها الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٧ م ثم تحول إلى المدارس الثانوية ، ونال في نهايتها شهادة البكالوريا بتفوق باهر ، وذكاء نادر ، مما لفت إليه نظر المرحوم علي باشا ناظر المعارف ، فاختصه بمرتب شهري يصرف إليه مساعدة له ، وكان منظوراً إليه بعين الإجلال والاحترام من إخوته ومعلميه ورؤسائه لما امتاز به من حسن الإلقاء ، وفصاحة اللسان ، وصراحة القول واستقلال الفكر ومناقشته في المسائل العلمية والاجتماعية ، والكل يعجبون به ، ويتوقعون له مستقبلاً مجيداً ، ثم دخل مدرسة الحقوق الخديوية نهاراً ، ومدرسة الحقوق الفرنسية ليلاً فكان يتلقى دروسها حتى نال الكفاية

منها، ثم ذهب إلى (طولوز بفرنسا) وأدى فيها الامتحان ونال الشهادة النهائية، وفي أثناء دراسته للحقوق تنبه خاطره إلى المسائل السياسية، وأصبح همه إنقاذ مصر من الاحتلال، وكان يتردد على الجرائد الوطنية، فيكتب فيها آيات الوطنية، وأنشأ المجلة المدرسية، وألف كتاب المسألة الشرقية، ورواية فتح الأندلس، وكتاباً في حياة الأمم والرق عند الرومان، وكلها ترمي إلى تحبيب الاستقلال، وإحياء الشعور الوطني في أفكار المصريين، واجتمع مصطفى بالمرحوم « عبد الله النديم » الخطيب المفوّه والكاتب البليغ ومشعل نار الوطنية من قبل، فاقتبس مصطفى منه الأساليب والتعليمات العظيمة، وأضاف ذلك إلى معلوماته الماضية، ونهض نهضة الأسد إلى فريسته، وأذكى أوار الوطنية في عقول الشباب الناهض، وتطوّرت مصر الفتاة إلى يومنا هذا في مراقي التقدم والنجاح، وقد طار صيته في الآفاق، وأنشأ جرائد اللواء العربي والفرنسي والإنكليزي لهذا الغرض، وتوفي يوم الأربعاء ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ م وخطبه الطنانة كثيرة لا نطيل بذكرها

محمد بك فريد المتوفى سنة ١٩١٩ م

هو المخلص الأمين، محمد بن أحمد باشا فريد، والدته أميرة من فضليات سيدات الخلفاء العباسيين، وكان ميلاده في ٢٧ رمضان سنة ١٢٨٤ هـ، وعاش ٥٢ سنة، ولما كان عمره ٧ سنوات أدخله المرحوم والده مدرسة خليل أغا، ثم دخل المدارس الثانوية وفاز بشهادة البكالوريا، ثم دخل مدرسة الحقوق حتى نال الشهادة النهائية في شهر مايو سنة ١٨٨٧ م، وعقب ذلك عيّنته الحكومة المصرية بقلم قضايا الخديوي عباس باشا بالرتبة الثانوية، ثم تدرّج في وظائف القضاء إلى أن صار أحد رؤساء النيابة العمومية؛ وفي خلال ذلك كان يكاتب أمهات الصحف العربية والإفرنجية، حتى استقال من خدمة الحكومه في ٢١

نوفمبر عام ١٨٩٦ ، واشتغل بالمحاماة ، وانضم بكل قواه إلى الحزب الوطني لتحرير مصر والسودان، ولازم صاحبه المرحوم مصطفى باشا كامل ، وقد ألّف كتاب البهجة التوفيقية في تاريخ العائلة الخديوية ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وتاريخ الرومان ؛ وأنشأ مجلة « الموسوعات » وكتب آلاف المقالات في المؤيد واللواء والصحف الأوربية ، وألقى مئات من الخطب في بلاد الشرق والغرب ، وتعرّف بكثير من ساسة العالم .

ولما شعر المرحوم مصطفى كامل باشا بدنوّ الأجل، جمع رجال الحزب الوطني وأوصاهم بانتخاب « فريد » بعده رئيساً ، فقام برياسته خير قيام ، وقد ضحّى بنفسه وأولاده وأهله وماله ومناصبه حباً في الوطن ، حتى مات غريباً في يوم الاثنين ١٥ نوفمبر عام ١٩١٩ م ، ونُقِلَتْ جثته من بلاد ألمانيا لدفنها بالقاهرة ، فوصلت صباح يوم الثلاثاء ٨ يونيه عام ١٩٢٠ م ، وشُيِّعَت باحتفال مهيب ، ورَثَتْهُ صحافة العالم شرقاً وغرباً ..

فمن رثاء المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم المتوفى عام ١٣٥٩ هـ ، قال من قصيدة طويلة :

من لِيَوم نحنُ فيه ، منْ لغَدْ ... مات ذو العَزْمة والرّأي الأسَدّ
أيها النيلُ لقد جلّ الأسى ... كنْ مِداداً لي إذا الدّمعُ نفَدْ
فلَقَدْ ولى فريدٌ وانطوى ... ركْنُ مصر وفتاها والسنَدْ
خالِدَ الآثارِ لا تخشَ البلى ... ليس يَبلى من له ذكرٌ خَلَدْ
قل لِصبّ النيلِ إن لاقيتَهُ ... في جوار الدائم الفرد الصمدْ
إن مصراً لا تني عنْ قصدِها ... رغم ما تلقى ، وإن طال الأمدْ
فاسترحْ واهْنأ في غِبْطة ... فلقدْ بذرت الحبّ والشعب حصَدْ

(٧) سعد باشا زغلول

هو الزعيم الأكبر سعد ابن الشيخ إبراهيم زغلول المولود ببلدة إبيانه بمديرية الغربية عام ١٢٧٧ هـ ، قرأ القرآن الكريم ودخل الأزهر الشريف ، وحضر علوم اللغة والأدب والنحو والمنطق والتوحيد وعلوم التشريع ، وغيرها على فطاحل العلماء ثم تعين محرراً لجريدة « الوقائع المصرية » الرسمية بالداخلية ، ثم انتقل معاوناً بنظارة الداخلية في مدة وزارة « محمود سامي باشا البارودي » ثم تعين مديراً لقلم قضايا مديرية الجيزة ، وذلك مدّة اشتداد الثورة العرابية ، ثم استقال واشتغل بالمحاماة وقد انتخبته الجمعية عضواً في لجنة تنقيح قانون الجنايات بالاستئناف ، ثم اختاره اللورد « كرومر » أن يكون وزيراً للمعارف ، ثم وكيلاً للجمعية التشريعية لى أن تطورت الحالة الوطنية في القطر المصري ، فانتخبته الأمة وكيلاً عنها في مطالبة انجلترا بالجلاء عن مصر والسودان .

ومن كلماته المأثورة في الوطنية :

١ ــ لا استعبادَ ، لا استعمارَ ، لا حمايةَ ، لا رَقابةَ ، لا تَداخلَ لاحد في شأن من شؤوننا ، هذا ما نريدُ ، وهذا ما لا بدّ أن نحصل عليه .

٢ ــ أُقسم بالوطنية وعزتها : لو كنت أعرف أني أقودُ أُمّةً بلهاء تنقاد لكل زعيم بدون تصوُّر ولا إدراك ، كما يصفها أعداؤها ، ما رضيت أن أكون قائداً لها .

٣ - إن قوّتنا ليست مُستمَدّة من الخارج ، بل هي في نفوسنا ، فلتكن نفوسنا قوية نصل إلى غايتنا .

٤ ــ الإرادة متى تمكنت من النفوس وأصبحت ميراثاً يتوارثه الأبناء عن الآباء ذللت كل صعب ، ومحت كل عقبة ، وقهرت كل مانع مهما كان قوياً ، ووصلت عاجِلاً أو آجلا إلى الغاية المطلوبة .

٥ – لا يمكن أن نعتبر للكحوميين مذهباً، لأن المذهب يقتضي مبادىء وقواعد، أمّا هم فقاعدتهم القوّة، وما يعتمد على القوة لا يصح أن يسمى مذهباً.

ومن كلماته المأثورة في الحرية وحدودها

١ – كل أمر يقف في طريق حريتنا لا يصح أن نقبله مطلقاً، مهما كان مصدره عالياً، ومهما كان الآمر به.

٢ – كل تقييد للحرية لا بد أن يكون له مبرر من قواعد الحرية نفسها وإلا كان ظلماً.

٣ – الصحافة حُرّة، تقول في حدود القانون ما تشاء، وتنتقد من تريد، فليس من الرأي أن نسألها لم تنتقدنا، بل الواجب أن نسأل أنفسنا لم نفعل ما تنتقدنا عليه.

٤ – نحن نحب الحرية، ولكننا نحب أكثر منها أن تستعمل في موضعها.

٥ – جميل جداً أن يقال: لا تحجروا على الناس، ولا تقيدُوا حريتهم، وإنها لنغمة لذيذة يحسن وقعها في الأسماع والقلوب، ولكنا لا نريد الحجر على الناس ولا تقييد حريتهم، نريد حماية الحق وصيانته من أن يتمتّع به غير صاحبه من حيث يُحرم منه صاحبه.

ومن آرائه في التشريع

١ – كل شريعة تؤسَّس على فساد الأخلاق فهي شريعة باطلة.

٢ – لا تصدّقوا أن هناك قاعدة يرجع إليها القاضي في تقدير العقوبة، أو أن هناك ميزاناً توزَنُ به الجزاءات، وإنما هي أمور اجتهادية يُلهم بها القاضي إلهاماً.

٣ – الحقُّ فوق القوّة، والأمّة فوق الحكومة.

٤ – إننا إذا احترمنا أمراً للحكومة، نحترمه لأنه نافع للأمة، لا لأنه صادر من تلك القوة المسيطرة.

٥ – يجب أن ننقاد للقانون، وألا نعتبر الانقياد إليه مهانة ومذّلة، بل عزّاً وشرفاً.

٦ — إن كانت الحكومة تريد أن نكون في صفها، مُدافعين عنها فما عليها إلا أن تتبع الحق والعدل، وتحترم القانون .

٧ — يعجبني الصدق في القول والإخلاص في العمل، وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون .

٨ — الذي يلزمنا أن نفاخر به هو أعمالنا في الحياة، لا الشهادة التي في أيدينا .

٩ — أعاهدكم عهداً لا أحيد عنه على أن أموت في السعي إلى استقلالكم فإن فزتُ فذاك، وإلا تركت لكم تتميم ما بدأت به .

هذا قليل من كثير لا نحيط به جمعاً، خصوصاً خطبه المطولة الممتعة التي تكاد أن تكون في درجة الإعجاز، ولا غرابة في ذلك فقد كان معروفاً بالشجاعة والصراحة يمتلك في يده أعنة الألفاظ ويتصرف فيها كيف يشاء حتى إنه ليعبر عن أقسى المعاني وأخشنها بأرق الألفاظ وأعذبها وأخفها وقعاً على النفوس والأسماع خصوصاً وأنه قدير على التأثير على نفس السامع، وامتلاكه أزمة الأهواء وتلاعبه بالعواطف والقلوب، واقتداره على إسناد كل جزئية من جزئيات المسائل الاجتماعية أو القانونية أو الأخلاقية أو السياسية إلى قاعدتها العامة التي توضح طريقها وتكشف الغامض منها .

ولقد كان مُتشرعاً يبحث النظامات ويدققها، وسياسياً يبارز خصمه مبارزة الرجل الذي يحسن تقليب الحسام بين يديه، فلا كلماته تخرق حجب الآداب، ولا تتجاوز حد اللياقة، لقد كان كلامه ينزل على السامعين نزول الندى على آكام الزهر فلا يرتفع صوت، ولا تبدو حركة مع طول خطابته نحو ساعتين وأكثر، حتى وافاه القدر المحتوم في أواخر أغسطس سنة ١٩٢٧ م، وعمره نحو ٦٧ سنة وقد خلفه في زعامة « الوفد المصري » حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا

(٨) مصطفى النحاس

هو « مصطفى » ابن الشيخ محمد النحاس من أعيان بندر سمنود .

وُلد « مُصطفى النحاس » من أبوين كريمين عريقين في الحسب والنسب ، في يونيه سنة ١٨٧٩ م

وتربى تربية منزلية قوية طبعته على الأمانة والاستقامة والنزاهة وأنشأته على الخير والعدل والصلاح والتقوى ، فشب على مكارم الأخلاق من الصغر:

رَضَع الأخلاق من ألبانها إنّ لِلأخلاق وَقعاً في الصغر

وما بلغ السادسة من عمره إلا وهو يزاول مبادىء التعليم في أحد مكاتب البلدة وما تجاوز العاشرة من عمره إلا وكان حافظاً لجميع القرآن الكريم حفظاً جيداً، ثم ارتحل به والده إلى القاهرة وأدخله مدرسة الناصرية الابتدائية بنظارة أمين سامي في ذاك الوقت ، فأمر بامتحانه للقبول فاجتازه بتفوق باهر وعكف على دروسه حتى كان في كل امتحاناته أول فرقته، وبعد إتمام الدراسة الابتدائية التحق بالمدرسة الخديوية الثانوية بالقسم الداخلي، وأظهر جداً واجتهاداً وتفوقاً ونبوغا منقطع النظير ، حتى المرحلة الأخيرة التي كللت بنجاح عظيم ، لفت نظر رؤسائه إليه حتى وصل خبره إلى اللورد « كتشنر » الذي رغب في رؤيته، ثم التحق بمدرسة الحقوق وتخرج منها في يونيه سنة ١٩٠٠ م، واشتغل بالمحاماة إلى أوائل سنة ١٩٠٤ م ثم عُين قاضياً بالمحاكم الاهلية وظلّ يخدم العدالة نيفاً وخمسة عشر عاماً ، حتى نادى المغفور له « سعد زغلول » بوجوب المطالبة بحق مصر في الاستقلال فانضم إليه ، وانضوى تحت لوائه ، وأخذ يسعى في تحرير وطنه بكل إخلاص وتضحية عظيمة.

وقد تقلد رياسة الحكومة المصرية ست مرات .

الاولى سنة ١٩٢٨ ، والثانية سنة ١٩٣٠ ، والثالثة سنة ١٩٣٦ ، والرابعة سنة ١٩٣٧ بعد جهاده الذي نالت فيه مصر استقلالها التام ، وإلغاء الامتيازات الاجنبية .

هذه لمحة وجيزة من تاريخ حياة مصطفى النحاس (محامياً، وقاضياً، وخطيباً، وخصماً سياسياً ، ووزيراً ، ورئيساً للوزارة) .

ومن خطبه :

« لا شك أنّ من يتولى الدفاع عن حقوق الافراد وحريتهم مدفوعا بواجب مهنته وشعور التقديس لطائفته إنما هو مسوق حتما للاشتراك في الدفاع عن حقوق المجموع وحريات المجموع ، لأن حقوق المجموع وحريات المجموع إنما هي مجموع حريات الافراد وحقوق الافراد »

ومن قوله :

(١) ليس مثلُ الصراحة سياسةً ناجحةً في وقت الخطر .

(٢) إن القلوبَ اذا اتصلت لا تقوى على فصلها قوةٌ مهما فتكت أو بطشت .

(٣) ما كان لقوة في الوجود أن تمحق آمالَ شعب ، ولا أن تبدد وحدةَ أمته .

(٤) إنما الموتُ في سبيل الاوطان حياةٌ

(٥) ليس مصير الامم لعبة في أيدي اللاعبين ولا هو تجربة في أيدي المجرّبين .

(٦) إن للحق قوةً معنويةً هي من روح الله يقذفها على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق .

(٧) مصرُ أمة جديرة حقاً بأن تكون مصدر السلطات .

(٨) إن الامرَ في قضية الامة أمر الامة وحدها لا كلمة لسواها ولا معوّل على غير رضاها .

(٩) الأمم الحية لا تغلَب وقد تعودت مصر أن تَقهرَ قاهريها ، والدّهرُ قُلَّبٌ إن صفا اليوم لشخص ففي غَدٍ يَتقلبُ

(١٠) اضطهادُ الأحرار يزيدهم تمسكا بالحرية أضعافاً مضاعفة .

(١١) إذا كان اعتنـاق المبدأ القويم فضيلة فإن الثبـات على هذا المبدأ هو فضيلة الفضائل

(١٢) إن الأمـة هي الأول والآخر ، وهي الأصل الذي يجب أن ترجعَ إليه كل الأمور .

(٩) الغازي مصطفى كمال

أشهرُ حماة الشرق، وداهية أقطاب السياسة الغازي «مصطفى كمال » المولود في سلانيك سنة ١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م ، ولما بلغ السنة السـادسة من عمره أدخله والده مدرسة ابتدائية ، وما لبث أن تركها على أثر وفاة والده ، ثم انتقل إلى قرية أخرى مع والدته بها خـاله الذي كفله ، وعهد إليه القيـام بحراسة الحقول والاشتغال بالزراعة مدة فأوجست والدته خيفة من ضياع إبان شبابه بدون جُدوى ، وصحت عزيمتها على إرساله إلى دار جدته في (سلانيك) ودخـل في (المدرسة الملكية الإعدادية) غير أنه لم يوفق للتعلم بهـا — وذلك لشغفه بحب (المدرسة الرشدية العسكرية) الابتدائية ، فدخلها وأخذ يتبحّر في الرياضيات ويُناقِش أستاذه المدعو مصطفى بك القائل له إنّ بين اسمي واسمك اشتباها ، فيجدرُ أن أضيف إلى اسمك لفظة « كمال » للتمييز بيننا، وقد أتم الدراسة في هذه المدرسة العسكرية الابتدائية، وفاق زملاءه في العلوم الرياضية بحيث لم يصادف أية صعوبة في امتحان المدرسة الإعدادية العسكرية الثانوية في (مَناستر) وتزوّد بقِسط وافر في اللغة الفرنساوية — وفي خلال ذلك كان يجتمع بالمرحوم الشاعر التركي المشهور (عمر ناجي بك) فارتشف من مَنهله العذب ، وتأدب بأدبه ودرس عليه آداب اللغـة التركية ، وضرب بسهم فيهـا حتى صار الشعر هو المـادة

التي تنجذب نفسه إليها وترتاح بها، رغم النصائح التي كان يلقيها عليه بعض معلميه العسكريين بقولهم: « إذا أردت أن تكون جُندياً حقيقياً فاترك الأدب وخيال الشعراء »، وبعد إتمامه الدراسة في تلك المدرسة سافر إلى الآستانة سنة ١٣١٣ هـ، والتحق بالمدرسة الحربية، وكان شغفه عظيماً بالعلوم والأدب، ومزاولة الخطابة وأساليبها فتولد من ذلك توقه إلى حُب الاشتغال بالسياسة، خصوصا وقد وقعت في يده كتب الوطني العظيم « نامق بك كمال » فطالعها مراراً، ووقف على ما فيها وأدرك مراميها فرسخت في عقيدته « الوطنية » وكان ذلك في عهد المرحوم « السلطان عبد الحميد » الداهية العظيم، ومع ذلك تخرج من هذه المدرسة برُتبة « مُلازم ثان »، ولما انتقل إلى مدرسة أركان حرب بدأ يتعرف مع بعض إخوانه من الطلبة ما يكتنف إدارة البلاد وسياستها من السُّوء والفساد، فكان أول ما فكر فيه أن يُفهم زملاءه البالغ عددهم ٥٠٠٠ طالب، موقف البلاد الإداري والسياسي.

وقد فكروا جميعاً في تأسيس جريدة تكون لسان حالهم، وقد أخذ على عاتقه تحرير الكثير من مقالاتها وأبحاثها. غير أن « إسماعيل » مفتش المدارس وقف على حركتهم ثم وشى بهم إلى السلطان، وقال له: إن ناظر المدرسة « رضا » هو المسئول عن حركة الطلبة فاستدعاه السلطان فأقنعه بعدم وجود حركة سياسية. واستمر مع رفاقه على إصدار جريدتهم حتى آخر سني مدرسة أركان حرب.

وبعد أن خرج من المدرسة برتبة « يوزباشي » في أركان الحرب العامة واستأجر لنفسه مكاناً خاصاً في « بك أوغلي » رغبة في استئناف العمل وعقد الاجتماعات، وأصدر القرارات لصالح الوطن، ولكن لم تمض مدة وجيزة حتى اعتقل بضعة أشهر، ثم أطلق سراحه وأصرّ على اشتغاله بالسياسة حتى نفته الحكومة إلى ولاية الشام للخدمة في الجيش — وقد أسس هناك « جمعية الحرية » وأسس لها فروعاً في بيروت ويافا والقدس، وفي كل مدينة حل فيها ونزل بها، ولما

كان انتشار مبادىء الجمعية غير ممُكن في تلك المدن عَزَم على السفر إلى « مَقدونيا » حيث هناك الأرض صالحة لبذر تلك المبادىء ، والعمل على إنمائها وإنباتها نباتاً حسناً ، وأطلع جمعيّته على رأيه ، وعلى ذلك سَعَى أفرادها وتمكن من إصدار إذن يَستَطِيعُ به السفر في بادىء الأمر إلى « أزمير » وعلى إثر ذلك أرسل رسالة خاصة إلى (شكري باشا) المعروف بوطنيته الحارّة ، وطلب منه مساعدته ، ولما شدّ الرحال إلى مقدونيا ، وركب البحر غَيّرَ وَجْهَته إلى مصر ، ومنها إلى بلاد اليونان ، ثم إلى سلانيك رغبة في إخفاء أغراضه عن أعين الجواسيس وقد أسّس في مدينة سلانيك فرعاً عاماً للجمعية ، وما كادت حكومة الآستانة تتلقى تقرير الجواسيس عن أعماله حتى سافر إلى (يافا) وعلى أثر ذلك ظهرت مسألة العقبة ، فاستصدرت جمعية الحرّية أمراً بتعيينه على الحدود المصرية .

وقد مكث في سوريا ثلاثة أعوام ، طلب من الحكومة نقله إلى مقدونيا ، فقوبل طلبه بالقبول ، وعلم بعد وصوله إلى سلانيك أن جمعية الحرية غَيّرَت اسمها باسم جمعية « الاتحاد والترقي » وما وافى إعلان الدستور حتى برز إلى ميادين السياسة بفضل إعلانه جميع الأسرار .

ولما نشبت الثورة الرجعية في الآستانة سنة ١٩٠٩م أخمدها واستَتَبّ الأمن ، ثم تعين بمُهمّة الإصلاح على ولاية طرابلس .

وكان كثيراً ما يكتب لإصلاح شأن الجيش ، فكان ذلك من الأسباب الجوهرية التي بعثت بعض القواد القدماء على حقدهم عليه ، وكان جزاؤه تعيينه قائداً للآلاي الثلاثين ، فجاء هذا التعيين على عكس غرضهم الأساسي ؛ إذ أفسح له مجالا واسعاً لإلقاء بعض المحاضرات الفنية وشرح أساليب الخطط الحربية للضباط والقواد . ثم بعد ذلك دعته حكومة الآستانة ، ضمن أركان الحرب العامة فيها ، وقام بصحبة المرحوم (شوكت باشا) بالحركات الحربية لإخماد الثورة في بلاد ألبانيا .

وقد ذهب متنكراً إلى مصر على أثر إعلان الحرب الإيطالية سنة ١٩١١م ، وسافر منها إلى بنغازي ،ثم عاد إلى الآستانة بعد نشوب الحرب بين الترك والبلغار ، وتعين رئيساً لأركان الحرب ، بعدها عاد إلى الآستانة ، وتعين مُلحقاً عسكرياً في سفارة « صوفيا » عاصمة بلغاريا ، ومكث هناك مدة سنة كاملة.

ولما نشبت الحرب العامّة سنة ١٩١٤ م تعين قائداً للفرقة السادسة عشرة في (تكفور طاغ) ثم تعين قائداً لفيلق ديار بكر ، وبعدهما تولى قيادة الجيوش ، وعُيِّن بعد ذلك قائداً للقوات الحجازيّة ، ثم عاد إلى ديار بكر ، ومنها عاد إلى الآستانة وأخذ القيادة على عاتقه ، وحصل بينه وبين كبار القواد الألمانيين مناقشات أدّت إلى استقالته ، وسافر من الآستانة مع « وليالعهد » إلى ألمانيا ، وفيها تقابل مع القائدَين (هندنبورج ، ولوندرف) .

وقد صحت عزيمته على ترك الآستانة والتوّغل في داخلية البلاد ، وقد بذل جهده في العمل على إنقاذ الوطن خاصة والشرق عامة ، وبينما كان مشتغلا بتهيئة الأسباب لذلك ، إذ تلقى أمراً بتعيينه قائداً ومفتشاً لجيش (الصاعقة) مع ضرورة ذهابه إلى الأناضول ، فتَقَبَّلَ ذلك بالسرور العظيم ، وقامَ إلى الأناضول ، وهو حاصل على رتبة القائد والمفتش معاً لذلك الجيش ، وكان ذلك من أهم العوامل الفعّالة للوصول إلى تحقيق إنقاذ الوطن ، ولما شعرت الحكومة بخطتها استدعته في الحال إلى الآستانة ، فرفض واستقال ، وسعى في جمع نوّاب الأمة في الأناضول وقد افتتح المجلس الوطني الكبير يوم ٢٣ فبراير سنة ١٩٢٠ م ، وأخذ في مباشرة الأعمال والقيام بواجب البلاد ، وكان شغله الشاغل كيف تُمثل إرادة الأمة أحسن تمثيل ؟؟) .

وقد تمّ له ما أراد ، ففاز بالنصر والسّداد ، وفق الله أمثاله إلى ما فيه صلاح العباد ، وقد اجتمع بين يديه إمارة السّيف والقلم ، وخطبه أشهر من أن تُذكر.

ومن أقواله في حُبِّ الوطن العزيز : إنّ وطننا العزيز لا يموتُ ولنْ يموت ،

وإذا فرَضْنا المُحال وسَلمنا بموته (لاقدّر الله) فكاهِلُ الكرَة الأرْضية لن يستطيعَ حَمْلَ تابوته الجسيم . نعَمْ لا يسقُط مُهشماً ، مقطّع الأوصال ، ما دام فرْد منا يتنسم نسيم الحياة.

ومن آرائه في تعليم المرأة : تعليم المرأة (أم الوطن) وتثقيفُ عقلها بالعلوم الدّينية والمعارف الأهلية من أهمّ ما ترمي إليه نهضتُنا العلمية الوطنية .

ومن وصفه للفَلاّح : سيد تركيا ، بل سَيد العالم الحقيقي (الفَلاّح) لأنه هو العنصر الأول في تكوين عناصر الأمة وكيانها ، والوطَنَ بدونه لا شيء ، بل الوطَنُ هُو ، فيتعين أن نعْتني به عِنايَة خاصّة ، وأن نضع قبل كل شيء سعادته نُصب أعيُنِنا .

شعراء العصر الحاضر

(١) محمود سامي باشا البارودي

هو ربُّ السيف والقلم ، أميرُ الشعراء ، وشاعرُ الأمراء ، محمود سامي باشا ابن حسن حُسني بك البارودي أحد زعماء الثوْرة العربية ، وأشعر الشعراء المتأخرين بالديار المصرية – وُلد سنة ١٢٥٥ هـ ، وتأدّب ، وأُدْخِلَ المدرسة الحربية وما زال يترقى حتى ولاّهُ المرحوم الخديوي توفيق باشانظارتي الحربية والأوقاف ، ثم وُلّي رياسة مجلس النّظار قُبيل الثورة العرابية ، فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤها على اصطلاء نارها فخبّ فيها ووضعَ ، وحُكم عليه بعد انقضائها بالنفي إلى جزيرة (سيلان) حتى عَمِيَ ، وشفع فيه فأذِن له بالقُدُوم إلى مصر بعد مُضي ١٧ سنه من مَنفاه ، وبقي في منزله يشتغلُ بالأدب إلى أن مات سنة ١٣٢٢ هـ – ١٩٠٤ م ومن قوله :

والدّهرُ كالبحر لا ينفك ذا كدر ... وإنما صفوُه بَين الورى لُمَعُ
لو كان المرء فكر في عوَاقبه ... ما شان أخلاقَه حِرْصٌ ولا طمعُ

وكيف يُدْرِكُ ما في الغيب من حدث ... مَنْ لم يزَل بغرور العيش يَنخدعُ
دَهْرٌ يَغُرُّ وآمالٌ تسُرُّ وأعْمارٌ تمرُّ وأيام لها خِدَعُ
يَسْعَى الفتى لأمور قد تَضُرُّ به ... وليس يعلم ما وما يأتي يَدَعُ
يا أيها السَّادرُ المزورُّ من صَلَفٍ ... مهلاً فإنك بالأيام مُنْخدع
دَعْ ما يُريب وخُذْ فيما خُلِقت لهُ ... لعلَّ قلبَكَ بالإيمان يَنتفع
إنَّ الحياة لَثوبٌ سوف تخلَعُهُ ... وكلّ ثوبٍ إذا ما رثَّ يَنْخلِع

ومن قوله في الحماسة والفَخْر (وهو آخر ما قاله) :

أنا مَصدرُ الكَلِم البوادي ... بينَ المحاضِر والنَّوادي
أنا فارسٌ أنا شاعرٌ ... في كلّ مَلْحَمة ونادي
فإذا ركبتُ فإنني ... زَيْدُ الفَوارس في الجِلادِ
وإذا نَطَقْتُ فإنني ... قسُّ بن ساعِدةَ الإيادي

وقال يَصِفُ هرَمي الجيزةِ وأبا الهوْل :

سَلِ الجيزةَ الفيْحاءَ عن هَرَمَيْ مِصْرِ ... لعلكَ تَدْري غيْبَ ما لم تكنْ تدري
بناءانِ ردَّا صَوْلةَ الدَّهْرِ عنهما ... ومَن عجبٍ أن يَغلِبا صوْلةَ الدهر
أقاما على رَغم الخطوبِ ليشهَدا ... لبانيهما بينَ البرية بالفَخْرِ
فكَمْ أمم في الدَّهر بادتْ وأعْصرٍ ... خلتْ وهما أعجوبةُ العين والفكرِ
تلوحُ لآثارِ العقولِ عليهما ... أساطيرُ لا تنفكُّ تُتلى إلى الحَشْرِ
رُموز لواسْتَطلَعْتَ مَكنونَ سِرِّها ... لأبصرتَ مجموعَ الخلائق في سَطرِ
فما مِن بناءٍ كان أو هو كائن ... يُدانيهما عِنْدَ التَّأمُّلِ والخُبْرِ
يُقصِّرُ حُسْناً عنهما صَرْحُ بابل ... ويعترفُ الإيوانُ (١) بالعجز والبهْرِ
كأنَّهما ثَدْيانِ فاضا بدرَّةٍ ... منَ النيلِ تروي غلة الأرض إذ تجري

---

(١) هو إيوان كسرى، كان بهواً عظيماً في قصره بالمدائن وسقفه أزج معقود وبه سمي قصره الأبيض .

وبينَهما بلهيبٍ[١] في زيٍّ رابيض | أكب على الكفيْن منه إلى الصدرِ
يُقلّبُ نحوَ الشرْقِ نظرةَ وامقٍ | كأنّ له شوْقاً إلى مطْلَعِ الفجْرِ
مَصانعُ فيها للعُلوم غوامض | تَدُل على أنّ ابن آدمَ ذو قدْرِ
رسا أصلُها،وامتدّ في الجوّ فرْعُها | فأصبَح وكراً للسّماكيْن[٢] والنسْرِ[٣]

(٢) أحمد شوقي بك المتوفى سنة – ١٣٥١ – ١٩٣٢م

أشهر شعراء العربية في العصر الحـاضر ، وأقدرهم على التّصورات البديعية شـاعر النيـل المرحوم أحمد شوقي بك ابن أحمد شوقي بك ، المولود بمصر سنة ١٢٨٥ هـ – ١٨٦٨ م .

شعره - ينظم بين أصحابه ، فيكون معهم وليس معهم ، وينظم حين يشاء ، وحيث يشاء ، لا يُجهد فكره ، ولا يكدّه في معنى أو في مبنى . فأما المعنى فيجيئه على مرامه أو على أبعد من مرامه ، ولا ينصب عنده ، لأنه يَستخلصه من عقلٍ فوّار الذّكاء ومعارف جامعة إلى أفانين الآداب ، في لغات الإفرنج والأعراب ، فلسفة الحقوق وحقائق التاريخ ، وغرائب السير التي يحفظ منها غير يسير ، إلى مُشاركات علميّة وتنبيهـات فنية ، استفادها من مطالعته في صنوف الكتب واتخذها عن ملاحظاته ومسموعاته في جولاته بين بلاد الشرق والغرب . وأما المبنى فله فيه أذواق متعددة بتعدُّد مقـامـات القول ، ترى فيه من نسج (البُحتري)ومن صياغة (أبي تمام)ومن وثبات المتنبي) ومن مفاجآت (الشريف) ومن مُسلْسَلات (مِهيار) . ومن قوله (يصف هَيْكل أنس الوجود) :

أيها المُنْتَحِي (بأسوانَ) داراً | كالثُّريّا تُريدُ أنْ تَنْقَضّا

(١) اسم لأبي الهول عرف به صدر الإسلام . ولعل أبا الهول محرف عنه .
(٢) السماكان نجمان نيران في السماء أحدهما السماك الرامح والثاني السماك الاعزل .
(٣) النسر كوكبان : الواقع والطائر . وفي النسر تورية .

إخلع النَّعْلَ واخْفِضِ الطرفَ واخشع لا تُحاولْ من آيةِ الدهرِ غَمْضَا
قف بتلك (القصور) في اليَمِّ غَرْقَى مُمْسِكاً بعضُها من الدهرِ بعضا
كعذارى أُخْفِينَ في الماءِ بَضّاً [1] سابحاتٍ بهِ وأبدينَ بَعضا
مُشرفاتٍ على الزَّوالِ وكانت مُشرقاتٍ على الكواكبِ نَهْضا
شابَ من حولها الزمانُ وشابَتْ وشبابُ الفنونِ ما زال غَضّا
رُبَّ (نَقْشٍ) كأنما نَفَضَ الصَّا نعُ منه اليدين بالأمسِ نَفْضا
و(دِهان) كلامعِ الزَّيتِ مَرَّتْ أعصُرٌ بالسِّراجِ والزَّيتِ وضْا [2]
و(خُطوطٍ) كأنها هُدْبُ ريمٍ [3] حَسُنَتْ صنعةً وطولاً وعَرْضا
و(ضَحايا) تكادُ تمشي وترعى لو أصابت من قدرةِ اللهِ نَبْضا
و(مَحاريبَ) كالبُروجِ بَنَتْها عَزَماتٌ من عَزْمةِ الجنِّ أمْضى [4]
شَيَّدَتْ بعضَها الفراعينُ زُلْفَى [5] وبَنى البعضَ أجنبٌ يَترضَّى [6]
و(مَقاصيرَ) أُبدِلَتْ بفُتاتِ المسكِ تُرباً وباليواقيتِ قَضّا [7]
حُطِّمَتْ اليومَ هدّهُ وقديماً صُرِّفَتْ في الحظوظِ رَفْعاً وخَفْضا
سَقَتِ العالَمين بالسَّعدِ والنَّحسِ إلى أن تَعاطتِ النَّحسَ مَحضا [8]
صَنعةٌ تُدهشُ العُقولَ وفَنٌّ كان إتقانُه على القومِ فَرْضا
يا قُصوراً نَظرتُها وهي تَقْضي [9] فَسَكبتُ الدموعَ والحقُّ يُقضى
أنتِ سطرٌ ومجدُ مصرَ كتابٌ كيف سامَ البِلى كتابَكِ فَضّا
وأنا المُحتفي بتاريخِ مصرٍ مَنْ يَصُنْ مجدَ قومهِ صانَ عِرْضا
رُبَّ سرٍّ بجانبيكِ مُزالٍ كان حقٌّ على (الفراعين) غَمْضا

---

(١) بضا : البض، الرخص الجسد. (٢) وضا: وضاء. (٣) ريم : غزال.
(٤) أمضى : أحد. (٥ زلفى : تقرباً. ٦) يترضى : يطلب الرضا.
(٧) قضا : حصا. (٨) محضا: خالصاً. (٩)تقضي: تفنى.

قلْ لها في الدعاء لو كان يجدي ... يا سماء الجلال لا صرتِ أرضا
حار (فيكِ) المهندسون عقولاً ... وتولت عزائم العلم مرضى
أين ملكٌ حيالها وفريدٌ ... من نظام النعيم أصبح فضّا ١
أين (فرعونُ) في المواكب تترَى ... يركض المالكين كالخيل ركضا
ساق للفتح في الممالك عرْضاً ... وجَلا للفخار في السِّلم عرْضا
أين (إيزيسُ) تحتها النيل يجري ... حكمت فيه شاطئيْن وعرْضا
أسْدلَ الطرف كاهنٌ ومليكٌ ... في ثراها وأرسَل الرأس خفضا
يُعرَض المالكون أسرى عليها ... في قيودِ الهوان عانين جرضَى ٢
مالها أصبحتْ بغير مُجيرِ ... تَشْتكي من نوائب الدهر عضّا
هي في الأسر بين صخر وبحر ... ملَكة في السجون فوق حضَوْضى ٣
أين (هوروس) بين سَيف ونطع ... أبهذا في شرعهم كان يُقضى ؟
ليت شِعري قضى شهيد غرام ... أم رماه الوشاة حقداً وبُغضا
رُبَّ ضرب من سَوط فرعون مَضٍّ ٤ ... دون فعل الفراق بالنفس مضّا
وهلاك بسيفه وهو فانٍ ... دون سَيف من اللواحظ يُنضى ٥
قتلوه فهل لذاك حديث ... أين راوي الحديث نثراً وقرضا ؟
يا إمام الشعوب بالأمس واليو ... م ستُعطى من الثناء فترْضى
مصرُ) بالنازلين من ساح معنٍ ٦ ... وحِمى الجود حاتم الجود أفضى
كنْ ظهيراً ٧ لأهلها ونصيراً ... وابذل النصح بعد ذلك محضا
قل لقوم على (الولايات) أيقا ... ظٍ إذا ذاقت البريّة غمْضا
شيمة النيل أن يَفي وعجيبٌ ... أحرجوه فضيّع العهد نقضا

---

(١) فضا : مفضوض . (٢) جرضى : مغمومين .
(٣) حضوضى : جبل في البحر . (٤) مض : مرجع . (٥) ينضى : يسل
(٦) معن : هو معن بن زائدة أحد كرماء العرب . (٧) ظهيراً : نصيراً

حاشَهُ [١] الماء فهو صيد كريم ليت بالنيل يوم يسقط غيضا [٢]
شيّدوا المال ، والعلوم قليل أنقذوه بالمال والعلم نقضا [٣]

وقال أيضاً في استنهاض همم العمال من قصيدة :

أيها العمالُ أفنوا العمـ ـرَ كدّاً واكتسابا
واعمُروا الأرضَ فلولا سعيُكم أمست يبابا [٤]
أتقنوا الصنعة حتى أخذوا الخلد اغتصابا
إنْ للمتقين عند الله والناس ثوابا
أتقِنوا يحببْكم اللهُ ويرفعكم جنابا
أرضيتم أن تُرى مصـ ـر من الفنّ خرابا
بعد ما كانت سماءً للصّناعات وغابا
أيها الغادون كنحـ ـل ارتياداً وطِلابا
في بكور الطير للرز ق مجيئاً وذهابا
اطلبوا الحقّ برفق واجعلوا الواجب دابا
واستقيموا يفتح اللهُ لكم باباً فبابا
اهجروا الخمر تطيعوا اللهَ أو تُرضوا الكتابا
إنها رجسٌ فطوبى لامرىءٍ كفّ وتابا
تُرعش الايدي ومن ير عش من الصنّاع خابا
إنما العاقلُ من يجعلُ للدهر حسابا

---

(١) حاشه : من حاش الصيد ، أخرجه في كل مكان .
(٢) غيضا : من غاض الماء غيضاً ، نقص أو غار فذهب في الأرض .
(٣) نقضا . النقض ما انتقض من البناء ، أي انتكث .
(٤) الأرض واليباب الخراب .

وقال أيضاً في وصف الصحافة من قصيدة :

لكـــل زمان مضى آيةٌ وآية هذا الزمان الصحفْ
لسانُ البلاد ونَبْضُ العبـــا د وكهفُ الحقوق وحرب الجَنف[١]
تسيرُ مسير الضحى في البـــلا د، إذا العِلمُ مزّق فيها السدَف[٢]
وتمشي تُعلّمُ في أمـــةٍ كثير بها لا يَخُطّ الألِفْ !
فيا فِتية الصحف صـــبراً إذا نبا الرزقُ فيهـــا بكم واختلف
فإن السعادة غـــيرُ الظهو ر، وغير الثراء، وغير الترف
ولكنهـــا في نواحي الضمـــير إذا هو باللؤم لم يُكْتَنَفْ
خذوا القصدَ واقتنِعوا بالكفا ف وخلوا الفضولَ يغلها السرف[٣]
ورومُوا النبُوغَ فمن ناله تلقّى من الحظ أسنى التُّحف
وما الرزق مجتنِبٌ حرفة إذا الحظ لم يهجُـــر المحترف
إذا آخت الجوهَريّ الحظو ظُ كفلنَ اليتيمَ له في الصدفْ[٤]
وإن أعرضتْ عنه لم يحلُ في عيُونِ الخرائد[٥] غـــيرُ الخزف

(٣) المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم المتوفى سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٢م

هو الشاعر الكبير المرحوم محمد حافظ بن إبراهيم أفندي فهمي المولود سنة ١٢٨٨ هـ يقول الشعر في كل مكان يتفق له فيه أن يخلو بنفسه، ويتعب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج تمثال جميل من حجره .

يؤثر الجزالة على الرّقة، وله فيها آيات، يطرق الموضوع في الغالب من جوهره ورُبما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع، شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصعب ما

(١) الجنف : الحيف . (٢) السدف الظلام .
(٣) الفضول: فضلات المال الزائدة عن الحاجة . وغالها السرف يغولها أتى عليها .
(٤) اليتيم : اللؤلؤ المنقطع النظير . (٥) الخرائد : العذارى .

بين يديه، آمناً أن تهن عزيمته دون الإجادة بعد، عالماً أن الكلام لا بد أن يأتيه في أي مقام طبعاً ولو بعد حين .

حاضر المحفوظ من أفصح أساليب العرب، ينسج على منوالها، ويتخير نفائس مفرداتها ، وأعلاق حلاها . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى . فإذا فاته الابتكار حيناً في التصور لم يفته الابتكار حيناً في التصوير ، أولع بالاجتماعات فقال فيها وأجاد ما شاء .

فهو على الجملة أحد الثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر ولكل من تلك النجوم منزلته ، وإضاءته وأثره الخالد .

أما شعره فشعر البيان، وإن من البيان لسحراً — ومن شعره الاجتماعي قوله:

كم ذا يُكابد عاشق ويُلاقي — في حُب مصر كثيرة العشاقِ
إني لأحملُ في هواكِ صبابة — يا مصر، قد خرجت عن الاطواقِ
لهفي عليكِ ، متى أراكِ طليقة — يحمي كريم حماكِ شعبٌ راقِ
كلِفٌ بمحمود الخِلالِ مُتَيَّمُ — بالبذلِ بين يديكِ والإنفاقِ
إني لتُطربني الخلالُ كريمةً — طربَ الغريب بأوبةٍ وتلاقِ
ويَهزُّني ذكر المروءة والندى — بين الشمائل هزةَ المشتاقِ
ما البابلية في صفاءِ مزاجها — والشربُ بين تنافس وسباقِ
والشمس تبدو في الكئوس وتختفي — والبدرُ يشرقُ من جبين الساقي
بألذ من خُلُقٍ كريم طاهر — قد مازجتهُ سلامة الاذواق
فإذا رُزِقتَ خليقة محمودة — فقد اصطفاك مقسّم الارزاقِ
فالناسُ هذا حظهُ مالٌ، وذا — علمٌ ، وذاك مكارم الاخلاقِ
والمال إن لم تَدّخِرهُ محصّنا — بالعلم كان نهاية الإملاقِ
والعلمُ إن لم تكتنفهُ شمائلٌ — تُعليهِ كان مطيّة الإخفاق

لا تحسبنّ العلمَ ينفعُ وَحدهُ ... ما لم يُتَوَّجْ ربُّه بخلاقِ
مَنْ لي بتربيةِ النساء فإنها ... في الشرق علّةُ ذلك الإخفاقِ
الأم مدرسة ، إذ أعْدَدْتَها ... أعْدَدت شعباً طيِّب الأعراقِ
الأمّ رَوْضٌ إنْ تَعَهَّدَهُ الحيا ... بالرّي ، أورَقَ أيّما إيراقِ
الأمّ أستاذ الأساتذة الأُلى ... شغلت مآثرهم مَدى الآفاقِ
أنا لا أقولُ : دعوا النساءَ سَوافراً ... بين الرجال يجُلْنَ في الأسواقِ
يَدْرُجْنَ حيث أردنَ ، لا من وازع ... يحذرْن رقبته ولا من واقِ
يفعلنَ أفعال الرجال لواهياً ... عن واجبات نواعس الأحداقِ
في دورهنّ شؤونهنّ كثيرة ... كشئون ربِّ السيفِ والمِزْراقِ
كلا ، ولا أدعوكُمُ أن تسرفوا ... في الحَجْبِ والتضييق والإرهاقِ
ليست نساؤكُم حُليّ وجواهراً ... خَوْفَ الضَّياع تُصانُ في الأحقاقِ
ليست نساؤكُم أثاثاً يُقتنى ... في الدور بين مخادع وطباقِ
تتشكل الأزمانُ في أدوارها ... دُوَلاً ، وهنّ على الجمود بواقِ
فتوسَّطوا في الحالتين ، وأنْصِفوا ... فالشرُّ في التّقييد والإطلاقِ
رَبُّوا البنات على الفضيلة ، إنها ... في الموقفين لهنّ خير وثاقِ
وعليكمُ أن تستبينَ بناتُكم ... نورَ الهدى ، وعلى الحياء الباقي

(٤) المرحوم إسماعيل باشا صبري المتوفى سنة ١٩٢٣ م

هو أحد شعراء الطبقة الأولى في هذا العصر ، ويمتاز بجمال مقطعاته وعذوبة أسلوبه إلى ما لا يُجاريه فيه مُجار .

وأكثر ما ينظم فلخطرة تخطر على باله ، من مثل حادثة يشهدها ، أو خبر ذي بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه . ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدة .

وهو شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه من رقة اللفظ ، وفصاحة الأسلوب اهمله ثم نسيه ؛ ولد بالقاهرة سنة ١٨٥٤ م ، وتوفي سنة ١٩٢٣ م .

ومن قوله يصف الأهرام :

لا القوم قومي ولا الأعوانُ أعواني ... إذا وَنَى يوم تحصيل العُلى وانِ
ولستُ إن لم تُؤيِّدني فراعنةٌ ... منكم بفرعون عالي العرش والشانِ
ولست جبّارَ ذا الوادي إذ سلمت ... جبالهُ تلك من غارات أعواني
لا تَقْرَبوا النيلَ إن لم تعملوا عملاً ... فماؤهُ العذبُ لم يُخلَق لكسلانِ
ردوا المجرّة كدّاً دون موردِه ... أو فاطلبوا غيره ريّاً لظمآنِ
وابنوا كما بنتِ الأجيالُ قبلكم ... لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسانِ
أمرتُكم ، فأطيعوا أمر ربكُمُ ... لا يَثْنِ مُسْتمعاً عن طاعةٍ ثانِ
فالمُلكُ أمرٌ وطاعات تسابقه ... جنباً إلى جنب إلى غايات إحسانِ
لا تتركوا مُسْتحيلاً في استحالته ... حتى يُميطَ لكم عن وجه إمكانِ
مقالة قد هوت عن عرشٍ قائلها ... على مناكب أبطال وشُجْعانِ
مادت لها الأرض من ذُعر ودانَ لها ... ما في المقطّم من صخر وصَوانِ
لو غير فرعونَ ألقاها على ملإ ... في غيرِ مصرَ لعُدّت حُلْمَ يقظانِ
لكن فرعونَ إن نادى بها جبلاً ... لبّتْ حجارتُهُ في قبضة الباني
وآزرته جماهيرٌ تَسيل بها ... بطاحُ وادٍ بماضي العزم ملآنِ
يَبنون ما تقفُ الأجيال حائرة ... أمامه بين إعجاب وإذعانِ
من كل ما لم يَلِد فكر ولا فتحت ... على نظائره في الكون عينانِ
ويُشبِهون إذا طاروا إلى عمَلٍ ... جنّا يطيرُ بأمر من سُليمانِ
برّاً بذي الأمر لا خوفاً ولا طمعاً ... لكنهم خُلقوا طُلّاب إتقانِ

أهرامُهم تلك، حيّ الفنّ متخذاً　　من الصخور بروجاً فوق كيوانِ
قد مرّ دهرٌ عليها وهي ساخرة　　بما يُضَعْضِعُ من صَرحٍ وإيوانِ
لم يأخذِ الليلُ منها والنهارُ سوى　　ما يأخذُ النملُ من أركان ثهلانِ
كأنها والعوادي في جوانبها　　صَرْعى بناءُ شياطينٍ لشيطانِ
جاءت إليها وفود الأرض قاطبة　　تسعى اشتياقاً إلى ما خلّدَ الفاني
فصغّرَت كل موجود ضخامتها　　وغَضّ بنيانها من كل بنيانِ
وعاد مُنكرُ فضل القوم مُعترفاً　　يُثني على القوم في سِرّ وإعلانِ
تلطالها كلُ في الأمصار شاهدةٌ　　بأنهم أهلُ سبقٍ، أهلُ إمعانِ
وأنّ فِرْعَونَ في حَوْلٍ ومقدرةٍ　　وقومَ فرعون في الإقدام كفآنِ
إذا أقامَ عليهم شاهداً حَجَرٌ　　في هيكلٍ قامت الأخرى ببرْهانِ
كأنما هيَ والأقوامُ خاشعةٌ　　أمامَها صُحُفٌ من عالم ثانِ
تَستقبلُ العينَ في أثنائها صُوَرٌ　　فصيحة الرّمزدارت حول جُدْرانِ
لو أنها أعطيَت صوتاً لكان لهُ　　صَدًى يُروّعُ صمّ الإنس والجانِ
أين الألى سَجّلوا في الصخر سيرتهم　　وصغّرُوا كل ذي مُلك وسُلطانِ
بادوا، وبادَت على آثارهم دُوَلٌ　　وأُدرجوا طيّ أخبارٍ وأكفانِ

(٥) خليل بك مطران

هو شاعر الشعور والخيال، وشاعر بعلبك والأهرام، ولد عام ١٨٧١ م ببعلبك وتعلم بها، ثم قَدِم مصر عام ١٨٩٣ م، واشتغل بمكاتبة الصحف، وأنشأ باسمه «المجلة المصرية» عام ١٨٩٩ م، وأنشأ أيضاً (جريدة الجوائب المصرية)، وله ديوانه المسمى (ديوان الخليل).

شعره – مجمع الصور، وملعبُ الخيال، ونفسه كالصحيفة الحساسة، ينطبع

عليها كل مـا يمرُّ بها . بل الغصن الرطب يميل به كل نسيم ، بـل وجه البحيرة الصافي يحرِّكه كل ريح .

ومن قصيدته يصف ضرب الأسطول الإيطالي لسواحل الشام ويستنهض الهمم :

بلادي لا يزالُ هواكِ مـني كما كان الهوى قبلَ الفِطامِ
أُقبِّلُ منكِ حيث رَمى الأعادي رَغاماً طاهـراً دون الرَّغـامِ
وأفـدي كلَّ جُلمُـود فتيتٍ وَهَى بقنابـلِ القومِ اللئـامِ
لحى الله المطامعَ حيثُ حلَّتْ فتلكَ أشدُّ آفـاتِ السَّلامِ
تَشوبُ الماء وهو أغَرُّ صافٍ وتمشي في المشارب بالسقـامِ
أقول : وقد أفاق الشرق ذُعْراً من الحـال الشبيهة بالمنـامِ
على صخبِ المدافع في حُماةٍ ورَقصُ الموت بين طَلى وهامِ
أقول : بصوته لحُـماةِ دار رَماهـا منْ بناةِ الغرب رامِ
أُباةَ الضيم من عرب وتُرْك نُسورَ الشمِّ آساد المـوامي
قرومَ العصر فرْساناً ورَجْلاً نجومَ الكرِّ من خلف اللثامِ
بنـا مرَضُ النعيم فنسِّمونا وَغىً يشفي من الصفو العقامِ
بنـا بردُ المكوثِ فأدفئونا بحمى الوثْبِ حيث الخطبُ حامِ
بنـا عطلُ السماع فشنِّفونا بقعقعـة الحديد لدَى الصِّدامِ
على هذا الرجاءِ ونحنُ فيـه نسير مُوَفقـينَ إلى الأمـامِ

وقال أيضاً في « نابليون » وهو يَرْقبُ السماء في آخر أيامه

قالوا لنابليون ذات عَشية إذ يَرْقبُ كان في السماء الأنجما
هل بعد فتح الأرض من أُمنيَّةٍ فأجاب أنظر كيف أفتتحُ السما !

أبواب الشعر العربي — الباب الأول في المديح

قال أمية بن أبي الصلت المتوفى في أول ظهور الإسلام حامداً شاكراً الإله :

لك الحمدُ والنَّعماء والملكُ رَبَّنا فلا شيء أعلى منكَ مجداً وأمجدُ
مَليكٌ على عَرْش السماءِ مُهيمنٌ لعزّته تعنو الوُجوهُ وتَسْجدُ
فسبحانَ من لا يعرفُ الخلقُ قدره ومن هو فوق العرش فردٌ مُوحَّدُ
هو الله باري الخلق والخلقُ كلهم إماءٌ له طَوْعاً جميعاً وَأعْبُدُ
مليكُ السماوات الشّداد وأرضها يَدوم ويبقى ، والخليقة تنفَدُ

وقال أيضاً في الكونيات وذكر الفناء وما يلقاه الناس بعد ذلك :

إلهُ العـالمينَ وكلّ أرض وربُّ الرّاسيات من الجبالِ
بناها وابتنى سَبعاً شدَاداً بلا عمدٍ يرَيْنَ ، ولا رجالِ
وسوّاها وزيّنها بنور من الشمسِ المضيئةِ والهلالِ
ومن شُهُب تلألأ فيْ دُجاها مراميها أشَدّ من النصالِ
وشقَ الأرضَ فانبَجَسَتْ عُيوناً وأنهاراً من العَذْب الزلالِ
وبارَكَ في نواحيها وزَكّى بها ما كان من حرْث ومالِ
فكل مُعمّرٍ لا بُدّ يوماً وذي دنيا يصيرُ إلى زَوالِ
ويفنى بعْد جِدّتِهِ ويَبلى سوى الباقي المقدس ذي الجلالِ
وسيقَ المجرمونَ وهمُ عُراة إلى ذات المقامع والنّكالِ
فنَادَوْا ويْلنا ويلاً طويلاً وعَجوا في سلاسلها الطوالِ
فليسوا مَيّتينَ فيستريحوا وكلهُمُ بحرّ النـار صالي
وحلّ المتقون بدار صِدْق وعيش ناعمٍ تحت الظلالِ
لهم ما يشتهون وما تمنوْا من الأفراح فيها والكمالِ

وقال محمود سامي البارودي باشا مادحاً سيد الأمة ، من قصيدة كشف الغمة :

«محمد» خاتمُ الرسل الذي خَضَعتْ له البريةُ من عُرْب ومن عجم
سميرُ وحْي ومَجنى حكمة ونَدى سماحةٌ وقرى عافٍ وريُّ ظَمِ

قد أبلغَ الوحيُ عنه قبل بعثته ... مسامعَ الرسل قولاً غير منكتمِ
فذاك دَعوةُ إبراهيمَ [١] خالقهُ ... وسر ما قالهُ عيسى [٢] من القدَمِ
أكرمْ به ، وبآباء محجّـــلةٍ ... جاءت به غرّةً في الأعصر الدُّهُم
قد كان في ملكوت الله مدّخراً ... لدعوة كان فيها صاحبَ العَلم
نورٌ تنقلَ في الأكوان ساطعهُ ... تَنقـّلَ البَدْر من صُلبٍ إلى رحم

وقال شوقي مادحاً أفضل الخلق على الإطلاق من قصيدة نهج البردة :

« محمدٌ » صفوةُ الباري ورحمتهُ ... وبُغيةُ اللهِ من خلق ومن نَسَم
وصاحبُ الحوضَ يوم الرسل سائلة: ... متى الورود؟ وجبريلُ الأمين ظمي
سناؤه وسناء الشمسِ طالعةٌ ... فالجرْمُ في فَلَكٍ والضوء في علَم
قد أخطأ النّجْمَ مانالَتْ أبوّته ... من سؤدد باذخ في مَظْـهرٍ سنمِ
نموا إليه فزادوا في الوَرى شرفاً ... وربّ أصْل لفرْع في الفَخار نمى
حواهُ في سُبحات الطهر قبلهمُ ... نوران قاما مقام الصلب والرّحْمِ
لما رآه بحيْرا قـــال نعرفهُ ... بما حفظنا من الأسماءِ والسيَمَ

وقال أبو تمام مادحاً المعتضد بالله :

إلى قطبِ الدنيا الذي لو بفضله ... مدَحْت بني الدنيا كفتهُم فضائله
من البأس والمعروف والجود والتقى ... عيالٌ عليه رزقهنّ شمائـــله
هو البحْرُ من أيّ النواحي أتيته ... فلجتُهُ المعروفُ والجودُ ساحله
تعَوّد بَسط الكفّ حتى لو انهُ ... ثناها لقبضٍ لم تطعه أنامله
ولو لم يكن في كفه غير روحه ... لجادَ بها فليتقِ الله سائـــله

(١) يشير إلى قوله تعالى: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) .

(٢) يشير إلى قوله جل ذكره (ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد .

وقال مادحاً المعتصم بالله أبا إسحاق محمد بن هارون الرشيد من قصيدة:

السَّيفُ أصدقُ إنباءً من الكُتُبِ ... في حدِّهِ الحدُّ بين الجِدِّ واللعِبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في ... مُتونهنَّ جلاءُ الشكِّ والرِّيَبِ
فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السماء له ... وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ
غادرتَ فيها بهيمَ الليلِ وهو ضُحى ... يَشُلُّهُ وسْطَها صُبحٌ من اللهَبِ
حتى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رَغِبَتْ ... عن لونِها أو كأنَّ الشمسَ لم تغِبِ
أجبْتَهُ مُعلِناً بالسيفِ مُنصَلِتاً ... ولو أجبتَ بغير السيفِ لم تُجِبِ
خليفةَ اللهِ جازى اللهُ سعْيَكَ عن ... جُرثومةِ الدينِ والإسلامِ والحسَبِ
إن كان بين صروفِ الدهرِ من رحمٍ ... موصولةٍ أو ذِمامٍ غيرِ مُنْقضِبِ
فبين أيامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بها ... وبين أيامِ بَدْرٍ أقربُ النسَبِ

وقال أبو العلاء المعري :

إليكَ تناهى كلُّ فخْرٍ وسؤدَدٍ ... فأبْلِ الليالي والأنامَ وجدِّدِ
لجدكَ كان المجدُ ثم حويتَه ... ولابنكَ يبنى منه أشرفُ مقعَدِ
ثلاثةُ أيامٍ هي الدَّهرُ كلُّه ... وما هُنَّ غيرُ الأمسِ واليومِ والغدِ
ما البَدْرُ إلا واحدٌ غيرَ أنه ... يغيبُ ويأتي بالضِّياءِ المُجَدَّدِ
فلا تحسبِ الأقمارَ خلقاً كثيرة ... فجملتُها من نيِّرٍ مُتَرَدِّدِ
وللحسنِ الحُسْنى وإن جاد غَيْرُه ... فذلكَ جودٌ ليس بالمتعمِّد

وقال أبو الطيِّب المتنبي مادحاً سيف الدولة :

ضاق الزمانُ ووجْهُ الأرض عن ملكٍ ... مِلْءِ الزمانِ ومِلْءِ السهلِ والجبلِ
فنحنُ في جذَلٍ والرومُ في وَجَلٍ ... والبرُّ في شغلٍ والبحرُ في خَجَلِ
ليتَ المدائحَ تستوفي مناقبَهُ ... فما كليبٌ وأهلُ الأعْصُرِ الأُولِ
خُذْ ما تراه ودعْ شيئاً سمعتَ به ... في طلعةِ البَدْرِ ما يغنيكَ عن زُحَلِ

وقد وجدت مكان القول ذا سعةٍ فإن وجدت لساناً قائلاً فَقُلِ
إنّ الإمام الذي فَخْرُ الأنامِ به خير السُّيوف بكفَّي خيرةِ الدول
تمسي الأمانيُّ صرعى دون مبلغه فما يقولُ لشيءٍ ليتَ ذلك لي

وقال أيضاً يمدح أبا شجاع :

لا خيلَ عندك تهديها ولا مالُ فليُسْعِدِ النطق إن لم تُسْعِدِ الحالُ
واجْزِ الأميرَ الذي نُعماهُ فاجئةٌ بغير قولٍ ونُعْمى الناس أقوالُ
فربما جزَت الإحسانَ مُوليَه خريدةٌ من عذارى الحي مكسال
وإن تكن محكمات الشكل تمنعُني ظهور جري فلي فيهنّ تصهال
وما شكرتُ لأن المال فرّحني سيّان عندي إكثارٌ وإقلالُ
لكن رأيتُ قبيحاً أن يجادَ لنا وإننا بقضاء الحق بخال
فكنت مُنْبِتَ رَوضِ الحزنِ باكره غيث بغير سباخ الأرض هطال
غيثٌ يُبَيِّنُ للنُّظار موقِعهُ أنّ الغيوث بما تأتيه جُهالُ
لا يُدرِكُ المجدَ إلا سيدٌ فطنٌ لما يَشُقُّ على السادات فعّال
لا وارثٌ جهلتْ يمناهُ ما وهبتْ ولا كسوبٌ بغير السيف سئال
قال الزمانُ له قولاً فأفهمَه أن الزّمان على الإمساك عذالُ
تدري القناةُ إذا اهتزّت براحته أن الشقيّ بها خيلٌ وأبطالُ
كفاتك، ودخول الكاف منقصةٌ كالشمس قلت وما للشمس أمثال
القائدُ الأُسْدَ غذتها براثنه بمثلها منْ عِداهُ وهي أشبالُ

وقال أيضاً يمدح سيف الدولة ويذكر بناءه قلعة الحدث عام ٣٤٣ هـ :

على قدرِ أهل العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قَدْرِ الكِرام المكارِمُ
وتعظمُ في عين الصّغير صغارها وتصغُرُ في عينِ العظيم العظائم
يُكلف سيفُ الدولة الجيش همه وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم

ويطلب عند الناس ما عند نفسه　　وذلك ما لا تدعيه الضراغمُ
يفدّي أتم الطير عمراً سلاحهُ　　نسورُ الفلا أحداثها والقشاعِمُ
وما ضرها خلقٌ بغير مخالب　　وقد خلقتْ أسيافه والقوائم
هل الحدث الحمراء تعرف لونها　　وتعلم أيّ الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغرُّ قبل نزوله　　فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى والقنا تقرع القنا　　ومَوْجُ المنايا حوْلها متلاطم
وكان بها مثلُ الجنون فأصبحت　　ومن جثث القتلى عليها تمائم
طريدة دَهر ساقها فرَددتها　　على الدين بالخطّيّ والدهر راغم
تبيدُ الليالي كل شيء أخذته　　وهنّ لما يأخذْن منك غوارم
وكيف ترجي الروم والفرس هدْمها　　وذا الطعنُ آساس لها ودعائم

وقال جرير يمدح عبد الملك بن مروان :

تعزت أم حزرة ثم قالت　　رأيت الواردينَ ذوي امتناح
ثقي بالله ليس له شريكٌ　　ومن عند الخليفة بالنجاح
سأشكرُ إنْ رددت إليّ ريشي　　وأنبتّ القوادم في جناحي
ألستم خير منْ رَكب المطايا　　وأنْدى العالمين بطونَ راح

وقال أيضاً يمدح عمر بن عبد العزيز ويستعطفه :

كم باليمامة منْ شَعثاء أرْمَلة　　ومن يتيم ضعيف الصوْت والنظرِ
ممنْ يعدكَ تكفي فقد والده　　كالفرْخ في العشّ لم ينهضْ ولم يطر
يدعوك دعوةَ ملهوف كأنّ به　　خبلاً من الجن أو مَسّاً من البشر
إنا لنرْجو إذا ما الغيثُ أخلفنا　　من الخليفة ما نرجو من المطر
أتى الخلافة أو كانت له قدَراً　　كما أتى ربهُ موسى على قدَر
هذي الأرامل قد قضيتَ حاجتها　　فمنْ لحاجة هذا الأرمل الذّكر ؟

وقال أيضاً يمدحه :

يعودُ الفضلُ منك على قرَيش ... وتُفرجُ عنهم الكرَبَ الشدادا
وقد أمَّنْتَ وحشهُمُ برفــق ... ويعيي الناسَ وحشكَ أن يصادا
وتدعو الله مجتهــداً ليرْضى ... وتذكر في رَعيتكَ المعـــادا
وما كعْبُ ابنُ مامةوابن سُعدَى ... بأجودَ منـــك يا عمرُ الجوادا

وقال الثعالبي المتوفى سنة ٤٣٩ هـ مادحاً الأمير أبا الفضل الميكالي :

لك في المفاخر معجزات ٌجمة ... أبداً لغيرك في الورَى لم تجمع ِ
بحران بحرٌ في البلاغة شابهُ ... شعرُالوليدوحُسن ُلفظ الأصمعي
وترسّل الصابي يزين علوّهُ ... خط ابن مقلةَ ذو المحل الأرفع ِ
كالنور أو كالسحر أو كالبدر أو ... كالوَشي في برد عليه موشع
شكراً فكم من فِقرة لك كالغنى ... وافى الكريم بُعَيْدَ فقرمدقع
وإذا تفتق َنورُ شعرك ناضراً ... فالحسن بين مرصع ومصرَّع
أرجلتَ فرسان الكلام ورض ... ت أفراس َالبديع وانت أمجدُ مبدع
ونقشتَ في فص الزمان بدائعاً ... تزري بآثار الربيع الممرع

وقال أبو محمد اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ يمدح الملك الفائز ووزيره الصالح :

أقسمتُ بالفائز المعصوم معقده ... فوْز النجاة وأجرَ البر في القسم
لقد حَمَى الدين والدنيا وأهلهما ... وزيرُه الصالح الفرّاج للغمـم
اللابس المجدَ لم تنْسُج غلائلهُ ... إلا يد الصانعيْن ِ: السيف والقلم
قــد ملكتهُ العوالي رق مملكة ... تعـــيرُ أنف الثريا عزة الشمم
أرى مقاماً عظيمَ الشأن أوهمني ... في يقظتي أنه من جملة الحـــلم
ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فما أرضى لـكم كلمي
خليفة ووزير مدّ عدلهـــما ... ظـلا على مفرق الإسلام والأمـم
زيادة النيل نقص عند فيضهما ... فما عسى يتعاطى هاطلُ الديم

وقال المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم يمدح المرحوم الشيخ محمد عبده ويهنئه :

رأيتكَ والأبصارُ حولكَ خُشَّع فقلت أبو حفص ببرديكَ أم علي
وخفضتُ من حزني على مجد أمة تداركتها والخطبُ للخطب يعتلي
طلعتَ بها باليمن من خير مطلع وكنت لها في الفوز قدح ابن مقبل
وجردتَ للفتيا حسامَ عزيمة بحديه آياتُ الكتاب المنزل
محوتَ به في الدين كل ضلالة وأثبتَّ ما أثبتَّ غيرَ مضلل
لئن ظفر الإفتاء منك بفاضل لقد ظفر الإسلامُ منك بأفضل

الباب الثاني في الفخر والحماسة

قال السموأل بن عادياء المتوفى سنة ٦٢ قبل الهجرة :

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل ١
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل ٢
تعيِّرُنا أنا قليلٌ عديدنا فقلت لها : إن الكرامَ قليل ٣
وما قل منْ كانتْ بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلا وكهول ٤
وما ضرَّنا أنا قليلٌ وجارنا عزيزٌ وجارُ الأكثرينَ ذليل ٥
لنا جبل يحتله منْ نجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليل ٦

(١) اللؤم اسم جامع للخصال المذمومة : والمعنى أن الإنسان إذا لم يتدنس باكتساب اللؤم واعتياده فأي ملبس يلبسه بعد ذلك كان جميلا . ٢) وإن هو لم يحمل إلى آخر البيت : أي من لم يصبر النفس على مكارهها فلا سبيل له إلى اكتساب حسن الثناء وليس معنى الضيم ضيم الغير لهم لأنهم يأنفون من ذلك ويعدونه تذللا (٣) يقال عيرته كذا وعيرته بكذا والاول المختار . (٤) الشباب جمع شاب كالشبان، وقوله تسامى أراد تتسامى فحذف إحدى التاءين، والكهول جمع كهل ضد الشبان . ٥) وما ضرنا يجوز في إما أن تكون نافية ، والمعنى لم يضرنا ويجوز أن تكون استفهامية على طريق التقرير (٦) قيل إنه أراد بذكر الجبل العز والسمو : وقيل ان هذا الجبل هو حصن السموأل الذي يقال له الأبلق الفرد بناه أبوه ، وقيل بناه سيدنا سليمان عليه السلام !

رَسا أصلهُ تحت الثرى وسما به | إلى النجم فرْع لا ينُالُ طويلُ ١
هو الأبلقُ الفرْدُ الذي شاع ذكرُه | يعز على منْ رامهُ ويطولُ ٢
وإنا لقومٌ لا نرى القتل سُبَّةً | إذا مـا رأتهُ عامر وسلولُ ٣
يقرّبُ حب الموْت آجالنا لنا | وتكرههُ آجالهم فتطولُ ٤
وما مات منا سيد حتف أنفه | ولا طل منا حيث كان قتيلُ ٥
تسيلُ على حد الظبات نفوسنا | وليستْ على غير الظبات تسيلُ ٦
صفونا فلم نكدرْ وأخلص سرنا | إناث أطابتْ حملنا وفحولُ ٧
علوْنا إلى خير الظهور وحطنا | لوقت إلى خير البطون نزولُ ٨
فنحنُ كماء المزْن ما في نصابنا | كهام ولا فينا يعـد بخيـلُ ٩
ونـنكرُ إن شئنا على الناس قولهم | ولا ينكرون القوْل حينَ نقولُ ١٠
إذا سيدٌ منا خلا قـام سيدٌ | قؤولٌ لما قال الكرام فعولُ ١١

(١) رسا أصله إلى آخر البيت يريد به أنه أثبت جبل في الأرض وأعلى طود عليها (٢) الأبلق الفرد الذي شاع ذكره هو حصن السموأل بناه أبوه وقيل سليمان عليه السلام بأرض تيماء وقصدته الزباء فعجزت عنه وعن مارد فقالت تمرد مارد وعز الأبلق . (٣) السبة العار ، وعامر وسلول قبيلتان : يقول إذا حسب هؤلاء القتل عاراً عـدته عشيرتي فخراً . (٤) يقرب إلى آخر البيت يشير به إلى أنهم يغتبطون لاقتحامهم المنايا وأن عامراً وسلولا يعمرون لمجانبتهم الشر كراهة الموت وحبا للحياة . (٥) يقال مات فلان حتف أنفه إذا مات من غير قتل ولا ضرب . قيل إن أول من تكلم بقولهم حتف أنفه النبي صلى الله عليه وسلم.
(٦) الظبات: جمع ظبة وهي حد السيف قيل أراد بالظبات السيوف كلها فأضاف الحد إليها أي أنهم لشجاعتهم وشرفهم لا يقتلون إلا بالسيف ولا يقتلون بالعصي ولا بالحجارة كما يقتل رعاع الناس . (٧) المراد بالسر هنا الأصل الجيد . (٨) علونا إلى آخر البيت يشير به إلى صريح نسبهم وخلوصه مما يحط بشرفهم . (٩) كماء المزن يريد بذلك تشبيه صفاء أنسابهم بصفاء المطر والنصاب: الأصل ومنه نصاب السكين والكهام الكليل الحد يقول نحن كماء المزن وكل منا نافذ ماض ولا فينا بخيل فيعد . (١٠) ولا ينكرون إلى آخر البيت معنـاه أنهم لشدة بأسهم وحماستهم يخشاهم الناس فلا ينكرون عليهم . (١١) يعني أن السيادة مستقرة فينا حتى إذا خلا منا سيد خلفه سيد يقول ما تقول الكرام ويفعل ما تفعل.

وما أُخمِدَتْ نارٌ لنا دون طارقٍ ... ولا ذَمَّنا في النازلين نزيلُ ١
وأيامُنـــا مشهورة في عدُوِّنا ... لها غُـرَرٌ معلومة وحُجول ٢
وأسيافُنا في كلِّ شَرْقٍ ومغربٍ ... بها من قِراع الدّارعينَ فُلولُ ٣
مُعوَّدةٌ ألّا تُسَلَّ نصالُهـــا ... فتُغمد حتى يُسْتَباحَ قبيل ٤
سَلي إن جهلتِ الناس عنا وعنهمُ ... فليسوا سواءً عـالمٌ وجهولُ ٥
فإنّ بني الديّان قطبٌ لقومهم ... تدورُ رحاهم حولهم وتجول ٦

وقال عنترة العبسي المتوفى سنة ٧ قبل الهجرة :

لعمرُك إنَّ المجد والفخر والعلا ... ونيلَ الأماني وارتفاعَ المراتبِ
لمن يلتقي أبطالَها وسراتهـــا ... بقلب صبور عند وقع المضارب
ويبني بحدِّ السيف مجداً مشيّداً ... على فلك العلياء فوق الكواكب
ومَن لم يروِّ رُمحَهُ من دم العدا ... إذا اشتبكتْ سُمْرُ القنا بالقواضب
ويُعطي القنا الخطيَّ في الحرب حقه ... ويَبري بحد السيف عرض المناكب
يعيش كما عاش الذليل بغُصّة ... وإن مات لا يجري دموعُ النوادب
فضائلُ عزْمٍ لا تُباعُ لضارع ... وأسرار عزْمٍ لا تذاع لعـائب
برَزْتُ بها دهراً على كل حادث ... ولا كحلَ إلا من غُبار الكتائب

---

(١) وما أخمدت نار لنا يشير بذلك إلى أنهم لكثرة كرمهم يديمون إيقاد نار الضيافة ولا يطفئونها دون طارق ليل وأنهم يثني عليهم كل نزيل . ٢) الحجول : جمع حجل وهو الخلخال يقول وقعاتنا مشهورة في أعدائنا فهي بين الأيام كالأفراس الغر المحجلة بين الخيل . (٣) القراع بكسر القاف المقارعة والمضاربة والدارعين أصحاب الدروع (٤)القبيل الجماعة من آباء شتى وجمعه قبائل يقول عودت أسيافنا أن لا تجرد من اغمادها فتردفيها إلا أن يستباح بها قبيل ،وفي رواية قتيل (٥ عنا وعنهم ويروي عما فنخبري معناه إن كنت جاهلة بنا فسلي الناس تخبري بحالنا فالعالم والجاهل مختلفان(٦ القطب الحديد المغروس في الطبق الأسفل من الرحى يدور عليه الطبق الأعلى منها والمعنى أن أمر قبيلتهم لايستقيم ولايتم إلا بهم مثل الرحى لايتم أمرها إلا بالقطب .

إذا كذَّب البرقُ اللموعُ لشائم فبرْقُ حُسامي صادق غير كاذبُ

وقال في الحماسة والفخر :

سكتُّ فغرَّ أعدائي السكوتُ وظنُّوني لأهلي قد نسيتُ
وكيف أنامُ عن سادات قوم أنا في فضلِ نعمتهم رُبيتُ
وإن دارت بهم خيلُ الأعادي ونادَوْني ، أجبتُ متى دُعيت
بسيف حدُّه موجُ المنايا ورُمحٍ صدْره الحتف المميتُ
خُلقتُ من الحديد أشد قلباً وقد بليَ الحديد وما بليت
وإني قد شربتُ دمَ الأعادي بأقحافِ الرؤوس وما رَويت
وفي الحرب العَوان وُلدت طفلاً ومن لبن المعامع قد سقيتُ
فما للرمح في جسمي نصيبٌ ولا للسيف في أعضايَ قوت
ولي بيتٌ علا فلكَ الثريّا تخِرُّ لعظم هيبتِهِ البيوتُ

وقال أيضاً في الحماسة والفخر يوم المصانع :

إذا كشف الزمان لك القناعا ومدَّ إليك صرْفُ الدهر باعا
فلا تخش المنيّة والتقيها ودافع ما استطعت لها دفاعا
ولا تخترْ فراشاً من حرير ولا تَبكِ المنازل والبقاعا
وحوْلك نِسْوة يندُبنَ حزناً ويهتِكْنَ البراقعَ واللفاعا
يقول لك الطبيب دواك عندي إذا ما جسَّ كفكَ والذراعا
ولو عرف الطبيب دواء داءٍ يرُدُّ الموتَ ما قاسى النزاعا
وفي يوم المصانع قد تركنا لنا بفعالنا خبراً مُشاعا
أقمنا بالذوابلِ سوق حرْب وصيّرنا النفوس لها مصاعا
حصاني كان دلاّلَ المنايا فخاض غمارها ، وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيباً يُداوي رأس من يشكو الصداعا
أنا العبدُ الذي خُبِّرت عنه ، وقد عاينتني فدَعِ السماعا

ولو أرسلتُ رمحي مَعْ جبانٍ لكانَ بهيبتي يلقى السِّباعا
ملأتُ الأرض خوفاً من حسامي وخصمي لم يَجِد فيها اتساعا
إذا الأبطال فرّت خوف بأسي ترى الأقطارَ باعاً أو ذراعا

وقال أيضاً في الفخر والحماسة :

أعادي صرف دهرٍ لا يُعادى وأحتملُ القطيعة والبِعادا
وأظهرُ نُصحَ قومٍ ضيعوني وإن خانت قلوبهمُ الوِدادا
أعلّل بالمنى قلباً عليلاً وبالصبر الجميل وإن تمادى
تُعيّرني العِدا بسوادِ جلدي وبيضُ خصائلي تمحو السوادا
وردتُ الحربَ والأبطالُ حَوْلي تهزُّ أكفها السُّمْرَ الصِعادا
وخضتُ بمهجتي بحر المنايا ونارُ الحرب تتقد اتقادا
وعُدتُ مُخضَّباً بدمِ الأعادي وكربُ الركض قدخضب الجوادا
وسيفي مُرهَف الحدين ماض تقدُّ شفاره الصَّخْر الجمادا
ورمحي ما طعنتُ به طعيناً فعاد بعينه نَظرَ الرَّشادا
ولولا صارمي وسنان رُمحي لما رفعت بنو عبس عمادا

وقال يتوعَّد النعمان بن المنذر ملك العرب ، ويفتخر بقومه :

لا يحملُ الحقْدَ مَن تعلو به الرتبُ ولا ينال العُلى مَن طبعه الغضبُ
لله دَرُّ بني عبس لقد نسلوا من الأكارم ما قد تنسلُ العربُ
قد كنتُ فيما مضى أرعى جمالهم واليوم أحمي حماهم كلما نُكِبوا
لئن يعيبوا سوادي فهو لي نَسَبٌ يَومَ النّزال إذا ما فاتني النسب
ان كنت تعلم يا نُعمان أنّ يدي قصيرةٌ عَنكَ فالأيامُ تنقلب
ان الأفاعي وان لانَت ملامسها عند التقلب في أنيابها العطب
اليومَ تعلم يا نُعمان أيَّ فتىً يلقى أخاك الذي قد غرّه العصبُ

فتى يخوض غمارَ الحرب مُبتسماً وينثني وسنانُ الرُّمح مختضِبُ
ان سلَّ صارمَه سالت مضاربُه وأشرق الجوُّ وانشقت له الحُجبُ
والخيلُ تشهدُ لي أني أكَمكها والطعنُ مثل شرار النار يلتهب
اذا التقيتُ الأعادي يومَ معركةٍ تركتُ جمعهمُ المغرور يُنتَهَبُ
ليَ النفوس وللطير اللحومُ وللـ وحش العظامُ وللخيالة السلبُ
لا أبعدَ الله عن عيْني غطارفةً انساً اذا نزلوا جنّاً ، اذا ركبوا
أُسود غاب ولكن لا نيوبَ لهم الا الأسِنّة والهندية القضب
تعدو بهم أعوجيات مضمّرة مثل السراحين في أعناقها القبب
مازلتُ ألقى صدور الخيل مندفقاً بالطعن حتى يضج السرجُ واللبب
فالعُمْي لو كان في أجفانهم نظروا والخُرس لو كان في أفواههم خطبوا
والنقع يوم طرادِ الخيل يشهدُ لي والضرب والطعن والأقلام والكتب

وقال أيضاً في اغارته على بني حُريقة :

حكِّم سيوفك في رقاب العذل واذا نزلتَ بدار ذُلٍّ فارحلِ
واذا الجبانُ نهاكَ يوم كريهة خوفاً عليك من ازدحام الجحفل
فاعص مقالته ولا تحفل بها وأقدم اذا حقّ اللقا في الأول
واختَر لنفسك منزلاً تعلو به أو متْ كريماً تحت ظلّ القسطل
ان كنتُ في عدد العبيد فهمّتي فوق الثريّا والسِّماكِ الأعزَل
أو أنكرت فرسانُ عبس نسبتي فسِنان رُمحي والحُسام يقرّ لي
وبذابلي ومهنّدي نلتُ العُلى لا بالقرابة والعديد الأجزَل
ورميتُ رُمحي في العَجاج فخاضه والنار تقدَح من شفار الأنصُل
خاض العَجاج مُحجّلا حتى اذا شَهِدَ الوقيعةَ عاد غيرَ مُحجل
ولقد نكبتُ بني حُريقة نكبة لما طعنتُ صميم قلبِ الأخيَل
وقتلتُ فارسهم ربيعة عَنوةً والهَيْذبانَ وجابر بن مُهَلهل

لا تسقِني ماء الحياة بذلة　　بل فاسقِني بالعزّ كأسَ الحنظل
ماءُ الحياة بذلة كجهنمٍ　　وجهنمٌ بالعزّ أطيبُ منزل

وقال هبةُ الله بن سناء الملك المتوفى سنة ٦٠٨ هـ :

سوايَ يهابُ الموتَ أو يرهب الرّدى　　وغيريَ يهوى أن يعيشَ مخلّدا
ولكنني لا أرهبُ الدّهر إن سطا　　ولا أحذَرُ الموت الزُؤامَ إذا عَدا
ولو مدّ نحوي حادثُ الدّهر كفه　　لحدّثتُ نفسي أن أمُدّ له يدا
توقدُ عزمي يترك الماء جمرة　　وحلية حلمي تتركُ السيف مبرَدا
وفرطُ احتقاري للأنام لأنني　　أرى كلّ عار من حلى سؤددي سُدا
ويأبى إبائي أن يرانيَ قاعداً　　وإني أرى كلّ البرية مقعدا
وأظمأ إن أبدى لي الماء منة　　ولو كان لي نهرُ المجرّة موردا
ولو كان إدراكُ الهدى بتذلل　　رأيتُ الهدى ألا أميل إلى الهدى
وقدماً بغيري أصبحَ الدّهرُ أشيباً　　وبي وبفضلي اصبح الدّهر أمرَدا
وإنكَ عبدي يا زمانُ وإنني　　على الرّغم مني أن أرى لك سيدا
وما أنا راض أنني واطىءُ الثرى　　ولي همةٌ لا ترتضي الأفقَ مقعدا
ولو علمت زهرُ النجوم مكانتي　　لخرّت جميعاً نحو وجهي سُجّدا
أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم　　ذكاء وعلماً واعتلاء وسؤددا
وبذْلُ نوالي زاد حتى لقد غدا　　من الغيظ منهُ ساكنُ البحر مزْبدا
ولي قلمٌ في أنملي إن هززتُه　　فما ضرّني ألا أهزّ المهندا
إذا صال فوق الطرْس وقعُ صريره　　فإن صليل المشرَفي له صدى

وقال حسان بن ثابت الأنصاري المتوفى سنة ٥٤ هـ .

لعمر أبيك الخير يا شعثُ ما نبا　　على لساني في الخطوب ولا يدي
لساني وسيفي صارمان كلاهما　　ويبلغُ مالا يبلغُ السيفُ مذْودي
وإن أكُ ذا مال كثير أجُدْ به　　وإن يُهتصر عودي على الجهد يحمد

فلا المالُ يُنسيني حياتي وعِفّتي ولا واقعاتُ الدّهر يفلُلْن مِبرَدي
وإني لمُعط ما وجدت وقائلٌ لموقدِ ناري ليلة الرّيح أوْقد
وإني لقوّالٌ لِذي البث مرحباً وأهلا إذا ما جاء من غير مرْصد
وإني ليدعوني الندى فأجيبه وأضربُ بيض العارضِ المتوقّد
وإني لحُلوٌ تعتريني مَرارةٌ وإني لتراكٌ لما لمَ أعَوّد
وإني لمزْجٍ للمطيّ على الوَجى وإني لتّراك الفِراش المَمهدِ

وقال الفرزدق :

لنا العِزةُ القعساءُ[1] والعدد الذي عليه إذا عدّ الحصى يتخلف[2]
ومنا الذي لا ينطقُ الناس عِنده ولكن هو المستأذَن المتصرّف[3]
تراهم قعُوداً حوْله وعيُونهم مُكسرة أبصارُها ما تَصرّف[4]
ترى الناس إن سرنا يسيرون خلفنا[5] وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا[6]
ولا عِز إلا عزنا قاهر له ويسألنا النصف الذليلُ فننُصف[7]
وما قام عنا قائم في نَديّنا[8] فينطق إلا بالتي هي أعرَفُ[9]

وقال وقد نزل في بادية وأوقد ناراً فرآها ذئب فأتاه فاطعمه من زاده وأنشد :

وأطلس عَسّالٍ وما كان صاحباً[10] دعوتُ بناري مَوْهِناً فأتاني[11]

(١) العزة القعساء أي القوة والمنعة الشامخة الثابتة . (٢) يعني عددنا كثير ، وعدد الحصى أقل منه . (٣) يعني منا من لا يتكلم في مجلسه الا بإذنه ولا يفعل الا بأمره (٤) يعني ما تنظر يمنة ولا يسرة من مهابته وجلالته (٥) يعني نحن سادة أشراف نمشي أمام الناس . ٦) يعني إذا أشرنا إلى الناس أن قفوا أوقف بعضهم بعضا طوع إشارتنا . (٧) ويطلب منا الضعيف الصفة والعدل فنمكنه من ذلك (٨) الندى كغنى والنادي مجتمع القوم . (٩) يعني لا نطق إلا حيث يحسن الكلام واذا نطق جاء بالقول الصادق الذي لا يمكن لأحد أن ينكره . (١٠) الأطلس الذئب الخبيث الذي في لونه غبرة مائلة الى السواد ، والعسال الذي يضطرب في عدوه ويهز رأسه . (١١) الموهن : الساعة الأولى بعد نصف الليل أي دعوته بسبب إيقاد النيران في الساعة الأولى بعد نصف الليل فجاء الي .

فلمّا أتى قلتُ أدْنُ دونك[١] إنني وإياك في زادي لمشتركانِ
فبتُّ أقدُّ الزاد بيني وبينه[٢] على ضَوء نار مرةً ودُخانِ
وقلتُ له لما تكشَّرَ ضاحكا[٣] وقائم سيفي في يدي بمكان[٤]
تعشَّ فإن عاهدتني لا تخونُني نكن مثل من يا ذئب يصطحبانِ[٥]
وأنت امرؤٌ يا ذئبُ والغدر كنتما أخَيَّينِ كانا أرْضِعا بلبان[٦]
ولو غيرَنا نبهت تلتمسُ القرى رماك بسهم أو شباةِ سنانِ[٧]

وقال الشريف الرضي[٨] :

لغير العُلى مني القلى والتجنبُ ولولا العلى ما كنت في الحب أرغب
إذا اللهُ لم يعذرْك فيما ترومه فما الناسُ إلا عاذلٌ ومؤنبُ
ملكت بحلمي فرْصة ما استرقّها من الدهر مفتوُل الذراعين أغلب
لئن تكُ كفي ما تطاوَلَ باعُها فلي من وراء الكف قلبٌ مُدرّب
فحسبي أني في الأعادي مُبَغّض وأني إلى عزّ المعالي محبب
وللحلم أوقات وللجهل مثلها ولكنّ أوقاتي إلى الحلم أقرب
يصولُ عليّ الجاهلونَ وأعتلي ويُعجم فيّ القائلون وأعرب

(١) أي لما جاء وقف فقلت له اقترب وخذ: اشارة الى اعطائه لزاد (٢) أقد أي أقطع والزاد الطعام ولعل طعامه كان لحما بدليل القد (٣) لما تكشر لما أبدى ضاحكا أي كأنه يضحك (٤) يعني ومقبض سيفي ثابت في يدي . (٥) يعني اذا لم تظهر عليك علامة الغدر بقيت معك وبقيت معي كالمصطحبين . (٦) يعني مع أني أعرف أنك والغدر متلازمان لا تفترقان ومعناه أن شيمته الغدر . (٧) تلتمس القرى تطلب الضيافة وشباة السنان حده. (٨) هو أبو الحسين محمد ابن الحسين بن موسى الأبرش الشريف الملقب الرضي ذي الحسين نقيب الطالبين المولود سنة ٣٦٩هـ وتوفي ٤٠٦ هـ ثم نقل الى مشهد سيدنا الحسين عليهما السلام بكربلاء، دفن عند أبيه، ومن شعره ما كتبه الى الإمام أبي العباس أحمد المقتدر :

عطفا أمير المؤمنين فإننا في دوحه العلياء لا نفترق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت أبداً كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإنني أنا عاطل منها وأنت مطوق

يرْون احتمالي غصة ويزيدُهم لواعجَ ضغن أنني لستُ أغضبُ
وأعرضُ عن كأس النديم كأنها وميضُ غمام غائر المزن خلب
وقور فلا الألحانُ تأسر عزمتي ولا تمكر الصهباءُ بي حين أشرب
ولا أعرفُ الفحشاء إلا بوصفها ولا أنطق العوراءَ والقلب مُغضب
تحلُّم عن كرِّ القوارض شيمتي كأنَّ معيد المدح بالذم مطنب
لساني حصاةٌ يقرع الجهل بالحجا اذا نال مني العاضهُ المتوثب
ولست براض أن تمسَّ عزائمي فضالاتُ مايعطي الزمان ويسلب
عرائبُ آداب حباني بحفظها زماني وصرْف الدهر نعم المؤدب
تعلم فإن الجود في الناس فطنة تقوم بها الأحرار والطبع أغلب

وقال العميد مؤيد الدين الطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ ﻫ :

أبى الله إن أسمو بغير فضائلي إذا ما سما بالمال كلُّ مُسوَّد
وإن كرُمت قبلي أوائل أسرتي فإني بحمد الله مبدأ سؤددي
وما منصب إلا وقدري فوْقه ولو حط رحلي بين نسر وفرْقد
إذا شرُفت نفس الفتى زاد قدره على كل أسنى منه ذكراً وأمجد
كذاك حديد السيف إن يصف جوهراً فقيمته أضعافه وزن عسجد
وما المال إلا عارةٌ مستردةٌ فهلا بفضلي كاثروني وحتدي
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة يطول بها باعي وتسطو بها يدي
ولا كان لي حكم مطاع أجيزه فأرْغمُ أعدائي وأكبت حُسَّدي
فأعذر إن قصرتُ في حق مجتد وآمن أن يعتادني كيد معتد
ولولا تكاليفُ العلى ومغارم ثقال وأعقاب الأحاديث في غد
لأعطيت نفسي في التخلي مُرادها فذاك مرادي مذ نشأت ومقصدي

وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب :

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم   وأن نكفّ الأذى عنكم وتؤذونا
مهلاً بني عمّنا من نحتِ أثلتنا   سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنّا لا نحبّكم   ولا نلومكم إن لم تحبونا
كل له نيةٌ في بغضِ صاحبه   بنعمة الله نقليكم وتقلونا

وقال محمد بن عبد الله الأزدي :

لا أدافع ابن العم يمشي على شفا   وإن بلغتني من أذاه الجنادعُ
ولكن أواسيه وأنسى ذنوبَه   لترجعه يوماً اليّ الرّواجع
وحسبُك من ذُل وسوء صنيعة   مَناواةذي القربى وإن قيل قاطع

وقال حطان بن المعلّى :

أنزلني الدهرُ على حكمه   من شامخ عالٍ إلى خفضِ
وغالني الدّهرُ بوفر الغنى   فليس لي مالٌ سوى عرضي
أبكانيَ الدّهر ويا رُبما   أضحكني الدّهر بما يُرضي
لولا بُنيات كزغب القطا   رُددن من بعض الى بعض
لكان لي مُضطربٌ واسع   في الأرض ذات الطول والعرضِ
وانما أولادُنا بيننا   أكبادنا تمشي على الأرضِ
لو هبت الريحُ على بعضهم   لامتنعت عيني من الغمضِ

وقال أوسُ بن حبناء :

اذا المرءُ أولاك الهوان فأوله   هواناً وان كانت قريباً أواصرُهْ
فإن أنت لم تقدر على ان تهينه   فذَرْهُ الى اليوم الذي أنت قادرُه
وقارب اذا ما لم تكن لك حيلة   وصمّم اذا أيقنت أنك عاقرُه

وقال سعد بن ناشب :

تفنّدنيُ فيما ترى من شراستي   وشدّة نفسي أم سعد وما تدري

فقلتُ لها انّ الكريم وان خَلا ليُلفى على حال أمرّ من الصبر
وفي اللين ضعف وفي الشراسة هيبة ومن لم يُهَب يحمل على مركب وعر
وما بي على من لان لي من فظاظة ولكنني فظٌ أبيٌ على القسر

وقال ابراهيم النبهاني :

تعزّ فإن الصبر بالحر أجملُ وليس على رَيب الزمان مُعوّل
فلو كان يغني أن يُرى المرء جازعاً لحادثة او كان يغني التذللُ
لكان التعزّي عند كل مصيبة ونائبة بالحر أولى وأجمل
فكيف وكلّ ليس يعدو حمامه وما لامرىء عما قضى الله مرحل
فإن تكن الأيام فينا تبدّلت ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لينتْ منا قناة صليبة ولا ذللتنا للتي ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمة تحمل ما لا يستطاع فتحمل
وقينا بحُسن الصبر منا نفوسنا فصحّتْ لنا الأعراض والناس هزّل

وقال آخر :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
انا الذي يجدوني في صدورهم لا أرتقي صدَراً منها ولا أرد

وقال سالم بن وابصة :

عليك بالقصد فيما انت فاعلُه ان التخلق يأتي دونه الخلقُ
وموقف مثل حد السيف قمت به أحمي الذمار وترميني به الحدَق
فما زلقت ولا ابديت فاحشة اذا الرجال على أمثالها زلقوا

وقال تأبط شرّاً :

اذا المرء لم يحتل وقدّ جدّ جده اضاع وقاسى امره وهو مدْبرُ

ولكن أخو الحزم الذي ليس نازلا به الخطبُ إلا وهو للقصدِ مُبصر

وقال حبيب بن أوس أبو تمام الطائي :

أنا ابنُ الذي استرضعَ الجود فيهمُ وقد ساد فيهم وهو كهلٌ ويافعُ
نجومٌ طواليع جبال فوارع غيوث هواميع سيول دوافعُ
مضوْا وكأن المكرُمات لديهمُ لكثرة ما أوصَوا بهنّ شرائع
فأيُّ يد في المحل مدّت فلم يكن لها راحةٌ من جودهم وأصابع
هُم استودعوا المعروف محفوظ مالنا فضاعَ وما ضاعت لدينا الودائع
بهاليلُ لو عاينتَ فيضَ أكفهم لأيقنت أن الرزق في الأرض واسع
إذا خفقت بالبذل أرواحُ جودهم حداها الندَى واستنشقتها المدامع
رياح كريح العنبر الغضّ في الندى ولكنها يوم اللقاء زَعازع
هي السمُّ ما تنفك في كل بلدة تسيلُ به أرماحهم وهو ناقع
أصارت لهم أرض العدُوّ قطائعاً نفوس لحد المرهفات قطائع
بكل فتى ما شاب من رَوع وقعة ولكنه قد شبن منه الوقائع
إذا ما أغاروا فاحتووا مال معشر أغارت عليهم فاحتوته الصنائع
فتعطي الذي تعطيهم الخيل والقنا أكفٌّ لإرث المكرمات موانع

وقال أبو فراس الحمداني [١] المتوفى سنة ٣٥٧ هـ :

ووالله ما قصرت في طلب العلا ولكن كأن الدهر عني غافل

(١) هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان التغلبي ابن عم سيف الدولة وناصر الدولة توفي سنة ٣٥٧ هجرية عن عمر ٣٧ سنة ، وكان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرماً ومجداً وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة ، فلله دره شاعراً من قبل ومن بعد . وأنشد وهو يحتضر يخاطب ابنته :

ابنيتي لا تجزعي كل الأنام إلى ذهاب
نوحي عليَّ بحسرة من خلف سترك والحجاب
قولي إذا كلمتني فعييت عن رد الجواب
زين الشباب أبو فرا س لم يمتع بالشباب

مواعيد آمال متى ما انتجعتها حلبت بكيات وهنّ حوافل
تدافعني الأيام عمـا أريده كما دفع الدين الغريمُ المماطلُ
فمثلي من نال الأعادي بسيفه ويا ربما غالته عنها الغوائلُ
ومالي لا تمسي وتصبح في يدي كرائمُ أموالِ الرّجالِ العقائل
أحكم في الأعداء عنها صوارماً أحكمها فيها إذا ضاق نازل
وما زال محميّ الحمائل عنوة سوى ما أقلّت في الجفون الحمائل
ينال اختيار الصفح عن كل مذنب له عندنا ما لا تنال الوسائلُ
لنا عقبُ الأمر الذي في صدره تطاولُ أعناق العدى والكواهل
أصاغرُنا في المكرُمات أكابرٌ وآخرُنا في المأثرات أوائل
إذا صلت صولاً لم أجدْ لي مُصاولاً وإن قلتُ قولاً لم أجد من يقاول

وقال : إنا إذا اشتد الزّما نُ وناب خطبٌ وادلهمْ
ألفيتَ حولَ بيوتنا عُددَ الشجاعة والكرَمْ
للقا العدا بيضُ السيو ف وللندى حمر النعمْ
هـذا ، وهو دأبنا يودَى دَمٌ ويراقُ دَمْ

وقال :

واني لنزّالٌ بكـل مخوفة كثيرٌ إلى نُزالها النظرُ الشزرُ
وإني لجرارٌ لكل كتيبة معودة الا يخلّ بها النصر
ولا رَاحَ يطغيني بأثوابه الغنى ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي في المال أبغي وفوره إذا لم افرْ عرضي فلا وفرَ الوفر
اسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ولا فرَسي مهرٌ ولا ربّه غمرُ
ولكن اذا حم القضاء على امرىء فليس له برٌّ يَقيه ولا بحر
وقال اصيَحابي الفرار او الرّدى فقلت هما امران احلاهما مرّ
ولكنني أمضي لما لا يعيبني وحسبك من امرين خيرهما الأسرُ

ومنها : يمُنُّون أن خَلّوا ثيابي وإنما ... عليّ ثيابٌ من دمائهمُ حمرُ
وقائمُ سيفٍ فيهمُ دقّ نَصلُهُ ... وأعقابُ رُمحٍ فيهم حطّمَ الصدر
سيذكرني قومي إذا جدّ جدُّهم ... وفي الليلة الظلماء يفتقدُ البدر
ولو سدّ غيري ما سددت اكتفوا به ... وما كان يُغني التبرُ لو نفقَ الصفر
ونحن أناسٌ لا توسُّطَ بيننا ... لنا الصدرُ دون العالمينَ او القبر
أعزُّ بني الدنيا وأعلى ذوي العُلا ... وأكرمُ من فوق التراب ولا فخر

وقال : غَيري بغيِّره الفعال الجافي ... ويحولُ عن شيم الكريم الوافي
لا أرتضي ودّاً إذا هو لم يدُمْ ... عند الجفاءِ وقلة الإنصافِ
إن الغنيّ هوَ الغنيُّ بنفسه ... ولو أنه عاري المناكب حاف
ما كلُّ ما فوقَ البسيطة كافياً ... وإذا قنعتَ فبعضُ شيء كاف
وتعافُ لي طمع الحريص فتوّتي ... ومروءتي وقناعتي وعفافي
ومكارمي عدد النجوم ومنزلي ... مأوى الكرام ومنزل الأضيافِ

وقال : أتدعو كريماً من يجود بماله ... ومن جاد بالنفس النفيسةِ أكرمُ
إذا لم يكن يُنجي الفرارُ من الرّدى ... على حالةٍ فالصبرُ أرجى وأحزم
لعمري لقد أعذرْتَ لو أن مُسعداً ... وأقدمت لو أن الكتائبَ تُقدِم
وما عابك ابنَ السابقين إلى العُلا ... تأخُّرُ أقوامٍ وأنت مُقدَّم
ومالكَ لا تلقى بمُهجتكَ القنا ... وأنتَ من القوم الذين همُ همُ

وقال أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة ٣٥٤ هـ :

أطاعنُ خيلاً من فوارسها الدهر ... وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ
وأشجع منّي كلّ يوم سلامتي ... وما ثبتتْ إلا وفي نفسها أمرُ
تمرّستُ بالآفات حتى تركتُها ... تقول أماتَ الموتُ أم ذُعِر الذعر
وأقدمتُ إقدامَ الأبيّ كأن لي ... سوى مُهجتي أو كان لي عندها وتر

ذرِ النفس تأخذْ وسعها قبل بَينها ... مُفترقٌ جاران دارُهما العُمْرُ
ولا تحسبنّ المجدَ زِقاً وقينة ... فما المجد إلا السيفُ والفتكة البِكْر
وتضريبُ أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السُّود والعسكرُ المجر
وتركك في الدنيا دَوِيّاً كأنما ... تداول سمعَ المرء أنمله العشْر
إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص ... على هِبةٍ فالفضْل فيمن له الشكر
ومن يُنفق الساعاتِ في جمع ماله ... مخافةَ فقر ، فالذي فعلَ الفقر

وقال صفيّ الدين الحِليّ المتوفى سنة ٧٤٠ هـ :

سَل الرّماحَ العوالي عن معالينا ... واستشهد البيضَ هل خاب الرّجا فينا
لقد سَعينا فلم تضعُف عزائمُنا ... عما نرومُ ولا خابت مساعينا
قوم إذا استُخصموا كانوا فَراعنة ... يوْماً وإن حَكموا كانوا مَوازينا
إذا ادّعَوْا جاءت الدنيا مُصدّقة ... وإنْ دَعَوْا قالت الأيام آمينا
إنا لقوْم أبت أخلاقنا شرفاً ... أنْ نبتدي بالأذى من ليس يُؤذينا
بيض صنائعنا سودٌ وقائعُنا ... خضر مَرابعنا حُمر مواضينا
لا يَظهر العجزُ منّا دون نيل منى ... ولو رأينا المنايا في أمانينا

وقال أبو العلاء المعرّي :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعِل ... عفافٌ وإقدام وحزم ونائل [1]
أعندي وقد مارسْت كل خَفيّةٍ ... يُصدّق واشٍ أو يخيب سائل [2]
تُعد ذنوبي عند قوْم كثيرةً ... ولا ذنبَ لي إلا العُلا والفضائل [3]

(١) أي قد جمعت العفة والشجاعة والحزم والجود، وسلوك هذا الطريق هو المجد أي أن أفعالي كلها واقعة في سبيل المجد ثم فصل أفعاله، وعدها وكانت كلها من خلال المجد . (٢) أي بعد أن جربت الأمور التي تخفى وعرفتها لا أصدق الساعي بيني وبين إخواني بالإفساد أو أخيب من يرجو معروفي ويطلب نائلي أي أني لا أفعل ذلك استفهام بمعنى الإنكار (٣) أي ذنوبي كثيرة عند من لا يناسبه حالي لقصوره ونقصه ولا ذنب لي إلا فضائلي وعلو شأني .

كأني إذا طلتُ الزمان وأهلَه رَجعتُ وعندي للأنام طوائلُ[١]
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم بإخفاء شمسٍ ضَوءُها متكاملُ[٢]
يُهِمُّ الليالي بعضُ ما أنا مضمرٌ ويُثقِلُ رضوى دونَ ما أنا حاملُ[٣]
وإني وإن كُنتُ الأخيرَ زمانه لآتٍ بما لم تستطعهُ الأوائلُ[٤]
وأغدو ولو أنّ الصباح صوارمٌ وأسْري ولو أنّ الظلام جحافلُ[٥]
وإني جَوادٌ لم يُحَلّ لِجامُه ونَصْلٌ يَمانٍ أغفلته الصياقلُ[٦]
فإن كان في لبْسِ الفتى شرفٌ له فما السيفُ إلاّ غِمْدُهُ والحمائلُ[٧]
ولي مَنْطِقٌ لم يَرضَ لي كُنهَ منزلي على أنني بينَ السماكين نازلُ[٨]

(١) الطوائل: جمع طائل وهو الثروة، يقول متى فقت أهل العصر بالفضائل أبغضوني وعادوني، وصرت كأني وترت الناس وأن عندي لهم ديونا يطالبونني بها (٢) أي يجهد حسادي في ستر حالي وإخفاء أمري وكيف يمكنهم ذلك وقد سار صيتي في البلاد مسير الشمس ومن يضمن للحساد إخفاء شمس قد تكامل ضوؤها وشعاعها أي لا يضمن ذلك أحد لأنه غير ممكن فكذلك إخفاء ذكري غير ممكن. (٣) الليالي في موضع نصب لأنه مفعول به، وسكن لضرورة الشعر أي يهم بعض ما أضمر من الهموم الليالي (٤) أي أني وإن كنت الذي آخر زمانه أفعل من الأمور العجيبة ماعجزت الأولون زماناً عن مثاله أي سبقت الأوائل في المساغي وإن تأخر زماني (٥) لا يصرفني عن همي أمر من الأمور بل أغدو أول النهار لحاجاتي ولو كان الصباح سيوفا لم يثنني عن قصدي والصبح يشبه بالسيف لبياضه وهيئته وأسري في الليل المظلم لما يهمني ولا تمنعني ظلمة الليل عن همي ولو كان جحافل وهي جمع جحفل وهو الجيش المظيم والظلام يشبه بالجيش وبالعكس (٦) يصف اعتزاله الأمور وإيثاره ملازمة الخمول والتنزه عن الأعمال مع استعداده للانهاض إلى معالي الأمور مشبها حاله بحال جواد عطل عن تحلية لجامه وبسيف يمني قد سدىء لطول عهده بالصقل، أي كما لا يزرى بعنق الجواد وجوهر السيف فكذلك إيثاره العزلة والتنزه عن الأعمال لا يذري بمنصبه ومكانه (٧) أي ليس الشرف في ملابسه الأعمال ولبس الفاخر من اللباس ولو كان ذلك لكان قيمة السيف بحسب نفاسة غمده وحمائله، وليس كذلك وإنما قيمة السيف بجوهره وكذلك شرف ذات الفتى بالتحلي بأوصاف الشرف ومعالي المجد (٨) أي منطقي لا يرضى لي بغاية منزلتي هذه مع ارتفاعها وعلوها فإنها قد بلغت السماكين بل يقتضي أعلى وأشرف منها

لدى مَوْطن يشتاقه كلُّ سيد ويقصرُ عن إدراكهِ المتناولِ ١
ولما رأيت الجهلَ في الناس فاشياً تجاهلتُ حتى ظُنّ أنيَ جاهل ٢
فَواعجباً كم يَدّعي الفضلَ ناقص ووا أسفاً كم يُظهرُ النقصَ فاضل ٣
وكيف تَنامُ الطيرُ في وكناتها وقد نُصبِتْ للفرْقدينِ الحبائل ٤
ينافس يومي فيَّ أمسي تشرّفاً وتحسُد أسحاري عليَّ الأصائل ٥
وطال اعترافي بالزّمان وصرْفهِ فلستُ أبالي مَن تَغول الغوائل ٦
فلو بانَ عُنقي ما تأسّفَ منكبي ولو ماتَ زَندي ما بكَتْهُ الأنامل ٧
إذا وصف الطائيَّ بالبخل مادر وعيّرَ قُسّاً بالفهاهة باقل ٨
وقال السُّهى للشمس أنت ضئيلةٌ وقال الدجى يا صبحُ لونك حائل ٩

(١) اي منزلي عند محل يتمنى كل سيد ان يبلغه ويرقى إلى حده . ويتقاصر من يريد تناوله عن الوصول إليه (٢) اي لما كثر الجهل في الناس وعز العلم والفضل وجهل قدرها تكلفت الجهل وسترت فضلي تشبها بأهل زماني حتى ظن بي اني جاهل مثلهم (٣) يتعجب من ادعاء الناقص التحلي بالفضل زورا — ويتأسف من إظهاره النقص مع فضله تشبها بالجاهلين في زمانه (٤) الوكنات: جمع وكنة وهي الموضع الذي ينام فيه الطير والحبائل جمع حبالة وهي الشبكة التي ينصبها للصيد ضرب لنفسه مثلا بالفرقدين علواً ولغيره بالطير في اوكارها (٥) ينافس يفاخر أي ان الوقت الذي اكون فيه يتشرف بي ، فسائر الأوقات يحسد الوقت الذي اكون فيه فصار امسي المقتضى يحسد يومي الحاضر لكوني فيه — وكذلك تحسد الأصائل الأسحار التي اكون فيها. ٦) طالما عرفت الزمان واحواله، ونالت مني حوادثه وصرفه ، وتمرنت نفسي على نوائبه فصرت لا اجزع على المصائب ولا ابالي بمن تنزل نوازل الدهر . (٧) يهون على نفسه خطوب الزمان بعد معرفته بصروفه حتى لو اصيب عضده وبان لم يتأسف اي لم يجزع منكبه عليه ، ولو مات زنده لم تبك انامله عليه مع ان الكف لا تبطش إلا بواسطة قوة الزند وما داناه (٨) يعني بالطائي حاتماً الطائي وقد سار به المثل في الجود ، ومادر رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة يضرب به المثل في البخل، وإنما قيل له مادر لأنه سقى إبله من بعض الحياض فلما شربت إبله وصدرت عن الماء سلح في الحوض ومدر الحوض اي لطخه بالطين لئلا يشرب منه غيره فسمي مادراً ، وقيل البخل من مادر (٩) السها كوكب خفي تمتحن به الأبصار، اي وحين ينعكس الأمر بأن يصف السهى الشمس بالخفاء مع بهائها، ويصف الدجى الصبح بأنه حائل اللون اي متغير.

وطاولت الأرضُ السماءَ سفاهةً ... وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادل[١]
فيا موت زُرْ إن الحياةَ ذميمةٌ ... ويانفسُ جدّي إن دهرَكِ هازل[٢]

وقال المرحوم محمود سامي باشا البارودي :

ولي شيمةٌ تأبى الدنايا وعزمةٌ ... ترُدُّ لُهامَ الجيش وهو يمورُ
إذا سرْتُ فالأرضُ التي نحن فوقها ... مرادٌ لمهري والمعاقلُ دور
فلا عجَبٌ إن لم يصرْنيَ منزل ... فليس لعقبان الهواء وُكور
همامة نفس ليس يَنفي ركابها ... رواح على طول المدى وبُكور
مُعوّدةٌ ألا تكفّ عنانها ... عن الجدّ إلا ان تتم أمور
لها من وراء الغيب أذنٌ سميعة ... وعينٌ ترى ما لا يراه بصير
وقيْتُ بما ظنّ الكرام فراسةً ... بأمري ومثلي بالوفاء جَدير
وأصبحتُ محسودَ الخِلال كأنني ... على كلّ نفسٍ في الزمان أمير
إذا صُلتُ كفّ الدهرُ من غلوائه ... وإن قلت غُصّت بالقلوب صدور
ملكت مقاليد الكلام وحكمةً ... لها كوكبٌ فخمُ الضياء مُنير
وإني امروءٌ صعب الشكيمةِ بالغٌ ... بنفسيَ شأواً ليس فيه نكير

وقال أيضاً :

سوايَ بتحنانِ الأغاريد يَطرب ... وغيريَ باللذات يَلهو ويلعبُ
وما انا ممن تأسر الخمرُ لُبه ... ويملكُ سمعَيه اليراع المثقب
ولكن أخو همٍّ إذا ما ترجّحت ... به سورةٌ نحو العُلا راح يدأب
نفَى النومَ عن عينيه نفسٌ أبيةٌ ... لها بين اطراف الأسنة مَطلب

---

(١) اي إذا كانت الأرض تباهي السماء من جهلها وتفاخر الحصى والحجارة الكواكب في العلو (٢) اي إذا كانت الأمور معكوسة كما وصف لم تبق رغبة في الحياة وصارت مذمومة وكان الموت بحيث يتمنى إلمامه لقطع الحياة الذميمة التي لايحمدها صاحبها لماترى من الأمر المحال: ويأمر الحازم نفسه بالجد فيما يعنيها غير معرجة على شيمة الدهر في تلونه وعدم ثباته .

لبُانة نفسٍ أصغرتْ كل مأربٍ فكلّفتِ الأيام ما ليس يوهَبُ
إذا انا لم أعطِ المكارمَ حقها فلا عزّني خالٌ ولا ضمني أب
ومن تكُنِ العلياءُ همة نفسه فكل الذي يلقاهُ فيها محبب

وقالت السيدة عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٢٠ ه :

بيدِ العفاف أصون عِزّ حجابي وبعصمتي أسمو على أترابي
وبفكرة وقّادةٍ وقريحةٍ نقّادة ، قد كملتْ آدابي
ما ضرّني أدبي وحسنُ تعلمي إلا بكوني زهرةَ الألبابِ
ما عاقني خجلي عن العَليا، ولا سدلُ الخمار بلمّتي ونقابي
عن طيّ مضمار الرهان إذا اشتكت صعْبَ السباق مطامح الرُكابِ
بل صَوْلتي في راحتي، وتفرّسي في حُسنِ ما أسعى لخيرِ مآب

وقال المرحوم الشيخ عثمان الزناتي المتوفى سنة ١٩٣٤ م .

أرقتُ وأصحابي خليُّونَ نُوَّمُ وما أنا ذو ثأرٍ ولا انا مُغرَمُ
ولكن همّاً بين جنبيّ هاجَهُ عليّ ذوو القربى ، عفا الله عنهمُ
فإن يكُ حلمي مدّ اعناق جهلهم فلا زلتُ فيهم يجهلونَ وأحلمُ
وما أنا ممن يغلبُ الجهلُ حِلمه ويبزو على الأعراض او يتهجّمُ
ولكن صفوحٌ حين أُظلم قادراً وإن كنت في بعض الأحايين أظلِم
فإن كان حلمُ القادرين مذلةً فإني ذليلٌ غيرَ أني مُكرَّم
هموا ثلموا عِرضي لغيرِ جَريرةٍ سوى أنهم مني وأنيَ منهم
أوَطّىءُ أكنافي لهم وأحوطهم من الدهر لا اشكو ولا اتبرّم
يطرا عليّ الليل إن طالَ ليلهم ومهما يَطلْ ليلي فهم عنه نوّمُ
ويُنكر أدناهم عليّ فضائلي وما ضرني إنكاره وهو يعلم

الباب الثالث في شكوى الزمان والحال

قال الشَّنْفري [١] المتوفى سنة ٥١٠ م :

أقيموا بَني أُمّي صدور مَطيِّكم ... فإني لقوم سواكُمْ لأمْيَلُ [٢]
فقد حُمَّت الحاجات والليل مُقْمِرٌ ... وشُدَّتْ لطيّاتٍ مَطايا وأرحُلُ [٣]
وفي الأرض مَنْأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خافَ القِلى مُتعَزَّلُ [٤]
لعَمرك ما في الأرض ضيقٌ على امرئٍ ... سَرى راغباً او راهباً وهو يَعقِل [٥]
ولي دونَكُم أهلونَ سِيدٌ عَمَلَّسٌ ... وأرقط زُهلولٌ وعَرْفاء جَيْأَلُ [٦]

(١) هو ثابت بن اوس الأزدي الشاعر المشهور من اهل اليمن من شعراء الطبقة الثانية ومن جيد شعره هذه القصيدة المشهورة بلامية العرب مات سنة ٥١٠ م والشنفري هو العظيم الشفتين وهو شاعر الأزد من العدائين . وكان في العرب من العدائين من لاتلحقه الخيل، منهم هذا وسليك بن سليكة ، وعمر بن برق ، واسير بن جابر ، وتأبط شرا – وكان الشنفري حلف ليقتلن من بني سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين وكان اذا وجد الرجل منهم يقول الشنفري لطرفك ثم يرميه فيصيب عينيه ، فاحتالوا عليه فأمسكوه وكان الذي امسكه اسير بن جابر احد العدائين وقد رصد له حتى نزل في مضيق ليشرب الماء فوقف له فيه فأمسكه ليلا ثم قتلوه فمر رجل منهم بجمجمته فضربها برجله فدخلت فيها شظية من الجمجمة فمات منها فتمت القتلى مائة والله اعلم بذلك . (٢) مطا جد في السير . والمطية الدابة تمطو في سيرها جمعها مطايا ومطى (٣) حم الأمر حماقضى ،والطيات جمع طية وهي النية (٤ نأى عنه بعد ، والقلى بكسر القاف شدة الكراهة وتعزل عنه تنجى (٥ (المعنى) وحياتك أن الأرض لا تضيق على الإنسان العاقل الذي يستعمل عقله في إدراك المرغوب وترك المرهوب (٦ السيد بالكسر الأسد والذئب والعملس بفتح العين والميم واللام المشددة القوي على السير السريع والذئب الخبيث والأرقط النمر ، والزهلول كعصفور الأملس والعرفاء الضبع لكثرة شعر رقبتها الذي هو بمنزلة عرف الفرس ،وجيألة وجيأل ممنوعتان من الصرف وجيل بلا همزة الضبع .

هم الأهل مُستودَعُ السّرّ ذائع لديهم ولا الجاني بما جرّ يُخذل[١]
وكل أبيٌّ باسلٌ غير أنني إذا عرضت أولى الطرائد أبسَل[٢]
وإن مُدّت الايدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشعُ القوم أعجَل[٣]
وما ذاك إلا بَسطةٌ عن تفضلٍ عليهم، وكان الافضلَ المتفضّل[٤]
وإني كفاني فَقدُ من ليس جازياً بحسنى ولا في قُربه متعلَّل[٥]
ثلاثة اصحاب: فؤادٌ مُشيعٌ، وأبيضُ إصليتٌ، وصفراء عَيْطل
هَتوف من المَلْس المتون يَزينها رصائعُ قد نيطت إليها ومِحمَل[٦]
إذا زَلّ عنها السهم حَنّت كأنها مُرزّأةٌ ثَكلى ترنّ وتُعول
ولَست بمهياف يُعشّى سوامه مُجدّعةً سُقبانها وهي بُهّل[٧]

(١) جر على نفسه وغيره جريرة اي ذنبا والجريرة الذنب والخيانة (٢) الأبي كعلي من يكره الدنايا ولا يحتمل الضيم والباسل الأسد الشجاع والطريدة مـا طردته وابعدته من ناحية وضممته إليك من الصيد والفرسان (٣) الجشع بالتحريك شدة الحرص واسوؤه اخذ الإنسان نصيبه والطمع في غيره (٤) [المعنى] وما دعاني إلى ذلك إلا توسعي بالفواضل عليهم لأن افضل القوم هو المتفضل عليهم (٥) تعلل بالأمر تشاغل وشيع فلان شجعه ويأتي ايضا بمعنى خرج معه ليودعه، والإصليت السيف الصقيل الماضي والعطل القوس الطويلة العنق الصلبة المتن (٦) قوس هتوف ذات صوت حنون، والملس الناعمات والمتون جمع متن بمعنى الصلب والرصـائع جمع رصيعة حلية السيف المستديرة او كل حلقـة مستديرة في سيف او سرج او غيره، ونيطت اليها علقت بها وزل السهم عن القوس خرج منها بسرعة والمرزأة المصابة بالرزايا، والثكلى الفاقدة اولادها، وأعول رفع صوته بالبكاء والصياح [المعنى] قوس طنانة رنانة من نبات مزينة بالحلى ترن عند خروج السهم منها بحنين كأنها امرأة عاجلها فقد ابنها الغالي فهي تبكي وتعول لفقده. (٧) المهياف: السريع العطش، والسوام: الإبل الراعية، وناقة باهل لاصرار عليها ولا خطام ولا سمة لها، [يقال] بهلت الناقة حل صرارها او مجدعة محبوسة على غير علف وسقبان جمع سقب وهو ولد الناقة .

ولا جُبّاءٍ أكْهى مُرِبٍّ بعِرسِهِ يطالعها في شأنه كيفَ يفعلُ ١
ولا خرقٍ هيقٍ كأنَّ فؤادَه يظلُّ به المُكاءُ يَعلو ويَسفُلُ ٢
ولا خالفٍ داريّةٍ متغزّلٍ يروح ويَغدو داهناً يتكحّلُ ٣
ولستُ بعَلٍّ شرُّهُ دون خيرهِ ألفَّ إذا ما رُعتَه اهتاج أعزلُ ٤
ولستُ بمحيار الظلام إذا انتحت هدى الهوجل العِسّيف يهماءُ هوجلُ ٥
إذا الأمعزُ الصوّانُ لاقى مناسمي تطايرَ منه قادحٌ ومُفلَّلُ ٦
أُديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أُميتَه وأضربُ عنه الذكرَ صفحاً فأُذهَلُ ٧

(١) جبأ كنصر : جبن والأكهى الجبان الضعيف ومرب بعرسه اي زوجته لزمها وقعد معها كأرب [المعنى] ولست بالجبان الضعيف الذي يلازم قرينته ويطلعها على امره ويأخذ رأيها فيه. (٢) الخرق: ككتف الذي يندهش ويبهت لأقل شيء والهيق الواحد من النعام ويسمى بالظليم، والمكاء كرمان: نوع من الطير (٣) يقال فلان خلفه اهل بيته وخالفهم بمعنى انه غير نجيب لا خير فيه إذ انه يقعد بعدهم ويأتي خالف بمعنى احمق والدارية الملازم لبيته. (٤) العل الصغير الجسم الضعيف والألف الرجل الثقيل اللسان العي بالأمور والأعزل الخالي من السلاح [المعنى] ولست من سقط الرجال الذين يخشى شرهم ولا يرجى خيرهم الذين يرتبكون في الأمور ويرتاعون لكل مروع حيث لا سلاح لهم يقيهم من الخوف. (٥) يقال نحاه وانتحاه بمعنى قصده ، الهوجل المفازة البعيدة لا علم بها ، والناقة بها هوج من سرعتها والرجل الأهوج والدليل والعسيف صيغة مبالغة من عسف في السير خبط فيه خبط عشواء ، واليهماء عند اهل البادية السيل والجمل الهائج الصئول، وعلى ذلك يمكن ان يقال ناقة يهماء. (٦) المعز: الصلابة ، ومكان امعز: صلب وارض معزا : صلبة ، والصوان نوع من الحجارة شديدة الصلابة ، والمنسم كمجلس خف البعير ، والمفلل المكسر والمراد بالقادح هنا الحجر الذي يضرب بغيره فيفتته ويخرج منه الشرر. (٧) صفحاً إما مصدر من صفح عنه أعرض مفعول له على معنى اصرف عنه التذكر إعراضاً عنه وإما ظرف بمعنى الجانب على معنى انحي التذكر عنه جانباً كما تقول ضعه جانباً .

وأستَفُّ تُربَ الارضِ كي لا يرى له عليَّ من الطَّوْلِ امرؤٌ متطوِّلُ ١
ولولا اجتنابُ الذّامِ لم يُلفَ مَشربٌ يُعاشُ بهِ إلا لديَّ ومأكَلُ ٢
ولكن نفساً حرّةً لا تُقيمُ بي على الضيمِ إلا ريثما أتحوّلُ ٣
وأطوي على الخمص الحوايا كما انطوت خُيوطةُ ماريٍّ تُغار وتُفتلُ ٤
وأغدو على القوتِ الزّهيدِ كما غدا أزلُّ تهاداه التّنائفُ أطحلُ ٥
غدا طاوياً للرّيح يَعارِضُ هافياً يخوتُ بأذنابِ الشِّعابِ ويَعسِلُ ٦
فلما لواهُ القوتُ من حيثُ أمّهُ دعا، فأجابَتهُ نظائرُ نُحَّلُ ٧
مُهلَّلةٌ شيبُ الوجوهِ كأنها قِداحٌ بكفَّي ياسرٍ تتقلقَلُ ٨

---

(١) الطول: الفضل والإنعام وتطول عليه امتن وانعم ٢) الذام "عيب والذم [المعنى] ولولا اني اخشى العار والمذمة التي تلحق الماذلين ماء وجوههم لأجل المأكل والمشرب لكان عندي من اشكالها وألوانها كل ماتشتهيه الأنفس. (٣)الضيم: الذل ؛ وريثما معناها مقدار ما (٤) الخمص: الجوع والحوايا جمع حوية كغنيمة ما تحوي وانطوى بعضه على بعض من الأمعاء والخيوطة جمع خيط ، وماري اسم صانع مشهور بفتل الخيوط واغار شد الفتل [المعنى] واضمر امعائي بالجوع حتى تصير مثل الخيوط يشد فتلها ماري المشهور بفتل الخيوط. (٥ الزهيد : القليل والأزل السريع والموصوف به هنا الذئب بدليل ما بعده، التنوفة المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف او الفلاة لا ماء بها ولا انيس، وإن كانت معشبة وجمعها تنائف ، والطحلة لون بين الغبرة والسواد ببياض قليل وذئب اطحل لونه الطحلة (٦ غدا طاويا اي بكر بالضرب في الأرض جائعا ويعارض الريح يسابقه وهافيا مسرعا ، وخات البازي انقض على الصيد وخات الرجل اختطف ، واذناب الشعاب اطراف الأراضي التي بين الجبال ، وعسل الذئب يعسل عسولا وعسلا : اشتد اهتزازه في عدوه . (٧ لواه القوت قتله وضمره ، وأمه قصده ، ونظائر نحل يعني امثاله . ٨) المهللة الضامرة المنقوشة ، والقداح جمع قدح وهو السهم قبل ان يراش ويركب عليه نصله.

أو الخشرَمُ المبعوث حثحثَ دَبْرُه محابيض أرساهنّ سامٍ مُعسلُ ١
مُهرّتةٌ فوهٌ كأن شدوقهـا شُقوق العصي كالحاتٌ وبُسّلُ ٢
فضجّ وضجّتْ بالبراح كأنها وإياه نوْحٌ فوق علياء ثكّلُ ٣
وأغضى وأغضت واتّسى واتسَتْ به مَراميل عزّاها وعَزّته مُرملُ ٤
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت وَللصبْرُ إن لم ينفع الشكوُ أجملُ ٥
وفاء وفاءت بادرات وكلها على نكظ ممـا يكاتم مجمل ٦
وتشرب أسآري القطا الكُدر بعدما سَرتَ قرباً أحشاؤها تتَصَلصَلُ ٧

(١) الخشرم كجعفر جماعة النحل وامير النحل ومأواها ، وحثحث كحث حض وحرض والدبر بفتح الدال جماعة النحل ، ومحابيض جمع محبض كمنبر عود يشتار به العسل او يطرد به الدبر ، وهي هنا منصوبة على نزع الخافض والمعنى إلى محابيض ، وارسى وقف وأوقف ، وسام مرتفع ومعسل : طالب العسل . (٢) المهرتة الواسعة ، والفوه جمع الأفوه وهو الواسع الفم او الذي يخرج اسنانه من الشفتين ، والشدوق اطراف الفم من باطن الخدين ، وكالحات شديدة العبوس ، وبسل كريهات المنظر . (٣) البراح كسحاب المتسع من الأرض التي لا زرع بها ولا شجر . (٤) اغضى على الشيء سكت ، واتسى اقتدى والمرمل الذي نفد زاده ، وعزاها سلاها على مصابها [المعنى] ثم سكت فسكتت اقتداء به وسلاهـا على جوعها وسلته على مخمصته . (٥) الارعواء النزوع عن الجهل وحسن الرجوع منه [المعنى] شكوا فلما لم تنفع الشكوى رجعوا عنه وصبروا على الجوع – والصبر احسن من الشكوى التي لاتفيد . (٦) فاء رجع ، وبادرات مسرعات ، والنكظ حركة الجوع الشديد . (٧) اسآر : جمع سؤر وهو بقية الماء بعد الشرب والقطا : نوع من الطير صوته قطا قطا وهو ثلاثة اضرب كدري وجوني وغطاط – فالكدر الغبر الألوان الرقش الظهور والبطون الصفر الحلوق وهو الطف مـن الجوني ، والجوني السود البطون والأجنحة وهو اكبر من الكدري ، والغطاط كسحاب ، =

هَمَمْتُ وهمّت، وابتدرنا وأسدلت وشمّرَ مني فارطٌ متمهّلُ ١
فولّيتُ عنها وهي تكبو لعقره يباشره منها ذقونٌ وحوصلُ ٢
كأنّ وغاها حجرتيه وحوله أضاميمُ من سَفر القبائل نزّلُ ٣
توافينَ من شتى إليه فضمها كما ضم أذوادَ الأصاريم منهلُ ٤
فعَبّت غِشاشاً ثمّ مَرّت كأنها مع الصبح ركبٌ من أحاظةَ مجفلُ ٥
وآلفُ وجه الأرض عند افتراشها بأهدأ تنبيه سناسنُ قحّلُ ٦

=الغبر الظهور والبطون والأبدان سود بطون الأجنحة طوال الأرجل والأعناق لطاف لا تجتمع اسرابا بل اكثر ما يكون ثلاث واثنان الواحدة غطاطة ويقال إن القطا يطلب الماء على مراحل عديدة أبلغها بعضهم إلى عشرين.

(١) سدل ثوبه وشعره واسدله: ارخاه وارسله، وفرط القوم يفرطهم فرطا وفراطة فهو فارط تقدمهم إلى الورد لإصلاح الحوض والدلاء. (٢) تكبو تنكب على وجهها ، والعقر بضم العين والمراد به هنا الماء في اقصى الحوض والذقون جمع ذقن وهو مجتمع اللحيين، والحوصلة للطير كالمعدة للانسان [المعنى] وقد انصرفت عنهم بعد ماروبت وتركتها تغمس بأذقانها وحواصلها في الماء لترتوي من شدة العطش التي اصابتها من إجهادها نفسها في الطيران (٣) الوغى كالفتى الصوت والجلبة ، والحجرة الناحية والأضاميم جمع إضامة بكسر الهمزة وهي الجماعة والسفر القوم المسافرون (المعنى كان جلبتها بجانب الماء وحوله ضوضاء الجماعات من القبائل المسافرين عند حطهم من السفر . (٤) توافين إليه تلاحقن إلى الماء وشتى اي من جهات متفرقة والأذواد جمع ذود وهو جماعة الإبل والأصاريم جمع صرم بكسر الصاد وهو جماعة الأعراب (٥) العب جرع الماء وابتلاعه كتلة واحدة كما تفعل الحمامة في شربها ، وغشاشا اي عبا قليلا عجلا غير مرئي واحاظة بن سعد بن عوف أبو قبيلة من حمير إليه ينسب مخلاف احاظة باليمن والمحدثون يقولون وحاظة واجفل النعام فهو مجفل حركها وطردها .(٦) الأهدأ المنكب المسترخي اللحم وتنبيه ترفعه والسناسن حروف فقار الظهر وقحل مجردة من اللحم .

وأعدلُ مَنحوضاً كأنّ فصوصه | كِعابٌ دحاها لاعب فهي مُثَّلُ ١
فإن تبتئسْ بالشنفرى أمُّ قسطل | لما اغتبطَتْ بالشنفرى قبلُ أطوَلُ ٢
طريدُ جنايات تياسَرْنَ لَحْمَهُ | عقيرته لأيها حُـمَّ أوّلُ ٣
تنامُ إذا ما نامَ يقظى عيونهـا | حثاثاً إلى مكروهه تتَغَلْغَلُ ٤
وإلْفُ هموم مـا تزال تعوده | عياداً كحمى الرّبع أو هي أثقلُ ٥
إذا وردَتْ أصدرتها ثم إنهـا | تؤوب فتأتي من تحيت ومن عَلُ ٦

---

(١) أعدل معناه هنا أسوي أو أفرش لرأسي وأجعل لها وسادة . ومنحوضاً يعني ساعداً قليل اللحم : والفصوص المراد بها هنا الأصابع والكعاب لعب على شكل الأقماع ودحاها بمعنى بسطها. ومثل معناها ماثلة وقائمة بين يدي اللاعب.

(٢) تبتئس تحزن وأم قسطل الحرب واغتبطت سرت وقرت عيناً

(٣) كان من عادات العرب غير المحمودة إذا أرادوا أن تحصل لهم ميسرة بدون كبير كد ولا عظيم تعب أن يشتروا ناقة نسيئة وينحروها ويقسموا لحمها جملة أقسام ويجعلوا لها سهاماً بعضها ذوات أنصباء وبعضها غفل بلا نصيب ليستوفوا ببيعها بقدر زهيد ثمن الناقة ثم يقترعون السهام فيفوز من تخرج لهم ذوات الأنصباء ويحرم من تخرج لهم الغفل وهذه هي لعبة الميسر (القمار) المشهورة الفساد وحرمها الدين الحنيف والقوم الذين يجتمعون على الميسر يقال لهم: يسر ، والناقة التي تذبح فيه يقال لها جزور. ويقال لها عقيرة لأنها تعقر وتنحر ويقال تياسروا اي أخذوا الأنصباء من اللحم ، ويقال حم بمعنى دنا وقرب .

(٤) تنام أي الجنايات والمراد أصحابها وحثاثاً سراعاً وتتغلغل تدخل بشدة

(٥) الإلف والأليف الحليف المعاود ، والعودة والرجوع مرة بعد أخرى وربعت عليه الحمى جاءت ربعاً يعني ترددت عليه في كل أربعة أيام مرة تتركه في الثلاثة وتأتيه في الرابع وتسمى هذه الحمى حمى الربع .

(٦) تؤوب ترجع ، المعنى كلما ثارت علي جيوش الهموم وأحاطت بي من كل جانب رددتها عني بعزم ماض وصبر جميل .

فإما تراني كابنَةِ الرَّمْل ضاحياً على رقـةٍ أحفى ولا أتَنَعَّلُ ١
فإني لمولي الصبر أجتاب بزّه على مثل قلب السمع والحزمَ أفعل
وأعْدِمُ أحياناً وأغنى ، وإنما ينالُ الغنى ذو البعدة المتبذلُ ٢
فلا جزِعٌ من خلة متكشف ولا مرح تحت الغنى أتخيلُ ٣
ولا تزدهي الأجهال حلمي ولا أرى سئولاً بأعقاب الأقاويل أنملُ ٤
وليلة نحس يصطلي القوسَ ربها وأقطعه اللاتي بها يَتنبّلُ ٥
دغشت على غطش وبغش وصحبتي سعار وإرزيزٌ ووجر وأفكل
فأيمتُ نسواناً وأيتَمْتُ ولدة وعدت كما أبدأت والليل ألْيَلُ ٦

(١) فإما تراني ، بإهمال ان حملا على لو ، كقراءة طلحة : فإما ترن بياء ساكنة ونون مفتوحة وابنة الرمل معناها الحية او البقرة الوحشية ، وضاحياً بارزاً للشمس ، وعلى رقة معناها سوء العيش ، ومولي الصبر واليه ، واجتاب القميص لبسه ، والبز الثياب ؛ والسمع بالكسر ولد الذئب من الضبع يزعمون انه لايموت حتف انفه كالحية وانه في عدوه اسرع من الطير ووثبته تزيد على ثلاثين ذراعا . (٢) اعداماً واعداماً بالضم افتقر وذو البعد بالضم اي صاحب الابتعاد في الأرض ، والمتبذل من لا يصون نفسه . (٣) الجزع نقيض الصبر الخلة الحاجة والفقر والمرح البطر والاختيال (المعنى) الفقر لا يظهر علي ترحا والغنى لا يبدي مني مرحا . (٤) تزدهي : تستخف والأجهال جمع جهل شذوذا لأن قياسه اجهل وجهل إلا انه حسنه كون عينه الهاء الشبيهة بحرف اللين ، والباء في « بأعقاب » بمعنى عن ؛ والأنمل : النمام وهو نمل ونامل ومنمل كمجلس ومنبر ، ونمال كشداد نمام ؛ وقد نمل كنصر وعلم ، وانمل نم . (٥) اصطلى استدفأ والأقطع جمع قطع وهو القضيب تبرى منه السهام وتنبل بالأقطع اتخذها نبلا ، ودغش عليه كمنع هجم وفي الظلام دخل ، والغطش الظلمة والبغش المطر الخفيف والسعار بضم السين شدة الجوع والأرزيز برد صغار كالمنح : الوجد والحقد والغل والغيظ والأفكل الرعدة . (٦) ايمت نسوانا يعني قتلت رجالهن فتركتهن بلا ازواج ، وايتمت ولدة بكسر الواو جمع ولد يعني قتلت آباءهم : وابدأت بدأت والليل أليل يعني طويل الظلمة .

وأصبحَ عني بالغُميصاء جالساً فَريقان مَسئولٌ وآخرُ يسألُ ١
فقالوا : لقد هَرّتْ بليل كلابُنا فقلنا أذِئبٌ عسّ ،أم عسّ فَرْعل ٢
فلم يكُ إلا نبأةٌ ثم هَوّمَتْ فقلنا قطاة ريعَ ، أم ريع أجدل
فإنْ يكُ من جن لأبرحَ طارقاً وإن يكُ إنساً ماكها الإنس يفعل
ويوم من الشّعْرى يَذوبُ لُعابه أفاعيه في رَمْضائه تَتَمَلْمَلُ ٣
نصَبْتُ له وجهي وذا الكنّ دونه ولا سترَ إلا الأتحمي المرَعبَلُ
وضافٍ إذا هَبّتِ الرّيحُ طيرّت لبائدَ عن أعطافه ما ترَجّلُ
بعيدٌ بمسّ الدهن والفليُ عهده له عبس عاف مِنَ الغَسْلِ محولُ ٤

---

(١) الغميصاء موضع أوقع فيه خالد بن الوليد رضي الله عنه ببني خذيمة .

(٢) هر الكلب هريراً صوت صوتاً دون النباح وعس طاف بالليل والفرعل بالضم ولد الضبع والنبأة الصوت الخفي وهوم هز رأسه من النعاس ، والقطا جمع قطاة نوع من الطير صوته قطا قطا والأجدل الصقر وريع أخيف ولأ برح معناه لقد أتى بالبرح وهو الشدة وها في كها ضمير القصة دخلت عليه الكاف شذوذاً .

(٣) الشعرى نجم يطلع في شدة القيظ واللعاب معناه هنا ما تراه في شدة الحر كأنه منحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة ويكون على هيئة البخار أوعلى هيئة نسج العنكبوت ويسمى أيضاً لعاب الشمس ، والرمضاء الأرض الشديدة الحرارة وتململ تقلب والكن الستر والأتحمي برد معروف . والمرعبل الممزق . وضاف صفة الشعر المحذوف ومعناه طويل ولبائد جمع لبدة وهي الشعر المتراكم وأعطافه جوانبه وترجل تمشط (المعنى) وكم يوم من أيام الشعرى التي تتصاعد فيها الأبخرة وتتململ فيها الأفاعي من شدة الحر عرضت له وجهي بغير ستر ومشيت فيه ولا شيء على جلدي إلا ثوب ممزق وشعر مسترسل إذا هبت عليه الريح لم تطير منه إلا لبائد في كل جانب منه لم تمسه الأمشاط . (٤) الفلي تفلية الرأس من القمل . والعبس محركة ما تعلق بأذناب الإبل من أبوالها وأبارها يجف عليها ، وعاف من الغسل لم يغسل والمحول الذي أتى عليه بالحول .

وَخَرقٍ كظَهْرِ الترسِ قفرٍ قطعتهُ بعاملتين ظهرهُ ليسَ يعملِ ١
فألحقتُ أولاه بأخراهُ موفياً على قنة أقعي مراراً وأمثل ٢
ترودُ الأراويِ الصُحمُ حولي كأنها عذارى عليهن الملاء المذيّل ٣
ويَرْكدن بالآصالِ حولي كأنني من العصمِ أدْفي ينتحي الكيحَ أعقل ٤

وقال الطغرائي يواسي معين الملك في نكبته :

فصبراً معينَ الملكِ إن عنّ حادث فعاقبةُ الصبرِ الجميلِ جميلُ
لا تيأسَنْ من صنع ربّكَ إنه ضمينٌ بأن اللهَ سوف يديلُ
فإن الليالي إذ يَزول نعيمها تبشرُ أن النائباتِ تزول
ألم ترَ أن الليل بعد ظلامه عليه لإسفار الصباح دليل
وأن هلال النضوَ يقمر بعدَ ما بَدا وهو شخت الجانبين ضئيل
فقد يعطف الدهر العسير قياده فيشفي عليل أو يبلّ غليل
ويرتاش مقصوصُ الجناحين بعدما تساقط ريش واستطار نسيل
ولا غروَ إن أخنَت عليك فإنما يُصادم بالخطب الجليل جليلُ

---

(١) الخرق الأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح وقفر خالية من النبات والسكان والعاملتان الرجلان وظهره ليس يعمل أي ليس يسلك .

(٢) أوفى عليه : أشرف ، والقنة بضم القاف قلة الجبل وأقعى في جلوسه تساند إلى ما وراءه ومثل قام منتصباً .

(٣) الرود الذهاب والمجيء والأراوي جمع روية بالضم والكسر وهي أنثى الوعول والعذارى جمع عذراء وهي البكر ؛ والملاء بضم الميم نوع من الأردية المذيل طويل الذيل .

(٤) الركود السكون والثبات ، والآصال جمع أصيل وهو العشي والعصم جمع أعصم وهو الوعل الذي في موضع المعصم منه ، والأدفي الذي يميل قرناه ناحيتي ظهره وينتحي يتعمد : والكيح ناحية الجبل ، وأعقل ممتنع في الجبل .

ما أنتَ إلا السيفُ يسكن غمْدهُ ليشقي به يومَ النزالِ قتيــلُ
أما لكَ بالصدّيقِ يوسفَ أسوةٌ فتحملَ وطء الدّهرِ وهو ثقيل

وقال المرحوم محمود باشا سامي البارودي وهو في منفاه :

محا البَيْنُ ما أبقَتْ عيون المها مِني فَشِبتُ ولم أقض اللبانةَ من سِني
عناءٌ ويأسٌ واشتياقٌ وغربةٌ ألا شدَّ ما ألقاه في الدهر من غَبْنِ
فإن أكُ فارقت الديارَ فلي بهــا فؤادٌ أضلّتهُ عيونُ المها عَني
بعثتُ به يَوْمَ النوى إثر لحظةٍ فأوقعه المقدار في شركِ الحُسنِ
فهل من فتى في الدّهر يجمع بيننا فليس كلانا عن أخيــه بمُستغني
ولما وقفنا للوداع وأسبَلَتْ مَدامِعُنا فوقَ الترائب كالمزنِ
أهبتُ بصبري أن يَعودَ فخانني وناديتُ حلمي أن يَثوبَ فلم يُغنِ
وما هي إلا خَطرةٌ ثم أقلعت بنا عن شطوط الحيّ أجنحة السفنِ
فكم مُهجةٍ من زفرة الوَجد في لظى وكم مُقلةٍ من غَزرة الدمع في دجنِ
وما كنتُ جرّبتُ النوى قبل هذه فلما دهتني كدت أقضي من الحزن
ولكنني راجعتُ حلمي وردّني إلى الحزم رأيٌ لا يحومُ على أفن
ولولا بُنيّاتٌ وشيبٌ عواطلٌ لما قرَعت نفسي على فائتٍ سِني

وقال المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم :

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا إلا بَقيّـــةُ دمعٍ في مآقينا
كنا قِلادة جيدِ الدهر وانفرَطتْ وفي يمين العـــلا كنّا رَياحينا
كانت منازِلُنا في العزّ شامخة لا تَشرُقُ الشمْسُ إلا في مغانينا
وكان أقصى مُنى نهر المجرّة لو من مَائه مُزجتْ أقداحُ ساقينا
والشهبُ لو أنها كانت مُسخّرةً لِرجم من كان يَبْدو من أعادينــا
فلم نزَل وصُروف الدهر ترمُقنا شزراً وتخدعنا الدنيــا وتُلهينا
حتى غدَوْنا ولا جاهٌ ولا نَشبٌ ولا صَديقٌ ولا خِلٌّ يُواسينا

وقال أيضاً في شكوى الزمان والحال :

سعيتُ إلى أن كِدتُ أنتعلُ الدّما وعُدْتُ وما أعقبتُ إلا التندّما
سلامٌ على الدنيا سلامَ مودّعٍ رأى في ظلام القبر أنساً ومَغنما
تبَلّغَ بالصبر الجميل وبالأسى زماناً وجادته المنى فتأدّما
أضرّت به الأولى فهام بأختها وإن ساءتِ الأخرى فويلاهُ منهما
فهُبي رياحَ الموت نكباءَ واطفئي سراجَ حياتي قبلَ أن يتحطّما
فما عصمتني من زماني فضائلي ولكن رأيتُ الموتَ للحرّ أعْصَما
فيا قلبُ لاتجزع إذاعضك الأسى فإنك بعد اليَوْمِ لن تتألما
ويا عينُ قد آن الجمودُ لِمدْمعي فلا سيلَ دمعٍ تسكُبين ولا دما
ويا يَدُ ما كلفتكِ البسطَ مرّةً لذي منة أولى الجميلَ وأنعما
فلله ما أحلاكِ في أنمل البِلى وإن كنتِ أحلى في الطروس وأكرما
ويا قدمي ما سِرْتِ بي لِمذلةٍ ولم ترْتقي إلا إلى العز سلما
فلاتبطئي سيراً إلى الموت واعلمي بأنّ كريمَ القوم مَن مات مكرما

وقال السيد أحمد الهاشمي يشكو ما أصاب الشرق :

قضَيْتُ شبيبتي وبذلتُ جُهدي فلم تكن الحياةُ كما أريد
إلى كم أستَحِثُّ النفس عزماً وكم أسعى ، وغيري يَسْتفيدُ ؟
نَهضْتُ ، فقيلَ : أيّ فتى ؟ فلما خبَرْتُ الأمر أعجبني القُعود
وإني بعد مَجهدةٍ وقومي كضاربةٍ وقد بردَ الحديدُ
وحيدٌ بَينهم ولعلّ يوماً عصيباً فيه يُفْتَقَدُ الوحيد
لنا في الشرق أوْطانٌ ، ولكن تَضيقُ بنا كما ضاقَتْ لحُودُ
تنازعَ أهلها فلكلّ حزبٍ حِمىً ، ولكلّ مملكة عميدُ
نُقيم بها على ذلٍّ وفقر ونَظماً لا يَسوغ لنا الوُرود
أكاذيبُ السياسة بَيِّناتٌ تكيدُ بها الحكومة ما تكيد

وعود كلها كذبٌ وزور ... فكم وإلامَ تخدَعُنا الوُعود ؟
إذا ما الملكُ شيدَ على خِداعٍ ... فلا يبقى الخداعُ ولا المشيد
ومَن لم يَتخذْ مُلكاً صحيحاً ... فلا تُغني الممالك والحدود
وقالوا دولةٌ نشأت حديثاً ... تؤيدها السياسة والعُهود
كذبتم ما لنا في الأمر شيءٌ ... فقولوا : إننا شعب عبيد
وقالوا : أمة نهضت تُداعي ... بحق كاد طالبُهُ يَبيد
تَفَرّق أهلها ومضى بنوها ، ... وفي أرواحهم عزم عتيد
أرى الأملَ الذي نحيا عليه ... أضاءَ من الصباح له عمود
خذوا بنفوسكم طرُق المعالي ... فدهركُمُ عِصاميٌّ عنيد
وجُرْحُ الشرق يُضمِده بَنوه ... وهل يَتلاءَم الجُرح القصيد؟
نيام أغرقوا في النوْم حتى ... أشيعَ بأنهم شعب بَليد !
أرى الحرية اختضبت دِماءً ... وقدْ خَفَقت لطالبها بنود
وأقسِمُ أنّ عاشقَها زعيم ... بخطبتها ولو قطع الوَريد
رخيص كلُّ ما بذلوه فيها ... ولا تَغلو النفوس ولا النقود
إذا جُمِلتْ لها الأرواح مَهراً ... فإن لمجدها كتبَ الخلود
يسوم المجد طالبه بغالٍ ... ولا يَطغى به الثمنُ الزّهيد
إذا سهل النزول إلى حضيض ... يشق إذاً إلى القِمم الصُّعود

وقال أحمد شوقي بك يشكو ما أصاب دمشق من ظلم فرنسا بعد الحرب الكبرى :

قم ناج « جِلّقَ » وانشُدْ رسم من بانوا ... مَشَت على الرسم أحداثٌ وأزْمانُ
هذا الأديم كتاب لا كِفاءَ له ... رث الصحائفِ ، باقٍ منه عنوان
الدّين والوحي والأخلاق طائفةٌ ... منهُ وسائرُهُ دنيا وبُهتان
ما فيه إن قُلبتْ يوماً جَواهرُه ... إلا قرائح مِن رادٍ وأذهان
بنو أمَيّة للأنباءِ ما فتحوا ... وللأحاديثِ ما سادوا وما دانوا

كانوا ملوكاً سريرُ الشرقِ تحتهمُ فهل سألت سريرَ الغربِ ما كانوا؟
عالين كالشمس في أطراف دَولتهم في كل ناحيةٍ مُلكٌ وسلطان
يا ويحَ قلبيَ مهما انتاب أرسمهُم سرى به الهمّ أو عادته أشجان
بالأمس قمت على الزهراء أندبهُم واليومَ دمعي على الفيحاءِ هتّان
في الأرض منهم سماواتٌ وألوية ونيّراتٌ وأنواءٌ وعقبان
معادن العز قد مال الرغامُ بهم لوْ هانَ في تربهِ الإبريزُ ما هانوا
لولا دمشقُ لما كانت طُليطلةٌ ولا زهَتْ ببني العباس بَغْدان [1]
مَررت بالمسجدِ المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب مروان
تغيّرَ المسجد المحزون واختلَفَتْ على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذانٌ في منارتهِ إذا تعالى ولا الآذان آذان
آمنْت باللهِ واستثنيت جنّتَه دمَشق روح وجنّات وريحان
قال الرفاقُ وقد هبّتْ خمائلها الأرضُ دار لها الفيحاء بستان [2]
جرى وصفّق يلقانا بها بَرَدى كما تلقاك دون الخلد رضوان [3]
دخلتها وحواشيها زُمردةٌ والشمسُ فوق لُجَيْنِ الماءِ عِقيان [4]

(١) إحدى لغات كثيرة في بغداد . (٢) الفيحاء : من اسماء دمشق والخمائل جمع خميلة وهي الشجر الكثير الملتف (٣ يقول : إن مكان (بردى) من دمشق كمكان رضوان خازن الجنان من جنة الخلد ، فهو دليل ضيوفها إليها ، يؤنسهم بما على ضفافه من غياض تأوي إليها السعادة ، ومقاصف لاتبلغها الهموم وقوله : (جرى وصفق) من قولهم ، صفق فلان الشراب ،اي حوله من إناء إلى إناء ليصفيه وقد وصف حسان بن ثابت نهر بردى بذلك يوم نزل على أمراء غسان في البريص ، وهي غوطة دمشق ، فقال :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

(٤) العقيان الذهب الخالص .

والحورُ في (دُمّر) أو حول (هامتها) ـ حورٌ كواشفُ عن ساقٍ وولدان ١
و (ربوةُ) الوادي في جلبابِ راقصةٍ الساقُ كاسيةٌ والنحرُ عريان ٢
والطيرُ يصدحُ من خلفِ العيون بها وللعيونِ كما للطيرِ ألحان ٣
وأقبلت بالنباتِ الأرض مختلفاً أفوافه ، فهوَ أصباغٌ وألوان ٤
وقد صفى (بردى) للريح فابتردت لدى ستورٍ حواشيهنّ أفنان ٥
شيدوا لها الملكَ وابنوا ركنَ دولتها فالملكُ غرسٌ وتجديدٌ ، وبنيان

وقال الشاعر المطبوع السيد خير الدين أفندي الزركلي في سورية الشهيدة من قصيدة :

(١) الحور في صدر البيت : شجر باسق معتدل القامات يملأ غياض دمشق ، وقد شبهه بحور الجنان كاشفات عن سوقهن ، لأن اعالي هذه الأشجار مكسوة اوراقها وسائرها عريان ، « دمر » و « الهامة » من متنزهـات دمشق في وادي بردى . (٢) يقول ان ربوة هذا الوادي على خلاف مـا فيها من اشجار الحور ، فاذا كانت الأشجار كاسية النحور عارية السوق فإن جبال الربوة كاسية الساق بما فيها على سفحها من اشجار ومرج وازهار ، بينما نحرها عريان لتجرد اعالي تلك الجبال من خضرة النبات وافواف الزهور و (الربوة » هي متنزه دمشق الغريب وصفها الله تعالى في القرآن الحكيم بقوله (ربوة ذ ت قرار ومعين) قال ياقوت في معجم البلدان ، هي موضع ليس في الدنيـا انزه منه (٣) العيون عيون المـاء يسمع خريرها مع الحان البلابل والعصـافير في الجبـال والأودية (٤) جمع فوف نوع من الثياب والمراد هنا الزهر . (٥) بردى هو نهر دمشق ، وينبع من جبال الزبداني على مسافة اربعين كيلومترا ونيف من دمشق في شمالها الغربي ، وينحدر في وادي بردى حتى إذا بلغ ينبوع (الفيجة) ا ضم هذا إليه ، ثم ينفصـل عنه (نهر يزيد بن معاوية) نحو الشرق في لحف الجبل قاسيون وينفصل عنه بعد ذلك نهر ثورا فيجري في جنوب نهر يزيد ، ثم ينفصل عن بردى نهر (بانياس) والقنوات ويدخل بردى مدينة دمشق من مرجتها الشهيرة ، حتى إذا ارتوت منه بساتينها وضواحيها الشرقية انصب في بحيرة المرج ، وكان السريانيون يسمون بردى (نهر أبانا) وسماه اليونان (خريستو ورئه) أي مجرى لذهب .

الأهل أهلي ، والديار دياري وشعار « وادي النيّرين » شعاري
ما كان من ألم « بجلّق » نازل واري الزناد ، فزنده بي واري
إنّ الدّم المهراق في جنباتها لدمي ، وإن شفارها لشفاري
دمعي لما منيت به جار هنا ودمي هناك على ثراها جاري
يا وامض البرق اطمئنّ وناجني إن كنت مطلعاً على الأسرار
ماذا هناك فإنّ صوتاً راعني والصوت فيه جفوة الإذعار
النار محدقة « بجلّق » بعد ما تركت « حماة » على شفير هار
تنساب في الأحياء مسرعة الخطى تأتي على الأطهار والأعمار
والقوم منغمسون في حمئاتها فتكاً بكل مبرإٍ صبار
الطفل في يد أمه غرض الأذى يرمى ، وليس بخائض لغمار
والشيخ متكئاً على عكازه يرمى ، وما للشيخ من أوزار

وقال أيضاً سعادة الشاعر الجليل فؤاد الخطيب :

يا ساهر الليل ، ما للبرق يأتلق والمزن ترعد والأنواء تصطفق
هل بالطبيعة ما بي ؟ أم ألمّ بها ما بالديار فثارت – كلها حنق
مربدّة لم يهيم في جوّها قمر ولا تنفس في أطرافها فلق
قدّت من الليل سربالاً يجللها وحفّ الذبول فلم يسفر لها أفق
مرأى يمثل هول الحزن مختبطاً بين الجوانح سدّت دونه الطرق
أبصرت بالعين ما استشعرت من كمد في النفس لج به التبريح والأرق
ويح الهموم كم أرخت أعنّتها شعثاً تدفق أرسالاً وتستبق
هوجاء تسمع منها كلما اقتربت صوت السلاسل فوق الصخر تنزلق
تهوي إليّ وأهوي مطبقين معاً حتى نصرّع ملتفين نختنق
هاجت وهجت فكانت ثم ملحمة دارت وسال دمي يجري به العرق

* * *

الباب الرابع في وصف الشعر – آراء الحكماء والشعراء فيه

إنّ من الشعرِ لحكمةً . قال أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد ﷺ :

« سمي الشاعر شاعراً لفطنته » . (الأخفش)

وُجِدَ الشعر حينما وُجِدَ السحر شقيقين ليس يفترقان . (إلياس فياض)

إن المنشيء يولدُ مطبوعاً على الإنشاء ، كما يولد الشاعر مطبوعاً على النظم . والشعراء لِسان حال الأمة ، وتراجمةُ شعورها ، وعنوان إحساسها .

والشعر العصري أضافَ إلى مَعارفنا مَعاني جديدة يرقى بها الخيال ، وتتسع بها التصورات المبنية على الحقائق . (الهلال)

الشعراءُ زينة المجالس . (الأمين بن هارون الرشيد)

الشاعر العربي الذي يمكنُ أن يترجمَ أكثرَ شعره من غير أن تفقدَه الترجمة جماله هو شاعرُ الحقائق . (الدكتور شبلي شميل)

الشعر عاطفة ذائبة ، أو فكرة مُتوقدة ، أو خاطرة عميقة سبكتْ في قالب موزون الكلام والنغمة . (الآنسة مي)

ما الشعر إلا تصوير الخيال والشعر النفسي في شكل الأشعار التي تدنيه من أفهام الناس ، فقدر الشعر ورِقّته وبلاغته يكون على قدر تنبّه إحساس الشاعر ورِقّة عواطفه . (وسيلة محمد)

خلق الشاعر سمحاً طروباً ... (شوقي)

الشعر إلهٌ قديمٌ ماتَ ودفنَ في العواطف الرّاقية ، فجعلَ شعورَ النفس كفناً له ، كلما تحركت العواطف ولمسَ الكفن استيقظ ذلك الإله وَملأ الدنيا أنيناً مدهشاً . (توفيق مفرج)

ولولا خلالٌ سنها الشعر ما دَرى بغاة المعالي كيف تبنى المكارمُ

أرى الشعر يحيي الجود والبأس بالذي تبقيـه أرْواح لهُ عطراتُ

وما المجدُ لولا الشعر إلا مَعاهدٌ ... وما الناس إلا أعظمٌ نخرات

(أبو تمام)

أجلّ الشعر ما في البيت منه ... غَرابة نكتة أو نوع لُطف

وبئسَ الشعر بيت ليسَ فيه ... أماكن غير حيطان وسقف

للشعر في كل عصر مَركب خشنٌ ... لا يستقلُّ عليه الرّاكب الوهن

(ناصيف اليازجي)

ليس شعراً إلا الذي كُلّ بَيْتٍ ... فيهِ معنى يَدعو إلى الأسماع

(خليل اليازجي)

وخَير الشعر ما أوحاه طبعٌ ... فكانَ له بأفئدة دبيبُ

معانيه قد اتسقت بلفظ ... يكاد لفرط رقّته يذوبُ

(عيسى المعلوف)

الشعر كالمرآةِ يُرْ ... سم فيه عقل النّاظِم

(إبراهيم الحوراني)

وما الشعر إلا الشهد والسحر والطلى ... يحلي المنى، يرقي العُقول ويسكِرُ

وما الشعر لا أدري وأدري لأنني ... تصوّرته لكنه لا يصوّرُ

(فائز السمعاني)

أنصت فكل لسان شاعرٌ هزجُ ... حتى الكواكب والأقمار والشهب

(المقتطف)

لا يحسنُ الشعر إلا وهو مبتكرٌ ... وأي حسن لشعر غير مبتكر

وأجْوَد الشعر ما يكسوه قائله ... بوَشي ذا العصر لا الخالي من العصر

هو الشعر لا أعتاضُ عنه بغيره ... ولا عن قوافيه ولا عن فنونه

إذا كانَ من مَعنى الشعور اشتقاقه ... فما بعده للمرء غير جنونه

(معروف الرصافي)

إنظم الشعر ولازمْ مذهبي في اطّراح الرفد لا تبغ النحلْ
فهو عنوانٌ على الفضل وما أحسنَ الشعرَ إذا لم يبتذلْ

(ابن الوردي)

الشعر دُرٌّ والخيال بحور والفكر فلكٌ في العباب يمورُ
والشعرُ ما ابتكر الذكاء مولداً معنى له يرتاحُ منك شعور
فإذا أتى نظماً فتلكَ صناعةٌ أخرى جلاها الطبع والتحريرَ

(سليم عنجوري)

وقال دُعبل بن علي الخزاعي يصف الشعر الخالد :

يقول إنْ ذاقَ الردى مات شعرُه وهيهات عمرالشعر طالتْ طوائلهْ
سأقضي ببيت يحمد الناس أمرَه ويكثر من أهل الرواية حاملهْ
يموتُ رديء الشعر من قبل أهله وجيده يبقى ، وإن ماتَ قائلهْ

العناية بلغة الشعر لعدي بن الرقاع :

وقصيدة قد بتُّ أجمعُ بينها حتى أُقَوِّمَ ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافُه منآدَها

سحر البيان لأبي تمام :

كشفت قناعَ الشعرعن حر وجهه وطيرته عن وكره وهو واقعُ
بغُرٍّ يراها مَن يراها بسمعه ويدنو إليها ذو الحجا وهو شاسعُ
يود ودادأً أنّ أعضاء جسمه إذا أُنشدت شوقاً إليها مسامع

وصف قصيدة لابن الرومي :

نظم الفكر درَّها غير مَثقو ب إذا الدر شينَ بالتثقيب
لم يعبها سوى قواف تشاغلـ نَ عن المدح فيك بالتشبيب
يطرب السامعينَ أيسر ما فيـ ها وإن أنشدت بلا تطريب
سودت فيك كل بيضاء تسويـ داً تراه العيون كالتذهيب

لو يناغي بيانها العجمَ يوماً　　عَرّبَ العجم أيما تعريبِ

سير الشعر للمتنبي :

وما الدّهرُ إلا من رُواة قصائدي　　إذا قلت شعراً أصبح الدهر مُنشدا

فسار به من لا يسير مشمّراً　　وغنى به من لا يغني مغردا

أجزْني إذا أنشدتُ شعراً فإنما　　بشعري أتاك المادحون مردّدا

سهولة الشعر لبشّار بن برْد :

عميتُ جنيناً والذكاء من العمى　　فجئتُ عجيب الظن للعلم موئلا

وغاضَ ضياء العين للعلم رافداً　　لقلب إذا ما ضيع الناس حصلا

وشعر كزهر الروض لاءمت بينه　　بقول إذا ما أحزن الشعر أسهلا

شعر فيكتور هيجو للمرحوم حافظ بك إبراهيم :

ما ثغورُ الزهر في أكمامها　　ضاحكاتٍ من بكاء السُّحُبِ

نظمَ الوسميّ فيها لؤلؤاً　　كثنَايا الغيد أو كالحببِ

عند مَنْ يَقضي بأبهى منظر　　من معانيهِ التي تلعب بي

بَسَمَتْ للذّهن فاستهوت نُهى　　مغرَم الفضل وصَبّ الأدبِ

وقال أيضاً المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف طيارة :

يجري بسابحةٍ تَشُقُّ سَبيلها شَقّ الإزارْ
وتكاد تقدَحُ في الأثير فيستحيل إلى شرارْ
مثلَ الشّهاب انقضّ في آثار عِفريت وطارْ
فإذا عَلتْ فكدعوة المُضطَرّ تخترق السّتارْ
وإذا هوَتْ فكما هوت أنثى العُقاب على الهزارْ
وتُسِف آونَةً وآونَةً يحيد بها ازْوِرارْ
فيخالها الراؤون قد قرّت وليس بها قرارْ
لَعبَ الجواد أقلّ ليثاً من قُضاعة أو نِزارْ

أو كالقلوب من الحما ثم فوق ملعبه استطار
وكأنها في الأفق حـ ين يميل ميزان النهار
والشمس تلقي فوقها حلل اصفرار واحمرار
ملك تمثله لنا الـ ـدنيا فيأخذنا انبهار

وقال أيضاً المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف زلزال صقلية ١٩٠٩ م :

نبئاني إن كنتما تعلمان ما دهى الكون أيها الفرقدان
غضب الله أم تمردت الأر ض فأنحت على بني الإنسان
ليس هذا سبحان ربي ولا ذا ك ولكن طبيعة الأكوان
غليان في الأرض نفس عنه ثوران في البحر والبركان
رب أين المفر والبحر والبر على الكيد للورى عاملان ؟
كنت أخشى البحار والموت فيها راصد غفلة من الربان
سابح تحتنا مطل علينا حائم حولنا مناء مداني ١
فإذا الأرض والبحار سواء في خلاق كلاهما غادران ٢

وقال البحتري يصف سيفاً :

يتناول الروح البعيد مناله عفواً ويفتح في القضاء المقفل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل
ماض وإن لم تمضه يد فارس بطل ومصقول وإن لم يصقل
مصغ إلى حكم الردى فإذا مضى لم يلتفت ، وإذا قضى لم يعدل
متوقد يبري بأول ضربة ما أدركت ، ولو انها في يذبل
فإذا أصاب فكل شيء مقتل وإذا أصيب فما له من مقتل

وقال فقيد الأدب السيد مصطفى لطفي المنفلوطي يصف القلم :

---

(١) مناء مدان : مقارب . (٢) الخلاق : الحظ أو الدين وإنما يكون ذلك في الخير ولكن الشاعر توسع في استعمال الكلمة .

كم أثارَ اليراعُ خَطباً كميناً وأمات اليراع خَطباً مُثارا
قطراتٌ من بين شقيه سالت فأسالَتْ مِنَ الدّما أنهارا
كانَ غصناً فصار عُوداً ولكن لم يَزل بعدُ يحملُ الأثمــارا
كانَ يَستمطرُ السحاب فحالَ الـ أمر فاستمطر العقولَ الغِزارا

وقال المرحوم أحمد شوقي يصف أبا الهول :

أبا الهَوْل : طالت عليكَ العصُرُ وبُلّغْتَ في الأرض أقصى العمُرْ [١]
فيالِدةَ الدّهر لا الدهرُ شَبْـ بَ ، ولا أنتَ جاوزت حدّ الصِّغَر [٢]
إلامَ ركوبكَ مَتن الرِّمــا لِ لطَـيّ الأصيلِ وجَوْبِ السَّحر [٣]
تسافرُ مُتنقــلاً في القُــرو نِ ، فأيّانَ تُلقي غُبارَ السفر؟
أبينــكَ عهدٌ وبين الجبــا ل ، تزولانِ في الموعد المنتظَر؟ [٤]
أبا الهولِ ! ماذا وراءَ البقا ءِ – إذا ما تَطاولَ غيرُ الضجَر؟ [٥]
عجبْتُ للقمان في حرْصِــهِ على لبَــدٍ والنسور الأخَر [٦]

(١) العصر: الدهر فالعصر جمع عصر بسكون الصاد . ومعنى طول الدهر على أبي الهول أنه عمر أعماراً طوالاً : والعمر بضم العين والميم لغــة في العمر .

(٢) (فيالدة الدهر) فيا أخا الدهر وقرينه فكأنك والدهر توأمان ، خلقتما معا في اوان (ولا انت جاوزت حد الصغر) أي برغم انك بلغت في الأرض اقصى العمر (٣، (إلام ركوبك) إنه تصوير شعري بديع لتصوير أبي الهول راكبا متن الرمال يطوي الليل والنهار ويسافر متنقلا في القرون والأدهار وحوب) في معنى طي. (٤) (في الموعد المنتظر) يوم يزول كل شيء أي اليوم الآخر .

(٥) (ماذا وراء البقاء) يقول ما وراء البقاء المتطاول غير السأم قال زهير بن أبي سلمى :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا ، لا أبا لك ، يسأم

(٦) للقمان : هو لقمان بن عادياء ، وتزعم العرب أنه هو الذي بعثته عاد في وفدها إلى الحرم ليستقي لها ، فلما أهلكوا خير لقمان بين بقاء عمر سبع بقرات سمر من اطيب عفر في جبل وعر لا يمسها القطر ، او بقاء عمر سبعة انسر كلما هلك نسر خلف بعده نسر فاستحقر الأبقار وآثر النسور فلما لم يبق غير السابع قال ابن أخ له ياعم ما بقي من عمرك إلا عمر هذا فقال لقمان هذا لبد ، ولبد بلسانهم الدهر. قالوا وكان يأخذ فرخ النسر فيجعله في جوبة في الجبل الذي هو في اصله فيعيش الفرخ =

وشكوى لبيد لطول الحيـــاةِ ... ولو لم تَطُلْ لتَشَكى القِصَرْ ١
فإن الحيـــاةَ تَفُلُّ الحديـ ... ـدَ إذا لَبَسْتَه ، وتُبلي الحَجَرْ
ولو وُجِدَت فيكَ يا ابنَ الصَّفا ... ةِ لحقت بصانِعِكَ المُقْتَدِرْ ٢
أبا الهَوْلِ ، ما أنتَ في المعْضِلا ... تِ القدضلتِ السُّبلَ فيكَ الفِكَر ٣
تَحَيَّرتِ البَدْوُ ماذا تكـــو ... نُ ، وضلَّت بوادي الظنون الحضر ٤
فكنتَ لهـــم صورةَ العُنفُوا ... نِ ، وكنتَ مِثال الحجى والبصَرْ ٥

= خمسمائة سنة او اكثر فإذا مات اخذ آخر مكانه حتى هلكت كلها إلا السابع فأخذه فوضعه في ذلك الموضع وسماه لبداً وكان اطولها عمراً ، فضربت العرب به المثل : فقالوا طـــال الأبد على لبد فعاش لقمان ، كما زعموا ، ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة ، وقال النابغة :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا ... أخنى عليها الذي أخنى على لبد

هذا ، ولقمان بن عادياء غير لقمان الحكيم وغير اليهودي الذي آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة اولي القوة ، وكلا الاثنين مذكور في القرآن الكريم .

(١) «وشكوى لبيد» اي وعجبت لشكوى لبيد لطول الحياة إلخ كان لبيد من المعمرين روي انه مات وهو ابن مائة واربعين سنة . وقيل وهو ابن سبع وخمسين ومـــائة اول خلافة معاوية — امـــا شكواه التي ألمع إليهـــا فذلك حيث يقول :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤال هذا الناس كيف لبيد ؟ !

يقول إذا لم يكن وراء البقـــاء المتطاول إلا الضجر فإني أعجب للقمان في حرصه على ان تطول حياته وللبيد الذي وان مل الحياة وسئم من طولها فانه لا محالة كان اكثرها شكاة إذا هي لم تطل لأن حب الحياة جبلة وغريزة مركوزة في الطباع .

(٢) « وجدت » أي الحياة « يا ابن الصفاة » الصفاة الحجر الصلد الذي لا ينبت شيئا وفي المثل فلان ما تندى صفاته : وفي الحديث لا تقرع لهم صفاة اي لا ينالهم أحد بسوء وأبو الهول ابن الصفـــاة لأنه من الحجر « لحقت إلخ » أي لأدركك الموت . (٣) ما انت في المعضلات ، خبرني أي معضلة انت في المعضلات . وأي معمى مخفى (٤) تحيرت : يقول حار الناس قاطبة في أمرك حاضرهم والبادي .

(٥) صورة العنفوان لما ينطوي عليه جسمك الذي صور على صورة اسد من معاني القوة ، مثال الحجى والبصر لما ينم عنه وجهك ورأسك المصوران على صورة وجه الإنسان من معاني الفطنة والبصر بالأمور .

وسِرُّكَ في حُجْبِهِ كلما أطَلَّتْ عليه الظنونُ اسْتَتَرْ ١
وما راعَهُمْ غيرُ رأسِ الرّجا لِ على هيكلٍ من ذواتِ الظفُر
ولو صُوِّروا من نَواحي الطبا عِ تَوَالَوْا عليكَ سِباعَ الصُّوَرْ ٢
فيا رُبَّ وجهٍ كصافي النَّميـ ـرِ تَشابه حامِلُهُ والنَّمِرْ
أبا الهول ، ويحك لا يُسْتقَـ ـلُّ مَعَ الدهرِ شيءٌ ولا يحتَقَرْ ٣
تَهَزَّأتَ دهراً بديكِ الصَّبا حِ فنَقَّرَ عينيكَ فيما نَقَرْ ٤
أسالَ البياضَ وسلَّ السَّوا دَ وأوغَلَ مِنقارَهُ في الحُفَرْ
قعدت كأنكَ ذو المَحْبِسَيْـ ـنِ قطيعَ القيامِ سَليبَ البَصَرْ ٥
كأن الرِّمالَ على جانبيْكَ وبين يديكَ ، ذنوبُ البَشَرْ
كأنكَ فيها لِواءُ القَضا ءِ على الأرض أو دَيْدَبانُ القَدَرْ ٦
كأنكَ صاحبُ رَمْلٍ يَرى خَبَايا الغيوب خِلال السَّطرْ ٧

(١) يقول ومع ذلك لايزال سرك مكتما ومخفياً في حجبه. والناس من امرك في ظلام.(٢) ولو صوروا أي ما كان ينبغي أن يروع الناس منك أن كان رأسك على هيكل من ذوات الظفر لأن الناس لو صوروا من نواحي شيمهم وطبائعهم لتولوا عليك كأنهم وحوش ، فيارب وجه كصافي النمير الماء الناجع في الري أو النامي أو الكثير والنمر هو ذلك الحيوان المعروف بمكروه وخبثه وشراسته . (٣) لا يستقل لا يعد قليلا وهذا البيت كالتمهيد لما بعده . (٤) بديك الصباح يريد الزمن والعلاقة بين الديكة وبين الصباح من ناحيةصياحها فيه معروفة ، ومن حسن التعليل أن جعل سبب عبث الدهر بأبي الهول وتشويه خلقه حتى أسال بياض عينيه وسل سوادهما هو هزء أبي الهول به وسخره منه وعدم اكتراثه له ثم تعبيره عن الدهر بديك الصباح ، هذا ولمناسبة ذكر ديك الصباح نقول إنه ورد في بعض الآثار لاتسبوا الديكة فانها تدعو إلى الصلاة .(٥) « المحبسين » المحبس الموضع الذي يحبس فيه ، وكان يقال عن أبي العلاء المعري رهين المحبسين أي رهين عماه وبيته : فكأنه من عماه في المحبس وكذلك أبو الهول عده شاعرنا بعد أن نقر ديك الصباح عينيه كأنه منعماه وسكوته في محبسين.(٦) «ديدبان» فارسية معربة اصلها ديده بان ومعنى ديده العين وبان أي ذو أي الرقيب والعين ومعناها الخاص الجندي المكلف بالحراسة . (٧) « السطر » السطر الصف من الكتاب والشجر ونحوهما ومعنى البيت ظاهر .

أبا الهول ، أنتَ نديمُ الزّما ن نجيُّ الأوانِ سميرُ العصر [١]
بَسطت ذراعيك من آدم ووَلّيْتَ وجهك شطر الزُّمَر [٢]
تُطِلُّ على عالمٍ يَستهلُّ وتوفي على عالمٍ يُحتضر [٣]
فعينٌ إلى من بدا للوجو د ، وأخرى مُشيعةٌ من عبر [٤]
فحدِّث فقد يُهتدى بالحديـ ـث ، وخبِّر فقد يُؤتسى بالخبر
ألم تبلُ فرعونَ في عزِّه إلى الشمس مُعتزياً والقمر [٥]
ظليلَ الحضارة في الأوّلـ ـينَ ، رفيعَ البناءِ ، جليلَ الأثر [٦]

(١) « نجيّ الأوان » النجيّ بوزن فعيل الذي تساره — وفي الحديث « اللهم بمحمد نبيك وبموسى نجيك » هو المناجي المحدث للانسان . (٢) « من آدم » أي من قديم (الزمر) جمع زمرة الجماعة من الناس ، والمراد هنا الناس جميعاً . (٣) « يستهل » يعني يقدم على الدنيا من استهل الصبي بالبكاء رفع صوته وصاح عند الولادة (يحتضر) حضر فلان واحتضر إذا نزل به الموت . (٤) وأخرى مشيعة من عبر ممن مضى (٥ « ألم تبل فرعون » بلاه يبلوه بلوا وابتلاه جربه واختبره وفرعون لقب يطلق على كل من ولي ملك مصر كالنجاشي لملوك الحبشة وقيصر لملوك الرومان وفرعون اصلها في الهيروغليفية مركبة من بي وهي أداة التعريف كأل ، ورع أي الشمس فتكون كلمة واحدة ورع أو راهوا معبود قوي حاكم جبار يقاتل احتفاظاً بالحياة ، وإبقاء على الكون ومن هنا كان العتو والجبروت وما في معناهما من مدلولات كلمة فراعنة عند العرب ، وإذن لا يقصد بفرعون فرعونا معينا ولكن جميع فراعنة مصر وقد ابتلاهم أبو الهول (إلى الشمس معتزيا) يقول الم تبل يا أبا الهول فرعون وهو في عزه حتى لكأنه من العزة والمنعة بحيث يناطح الشمس والقمر لأن من اعتزى إلى شيء قاربه وشاكله وقد كان أكثر الفراعنة يضعون على تيجانهم صور أوزريس « الشمس » وإزيس « القمر » لأنهم من اصنامهم فلعله يشير إلى هذا مع إرادة معنى العز والمنعة . (٦) « ظليل الحضارة » مكان ظليل ذو ظل دائم يستظل به يريد ان حضارة فرعون كانت من الكمال بحيث تظل الناس ويرتعون في ذراها و كنفها والحضارة بكسر الحاء وفتحها الإقامة في الحضر خلاف البدو البادية وهي المدن والقرى والريف سميت بذلك لأن اهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار .

يُؤسسُ في الأرض للغـابريـ نَ ويَغرِسُ للآخرين الثمرْ[١]
وراعكَ ما رَاعَ مِنْ خيلِ قَمْبـ يزَ ترمي سنابكها بالشررْ[٢]
جَوارفُ بالنَّار تَغزو البلا دَ ، وآونةً بالقنا المُشتَجَر
وأبصرت إسكندراً في المَلا قَشيبَ العُلا في الشباب النضر[٣]

(١) «للغابرين» الغابر من الأضداد فيكون بمعنى الباقي ويكون بمعنى الماضي ومن ثم يكون معنى البيت إما أن فرعون يخلد ذكر الماضين بإقامة الآثار لهم والتماثيل ويغرس للآتين ما يجنون ثمره من دور العلم والعرفان وما إليها ، وإما أن فرعون يؤسس للآتين ويغرس لهم كل ما يجدي ويثمر . (٢) « قمبيز » هو ابن قورش الأكبر الذي اسس دولة الفرس التي غزت مصر أزمان الأسرة السادسة والعشرين وذلك حين تولى الملك « ابسمتيك الثالث » أحد ملوك هذه الأسرة فأعد الفرس لهذه الغزوة المعدات الكبيرة وجاء ملكهم « قمبيز » بجيش جرار لفتح البلاد التي طالما شرهت نفس أبيه قورش العظيم إلى إخضاعها وكانت مصر إذ ذاك حصينة غاية في المنعة ، يقول مؤرخو الإغريق إن أحد الجنود اليونانية هو الذي خان مصر والمصريين ودل الفرس على أسهل الطرق التي يمكنهم بواسطتها أن يدخلوا البلاد فهوجمت مدينة « بلوز » « الفرما » بحراً وزحفت الجنود الفارسية على مصر براً وبعد مقاومة عنيفة جهتي بلوز ومنف سقطت البلاد وأخذ قمبيز أبسمتيك أسيراً وكان ذلك سنة ٥٢٥ قبل الميلاد ، ثم سار قمبيز أول أيامه سيرة حسنة وعامل المصريين معاملة طيبة يحترم ديانتهم وتقاليدهم ولكنه بعد ذلك لبس لهم جلد النمر وحنق على البلاد ومن فيها فكرّ على المعابد والهيا كل فهدمها وقتل بيده العجل أبيس أثناء أحد الاحتفالات الكبيرة وعند عودته إلى فارس مات في الطريق سنة ٥٢١ ق. م. ، ولما ولي ملك الفرس دار الأول زار مصر وأراد أن يصلح ما أفسده قمبيز فأبدى احتراماً كبيراً لديانة المصريين ومعبوداتهم وشيد هيكلا عظيما للمعبود آمون بواحة سيوة الكبرى وعضد التجارة وشيد كثيراً من المدارس وفتح الخليج الموصل بين النيل والبحر الأحمر ، ورأى المصريون آخر أيامه ما لحقه من الخسائر في واقعة « مرثون » في حربه مع الإغريق فخرجوا من طاعته وطردوا الفرس من البلاد بقيادة أحد الأمراء الوطنيين سنة ٤٨٦ ق. م. ، ثم غزا الفرس مصر ثانية وما زالوا بها حتى طردهم المصريون سنة ٤٠٥ ق. م . (٣) « اسكندر » هو الإسكندر الأكبر المقدوني الفاتح العظيم قال المؤرخون =

تبلَّجَ في مصر إكليلهُ فلم يَعْدُ في الملك عُمرَ الزَّهَرْ
وشاهدتَ قيْصر كيف استبد وكيف أذلَّ بمصر القصَرْ؟
وكيف تجبَّر اعوانه ؟ وساقوا الخلائق سوق الحُمُرُ؟
وكيف ابتُلوا بقليل المديد من الفاتحين كريم النَّفَرْ
رَمى تاجَ قيصر رَميَ الزجاج وفلَّ الجُموعَ وثلَّ السرر[1]
فدعْ كلَّ طاغية للزّمان فإن الزمانَ يُقيم الصَّعَرْ[2]
رأيتَ الديانات في نظمها وحينَ وهى سلكُها وانتثر[3]

= بعد أن هزم الإسكندر الفرس في واقعة أفسوس زحف على مدينة صور فأخذها عنوة وبذلك تم استلاؤه على الشام ثم قدم إلى مصر وقد كان الفرس استدعوا حاميتها منها بسبب حروبهم مع الاسكندر فلما وصل الاسكندر إلى « بلوز » « الفرما » سنة ٣٣٢ ق م رحب به المصريون لما سمعوه من عدالة حكمه ولما لاقوه من الذل والهوان في حكم الفرس ففتحت أبوابها ودخلها دون عناء حتى إن الوالي الفارسي لم يجرؤ على مقاومته وقابله في منف بترحاب، ومن ثم سار الإسكندر إلى واحة آمون الكبرى ودخل معبد آمون ولقبه الكهنة بابن آمون ، فاحترم ديانة المصريين وقدم القرابين لمعبوداتهم ولم يهمل مع ذلك التقاليد الاغريقية فأدخل منها في مصر الموسيقى والألعاب النظامية ، ولما رأى الإسكندر أن قرية « راقودة » وهي قرية صغيرة كانت بقرب الإسكندرية ذات موقع بحري موفق أنشأ بجوارها حاضرة جديدة له هي الإسكندرية وبعد أن استوثق الأمر للاسكندر في مصر خرج إلى فتوحاته الأخرى في المشرق وكانت وفاته سنة ٣٢٣ وكان عمره إذ ذاك ٣٢ سنة ونيفا ولم يقم بمصر كما ترى إلا قليلا ، فذلك حيث يقول في البيت التالي «فلم يعد في الملك عمر الزهر» وخلف الإسكندر على مصر البطالسة ومازالوا بها إلى أن استولى الرومان عليها . « إكليله » تاجه . (١) « رمى» يريد هذا النفر القليل وهم أصحاب عمرو بن العاص وفل الجموع : هزمها وثل السرر كسرها والسرر جمع سرير والمراد بها العروش التي يجلس عليها القياصرة . (٢) « الصعر » ميل في العنق وانقلاب الوجه إلى أحد الشقين، وقد صعر خده أماله من الكبر ، قال المتلمس :

وكنا إذا الجبار صعر خده أقمنا له من ردئه فتقوما

والزمان يقيم الصعر يعدل الطغاة يقال أقمت الشيء فقام أي استقام . (٣) « في نظمها وحين وهى سلكها » في حالتي قوتها وضعفها .

تشادُ البيوتُ لهـا كالبُرو ج إذا أخذالطرفُ فيها انحسر ١
تَلاقى أساساً وشُمّ الجبا لِ كما تَتلاقى أصولُ الشجر ٢
وإيزيس خلّفت مقاصيرهـا تخطّى الملوكُ إليها السُّتر ٣
تُضيءُ على صفحات السما ءِ وتشرقُ في الأرضِ منها الحُجَر
وآبيسُ في نـيره العـالمو نَ، وبعضُ العقائدِ نيرٌ عسر ٤
تساسُ به مُعضلات الأمو رِ ويُرجى النعيمُ وتخشى سَقر
ولا يَشعرُ القومُ إلاّ بهِ ولو أخذتـه المدى ما شعر
يظل أبو المسك عبداً له وإنْ صاغ احمد فيهِ الدرر ٥
وآنستَ موسى وتابوتـه ونور العصا والوَصايا الغرر ٦
وعيسى يَلم رِداءَ الحَيا ءِ ومريمُ تجمعُ ذيلَ الخفر ٧

(١) «انحسر» كل والبصر يحسر عند أقصى بلوغ النظر (٢) «تلاقى» تتلاقى بحذف إحدى التائين أي أنها راسخة رسوخ الجبال. (٣) «إيزيس» هي من معبودات قدماء المصريين وهي أخت أوزيريس وزوجته في الوقت نفسه وأم هوربوس وهاربوقراط. (٤) «وآبيس» هو العجل أبيس. رووا أن نيفون إله الشر تغلب أخيراً على أوزيريس إله الخير وقتله فتقمصت روحه جسد عجل، وكان هذا العجل عندهم يمثل الخصب والتوليد الخلقي وكانوا يعتقدون أن العجل الذي تقمصته روحه هو ابن بقرة حملت بواسطة شعاع من القمر وله علامات ظاهرة في جسده فإنه يكون أسود اللون وفي جبهته سمة بيضاء مربعة مثلثة وصورة نسر على ظهره وصورة خنفساء تحت لسانه. (٥) «أبو المسك» كافور الإخشيدي، و «أحمد» أبو الطيب المتنبي. (٦) وتابوته ونور العصا والوصايا الغرر، التابوت الذي وضع فيه موسى وقذف به في النيل وعصا موسى ما كان منها من الآيات والوصايا العشر كل أولئك معروف فلا حاجة بنا إلى الإفاضة فيه. (٧) وعيسى يلم رداء الحياء، يقول وشاهدت عيسى وهو المثل الأعلى للحيـاء ومثله في ذلك العذراء.

وعمرٌو يسوقُ بمصر الصّحابَ وُيزْجي الكتاب ويَحدو السور [1]
فكيف رَأيتَ الهدى والضــلا ل ودنيا الملوكِ وأخرى عُمَــر
ونَبــذ المقَوْقس عهــد الفُجو ر وأخذَ المقَوقس عهد الفجر
وتَبديـــله ظُلمـاتِ الضّــلا لِ بصُبْـح الهداية لمــا سفر
وتأليفــه القبــط والمسلميـــنَ كما أُلِّفَتْ بالولاء الأسر [2]
أبا الهول ، لو لم تكـــن آية لكانَ وفاؤكَ إحــدى العبر [3]
أطلت على الهرمـــينِ الوُقو ف كثاكِلةٍ لا تريم الحفَر [4]
ترَجّي لبانيهـــما عـــودةً وكيف يعودُ الرّميم النخِر ؟[5]
تجوس بعـــينٍ خـــلال الدّيا رِ وترمي بأخرى فضاء النّهر [6]
ترومُ بمنفيسَ بيضَ الظبـــا وسُمْر القنـــا والخميسَ الدّثر [7]
ومهد العلوم الخطيرَ الجـــلا لِ وعهد الفنون الجليلَ الخَطر
فـــلا تستبينَ سوى قَريةٍ أجدّ محاسنهـا مــا اندثر [8]

---

(١) وعمرو ... يقول وقد رأيت عمرو بن العاص إذ يسوق المسلمين لفتح مصر ويزجي كتاب الله وآياته. (٢) وتأليفه أي المقوقس الأسر) جمع الأسرة وأسرة الرجل عشيرته ورهطه الأدنون . (٣) إحدى العبر إحدى الآيات . (٤) أطلت إلخ بيان لوفاء أبي الهول كثاكلة : يقول إنك في إطالتك الوقوف على الهرمين وفاء منك كثاكلة ولدها لا تبرح قبره ولا تزايله فالثاكلة هي التي فقدت ولدها ، ولا تريم أي لا تبرح . (٥) « لبانيهما » أي لبـاني الهرمين : (٦) « تجوس » تطوف وتتخلل و « للنهر » النهر واحد الأنهار يعني نهر النيل . (٧) « وتروم » تنشد وتطلب « بمنفيس » منف ، وموضعها اليوم البدرشين وميت رهينة وهي عاصمة ملك الفراعنة والذي بناهـا مينا مؤسس الأسرة المالكة الأولى وكانت كما قـال شاعرنا مهد العلوم الخطير الجلال وعهد الفنون الجليل الخطر . (٨) « أجد محاسنها ما اندثر » يقول إن طلولها الدوارس ورسومها المندثرة البوالي أجدت محاسنها .

تكاد لإغراقها في الجمو د إذا الأرض دارت بها لم تَدُر
فهل مَنْ يُبلغ عنا الأصو ل بأن الفروع اقتدت بالسير؟
وأنّا خطبنا حسانَ العلا وسقنا لها الغاليَ المدّخر ؟
وأنّا ركبنا غمار الأمور وأنّا نزلنا إلى المؤتمر
بكلّ مُبين شديد اللدا د وكلّ أريب بعيد النظر
تطالبُ بالحق في أمة جرى دَمُها دونه وانتشر
ولم تفتخر بأساطيلها ولكن بدستورها تفتخر
فلم يَبقَ غيرُكَ من لم يخف ولم يبقَ غيرُكَ مَن لم يَطر
تحرّك أبا الهول ، هذا الزّما نُ تحرّك ما فيه ، حتى الحجر

وقال أيضاً المرحوم أحمد شوقي بك يصف حياة النحل وحالته ومملكته :

مملكةٌ مُدبّره بامرأة مؤمّره
تحمل في العمال والصنّاع عبء السيطره
فاعجب لعمال يولّون عليهم قيصره
تحكمهم راهبةٌ ذكّارةٌ مُغبّره (١)
عاقدةٌ زنّارها عن ساقها مُشمّره
تلثّمت بالأرجوانِ وارتدته مِئزره
وارتفعتْ كأنّها شرارة مُطّيّره
ووقعتْ لم تختلجْ (٢) كأنها مُسمّره ؟
مخلوقة ضعيفة من خلقٍ مُصوّره
ياما أقلّ مُلكها وما أجلّ خطره

(١) التغبير : ترديد الصوت بالقراءة .
(٢) الاختلاج : الاضطراب .

قِفْ سائلِ النحلَ بأيِّ عَقلٍ دبّره ؟
يُجِبكَ بالأخلاق وهي كالعقول جوهره
تُغني قوى الأخلاقِ ما تُغني القوى المفكّرَه
ويرفعُ الله بها مَن شاء حتى الحشره

أليس في مملكة النّحل لقوم تبصرَه ؟
مُلكٌ بناهُ أهلُه بهمّةٍ ومجدَرَه [1]
لو التمستَ فيه بطّال اليدين لم ترَه
تُقتَلُ أو تنفى الكسالى فيه غيرَ مُنذَرَه
تحكم فيه قيصرهْ في قومها مُوَقّرَه
مِنَ الرّجالِ وقيودِ حُكْمِهم مُحَرّره
لا تورثُ القوم ولو كانوا البنينَ البرَرَه
الملكُ للإناثِ في الدّستور لا للذّكَرَه [2]
نيّرة تنزلُ عن هالتِها لنيّرَه
فهل تُرى تخشى الطّماعَ في الرجال والشّره [3]
فطالما تَلاعَبوا بالمُهَج المصيّرَه
وعبروا غفلتها إلى الظّهور قنطره
وفي الرّجال كرمُ الضعف ولُؤْمُ المقدِرَه
وفتنة الرأي وما وراءها من أثره
أنثى ولكن في جنا حيها لباة مُخدره [4]

---

(١) يقال هذا الامر مجدرة ذاك اي جديراً به .

(٢) الذكرة : الذكور .

(٣) الطماع : الطمع .

(٤) اللباة : اللبؤة وهي أنثى الأسد .

زائدة عن حوضِها طاردة مَنْ كدّرَه
تقلّدَتْ إبرتَهــا وادّرَعتْ بالحَبَرَه
كأنهــا تُرْكِيّةٌ قد رابطت بأنقرَه
كأنها (جاندارْكُ) في كتيبةٍ مُعَسكِره
تلقى المُغيرَ بالجُنو دِ الخُشُنِ المُنمّرَه
السّابغين شِكةً ١ البــالغين جَسَره ٢
قد نثرتهم جُعْبة ونفضتْها مِثبرَه ٣
مَن يَبنِ مُلكا او يَذُد فبِالقَنا المُجــرّره
لمنَ الأمورَ هِمّــةٌ ليس الأمور ثرثره
ما الملك إلا في ذُرَا الألويةِ المُنشّرَه
عرينُه مُذْ كان لا يحميه إلا قَسْوَرَه ٤
ربُّ النيوبِ الزرق والـمــخالب المُذكّره
مالِكــةٌ عامـــلةٌ مُصْلِحةٌ مُعمّــرَه
المال في أتباعهــا لا تستبينُ أثـرَه
لا يعرفــونَ بَينهــم اصلا له من ثمره
لو عَرفوهُ عَرفوا من البلاء اكثره
واتخــذوا نقابــةً لأمــرهم مُسيّــره
سُبْحانَ مَنْ نزّه عنـــه ملكهم وطهّره
وساسةٌ بحُــرّةٍ عامـــلةٍ مُسْتَختَــره
صاعدة في مَعْمَــل من معمل مُنحدِره

---

(١) الشكة : السلاح . (٢) الجسرة : الجسارة .
(٣) المثبرة : بيت الإبر . (٤) القسورة : الاسد .

واردة دَسكــرة صادرة عن دسكره[1]
باكرة تستنهضُ الــعصائبَ المبكرَه [2]
السامعــينَ الطائــعينَ المحسنينَ المهرَه
من كل من خطّ البنا ءأو أقامَ أسطرَه
أو شدّ أصل عقدهِ أو سدّه أو قوّرَه[3]
أو طاف بالماءِ على جُدرانه المجَدّره [4]
وتذهبُ النحلُ خفا فاً وتجيء مُوقرَه
جوالبَ الشمع من الخــمائــل المنــوّره
حوالب الماذيّ[5] من زهر الرّياض الشيره[6]
مشدودة جيوبهــا على الجنى مُزَرَّره
وكلُّ خرطوم أدا ةُ العسل المقطّره
وكلُّ أنف قانيءٍ فيه من الشّهْدِ بره [7]
حتى إذا جاءَتْ به جاستخلالالأدوره[8]
وغيبتــهُ كالسلا فِفي الدّنان المحضره[9]
فهل رأيت النحل عــن أمانة مقصره ؟
ما اقترضت من بقلة أو استعارت زَهره
أدّت إلى الناس به سكرة بسكــرَه

---

(١) الدسكرة : القرية . (٢) العصائب : جمع عصابة . (٣) قور الشيء قطعه من وسطه خرقا مستديرا (٤) المجدرة أي المشيدة ٥) الماذي: العسل. (٦) الشيرة : الحسان . (٧) البرة : الحلقة في الأنف . (٨) الادورة: الديار يراد بها الخلايا هنا .(٩) السلاف : أفضل الخمر .

وقال أيضاً أحمد شوقي بك يصف مقبرة توت عنخ آمون وما حوته :

قفي يا أخت (يُوشع) خبرينا أحاديث القُرون الغابرينا ١
وقُصّي من مصارعهم علينا ومن دُوَلاتهم ما تَعلَمينا ٢
فمثلكِ مَن رَوَى الأخبار طُرّاً ومنْ نسبَ القبائلَ أجمَعينا ٣
نرى لكِ في السماءِ خضيبَ قرن ولا نحصي على الأرضِ الطعينا ٤
مشيت على الشبابِ شواظ نار ودُرت على المشيبِ رحى طحونا ٥
تعينين الموالد والمنايا وتبنينَ الحياة وتهدمينا ٦
فبالك هرّة أكَلَتْ بَنيها وما وَلدوا وتنتظر الجنينا ٧
أأُم المالكينَ بَني (أمون) ليهنكِ أنهم نزَعوا (أمونا) ٨

(١) الخطاب للشمس ، وقد أشار إلى قصة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام واستيقافه الشمس،فقد روي أن وشع قاتل الجبارين يوم الجمعة فلما أدبرت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل فراغه منهم ويدخل السبت ولا يحل له قتالهم فيه فدعا الله تعالى فرد له الشمس حتى فرغ من قتالهم ، وقد لمح ابن مطروح إلى هذه القصة بقوله :

وما أنت لا أنس المليحة إذ بدت دجى فأضاء الأفق من كل موضع
فحدثت نفسي أنها الشمس أشرقت وأني قد أوتيت آية يوشع

القرون الغابرين الأجيال الماضية . ٢) قصي: حدثني ، ومنه : « نحن نقص عليك أحسن القصص » مصارعهم : مهالكهم دولاتهم ، جمع دولة بضم ففتح وهي الداهية يقال : « جاف الدهر بدولاته » أي بدواهيه . ٣ طراً جميعاً دون أن تترك منها شيئاً ، نسب القبائل : ذكر أنسابهم . (٤) الخضاب : الملون بالخضاب ، القرن حاجب الشمس . الطعين المطعون . (٥ الشواظ بالضم والكسر : دخان النار . (٦) المنايا جمع منية وهي الموت . (٧) الهرة : القطة ، ويقال في المثل « أعق من الهرة » لأنها تأكل أولادها ، الجنين: الولد ما دام في الرحم . (٨) نزع أباه أشبهه ، وفيه إشارة إلى أم « أمون » واختلف المؤرخون هل كانت أمه زوجة شرعية لأبيه أو إحدى سراريه وكان عادتهم أن لا يتولى الملك بواسطة زواجه بابنة الملك نحو أتون .

ولدت له (المآمين) الدواهي ... ولم تلدي له قط (الأمينا) ١
فكانوا الشهبَ حينَ الأرضُ ليلٌ ... وحين الناس جدُّ مضللينا
مشت بمنارهم في الأرض (روما) ... ومن أنوارهم قبست (أثينا) ٢
ملوكُ الدّهر بالوادي أقاموا ... على (وادي الملوك) محجبينا ٣
فرُبَّ مصفد منهم وكانت ... تساقُ له الملوكُ مصفدينا ٤
تقيد في التراب بغير قيد ... وحلَّ على جوانبه رَهينا
تعالى الله كان السحر فيهم ... أليسوا للحجارة منطقينا ٥
غدَوْا يبنون ما يبقى وراحوا ... وراء الآبدات مخلدينا
إذا عمدوا لمأثُرَة أعدوا ... لها الإتقانَ والخلق المتينا
وليس الخلدُ مرْتبةً تُلقّى ... وتؤخذُ من شفاهِ الجاهلينا
ولكنْ منتهى همم كبار ... إذا ذهبتْ مصادرُها بقينا
وسر العبقرية حين يسري ... فينتظمُ الصنائعَ والفنونا
وآثارُ الرجال إذا تناهتْ ... إلى التاريخ خير الحاكمينا

(١) أشار للخليفتين ، الأمين والمأمون ، وقد اختار المأمون لأنه كان أفضل بني العباس حزماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة ، أي ولدت له أبناء صاروا ملوكا وكانت صفاتهم في الملك كالصفات التي عرفناها في المأمون . (٢) روما عاصمة إيطاليا ، قبست أخذت ، أثينا عاصمة اليونان ، وفيه إشارة إلى ما اخذته الأمم الغابرة عن المصريين من العلوم والحضارة . (٣) وادي الملوك هو الشاطىء الغربي للنيل بالأقصر على مسيرة نصف ساعة تقريباً وهو هضاب صلبة بها مقابر الملوك فراعنة مصر من الأسرة الثامنة عشر وما بعدها وقد كانوا يبالغون في العناية بها وإبقائها إلى حد يفوق الوصف . (٤) مصفدين مقيدين : يصف فراعنة مصر في مقرهم الأخير ، وهو مقام يتساوى فيه الملوك والسوقة . (٥) منطقين أليسوا هم الذين أنطقوا الحجارة ويريد أنهم أنشأوا من الأبنية ما يدل على عظمة نشأتهم دلالة النطق على معناه وأشهر هذه الابنية الهرمان القائمان بجانب الجيزة وهما من أعجب ما بنى البناة وفيهما دليل على أن المصريين القدماء كانوا أعلم الأمم القاطبة بفن العمارة وهندستها وقد توالى الدهر عليهما فلم ينل منهما مر الحوادث وعصف الرياح وهطل السحاب .

وأخذك من فم الدنيا ثناء ... وتركك في مَسامعها طنينا [١]
فَغالى في بنيك الصيد غالي ... فقد حُبُّ العلوُّ إلى بنينا [٢]
فشيبٌ قنعٌ لا خيرَ فيهم ... وبوركَ في الشباب الطامحينا [٣]
فناجيهم بعرشٍ كان صنواً ... لعرشِك في شبيبته سَنينا [٤]
وكان العز حليته وكانت ... قوائمُه الكتائب والسفينـا
وتاجٌ من فرائده (ابنُ سيتي) ... ومن خَرزاته (خوفو) و (مينا) [٥]
علا خداً به صعرٌ وأنفاً ... ترفّع في الحوادث أن يدينا [٦]
ولستُ بقائل ظلموا وجاروا ... على الأجراء أو جلدوا القطينا [٧]
فإنا لم نوقّ النقص حتى ... نطالبُ بالكمال الأولينا [٨]
وما (البستيلُ) إلا بنت أمس ... وكم أكلَ الحديدُ بها سجينا [٩]

(١) الطنين صوت الذباب والطست والناقوس ونحو ذلك . (٢) الصيد جمع أصيد وهو الرجل يرفع رأسه كبراً وعجباً ولا يلتفت من زهوه يميناً وشمالا ، فقد حب بضم الحاء أي فقد حبب (٣) شيب :أي قانعون لا يطلبون شيئاً وراء ما بلغوا ، الطامحون: المتفانون في طلب المعالي. (٤) الصنو : الأخ الشقيق والابن ، السنين بفتح السين من يكون في سنك . (٥) ابن سيتي :هو رمسيس الثاني المعروف بسوزستريس ويلقب بالأعظم لأنه كان أعظم ملوك مصر سلطة وقوة وطالت مدة حكمه وكثرت فيها الآثار المصرية وتزايدت العمارات حتى لا يكاد يوجد بوادي النيل أثر من الآثار القديمة والعمائر المشهورة إلا وعليه اسمه ورسمه وولي الملك صغيراً في حياة والده ، وقد تربى على الشجاعة والحماسة واراد ابوه ان يعلمه اقتحام الأهوال فأرسله في جيش إلى بلاد الشام وكان عمره عشر سنين فغزاها حتى ادخلها تحت الطاعة وله حروب عظيمة ثم حارب في جملة فتوح وبخاصة في آسيا الشمالية وكان في ايامه (بنتاءور)الشاعر المصري وله فيه عدة مدائح يصف بها شجاعته واقدامه . (٦) علا خداً أي ذلك التاج والصعر ان يميل الرجل بخده عن النظر إلى الناس تهاونا او كبراً . (٧) القطين الخدم اي انه لا يجاري بعض المؤرخين الذين يزعمون ان الملوك الفراعنة كانوا يظلمون الأجراء ويجلدون الخدم ليسخروهم في إنشاء تلك الأبنية .(٨ لم نوق النقص اي لم نحفظ منه (٩) البستيل : سجن يرجع تاريخ إنشائه إلى عهد شارل الخامس ملك فرنسا سنة ١٤٦٩ وفي هذا =

وربُبةَ بيعةٍ عزّتْ وطالتْ بناها الناسُ أمسِ مُسَخَّرينا ١
مُشيَّدةٍ لشافي العُمْي (عيسى) وكم سَملَ القُسوس بها عُيونا ٢
خليليَّ اهْبطا الوادي وميلا إلى غُرَف الشّموس الغاربينا ٣
وسيرا في محاجرهم رُوَيْداً وطوفا بالمضاجع خاشعينا ٤
وخُصَّا بالعِمار وبالتحايا رُفات المجدِ من (توتنخمينا) ٥
وقبراً كاد من حُسْنٍ وطيب يُضيءُ حجارةً ويَضوعُ طينا ٦
يُخال لرَوْعة التاريخ قُدّت جنادلهُ العُلا من (طورسينا) ٧
وكان نزيلُه بالمُلك يُدْعَى فصار يُلقّبُ الكنزَ الثمينا ٨
وقوما هاتفَيْن به ، ولكن كما كان الأوائلُ يهتفونا ٩
فثَمَّ جلالةٌ قرَّت ورامت على مرِّ القرون الأربعينا ١٠
جلالُ المُلْك أيامٌ وتمضي ولا يَمضي جلالُ الخالدينا ١١

= السجن ذاق رجالات العلم والفضل في فرنسا اشد انواع العذاب ايام الاستبداد فكم هلك فيه فيلسوف عظيم وفني بين جدرانه المظلمة مصلح كبير ، وكم من سياسي جني عليه لخير بلاده فدخله حياً وفارقه ميتاً . وقد كره الفرنسيون (البستيل) واسم (البستيل) وعدوه مستقر الظلم ومعهد العسف والقسوة فلم يكادوا يشورون على حكومتهم حتى كان غرضهم (الـتيل) فهدموه واقتلعوا اصوله واخذت فتات احجاره فجعلها النسوة عقوداً يتحلون بها في امكنة اللآلىء اشارة إلى غلبة الأمة على الظلم وانتقامها من الظالمين . (١) البيعة بكسر الباء معبد النصارى مسخرين : اي كلفوا عملهم بلا اجرة (٢) سمل العين فقأها بحديدة محماة وقلعها ٣ يريد بالشموس الغاربينا ملوك الفراعنة ، وغرفهم مدافنهم . (٤) المحاجر ما يحميه الملوك حول منازلهم ومنها محاجر اقيال اليمن وهي احماؤهم اي ما كان يحميه كل منهم (٥) العمار التحية وهو ايضا الريحان يزين به مجلس الشراب . (٦) يضوع يتحرك وينتشر اي كادت حجارته تضيء حسنا وكادت تنتشر رائحته الطيبة الزكية (٧) لروعة المسحة من الجمال ، الجنادل جمع جندل وهو الحجارة وطور سينا هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى (٨) النزيل الضيف (٩) هاتفين به اي الملك الذي هو نزيل القبر وليكن هتافكما كما كانوا يهتفون له ايام حياته . (١٠) فثم : فهناك الجلالة من عظم القدر ، ورامت اقامت . (١١) اي ان الجلال الصحيح ما خلد به في التاريخ اما جلال الملك فلا بقاء له .

وقُولا للتنزيل « قُدوم سَعدٍ » وحيّا الله مَقدَمك اليمينا ١

سلامٌ يوم وارَتكَ المنايا بواديها ويوم ظَهرتَ فينا ٢

خَرَجتَ من القبور خُروج عيسى عليك جلالةٌ في العالمينا ٣

يَجوبُ البرقُ باسمك كل سَهل ويَخترق البُخارُ به الحزونا ٤

تعالَ اليومَ خبّرنا أكانت نواكَ سِناتِ نَومٍ أم سنينا؟ ٥

وماذا جُبت من ظُلماتِ ليلٍ بعَيْد الصّبح يُنضي المدلجينا ٦

وهلْ تبقى النفوسُ إذا أقامت هياكلُها وتَبلى إن بَلينا ؟

وما تلك القبابُ وأينَ كانت وكيف أضلّ حافرُها القرونا ؟ ٧

مُمرّدةَ البناء تخالُ بُرجاً ببطن الأرض مَحطوطاً دفينا ٨

تَغطّى بالأثاث فكان قصراً وبالصوَرِ العِتاق فكان زُونا ٩

حملتَ العرشَ فيه فهل تُرجّي وتأملُ دولة في الغابرينا ؟ ١٠

وهل تلقى المُهَيْمنَ فوق عرش ويلقاه الملا مُترَجلينا ؟ ١١

وما بالُ الطّعام يكاد يقدي كما تركته أيدي الصّانعينا ١٢

(١) اليمين المبارك وهو من اليمن . (٢) وارتك اخفتك (٣) خروج عيسى اي كما خرج عيسى من القبر على قول النصارى (٤) يجوب يقطع والبرق اسم منقول من معناه الأصلي (التلغراف) الحزون جمع حزن وهو ما غلظ من الأرض (٥) تعال اليوم إلخ الخطاب لتوت عنخ آمون ، نواك قصدك (٦) ينضي يهزل ، المدلجون الذين يسيرون من اول الليل (٧) وما تلك القباب جمع قبة وهي ما ظهر من ابنية المقبرة الفخمة (٨) ممردة البناء مملسته (٩) تغطى اي هذا البناء تغطى إلخ والأثاث متاع البيت ، والصور جمع صورة يريد بها الرسوم التي تحاكي صور الأشياء ، الزون الموضع تجمع فيه الأصنام (١٠) في الغابرين في الباقين وفي القرآن الكريم « فأنجيناه واهله إلا امراته كانت من الغابرين » ويكون ايضا بمعنى الماضين فهو من الكلمات التي تستعمل للأضداد (١١) المهيمن من اسماء الله تعالى ، المترجلون الذين ينزلون عن ركائبهم ويمشون على ارجلهم . (١٢) ما بال الطعام ، ما حاله ، يقدي من قدى الطعام اي طاب طعمه ورائحته .

ولم تكُ أمس تصبرُ عنه يوماً فكيف صبرت أحقاباً مِئينا؟[١]
لقد كان الذي حذر الأوالي وخاف بنو زمانك أن يكونا[٢]
يحبُّ المرءُ نبش أخيه حياً وينبشه ولو في الهالكينا
سُلِلتَ من الحفائر قبل يومٍ يسلُّ من التراب الهامدينا [٣]
فإنْ تكُ عند بعثٍ فيه شكٌّ فإنَّ وراءه البعثَ اليقينا [٤]
ولو لم يعصموك لكان خيراً كفى بالموت مُعتصماً حصينا [٥]
يُضَرُّ أخو الحياةِ وليس شيءٌ بضائره إذا صحب المنونا

وقال علي بن محمد القاضي التنوخي واصفاً مكتوباً :

وصحيفة ألفاظُها في النظم كالدرّ النثيرْ
جاءت إليّ كأنها التوفيقُ في كل الأمور
بأرقّ من شكوى وأحسَنَ من حياة في سرور
لو قابلتَ أعمى لأصبح وهو ذو طرف بصير
وكأنها أملٌ تحقق بعد يأس في الصدور
أو كالفقيد إذا أتت بقدومه بشرى البشير
أو كالمنام لساهر أو كالغنى عند الفقير
أو كالشفاء لمدنِفٍ أو كالأمان لمستجير
وكأنما هيَ من وصال أو شباب أو نشور

(١) الأحقاب جمع حقب بضم القاف وهو الدهر، المئين جمع مائة (٢) لقد كان أي لقد حصل الذي حذر الأوالى، والأوالي جمع أول (٣) سللت أخرجت منها برفق الحفائر جمع حفيرة وهي الحفرة، واليوم الذي يسل الهامدين من التراب هو يوم القيامة (٤) فإن تك عند بعث إلخ أي فإن تكن الآن تشك في هذا البعث الذي خرجت به من قبرك فلا محاله سيأتي البعث الذي لا تشك فيه وهو بعث القيامة (٥) يعصموك يمنعوك من المكروه أي لو أنهم تركوك فلم يتخذوا لك هذه العصمة لما أصابك مكروه لأن الموت يمنع الأذى أن يصل وجلاء هذا المعنى في البيت الثاني .

لفظ كأسر معانـد أو مثل إطلاق الأسير
وكأنـه إذْ لاح من فوق المهارق والسُّطور
وردُ الخدود إذا انتقلـتَ به على راح الثغور
غُرَرٌ غدَت وكأنها من طلعة الظبي الغرير
من كل مَعنى كالسلا مة أو كتيسير العسير

وقال أيضاً واصفاً الخط والكتابة والبلاغة :

خطٌ وقرطاس كأنهما السوالف والشعـور
وبدائع تَدَعُ القلو بَ تكادُ من طرَبٍ تطير
في كل مَغنى كالغِنى يحويه محتاجٌ فقير
أو كالفكاك ينالهُ من بعدِ ما يأسٍ أسير
وكأنها الإقبال جا ءَ به الشفاء أو النشور
وكأنها شَرخ الشبا بَ وعيشه الخضل النّضير

وقال البُحتري في الموضوع نفسه :

وإذا دَجتْ أقلامُه ثم انتحت بَرقتْ مصابيح الدُّجى في كتبه
فاللفظ يَقرُب فهمهُ في بُعدِهِ منّا ويَبعدُ نَيْله في قربه
فكأنها والسمعُ معقودٌ بها شَخصُ الحبيب بَدا لعين مُحبِّه

وقال الوزير المهلبي في وصف كتاب :

ورَدَ الكتاب مبشّراً نفسي بأنواع السُّرورْ
وفضضتُه فوجدتُه ليلاً على صفحات نورْ
مثل السّوالف والخدو د البيض زِينت بالشعور
أنزَلتُه مِني بمنـزلة القلوب من الصُّدور

وقال النجم بن إسرائيل يصف الموز :

أطعمتهُ موزاً شهيّ المنظر مستحكم النضج لذيذَ المخبر
كأن تحتَ جلدهِ المزعفر لفات زبد ، عجنتْ بسكرِ

وقال البهاء زهير يصف الموز أيضاً :

في ريحه ، ولوْنه ، وطعمه كالمسك،أوكالتبرأو كالضرَبِ
وافت به أطباقـــه منضداً كأنــه مكاحلٌ من ذهبِ

وقال آخر :

يحـكي إذا قشرْتـه أنيـاب أفيـال صِغار
ذو باطن مثل الأقـا ح ، وظاهر مثل البهارْ [1]

الكمثرى :

وكمـثراء بستـان شهي الطعم والمنظرْ
له طعـمٌ إذا ذيـق كماء الوَرد والسكـرْ
كأنه في شكله ، ولونه وطعمه قوالبٌ من سكر

التفاح – قال ابن المعتز :

كأنما التفاح لمـا بـدا يرفل في أثوابـه الحمـر
شهدٌ بماء الورد مستودَع في أكر من جامد الخمر [2]
كأننـا حين نحيـا به نستنشقُ الند من الجمر [3]

الخوخ :

كأنما الخوخ على دَوحـه وقد بدا أحمرُه العندمي [4]
بنادق من ذهب أصفـر قد خضبت أنصافهـا بالدم

(١) الأقاح الأقحوان وهو نبت طيب الريح وحواليه ورق أبيض ووسطه أصفر والبهار نبت أصفر طيب الريح (٢) الأكر : جمع كرة وهي لغـة في الكرة . (٣) الندى طيب . (٤) العندم صبغ أحمر .

وخوخةٍ بستانٍ ذكي نسيمها | من المسك والكافور قد كسبت نشرا[1]
ملبسة ثوباً من التبر نصفه | مصوغٌ ، وباقيه كياقوتة حمْرا

المشمش :

ومشمش جاءنا من أعجب العجب | أشهى إليّ من اللذاتِ والطربِ
كأنه وهبوبُ الريح ينثرُهُ | بنادقٌ خرطتْ من خالص الذهبِ

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر :

حبذا مشمش على الدوْح أضحى | ذا شعاع يستوقفُ الأبصارا
شجر أخضرُ لنا جعل اللـــهُ « تعالى » منهُ كما قال نارا[2]

الرمان :

رمانة صبغ الزمانِ أديمها | فتبسمت في ناضر الأغصانِ
فكأنما هي حُقَّةٌ من عسجد | قد أودعت خرزاً من المرجان

غيره – كأنما حقة ، فإن فتحت | فصرّة من فصوص ياقوت

غيره – حقاق كأمثال العقيق تضمنت | فصوص بلخش في غشاء حرير[3]

غيره – إذا فض عنه قشره فكأنه | فصوص عقيق في حقاق من الدر
فدُرٌ ، ولكن لم يدنّسه عارض | وماء ولكن في مخازنَ من جمر

النخيل ، والبلح :

كأن النخيل الباسقات وقد بدت | لناظرها حسناً قباب زبرجد[4]
وقد علقت من حولها زينة لها | قناديل ياقوت بأمراس عسجد

وقال السريُّ الرفاء المتوفى سنة ٣٦٦ هـ :

---

(١) نشر : رائحة طيبة (٢) يشير إلى قوله تعالى : (الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً . . (٣) البلخش : حجر معدنه بنواحي بلخشان المتاخمة للتركستان ، أحمره يشبه الياقوت . (٤) بسحق النخل : طال .

فالنخل من باسق فيــه وباسقة يضاحك الطلعُ في قنواته الرُّطبا ١
أضحت شماريخه في النحر مُطلعة إما ثُريّا ، وإما معصما خضِبا ٢
تُريك في الظلّ عِقيانا ، فإن نظرت شمسُ النهار إليهـا خِلتها لهبا ٣

وقال آخر في البلح الأخضر :

أما ترى النخل قد نثرت بلحاً جـاء بشيراً بـدولة الرُّطب
مكاحِلاً من زُمرّد خرطت ، مقمّعـات الرءوس بالذهبِ ٤

وفي البلح الأحمر :

أنظر إلى البُسْر إذ تبدّى ولونه قد حكى الشقيقا ٥
كأنمـا خوصُـه عليـه زبرجـدٌ مُمِرٌ عقيقا

البطيخ :

رأيتها في كفّ جلاّبهـا وقد بدت في غاية الحُسن .
كسلة خضراء مختومـة على الفصوص الحمر في القطن

وقال أبو طالب المأموني :

ومُبيضة فيها طرائق خضرة كاخضرّ مجرى السّيل من صيب المزن ٦
كحقة عاجٍ ضُببت بزبرجدٍ حوتْ قطع الياقوت في عصب القطن ٧

وقال في بطيخة صفراء :

وبطيخـةٍ مِسْكيّة عسَلية لها ثوبُ ديباج وعرفُ مُدام ٨

(١) الطلع ما يطلع من النخلة ثم يصير تمراً إن كانت انثى ، فإن كانت ذكراً لم يصر تمراً بل يؤكل طريا ، او يترك على النخل اياما حتى يصير فيه شيء ابيض مثل الدقيق فتلقح به الأنثى والقنوان جمع قنو وهو من التمر كالعنقود من العنب. (٢) المعصم موضع السوار او اليد وهو المراد هنا. (٣) العقيان: الذهب الخالص. (٤) مقمعة ذات قمع وهو ما التزق بأعلى التمرة . ٥) البسر: البلح قبل ان يرطب فإذا انتهى نضجه فرطب ،والشقيق نبت احمر فيه بقع سوداء ٦) الصيب المطر ، والمزن السحاب او ابيضه . (٧) الضبيب : شدة القبض على شيء لئلا ينفلت اي كأنها مخاطة بخيوط الزبرجد تمسكها والعصب جمع عصبة ، ما يعضب به اي صرر من القطن (٨) العرف الريح .

إذا فُصّلت للأكل كانت أهلّةً وإنْ لم تُفصّل فهي بدرُ تِمامِ

وقال سبط بن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٤ هـ :

رُبَّ صفراء أتتنا وهي في أحسن حُلّهْ
تَعتريها صُفرةٌ في لونها من غير عِلهْ
حُلوةُ الريق، حلال دَمها في كلّ مِلهْ
نصفها بدرٌ، وإن قسّمتها فهي أهِلهْ

غيره: ألا فانظروا البطيخ وهو مُشقق وقد حاز في التشقيق كل أنيق
تراهُ كبلُور بدا في زُمرد مُركبة فيه فصوص عقيق

العنب – قال ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ :

كأن عناقيدَ الكروم وظلها كواكبُ درٍّ، في سماء زبرجد

وقال السري الرفاء :

والكرْمُ مشتبك الأفنان، توسعُنا أجناسه في تساوي شِربْها عجبا [١]
فكرْمةٌ قطرت أغصانها سبجاً وكرمه قطرت أغصانها ذهبا [٢]
كأنما الورق المخضر دونهما غيرانُ يكسوهما من سندس حُجُبا

قصب السكر :

تحكيه سُمر القنا ولكن تراه في جسمه طلاوه [٣]
وكلما زِدتَه عذاباً زادك من ريقه حلاوه

النبق :

وسدرة كلَّ يوم من حُسنها في فنون [٤]
كأنما النّبق فيها وقد بدا للعيون

---

(١) الأفنان الأغصان والشرب الماء ٢) السبج : خرز اسود. (٣) الطلاوة مثلثة الطاء : الحسن . (٤) السدرة شجرة النبق .

جَلاجـلٌ من نُضارٍ قد عُلِقتْ في الغصون

الجزَر : قال ابن المعتز :

انظر إلى الجزَر الذي يحكي لنا لَهبَ الحريقْ
كمذبـة من سنـدس ولها نصابٌ من عقيق

وقال ابن رافع القيرواني

انظر إلى الجزر البديع كأنه في حُسنه قضُبٌ منا لمرجان
أوراقه كزبرجد في لونها وقلوبـه صيغت من العِقيان[1]

اللوز الأخضر : قال ظافر الحداد :

كأنمـا قـلوبـه من تَوأم ومُفـردِ
جَواهرٌ لكنما الأصـداف من زَبرجَـدِ

التين : قال ابن المعتز :

أنعم بتين طاب طعماً ، واكتسى حُسناً ، وقاربَ منظراً من مَخبر
في بَرد ثلج ، في نقا تبر ، وفي ريح العبير ، وطيب طعم السكر[2]
يَحكي إذا ما صفّ في أطباقه خِيماً ، ضُربنَ من الحرير الأحمر

الفستق :

والقلبُ ما بين قشريه يلوح لنا كألسنِ الطير من بين المناقير
غيره : زَبرجَدة خضراء وسط حريرة بحقةِ عاجٍ في غـلاف أديم[3]
غيره : زَبرجَدة ملفوفة في حريرة مضمّنة دراً مُغشى بياقوت

النارنج : قال ابن المعتز :

وكأنما النارنج في أغصانـه من خالص الذهب الذي لم يُخلطِ[4]

---

(١) العقيان : الذهب الخالص . (٢) العبير اخلاط من الطيب ، ونقا مقصور نقاء (٣) الأديم الجلد او احمره ، وهو المراد هنا . (٤) النارنج : نوعان احدهما حامض معروف والآخر حلو وهو « البرتقال » .

كرة رماها الصولجانُ إلى الهوا فتعلقت فى جـوّه لم تَسقطِ
غيره : انظر إلى منظرٍ تُلهيك بهجتُه بمثله في البرايا يُضرب المثلُ
نار تلوحُ على الأغصان في شجر لا النار تطفأ، ولا الأغصان تشتعل

وقال أبو الحسن الصقلي :

إذا ميّلتها الريحُ مالت كأكرةٍ بَدت ذهباً في صولجان زَبَرجدِ

الليمون : قال ابن المعتز :

يا حبّذا ليمونةٌ تحدثُ للنفسِ الطربْ
كأنها كافـورة لها غِشاء من ذهبْ

القلم – قال « ابن المعتز » : القلم مجهز لجيوش الكلام ، يخدم الإرادة ولا يمل استزادة ، يسكتُ واقفاً ، ويَنطق سائراً ، على أرض بياضُها مُظلم وسوادها مضيء ، وكأنه يُقبِّل بساط سلطان ، أو يفتح نوّار [١] بستان .

وقال « علي بن عُبيد » : القلم أصمُّ يسمع النجوى [٢] ، أعيا من باقل، وأبلغ من سُحبان وائل ، يجهل الشاهد ، ويُخبر الغائب ، ويجعل الكتب بين الإخوان ألسُناً ناطقة ، وأعيُناً لاحظة ، وربما ضمّنها من ودائع القلوب ما لا تبوح به الألسنُ عند المشاهدة .

ومن كلام « أبي حفص بن بُرد الأندلسي » : ما أعجب شأن القلم ، يَشرب ظلمة ، ويَلفظ نوراً ، قد يكون قلم الكاتب أمضى من شباة [٣] المحارِب ، القلم سهم ينفذ المقاتل ، وشَفرة [٤] تطيح بها المفاصل .

وقال « محمود بن أحمد الأصبهاني » :

أخرسُ يُنبيك بإطراقِه عن كل ما شئت من الأمر [٥]

(١) الزهر او الأبيض منه . (٢) السر . (٣) الشباة حد كل شيء (٤) سكين .
(٥) اطرق ارخى عينيه ينظر إلى الأرض .

يُذرِي على قرطاسه دمعــــة يُبدي بها السر وما يَدري ١
كعاشق أخفى هواه وقــــد نَمَّت عليه عَــــبرةٌ تجري
تُبصره في كلِّ أحـــواله عريانَ يكسو الناس أو يعري
يُرى أسيراً في دَواة وقــد أطلــق أقوامــاً من الأسرِ
أخرقُ لو لم تبرهِ لم يكن يرشق أقوامـــاً وما يبري ٢
كالبحر إذ يجري ، وكالليل إذ يغشى ، وكالصارم إذ يفري

وقال « أحمد بن عبد ربه » المتوفى سنة ٣٢٨ هـ :

يُخاطب الغائبَ البعيدَ بما يخاطب الشاهدَ الذي حضرا
شَخْتٌ ضئيلٌ لفعله خطرٌ أعظمْ به في مُلمة خطرا ٣
تمجُّ ديكاهُ ريقة صفرتْ وخطبها في القلوب قد كبرا
يواقع النفسَ منه ما حذرت وربمــا جنبتْ بــه الحذَرا
مُهفهفٌ تزدهي به صحفٌ كأنمــا حليتْ به دُررا

و « لابن المعتز » في قلم الوزير « القاسم بن عبيد الله » :

قلمٌ ما أراهُ ، أم فلكٌ يجـــري بما شاء « قاسمٌ » ويسير ؟
خاشعٌ في يديه يلثم قرْطا ساً كما قبَّل البساط شكورُ
ولطيف المعنى ،جليل ،نحيفٌ وكبير الأفعال وهو صغيرُ !
كم منايا ، وكم عطايا ، وكم حتـــفٌ وعيشٌ تضم تلك السطور
نقشت بالدجى نهاراً ، فما أد ري أخط فيهن أم تصويرُ ؟

وقال « أبو تمام » في قلم « محمد بن عبد الملك الزيات » :

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته تصابُ من الأمر الكلى والمفاصل

---

(١) يذري : يصب . (٢) اخرق : احمق ويبرى يقطع ، وكذا يفري .
(٣) شخت ضامر دقيق وكذا مهفهف .

لعابُ الأفاعي القاتلات لُعابهُ وأرْيُ الجنى اشتارَتهُ أيد عواسلُ ١
له ريقة طلٌّ ، ولكنَّ وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابلُ ٢
فصيح إذا ما استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجِلُ ٣
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأُفرغت عليه شعابُ الفكر وهي حوافل ٤
أطاعتهُ أطرافُ القنا وتقوَّضت لنجواهُ تقويضَ الخيام الجحافلُ
إذا استغزر الذهنُ الجليُّ وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل ٥
رأيت جَليلاً شأنهُ (وهو مُرهف ضنًى وسميناً خطبه (وهو ناحل) ٦

وقال ابن الرومي :

إن يخدمُ القلمَ السيفُ الذي خضعت له الرقابُ ، ودانت خوفه الأمم
فالموتُ — والموتُ لا شيء يغالبه — ما زال يتبعُ ما يجري به القلمُ
كذا قضى الله للأقلام مذْ بريت أن السيوف لها مذ أرْهفت خدمُ

وقال المتنبي :

نحيف الشوَى يعدو على أم رأسه ويحفىَ فيقوى عدْوه حين يقطعُ ٧
يمجُّ ظلاماً في نهار لسانهُ ويفهم عمنْ قال ما ليس يسمع

وقال ابن نباتة السعدي ، المتوفى سنة ٤٠٥ هـ :

يرْنو إلى الأفكار غيرَ مُلاحظ ويخاطب القرْطاسَ غير محابي
ويعلم الآداب أفهام الوَرى وفؤادهُ صفرٌ من الآداب

وقال مهيار الديلمي المتوفى سنة ٤٢٧ هـ في وصف الدولة والأقلام :

---

(١) الأري : العسل . اشتاره اجتناه ، العوامل جمع عاملة تشتار العسل تجمعه . (٢) الطل اخف المطر . والوابل المطر الشديد الضخم القطر : (٣) اعجم : لا يبين كلامه ، راجل : واقف . (٤) الشعاب جمع شعبة ، وهي ما عظم من حوافي الأودية والميل في الرمل ، وحوافل : ملأى . (٥) استغزر : طلب ما فيه من مادة غزيرة (٦) مرهف دقيق مرفق ، ضني مرض مرضاً يلزمه الفراش حتى أشرف على الموت . (٧) الشوى : الأطراف وجلدة الرأس .

وأم بنين استبطنتهمُ فصدرُها   غصيصٌ بهم عند الخضان كظيمُ
يعقونها بالضغط ، وهي عليهمُ   عطوفٌ بدرَّات الرضاع رَءومُ [1]
يخالُ الأفاعي الرقشُ ماضمَّ منهم   حشاها ، وهم فيها أخٌ وحميم [2]
فمنْ ذي لسان مفصح وهو أخرس   ومن بائح بالسرِّ وهو كتومُ

وقال أبو الفتوح البستي المتوفى سنة ٤٠٠ ﻫ :

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهم   وعدُّوهُ مما يكسبُ المجد والكرم
كفى قلمُ الكتاب عزاً ورفعة   مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم.

وقال أعرابي من بني الحرث بن كعب ، يصف الشمس :

مخبأة ، أما إذا الليلُ جنها   فتخفى ، وأما بالنهار فتظهر [3]
إذا انشق عنها ساطع الفجر وانجلى   دُجى الليل وانجاب الحجاب المستر [4]
وألبسَ عرضُ الأرض لوناً كأنه   على الأفق الشرقي ثوْبٌ معصفر
تحلت ، وفيها حين يبدو شعاعها   ولم يحل للعين البصيرة منظر
بلون ، كدرع الزعفران يشوبهُ   شعاع تلألأ ، فهو أبيض أصفر
إلى أن علت وابيضَّ منها اصفرارها   وجالت كما جال المهيج المسهر [5]
وجللت الآفاق ضوءاً ينيرها   فخرَّ لها صدر الضحى يتسعَّر
ترى الظلَّ يطوي حين تعلو وتارة   تراه إذا مالت إلى الأرض ينشر
وتدنَّفُ حتى ما يكاد شعاعها   يبينُ إذا غابت لمن يتبصر [6]
كما بدأت ، إذ أشرقت ، في مغيبها   تعود كما عاد الكبير المعمر
فأفنت قروناً ، وهي في ذاك لم تزل   تموت وتحيا كل يوم وتنشر [7]

---

(١) الدر اللبن ، رءوم عطوف . (٢) الرقش جمع رقشاء وهي الحية المنقطة بسواد وبياض والحميم القريب . (٣) جنها : سترها (٤) انجاب : انكشف . (٥) المهيج المفزع . (٦) دنفت الشمس : دنت للغرب واصفرت . (٧) تحيا .

وقال الطغرائي يصف طلوع الشمس وغرُوب البدر :

وكأنما الشمس المنيرة إذ بدت والبدر يجنحُ للغروب وما غَرَبْ
مُتحاربان لذا مجنٌ صاغــه من فضة ، ولذا مجنٌ من ذهبْ

وقال ابن خَفاجة الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٢ يصف غروبها في نهر :

وقد ولتِ الشمس محتثة إلى الغرب ترْنو بطرف كحيل[١]
كأن سناهــا على نهــره بقايا نجيع بسيف صقيل[٢]

وقال ابن طاهر الكرخي أيضاً :

أما ترى الأفق كيف قد ضرب الغيمُ عليه من مزْنه قُببا ؟
وحاجبُ الشمس من رفارفهــا يضرمُ فيهــا بنوره لهبا[٣]
كأنــه فضة مطرّقــةٌ أطرافها قد تطوّسَتْ ذهبا[٤]

وقال ابن مكي أيضاً :

كأن الشمس إذا غرُبت غريق هوى في البحر أو وافى مغاصا
فأتبعهــا الهلال على غروب بزورقــه ، يريد لهــا خلاصا

وقال عبد العزيز القرطبي أيضاً :

إني أرى شمس الأصيل عليلة ترتادُ من نحو المغارب مغربا
مالتْ لتحجبَ شخصها فكأنها مدّت على الدنيا بساطاً مُذهبا

وقال ابن الرومي أيضاً :

وقد طفلت شمس الأصيل ونفضت على الجانب الغربي ورْساً مذَعذَعا[٥]
ولاحظت النوّار وهي مريضةٌ وقد وضعت خداً على الأرض أضرعا[٦]

---

(١) محتثة مسرعة : ترنو تديم النظر (٢) سناها ضوؤها والنجيع دم يضرب إلى السواد . (٣) رفارفها أطرافها وجوانبها . (٤) مطرقة مضروبة بالمطرقة ، وتطوست : تزينت (٥) طفلت الشمس احمرت عند الغروب ونفضت نثرت . والورس نبات أصفر والمذعذع المبدد والمفرق . (٦) أضرعا : ذليلا .

كما لحظت عُوّادَه عينُ مُدنف ... توجّع من أوصابه ما توجّعا[١]

وقال ابن أفلح من قصيدة طويلة في الموضوع نفسه :

والشمس خافضة الجناحِ مُسِفّةٌ ... في الغرب تنساب انسيابَ الأرقط[٢]
أو كالعروس بدت فأسدِلَ دونها ... جَنبات سِتر كالجِساد مُخطّط[٣]
وأتى الظلامُ على الضياء كما أتى ... أجلٌ على أمل ، فلم يتأبطِ

وقال أيضاً شاعر العراق الكبير الأستاذ معروف الرصافي :

نزلت تجر إلى الغروب ذيولاً ... صفراء تشبه عاشقاً متبولا[٤]
تهتز بين يد المغيبِ كأنها ... صبٌّ تململَ في الفراش عليلا
ضحكت مَشارقها بوجهك بكرة ... وبكت مغاربها الدماء أصيلا
وغدت بأقصى الأفق مثل عرارة ... عطِشَت فأبدت صُفرة وذبولا[٥]
غرُبت فأبقت كالشواظ عقيبها ... شفقاً بحاشية السماء طويلا[٦]
شفَقٌ يروع القلب شاحبُ لونه ... كالسيف ضمّخ بالدّما مسلولا
رقت أعاليهِ وأسفَله الذي ... في الأفق أشبع عُصفُراً محلولا

وقال ابن المعتز يصف الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلتهُ حمولة من عنبر

غيره : وكأن الهلال نصف سِوار ... والثريّا كفٌّ تشير إليه

غيره : فخٌّ بوَسطِ السماء مُلقى ... ينتظر الصيْدَ للنجوم

غيره : انظر إلى حُسن هلالٍ بدا ... يهتك من أنواره الحِندِسا[٧]
كمنجل قد صيغَ من فضة ... يحصدُ من دهر الدجى نرجسا

(١) الأوصاب الأمراض . (٢) مسفة من أسف الطائر إذا دنا من الارض في طيرانه وحية رقطاء من الرقطة وهي سواد يشوبه بياض أو عكسه .
(٣) الجساد الزعفران . (٤) ذاهب العقل .
(٥) العرار نبت طيب الريح . (٦) الشواظ اللهب لا دخان فيه .
(٧) يهتك يمزق و«من» في كلمة «من أنواره» بمعنى الباء، والحندس: الظلمة.

غيره : يتلو الثريّا كفاغرٍ شرهٍ يفتحُ فاه لأكل عُنقودِ [1]
غيره : في ليلةٍ أكل المحاق هلالها حتى تبدّى مثل وقف العاج [2]
غيره : قلت لما هوت لمغربها الشمسُ ولاح الهلال للنظارِ
أقرض الشرق ضده الغرب دينا راً فأعطاه الرهن نصف سوار

وقال ابن طَباطِبا :
وكأنّ الهلال لما تبدّى شطرَ طوق المرآة ذي التذهيب
أو كقوس قد أحنيت أو كنؤْيٍ أو كنونٍ في مُهرق مكتوبِ [3]

وقال أبو عاصم البصري في الهلال والثريا والزهرة :
رأيت الهلال وقد حلّقتْ نجوم الثريا لكي تَلحَقهْ
فشبّهته وهو في إثْرِها وبينهما الزهرة المشرقه
بقوس لرام : رمى طائراً فأرسل في إثْرِهِ بُندقه

وقال في اقتران الثريا بالهلال :
فإذا ما تقارَنا قلت طوقٌ من لُجَيْنٍ قد عُلّقت فيه دُرّه

وقال الطغرائي :
فكأنه وكأنها في جَنْبه عُنقودةٌ في زورق من عَسْجَد

وقال أبو الفضل الميكالي :
كأكرة من فضةٍ مَجلوّة أوفى عليها صولجان من ذهبْ
غيره : وكأن الهلالَ تحت الثريا ملكٌ فوق رأسه إكليل [4]
غيره : كأنما النجم قرط صيغ من ورِق معلق من هلال الأفق في أُذن [5]

(١) فاغر : فاتح فاه .
(٢) المحاق ، مثلثة الميم : آخر الشهر والوقف سوار من عاج .
(٣) النؤي الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، المهرق : الصحيفة (معرب) .
(٤) التاج . (٥) الورق : بكسر الراء الفضة .

وقال شرف الدين الحسين :

كأن الهلال نزيل السماء   وقد قارن الزُّهرة النيِّرة
سوارٌ لحسناء من عَسْجَدٍ   على قُفلِهِ وُضعتْ جوهره

وقال البدر البشتكي في وصف الهلال والنجوم حوله :

ذُبالة شمع عوّج الريحُ ضوءها   فطار لها بالقرْب بعضُ شرار [1]

وقال علي بن محمد الكاتب :

بدا مُسْتَدقّ الجانبين كأنه   على الأفق الغربي مِخلبُ طائر
ولاح لمسرَى ليلتين كأنما   تفرّق منه الغيم عن إثر حافر

غيره : وشمّرَ عنه الغيمُ ذيلا كأنما   تكشّفَ منه عن جناح مُحلّق [2]

وقال : البدر كالملك الأعلى وأنجُمه   جنودُه ، ومباني قصره الفَلَك

ولابن المعتز :

وكأن البدر لما   لاح من تحت الثريّا
ملكٌ أقبل في التا   ج يُفَدّى ويُحيّا

وله في البدر مع الشمس :

حتى رأيت الشمس تت   لو البدر في أُفق السما
فكأنها وكأنه   قدَحان من خمر وما

غيره : والبدر في أُفق السماء كدرهم   ملقى على ديباجةٍ زرقاء

وللسلامي :

والبدر في أُفق السما   كروضة فيها غدير

وللشريف العقيلي :

والبدر في كبد السماء كوردة   بيضاء تضحك في رياض بنفسجِ

---

(١) الذبالة : الفتيلة .   (٢) حلّق الطائر : ارتفع في طيرانه .

غيره : وقد برز البدر المنيرُ ووجهه كجامٍ لسُجين فيه آثار عنبر[١]

وقال سهل بن المرزبان :

شبهتُ بدرَ سمائها لما دنتْ منه الثريا في قميصٍ سندسي
ملكاً مهيباً قاعداً في روضة حيّاه بعض الزائرين بنرجس

وقال الوأواء الدمشقي يصف البدر طالعاً من خلال السحاب :

والبدر أول ما بدا مُتلثماً يُبدي الضياء لنا بخدٍّ مُسفر[٢]
فكأنما هو خوذة من فضة قد رُكبت في هامةٍ من عنبر[٣]

وقال الشريف الرضي يصف السماء والأرض والليل والبرق :

سمائي مُذهبّةٌ بالبروق وأرضي مُفضضةٌ بالحبابِ
وروْضي مطارفهُ غضّةٌ تطرّز أطرافها بالذهابِ
وليل ترى الفجرَ في عِطفهِ كما شاب بعض جناح الغرابِ
يغارُ الظلامُ على شمسهِ إلى أن يُواريها بالحجابِ
وتصقلُ أنجُمَه العاصفاتُ إذا صدِئتْ من عمود السحاب

وقال البحتري يصف الغيث :

ذاتُ ارتجازٍ بحنين الرّعدِ مجرورة الذيل صدُوق الوَعدِ[٤]
مَسفوحة الدمع لغير وجْدِ لها نسيمٌ كنسيم الوَرْدِ
ورنّةٌ مثل زئير الأسْدِ ولمعُ برق كسيوفِ الهندِ
جاءت بها ريح الصَّبا من نجد فانتثرت مثلُ انتثار العِقدِ
فراحتِ الأرضُ بعيشٍ رغدِ مِنْ وشي أنوار الرُّبى في بُردِ

---

(١) الجام إناء من فضة . (٢) مضيء : مشرق .
(٣) الخوذة المغفر « زرد ينسج على قدر الرأس » والهامة الرأس .
(٤) من ارتجز الرعد إذا دمدم .

كأنما غدْرانها في الوهدِ   يلعبن منْ حبابها بالنرْد(١)

ومن قصيدة لصفيّ الدين الحلّي يصف فيها الربيع :

خلع الربيعُ على غصون البان   حُللا فواضلُها على الكثبان
ونمت فروع الدّوح حتى صافحت   كفلَ الكثيب ذوائبُ الأغصان
وتتوّجتْ هام الغصون وضرجتْ   خدّ الرياض شقائق النعمان
وتنوّعتْ بسُط الرياض فزهرُها   مُتباين الأشكال والألوان
منْ أبيض يَقِقٍ وأصفر فاقع   أو أزرق صافٍ وأحمر قان
والظلُّ يسرعُ في الخمائل خطوه   والغصْنُ يخطر خِطرة النشوان
وكأنما الأغصانُ سوق رواقص   قد قيّدت بسلاسل الريحان
والشمسَ تنظر من خلال فروعها   نحو الحدائق نِظرةُ الغيران
والأرض تعجبُ كيف يضحك والحيا   يبكي بدمع دائم الهملان
حتى إذا افترّتْ مباسمُ زهرها   وبكى السحاب بمدمع هتّان
طفح السرورُ عليّ حتى أنه   من عُظم ما قد سرّني أبكاني
فاصرف همومك بالربيع وفصله   إن الربيع هو الشبابُ الثاني

وله من قصيدة في وصف واد :

تعانقت الأغصان فيه فأسبلت   على الروض أستاراً من الورق الخضر
إذا ما حبال الشمس منها تخلصتْ   إلى روْضه ألقت شراكاً من التبر

ومن قول أبي الفتح كشاجم في وصف الجمر يعلوه الرماد :

كأنما الجمرُ والرمادُ وقد   كاد يواري من ناره النشُورا
وردٌ جنيٌّ القطاف أحمرُ قد   ذرّتْ عليهِ الأكفُّ كافورا

---

(١) النرد لعبة تعرف عند العامة بلعبة (الطاولة) .

ومن قصيدة لأبي الفرج عبد الواحد الببغا في وصف جيش :

قاد الجيادَ إلى الجيادِ عوابساً شُعْثاً ولولا بأسهُ لم تنقدِ ١
في جحفلٍ كالسيل أو كالليل أو كالقطر صافحَ موجَ بحرٍ مُزبدِ
ردَّ الظلام على الضحى فاسترْجع الـــإظلام من ليل العجاج الأربدِ
وكأنما نقشتْ حوافرُ خيله للناظرين أهلةً في جَلمَدِ
وكأن طرفَ الشمس مطروف وقد جُعل الغبار له مكان الإثمدِ

وله من قصيدة في وصف روضة :

مداهنُ يحملْن طل النّدى ٢ فهاتيك تبرٌ وهذي عقيقْ
تُنظِّمُ أوْراقها دُرّها وتنثر منها التي لا تطيقْ
يميلُ النسيم بأغصانهـا فبعضٌ نشاوى وبعضٌ مُفيقْ
ويومٍ ستـــارته غيمه وقد طرّزت رفرفيْها البُرُوقْ
جعلنـا البخور دخانا له ومن شررِ الرّاح فيه حريقْ
تظلُّ به الشمسُ محجوبةً كـأن اصطباحك فيه غبوقْ
على شجراتٍ رافعاتِ الذيو لِ لمـاء الجداول منها شهيقْ

ومن قصيدة للحسن بن علي بن وكيع في وصف روض :

أسفر عن بهجته الرّوْض الأغرْ وابتسم الدوْحُ لنا عن الزهرْ
أبْدى لنا فصلُ الربيع منظراً بمثله تفتنُ ألبـابُ البشرْ
وشياً ولكن حاكه صانعهُ لا لابتذال اللبس لكنْ للنظرْ
عاينه طرْفُ السماء فانثنى عشْقاً له يبكي بأجفان المطرْ
فالأرضُ في زيّ عروس فوْقها من أدمُع القطر نثارٌ من دُررْ

(١) الأشعث : الأسود .

(٢) الطل : المطر الضعيف .

وشيٌ طواه في الثرى صوانه حتى إذا ملَّ من الطيِّ انتشر[1]

وله من قصيدة في وصف الربيع :

انظر إلى زهر الربيع وما جلت فيه عليك طرائفُ الأنوارِ
أبدَتْ لنا الأمطار فيه بدائعاً شهدَت بحكمة مُنزل الأمطارِ
ما شئتَ للأزهار في صحرائه من درهمٍ بهجٍ ومن دينار
وجواهرٌ لو لا تغير حسنها جلَّتْ عن الاثمان والاخطار[2]

وله أيضاً في وصف الربيع :

ألستَ ترى وشي الربيع المنمنما وما رصع الربعيُّ فيه ونظَّما[3]
فقد حكت الارضُ السماء بنورها فلم أدر في التشبيه أيها السما
فخضرتها كالجو في حُسن لونه وأنوارُها تحكي لعينيكَ أنجما
فمن نرجس لما رأى حسن نقشه تداخلهُ عجبٌ به فتبسما
وأبدى على الورد الجني تطاولا فأظهرَ غيظ الورد في خدّه دما
وزهر شقيق نازعَ الوردَ فضلهُ فزاد عليه الوردُ فضلاً وقدّما
وظلّ لفرط الحزن يلطمُ خدّه فأظهر فيه اللطمُ جمراً مضرما
ومن سوسن لما رأى الصبغ كله على كل أنوار الرياض تقسما
تجلببَ من زُرق اليواقيت حلة فأغرب في الملبوس منه وأحكما[4]
وأنوار منثور تخالفَ شكلها فصار بها شكل الربيع متمما
جواهر لو قد طال فينا بقاؤها رأيت بها كل الملوك مختما

وللقاضي محمد بن النعمان في وصف الهلال :

انظر إلى حسن ذا الهلال وقد بدا لستٍّ مضينَ من عمرُه

(١) الصوان الوعاء الذي يصان فيه الشيء . (٢) جمع خطر ، وهو المثل والعديل في العلو. (٣) الربعي نسبة إلى الربيع والمراد به هنا المطر في الربيع. (٤) أغرب : أتى بشيء غريب .

وقد أطافت به كواكبه حُسناً فبينته لمعتبره
مثل زِناد قد صيغ من ذهب يقدحُ ناراً وهنّ من شرره[1]
ثمّ تولى يريد مغربه في شفقِ الشمس وهي في أثرِه[2]
فخلته غائصاً ببحر دم يقذفُ بالرائعاتِ من دُرره
فلم أزل [الليلَ] أراجعه لحظي وأبكي للوقتِ من قصرِه
حتى تبدّى الصباحُ منتبهاً قبلَ انتباه المخمور من سكره

ومن قصيدة لسليمان بن حسان الصيبي في وصف شمعة :

ومجدولة مثل صدر القنا ة تعرت وباطنها مُكتسي
لها مُقلة هي رَوحٌ لها وتاجٌ على الرأس كالبرنس
إذا رَنقت لنعاس عرا وقطت من الرأس لم تنعس[3]
إن غازلتها الصبا حركت لساناً من الذهب الأملس
وتنتج في وقت تلقيحها ضياء يجلى دُجى الحندس
فنحنُ منَ النور في أسعُد وتلك من النار في أنحس
توَقدُها نزهة العيــو ن ورؤيتها منية الأنفس
تكيد الظلام كما كادَها فتفنى وتفنيه في مجلس
فيا حامل العود حث الغنا ويا حامل الكاس لا تحبس
ويا صالح[4] انعَم وعش سالماً على الدهر في عزك الأقعس[5]

ولأبي الحسن العقيلي في وصف الصبح والبرق :

الصبحُ ينشرُ فوق مِسكِ الليلِ كافور الضياء
والبرقُ يذهبُ ما تفضضه الغيومُ من السماء

---

(١) الزناد جمع زند ما تقدح به النار (٢) الشفق: الحمرة في الافق من الغروب إلى قريب من العتمة . (٣) كدرت . (٤) اسم الممدوح . (٥) الثابت المنيع .

فاشرب على ديباج نبْتٍ قد أحاط بشرب ماء [١]
فالعيشُ في زمن الرّبيعِ رقيقُ حاشيةِ الرّداء

وقال أيضاً في نارنجة :
ونارنجة بين الرّياض نظرْتُها على غصن رطبٍ كقامةِ أغيدِ [٢]
إذا ميّلتها الريحُ مالت كأكْرةٍ بدتْ ذهباً في صولجانِ زُمرُّدِ

لابن أبي عمرو الطراري في وصف نار :
نارٌ جرت في غابةٍ ترمي العُلى بالشهبِ
كأنها جيشُ وَغىً فرسانُه مِن ذهبِ

ولعلي بن لؤلؤة الكاتب في الصبح والليل :
رُبّ صبحٍ كطلعة الوصل جلى جُنْح ليل كطلعة الهجرانِ
زار في حُلّةِ البُزاةِ فوَلّى الليـلُ عنه في حُلة الغربانِ

ولأبي العباس الكندي فى الندى على البحر :
كأن الندى في البحر بحران مائعٌ على مائعٍ هذا على ذاك مطبق
فهذا لُجَيْنٌ سابحٌ مُترقْرِقٌ وذاك لُجينٌ في السماء مُعلّقٌ [٣]
إذا أبصرته الشمسُ بعد احتجابها به ساعةً أبصرْتَه يتمزّقُ

وللسّري بن أحمد الكندي في وصف الفجر من قصيدة :
وركائبٍ يخرُجن من غلس الدُّجى مثل السّهام مَرَقْنَ منه مُروقا [٤]
والفجرُ مصقولُ الرداء كأنه جلبابُ خودٍ أشربتهُ خلوقا [٥]

(١) الشراب المورد (٢) النارنجة واحدة النارنج وهو شجرة ورقها أملس أبيض شديد الخضرة يحمل حملاً مدوراً في جوفه حماض كحماض الأترج وورقها أبيض في نهاية من طيب الرائحة (٣) مترقرق متلألىء (٤) خرجن ونفذن من الجانب الآخر (٥) الخود المرأة الحسنة الخلق الشابة ، والخلوق ضرب من الطيب مائع .

وله من أخرى في سحابة :

وبِكرٍ إذاجنَّبتها الجنوبُ حسبت العشار تؤُم العشار ١
ترى البرق يبسِمُ سِرّاً بها إذا انتحب الرعدُ فيها جهارا
يُعارضُها في الهواء النسيم فينثرُ في الأرض دُراً صغارا
فطوراً يشق جُيوب الحيا وطوراً يسُحُّ الدموع الغزارا

وله من أخرى :

غيوم تمسّك أُفق السما ء وبرقٌ يكتّبهُ بالذهب
وخضراءُ ينثرُ فيها الندى ٢ فريداً ندًى ٣ مالهُ ثُقَب
فأوراقها مثلُ نظم الحلى وأنهارُها مثلُ بيض القُضب
حللتُ بها مع ندامى سَلوا عن الجد واشتهروا باللعب
وأغنتهُمُ عن بديع السما ع بدائع ما ضمنته الكتب
وأحسنُ شيء ربيعُ الحيا أضيف إليه ربيعُ الأدب

ولأبي بكر الخالدي في وصف الجو وإدبار الليل وإقبال الفجر :

والجوُّ يسحب من عليل هوائهِ ثوْباً يجود بظلّه المترقرقِ
حتى رأينا الليل قوّس ظهره هرماً وأثّر فيه شيب المفرقِ
وكأن ضوءَ الفجر في باقي الدجى سيف حُلاه من اللجين المحرق

ولسعيد بن هاشم الخالدي في وصف المطر والصبح والليل والبرق :

أما ترى الطلّ كيف يلمعُ في عيون نَوْر تدعو إلى الطربِ
في كل عين للطل لُؤلؤةٌ كدمعةٍ في جفون منتحبِ
والصبحُ قدجرّدت صوارمُه والليلُ قد همَّ منه بالهرَبِ
والجوُّ في حُلةٍ ممَسّكة قد كتّبتها البروقُ بالذهَبِ

---

(١) البكر السحابة الغزيرة ، وجنبتها دفعتها والعشار النوق (٢) الندى الكلأ (٣) الندى ما سقط في آخر الليل والفريد الجوهر النفيس والدر .

وللمهلبي الوزير في الربيع :

الوردُ بين مضمّخٍ ومُضرّج والزهرُ بين مُكلل ومتوّج ¹
والثلجُ يهبط كالنثار فقم بنا نلتذ بابنــة كرْمــة لم تمــزج
طلع النهار ولاح نورُ شقائق وبدت سطورُ الورد تلو بنفسج
فكأنّ يومك في غلالة فضة والنبت من ذهب على فيرُوزج ²

وللقاضي التنوخي أبي القاسم عليّ في طول الليل والفجر :

وليلة مُشتاق كأن نجومها قد اغتصبتْ عينَ الكرى وهي نوّمُ
كأن عيون الساهرين لطولها إذا شخصت عين للأنجم الزهر أنجم
كأن سواد الليل والفجر ضاحكٌ يلوح ويخفى اسـودٌ يتبسم

وله ايضاً في وحشة الليل والنجوم والسما :

رُبّ ليل قطعتهُ كصدُودٍ وفراق ما كان فيه وداعُ
مُوحشٌ كالثقيل تقذى به العيـــنُ وتأبى حـديثه الأسماعُ
وكأن النجوم بين دُجاهُ سننٌ لاح بينهنّ ابتــداعُ
وكأن السماء خيمة وشيٍ وكأن الجوزاء فيهـا شراعُ

وله أيضاً في وصف رياض :

رياض حاكت لهنّ الثرّيا حُللاً كأن غزلهـا للرعود
نــثر الغيثُ دُرّ دمعٍ عليهـا فتحلتْ بمثل دُر العقودِ
أقحُوان معانقٌ لشقيق كثغور تعضُّ ورد الخـــدود
وعيونٌ من نرجس تتراءى كعيُون موصولة التسهيــد
وكأن الشقيق حـين تبدى ظلمة الصدغ في خدود الغيــد
وكأن الندى عليها دموعٌ في جفون مفجوعة بفقيد

(١ ضمخه بالطيب لطخه به حتى كاد يقطر . وضرجه صبغه بالحمرة .
(٢) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضاً. الفيروزج: حجر كريم.

وكتب محمد بن عبد الله السامي إلى صديق له يصف النارنج :

أتنشط للصبوح أبا علـيّ على حكم المنى ورضا الصديق
بنهـر للرياح عليـه دِرْعٌ تذهّبَ بالغروبِ وبالشروق
إذا اصفرتْ عليه الشمس صبتْ على أمواجـه مـاء الخلوقِ [1]
وجمر شب في الأغصان حتى أضاع المـاء في وهَج الحريق
فدهْم الخيل في ميْدان تِبر يُصاغ لهـا كراتٌ من عقيق

وكتب إليه في وصف نهر حوله أشجار الجلنار [2] :

ونهر تمرَحُ الأمواجُ فيه مراح الخيل في رَهج الغُبار [3]
إذا اصفرت عليه الشمس خلنا نميرَ الماء يُمزجُ بالعقار [4]
كأن الماء أرْضٌ مِن لُجين مغشّاة صفائح مِن نضـار
وأشجـار محمّلة كؤوساً تضاحك في احمرار واخضرار
وإذا أبصرْن في نهر سماء وهبن له نجوم الجلنـار

وله من قصيدة في وصف الرياض والبرق :

نسب الرياض إلى الغمام شريفُ ومحلهـا عنـد النسيم لطيفُ
فاشرب وثقّل وزن جامِك إنه يومٌ على قلب الزمان خفيف [5]
أو ماترى طُرر البروق توسطت أفقاً كأن المزنَ فيه شفوف [6]
اليومُ من خجل الشقيق مضرجٌ خجل ومن مرض النسيم ضعيف
والأرض طرْس والرياض سطوره والزهر شكل بينها وحُروف

ولأحمد صفي الدين بن صالح بن أبي الرجال يصف روضة صنعاء :

روْضة قد صبا لها السعد شوْقاً وصفا ليلها وطاب المقيـل

---

(١) الخلوق ضرب من الطيب مائع فيه صفرة لأن أعظم أجزائه من الزعفران.
(٢) الجلنار : زهر الرمان (٣) الرهج: ما أثير من الغبار (٤) الخمر (٥) الجام إناء من فضة (٦) الطرر : جمع طرة وهي علم الثوب ، والمزن : السحاب .

جَوُّها سَجْسَجٌ وفيها نسيم ... وكلُّ غُصن إلى لقاه يَميل
صح سكانها جميعاً من الداء ... وجسم النسيم فيها عَليل
إيه: يا ماءَ نهرِها العذبَ صلصِلْ ... حبّذا يا زُلالُ منك الصليل
إيه: يا وُرْقها المُرنَّة غَنّي ... فحياةُ النفوس منك الهديل
رَوض صنعاءَ فقت طبعاً ووصفاً ... فكثيرُ الثناءِ فيكَ قليل
نهرٌ دافقٌ وجوٌّ فتيقٌ ... زهَرٌ فائقٌ وظلٌّ ظليل
لستُ أنسى انتعاشَ شُحرور غصن ... طرباً والقضيبُ منهُ يميل
وعلى رأس دوحة خاطب الوُرْ ... ق ودمعُ الغصون طلاً يسيل
ولسانُ الرُّعود يهتفُ بالسُّحْبِ ... فكان الخفيف منها الثقيل
وفمُ السُّحب باسمٌ عن بُروق ... مُستطير شُعاعُها مُستطيلُ

ولابن سكرة الهاشمي في وصف روضة

أما ترى الرّوضة قد نوّرت ... وظاهر الرّوضةِ قد أعشبا
كأنما الأرضُ سماءٌ لنا ... نقطفُ منها كوكباً كوكبا

ومن وصف زهرية لابن الرّاجح الحلي:

نثرت عقود سمائها الأنداءُ ... بيدِ النسيم فللثرى إثراءُ
وبدت تباشير الرّبيع كأنما ... نشَرَت مطارف وشيها صنعاء [١]
والأرض قد زُهيت بحلْي نباتها ... والجو حُلّةُ سُحبه دكناء [٢]
والروض في نشوات سكرته وقد ... طافت عليه الدّيمة الوطفاء
وثنى الحيا عِطف الغدير فصفقت ... أطرافه وتغنّتِ الورقاء
فكأنَّ أعطاف الغُصونِ منابرٌ ... والوُرقُ في أوراقها خُطباءُ

(١) صنعاء: عاصمة بلاد اليمن.
(٢) الدكناء: الضارب لونها إلى السواد.

ومن وصف زهرية لبدر الدين الذهبي :

ترنحَ عطفُ البانِ في الحللِ الخضر وغنى بألحان على عوده القُمْرى[١]
وراقتْ أزاهيرُ الحدائق بالضحى نواظر أحداقٍ بنوّارها النضْرِ[٢]
وأشرق خد الوردِ يُبدي نضارهُ وأشرق جيدُ الغصن في لؤلؤ القطرِ
وبات سقيطُ الطل في كل روضة يُنبِّه في أرجائها ناعس الزّهْر
وما ذهبتْ شمس الأصيل عشية إلى الغربِ حتى أذهبت فضّة النهر
وغنّت قيانُ الطير في كلّ أيكة وقد راقَ كحل الطلّ في مقل الغُدر
أقامت لها دوح الأراك أرائكا وأرخت لها أوراق أستارها الخُضر
وأمسى أصيلُ اليوم مُلقى من الضنى على فرشِ الأزهار في آخر العُمر
بكته حماماتُ الأراكِ وشققت عليه الصَّبا أثواب روضاتها النضر
فكم من نحيبٍ للحمائم بالضحى عليه وللأنواء من دمعة تجري

ولعلي بن أحمد الجوهري من قصيدة في وصف الغيث :

زرّ الصباحُ علينا شملةَ السحبِ ومدّت الريح منها واهيَ الطُنُب[٣]
صكّ النسيمُ فراخَ الغيث فانزعجت ينفضْنَ أجنحةً من عنبر الزّغَبِ[٤]

ولأبي معمر بن أبي سعيد الإسماعيلي من قصيدة في وصف الثلج :

فرحْنا وقد بات السماءُ مع الثرى وغاب أديمُ الأرض عنّا فما يُرى
كأن غيُوم الجو صُوغُ فضة تواصوْا بردّ الحلي عمداً إلى الورى

ولأبي العلاء السروي في وصف روض :

مررنا على الروض الذي قد تبسّمَتْ ذراه وأوداجُ السّحائب تُسْفَكُ[٥]

---

(١) القمري ضرب من الحمام (٢) أصله بكسر العين وتسكينها للضرورة .
(٣) زر : بمعنى نفض والشملة كساء يشتمل به ، وزر شملة السحب كناية عن سقوط المطر (٤) الزغب صغار الشعر والريش (٥) الأوداج جمع ودج وهو عرق في العنق .

فلم نرَ شيئاً كان أحسن مَنظراً من الرَّوض يجري دَمعه وهو يَضحَك

وله أيضاً في وصف روض من قصيدة :

أما ترى قُضُبَ الأشجار قد لبِسَت أنوارهــا تتثنّى بين جُـلاسِ
منظومَة كسُموط الدرّ لابسةً حُسناً يُبيح دم المنقودِ للحاسي [1]
وغرّدَتْ خُطباء الطيّر ساجعة على منـابر من وَردٍ ومن آس

وقال أبو الفتح كشاجِم يصف مِرآةً أهداها :

أُختَ شمس الضحاء في الحُسن والإشـراق غيّر الإعشاءَ للأجفانِ
ذات طوق مُشَرَّف من لجـينٍ أُجريَت فيه صُفرةُ العِقيانِ
فهو كالهالة المحيطة بالبـدْ رِ لِسِتٍّ مَضَيْنَ بعـد ثمانِ
وعلى ظهرها فَوارسُ تلهو ببُزاةٍ تَغدو على غِزْلانِ
عدلت عكسَها الشُّعاعَ فَمَبْدا هُ إليها ورَجْعُـهُ سِيّانِ
وهي شمسٌ وإنْ مِثالك يوماً لاحَ فيها فإنهـا شمسانِ
أينما قابلت مِثالك من أرْ ض ففيهـا تَقابَل النيّرانِ
فألقها منك بالذي ما رآه خائفٌ فانثنى بغير أمانِ

ولأبي القاسم الدّينَوَري في وصف جَواد :

ومُطَهّم [2] طرف العِنان [3] مَعوَّد خَوْض المهالـكِ كلّ يوم برازِ
وإذا تَوغَّلَ في ذُرى مُتَمَنّعٍ صَعب بعيد المهـدِ بالمجتازِ
تركت سَنابكه بصُمّ صُخورِهِ أثراً يلوحُ كنقش صَدْرِ البازي

وله في وصف سفرجل وتفاح ورمان :

بَعَثْتُ إليكَ ضُحى المهْرَجا ن بمعشوقـة العَرْفِ والمنظَرِ

---

(١) من حسا الشراب إذا شربه شيئاً بعد شيء وفي مهلة .

(٢) شبه حسنه وأظهر بهاءه والموصوف محذوف أي الفرس .

(٣) طرف العنان بمعنى خفيف ، والمطهم البارع الجمال والتام من كل شيء .

مُعَطرةٍ صانها في الحِجـا ل مطارفُ مِن سَندُس أخضرِ
وبيضـاء رائقةٍ غضّـةٍ مُنقطـةِ الوَجهِ بالعُصْفُرِ
وحُقّ عقيـقٍ مَـلاهُ الهجيـ رُ من الجوهَرِ الرّائقِ الاحمر
وأقداحِ تبرٍ حشتْ قَعرها يـد الشمس بالمسكِ والعنبَر
فكنْ ذا قُبول لهـا إنهـا هداهـا مُقِلٌ إلى مكثرِ

وله في صفة النارنج :

أما ترى شجَرَ النّارِنْج طالعة نجومُها في غُصون لدْنة ميلِ ١
كأنها بين أوراق تحفُّ بهـا زُهرُ المصابيح في خُضرِ القناديل

ولأبي الفضل الميكالي في صفة الشقائق :

تَصوغ لنا كفُّ الربيع حدائقاً كعقْدِ عقيق بَين سِمْط لآلي
وفيهنّ أنوارُ الشقائق قد حكتْ خدودَ عذارى نقطتْ بغَوالي

وله في اقتران الزهرة والهلال :

أما ترى الزهرة قد لاحت لنا تحت هلالٍ لونهُ يحكى اللهَبْ
ككُرةٍ من فِضة مجلوّة أوفى عليها صَولجانٌ من ذهَب ٢

وله في الفجر :

أهْلاً بِفجر قد نَضا ثوب الدُّجى كالسيف جُرّد من سوادِ قِرابِ

وقال في صفة الندى الساقط على غصون الشجر :

نثر السّحابُ على الغُصون دُرارةً أهدَت لها نوراً يروقُ ونورا
شابتْ ذوائبُها فعُدنَ كأنها أجْفانُ عينٍ تحْمِلُ الكافورا

وقال في الجليد :

رُبّ جَنين من جَنيٍّ نمير مُهتِكُ الاستار والضمير

---

(١) جمع أميل . (٢) أوفى : أشرف .

سللْته مِن رَحِم الغـديرِ ... كأنهُ صحائفُ البـلورِ
لو أُكرٌ تجَسَّمَت من نور ... أو قِطعٌ من خالص الكافور
لو بَقيتْ سلكا على الدهور ... لعطلت قَلائِـدَ النُّحور
وأخجلتْ جَواهر البحور ... وسُمّيَتْ ضَرائر الثغور (١)
يا حُسنَهُ في زمن الحدور ... إذ فيضه مِثل حَشا المهجور
يُهْدي إلى الأكبادِ والصُّدور ... رُوحاً تُحاكي نفثةَ المصدور (٢)

ولأبي طاهر بن الهاشمي في روضة :

ورَوضةٍ زارها النَّدى فغدَت ... لها من الزهر أنجُمٌ زهـر
تَنشر فيها أيدي الربيع لنا ... ثوْباً من الوَشْي حاكه القَطْر
كأنما شُق من شَقائقهـا ... على رباها مَطارفٌ خضر
ثم تبَدَّت كأنهـا حـدَقٌ ... أجفانها من دِمائها حُمـر

ولأبي نصر سهل بن المرزبان في البدر :

كم ليـلة أحييتهـا ومؤانسي ... طرف الحديث وطيب حث الأكؤس
شبَهتُ بدرَ سمائها لمّا دَنت ... منه الثُرَيا في قميص سُندسي
مَلِكاً مَهيباً قاعِداً في رَوْضةٍ ... حَيّاهُ بعضُ الزائرين بنرجس

وللحسن بن أحمد البروجردي في حوض لبعض الرؤساء :

حَوضٌ يَجودُ بجوهرٍ مُتسلسلٍ ... ساد الجواهرَ كلّهـا بنفاسَتِه
لا زال عَذباً جارياً ببقاءِ من ... هو مثله في طَبعِه وسلاسَتِه

ولابن أنيس في حسام عمرو بن معديكرب :

أخضرُ المتْنِ بَين حَدَّيهِ نورٌ ... مِن فِرِندٍ تَحارُ فيه العيون

(١) جمع ضرة وهي إحدى زوجتي الرجل وأراد بضرائر الثغور الأسنان
(٢) النفثة ما ينفثه المصدور من فيه .

أُوقِدت فيه للصَّواعِق نارٌ ثمَّ ساطت بهِ الزُّعاف المنون[١]
فإذا ما سَلَلتَه بَهَرَ الشَّمْـسَ ضياء فلم تكد تَستبين
فكأنَّ الفِرِندَ والرَّونقَ الجا ري في صَفْحَتَيه ماءٌ معين[٢]
وكأنَّ المنون نيطت إليه فهو من كل جانبيهِ منون
ما يُبالي مَن انتَضاهُ لحربٍ أَشِمالٌ سطَت به أم يَمين

وقال ابن عبد ربه في الرُّمح والحسام :

بكلِّ رُدَينيٍّ كأنَّ سِنانَهُ شِهابٌ بَدا في ظُلمةِ الليل ساطعُ
تَقاصَرَتِ الآجالُ في طولِ مَتنِه وعادَت به الآمالُ وهي فَجائع
وساءَت ظنونُ الحربِ في حُسنِ ظنِّه فهُنَّ لحبَّات القلوب قوارع
وذي شطَبٍ تقضي المنايا لحكمه وليس لما تقضي المنيَّةُ دافع[٣]

وقال أيضاً في الحرب :

ومُعتركٍ تَهزُّ به المنايا ذُكورَ الهند في أيدي ذُكورِ
لوامعُ يُبصرُ الأعمى سَناها ويعمى دونها طَرْفُ البصيرِ
يُحَوِّمُ حولها عِقبانُ موتٍ تَخطَّفتِ القلوبَ من الصُّدورِ

ومن قوله في الحرب وأبطالها :

سيوفٌ يَقيلُ الموتُ تحت ظُباتِها لها في الكُلى وبين الكلى شِربُ
إذا اصطَفَّتِ الرّاياتُ حُمراً مُتونها ذَوائبها تَهفو فتَهفو لها القلب[٤]
ولم تَنطِقِ الأبطال إلا بفعلها فألسنُها عُجمٌ وأفعالُها عُربُ
إذا ما التقوا في مَأزِق وتَعانَقوا فلُقياهُم طَعنٌ وتعنيفهم ضَربُ

---

(١) هطلت. (٢) جار (٣) جمع شطب وهي طريقة السيف أي الواحدة من الخطوط التي في نصله (٤) هفت الراية خفقت وهفا القلب ذهب في أثر الشيء.

ولابن قلاقس في وصف السحاب والبرق والغيث :

سرى وجَبينُ الجو بالطلّ يَرشحُ   وثوبُ الفوادي بالبروق موشحُ
وفي طيّ أبراد النسيم خميلةٌ   بأعطافها نورُ المنى يتفتّحُ ١
يُضاحك في مثنى المعاطف عارض   مدامعه في وجنة الروْض تسفحُ
وتوري به كفُّ الصّبا زند بارق   شرارتهُ في فحمةِ الليل تقدحُ

ولأبي القاسم بن بابك في الصاحب يصف له إضرام النار في بعض غياض :

وليلةٍ بتُّ أشكو الهمّ أولها   وعُدت آخرها أستنجدُ الطربا
في غيضة من غياض الحزن دانية   مدّ الظلامُ على أوراقها طنبا
حتى إذا النارُ طاشتْ في ذوائبها   عاد الزُّمردُ من عيدانها ذهبا
مرقتُ منها وثغر الصُّبح مُبتسمٌ   إلى أغر يرَى المذْخور ما وهبا
يا أغزَر الناس أنواء ومحتلبا   وأشرف الناس أعراقاً ومُنتسبا
أصبت ذا ثقة بالوفر منك وإن   قال العوَاذلُ ظنٌ ربما كذَبا
فحُسن ظنّي بك استوفى مدى أملي   وحُسن رأيك لي لم يُبْق لي أرَبا

ومن قصيدة لأبي سعيد الرُّستُمي يصف بها داراً بناها الصاحب بن عباد :

وسامية الأعلام تلحظ دونها   سنا النجم في آفاقها مُتضائلاَ
نسختَ بها إيوانَ كِسرى بن هرمُز   فأصبح في أرض المدائن عاطلا
تُناطحُ قرْن الشمس من شرفاتها   صفوف ظباءٍ فوْقهنّ مواثلا
وأغنى الورَى عن منزلٍ من بنت له   معاليه فوْق الشعْريين منازِلاَ
ولاغرْوأن يستحدثَ الليثُ بالثرَى   عريناً وأن يستطرقَ البحرَ ساحلا
ولم تعتمدْ داراً سوى حوْمة الوغى   ولا خدماً إلا القنا والقنابلاَ

---

(١) الخميلة : الشجر الكثير الملتف والموضع الكثير الشجر .

ووالله ما أرضى لك الدهرَ خادماً ولا البدرَ مُنتاباً ولا البحرَ نائلا
ولا الفلكَ الدوّاردار اً ولا الورى عبيداً ولا زُهر النجوم قبائلا
فإن الذي يبنيـــه مُلكَ خالدٌ وسائر ما يبني الأنامُ إلى بلى

ولشاعر القطرين خليل مطران بك في وصف روض :

أيها الرّوض كنْ لقلبي سلاماً وملاذاً من الشقـاء الملازِمْ
زهَرٌ ذابـلٌ كأني أراهُ ثملا من أنفاسه في الكمائمْ
وغديرٌ صافٍ أقام سياجاً حولهُ باسقٌ من الدوح قائم
تتناغى بيض من الطير فيه سابحاتٌ وتحتها النّجم عائم
كيفما سرن فالطريق عقودٌ نُظمت من محاجر ومباسم
حبّذا البدرُ مُؤنساً يتجلى كحبيب بعد التغيُّب قادم
حبذا رسمُه البرايا كـأبهى ما ترى العينُ في صحيفةِ راسم
حبذا الماء والمصابيحُ فيه كبنـــان يزينهـــا بخواتم
جنـــةٌ بانت المكارهُ عنهـا وهي بكر من الأذى والمحارم
إنما أهلها طيُورٌ حســان إن دعاها الصباحُ قامت تُنادم
وضياء يمـــوجُ في الماءحتى لتراهُ كـأنه مُتــــلاطم
ومرُوج مدبّجات كوَشيٍ أتقنت صنعهُ حسان المعاصم
وغصـــون تهزُّها نسمات كمُهودٍ تهزهُنّ رَوائم [١]

وقال البحتري واصفاً صناعة الكتابة والإنشاء :

تفننت في الكتــابة حتى عطل الناس فنّ عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شَــكّ امرؤ أنه نظام فريد

(١) جمع الرائمة وهي الوالدة العاطفة على ولدها الملازمة له.

وبديع كأنه الزهر الضـــا حك في رونق الربيع الجديد
مُشرق في جوانب السمع ما يخـــلقـهُ عـوْدُ على المستعيـد
ماأعيرت منه بطون القراطيس وما حملت ظهور البريد
حججٌ تخرس الألد بألفـــاظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصّلتها القوافي هجّنت شعرَ جرول ولبيد
حُزنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنّبنَ ظلمـة التعقيـد
وركبن اللفظَ الغريبَ فأدركـــنَ به غايةَ المراد البعيـد
كالعذارى غدون في الحُلل البيض إذا رُحْن في الخطوط السُّود

ووصف أعرابي تزوج امرأتين ما وقع له منهما فقال :

تزوجت اثنتين لفرط جهلي بما يشقى به زوجُ اثنتين
فقلت أصيرُ بينهمـا خروفاً أنعمُ بين أكرم نعجتَين
فصرت كنعجة تُضحي وتمسي تداولُ بين أخبثِ ذئبتين
رضا هذي يهيّج سخط هذي فما أعري من احدى السخطتين
وألقى في المعيشة كل ضر كذاك الضر بين الضّرتينِ
لهذي ليـــلة ولتلك أخرى عتـــاب دائم في الليلتين
فإن أحببتَ أن تبقى كريماً من الخيرات مملوء اليدين
فعِش عزباً فإن لم تستطِعه فضرباً في عراض الجحفلينِ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائي في وصف الربيع :

يا صاحبيَّ تقصّيـــا نظريكما تريا وجُوه الأرض كيف تُصَـوّر
ترَيا نهـاراً مشمساً قد زانه زهر الرُّبا فكأنمـا هو مُقمرُ
دنيـا معاش للورَى حتى إذا حل الربيع فإنمـا هي منظرُ

أضحتْ تصوغ بطونها لظهورها   نوراً تكاد له القلوب تنوّر
من كلّ زاهرة ترقرقُ بالندى   فكأنها عينٌ لديك تحدرُ

وقال ابو عُبادة البحتري في قصر المعتز بالله :

لمّا كملت رَوية وعزيمةً   أعملت رأيكَ في ابتناء الكامل
وغدوت من بين الملوك مُوفقاً   منه لأيمن حلة ومنازلِ
ذُعر الحمام وقد ترنم فوقه   من منظر خطر المزلة هائل
رُفعتْ لمخترق الرّياح سموكهُ   وزهت عجائب حسنه المتخايل
وكأن حيطان الزجاج بجوه   لججٌ يمُجنَ على جنوب ساحل
وكأن تفويف الرخام إذا التقى   تأليفه بالمنظر المتقابل
حبُك الغمام رصفن بين منمّر   ومسيّر ومقارب ومُشاكلِ
لبّست بالذهب الصقيل سقوفه   نوراً يضيء على الظلام الحافل
فترى العيون يجلن في ذي رونق   متلهب العالي انيق السافل
وكأنما نشرتْ على بستانهِ   سيراء وشي اليمنة المتواصل
اغنته دجلة إذ تلاحق فيضها عن   صوب منسحب الرّباب الهاطل
وتنفست فيه الصبا فتعطفت   اشجارُه من حوّل وحوامل

وقال المتنبي في جواده :

ويوم كليل المدنفين كمنته   اراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني إلى اذني اغر كأنه   من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة من جسمه في إهابه   تجيءُ على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء أدني عنانه   فيطغى وأرخيه مراراً فيلعب
واصرعُ ايّ الوحش قفيته به   وانزل عنه مثلهُ حين اركب

وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين مَن لا يجربُ
إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسنُ عنك مغيّبُ

وقال صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ في الربيع :

وَرَدَ الرَّبيع فمرحباً بوُرودِه وبنورِ بهجته ونور ورُودِه
وبحسن منظره وطيبِ نسيمه وأنيق مبسمه ووشي برودِه
فصلٌ إذا افتخر الزمانُ فإنه إنسانُ مقلته وبيتُ قصيده
يغني المزاج عن العلاج نسيمه باللطفِ عند هبوبه وركوده
يا حبذا أزهارُه وثمارُه ونباتُ ناجمِه وحبُّ حصيده
والغصنُ قد كسيَ الغلائل بعدما أخذتْ يدا (كانونَ) في تجريده
نال الصبا بعد المشيب وقد جرى ماءُ الشبيبة في مَنابت عودِه
الوردُ في أعلى الغصون كأنه ملكٌ تحفُّ به سراة جنوده
وانظر لنرجسهِ الجنيّ كأنهُ طرفٌ تنبه بعد طول هجودِه
وانظر إلى المنثور في منظومه متنوعاً بفصوله وعقوده

وقال أيضاً في حديقة :

وأطلق الطيرُ فيها سَجع منطقه ما بين مختلف منه ومتفق
والظلُّ يسرقُ بين الدوح خطوته وللمياه دبيبٌ غيرُ مسترق
وقد بدا الوردُ مفتراً مباسمه والنرجس الغض فيها شاخص الحدق
والسحب تبكي وثغر البرق مبتسم والطير تسجع من تيه ومن أنق
فالطير في طرب والسحب في حرب والماء في هرَب والغصن في قلق

وقال المرحوم أحمد شوقي بك في الطبيعة :

تلك الطبيعة قف بنا يا ساري حتى أريكَ بديع صنع الباري

فالأرضُ حولك والسماء اهتزتا لِرَوائع الآيات والآثار
ولقد تمرُّ على الغدير تخاله والنبت مرآةٌ زهت بإطار
حلو التسلسل موْجه وخريرُه كأنامل مرت على أوتار
ينساب في مخضلة مبتلةٍ منسوجة من سندسٍ ونضار
وترى السماء ضحى وفي جنح الدجى منشقة عن أنهر وبحار
في كل ناحية سلكتَ ومذهب جبلان من صخر وماء جاري

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف النيل :

نظرت للنيل فاهتزت جوانبه وفاض بالخير في سهل ووديان
يجري على قدر في كل منحدرٍ لم يجفُ أرضاً ولم يعمد لطغيان
كأنه ورجالُ الريّ تحرسه مملّك سار في جند وأعوان
قد كان يشكو ضياعاً مذ جرى طلقاً حتى أقمتَ له خزان أسوان

وقال أيضاً عن لسان حال اللغة العربية واصفاً لها :

رجعتُ لنفسي فاتهمتُ حصاتي وناديتُ قومي فاحتسبتُ حياتي
رموْني بعقم في الشباب وليتني عقمتُ فلم أجزعْ لقول عداتي
ولدْت ، ولما لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفاء وأدْت بناتي
وسعتُ كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي بـه وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدرُّ كامنٌ فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وإن عز الدواء أساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة وكم عز أقوام بعز لُغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تَفَنُّناً فياليتكم تأتون بالكلماتِ
أيُطْربكم من جانب الغرب ناعبٌ يُنادي بوأدي في ربيع حياتي
ولو تَزْجُرونَ الطير يوماً علمتمُ بما تحته من عَثْرةٍ وشتات
سقى الله في بطنِ الجزيرة أعظماً يعزُّ عليها أن تلينَ قناتي
حفظن ودادي في البلى وحَفِظْتَهُ لهُنَّ بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهْلَ الغرب والشرق مُطرق حياءً بتلك الأعظم النَّخِرات
أرى كل يوم بالجرائد مَزلقاً منَ القبرِ يُدْنيني بغير أناة
وأسمع للكُتّاب في مصر ضَجّةً فأعلمُ أن الصائحينَ نُعاتي
أيَهْجُرُني قَوْمي عفا الله عنهمُ إلى لُغَةٍ لم تتصل بِرُواتي
سَرَتْ لوثةُ الأعجام فيها كما سَرى لُعابُ الأفاعي في مَسيلِ فرات
فَجاءَت كثوب ضمَّ سبعين رُقعة مُشكلَةَ الألْوانِ ، مختلفات
إلى مَعْشر الكُتّاب والجمع حافل بَسَطتُ رجائي بعد بسط شَكاتي
فإمّا حياةٌ تبعث المَيْتَ في البلى وتُنْبِتُ في تلك الرُّمُوس رُفاتي
وإمّا مَماتٌ لا قيامَةَ بعده مَماتٌ لعمري لم يُقَسْ بمماتِ

وقال شاعر العراق الكبير معروف الرصافي واصفاً قطار البخار :

وقاطرة ترْمي الفضا بدُخانها وتملأُ صدْرَ الأرض في سَيرها رُعبا
تَمَشَّتْ بنا ليلاً تجُرُّ وَراءَها قِطاراً كصف الدَّوْح تسحبهُ سحبا
فَطوْراً كمصف الريح تجري شديدة وطوراً رُخاءً كالنسيم إذا هَبّا
تَساوى لديها السَّهل والصعب في السُّرى فما استسهلت سهلا ولا استصعبت صعبا
تَدُكُّ متُون الحزن دكا وإنها لتَنْهَبُ سهل الأرض في سيرها نهبا
يمرُّ بها العالي فتعلو تَسَلُّقاً ويعترض الوادي فتجتازه وَثْبا
طوت بالمسير الأرْضَ كأنها تسابق قرص الشمس أن تدرك الغربا
هو العلمُ يعلو بالحياة سَعادةً ويجعلها كالعلم محمودةَ العُقْبى

وقال المرحوم محمود باشا سامي البارودي يصف حرب سكان جزيرة كريد :

أخذَ الكَرى بمعاقد الأجفان وهَفا السُّرى بأعنَّةِ الفرسان
والليلُ منشور الذوائبِ ضاربٌ فوقَ المتالع والرُّبى بجران
لا تستبينُ العينُ في ظلمائه إلا اشتعال أسنَّة المران
تسري به ما بَينَ لجَّة فتنة تسمو غواربها على الطوفان
في كل مَرْبَأة وكلّ ثَنيَّة تَهْدار سامِرَة وعَزْف قيان
تستنُّ عادية ويَصْهَلّ أجْرَدٌ وتصيح أجْراسٌ ويهتفُ عان
قومٌ أبى الشيطانُ إلا خُسْرهم فتسللوا عن طاعة السلطان
مَلؤوا الفضاءَ فما يَبينُ لناظر غيرُ التماع البيض والخِرْصان
فالبدرُ أكدرُ والسماء مريضة والبحرُ أشكلُ، والرماحُ دَوان
والخيلُ واقفة على أرْطانها لِطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمونَ بألسن النيران
حتى إذاما الصبحُ أسفرَ وارتمت عَيْنايَ بَينَ رُبى وبَينَ مَجان
فإن الجبالُ أسنّة ، وإذا الوها دُ أعنَّة ، والماء أحمَرُ قان
فتوجّسَتْ قَرْطالركاب ولم تكن لِتَهاب، فامْتَنَعتْ على الارْسان
فزَعَتْ فرَجَّعَت الحنينَ وإنما تحنانها شجَنٌ منَ الاشجان
ذكرَت مواردها بمصر وأين منْ ماءٍ بمصرَ منازلُ الرومان

وقال السيد عبدالله النديم المتوفى سنة ١٣١٤ هـ يصف قطاراً بخارياً :

نظَر الحكيمُ صفاتِه فتحيرا شكلا كطود بالبُخار مُسَيَّرا
دَوْماً يحنُّ إلى ديار أصوله بحديد قلب باللهيب تَسَعّرا
ويظلُّ يبكي والدموع تزيده وجداً فيجري في الفضاء تَسترا

تلقاه حالَ السير أفعى تَلتَوي أو فارس الهيجا أثارَ العِثيرا
أو أكرةٌ أرسلتها ترْمي بهــا غرضاً فجلت أن ترى حال السّرى
أو سبعَ غاب قد أحسَّ بصائدٍ في غابه فعَدا عليــه وزمجَرا
فكأنه المديون جاء غريمــه فانسلَّ منه وغابَ عن تلك القرى
أو أنه شهبٌ هوَت من أفقهــا أو قبـــة المنطاد تنبذُ بالعرا
لا عجبَ للنيران إذ يمشي بها فمن اللظى تجري الورى كي تحشرا

وقال أحمد بك شوقي يصف الجسر الواصل بين ضفتي البسفور في الآستانة :

أميرَ المؤمنين رأيت جسراً أمرُّ على الصراط ولا عليه !
له خشب يجوع السوس فيه وتمضي الفأر لا تأوي إليه
ولا يتكلف المنشار فيـــه سوى مرِّ الفطيم بساعديه
ويبلى نعلُ من يمشي عليه وقبلَ النعل يدمي أخمصيه
وكم قد جاهدَ الحيوان فيه وخلفَ في الهزيمة حافريه
وأسمجُ منه في عيني جُباة تراهم وسطــهُ وبجانبيـــه
إذا لاقيتَ واحدَهم تَصَدّى كعفريت يُشيرُ براحتَيْه
ويمشي (الصَّدر) فيه كل يوم بموكبه السنيِّ وحارسَيـه
ولكن لا يمر عليه إلا كما مرّت يــداه بعارضَيْه
ومن عجب هو الجسر المعلّي على (البَسْفور) يجمع شاطِئيه
يُفيد حكومة السلطان مالاً ويُعطيها الغنى من مَعْدنَيْه
يجود العاملونَ عليه ، هذا بعشْرتِه ، وذاك بِعشرتَيْه
وغاية أمره أنا سمعنـــا لسان الحال يُنشدنا لديـــه
(أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه)
(وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيءٌ في يديه)

وقال المأمون المتوفى سنة ٣٨٣ هـ يصف المقراض :

وصاحبين اتفقـا على الهوى واعتنقا
وأقسما بالودّ والإ خلاص أن لا يفترقا
ضمّهما أزهرُ كالنجـم بهِ قد وثقـا
لم يَشكُ خَصْرَيهما مذ ضمّناهُ قلقا
من تحته عينان منذ انفتحاما انطبقا
وفوقه نابانِ ما حلاّ فما مذ خلقا
يفرّقان بين كـلّ ما عليه اتفقا
فأيّ شيء لاقيا هُ ألقياهُ فِرَقا

وقال أبو بكر الأرّجاني المتوفى سنة ٥٢٤ هـ يصف الشمعة :

نمّت بأسرار ليلٍ كان يخفيها وأطلعت قلبها للناس من فيها
غريقة في دموع وهي تحرقها أنفاسها بدوامٍ من تلظّيها
تنفّست نفس المهجور إذ ذكرت عهد الخليط فبات الوجد يذكيها
يخشى عليها الرّدى مهما ألمّ بها نسيم ريحٍ إذا وافى يحيّيها
قد أثمرت وردةً حمراءَ طالعة تجني على الكفّ إن أهويت تجنيها[1]
وردٌ تشاكه الأيدي إذا قطفت وما على غصنها شوكٌ يوفّيها
صفرٌ غلائلها ، حمرٌ عمائمها ، سودٌ ذوائبها ، بيضٌ لياليها

وصف قصر المنصور :

قال ابن حمديس[2] الصقلي في صفة قصر شيده المنصور بن أعلى الناس

---

(١) تجني الاولى بمعنى تعتدي والثانية بمعنى تقطف . (٢) هو عبد الجبار ابن أبي بكر توفي سنة ٥٢٧ هـ وهو من ابرع الشعراء إن لم يكن ابرعهم في وصف البرك والأنهار والقصور والتماثيل فلقد كان إذا وصف شيئاً من ذلك جعله كالحسناء وخيالها في المرآة .

ببجاية [١] ، وجعل فيه بركة عليها أشجار من ذهب وفضة ، وعلى حافاتها أُسود تَقذِف بالماء :

أعمر بقصر المُلكِ ناديك الذي ... أضحى بمجدك بيتُه معمورا
قصرٌ لو انك قد كحلتَ بنوره ... أعمى لعاد من الضِّياءِ بصيرا
واشتقَّ مِن معنى الجنانِ نسيمهُ ... فيكادُ يُحدِثُ بالعظامِ نُشورا
أذكرْتنا الفرْدوسَ حين أريْتنا ... غُرفاً رفعتَ بناءَها وقصورا
فلكٌ من الأفلاكِ ، إلا أنه ... حقَرَ البدور فأطلع « المنصورا »
وإذا الولائدُ فتّحت أبوابه ... جعلت تُرَحب بالعُفاة صريرا [٢]
عضّت على حلقاتهنّ ضَراغِم ... فَغَرَتْ بها أفواهها تكبيرا [٣]
فكأنها لَبَدَت لِتهصر عندها ... من لم يكن بدخولها مأمورا [٤]
ومُصفحِ الأبوابِ تِبراً نظَروا ... بالنقش فوق شكوله تنظيرا [٥]
خَلعت عليه غلائل مَوشيّةً ... شمسٌ تردّ الطرف عنه حسيرا [٦]
وإذا نظرتَ إلى غرائب سقفهِ ... أبصرتَ رَوْضاً في السماء نضيرا
وعجبتَ من أطيار عَسْجَدهِ ... حامت لِتبني في ذُراه وُكورا
وضعت به صُنّاعُها أقلامَها ... فأرَتكَ كلّ طَريدة تصويرا [٧]
وكأنما للشمس فيه لِقةٌ ... مشَقوا بها التزويق والتشجيرا [٨]

---

(١) بجاية كحكاية : بلد بالمغرب (٢) العفاة : جمع عاف وهو طالب الحاجة ، والصرير صوت الباب . (٣) فغر فاه : فتحه (٤) لبد كنصر : أقام والهصر : الدفع (٥) نظّر م ل ، والشكول : جمع شكل (٦) الغلائل : جمع غلالة وهي شبه القميص يلبس على الجسد والمراد هنا الطلاء ، والموشية المنقوشة . (٧) الطريدة : ما يطارده الصياد ويتبعه . (٨) اللقة ما يكون في الدواة لاصقاً بصوفه أو نحوها والفعل منها كباع ، ومشق الكتابة مد حروفها ، والتشجير : أن تشكل على هيئة الشجر .

وضراغمٍ سكنت عَرينَ رياسة ... تركت خريرَ الماء فيه زئيرا
فكأنما غشّى النضّار جسومها ... وأذاب في أفواهها البلّورا
أُسدٌ كأن سكونها متحرّك ... في النفس لو وَجَدَت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... أقْعَت على أدبارها لتثورا [١]
وتخالها والشمس تجلو لونها ... ناراً، وألسُنُها اللّواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فَعُدْن غديرا
وكأنما نسجَ النسيم لمائه ... دِرعاً، فقدّر سردَها تقديرا [٢]
وبديعةِ الثمرات تعبره نحوها ... عيناي بحرَ عجائب مسحورا [٣]
شجريّةٍ، ذهبية، نزَعتْ إلى ... سِحْر يؤثر في النهى تأثيرا [٤]
قد سُرّجَت أغصانها فكأنها ... قبضَت بهنّ من الفضاء طيورا [٥]
وكأنما تأبى لوُقّعِ طيرها ... أن تستقلّ بنهضها وتطيرا [٦]
من كلّ واقعة ترى مِنقارها ... ماءً كسلسال اللجين نميرا [٧]
خُرْسٌ تُعدمن الفصاح فإن شدَت ... جعلت تغرد بالمياه صفيرا [٨]
وكأنما في كل غصن فضة ... لانت فأُرسل خيطها مجرورا
وتريك في الصّهريج موقع قطرها ... فوق الزّبرْجَد لُؤلؤاً منثورا
ضحكت محاسنه إليك كأنما ... جُعلت لها زهر النجوم ثغورا

---

(١) أقعى الكلب والسبع: جلس على مؤخره ناصباً يديه. (٢) السرد: نسج الدرع وتقديره: أن تكون ثقوب الدرع مساميرها. (٣) المسجور: المملوء. (٤) نزع إليه أشبهه، يقال: فلان ينزع إلى ابيه أو ينزع أباه أي يشبهه. (٥) سرجه: حسنه وزينه. (٦) الوقع كركع: جمع واقع. (٧) السلسلة: اتصال الشيء بالشيء، ومن ذلك الماء السلسال أي السهل الجريان واللجين الفضة، والنمير: الناجع من الماء. (٨) شدا: ترنم.

وصف زلزال صقلية

قال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف زلزال صقلية في سنة ١٩٠٩ م :

نبئاني إن كنتما تعلمان ماذَهى الكون أيها الفرقدان ١
غضِبَ الله أم تمرّدت الأر ض فأنحت على بَني الإنسان ٢
ليس هذا « سبحان رَبي » ولا ذا ك ولكنْ طبيعةُ الأكوان
غليانٌ في الأرض نفّس عنه ثورانٌ في البحر والبركانِ ٣
رب أينَ المفر والبحرُ والبـرُّ على الكيد للورى عاملان
كنت أخشى البحارَ والموت فيها راصدٌ غفلة من الرُبانِ ٤
سابح تحتنا مُطل علينا حائم حولنا مُناء مُداني ٥
فإذا الأرض والبحار سَواءٌ في خَلاق ، كلاهما غادران ٦
ما (لمسّينَ) عوجلت في صباها ودعاها من الردى داعيان ٧
ومحَت تلكم المحاسن منها حين تمّت آياتُها آيتانِ
خُسِفَت ثم أُغرقتْ ثم بادت قضيَ الأمر كله في ثواني
وأتى أمرُها فأضحت كأن لم تَكُ بالأمس زينةَ البلدان
ليتَها أمهلت فتَقضي حقوقاً من وداع اللّداتِ والجيرانِ ٨
لحة يَستمد الصّديقان فيها باجتماع ويلتقي العاشقان

(١) الفرقدان نجمان في السماء لايغربان وهذا هو السر في قول المعري :

فاسأل الفرقدين عمن أحسا من قبيل وآنسا من بلاد

وفي أثره جرى شاعرنا . (٢) أنحى عليه ضربا : أقبل . (٣) نفس عنه : فرج .

(٤) الربان كرمان : رئيس الملاحين . (٥) مناء مدان مباعد مقارب .

(٦) الخلاق : الحظ او الدين وأنما يكون ذلك في الخير ولكن الشاعر توسع في استعمال الكلمة (٧) مسين: مدينة من مدن صقلية خربها هذا الزلزال وتعرف عند العرب بمسيني ومن شعر ابن قلاقس « يامن بمسيني على مسيني » وداعيا الردى: الإغريق والإحراق . (٨) اللدات : جمع لدة وهو الترب أي النظير في السن .

بغت الأرض والجبال عليها وطغى البحر أيما طغيان
تلك تغلي حقداً عليها فتنشــق انشقاقاً من كثرة الغليان
فتجيب الجبال رجماً وقذفا بشَواظ من مارجٍ ودخان ١
وتسوق البحار رَدّاً عليها جيش موج نائي الجناحين داني
فهنا الموت أسود اللون جون وهنا الموت أحمر اللون قاني ٢
جنَّدَ الماء والثرى لهلاك الـخلق ثمّ ، استعان بالنيران
ودعا السُّحب عاتياً فأمدّتـه بجيش من الصواعق ثاني ٣
فاستحال النجاء واستحكم اليأ س وخارت عزائم الشجعان
وشفى الموتُ غلة من نفوس لا تباليه في مجـال الطعان
أين (رجيُو) وأين ما كان فيها من مغانٍ مأهولة وغواني ٤
عوجلت مثل أختها ودهاها ما دهاها من ذلك الثوران
رُبَّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأر ض ينادي أمي ! أبي ! أدركاني ٥
وفتاةٍ هيفاء تُشوى على الجمـر تُعاني من حرّه ما تُعاني
وأبٍ ذاهلٍ إلى النار يمشي مُسْتَميتـاً تمتد منه اليدان
باحثاً عن بناته وبنيـه مُسْرعَ الخطو مُستطير الجنان ٦
تأكل النار منه لا هو ناج من لظاها ولا اللظى عنه واني ٧
غصّت الأرض ، أُتخِم البحر مما طواه من هذه الأبدان ٨
وشكا الحوت للنسور شكاة ردّدتها النسور للحيتان

---

(١) الشواظ : لهب لا دخان فيه ، والمارج : النار بلا دخان (٢) الجون الأسود فهو تأكيد والقاني « بالهمزة » : الشديدة الحمرة وقد يسهل (٣) العاني المجاوز للحد (٤) رجيو : مدينة بإيطاليا أمام مسيني وتعرف عند العرب بربو ، والمغاني جمع مغنى وهو المقام (٥) ساخ في الأرض : دخل فيها وغاب . (٦) المستطير : المتفرق المشتت (٧) اللظى اللهب ، وونى تراخى . (٨) غص كفرح اعترض في حلقه شيء ، والمراد هنا امتلأ وأتخمه الطعام ، أحدث له تخمة وأصل تائه واو من الوخامة .

أسرفا في الجسوم نقراً ونَهشاً ثم باتا مِنْ كِظة يشكوان ١
لا رعى الله ساكن القِمَم الشـمّ ولا حاط ساكن القيعان ٢
قدْ أغارا على أكفٍ بَراها بارىء الكائنات للاتقان
كيف لم يَرْحما أناملها الغُـرّ ولم يَرْفقا بتلك البنان
لهْفَ نفسي وألف لهفٍ عليها من أكُفٍ كانت صناع الزّمان ٣
مُولعاتٍ بصيد كل جميل ناصباتٍ حبائـل الألوان
حافراتٍ في الصّخر او ناقشات شائـدات روائـع البُنيان
مُنطقعات لسان كل جماد مُفحِماتٍ سواجع الأفنان ٤
مُلهِمات من دِقة الصنع ما لا يلهم الشعر من دقيق المعاني
من تماثيلَ كالنجوم الدّراري يُهْدَم الدهر وهي في عُنفوان
عجبٌ صُنعُها وأعجب منـه صمْتُهـا ، تلك قدرة الرحمن
إيه (مَسّين) آنسي اليوم نُبْبا يَ فقد أوْحَشَتْ بذاك المكان
آيسي الدرة التي كانت الحلـيـة في تاج دولة الرومان
غالها قبلك الزمان اغتيالا وهي تلهو في غبطة وأمان
جاءها الأمر والسراة عكوف في الملاهي على غِناء القيان ٥
بين صبٍ مُـدَّله وطروب وخليع في اللهو مُرْخى العنان ٦
فانطوَوْا كانطواء أهلك بالأمـس وزالت بشاشة العمران
أنت (مسينُ) لم تزولي كما زا لت ولكن أمسيت رهن الأوان

(١) الكظة : ما يعتري الإنسان من امتلاء الطعام (٢) القيعان : جمع قاع وهو الأرض السهلة المطمئنة انفرجت عنها الجبال ومراد الشاعر بها البحر أو قراره.

(٣) يا لهفي على كذا : عبارة يتحسر بها على فائت وضمير عليها للأكف ومن أكف بيان للضمير وصناع : حاذقة ماهرة في العمل اليدوي . (٤) سواجع الافنان : الحمام يسجع على الغصون . (٥) السراة : الأشراف، والقيان جمع قينة، وهي الجارية المغنية

(٦) الخليع : المستهتر بالشراب واللهو .

إن إيطاليا بنوها بُناة ... فاطمئني ما دام في الحيّ بانِ
فسلام عليكِ يوم توليـ ... ـت بما فيك من مغان حسان
وسلام عليكِ يوم تعوديـ ... ـن كما كنتِ جنة الطليان

وقال أبو الطيب المتنبي يصف الأسد :

وردٌ إذا ورد البُحيرة شارباً ... ورد الفرات زئيره والنيّلا [١]
متخضّبٌ بدم الفوارس لابسٌ ... في غِيله من لبدتيه مغيلا [٢]
ما قوبلت عيناه إلا ظنّتا ... تحت الدجى نار الفريق حُلولا [٣]
في وحدة الرُّهبان إلا أنه ... لا يعرف التحريم والتحليلا
يطأ الثرى مترفقاً من تيهه ... فكأنه آس يجُسّ عليلا [٤]
ويرد عَفرته إلى يافوخه ... حتى تصير لرأسه إكليلا [٥]
وتظنّه مما يزمجر نفسه ... عنها بشدة غيظه مشغولا
قصرت مخافته الخطى فكأنما ... ركب الكمي جواده مشكولا [٦]

وصف شِعب بوّان [٧] :

قال أبو العباس المبرد : كنت مع الحسن بن رجاء بفارس ، فخرجت إلى شعب بوان ، فنظرت إلى ترْبة كأنها الكافور ، ورياض كأنها الثوب الموشى وماء يتحدّر كأنه سلاسل الفضة ، على حصباء كأنها حصى الدرّ ، فجعلت أطوف في جنباتها ، فإذا في بعض جُدرانها مكتوب :

---

(١) الورد : الجريء والبحيرة : يريد بها بحيرة طبرية .

(٢) الغيل : الاجمة والشجر الكثير الملتف . ولبدتا الأسد ، ما على كتفيه من الشعر . (٣) الفريق الجماعة ، وحلولا : حال من الفريق .

(٤) الآسي : الطبيب . (٥) عفرة الأسد : الشعر المتجمع على قفاه .

(٦) الكمي : الشجاع المستتر في سلاحه والمشكول : المقيد .

(٧) هو جنان الدنيا الأربع عند أدباء العرب

إذا أشرف المكروب من رأس تلعة ... على شعب بوّان أفاق من الكرب [1]
وألهاه مرجٌ كالحرير لطافة ... ومطرد يجري من البارد العذب
وطيب رياضٍ في بلاد مَريعة ... وأغصان أشجار جناها على قرب [2]

وفي شعبِ بوّان يقول المتنبي :

مغاني الشعب طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيع من الزمان [3]
طبتْ فرساننا والخيل حتى ... خشيتُ وإن كرُمْن من الحران [4]
عدوْنا تنفض الأغصانُ فيها ... على أعرافها مثل الجمان
فسرتُ وقد حجبْن الشمس عني ... وجئْن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تفرُّ من البنان [5]
وأمواهٌ تصلُّ بها حصاها ... صليل الحليِ في أيدي الغواني
إذا غنى الحمامُ الوُرقُ فيها ... أجابته أغانيُّ القيان
يقول بشعب بوّانٍ حصاني ... أعنْ هذا يسار إلى الطعانِ !

وقال حافظ بك إبراهيم يصف طيارة :

يجري بسابحةٍ تشُقُّ سبيلها شقّ الإزار
وتكاد تقدح في الأثير فيستحيل إلى شرار [6]
مثل الشهاب انقض في آثار عفريت وطار

(١) التلعة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها والمراد الأول
(٢) المريعة الخصيبة ،والميم أصلية يقال: مرعت الأرض وأمرعت (٣)المغاني جمع مغني اسم مكان من غنى أي أقام . (٤) طباه وأطباه : استهواه واستماله .
(٥) يقول:إن اشتباك الأغصان يجعل ما يسقط من ضوء الشمس دوائر صغيرة كالدنانير إلا أنها لا يمكن تناولها .
(٦) الشرار والشرر : ما يتطاير من النار واحدتها شرارة وشررة .

فإذا علت فكدَعوة الـمُضطرَ تخترق الستار
وإذا هوَت فكما هوَت أنثى العُقاب على الهزار ١

وصف السيف-للمرحوم البارودي :

أمضي به الهولُ مِقداماً ويصحبُني ماضي الغِرار إذا ما استفحل الوهَل ٢
يمرُّ بالهام مرّ البرق في عَجل وقت الضراب ولم يعلق به بلَل
ترى الرجال وقوفاً بعد فتكته بهم يُظنّون أحياءً وقد قُتِلوا
كأنه شعلة في الكف قائمةٌ تهفو بها الريح أحياناً وتعتدل
لولا الدماء التي يُسقى بها نهلا لكاد من شدة اللألاء يشتعل
يَفلّ ما بقيت في الكف قبضته كل الحديدِ ولم يثأر به فَلَل

وصف الأسطول للأيادي

وقال علي بن محمد الأيادي يصف أسطول الفاطمي المتوفى سنة ٤٣٣ هـ :

أعجِب بأسطول الإمام محمد وبحسنه وزمانه المستغرب
لبِست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مشْرِفة على ما قابلت إشراف صدر الأجدل المتنصب ٣
دهماء قد لبِست ثياب تصنع تسبي العقول على ثياب ترَهب ٤
من كل أبيض في الهواء مُنشر منها وأسحم في الخليج مُغيّب
كمُلاءة في البر يقطع سيرها في البحر أنفاح الرياح الشذّبِ ٥

(١) العقاب : طائر جارح وجمعه عقبان ، ولفظه مؤنث . والأنثى منه تسمى اللقوة والذكر يسمى الغرن وهو ضعيف وإنما القوة للأنثى، ومن هذا يتبين السر في قول شاعرنا أنثى العقاب. (٢ الغرار: حد السيف ونحوه، الوهل الفزع

(٣) الأجدل : الصقر جمعه أجادل ، والمتنصب : المنتصب . (٤) يشير إلى لون السفن الذي هو السواد الشبيه بلباس الرهبان وإلى لون أشرعتها الذي هو البياض .

(٥) الشذب : جمع شاذب وهو الذي يطرد ويبعد أي الرياح التي تقذف على وجه الأرض وهذا كناية عن الشدة .

محفوفة بمجادِف مصفوفة | في الجانبين دُوين صُلْب صُلُب [١]
كقوادم النسر المرفرف عريت | من كاسيات رياشه المتهدب [٢]
وتحثها أيدي الرجال إذا ونت | بصعدٍ منه بعيد مصوب [٣]
خرقاء تذهب إن يدٌ لم تهدها | في كل أوْبٍ للرياح ومذهَب [٤]
جوفاء تحمل كوكباً في جوفها | يوم الرهان وتستقل بِموكب
ولها جَناحٌ يستعار يُطيرُها | طوع الرياح وراحة المتطرب
يعلو بها حدب العباب مطارةً | في كل لُجٍّ زاخر مُغلولب [٥]
تسمو بأجرد في الهواء مُتوج | عريان منسوج الذؤابة شوْذَب [٦]
يتركب الملاح منه ذبابة | لو رام يركبها القطا لم يركب [٧]
فكأنما رام استراقة مقعد | للسمع إلا أنه لم يشهب
وكأنما جن ابن داود هُمُ | ركبوا جوانبها بأعنف مركب
سجروا جواحم نارها فتقاذفوا | منها بألسن مارج ملتهب [٨]
من كل مسجور الحريق إذا انبرى من | سجنه انصلت انصلات الكوكب [٩]
عريان يقدمُه الدخان كأنه | صبح يكر على الظلام الغيهَب
ولواحق مثل الأهلة جنحٌ | لحق المطالب فائتات المهرب [١٠]
يذهبنَ فيما بينهن لطافة | ويجئن فعل الطائر المتغلب

(١) الصلب كسكر مبالغة في الصلب (٢) الرياش : اللباس الفاخر والمراد هنا ريش الطائر ، والمتهدب . ذو الأهداب ونسر اهدب ، أي سابغ الريش (٣) صعد الشيء : رفعه ، وصوبه : خفضه . (٤) الأوب الجهة والطريق والمتطرب الحادي الذي يتغنى في سوق الإبل والمراد هنا الربان . (٥) حدب الماء تراكبه في جريه والمغلولب : الكثير ، يقال : اغلولب القوم إذا اكثروا (٦) الشوذب ، الطويل والبيت يصف فيه القرية كهدية وهي العود الطويل الذي يشبه القلع (٧) ذبابة السيف ، طرف حده والمراد طرف القرية (٨) سجر : ملأ ، الجاحم : الجمر الشديد الاشتعال . (٩) انصلت : مضى وسبق . (١٠) اللحق جمع لاحق ، كخدم ، جمع خادم .

كنضانض الحيّات رُحْنَ لواعبا ... حتى يقعن ببرك مـاء الميزَب
شرجوا جوانبها مجادف أنعبت ... شادي الرّياح لها ولمّا تتعَب [1]
تنصاع من كثَب كما نفر القطا ... طوراً وتجتمع اجتماع الرّبرب [2]
والبحر يجمع بينها فكأنه ... ليلٌ يقرّب عقرباً من عقرب
وعلى جوانبها أسود خلافة ... تختال في عُدد السلاح المرهَب
فكأنما البحر استعار بزيّهم ... ثوب الجمال من الربيع المذهَب

وصف القطار الحديدي

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يصف القطار الحديدي من قصيدة :

صفحة البرق أومضت في الغمام ... أم شهاب يشق جَوْف الظلام
أم سليلُ البخار طار إلى القصد ... فأعيا سوابق الأوهام [3]
مَرّ كاللمح لم تكد تقف العين ... على ظل جِرْمه المترامي [4]
أو كشَرْخ الشباب لم يدر كاسيه ... تولى في يقظة أو منام [5]
لا يبالي السُّرى إذا اعتكر الليل ... وخانت مواقع الأقدام [6]
يقطع البِيدَ والفيافي وحيداً ... لم تضعضه وحشة الإظلام [7]
ليس يَثنيه ما يُذيبُ دماغ الضب ... يومَ الهجير بين الموامي [8]
لا ولا يَعتريه ما يخرس النا ... بح في الزمهرير بين الخيام
هائماً كالظليم أزعجه الصيدُ ... وراعته طائشات السهام [9]

---

(١) شرج العيبة ، أدخل بعض عراها في بعض المراد هنا شبكوا في جوانبها المجاذيف والشادي : السائق (٢) انصاع القوم ، ذهبوا سراعا أو انفتلوا والربرب ، القطيع من بقر الوحش (٣) السليل : الولد (٤) المترامي : المتتابع (٥) شرخ الشباب أوله (٦) السرى سير عامة الليل واعتكر الليل ، اشتد سواده (٧) البيد : جمع بيداء وهي الصحراء والفيافي جمع فيفاء وهي المفازة لا ماء فيها (٨) الموامي جمع موماة وهي الفلاة ، والضب حيوان من أخص صفاته احتمال الحر الشديد (٩) الظليم : ذكر النعام .

فهو يشتد في النجاء ويهوي حيث ترمى بجانبيه المرامي ١
يا حديداً ينساب فوق حديد كانسياب الرّقطاء فوق الرُغام ٢
قد مسحت البلاد شرقاً وغرباً بذراعي مُشمّر مقـدام

* * *

وقال حفني بك ناصف المتوفى عام ١٩١٩ يهنىء ويصف حريق عابدين:

وافي يُقبّل راحتيك العامُ وحنت إليك رءوسها الأيام
والدهر أقسم لا يجيءُ بغيرما ترضى وكم بَرّت له اقسام
فاقبل معاذير الزمان فطالما قبِلت معاذير المنيب كرام
واغفر جنايته على القصر الذي لم تحوِ مصرُ نظيرَهُ والشام
شبّت به النيرانُ فارتاعت لها مُهج الأنام وهالها استعظام
لولا الدخان أحاط حول لهيبها ما شكّ فردٌ أنها أعلام
أمرٌ به نفذ القضاءُ وليس في أحكامه نقضٌ ولا إبرام
بل حكمةٌ شاء الإله بيانها لعباده ليذيعَ الاستسلام
حتى يروا أن الملوك وإن علوا قدراً تسيرُ عليهم الأحكام
فإذا اقتدى بهم الرعية أحسنوا صبراً وخفّت عنهم الآلام
عينُ السماء لعابدين تطلّعت حسداً عليك والعيون سِهام
وتشوّق القصرُ الكريم لأهله والشوق في قلب المحب ضرام
لم يستطع صبراً على طول النوى والصبر في شرع الغرام حرام
فتصعدت زفرَاته وتأجّجت جمراته والصب كيف يُلام
لولا الدموع من المطافىء ما انقضى منه الهيام ولم يُبل إوامُ
خرقت طباق الجو إلا إنها برد قصارى أمرها وسلام

(١) النجاء : السرعة (٢) الرقطاء : الحية والرغـام : التراب .

وقال حافظ إبراهيم يصف خزان أسوان ويمدح الحضرة الخديوية :

أخزان مصرَ أنت أم هرما مصر ... أجلُّ وأسمى في المكانة والقدر
أعدت لنا مجد القرون التي مضت ... وجددت من عهد الفراعنة الغُرّ
وهيهات َما أهرامُ مصر وإن سمتْ ... بأرفعَ رأساً من حضيضك لو تدري
وليس َسنانُ بن المشلل خالداً ... بأنبهَ من (َعبّاس) عصرك في الذكر
وما قطراتُ السحب كالدر تنهمي ... بألطف وقعاً من عقيقك إذ يجري
وما أنت خزان المياهِ وطميها ... وإبليزها بل خازن الدر والتبْر
تدفقت بالخيرات من كل جانب ... وجمّعتَ أقطارَ المنافع في ُقطْر
فقل للغوادي والروائح تنجلي ... وفي غير مصر فلتَسُحّ على قفر
إذاما جرت أمواهُها دون حاجة ... وفاضت جرت منك المياه على قدر
ضَربتَ على آثار مصر ولم يكن ... ليطمِسها لولا جلالك من أثر
ألا فلتَسُد مصر على كل بقعةٍ ... به وليطاول قطْرُها مسقط القَطر
بناءٌ من الدهر استعار بقاءَه ... وأقسم ألا ُيستردّ من الدهر

الباب الخامس

في الاستعطاف والمعاتبات والاعتذارات

قال النابغة الذبياني الشاعر الجاهلي المتوفى سنة ٩٠٤ م من قصيدة طويلة :

يا دارَ ميّة بالعَلياءِ فالسندِ ... أقْوَت وطال عليها سالف الأبد[١]
وقفتُ فيها أصيلا لا أسائلهـا ... َعيّت ْ جواباً وما بالربْع من أحدِ[٢]

(١) العلياء المكان العالي ، والسند محركة ما قابلك من الجبل وعلا من السفح ، وأقوت الدار خلت من السكان ، والأبد : الزمان الماضي (٢) أصل أصيلاً صيلانا بالنون تصغير أصلان جمع أصيل وهو العشي أبدلت بالنون لاما ، وعيت أي حصرت وعجزت عن الجواب .

إلا الأواريَّ لأياً ما ابينهـــا   والنؤْيَ كالحوض بالمظلومة الجلد ١
رُدّت عليه أقاصيه ولبّدَهُ   ضَرْبُ الوليد بالمسْحاة في الثأدِ ٢
خلت سبيلَ أتيٍّ كان يحبسُه   ورفّعته إلى السجفين فالنضد ٣
أضحت خلاءً وأضحى أهلها احتملوا   أخنى عليها الذي أخنى على لبدِ ٤

وقال أميّة بن أبي الصلت الجاهلي يَعتِب على ابن له ٥ :

غَذَوتُك مولوداً وعُلتكَ يافعاً   تُعل بمـا أُدني إليك وتنهلُ ٦
إذا ليلة نابتكَ بالشكْو لم أبِتْ   لشكواكَ إلا ساهراً أتملمــل ٧
كأني أنا المطروقُ دونكَ بالذي   طرقْتَ به دوني ، وعَيْني تهمل ٨
تخافُ الرّدى نفسي عليك ، وإنها   لتَعلم أن الموت حَتْمٌ مؤجّل ٩
فلما بلغتَ السنّ والغـايةَ التي   إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمّل

(١) الأواري منصوب على أنه مستثنى منقطع وهو جمع أري بمعنى الآخية والآخية كآنية الوتد الذي في رأسه حلقة يدق في الحائط أو يدفن في الأرض لتربط فيه الدواب ولأياً ما أرى بعد جهد، ما أنظرها، والنؤي الحفير حول الخباء او الخيمة يمنع السيل والمظلومة الأرض التي حفر فيها حوض وليست بموضع حفر الحوض فيها من أنها ليست بموضعه ظلم لها ، والجلد الأرض الصلبة المستوية المتن . (٢) ردت بالبناء للمجهول ولبده ألصق بعضه ببعض، والمسحاة هي آلة يجرف بها الطين والثأد الطين (٣) الأتي الجدول الذي تؤتيـه إلى أرضك والسيل الغريب ويحبسه الضمير فيه يعود إلى النؤي . والسجفين الستارتان اللتان تعلقان على الباب، أو النافذة . (٤) احتملوا ذهبوا من دار إلى اخرى وأخنى عليها اهلكها يقال إن لقمان بن عاد عاش بمقدار عمر سبعة نسور كلما هلك نسر خلفه نسر آخر وكان آخرها لبد على ورن صرد . (٥) هو عبدالله بن ابي ربيعة الثقفي نشأ بالطائف جاهلياً يلتمس المعارف الدينية متعبداً راجياً ان يكون نبي العرب، حتى إذا كانت بعثة النبي ﷺ اكبرها عليه . وناضله معاعدائه حتى مات بالطائف سنة ٩ﻫ (٦) غذاه قام بمؤنته وعاله : كفله وقام به ، واليافع : من قارب العشرين ، تعل : من العلل وهو الشرب الثاني والنهل : الشرب الأول ، يريد أنه يسبغ عليه من نعمه الكثير والقليل.
(٧) أتململ : اتقلب على الملة وهي الجمر (٨) تهمل : اي يسيل منها الدمع .
(٩) الردى : الهلاك ، حتم : اي لا مفر منه ، مؤجل : اي له وقت .

جعلتَ جزائي منك جبْهاً وغِلظة كأنكَ أنتَ المُنعِمُ المتفَضّلُ ١
فليتكَ إذ لم ترع حق أبُوّتي فعلت كما الجارُ المجاور يفعل ٢
وسَمّيتني باسم المفنَّدِ رأيُهُ وفي رأيك التفنيدلو كنت تَعقِل ٣
تراه مُعِدّاً للخلاف كأنه بِرَدٍّ على أهل الصواب مُوكّل ٤

وقال المغيرة بن حبناء :

خذ من أخيك العفو واغفر ذنوبه ولا تَكُ في كل الأمُور تعاتبُهُ
فإنكَ لنْ تلقى أخاكَ مُهذّباً وأيُّ امرىءٍ ينجومن العيب صاحبه
أخوك الذي لا يَنقُضُ النأي عَهْدهُ ولا عند صرف الدهر يَزْوَرُّ جانبُه
وليس الذي يلقاك في البشر والرّضا وإنْ غِبْتَ عنه لسَّعَتْكَ عقاربه

وقال سعيد بن حميد المتوفى سنة ٨٨٨ هـ :

أقلِلْ عتابَكَ فالبقاءُ قليل والدهر يعدلُ مرة ويميلُ
لم أبكِ مِنْ زمن ذممت صروفه إلا بكيتُ عليه حين يزول
ولكل نائبةٍ ألمت فُرْجةٌ ولكل حال أقبلتْ تحويل
والمنتمون إلى الصفاءِ جماعة إن حصّلوا أفناهم التحصيل
وأجلُّ أسبابِ المنية والرّدى يومٌ سيقطع بيننا ويحول
فلئن سبقت لتفجعنّ بصاحب حبل الصفاءِ بحبله موْصول
ولعل أيامَ البقاءِ قليلة فعلامَ يَكثر عتبنا ويَطول؟

وقال شاعر الحجاز المخضرمي مَعْن بن أوس المزني المتوفى سنة ٢٩ هـ :

لَعمرك ما أدري وإني لأوجَلُ على أينا تعدو المنية أول

---

(١) الجبه : مقابلة الإنسان بما يكره . (٢) أي ليتك إذ أبيت ان تعاملني معاملة الأب عاملتني كما يعامل الجار جاره . (٣) فنده نسبه إلى سوء العقل اي وصمتني بسوء الرأي والغباوة ولو عقلت لعلمت أن الفند حقيق بأن ينسب إليك لا إلي . (٤) معداً : اي محضراً ومهيئاً ، اي تهيىء الخلاف ، ويقابل به كل رأي كأنه كلف ان يفند آراء اهل الصواب .

وإني أخوك الدائم العهد لم أخن … إن آبزاك خصم أو نبا بك منزلُ
أحاربُ مَن حاربتَ مِن ذي عداوة … وأحبس مالي إن غَرِمت فأعقِل
وإني على أشياء منك تُريبُني … قديماً لذو صفحٍ على ذاك مجمِل
ستقطع في الدنيا إذا ما قطعْتني … يمينك فانظرْ أيَّ كيف تبدَّل
إذا أنتَ لم تُنصف أخاك وجدته … على طرَفِ الهجران إن كان يعقِل
ويَركبُ حدَّ السيف من أن تضيمَه … إذا لم يكن عن شَفرة السيف مزحَل
وكنت إذا ما صاحب رام ظنتي … وبدَّل سوءاً بالذي كنت أفعَل
قلبت له ظهر المجن فلم أدُم … على ذاك إلا ريثما أتحوَّلُ
إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد … إليه بوجه آخرَ الدهر تقبل

وقال بهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ معتذراً لتأخيره عن لقاء بعض أصحابه :

على الطائر الميمون يا خير قادم … وأهلاً وسهلاً بالعُلا والمكارم
قدمتَ بحمد الله أكرم مَقدم … مدى الدهر يبقى ذكره في المواسم
قدوماً به الدنيا أضاءت وأشرقت … ببشر وُجوه أو بضوء مباسم
فيا حُسن رَكب جئت فيه مسلماً … ويا طيبَ ما أهدته أيدي الرواسم
أمولاي سامحني فإنك أهله … وإن لم تسامحني فما أنت ظالمي

وقال محمد بن زريق البغدادي نادماً على الإفراط في طلب الدنيا وكان قصد الأندلس في طلب الغنى فلم يرجع لبغداد رحمة الله عليه :

لا تعذليهِ فإن العذلَ يولعُه … قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
جاوَزْتِ في لومه حداً أضرَّ به … من حيث قدرتِ إن اللومَ ينفعه
فاستعملي الرفقَ في تأنيبه بدلاً … من عُنفه فهو مضنى القلب موجَعُه
قد كان مضلعاً بالخطب يحمله … فضيقتْ بخطوب البَين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيد أن له … من النوى كل يوم ما يروّعه

ما آب مغترب إلا وأزعجه رأي إلى سفر بالعزم يجمعه
كأنما هو من حل ومرتحل موكّلٌ بفضاء الأرض يذرّعه
إذا الزمانُ أراه في الرحيل غنى ولو إلى السند أضحى وهو يُزمعه
تأبى المطامعُ إلا أن تجشّمه للرزق كدّاً ، وكم ممن يودّعه
وما مُجاهدة الإنسان توصله رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه
والله قسمَ بين الخلق رزقهمُ لم يخلق الله مخلوقاً يضيعه
لكنهم مُلئوا حرصاً فلستَ ترى مُسترزقاً ، وسوى الغايات يقنعه
والسعي في الأرزاق والأرزاق قد قسمت
بغيٌ ، ألا إن بغيَ المرء يصرعه
والدهر يعطي الفتى ما ليسَ يطلبه يوماً ، ويمنعه من حيثُ يطمعهُ
أستودع الله في بغداد لي قمراً بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودّعته ، وبودي لو يودّعني صفوُ الحياة وأني لا أودّعه
وكم تشفعَ أني لا أفارقه وللضرورات حالٌ لا تشفعه
وكم تشبثَ بي عند الرحيل ضحى وأدمعي مُستهلات وأدمعه
لا أكذب الله ثوب العذر منخرق عني بفرقته لكن أرقّعه
إني اوسّعُ عذري في جنايته بالبين عنه ، وقلبي لا يوسعه
أعطيتُ ملكاً فلم أحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يخلعه
ومن غداً لابساً ثوب النعيم بلا شكر الإله ، فعنه الله ينزعه
اعتضتُ عن وجه خلي بعد فرقته كأساً أجرعُ منها ما أجرعه
كم قائل ليَ ذنب البين قلت له الذنب والله ذنبي لستُ أدفعه
هلا أقمتُ فكان الرُشد أجمعه لو أنني يومَ بانَ الرشد أتبعه
إني لأقطع أيامي وأنفدها بحسرة منه في قلبي تقطعه
بمن إذا هجعَ النوّام بت له بلوعة منه ليلي لست أهجعه

لا يطمئن لجنبي مضجع ، وكذا | لا يطمئن له مُذْ بِنْتُ مضجعه
ما كنتُ أحسب أن الدهرَ يفجعني | به ، ولا أن بي الأيامَ تفجعه
حتى جرى الدهر فيما بيننا بيد | عسراء تمنعني حظي وتمنعه
لله يامنزل القصف الذي دَرَسَت | آثاره وعفت مُذْ غبتَ أربعه
هل الزمان مُعيد فيكَ لذتنا ؟ | أم الليالي التي أمضته ترجعه
في ذمة الله من أصبحت منزله | وجاد غيثٌ على مغناك يمرعه
من عنده لي عهدٌ لا يضيعه | كما له عهدُ صدقٍ لا أضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره ، وإذا | جرى على قلبه ذكري يصدعه
لأصبرنَّ لدهر لا يمتعني | به ، ولا بي في حال يمتعه
علماً بأن اصطباري معقبٌ فرجاً | وأضيقُ الأمر إن فكرت أوسعه
علَّ الليالي التي أضنت بفرقتنا | جسمي ستجمعني يوماً وتجمعه
وإن تنلْ أحداً منا منيته | فما الذي بقضاء الله يصنعه

وقال محمد حافظ بك إبراهيم (بين اليقظة والمنام) في استعطاف الزمان :

أشرق فدتكَ مشارق الإصباح | وأمِط لثامكَ عن نهار ضاح
بوركت يا يوم الخلاص ولا ونتْ | عنك السعود بغدْوة ورواح
بالله كن يمنا وكن بشرى لنا | في ردِّ مغترب وفك سراح
أقبلتَ والأيامُ حولك مُثَّلٌ | صفين تخطرُ خطرة الميَّاح
وخرجت من حجب الغيوب محجلا | في كل لحظ منك ألف صباح
لو صح في هذا الوجود تناسخٌ | لرأيت فيكَ تناسخَ الأرواح
ولكنتَ يومَ (اللابرنت) بعينه | في عزة ، وجلالة ، وسماح
يوم يريك جلالهُ ورُواؤه | في الحسن قدرة فالق الإصباح
خلعت عليه الشمس حلة عسجد | وحباه (آذار) أرق وشاح

اللهُ أثبتهُ لنـــا في لوْحهِ أبدَ الأبيدَ فمـــا له من ماح
حييهِ عَنا يا أزاهرُ وامْلئي أرجاءهُ بأريجـك الفيـــاح
وانفخهْ عنا يا ربيع بكل ما أطلعتَ من رَند ونوْر أقاح
للنيلِ مجد في الزمان مؤثـل من عهدِ (آمون) وعهد (فُتاح)
فَسَل العُصور به وسل آثاره في مصر كم شهدت من السّيــاح
قد قال (عمرو) في ثراها آية مـــأثورة نقشت على الألواح
بينا نراه لآلئاً وكأنمـــا نثرَت بتربتــه عقودُ مِلاح
وإذا بـــهِ للناظرينَ زمرُّد يشفيكَ أخضرُهُ من الأتراح
وإذا به مِسك تشق سوادَه شقّ الأديم محـــارث الفلاح
قم يا ابن مصر فأنت حر واستعدْ مجـــد الجدود ولا تعدْ لمزاح
شمرْ وكافح في الحياة فهـذه دنياكَ دارُ تناحُر وكفـــاح
وانهل مع النهال من عذب الحيا فإذا رقا فامتحْ مع المتّــاح
وإذا ألح عليك خطب لا تهنْ واضرب ْعلى الإلحـاح بالإلحاح
وخض الحياة وإن تلاطمَ موجُها خوض البحار رياضـة السباح
واجعل عيانك قبل خطوك رائداً لا تحسبنّ الغمر كالضحضـــاح
وإذا احتوتكَ محلةٌ وتنكرت لك فاغدُهـــا وانزحْ مع النزاح
في البحر لا تثنيكَ نارُ بوارج في الـبر لا يلويكَ غابُ رماح
وانظر إلى الغربيّ كيف سمتْ به بين الشعوب طبيعة الكـدّاح
والله ما بلغت بنو الغرب المنى إلا بنيات هنـــاك صحـــاح
ركبوا البحارَ وقد تجمدَ ماؤها والجوُّ بـين تنـاوُح الأرواح
والبر مصهورُ الحصى متأججاً يرمي بـــنزّاع الشوى لوّاح
يلقي فتيهمُ الزمان بهمـــة عجب ، ووجه في الخطوب وقاح

ويشق أجواز القفار مغامراً   وعرُ الطريق لديهِ كالصحصاح
وابن الكنانةِ في الكنانةِ راكدٌ   يرنو بعين غيرِ ذات طماح
لا يستغلّ ، كما علمتَ ، ذكاءه   وذكاؤه كالخاطف اللماح
أمسى كماء النهر ضاعَ فراتهُ   في البحر بينَ أجاجهِ المنداح
فانهض ودع شكوى الزمان ولاتنح   في فادح البؤسى مع الأنواح
واربح لمصرَ برأس مالك عزّة   إن الذكاء حبالة الأرباح
وإذا رُزقتَ رياسةً فانسجْ لها   بردين من حزم ومن إسجاح
واشرَب من الماء القراح منعماً   فلكمْ وردتَ الماءَ غيرَ قراح

***

الباب السادس

في التهاني والتهادي والاغراء

قال أبو الطيب المتنبي المتوفى سنة ٣٤٥ هـ :

المجدُ عوفيَ إذ عوفيت والكرمُ   وزالَ عنك إلى أعدائك الألمُ
صحت بصحتك الغارات وابتهجت   بها المكارم وانهلتْ بها الديم
وراجعَ الشمس نورٌ كان فارقها   كأنما فقده في جسمها سقم
ولاحَ برقك لي منْ عارضيْ ملك   ما يسقط الغيثُ إلا حين يبتسم
يسمى الحسام) وليست ذي مُشابهة   وكيف يشتبه المخدوم والخدمُ
تفرد العربُ في الدنيا بمحتدهِ   وشارك العرْب في إحسانه العجم
وأخلص الله للاسلام نصرتـه   وإن تقلبَ في آلائـه الأمم
وما أخصك في برء بتهنئـة   إذا سلمت فكل الناس قد سلموا

وقال الوزير الصاحب إسماعيل بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :

هذي المكارمُ والعلياء تفتخر   بيوم مأثرة ساعاته غرر

يوم تبسمَ عنه الدّهرُ واجتمعت | له السعود وأُغضت دونه الغيرُ
حتى كأنا نرى في كل ملتفت | رَوضاً تفتحَ في أثنائه الزّهر
لما تجلى عن الآمال مُشرقة | قالَ العلى بك أستَملي وأقتدِر
وافى على غير ميعاد يبشرنا | بأن ستتبعهُ أمثاله الأخر
أهنى المسرّاتِ ما جاءت مفاجأة | وما تناجى بها الألفاظ والفكَرُ
لو أن بشرى تلقتها بموردها | لأقبلت نحوها الأرواحُ تبتَدِر
وما تعنف من يسخو بمهجته | فإن يومك هذا وحدَهُ عمرُ
فما غدوت وما للعين مُنقلبٌ | إلا إلى منظر يبهي ويحتبر
ثنت مَهابتك الأبصارَ حاسرة | حتى تبيّنَ في ألحاظها خزَر [1]
إذا تأملتهم غضوا ، وإن نظروا | خلال ذلك فأدنى لفتة نظروا
في مَلبس ما رأته عين مُعترض | فشك في أنه أخلاقكَ الزهر
ألبسته منك نوراً يستضاء به | كما أضاء ضَواحي مُزْنة القمر [2]
وقد تقلدت عضباً أنت مضرَبه | وعنك يأخذ ما يأتي وما يذَرُ
ما زال يزداد من إشراق غرتهِ | زهراً ويشرق فيه التيه والأشر [3]
والشمس تحسد طرفاً أنت راكبه | حتى تكاد من الأفلاك تنحدر
حتى لقد خلتُ أن الشمس ازعجها | شوقاً وقد ظلت على عطفيه تنتشر

وقال ابو أذينة يغري الأسود بن المنذر بقتل آل غسان وكانوا قتلوا أخاه:

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا | ولا يسوغه المقدار ما وهبا
وأحزَمُ الناس من إن فرصة عرضت | لم يجعل السببَ الموصول منقضبا
وأنصف الناس في كل المواطن من | سقى المعادين بالكاس الذي شربا

---

(١) الخزر : ضيق العين وصغرها (٢) المزن: السحاب الأبيض ويقال للهلال ابن مزنة وهي القطعة من المزن لخروجه منها (٣) الأشر بفتح الشين المرح والاختيال .

وليس يَظلمهم من راح يَضربهم ... بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو إلا عن الأكفاء مكرمة ... من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمراً وتستبقي يزيد لقد ... رأيت رأياً يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً ... وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
إن تعف عنهم يقول الناس كلهم ... لم يَعف حلماً ولكن عفوه رَهبا
هُمُ أهلّة غسان ومجدُهم ... عالٍ، فإن حاولوا مُلكاً فلا عجبا
وعرّضوا بفداء واصفين لنا ... خيلا وإبلا تفوق العجم والعربا
أيحلبون دماً مِنا ونحلبهم ... رسلاً، لقد شرّفونا في الورى حلبا

وقال صفي الدين الحلي يحرض السلطان الصالح على الاحتراز من المغول :

لا يمتطي المجدَ من لم يركب الخطرا ... ولا ينال العُلا من قدم الحذرا
ومن أرادَ العُلا عفواً بلا تَعَبٍ ... قضى ولم يَقض من إدراكها وطرا
لا بد للشهْدِ من نحل يمنعه ... لا يجتني النفعَ من لم يحمِل الضرَرا
لا يُبلغُ السؤل إلا بَعدَ مؤلمةٍ ... ولا يتمُّ المنى إلا لمنْ صَبرا
وأحزَم الناس من لو ماتَ من ظمأٍ ... لا يقرب الورْدَ حتى يعرف الصدرا
وأغزَر الناس عقلاً من إذا نظرت ... عيناه بالأمر غَدا بالغير مُعتبرا
فقد يُقال عثارُ الرّجل إن عثرَت ... ولا يُقالُ عثار الرّأي إن عثرا
من دبّرَ العيش بالآراء دامَ له ... صفواً وجاء إليه الخطبُ مُعتذرا
يَهون بالرأي ما يجري القضاء به ... من أخطأ الرأيَ لا يَستذنِبُ القَدرا
من فاته العزُّ بالأقلام أدركه ... بالبيض يقدَح من أطرافها الشررا
لا يحسن الحلم إلا في مَواطنه ... ولا يَليق الوفا إلا لمن شكرا
ولا ينالُ العُلا إلا فتى شرفت ... خِلاله فأطاع الدّهر ما أمَرا

كالصّالح الملكِ المرهوبِ سطوتُـه فلو توعد قلب الدهر لانفطرا
لما رأى الشرَّ قد أبْدى نواجذه والغدر عن نابه للحرب قد كشرا
رأى القسيّ إناثاً عن حقيقتها فعافها واستشار الصارم الذكرا
فجردَ العزمَ من قبل الصفاح لها ملكٌ عن البيض يستغني بما شهرا
يكاد يقرأ من عُنوان همّته ما في صحائف ظهر الغيبِ قد سطرا
كالبحر والدّهْر في يَوْمي نَدًى وردى
والليث والغيث في يَوْمَيْ وغىً وقِرى
ما جادَ للناسِ إلا قَبْل ما سألوا
ولا عفا قط إلا بَعْـد مـا قدرا
لامُوهُ في بذلهِ الأمْوال قلتُ لهـم
هل تقـدر السحبُ ألا ترْسِل المطرا

وقال السيداحمد الهاشمي مؤلف هذا الكتاب مهنئاً المرحوم علي يوسف بك صاحب جريدة المؤيد سنة ١٣٢٠ ه بأوبته من اوربا :

(عليٌّ) القدر ذو الشرف المؤيَّدُ شديدُ العزم (يوسف) قد تفرّد
وحيد الفضل والعلياء تشهـد رفيعُ المجدَ في عـز وسُؤدد
شريف النفس محمود السجايا عريقُ الأصل في المعروف أوحد
هُمامٌ مـا لهُ أبـداً مثيـل بليغُ النطقِ في الكُتّاب مفرد
مُحِبُّ العدل مشكور المساعي عليم بالسياسة ، بل (مُؤيّد)
قويُّ البأس بَسّام الثنـايا سعيد الجد ذو قَـدْرٍ مُمَجّد
فمن يَكُ راقياً شرف المعالي كمثلك في الورى لا شك يُحمد
وكيف وأنت أعظم من تصدى لتأييد الصحافـة (بالمؤيـد)
وكيف وأنت أفوق كل راءٍ بِسَهْمٍ للكتابة قـد تجرّد

وليس الشمس تخفى عن عيون سوى أن كان صاحبهن أرمد
وإن البدر بالأنوار زاهٍ ويأبى الله إلا أن تؤيد
فسبحان الذي أسرى (عليّا) إلى التمييز والسين المنضد
تهنيك المناصب كل وقت وتخدمك السعادة ما تجدد
فدم يا سيدي بدراً منيراً وحصناً للمعالي قد تشيد
وهاك من المحب قصيد شعر تشير إلى وفائي ، بل وتشهد
تفاخر مصر أهل الشرق فيها تقول الهاشمي شدا وأنشد

وقال محمد حافظ بك إبراهيم مهنئاً ابناء وطنه بالعام الهجري :

أهلاً بنابغة البلاد ومرحباً جددتم العهد الذي قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى
مدت له الآمال في أفلاكها خيط الرجاء إلى العلا فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عظيمة إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلقا
عار على ابن النيل سباق الورى مهما تقلب دهره أن يسبقا
أو كلما قالوا : تجمع شمله ، لعب الخلاف بجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حججاً وخوضوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا
حملوا علينا بالزمان وصرفه فتأنقوا في سلبنا وتأنقا
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكم إن القوي بكل أرض متقى
وابنوا حوالي حوضكم من يقظة سوراً وخطوا من حذار خندقا

وزِنوا الكلام وسدّدوه فإنهم خبأوا لكم في كل حرفٍ مَزلقا
وامشوا على حذر فإن طريقكم وعرٌ أطاف به الهلاك وحلقا
نصبوا لــكم فيه الفخاخ وأرصدوا
للسالكين بكل فــجّ موبقــا
الموتُ في غشيانه وطروقــه والموتُ كل الموت ألا يُطرقا
فتحيّنوا ، فرَصُ الحياة كثيرةٌ وتعجلوهــا بالعزائم والرُّقى
او فاخلقوها قادِرين فإنمــا فرصُ الحياة خليقةٌ أن تخلقا

***

الباب السابع

في المراثي

قال المهلهل التغلبي يرثي أخاه كليباً وهو جاهلي توفي سنة ٥٣١ م :

أهاج قذاء عيني الادّكار ؟ هُدوءاً فالدّموع لها انهمارُ
وصار الليل مُشتمِلا علينا كأن الليــل ليس له نهار
وبتُّ أراقبُ الجوزاء حتى تقارب من أوائلها انحدار
أصرّف مُقلتي في إثر قومٍ تباينت البلادُ بهم فغاروا
وأبكي والنجومُ مُطلّعاتٌ كأن لم تحوها عني البحار
على من لو نُعيت وكان حيّاً لقاد الخيل يحجبُها الغُبار
دعوتك يا كليْبُ فلم تجبْني وكيف يجيبُني البلدُ القفار ؟
أجبني يا كليب خلاك ذمٌّ لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيثُ إنك كنتَ غيثاً ويُسراً حين يلتمسُ اليسار
أبت عيناي بعدك ان تكفا كأن غضا القتاد لها شِفار
وإنك كنت تحلُم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار

وتمنعُ أن يمسهمُ لسان مخافة من يُجير ولا يُجار
وكنت أعدّ قربي منك ربحاً إذا ما عدّت الربح التجار
فلا تَبعُد فكلٌ سوف يَلقى شعوباً يستدير بها المدار
يعيش المرء عند بني أبيه ويوشك أن يصير بحيث صاروا
أرى طول الحياة وقد تولى كما قد يُسلبُ الشيء المعار
كأني إذ نعى الناعي كليباً تطاير بين جنبيّ الشرار
فدُرت وقد غشي بصري عليه كما دارت بشاربها العُقار
سألتُ الحيّ: أين دفنتموه؟ فقالوا لي: بأقصى الحي دار
فسرت إليه من بلدي حثيثاً وطار النوم وامتنع الفرار
وحادت ناقتي عن ظل قبر ثوى فيه المكارمُ والفخار
أتغدو يا كليب معي إذا ما جبان القوم أنجاه الفرار؟
خذ العهد الأكيد عليّ عمري بتركي كل ما حوت الديار
ولست بخالع درعي وسيفي إلى أن يخلع الليلَ النهار

* * *

وقال صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٥٠ ه يرثي غريقاً :

أصفيحُ ماءٍ أم أديم سماء فيه تغور كواكب الجوزاءِ
ما كنت أعلم قبل موتك مُوقنا أن البدور غُروبها في الماءِ
ولقد عجبت وقد هويت بلجّة فجرى على رِسلٍ بغير حياء
لو لم يُشقّ لك العباب وطالما أشبهت موسى باليد البيضاء
أنفَ العلاء عليكَ مِنْ لمسِ الثرى
وحُلولُ باطن حُفرة ظلماء
وأجلّ جسمك أن يغير لطفه عفن الثرى وتكاثف الأرجاء

فأحلّه جدثاً طهوراً مُشبِهاً أخلاقه في رقة وصفــاء
ما ذاك بِدْعاً أن يضمّ صفاؤه نوراً يَضنُّ به على الغبراء
فالبحرُ أولى في القياس مِنَ الثرى
بجِـوارِ تلكَ الدرّة الغـراء

***

وقال أيضاً يرثي الملك ناصر الدين عمر :

بكى عليكَ الحُسامُ والقلمُ وانفجع العِلم فيك والعَلَمُ
وضجت الأرضُ ، فالعبادُ بها لاطِمَةٌ والبلاد تلتطـم
تُظهِرُ أحزانَها على مَلِكٍ جل ملوك الورى له خـدم
أبلجُ ، غضّ الشباب مقتبل الـعُمر ، ولكن مجدُه هرم
محكّمٌ في الورَى وآمِله يحكم في الورى ويحتـكم
يجتمعُ المجـدُ والثناء له ومالهُ في الوفـود يُقتسم
قد سَئِمَتْ جوده الأنام ، ولا يلقاه من بذلهِ الندى سأم
ما عُرفت منه «لا» ولا «نعم» بل دونهنّ الآلاءُ والنعمُ
الواهبُ الألف وهو مبتسم ، والقاتل الألفَ وهو مقتحمُ
مبتسمٌ والكُماة عابسة وعابسٌ والسيوفُ تبتسمُ
لم يعلم العالَمون ما فقدوا منه ، ولا الأقربون ما عَدِموا
ما فقدُ فرد من الأيام كمن إن مات ماتت لفقدِه أُممُ
ياطالبَ الجود قد قُضي عُمَرُ ، فكل جُود وجودُه عدَم
فالناسُ كالعينِ إن نقدتهم تفاوتت عند نقـدك القيم
مضى الذي كان للأنام أبا فاليوم كل الأنام قد يتِموا
وحلّ داراً ضاقت بساكنها ودون أدنى دياره إرم

وقال أبو الحسن التهامي يرثي صغيراً له ، ويفتخر بفضله ، ويشكو زمانه وحاسديه :

حُكم المنيـة في البرية جـار ... ما هذه الدنيا بدار قرار
بينا يُرَى الإنسان فيها مخبراً ... حتى يُرَى خبراً من الأخبار
طبعت على كدَر وأنت تريدُها ... صفواً من الأقدار والأكدار
ومكلف الأيام ضدّ طباعها ... متطلبٌ في الماء جذوَة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار
فالعيشُ نومٌ والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيالٌ سار
فاقضُوا مآربكم عجالا إنما ... أعماركم سفرٌ من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا ... أن تستردّ فإنهنّ عوَار
فالدهر يخدع بالمنى ويغص إن ... هنَّا ويهدمُ ما بُني ببوار
ليس الزمان وإن حرصت مسالماً ... خُلق الزمان عداوةُ الأحرار
إني وترتُ بصارم ذي رونقٍ ... أعددته لطلابة الأوتار
والنفس إن رضيت بذلك أو أبت ... مُنقادةٌ بأزمّة المقدار
أثني عليه بإثره ولو انه ... لم يغتبط أثنيتُ بالآثار
يا كوكباً ، ما كان أقصر عمرَه ... وكذاك عمر كواكب الأسحار
وهلال أيامٍ مضى لم يُستدر ... بدراً ولم يمهل لوقت سرار
عجل الخسوفُ عليه قبل أوانه ... فمحاهُ قبل مظنة الإبدار
واستلّ من أترابه ولداته ... كالمُقلة استُلت من الأشفار
فكأن قلبي قبره وكأنه ... في طيّه سرٌ من الأسرار
إن يُعتَبط صغراً فربُ مقمّم ... يَبدو ضئيل الشخص للنُّظار
إن الكواكب في عُلوّ محلها ... لتُرى صغاراً وهي غير صغار

ولدُ المعزّى بعضُه فإذا مضى بعضُ الفتى فالكل في الآثار
أبكيه ثم أقولُ معتذراً له وُفقت حين تركت ألأمَ دارِ
جاورتُ أعدائي وجاوَرَ ربَّه شتّان بين جِواره وجواري
ثوبُ الرّياء يشف عما تحته وإذا التحفتَ به فإنك عار
قصُرَت جفوني أم تباعد بينُها أم صُوّرتْ عيني بلا أشفار
جفت الكرى حتى كأن غِراره
عند اغتماض العين وخز غرار
ولو استزارتْ رقدةَ لطحابها ما بين أجفاني من التيار
أُحْيي الليالي التمّ وهي تميتني ويميتُهنّ تَبلجُ الأسحار
حتى رأيت الصبح تهتِك كفه بالضوء رفرَف خَيْمة كالقار
والصبح قد غمرَ النجوم كأنه سَيْلٌ طغى فطفا النُّوّار
والهونُ في ظِلِ الهوَينا كامِنٌ وجَلالة الأخطار في الإخطار
تَندى أسِرّة وجهه ويمينهُ في حالة الإعسار والإيسار
ويمدُ نحو المكرُمات أناملا للرزق في أثنائهِنّ مجار
يحوي المعالي كاسِباً أو غالباً أبداً يُدارى دونها ويُداري
قد لاح في ليل الشباب كواكب إن أُمهلتْ آلت إلى الإسفار
وتلهُّبُ الأحشاء شيّبَ مفرقي هذا الضياء شواظ تلك النار
شاب القذالُ وكل غصن صائر فينانُهُ الأحوى إلى الإزهار
والشبْه منجذب فلم بيض الدمى عن بيض مفرَقه ذوات نفار
وتوَدلو جعلتْ سوادَ قلوبها وسوادَ أعينُها خضاب عذار
لا تنفِرُ الظبياتُ عنه فقد رأت
كيف اختلاف النبت في الأطوار
شيئان يَنقشعان أول وهْلة ظِل الشباب ، وخلة الأشرار

لا حبّذا الشيبُ الوفيّ وحبّذا ظِــلُّ الشباب الخائن الغدّار
وطري من الدّنيا الشّبابُ وروقه فإذا انقضى فقد انقضت أوطاري
قَصُرَتْ مسافته وما حسناته عنــدي ولا آلاؤه بقِصار
نزداد همّا كلمـــا ازددنا غِنىً والفقر كلُّ الفقـر في الإكثـار
ما زاد فوق الزّاد خُلّف ضائعاً في حادث أو وارثٍ أو عــار
إني لأرحمُ حاسِديّ لِحَرّ ما ضمِنت صُدورهمُ من الأوغـار
نظروا صنيع الله بي فعُيونُهم في جنــة وقلوبُهم في نار
لا ذنبَ لي قد رُمْت كتم فضائلي فكأنما برقعت وجهَ نهـار
وسترتهـــا بتواضُعي فتطلعت أعناقُهـــا تعلو على الأستار
ومن الرجالِ معالِمٌ ومجاهِـل ومنَ النّجومِ غوامض ودراري
والناس مُشتبهونَ في إيرادهم وتفاضلُ الأقوام في الإصدار
عمري لقد أوطأتهم طُرُق العُلا فعموا فـلم يقفوا على آثاري
لو أبصروا بقلوبهم لاستبصروا وعمى البصائر من عمى الأبصار
هلاّ سَعَوْا سَعيَ الكرام فأدركوا أو سَلّموا لمواقِع الأقـدار
ولربما اعتضَدَ الحليم بجاهـل لا خـير في يُمنى بغيرِ يسار

وقال أبو البقاء صالـــح بن شريف الرّندي ، المتوفى سنة ٧٩٨ هـ يرثي الأندلس :

لكلّ شيءٍ إذا ما تم نقصانُ فلا يُغَرّ بطيب العيش إنسان
هي الأمورُ كما شاهدتها دُوَلٌ مَن سَرّهُ زَمَنٌ ساءَته أزمان
وهذه الدار لا تُبقي على أحد ولا يدوم على حالٍ لها شان
يُمزّق الدهر حتماً كلّ سابغة إذا نبت مشْرَفيّاتٌ وخُرْصان
وينتضي كلّ سيف للفناء ولوْ كان ابنَ ذي يزَن والغمدَ غُمدان

أين الملوك ذَوو التيجان من يمن   وأين منهم أكاليلٌ وتيجان ؟
وأين ما شاده شدادُ في إرَمٍ   وأين ما ساسه في الفرس ساسان؟
وأين ما حازه قارون من ذهب   وأين عادٌ وشَدّادٌ وقَحطان ؟
أتى على الكُلِّ أمر لا مَرَدَّ له   حتى قَضَوْا فكأنَّ القوم ما كانوا
وصار ما كان من مُلْكٍ ومن مَلِكٍ   كما حكى عن خيال الطَّيفِ وَسْنان
دارَ الزّمانُ على «دارا» وقاتِلِه   وأمّ كِسرى فما آواه إيوان
كأنما الصَّعْبُ لم يَسْهُل له سبب   يوماً ولا ملكَ الدُّنيا سليمان
فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة   وللزمان مسرّاتٌ وأحزان
وللحوادث سُلوان يُسَهِّلها   وما لما حلّ بالإسلام سُلوان
دهى الجزيرة أمر لا عزاءَ له   هوى له أُحُد وانْهَدّ ثهْلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت   حتى خَلَت منه أقطار وبُلدان
فاسأل (بَلَنْسيةً) ما شأن (مُرْسيةً)
وأينَ (شاطبةٌ) أم أينَ (جَيّانُ)
وأين (قُرْطبةٌ) دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان ؟
وأين (حِمْصٌ) وما تحويه من نُزَه   ونَهْرُها العَذْبُ فياضٌ ومَلآن
قواعدٌ كُنَّ أركان البلاد فما   عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركان
تبكي الحنيفية البيضاءُ من أسفٍ   كما بكى لفراق الإلْفِ هيمان
على ديار من الإسلام خالية   قد أقْفَرتْ ولها بالكفر عُمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن إلا نواقيسٌ وصُلْبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة   حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ   إن كنت في سِنة فالدَّهْرُ يقظان
وماشياً مَرِحاً يُلهيه موطنُه
أبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرّ المرءَ أوْطان ؟

تلك المصيبة أنستْ ما تقدمها وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعة لهم بأوطانهم عزٌ وسلطان
اعندكم نبأ من اهل اندلس فقد سرى بحديث القوم رُكبان ؟
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتمُ يا عبادَ الله إخوانُ ؟
ألا نفوس أبيَّاتٌ لها هممٌ أما على الخير أنصار وأعوانُ
يا من لذلّة قوم بعد عزّهم أحال حالهمُ جورٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان.

وقال أبو الطيّب المتنبي يرثي أبا شجاع فاتكا :

الحزن يُقلق والتجمُّلُ يردع والدمع بينهما عصيٌ طيّعُ
يتنازعان دموعَ عين مُسهَّد هذا يجيء بها وهذا يرجع
النوم بعد أبي شجاع نافرٌ والليلُ مُعْيٍ والكواكبُ طلَّع
اني لأجبُنُ من فراق أحبتي وتحسُّ نفسي بالحمام فاشجُع
ويزيدني غضبُ الأعادي قسوة ويُلِمُّ بي عتب الصديق فأجزع
تصفو الحياةُ لجاهل أو غافل عما مضى منها وما يُتوقع
ولمن يُغالط في الحقائق نفسهُ ويسومُها طلب المحال فتطمع
أين الذي الهرمان من بُنيانه ماقومُه، ما يومُه، ما المصرع؟
تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويُدركها الفناءُ فتتبع

وقال عبد المجيد بن عبدون الفهري المتوفى سنة ٥١٠هـ راثياً ملوك بني الأفطس من قصيدة طويلة ممتعة في التاريخ والأدب ، ومطلعها :

الدهر يفجعُ بعد العين بالأثر   فما البكاءُ على الأشبـــاح والصور
أنهاكَ أنهاكَ لا أنهاكَ واحدة   عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حربٌ وإن أبدى مُسالمة
فالبيضُ والسمرُ مثلُ البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه   يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا يغرنك من دُنياك نومتهـــا   فما صناعة عينيها سوى السهر
فبالليالي وقاك الله عثرَتهـــا   من الليالي وغالتها يد الغـــيرَ
في كل حين لها في كل جارحة   منا جراح وإن زاغت عن البصر
نسر بالشيء لكن كي تغرّ به   كالأيم ثار إلى الجاني منْ الزهر
كم دولة وُليت بالنصر خدمتها   لم تبق منها وسل دُنياك عن خبر

وقال أبو ذؤيب يرثي أولاده :

أمن المنون وريبها تتوجعُ   والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة ما لجسمك شاحباً   مُنذ ابتذلت ومثل مالك ينفعُ
ولقد حرصتُ بأن أدافع عنهمُ   وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَـع
وإذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفــعُ
فالعين بعدهم كأن جفونها   كحلت بشوك فهي عورٌ تدمعُ
وتجلدي للشامتين أريهـــم   أني لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأني للحوادث مروة   نصفَ المشقر كل يوم تقرَع
لا بد من تلف مقيم فانتظر   أبأرض قومك ام بأخرى المضجع
ولقد أرى أن البكاء سفاهة   ولسوف يولع بالبكا من يُفجع

وليأتين عليك يوماً مرّة يبكي عليك معنفاً لا تسمع
فلئنْ بهم فَجَعَ الزمانُ وريبه إني بأهلِ مودّتي لمفجّعُ
والنفس راغبة إذا رغّبتها وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنع

وقال أبو الحسن الأنباري ، المتوفى سنة ٢٣٨ هـ يرثي أبا طاهر بن بقية وزير عز الدولة لما قُتل وصُلب[١]، وهي من أعظم المراثي ولم يسمع بمثلها في مصلوب حتى أن عضد الدولة الذي صلبه تمنى أن لو كان هو المصلوب ، وقيلت فيه :

عُلوٌّ في الحياةِ وفي المماتِ لحقٌّ تلك إحدى المعجزاتِ
كأن الناس حولك حين قاموا وُفودُ نداك أيام الصلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً وكلهمُ قيامٌ للصلاةِ
مددتَ يديك نحوَهمُ احتفاءً كمدّهما إليهم بالهباتِ
ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن يضُمّ عُلاك من بعدِ الوفاةِ
أصاروا الجو قبرَك واستعاضوا عن الأكفان ثوبَ السافياتِ
لعُظمِك في النفوس تبيتُ تُرعى بحُرّاس وحفّاظ ثقاتِ
وتوقدُ حولك النيرانُ ليلاً كذلك كنتَ أيامَ الحياةِ
ركبتَ مطيةً من قبلُ زيدٌ علاها في السنين الماضياتِ
وتلك قضيةٌ فيها تأسٍّ تُباعدُ عنك تعييرَ العُداةِ
ولم أرَ قبل جذعك قط جذعاً تمكّنَ من عِناق المكرُماتِ
أسأتَ إلى النوائبِ فاستثارت فأنتَ قتيلُ ثأرِ النائباتِ

(١) وذلك لما استمرت الحرب بين عز الدولة وابن عمه عضد الدولة ظفر عضد الدولة بوزير عز الدولة أبي طاهر محمد بن بقية فطرحه للفيلة فقتلته ثم صلبه عند داره بباب الطارق وعمره نيف وخمسون سنة ، ولما صلب رثاه أبو الحسن محمد ابن عمران يعقوب الأنباري أحد العدول ببغداد بهذه القصيدة المذكورة .

وكنتَ مجيرُنا من صرف دهر فعاد مُطالباً لك بالتِّرات
وصيّر دهرُك الإحسانَ فيه إلينا من عظيم السيئات
وكنتَ لمعشرٍ سعْداً فلمّا مضيت تفرّقوا بالمحسنات
عليلٌ باطنٌ لك في فؤادي يخفّف بالدموع الجاريات
ولو أني قدَرْتُ على قيام بفرْضك والحُقوق الواجبات
ملأتُ الأرض من نظم القوافي ونُحت بها خِلاف النائحات
ولكني أُصبّرُ عنك نفسي مخافة أن أُعدّ من الجناة
ومالكَ تُربةٌ فأقول تُسقى لأنك نُصبَ هطل الهاطلات
عليك تحيّة الرحمن تترى برحماتٍ غوادٍ رائحات

وقال بهاء الدين زهير المتوفى سنة ٦٥٦ ﻫ :

أراك هجرتني هجراً طويلا وما عوّدتني من قبلُ ذاكا
عهدتك لا تُطيق الصبر عني وتعصي في ودادي مَن نهاكا
فكيف تغيرتْ تلك السجايا ومن هذا الذي عني ثناكا
فلا والله ما حاولتَ غدراً فكلُّ الناس يغدُر ما خلاكا
فيا مَن غاب عني وهو رُوحي وكيف أطيق من روحي انفكاكا
وما فارقتني طوعاً ولكن دهاك من المنية ما دهاكا
يَعزُّ عليّ حين أدير عيني أفتّشُ في مكانك لا أراكا
ختمتُ على ودادك في ضميري وليس يزال مختوماً هناكا
فوا أسفي لجسمك كيف يَبلى ويذهبُ بعدَ بهجته سَناكا
فيا قبر الحبيب وددتُ أني حَملت ولو على عيني ثراكا
ولا زال السلام عليك مني يُزَف على النسيم إلى ذراكا

وقالت السيدة تُماضِرُ الخنساء الشاعرة المخضرمة المتوفـاة في خلافة معاوية قبل سنة ٤٦ هـ – راثية أخاها صخراً :

قَذًى بعينيكِ أم بالعين عُوّارُ   أم أقفرتْ إذ خلتْ من أهلها الدار
كأن عيني لذكراهُ إذا خطرت   فيضٌ يسيل على الخدَّين مِدرار
تبكي خُناسٌ على صخر وحقٌّ لها   إذ رابها الدهر إن الدهر ضَرّار
لا بد من ميتَةٍ في صرفها عِبرٌ   والدهر في صرفه حولٌ وأطوار
يا صخرُ ورّادَ ماء قد تواردهُ   أهلُ الموارد مـا في وِرده عار
وإنّ صخراً لحامينـا وسيدنا   وإن صخراً إذا نشتو لنحّار
وإنّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ بـه   كأنـه علَمٌ في رأسه نار
لم تُلفِه جارةٌ يمشي بطاحتهـا   لريبة حين يُخـلي بيتَه الجار
مثل الرديني لم تَنفدْ شبيبته   كأنه تحت طيّ البرْد أسوارُ
طلق اليدينِ بفعل الخير معتمدٌ   ضخم الدسيعة بالخيرات أمّار
حَمال ألويةٍ ، هبّـاط أوديةٍ   شهّادُ أنديةٍ ، للجيش جرّار

وقالت أعرابية ترثي ابنها :

أيا ولدي قد زاد قلبي تلهبـاً   وقد حرقت مني الشؤونَ المدامعُ
وقد أضرمت نارُ المصيبة شعلةً   وقد حميت مني الحشا والأضالع
وأسأل عنك الركب هل يخبرونني   بحالك كيما تستكن المضاجع
فلا بك فيهم مخبرٌ عنك صادقٌ   ولا فيهمُ مَن قال إنك راجـع
فياولدي مُذغبت كدّرْت عيشتي   فقلبيَ مصدوعٌ وطرفيَ دامع
وفكريَ مـقومٌ وعقـليَ ذاهبٌ
ودَمعيَ مسفوحٌ وداري بلاقـع

وقالت ليلى الأخيلية المتوفاة سنة ٨٠ هـ :

لَعمرُك ما بالموت عارٌ على الفتى إذا لم تُصبه في الحياة المعاير
وما أحدٌ حيٌّ وإن عاش سالما بأخلدَ ممن غيبّته المقابر
ومَن كان مما يُحدث الدهر جازعاً فلا بد يوماً أن يُرى وهو صابر
وليس لذي عيش عن الموت مقصر وليس على الأيام والدهر غابر
ولا الحيّ مما يُحدث الدهر مُعتبٌ ولا الميت إن لم يصبر الحيُّ ناشر
وكل شبابٍ أو جديد إلى بلىً وكل امرىء يوماً إلى الله صائر

وقالت عائشة هانم التيمورية المتوفاة سنة ١٣٠٠ هـ ترثي ابنتها :

إن سالَ من غرب العيون بُحورُ فالدهر باغٍ والزمان غدورُ
فلكل عين حقٌّ مِدرار الدما ولكل قلبٍ لوعةٌ وثُبور
سُتر السنا وتحجبت شمسُ الضحى وتغيبت بعد الشروق بدور
ومضى الذي أهوى وجرّعني الأسى وغدَت بقلبي جذوةٌ وسَعيرُ
يا ليته لمّا نوى عهد النوى وافى العيون من الظلام نذير
ناهيك ما فعلت بماءِ حشاشتي نارٌ لها بين الضلوع زفير
لو بُثّ حزني في الورى لم يُلتفت لمصاب قيس والمصابُ كبير
طافت بشهر الصوم كاسات الردى سَحراً وأكوابُ الدموع تدور
فتناولتْ منها ابنتي فتغيرت وجناتُ خدٍّ شانَها التغيير
فذوَت أزاهيرُ الحياة بروْضها وانقدّ منها مائسٌ ونضير
لبست ثيابَ السُّقم في صِغر وقد ذاقت شراب الموت وهو مرير
جاء الطبيب ضُحىً وبشر بالشفا إن الطبيب بطبّه مغرور
وصفَ التجرُّع وهو يَزعُم أنه بالبُرْءِ من كل السقام بشير

فتنفستْ للحزْن قائـلة له عجّل ببرئي حيث أنتَ خبير
وارحم شبابي إنّ والدتي غدتْ ثكلى يشير لها الجوى وتشير
وارأف بعين حُرمت طيب الكرَى
تشكو السُّهاد وفي الجفون فُتور
لما رأت يأس الطبيب وعجزَه قالت ودَمعُ المقلتين غزير
أمّاه قد كلّ الطبيبُ وفاتني مما أُؤمّلُ في الحياة نصير
أماه قد عز اللقاءُ وفي غدٍ سترين نَعشي كالعروس يسير
وسينتهي المسعى إلى اللحد الذي هو منزلي وله الجموع تصير
قولي لِرب اللحد رِفقاً بابنتي جاءت عروساً ساقها التقدير
وتجلدي بإزاء لحدي بُرهةً فتراك روحٌ راعها المقدور
أُماه قد سلفتْ لنا أمنيــة يا حسنها لو ساقها التيسير
كانت كأحلام مضتْ وتخلفتْ مُذ بان يومُ البين وهو عسير
عودي إلى ربعٍ خلا ومآثر قد خُلفت عني لها تأثـير
صوني جهاز العرس تذكاراً فلي قد كان منه إلى الزّفاف سرورُ
جرّت مصائب فرقتي لك بعد ذا لُبس السواد ونُفّذ المسطور
والقبر صار لغُصن قدّي روضة ريحانها عند المزار زُهور
أماه لا تَنسي بحق بُنوّتي قبري لئلا يحزنَ المقبور
فأجبتُها والدمع يحبس منطقي والدهر من بعد الجوار يجور
بِنتاه يا كبدي ولوْعة مُهجتي قد زال صفوٌ شانه التكدير
لا توص ثكلى قد أذاب فؤادها حُزنٌ عليك وحسرةٌ وزَفيرُ
أبكيك حتى نلتقي في جنة برياض خُلد زينتها الحور
إن قيل « عائشة » أقول لقد فنى
عيشي وصبري — والإله خبــير

ولهي على « توحيدة » الحسن التي قد غاب بدرُ جمالها المستور
قلبي وجفني واللسان وخالقي راض وباكٍ شاكرٌ وغفور
مُتعتِ بالرضوان في خلد الرضا ما ازيّنتْ لك غرْفة وقصور

وقالت المرحومة ملك حفني ناصف ترثي المرحومة عائشة هانم تيمور :

ألا يا موتُ وَيحكَ لم تُراع حقوقاً للطروس ولا اليراع
تركتَ الكتب باكية بكاءً يشيب الطفل في عهد الرّضاع
ولم تهَب الفضائلَ والمعالي وطولَ السعي في خير المساعي
ولم يمنعك ممـا رُمتَ نثرٌ ولا شِعرٌ ولا حُسنُ ابتداع
تَراك تجودُ بالأرزاء حتى عددنا البخل من كرم الطباع
فذُبْ يا قلبُ لا تكُ في جُمود وزِدْ يا دمع لا تكُ في امتناع
ولا تبخل عليّ وكن جموماً فكنز العلم أمسى في ضياع
سنبقى بعد (عائشةٍ) حيارى كسربٍ في الفلاة بغير راع
لقد فُقِدَتْ ولم تَفقد عُلاها وهل شمسٌ تغيبُ بلا شعاع
هي الدُّر المصون ببطن أرض وقد كانت كذلك في قناع
هي البحرُ الخضم وما سمعنا بأن البحر يُدفَن في التلاع
وكانت للمكارم خيرَ عون وللخيرات كانت خير داع
لها القَدَحُ المعلى في العَوالي وفي نشر المعارف طول باع
فيا شمسَ المحامد غبتِ عنّا وخلفتِ البكاءَ لكل ناع
ويا خير النساء بلا خلاف وقدْوتنا بلا أدنى نزاع
لقد أحييتِ ذكر نساء مصر وجدَّدْتِ العُلا بعدَ انقطاع
وشِدْتِ صُروح طُهر باذخاتٍ
مُحصَّنةً كتحصين القِلاع

وقال المرحوم حفني بك راثياً لمرحوم عبدالله باشا فكري :

ليَدّع المدّعون العـــلم والأدبا فقد تَغيَّب (عبدالله) واحتجبا
ولينتسب أدعياء الفضل كيف قضت آراءهم إذ قضى من يحفظ النسَبا
وليفخرِ اليوم قومٌ باليراع ، ولا خَوف عليهم فمنْ يخشَونه ذهبا
وليرْقَ من شاء أعواد المنابر إذ مات الذي يتقيهِ كلٌّ من خطَبا
لو عاش لم يطرُق الأسماعَ ذِكرُهمُ في طلعة الشمس من ذا يصرُع الشهبا
فليسمُ من شاء بالإنشاء لا عجب مضى الذي كان من آياته عجبـا
طودٌ من الفضل من بعد الرسوخ هَوى
وكوكب بعدَ أن أبدى الهدى غرَبا
أجلْ فقد ماتَ (عبدالله) واأسفـاً
وأوحِشَت مصر من (فكري) فواحَربا
فكل نفس لعليـاه شكت وبكت
وكل فكر (بفكري). ماج واضطربا
قضى الحياة ونَصرُ الحق دَيْدنه لا ينثني رهباً عنه ولا رَغبا
سارت جَنازَتُـه والعلم في جزَع والفضل يندُبُه في ضمن من ندَبا

وقال أحمد بك شوقي يرثي المرحوم مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٣٣٦هـ:

المشرقانِ عليك ينتحبانِ قاصيهما في مـــأتمٍ والدّاني
يا خادمَ الإسلام أجرُ مجاهدٍ في الله ، من خلد ومن رضوان
الله يشهد أن موتك بالحجـا والجد ، والإقدام ، والعِرفان
إن كان للأخلاق ركن قائم في هذه الدنيا ، فأنت الباني
بالله فتشْ عن فؤادك في الثرى هل فيه آمال وفيه أماني ؟
وجدانك الحيّ المقيم على المدى ولربّ حي ميت الوِجدان
الناسُ : جارٍ في الحياة لغاية ومضللٌ يجري بغير عِنان

والخلد في الدنيا وليسَ بهينٍ عليا المراتب لم تتَحْ لجبان
فلوان رُسلَ الله قد جبنوا لما ماتوا على دين ولا إيمان
المجد والشرف الرفيع صحيفة جُعلت لها الأخلاق كالعنوان
وأحبُّ من طول الحياة بذلةٍ قصرٌ يريكَ تقاصُرَ الأقران
دقاتُ قلب المرء قائلةٌ له : إن الحياةَ دقائق وثَواني
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمرٌ ثاني
للمرء في الدنيا وجمّ شؤونها ما شاء من ربح ومن خسران
فهي القضاء لراغبٍ متطلّع وهي المضيقُ لمؤثر السُّلوان
الناس غادٍ في الشقاء ورائح يشقى له الرحماء، وهو الهاني
ومُنعّم لم يلقَ إلا لذّةً في طيّها شَجنٌ من الأشجان
فاصبر على نعَم الحياة وبؤسها نِعَمُ الحياة وبؤسها سيّان
ياطاهرالغدوات والرّوحات والخطرات، والإسرار والإعلان
هل قامَ قبلك في المدائن فاتحاً غازٍ بغير مُهنّدٍ وسِنان
يدعو إلى العلم الشريف وعنده أن العلومَ دعائمُ العُمران
لفوك في عَلم البلاد مُنكساً جزع الهلالُ على فتى الفتيان
ما احمرّ من خجل ولا من ريبة لكنما يبكي بدمع قاني
يزجونَ نعشك في السناء وفي السنا
فكأنما في نعشك القمران
وكأنه نعش الحسين بكربلا يختالُ بين بُكىً وبين حنان
في ذمة الله الكريمِ وبرّه ماضم من عُرف ومن إحسان
ومشى جلالُ الموتِ وهو حقيقة وجلالكَ المصدوق يلتقيان
شَقت لمنظرك الجيوبَ عقائلٌ وبكتك بالدمع الهتونِ غواني
والخلقُ حولك خاشعون كعهدهم
إذ ينصتون لخطبة وبيان

يتساءلون : بأيّ قلب تُرتقى بَعدُ المنابر ، أم بأي لسان
فلو ان أوطاناً تصوّر هيكلا دفنوكَ بينَ جوانح الأوطان
أو كان يُحمل في الجوارح مَيّت حملوكَ في الأسماعِ والأجفان
أو صيغَ من غُرّ الفضائل والعُلى
كفَنٌ لَبِسْتَ أحاسن الأكفان
أو كان للذكر الحكيم بَقيّة لم تأتِ بعدُ رُثيت في القرآن
يا صَبّ مصرَ ويا شهيدَ غرامها هذا ثرى مصر ، فنَمْ بأمان
اخلع على مصرٍ شبابك عالياً والبس شباب الحور والوِلدان
فلعلّ مصراً من شبابك ترتدي مجداً تتيهُ به على البُلدان
فلو ان بالهرَمين من عزماته بعض المَضاء تحرّكَ الهرَمان
عَلّمْتَ شبان المدائن والقُرى كيف الحياة تكون في الشبان
مصرُ الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرّ على عِظامك حاني
أقسمت أنك في التراب طهارة مَلَكٌ يهاب سؤاله المَلكان

وقال ابن هانىء الأندلسي يرثي إبراهيم بن جعفر بن عليّ :

وهب الدهر نفيساً فاستردْ رُبما جاد بخيلٌ فحسدْ
خاب من يرجو زماناً دائماً تعرف البأساء منه والنكد
فلقد أذكر من كان سها ولقد نبه منْ كان رَقد
قل لمن شاء يقل ما شاءه إن خصمي في حياتي لألدْ
منتضٍ نصلا إذا شاء مضى رائشٌ سهماً إذا شاء قصد
ماتَ من لو عاش في سرباله غلبَ النور عليه فاتقد
إنما كان شهاباً ثاقباً صعَقَ الليل له ثم خمد
لا رجاء في خلود كلنا وارد الماء الذي كان ورد

* * *

وقال شاعر النيل أحمد بك شوقي راثياً :

خُلقنا للحياة وللممات ومن هذين كُلّ الحادثات
ومن يولد يعش ويمت كأن لم يمرّ خياله بالكائنات
ومَهْدُ المرء في أيدي الرّواقي كنعش المرء بين النائحات
وما سلم الوليد من اشتكاء فهل يخلو المُعَمَّرُ من أذاة
هي الدّنيا قتالٌ نحن فيه مقاصد للحسام وللقناة
وكل الناس مدفوع إليه كما دُفع الجبان إلى الثبات
نُرَوّع ما نُرَوّعُ ثم نرمى بسهم من يد المقدور آت

وقال المرحوم محمد بك حافظ إبراهيم راثياً الإمام الحكيم الشيخ محمد عبده :

سَلامٌ على الإسلام بعد محمد سَلامٌ على أيامه النضرات
على الدّين والدنيا على العلم والحجى على البر والتقوى على الحسنات
لقد كُنتُ أخشى عاديَ الموت قبله فأصبحت أخشى أن تطول حياتي
فوالهفي والقبر بيني وبينه على نظرةٍ من تلكم النظرات
وقَفتُ عليه حاسِرَ الرّأس خاشعاً كأني حيال القبر في عرفات
أبَنْتَ لنا التنزيل حُكما وحِكْمةً وفَرّقت بين النور والظلمات
ووَفّقتَ بين الدين والعلم والدجى فأطلعت نوراً من ثلاث جهات
وقَفتَ (لهانوتو، ورينان) وقفة أمَدّك فيها الرُّوح بالنفحات
وخفت مَقام الله في كل موقف فخافك أهل الشك والنزعات
وأرصدت للباغي على دين أحمد شباة يراع ساحر النفثات
مشى نعشه يختال عجباً بربه ويخطرُ بين اللمس والقبلات
بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقت عيونُ الكون بالعبرات

بكى عالَمُ الإسلامِ عالِمَ عصره ... سِراج الدَّياجي هادمَ الشبهاتِ
فياوَيْحَ (للشورى إذا جَدَّ جِدها ... وطاشت بها الآراء مشتجراتِ
وياويْحَ (للفُتْيا) إذا قيل مَن لها ... ويا ويْحَ للخيرات والصدقات
بكينا على فَرْد ، وإن بكاءنا ... على أنفُسٍ لله مُنقطعاتِ
تَعَهَّدَها فضل الإمام وحاطها ... بإحسانه والدهر غير مؤاتي

وقال جمال الدين بن نباتة ، المتوفى سنة ٧٦٨ هـ ، معزياً عن مَلك ، ومهنئاً بملك :

هَناءٌ محا ذاك العَزاءَ المقَدَّما ... فما عَبَسَ المحزون حتى تبَسَّما
ثُغورُ ابتسامٍ في ثغورِ مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السَّبق منهما
تَرُدّ مجاري الدَّمْع والبِشرُ واضح ... كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى
سقى الغيث عنا تُرْبة المَلِك الذي ... عَهِدنا سجاياه أعز وأكرما
ودامَت يد النعمى على الملك الذي ... تدانت به الدنيا وعزَّ به الحمى
مليكان : هذا قد هَوى لضَريحه ... برغمي ، وهذا للأسِرَّةِ قد سَما
ودَوْحةُ فضل شاذَويّ تكافأت ... فغُصْنٌ ذَوى منها وآخر قد نما
كأنّ ديار الملك غابٌ إذا انقضى ... به ضَيْغم أنشأ الدَّهر ضَيْغَما
فإنْ تَكُ أوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت علياك وقتاً ومَوْسما
هو الغيث ولّى بالثَّناء مُشَيَّعاً ... وأبقاكَ بحراً بالمواهب مُفْعما
إذا الغيث صَلّى خلف جَدواك راكعاً ... ثنت عَزْمه للاعتراف فسلما
يراعك يوم السلم يَنهلُّ ديمةً ... وسيفك يوم الحرب يَنهَلُ في الدَّما
فعِشْ للورَى واسلم سعيداً مُهنّأً ... فحظ الورَى في أن تعيش وتَسلما
أعدت زَمان البِشرِ والجود والثنا ... إلى أن مَلأت العين والكف والفما

❋ ❋ ❋

وقال المرحوم حافظ بك إبراهيم يرثي الدكتور يعقوب صروف صاحب مجلة المقتطف المتوفى سنة ١٩٢٧ م [١] :

أبكي وعين الشرق تبكي معي ... على الأريب الكاتب الألمعي
جرى عصيُّ الدمع من أجله ... فزاد في الجود على الطيع
نقصٌ مِنَ الشرق ومن زهوه ... فقدُ اليراع المعجز المبدع
ليسَ لمصرَ في رجالاتها ... حظٌ، ولا للشام في أروع
مُصاب (صروف) مصاب النهى ... فليبكه كل فؤاد يعي
(صروف) لا تبعد فلست الذي ... يطويه طاوي ذلك المضجع
أسكتكَ الموتُ ولكنه ... لم يسكت الآثار في المجمع
ذِكْراكَ لا تنفك موصولة ... في معهد العلم وفي المصنع

❋ ❋ ❋

الباب الثامن في الحكم والنصائح

قال عبيد بن الأبرص الأسدي أحد فحول شعراء الجاهلية :

كفى زاجراً للمرء أيامُ دهرهِ ... تروح له بالواعظات وتغتدي
إذا أنت طالبتَ الرجال نوالهم ... فعِفّ ولا تطلب بجهد فتنكد
عسى سائل ذو حاجة إن منعته ... من اليوم سؤلا أن يسرك في غد
ولا تقعُدن عن سعي ما قد ورثته ... وما اسطعتَ مِن خير لنفسك فازدَد
إذا ما رأيتَ الشر يبعثُ أهله ... وقام جناة الشر بالشر فاقعد
وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تجر ... وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد
عن المرءِ لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمُقارن يقتدي

(١) هو الدكتور يعقوب صروف بن نقولا . ولد في بلدة الحدث بقرب بيروت وتعلم بها ونبغ في العلوم والمعارف فنال الإجازات العالية سنة ١٨٧٠م. ثم نزح إلى القاهرة وأسس مع زميله الدكتور فارس نمر باشا مجلة المقتطف وجريدة المقطم ومات سنة ١٩٢٧ م .

ولا تأمَلنْ ودَّ أمرىء قلَّ خيره ... ولا تكُ عن وصل الصديق بأحيد
إذا أنت حمَّلت الخؤون أمانــة ... فإنــك قــد أسندتها شرَّ مسند
ولا تُظهرنْ ودَّ امرىء قبل خُبره ... وبعد بلاء المرء فاذمُم او احمد

وقال أبو بكر محمد بن الحُسين بن دريد الأزْدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ :

يا ظبيةً أشبهَ شيءٍ بالمَهــا ... ترْعى الخزامى بين أشجارِ النقا ١
إمّا تريْ رأسيَ حاكى لوْنهُ ... طرّة صبحٍ تحت أذيال الدُّجى ٢
واشتعل المُبْيضُّ في مُسودّهِ ... مثل اشتعال النارفي جزْل الغضى ٣
فكان كالليل البهيمِ حلَّ في ... أرجائهِ ضوءُ صباحٍ فانجلى ٤
وغاضَ ماء شِرّتي دهرٌ رَمى ... خواطرَ القلب بتبريح الجوى ٥
وآض روْضُ اللهو يَبساً ذاويــاً ... من بعد ما قد كان مجّاجَ الثرى ٦
وضرّم النأيُ المشتُّ جذوةً ... ما تأتلي تسفَعُ أثناء الحشى ٧
واتخذَ التسْهيدُ عيني مألفــاً ... لما جفا أجفانها طيفُ الكرى ٨

(١) الظبية : الأنثى من الغزلان والمها جمع مهاة ، وهي الأنثى من البقر الوحشي . الخزامى نبت معروف طيب الرائحة ، النقا اسم موضع . (٢) إما أصلها إن مافإن شرطية وما زائدة ، وتريْ أصلهاترين وتريْ فعل الشرط وجوابه فيما بعد ، فكل إلخ . حاكى اشبه طرة صبح يعني وجه صبح وطرة كل شيء حافته وجانبه (٣) اشتعل : فشا وانتشر ، جزل ما غلظ من الحطب ، الغضى جمع غضاة وهي نوع من الشجر يبقى جمره طويلاً (٤) فكان كالليل البهيم كناية عن المظلم جداً ، والبهيم هو الأسود الذي لا ضوء فيه ، حل نزل ، ارجائه : جمع رجا بالقصر الطرف فانجلى فانكشف وظهر . (٥) غاض نقص او ذهب ، الشرة الحدة والنشاط استعيرت هنا للشباب والتبريح البلوغ في المشقة إلى غايتها . (٦) آض رجع ، يبسا يابساً ، ذاوياً ذابلاً ، مجاج من قولهم مج الغصن الماء إذا ألقاه ، الثرى بالقصر التراب الندي . (٧) ضرم أشعل وأوقد ، النأى البعد . المشت المفرّق ، جذوة هي الجمرة العظيمة ما تأتلي ما تقصر ، تسفع تحرك وتهلك ، أثناء الحشى يعني مارق من البطن وأراد به القلب والجوف . (٨) التسهيد والسهاد : السهر وهو عدم النوم ، مألفاً صاحبا . والمألوف هو الموضع الذي تقع فيه الألفة اي الاجتماع والصحبة ، جفا هجر ، والأجفان أغطية العيون =

فكل ما لاقيتُهُ مُغتَفرٌ في جنبِ ما أسأره ُشحط النّوى[١]
لوْ لابسَ الصخرَ الأصمّ بعضُ ما يلقاه قلبي َفضَ أصْلاد الصفا[٢]
إذا َذوي الغصن الرطيبُ فاعْلمنْ أن قصاراه نفادٌ وتَوى[٣]
شجيتُ لا بَل أجْرضتني غصّةٌ عنودُها أقتلُ لي من الشجى[٤]
إن َيحم عن عيني البُكا تجلدي فالقلب موقوف على سُبل البُكا[٥]
لو كانت الأحلام ناجتني بما ألقاه يقظانَ لأصْاني الرّدى[٦]
منزِلةٌ ما خِلتُها يرضى بها لنفسه ذو أدب ولا حِجا[٧]
ما خِلتُ أن الدهر يثنيني على ضرّاء لا يرضى بها ضبُّ الكدى[٨]
شيمُ سحابٍ خُلب بارقه وموقفٌ بين ارتجاء ومُنى
أرمقُ العيش على برْض فإن رُمت ارتشافا رمتُ صعب المنتسى[٩]
أراجعٌ لي الدّهر حولاً كاملا إلى الذي عوّد أن لا يُرتجى
يا دهر إن لم تكُ ُعتبى فاتئدْ فإن إرواكَ والعُتبى سوى[١٠]

= واحدها جفن ، الطيف ما يراه الإنسان من خيال المحبوب ، الكرى النوم

(١) مغتفر : متجاوز عنه ، سأره ابقاه شحط ابعد، النوى البعاد (٢ لابس خالط ، الأصم الصلب فض كسر ، وأصل الانفضاض التفرق وأصلاد جمع صلد وهي الحجارة الصلبة الشديدة (٣) ذوى جف وذبل ، الرطيب الناعم الرطب قصاراه آخر أمره وغايته ، نفاد فناء وذهاب، وتوى بالتاء الهلاك (٤) شجيت : حزنت او غصصت، والغص الاختناق باللقمة يقال شجيت بالعظم اي اختنقت به وأجرضتني خنقتني وغصة الموت والجرض هو الاختناق بالريق وعنودها معارضها.
(٥) إن حرف شرط يحم فعل الشرط بمعنى يمنع وتجلدي تصبري فالقلب الشرط وسبل الطرق واحدها سبيل . (٦) الاحلام : جمع حلم وهو ما يراه الإنسان في منامه وناجتني أخبرتني ، لأصماني لقتلني مكاني بلا تأخير ، الردى الهلاك .
(٧) المنزلة : الدرجة ، ما خلتها: ما حسبتها، الحجا: العقل (٨) يثنيني يعطفني: ضراء الصخرة الصماء ، الكدى بالضم جمع كدية وهو ما ارتفع من الصخور.
(٩) أرمق العيش أعطاني منه بقدر ما يسد رمقي ، برض العطاء القليل .
(١٠) العتبى : الرضى ، فاتئد : ارفق ، والإرواد الرفق .

رفـــهُ عليّ طالما أنصبتَني ... واستبقِ بعضَ ماءِ غصنٍ مُلتحى ١
لا تحسَبَنْ يا دهر أني ضارعٌ ... لنكبة تعرُقني عرْقَ المُدى ٢
مارستَ من لوْ هوتِ الأفلاكُ من ... جوانبِ الجو عليه ما شكا ٣
لكنها نفثة مصـــدور إذا ... جاشَ لغامٌ من نواحيها غما ٤
رضيتُ قسراً وعلى القسرِ رضى ... من كان ذا سُخط على صرفِ القضا ٥
إن الجديدين إذا ما استوْليا ... على جديد أدْنياهُ للبـــلى ٦
ما كنت أدري والزّمان مولعٌ ... بشت ملموم وتنكيث قوى ٧
أن القضاء قاذِفي في هـــوةٍ ... لا تـستبل نفسُ من فيها هوى ٨
فإن عثرتُ بعدها إن وألتْ ... نفسي من هاتا فقـولا لا لعا ٩
وإن تكن مدّتهـــا موصولةً ... بالحتف سلطت الأُسى على الأسا ١٠
إن امرء القيْسَ جرى إلى مدى ... فاعتاقَه حِمامه دون المدى ١١

---

(١) رفه : وسع أنصبتني اتعبتني، إستبق ابق، ملتحى الذاهب لحاه اي قشره الظاهر (٢) ضارع ذليل خاشع ، لنكبة : المصيبة والشدة ، تعرقني تزيل لحمي عن عظمي ، المدى بالضم جمع مدية وهي السكين (٣) مارست بتاء الخطاب عالجت، هوت سقطت، الأفلاك جمع فلك وهي التي تجري فيها الشمس والقمر والنجوم ، جوانب الأطراف، والجو الفضاء الذي بين السماء والأرض (٤) لكنها الضمير فيها كناية عن هذه القصيدة التي قالها، النفثة ما يلقيه الرجل من فيه إذا بصق، المصدور الذي يشتكي صدره، جاش علا وارتفع اللغام الزبد (٥) القسر القهر، السخط الغضب . (٦) الجديدين الليل والنهار ، استوليا غلبا وملكا وأدنياه قرباه ، للبلى للاخلاق (٧) ما كنت أعلم وجاء بالمعمول في البيت الذي بعده (٨) قاذفي رام بي والهوة الحفرة التي يتسع اسفلها ويضيق اعلاها، لا تستبل، اي لا تبرأ ولا تفيق، هوى سقط (٩) عثرت زللت، وقوله لالعا اي نجا وهو دعاء للعاثر بعدم السلامة (١٠) ضمير مدتها عائد على النكبة، الحتف الموت، الأسى بضم الهمزة جمع اسوة وهي التعزية (١١) امرؤ القيس معلوم انه كان هو طريد ابيه لقوله الشعر وخلاصة قصته ان بني اسد قتلت اباه وكان ملكاً عليهم فبعد عناء توجه الى قيصر ملك الروم واستنجده على قتلة ابيه فوعده وكان قد تعشق ابنة قيصر فحضر احد اعدائه من=

وخامرتْ نفس ابي الجبرِ الجوى حتى حواه الحتف فيمن قدحوى ١
وابنُ الأشج القيل ساقته نفسه إلى الردى حذارَ إشمات العدى ٢
واخترم الوضاح من دون التي أمّلها سيفُ الحِمام المنتضى ٣
فقد سما قبلي يَزيدُ طالبـاً شأو العُلا فما وهى ولاونى ٤
فاعترضتْ دون الذي رام وقد جد به الجدّ اللهَيم الأربَى ٥
هل أنا بدْعٌ من عرانين علا جارَ عليهم صرفُ دهر واعتدى ٦
فإن أنالتْني المقادير الذي أكيدُه لم آلُ في رأب الثأى ٧
وقد سما عمرٌو إلى أوتاره فاحتطّ منها كلّ عالي المستمى ٨

= بني اسد وأخبر قيصر بعشقه لها فكره ذلك وكره ان يقتله او يخذله بعد ما وعده فأرسل معه عسكراً أردفه بحلة ملوكية مسمومة فلبسها فمات، المدى الغاية، فاعتاقه وعاقه بمعنى عوقه، وحمامه بكسر الحاء موته . (١) خامرت خالجت، ابو الجبر من ملوك كندة خلاصة قصته انه تألب قومه عليه فاستعان بكسرى فأعطاه جيشاً من اساورته فرأوا بلاد العرب فاستوحشوها فسموه فمرض وعندها طلبوا الاذن بالرجوع فأذن لهم ثم بعد مدة مات على طريق اليمن بالمرض الذي نشأ من السم . (٢) ابن الأشج هو عبد الرحمن بن الأشعث، خلاصة قصته انه قد ولاه الحجاج سجستان فخرج ثم هرب الى «ريتقل» ملك الترك فبذل الحجاج الى ريتقل مالاً فسلمه الى اعوان الحجاج وكان في الطريق مقيداً معه رجل من بني تميم على سطح برج فرمى بنفسه من اعلى البرج فمات هو والتميمي وحمل رأسه الى الحجاج (٣) اخترم اي اهلك واقتطع (٤) سما علا . ويزيد هو ابن المهلب وخلاصة قصته انه خرج على بني أمية وخطب له بالبصرة وسلم عليه بالخلافة فدست بنو أمية رجلاً من بني كلب فقتله واستتب الأمر لهم، الشأو الغاية، العلا الشرف، فما وهى ضعف ولا ونى ولا فتر (٥) فاعترضت عارضت رام طلب، جد بالفتح أسرع الجد بالكسر العزم : اللهيم بالتصغير والأربى اسمان من اسماء الداهية وهما فاعل اعترضت (٦) بدع الذي يكون اول مخترع من كل امر؛ عرانين الأشراف واحدها عرنين وهو الانف (٧) أنالتني اعطتني، والمقادير جمع مقدار وهو القدر، اكيده اطلبه واحتال عليه، لم آل لم أقصر، رأب أصلح، الثأى الفاسد (٨) سما علا واوتار جمع وتر وهو طلب الدم، فاحتط فأنزل والمستمى المكان العالي المرتفع .

فاستنزَل الزّباء قسراً وهي من عقاب لوح الجوّ أعلى مُنتَمى ١
وسيفٌ استعلتْ بـه همّتُـه حتى رَمى أبعـد شأو المرتمى ٢
فجرّع الأحبوش سُما ناقعـاً واحتل من غمدان محْراب الدُّمى
ثم ابن هندٍ باشرَت نيرانُـه يوم أوراتٍ تميمـاً بالصلا ٣
ما اعتنّ لي يأس يُناجي همتي إلا تحدّاه رجاء فاكتَمى ٤
أليـةً باليَعمُـلات يرتَمي بها النَّجاء بين أجواز الفَلا ٥
خـوصٌ كأشباح الحنـايا ضمَّرٍ يرعفن بالأمشاج من جذب البرى ٦

(١) الزباء: اسم امرأة، عقاب طائر معلوم وهو من سباع الطير وجمعه عقبان ولوح الهواء الذي بين السماء والأرض. منتمى، موضع مرتفع إليه وخلاصة قصة الزباء وعمرا ان الزباء لما قتلت جذيمة الأبرش قعد عمرو ابن أخته مكانه وكان قصير وزيره كما كان لخاله وكان وقت قتل خاله نجا على فرس تسمى العصى فطلب قصير ان يجدع له عمرو انفه واذنيه دهاء منه لأخذ ثأر خاله فرحل قصير الى الزباء على هذه الحالة فاستأمنت له ثم بعد مدة وعناء أتى بالرجال مدججة بالسلاح في جوالق على ظهور الجمال فهربت الزباء الى نفق لها لتهرب منه فرأت عمراً على باب النفق فمصت خاتماً مسموماً كان بيدها وقالت: «بيدي لا بيد عمرو» وماتت مكانها فاستولى على ملكها. (٢) سيف يعني به سيف بن ذي يزن ملك اليمن، استعلت علت والشأو الغاية، المرتمى موضع المرمى وهو الذي يقال له الغرض والهدف والقرطاس، فجرع فسقى، الجرع القليل من الماء، والاحبوش ملك الحبش، وناقعاً بالغاً، واحتل نزل بالمكان، غمدان موضع بصنعاء اليمن ومحراب ههنا بصنعاء. (٣) ابن هند هو عمرو عم النعمان بن المنذر وكان له اخ مسترضع من بني تميم فقتل لهم ناقة فقتله صاحبها فنذر عمرو المذكور ان يقتل من بني تميم مائة فأجج ناراً وألقى فيها واحداً منهم إلى تسعة وتسعين فبينما هم كذلك يرجون تمام المائة إذ جاء رجل من البراجم يظن هناك وليمة لقتار اللحم فألقي في النار تمام المائة، وباشرت خالطت يوم أورات يوم معروف من أيام العرب أورات اسم موضع، تميما قبيلة، الصلا بالفتح وهج النار (٤) ما اعتن ما اعترض تحداه اعتمده وقصده فاكتمى استتر وتغطى (٥) ألية قسماً باليعملات جمع يعملة هي الناقة الصلبة الشديدة، النجاء السرعة، أجواز جمع جوز وجوز كل شيء وسطه والفلا جمع فلاة وهي الصحراء (٦) خوص الإبل الغائرة العيون من الهزال: والأشباح الأشخاص جمع شبح، والحنايا جمع حنية والحنية القوس وضمر جمع ضامر =

يرْسبنَ في بحر الدجى وبالضحى يطفون في الآلِ إذا الآل طفا [١]
أخفافهُنّ من حفاً ومن وجىً مرثومةٌ تخضبُ مُبيضّ الحصا [٢]
يحلن كل شاحب محقَوْقفٍ من طول إتداب الغدُو والسُرى [٣]
بارٍ يَرى طولُ الطوى جُثمانَه فهو كقِدْح النبع محنيّ القرا [٤]
ينوي التي فضلها ربّ العلى لما دحا تُربتها على البُنى [٥]
حتى إذ قابلها استعبرَ لا يملك دمع العين من حيثُ جرى [٦]
ثمّتَ طاف وانثنى مُستلماً ثمّتَ جاء المرْوتين فسعى [٧]
وأوجبَ الحجّ وثنى عُمرةً من بعد ما عجّ ولبى ودعا [٨]
ثمتْ راح في الملبّينَ إلى حيث تحجى المأزمان ومِنى [٩]

= وهو المهزول ، ويرعفن يسلن مأخوذ من الرعاف وهو سيلان الدم من الأنف والأمشاج الأخلاط جمع مشج وهو ما يسيل من الأنوف ، ومن جذب من سوق والبرى جمع برةوهي الحلقة التيتكون في انف البعير. (١) يرسبن يغبنوالرسوب الخوض في الماء والمغيب فيه ، والدجى جمع دجية وهي الظلمة ويطفون يعلون ، والآل سحاب كالماء يرى عندما ترتفع الشمس . (٢) أخفافهن جمع خف للابل بمنزلة الحوافر للخيل وحفا مقصور : وهو رقة أخفاف الإبل من كثرة المشي ؛ ووجى في الرجل يصيبها من الحفا ومرثومة مشقوقة من الحجارة؛وتخضبتصبغ (٣) شاحب متغير اللون من السفر وغيره، ومحقوقف معوج وتدآب مداومة والسرى سير الليل (٤) بار مطيع والجمع أبرار . تعبير للشاحب وبري من برى القلم وهو إضعافه وترقيقه والطوى الجوع وجثمانه جسمه وقدح عود صلب تعمل منه السهام والنبع شجر يعمل منه القسي واحدها نبعة ومحني معوج، والقرا الظهر (٦) ينوي يقصد والتي فضلها رب العلى يعني مكة، ودحا بسط والبنى جمعبنية وهو الشيء المبني ٦٠) استعبر بكى وهو مأخوذ من العبرة وهي الدمعة. ٧ ثمت هي ثم زيدت عليها تاء التأنيث وانثنى انعطف، ومستلماً لمس الحجر الأسودبيده او بفمه والمروتين المراد بهما الصفا والمروة فسعى فمشى. (٨) أوجب الحج ألزمه نفسه وثنى عمرة ألزم نفسه مع الحج عمرة ، عج رفع صوته بالدعاء والتلبية (٩) راح خرج بالرواح وهو الخروج بالعشي ، والملبين جمع ملب وهو المجيب بالتلبية تحجى أقام .

ثم أتى التعريف يقرُو مخبتـاً مواقفاً بين ألال فالنقـا ١
واستأنف السبع وسبعاً بعدها والسعي ما بين العقاب والصُّوى ٢
وراحَ للتوديع فيمنْ راحَ قـد أحرزَ أجراً وقلى هُجْرَ اللغا ٣
بذاك أم بالخيل تعدُو المرطى ناشزة أكتادُهـا قبَّ الكلى ٤
شعثاً تعادى كسراحين الغضـا ميلَ الحماليـق يبارينَ الشَّبا ٥
يحملنَ كل شمَّري باسـل شهم الجنان خائض غمر الوغى ٦
يغشى صَلا الحرْبِ بجدَّيه إذا كان لظى الحرب كريه المصطلى ٧
لو مُثِلَ الحتفُ لهُ قرْنـاً لما صدتهُ عنهُ هيبة ولا انثنى ٨
ولو حمى المقدارُ عنهُ مهجـة لرامها أو يستبيحَ مـا حمى ٩
تغدو المنايا طائعـات أمرهُ ترضى الذي يرضى وتأبى ما أبى ١٠

(١) التعريف وعرفات واحد وهو اسم موضع من مناسك الحج ويقرو: يتتبع المواضع مخبتاً متواضعاً لله تعالى، ألال موضع بعرفات، النقا الرمل. (٢) استأنف ابتدأ السبع رمي الجمار السبع وسبعاً أراد الثانية التي تلي الأولى، والسعي المشي والعقاب جمع عقبة. (٣) وراح للتوديع: لتوديع البيت الحرام كما يفعل الحاج بأن يطوف به سبعاً ويسعى بين الصفا والمروة، أحرز أجراً ملكه وأصابه، وقلى أبغض، وهجر بضم الهاء القبيح من الكلام، واللغا الباطل من الكلام. (٤) أقسم بذاك أم بالخيل، تعدو تجري: المرطى ضرب من العدو وهو السهل منه، وناشزة مرتفعة ومنه قولهم قعدت على نشز من الأرض اي مرتفع، وأكتادها جمع كتد وهو العظم الذي يكون في رأس الكتف وقب ضامرة. (٥) شعثاً مغبرين يعني مقربين من الله تعالى، تعادى أصله تتعادى تسابق، سراحين ذئاب الواحد سرحان الغضا شجر غليظ يدوم جمره، ميل الحماليق مائلة العيون يبارين، يعارضن، الشبا جمع شباة: وشباة كل شيء حده. (٦) يحملن اي الخيل شمري مأخوذ من التشمير، باسل شجاع، شهم الجنان حديد القلب، خائض داخل غمر الماء الكثير، الوغى الحرب (٧) يغشى يدخل، صلا حر النار كلظى. (٨) مُثِل صوِّر، الحتف الهلاك، وقرنك الذي يقارنك في بطش او قتال او علم (٩) حمى منع، المقدار القدر، المهجة النفس، لرامها لطلبها وأو بمعنى حتى، ويستبيح: يدرك ذلك الشيء نافذاً أمره فيه وهو منصوب بأن مضمرة بعد أو. (١٠) تغدو تأتي بالغدوة وورد تعدو اي تسرع.

بل قسماً بالشمّ من يعرُبَ هل لمقسم من بعد هــذا منتهى ١
هم الألى أجرَوْا ينابيعَ الندى هاميــة لمنْ عرا أو اعتفى ٢
هم الذين دوّخــوا من انتخى وقوّموا من صعر ومن صغا ٣
همُ الذين جَرّعوا فما حــلوا أفاوق الضيم ممراة الحسا ٤
أزالُ حشوَ نثرة موْضونــة حتى أُوارى بين أثناء الحثى ٥
وصاحبيَّ : صــارم في متنــه مثل مدَب النمل يعلو في الربى ٦
أبيض كالملح إذا انتضيتــه لم يلق شيئاً حده إلا فرى ٧
كأن بين عيره وغربــه مفتأداً تأكلت فيه الجُذى ٨
يُري المنون حين تقفو إثرهُ في ظُلم الأكباد سبلاً لا ترى ٩
ومشرف الأقطار خاظٍ نحضهُ حابى القصيرى جرْشع عردُ النسى ١٠

(١) قسما يميناً ،بالشم الطوال أو أشرف الناس ،يعرب قبيلة من العرب تنسب إلى يعرب بن يشجب بن قحطان ،لمقسم لحالف منتهى الغاية. ٢) ينابيع جمع ينبوع الندى الجود والكرم وهامية سائلة ،عرا قصد وتعرض للطلب ،او اعتفى او طلب من غير تعرض (٣) دوخوا أذلوا ، انتخى تكبر ،صعر تكبر أيضاً وأصل الصعر الميل وهو أن يميل الإنسان خده من التكبر والصغا الميل (٤) جرعوا سقوا ما حلوا خاصموا ، أفاوق هو شرب مقطع بنفس بعد نفس: الضيم الذل ممراة مدراة الحسا جمع حسوة وهو أخذك الشيء بفمك متجرعاً له قليــلاً (٥) أزال جواب القسم محذوف منه لا.حشو ما أدخل في جوفه فكأنه صار حشواً إذا لبسها ،نثرة درع واسعة موضونة محكمة النسج ،أواري أغطي وأثناء جمع ثنا وهو ما تثنى منها أي تراكب على بعض ،الحثى جمع حثوة وهو الثوب المجتمع . (٦) صاحبيّ يعني سيفه وفرسه ،مدب النمل ودبيبه مشيه. (٧) أنضيته جردته من غمده ، وفرى قطع. (٨) العير هنا الموضع الناتىء في وسط السيف ، الغرب الحد يعني حد السيف ، مفتأ موضع النار أكل بعضها بعضاً والجذي جمع جذوة وهي الجمرة العظيمة ٩) المنون المنية وتقفو تتبع ،سبلاً طرقاً (١٠) مشرف مرتفع عال ،والأقطار النواحي ،خاظ غليظ؛ والنحض اللحم ،مرتفع ،القصير ضلع في الجنب وهي الضلع السفلى جرشع غليظ الأضلاع او الضخم الصدر وهو محمود في الخيل وعرد الشديد من كل شيء ، النسى عرق مستبطن الفخذ يمر بالساق والعروق حتى ينتهي إلى الرسغ .

قريبُ ما بين القطاةِ والمطا بعيدُ ما بين القذال والصَّلا ١
سامي التليل في دَسيعٍ مفعَمٍ رحب اللبان في أمينات العُجى ٢
رُكّبْنَ في حواشبٍ مكتَنَّةٍ إلى نسور مثل ملفوظ النوى ٣
يرضخ بالبيد الحصى فإن رَقى إلى الربى أوْرى بها نارَ الحبا ٤
يُديرُ إعليطيْن في ملمومةٍ إلى لموحَين بألحاظ اللأى ٥
مداخلُ الخلقِ رحيبٌ شجْرهُ مخلَّوْلقُ الصهوة ممسودٌ وأي ٦
يجري فتكبو الريحُ في غاياته حسْرى تلوذ بجراثيم السحا ٧
لو اعتسفتَ الأرض فوق متنِه يجوبُها ماخفتَ ان يشكو الوجى ٨
تظنه وهو يُرى محتجباً عن العيون إن دأى أو إن ردى ٩
إذا اجتهدْتَ نظراً في إثره قلت سناً أوْمضَ أو برقٌ خفا ١٠

(١) القطاة مكان الردف والمطا الظهر كله: سمي بذلك لأنه يمطى اي يركب والقذال من رأس الفرس معقد عذازه اي حيث ينعقد عذاره وهو ما بين الأذنين والعذار هو اللجام، الصلا العجز وهو آخر الوركين. (٢) سامي هو العالي المرتفع والتليل هو العنق ودسيع مغرز العنق ودسيع في الظهر ومفعم ممتلىء والرحب: الواسع، اللبان الصدر وأمينات القويات الصحاح السالمات الصلاب والعجى جمع عجاية، وهي عصب مركب به شيء كفص الخاتم . (٣) ركبن يعني العجى، حواشب جمع حوشب، وهو عظم في باطن الحافر . مكتنة مستورة او مكتنزة . (٤) ضخ يكسر، البيد جمع بيداء وهي القفار، رقى: ارتفع الربى جمع ربوة وأورى أوقدبها الحبا دابة تضيء بالليل اسمها الحباحب فرخم لضرورة الشعر. (٥) الإعليط وعاء ثمر المرخ شبه أذني الفرس بذلك وهو شبيه بقشور الباقلا الرطب تشبه آذان الخيل، وملمومة هي الهامة المجتمعة . (٦) مداخل الخلق، مجموعه، شجر هو مجتمع اللحيين (٧) فتكبو فتعثر، غاية هي منتهى جريه، حسرى منكشفة، تلوذ تلجأ، جراثيم جمع جرثومة وهو التراب الذي يجتمع في أصول الشجر، والسحا ضرب من الشجر. (٨) اعتسفت الأرض قطعتها باعتساف منك اي على غير هدى، متنه ظهره، يجوبها يقطعها ويحرقها الوجى أن يبلغ الوجع إلى باطن الرسغ. (٩) دأى جرى وكذا ردي يقال دأى يدأى دأيا وردى يردى رديا إذا جرى جريا سريعا (١٠) سنا الضوء وأومض أضاء اي لمع .

كأنما الجوزاءُ في أرساغهِ والنجم في جبهته إذا بدا ١
هما عتادي الكافيان فقْدَ من أعددتُه فليَنْأَ عني من نأى ٢
فإن سمعتَ برَحىً منصوبة للحرب فاعلم أنني قطبُ الرحى ٣
وإن رأيت نارَ حرب تلتظي فاعلم بأني مُسْعِرٌ ذاك اللظى ٤
خيرُ النفوس السائلات جهرة على ظبات المرهفات والقنا ٥
إن العراق لم أفارق أهله عن شنآن صدَّني ولا قِلى ٦
ولا أطبَّني عيني مذ فارقتُهم شيءٌ يروق العين من هذا الورى ٧
هم الشناخيبُ المنيفاتُ الذرا والناس أدحالٌ سواهم وهُوى ٨
هم البحور زاخرٌ آذيُّها والناس ضحضاح ثعاب وأضى ٩
إن كنت أبصرت لهم من بعدهم مثلاً فأغضيت على وخْز السفا ١٠
حاشا الأميرين اللذين أوفدا عليَّ ظلا من نعيم قد ضفا ١١
هما اللذان أثبتا لي أملا قد وقف اليأسُ به على شفا ١٢

(١) الجوزاء نجم معروف وهو التوأمان، وأرساغ جمع رسغ وهو مفصل بين الحافر والوظيف من كل دابة، والنجم هو الثريا يصف غرة الفرس وتحجيله، وبدا ظهر . (٢) العتاد ما يتخذ عدة للدهر ، فلينأ فليبعد من نأى إذا بعد (٣) برحى منصوبة يريد برحى الحرب وهو موضع استدارة أهلها اذا تماركوا ، قطب : الحديدة او الخشبة التي تدور عليها . (٤) تلتظى تشتعل ومسعر موقد اللظى اللهب. (٥) جهرة عياناً، وظباة جمع ظبة كشبة: حد السيد والمرهفات السيوف الرقاق (٦) العراق قطر معروف على شاطىء دجلة والفرات وشنآن بغض وصدني منعني وصرفني والقلى البغض. (٧) اطبى استمال، ويروق يعجب. (٨) الشناخيب أطراف الجبال واحدها شنخوب والمنفيات المرتفعات الطوال وهي الشواهق والذرا جمع ذروة وهي أعالي الجبال، وأدحال جمع دحل وهي الحفير الغامض من الأرض يتسع اسفله ويضيق اعلاه وهوى جمع هوة بمعنى الدحل (٩) زاخر الماء الكثير الفائض والآذي الموج وضحضاح الماء القليل. (١٠) أغيضت صبرت على المكروه وخز طعن غير نافذ وقيل الوخز الطعن بسرعة . (١١) أوفدا : ارسلا ، وضفا كثر، من قولهم: ضفا ذيل الفرس إذا كثر وطال (١٢) شفا الشيء طرفه وحرفه .

تلافيا العيشَ الذي رَنَّقَــه صرفُ الزمان فاستساغَ وصفا[١]
وأجريا ماء الحيـا لي رَغداً فاهتز غصني بعد ما كان ذوى[٢]
همـا اللذان سموا بناظري من بعد إغضائي على لذْع القذى[٣]
هما اللذان عمرا لي جانبـاً من الرجاء كان قدْماً قد عفا[٤]
وقلداني منــة لوْ قرنت بشكر أهل الأرض عني ما وفى[٥]
بالعشر مِن معشارها وكان كالـحسوة في آذيٍّ بحر قد طمى[٦]
إن ابن ميكال الأمير انتاشني من بعد ما قد كنت كالشيء اللقا[٧]
ومد ضبعي أبو العباس من بعد انقباض الذرْع والباع الوزّى[٨]
ذاك الذي مـا زال يسمو للعلا بفعله حتى عـلا فوق العلا[٩]
لو كان يرقى احد بجوده ومجده إلى السماء لارْتقى[١٠]
ما إن أتى بحر نداه معتف على أواري علم إلا ارتوى[١١]
نفسي الفـداءُ لأميري ومن تحت السماء لأميريّ الفـدا
لا زال شكري لهما مواصلا لفظي أو يعتاقني صرْف المنى[١٢]

---

(١) تلافيا تداركا، ربقه كدره والمرنق الماء الكدر، صرف الزمان تقلبه من حال إلى حال واستساغ سلس في الحلق وطاب (٢) الحيا مقصور الغيث والخصب ورغدا السعة في العيش فاهتز غصني وطال وأصل الهز التحريك ، ذوى ذبل .
(٣) سموا بناظري رفعا ناظري والباء للتعدية إغضائي تغافلي . لذع حرق، القذى ما يقع في العين (٤) قدماً قديماً عفا درس (٥) وقلداني منة : اي جعلاهـا في عنقي وهو موضع القلادة، منة . نعمة وجمعها منن وقرنت قيست . ما وفى ما قام ولا عدل شكرهم (٦) الحسوة الجرعة مما يشرب. الآذي الموج وطمى امتلأ وارتفع (٧) ابن ميكال هو عبدالله بن محمد بن ميكال وهو فارسي من أمراء فارس وانتاشني نعشني واللقا الشيء المطروح . (٨) صنبعى عضدي : وأبو العباس هو اسماعيل بن عبدالله المتقدم فمدح الأب والابن والذراع واحدوالباع قدر مد اليدين ويطلق على الشرف والكرم . والوزى القصير . (٩) يسمو يرتفع (١٠) يرقى يرتفع . (١١) الندى الكرم معتف طالب الرفد أو اري حرارة الشمس والنار . وعلم جبل صغير، ارتوى اكتفى من الماء وغيره (١٢) او يعتاقني : او يصرفني. وأو بمعنى حتى والصرف التقلب .

إن الألى فارقتُ من غير قلى ما زاغ قلبي عنهمُ وما هفا ١
لكن لي عزماً إذا امتطيته لمبهم الخطب فآهُ فانفأى ٢
ولو أشاء ضم قطريه الصبا عليّ في ظل نعيم وغنى ٣
ولا عبتني غادةٌ وهنانةٌ تضني وفي ترشافها برء الضنى ٤
تفري بسيف لحظها إن نظرتْ نظرة غضبي منك أثناء الحشا ٥
في خدها روضٌ من الورد على النسرين بالألحاظ منها يجتنى ٦
لو ناجت الأعصم لانحط لها طوع القياد في شماريخ الذرا ٧
أو صابت القانت في مخلولق مستصعب المسلك وعر المرتقى ٨
ألهاه عن تسبيحه ودينه تأنيسها حتى تراه قد صبا ٩
كأنما الصهباء مقطوب بها ماء جنى ورد إذا الليلُ عسا ١٠
يمتاحه راشفُ برد ريقها بين بياض الظلم منها واللمى ١١
سقى العقيق فالحزيز فالملا إلى النحيت فالقُرَيَّات الدنا ١٢

(١) من غير قلى من غير غير بغض، مازاغ ما مال، ولا هفا ولا زال (٢) عزما عقداً على فعل أمر، المبهم من الأمور المغلق، فآه شقه (٣) ضم قطريه جمع ناحيتيه نعيم ما امتد عليه منه والنعيم ضد البؤس وهو طيب العيش وسعته (٤) لاعبتني من اللعب ومعناه مازحتني غادة الفتاة الناعمة وهنانة ثقيلة القيام والقعود وقيل الطيبة الحديث وتضني تسقم والضنى الهزال من المرض والترشاف المص في الثغر أو فوقه، برء الضنى ذهاب السقم أي هي تضنى وفي تقبيلها البرء من السقم (٥) تفري تقطع، اللحظ النظر، غضبى مغاضبة. أثناء الحشى ما انثنى منها أي ما انعطف والحشا الكبد وما اتصل بها (٦) النسرين النور الأبيض والألحاظ النظرات جمع لحظة، يجتنى يقتطف (٧) ناجت كلمت، الأعصم الوعل الذي في إحدى يديه بياض وربما كان البياض فيهما وسائر يديه أسود وأحمر، لانحط لنزل، القياد التذلل (٨) صابت صادفت والقانت القائم بالعبادة ومخلولق الجبل الأملس ومستصعب صعب والوعر الصعب والمرتقى المصعد (٩) ألهاه شغله، تأنيسها أنسها وحديثها؛ صبا مال ولها (١٠) الصهباء الخمرة ومقطب ممزوج، ماء جنى ورد أو ما أخذ من الورد طريا، عسا الليل أظلم (١١) يمتاحه يستقيه، راشف امتناول الشراب بشفتيه اللمى سمرة الشفتين (١٢) العقيق والحزيز والملا والنحيت مواضع بالبصرة ونواحيها .

فالمَرْبد الأعلى الذي تَلْتقِي به ... مَصارعَ الأسْد بألحاظ المَها [١]

محَلّ كلّ مُقرمٍ سَمتْ بــه ... مآثرُ الآباءِ في فَرْعِ العُلا [٢]

من الألى جَوْهَرُهمْ إذا اعتَزوا ... من جوهر منه النبيُّ المُصطفى [٣]

صلى عليهِ الله ما جَنّ الدُّجى ... وماجرت في فَلَكٍ شمسُ الضحى [٤]

جَوْنٌ أغارتْه الجنوبُ جانباً ... منها وَواصَتْ صَوْبَه يَدُ الصَّبا [٥]

نأى يَمانيّاً فلمــا انتشرتْ ... أحْضانُه وامتَدّ كسراهُ غَطا [٦]

فجلــل الأفق فكــل جانب ... منها كأن مِنْ قطرهِ المزْن حَبا [٧]

وَطبّقَ الأرضَ فكلّ بُقعةٍ ... منها تقول الغَيْثُ في هاتا ثَوى [٨]

إذا خَبَتْ بُروقه عَنّت لهــا ... ريحُ الصَّبا تُشب منها ما خَبا [٩]

وانْ وَنَتْ رُعوده حدا بها ... راعي الجنوبِ فَحَدَتْ كما حدا [١٠]

---

(١) المربد موضع بالبصرة بفتح الميم وكسر البــاء . مصارع الأسد مواضع سقوطها عند الموت وأراد بالأسد الرجال وأراد أنهم صرعوا بالحــاظ المها أي قتلتهم ألحاظ النساء الحسان البيض المشبهة بالمها وهي البقر الوحشي الواحدة مهاة والحاظ نظرات (٢) مقرم السيد الكريم وأصله فحل الإبل ومآثره جمع مأثرة الصنيعة الحسنة وفرع كل شيء أعلاه (٣) من الألى من الذين وجوهرهم أصلهم وإذا اعتزوا إذا انتسبوا والمصطفى المختار محمد ﷺ (٤) جن الدجى أظلم وستر . والدجى الظلمة (٥) جون فاعل سقى المقدمة وهي هنا السحاب الأسود وتأتي للأبيض ضده وأغارت أنزلت والجنوب الريح القبلية تجيء بالمطر وواصت واصلت والصوب نزول المطر والصبا الريح الشرقية (٦) نأى يمانياً أي طلع من ناحية اليمن وأصل الحضن ما دون الإبط إلى الكشح وكسراه تثنية كسر وهو طنب الخبا وإنما كني بالكسرين عن أذيال السحاب ويريد أن السحاب جرت على الارض أذيالها .وغطا ارتفع او انبسط (٧) فجلل فغطى والافق الناحية وجمعها آفاق ومن قطره بضم القاف من ناحيته وجمعه أقطار والمزن السحاب والواحدة مزنة وحبا امتلأ ودنا يريد السحاب (٨) طبق الارض، فكل بقعة فكل مكان وفي هاتا اي هنا وثوى أقام (٩) خبت بروقه اي خمدت وسكنت وعنت عرضت وتشب توقد (١٠) وإن ونت ضعفت وفترت، وحدا بها ساقها بالحداء وهو صوت السائق الذي يسوق الإبل بالغناء .

كأنّ في أحضانه وبَرْكِه ... بَرْكاً تداعى بين سَجْرٍ ووحى [1]
لم يرَ كالمزْنِ سواماً بُهّلا ... تحسَبُها مَرْعيّة وهي سُدى [2]
تقولُ للأجْرازِ لما استوْسقتْ ... بِسَوْقِه ثِقي بريٍّ وحَيا [3]
فأوْسعَ الأحداب سَيْباً مُحْسَباً ... وطبّق البطنان بالماء والرّوى [4]
كأنما البَيْداءُ غِبَّ صَوْبِه ... بحرٌ طما تيّارُهُ ثم سَجا [5]
ذاك الجدا لا زال مَخْصوصاً به ... قوم هُمُ للأرض غيث وجِدا [6]
لستُ إذا ما بهظتْني غَمْرةٌ ... ممّن يقول (بَلغَ السّيل الزُّبى) [7]
وإن ثوَتْ تحتَ ضُلوعي زفرةٌ ... تملأ ما بين الرّجا إلى الرّجا [8]
نَهْنَهْتُها مكظومة حتى يُرى ... مُخْضَوْضِعاً منها الذي كان طَغا [9]
ولا أقول إن عَرَتني نكبةٌ ... قول القنوط انقدّ في البطن السّلا [10]

(١) كأن في أحضانه في نواحي هذا الافق فالضمير عائد على الافق او على السحاب وهو أحسن، والبرك الاول الصدر والثاني الابل (٢) المزن السحاب وسواما بلا راعية وبهلا هي التي لم تحلب فتركت ضروعهـا ملأى من ألبانها لفصائلها . وسدى المهملة التي لا راعي لها (٣) الاجراز جمع جرز وهي الارض الصلبة التي لم يصبها المطر واستوثقت حملت ما يكفيها من الماء وثقي بري اي بشبع من الماء وحيا خصب (٤) الاحداب جمع حدب وهو ما ارتفع من الارض وغلظ وسيبا غطاء ، محسباً كافياً وطبق غطى والبطنان جمع بطن وهو الغـامض من الارض والروى الماء الكثير (٥) البيداء القفر وغب صوبه عقب مطره وانتصب غب على الظرف والصوب نزول المطر (٦) الجدا الاول النائل والعطاء والذي في آخر البيت يحتمل ان يكون أراد به الجداء بالمد وهو العناء ثم قصره لضرورة الشعر ويحتمل أن يكون أراد به المعنى الاول (٧) بهظتني شقت علي وغمرة هي الكربة والشدة واحدة الغمرات والزبى جمع زبية وهي حفرة تحفر للأسد في المكان العالي من الارض وليس يبلغها إلا سيل عظيم وهو مثل تضربه العرب إذا اشتد بأحدهم الامر (٨) ثوت أقامت زفرة هي ترجيع الصوت بالبكاء والرجاء الجانب (٩) نهنهتها كففتها وزجرتها مكظومة متجرعة ومخضوضعاً متذللاً وطغا كثر أو تكبر (١٠) عرتني أصابتني ، نكبة مصيبة القنوط اليأس انقد انقطـع والسلا بفتح السين المشيمة التي تتعلق بالولد وتسقط معه .

قد مارستْ مني الخطوبُ مارساً ... يُساورُ الهوْلَ إذا الهولُ علا [١]

ليَ التواءٌ إنْ مُعاديّ التوَى ... وليَ استواءٌ إن مُواليّ استوى [٢]

طعمي شَريٌ للعـــدوّ تارة ... والرّاحوالاريُ لمن وُدّي ابتغى [٣]

لدْنٌ إذا لُوينتُ سهلٌ معطفي ... ألوي إذاخُوشنتُ مرهوبَالشدا [٤]

وصوْنُ عِرْضِالمرء أن يبذُلَ ما ... ضَنّ به ممّا حواه وانتضى [٥]

والحمدُ خيرُ ما اتخذْتَ عُدّةً ... وأنفسُ الاذْخار من بعد التقى [٦]

وكلُّ قرْنٍ ناجمٍ في زمن ... فهو شبيـه زمن فيه بَدا [٧]

والناس كالنبت فمنهمْ رائـقٌ ... غضٌ نضيرٌ عوده مُر الجنى [٨]

ومنه ما تقتحمُ العين فإنْ ... ذقت جناه انساغَ عذباً في اللها [٩]

يُقوّم الشارخ من زَيغانـه ... فيستوي ما انعاجَ منه وانحنى [١٠]

والشيخ إن قوّمْته من زَيغـه ... لم يُقم التثقيف منهُ ما التوى [١١]

كذلك الغصنُ يسيرٌ عطفـه ... لدْناً شديدٌ غمزه إذا عسا [١٢]

مَنْ ظلم الناس تحاموْا ظلمهُ ... وعزّ عنهم جانباه واحتمى [١٣]

---

(١) مارست عاركت وضاربت ، الخطوب الامور، مارساً شديداً، يساور الهول ويطاوله والحول الشدة: علا ارتفع (٢) التواء انعواج، معاديالعدو، الموالي الصديق الذي يوالي، استوى اعتدل (٣) شرى حنظل والأري العسل الابيض ابتغى طلب (٤) لدن لين، لوينت أخذت باللين (٥) انتضى اختار (٦) عدة عمدة والاذخار جمع ذخر وهو المخبوء (٧) وكل قرن أي وكل أمة وناجم مرتفع (٨) رائع معجب والغض الطري الاخضر الناعم وكذلك النضير (٩) تقتحم العين تتركه كرهاً له وتعدوه إلى غيره وجناه ما اجتني منه وانساغ سهل بلعه وعذباً حلواً واللها جمع لهاة وهي اللحمة المعلقة بأصل الحنك (١٠) الشارخ الشاب والحدث المستقبل للشباب وشرخ الشباب أوله (١١) من زيغه من ميله . لم يقم أي يقوم، التثقيف التقويم ، ما التوى ما انعوج (١٢) لدناً ليناً والغمز التقويم عسا صلب. (١٣) تحاموا ظلمه تباعدوا عنه ، وعز عنهم امتنع والعزة الشدة احتمى امتنع .

عبيدُ ذي المال وإن لم يَطمعوا من غمره في جُرعة تشفي الصدى ١
وهم لمنْ أملق أعداءٌ وإنْ شاركهم فيما أفاد وحوى ٢
عاجمْتُ أيامي وما الغِرُ كمن تأزر الدّهر عليهِ واعتدى ٣
لا يرْفع اللبُّ بلا جدٍّ ولا يحطُّكَ الجهلُ إذا الجد علا ٤
مَنْ لم يعظْه الدّهرُ لم يَنفعه ما راح به الواعظ يوماً أو غدا ٥
مَنْ لم تُفدهُ عِبراً أيامُهُ كان العمى أولى به من الهدى
مَنْ قاس ما لم يرهُ بما يرى أراهُ ما يدنو إليه ما نأى
مَنْ ملَّكَ الحرْص القياد لم يزل يَكرعُ من ماءِ الذّل صرى ٨
مَنْ عارض الاطماعَ باليأس رنتْ إليه عين العز من حيث رنا ٩
مَنْ عطف النفس على مكروهها كان الغنى قرينهُ حيث انتوى ١٠
مَنْ لم يقفْ عند انتهاء قدْرهِ تقاصرتْ عنه فسيحاتُ الخُطا ١١
مَن ضيّع الحزمَ جنى لنفسه ندامةً ألذَعَ من سَفْع الذّكا ١٢
مَن ناط بالعُجْبِ عُرى أخلاقه نيطتْ عُرى المقت إلى هاتيك العُرى ١٣
مَن طال فوق مُنتهى بسطته أعْجزَهُ نيلُ الدنى بَله القُصا ١٤

(١) الغمر الماء الكثير الجرعة القليل من الماء تشفي تبرأ ، والصدى العطش (٢) أملق افتقر (٣) عاجمت أيامي أي امتحنتها واختبرتها الغر الذي لم يجرب الامور وتأزر من الإزار (٤) لا يرفع اللب من الرفعة اي لا تعلو منزلته واللب العقل وجمعه ألباب . والجد بالفتح الحظ والبخت (٥ راح أتى بالعشي . غدا أتى بالغدو (٦) من لم تفده أي تكسبه عبراً جمع عبرة وهي التذكرة . ٧) من قاس من مثل، وأراه ما يدنو أي ما يقرب . ما نأى ما بعد (٨) القياد الطاعة يكرع أي يشرب بفيه بدون آلة ، وصرى الماء الدائم الذي قد طال مكثه جمع صراة (٩) الاطماع جمع طمع ، واليأس انقطاع الرجاء ورنت نظرت .
(١٠) عطف أمال ورد، وقرينه صاحبه، وحيث انتوى أي حيث نوى من النية بمعنى القصد. وقيل من النوى وهو البعد (١١ تقاصرت قصرت، وفسيحات واسعات والخطا جمع خطوة (١٢) الحزم الاحتراس بالافعال، ندامة حسرة، ألذع أشد حرقة، سفع إحراق، الذكا التهاب النار ١٣) ناط علق وألصق، نيطت علقت والمقت أشد الغضب (١٤) من طال من ارتفع، البسطة الفضيلة، أعجزه أضعفه .

والناس ألفٌ منهمُ كواحـــد وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنى ١
وللفتى من ماله مــا قدّمت يداه قبل موته لا ما اقتنى ٢
وإنمــا المرءُ حديثٌ بعدَه فكن حديثاً حسناً لمن وعى ٣
إني حلبْتُ الدهر شطريهِ فقد أمَرّ لي حيناً وأحياناً حــلا ٤
وفرّ عن تجربـــةٍ نابي فقلْ في بازلٍ راضَ الخطوبَ وامتطى ٥
واللومُ للحُرّ مقـــيمٌ رادعٌ والعبد لا يردعه إلا العصا ٦
وآفة العقل الهوى فمن عــلا على هواهُ عقله فقد نجـــا ٧
كم من أخٍ مسخوطة أخلاقـُه أصفيتُهُ الوُدّ لخلق مرتضى ٨
إذا بلوت السيف محموداً فــلا تذمّهُ يوماً أن تراه قد نَبا ٩
والطِرْف يجتاز المَدى وربمـــا عنّ لمعـــداهُ عِثار فكبا ١٠
مَنْ لك بالمهذّب الندبِ الذي لا يجد العيبُ إليه مختَطى ١١
إذا تصفحْتَ أمور الناس لم تلف أمرأً حاز الكمال فاكتفى ١٢
عَوّل على الصبر الجميل فإنــه أمنعُ ما لاذَ به أولوا الحجا ١٣
وعطـف النفس على سُبل الأسى إذا استفز القلبَ تبريح الجوى ١٤

(١) عنى : قصد أو لزم . (٢) اقتنى اكتسب . (٣) لمن وعى لمن حفظ.

(٤) حلبت الدهر جربته وشطريه نصفيه وأراد بشطريه اول زمانه وآخره اونعيمه وبؤسه (٥) وفر عن تجربة نابي أي كشف عن أمره وهذا مأخوذ من قولهم فر عن الدابة إذا فتح فاها ليعرف سنها وينظر صغرها من كبرها، البازل من الابل الذي أتت عليه تسعة أعوام وراض الخطوب : أذلها (٦) اللوم بالفتح من الملامة وهي العتاب مقيم مصلح ، رادع كاف (٧) آفة العقل مضرته ومفسدته والهوى الشهوة (٨) مسخوطة من السخط وهو ضد الرضا ، أخلاقه طبائعه أصفيته الود أخلصت له الود (٩) بلوت اختبرت، نبا ارتفع عن المضرب ولم يقطع فيه شيئاً. (١٠) الطرف بالكسر الكريم من الخيل يجتاز يجوز، لمعداه لجريه وعثار مصدر عثر يعثر عثاراً (١١) المهذب العاقل الظريف والندب الرجل الخفيف في الحاجة.

(١٢) تصفحت نظرت واستيقظت . لم تلف : لم تجد، اكتفى أجتزأ به .

(١٣) عول على الصبر اي ارجع اليه واعتمد عليه (١٤) الأسى : التصبرة .

والدهر يَكبو بالفتى وتارةً يُنهضهُ من عثرة إذا كبا ١
لا تعجبنْ من هالك كيف هوى بل فاعجبن من سالم كيف نجا
إن نجومَ المجدِ أمسَت أفَّلا وظله القالصُ أضحى قد أزى ٢
إلا بقايا من أناس بهمُ إلى سبيل المكرُمات يُقتدى ٣
إذا الأحاديث انتضتْ أنباءهم كانت كنشر الروض غاداه السدى ٤
لا يسمع السامع في مجلسهم هُجراً إذا جالسهم ولا خنا ٥
ما أنعم العيشةَ لو أن الفتى يقبلُ منه الموت أسناءَ الرّشا ٦
أو لو تحلّى بالشباب عمرَهُ لم يستلبْهُ الشيبُ هاتيك الحُلى ٧
والليل مُلْقٍ بالموامي بركهُ والعيس يَنبثنَ أفاحيص القطا ٨
بحيث لا تُهدي لسمع نبأة إلا نئيم البوم أو صوتُ الصدى ٩
شايعتهم على السُّرى حتى اذا مالت أداة الرحْل بالجبس الدوى ١٠
قلتُ لهم : ان الهوينا غِبها وهْن فجدوا واحمَدوا غِب السرى ١١
ومُوحش الأقطار طامٍ ماؤه مدعثر الأعضاد مهزوم الجبا ١٢

(١) يكبو يعثر (٢) أفلا غائبات، القالص المرتفع وفرس قالس طويل القوائم أزى قصر ونقص (٣) يقتدى يتبع فعلهم (٤) إنتضت أظهرت من نضا الشيء اذا ظهر : الأنباء الأخبار ، النشر الرائحة الطيبة (٥) هجرا بضم الهاء القبيح من القول وكذا الخنا أيضاً . (٦) العيشة الحياة، أسناء الرشا أرفعها وأعلاها . (٧) تحلى بالشباب لبسه وتزيابه لم يستلبه لم يجرده الحلى جمع حلية (٨ الموامي جمع موماة وهي القفر، البرك الصدر، العيس الأبيض من الابل ينبثن يخرجن : أفاحيص القطا أوكارها وواحدها فحوص (٩) نبأة الصوت الخفي ونئيم البوم صوته والبوم الهام ، الصدى ذكر الهام (١٠) شايعتم تابعتم على رأيهم في سير الليل، أداة الرحل حوائج الرجل، الجبس الرجل الثقيل الجبان، الدوى الأحمق (١١) وهن ضعف فجدوا فاجتهدوا (١٢) موحش الأقطار يعني به بئراً او حوضاً الموحش ضد المونس والأقطار النواحي وطام مرتفع ، مدعثر مهدوم الأعضاد ما حواليه من صفائح الحجارة التي تعضده ، والجبا بفتح الجيم ما حول البئر او الحوض .

كأنما الريشُ على أرجائـــهِ زرقُ نصال أرهفت لتُمتهى[١]
وردتهُ والذئبُ يعـوي حوله مُستكُ سمِّ السمعْ من طول الطوى[٢]
ومنتـــجٍ أمّ أبيه أمـــهُ لم يتخوّن جسمه مس الضوى[٣]
أفرّشتهُ بنت أخيـه فانثنت عن ولد يُورى به ويشتوى[٤]
ومرقبٍ مُخلولق أرجـــاؤهُ مستصعبِ المطلكِ وعر المرتقى[٥]
والشخصُ في الآل يُرى لناظر ترمقه حينـاً وحيناً لا يُرى[٦]
أوفيتُ والشمس تمجُّ ريقهـا والظل من تحت الحذاء محتذى[٧]
وطـــارق يُؤنسه الذئب اذا تضوّر الذئب عشاءً وانضوى[٨]
آوى الى ناري وهيَ مألفٌ يدعو العفاة ضوؤها الى القِرى[٩]
لله ما طيفُ خيـــالٍ زائر تزُفّهُ للقلب أحلامُ الرؤَى[١٠]
يجوب أجوازَ الفـلا محتقراً هوْلَ دجى الليل اذا الليلُ انبرى[١١]

(١) أرجاؤه نواحيه زرق نصال بيض نصال، أرهفت رققت، تمتهى تسقي الماء
(٢) وردته يعني وردت هذا الماء والهاء عائدة على الماء في قوله طام ماؤه .
(٣) ومنتج يريد رب وغصن منتج أي مولود، أم أبيه أمه، يريد غصناً قطع من فرع من شجرة فتلك الشجرة أم الفرع والفرع جعله للغصن بمنزلة الأب على الاستعارة والشجرة أم الفرع وأم الغصن لأنها منها فصارت أماً لأبيه وأماً له .
(٤) أفرشته بنت أخيه حككت به غصناً آخر (٥) مرقب الموضع العالي الذي ينظر منه الى بعد ومخلولق أملس (٦) الشخص سواد الانسان وغيره تراه من بعد، والآل السراب . (٧) أوفيت أتيت ووصلت أي اليه وتمج تلقى ، وريقها لعابها، ولعاب الشمس انما يكون في وقت الظهيرة (٨) وطارق الذي يجيء بالليل وتضور صاح من الجوع . (٩) أوى الى ناري أي انضم الى ناري ومألف الموضع الذي يجتمع فيه الأحباب والعفاة طلاب المعروف. (١٠) لله ما طيف ؛ اللام في هذا بمعنى التعجب وما زائدة ، والطيف ما يراه النائم في صورة محبوبة ، خيال الشخص الذي يتخيل لك؛ وتزفه تحمله (١) يجوب يقطع أجواز أوساط والفلا جمع فلاة وهي القفر من الأرض ، والدجى : الظلمة وانبرى اعترض .

سائلهُ إن أفصح عن أنبائه أنى تسدّى الليل أم أنى اهتدى؟١
أو كان يدري قبلها ما فارسٌ وما مواميها القفارُ والقرى ٢
وسائلي بمزعجي في وطني ما ضاق بي جنابُه ولا نبا ٣
قلت : القضاءُ مالكٌ أمرَ الفتى من حيث لا يدري ومن حيث درى
لا تسألني واسأل المقدار هل يعصم منه وزرٌ ومزدرى
لا غروَ إن لحّ زمانٌ جائر فاعترقَ العظم المخّ وانتقى ٤
فقد ترى الناحلَ مخضرّا وقد تلقى أخا الإقتار يوماً قد نما ٥
يا هؤليّيّا هل نشدْتن لنا ناقبة البرقع عن عيني طلا ٦
ما أنصفت أم الصبيين التي أصبتْ أخا الحلم ولما يصطبى ٧
استحي بيضا بين أفوادك أن يقتادك البيض اقتياد المهتدى ٨
هيهات ما أسفعَ (هاتا) زلّةً أطربا بعد المشيبِ والجلا ٩
يا رُبّ ليل جمعتْ قطريهِ لي بنتُ ثمانين عروسا تجتلى ١٠

(١) سائله يعني الخيال . وعن أنبائه يعني عن أخباره وإن أفصح اي وان أبان وأنى كيف تسدى قطع الليل بالسير ، وأم أنى اي من أين (٢) او كان يدري قبلها يريد قبل هذه الذروة ، وما فارس يريد بلاد فارس ، والموامي واحدها موماة وهي الارض المقفرة (٣) بمزعجي بمزيلي ومخرجي والباء بمعنى عن فكأنه قال وسائلي عن مزعجي الجناب بفتح الجيم الناحية (٤) لا غرو لا عجب ، لح عرض فاعترق العظم اي ازال عنه اللحم ، المخ الذي فيه المخ ، انتقى استخرج منه النقى وهو المخ (٥) القاحل اليابس ، أخا الاقتار المقل من المال نما زاد واستغنى (٦) ياهؤليا يا هؤلاء ونشدتن طلبتن ناقبة البرقع اي المتقنع به (٧) ما أنصفت ام الصبيين هذا تقوله العرب تمدح به المرأة الكاملة العقل والصبيان ما يتخايل في بؤبؤ العين ، أصبت أخا الحلم أي رددته الى الصبا (٨) استحي فعل أمر من الاستحياء بمعنى الحياء وبيضا شيبا وبين أفوادك جمع فود والفودان جانبا الرأس أي ناحيتاه من يمين وشمال ، والبيض الثانية النساء المهتدى الأسير (٩ هيهات كلمة تبعيد وها اشارة للمؤنث ، وزلة خطيئة وسقطة ، الجلا بفتح الجيم انحسار الشعر عن مقدم الرأس (١٠) جمعت قطريه اي جانبيه اول الليل وآخره بنت ثمانين هنا الخمر وانما سماها بنت ثمانين لانه من شربها أوجبت عليه ثمانين جلدة وتجتلى من جلوت العروس وهو إظهارها .

لم يملك الماءُ عليهـــا أمرها   ولم يدنسهـــا الضرام المحتضى [١]
حيناً هي الداء ، وأحياناً بها   من دائهـا إذا يهيـــجُ يُشتفى
قد صانها الخمار لمـــا اختارَها   ضنا بها على سواها واحتبى [٢]
فهي ترى من طول عهد إن بدت   في كأسها لأعين الناس كلا عمى [٣]
كأن قرْن الشمس في ذرُورها   بفعلِها في الصحن والكاس اقتدى [٤]
نازعتها أروَع لا تسطـو على   نديمِه شرتـــهُ إذا انتشى [٥]
كأن نور الروض نظمٌ لفظه   مُرتجلا أو منشداً أو إن شدا [٦]
من كل ما نال الفتى قد نِلْتـــه   والمرْءُ يبقى بعده حسن الثنا [٧]
فإن أعش صاحبتُ دهري عالما   بما انطوى من صرفه وما انتشى
وإن أمُتْ فقد تناهت لذتي   وكل شيء بلغ الحـــد انتهى [٨]

وقال المثقب العبدي الحكيم الجاهلي من قصيدة :

لا تقولن إذا مـــا لم ترِدْ   أن تتم الوعد في شيء « نعم »
حسن قولُ «نعم » من بعد « لا »   وقبيح قول « لا » بعد « نعم »
إن « لا » بعد « نعم » فاحشةٌ   فبلا فابدأ إذا خفت النــــدم
وإذا قلت « نعم » فاصبر لهـا   بنجاز الوعـــد إن الخلف ذمْ

---

(١) لم يملك الماء عليها أمرها يريد لم تمزج بالماء فتكسر حدتها وسورتهـا ولم يغيرها والضرام الحطب الدقيق يوقد به الحطب الغليظ والمحتضى العود تحرك به النار. (٢) صانها حفظها،ضنا بخلا،احتبى ستر (٣) كلا عمى يعني أنه يعمى من نظر إليها فكيف من شربها (٤) قرن الشمس شعاعها ، ذرورها طلوعها يقال ذرت الشمس إذا طلعت والصحن القدح الكبير الواسع، والكاس القدح إذا كان فيه خمر،اقتدى اتبع أثره (٥ نازعتها ناولتها،أروع الحسن المنظر الجميل،لاتسطو لا تعدو النديم الصاحب،الشرة الحدة،انتشى سكر ٦)نور الروض زهر الروض مرتجلا الذي يأتي بما يخطر على باله على البديهة بغير استعداد،وشدا غنى ومنه الشادي (٧) الثنا هنا الثناء وهو في الأصل علم للخير والشر (٨) تناهت لذتي بلغت النهاية.

أكرم الجار وراعِ حقه ... إن عِرفان الفتى الحق كرم
لا تراني راتعاً من مجلس ... في لحوم الناس كالسبع الضَرِم
إن شرَّ الناس من يمدحُني ... حين يلقاني وإن غبتُ شتم
وكلامٍ سيىء قد وقرت ... عنه أذنايَ وما بي من صمم
ولبعض الصفحُ والإعراض عن ... ذي الخنا أبقى وإن كان ظلم

وقال الأفوه الأزديّ أحد فحول شعراء الجاهلية وحكمائها :

البيت لا يبتنى إلا على عمدٍ ... ولا عماد إذا لم تُرْسَ أوتادُ
فإن تجمّع أوتادٌ وأعمدة ... يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا
لا يصلحُ الناس فوضى لا سراة لهم ... ولا سُراة اذا جُهّالُهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأي ما صلحت ... فإن تولت فبالأشرار تنقاد
إذا تولى سُراة الناس أمرهم ... نما على ذاك أمرُ القوم فازدادوا

وقال الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه المتوفى سنة ٤٠ هـ :

أما والله إن الظلم شؤمٌ ... ولا زال المسيءُ هو الظلومُ
إلى الديان يوم الدين نمضي ... وعند الله تجتمع الخصومُ
ستعلم في الحساب إذا التقينا ... غداً عند المليك — من الملوم؟
ستنقطع اللذاذة عن أناس ... من الدنيا وتنقطعُ الهموم
لأمر ما تصرّمت الليالي ... لأمر ما تحركت النجوم
سل الأيّام عن أمم تقضتْ ... ستنبيك المعالم والرسومُ
ترومُ الخلد في دار المنايا ... فكم قد رام غيرك ما ترومُ
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم
لهوت عن الفناء وأنت تفنى ... فما شيىءٌ من الدنيا يدوم
تموت غداً وأنت قرير عين ... من الشهوات في لُجج تعوم

وقال :

عليكَ ببر الوالدين كليهما ... وبرّ ذَوي القربى وبرّ الأباعد
ولا تصحبن إلا تقيا مُهذباً ... عفيفاً ذكياً مُنجزاً للمواعد
وقارنْ إذا قارنت حراً مؤدباً ... فتى من بني الأحرار زين المشاهد
وكف الأذى واحفظ لسانك واتق ... فديتكَ في ودّ الخليل المساعد
ونافس ببذل المال في طلب العلى ... بهمة محمود الخلائق ماجدِ
وكن واثقاً بالله في كل حادث ... يصنكَ مدى الأيام من شر حاسد
وبالله فاستعصم ، ولا ترْج غيرَه ... ولاتك في النعماء عنه بجاحد
وغض عن المكروه طرفك واجتنب ... أذى الجار واستمسكْ بحبل المحامد
ولا تبن في الدنيا بناء مؤمل ... خلوداً فما حيٌ عليها بخالد

وقال ايضاً :

قدم لنفسك في الحياة تزوداً ... فلقد تفارقها وأنت مودّعُ
واهتم للسفر القريب فإنه ... أنأى من السفر البعيدِ وأشنع
واجعل تزَودَك المخافة والتقى ... فلعلّ حتفك في مسائك أسرع
واقنع بقوتكَ فالقناع هو الغنى ... والفقر مقرونٌ بمن لا يقنع
واحذر مصاحبة اللئام فإنهم ... منعوكَ صفوَ ودادهم وتصنعوا
أهلُ المودة ما أنلتهمُ الرّضا ... وإذا منعتَ فسمهم لك منقع
لاتفش سراً ما استطعت إلى امرىء ... يفشي إليك سرائراً يستودع
فكما تراه بسرّ غيرك صانعاً ... فكذا بسرك لا محالة يصنع
لا تبدأنْ بمنطق في مجلس ... قبل السؤال فإن ذلك يشنع
فالصمت يحسن كل ظن بالفتى ... ولعله خرقٌ سفيهٌ أرقع
ودَع المزاح فربُّ لفظة مازح ... جلبت إليك بلابلا لا تدْفع
وحفاظ جار لا تضعه فإنه ... لا يبلغ الشرف الجسيم مضيع

وإذا استقالك ذو الإساءة عثرة   فأقلْهُ ، إن ثواب ذلك أوسعُ
وإذا ائتمنت على السرائر فاخفها   واستر عيوب أخيك حين تطلعُ
وأطع أباك بكل ما أوصى به   إن المطيع أباه لا يَتضعضعُ

وقال :

صن النفس واحملها على ما يزينها   تعشْ سالماً والقولُ فيك جميلُ
ولا تُرينّ الناس إلا تجمّلا   نبا بك دهر أو جفاكَ خليلُ
وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد   عسى نكبات الدهر عنك تزولُ
يعز غنيُّ النفس إن قلّ مالُهُ   ويفنى غني المال وهو ذليلُ
ولا خيرَ في وُدّ امرىء مُتلون   إذا الريح مالَتْ مال حيث تميل
جواد إذا استغنيتَ عن أخذ ماله   وعند احتمال الفقر عنك بخيل
فما أكثر الإخوانَ حينَ تعدهُم   ولكنهم في النائبات قليـل

وقال عبدالله بن جعفر الطالبي المتوفى سنة ٥٨٠ ﻫ :

إذا كنتَ في حاجة مرْسلا   فأرْسل حكيما ولا توصهِ
وإن بابُ أمر عليك التَوى   فشاورْ لبيباً ولا تعصهِ
وإن ناصح منكَ يوماً دنا   فلا تنأ عنه ولا تقصهِ
وذا الحق لا تنتقصْ حقه   فإن القطيعة في نقصهِ
ولا تذكر الدهر في مجلس   حديثاً إذا أنتَ لم تحصهِ
ونصّ الحديثَ إلى أهلهِ   فإن الأمانة في نصهِ
وكم من فتى عازب لبه   وقد تعجَبُ العينُ من شخصه
وآخـرَ تحسبه أنوَكاً   ويأتيكَ بالأمر من فصه

وقال أبو الأسود الدؤلي التابعي المتوفى سنة ٦٥ ﻫ :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيهُ   فالقومُ أعداء له وخصومُ

وترى اللبيب مُحَسَّداً لم يجترم   شتمَ الرجال وعِرْضهُ مشتومُ
وكذاك من عظُمت عليه نعمةٌ   حُسّاده سيفٌ عليه ضروم
فاترك مُجاراة السفيه فإنهـا   ندمٌ وغِبٌّ بعد ذاك وخـيم
فإذا جريت مع السفيه كما جرى   فكلاكما في جريِـهِ مذموم
وإذا عتبت على السفيه ولُمتَهُ   في مثل ما تأتي فأنت ظلومُ
يا أيهـا الرجل المعلم غيره   هـلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدّواء لذي السقام وذي الضنى
    كيما يَصِـحُّ بـه وأنت سقيمُ
وأراكَ تُصلح بالرشاد عقولنا   أبداً ، وأنت من الرشادِ عقيم
لا تَنهَ عن خُلق وتأتي مثلَهُ   عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيّهـا   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما وعظتَ ويُقتدى   بالعلم منكَ ، وينفع التعليم

***

وقال العباس بن مرداس المتوفى سنة ١٦ هـ ، وأمه الخنساء الشاعرة :

ترى الرجلَ النحيف فتزْدريه   وفي أثوابـه أسدٌ مزيرُ
ويعجبك الطريرُ فتبتليـهِ   فيخلف ظنك الرجل الطريرُ
فما عِظَمُ الرجالِ لهم بفخر   ولكن فخرُهم كرمٌ وخير
بغاثُ الطير أكثرها فراخاً   وأمُّ الصقرِ مِقلاة نزورُ
ضعافُ الطير أطولها جُسوماً   ولم تطل البُزاة ولا الصقور
لقد عظم البعيرُ بغير لُبٍّ   فـلم يستغن بالعظم البعير
يُصَرِّفه الصبي بكل وجه   ويحبسه على الخسف الجرير
فإن أك في شراركم قليلا   فإني في خيـاركم كثير

وقال الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ رضي الله تبارك وتعالى عنه :

دعِ الأيامَ تفعل ما تشاءُ   وطبْ نفساً إذا حكم القضاءُ
ولا تجزع لحادثه الليالي   فما لحوادث الدنيا بقاء
وكن رجلاً على الأهوال جلداً   وشيمتُك السماحة والسخاء
يُغطى بالسماحة كل عيبٍ   وكم عيب يغطيه السخاء
ولا حُزن يدومُ ولا سرور   ولا عُسرٌ عليك ولا رخاء
ولا تُريَ الأعادي قط ذُلاً   فإن شماتةَ الأعدا بلاء
ولا ترج السماحة من بخيل   فما في النار للظمآن ماءُ
ورزقك ليس ينقصه التأني   وليس يزيد في الرزق العناء
إذا ما كنت ذا قلبٍ قنوع   فأنت ومالكُ الدنيا سواء
ومن نزلَتْ بساحتهِ المنايا   فلا أرضٌ تقيهِ ولا سماء
وأرضُ الله واسعة ولكن   إذا نزلَ القضا ضاق الفضاء

***

وقال عبدة بن الطيب المتوفى سنة ٣٩ هـ يوصي أبناءه :

ابنيّ، إني قد كبرْتُ ورابني   بصري، وفيّ لمنظرٌ مُسْتمتعُ
أوصيكم بِتقى الإلهِ فإنه   يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وببرّ والدكم وطاعة أمره   إن الأبرّ من البنينَ الأطوعُ
إن الكبيرَ إذا عصاهُ أهله   ضاقتْ يداه بأمره، ما يصنع
ودعوا الضغائن، لا تكن من شأنكم
إن الضغائن للقرابة توضع
يزجي عقاربَهُ ليبعث بينكم   حرباً كابعث العروقَ الأخدع
إن الذين ترونْهم إخوانكم   يشفي غليل صدورهم أن تصرعوا
وإذا مضيتُ إلى سبيلي فابعثوا   رجلاً له قلبٌ حديد أصمع

إن الحوداث تخترمْنَ وإنما عمر الفتى في أهله مُسْتَوْدَعُ
يسعى ويجمعُ جاهداً مستهتراً جداً ، وليس بآكل ما يجمع

وقال قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١١ م من قصيدة :

وما بعضُ الإقامة في ديار يهانُ بها الفتى إلا بلاء
وبعض خلائق الأقوام داء كداء البطن ليس له دواء
يريد المرء أن يعطى مناهُ ويأبى الله إلا ما يشاء
وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعدَ شدتها رَخاء
ولا يعطى الحريصُ غنى لحرص وقدْ ينمى على الجود الثراء
غني النفس ما عمرَت غني وفقرُ النفس ما عمرَت شقاء
وليس بنافع ذا البخل مال ولا مزْر بصاحبه السخاء
وبعضُ الداء ملتمسٌ شفاء وداء النوك ليسَ له شفاء

وقال صالح بن عبد القدوس المتوفى سنة ٨٥٥ هـ :

المرء يجمعُ والزمانُ يفرقُ ويظل يرقعُ والخطوب تمزقُ
ولأن يعادي عاقلا خير له من أن يكونَ له صديق أحمق
فاربأ بنفسك أن تصادقَ أحمقاً إن الصديق على الصديق مُصدق
وزن الكلام إذا نطقت فإنما يبدي عقول ذوي القول ا لمنطق
ومن الرجال إذا استوت أخلاقهم منْ يستشارُ إذا استشير فيطرقُ
حتى يحلُ بكل واد قلبهُ فيرى ويعرفُ ما يقول فينطق
ما الناس إلا عاملان فعاملٌ قد مات من عطش وآخرُ يغرق
والناس في طلب المعاش وإنما
بالجد يرزق منهمُ من يرزق

لو يُرْزَقون الناسُ حسب عقولهم ألفَيْتَ أكثر من ترى يَتَصدَّق
لكنه فَضْل المليكِ عليهمُ هذا عليهِ مُوَسَّعٌ ومُضيَّق

وقال أيضاً :

صَرَمتْ حِبالك بعد وصْلِكَ زَيْنب
والدهرُ فيه تصَرُّمٌ وتَقَلُّبُ
وكذاكَ وصلُ الغانياتِ فإنه آلٌ بِبَلْقَعة وبَرْقٌ خُلَّبُ
فدع الصِّبا فلقد عداك زَمانُه واجْهَد، فعُمرُكَ مَرَّ منه الأطيب
ذهبَ الشبابُ فما له من عودة وأتى المشيبُ فأينَ منه المهرَب
دع عنك ما قد فات في زَمَنِ الصِّبا واذكُرْ ذنوبك وابكها يا مُذنب
واخْشَ مُناقشة الحساب فإنه لا بُدَّ يحصي ما جَنيتَ ويُكتب
والليلَ، فاعلم، والنهارَ كلاهما أنفاسنا فيه تُعَدّ وتحسب
لم يَنْسه الملكانِ حينَ نَسيته بل أثبتاه، وأنتَ لاهٍ تلعب
والرُّوح فيكَ وديعةٌ أودعتها ستَرُدُّها بالرغم منكَ وتُسْلب
وغُرورُ دنياكَ التي تَسعى لها دارٌ حقيقتها مَتَاعٌ يذهب
وجميعُ ما حَصّلته وجمعتَهُ حقاً يقيناً بعدَ موتكَ يُنهب
تَبّاً لدارٍ لا يَدوم نعيمها ومشيدُها عما قليلٍ يخرب
لا تأمَنِ الدهرَ الخؤونَ لأنه ما زالَ قِدْماً للرجالِ يُهذب
وكذلكَ الأيامُ في غصّاتها مَضَضٌ يَذِلُّ له الأعز الأنجب
ويفوزُ بالمال الحقيرُ مكانةً فتراهُ يُرْجى ما لديه ويُرْغب
ويُسَرّ بالترحيب عند قدومه ويُقامُ عند سَلامِهِ ويُقرَّب
لا تحْرِصنْ فالحرص ليس بزائد في الرزق بل يَشقى الحريص ويتعب
كم عاجز في الناسِ يأتي رزقه رَغَداً ويُحْرَم كيِّس ويخيَّب
فعليك تقوى اللهِ فالزمها تَفُز إن التَّقيَّ هو البهي الأهيب

واعمل بطاعته تنلْ منه الرِّضا إنَّ المطيعَ لربِّه لمقرَّب
أدِّ الأمانةَ، والخيانةَ فاجتنب واعدل ولا تَظلم يطيب المكسب
واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دُعاءَه لا يُحجب
وإذا أصابك في زمانك شدّة وأصابك الخطب الكريه الأصعب
فادع لربِّك إنه أدنى لمنْ يدعوه من حبل الوريد وأقرب
واحذَرْ مؤاخاة الدَّنيِّ لأنه يعدي كما يعدي الصحيح الأجرب
واختر صديقك واصْطَفيه تفاخراً إن القرين إلى المقارن يُنسب
ودع الكذوبَ ولا يكنْ لكَ صاحباً
إن الكذوبَ لبئسَ خِلاًّ يصحب
وذر الحسود وإن تقادم عهده فالحقد باقٍ في الصدور مغيَّب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرْء يسلم باللسان ويعطَب
وزن الكلام إذا نطقت ولا تكن ثرثارةً في كلِّ نادٍ تخطب
والسِّرَّ فاكتمه ولا تنطقْ به فهو الأسير لديك إذ لا ينشب
واحرص على حفظ القلوب من الأذى
فرجوعها بعد التنافر يصعب
إن القلوبَ إذا تنافر ودها شبه الزجاجة كسرها لا يشعب
واحذر عدوك إذ تراه باسماً فالليث يبدو نابه إذ يغضب
لا خيرَ في وُدِّ امرئٍ متَملِّق حلو اللسان وقلبه يتلهَّب
يعطيكَ من طرف اللسانِ حلاوةً ويروغ منكَ كما يروغ الثعلب
يلقاكَ يحلف أنه بكَ واثق وإذا توارى عنك فهو العقرَب
وإذا رأيتَ الرزق ضاق ببلدة وخشيتَ فيها أن يضيقَ المكسَب
فارْحَل فأرض الله واسعة الفضا
طولاً وعرضاً شرقها والمغرب

وقال أبو الفتح البُستي المتوفى ببخارى سنة ٤٠٠ هـ :

زيادة المرء في دُنياه نقصانُ ورِبحه غير محض الخير خسرانُ
أحسنْ إلى الناس تَسْتَعبِد قلوبهم فطالما استعبدَ الإنسان إحسان
يا خادمَ الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الرِّبحَ مما فيه خسران ؟
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن على الدهر مِعْوانًا لذي أمَلٍ يرجو نداك فإن الحرَّ مِعْوان
واشدد يديك بحبلِ الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان
من يَتَّقِ الله يُحمد في عواقبه ويكفِهِ شرَّ من عَزُّوا ومن هانوا
من استعانَ بغير الله في طلبٍ فإن ناصرَه عَجْزٌ وخذلان
من كان للخير مَناعًا فليسَ له على الحقيقة خلان وأخدان
من جادَ بالمال جاد الناس قاطبة إليه ، والمال للانسان فتّان
مَنْ سالم الناس يَسْلم من غوائلهم وعاشَ وهو قرير العين جذلان
مَن يَزْرَع الشرَّ يحصدْ في عواقبه ندامة ، ولحصدِ الزّرع إبّان
من استنامَ إلى الأشرار نام وفي رِدائه منهمُ صِلٌّ وثعبان
كن ريّق البِشرِ إن الحرَّ همته صحيفةٌ وعليها البِشرُ عنوان
ورافق الرِّفق في كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرّنك حظ جرّه خرق فالخُرق هدمٌ ورفقُ المرء بنيان
أحسنْ إذا كان إمكان ومقدرة فلن يدومَ على الإحسان إمكان
فالرّوض يزدان بالأنوار فاغمه والحر بالعدلِ والإحسانِ يزدان
صنْ حر وجهك لا تهتك غلالته فكل حر لحر الوجه صوّان
دع التكاسل في الخيرات تطلبها فليس يَسْعد بالخيرات كسلان

لا ظلّ للمرء يعرى من نهى وتقى ... وإن أظلّتْهُ أوراقٌ وأفنان
والناس أعوانُ مَن والتْهُ دولته ... وهم عليه إذا عادتْه أعوان
«سَحْبانُ» من غير مال باقلٌ حصر ... و«باقلٌ» في ثَراءِ المال سَحْبان
لا تودِع السر وشّاء بــه مذِلاً ... فما رعى غنماً في الدّوِّ سرحان
لا تستشر غير نَدْبٍ حازم يَقِظ ... قد استوى فيه إسرار وإعلان
فللتّدابير فرْسان إذا ركضوا ... فيها أبرُّوا كما للحرْب فرسان
وللأمـور مَواقيتٌ مُقدّرةٌ ... وكلّ أمر له حدٌ وميزان
فلا تكن عَجِلاً في الأمر تطلبه ... فليس يُحْمَدُ قبل النضج بُحران
كفى من العيش ما قد سَدّ مِن عَوَز ... ففيه للحُـرّ قنيان وغُنيان
وذو القناعةِ راض من معيشته ... وصاحِبُ الحرص إن أثرى فغضبان
حسب الفتى عقله خِلاً يُعاشره ... إذا تحاماه إخوان وخُلاّن
إذا نَبا بِكريم موطنٌ فله ... وراءه في بسيط الأرض أوطان
يا ظالماً فَرِحاً بالعزّ ساعده ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهر يقظان
يا أيها العالم المرضيُّ سيرته ... أبْشِرْ فأنت بغير الماء ريّان
ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج ... فأنت ما بينها لا شكّ ظمآن
لا تحْسَبَن سروراً دائماً أبداً ... من سَرّه زَمَنٌ ساءته أزمان
وكلّ كسر فإن الدين يجبُرُه ... وما لكسر قنـاةِ الدين جبران

* * *

وقال ابن أبي بكر المقري المتوفى سنة ٧٨٥ هـ :

زيادة القول تحكي النقْصَ في العمل ... ومنطقُ المرء قد يهديه للزّلل
إن اللسان صغيرٌ جُرْمُه وله ... جُرْمٌ كبير كما قد قيل في المثل
عقلُ الفتى ليس يغني عن مُشاورة ... كحِدّةِ السيف لاتغني عن البطل

إن المشاور إما صائب غرضاً أو مخطىءٌ غيرُ منسوب إلى الخطل
لا تحقر الرأيَ يأتيك الحقير به فالنحل وهو ذبابٌ طائر العسل
ولا يغرنّكَ وُدٌّ من أخي أمل حتى تجربهُ في غيبة الأمل
لا تجزعن لخطب ما به حِيَل تُغني وإلا فلا تعجز عن الحيل
وقدر شكر الفتى لله نعمتَــه كقدر صبر الفتى للحادث الجلل
وإنّ أخوف نهج ما خشيتَ به ذهاب حُرّيّة أو مرتضى عمل
لا تفرحنّ بسقطات الرجال ولا تهزأ بغيرك واحذر صَوْلة الدُّول
وقيمة المرء ما قد كان يحسنه فاطلب لنفسك ما تعلو به وَصِل
وكلٌّ علم جناه ممكن أبــداً إلا إذا اعتصم الإنسانُ بالكسل
والمالَ صُنْهُ وَورّثه العدو ولا تحتج حياتك للاخوان في الأكل
فخير مال الفتى مالٌ يصون به عرضاً ويُنفقه في أشرف السبل
وأفضل البرّ ما لا مَنّ يَتبعه ولا تَقَدّمهُ شيء من المطل

***

وقال الإمام علي الرضا المتوفى سنة ٧٧ هـ :

واعجباً للمرءِ في لذتــه يَجُرُّ ذيل التيه في خطرته
يزجره الوعظ فـلا ينتهي كأنه الميت في سكرتــه
يبــارزُ الله بعصيانــه جهـراً ولا يخشاه في خلوته
وإن يقع في شدة يبتهـل فإن نجا عاد إلى عادتــه
إرغب لمولاك وكن راشداً واعلم بأنّ العزّ في خدمته
واتل كتاب الله تُهدَ بــه واتبع الشّرْع على سنته
لاتحرصَنْ فالحرص يزري بالفتى ويُذهبُ الرّونق من بهجته
والحظ لا تجلبه حيــلة كيف يخاف المرء من فوتته ؟

ما فاتك اليوم سيأتي غـداً   ما في الذي قدّر من حيلته
والرزقُ مضمون على واحدٍ   مفاتح الأشياء في قبضتـه
قد يُرزق العاجز مع عجزه   ويحرمُ الكيسُ مع فِطنته
لا تنهر المسكين يوماً أتى   فقد نهـاك الله عن نهرته
إن عضك الدهر فكن صابراً
على الذي نالـك من عضتـه
أو مسّكَ الضرُّ فـلا تشتكي   إلا لمـن تطمع في رحمته
لسانك احفظه وصن نطقه   واحذر على نفسك من عثرته
فالصمت زينٌ ووقارٌ وقد   يؤتى على الإنسان من لفظته
من أطلق القول بلا مُهلة   لا شك أن يعثر في عجلته
من لزم الصمت نجا سالماً   لا يندم المرءُ على سكتتـه
من أظهر الناس على سره   يستوجب الكيّ على مُقلته
من مازح الناسَ استخفوا به   وكان مذموماً على مزْحته
من جعـل الخمر شفاءً له   فلا شفاهُ الله من علتـه
من نازع الأقيال في أمرهم   بات بعيد الرأس عن جثّته
من لاعب الثعبان في كفه   هيهات أن يسلم من لسعته
من عاشر الأحمق في حاله   كان هو الأحمق في عشرته
لا تصحب النذل فتردى به   لا خير في النذل ولا صُحبته
من اعتراك الشكُّ في جنسه   وحاله فانظُرْ إلى شيمتـه
من غرس الحنظـل لا يرتجى
أن يجتني السكر من غرسته
من جعل الحقّ له ناصراً   أيـده الله على نُصرته

وقال أبو العتاهية المتوفى سنة ٢١١ هـ :

أنَلهو وأيامنا تذهبُ ؟ ونلعبُ والموت لا يلعبُ
عجبتُ لذي لعب قد لها عجبتُ ومالِيَ لا أعجبَ
أيلهو ويلعب مَنْ نفسه تموت ومنزلُه يخرب
نرى كل ما ساءنا دائماً على كل ما سرّنا يَغلب
نرى الليل يطلبنا والنهار ولم نَدْرِ أيهما أطلبُ
أحاط الجديدان جميعاً بنا فليس لنا عنهما مهرَب
وكلٌّ له مدّةٌ تنقضي وكلٌّ له أثر يُكتبُ

وقال صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ :

الجد في الجدّ والحرمان في الكسل فانصَبْ تُصب عن قريب غاية الأمل
واصبرْ على كل ما يأتي الزمان به صبر الحُسام بكفّ الدارع البطل
وجانب الحِرْص والأطماع تحظَ بما ترجو منَ العزّ والتأييد في عجل
ولا تكونَنْ على ما فات ذا حزَن ولا تظل بما أوتيت ذا جذل
واستشعر الحلم في كل الأمور ولا تسرع ببادرة يوماً الى رجل
وإن بُليت بشخص لا خلاقَ له فكن كأنك لم تسمع ولم يقل
ولا تمار سفيهاً في محاورة ولا حليماً لكي تقصى عن الزّلل
ولا يغرك من يُبدي بشاشته إليك خدْعاً فإنّ السمّ في العسل
وإن أردت نجاحاً في كل آونة فاكتُم أمورك عن حاف ومُنتعل
إن الفتى من بماضي الحزم متصفٌ
وما تعود نقص القول والعمل
ولا يُقيم بأرض طاب مسكنها حتى يقدّ أديم السهل والجبل
ولا يضيّع ساعات الزّمان فلن يعود ما فات من أيامه الأول

ولا يُراقب إلا من يُراقبه ولا يُصاحب إلا كل ذي نُبَل
ولا يعد عيوباً للوَرى أبداً بل يعتني بالذي فيه من الخلل
ولا يظنّ بهم سوءاً ولا حسناً بل التجاربُ تهديه على مَهل
ولا يصد عن التقوى بصيرَته لأنها للمعالي أوضحُ السبل
فمن تكن حُلة التقوى ملابسه لم يخش في دهره يوماً من العطل
مَن لم تفده صروف الدهر تجربةً فيما يُحاول فليسكن مع الهمل
من سالمتْه الليالي فليثقْ عجلاً منها بحرب عدو جاء بالحيل
من ضيع الحزم لم يظفـَرْ بحاجته ومن رمى بسهام العُجب لم ينَل
من جاد ساد وأحيا العالمون له بديع حمدٍ بمدح الفعل مُتـَّصِل

وقال حسام الدين الواعظي المتوفى سنة ٩٩٠ ه :

من ضَيَّع الحزم في أفعاله نَدِما وظل مُكتئباً والقلبُ قد سقِما
ما المرءُ إلا الذي طابتْ فضائلهُ والدين زَين يزينُ العاقل الفهما
والعلمُ أنفسُ شيءٍ أنت ذاخرهُ فلا تكن جاهلاً تستورْث الندما
تعلم العلم واجلس في مجالسه ما خاب قط لبيبٌ جالس العُلما
والوالدينِ فأكرم تنج من ضرر ولا تكن نكِداً تستوجب النقما
ولازمِ الصمت لا تنطق بفاحشة وأكرم الجار لا تهتك له حُرُماً
واحذرمن المزح كم في المزح من خطر كم من صديقين بعد المزح فاختصما
وصبّر النفس وأرشدها إذا جَهلت
وإن حضرْت طعاماً لا تكن نهما

وقال عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ ه مخاطباً ولده :

إعتزِلْ ذِكر الأغاني والغزَلْ وقلِ الفصلَ وجانِبْ من هزلْ
ودع الذكر لأيام الصبا فلأيام الصبا نجمٌ أفلْ

واتركِ الغادة لا تحفلْ بها تمسِ في عزٍّ رفيعٍ وتجَلّ
وافتكر في منتهى حُسن الذي أنت تهواه تجد أمراً جلل
واهجرِ الخمرةَ إن كنتَ فتى كيف يسعى في جنونٍ من عقل ؟
واتق الله فتقوى الله ما جاورتْ قلبَ امرىءٍ إلا وصل
ليس مَنْ يقطعُ طرْقاً بطلا إنما مَن يتّقي الله البطل
كتب الموتُ على الخلق فكم فلّ منْ جيش وأفنى من دول
أينَ نمرودُ وكنعانُ ومن ملك الأرض ووَلّى وعزل ؟
أينَ من سادوا وشادوا وبنوا هلك الكلّ ولم تُغن القُلل ؟
أينَ أربابُ الحِجى أهل النهى أين أهل العلم والقوم الأول ؟
سيُعيدُ الله كلا منهمُ وسيجزي فاعلاً ما قد فعل
أطلب العلم ولا تكسَلْ فما أبعد الخيرَ على أهل الكسل
واحتفل للفقه في الدين ولا تشتغل عنه بمالٍ وخوَل
واهجُرِ النّوم وحصّله فمن يعرف المطلوب يحقرْ ما بذل
لا تقل قد ذهبت أربابُهُ كلُّ من سار على الدّرْب وصل
في ازدياد العلم إرغامُ العدا وجمال العلم إصلاحُ العمل
جَمّلِ المنطقَ بالنحو فمن يحرَمَ الإعرابَ بالنطق اختَبل
إنظم الشعر ولازِم مذهبي في اطراح الرفدِ لاتبغ النحل
فهو عنوانٌ على الفضل وما أحسَنَ الشعر إذا لم يبتذل
أنا لا أختارُ تقبيلَ يدٍ قطعُها أجمل من تلك القُبل
مُلكُ كِسرى عنهُ تغني كِسرةٌ وعن البحر اجتزاءٌ بالوشَل

إطرح الدُّنيا فمِن عاداتها تخفضُ العالي وتُعلي مَن سفل
عيشةُ الرَّاغب في تحصيلها عيشةُ الجاهل فيها او أقل
كم جهول بات فيها مُكثراً وعليمٍ بات منها في علَل
كم شُجاعٍ لم ينل فيها المنى وجبان نال غايات الأمل
فاترك الحيلةَ فيها واتكل إنما الحيلة في ترك الحيَل
لا تقل أصْلي وفصْلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل
قد يسود المرءُ من دون أبٍ
وبحسن السبك قد يُنفى الدغل
إنما الوردُ من الشوك وما ينبُتُ النرجسُ إلا من بصل
قيمة الإنسان ما يُحْسِنه أكثر الإنسانُ منه أم أقل
بين تبذيرٍ وبخل رُتبة وكلا هذين ان زاد قتل
ليس يخلو المرءُ من ضدٍّ ولو حاول العزلة في رأس الجبل
دار جارَ السوءِ بالصبر وان لم تجد صبراً فما أحلى النُّقل
جانب السلطان واحذر بطشهُ
لا تعاند من إذا قال فعل
ان نِصْف الناس أعداءٌ لمن وُلي الأحكام هذا إن عدل
قصِّر الآمال في الدنيا تفزْ فدليلُ العقل تقصيرُ الأمل
غبْ، وَزُرْ غِبّاً تَزِدْ حبّاً فمن أكثر التَرْداد أقصاهُ الملل
لا يضرُّ الفضل إقلالٌ كما لا يضر الشمس أطباقُ الطفل
خُذْ بنصل السيف واترك غِمْدَهُ
واعتبر فَضْلَ الفتى دون الحُلل
حُبُّك الأوطان عجزٌ ظاهر فاغترب تلق عن الأهل بدل
فبمكث الماء يبقى آسِناً وسُرى البدر به البدرُ اكتمل

وقال العميد ابو إسماعيل الطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ هـ [١] :

أصالة الرأي صانَتْني عن الخطل وحلية ُ الفضل زانتني لدى العطَل [٢]
مجدي أخيراً ومجدي أولاً شَرَعٌ والشمس رأد الضُّحى كالشمس في الطفل [٣]
فيمَ الإقامة ُ بالزَّوراء؟ لا سكني بها ولا ناقتي فيها ولا جملي [٤]
ناءٍ عن الأهل صفرُ الكف مُنفرد كالسيف عُرِّيَ متناه عن الخلل
فلا صديقَ اليه مُشتكي حزني ولا أنيس اليه مُنتَهى جذلي [٥]
طال اغترابي حتى حن راحلتي ورحلها وقرا العسالةِ الذبل [٦]
وضج مِنْ لغب نضوي وعج لما ألقى ركابي ولجَّ الركبُ في عذلي [٧]

---

(١) هو العميد ابو إسماعيل الحسين بن علي الملقب بمؤيد الدين المشهور بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ هـ (٢) صانتني حفظتني والخطل الخطأ (٣) مجد وشرف وشرع سواء ورأد الوقت الذي بعد العصر وقبل الغروب [المعنى] شرفي وقت تجردي من الإمارة وشرفي وقت تسربلي بها سواء. إن حالي كالشمس في كون ضوئها وقت الضحى مخالفاً لضوئها وقت الطفل ولكنه لم ينقص من ذاتها الواحدة شيئاً، يفتخر بدوام شرفه على اختلاف الأزمان (٤) الزوراء : اسم لبغداد وناء بعيد . وصفر خال وعري جرد والخلل كسوة غمد السيف (٥) الجذل السرور [المعنى] اعتزلني الناس ببغداد فلم يأو إلي بها حبيب أبث إليه كدري من جور الزمان فيفرجه عني ويساعدني على صرفه ولا سمير أوصل اليه فرحي فيزيد سروري ويدفع وحشتي (٦) حن مال . والراحلة ما يرحل عليه من الابل مذكراً كان او مؤنثاً . والرحل العدة التي يركب عليها وقرا ظهره والعسالة الاهتزاز والذبل الجافة (٧) ضج صوت . واللغب التعب ونضوي اي مضوي بمعنى مهزول وعج صوت ولج تمادى . والعذل اللوم [المعنى] امتد بعدي حتى صوت من اجل تعبه ركوبتي وصوت لمثل ما صادف من تعب السفر إلى أصحابي الذين معي فيه وتمادوا في لومي على هذا السفر الذي امتد ولم ينته إلا لكي أطلب بامتداد بعدي عن وطني ثروة أتساعد بسببها على أداء عادة ثابتة ثبوت مروءة جهتي .

أريدُ بَسْطةَ كفٍّ أستعين بها على قضاءِ حُقوقٍ للعُلى قِبَلي
والدهر يعكِسُ آمالي ويُقنِعني من الغَنيمة بعد الكدِّ بالقَفَلِ ١
وذي شطاطٍ كصدْرِ الرُّمح مُعتقِل بمثلهِ غيرِ هيَّابٍ ولا وكِلِ ٢
حُلوِ الفكاهةِ مُرِّ الجدِّ قد مُزِجت بشدَّة البأس منه رقةُ الغَزَلِ ٣
طردْتُ سَرْحَ الكرى عن وِرْدِ مُقلتِه والليلُ أغرى سوامَ النَّوْم بالمقَلِ ٤
والركبُ ميلٌ على الأكوارِ من طربٍ صاحٍ وآخرَ من خمرِ الكرى ثَمِلِ ٥
فقلتُ: أدعوكَ للجلَّى لتَنصُرَني وأنت تخذُلني في الحادث الجَلَلِ ٦
تَنامُ عني وعينُ النَّجمِ ساهرةٌ وتستحيلُ وصِبغُ الليلِ لم يَحُلِ ٧
فهل تعينُ على غيٍّ هممتُ به والغيُّ يَزجُرُ أحياناً عن الفَشَلِ ٨
إني أريد طرُوقَ الحيِّ من إضمٍ وقد حَماهُ رُماةٌ من بني ثُعَلِ ٩

(١) يعكس يرد ويقنعني يرضيني والكد التعب والقفل الرجوع «المعنى» والزمن يرد على ما أرجوه ويجعلني بعد التعب في السفر والتغريب راضياً بالرجوع بدل الغنيمة التي هي مطمح نظري في تكبد المصاعب (٢) شطاط اعتدال القامة ومعتقل قابض وهياب خواف ووكل عاجز «المعنى» ورب صاحب اعتدل قامة كاعتدال صدر الرمح معتقل برمح مثله لا يخاف المخاوف ولا يعجز عن شيء من شئونه، التفت الى وصف صاحب له بهذه الأوصاف وغيرها وهو اقتضاب على عادة البلغاء من الالتفات من فن الى آخر تنشيطاً للسامع (٣) مزجت خلطت والبأس الشجاعة، ورقة الغزل لطف الكلام (٤) طردت أبعدت وسرح الكرى ونياقه والورد الوصول والمقلة شحمة العين الجامعة للسوداء والبيضاء وأغرى أولع، وسوام نيات (٥) ميل منحني وطرب نشط وثمل سكران «المعنى» وأصحابي منحنون على رحالهم، فريق منهم نشط يقظ لم يتغلب عليه النوم وفريق آخر ثمل متثاقل من تغلبه عليه (٦) الجلى الأمر العظيم، وتخذلني تتركني والحادث الجلل العظيم (٧) تستحيل تتحول وصبغ ظلام ويحل شأني ينتقل (٨) غي ضلال، ويزجر يمنع «المعنى» قد غفرت ما حصل من تقصيرك في بنومك فهل تساعدني على ضلال أردته ولا تخش عقباه بالذم على فعله. ٩) الطروق المجيء ليلاً والحي القبيلة، وإضم اسم جبل وحماه منعه، ورماة كسعاة خفراء، وثعل قبيلة من طيىء.

يحمُونَ بالبيض والسُّمر اللدان به ... سود الغَدائر حمرَ الحلى والحلل ١
فسِرْ بنا في ذمام الليل مُعتسِفاً ... فنفحةُ الطيب تهدينا إلى الحِلَل ٢
فالحبُّ حيث العِدا والأسدُ رابضةٌ ... حولَ الكِناس لهاغاب من الأسَل ٣
نَؤُمُّ ناشئةً بالجزْعِ قد سُقيتْ ... نِصالها بمياه الغنْج والكحَل ٤
قد زادَ طيبُ أحاديثِ الكرام بها ... ما بالكرائم من جُبْن ومن بخَل
تَبيتُ نارُ الهوى منهنّ في كبد ... حَرّى ونار القرى منهم على القلل ٥
يقتلنَ أنضاء حُبّ لا حِراك بهم ... وينحرون كرامَ الخيل والإبل ٦
يُشفى لديغُ العوالي في بيوتهمُ ... بنهلة من غدير الخمر والعسَل ٧
لعلّ لي إلمامة بالجزع ثانيـة ... يَدب منها نسيمُ البُرْء في عللي ٨
لاأكرَهُ الطعنَةَ النجلاء قد شفعت ... برَشقةٍ من نِبال الأعين النجل ٩

(١) البيض : السيوف والسمر الرماح واللدان اللينة ، الغدائر الضفائر من الشعر، والحلى ما تتحلى به المرأة، والحلل الثياب المزركشة (٢) ذمام كفالة ، ومعتسفاً متكلفاً طريقاً غير مألوف ، والحلل بيوت القوم التي يحلونها (٣) الحب: المحبوب ورابضة واقفة ،والكناس بيت الظبي والغاب شجر يسمى بالأسل ملتف على بعضه ويكون مأوى الأسود « المعنى » المحبوب في مكان به الرقباء ورجال الحي مقيمة حول مكانه مستعدة برماح تصول بها على من يقرب منه (٤) نؤم نقصد والجزع منعطف الوادي ،والنصال السيوف والغنج حسن شكل العيون والكحل سواد يعلو جفون العين خلقة « المعنى » نقصد بسيرنا قبيلة تربض في منعطف الوادي قد أعطيت عيونها حسن الشكل والكحل (٥) مقرى : إكرام الضيف، والقلل : جمع قلة وهي أعلى الجبل. (٦) إن نساء هذه القبيلة يقتلن ببراعة جمالهن عشاقهن حتى أعدم حركتهم عشقهم لهن، ورجالها لفرط كرمهم يذبحون جياد الأفراس والجمال لضيافهم. (٧) اي يبرأ من قتل في حبهن بأول شربة من ريق ثغرهن (٨) إلمامة نزولاً ويدب يسري (٩) أكره أبغض،والطعنة النجلاء الجرح المتسع برمح،وشفعت قرنت ورشقة ونبال السهام المراد بها هنا اللحاظ والنجل الواسعات « المعنى » لا أبغض الوخزة الواحدة من رماح رجال هذه القبيلة مقرونة برمية من لحاظ الأعين الواسعات لنسائها .

ولا أهابُ الصِّفاحَ البيضَ تُسْعِدُني ... باللمح من خَلَل الأستار والكَلَل ١
ولا أخلُّ بغزْلان تُغازلني ... ولو دَهتْني أسودُ الغِيل بالغِيل ٢
حُبُّ السلامة يثني عزمَ صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل ٣
فإن جَنحتَ اليه فاتخذ نَفَقاً ... في الأرض أو سُلَّماً في الجو فاعتزل ٤
ودَع غِمار العُلى للمقدمين على ... ركوبها واقتنِع منهن بالبلل ٥
يرضى الذليل بخفض العيش مَسكَنة ... والعزُّ عند رَسيم الأينُق الذلل ٦
فادْرأ بها في نحور البيد جافلة ... معارضاتٍ مثاني اللجْم بالجُدل ٧
إن العُلى حدَّثتني وهي صادقةٌ ... فيما تحدِّث أن العزَّ في النقَل ٨
لو أن في شرف المأوى بلوغَ مُنى ... لم تبرحِ الشمس يوماً دارةَ الحمل
أهبْت بالحظ لو ناديت مستمعاً ... والحظ عنيَ بالجهال في شغل
لعله إن بَدا فضلي ونقصُهم ... لعينه نام عنهم أو تَنبّهَ لي
أعللُ النفس بالآمال أرقُبها ... ما أضيقَ العيشَ لولا فسحةُ الأمل
لم أرتضِ العيشَ والأيام مُقبلةٌ ... فكيف أرضى وقد ولّتْ على عجل
غالى بنفسيَ عرْفاني بقيمتها ... فصنتها عن رَخيص القدْر مُبتذل
وعادة السيف أن يَزهى بجوهره ... وليس يعملُ إلا في يدَيْ بطل

(١) الصفاح: السيوف، وخلل الثقب الخفيف النافذ في الشيء والكلل ستر يحاط به شبه الناموسية «المعنى» ولا أخاف ضرب السيوف من رجال هذه القبيلة مسعدة لي بخفيف نظري لها من ثقوب أستار بيوتهن وحجراتهن (٢) أي لا أترك النظر من خلل الأستار إلى نساء هذه القبيلة التي تحادثني ولو أصابتني شجعانها بالهلاك فجأة (٣) أي الرغبة في النجاة من المشاق تصرف عزم ملازمها عن مكاسب الشرف وتولعه بالتثاقل والفتور عنها (٤) النفق كجبل سرب في الأرض له منفذ من مكان آخر (٥) غمار كثير والبلل القليل (٦) رسيم سرعة، والأنيق الذلل اي الإبل المروضة التي ليست بجموحة (٧) أدفع بهذه الأنيق في أوائل الصحاري، مسرعة مقابلات بأزمتها أعنة الخيل التي تصحبها في السير أي غير متأخرة عنها فيه (٨) النقل التحول والانتقال .

ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتني أناس كان شوطهم وراء خطوي لو أمشي على مهل
هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا من قبله فتمنى فسحة الأجل
فإن علاني من دوني فلا عجب لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتال ولا ضجر في حادث الدهر ما يغني عن الحيل
أعدى عدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فإنما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل
وحسن ظنك بالأيام معجزة فظن شراً وكن منها على وجل
غاض الوفاء وفاض الغدر وانفرجت
مسافة الخلف بين القول والعمل
وشان صدقك عند الناس كذبهم وهل يطابق معوج بمعتدل
إن كان ينجع شيء في ثباتهم على العهود فسبق السيف للعذل
يا وارداً سؤر عيش كله كدر أنفقت صفوك في أيامك الأول
فيم اقتحامك لج البحر تركبه ؟ وأنت تكفيك منه مصة الوشل
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا يحتاج فيه إلى الأنصار والخول
ترجو البقاء بدار لا ثبات بها فهل سمعت بظل غير منتقل ؟
ويا خبيراً على الأسرار مطلعا
أصمت ففي الصمت منجاة من الزلل
قد رشحوك لأمر إن فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال المرحوم عبدالله باشا فكري يخاطب نجله المرحوم أمين باشا :

إذا نام غر في دجى الخطب فاسهر وقم للمعالي والعوالي وشمر
وخل أحاديث الأماني فإنها علالة نفس العاجز المتحير
وسارع إلى ما رمت مادمت قادراً عليه فإن لم تبصر النجح فاصبر

ولا تأتِ أمراً لا ترجّي تمامه ... ولا مورداً ما لم تجد حسن مصدر
وأكثرْ من الشورى فإنك إن تصبْ ... تجد مادحاً أو تخطىء الرأي تعذَر
ولا تستشرْ في الأمر غير مجرّبٍ ... لأمثاله أو حازم متبصّر
ولا تبغ رأياً من خؤون مخادعٍ ... ولا جاهل غرّ قليل التدبر
فمن يَتبعْ في الخطب خدعة خائن ... يعضُّ بنانَ النادم المتحسّر
ومن يَتتبع في أمره رأيَ جاهل ... يَقُده إلى أمر من الغيّ منكر
ولا تصغ في ردِ الصديق لكاذب ... نَموم وإن يَعرضْ لك الشك فاخبر
ولا تَغترِر تَندمْ ولا تك طامعاً ... تذَل ولا تحقِرْ سواك تحقَّر
وعوّد مقالَ الصدق نفسك وارضه ... تصَدق ولا تركن إلى قول مفترَي
ودَع عنك إسراف العطاء ولا يكن ... لِيكفيك في الإنفاق إمساك مُقترِ
ولا تَقفُ زلاّتِ العبادِ تعدّها ... فلستَ على هذا الورَى بمسَيطر
ولا تتعرض لاعتراض عليهمُ ... دَع الخلق للخلاق تسلم وتؤجَر

●

وقال عبد القيس بن خفاف البرجمي المتوفى سنة ٥١ هـ :

أبُنيّ إن أباك كاربُ يومه ... فإذا دُعيت إلى المكارم فاعجَلِ
أوصيك إيصاء امرىء لك ناصح ... طَبنٍ برَيب الدهر غير مُغفل
الله فاتقه وأوف بنذره ... وإذا حلَفْتَ ممارياً فتحلل
والضيفَ أكرمْهُ فإن مبيتَه ... حقٌ ولا تكُ لعنة للنزل
واعلم بأن الضيفَ مُخبرُ هله ... بَمبيتِ ليلته وإن لم يسأل
وصل المواصل ما صفا لك وُده ... واجذذْ حبال الخائن المتبدل
واحذر محل السوء لا تحلل به ... وإذا نبا بك منزلٌ فتحول
واستأنِ تَظفر في أمورك كلها ... وإذا عزمت على الهدى فتوكل

واستغنِ ما أغناك ربك بالغنى ... وإذا تصبك خصاصة، فتجمّل
وإذا افتقرت فلا تكن متجشّماً ... ترجو الفواضل عند غير المفضل
وإذا تشاجرَ في فؤادك مرة ... أمران فاعمدْ للأعفّ الأجمل
وإذا هممتَ بأمر سوءٍ فاتئد ... وإذا هممتَ بأمر خيرٍ فاعجل

●

وقال فقيد اللغة ناصيف بن عبدالله اليازجي اللبناني المتوفى سنة ١٢٨٧ هـ :

دع يومَ أمس وخذ في شأن يوم غد ... واعدُد لنفسك فيه أفضل العُدَدِ
واقنع بما قسم الله الكريمُ ولا ... تبسُط يديك لنَيلِ لرزق من أحد
والبسْ لكل زمان بُرْدة حضرت ... حتى تحاك لك الأخرى من البُرد
ودُر مع الدهر وانظر في عواقبه ... حذارِ أن تبتلى عيناك بالرمد
متى ترى الكلب في أيام دولته ... فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرَد
واعلم بأن عليك العارَ تلبسهُ ... من عضة الكلب لا من عضة الأسد
لا تأمُل الخير من ذي نعمة حدثت ... فهو الحريصُ على أثوابه الجدَد

●

وقال مؤلف هذا الكتاب السيد أحمد الهاشمي معارضاً لاميّة الطغرائي :

عليك بالصبر والإخلاص في العمل ... ولازم الخير في حِل ومُرتحَل
وجانب الشر واعلم أن صاحبه ... لا بد يجزاه في سَهل وفي جبل
واثبتْ ثبات الرواسي الشامخات ولا ... تركنْ إلى فشل في ساعة الوَهل
وكن كرَضوَى لما يعروك من نُوَب ... ولا تكن جازعا في الحادث الجلل
واصبرْ على مضَض الأيام محتملا ... ففيه قرْع لباب النجح والأمل
تأن متئداً فيما تروم ولا ... تعجل وإن خلق الإنسان من عجل
لا تطلب العِزّ في دار وُلدْت بها ... فالعِزُّ عند رَسيم الأينق الذلل
شمّر وجدَّ لأمر أنت طالبُه ... إذ لا تنال المعالي قط بالكسل

واحذر مساوىء أخلاق تشان بها وأسوأ السوء سوءُ الخلق والبَخَل
واخفض جناحَكَ للمولى وجدّ ونَل ما أقبحَ الكِبرَ والإمساك بالرّجل
لا تسأل النذلَ واقصد ماجداً حدباً
في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زُحَل
ولا تجادل جَهولا ليس يفهم ُما تقولُ فالشر كل الشرّ في الجدل
ولا تكن لنزول الخطبِ مضطرباً في حادث الدهرِ مايغني عن الحِيَل
الجود أحسَنُ ما أوليتَ من خلق والعفو أنقى لداء الضغن والدخَل
والحلم ملحُ فساد الأمر يُصلحه والبذلُ خير فِعال الماجد البطل
لا تقتحم غمرات البحر مرتكبا وأنت يكفيك منه مَصّة الوشل
ولا تُعاشرْ سوى حزم أخا ثقة واربأ بنفسك أن ترعى مع الهمَلِ
لا تنخدع لصديق يَدّعي مَلقاً
بل حاذر الناسَ واصحبهم على دخل
لا تأمنن أحداً واحذر مكائدهم وظن شرّاً وكن منهم على وجل
ولا تغُرّنك الدنيا بزهرتها فهل سمعت بظل غير منتقل
إن الغنيّ غنيّ النفس في كرم بالطبع لا باقتناء الشاء والابل
إن الصنيعة للأنذال تُفسدهم كما تضر رياحُ الورد بالجُعَل
مرارة النصح تحلو لي مضاضتها ورُبما صَحّت الأجسام بالعلل
دع التكلف لا يجديك منفعة ليس التكحُّل في العينين كالكحل
أرى الرعاء رعاء الشاء في ترَفِ في أرفع العيش بين الخيل والخوَلِ
وسادة العصْرِ قد ألقوْا مقالِدَهم الى الطغام شِرار الناس والسفل
تحكموا في قضايا الناس واحتكموا وحكّموا كل ذي جهل أخي خَبَل
من كل غر جهول لا يرى رشداً كباقل مثلاً في العيّ والخطل
تَعْساً لشرّ زمان ظل طوْع يد اللئام يَسقيهم عَلاً على نهل

القبضُ والبَسْط في أيدي ذوي شطط
من كلِّ سكران من خمر الهوى ثمِل
تَسْطو الكلابُ على أسدِ الشرى سفَهاً
والباز الأشهب يخشى صَوْلة الحجَل
والقرد يضحك من نمر على هُزؤ والكلب يوعِدُ ليث الغيل بالغيَل
نالَ المرامَ علوجٌ لا خلاق لهم فوق المؤمّل من شبٍّ ومكتهل
أملى لهم دَهرُهمُ فاستمهلوا أبداً مرخى لهم من مُروع العيش والطوَل
شرُّ العصور زمانٌ يستمد به خِبٌ لئيم غدَا في الشرّ كالثمل
لا يعلم الرُّشدَ من غيٍّ وليس له سوى الشرارة في قول وفي عمل
يشكو الطوى كل ذي فضل وذي أرب
وسوقَةُ الناس في رغد وفي جذل
مالي وللبلدةِ الحمقاء أسكنها مساكنا لذوي خرق أولي حِيَل
وليس لي ناقةٌ فيها ولا جمل وليس لي ثم من ثور ولا حمل
لا يستقيم وِفاقٌ لي بمثلهم وهل يطابق مُعوجٌ بمعتدل ؟
قد ذقتهم وبَلوت الحال عندهم فما حصلتُ على صاب ولا عسل
لا يفعلون إذا قالوا فقد بعدت مسافة الخلف بين القول والعمل
أضحت مواعيدعُرقوب لهم مثلا وما مواعيدُهم إلا على دخل
أشكو الزمان وأهليه وأمقتهم إذ سوءُ أفعالهم أوْفى على القلل
ساءت سريرتهم، حالت طريقتهم زاغت بصيرتهم عن أقوم السبل
علم بلا عمل، حُكم بلا حكم ظلم على عجل وعدٌ على مهل
الإفك والزورُ والبهتان عندهم والسعي في الأرض بالإفساد والخلل
الكذب مستحسن والصدق عندهم مستهجن من صفات العاجز الوكل
أهنى الطعام لحوم الناس عندهم والنمُّ فيما لديهم شربة العسل

نكثُ العهود سجاياهم ودأبهمُ ... خلف الوعود وذا من أسوإ الثقلِ
يا دهرُ مالك والأحرار تقهرُهم ... تذل كل كريم الأصل مقتبل
حتى متى يا زمان السوء تفعل ما ... تشيبُ فيه النواصي غير محتمل
تؤخر الفاعل المرفوع تحفظه ... مقدماً لمفاعيل على البدل
وساقة الجيش قد أضحت مقدمة ... مثل التليل غدا في مؤخر الكفل
فلست أحفظ في ذي الدهر من أسف ... أطال ايام عمري ام دنا أجلي
واهاً لقلبيَ يوم البَين إذ ظعنوا ... فالعين في لجج والقلب في شعل
كيف التصبر من ناريْ نوًى وجَوًى ؟
وفي الحشا نَكْءُ جُرح غير مندمل
فقد فقدتُ الألى كانت ببهجتهم ... نور النواظر في الأحداق والمقل
لم أكتحل بقرار بعد ما ارتحلوا ... ولا ابتغيتُ لهم في الناسِ من بَدلِ
لم يَبق لي الدهر بعد البَين من جلد ... ما أستطيع به توديعَ مرتحل
ولا من الغمض ما أقرى الخيال به ... ولا من الدمع ما أبكي على طلل
قلبي على لهَبٍ والجسم في نصبٍ ... والروحُ في وصب واللب في ذهل
حسبي الغرام حليفٌ والجوى أبداً ... منادماً ، وسميرٌ غيرُ منفصل
خذها مُحبرة غَيداءَ غانية ... أتت على عجل كالقابس العجل
جاءت من الهاشمي) لاتبتغي مهراً ... من خاطب لبنات النظم في عطل

●

وقال محمد اليمني الملقب بنجم الدين المتوفى سنة ٥٦٩ ھ :

ولا تحتقِرنْ كيد الضعيف فربما ... تموتُ الأفاعي من سموم العقارب
وقد هدّ قِدْماً عرش َبلقيس هُدْهُدٌ ... وخَرّب حفرَ الفأرِ سد مأرب
إذا كان رأس المال عمرُك فاحترز ... عليه من الانفاق في غير واجب
فبين اختلاف الليل والصبح معرك ... يكر علينا جيشه بالعجائب

وما راعني غدرُ الشبابِ لأنني　　أنِستُ بهذا الخلق من كل صاحب
وغَدْرُ الفتى في عهدِهِ ووفائِه　　وغدر المواضي في نُبُوّ المضارِبِ

وقال الحريري المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ :

سامِح أخاكَ إذا خَلطْ　　منه الإصابة بالغَلَطْ
وتجافَ عن تعنيفِهِ　　إن زاغَ يوماً أو سَقَطْ
واحفظ صَنيعَكَ عندهُ　　شَكَرَ الصنيعةَ أو غَمَطْ
وأطِعه إن عاصى، وهُنْ　　إن عزّ، وادن إذا شَحَطْ
واقن الوَفاءَ ولو أخَلّ　　بما اشترطْت وما اشترط
واعلم بأنك إن طلبتَ　　مُهذباً رُمْتَ الشطط
مَن ذا الذي ماساءَ قطْ　　ومَن له الحسنى فقط ؟

وقال أيضاً :

اسمع أُخَيَّ وصيّةً من ناصح　　ماشاب محض النصح منه بغشّهِ
لا تَعْجلنْ بقضيّةٍ مَبتوتةٍ　　في مَدْحِ من لم تبلهُ أو خدشهِ
وقِفِ القضيةَ فيه حتى تجتلي　　وصفَيْهِ في حالي رضاه وبَطشه
فهناك إن ترَ ما يَشين فَواره　　كرماً وإن ترَ ما يزينُ فأفشه
واعلم بأن التبرَ في عِرقِ الثرى　　خافٍ إلى أن يُسْتَثار بنبشهِ
وفضيلة الدّينار يظهرُ سرها　　من حكّه لا من ملاحة نقشه
ومن الغباوة أن تُعظّمَ جاهلاً　　لِصِقال ملبسه ورَوْنق رَقشهِ
أو أن تهينَ مُهذباً في نفسه　　لِدُروس بزتهِ ورثّةِ فرشه

الباب التاسع في العلم

قال مؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي المتوفى سنة ٥١٣ هـ:

من قاس بالعـــلم الثراء فإنـــه ... في حُكْمِهِ أعمى البصيرة كاذبُ
العلم تخْدِمه بنفسك دائمـــاً ... والمال يَخْدُمُ عنك فيه نائبُ
والمال يُسْلَبُ أو يبيدُ لحادثٍ ... والعـلم لا يُخشى عليه السالبُ
والعلم نقشٌ في فؤادك راسخٌ ... والمال ظِلٌ عن فنائك ذاهبُ
هذا على الإنفاق يَغزُرُ فَيْضه ... أبداً وذلك حينَ تُنفِقُ ناضِبُ

العلم أشرَف شيءٍ قاله رَجُلٌ ... من لم يكن فيه علم لم يكن رَجُلا
تعلم العلْمَ واعمل يا أُخَيَّ بهِ ... فالعلم زَيْنٌ لمن بالعلم قد عَمِلا

العلم مُبْلِغ قومٍ ذرْوةَ الشرَفِ ... وصاحب العلم محفوظ من التلفِ
يا صاحبَ العلم مهلا لا تُدَنسه ... بالموبقات ، فما للعلم من خلفِ
العلم يرفع بيتاً لا عمـــاد له ... والجهل يهْدِم بيت العزّ والشرفِ

لو كان نور العلم يُدْرَك بالمنى ... ما كان يبقى في البريّة جاهل
اجهد ولا تكسل ولا تَكُ غافلا ... فندامـة العُقبى لمن يتكاسل

وفي الجهل قبل الموتِ موت لأهله ... وأجسادهم دونَ القُبور قُبور
وإنّ امرأ لم يُحْيِ بالعلم قلبه ... فليس له حتّى النشور نُشورُ

لكل مُجدّ في الوَرى نفعُ فاضِلٍ ... وليس يُفيدُ العلم من دون عامِلِ
يُسابق بعض الناس بعضاً بجدهم ... وما كل كرٍ بالهَوى كرُّ باسِلِ
إذا لم يَكنْ نفع لذي العلم والحجا ... فما هو بين الناس إلا كجاهِلِ

كذاك إذا لم ينفع المرء غيرَه يُعَدُّ كشَوْكٍ بين زَهْرِ الخمائلِ

يا ساعياً وطِلابُ المال هِمَّتُه إني أراكَ ضعيفَ العَقْلِ والدين
عليك بالعلم لا تطلب له بَدَلاً واعلم بأنك فيه غيرُ مَغْبونِ
العلم يُجْدي ويبقى للفتى أبداً والمال يفنى وإن أجدى إلى حين
هذاكَ عزٌّ وذا ذلٌّ لصاحبِه ما زال بالبعد بين العزّ والهون

العــلم زَيْنٌ وتشريف لصاحبه فاطلب هُديت فنون العلم والأدَبا
كم سيدٍ بَطَــلٍ آباؤه نُجُبٌ كانوا الرؤوس فأمسى بعدهم ذَنَبا
ومُقرفٍ خاملِ الآباء ذي أدب نالَ المعاليَ بالآداب والرُّتَبـا
العلم كـنـزٌ وذخرٌ لا فناء له نعم القرين إذا ما صاحبٌ صَحِبا
قد يجمع المال شخص ثم يحرمُه عما قليل فيلقى الذل والحَربا
وجامع العــلم مغبوط به أبداً ولا يُحاذِرُ منه الفوت والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه ولا تعدلَنَّ به دُرّاً ولا ذَهَبا

بالعلم والعقل لا بالمـال والذهب يزدادُ رفعُ الفتى قَدْراً بلا طلبِ
فالعلم طَوْقُ النهى يزهو به شرفاً والجهلُ قَيدٌ له يَبْليه باللعب
كم يرفع العلم أشخاصاً إلى رُتب ويخفض الجهلُ أشرافاً بلا أدب
العلم كنزٌ فلا تفنى ذخائرُهُ والمرءُ ما زاد علماً زاد بالرتب
فالعلم فاطلب لكي يُجْديكَ جوهره كالقوت للجسم لا تطلبْ غِنى الذهب

العلمُ زَينٌ فكن للعلم مُكتسباً وكن له طالباً ما عِشتَ مُقتبسا
اركن إليه وثِقْ بالله واْغنَ بـه وكن حَليما رَزين العقل محترسا
وكن فتى سالكاً محضَ التقى ورعاً للدّين مُغتنما في العلم مُنغمسا

فمن تخلقَ بالآداب ظلّ بها رئيسَ قومٍ إذا ما فارقَ الرؤسا

الناس من جهة التمثال أكفاءُ أبوهمُ آدم والأمُّ حواءُ
فإن يكن لهم في أصلهم شرفٌ يفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفخرُ إلا لأهل العلم إنهمُ على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدرُ كل امرىءٍ ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء
وإن أتيت بجودفي ذوي نسب فإن نسبتنا جودٌ وعلياء
ففُز بعلم تعِش حيّاً به أبداً الناسُ موتى وأهل العلم أحياء

العلم يغرسُ كل فضلٍ فاجتهد ألا يفوتكَ فضلَ ذاكَ المغرَسِ
واعلم بأن العلم ليس ينالُه من همه في مطعم أو ملبَسِ
إلا أخو العلم الذي يزهو به في حالتيه عارياً أو مكتسي
فاجعل لنفسك منه حظاً وافراً واهجُر له طيب الرّقادِ وعبّس
فلعل يوماً أن حضرت بمجلس كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

وقال المرحوم أحمد شوقي بك في العلم والمعلم والتعليم :

قم للمعلم وفِّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمتأشرفَ أوأجلمنالذي يبني ويُنشىء أنفساً وعقولا؟
سبحانك اللهمّ،خيرَ معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقلمن ظلماته وهديته النورَ المبينَ سبيلا
وطبعته بيدِ المعلم ، تارة صدأ الحديدِ ، وتارة مصقولا
أرسلتبالتوراةموسىمرشداً وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرتَ ينبوع البيانِ محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

علمت يونانًا ومصرَ فزالتـا ... عن كلِّ شمس ما تريدُ أفولا
واليوم أصبحتـا بحال طفولةٍ ... في العلم تلتمسانه تطفيلا
من مشرقِ الأرض الشموس تظاهرت ... ما بالُ مغربها عليه أديلا
يا أرضُ مُذْ فقد المعلمُ نفسه ... بين الشموس وبين شرقك حيلا
ذهب الذين حَمَوْا حقيقة علمهم ... واستعذبوا فيها العذاب وبيلا
في عالم صحبَ الحياة مُقَيَّدًا ... بالفرد، مخزومًا به، مغلولا
صرعته دنيا المُستبد كما هوَتْ ... من ضربة الشمسِ الرءوس ذهولا
سُقراط أعطى الكأس وهي منية ... شفتي محب يشتهي التقبيلا
عرضوا الحياة عليه وهي غباوةٌ ... فأبى وآثر أن يموت نبيلا
إن الشجاعة في القلوبِ كثيرةٌ ... ووجدتُ شجعان العقول قليلا
أمُعلمي الوادي وساسة نشئه ... والطابعين شبابه المأمولا
والحاملين إذا دُعوا ليُعلموا ... عبء الأمانةِ، فادحًا مسئولا
ونيتْ خُطا التعليم بعد محمد ... ومشى الهُوَيْنا بعد إسماعيلا
حتى رأينا مصرَ تخطو إصبعا ... في العلم، إن مشَتِ الممالكُ ميلا
تلك الكفورُ وحشوها أميةٌ ... من عهدِ (خُوفو) لم تر القنديلا
تجدُ الذينَ (بَنى) المسلةَ جدهم ... لا يُحسنون لإبرة تشكيلا!
ويُدَلَّلونَ إذا أريدَ قيادُهم ... كالبُهْمِ تأنسُ إذ ترى التدليلا
يتلو الرجال عليهمو شهواتهم ... فالناجحونَ ألذهم ترتيلا
الجهل لا تحيا عليه جماعةٌ ... كيف الحياة على يدي عِزريلا؟
رَبُّوا على الانصاف فتيان الحمى ... تجدوهمُ كهف الحقوق كهولا
فهو الذي يبني الطباع قويمة ... وهو الذي يبني النفوس عُدولا
وتقيمُ منطق كلِّ أعوج منطق ... ويُريد رأيًا في الأمور أصيلا

وإذا المعلمُ لم يكن عدلاً مشى روح العدالةِ في الشباب ضئيلا
وإذا المعلمُ ساء لحظَ بصيرةٍ جاءتْ على يده البصائرُ حُولا
وإذا أتى الارشادُ من سبب الهوى ومن الغُرور فسمّه التضليلا
وإذا أصيب القومُ في أخلاقهم فأقمْ عليهم مأتماً وعويلا
إني لأعذرُكم وأحسبُ عبئكم من بين أعباء الرّجال ثقيلا
وجد المساعدَ غيرُكم وحرمتُمو في مصرَ عون الأمهاتِ جليلا
وإذا النساء نشأن في أُميةٍ رضع الرجالُ جهالة وخمولا
ليس اليتيم من انتهى أبواهُ من هم الحياةِ ، وخلّفاهُ ذليلا
فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما وبحُسنِ تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذي تلقي له أُمّا تخلّتْ أو أباً مشغولا

* * *

الباب العاشر في العقل

لولا العقول لكان أدنى ضَيْغمٍ أدنى إلى شَرَفٍ من الانسانِ
ولرُبما طعن الفتى أقرانه بالرأي قبلَ تطاعُن الأقرانِ

ألم ترَ أن العقلَ زَيْنٌ لأهله ولكن تمام العقل طول التجارِب

يقول لك العقل الذي زيّنَ الفتى إذا لم تكن تقدِر عدوَّك دارِهِ
ولاقِهِ بالترحيب والبشرِ والقرى وبارك له ما دمت تحت اقتداره
وقبل يد الجاني التي لست قادراً على قطعها وارْقبْ سقوط جداره

العقلُ حُلة فخر من تسرْبلها كانت له نسباً تغني عن النسب
والعقلُ أفضل ما في الناس كلهم بالعقل ينجوالفتى من حَومة الطلب

وأفضل قَسْمِ اللهِ للمرء عَقله فليس من الخيرات شيءٌ يُقاربُه
يعيش الفتى بالعقل في الناس إنه على العقل يجري علمه وتجاربه
يشين الفتى في الناس قِلةُ عقله وإن كرُمت أعراقه ومناسبُه
إذا أكمل الرحمنُ للمرء عقله فقد كملت أخلاقه ومآربه

ما وهبَ الله لامرىءٍ هِبةً أشرَف من عقله ومن أدبِه
هما حياةَ الفتى فإن عُدما فإنَّ فقد الحياةِ أجمل بِهِ

يُعَدُّ رفيع القوم من كان عاقلاً وان لم يكن في قومه بحَسيب
وإن حلّ أرضاً عاش فيها بعقله وما عاقل في بلدة بغريب

ومن كان ذا مال ولم يكُ عاقلا فذاك حمارٌ حملوه من التبْر
أرى العقل مِرآة الطبيعة إذ به نرى صور الأشياءِ في عالم الفكر

ذو العقل في معترك الأقدار مُقتدر لكن ذا الجهل مغلوبٌ ومغلولُ
وعقل ذي الحزم مرآة الأمور بها يرى الحقائق ، والمجهولُ مجهولُ

وعُقولُ الأنام لو تستوي لم يك فرقٌ بين الغبيّ والنبيه
محوَر الأرض لو غدا مُستقيما لتساوى النهار والليل فيه

* * *

الباب الحادي عشر في الأدب

قال أبو تمام في مكارم الأخلاق :

اذا جاريت في خُلق دنيئاً فأنت ومَنْ تجاريه سواءُ
رأيت الحُرَّ يجتنبُ المخازي ويحميه عن الغَدْر الوفاءُ

وما من شدّة إلا سيأتي لها من بعد شدّتها رخاء
لقد جرّبتُ هذا الدهر حتى أفادتني التجاربُ والعناء
يعيش المرءُ ما استحيا بخير ويبقى العود ما بقي اللحاء
إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء

وقال أيضاً في الحرية :

سأصرفُ وجهي عن بلاد غدا بها لساني معقولا وقلبيَ مُقفلا
وإنّ صريح الحزم والرأي لامرىء إذا بلغته الشمسُ أن يتحوّلا

وقال أبو فراس الحمداني في نتيجة الاختبار والتجارب :

لا أشتري بعد التجارب صاحباً إلا وددْت بأنني لم أشره
وتركتُ حلو العيش لم أحفل به لما رأيتُ أعزه في مرّه
والمرء ليس بغانم في أرضه كالصقر ليس بصائد في وكره

قال أبو العلاء المعرّي في الشيوخ المتظاهرة بالصلاح :

لئن قدرت فلا تفعل سوى حسن بين الأنام وجانب كل ما قبحا
فكم شيوخ غدوْا بيضاً مفارقهم يسبحون وباتوا في الخنا سبحا
وليس عندهم دينٌ ولا نسكٌ فلا تغرّك أيد تحمل السبحا
لو تعقلُ الأرضُ ودت أنها صفرت منهم فلم ير فيها ناظرٌ شبحا

وقال الطغرائي في المقارنة بين العدو والحسود :

جامل عدوّك ما استطعت فإنه بالرفق يطمع في صلاح الفاسد
واحذر حسودك ما استطعت فإنهُ إن نمت عنه فليس عنك براقد
إن الحسود وإن أراك تودُّداً منه أضر من العدوّ الحاقد
ولربما رضي العدوُّ إذا رأى منك الجميل فصار غير معاند

ورضا الحسود زوالُ نعمتك التي أوتيتهـــا من طارف أو تالد
فاصبر على غيظ الحسود فناره ترمي حشاه بالعذاب الخــالد
أو ما رأيتَ النار تأكلُ نفسها حتى تعود إلى الرماد الهامـــد
تضفو على المحسود نعمــة ربــه ويذوب من كمدٍ فؤادُ الحاسد

وقال ابن الرومي في عدم الإكثار من الأصحاب :

عدوك من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصحاب
فإن الداءَ أكثرُ مـا تراه يكون من الطعام أو الشراب
إذا انقلب الصديق غداعدواً مُبيناً والأمور الى انقلاب
ولو كان الكثير يطيب كانت مُصاحبة الكثير من الصواب

وقال في الانفراد والوحدة :

ذقتُ الطعومَ فما التذّذت براحة من صحبة الأخيــار والأشرار
أما الصديق فلا أحبُّ لقاءَه حذرَ القلى وكراهة الإعوار
وأرى العدُو قذّى فأكره قرنه فهجرت هذا الخلق! عن أعذار
من جور إخوان الزمان سرورهم بتفاضل الأحــوال والأخطـار
لو أن إن الصفـاء تناصفوا لم يفرحوا بتفاضل الأعمـــار
أأُحب قوماً لم يحبوا ربهـم إلا لفردوس لديــه ونار !؟

وقال المتنبي يلفت نظر العقلاء الى طلب المعالي :

اذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير كطعم الموت في امر عظيم
يرى الجبناءُ ان العجز عقل وتلك خديعة الطبع اللئيم
وكل شجاعة في المرء تُغني ولا مثلَ الشجاعة في الحكيم
وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهـم السقـيم

وقال بشار بن بُرد في وصف الأخ الحقيقي :

خيرُ إخوانك المشاركُ في المُر وأين الشريك في المرّ أينا ؟
الذي إن شهدتَ سرّك في الحـي وإن غبت كان أُذناً وعينا
مثل سر الياقوت إن مسه النا ر جَلاه البلاء فازداد زَيْنا
أنت في معشر إذا غبت عنهم بدّلوا كل ما يزينك شَيْنا
وإذا ما رأوك قالوا جميعاً أنت من أكرم البرايا علينا
ما أرى للأنام ودّاً صحيحاً عاد كلُّ الورى زوراً ومَينا

وقال أبو العتاهية في صنع الجميل مع الناس :

خيرُ أيام الفتى يومٌ نَفَعْ واصطناع الخير أبقى ما صنعْ
ما يُنالُ الخيرُ بالشر ولا يحصدُ الزّارع إلا ما زرع
خذ من الدنيا الذي درّت به واسلُ عما بان منها وانقطع
إنما الدنيا متاعٌ زائلٌ فاقتصد فيه وخذ منه ودعْ
وارضَ للناس بما ترضى به واتبع الحق فنعم المتبع

كن ابن من شئت واكتسب أدبا
يُغنيك محمودُه عن النسب
إنّ الفتى مَن يقول هأنذا ليس الفتى مَن يقول كان أبي

لكلّ شيءٍ زينة في الورَى وزينة المرء تمامُ الأدبِ
قد يَشرُف المرءُ بآدابه فينا وإن كان وضيعَ النسب

وأنشد أبو عبدالله نفطويه لنفسه في كون التعلم في الصغر كالنقش في الحجر:

أراني أنسى ما تعلمت في الكبَر ولستُ بناسٍ ما تعلمت في الصِّغرْ
ولو فُلق القلبُ المعلَّم في الصِّبا لألفيَ فيه العلم كالنقش في الحجرْ
وما العلم بعد الشيب إلا تعسف إذا كَلَّ قلب المرءِ والسمع والبصر

وما المرء إلا اثنان: عقل ومنطقٌ فمن فاته هذا وهذا فقد دمَّر[١]

ومما ينشد خلف الأحمر[٢] في كون ميراث العلم أبقى من ميراث المال :

خيرُ ما ورَّث الرجال بنيهم أدبٌ صالح وحُسْنُ ثناءِ
هو خير من الدنانير والأو راق[٣] في يوم شدّة ورخاءِ
تلك تفنى، والدين والأدب الصا لح لا يفنيان حتى اللقاءِ[٤]
إن تأدبت يا بُني صغيراً كنت يوماً تُعد في الكبراء
وإذا ما أضعت نفسك ألفيت[٥] كبيراً[٦] في زمرة الغوغاء
ليس عطفي للعود إن كان رطبا وإذا كان يابساً بسواء

ومن شعر المنصور الفقيه في كون العلم بلا عمل كشجر بلا ثمر :

أيها الطالب الحريص تعلمْ إن للحق مذهباً قد ضللتَهْ
ليس يُجدي عليك علمك إن لم تك مستعملا لما قد علمتَهْ
قد لعمري اغتربت في طلب العلم وحاولت جمعهُ فجمعتَهْ
ولقيت الرجالَ فيه وزاحمتَ عليه الجميع حتى سمعته
ثم ضيَّعت أو نسيت، وما ينفعُ علم نسيتَه أو أضعتَه
وسواءٌ عليك علمك إن لم يجْدِ نفعاً عليه أم ما جهلتَهْ
كم إلى كم تخادع النفس جهلا ثم تجري خلاف ما قدْ عرفته
تصفُ الحق والطريق إليه فإذا ما عملت خالفتَ سمتَه

وقال محمود سامي باشا البارودي في انتهاز الفرصة :

بادر الفرصة واحذر فواتها فبلوغ العز في نيل الفرص
واغتنم عُمرك إبّان الصبا فهو إن زاد مع الشيب نقص

(١) اي هلك (٢) كان راوية للشعر والأدب وشيخاً من شيوخ النحويين البصريين توفي سنة ١٨٠هـ (٣) جمع ورق مثلثة وهي الدراهم المضروبة من الفضة.
(٤) يوم اللقاء أي لقاء الله وهو يوم القيامة (٥) اي وجدت (٦) نصب على الحال.

وابتدر مسعاك واعلم أن من | بادر الصيد مع الفجر قنص
واجتنب كل غبي مائق | فهو كالعير[1] إذا جد قمص
إنما الجاهل في العين قذى | حيثما كان، وفي الصدر غصص
واختبر من شئت تعرفه، فما | يعرف الأخلاق إلا من فحص
إن ذا الحاجة إن لم يغترب | عن حماه مثل طير في قفص

وقال أبو إسحاق إبراهيم الغزّي في كون الحركة بركة : [2]

بسيره نقص الهلال، وزادا | فاجعل كراك[3] إذا اعتزمت سهادا[4]
لولا انصلات[5] البيض[6] من أغمادها[7] | مشحوذة لم تفضل الأغمادا
وفضيلة الحيوان في حركاته | لولا منافعه لكان جمادا
ما العمر إلا راحل، وأظنه | اتخذ الشبيبة للمسافة زادا
لا تخلعن عن اللسان لجامه | وتوق فرط جماحه المعتادا
فالله خص الاستماع بآلة | مثنى، وجارحة الكلام فرادى

وقال أبو نصر عبد العزيز بن نباتة السعدي[8] في طلب العلا :

حاول جسيمات الأمور، ولا تقل | إن المحامد والعلا أرزاق
وارغب بنفسك أن تكون مقصرا | عن غاية فيها الطلاب سباق
لا تشفقن فإن يومك إن أتى | ميقاته لم ينفع الإشفاق
وإذا عجزت عن العدو فداره | وامزح له إن المزاح وفاق

(١) الحمار (٢) هو إبراهيم بن يحيى بن عثمان الكلبي شاعر مجيد صاحب مطولات ولد بغزة سنة ٤٤١ هـ وتصرفت به الاحوال فذهب إلى المشرق ومات بين مرو وبلخ سنة ٥٢٤ هـ (٣) الكرى النوم (٤) السهاد السهر ٥ تجرد (٦) السيوف (٧) جمع غمد وهو قراب السيف (٨) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر المشهور بابن نباتة . وينسب إلى سعد تميم وعد في شعراء سيف الدولة الحمداني ، وله ديوان حافل توفي سنة ٤٠٥ ببغداد . وهو القائل :

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره | تنوعت الأسباب والموت واحد

فالنارُ بالماء الذي هو ضِدها تُعطي النضاجَ، وطبعها الإحراقُ

وقال المعتمد بن عباد في وجوب التضحية لفدية الوطن :

إن يسلب القوم العِدى وطني وتسلِمْني الجموع
فالقلبُ بينَ ضلوعِه لم تسلم القلبَ الضلوع
قد رُمت يوم نزالهمْ ألا تحَصّنني الدروع
وبرزتُ ليس سوى القمـيص على الحشا شيءٌ دَفوع
أجـلي تأخّر لم يكن بِهَواي ذلّي والخضوع
ما سِرتُ قط إلى القتا ل وكا نمن أمَلي الرجوع
شيمُ الأولى أنا منهـمُ والأصل تتبعه الفروع

وقال موسى بن عبدالله في وجوب عدم الثقة بالغير :

تولّت بَهْجة الدنيـا فكلٌ جديدِها خَلَقُ
وخان الناسُ كلهُـمُ فما أدري بمن أثـقُ
رأيتُ معـالم الخـير ات سُدّت دونها الطرُق
فلا أدبٌ ولا كـرمٌ ولا فضلٌ ولا خُلق
فلستُ مُصدّق الأقوا م في شيء وإن صدَقوا

وقال الأبيوَرْدي الأموي المتوفى سنة ٥٥٧ هـ بخراسان في تقلب الزمان

مَلكنا أقاليمَ البلاد فأذعنتْ لنا رغبةً أو رهْبة عظماؤها
فلما انتهت أيامنا علقت بنا شدائدُ أيامٍ قليل رخاؤها
وصِرْنا نلاقي النائباتِ بأوجه رقاق الحواشي كادَ يقطر ماؤها
إذا ماهممنا أن نَبوح بما جنَتْ علينا الليالي لم يَدعْنا حياؤها

وقال القاضي عبد الوهاب في دوام الخير بين الناس ما داموا درجات فإذا تساوَوْا هلكوا :

مَتى تَصلُ العطاشُ الى ارْتواءٍ اذا استقت البحارُ من الرّكايا
ومَن يَثني الأصاغرَ عن مرادٍ وقد جلس الأكابرُ في الزّوايا
وإنْ ترَفُّعَ الوُضعاء يومـاً على الرُفعاء من إحدى البـلايا
إذا استوَتِ الأسافلُ والأعالي فقد طابت مُنادمـة المنـايا

وقال سعيد بن محمد في كون عمل الإنسان يدل على أصله :

ملكنا فكان العفوُ منّا سَجيّة فلما ملكتمْ سالَ بالدّمِ أبطحُ
وحلّلتمُ قتل الأسارى وطالما غدَونا على الأسرى نَمُنُّ ونصفح
فحسبُكم هذا التفاوتُ بيننـا وكل إناءٍ بالذي فيه يَنضـحُ

وقال مَعن بن أوفى في لزوم التحفظ بآثار الآباء والجدود :

ورثنا المجدَ عن آباءِ صِدقٍ أسأنا في جوارهمُ الصنيعا
إذا المجدُ الرفيعُ توارَثته بُناةُ السوءِ أوشك ان يضيعا

وقال الإمام الشافعي في المن والأذى وتعداد صنائع الإحسان :

لا تحْمِلَنّ لمنْ يَمُنُّ مِنَ الأنام عليك مِنّهْ
واخترْ لِنَفسِك حظّها واصبر فإن الصبر جنّهْ
مِننُ الرجال على القلوبِ أشدُّ من وقْعِ الأسِنّهْ

وقال علي بن عبد العزيز الجرجاني في وصف النفوس الأبية :

وقالوا توصَّلْ بالخضوع إلى الغِنى وما علموا أن الخضوع هو الفَقْرُ
وبيني وبين المال شيئان حرّما عليّ الغنى: نفسي الأبيةُ والدهرُ
إذا قيل هذا اليسر أبصرتُ دونَهُ مواقفَ خيرٌ من وقوفي بها العسرُ

وقال الشريف الرضي في كون المال خادماً للانسان :

اشتَرِ العِزّ بما بيع فما العزُّ بغالِ

ليسَ بالمغبونِ عقلاً مُشترٍ عزاً بمالِ
إنما يُدخَرُ المالُ لحاجاتِ الرجالِ
والفتى مَن جعلَ الأموالَ أثمانَ المعالي

وقال أبو تمام في كون العز والمجد لا ينالان إلا بالتعب والجد :

قد علمنا أنْ ليس إلا بشقِّ النفس صار الكريمُ يُدعى كريما
طلب المجد يورث المرءَ خبلاً وهموماً تقضقضُ الحيزوما
فتراه وهوَ الخليّ شجيّاً وتراه وهو الصحيحُ سقيما
تيّمتْهُ العلى فليس يَعُدُّ البؤسَ بُؤساً ولا النعيم نَعيما

وقال مخيّس بن أرطأة في لزوم تجنُّب الإنسان كلّ ما يُعاب :

عرَضْتُ نَصيحةً مني ليحيى فقال غَشَشْتني والنصحُ مُرُّ
وما بي أن أكونَ أعيبَ يحيى ويحيى طاهرُ الأخلاق بَرُّ
ولكن قد أتاني ان يحيى يُقال عليه بقاءَ شرُّ
فقلتُ له تجنّبْ كل شيء يُعابُ عليك إن الحرّ حُرُّ

وقال ابن هانىء (متنبي الغرب) في : أن ليس للانسان إلا ما سعى :

ولم أجدِ الإنسانَ إلا ابنَ سعيهِ فمن كان أسعى كان بالمجدِ أجدَرا
وبالهمةِ العلياء ترقى إلى العلى فمنْ كانَ أعلى همةٍ كان أظهرا
ولم يتأخّرْ مَنْ أراد تقدّما ولم يتقدّمْ مَن أرادا تأخّرا

وقال بعضهم في كون التقليد في الخير فضيلة :

إذا أعجبتكَ خلالُ امرىءٍ فكنْه تكنْ مثلَ منْ يعجبكْ
وليسَ على المجد والمكرماتِ إذا جئتها حاجبٌ يحجبكْ

وقال أبو روح ظفر بن عبدالله في الهمة والعزيمة الماضية :

السيف يَعلم أن لي في حدّه سرّاً نهاه الدهر عن إفشائهِ
والدهر يَعلم أنلي في صدْره ناراً مضرمة على أحشائهِ

ولوأنّ أطرافَ السّيوفِ وفينَ لي   لأخذتُ حقّ الدّهرِ من أبنائه
هِمَمٌ مؤرّقةٌ جفوف كلما   أرخى الظلامُ عليّ ذيلَ خبائه
هِمَمُ النفوس منوطةٌ بعنائها   والمرءُ يخدَعه لسانُ رجائه

وقال عمارة اليمني المتوفى سنة ٦٦٩ في الشجاعة والإقدام :

العِلمُ مذ كان محتاجٌ إلى العلمِ   وشفرةُ السّيفِ تستغني عن القَلَمِ
وخيرُ خيلك إن غامرتَ في شرف   عزمٌ يُفرّقُ بين السّاق والقدَمِ
لا يُدرِكُ المجدَ إلا كلُّ مقتحمٍ   في موجِ ملتطِمٍ أو فوجِ مُضطرِمِ
ورُبّ أمرٍ يهاب الناس غايتَه   والأمرُ أهوَنُ فيه من يَدٍ لِفَمِ
تَنمى قوى الشيء بالتّدريج إن رزقت
لطفاً ويقوى شرارُ النارِ بالصرمِ

وقال ابو الحسن التّهامي المتوفى سنة ٤١٦ ﻫ في الأدب العام :

لا تحمَدِ الدّهرَ في بأساءَ يكشفها   فلو أردتَ دوامَ البؤسِ لم يَدُمِ
فالدهرُ كالطيف بؤساهُ وأنعُمُهُ   عن غير قصدٍ فلا تحمدْ ولا تَلُمِ
لا تحسبنّ حسَبَ الآباءِ مكرُمةً   لمن يُقصّرُ عن غايات مجدِهمِ
حسنُ الرّجال بحسناهم وفخرُهمُ   بطَولِهِم في المعالي لا بطولِهم
ما اغتابني حاسدٌ إلا شرفتُ به   فحاسدي مُنعِمٌ في زيّ مُنتقِمِ
فالله يكلأ حُسّادي فأنعمُهُمْ   عندي وإنْ وقعت عن غير قصدِهم

وقال أبو تمام في كون المرء يجمع والزمان يفرق :

ولكنّني لم أحوِ دفراً مجمّعاً   فَفُزتُ به إلا بشَملٍ مُبَدّدِ
ولم تعطِني الأيامُ نوماً مسكّناً   ألذّ بهِ إلا بنومٍ مشرّدِ
وطولُ مقامِ المرءِ في الحيّ مُخلِقٌ   لديباجتَيه فاغتَرِبْ تتجدّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زيدت محبّةً   الى الناس أن ليست عليهم بسرمدِ
وليس يُجلّي الكربَ رُمحٌ مسدّدٌ   إذا هو لم يؤنَسْ برأيٍ مُسدّدِ

وقال ابو تمام في كون الحركة بركة :

من أَبَنَّ [1] البُيوت أصبح في ثو ... بِ من العيش ليس بالفضفاضِ

والفتى من تعرَّفته الليــالي ... في الفيافي كالحيةِ النضناضِ

صلتانٌ اعداؤه حيثُ كانــوا ... في حديث من عزمه مستفاضِ

كلَّ يوم له بصَرْفِ الليــالي ... فتكةٌ مثلَ فتكة البرّاضِ

وقال بعضهم في ان الأمور تسهل بالصبر والاطمئنان لا بالذل والهوان :

إذا ضيَّقت أمراً ضاق جداً ... وإن هوّنت ما قد عزّ هانا

فلا تهلِكْ لشيء فات بأساً ... فــكم أمرٌ تصعب ثم لانا

سأصبرُ من رفيقي إن جفاني ... على كل الأذى الا الهوانا

وقال الحسين بن مطير في مكارم الأخلاق :

أُحِبُّ مكارِم الأخلاق جُهدي ... وأكره أن أعيبَ وأن أعابــا

وأصفحُ عن سباب النـّاس حِلماً ... وشَرُّ النـّاسِ مَن يَهْوى السِّبابا

ومَنْ هابَ الرّجالَ تهَيَّبوهُ ... ومَنْ حقَرَ الرّجالَ فلن يُهابا

وقال القطامي في التأني السّلامة وفي العجلة الندامة :

والنـّاسُ مَن يَلقَ خيراً قائلون له ... ما يَشتهي، ولأم المُخطىء الهَبَل

قد يُدرِكُ المُتأني بَعضَ حاجتِه ... وقد يكون مع المستعجل الزَّللُ

ورُبما فاتَ قَوْماً بعض أمرهم ... مِنَ التـّأني وكان الحزمُ لوعجلوا

والعَيشَ لا عيشَ الا ما تقَرُّ به ... عينٌ ولا حالَ إلا سوف تَنتَقلُ

وقال رجل من بني أسد في انه لا خير في ود يجيء تكلفاً :

وما أنا بالنـكس الدّنيّ ولا الذي ... إذا صدّ عني ذو المودةِ أحرَبُ

ولكني إن دُمْت وان يكن ... له مذهبٌ عني فلي عنه مَذهبُ

---

(١) ابن : لازم وأقام، والفضفاض بفتح الفاء الشيء الواسع والصلتان الراجل الجاد في أموره .

ألا إن خيرَ الودّ وُدٌّ تطوّعتْ   له النفس لا وُدٌّ أتى وهو متعبُ

وقال القاضي الجرجاني في كون النفس الأبية لا تقبل الدنايا وتستقبل المنايا :

يقولون لي : فيك انقباضٌ وإنما   رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
إذا قيل هذا منهلٌ قلت قد رأى   ولكن نفس الحرّ تحتملُ الظما
ولم أبتذل في خِدْمة العلم مهجتي   لأخدم من لاقيتُ لكن لأخدما
أأشقى به غرساً ؟ وأجنيه ذلة   إذنْ فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

وقال البعيث بن حريث في كون كرامة الإنسان متوقفة على حفظ الأوطان :

وإن مسيري في البلادِ ومنزلي   لبالمنزل الأقصى إذا لم أقرّبِ
ولستُ وإن قربت يوماً ببائع   بلادي ولا ديني ابتغاء التحبب
ويعتده قوم كثير تجـــارة   ويمنعني من ذاك ديني ومنصبي

وقال عمرو بن الأطنابة في اقتحام الأخطار لنيل الفخار :

أبت لي عفتي وأبى بلائي   وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي   وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأتْ وجاشت   رويدك تحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مـآثر صالحـات   وأحمي بعدُ عن عِرْضٍ صحيح

وقال أبو تمام لا يستحق الشكر والحمد إلا من تعب وجد :

الحمد شهد لا ترى مشتارهُ   يجنيه إلا من نقيع الحنظل
غلٌّ لحامــله ويحسبهُ الذي   لم يوه عاتقهُ خفيفُ المحمل

وقال بعضهم في الفقير الصابر المتجمل بالعفاف والكفاف :

كم فاقـة مستورة بمروءَة   وضرورة قد غطيت بتجمل
ومن ابتسام تحتهُ قلبٌ شج   قد خامرتهُ لوْعة ما تنجلي

وقال أبو تمام في صدق اليقين :

قلوا ولكنَّهُمْ طابوا فأنجدهم جيشٌ من الصبرِ لا يُحصى له عدد
إذا رأوا للمنايا عارضاً لَبِسوا من اليَقينِ دُروعاً ما لها زَرَدُ

وقال هدبة العذري في وجوب وضع الشيء في موضعه :

ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركي ولكن متى أحمل على الشرِّ أركبِ
ولستُ بمفراحٍ إذا الدهر سرني ولا جازعٍ من صرْفه المتقلّبِ

وقال بعضهم في وجوب الثبات على المبدأ :

قد عِشْتُ في الدهر أطواراً على طرق شتى وقاسيتُ فيها اللين والفظعا
كلاًّ بَلوْتُ فلا النعماء تُبطرُني ولا تخشعتُ من لأوائها جزَعا
لا يملأ الهَوْلُ صدري قبل موقعه ولا أضيقُ به ذَرْعاً إذا وقعا

عوِّد بنيك على الآداب في الصغر كيما تقرَّ بهم عيناك في الكبرِ
فإنما مثلُ الآداب تجمعُها في عُنفوانِ الصبا كالنقش في الحجر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرُها ولا يخاف عليها حادثُ الغيرِ
إن الأديب إذا زلتْ به قدمٌ يهوى على فرش الديباج والسُّرَرِ
الناس صِنفان : ذو علم ومُستمع واعٍ وسائرهم كاللغو والفكرِ

من لم يكن عقله مؤدِّبه لم يغنه واعظٌ من النسبِ
كم من وضيع الأصول في أمم قد سوَّدوه بالعقل والأدبِ

لا تيأسنَّ إذا ما كنت ذا أدب على خُمُولك أن ترقى إلى الفلك
فبينما الذهبُ الإبريز مختلطٌ بالتربِ إذ صار إكليلاً على الملك

السبعُ سبعٌ ولو كلتْ مخالبهُ والكلبُ كلبٌ ولو بين السباع رُبي
وهكذا الذهب الإبريز خالطهُ صفر النحاس وكان الفضل للذهب
لا يُعجبنك أثواب على رجل دع عنك أثوابه وانظر إلى الأدب

فالعود لو لم تَفُحْ منه روائحه ... لم يفرقِ الناسُ بين العود والحطب
وليسَ يسودُ المرءُ إلا بنفسه ... وإن عدَّ آباءً كراماً ذوي حسب
إذا العودُ لم يُثمر ولو كان شعبةً ... من المثمراتِ اعتدّه الناس من حطب
قد ينفعُ الأدبُ الأحداثَ من صغر ... وليسَ ينفعُ بعد الشيبة الأدب
إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ... ولن يلين إذا قوّمْتَـهُ الخشب

وقال حاتم الطائي في الكرم :

أماويُّ إنَّ المالَ غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
أماويُّ إني لا أقولُ لسائلٍ ... إذا جاءَ يوماً حلَّ في مالنا النذْرُ
أماويُّ إمـا مانعٌ فَمُبَيّنٌ ... وإما عطاءٌ لا ينَهْنِهُهُ الزَّجرُ
أماويُّ إن يصبح صداي بقفرةٍ ... من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
ترى أن ما أنفقتُ لم يكُ ضَرَّني ... وأن يَدَيَّ مِمّا بَخِلْتُ به صفرُ

وقال حاتم الطائي أيضاً في الإيثار :

وما أنا بالساعي بفضل زِمامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائبِ
وما أنا بالطاوي حقيبة رَحلها ... لأبعثها خفّاً وأترُك صاحبي
إذا كنت رَبّاً للقلوص فلا تَدَعْ ... رفيقك يمشي خلفها غيرَ راكب
أنِخْها فأرْدِفْهُ فإن حملتكما ... فذاك وإن كان العقابُ فعاقِب

وقال بعض الشعراء المتقدمين في ذم الغيرة :

ما أحسن الغَيرة في حينها ... وأقبح الغَيْرة في كلِّ حينْ
منْ لم يَزَلْ مُتَّهِماً عِرسه ... مناصباً فيها لريْب الظنونْ
أوشك أن يُغريها بالذي ... يخاف أن يبرزَها للعيونْ
حَسْبُكَ من تحصينها وَضعها ... منك إلى عِرض صحيح ودينْ
لا تطّلع منك على ريبةٍ ... فيتبعُ المقرونُ حبل القرينْ

وقال بعض الشعراء المتقدمين في كرم الضيافة :

أُضاحِكُ ضيفي قبل إنزال رَحله ويَخْصُبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخِصْبُ للأضيافِ أن يكثر القِرى ولكنما وَجْهُ الكريم خصيب

وقالت ليلى الأخيلية في العفة :

وذي حاجةٍ قلنا له : لا تَبُحْ بها فليسَ إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

وقال ابن الرومي في القناعة :

مرحباً بالكفافِ يأتي هنيئاً وعلى المتعباتِ ذَيلُ العفاءِ
ضِلة لامرىءٍ يُشَمّر في الجمـ ـع لعيش مُشَمّر للفنـاءِ
دائباً يكنزُ القناطير للوا رث والعمر دائباً في انقضاءِ
يحسب الحظّ كُلّه في يديه وهو منه على مدى الجَوزاء
ليس في أجل النعيم له حـ ـظ وما ذاقَ عاجل النعماءِ
ذلك الخائبُ الشقيُّ وإنْ كا نَ يَرى أنه مِنَ السُّعداءِ
حَسْبُ ذي إربةٍ ورأيٍ جَلِيٍّ نظرت عينه بلا غلواءِ
صِحّة الدّين والجوارح والعِرْ ض وإحراز مُسْكة الحَوْباءِ
تلكَ خيرٌ لعارفِ الجِد مِمّا يجرع الناس من فضول الثراءِ

وقال بعض الشعراء المتقدمين في القناعة :

أحِبُّ الفتى ينفي الفواحِشَ سمعُه كأن به عن كلّ فاحشةٍ وقْرا
سليم دَواعي الصدر لا باسطاً أذى ولا مانعاً خيراً ولا قائلا هُجْرا
إذا مـا أتت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لِزَلّته عُذرا
غنى النفس ما يكفيك من سدّ خلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقْرا

وقال بعض الشعراء المتقدمين في حب البنين :

لولا أميمة لم أجزع من العــدَم ... ولم أجُبْ في الليالي حندس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي ... أن اليتيمة يجفوها ذَوو الرحم
أحاذرُ الفقرَ يوماً أن يلم بهـا ... فيهتك الستر عن لحم وعن وضم
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقـاً ... والموت أكرم نزال على الحرم

وقال مسكين في كتمان السر :

وفتيان صِدْق لست مُطلعَ بعضهم ... على سر بعض غير أني جِماعها
لكل امرىءٍ شِعب من القلب فارغ ... وموضع نجـوى لا يُرام اطلاعها
يظلون شتى في البـلاد وسِرُّهم ... إلى صخرة أعيى الرجالَ انصداعها

وقال أبو العتاهية في المغفرة :

إني شكرت لظالمي ظلمي ... وغفـرتُ ذاكَ له على علمي
ورأيتهُ أسدى إليَّ يـداً ... لمّا أبان بجهـله حِلمي
رَجَعَت إساءَته عليه وإحـسـاني فعاد مُضاعف الجُرم
وغدوتُ ذا أجْرٍ ومحمـدة ... وغدا بكسب الظلم والإثم
فكأنما الإحسان كان له ... وأنا المُسيء اليه في الحُكم
ما زال يظلمني وأرحمـه ... حتى بَكيت له من الظـلم

وقال ابن مطير في إكرام النفس :

ومَنْ يَتتَّبع مايُعجب النفس لم يزل ... مُطيعاً لها في فعل شيء يُضيرها
فنفسك أكْرِمْ من أمور كثيرة ... فما لكَ نفسٌ بعدها تستعيرهـا

وقال بشار في السعادة :

وما خابَ بين الله والناس عامِلٌ ... له في التقى وفي المحامد سـوقُ
ولا ضاق فضل الله عن مُتَعَفِفٍ ... ولكن أخلاق الرجال تضيـقُ

وقال أبو تمام في الصداقة الكاذبة :

إن شئت أن يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الأعظم
ليس الصديق بمَنْ يعيرك ظاهراً متبسماً عن باطن متجهم

وقال بعض الشعراء المحدثين في الثقة :

فيَّ انقباضٌ وحشمة فإذا صادفتُ أهلَ الوفاءِ والكرمِ
أرسلتُ نفسي على سجيتها وقلتُ ما قلتُ غيرَ محتشمِ

وقال أبو تمام في القناعة :

من زاحفَ الأيام ثم عبا لها غير القناعة لم يزل مفلولا
من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأماني لم يزل مهزولا
لو جاز سلطان القنوع وحكمه في الأرض ما كان القليلُ قليلا

وقال أبو العلاء المعري في الخمر :

أيأتي نبيٌّ يجعل الخمرَ طلقةً فتحمل شيئاً من همومي وأحزاني
وهيهات لو حلّتْ لما كنتُ شارباً مخففةً في الحلم كفة ميزاني

وله أيضاً في أن الملك أجير الرعية :

مُلَّ المقامُ فكم أُعاشِرُ أُمّةً أَمَرَت بغير صلاحها أُمَراؤها
ظلموا الرّعيّة واستجازوا كيدها فعَدَوْا مصالحها وهم أُجراؤها

وقال أيضاً في رياء الوُعّاظ :

رُوَيْدَكَ قد غُرِرْتَ وأنت حُرٌّ بصاحب حيلة يعظ النساء
يُحَرِّمُ فيكم الصهباءَ صبحاً ويشربها على عمد مساء
يقول لكم : غَدَوْتُ بلا كساء وفي لذّاتها رهن الكِساء
إذا فعلَ الفتى ما عنه يَنْهى فمن جهتين ، لا جهةٍ ، أساء

وله أيضاً :

إذا كان علمُ الناس ليس بنافع ولا دافعٍ ، فالخُسْرُ للعلماء
قضى الله فينا بالذي هو كائن فتَمَّ وضاعت حكمة الحكماء

وله أيضاً في سلطان العقل :

يرتجي الناس أن يقومَ إمامٌ ناطق في الكتيبةِ الخرساء
كذب الظن لا إمامَ سوى العقل مُشيراً في صُبحه والمساء
إنما هذه المذاهبُ أسبا بٌ لجلب الدنيا إلى الرؤساء

وله أيضاً في رياء العُبّاد :

لعلّ أُناساً في المحاريبِ خوّفوا بآيٍ، كناسٍ في المشارب أطربوا
إذا رامَ كيداً بالصلاة مُقيمُها فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

وله أيضاً :

أيا جَسَدَ المرءِ ماذا دها ك وقد كُنتَ من عنصرٍ طيب
تصيرُ طهوراً اذا ما رَجَعْـتَ إلى الأصل كالمطر الصيب

وقال أيضاً في قسمة الأرزاق :

لقد جاءَنا هذا الشتاء وتحته فقيرٌ مُعَرّى أو أمير مُدَرَّجُ
وقد يُرْزق المجدود أقوات أمةٍ ويُحرم قوتاً واحدٌ وهو أحوَجُ

وقال أيضاً في ذم البطالة :

ويُعجبني دأبُ الذين ترَهّبوا سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائح
فما حبسُ النفس المسيحَ تعبُّداً ولكن مَشى في الأرض مشية سائح

وقال أيضاً في الرّفق بالحيوان :

قد رابَني مَغدىَ الفقير بجهله على العَيْرِ ضرباً ساءَ ما يتقلّدُ
يحمّله ما لا يطيق فإن ونى أحال على ذي فترة يتجلّدُ

وله أيضاً في أين الحقيقة :

نفارق العيشَ لم نظفر بمعرفة أيُّ المعاني بأهل الأرض مقصود
لم يعطنا العلمَ أخبارٌ يجيءُ بها نقلٌ ولا كوكبٌ في الأرض مرصود
وابيضّ ما اخضر من نبت الزمان بنا وكلّ زرعٍ إذا ما هاجَ محصود

وقال أيضاً في حقيقة الايمان :

ما الخيرُ صومٌ يذوبُ الصائمون له ولا صلاة ولا صُوف على الجسد
وإنما هو ترك الشرّ مُطَّرَحا ونَفضُكَ الصدْرَ من غِل ومن حَسد

وقال أيضاً في خرافات النساء :

سألتْ مُنجّمها عن الطفل الذي في المهد كم عائشٌ من دهره ؟
فأجابها مائة ، ليأخذ درهماً وأتى الحِمامُ وليدها في شهره !

وقال أيضاً في راحة الموت :

قدِمَ الفتى ومضى بغير تَثَبّتٍ كهلال أوّل ليلة من شهره
لقد استراح من الحياة مُعَجلٌ لو عاش كابدَ شِدّةً في دهره

وقال أيضاً في العفة :

أحْسِنْ جِواراً للفتاة وعُدّها أختَ السماك على دُنُوّ الدار
كتجاور العينين لن تتلاقيا وحجاز بينهما قصيرُ جدار

وقال أيضاً في بقاءِ الملك :

مضى الأنام فلولا علم حالهم لقلت قول زُهَيرٍ آية سلكوا
في الملك لم يخرجوا عنه ولا انتقلوا منه فكيف اعتقادي أنهم هلكوا

وقال أيضاً في الصبرِ والأذى :

إذا قال فيك الناس ما لا تحبّه فصبراً يفيء ود العدو إليكا
وقد نطقوا مَيْناً على الله وافتروا فما لهمُ لا يفترون عليكا

الدين المعاملة ، للمعري أيضاً :

سَبِّح وصلِّ وطُفْ بمكة زائراً سبعين لا سبعاً فلستَ بناسكِ
جَهِلَ الديانة مَنْ إذا عَرضتْ له أطماعه لم يُلْفَ بالمتماسكِ

قتل الأفراد ، وقتل الأمم ، للمرحوم أديب بك إسحاق :

قَتْلُ امرىءٍ في غابةٍ جريمة لا تُغْتَفَرْ
وقَتْل شَعب آمنٍ مسألةٌ فيها نظرْ
والحقُّ للقوّةِ لا يُعطاها إلا مَن ظَفِرْ
ذي حالة الدنيا فكن من شرّها على حَذَرْ

الوطن ، لابن الرومي :

وطنٌ بهصَحِبْتُ الشبيبة والصِّبا ولبستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثل في الضمير رأيتُه وعليه أغصان الشباب تميد

البنات ، لِمَعْن بن أوْس :

رأيتُ رجالاً يكرهونَ بناتهم وفيهنّ لا نغلو نساءٌ صوالحُ
وفيهنّ والأيامُ يعثرنَ بالفتى عوائد لا يَمْلَلْنَها ونوائحُ

الكرم ، للبستي :

فسامح ، ولا تستَوْفِ حقك كله وأبقِ فلم يستقصِ قط كريمُ
ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصِد كِلا طرَفيْ قصدِ الأمور ذميمُ

الشهيد حيّ ، والميت هو خائن الوطن ، للأمير الجليل شكيب أرسلان :

بالله لا تَندبوا قَتلي ، ولا تهنوا
بعدي ، ولا تغرقوا في النَّوْح والحزنِ
إنّ الشهيدَ لَحَيٌّ عند خالقه وإنما الميتُ حقاً خائنُ الوَطنِ

الدواة ، للمرحوم إسماعيل صبري باشا :

يادَواةُ اجعلي مِدادَك وِرداً لوفود الأقلام حيناً فحينا

وليكن كالزمان حالاً وحالا تارةً آسِناً وأخرى مَعينـا
أكرمي العلم وامنحي خادميه ماءكِ الغاليَ النفيسَ الثمينا
وابذُلي الصافيَ المطهَّرَ منه لِهُداة السرائر المرشدينـا
وإذا الظلمُ والظلام استعانا يوم نحسٍ بأجهل الجاهلينـا
واستَمَدَّ من الشرور مِداداً فاجعليه من قِسْمةِ الظالمينا
واقذفي النقطة التي بات فيها غضبُ القاهر المُذِلّ كمينـا
لِيَراعِ امرىءٍ إذا خطّ سطراً نبذَ الحق وارتضى المَيْنَ دينا
وإذا كان فيكِ نقطةُ سوءٍ كُوِّنتْ من خباثةٍ تكوينا
فاجعليها قِسطَ الذين استباحوا في السياسات حُرمةَ الأضعفينا
وإذا خِفتِ أن يكون من الصخـــر جلاميدُ تُرجمُ السامعينـا
فابخلي بالمِداد بُخلاً وإن أُعطيتِ فيه المثينَ ثم المئينا
فإذا أعْوز المدادُ طبيبـاً يصف الداءَ دائباً مستعينـا
فامنحيه المرادَ منا وعرفـاً واستطيبي معونة المحسنينـا
واذا مهجة الحمائم أسدتْ نقطة سِرَّها الذكي المصونا
فاجعليها على المودّات وقفـاً وهَبيها رسائـلَ الشيّقينا
فإذا لم تكن بقلبـكِ الا ما أعدّ الاخلاص للمخلصينا
فاجعليه حَظِّي لِأكتبَ منه شرحَ حالي (لسيد المرسلينا)

القمار ، للشيخ نجيب الحداد المتوفى سنة ١٨٩٩ م من قصيده طويلة :

لكلٍّ نقيصةٍ في النار عار وشَرُّ مصائب المرء القمارُ
هو الداء الذي لا بُرءَ منه وليس لذنب صاحبه اغتفار
تشادُ له المنازل شاهقات وفي تشييد ساحتِها الدمار
تصيب النازلين بها سُهادٌ وافلاسٌ فيأسٌ فانتحـار

الوطنية للشاعر المرحوم مصطفى أفندي صادق الرافعي المتوفى سنة ١٩٣٧م:

بلادي هواها في لساني وفي دمي ... يمجدها قلبي ويدعو لها فمي
ولا خيرَ فيمن لا يُحب بلادَه ... ولا في حليف الحبّ إن لم يُتيم

الرجوع الى الحق خير من التمادي في الباطل : للمرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي المتوفى سنة ١٣٤٣ هـ :

اذا ما سَفيه نالني منه نائلٌ ... من الذم لم يُحرجْ بموقفه صدري
أعودُ الى نفسي فإن كان صادقاً ... عتبت على نفسي وأصلحت من أمري
والا فما ذنبي الى الناس ان طغى ... هواها فما ترضى بخير ولا شرّ

النفس الابية للشاعر الكبير أحمد أفندي نسيم :

ولم أدّرع بالذلّ شيمة حازم ... عن العز والعلياء لا يتنكبُ
كذا أنا يا نفسي فكوني أبيّة ... ومالكِ الا مذهبُ الفضل مذهب

الجمال : لشاعر النّجف بالعراق الشيخ محمد رضا الشبيبي :

لقد عصفتْ بالمكرُمات زعازعٌ ... وعفّت رسومَ الاكرمينَ رياحُ
اذا أظلمت أخلاقنا وتجهّمتْ ... فهل نافعٌ أن الوجوه ملاح

الادب : للمرحوم محمد أفندي امام المتوفى سنة ١٩١٧ م :

لم يثبت الخير مال ولا نسَب ... انما الخير كل الخير في الادبِ
مَزيةٌ تملأ الدنيا محاسنها ... سُلم لكمال الفضل والحسبِ

الحكام : للمرحوم السيد توفيق البكري المتوفى سنة ١٣٥٣ هـ :

حُكم الألى يحكمون الناس يُضحكني ... وسوءُ فعلهمُ في الناس يُبكيني
ما الذنبُ قد عاث بين الضأن أفتك من ... هذي الولاةِ بهاتيك المساكينِ

نشر العلم : لشاعر العراق الفيلسوف المرحوم جميل الزهاوي المتوفى سنة ١٩٣٦ م :

اذا كان نشر العلم ذَنباً مُعاقباً ... عليه فإني أشهدُ الله مذنب

الثبات على المبدأ . لشاعر الشام أسعد أفندي رستم :

لا بدّ للمرء مما ليس يُرضيه اذا تداخل فيما ليس يَعنيه
فابدأ بتحسين مبدا أنت صاحبه فالمرء يُعرف أصلاً من مباديه

طلب المحال : للشاعر الجليل أحمد أفندي محرم :

صَرفت رجائي عن مطالبَ جمةٍ وليس الذي يَرجو المحالَ بكيّسِ
أقول لنفسي والاسى ليثيرها مكانك ان النفسَ بالنفس تأتسي

وقال محمد بن بشير في الصبر الجميل :

ان الامور اذا انسدتْ مسالكها فالصبر يَفتق منها كل ما ارْتتجا
لا تيأسنّ وان طالت مطالبه اذا استعنت بصبر أن ترى فرجا
أخلقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومُدمنِ القرع للأبواب أن يَلجا
قدّر لرجلك قبل الخطو موضعها فمنْ علا زلقا عن غرّةٍ زلجا
ولا يَغرّنك صفو أنت شاربه فربما كان بالتكدير ممتزجا

وقال الأضبط بن قريع في الادب العام:

لِكلّ ضيق من الأمر سعَهْ والصُّبحُ والمسا لا فلاح معهْ
قد يجمع المالَ غير آكِله ويأكل المالَ غيرُ من جمعَهْ
ويقطع الثوبَ غيرُ لابسه ويلبَس الثوبَ غيرُ من قطعهْ
فاقبل من الدهر ما أتاك به من قرّ عينا بعيْشه نفعهْ
وصِلْ حبال البعيد ان وصَلَ الحبلَ وَأقص القريب ان قطعَهْ
لا تعادِ الفقير عَلكَ أن تركعَ يوماً والدهر قد رفعَهْ

وقال عبيد بن الأبرص الأسدي أحد فحول شعراء الجاهلية في الصبر

صَبر النفس عند كلّ مُلمٍ ان في الصبر حيلةَ المحتال
لا تَضيقنّ بالأمور فقد تكشفُ غماؤها بغير احتيالِ
ربما تكره النفوسُ من الأمر فرْجة كحَل العقال

الباب الثاني عشر في الصبر والتأني

تصبّر ففي اللأواء قد يحمدُ الصبرُ ولولا صُروف الدهر لم يُعرف الحرُ
وإن الذي أبلى هو العون فانتدبْ جميل الرّضا يبقى لك الذكر والأجرُ
وثِق بالذي أعطى ولا تك جازعاً فليس بحزمٍ أن يروّعك الضّرُّ
فلا نعَمٌ تبقى ولا نقمٌ ولا يدوم كلا الحالين عُسر ولا يسر
تقلب هـذا الأمر ليس بدائم لديه مع الأيام حُلو ولا مر

اصبر على مضض الادلاج في السحر وفي الرواح إلى الطاعات في البُكر
إني رأيتُ وفي الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودةُ الأثر
وقلّ من جدّ في أمر يؤمّله واستصحب الصبر إلا فازَ بالظفر

عليك بإظهار التجلد للعدى ولا تظهرن منك الذبول فتحقرا
أما تنظرُ الرّيحان يشممُ ناضراً ويُطرحُ في البيدا إذا ما تغيرا

صبراً على نُوب الزّمان وإن أبى القلبُ الجريحُ
فلكلّ شيءٍ آخر إما جميل أو قبيحُ

الدهر أدّبني والصبر رباني والقوت أقنعني واليأس أغناني
وحنّكتني من الأيام تجْربة حتى نهيتُ الذي قد كان ينهاني

إني رأيت الصبرَ خيرَ مُعوّل في النّائبات لمن أراد معولا
ورأيتُ اسباب القناعة أكّدت بعُرى الغِنى فجعلتها ليَ معقلا
فإذا نبا بيَ منزل جاوزتُه وجعلت من غيره ليَ منزلا
واذا غلا شيءٌ عليّ تركته فيكون أرخص ما يكون اذا غلا

اذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبةٍ فأفرغْ لها صبراً وأوسعْ لها صدرا
فإن تصاريف الزمان عجيبة فيوماً ترى يُسراً ويوماً ترى عُسرا

على قدْر فضل المرء تأتي خطوبه ويُحمدُ منه الصبْر مِمّا يُصيبهُ
فمن قلّ فيما يتّقيه اصطباره لقد قلّ فيما يرتجيه يُصيبهُ

اصبر قليلاً فبَعْدَ العُسر تيسيرُ وكلّ وقتٍ له أمْرٌ وتدْبيرُ
وللمهيمن في حالاتنا نظر وفوق تدبيرنا لله تدْبيرُ

اصبرْ ففي الصّبرِ خيرٌ لو علمت به لكنت باركت شكراً صاحب النعم
واعلم بأنك ان لم تصطبر كرماً صبرْتَ قهراً على ما خطّ بالقلم

كنْ حليماً اذا بُليتَ بغيظٍ وصَبُوراً إذا أتتك مُصيبهْ
فالليالي من الزّمان حبالى مُثْقلاتٌ يلدْن كلّ عجيبهْ

تصبّرْ أيها العبدُ اللبيبُ لعلك بعد صبرك ما تخيب
وكلّ الحادثات وان تناهتْ يكون وراءها فرجٌ قريب

أيا صاحبي ان رمت أن تكسب العُلا وترقى الى العَلياءِ غير مزاحم
عليك بحسن الصّبر في كلّ حالة فما صابر فيما يرُومُ بنادم

بنى الله للأخيار بيتاً سماؤه همومٌ وأحزانٌ وحيطانُه الصبر
وأدخلهم فيه وأغلقَ بابَهُ وقال لهم مِفتاحُ بابكمُ الصبر

اصبرْ قليلاً وكن بالله مُعتصما لا تعجلنّ فإن العَجز بالعَجَل
الصبر مثل اسمه في كل نائبة لكن عواقبه أحلى من العَسَل

اذا جَرحَت مساويهم فؤادي صبرْتُ على الاساءة وانطويتُ
وجئتُ اليهمُ طلق المُحيّا كأني لا سمعتُ ولا رأيتُ

تأنّ ولا تضِق للأمر ذرعاً فكم بالنّجح يظفر مَنْ تأنّى
تأنّ فحَيثما المَرْءُ تأنّى ينلْ نجْحاً ويُدْركُ ما تمنى

تأنّ ولا تعجَل بِلوْمك صاحبا لعَلّ له عذراً وأنتَ تلومُ

الباب الثالث عشر في الصدق

الصدق عز فلا تعدل عن الصدق واحذر من الكذب المذموم في الخلق

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد

عليك بالصدق في كل الأمور ولا تكذب فأقبح ما يزري بك الكذب

الباب الرابع عشر في الكذب

لي حيلة فيمن ينم وليس للكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

نعم نعم انما النمام ذو ضرر لكنما الكاذب الجاني أشد ضرر
أخو النميمة إن يسمع ينم ومن يكذب يقل ما يشاء قولا بغير أثر
لذاك لي حيلة في من ينم وما لي حيلة في كذوب ملء فيه شرر

لي حيلة في من ينم فإنني أطوي حديثي دونه وخطابي
لكنما الكذاب يخلق قوله ما حيلتي في المفتري الكذاب

لا يكذب المرء الا من مهانته أو فعله السوء ، أو من قلة الأدب
لبعض جيفة كلب خير رائحة من كذبة المرء في جد وفي لعب

اياك من كذب الكذوب وافكه فلربما مزج اليقين بشكه
ولربما كذب امرؤ بكلامه وبصمته وبكائه وبضحكه

اذا عرف الانسان بالكذب لم يزل لدى الناس كذاباً ولو كان صادقا
فان قال لم تصغ له جلساؤه ولم يسمعوا منه ولو كان ناطقا

الباب الخامس عشر في التواضع

ان شئت أن تبني بناء شامخاً يلزم لذا البنيان أس راسخ
ان البناء هو الكمال وأسه الصخري فهو الاتضاع الباذخ

تواضع لرب العرش علك ترفعُ فما خاب عبدٌ للمهيمن يخضعُ

تواضعْ تكنْ كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدخان يعلو بنفسه الى طبقات الجو وهو وضيع

اذا شئت أن تزداد قدراً ورفعة فلن وتواضع واترُك الكبر والعجبا

تواضع اذاما نلتَ في الناس رفعة فان رفيع القوْم من يتواضعُ

الباب السادس عشر في الكرم والكرماء

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيثُ مالا

فتى كملت خيراته غير أنه جوادٌ فما يبقي من المال باقيا

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشنِ

أبى الجود في الدنيا سواك لأنه تفرّع من جود وأنت أبو الجودِ

ان الكريم الذي لا مال في يده مثلُ الشجاع الذي في كفه شللُ
والمال مثل الحصى ما دام في يدنا فليس ينفعُ الا حين ينتقلُ

لو أشبهتك بحار الأرض في كرم لأصبح الدرُّ مطروحاً على الطرُق
أو أشبه الغيثُ جوداًمنك منهملا لم ينجُ في الأرض مخلوقٌ من الغرق

من قاسَ جدْواك بالغمام فما أنصف في الحكم بين شكلين
أنت اذا جدْت ضاحكٌ أبداً وهو اذا جاد دامعُ العين

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الأمير وقت سخاء
فنوالُ الأمير بدرةُ مال ونوالُ الغمام قطرَة ماء

الباب السابع عشر في البخل والبخلاء

يفنى البخيل بجمع المال مدّته وللحوادث والايام ما يدعُ
كدودة القز ما تبنيه يهدُمها وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

إن هذا الفتى يصون رغيفاً ما إليه من ناظر من سبيل
في جراب في جوف تابوت موسى والمفاتيح عند ميكائيل

شرابك مختوم وخبزك لا يرى ولحمك بين الفرقدين معلق
نديمك عطشان وضيفك جائع وكلبك نباح وبابك مغلق

نوالك دونه شوك القتاد وخبزك كالثريا في البعاد
ولو أبصرت ضيفاً في منام لحرمت الرقاد على العباد

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يشب إن الحريص على الدنيا لفي تعب

وذي حرص تراه يلم وفراً لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو هاو فريسته ليأكلها سواه

حسبي بعلمي إن نفع ما الذل إلا في الطمع
من راقب الله نزع عن سوء ما كان صنع
ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع

أصبحت أجوع خلق الله كلهم وأفزع الناس من خبز إذا وضعا
خبز البخيل لمكتوب عليه ألا لا بارك الله في ضيف إذا شبعا

إياك والحرص إن الحرص متعبة فإن فعلت فراع القصد في الطلب
قد يرزق المرء لم تتعب رواحله ويحرم المرء ذو الأسفار والتعب

إذا كسر الرغيف بكى عليه بكاء الخنساء إذ فجعت بصخر
ودون رغيفه قلع الثنايا وضرب مثل وقعة يوم بدر

تغير إذ دخلت عليه حتى فطنت فقلت في عرض المقال
علي اليوم نذر من صيام فأشرق وجهه مثل الهلال

رغيف في الحجاب عليه قفل وحراس وأبواب منيعه
رأى في بيته ضيف رغيفا فقال لضيفه هذا وديعه

رأى «الصيف» مكتوباً على باب داره فصحفه «ضَيفاً» فقامَ إلى السيف
فقلنا له «خيراً» فظنّ بأننا نقول له «خُبزاً» فمات من الخوف

وقال أبو محمد إسحاق الموصلي المتوفى سنة ٢٣٥ هـ في ذمّ البُخل :

وآمِرة بالبُخل قلتُ لها اقصري فليس إلى ما تأمُرين سبيلُ
أرى الناس خُلان الجواد ولاأرى بخيلاً له في العالمين خليل
وإني رأيت البخل يُزري بأهله فأكرمتُ نفسي أن يقال بخيلُ
ومن خير حالاتِ الفتى لو علمتِه إذا نال شيئاً أن يكون ينيلُ
عطائي عطاءُ المكثرين تجمُّلا ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقرَ أو أحرمُ الغِنى ورأيُ أمير المؤمنين جميل

***

الباب الثامن عشر في وصف الدنيا

أيا مَن عاش في الدنيا طويلاً وأفنى العُمرَ في قيل وقال
وأتعب نفسه في ما سيفنى وجمع من حرامٍ أو حلالِ
هب الدنيا تُقادُ إليك عفواً أليس مصيرُ ذاك إلى انتقال

إن لله عباداً فطنا طلقوا الدنيا وعافوا الفِتَنا
فكرُوا فيها فلما علِموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سُفنا

عجبتُ للمرء في دُنياه تُطمِعُه في العيش، والأجلُ المحتوم يقطعُه
يُمسي ويُصبح في عشواء يخبطها أعمى البصيرة والآمالُ تخدعُه
يغتر بالدهر مسروراً بصحبته وقد تيقّن أن الدّهر يُصرِعه
ويجمع المال حِرصاً لا يُفارقه وما دَرى أنه للغير يجمعه
تراه يُشفِقُ من تضييع دِرْهمه وليس يُشفق من دين يضيعه

وأسوأ الناس تدبيراً لعاقبة من أنفق العمر في ما ليس ينفعهُ

ألا إنما الدنيا كأحلام نائم وما خيرُ عيش لا يكون بدائم
تأمل إذا نلتَ بالأمر لذةً فأفنيتها هل أنت إلا كحالِمِ؟

ومن يذق الدنيا فإني طعِمتها وسيق إلينا عذبُها وعذابُها
فلم أرَها إلا غروراً وباطلا كما لاح في ظهر الفلاة سرابُها
وما هي إلا جيفةٌ مستحيلة عليها كِلابٌ همهنّ اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سِلماً لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فدع عنك فضلات الأمور فإنها حرام على نفس التقيّ ارتكابها

ومن يحمد الدنيا لشيء يسُرُّه فسوف لعمري عن قليل يلومُها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرةً وإن أقبلَت كانت كثيراً همومُها

هي الدنيا تقولُ بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرُرُكموا مِني ابتسامٌ فقولي مُضحك والفعل مُبكي

يا خاطبَ الدنيا الدّنية إنها شرَكُ الرَّدى وقرارة الأقذار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غداً، تبّاً لها من دار

الباب التاسع عشر في الأسرار

ولستُ بمُبْدٍ للرجال سريرتي ولا أنا عن أسرارهم بسؤول

لا يكتم السّرَّ إلا كل ذي ثِقةٍ والسر عند خيار الناس مكتوم
فالسّر عنديَ في بيت له غلق ضاعت مفاتيحه والبابُ مختومُ

صن السر عن مُستخبر وحاذر فما الرأيُ إلا الحذَرْ
أسيرُك سِرّك إن صنتَه وأنت أسير له إن ظهر

كل علم ليس في القِرطاس ضاع كل سر جاوز الإثنين شاع

إذا لم يكن في الورى صاحب وفيه ثلاثُ خصال حميده
وفاءٌ وسرٌّ، وحفظُ الولا فصُحبته قط ليست مفيده

الباب العشرون في اللسان

لا يُعجبنك من خطيب خطبةٌ حتى يكون مع الكلام أصيلا
إن الكلامَ لفي الفؤادِ وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

يُصاب الفتى من عثرةٍ بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرِّجل
فعثرته في القول تُذهبُ رأسه وعثرته بالرجل تبرا على مهل

احفظ لسانك أيها الإنسانُ لا يَلدغنك إنه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

الصمت زَين والسكوت سلامة فإذا نطقتَ فلا تكن مكثارا
فإذا نَدمت على سكوتك مرّة فلتندَمنّ على الكلام مرارا

إن القليل من الكلام بأهله حسن وإن كثيره ممقوت
ما زَلّ ذو صمت وما من مكثر إلا يَزلّ وما يعاب صَموت
إن كان ينطق ناطق من فضة فالصمت درٌّ زانه الياقوت

احفظ لسانك واستعذ من شره إن اللسان هو العدُو الكاشح
وزن الكلام إذا نطقت بمجلس فإذا استوَى فهناك حلمك راجح

عوّد لسانك قول الخير تَنج به من زلة اللفظ أو من زلة القدم
واحذرْ لسانك من خِل تنادمه إن النديمَ لمشتقٌ من الندَم

الباب الحادي والعشرون في المعاشرة

إذا المرء لا يَراك إلا تكلفاً فدَعْه ولا تُكثرْ عليه التأسفا
ففي الناس أبدال وفي الترك راحة وفي القلب صبر للحبيب ولو جَفا
فما كل مَن تهواهُ يهواك قلبه ولا كل مَن صافيته لك قد صفا

إذا لم يكن صفوُ الوداد طبيعة ‏ فــلا خير في وُدٍّ يجيء تكلفا
ولا خير في خِلٍّ يخونُ خليله ‏ ويَلقاه من بعد المودّة بالجفا
وينكرُ عَيشاً قد تقادَم عهده ‏ ويظهر سراً كان بالأمس قد خفا
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها ‏ صديق صدوق صادق الوعد منصفا

صافِ الكرامَ فخير مَن صافيتَه ‏ مَنْ كان ذا أدبٍ وكان ظريفا
واحذرْ مؤاخاة اللئيم فإنــه ‏ يُبدي القبيح ويُنكر المعروفـا
إن الكريمَ وإن تضعضع حالُه ‏ فالخُلقُ منه لا يزال شريفـا
والناس مثل دراهمٍ قلّبْتَهـا ‏ فأصبت منها فضة وزيوفـا

ولن يصحَبَ الإنسان إلا نظيره ‏ وإن لم يكونا من قبيل ولا بلد
وما الغيُّ إلا أن تصاحب غاوياً ‏ وما الرشد الا أن تصاحب ذا رَشَد

أخو الفِسق لا يغرُرك منه توددٌ ‏ فكل حبـال الفاسقين مَهينُ
وصاحب اذا ما كنت يوماً مصاحباً ‏ أخا ثقة بالغيب منك أميـن

اجعل قرينك مَن رضيت فعالهُ ‏ واحـذر مقارنـة اللئيم الشائن
كم من قرين شائنٍ لقرينـه ‏ ومُهجّنٍ منه لكـل محاسن

وعينك إن أبدت اليك مساوياً ‏ من الناس قل يا عينُ للناس أعينُ
وعاشرْ بمعروف وكن متودّداً ‏ ولا تَلقَ الا بالتي هي أحسنُ

الباب الثاني والعشرون في القناعة

وأكل كُسيرة في جَنب بيتي ‏ أحبُّ اليَّ من أكل الرّغيـف
ولـبْسُ عباءة وتقرّ عيـني ‏ أحب اليّ من لبس الشفـوف

هى القناعة فالزمها تعِش مَلِـكا ‏ لو لم يكن منك الا راحة البدن
وانظر لمن مَلك الدنيا بأجمعها ‏ هل راح منها بغير القطن والكفن

قَنعت بالقوتِ من زَماني وصُنتُ نفسي عن الهوانِ
خوفاً من الناس أن يقولوا فضلُ فلانٍ عَلى فلان
من كنتُ عن ماله غَنياً فلا أبالي اذا جفاني
ومن رآني بعين نقص رأيتُه بالتي رآني
ومن رآني بعين تمٍّ رأيته كاملَ المعاني

اذا المرء عُوفيَ في جسمه وملّكه الله قلباً قنوعا
وألقى المطامعَ عن نفسه فذاك الغنيُّ ولو مات جوعا

النفس تجزعُ أن تكون فقيرةً والفقر خيرٌ من غنى يُطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبَت فجميعُ ما في الأرض لا يكفيها

إن القنوع نفيسُ النفس راشدُها وهو الغنيُّ الذي يحيا بلا نَصَبِ
وذو المطامع مغرورٌ ومفتقر ولو حوى مُلكَ سلطان وعلم نبي

أفادتني القناعة كلّ عز وهل عزٌّ أعزُّ من القناعه

ولقد طلبتُ رضا البرية جاهداً فإذا رضاهُم غايةٌ لا تُدرَكُ
وأرى القناعة للفتى كنزاً له والبِرُّ أفضلُ ما به يتمسكُ

الباب الثالث والعشرون في الحسد

تخلق الناسُ بالأدناس واعتَمدوا من الصفات الدها والمكر والحسدا
كرهتُ منظرَهم من سوء مخبرهم وقد تعاميت حتى لا أرى أحدا

اصبِرْ على كيد الحسو د فإنّ صَبرك قاتلُه
فالنارُ تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله

دَعِ الحسودَ وما يلقاه من كمدٍ يكفيك منهُ لهيبُ النار في كبدِهْ
إن لُمتَ ذا حسد نفّسْت كربته وان سكتّ فقد عذّبته بيَدِهْ

أيا حاسداً لي على نِعْمتي أتدري على مَن أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه لانك لم ترضَ لي ما وهب
فأخزاكَ ربي بأن زادني وسدّ عليك وجوه الطلب

ان شئت قتلَ الحاسدين تعمداً من غير مُدْيات عليك ولا قَوَد
وبغير سم قاتل وصوارم وعقاب ربّ ليس يغفل عن أحد
عظّم تجاه عيونهم مَحسودَهم فتراهم واموتى النفوس مع الجسد

الباب الرابع والعشرون في الحلم

ألا انّ حلم المرءِ أكرمُ نسبة تسامى بها عند الفخار حليمُ
فيا ربّ هبْ لي منك حِلماً فإنني أرى الحلم لم يَنْدَمْ عليه كريم

ولا خيرَ في حِلم اذا لم يكن له بوادرُ تحمي صَفوهُ أن يُكدَّرا
ولا خيرَ في جهلٍ اذا لم يكن له حَليم اذا ما أوردَ الأمر أصدرا

اذا كنتُ محتاجاً الى الحلم إنني الى الجهل في بعض الأحايين أحوج
ولي فرس للحلم بالحلم مُلجَم ولي فرس للجهل بالجهل مسرَج
فمن شاء تقويمي فإني مقوَّم ومَن شاء تعويجي فإني معوّج
وما كنت أرضى الجهل خِدْناً وصاحباً
ولكنني أرضى به حين أُحرَجُ

إذا كنتَ بين الحلم والجهل ناشئاً وخُيِّرتَ أنّى شئت فالحلم أفضلُ
ولكن اذا أنصفتَ مَن ليس مُنصفاً ولم يرض منك الحلم فالجهلُ أمثلُ

وعينُ الرّضا عن كلّ عيب كليلة كما أن عين السُّخط تُبدي المساويا
ولستُ بهيّاب لمن لا يَهابُني ولستُ أرى للمرء ما لا يرى ليا
فإن تَدنُ مني تدنُ منك مودّتي وان تنأ عني تلقَني عنك نائيا
كلانا غَنيٌّ عن أخيه حياتَه ونحنُ اذا متنا أشد تغانيا

الباب الخامس والعشرون: في الحماقة

لكل داء دواء يُستطبُّ به الا الحماقة أعيت من يُداويها

لا تيأسنّ من اللبيب وان جفا واقطع حبالك من حبال الأحمق
فعداوةٌ من عاقلٍ مُتجمّل أولى وأسلم من صداقة أخرق

الباب السادس والعشرون في الوطن

قال ابن الرومي :

ولي وطنٌ آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عَمرتُ به شَرخ الشباب مُنعماً بصُحْبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبّبَ أوطانَ الرجال اليهمُ مآرب قضّاها الشباب هُنالكا
اذا ذكروا أوطانَهم ذكرتهمُ عهود الصّبا فيها فحنوا لِذالكا
وقد ألِفَتْهُ النفس حتى كأنه لها جَسدٌ إن بان غودر هالكا

الباب السابع والعشرون : في المال

إن الدراهم كالمرا هِم تجبُرُ العَظم الكسيرا
لو نالهُنّ ثعَيلبٌ في صُبْحِه أضحى أميرا

إن قَلّ مالي فلا خِلٌ يُصاحبُني وان زاد مالي فكل الناس خلاني
فكم عدوٍّ لأجل المال صاحبني وكم صديقٍ لفقد المال عاداني

لَعمرُك ان المال يجعلُ الفتى سرياً وان الفقر بالمرء قد يُزري
وما رفع النفس الدنية كالغنى ولا وضع النفس النفيسة كالفقر

وإذا رأيت صُعوبة فى مطلب فاحملْ صعوبتهُ على الدينار
وابعثْه فيما تَشتهيه فإنهُ حجر يُليّنُ قَسوةَ الأحجار

الناسُ أتباعُ مَن دامتْ له نِعم والويل للمرء إن زَلّتْ به القدم

المال زَين ، ومن قلَّت دراهمه حيٌّ كمن مات الا أنه صنمُ
لما رأيت أخلائي وخالصتي والكل مستترٌ عني ومحتشم
أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلت لهم: أذنبت ذنباً ؟ قالوا ذنبك العدم

فصاحة حسَّان وخط ابن مقلة وحكمة لقمان وزهد ابن أدهم
إذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ونودي عليه لا يباع بدرهم

اذا كنت في حاجةٍ مرسِلاً وأنتَ بها كلِفٌ مغرَمُ
فأرسِلْ حكيما ولا توصِه وذاك الحكيم هو الدرهم

أظهَروا للناس زُهداً وعلى الدينار داروا
وله صاموا وصلوا وله حجُّوا وزاروا
لو يُرى فوق الثريَّا ولهم ريشٌ لطاروا

المالُ يفرقُ بين الأمّ والولدِ فذاك أدنى نسيب عند كلّ يدِ
عهدي به خادما كالعبد تملكه فما لِعيني تراه سيد البلد ؟

مالٌ يميل إلى الإنسان من صِغَر وكلما شبَّ شبَّ الحب في الكبد
لو يجمع الله ما في الأرض قاطبة عند امرىء لم يَقُلْ حَسبي فلا تزد
كلٌّ يروح من الدنيا الغرور كما أتى بلا عدَد منها ولا عُدَد
لو كان يأخذ شيئاً قبلَنا أحد لم يبق شيء لنا من سالف الأمد

اذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المالُ الذي هو مالكه
ألا انما مالي الذي أنا مُنفِقٌ وليسَ ليَ المال الذي أنا تاركه

من كان يملك درهمين تعلمت شفتاهُ أنواعَ الكلام فقالا
لولا دراهمه التي يزهو بها لوجدته في الناس أسوأ حالا
إن الغنيّ اذا تكلم بالخطا قالوا صدقتَ وما نطقت مُحالا

أما الفقير اذا تكلم صادقاً قالوا كذبت وأبطلوا ما قالا
ان الدراهم في المواطن كلها تكسو الرجالَ مَهابة وجمالا
فهي اللسانُ لمن أراد فصاحة وهي السّلاح لمن أراد قتالا

الباب الثامن والعشرون في السياحة والغربة

وإذا البلاد تَغيرت عن حالها فدع المقامَ وبادرِ التحويلا
ليس المقام عليك فَرضاًواجباً في بلدة تدع العزيز ذليــلا

تنقّل فلذّات الهوى في التّنقلِ وَرِدْ كل صافٍ ولاتقف عندمنهل
ففي الأرض أحبابٌ وفيها مَناهل فلا تبك من ذكرى حبيب ومنزل

تغرّب عن الأوطان في طلب العُلا وسافِرْ ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرُّج همّ ، واكتساب معيشةٍ ، وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجــد
وإن قيلَ في الأسفارِ ذلّ ومحنة وقطع الفيافي واكتساب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته بدارِ هوانٍ بين واشٍ وحاسد

ارْحَل بنفسك من أرض تُضامُ بها ولا تكن لفراق الأهل في حرق
من ذلّ بين أهاليــهِ ببلدتِــه فالاغتراب له مِن أحسَنِ الخُلُق
الكحل نوع من الأحجار مُنطرحا في أرضه كالثرى يُرْأى على الطرق
لما تغرّب نال العز أجمعــه وصار يُحمل بين الجفن والحدق

ما في المقام لذي عَقل وذي أدب من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عمن تصاحبه وانصَبْ فإن لذيذ العيش في النصَب
إني رأيت وقوف الماءِ يُفسِدُهُ إن سالَ طابَ وإن لم يجرِ لم يَطِب
والأسدُ لولا فراق الغاب ما قُنِصَت والسهم لولا فراق القوس لم يُصِب
والشمس لو وَقَفَت في الفلك دائمةً لملّها الناس من عُجْم ومن عَرب
والبدر لولا أفول منه ما نظرت اليه في كل حين عينُ مُرْتقبِ
والتبر كالترب مُلقى في أماكنه والعود في أرضه نوع من الحطب

فإن تغرّب هذا عز مطلبهُ　　وإن أقامَ فلا يعلو على رتبِ

إذا ما ضاقَ صدركَ من بلاد　　ترحل طالباً أرضاً سواها
عجبتُ لمن يقيمُ بأرض ذل　　وأرض الله واسعةٌ فضاها
فذاك من الرجال قليلُ عقل　　بليدٌ ليسَ يعلم ما طحاها
فنفسك فزْ بها إن خفتَ ضيما　　وخلِّ الدار تنعي من بناها
فإنك واجدٌ أرضاً بأرض　　ونفسك لم تجد نفساً سواها
ومن كانت منيتـــه بأرض　　فليس يموت في أرض سواها

وقال الحريري في الحث على السفر من آخر مقامة له :

لا تقعدَنَّ على ضر ومسغبة　　لكي يقالَ عزيز النفس مصطبرُ
وانظر بعينيك هل أرض معطلة　　من النبات كأرض حفها الشجر
وجانبن ما يشيرُ الأغبياء بـه　　فأيُّ فضـــل لعود ماله ثمر
وارحل ركابك عن ربع ظمئت به　　الى الجناب الذي يهمى به المطر
واستنزل الري من درِّ السحاب فإن　　بلت يداكَ بـه فليهنكَ الظفر

بلادُ الله واسعة فضـــاء　　ورزْق الله في الدنيا فسيح
فقلْ للقاعدينَ على هوان　　اذا ضاقت بكم أرض فسيحوا

واذا رأيت الرزق ضاق ببلدة　　وخشيت فيها أن يضيق المكسبُ
فارحلْ فأرض الله واسعة الفضا　　طولاً وعرضاً ، شرقها والمغربُ

اذا ما كنت في قوم غريبـاً　　فعاملهم بفعـــل يستطاب
ولا تحزن اذا فاهوا بفحش　　غريبُ الدار تنبحه الكلاب

وما طلبُ المعيشة بالتمني　　ولكن ألق دلوَك في الدلاء
يجيء بمائها طوراً وطوراً　　يجيء بحمـأة وقليـل مـاء
ولا تقعد على كسل التمني　　تحيلُ على المقدّر والقضاء

فإن مقادر الرحمن تجري   بأرزاق الرجال من السماء
مقـدرة بقبـض أو ببسط   وعجز المرء أسباب البلاء

الباب التاسع والعشرون في الغدر

لا أشتكي زَمني هذا فأظلمـه   وإنما أشتكي من أهـل ذا الزمن
هم الذئاب التي تحتَ الثياب فلا   تكن الى أحد منهـم بمؤتمن

وزهدني في الناس معرفتي بهـم   وطول اختياري صاحباً بعد صاحب
فلم ترني الأيام خـلا تسرني   مباديـه الا ساءني في العواقب

إني بلوت الناس أطلبُ منهـم   أخا ثقة عنـد اعتراض الشدائد
فلم أرَ فيما ساءني غيرَ شامت   ولم أرَ فيما سرني غير حاسدِ

وقال علي بن الجهم وهو مسجون :

قالوا حبست فقلت ليس بضائري   حبسي وأي مهنـد لا يغمـدُ
فالشمس لولا أنهـا محجوبـة   عن ناظريك لما أضاء الفرقـدُ
والبدر يُدركه السِّرار فتنجلي   أيامـه وكأنـه مُتَجـدِّدُ

الباب الثلاثون في الدعاء والختام

أراني الله وجهـك كل يوم   صبحـا للتَّيمُّن والسرور
وأمتعَ مُقلتيَّ بصفحتيـه   لأقرَا الحسن من تلك السطور

بقيتَ مدى الدنيا وملكك راسخ   وطودُك ممدود وبابـك عامرُ
يود سَناك البدرُ والبدر زاهرٌ   ويقفو نداك البحرُ والبحرُ غامرُ
وهنئت أياماً تَوالت سعودهـا   كما تتوالى في العقود « الجواهرُ »

يقول مؤلفه فرغت من تأليفه وترتيبه في ربيع الأول سنة ألف وثلثمائة وخمسة عشر هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية

فهرس الجزء الأول

من كتاب جواهر الأدب

الجزء الثاني



فهرس الجزء الثاني من جواهر الأدب

تم بحمد الله فهرس الجزء الثاني – وبتمامه تم الجزءان
الأول والثاني من جواهر الأدب

